

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190488

UNIVERSAL
LIBRARY

عصر المأمون

قلم

الدكتور

أحمد فرید زفای

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الأول

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الأول من عصر المأمون

صحة	كلمة العباد الأصمهانى	١
(ط)	إهداء الكتاب	٢
(ك)	المقدمة	٣
(م)		

الكتاب الأول - عصر بنى أمية

الفصل الأول - نحول المدينه الاسلاميه :

١	توطئة	١
٤	نظام الحكم فى عهد الصحابة	٤
٥	حكومة عثمان وطر الحمايات العربية اليها	٥

الفصل الثانى - الجهاد بين الخلافة والملك :

١٠	توطئة	١٠
١١	كلمتنا عن عليّ وصى الله به	١١
١٣	حقول الرأى العام	١٣
١٥	معاوية	١٥
١٥	سياسة معاوية	١٥
١٦	مميزات معاوية	١٦
١٨	معاوية والسياسة الميكانيكية	١٨

الفصل الثالث - سياسة معاوية وخلفائه :

٢٠	توطئة	٢٠
٢٢	اصطلاح الأحرار بالمال	٢٢
٢٥	الجمال	٢٥
٢٨	الوحدة الدينية	٢٨
٣٥	التصنيف المدهى	٣٥

٩٢	الفصل الخامس - أبو جعفر المصور
١٠١	الفصل السادس - المهدي
١٠٧	الفصل السابع - المهدي
١١٤	الفصل الثامن - هارون الرشيد :
١٢٢	(١) السياسة الداخلية
١٢٨	(٢) السياسة الخارجية
١٣٠	(٣) التكلم عن البرقة
١٣٥	(٤) الدولة البرمكية والسكة البرمكية
	الفصل التاسع - الحياة العلمية في العصر العباسي :
١٦٠	توطئة
١٦١	حركة انتسل
١٦٤	العلوم القرآنية والفقهية والعقوبة
	الفصل العاشر - الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس
١٦٦	توطئة
١٦٧	الخطابة والخطباء
١٧٢	المصنعة
١٧٤	محاسن الخطباء والمناظرة
١٨٢	الشعر

الكتاب الثالث - عصر المأمون

الفصل الأول - محمد الأمين :

١٨٩	توطئة
١٩١	مولده
١٩٢	نشأته وأحواله

الفصل الثاني - المأمون :

٢١٠	توطئة
٢١٠	مولده
٢١١	نشأته وأحواله

صفحة

الفصل الثالث - التراع بين الأمين والمأمون :

٢١٩	توطئة
٢٢٠	بنة الأمين وحلاته
٢٢٢	مبدأ الراع وكيف تمخول
٢٢٨	الوعد السياسية
٢٣٦	عود الرأى العام واستقرار الوعد السياسية
٢٤٥	إعلات الحرب
٢٤٨	انتصار الحيوش المأموية ومقولات الشراء
٢٥٢	عود عل بد ، جهود الأمين فى سبل الدور
٢٥٤	مظاهر الثورة وحطاؤها
٢٥٥	قتل الامين

الفصل الرابع - الخليفة المأمون :

٢٥٧	توطئة
٢٥٨	السياسة الداخلية
٢٥٨	ملخص الحالة العامة فى المدة الحراسية
٢٦٩	المدة المدادية
٢٧٣	ثورة مصرى شت
٢٧٧	الوط
٢٧٨	ثورة مصر
٢٨١	مالك الغربى
٢٨٦	مداه ونحمل
٢٨٧	اقراصات
٢٨٨	السياسة الخارجية
٢٩٠	عزرة المأمون لروم
٢٩٢	- ككلة ختامية

الفصل الخامس - الوزارة والأعمال الحكومية فى عصر المأمون ، تاريخ الوزارات المأمونية :

٢٩٦	توطئة
٢٩٦	وزاراته المعلى ر سبل وأحبه الحسن
٣٠٤	وزارة أحمد بن أبى خاله

صفحة	
٣٠٨	ورارة أحمد بن يوسف
٣٠٨	ورارة يحيى بن أكرم
٣٠٨	ورارات أخرى
٣٠٩	الحد والقوادى عصر المأمون
٣٠٩	ديوان القضاء والمطالم والحسة
	الفصل السادس — خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية :
٣١١	توطئة
٣١١	حكمة الورداء
٣١٢	الاستصماء
٣١٧	ثروة الخلفاء ورجال الدولة ومذهم
٣٢٠	الحراج فى عهد المأمون
٣٢٣	الحراج فى عهد المتصم
٣٢٧	السايات والحاموسية
٣٢٨	الدعاية (البرواحد)
٣٣٠	صحة مهمة الموزج
	الفصل السابع — شخصية المأمون :
٣٣١	توطئة
٣٣١	كسره ومحافه
٣٣٧	كيف تمك المأمون قلوب سقائه
٣٤٠	قدره لرجال دولته
٣٤٢	قدره للشعاع الادبية
٣٤٥	عدله وإصاحه
٣٤٩	حصوه
٣٥٢	احتماله
٣٥٣	عصره بالأدب
٣٥٩	علم المأمون
٣٦٢	احترامه للدين
٣٦٤	سياسته
٣٦٧	مذهبه الدينى
٣٧٢	كلمة ختامية عن المأمون

صفحة

الفصل الثامن — الحياة العلمية فى عصر المأمون :

٣٧٥	توطئة
٣٧٩	حركة الترجمة والقل
٣٨١	كتب العصر
٣٩٤	آثار المهمة المأمونية
٣٩٥	القول بخلق القرآن

الفصل التاسع — الحياة الأدبية فى عصر المأمون

٣٩٩	توطئة
٤٠٢	المحادثة أولغة التعاطب
٤٠٣	الحطابة
٤٠٥	الكتابة
٤٠٦	محالى الماطرة وأهمل الأدب
٤٠٦	الشعر

الفصل العاشر — نماذج لبعض الشخصيات البارزة فى العصر المأمونى :

٤١٧	توطئة
٤١٧	حرثايل بن عثيشوع
٤٢٠	الحاحط
٤٢٩	أمان بن عبد الحميد اللاحق
٤٣٤	أحمد بن يوسف الكاتب
٤٤٠	يحيى بن أكثم
٤٥٢	إسحاق بن إراهيم

« إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتَبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ »
« فِي غَدِهِ : لَوْ غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ »
« يُسْتَحْسَنُ ؛ وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ »
« أَجْمَلَ . وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ »
« النِّقْصِ عَلَى جَمَلَةِ الْبَشَرِ » .

العماد الأصفهاني

الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا

مولاي

لله على نعمة التوفيق الى الاتصال بك، والانقطاع لخدمتك، والاستغلال بظلك، فانا أحد هؤلاء الكثيرين الذين تعهدهم فضلك، وثقهم نصحك، وهذبهم أدبك . أولئك الذين أنت لهم أبٌ برٌّ، ومتقٍ حكيم، وأستاذ رشيد .

وكنْتُ قد أخذتُ نفسي بأن أقفَ على خدمتك ما أملك من وقتٍ وجهد، ولكن الإنسان طُلعةٌ بطبعه، فاذا اتصل بك فلا حدَّ لرغبته في البحث، وحرصه على الجِدِّ، وطُمُوحه الى الكمال . وكذلك أراد الله أن أقنطع من هذا الوقت الذي وهبته لك خالصاً ما أمكنتني من وضع هذا الكتاب .

فهل تأذن لي يا مولاي أن أرفع اليك "عصر المأمون" على أنه أثر يَهْدِي الى مُنشئه، وحقُّ يَرُدُّ الى أهله، واعترافٌ بالجميل من رجلٍ مهمَّا يفعل ومهما يَقْلُ فلن يوفيك بعض ما يدينُ به ضميره لك من حبٍّ وإجلال .

مدَّ الله في حياة مولاي، وجعل مستقبلها كقاضيا حافلاً بالجِدِّ والتوفيق في خدمة أمته وعصره ومليكها

أحمد فريد رفاعي

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . وبعد فإني أقدم بهذا الأثر الصبيل من "عصر المأمون" الى أمي ، وإلى اللاطقين بالصاد من أبناء لفتي . وأمل بفضل إرشاد العلماء والقاد أن يوفقني الله الى إكمال القص ، وإصلاح الخطأ ، وتلاي القصير في الطلعات القادمة . معترفاً ، في صدق وإخلاص ، بأن طبعتي هذه لا تعدو أن تكون "محاولة" لكتابة التاريخ العربي على العلم العلمي الحديثة . وأنت تعلم أن تاريخاً العربي لا يزال ، بلا مباله ولا إغراق ، تُعوّذه شتى المصادر كما يُعوّذه التظيم والتريب والتحقيق والاستقراء . وإني أسأله تعالى أن يحطني مما يُدخّل لكلمة الحق . فيرتقى حرمتها ، ويهتدى بهديها ، غير مفتون بمدح المادح ، ولا مُستئس قدح القادح . كما أسأله أن يُرشدني الى المهيّ موقفاً مسلداً فيما أحدث به نفسي من البحث عن عصور "معاوية" و "المصور" و "الرشيد" و "عبد الرحمن الأندلسي" . وأمل بمعاونته تعالى ، وإرشاد العلماء والأدباء ، ومُؤونة المستشرقين والباحثين ، وبما يهتلى الله من صبر وحلد ، ومُواطيه ومُتآبره ، ومُتأمية للدرس والاستقراء ، وبما أوفق اليه من مصادر ومصوح ، ومراجع ومُظال ، أن أكون — عند الانتهاء من كتابة ما ارتهت به ، لو كان في العمر قية — قد وقفت الى تنظيم دراسته تلك الحوث تطلياً جرياً ، يعمق ووسائل ومقدوري ، ويتمثي — الى حد ما — والطريقة التحليلية الحديثه في كتابة التاريخ ، وأن يكون عملي حين ذاك مما يسمح لي أن أقول ، في ثقهِ وإيمان ، إني قد قمت

حقاً "بمحاولة" ذات أثر مافع تتمكّن صيرى من اعادها أساساً لكتابة تاريخ المديّنات العربية الواسعة المدى ، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامه ، كتابة تاريخية صحيحة .

٢ - وقد وقع "عصر المأمون" في مجلدات ثلاثة ، خصصت أولها بالتاريخ وما الى التاريخ ، وثانيها وثالثها بالأدب وما الى الأدب . واعتمدت في تلخيص للشعراء فيهما على أهمّات المظان الأدبية لا سيما كتاب الأعاني ، وأعترف - في صدي وإخلاص - أنّ مهمتي في المجلدين الأخيرين لم تنجح عن مهمته المتعديلاً في تلك العصور الراهية من غرر ودور ، المتقّب عما فيها من طُرف وملح ، الملخص لحياه أدبائها وشعرائها ، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها . وقسمت المجلد الأول الى كتب ثلاثة . عالجْتُ فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون . وقد توجّيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عصرَي الأمويين والعباسيين لأهما بمتابة نُكّاة وأساس لموضوعها ، كما لاحظتُ الاستمساك بالحيدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرّحين والرّواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية ومعتقداتهم المنهجية والذين سكّبت بهم عن صحّة الصواب معالائهم في الانتصار لفكرهم الحزبية . وقسمتُ المجلدين الثاني والثالث الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة ، نشرت فيها ما وسّعه المقام من المشور والمسطوم والصوص الطويلة والمقالات المستفيضة . وُهِيت عاية حاصه الى جانب ذلك بذكر جملة صالحه من آثار كانت حاص وشاعر حاص على أنهما نموذجان لتمثيل عصرهما . واتخذتُ من عدالجيد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجاً أمويّاً ، ومن أبي الريح محمد بن اللّيث وبشار بن بُرد مثالا عباسيّاً ، ومن عمرو ابن مسعده وأبي نواس نموذجاً لتصوير الحياه الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون ، الى غير ذلك من التناضح والآثار مما يستدعيه المقام ، بجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول .

وأعتقد اعتقاداً راسخاً أنّه لن يعترض علىّ معترض لعابقي بالعصر العباسي من وجهتيه التاريخية والأدبية ، فلم يمدّ "عصر المأمون" عن كونه شرطاً يُحقّل به من العصر العباسي ، كما أعتقد أنّه مما لا مندوحة لنا عنه لتعهم العصر العباسي أن نصوّر لك العصر الذي قبله

بما يسهه المقام . وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواصلة نأمل أن تكون فيها النُبية والكفاية لما نروم تصويره .

ولقد عدلت عما كتبتُ دهبْتُ إليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة ، رغبة في ألا أشلَ نظر القارئ بما لا يُتحدى عليه ، وحرصاً على توحيد مجهودى في استيعاب الموضوع وتمهُّم شئى مآجيه ، مُلِحِّقاً في الوقت نفسه نهاية المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسعاً فتراجع ثَمَّةَ .

٣ — وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي اُردانت برعاية مولانا المليك "فؤاد الأول" حفظه الله . كما اُردانت باصعة حدم أقطابنا وزعمائنا ، دوى الصُحف البيضاء ، والآثار الخاليدات الباقيات ، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأحلاء ، فقيدنا المرحوم المبرور "سعد زغلول باشا" والقُطبان الخطيران "على يكن باشا" و"عبد الحالق ثروت باشا" . فهؤلاء الثلاثة ، قد وهب الله لهم أصالة الرأي ، ونالة القصد ، وثروة الذهن ، وعنى العقل ، وحباهم سداداً في سياسة ، وتواصعاً مع رياسة ، وحكمة في بكاسة ، ونبوغاً مع ثقافة ، وحرماً في حصافة . وأتمتعهم بثقوب النظر ، ورجاحة الفكر ، وأفاض على أخصاصهم ليلاً ودمانة ، وسماحة ووداعة ، حتى أجمع القوم على جبههم إجماعهم على الاعتراف بوافر فصلهم ، والإشادة بعبط دكرهم ، وتساقوا الى الاستفادة من سديد مواقفهم ، وحكيم صمهم ، ونزويه أعمالهم ، استفادتهم من أفأويقي عرفانهم ، وفيفض بيانهم ، ومُقْبِع برهانهم . وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهه السياسية ، نجاحهم في تكوينها من الوجهه القومية . فاللهم رحمةً واسعه لرعيما الراحل الكريم ، وعوضاً اللهم من خسارتنا العادحة في فقدِه ، أحوح ما كا الى عظيم جُهوده ، وهَب اللهم حياة طويلة لقطيبنا محطَّ الآمال ومُعْقِد الرجا .

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهداً جديداً من حياتها العلمية ، بزَامة وزير معارمنا . اللهم ، مُرْهَف العَزمات ، مسدّد الوُثات ، صاحب المعالي "على الشمسى باشا" ومدير

جامعنا المصرية العالم الحليل الأستاذ "أحمد لطفي السيد بك" وغيرها من رجالات العلم والأدب في هذا الجليل .

٤ - وإنى أتهنئ هذه المرحله لأشيد بما للرحوم الأستاذ محمد الحصري بك من فضل عظيم . ومعترفا بما لصديق الدكتور طه حسين الأستاذ بالجامعة المصرية من مَعُونَةٍ قِيَمَهُ في غير موضع من الكتاب ، كما أتهنئها لأشكر لسادتي العلماء والأدباء ، ورجال الصحافة والمجلات حسن استقبالهم لكتابي . كما أحمد لحصرت القاد الأحناء جميل تشجيعهم وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ورفق . معترفاً بصداق رغبته في الأخذ بناصر العلم والعلماء قادراً أعظم قدير روحهم العالية فيما ديجوه فأجادوه ، وكتبوه فارتفعوا بعلم القدر عدداً عما وُصِمَ به أخيراً من التَّطَاخُنِ والرَّمَاءِ ، والحِلَّادِ والشَّحَاءِ ، والعمل على الهدم لا على البناء ، كما أشكر لسادتي الأستاذين الجليلين محمد عبدالوهاب المحار وعبدالحالق محمر والكتبتين الأديبتين محمد الهياوى ومحمد صادق عسر ، حُسْنِ صنيعهن في تهذيب "عصر المأمون" معترفاً بعظيم جهد ثانيهما اللعوى أحسن الله جرائعه .

وإنى أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية وعلى رأسهم حصرت الأساتذة محمد أسعد برادة بك مدير الدار ذى انطق الوديع والهمة الشَّاهِد . وأحمد زكى العدوى امضى رئيس القسم الأدبي بالدار ومصاحب الموامش الحسان . وعبد الرحيم محمود امضى ومحمد عبد الحواد الأصمى امضى المصححين به وصاحبى الأثر الطيب الجليل . ورجال هذا القسم كافة فظهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم العاقل ، في ضبط الكتاب وتصحيح مسوقاته . كما أشكر حصرة الفاضل محمد نديم افندى ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان . ويلوح لى أن الله تعالى أحسن جراه المأمون على حَديثه وكبير عايتيه بذور الحكمة (دور الكتب) العديدة في عصره، بأن وفق دار الحكمة في مصر، في هذا العصر، الى رعاية عصره ، بهمة وإخلاص ، وتحقيق وتحقيق ما

أحمد فريد رفاعى

الكتاب الأول

عصر بني أمية

الفصل الأول

تحول المدينة الإسلامية

توطئة — طام الحكم على عهد الصحابة — حكومة عمان وطر الجماعات العربية إليها .

(١) توطئة :

حمل الفتح الإسلامي الذي فتحه الخلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العاصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائج وآثاره ، فعد أن كانت الأموال في أيام النبي صلى الله عليه وسلم نحو أربعين ألفاً وحبيل ، وبعد أن كان عمر بن الخطاب ديهشاً مرتاباً حينما أُلهمه أم هانئ عذقه من العحرير أنه أتى بمحملة ألف درهم فاستكثرها عمر وقال : أتدري ما تقول ؟ قال : نعم ، مائة ألف خمس مرات . فصعد عمر المبر وقال : «أما الناس ، قد جاء مال كثير ، وإن شئت لكم كلاً ، وإن شئت عندنا لكم عدا» — بعد أن كان ديهشاً من هذه الثروة أصبحوا نرى ، بعد عهده قليل ، حسامة الهبات مما لا تعد هذه الأموال في جانبه شيئاً مذكوراً .

ونحن لا نعترض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون ، ولا نعترض لفنون المدن العديدة التي سادت في عهده ، لأننا رسماً لأنفسنا خطة من لا يريد

استباق الحوادث وآثارها، ولا التاريخ ونتائجه. وإما تحريم الآن بكلاما عن عصر قريب من عصر النبي صلى الله عليه وسلم، القريب المهدي بتأثر الأذهان بالمثل العليا : من أبي بكر الذي مات ولم يحدوا عنه من مال الدولة إلا ديناراً واحداً سقط من عيرارة، والذي أوصى حينما دنا أجله بأن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا مما أخذه من مال المسلمين، ومن عمر بن الخطاب الذي حرّم على المسلمين اقتناء الصباغ والرواح، لأن أرواقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عيد وموالياً، كلّ ذلك يدفعه لهم من بيت المال، فما هم إلى اقتناء المال من حاجة، وليس للال في نفوسهم من إعراء ولا إلى صمائهم من إفساد .

هذه حال المسلمين المادية والمعوية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، نظر بيننا وبين ما حدث بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف بما كان له أعمق الأثر في تميّز أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والفكرية . يحدثنا أن حلدون عن عامل أموي، ليس بملك ولا خليفة، يحدثنا عن خالد القسري أمير العراق في أيام هشام يقول : إن قلته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم . ويثبت لنا ابن الأثير دليلاً ليس بأقل مما ذهب إليه ابن حلدون قيمة وخطراً، إذ يقول ما نصه : « إن طارقاً حليفة خالد على الكوفة لما حثى ولده أهدى إليه خالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب » . وذكر اليعقوبي : أن حالدا فرق أموالاً عظيماً مبلغها ستة وثلاثون ألف ألف درهم .

أجل ! لقد تحولت الاعتبارات الاجتماعية وفقاً للتغيرات المادية، فبعد أيام الورع وفضيلة سلطان الدين والعدل في أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نعلم النشء الكثير من وجهة نظر محمد الدين الاسلامي فيها إلى المال — وهو عصر حيوي — شديد الأثر في تحول العلم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضاً — وإلى ضرر اختراجه، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال شيئا يكون علة لحادث إذا حدث ! فزجره عمر وقال له : « تلك كلمة ألقاها الشيطان على فبك وقاي الله شرها ! وهي فتنة لمن بعدى . إني لا أمدُّ للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهي

عُدَّتْهُنَّ الَّتِي بَلَّغْنَهَا مَا بَلَّغْنَا - بعد هذه الفطرات التشقية البريئة، فطرات الورع والزهد، سرعان ما حملت الفروح معها ومع تلك الثروات الطائلة التي أتت بها ما غير عاصِرِ عَدَّةٍ ، فاختَرَنَ المسأل، وكانت العنة كما تنأَتْ بطراتِ عمر الصائنة إلى المال واحترانه، وزهبت في آثارها إلى ما هو أعمق وأخطر، ذهبت إلى اليكبان الحلق - للعرب، فبدلت من سيرة قاداتهم وسيرة شعبيهم : كانت سيرة قاداتهم عدلاً وإصفاً، وسيرة شعبيهم أمانةً وانتصافاً، فتبدل الحال غير الحال، حتى أتيح لمصعب بن الزبير مثلاً، وهو من بيت بُنَاوِيٍّ سِي أُمِيَّةٍ وبافهم في الملك، أن يَدُلَّ ألف ألف درهم في زواجه من سَكْبِيَّة بنت الحسين، ومثلها في زواج عائشة بنت طلحة، في حين كان حدُّ المسلمين يتصوَّرون مسبَّةً وحوماً. حتى كتب عبد الله ابن مُصَنَّبٍ إلى عبد الله بن الزبير للمناسبة ما يعاينيه الحدُّ وترَفِ شقيقه زعيم الجند :

بَلِّغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رِسَالَةً * مِنْ صَاحِبِكَ لَا يَرِيدُ حِدَاظًا
تُضَعُّ الْعَتَاةُ أَلْفَ أَلْفٍ كَامِلٍ * وَتَبِيْتُ سَادَاتُ الْجُودِ حِيَاظًا
لَوْلَا بِي حَفِيفُ أَقُولُ مَقَالِي * وَأَبَتْ مَا سَابَقْتُكُمْ لِأَرْتَاظَا

صلى الشاعرُ في قوله، إن تلك الحال ليرتاع منها عمرُ حقاً، وليُترَقَّ من ذكرها أو بكر، ويلتاع من سماعها على . ولكن الحال تعيرت إلى مدى بعيد، حتى أصبح المسأل عَرَضاً تشرَّبُ لحيازته الأعاقى، وتزع نحو تملكه النفوس، إلى أن رأينا فيما بعد أن الحاج بن يوسف لما حاصر الكعبة، وفيها ابن الزبير، وتردَّ جدُّه في صربها بالمجيق جاء بكرمى وحلس عليه وقال : « يا أهل الشام، قاتلوا على أعطيات عبد الملك »، ففعلوا .

ذلك هو أثر المال في الأخلاق والأحوال والنفوس طبقاً للتغيرات الاجتماعية .

(١) هذه الآيات من عروس الكامل ومعاطيه :

معاطى معاطى معاطى

مرتب

وقوله : "لَوْلَا بِي" رُحِيفٌ يُقَالُ لَهُ . الحِرْل، وهو سكون الهمزة وسقوط الألف من معاطى كما هو ظاهر في "لَوْلَا بِي" معنى متعلل وهذا البناء غير مقول يصرف إلى ما مقول وهو متعلل ؛ والحِرْل في الكامل فيج .

ولساحول فيما سمي هذه من العصور الآتية بيان حال الدولة العربية أيام عثمان، وكيف وصل الأمر إلى معاوية، وكيف خرج الملك من بني أمية حتى وصل إلى بني العباس . ولساحول مد هذه التقديم دراسة الحياة الأدبية إلى جانب دراستنا السياسية الاجتماعية ؛ فإن ذلك ينمعا كثيرا فيما نرومه من التكلم بتسليط في القول وتصوير صحيح لعصر المأمون الذهبي ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيه ، ملاحظين في ذلك كله جانب القصص والإيجاز ، مآزير سراعاً على حلّ الحوادث الجبار في ذاتها ، والتي لا تعيبنا كثيرا في موضوعنا ، مثل عصر معاوية ، مما نرحو أن نوفق في المستقبل القريب فمكتبته وعما فيه من أسرار وثورات .

(ب) نظام الحكم في عهد الصحابة :

الاس من حيث مؤلهم ومعتقداتهم ، دينية كانت أو سياسية ، لا يكادون يقدون طبقة من ثلاث : محافظين ، ومعتدلين ، ومُتطرفين . وللسا أحدث بسبيل من التوضيح لأحكام هذه الجماعات أو الأحزاب في حياة عثمان ، ولا تطر كل فئة منهم إلى سياسة حكومته ، وإنما يكفي أن نقول : إن هذه الفئات التي تكون دائما قوة الرأي العام الذي كان له في حكومات الصحابة صوت يؤبه له وإرادته تُحترم ، مع مراعاة طبيعة النفس العربية البدوية الشديدة الإيمان والأهة — هذه الفئات لم يكن شأنها ولا كهولها ، رهاؤها ولا الفقيرين فيها ، براصين عن حكومة عثمان .

كان نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات نظاما ديمقراطيا — إذا صح لنا هذا التعبير ، وهو صحيح لا محالة — ذلك لأنهم لما بينهم وتقواهم وكامل إسلامهم ، جعلوا الله تعالى مصدر السلطات الدينية والدنيوية ، فكل شيء لله : المال مال الله ، والحد جند الله . ومن هذه الحاجة توافرت الشورى وتوافرت الكرامة الدينية . وربما كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه الحاجة أيضا بمنح حكومة عثمان ، التي لا نشك أن حزبا أيام عثمان لم يكن بدى خطر ، اللهم في ماضيه من حيث الزعامة والسيادة

وما إلى ذلك في العصر الجاهلي . ولكنه فاز أخيراً ، ولقيت الجماعة العثمانية ومنهم الأمويون دورهم المعروف ذا الأثر الكبير في العقيدة العربية والمدنية الإسلامية .

(ج) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها :

وبعد ، ماذا قمّ الشباب والشيوخ من حكومة عثمان ؟

أما نحن فلا يُطلبُ ما أن نُعيد رأياً في عثمان ، فهو صحابي جليل ، وله أثره الخالد في جمع القرآن وغير القرآن ، وله دينه السمح الذي لا تشوبه شائبة . وما كان الدين ليُحتم على الناس جميعاً أن يكونَ نظرم إلى الحياة الدنيا طرّاً للتشفي والهد . ولا يُطلبُ ما أن تُثبت صَعْفٌ للحكومة العثمانية ، وإعما يُطلبُ ما أن تُسرّد الحوادث بإيجاز ، ولما في تسلسل هذه الحوادث ودراستها وتقييم آثارها ما قد يسمح لنا بالتعرض له حين معالجتنا الكلام على عصرها فيما بعد .

سعود متسائل : ماذا قمّ الشباب والشيوخ من حكومة عثمان ؟

يقول اليعقوبي : « إن عثمان أثر القرباء ، وحى الحمى ، وبى الدار ، واتحد الضياع والأموال بمال الله والمسلمين ، ونفى أبا ذر صاحب رسول الله وعبد الرحمن بن حبل ، وآوى الحكم بن أبى العاص وعبد الله بن سعد بن أبى سرح طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأهدر دم الأهرمراء ولم يقتل عبيد الله بن عمر به . وولى الوليد بن عتبة الكوفة ، فأحدث في الصلاة ما أحدث ولم يبعه ذلك من إعادته إياه . »

ويذكر اليعقوبي في مكان آخر ما كان من إغصاب عثمان لعائشة أم المؤمنين ، ومكانة عائشة مكانتها ، وأنه قصص ما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وأنها تربعت بثمان حتى رآته يحطب الناس فدلّت قيصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونادت : « يا معشر المسلمين ، هذا جلباب رسول الله لم يتل وقد ألى عثمان سته » . وليس أدل على شدة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقوم بالصلح بينه وبين الخارجين عليه حين اشتد عليه الأمر وصار إليها

مروان فقال لها : يا أُم المؤمنين ، لو قُتِ فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس ! قالت : قد مرغت من جهازى وأنا أريد الخ ، قال : يدفع اليك بكل درهم أعتقه درهمين ، قالت : « لعلك ترى أنى في شك من صاحبك ! أما والله لو ددت أنه مُقطع في عِرَارِهِ من عِرَارِي ، وأنى أطيع حمله فأطرحه في البحر » .

قلنا : إن نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظاماً ثيوقراطياً في إرجاعه كل شيء إلى الله تعالى ، وأن المال مال الله ، والحمد لله ، وأن الحكم لله لا للناس . ويقول لنا التاريخ : إنه كان بين عثمان وحازن بيت المال في عهده مُشادةٌ ومُساورةٌ ، وأن حُلَّ القَادرِ اتحدوا من هذه المُشادةِ مَطعماً في سياسته المالية ، وثُلَّةٌ يتهجمون منها عليه . وكانت حدة المُشادةِ بينه وبين حازن بيت المال في أمر غطاءه ، حتى قال له عثمان : « إنما أنت حازنٌ لما إذا أعطيتك نغذ ، وإذا سكتنا عك فاسكت » . فقال : « كذبت والله ! ما أنا لك بمجازٍ ولا لأهل بيتك إنما أنا حازنُ المسلمين » . وحاء بالفتح يوم الجمعة وعثمان يحطّ فقال : « أيا الناس ، زعم عثمان أنى حازنٌ له ولأهل بيته ، وإنما كسَّ حاربا للمسلمين ، وهذه مغانجُ بيت مالكم » ورمى بها . فأحدها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت .

وليس من شك في أن شباب العرب عامةً وقريش خاصةً لهم آلامٌ ولهم مطاعمهم وهم في مُقتل عمرهم حين يكون الطموح إلى اعتلاء المراتب الرفيعة مُصطليماً بالوارع الديني ، وأنهم تألموا أن يبال عدو الله بنُ خالد بن أسيد حمير ألف درهم ، ومروان بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع أن عثمان استرقها منهما لما عُوت وتوقش ، وتألموا أن ينهب آل عثمان بمناصب الدولة وهم يرون في أنفسهم من الكفايات والمواهب ، ومن الحسب والنسب ما لا يقل عما هؤلاء .



وما لنا نذهب بعيداً في الاستدلال على نظريتنا هذه والصُّ الإنسانِيَّة هي هي الطُّموح إلى زينة العاجلة وزُخْرِها . وقد حاء في الأغاني في معرض كلامه عن أبي قُطَيْبة الشاعر :

«أن ابن الزبير مضى الى صيفية بنت أبي عبيد زوجة عبد الله بن عمر، فذكر لها أن خروجها كان غضبا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وآبئه وأهله بالنهى وسأله مسائله أن يُبایعه . فلما قدمت لزوجها عشاءه ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده وأمنت عليه وقالت : ما يدعو إلا الى طاعة الله جل وعزّ، وأكثر القول في ذلك، فقال لها : أما رأيت بقلات معاوية اللواتي كان يحجّ عليهنّ الشهب ! فإن ابن الزبير ما يريد غيرهنّ» .

هذا رأى كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالف فموس الشباب من طُموح الى السلطان ولذاته . مع أن ابن الزبير كان حارجا على أهل بيت يرى حُلّ الناس في ذلك العصر أنهم اعتصموا الملك من أهله اغتصابا . ويظهر أن معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجسّب مابجّة على الحرب والعناء حين ذكره على بكلام للرسول صلى الله عليه وسلم، لولا مقالة ولده له : « كلا ! ولكك رأيت سيوف بجى هاشم حديدًا تحملها شدائد »، فثارت ثائرتة وقال : « وبلك ! ومثل يعبّر لجُبن ! هلم الى الرمح ! » وأحد الرمح وحمل على أصحاب على .

فمقول أن يعصت هؤلاء الشاب وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون الصائم والثروات تكنسح بلادهم ، وللال حكمه وسلطانه . ومقول أيضا أن ينصب منها أمثال عمرو بن العاص الذى قال له عثمان، يوم ندبه ليُعيدّره عبد الله ما كان منه إلا أن أصرم جندوة الحقد عليه : « يابّ الباعة، واقه ما ردت أن حرّصت الناس على .. يابّ الباعة، قِل دركك مذ عزّثك عن مصر » .

هذا من ناحية النفعيين ومهم المتطرون . وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد أوا بجانبهم عن الفتنة واعتزلوا الناس من شرّها وآثارها، وهم لها كارهون ومها ناقون . وهناك المحافظون الأتقياء حقا أمثال أبي ذر ورافع بن خديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهداهم ومن حبهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشىء الكثير، والذين

يقول فيهم الجاحظ في رسالته عن بني أمية : « إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض » . ولو جمع قليلا هذا النوع من المتقشعين حقا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقا ، ولتصير مثلا أي دز العماري ولسطر ما يحكيه لنا أن الأثير في هذا السبيل ، فهو معتدل مستقر للحقيقة أكثر من سواء . يقول أن الأثير : إن أما در كان يذهب الى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليسته أو شيء ينفعه في سبيل الله أو بعده لكريم ، وكان واحد طاهر القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّصَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول : " يا معشر الأعياء ، واسوا الفقراء ، نشر الدين يكنزون الذهب والنصبة ولا ينفقونها في سبيل الله يملكو من نار تكوى بها جباههم وجوهم وطهورهم " ما زال حتى ولج الفقراء بمثل ذلك وأوجبه على الأعياء ، وشكا الأعياء ما يلقونه منهم ، فأرسل معاوية إليه بألف دينار في حُج الليل فأعقها ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذي أرسله إليه ، فقال : اذهب الى أي دز قتل له . أبقد جسد من عذاب معاوية فإنه أرسلني الى غيرك وإني أخطأت لك ، فعل ذلك . فقال أبو دز : يا أي ، قل له : والله ما أصح عدما من دنائرك ديار ولكن أحرأ ثلاثة أيام حتى جمعها . فلما رأى معاوية أن عمله يصدق قوله كنت الى عثمان . إن أما دز قد صيق على ، وقد كان كذا وكذا : للذي يقوله الفقراء . فكتب اليه عثمان : " إن العنة قد أحرحت حطبها وعينها ولم يبق إلا أن تنب ، فلا تنكأ القرخ وجهز أبا دز الى وآمنت معه دليلا وكفكف الناس ونفسك ما استعطت " . وبعث اليه معاوية أي دز ، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل صنع قال : بشر أهل المدينة غارة شعواء وحرب مديكار . ودخل على عثمان ، فقال له : ما لأهل الشام يشكون دز^(٢) لسالك ، فأخبره ، فقال : يا أبا دز ، على - أن أقصى ما على - وأن أدعو الرعية الى الاجتهاد

(١) راجع رسالة الجاحظ في أمية في باب المشور من ملحق النخبات الثالث في المجلد الثاني .

(٢) الحطب . الأم . (٣) درب اللسان : حذته .

والاقتصاد، وما على أن أحبرهم على الرهد؛ ثم انتهت المُحَاجَّةُ الى أن نرح أبو دزمن المدينة وتزل الرُبَّةُ^(١).

فهذا النوع من التفشي المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشباب الطامع يبيده الى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتزلة التاركة الحبل على الغارب — كل هذه العوامل تجعلنا نَقَعَ بتجاح الغنة صدَّ حكمه عثمان وانهاؤها بتلك المأساة المروعة التي كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الخاطب : من قتل عثمان رضى الله عنه، وما أسك منه، ومن حبطهم إياه بالسلاح، وتبع طمعه بالحرب، وقرى أوداحه بالمشاقص، وشدح هامته بالعمد، مع صرب نساؤه بحصرته وإحاط الرجال على حرمة، مع انقاء مائلة بيت الفرافصة^(٢) عنه بيدها حتى أطوا^(٣) أصبعين من أصابعها.

كانت تلك المأساة المروعة الى تُفتت القلوب الحلامدة، وتتمحرف لها العيون الجوامد؛ فلقف عدد دكراها وألحي أسعين.

(١) الردة من قرى المدينة على ثلاثة أميال قريبة من ذات عرق وبها قرأى در العاردي.

(٢) المشاقص . جمع مشقص وهو صلل عريض وقيل مهم . (٣) الفرصة صبح الماء لا غير .

وليس في العرب ما يسمى بالفرصة بالألف واللام غيره كما أن أبا على الثعالبي ذكر أن كل ما في البر فراسة تصم الماء لإمراة هذا أما ناطه امرأة عثمان رضى الله عنه . (٤) أطوا قطعوا .

افصل الثباني

الجهاد بين الخلافة والملك

توطئة — كلنا على رضى الله عه — تحول الرأي العام — معاوية — مباحة معاوية — مبررات معاوية — معاوية والسياسة المكابحة .

(١) توطئة :

نحن الآن مُقلدون على فترة جهادٍ عفيفٍ بين الخلافة والملك ، فترة لا يصح أن نعتبر الجهاد فيها جهادا بين عليّ ومعاوية ، أو بين عليّ وغير معاوية من مُنافسيه و الخلافة أو من الخارجين عليه ، وإنما يخلُقُ بها أن نعتبرها بمثابة جهادٍ عفيفٍ بين وجهات الطرء العربية و الحياة ، فإن موت عثمان رضى الله عه لم يمت الفتنة بل أدكاها وزادها صرأما واشتعالا .

وإنه لمن الميسور للناقد أن يتمسّ المصلحة أن الأحرار العربية حين ذاك لم تُجبع على سيدنا عليّ ، ذلك أن الجماعة الرابعة و الوطنائ والأموال لم تحد فيه طليتها وسؤلها ، ولم تعر فيه على أشودتها ورجلها ، بل على القيص قد لقيت مه حاكما صلأ لا تلبس قنائه ، سار فيهم سيرة الحق لا أحده و الله لومه لائم ، وكانت حركاته وسكاته رضى الله عه جميعها لله وى الله لا يعيط بها حق أحد ، وكان لا يأخذ ولا يعطى إلا بالحق والعدل ، حتى إن أحاه عقيلا ، وهو أس أبية وأمه ، طلب من بيت المال شيئا لم يكن له بحق ، فمعه رضى الله عه وقال . يا أحمى ، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك ، ولكن أصبر حتى يحىء مالى واعطيك مه ما تريد فلم يرص عقيلا هذا الجواب وفارقه وقصد معاوية بالشام . وكان لا يعطى ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما . فأطرد الى رجل حمله ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأحيه من أويوه ! فلما سار فيهم هذه السيرة ثقّل على بعض الناس فعله وكرهوا مكانه .

هذه خُطَّةٌ هؤلاء معه . أما خُطَّةُ الشيوخ منهم مَن أثار العُزلةَ وترك حبلَ الأمة على غاربها ، تتطاحنُ أحرابُها بين طُلُوبِ الخلافة ، ومنهم الخوارج الذين عصوا على عليٍّ كما غصبوا على معاوية ، وندبوا من بينهم عبدَ الرحمن بن مُلجِم ليقْتلَ عليا ، والبرك بن عامر يُبْغِضَهُم من معاوية ، وعبدُ الله بن مالك الصيداوى يُرِيحُهُم من حليف معاوية عمرو بن العاص . هؤلاء الخوارجُ كانت كلمتهم : « الحكم لله لا للباس » فقموا من على حضرة للصَّحيف ، وما خضع إلا مُكرها مُمتتا .

(ب) كلمتنا عن عليٍّ رضى الله عنه :

كان عليٌّ إماما دينيا ، كان مَوْثِلا للشريعة ومثالا للورع والاستمسك بأحكام الكتاب ، كان مَصْدَرًا خَصِيصًا من مصادر الفقه والتشريع ، وكان فى حكمته وحروبه على السواء مؤثرا رصا الله ومُعَصِّبا شهوات الباس وقادِما أطماعها ، وكان عونا كاملا لأئمة صفات الخُلُقِ الإسلامى من حيثُ العفة والشجاعة لا الخدق والسياسة ، كان مُصلِحا دينيا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني ، يتفانى فى هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى فيعمل لإرضاء الله لا لإرضاء الباس ، وكان كما وصفه عديُّ بنُ حاتم لمعاوية : « يقول عدلا ويحكم فصلا ، تُنْفَجِرُ الحكمة من جوانبه والعلم من بواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان والله عريرَ الدمعة ، طويلَ العكزة ، يحاسب نفسه إذا حلا ، ويُقَلِّبُ كفيه على ما مضى ، يُعِجِبُه من اللباس القصير ، ومن المعاش الخفيف ، وكان فيما كأحدنا . كان يعلم أهل الدين ويحبُّ إلى المساكين ، لا يخاف القوى ظلمه ولا يأس الضعيف من عدله ، فأقيمَ لِقْدَ رأيتَه ليلةً وقد مثل فى محرابه وأرعى الليل سرالَه وعارت نجومُه ، ودموعُه تُقَادِرُ على لحيته وهو يتململُ يتململُ السليم ويسكى بكاءَ الحزين ، فكأنى الآن اسمعه وهو يقول : يا دنيا ألى تفرصت أم إلى أقبلت ! عرئى غيرى لا حان حيك ، قد طلقك ثلاثا لا رحمة فيها » .

هذا هو عليٌّ حقا ، عليٌّ الذى مالى فى التدقيق فى محاسبة عماله حتى أعصب أكرهم وحتى خسر بصرتهم ، وفى حملتهم مصقلةً بن هيره الشيبانى وابن عمه عبد الله بن عباس

بعد أن كان أكثر نصير له ، والذي أعصت الرير وطلحة وكان في مقدوره أن يصمهما إليه ، والذي لم يكتسب الى حاسه عمرو س العاصر ، ولم يصل نصيحة ابن العاص ولا المغيرة اس شعبة في إقرار معاوية وآس عاصر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس ثم يعزل منهم من يشاء ، وقال « لا أدأهس في ديني ولا أعطي الدنيا في أمري » ، فقيل له : انزع من شئت وأترك معاوية ، فإن في معاوية جرأة وهو في أهل الشام يُستمع منه وله حجة في إثباته مما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاه الشام ، فإني وقال : لا والله لا أستعمل معاوية يومين . فلم تكن الحيل والحدع من مذهبه ، ولم يكن عده غير ممر الحق ، والذي يقول لأصحابه بعد أن انكموا في أعدائه : « لا تنتعوا مؤلأ ، ولا تمجروا على حريح ، ولا تمهوا مالا » فجعلوا يبرون بالذهب والفضة في معسكرهم فلا يمرص له أحد ، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدوات الى حاربوا عليها . فقال بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين ، كيف حل لنا قتالهم ولم نحل لنا منهم وأموالهم ! فقال علي رضي الله عنه : « ليس على الموحدين سئ ولا يُعَم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعلنه ، فدعوا ما لا تعرفون والرؤا ما تؤمرون » .

أحل هذا هو علي حقا ، الذي أبث رأفته وأبى دينه أن يجمع أهل الشام من الماء كما سمعه أشاء مزارلهم حتى كاد يهلك جسده عطشا ، والذي مع شيعته وأبصاره من شم معاوية ، صارنا صمحا عن آثار استعمال ذلك في الدعوة السياسية لتأييد حلايه والخط من ذلك ما فيه ، فإنه لما علمه أن مجرس عدى وعمروس الحقي يطهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل اليهما : أن كفا عما لفتي عكبا ، فأبأ فقالا : « يا أمير المؤمنين ، ألسا على الحق وهم على الباطل ! قال : كرهت لكم أن تكونوا شتامين لثانين ، ولكن قولوا . اللهم آحق دماءا ودماءهم ، وأصلح ذات بيبا وبيهم ، وأهدم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن العى من ليج به » .

هذا هو علي حقا ، الشديد في محاسبة نفسه وعماله . أما محاسبة نفسه فظاهرة حقية واضحة الصوح كله . وأما محاسبته عماله فإن تاريخه مفعم بثبات الأدلة والشواهد مما

أطاد منه معاوية أيمًا فائدة . وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني من على- وإصنامه الى معاوية ، وكذلك يزيد بن حجة التيمي الذي كان قد آستعمله على- على الرى- فكسر من نواحها ثلاثين ألفا ، فكتب اليه على- يستدعيه لحضر ، فسأله عن المال قال . أين ما علته من المال ؟ قال . ما أخذت شيئا ، فحققه بالدره حقائق وحبه . ووكل به سعدا مولاة ، فهرت منه يزيد إلى الشام ، فسوّعه معاوية المال ، فكان يال من على- ، وبقى بالشام الى أن اجتمع الأمر لمعاوية ، فسار معه الى العراق فولاه العراق .

فهذه الشواهد وأمثالها فيها أقطع الدلالات على شدة محاسبته لهما وإعصائه آل بنته تدبنا وورعا ، وعملا للأخرة ، لا لساء ملك في الدار الأولى .

فلتحفظ هذه الصورة جيدا ، ولذكر أنها لم يتح لها المورد والباح في ذلك الجهاد السياسى ، وأن الكفة الراححة في سياستنا الدوية كانت لمارله الذى نعدرسا أن ندرسه ما يحازر وأقتصاب .

(ج) تحول الرأى العام :

صوّر الشاعرُ العفريّ "شكسیر" في روايته "يوليوس قيصر" تأثير الرأى العام سلاعه رعمايه التى يستعملون بها سدا جقموقه ، ويملكونها عقول قومهم الى ما يهكرون ، وسجرون بها عيونهم التى ما يهكرون ، فلا يصعدون إلا عن إرادتهم ، ولا يهكرون إلا بعقولهم . وقد أبدع أيمًا إبداع في موقى "روتس" قاتل قيصر ومعذ الرومان ، و"أطونيوس" مؤسسه وراثيه ، وأظهر الى أى مدى آتتن بهما الجمهور ، وإلى أى مدى تناقص في حبه وبعضه وإكباره وتأثبه .

شكر الرومان "روتس" قاتل قيصر لأهل الرومان وفي سبل الرومان ، فأسلس له قيادهم وطلنوا منه أن يتنوا العرش مكانه ، وحمل على الأعماق معد أن تنوا منهم حنات القلوب ، ثم استموا الى "أطونيوس" يرثى قيصر ، وما استموا له لأن "روتس" طلب منهم أن

يَنْصُتُوا لَأَن قِصْرًا الطَّاعِيَّةَ غَيْرَ قِصْرِ الرَّاحِلِ ، فَأَصْهَتْوَا وَتَكَلَّمُوا « أَنْطُونِيوس » فَخَرَّكَ مِنْ شَوْوَنِهِمْ وَأَسَاسَهُمْ أَهْمَهُمْ ، وَأَسْتَعْلَى فِي مَوْقِعِهِ مَا نَبِثَاقَ قِصْرِ مِنْ دِمَاءٍ وَقُتُوبٍ ، وَمَا بِحِسْمِهِ مِنْ طَلَمَاتٍ وَجُرُوحٍ ، حَتَّى اصْطَرَمَّتِ الْفَتَّةُ ، وَكَانَ نَصِيبُ « رُوتِس » مَا تَعَلَّمَ بَعْدَ حَمَلِهِ عَلَى الْأَعَاوِ !

هكذا فعل معاوية في جهاده وحلاده علياً ، فقد صدع بما أشار به عليه عمرو ابن العاص إذا طلب إليه إظهار قميص الدم الذي قُتل فيه عثمان وأصابع زوجته وأن يُملق ذلك على المبرم ثم يجمع الناس ويكي عليه عازياً قتل عثمان إلى علي مطالباً بدمه مستملاً بذلك أهل الشام وغيرهم من عامة المسلمين . أخرج معاوية القميص والإصباح وعلقه على المبرم ويكي واستبكي الناس ودكهم بمصائب عثمان ، فانتدب أهل الشام من كل جانب وأيدهم الأشراف ودعوا العمود كشرحييل س السميطة وسواه ، وبدلوا له الطلب بدم عثمان والقتال معه على كل من آوى قتلته . ثم حلق لعلي مئصلةً سياسه لا يهون على السياسي حلها ، ذلك بأن بعث برسالة إلى جماعه علي ، وهذه الرسالة تختوى على أسس المبادئ العثمانية وتقول : « أما بعد ، فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة ، أما الجماعة التي دعوتكم إليها فعسا ، وأما الطاعة لصاحبكم فلا زها ، إن صاحبكم قتل طيعتنا وهزق جماعتنا وآوى نازنا وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فحق لا نرد ذلك عليه ، أرايتم قتل صاحبنا ، ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ، فليدفعهم إليها فليقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » . وكيف يستطيع علي أن يدع إلى معاوية قتل عثمان ! وماذا يكون موقعه أمام ذلك الحزب القوي القائم على الحليفه المقتول ! فذلك كان من المعقول أن يقف رده أمام هذه المشكلة السياسية عند قوله : « أما ما سألت من دفعي إليك قتلته فإني لا أرى ذلك ، لعلي فأنت إنما تطلب ذلك دريعة إلى ما تأمله ومراقبة إلى ما تريجوه ، وما الطلب بدمه تريد » .

(د) معاوية :

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية وملح تمثيه في تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع، فقد تكلم في ذلك في الشافعي والحسن البصري، وإنما نريد أن نمثل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام، وواضع أسس السياسة الدنيوية، والذي قال فيه عمر بن الخطاب بلجسته : "تدكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعدكم معاوية !".

(هـ) سياسة معاوية :

كان معاوية ذوا مواهب سياسية كبيرة، وكان داهية، دها، بعيد مدى العقل، مالكا قياد أهوائه، كان "دما مكر وذا رأى وحرم في أمر ديناه، اذا رأى الفرصة لم يبق ولم يتوقف، واذا خاف الأمر توارى عنه، واذا حوصم في مقال ناضل عنه وقطع الكلام على مسطره". كان يعمل جهده ليشتري صفائر القبائل العربية، وكان كثير البدل في المعطاء. وقد ذكر الطبري حادثة نستطيع أن نستبط منها نظر معاوية الى المال والى ملح استعماله إياه ليملك به صفائر أهل المكنانة والعمود من معاصريه : ذكر أن أبا منازل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفا بينما أعطى جماعة من الرعاء من مائة ألف : فصحتني في بي تميم، أما حسبي فصحيح ! أولست ذا سن ! أولست مطاعا في عشيرتي ! فقال معاوية : بلى، قال : فما بالك تحسنت بي دون القوم ! فقال : إني اشتريت من القوم دنهم ووكلتك الى دبك ورأيك في عثمان بن عمان - وكان عثمانيا - فقال : وأنا فاشتري متى ديتي، فأمر له بتمام جائزة القوم .

كان سياسيا بطبيعته، معطاء وهوبا بسجيته، وقد صدق في صفته أبو الجهم الشاعر إذ قال :

نمبل على جوانبه كما * نمبل ولا نمين على أيما
مُؤَلِّه لنغير حاتيه * فنحبر منها كراما وليا

وإذ نستطيع أن نفهم فهما صحيحا : أكانت ثورة معاوية لقتل عثمان ثورةً مصدرها إخلاصه العميق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجري حكم الشرع في قتلة عثمان، أم ثورة مصدرها طموحه إلى الملك ليعتصمه لنفسه ؟ — نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان، فإن التاريخ يحدثنا أن معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان : وا أئاه ! ونكت، فقال معاوية : « يا بنة أخی، إن الناس أعطوا وأعطيأهم أمانا، وأطهروا لهم حِلما تحت دِصْب، وأطهروا لسا طاعة تحتها حِقْد، ومع كل إنسان سِيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكشنا بهم مكثوا سا، ولا ندرى أعليا تكون أم لسا، ولأن تكوني بنت حم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عُرض المسلبين » .

^{*} وقد لا نجد تصورا أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله : « لا أصع سيني حيث يكفيني سوطي، ولا أصع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن يبى وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذلك؟ قال : كنت اذا مذوها حليتها وادا حلوها مددتها ». فهذا القول يبين حلمه وطول بابه في السياسة، وهدوء أعصابه اذا حابهت المشكلات، أو نزلت ساحته الكوارث والمصلاط، ويُظهر سعة عطه وحرمة . واقصد قال له يزيد يوم يبيع له على عهده بجعل الناس بمدحوبه ويقزطونه . « يا أمير المؤمنين، والله ما ندرى أنحدع الناس أم يحدعوننا ! » فقال معاوية : « كل من أردت حديثه فتحدع لك حتى تلغ منه حاجتك فقد حدعته » .

ثم أطر إلى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها، فإذ لا تقتنع بصدق حكم الشعبي الذي قال فيه : « كان معاوية كالجل الطلأ اذا سُكِت عنه تقدّم، واذا رُدَّ تأخر » .

(و) مميزات معاوية :

ولقد آتانا معاوية إلى جانب المسامحة التام ببول كل من له به علاقة من الناس، وصايد تقديره مع ثقب بصيرته بما فهم من وواح للضعف يستطيع التسرّب اليهم منها —

امتاز الى جانب هذا كله بصفات ثلاث لها مكانتها السامية في تكوين النهضة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي : أولا إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قاعة، بأفانين طريفة طامحاً اليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته في إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة، لإغراء الملك بهم .

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقية هي حلمه ، وهالك ميثاق الأمثال أترعت بها كتب الأدبية والتاريخية ، مُشيداً بحلمه مُطِبةً في فصائل سعة صدره . على آنا نحتري هنا بمثل عادي، ذلك أنه لما ألحق زيادا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عدو الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي ، فقال له : يا معاوية لو لم تعد إلا الرنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة ، فاقبل على أخيه مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليج ، فقال مروان : والله إنه خليج ما يطاق ، فقال معاوية . والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنه يطاق ! ألم يبلغني شره في وى زياد ! ثم قال لمروان : أسمعني ، فقال :

ألا أليغ معاوية بن مھر * لقد صاقت بما تأتي البدان
أنقص أن يقال أبوك عف * وترعى أن يقال أبوك راي

الصفة الثالثة هي سموته السياسية ، وهي غير الحلم ، وقد تمسبر إلى حد ما من نوع المفاططات السياسية ، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علي في شأن نزوله عن الخلافة له ، إذ كتب اليه معاوية كتابا قويا جاء فيه : «أما بعد، فأت أولى هذا الأمر وأحق به لقربتك، ولو علمت أنك أصبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لباعتك، فسل ما شئت .» وبعث اليه بصحيفة بيضاء مخنومة في أسفلها : أن أكتب فيها ما شئت . فكتب الحسن أموالا وضياعا وأمانة لشعبة على .

أصف الى هذه الصفات ما كتبت لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دعاة الولاية كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة : ممن عملوا معه على توطيد

الملك له ، والذين ارتسموا ، الى حدٍ عِرْقيل ، خطوات زعيمهم السياسي في شراء الضمائر
وَسَعَةِ الْعَطَنِ وَرُجُوحِ حَصَاةِ الْعَقْلِ . وهذا زياد المعروف بِشَقَةِ الْوِطَاءِ مله عن رجل
يَكْنَى أبا الخَيْر من أهل البَاسِ والْبَحْدَةِ أنه يرى رأى الخوارح ، فدعاه فَوَلَّاهُ جُسَدَيْسَاوَر^(١)
وما يليها ورزقه أَرْبَعَةَ آلَافِ دَرْهَمٍ كُلَّ شَهْرٍ ، وجعل عَمَلَهُ في كُلِّ سَنَةٍ مِائَةَ أَلْفٍ .
فكان أبو الخَيْر يقول : « مَا رَأَيْتُ شَيْئًا حَيْرًا مِنْ لُزُومِ الطَّاعَةِ ، وَالتَّقَلُّبِ بَيْنِ أَظْهَرِ الْجَمَاعَةِ » .
كذلك فعل المَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ حِينَ حَصَصَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ وَهُوَ عَلَى الْمُبَرِّقِ حُطْبَةَ الْجُمُعَةِ ،
فإنه نَزَلَ مُسْرِعًا وَدَخَلَ قَصْرَ الْإِمَارَةِ وَبَعَثَ إِلَى حَجْرٍ بِمِائَةِ أَلْفِ دَرْهَمٍ تَرْضَاهُ بِهَا . فقيل
لِلغَيْرَةِ : لِمَ فَعَلْتَ هَذَا وَفِيهِ عَلَيْكَ وَهْنٌ وَعَصَابَةٌ ؟ قَالَ : « قَدْ قَتَلْتُهُمْ بِهَا » !!

الى حاسب هذه العاصير المكونة لتلك الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس
ملكها على ما اعتمدت عليه مِنْ تَرْصُيِ الْأَحْرَابِ بِالْمَالِ وَعَاتِيَةِ النَّاسِ بِالطَّعَامِ ، واستغلال
العصبية العربية ، والتساهل في إقامة الحدود الدينية اذا دعت الى ذلك طبيعة الأحوال
السياسية ، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على عليّ بقوله : « أُعِثُّ عَلَى عَلِيٍّ مِنْ
أَبِي طَالِبٍ مَارِعَ خِصَالٍ : كَانَ رَحْلًا طَهُرَةً عَلَنَةً لَا يَكْتُمُ سِرًّا ، وَكَتُّ كُتُومًا لَسْرَى ،
وَكَانَ لَا يَسْعَى حَتَّى يُفَاجِئَهُ الْأَمْرُ مَعَاحَاةً ، وَكَتُّ أَبْدُرَ إِلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ فِي أَخْبَثِ جَسَدٍ
وَأَشَدِّمْ حَلَاظًا ، وَكَتُّ أَحَبُّ إِلَى قَرِيْشٍ مِنْهُ ، هِلْتُ مَا شِئْتُ ، فَلَهُ مِنْ جَامِعِ الْإِثْمِ وَمُفَرَّقِ
عَه ! » .

(ز) معاوية والسياسة الميكافلية :

ومعد ، فإن السياسة الحديثة قد أتاحَت لِرَجَالِهَا فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ غَايَاتِهِمْ أَنْ يَنْتَهَجُوا
مِنْ الْوَسَائِلِ مَا يَكْفُلُ لَهُمْ تَحْقِيقَ غَايَاتِهِمْ السَّيَاسِيَّةِ . ويجب علينا أَنْ نُثَبِّتَ أَنَّ جُلُومَهُمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ
يَتَظَاهَرُونَ بِمَعْرُومٍ مِنْ مَدْرَسَةِ « مَا يَكْفُلُ » الَّتِي تُضَحِّي بِكُلِّ شَيْءٍ تَسْوِيفًا لِلْوَصُولِ
إِلَى الْعَايَةِ السَّيَاسِيَّةِ ، يَأْخُذُونَ فِي الْوَاقِعِ بِتَعَالِيمِهَا وَيَعْمَلُونَ عَلَى بَرَأَتِهَا . هذه السياسة
الإيجابية في نجاحها العملي ، السلبية في إرضائها المادي الخلقية ، هي التي أخرجت لنا
(١) مدينة بخورستان ماها ساوورس أردشير صنعت اليه وأسكنها في الروم وطاعة من حده . أطر مسم يافوت .

«ماترنيج» و«كافور» و«دزرائلي» و«بسمرك» و«بت» ، وهي التي كان من أطلالها «جلادستون» دوالمواقف العربيّة في الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تحلّ من السواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود !

كذلك كان معاوية ، في حلّ تصرفاته ، يحصل كثيرا بتحقيق عاياته في تشييد الملك ، فهو يذّبر أمور الناس لهذه الوجهة ، وهو يتّبع من الوسائل السياسية ما يكفّل نجاحه في هذه الوجهة . وإبه خلّيق با وبسوانا ألا نعدّ بعيدا عن هذه الوجهة حين نظرنا الى معاوية في كتابه الى مروان بن الحكم بشأن حقه شاعره الكبير أبو سبيحان ، وحين حكم لابن الزبير بشي داره المحترقة ، وحين أوصى عقيلا ، واحتمل من الأحف بن قيس ما احتمل ، وحين تخلّص من الاشتراحمي ومن صد الرحمن بن خالد ، وحين فصل في مازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكاية الأرض التي قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقطعها أحدهما ، وحين كان يبدّل المال طبقا لما به السياسة . وإما نبيح لأنفسا حين نظر الى قول زين العابدين : « إن عليا كان يقاتله معاوية بنده » أن يقول : « إن معاوية كان يقاتل عليا بنده ودهه » .

وإنا لظنّ أنا قد صوّرا معاوية بما هو أهله ، وأومحنا ما كان عليه تلك الشخصية العتّة في مساره الناس واحتمال الأذى منهم ، والتي يقول صاحبها : « ما من شيء عدى الدّ من غيظ أنجزه » . « وإني لا أحول بين الناس وألستم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا » . والآن نستطيع ، بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومماراته ، أن نفهم قيمة قول عليّ رضي الله عنه في كتابه الى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية وهو ما تختّم به كلمته : « إني وليّك ما وليّك وأنا أراك له أهلا . وقد كانت من أبي مسفيان فتنة من أماني الباطل وكذب النفس ، لا توجب لك ميراثا ولا تحلّ له نسبيا . وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذر ثم احذر . والسلام » .

الفصل الثالث

سياسة معاوية وخلفائه

نوطنة — اصطاع الأحرار بالمال — المال — الوجهة الدينية — التصف المدهى .

(١) نوطنة :

إن معاوية الذي مرَّ على السياسة بشاته وحنَّها بسجيتة وأحنَّها لختلِّف أدوارها التي تقلَّ فيها، فطُبع عليها وطُبعَ عليه، وأصبح منها وأصحت منه، لم يكن في مقدوره إلا أن يكون سياسياً هذا موقفاً، بل مصدر سياسات عبقرية طالما تشدَّها عصره وزمانه حتى بُعث بها وبُعثَ له، وخلق منها وخلقَ منه؛ وكانت في عسها وجوهرها حليقة للإجلال والإجبار، كما كان صاحبها قياً بالجراح جديراً بالتوفيق؛ لأنه لم يكن في وسعه، بطبيعته واستمداده ومواجهه واستنماه لأداة الحكم والسلطان، إلا أن يوقَّ مظهرًا في مخلف خطِّه التي ارتسمها سديدةً ناجحةً، لأنها قطعة من نفسه؛ وكلُّ ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة في تشييد الملك بمجاء من الأعاصير التي تقنع كلُّ ملك قائم على مير طليعة السنن الملكية الضرورية لها ولضمان حياتها ودوام قوَّة بيوتاتها.

إن معاوية ومن ضربَ على قلبه وصراره علموا الخلفيات من أهواء النفوس، فم لم تملكها وقيادتها، واتهجوا بها من المسالك ما أشع نهمتهم ونهمتها، وحقَّق بُشيتهم وبشيتها، ووحدوا بين تيار مصالحهم السياسية ومختلف رغباتها ومُصلحهم مَنازعها، وقطَّعوا بثقوب بصائرهم إلى استخدام كلِّ ما فيه القوَّة والحياة لمُلكهم من شئ العناصر: في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم .

أما في نفوسهم فباحذها، مكروهة أو طائفة، بالترام ما فيه النجج والتوفيق مع قصيد واعتدال، فتحتار من الولاة والرعماء والقواد والبطانة من فيهم الغنية والكفاية وحسن

البلاد ، يبحث عنهم أتى وجِدُوا ، مهما كانت عصياتهم وخفة ظلتهم أو كثافة نفوسهم ، ويُحْمَلُونَ في مراكزهم بمعزل عن التغير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك .

وأما في ولايتهم فيعلمهم عن جور الرعية وإصنافهم الناس جميعا ، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسي أو مذهبهم الديني عسف ولا ظلم .

ولقد سأل الوليد عامله الحاج المعروف بسفاهه وجبروته أن يكتب إليه بسيرته ، فكتب ما نثته ها ، وكنا نود أن يكون نرأسا حقا للحاج وصير الحاج ، قال :

” إني أيقظت رأبي وأمنت هواي ، فأذيتُ السيد المطاع في قومه ، ووليتُ الحرب الحازم في أمره ، وقلدتُ الخراج الموقر لأمانته ، وقسمتُ لكل خصم من شقي قسما يعطيه حظا من نظري ولطيف عايتي ، وصرفتُ السيف إلى الطيف المنيء ، والثواب إلى المحسن البريء ، تخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب “ .

وأما في سائر شعبيهم فبان يستمتعوا بكل ما يرضى العدل والحق مع طمأنينتهم على ما لهم وأصهم ، وأن تكون أبواب الولاة لشكايتهم مفتوحة ، وأدائهم لمطالبهم مضيعة ، وعبوهم نجبرهم فائرة . وكما تُعبد تلك الصعاع مع حرم في الولاة !

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يمتنع عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بليل . وهو الذي كانت عقوبته القتل للدخ ، وأحد المقبل بالمدبر والمقيم بالطاع . وقد وفق زياد إلى استنباب الأمن في روعه حتى قال المسائي . « قديم قادم على معاوية بن أبي سفيان فقال له معاوية : هل من مُقربة خير ؟ قال : نعم ، نزلت بقاء من مياه الأعراب فيما أنا عليه أورد أعرابي إبلة ، فلما شربت ضرب على جوسها وقال : عليك زيادا ، قلتُ له : ما أردت بهذا ؟ قال : هي سُدى ما قام لي فيها راع منذ ولي زياد . فسر ذلك معاوية وكتب به إلى زياد » .

قلنا : إن معاوية ومن صُرت على قاله وغراره فطُوبوا بنقوب مصائرهم الى استعمال كل ما فيه القوة والحياة للمكهم من شئ المعاصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبيهم ، والآن يريد أن تدرس بإيجاز الأسس التي تابعتها ثم الحاح في تشييد البيت الأموي ، والتي باصطرابها والتسك عن سنتها وطبيعتها كان صياعه وماؤه .

(ب) اصطناع الأحزاب بالمال :

قال اس قتيبة في كتابه الشعر والشعراء : « إن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبي يعقوب الحريري : مدّأحك لمحمد بن منصور بن زياد — يعنى كاتب اليرامكة — أشعر من مرثيائك فيه وأجود ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن اليوم نعمل على الوفاء وبينهما بونٌ بعيدٌ » .

واستطرد ابن قتيبة فقال : « وهذه عدى قصة الكُتَيْب في مدحه بى أمية وآل أنى طالب فإنه كان يتشيع ويحرف عن بى أمية بالرأى والهوى ، وشعره في بى أمية أحوذ منه في الطالبيين ، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لما حل الدنيا على أهل الأثرة » .

صدق أس قتيبة فيما ذهب اليه ، فإن أثر المال في النفس الإنسانية صير قليل ، وإن أثره في اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج الى تدليل ، وقد جُيِلَت النفوس على حب من أحسن اليها وبعض من أساء اليها .

ولقد كان معاوية كيتساً فذاً في استعمال المال واكتساب رصا الجمهور ، وكذلك كان كل من آتم بهديه وسنته ، في البذل والعطاء ، وفي التوسعة على من آزرهم ، وعمل على نصرتهم ، ومدّ ظلمهم وتثبيت عرشهم ، فقد زاد معاوية في العطاء لمن شهد مواقفه ، كما فرض الأعطية للشعراء ، عاصاً طرفة عما في ذلك من إعصاب المحافظين من رجال الدين ، إذ كان همه أن يملك الأوراق المدّاحة ويستترصمها بهاته ونواله ، لئنشرف في الآفاق ذكره وترفع الى السماكين فضله ، حتى قصده الشعراء واتجصوه ، وباصروه وطاهروه ، وحتى علم الخالص

والعالم أنه إن مدحه أثراء، وإن استرفده أغناه، وإن ناصره رأسه وأعلى مكانه، فأحصى
نُحمة الرُّؤادِ ومَقْصِدَهم، وموئِلَ القُصَادِ ومَتَلَّهم. وكانت الزوجة تستحث عَزَمَاتِ زوجها
أن يهرج إليه لِيُصِيبَ من نوافله، وليُعوْدَ إليها بوائِلِه، كما كانت رُعبُ علها أن يبيعَ إبلَه
وأن يفترَضَ في العطاء بشعره.

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني شيئا من ذلك في أخبار جبهة الأشمي في خبر
طويل انتهى بأن قال جبهة الأشمي قصيدته التي فيها :

قالت أَيْسَةُ دَخَ مِلادَكَ وَالْتِمَسْ * دارا بَطِيَّةَ رَبِّهِ الاطام
تُكْتَبُ عِيَالُكَ فِي العطاء وتُفْتَرَضُ * وكذلك يَقَعْلُ حازمُ الأقوام

وهالك مسألة مهمة من سياستهم في اصطلاح الأحرار، وإلجام الأقواء بالمال،
وفرض العطاء للشعراء الذي ظل معمولاً به إلا في أيام عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم
كانوا يملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاموا من مال الصدقة ويكتبون صكاً عليهم.
ونحن نعلم أن الدين هم بالليل ومدلة بالنهار.

ويذكر لنا الأغاني في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرصه له سليمان بن عبد الملك
إذ أمر له ألف دينار في دينه، وألف دينار معاوية على عياله، وبرقيق من البيص
والسودان، وكثير من طعام الجارية، وأن يُدان من الصدقة بألف دينار.

على أنه قد يُعْتَرَضُ عليها بأن اللادئة التي قدماها حادثة فردية لا يصح أن تُتخذ قاعدة
عامة أو أن يُستنبط منها وقوع مثيلاتها وذبوع نظيراتها.

بيد أن الأغاني يُهَيِّزُ على هذا الاعتراض، إذ يُثَبِّت ما نصه : « كان السلطان بالمدينة
إذا جاء مال الصدقة أذان من أراد من قريش منه، وكتب صكاً عليه يستعدهم به ويحتلون
إليه ويدارونه، فإذا غصب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارون الرشيد،

(١) قال شارح القاموس في مادة « حة » : جبهة الأشمي كجبهة : شاعر معروف كما في الصحاح .
وقال ابن دريد : جبهة الأشمي بالكسر .

فكله عبد الله بن مُصَنَّب في صكوك هُيت من ذلك على غير واحد من قريش فأمر بها فأحرقت .

فمثل هذا التصرف في استرضاء الناس واستعبادهم وفي إقراضهم المال ليكونوا أولياء وتصغيرهم وإرهاقهم ان ححو للمأواة ولأه الأمور أو مافستهم، له آثاره من حير وشر في المصلحة الحربية ليتت بي أمية، طبقا لما يديه الرعاء من حُكْمَةٍ وحريم، وإصابة لمواقع الصواب .

ومعد، فإن هذا السلاح الماصي في يد الأقوياء لمو أشد مصاء في القضاء على الصعفاء اذا أساءوا استعماله، لأنه قد يُنْذَلُ لشراء مثل «الدلاء» وعيرها من القيان، ولأنه قد يبدله الثناب من الخلفاء في صروب الخلالة والاستهتار، فيكون مِعْوَلٌ هُذْمٌ ودمار، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سورده عليك .

وإنا لرى في أحرىات هذا البيت ذى الأثر الكبير في تحوّل المدينة العربية أن بعض الخلفاء نقص الناس العطاء عماوا صبقا بعد سعيه، وشطفاً بعد رفاهية . وشر السياسات أن تُصِهتَ صاحبَ عيش رعيِدٍ بإصافةٍ وحرمانٍ، وأن تُنْزَلَ به عَصَاةُ التفتير والعسر .

ولسظر ما يقوله يعقوبى عن خليفة من هذا الطراز : طراز الإضافة في أرزاق الناس وعوانٍ اصمحلل الدولة اذا آدب بمُجْها بالاقول، وآل أمرها الى الإملاس .

يقول يعقوبى عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك : إنه سُمِّيَ يزيدَ الناقصَ لأنه نقص الناس من أعطياتهم واصطربت عليه اللُهانُ، وكان ممن خرج عليه العاسُ بن الوليد بمُخص وشايعة أهل حمص، وبشر بن الوليد قنْسيرى، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان فلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عداقه بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام .

يريد يعقوبى أن يقول من عير شك : إن هؤلاء الامراء اتهنوا غضب الجند لتقصان الأعطية فثاروا .

ليس هذا لحسب ، بل إن سياسة بعض الخلفاء دعمتهم الى حرام مُمَدٍّ بهذا فيرها من عطائها ، كما حصل لأهل مكة والمدنية إذ حُرِّمُوا سَبَّةُ كاملة ، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحس والحسين وعدا الله بن عباس الى ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم في السنة فضاغفها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب .

أفلا يحذر بنا بعد ما أسلفناه أن قَتَعَ ما المال كان سببا قويا لساء بيت معاوية ، وأن المال نفسه كان ، الى حدٍّ غير قليل ، سببا له حطُّه وقيمته في إهيار هذا البناء ! .

(ج) العمال :

قال زياد : ما طئني أمر المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد : طلبت اليه رجلا من عمالي كسر على الخراج فلما اليه ، فكتبت اليه : "إن هذا فسادٌ عمل وعملك" . فكتب الى : "إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة : لا تلين حبيبا فيمرج الناس في المعصية ، ولا نشتد فنحيل الناس على المهالك ، ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغليظة ، وأكون أنا للرافة والرحمة" .

وكتب عبد الملك س مروان الى الخجاج حين استأذنه في أحد تلك الصبابة من المال التي تُترك لأصحاب الأراضي يتعللون بها ولكون لهم ردما وطهيرا اذا نزلت بساحتهم الوائب والجوائح ، قال : "لا تُكُنْ على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبقى لهم حُلُوماً يعقدون بها شهوماً" .

يمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء ، ويمثل اختيار معاوية وعمر معاوية ، كهشام وعبد الملك ، لعمال ذوي كفاية ودهاء ، وحذق وحسن بلاء ، كزياد ومن على شاكلته ، أُتِيجَ لمعاوية وحلفاء معاوية تَبَوُّؤُ عرش المملكة العربية قوى الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير ، ثابتا لا تُزعزعه تَوَارَتُ الخوارج ولا حروبُ الماسيين .

كانت الدولة أيام معاوية ، أيام بانها وتسييدها ، أيام تلك المصاعب الكأداء التي اعتورت سبيلهم ، وتلك الشدائد التي تُسبِّبُ وتُفزع ، وتُغشِّ المضاجع ، وتجتث من النفوس

آمالها، ومن العزمات مصّاءها : ومن القلوب مأمّها — كانت الدولة يومئذ عنية بالكفايات ، خِصْبَةً بِمَهْرَةِ الْعَمَالِ وَحِدَايَ الْوَلَاةِ . ولعلها سة طعية أن يكون دَوْرُ بِنَاءِ الْعُرُوشِ وَالْمَمَالِكِ خِصْبًا بِرِحَالِهِ الْكُفَاءِ ، كما يكون دور اِعْمَالِهَا قَاحِلًا عَقِيًا فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُمَمُ ، وَهِيَ تُنْقَطِعُ أَهْمُهَا ، قَدْ لَا تَحْلُمُ بِمِثْلِ لَا يَأْلُو جَهْدًا فِي سَبِيلِ إِقَالَتِهَا مِنْ عَثَرَتِهَا ، وَإِنْهَاضِهَا مِنْ سَقَطَتِهَا .

ألم يكن الى جانب معاوية في عصر الباء أصحابُ الكفايات البادرِ مِنَ الْعَمَالِ وَالْوَلَاةِ أمثال عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بَصُّ الْقَادِ : « مَا رَأَيْتُ أَثْقَلَ حِمْلًا وَلَا أَطُولَ أَمَاةً مِنْ مُعَاوِيَةَ ، وَلَا رَأَيْتُ أَغْلَبَ لِلرَّجَالِ وَلَا أَبْدُ لَمْ حِينَ يَحْتَمُونَ مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَلَا أَسْهَ سِرًّا مَعْلَانِيَةً مِنْ زِيَادٍ ، وَلَوْ كَانَ الْمُغِيرَةُ فِي مَدِينَةٍ لَمْ تَمَانِيَهُ أَبْوَابٌ لَا يُخْرِجُ مِنْ بَابٍ مِنْهَا إِلَّا الْمَكْرَ لَخَرَجَ مِنْ أَبْوَابِهَا كُلِّهَا » .

على أنه يحدّرُ بها أن تصوّر حالةَ الْوَلَاةِ الْكُفَاءِ أَيَّامَ الْقُوَّةِ ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مَعْ ذَلِكَ حَتَّى أَصْحَوْا يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْخُلَفَاءِ بِالْهَدَايَا وَالْأَلطَافِ وَالرَّشَاقِ مَعَ عَسْفِ الرِّعْيَةِ وَالْكَيْدِ لَهَا . وَلْتَرَكُ لِلْيَعْقُوبِيِّ التَّكَلُّمَ عَلَى الْحَالَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ بَيَّانُ الثَّانِيَةِ ، ثُمَّ تُرِيدُ ذَلِكَ بَعْضُ الْحَفَاقِقِ التَّارِيخِيَةِ لِكَيْ يُتَبَيَّنَ لَنَا مَعْنَى أَنْ نَطْمَئِنَّ إِلَى تَهْدِيرِ هَذَا الْعَصْرِ — عَصْرِ الْعَمَالِ — وَأَنَّهُ لَا يَقْلُ عَنِ الْمَالِ قُوَّةً وَآثَرًا ، سِوَاهُ أَكَّانِ ذَلِكَ فِي الْبَاءِ أَمْ فِي الْهَدْمِ ، أَمَا الْبِنَاءُ فَبِحَسَنِ اخْتِيَارِ الْعَمَالِ وَكَمَايَاتِهِمْ ، وَأَمَا الْهَدْمُ فَبِعَسْفِ الْوَلَاةِ وَخُرْقِهِمْ ، وَسَوْءِ اخْتِيَارِهِمْ وَقِلَّةِ بَصَاعَتِهِمْ فِي تَدْيِيرِ الْمَمَالِكِ وَسِيَاسَةِ النَّاسِ .

قال اليعقوبى في معرض كلامه عن زياد بن أبيه مدّ أن وصف ماله من دهاء وحيلة ووصولة : « كَانَ زِيَادٌ يَقُولُ : مَلَأْتُ السُّلْطَانَ أَرْبَعُ خِلَالٍ : الْمَعَاذُ عَنِ الْمَالِ ، وَالْقُرْبُ مِنَ الْمُحْسَنِ ، وَالشَّدَّةُ عَلَى الْمُسِيءِ ، وَصَدَقَ الْإِسَانُ . وَكَانَ زِيَادٌ أَوَّلَ مَنْ بَسَطَ الْأَرْزَاقَ عَلَى عَمَلِهِ أَلْفَ دِرْهَمٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَلَمَعَهُ خَمْسَةُ وَعَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . وَكَانَ يَقُولُ : يَنْبَغِي لِلْوَالِي أَنْ يَكُونَ أَعْلَمُ بِأَهْلِ عَمَلِهِ مِنْهُمْ بِأَفْضَلِهِمْ » . وَبَعْدَ أَنْ ضَرَبَ الْيَعْقُوبِيُّ الْأَمْثَالَ

على معرفة زياد بدحائل رعيته قال مصوراً رأى زياد فيما يتطلعه معص الشؤون العامة من الصفات فيمن يتولاه : كان زياد يقول « أُرعة أعمال لا يليها إلا المسُّ الذي قد عصَّ على ناجذه : الثغر، والصانفة، والشَّريط، والقضاء . ويدعى أن يكون صاحبُ الشَّريط شديد الصولة قليلُ الفعلة، ويبني أن يكون صاحبُ الحرس مُسياً عميقاً مأموناً لا يُطعنُ عليه . ويدعى أن يكون في الكاتب خمسٌ خلال : مُدْعور، وحسنُ مداراة، وإحكامُ للعمل، وآلا يؤخرَ عملَ اليوم لغد، والنصيحةُ لصاحبه . ويدعى للماحب أن يكون عاقلاً قِطاً قد حدم الملوكة قبل أن يتولى حجابهم » .

ثم أنظر ما آل إليه الأمر أيام الوليد بن يزيد الذي رعى في اكتساب قلوب الناس بعد هورها، وإرسائها بعد تبرمها، وإساسها بعد وحشتها، بأن يزيد في أعطياتهم ويصاعف أرزاقهم . بيد أن ميعين المال قد نصت أوكد، وإنخراثة قد استنقرتها الملائد وحروبُ الخوارج وإخماد الفتى، فعمد إلى بيع الولايات . وإن آبن الأثير ليحبرها، في حوادث ستة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولَّى نصر بن سيار خراسان كلها وأفرده بها، ثم وفد يوسف بن عمر على الوليد فاشترى منه نصراً وعمالة، فرد إليه الوليد ولاية خراسان، وكتب يوسف إلى نصير بأمره بالقدوم ويحمل معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال وأن يقدم معه عماله أجمعين . ثم قال : وكتب الوليد إلى نصير بأمره أن يتخذ له رابطاً وطلياراً وأما ريق ذهب وفضة، وأن يجمع له كلُّ صُناعية خراسان، وكلُّ بايز وريدون هاربه، ثم سير بكل ذلك بنفسه في وجوه أهل خراسان .

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عاملٍ لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية اس عبد الملك الذي كتب إليه يقول : « إن نراج خراسان لا يبي بمطخى »، وما أئنته الفاضل آبن حنَّكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المثني عمر بن هبيرة وإلى مروان ابن محمد على العراق : من أن رزقه كان ستمائة ألف درهم .

هذا إلى ما نزل أهل الذمة وعيهم من العسف وزيادة الضرائب، وما كان من تخليج أصحاب الأراضي لها بنير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العهل في إهداء الخلفاء،

وزرعهم الى جمع الثروة واحترام المال، فإنك مد كل هذا تطمئن معي الى الاقتناع بأن العمال الكفاءة مصدر قوه في بناء الممالك وعُصْرُ يُحْقَلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها ووصولتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وفسور، وأداة هديم وتخريب وانتثار وفناء .

وإنا نسوق ههنا كلمة لبعض بني أمية حين سُئِلَ عن سبب زوال ملكهم لا تحملون عظة واعتبار، قال : « قِلَّةُ التيقظ، وشُغْلنا طلائعنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثقنا بكفائتنا فأثروا مراقبتهم علينا، وظلم عمالنا رعبنا ففسدت نيائهم لنا، وحمل على أهل خراجنا قتل دحلنا، وبطل عطاء جدها فرالت طاعتهم لنا، واستدماهم أعداؤنا فأطابوهم علينا، وقصدنا معائنا فجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا، وكان أول زوال ملكنا استنثار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا » .

(د) الوجهة الدينية :

إن سمة معاوية في بناء دولته لم تكن، مع ما نعلمه من ترخصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لصعوبات سياسية، سمة استهانة بالدين ولا إيمان في ازدرائه أو الخروج عن حل مظاهر الاحتشام الديني، الخليفة بن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سمة معاوية وطريقته في سياسة الملك . أما حلفاؤه فقد تنكب جُلُهم سنته الحكيمية، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون حلفاء المسامحين وأتمتهم بنجوة منه . وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أخلاقها القومية، وما أصابها من انحلال وضعيف، ومن تفكك وفتر . وسنعالج تصوير هذه العوامل بما يحاز واقتصاص في كلتا هذه، فلا نُفَرِّدُ لكل منها ما، وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحها لهذه الأصول قائمة حل، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه — كل ذلك يلزمنا إلزاما اتباع ما رسمناه لأنفسنا من القصد والاعتدال .

لسنا بحاجة، على ما نظن، الى تصوير أخلاق من فهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام، لأن فيما جلبناه من تحليل أخلاق معاوية الفنية والكفاية .

وزيد الآن أن تُرْسَ تلك الناحية العكسية ، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا التكاليف الدينية فآذروا طقوسها ، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خرق .

إن أماما يزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد . أما ابن معاوية فقد أصاب العقوبى سِذرة الصواب حين وصفه بأنه حَلَفَ فسوة وصاحب مَلَأه . ويكنى أن تُدرُسَ حياته — مع أن الدولة كانت في إمان قوتها ومِيعَة شبابها — لِقَتَسَحَ بأنها كانت بمثابة مَعَاوِيَهْ هدم وتحريب ، وإن في المأسا بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتهك المدينة لمقعا بما نقول . لقد كان جندُ يزيد سعد واقعة الحرة وغيروا يطلبون الى الرجل القرشي أن يبايع ليزيد ، لامن ناحية اقتناعه الديني طيعا ، ولا بدافع التعريب والمال ، ولا بسياسة الرقة واللطف التي قد يُنَالُ بها أكثر مما يُنَالُ بالشدة والعنف ، بل من ناحية السيف والإرهاب ، يجب أن يبايع وأفقُه رايغُم ، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة . كانت حنسة يزيد تقول للقرشي : يابغ على أنك عبد قن ليزيد ، فإن أبى ضُربَ عقه ، فكانت مقتلة ذريمة . ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها : « يا أهل الشام ، هذا حرمُ الله الذي كان مأسا في الجاهلية يأمن فيه الطيرُ والصيْدُ فأتقوا الله يا أهل الشام » ، صاح الشاميون « الطاعة الطاعة » .

لنترك يزيد حابا ، محيل القارئ الى ما في الأعاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ ولنزق الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك ، فجدد أما الفرج الأصمهانى يذكر لنا ، في غير موضع من حياة سلامة القس ، وحجابه وغيرهما ، شيئا لا يُستهان به عن إسراره في تنهكه ، فيقل لنا عن المدائنى قوله : قَدِمَ يزيد بن عبد الملك المدينة في حلافة سليمان ، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار ، ورُبِصَة بنت محمد بن علي بن عبيد الله ابن جعفر على مثل ذلك ، واشترى الغالية بألف دينار . وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار . ويقول في موضع آخر : إن رُسِلَ يزيد بن عبد الملك قَعِمَتِ المدينة فاشترى سلامة المعينة من آل رُمَانة عشرين ألف دينار .

ولعلك تميل الى مقالة هذه الروايات مع تعدد روايتها بتحفظ المؤرخ العلمي الذي لا يقنعهُ إلا الوسائل التحليلية المؤيدة لصديق الرواية . على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبي مثلا عن طريقه جباية المال ، وعلى ما كتبه يزيد بن عبد الملك الى عمر ابن هبيرة ، وهو عامله على العراق ، يأمره : أن يمسح السواد فمسحه سنة ١٠٥ ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف في زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه عمر بن هبيرة فوضع على الحبل والشجر وأصرّ أهل الخراج ووضع على الثالثة ^(١) وأعاد السحر والمدايا وما كان يؤخذ في البروز والمهرج . ليس هذا حسب بل أنظر الى تطلعه في فرص الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا بلحرم إلا أن نفوسهم حدثتهم أن يتزوجوا مع آل البيت ، وإن عد الله بن الصحاك بن قيس الميمري عامله على المدينة كان قد خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين بطريقة حافة ، فعزل يزيد عن المدينة وولاهها عبد الواحد بن عبد الله المصري ، وكتب اليه أن يأمره بأربعين ألف دينار ويعذبه ، ففعل ذلك . ويقول المؤرخ الذي نقلنا عنه : إن عبد الله بن الصحاك قد رقى وفي عقبه حرفة صوف يسأل الناس .

ولم يكنف يزيد بن عبد الملك بهذا ، بل عزل عمال عمر بن عبد العزيز جميعا . ونحس لهم من هو عمرو ما عدله وما رقائته عماله . ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد ابن المهلب عامله على خراسان ، فقد قال له عمر : « إني وجدت لك كتابا الى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قلك ألف ألف ، فأين هي ؟ » فأبكرها ثم قال : دعني أحملها ، قال : أين ؟ قال : أسعى الى الناس ، قال : تأخذها منهم مرة أخرى ؟ » ثم ولى خراسان الجراح بن الحكيم . وإنه لمن المتبع حقا تلك الماقتة الوريعة المصادنة التي دارت بين عمر ويزيد ، وبين عمر ومحمد بن يزيد ، وتلك الصرامة التي لا تعرف في سبيل المحافظة على مال المسلمين لينا ولا هودة ، وقد أثبتنا ابن الأثير في كامله ولا حاجة بنا هنا الى الاستطراد بذلك .

(١) الناج . الخايع القيسون في البلاد الذين لا يعرفون مع المرأة . أطر السان مادة «تا» .



من أمثال ما قدمناه نستطيع أن نفتتح بأن روايات صاحب الأعشى عن إسرائه قريبة من الواقع ، إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها . ثم لنظر الآن إلى مدى كان هذا الصف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القيان والمغنيات ، وما كان لمن من سلطان في أمور الدولة وتولية العال وعزله ، إن ذلك يهدنا في فهمنا دور الانتقال الذي نحن فيه مهمما هو في نظرنا أشد اعتبارا من الاعتماد على رأى المؤرخين وسردهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للنسبة العربية وخاصة في أبهاء الخليفة . وحجبا العاية بها ، سواء أكانت في بيت الخليفة أم في بيت العامل أم عند الرعية ، إن لدراستها وصراقية نحوها فعا وكبير جدوى .

يقول لنا أبو العرج الأصفهاني عن المدائني أن حبابة ، وهي طالئة القبة ، « غلت على يزيد وتبني بها عمر بن هبيرة ، فعلت منزلته حتى كان يدخل على يزيد في أي وقت شاء . وحسد ما من من بن أمية مسلمة بن عبد الملك على ولايته وقدحوا فيه عند يزيد ، وقالوا : إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن يا أمير المؤمنين أن يعيشه ، وأن يستكشف عن شيء ليسه ويخففه ، وقد علمت أن أمير المؤمنين لم يدخل أحدا من أهل بيته في الخراج ، فوقر ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله . وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حبابة فعملت له في ذلك . وكان بين ابن هبيرة والقمعاق بن خالد عداوة ، وكانا يتنازعا ويتحاسدان ، فقبل للقمعاق : لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة ، إنه لصاحب العراق غدا ، فقال : ومن يطيق ابن هبيرة ؟ حبابة بالليل وهدايا بالنهار ! مع إنه وإن كان بلغ فانه رجل من بني سكين . فلم نزل حبابة تعمل له في العراق حتى وليها . »

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية في تعرف حال الدولة العربية في ذلك الحين . ولو حاز لنا أن نحلل نظرا طويلا في قول القمعاق بن خالد : « ومن يطيق ابن هبيرة ، حبابة بالليل وهدايا بالنهار مع أنه وإن كان بلغ فانه رجل من بني سكين » فانه لا يهدما

في تهمهم وقوع الخليفة تحت سلطان عشيقتة ، ولا في قبوله للرشا بحسب بل يفيدنا فهم تحول العصبية العربية الأخيرة وملح نظر العربي الى سواء .

أما استحفاف الوليد بن يزيد بالدين، ونحرياته التي فاقت نحريات يزيد بن معاوية، والتي نرى أن لها أثرا كبيرا في أبي نؤاس وحسين بن الصحاك ، وبركة الخمر التي احتواها قصره، فإن أهميات كتب الأدب العربي ومطالع التاريخ مُفَعِّمَةٌ من ذلك بما لا نتعرض له في هذه المقالة باكثر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد في القرآن، وما أحصاه بعضهم له من عدد الأقذاح التي شربها في ليلة من ليالي شربه، إذ أثبت صاحبُ الأعالي أنها سبعون قدحا وإن كنا نفترض في مثل هذه الأحوال جوع الرواة الى المبالغة والإعراق . ثم لننظر معا فيما يقوله آبر الأثير عنه حين ولّاه هشام الخ، فانه يحبرنا : أنه لما أراد هشام أن يقطع عنه ندماءه ولّاه الخ ستة ست عشرة ومائة ، حمل معه كلابا في صاديقي وعمل قبة على قدر الكعبة ليصمها على الكعبة ، وحمل معه الخمر وأراد أن تُصَبَّ القُصَّةُ على الكعبة وتشرَبَ فيها الخمر . وقد أيد المؤرخون هذه الحادثة . ويقول البقوي : إن الوليد بعث مهندسا ليقوم بذلك .

ثم أنظر الى بيعة خالد القسري الى يوسف بن عمر بحسين ألف ألف، وما رواه المؤرخون من إرساله الى خالد قائلا له : « إن يوسف يشترك بحسين ألف ألف، فإن كنت تضمنها وإلا دفعتك اليه » فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له : ما عهدت العرب تباع، واقه لو سألتني أن أحصى عودا ما صحتني « ومع ذلك فقد دفعه الى يوسف صديقه وقتله !

ثم لننظر الى نظر الرأي العام اليه والى تصرفاته . وأماننا من ذلك شعر حمزة بن بيص فيه إذ يقول :

١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥٧٨ ١٥٧٩ ١٥٨٠ ١٥٨١ ١٥٨٢ ١٥٨٣ ١٥٨٤ ١٥٨٥ ١٥٨٦ ١٥٨٧ ١٥٨٨ ١٥٨٩ ١٥٩٠ ١٥٩١ ١٥٩٢ ١٥٩٣ ١٥٩٤ ١٥٩٥ ١٥٩٦ ١٥٩٧ ١٥

وتماديت واحديت وأسرف . ست وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهات . ثم هات حتى تحمر صبيحا
أنت سكران ما تحيق فاطر . ثق ثقا وقد متقت فسوقا

وإما ثبت لها أيضا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصري قصره ويزيد بن عيسى
السكسكي، فقد قال له الوليد : « يا أخا السكاسك، ألم أزد في أعطياتكم ! ألم أرفع المؤن
عنكم ! ألم أعط فقراءكم ! ألم أحدم زماكم ! » قال . « وإما ما نقم عليك في أنفسنا، وإلما
سقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستحفاك
بأمر الله ! » .

ولننظر معي أيضا الى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطاباً
لهذه الدولة، وإلى ما كان من جبروته وصعف الوازع الديني عنده، حتى استباح لنفسه
أن يقول وهو على المنبر : « مَنْ قَالَ لِي سَدِّ مَقَامِي هَذَا أَتَى اللَّهَ صَرِيحُ عَقَّةٍ » .

وسد، فإنه ليخيلُ لينا أن فيما قدمناه بعض المقع، بما كان من استهانة الخلفاء بالدين
ومن إمعانهم في التهلك والخروج عليه . وزيد الآن أن ندرس تأثير الخلق العربي بما كان
للخلفاء من تنكيب عن سنن الدين وإمعان في التهلك والاستهتار . والبأس على دين ملوكهم،
والمملوك على سعة رعيته، أو كما يقول عبد الملك بن مروان : « تطلون ما أن نسير فيكم بسيرة
الشيخين أبي بكر وعمر ولا سيعون أتم بسيرة الناس أيام أبي بكر وعمر ! » . على أنا نرغم
أنفسنا إرغاماً على أن نكتفي في هذا الفصل، الذي كادت نشعبُ عليها فروعه وبواحيه،
وكذا نصل في مهامه وبواديه، بمثلٍ قد لا يغفلون من البقع . وعمدتنا في ذلك الأغاني،
وعيون الأخبار لابن قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو إلى الأدب والعظة، أقرب منه إلى
التاريخ والتحليل العلمي . بيد أننا أثنا إيرادَه لأنه حسن في نفسه، ومصيبٌ بحمة الصواب
في جملة .

يقول أبو الفرج : إنه لما قدم عثمان بن حيان المزى وإلى يزيد بن عبد الملك

أن تُصلحُ فطهرها من العياء والرايح . ونفهم من جملة الرواية أنه لم يغز في مهمته بظائل ولم يُوقى الى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقوم .

أما ما يرويه لنا ابنُ قتيبة في عيون أخباره فما هو ذا بصره وعبارته ، وهو حتام هذا الفصل بعد أن كدنا بطيل .

قال : « سَمَرَ المصور ذات ليلة فذكر حلفاء بنى أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم الى ألبانهم المترفين ، فكانت همهم من عظم شأن الملك وحلالة قدره قصدة الشهوات وإيثار اللذات والدحوّل في معاصي الله ومساحطه ، جهلا منهم باستدراج الله وأما لمكره ، فسلمهم الله العزّ وقهر عنهم العمة . فقال له صالح بن عليّ : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض الوبّة هاربا فيمن معه سأل ملك الوبّة عنهم فأخبر ، فركب الى عبد الله فكلّمه بكلام عجيب في هذا الحو لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحصرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك ! فأمر المصور بإحصاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض الوبّة ثمانين سائلا فافتششت بها وأملت ثلاثا ، فأتاني ملك الوبّة ، وقد خبر أمرنا ، فدخل على رجل ألقى طوال حسن الوجه ، فقعده على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت له : ما يملك أن يقعده على ثيابنا ؟ قال : لأنني ملك ، وحق على كلّ ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رعه ! ثم قال لي : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ؟ قلت : احترأ على ذلك عبيدا وأتاعنا لأن الملك زال عنا ، قال : فلم تطؤون الروح بدوابكم والفساد محرم عليكم وكأبكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيدا وأتاعنا بجهلهم ، قال : فلم تلبسون الديباج والحريّ ، وتستعملون الذهب والفضة ؟ قلت : ذهب الملك ما وقلّ أنصارا ، فانتصرتا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على الكثرة منا ، قال : فأطرق مليا وحلّ يقلب يديه ويسكت في الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا ! دخلوا في ديننا ! وزال الملك عنا ! يردده مرارا ، ثم قال : ليس ذلك كما ذكرت ، بل أتت قوم استحلّتم ما حرم الله

عليكم وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكُم الله العزَّ والسكَمَ الذَّلَّ بذنوبكم، والله فيكم نعمةٌ لم تبلغ غايتها، وأحاف أن يَحِلَّ بكم العذابُ وأنتم بيلدى فيصينى معكم وإمام الضيافة ثلاثة أيام، فترددوا ما احتجتم اليه وارتحلوا عن بلدى، ففعلت ذلك» .

(هـ) التعسف المذهبي :

زيد أن تنظر الآل نظرةً عَنَلَى في أمر التعسف المذهبي . ونحس علم ما أصاب جماعة على أيام معاوية وهو هو في حكمه وحلمه ومرورته، علم ما أصاب مُحَرَّبَ بنَ عَدَى الكِنْدَى وجماعته ، كما نعلم ما أصابها أيام زيد من قتل هَانِي بنَ عُرْوَة ومسلم بنَ عَقِيل والحسين ابن علي وزيد بن علي الذي صُلِبَ على شاطئ العرات وقُدِرَ رَمَادُهُ في الماء . ولننظر نظرة حاصصة الى حياة بُسْرِ بنِ أبى أَرْطَاة وقَتْلِهِ الأَطْفَالَ والرَّحَالَ والنِّسَاءَ ، ولنترك معارضة ما يصوِّر لنا مبلغُ تأثيرِ نفوسِ بنى هاشم من خُطَّةِ التعسف المذهبي هذه ، وإن أبا المرج الأصفهاني يقول في كتابه : لما كانت الجماعة واستقر الأمر لمعاوية، دخل عليه عُبَيْدُ الله ابْنُ العباس وعده بُسْرِ بنَ أبى أَرْطَاة، فقال له عُبَيْدُ الله : أأنت قاتلُ الصَّبيِّينِ أياها الشَّيْخُ ؟ قال بُسْرِ : نعم أما قاتلُهما ، فقال عبيد الله : أما والله لو دِدْتُ أن الأرض كانت أنتننى عدك ! فقال بسر : فقد أنبتك الآن عدى ، فقال عبيد الله : ألا سيفٌ ؟ فقال له بسر : هاك سيفي ، فلما أهوى عبيد الله الى السيف ليتناولَه أحده معاوية ثم قال لبسر «أنرك الله شيئا ! قد كبرتَ وزهد عَقْلُكَ ! وذلك رجل من بنى هاشم قد وَرَّثَهُ وقاتلَ أبِيه ، تدفع اليه سيفك ! إنك لنافِلٌ عن قلوبِ بنى هاشم ! ولو تَمَكَّنَ مِنه لَدَأَ بِى قَلْبِكَ » . قال عُبَيْدُ الله : «أَجَل ! وكنتُ أثقُ به» .

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجل من اليمن اتصل به حتى وثق به ، ثم احتال لقتل ابنيه نفخج بهما الى وادى أوطاس قتلتهما وهرب .

(١) أوطاس : وادى ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين ويومئذ قال لى صل الله عليه وسلم «حي الوطيس» وهو أوَّل من قال ذلك . انظر مسج ياقوت في أوطاس .

على أنه يحذر بما أن نصوّراً إلى أى مدى بلغت نتائج خطط الأمويين السياسية ، من حيث تُهم العصابة في العوس لعلّ وشيعته ، وصرف الناس عن ذكرهم ، وما كان من لعنهم على الما بر من تأثير حليقي متايقا . ومراحعا في هذه الباحية صدّة مصادره ، بيد أنّا نجترئ اجتراء ، ونُحيل القارئ إلى ما رواه ابن عائشة عن شهور رجل من الشام نحو حفيد عليّ وقد نقل ذلك المبرّد في الكامل .

ولسطر كذلك إلى مدى الأحراب الدينية وأصدادها التي كانت نتيجة لارمة لآثار التمسف المذهبيّ والتحرّث الدينيّ ، وقد ذكر البيروني في « الآثار الباقية » طرفا من ذلك . ونجترئ هنا بشيء مما جاء في « المواهب الفتحية » لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله . قال : ما أحسن قول أبي الحسين الجزار خصوصا في بيته الثالث والخامس :

ويعود عاشوراء يذكّرني * رزء الحسين فليت لم يعد
أم ليت عيا فيه قد حُكِّت * بلأمد لم تحل من رمد
ويدا به لثانة خُضِبَتْ * مقطوعة من زبدها يبدى
يوم سبيل حين أذكّره * ألا يدور الصبر في خلدي
أما وقد قُتِلَ الحسينُ به * فأوالحسين أحق بالكند

ولعص الهاشميين معتدرا من الكهل يوم عاشوراء :

لم أكتحل في صباح يوم * أهرق في دمه الحسين
إلا لحزني وذاك أني * سؤدت حتى بياض عيني

إلى غير ذلك مما أثبتته المؤلف لعمارة اليمنى والإمام ابن الجوزي مما لا سبيل إلى الاستطراد فيه ههنا .

ولسطر إلى حادثة رواها المسعودي في « مروج الذهب » قال : « لما طلب عبد الله ابن عليّ مروان ونزل بالشام ، وجه إلى أبي العباس أنشأها من أهل الشام من أرباب العم والرياسة ، فخلعوا لأبي العباس السفاح ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة ! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر :

أيها الناس اسمعوا خبركم * عجا زاد على كل العجب
عجا من عبد شمس إنهم * ففجروا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيا زعموا * دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه * يُحرز الميراث إلا من قُرب

ولنلِ الآن المسألة نحلي بما كان للتعسف المذهبي من الأثر في هوس الخوارج، نحيلين إلى الكامل للبرد من أراد توسعا وتبصرا، وبكتفي هنا بنقل مثلي من الطبري يظهر لنا مقدار استقامتهم في سبيل نصره مذهبهم مهما نالهم من تقتيل . وأماما حوادث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري : إن عبيد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج فقتل منهم صبرا جماعة كثيرة وفي الحرب جماعة أخرى . ويقول عنهم في موضع آخر : نرح مر داس أو بلال، وهو من بني ربيعة بن حنظلة، في أربعين رجلا إلى الأهواز فبعث إليهم ابن زياد جيشا عليهم ابن حصن التيمي فقتلوا في أصحابه وهزموه، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة :

أألفا مؤمن مسكم زعمتم * ويقتلهم تأسك^(١) أرسونا
كذتم ليس ذاك كما زعمتم * ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم * على الفئة الكثيرة ينصرونا

(١) آسك . بلد من وادي الأهواز قرب أرتاح بن أرتاح ورامهرمز، بينها وبين أرتاح يومان وهي بلدة ذات نخيل ومياه . أطر باتوت في آسك وكامل المراد (ص ٨٧ طعة أوروبا) .

الفصل الرابع

ولاية العهد

سلام ولاية العهد وأبن خلدون — حط سلام ولاية العهد الثاني وأثر البطانات — سلام ولاية العهد وعلاجه بالصبيّة المريّة .

(١) نظام ولاية العهد وأبن خلدون :

قال ابن خلدون في مقدّمته : "إن معاوية عهّد الى يزيد خوفاً من اقتراق الكلمة بما كانت بو أمية لم يرصوا تسليم الأمر الى سواهم . فلو قد عهّد الى غيره اختلفوا عليه" ثم زاد هذا توصيحاً في مكان آخر من مقدّمته فقال : "إن الذي دعا معاوية لإيثار أبنه يزيد بالعهد دون سواه ، إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتحاق أهوائهم ، باتفاق أهل الحلّ والعقد عليه حيثئذ من بنى أمية ، ادنو أمية يومئذ لا يرصّون سواهم ، وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع وأهل العرب منهم ، فأثره بذلك دون غيره عن يظنّ أنه أولى بها ، وعدل عن الفاصل الى المضبول ، حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء" .

لسا هنا في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخنا الكبير ، وهل أصاب محجة الصواب في تحليله ما دفع معاوية الى عقد البيعة ليزيد ، ولكنا صدّرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لصوّر سرفول العرب ، لأقول عهدهم ، نظام ولاية العهد عامة والوراثي خاصة . وما قبولهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمّدة من عصابة بنى أمية كلها ، وجمهور أهل الحلّ والعقد من قريش ، وبذلك تستنح عصبية مصر أجمع ، وعصبيتهم أعظم من كلّ شوكة إذ لا تطلق مقاومتهم ، ومن هنا أقصى العرب عن يزيد وأقاموا على الدطاء بهديته والراحة منه . ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين بن علي وأبن الزبير في مطالبتهم بالخلافة ، كما بين ذلك ابن خلدون مما لا حاجة بنا للتمرّص له الآن .

على أن التاريخ يقتضينا أن نظام ولاية العهد لم تقله العقلية العربية بسهولة مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب انتصرت به فكرة ولاية العهد وهو اعتمادها على العصبية. وربما جاز لنا أن نغزو سقوطها من بعض النواحي إلى هذه العصبية أيضا مما لا نعرض له هنا الآن .

أجل ، يجبرنا التاريخ بتلك الأدوار العديدة ، التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد ، وأن السياسة نهضت بصيب حير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بادية ذي بدء دون أن تحمّل البيعة ليزيد سهلة ميسورة ، تؤتي ثمرها خير عاء كبير .

يجبرنا التاريخ بما فعله المعيرة بن شمة وعير المعيرة بن شعبة ، وإيادهم الوفود إلى معاوية . ويجبرنا ببلع ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتيال وحرم ، وما بذله لاسه يزيد من شدة وصنف ، وكل هذه العوامل تستدعي دراسة دقيقة لا نعرض لها لأنها لا تنهنا في هذه المقدمة كثيرا .

نريد أن نقول شيئا واحداً مبسوراً فهمه ، ذلك أن نظام ولاية العهد — الذي ربما كان ضرورياً لا مبدوحة عنه في أول عهد الدولة ، لما يده لنا ابن خلدون — كان في نفسه سبباً يعتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية ، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أحيراً أثره الكبير في ضعف سلطان بني أمية وذهاب ريعهم .

(ب) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات :

لننظر نظرة عظمى في تاريخ هذا النظام لنقع بما وصلت إليه بحوثنا ، فنرى مثلاً أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك بن مروان ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده ، فإن جل حلفاء بني أمية من بعده اتخذوا صبيحة سبة متمعة . سئى في كلامنا عن العصر العباسي إلى أي مدى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة ، أو على الأقل ، ملح ما فيه من صعب لها ، وإينان بإصمحلها ، واضطراب لحلها .

لم يكن هذا الطام شراً مستطيراً وعاملاً كبيراً من عوامل الضعف ؛ إلا لما يستلزمه من نكث العهد ، ثم من أنشقاق البيت المالكي على نفسه ، وترك المجال واسعاً لوشايات تسعى بها بطانات السوء ممن يرجو أن يعودوا مثلهم ومثل صليحهم الموءوم ، ومثل خطرهم على الدولة حين تعرض للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف أو ما أذكت البطانة بينهما من حلايف — هذه البطانة ترطب دائماً أنشقاق البيت المالكي أو ما هو مرْكَبٌ في الطبيعة البشرية وولادة العهد من ترطب لتسلم مقاليد الأمور وتسهيل للذة الحكم والسلطان — فتستعمل لتقصي مآربها وتستمع بأطباعها . وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها ومواتية لأطباعها ، اذا صار الأمر الى ولي العهد الأول الذي حاول ما هو طبعى من حُلج من أشرك معه في ولاية العهد ، إما كراهية له ، أو إيثارة لغيره عليه ، ممن هم أسس مه رحما وأقرب مودة .

سقم قد يجددلى العهد كثيرين من الباصحين الذين يستكون الخلع ، بيد أنه لا يعدم ايضاً كثيرين ممن هوامهم مع غير هذا الذى يراد حلطه يزيتون له ما يحاول ، حتى اذا صار الأمر الى من أريد خاتمته كما كان كلا من الفريقين بما يستحق . وكانا أحياناً يفتك بكثير من ذوى البلاء الحسنى فى تشييد الملك . وهذا العنك على مافيه من خسارة قوم من ذوى الرأى والتعارب ، قد كان يندبى قلوب أنصارهم وعشائهم بدور الحقد وحت الانتقام . وبذلك صار بسو أمية يفقدون العشائر عشيرة بعد عشيرة ، وأخذ طل سلاطنتهم على النفوس يتعمر شيئاً فشيئاً ، حتى اذا قام لهم منافس عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلب عليه .

قد تطلب الى توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ ، لأنك تعتبر الوشائج والصلات التى بين مانحن بصدده وبين عصرنا المأمونى قوة من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ فى نظام ولاية العهد . وقد تطلب منى أن أمر مسرعا بحسام الحوادث التى لها آثارها ونتائجها ، وأن أكون مجللاً لا مفصلاً وموجزاً لا مُسهباً .

على أنى سائرَكَ الأُذلة التي أقم به الطبري وابن الأثير كل سنة من سنهما تُحدث
وحدهما يصدق ما ذُبحَتْ إليه . وأُسمع لنعسى أن أقساماً ملياً : ماذا فعل عبد الملك لما
وصل الحُكم إلى يده ؟ لقد حاول ما هو طبعي من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده
إلى الوليد . ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة وشجر الخلاف وعمد كل إلى سلاحه
وحربه .

ثم ماذا فعل عبد الملك ؟ لقد ولي الوليد وسليمان . فحاول الوليد ما هو طبعي من
عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء .

ثم ما ذا فعل سليمان ؟ لقد وثق عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك .

ثم ماذا فعل عمر بن عبد العزيز ، وماذا فعل يزيد ، وماذا فعل هشام ؟ إن التاريخ
وحتام عهد كل ليؤيدان ، بقوة ووصوح ، ليس بعدهما من يزيد ، صحة ما ذهبنا إليه مما
يُبيح لنا أن نختصر الحوادث والأُذلة اختصاراً .

على أنه قد يُطلَب ما إثباتُ تلك الحال المؤلمة التي تنتج عن المباينة لأثنين ولاية
العهد ، وعلح حسارة الدولة من رحلتها المدودين وأقطابها النادرين في هذا السبيل ،
سبيل اصطدام صاحبي ولاية العهد . وسَجْمَلُ ذلك إجمالاً يستدعيه مقاماً .

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كُتِبَتْ لهشام ثم الوليد من بعده مثلاً .
وربما فاتته أن لكل حراً ياصره ، وبطانة تُشردعوته . وربما تطوّفت في منجها
السياسي ، تطوّفا يؤكد العداوة في القلوب ، ويستثير السخائم في النفوس . ولماذا نذهب
بعيدا وأماما ما وقع بين هشام والوليد ، فإن هشام مات قبل أن يُكَلَّلَ بالبحر سَعَاءَ ،
فَسَرَقَانِ ما مَتَّ أَقْوَالُ الوليد عن شديد مقتته لهشام ، فقال مثلاً :

هَلَكَ الْأَحْوَلُ الْمَشُو . م وَقَدْ أُرْسِلَ الْمَطْرُ

وَمَلَكْنَا مِنْ مَعْدَا . كْ قَدْ أَوْرَقَ الشَّجَرُ

فَأَشْكُرُ اللَّهَ إِنَّهُ . زَالِدَ كُلِّ مَنْ شَكَرَ

ولم يكتف الوليد بالقول دون العمل ، بل أندفع فيما يجبرنا المؤرخون مع تيار بطائنه
 وشُبايعه ، وشمّر عن ساعد الانتقام ، مم ماصر عمه هشاماً مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن
 اسماعيل حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفي - وإلى المدينة ويوسف بن عمر حاكم العراق
 حتى ماتا . ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل قبض على سليمان بن هشام فصر به مائة سوط
 ومثل به اذ حلق رأسه ولحيته ، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البهت المالك .
 لم يكتف الوليد بن يزيد بذلك بل أخرج حالدا القسري ، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها ،
 نأن يبايع لأبيه الحكم وعثمان ولاية المهدي من بعده ، فلما أبى عليه ذلك بعث به الى وإلى
 العراق يوسف بن عمر الثقفي - فزع ثيابه وعذبه عذاباً مبرحاً ، وهو يحتمل ذلك كله
 بصمت وإباء ، ثم حمله الى الكوفة الى من أنزلوا به كل لون من ألوان العذاب حتى مات .
 وما مات إلا بئس باهظ دفعه الوليد . ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قصاعة واليمن ،
 وجل جند الشام من قصاعة واليمن ، وهم هم الذين مثلوا دورهم الخطير أجراً مع الوليد ،
 إذ بايعوا يزيد وثاروا معه ، فكانت حاتمة الوليد ما قد علمناه من احتائنه بقصره وتقحمهم
 عليه داره ، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة اذ حرّوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم بصوه
 على رمح وطيف به في دمشق .

على أنا نفترض المبالغة فيما يسببه الرواة الى هذا الخليفة المملوب على أمره ، ولكنا
 نؤمن مع ذلك إيماناً صادقاً بالتأنيج السيئة لطام ولاية العهد الثاني أو الثلاثي .

وإنا نظن أن فيما قتمناه لك غنية وكفاية . وإن أردت ما مزيداً فانظر ما نال به
 سليمان قادة الدولة أمثال محمد بن القاسم بن محمد الثقفي وقيية بن مسلم الباهلي وموسى بن
 نصير ، وما كان يعدّ للهباج وغيره : ممن قل أن يحتج أمثالهم في عصر واحد . وإنا نحيل
 القارئ الى ابن الأثير ليقدر معنا الأسس التي بيها طيها رأينا فيهم ، وليقف بنفسه على
 كبريات توحهم وجسام أعمالهم التي كانت عزة في حين عصرهم ، بل في جبين تاريخ
 الدولة الأموية .

ومعد، أفليس من العدل أن يستنيط الفارئُ معاً ما يصيبُ الدولةَ من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسى، من جرّاء ذلك النظام المفقوت، نظام ولاية العهد على هذا النحو فى غير قانون ولا سنة، وأن يمدّه معاً سبباً لا يستهان به، من أسباب سقوط البيت الأموى !

(ج) العصبية العربية :

الذى يهّمنا الآن هو أن نوجّه النظرَ الى تأثير نظام ولاية العهد فى صورته التى ستورناها لك من حيث مسأله العصبية العربية التى كانت، كما تعلم، عيفةً محتدمةً بين المصرية واليمنية . وأنت تعلم أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يصهرون الى قبائل مضر كما كانوا يصهرون الى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تجد فى تأييد الأمير الذى يتصل بها نسبه . وهذه العكز نفسها تُعبد على أن يفهم، بسوء خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تُعبد على أن يفهم ما تار حول هشام والوليد بن يزيد من الخسومات التى قدما لك طرفاً منها . ولم يكده ينهى الأمر الى مروان بن محمد حتى كانت الخسومة بين المصرية واليمنية قد آتته الى أقصاها بحيث عجز هذان العريقان من العرب عن أن يكونا وحدةً قويةً تثبتُ للطوائى، فلم يظهر أمر الموالى حتى كان العرب مُعترقين متعادلين ، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعاً . وسنذكر على العصبية وآثارها بسطيةً فى القول أكثر مما تكلمنا ها فى موضعها الطبيعى من الكتاب الثانى .

ولما كانت الدولة العاسية قد قامت بالموالى واستنهم ، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بنى أمية الدين سامهم سوء العذاب وساسوهم شرّ سياسةٍ فلما نرجى كلامنا عن هذا العنصر القوى من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها الى موضعه الطبيعى من تنظيم كتابنا ، وحين ذاك ، يَحِقُّ لنا أن نرين تحوّل العصبية العربية الى تلك النواحي الشائكة الوعرة التى قضت على الدولة الأموية وأقامت دولة بنى العباس التى أدالت منها هى أيضاً . وحين ذاك أيضاً يحق لنا أن ندرّس نظر

العربي الى غير العربي في العصر الأموي وفي غير العصر الأموي مما كانت له نتائج خطيرة في حياة العرب وفي تحول مدنيت العرب .

فلترث أدًا، وحير لسا وللتاريخ أن يكون موضعُ هذا الباب في كلامنا على الدولة العباسية . وحير لنا أيضا أن نتقل الآن الى تصوير الحياة الأدبية : من شعرٍ وخطابة، والى تصوير الحياة العباسية بصورها لذلك العصر الأموي، الذي كان بحق نواة طيبة للعصر العباسي، مُتَوَحِّينَ في ذلك الإيجاز والإجمال . ولعلنا نُوَفِّقُ الى حسن الإصابة فيما نريد .

الفصل النحوي

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

توطئه — آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي — حركة الفل — الحطاة ومبهماتا —
الكثافة — حالة الشعر في العصر الأموي ونحوه — المرل — الشعر السياسي .

(١) توطئة :

لسا نريد أن نُهَبَّ في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي ، لأن ذلك يكاد يجرح با عن مقصدا الأساسي ، من اقتصار مقمتنا هذه على توصيح موجز من غير إسراپ ولا تطويل ، للعصر السابق لعصرنا المأموني الذي كان نتيجة لازمة لما تقدمه واكتسبه من عوامل متعددة ، توصيحا معتدلا يجعلنا نطمئن ، بعد صهما للآداب العباسية ، الى تبين العروق والميزات والآثار التي خلفها لتاريخ المدنية الإسلامية ، مل لتاريخ المدنية الإنسانية ذلك العصر الذهبي وهو عصر المأموني الخالد .

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيراً عطيًا ، إدرقت الأساليب وقل الحوشي والمتناهر ، وأتست الأغراض وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووفرتها . وهذا يتمشى بوجه عام مع تغير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية ، وسبارة أخرى : تغيرت حياة الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقا لما أعادته العرب في فتوحهم ومغازيهم في غنائم وأموال ، ووقوفهم على آثار المدينيات لأهم ذات حظ من العلم غير قليل . ولقد كان لكاتب الله ، المعجز بآياته ومهر بلاعته (كاتب) أَحَكَّتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ (١) أثره في فتي أذهانهم وصقل عباراتهم وتوحيد لمجاتهم ، بل كان الكثر الذي يلجئون الى ما فيه من أدب جم وعظمة بالغة وأساليب رائعة ، ويستمدون منه ما ينعمهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة .

وإنه لجدير بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسه صائغ ودقيق ملاحظه، وتعرفاً غير قليل لما كانت عليه الآداب في العصر الجاهلي.



إن تحول الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهلي القديم، من لغة وخطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشؤون الحياة والوجود، بما أنه أحدث علومها وآدابها اقتصادها الإسلام. وقد كان لكتاب الله وسنه رسوله، وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في حلق علوم شرعية لم يكن للعرب معها حظ من قبل، فبشأ في هذا العصر علم التفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة كالنحو وما إلى النحو: على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثه، التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مولود هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه البصره داراً للعلم والعرفان والمدنية ومسرحاً للهو والاعتناء، والشام مقر الملك والسلطان، بل كان إلى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما. واتخاذ دواوين الحام، وقيل النواويس من لغة إلى أخرى. وقد كان هذا المولود الآخر نتيجته الفتوح الإسلامية وخاصة تلك الأقطار التي كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وصارة أدق: تلك العلوم التي أفاضتها العرب أو الدولة الإسلامية من آداب الفرس وأهل الشام ومصر وغيرهم من أسرى الروم للإسلام. وقد تستدعي هذه النقطة توصيحا، ونظن أن ما أفسرنا هنا بعض التفسير تتجمل بموضوعنا الذي سيقبل عليه أخيراً، وخاصة إذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم ومن أدب وفن كان متأثراً بمحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان إلى مدى كبير يطعمه بطابع المدنية اليونانية والفارسية؛ ولكن هذا لا يمنعنا أن نلجأ به إلى ما.

(ب) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الإسلام آداباً يونانية في جملتها لأن التاريخ يُحدثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لتاج العقل الفارسي والمهدي والأشوري -

هذه الآداب قد نقلها الاسكندر الأكبر الى بلاده، ثم تقلبت حياة العرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، الى أن سَلَّم كسرى صولجانت ملكه وَلَعِبَ دورَه العظيم في تاريخ بلاده . ولمَلَّ الأحوال العالمية عهدُك ساعدته على مهمته في النهوض بالعقلية الفارسية وفي تجديد منها . ويقول لنا «جبون» : إن «يوستنيان» قيصر الروم حين أضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية ، أقفل الهياكل والمدارس وطارد العلماء المفكرين ، فأضطرب جماعة من هؤلاء العالسة، الى الرحيل الى بلاد العرس حيث وجدوا من كسرى أنوشروان من قدرهم قدرهم . ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تمترض لرأى المستشرق (نولدكه Noldeke) في هذا الصدد : «إن شغف كسرى بالبحوث الدينية والمطارات الفلسفية وما كان يحسد في ذلك من لداذة وإمتاع ليعيد اليها ذكرى المأمون والأمراطور الأكبر مما نسك عنه الآن» .

على أن مع إمساكنا عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسس مدرسة للطب والفلسفة في جَدَنِيَابُور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية . وأنه ليحذر بها أن ننظر هل استعاد العرب حقاً من علوم العرس عند ظهور الإسلام ؟ وهل استعادوا من عزوهم مصر وفيها مدرسة الإسكندرية ؟ ومن إحصاءهم الشام المتأثرة بآثار العقلية الرومانية ؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي ؟ لأن في توصيفها ذلك بعض المع لس في دراسة التحول العلمي والأدبي في تاريخ التدين الإسلامي الذي وصل الى درجة حقيقة بالاجلال والإكبار في عصر المأمون، العصر الذي نصح فيه مختلف الفنون والآداب . فَلَنُحَاوِلُ توصيف شيء من ذلك مُتَوَخِّينَ حدَّ القصد والإيجاز .

(ج) حركة النقل في العصر الأموي :

يخبرنا ابن أبي أصيبعة في الباب الذي أوردته لأطباء العرب في إبان الإسلام : أن «الحارث بن كلثة» تعلم الطب بأحية فارس وتمتزن هناك وعرف الداء والدواء . ويخبرنا

أيضا أن عبد الملك بن أحر الكافى، الذى أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان اميرا على مصر، كان طبيا طامحا ماهرا، وأنه كان فى أوّل أمره فى الاسكندرية لأنه كان المتولى للتدريس بها من بعد العلماء الاسكندريين؛ وزاد بأن عمر بن عبد العزيز لما أفضت الخلافة إليه، نقل التدريس الى أطاكية وحران وعزق فى البلاد. ثم ذكر ابن أثال طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أبا الحكم « وتماذوق » طبيب المحاج. وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العرب أو ما يمكن أن يُعبدوا من علم الطب. فلتنقل من هذا الى التكلم عن حركة النقل والترجمة. ويكميها الآن أن ننظر فيما رواه صاحب المهرست عن ذلك إذ يقول .

« كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيما آل مروان ، وكان فاصلا فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بهاله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تهيّج بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى ، وهذا أوّل نقل كان فى الإسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية الى العربية فى أيام المحاج والذى نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم ، وكان أبو صالح من سبى بَحْتَان ، وكان يكتب لراد إنفروخ بن يرى كاتب المحاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية تخف على قلب المحاج ؛ فقال صالح لراد إنفروخ : إنك أنت سبى الى الأمير ، وأراه قد استخفى ولا آمن أن يُقدّمنى إليك وأن تسقط متزئك ، فقال : لا تفعل ذلك هو الى أحوج منى اليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابا غيرى ؛ فقال : والله لو شئت أن أحول الحساب الى العربية لحولته ، قال : فحزّل منه أسطراحتى أرى ، فعلم ؛ فقال له : تمارض ، فتمارض ، فبعث المحاج اليه تيا دروس طبييه فلم يره علة ؛ وبلغ زاد انفروخ ذلك فأمره أن يُقتل زاد انفروخ فى فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه الى منزله ، فاستكتب المحاج صالحا مكانه ، فأعلمه الذى كان جرى بينه وبين صاحبه فى قل الديوان ، فعزم المحاج على ذلك وقبّله صالحا ، فقال له مردانشاه

ابن زاذانفروخ : كيف تصنع بدعويه وششويه * قال : أكتب عشرا ونصف عشر ؛ قال : فكيف تصنع بويد ؟ قال : أكتب وأيضا قال : والويد : النيف والريادة تزداد ، فقال له : قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية . وبذلت له العرس مائة ألف درهم على أن يطهر العجز عن قتل الديوان ، فأبى إلا أن يلقه فلقه . فكان عبد الحميد بن يحيى يقول : لله در صالح ! ما أعظم مثته على الكتاب . وكان المحاج أحله أحلا في قتل الديوان .

فأما الديوان بالشام فكان مارومية ، والذي كان يكتب عليه سرجون بن منصور لمعاوية ابن أبي سفيان ، ثم منصور بن سرجون . ونقل الديوان في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى عيسى وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك . وقد قيل : إن الديوان نُقل في أيام عبد الملك ، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر قتراس فيه فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان ، فقال له : أنقل الديوان وأرتحل منه .

ثم مجده يتكلم في مكان آخر من أصله القديم وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصمة وغيرها . فمن نحن من هذا وغيره أن اللغة العربية أحدثت تحرى أشواطا في حلة العلوم في هذا العصر .



وزيد أن نشرح شرحا بسيطا حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي متوجين الاختصار على قدر الطاقة فنقول :

(د) الخطابة ومميزاتها :

لم تزدهر الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية ، كما ازدهرت في هذا العصر ، لاعتماد الناس عليها في السياسة والدين . وقد جعلها الدين الإسلامي فرصا من العروض في الدعوة إليه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن ورد البدع ، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عزز ماتهم ، والوالى في رعيته يستغزبها

حيثهم ، والزعيم في شفعه يجمع بها شتاتهم ، اذ لم يكن غيرها من وسائل التلغيف ميسورا ،
لذوبوع الأمية وفقدان وسائل الشر .

وقد وحدثت بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، سبب اختلاف المسلمين ، وتعند العرق
واختلاف الأحرار ، محالاً واسعا للرق والسبق ، لاعتماد كل حرب عليها في شر نخلة ،
وتأييد دعوته .

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة فيه : من حامة الألفاظ ومثانة
التركيب ، والتأاعد عن حوشي الكلام . ويميزها أيضا أنها أقبست من القرآن كثيرا ،
ونجحت نهجها في الارشاد والافناع ، وأنها تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ، حتى قبل
خطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق . " الخطبة التراء " إذ لم يمد الله ولم يصل
على نبيه فيها . وقد كان هذا العصر أحفل العصور بالخطباء ، فقد كان حل الحلفاء والقواد
وولاية الأمصار وزعماء الأحرار المختلعة حطباء مصاقيع . وفيها يعمظه تاريخ الآداب من
آثار الخطفاء ، ولا سيما الإمام عليّ ، ومن خطب المحامس يوسف ، وزيايد بن أبيه ، وطارق
ابن زياد ، مصداق ما نقول .

ولسقل هنا حيلة المحامس في أهل العراق بعد دبر الجماجم فهي حير مثال لصبح الخطا -
في العصر الأموي . قال :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استنطقكم لحاط اللحم والدم ، والمصب والمسامع
والأطراف والشفاف ، ثم معى الى الأعماح والأصمحاء ، ثم ارتفع مشش ، ثم باش وفرج ،
لغشاكم نفاقا وشقاقا ، وقد اتخذهم دليلا تبعمونه ، وقائدا تطيعونه ، ومؤمرا تستشيرونه ،
فكيف تنفعكم تجربة أو تعطكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان ! ألسنتم أصحابي
بالأهواز حيث رمم المكر ، وسعيت بالفدر ، وظنتم أن الله يخذل دينه وخلاقته ، وأنا أرميكم
بطرفي وأتم تسفلون لوانا وتنهزمون سراعاً . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان
فشلكم وتنازعكم ، وبرامة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذ ولّيتكم كالإبل الشوارد الى أوطانها ،

النوازع الى إعطائها، لا يسأل المرء من أخيه ولا يُلَوِّى الشيخُ على بنيه، حتى عَصَمَ السلاحُ وقصَصَتكم الرماحُ . يومُ دير الجماح، وما دير الجماح ! بها كانت الماركُ والملاحمُ ضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويدخل الخليل عن خليله^(١) .

«يا أهل العراقِ أهلَ الكفريات والعدرات، والثورة بعد الثورات، إن أعتكم الى عبوركم علمتم وخستم ، وإن أمنتُم أرجفتُم، وإن خفتُم ناقتُم لا تذكرن خشيةً ولا تشكرون نعمةً، هل استخضركم ناكثٌ، واستغواكم عاوي، واستصركم طالم، واستعصدكم حالع، إلا وتقتمونه وآويتموه ونصرتموه ورصيتموه ! . هل شَفَّ شاغٌ أو نعب ناعبٌ أو نقي ناعقٌ أو زفر زافر إلا كنتم أشياءه وأنصاره ! ألم تنهك المواعظُ ! ألم تَرحمِ الوقائعُ ! » .

ثم نظر إلى أهل الشام فقال :

«يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظلم الذاب عن فراخه، ينفى عنها المدرَ ويبعدُ عنها المحرَّ، ويكفيها من المطر . يا أهل الشام أتم الحنة والرداء، وأتم العدة والنِطاء . »

وقد يكون من المبعد حقاً أن ترجع الى «صبح الأعشى» وغيره من المظان الأدبية، لتقف بهمسك على خطب القوم المتعة أسلوباً، الفخمة لفظاً، العمية معنى ، في ذلك المصير الزاهر .

(هـ) الكتابة :

الكتابة — سواء أكانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشؤون العامة أم في إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنشور — لا ترقى بل لا تكون إلا في الأمم التي أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومة منظمة، ودواوين معتدة، وصناعة متوعة، وزراعة نامية، وتجارة راجحة، لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ماله من حظ من الحضارة .

(١) هاتان الفقرتان مقتتان من قصيدة لبيد أدهس راحة التي أشدها عن يدي النبي صلى الله عليه وسلم عند دخوله مكة في حرة القضا وأصل البيت :
ضرباً يزيل الهام عن مقيله * ويدخل الخليل عن خليله
أدهس سيرة أدهس هشام .

وقد كانت الكتابة معروفة عند التبابعة حنوماً، والمناذرة والفساسية في الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحصاره نصيبٌ. أما البدومس سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي. وقد كان حفظ الكتابة فيهم حفظها في أمة مادية قليلة الشؤون، لذلك لم يبلها في الرق ما نال أحويها الشعر والخطابة. فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومة مُنظمة وفتح الله عليهم أقطار الأرض، اشتدت حاجتهم إلى الكتابة، فأخذت سبيلها إلى الرق والكحل، حين صارت حاحة من حاجات الدولة.

بيد أن الكتابة لم تلح كالمأكل المحكى، في التنسيق وإيلاء الحاجة، وفي اتساع ما تناولته من شؤون الدولة والناس، إلا بعد أن نُقلت الدواوين التي كانت بالفارسية في فارس، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعد أن طهر في العربية كتاب صقلهم الاطلاع على آداب العرس وغير العرس من الأمم التي كانت لها قدمٌ راسخة في الحصاره : كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب.

على أن لسنا نرمي بذلك إلى أن لا ملاءة في ذلك العصر تغير اطلع على بلاغة الأمم الأخرى، لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وخطب الخلفاء وتراث الجاهلية، الكثير الذي لا يضرب، والمعين الذي ينهل من أغواره كتاب العصر غير مُزاع ولا مدافع. وإما لنعرف مظاهر الأدب العربي على أمثلة ما سمعنا قول. فهذا كلام أم الخير والزرقاء وعكرشة بنت الأعرس، وأنه لما يُنفذ حير مثال للثر في العصر الأموي. وستثبت لك في باب المنشور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنشور العربي، أحدهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق والتي قيل إنه كتبها لعل بن أبي طالب رضى الله عنه فهي تمثل عصرها ببلاغة ونغامة. والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب قيل إنه كتبها من مروان بن محمد لعبد الله ابن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وسمو معنى.

(و) حالة الشعر في العصر الأموي وتحوله :

لكي نلمس بأيدينا صحة قول أولئك الذين يذهبون الى أن العصر الأموي، كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوى طاهر في اللفظ والمعنى، يلزما أن فهم فهما أوليا سداجة الشعر الجاهلي وصديق تعبيره عن الحياة الجاهلية .

علم أن العصر الجاهلي للعرب كان في مجموعه، ككل المصور الأولية للعقل البشري، ساذجاً بطورياً وعلومه وسطيمه وعاداته ولكه لم يكن كذلك في آدابه، فإن عرب الجاهلية بدموا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، وصورهم من التكلف، وبعدم عن الصنعة الكلامية .

إن العرب في جاهليتهم بطموا الشعر في كل حاجتهم وأبدعوا فيه بسليقتهم . ومع أنهم كانوا في دور فوصاهم فقد مضجت لهم أفانيس كانت آية في ملاحة اللسان العربي . وكان الأدب الجاهلي بطورياً ثمتلاً خلق العصر مهياً استقلال الفكرة البدوية، وكان في ضروبه كافة من وصف ومدح ورناء وهناء مطلقاً بما يجهش في نفس قائله حقاً، كما كان في بلاغة تركيبه ومده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آية في ملاحة الفطرة وشاهدنا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلة عن شعور صاحبها في النفوس والأفهام .

على أنه يجدر بنا أن نقول : إن المقلقات وعبرها من آثار العقل العربي الجاهلي، قد لا تتأثر بها نفوس العصر الحاضر، لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشعب المدييات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكمت بنو ألفاظها وخشوتها، فكما أن الأدب الانكليزي قد لا يستعمل اليوم ألفاظاً كان يستعملها شيوخ العقل الانكليزي « كما كون » و « شكسير » و « ملتون » من حيرة نتاج عصر الزباث الذهبي وقبلهما « شوسر » وشعراء المغاني، ويعتبرها البعض ناسية حافة، وأنها مئة ألفاظ مدرسة تاريخية، كما هم الحال في نظر أدب العصر

الانكليزي أو العرسي أو الألساني في تراجمهم عن الكتاب المقدس، وإلى شعرائهم وأدبائهم المتقنين، كذلك هو الحال في أحكامنا عن نتاج العصر العربي الجاهلي .



إن المدنية ما وُتَّ ساعة ولا يوما، ولكن عاطفة الانسان تكاد تكون هي بنفسها في كل العصور : يحزك لواعجه الجمال، ويعطر قلبه ريب الرمان، ويُبثُّ شكاته إلى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتوَّأ حبات الأملدس بسحر بيانه، فهو يعمر ويشدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يحطك ويظم ويصيرُ الأمثال . وهو صادق في ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان في دَوْر سذاجته بعيدا عن صروب المدينيات التي كثيرا ما تُلازمها تقاليد حاصة وتصحبا آدابٌ تُعورِف عليها تُقلُّ صراحته وتُحلُّ من حدة شأته، وتحصل له سلطانا على ميوله وأهوائه . واللسان طَلَّة مصباحٌ إن تركت له عِانه، كُتْمَةٌ مُصلِّلٌ إن جعلت العقل والتقليد ميرانه .

من هنا نستطيع أن نُفسِّر سداحة العربي الجاهلي وجنوحه إلى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الاسلامي الذي قد صفقته لاعة القرآن وتعاليمه، وشدَّبتَه سمة الرسول ومهامه، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أثناء الفتوح العربية من تراث المدينيات الفارسية في العراق وفارس، والرومانية في الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان إلى ما حلَّف له أبائُه العربُ من حكمة وبيان .



كان شعراء الجاهلية يُسدِّدون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يُخطئونها، ويقولون الشعر عن شعور حتى، ولا يخطئون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، بجاء شعرهم مثلا صادقا لبدائتهم وحضارتهم، حتى لو أندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبق إلا شيء من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفا كاملا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرا من عوامس جاهلية اليونان من شعر «هوميروس» .

واليك مثالا قول المهلهل بعد وقعة السَّلاَن اذ حصرها مع أخيه كليب وفرَّ ابن عتيق الحية من وجههما :

لو كان ناهٍ لأبن حية زاجراً . لهاء دا عن وقعة السَّلاَن
يومٌ لسا كانت رياسة أهله . دون القبائل من بني عدنان
عَضِبَتْ مَعْدُ غُثَا وَبَمِثْنُهَا . فيه مملأة على عسان
فأزالهم عاكليُّبُ طعسة . في عُمر مائل من بني قحطان
ولقد مضى عنها أبْنُ حية مدبراً . تحت العماحة والخنوف دوايني
لما رأنا بالكلاب كأننا . أسدٌ مَلَاوْنُهُ على خفان
ركب التي سَجِبَتْ عليه ذبولها . تحت العماح ببلية وهوان
ونحا بمهجته وأسلم قومه . متسرلين رواعف المزان
يمشون في حلق الحديد كأنهم . جُرْتُ الجمال طليين بالقطران
هم الفوارس لا فوارس مدحج . يوم الهياج ولا بنو قحطان
هزموا العداة بكل أسمر مارين . ومهيد مثل الفدير يمان

وبعد، فإننا بعد ما قمنا من موجر كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية نوظة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى مندوحة من الإشارة هنا الى أما سعى حاية، حاصة، بهرعي العزل والشعر السياتي، لأنهما بحالتيهما الأموية يكادان يكونان وليدي العصر وتناحه .

وليس معنى ذلك أنا نكر تلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والثناء والمجاء، ولكنا نلاحظ أن العرق لا يعدو ملقومات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية، القريبة العهد من نزول القرآن واشتغال الناس بتلاوته وإقبالهم على دراسته، حتى انطمعوا على بلاغته وبيانه .

على أنه من المعيد أن نُشير الى شيء جديد أصاب فن المدح في العصر الأموي، لأنه حاص بهذا العصر دون سواه .

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء» : أتى بعض الرّجّازِ نصر بن سيار وإلى خراسانَ لِنى أُمّية، فهدحه بقصيدة تشبيهاً مائة بيتٍ ومدّيحها عشرة أبيات، فقال نصر : « وافقه ما بقيت كلمةٌ عدوهُ ولا معنى لطيفٌ إلا شَفَقْتَهُ عَن مديحي بتشبيك، فان أردت مديحي فاقصده في النسب، فأتاه فأنشد :

هل تعرف الدارَ لأُم العمر . . . دع ذا وحترِ مدحةً في نصر

فقال نصر . لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين .

(ز) الغزل :

كان عَزَلُ الجاهلية من عمو الخاطر وحبس البديهة، باطناً بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، ووقد أدهانهم وثائر طبايعهم، وكان بريثاً من الصمة والكلفة .

ومع أنى من يدعيون إلى أن الشاعر الجاهل، كان يعالج الصون الشعرية كافة مير مقصور على السب والنات، بيد أنى من يقول إن المعاني العرلية وألغازها تكاد تكون مُعَادَةً فيما بعد العصر الجاهل، بتوسع تفضيه المديّة، وطلاوة اكتسبها الألفاظ من ملاحه القرد، وعدوية أتعجبها ثروة الأذهان من أفلاويق العرفان .

ولقد صدق زهير إذ يقول :

ما أرا ما يقول إلا مُعَارَا « أو مُعَادا من لفظاً مكرورا

أجل، لقد كان العَرَلُ الأموى عيا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنا نجد فيه لوائح الحب ولعائنه، وشكايات العصب وأناته، وزفرات العاشق وعبراته .

السا نلمس التوجع والامسى في قول ابن الدمينه الخثعمي :

ألا يا صبا مجيد متى هجيت من نجد . . . لقد زادنى مَمَرَك وجداً على وحيد

وفي قول الصمة بن عبد الله بن طفيل :

حَسَنَتِ إِلَى رِيًّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ « مَرَارَكَ مِنْ رِيًّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

نريد أن ندرس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والنفى والثروة، عصر القصور والملاد، عصر الاندماج في غير المرب واتحاد السراري والساياء، تكاد مات ووصيفات وزوجات .

لقد كثرت الترف كثرة حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يحزه المنزل، وحلق أنواعا صريحة من المباح الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء، رغبة في الحب من حيث هو، وفي التشبيب من حيث هو : بمعنى أما كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعرا وقف حياته الشعرية على معالجة فن الغزل حس، لا يتكلف غيره ولا يعنى بسواه، فادبا في العصر الأموي نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة ومهنة .

وطاهرة أخرى نلاحظها في المنزل الأموي تطهر بجملاء مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي، تلك أنواعه المتباينة التي يصح لنا أن نقسمها الى أربعة أبواب : عزل إباحي، ويصح لنا أن نقدر من عمر بن أبي ربيعة زعيا لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني العبث بها والاستمتاع باللفة المادية مما يميزه الأدب الجاهلي وما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمتهم .

ولقد صدق ابن جريح إذ يقول : "مادخل على العواتق في حدودهن شيء أصرت عليهن من شعر ابن أبي ربيعة" . ونحيل القارئ الى حديث الزبير بن بكار عن عمه مصعب في صفة هذا الشاعر الكبير، على أن نكتب الأعاني وغيره من أمهات كتب الأدب العربي مترجمة بشعره وتشبيه مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان تبع ساء وحلس عانيات، وصافا لأحاديثهن، واقفا على دحائلهن، مطلعا على هوى نفوسهن . ولا حاجة بنا الى التطويل هنا فيما هو مشهور متعارف، خصوصا أنك ستجد طرفا من شعره، في باب المنظوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني، فراجعهم ثمة .

على أنه مع ذلك يذوب رقة وحنانا في بعض مقطعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علي، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها .

كتب ابن أبي ربيعة الى الثريا وهى باليمن يقول :

كتبْتُ إليك من بلدى • كتاب مَوْلَه كَكَمِيدِ

ولقد كانت مكة والمدنية مسرحاً لهذا النوع فى العصر الأموى . وسبب ذلك ميسور فهمه ، معقول تحليله ، ذلك أن الخلفاء تعتمد جلهم الإغداق على أهل الججاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما ورثهم آباؤهم ، ليحولوا بينهم وبين ما يطمحُ اليه أمثالهم من منافسة فى الملك ، أو مشاكسة للسلطان ، وليشغلهم عن أمور الدولة بإرحاء العنان لهم فى لذاتهم وماسعهم .

وهناك العزل العُدريُّ البرىء ، غَزَلَ الحب الصادق ، والمواطن المتأججة ، والتمس المتألمة المعاة ، تلك العُسرُ التى تجدد لذتها فى الكَلَفِ بمن تحبُ والتعلق به والشعور بالسعادة فى الفناء بحبه ، حباً يملك عليه لبه ويعتد رُوحه ويفنى جسمه كعزل جميل . وليس أدلُّ على صدق حبه مما أنته صاحب الأغانى فى الجزء السابع ، اذ حاول أبوه أن يصره من حبه وحاجة فى ذلك أجمل مُحاجة ، فكان من جميل ما كان مما نجده مفصلاً فى موضعه .^(١)

وغزل صباغى بين هذا وذاك ، همه الإجادة فى الشعر من حيث هو شعر ، لا فى الحب من حيث هو حب ، ولما فى كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث^(٢) .

وغزل قصصى ، حلقة الرواة لأنهم رأوا ميلَ الناس الى العزل والى حياة القصف وما يتبع حياة القصف ، فظلموا قصائد نخلوها لشعراء لانستطيع أن نحتمل تبعه القول بوجودهم فى الحياة أو القول بأنهم أشخاص خياليون حققهم الرواة أو زادوا من صدم مقطعات نسبوها لهم وأضافوها الى شعرهم . وزعياً هذا النوع . قيس بن الملقح وليلاه ،^(٣) وقيس بن ذريح وليباه .^(٤)

(ح) الشعر السيامي .

بداية عصر بني أمية معركة سياسية ، لَبَّ فيها معاوية وأنصاره دوراً مُتميّحاً طريفاً في سبيل استلاب الخلافة من عليّ ، وتأسيس ملك بني أمية ، على قواعدٍ وسننٍ تحالف قليلاً أو كثيراً ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين .



الإنسان في سبيل تحقيق أطاعه السياسية، هو بعينه في عصر معاوية، وفي عصر يوليوس قيصر، وفي عصر نابليون، وفريدريك الأكبر أول طاهل لألمانيا، هو بعينه إنسان اليوم، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها، يستعمل المال في شراء الضمير الإنساني، ويعمل جهده على إذاعة دعوته، وتبيان فصائله، وتصويب خطته، بالتحاد الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة، والتي كانت في عصر معاوية وحلفاء معاوية وفي عصر المأمون وحلفاء المأمون، تستعمل السلة الشعراء، وهي أسرع انتشاراً، وأعمق أثراً، وأكثر رواية، وأطول عمراً، مما يكتب اليوم، فلا يرويه من الناس إلا قليل .

إنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية، واستحداث العزمات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وما «للسلي» من أثر في نفوس الجند الفرنسيين، إذا تحي وطيس الحرب واشتد أوارها . وأنت جد عالم بما كان لقصائد «اللورد بيرن»، الواحدة تلو الأخرى، في سبيل استقلال اليونان الحديثة، وفي سبيل اجتذاب عطف أوروبا وساستها وجامعيها وملوكها وقوايا ومحمها، لياخذوا باصر أمية مهيضة غلبت على أمرها .

أنت جد عالم بأن قصائد «بيرن» هذه قعّت في المعركة السياسية ما لم تجعله جيوش مصر وأساطيلها وبذخيرة الترك وأنتصارها، فكان الحكم «لبيرن» وكان الانتصار لشعره .



كذلك كان الحال في عصر بني أمية، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن المبع وأوسع نطاقاً. ألم يُوعر معاوية، في رواية يزيد أبنه، إلى مسكين الدارمي أن يقول أبيتنا في معنى المناسبة ليريدَ وشدها إياه في مجلسه وهو حامل بالوجه والأشراف ! .

وتقول رواية الأغانى : إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد، تهيّب ذلك وحاف ألا يملكه عليه الناس لحسن الثقة فيهم وكثرة من يُرتجّ للخلافة، وبلغه في ذلك درو^(١) كلام، كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكياً، وكان يؤثره ويصله ويقوم محاجاته عد أبيه، أن يقول أبيتنا وشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلاً وحصره وحوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وأبته يزيد عن يمينه وهو أمية حواليه وأشراف الناس في مجلسه، فنلّ بين يديه وأنشأ يقول :

إن أدع مسكياً فإني أبى معشير . من الناس أحمى عنهم وأدودُ
اليك أمير المؤمنين رحلتها . شير القضا ليلا ومن هودُ
وهاجرة طلت كأن طساءها . إذا ما آتتها بالقرون مهود
ألا ليت شعري ما يقول أبى عامر . ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
بى حلاء الله مهلاً وإنما . يوثها الرحمن حيث يريد
إذا المرء العربي حلاه ربه . فإن أمير المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميمون والجد صاعد . لكل أناس طائر وجدودُ
فلارت أعل الناس كهبا ولا تزل . وفود نسائها اليك وفودُ
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً . نسيّد أطناب له وعمودُ
قدور أبى حرب كالجوابى ونحتها . أناف كأمثال الرمال رمودُ

فقال له معاوية: «تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله». قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عدهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزلنا صلته اهـ.

وأطنك لا تطلب ما حين مطالعتك هذه القصيدة تحللها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا إليه؛ فيما أسلفناه لك من القول بأن شعر العصر الأموي عربي جاهلي في محاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأعراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للعصر الجاهلي. وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعيبا كثيرا.

على أنه لزام في عقبا أن نصور، إلى مدى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأعراض السياسية، لأن هذا النوع الطريف نتائجه وآثاره في هذا العصر والمصور التي تلته، ولأن هذه الميزة اصطبغ الشعر بالفرض السياسي واندفاع صاحبه في سبيل نصره دعوته مُعَدًا ما قد يتصور طريقه من صعاب، مُدَلِّلا ما يعترضه من عقاب، مُتَهَكَّا حرمة التقاليد والأشخاص، بل خارجا إلى حيز لا يرضى عنه فقهاء الدين كثيرا، وربما لا يرضى عنه الشرع حقا، نزم أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها. ولما بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيّد للحوادث نجسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولما مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط ميدانها ما سيأتح لنا تفصيله فيما بعد، من اتساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين.



مثّل آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير عليّ، بين كعب بن جُعيل والنجاشي. وهما قصيدة كل منهما، قال كعب بن جُعيل:

أرى الشام تكرر ملك المرا * ق وأهل المراق لم تاركوا
وكل لصاحبه مُبَغِض * يرى كل ما كان من ذاك دينا

وقالوا على- إماماً لنا * قفلنا رَضِيّاً ابنَ هند رَضِيّاً
 وقالوا نرى أن تَمِينُوا لنا * قفلنا لهم لا نرى أن نَدِينَا
 وَكَلَّ يُسْرُ ما عده * يرى عَثَّ ما في يديه سَمِينَا
 وما في على- بِمُسْتَعْتَبِ * مال سوى صمّه المحدثينا
 وليس برايس ولا ساحيط * ولا في النهاء ولا الآمِيسَا
 ولا هو ساء ولا هو سَرُ * ولا بدّ من صددا أن يكونا
 لما قرأه على- رضى الله عنه قال للجاني أحب، فقال :

دعْ مُعَاوِيَ ما لي يَكُونَا * فقد حَقَّقَ الله ما نَحْدُونَا
 أتاكم على- أهل المرا * ق وأهل المحازفنا تصعونا
 يرون الطعانَ جلالَ العما * ح وضرب القوايس في القعدينا^(١)
 هم هزموا الجمع جمع الزبير * وطلحة والمعشر الناكثينا
 فان يكره القوم ملك العراق * ق قدماً رَضِيّاً الذي تَكْهُونَا
 فقولوا لكيب أحى وائل * ومن جعل الفث يوماً سَمِينَا
 جعلتم علينا وأشياءه * نظير ابن هيد ألا نَسْتَحُونَا



وهالك مثلاً آخر ذكره صاحب الأعاني في ترجمة النعمان بن بشير قال: تشبب عبد الرحمن
 ابن حسان برملة بنت معاوية فقال :

رَمَلْ هَلْ تَذْكُرِينَ يَوْمَ عَزَالِ - إِذْ قَطَعْنَا مَسِيرَنَا بِالْتَمَنَّى
 إِذْ تَقُولِينَ عَمْرُكَ اللهُ هَلْ ثَمَى * وإن جَلَّ سوف يُسَلِّكُ عَنَى
 أم هل أطعمت يابن حسان في ذا * لك بما قد أراك أطعمت مَنَى

قال: فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب، ودخل على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين،
 ألا ترى الى هذا الطبع من أهل يثرب يتهم بأعراضنا ويُشَبِّبُ بنسائنا ! فقال : ومن هو؟
 (١) القوايس : جمع قنوس وهو أعل الرأس، وأعل بيضة الحديد أو مقدها .

قال : عبد الرحمن بن حسان فأنشده ما قال ؟ فقال ، يا يزيد ليست العقوبة من أحد أقيع منها بدوى المقدرة ، ولكن امهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم دكرني به ، فلما قدموا ذكره به ، فلما دخلوا قال : يا عبد الرحمن ، ألم يبلغني أنك تُشَبُّ برملة بنت أمير المؤمنين ! قال : بل ولو علمت أن أحدا أشرف بشعري منها لذكرته ؟ قال : أين أنت عن أختها هند ! . قال : وإن لها لأختا يقال لها هند ؟ قال : نعم ! وإنما أراد معاوية أن يشبَّ بهما جميعا فيكذب هسه ، فلم يرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه ، فأرسل الى كعب بن جعيل فقال له : أئج الأنصار ، فقال : أفرق من أمير المؤمنين ، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل ، قال فدعاه فقال له ، أئج الأنصار ، فقال : أفرق من أمير المؤمنين ، قال : لا تخف شيئا أما لك بذلك ، فهجاهم فقال :

واذا نسبت أن القرية جلتة * كالجش بين حمارة وحمار
لن الآله من المهور عصابة * بالخزع بين صليصل وصُدَار
قوم اذا حذر المصير رأيتهم * حمرا عيونهم من المصطار
خلو المكارم لستموا من أهلها * وخذوا مساحيم بن النجار
إن الفوارس يعرفون ظهورهم * أولاد كل مقع أكّار
ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللوم تحت عمام الأنصار

فبلغ ذلك العلاء بن بشير ، فدخل على معاوية ففسر عمامته عن رأسه وقال : يا أمير المؤمنين ، أترى لوأما ؟ قال : لا بل أرى كرما وخيرا ، هانذا ؟ قال : زعم الأخطل أن اللوم تحت عمام الأنصار ! قال : أوفعل ذلك ؟ قال : سم ، قال : لك لسانه ، وكتب فيه أن يؤق به ، فلما أتى به سأل الرسول أن يذخه الى يزيد أولا ، فأدخله عليه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف ؟ قال : لا تخف شيئا ، ودخل على معاوية فقال : علام أرسل الى هذا الذي يمدحنا ويرمي من وراء هجرتنا ؟ قال : هجا الأنصار ؟ قال : ومن زعم ذلك ؟ قال : التمهّن بن بشير ، قال : لا تقبل قوله وهو المدعى لنفسه ، ولكن تدعوه بالينة وإن أثبت شيئا أخذت له ، فدعاه بالينة فلم يأت بها فخلّاه ، فقال الأخطل :

ولم وإن استعرت أم مالك * لراض من السلطان أن يتهددا
ولولا يزيد أن الملوك وسعبه * تحلت جرماً من الشر أنكما

أما رد الهان على الأخطل فها كما قلنا أو الفرح الأصهباني عن خالد بن كلثوم :
معاوي إلا تعطى الحق تعترف * ليلى الأزد مشدودا عليها العائم
حتى قوله :

اليهم يصير الأمر بعد شتاته * من لك بالأمر الذي هو لازم
هم شرع الله الهدى فاعتدى بهم * ومنهم له هاد إمام وحائم

وإنما نحيل القارئ إلى الكتاب الأول من المجلد الثاني ليقف على قصيدة الهام
هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائبة الأخرى التي أشدها معاوية لما صرب
مروان بن الحكم، عند الرحمن بن حسان الحد ولم يصرب أحاه حين تهاجيا وتقاذفا .
وتحرير الخبر فيها : أنه لما كثر المعاء بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم
ابن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة،
أن يخلد كل واحد منهما مائة سوط . وكان ابن حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً
غيره قط، ففكر أن يصرب أو يصرب ابن عمه فامسك عنهما، ثم ولّى مروان، فلما قدم
أخذ ابن حسان فصر به مائة سوط ولم يصرب أحاه، فكتب ابن حسان إلى الهام
ابن بشير وهو بالشام، وكان كبيراً أثيراً مكياً عد معاوية، قال :

ليت شعري أعائب أنت بالشد * أم خليل أم راقد هان
آية ما يكن فقد يرجع الله * نائب يوما ووقف الوسان
إبن عمرا وعاصرا أوينا * وحراماً قنما على العهد كانوا
أفهم ما يملك أم قسلة الك * ناب أم أنت عائب غضبان
أم جفاه أم أعوزتك القراطيد * من أم أمري به عليك هوان
يوم أنبت أن ساق روضت * وانتكم بذلك الريكان

ثم قالوا إن ابن عمك في يد . حوى أمور آتى بها الحمدان
فسيب الأرحام والود والصحة . سة فيما أتت به الأزمات
إنما الرمح فأعلم قساة . أو كمعص العبدان لولا السان

وهي قصيدة طويلة . ودخل البهار شير على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين، إنك
أصرت سعيدا بأن يصرت ابن حسان وابن الحكم مائة سوط فلم يفعل، ثم وليت مروان
فصرب ابن حسان ولم يصرب أحاه ! قال : فتريد ماذا ؟ قال : أريد أن نكتب إليه
بمثل ما كتبت إلى سعيد، فكتب إليه معاوية يعزم عليه أن يصرب أحاه مائة، فصره
حسين وبعث إلى ابن حسان بجملة وسأله أن يغفو عن خمسين، ففعل وقال لأهل
المدينة : إنما صرني حد الخنز وصره حد البعد خمسين، فشاعت الكلمة حتى بلغت
ابن الحكم، فجاء إلى أخيه فأخبره وقال : « لا حاجة لي فيما عا عنه ابن حسان » ؛ فبعث
إليه مروان : « لا حاجة لنا فيما تركت، فهلم فاقصص من صاحبك » . فحصر فصره مروان
خمسين أخرى اه .



ويجدر بنا الآن، بعد أن أومحنا ميرة استعمال الشعر في الأمراض السياسية في الدولة
الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تحلو من نفع فيما سعالجه، وهي أن تلك
الأمراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعماهم من إقامة الحدود .
وقد سبق لنا أن أشرنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حده للشاعر
المناصر لسياسة بني أمية وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بابي سيجان وكان حده لشريه
الخنز . وابن سيجان هذا هو الذي قال في صغته أبو الفرج الأصمهانى : « كان عبد الرحمن شاعرا
مُقِلًا إسلاميا، ليس من الفحول المشهورين، ولكنه كان يقول في الشراب والتزل ومدح
أحلافه من بني أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بني أمية كواحد
منهم، إلا أن اختصاصه بال أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر، وخصوصه الوليد
ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم، لأنهما كانا يتناوبان على الشراب » .

وزيد الآن أن نفسَ هذه الحادثة تمسيرا معتدلا لخرج منها بما عساه يمدنا وينفمنا فيما سَنَقْدِمُ عليه من مناقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تفتت، من غير شك، بألوانيق العصر الأموي الذي تقدمها، فنبئت فيها مذوره حتى كادت تمحو في حديقته الأثف الحسنة دوحات خطيرة على الاختارات الخلقية التي توضع عليها .

وإنك إذا رجعت إلى كتاب معاوية، ورجعت إلى كتاب الأتاني هسه، ومولفه أموي كما تعلم، وحدته قد أقام الحجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر . وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه :

قال : « كان الوليد بن عثمان ، ذا علة في المحار ، يخرج إليها في زمان التمر نمر من قومه ، يحسون له ويعاوبونه ، فكان إذا حصر نروجهم دفع إليهم هقيات لأهلهم إلى رحمتهم ؛ فخرج بهم مرة كما كان يخرج ومهم ابن سيحان ، فأتى ابن سيحان كُتْلَب من أهله يسألونه القدوم حاجة لا بد منها ، فاستأذنه فأذن له ، فقال له ابن سيحان : زدوني من شرابكم هذا ، فزودوه إداوة ملاءها له من شرابهم ، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله ، فالتقاها في جانب بيته فارة ، فكث زما لا يذكرها حتى كنسوا البيت فقرأها ملقاء في الخامسة فقال :

لَا تَبْعِدِي إِداوَةَ مطروحة * كانت حديثاً للشراب العائقي
 إِنْ تُصِجِي لَأَنْتِي ، فِكِ فرعا * أَتُرِغِي مِنْ كَأْسٍ تَلْدُ لِنَاثِقِي
 مَابِي الْوَلِيدَ وَأَمْ هَمِي كَلَمَا * بدت النجوم ونزقنُ الشارق
 كَمْ عَمَدٍ مِنْ نَائِلٍ وَسَمَاحِي * وشمائل ميمونة وحلاقي
 وَكَرَامِي لِلْمُتَمِينِ إِذَا أَحْتَقَوْا * في ماله حقاً وقول صادق
 أَتَوِي فَأَكْرَمَ فِي الثَّوَاءِ وَقُصِّيتْ * حاجتُنا من عد أرْوَعِ بَاسِقِي
 لِمَا أَتَيْنَاهُ أَتَيْنَا مَا جَدَ الْإِخْلَاقِ سَبَاقًا لِقَرَمِ سَاقِي
 قَالَ الْوَلِيدُ يَدِي لَكُمْ رَهْنٌ بِمَا * حاولتمو من صاميت أو ناطقي
 فإِذَا الْوَلِيدُ الْيَوْمَ حَنَّتْ نَاقَتِي * تهوى بمنبر المتون سماتي
 حَنَّتْ إِلَى بَرْقٍ قَلَّتْ لَهَا قَرَى * بعض الحنين فإن شجوك شاتي

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للحمر . ثم لُتِثَتْ هـا قصيدته التي مدح بها معاوية :

إني أمرؤ أنمى إلى أفصل الورى * عبيدا إذا رفعت عصا المتخلف
إلى نصد من عد شمس كأنهم * مصاب أحـا أركلها لم تُخَصَّف
ميامين يرصون الكفاية إن كعوا * ويكمون ما ولوا منير تكلف
عطارفة ساسوا البلاد فاحسوا * سياستها حتى اقترت لمرد
من يك منهم موسرا يُعشّ فصله * ومن يك منهم معسرا يتعقّف
وإن تسط المعى لم بسطوا بها * أكفـا سباطا فعها غير مُقرّف
وإن تزوّ عنهم لا يصجّوا وتُفهم * قليل التشكى عددا والتكلف
إذا انصرفوا للحق يوما تصرفوا * إذا الجاهل الخيران لم يتصرف
سموا فملوا فوق البرية ككلها * ببيان عالٍ من مُيف ومُشرف

وكان من حظها أن كتب معاوية أن يعطى أرمائة شاة وثلاثين لقمعة ، مما يوطن
السبالة غير ما أعطاه سواه .

ومهما يكن الواقع الذى حدا أبى الحكم إلى حذره فإن السياسة الحزبية ومدائح
أبى سيجان فى معاوية ، واستئمال الأخير الشعراء فى ماحصره بينه — كل ذلك دفع بمعاوية
إلى كتابة ما كتب لأبى الحكم أولا ، ثم للوليد بن عتبة ثانية ، حتى اضطره لرفده بمجسمائة دينار
مما وصفه صاحب الأغاني ؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع ، وللغاية السياسية لا الدينية ،
فلقيد هذه الملاحظة فقط ، بلا توسع ولا إسهاب .



وبعد ، فلنلخص ما تقدّم عن شعراء السياسة ، وهم العصر الهاتم الذى لعب دورا
بارزا فى الأدب العربى فى العصر الأموى ، والذى كان له أثره ونتائجه فى العصر العباسى ،
فى كلمة ختامية فى هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية .

كان جلُّ شعراء هذا الدور أمويين ، فانا نجد الى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بني أمية شعراء آخرين أخذوا بأصـرهم ودافعوا عن كـلهم مثل أبي العباس الأعمى هبـاء ابن الزبير ، وأبى قطيعة طريد اس الزبير ، وأبى صخر الهـدلى المتعصب لآل مروان وهـاء ابن الزبير ، وعدى س الرقاع ، والوليد بن أمية بن عائذ الهـدلى ، وجبـاء الأعمى والحكم بن عبد الأسدى ، والسلولى ، وموسى شهوات ، وعيرهم .

والشعراء العلويون ، وى طليعتهم الهـمان بن شير الأنبارى ، والكـيت بن يزيد ، وأمين اس حريم . على أن الأخيرين اضطروا الى امتداح بى أمية ومسايرتهم ، فانا نجد الكيت قد مدح هشاما ، كما نجد أمين مدح عبد الملك . ثم نجد شعراء دون ذلك مثل أنصار آل المهلب ابى أبى صُفرة كزياد الأعـم وثابت قُطعة وحـمزة س بيـس وكعب الأشقرى وغيرهم . وأخيرا نجد حرب آل الزبير ومى شعرائه عبد الله بن الزبير الأسدى .

وصعوبة القول أن الحركة السياسية بين بنى أمية وماسـيهم فى الملك أو الجاه وما يتبعهما : من إصـداق الأموال والمطايا على أنصار كل فريق ، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن اليهم ، واللها تفتحُ اللهـا .



من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من مـيـدانٍ مـسـيـح فى صـروب شقى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل .

وقد آن لنا أن ننتقل الى الكتاب الثانى من موضوعنا ، ورجو أن نؤفـق الى إيـصـاح ما أوجـراه ، ووسط ما أجـلـهـاء ، مـبـتـلـين الى الله ألا نـصـل فى شـعـبه ومهامه ، وبهمه ومفاوزه ، بمنه وكرمه .

الكتاب الثاني

عصر بني العباس

الفصل الأول

الوجهة السياسية

توطئة — دور الانتقال — الشبهة العلوية .

(أ) توطئة :

رأيا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطنُ الصعيف وعوامل الانحطاط، وكيف وقع نزوة بين السائحين من العرب والناشرين من الموالي، وكيف انحرف حلفاء معاوية عن خطته السياسية، وكيف عُرِفَ فريقٌ منهم بالدين وشيعة آخرون بالعسك والمجون . ونريد الآن أن نلجأ إلى قصيدة تدور الانتقال إلى العصر العباسي، قبل التكلم عن العصر فيه، لنرى كيف كان اتجاه الأفكار في ذلك الحين .

(ب) دور الانتقال :

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وصياح استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم إلى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب، ليدرك حياة اليونان وعلماء اليونان، حين دالت دولتهم وخضعوا للرومان وهم دونهم في العلوم والفنون .

ولساها بصدد الإفاضة في بيان المباح التي تعلت فيها الموالي على العرب فإن لذلك مكانه الطبيعي في هذا الكتاب . وقصّارنا الآن أن نجيّل القارئ إلى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «ادوارد روث» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للعرب ، وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيل .

أدعى الموالي صاعرين لعلّة العرب عامة والأمويين خاصة ، وداقوا ماداقوا من النّلة والمسكية ، وطاوا ماعاوا من صروب الهوان ، فكان من المقول أن يترقوا الرّص لينقصوا على سادتهم العرب ، وأن ينظروا أوّل بارقة تلوح في أفق السياسة ليأصروا الباقيين على المملكة الأموية : فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ، ملعوبة مدمومة ثقيلة الوطأة ، مُستهقرة بالمعاصي والتبائح ، فكان الناس من أهل الأمصار ينظرون زوال هذه الدولة صاِحَ مساءً .



أضيف إلى ما تقدم أن الشيعة كانت ، إلى جانب قوة المحبة في أنها أحق بالخلافة ، إذ كان أصبارها يدعون إلى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي ، تَصم إلى رحالاتها شخصيات بارزة في الدين والكفاية والصلاج ، فكان خيارُ الناس يُطيعونها تدينًا ، وكان غيرهم يُطيعها رغبة أو رهبة . وكان العلويّون لا يفترون على بثّ دعاتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصمت عُروتها وكان من آنحلالها ما وصفاه . وكان الرّس يستعدّون زملاءهم المنتشرين في البقاع العربيّة في الدعوة إلى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم ، رعة في التخلص من ظلم بني أمية وعسفهم ، وطمعًا في أن يكون لهم من تبدل الحال حظّ من العزة والسلطان .

ولنذكر مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين ، تلك الثورة الهادئة الخفيفة ، التي كان من آثارها أن قُتِلَ بعضُ ولاتهم في الأمصار وأن خرج فريق على الخليفة . ولنذكر كذلك انشقاق البيت الأمويّ نفسه وتصدّع أركانه ، فإن لذلك أثره الفعال في نيل حرش الأمويين . وقد كانت بداية ذلك الانشقاق ، خروج يزيد بن الوليد على

عمه الوليد بن يزيد وتشبهه إياه أسوأ تشهير ووصفه أفتح الوصحات ، حتى تمثل بعض
بنى أمية بقول الشاعر :

إني أعيدكو ما فقه من قتي * مثل الجبال تَسَامَى ثم تسدح
إنت البرية قد ملّت سياستكم * فاستمسكوا بممود الدين وأرئدعوا
لا تُلَحِمَنَّ ذنَابَ الناس أنفسكم . إن الذناب إذا ما ألحمت رُئُعُ
لا تبقرت بأيديكم بطونكمو * فتم لا حسرهُ قُتِي ولا جزع

ولما تمّ ليزيد الأمرُ نرح عليه مروان بن محمد ، وكان أميرَ الحزيرة وأرمينية ، ومعه
جيشٌ جرارٌ يأمر بأمره ، ومعه الغمرُ يُريدُ للطالنه بدم أخيه ، فغلبَ يزيدُ على أمره
وانبسطت في البيت المالك يدُ الفرقة والانشقاق .

(ج) الشيعة العلوية :

لم تصل الخلافةُ الى معاويةَ إلا بدهائه وسعةِ حيلته وشدّ نظره وحُسنِ تصرفه
للأُمور ، وإلا فقد كان هناك حربٌ قوَى الشكيمه عزيرُ المكايه ، يرى على بن أبي طالب
أحقُّ بالخلافة : ولولا دهاءُ معاويةَ ما نزل الحسنُ بن علي ولا أحلّ لحصنه الميدانَ
في سنة ٤١ هجرية ؛ وقد كان من نتيجة ذلك أن تحطّت الأحزابُ العلويةُ من تصرفه ،
بجمعوا الجموعَ وجنّدوا الجسودَ ، وثاروا على أمير الكوفة الأموي وهو زيادُ بن أبيه —
وكان يدّ معاويةَ التي بها يصول — ولكن زيادا يعرف كيف يُحمّدُ الفتنةَ ، وتُطعّمُ الثورةَ ،
فبادر الى استئصال الداء ، وقتلَ منهم حلقا كثيرا ، أشهرهم حُجْرُ بن عدى وأصحابُ حجر
ابن عدى . بيدَ أن إراقةَ الدماء تهبّجُ الحاسة وتؤجج نارَ العداوة والغضائِ في قلوب
المغلوبين ، وكذلك ظلت الفتنة تُبدّر الشرّ المستطير .

رأى الدعاةُ العلويون أنه لا يقبلَ لهم بمعاويةَ ولا برجاله ، فقبصوا بهم ريبَ الموتِ
وعللوا النفسَ بتقلّباتِ الحوادث وموتِ الأمام ، راجين أن تعود الخلافة الى بيت النبي ،

ولكن شدّ ما مزعوا يوم أحد معاويةُ البيعةَ لآبِه يزيدَ المعروف بالميل إلى اللهو والتقصّف والتلّهي بالعبيد عن شؤون المسلمين . وفيه يقول عبد الله بن همام السلولي :

حُشِبَا الفَيْضُ حَتَّى لَوْ شَرِبْنَا دَمَاءَ بَنِي أُمَيَّةَ مَا رَوَيْتَا
لَقَدْ صَاعَتْ رِعْيُكُمْ وَأَنْتُمْ تَصِيدُونَ الْأَرَابَ عَالِيَا

وإنا لعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠ هـ . وتولى بعده ابنه يزيد ، أوى الحسينُ أن يبايعَ له بالخلافة ، بل رأى أكثر أهل التقي ومباينة يزيدَ نحرًا لحُرمة الدين . ثم قُيِّل الحسينُ في كربلاء سنة ٦١ هـ . فألقت الشيعة «حرب التوايين» بعد وفاة يزيدَ وبيعة مروان ابن الحكم سنة ٦٤ هـ ، وأخرجوا وإلى الكوفة الأمويَّ عبيد الله بن زياد ، وولّوا عليهم رجلا منهم . ثم تألف حربُ «شُرط الله» بزعامة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي . وانقسمت الشيعةُ العلويةُ إلى فِرْقٍ عِدَّةٍ ، أهمها الفرقةُ الإماميةُ ، وهي التي ترى أن أحقَّ الناس بالخلافة هم ولد عليٍّ من فاطمة بنت النبي ، والأئمة في نظرهم أننا عشر إماما ، وهم : عليٌّ ، والحسنُ ، والحسينُ ، وزييد العابدين ، ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، وموسى الكاظم ، وعليّ الرضا ، ومحمد التقي ، وعليّ التقي ، وحسن العسكري ، ومحمد المهدي . ومنها الفرقة الكيسانية ، وهي التي تقول بتحوّل الخلافة بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية . ومنها الفرقة الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين . والفرقة الاسماعيلية نسبة إلى إسماعيل ابن جعفر الصادق . وهرق أخرى أصغر من تلك شأنًا وأقل أثرًا .



على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أمية والمعرفين في مطاردة الحزب العلوي ، فريق آخر ، على رأسه خالد القسريُّ ، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانيةً ، كما يعمل ، في العادة ، فريقٌ من موظفي الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طمعًا في المناصب ، أو نصرًا لعقيدة سياسية ، أو إثارة للعدل والإنصاف .

على أن الدعوة العلوية كانت مازةً ضعيفةً ، إذا قُورنت بالدعوة العباسية التي ستكلم عليها في الكلمة الآتية . ولعلّ من أكبر أسباب ضعف الدعوة العلوية مبايعة زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، هدد بايعة أبو العباس السفاح كما بايعة أبو جعفر المنصور وغيّرهما من أئمة الحزب العباسي .

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطاً بعيداً ، وظهرت شخصيات بارزة ، قوية الشوكة ، وهيرة المال والجاه : أمثال أبي سلمة الحلّال العارسي المعروف .

ومستوى كيف تحوّلت الدعوة العلوية إلى وجهة أخرى ، وكيف استغلّت لمصلحة العباسيين . . .

(١) يخالفنا أساتذة الشيخ عبد الوهاب السارميا هذا إلى ويرى : « أن العلويين كانوا يهاضون على الحروب على الخلفاء . فكثر القتل منهم وقتلوا بحلاف أولاد علي بن عبد الله ، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحداً إلى ذلك العهد ، عهد القيام بالدعوة » .

افصل الثانی

العصبية والموالى فى الدولة العباسية

توطئة - العصبية - الموالى .

(١) توطئة :

لقد مرت بك إشارة بسيطة حين تكلمنا عن العصر الأموى الى حَقِّ الموالى الذين ملهم فى ذلك العصر من الاحتقار والرياسة حطَّ عبر قليل ، وبينا لك أن هذه الحاجة من المعاملة ، التى لا تنطق على المذهب الحديث « حرية . إخاء . مساواة » كانت عاملا قويا من عوامل الضعف والانحطاط فى دولتهم ، ووعداك أن ندرس حال العصبية والموالى فى هذا الفصل من الكتاب ، تَمْشِيًا مع النظام الذى وضعناه له .

والآن نعرض عليك حال الشعوب التى كانت خاضعة لسلطان بنى أمية حتى لتبين أحوالها النفسية والأهواء التى كانت عالة عليها . فإنه لا يكفى فى انتقال الملك من شخص الى شخص أو من بيت الى بيت بث الدعوة وتنظيمها وحرْمُ القائمين بها وإحلاص المشيرين وكفاية القواد ، بل لابد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوسا مستعدة لها ، رغبة فيها ، عاملة على إنعاشها ، لئلا تزهى وتؤتى ثمارها .

والحق أن الدعوة العباسية قامت فى وقت كانت قد توزعت فيه الحواصر الإسلامية أهواء مختلفة ، وتقسّمت القبائل العربية عوامل العصبية ، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتى أصبحت خاضعة للنزود العربى ، تستفيق من الدهشة التى استولت عليها من العودة العربية التى أخضعها لسلطان العرب المسلمين .

أما الحواضر الإسلامية فكان قد علب على كل حاضرة هوى أسرة أو شخص معين ، ولم تكن يتخفّض لسلطان العرب الأموى لولا القوة القاهرة ، ولهذا لم يكد يضطرب أمر

بنى أمية فى الأطراف، ويظهر الخارجون من الدعاء على ولايتهم، حتى أحدث هذه الحواصر تنسّل عن طاعة بنى أمية واحدة مد أخرى . وتستطيع أن تلتئم هذه الظاهرة بيسّة واضحة من تقاعد الولايات عن نُصرة آخر حلفاء بنى أمية عند ما حرّبه الأمر وتعقبه مطاردوه .

(ب) العصبية :

العصبية هى مُاصرة من يُمّت اليك بصلّة من صلات الحياه : كأن تجمعك رِحم قريّة أو بعيدة، أو عقيدة دينية، أو هوى سياسى . فيظهر أها من طبعه الوجود، اذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمّة دون أمية، ولا جنس دون جنس، ولا عصر دون عصر . وكما توجد فى الأمم البادية، كذلك توجد فى الأمم الحاضرة . وما الدعوات القومية والعراث الجنسية إلا نوع من العصبية معنّى أوسع .

والعصبية العربية، التى نحن بسبيل القول فيها، والتى كانت من الأسباب التى اصمحت لها سلطان بنى أمية، قديمة فى القائل العربية : كانت فى الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تصبّق وتنعش بحسب الظروف والماسات، فبنا زها بين العدائية والقحطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، زها بين ربيعة ومصر وهى قائل عدناية، وزها بين بنى أمية وبنى هاشم، وقد يكون هذا من أضيق مباديها . وكانت هذه العصبيات تستند حيا وتفتر آخر .

فلما جاء الإسلام ودخل الناس فيه أواحا وتم له السلطان فى جربة العرب، ألف بين القبائل وأزال ما فى صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير اليه قول الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِغُفْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْفِئَةِ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ألف الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة فى نفوسهم، ولكنه استبدلها عصبية واسعة شاملة هى عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعا اخوة .

وبقي أمر العرب كذلك الى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة الى عوامل شديدة الأثر في نفوسهم، كهيمنة الروح الدينية عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من عاثم، وكحزم الخلفاء وحكمتهم وشدة الولاء وقسوتهم .

فلما كان العصر الأموي واستقر الناس في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح، راجعتهم الشنشة القديمة، فأخذ بعضهم يقتحر على بعض مما كان لأبائهم من مجدي في الجاهلية وبلاء في الإسلام، وما لقبائلهم من قوته وأيد . وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك ، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشر بن المغيرة بن الورد الجهمدي :

أبيت أرمي النجوم مرتفعاً * اذا استقلت تجرى أوائلها
من قنينة أصبحت مجلّة * قد عم أهل الصلاة شاملها
من بحارسان والعراق ومن * بالشام كل شجاء شاعلها
فالباس منها في لون مظلمة * دهاء ملتجة غياطلها
يُمسي السفيه الذي يعتفها الـ * جهل سواء فيها وعافلها
والاس في كربة يكاد لها * تنبذ أولادها حواملها
يعدون منها في كل مبهمة * عيباء تمنى لهم عوائلها
لا يطر الناس في عواقبها * إلا التي لا يبين قائلها
كرعوة البكر أو كصبيحة حب * بل طرقت حولها قوايلها
بهاء فيها أزرى بوجهته * فيها خلوب حرز لا زلها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية حق بعض الولاء، وعدم أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة ، وأيضاً استهانة بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وعزورهم بما لم من سلطان، فكانوا لا يبالون شعور الناس في تعيين الولاء عليهم، مما كان له أهد أثر في صرف النفوس عنهم واستعابتها لكل داعج الى الخروج عليهم . وحسبك

أن ترى هشام بن عبد الملك، مع حريمه ومعه نظره، يُعين نصر بن سيار والياً على خراسان، وهو يعلم أن عصبيته بها ضعيفة، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسري، كان مستشاره يُسمي له أشخاصاً بما لهم من محامد ومدام، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتمرت له واحدة فإنه غفيف مجزئ عاقل؛ قال هشام: وما هي؟ فقال المشير: عشيرته بها ضعيفة، فقال هشام: «أو تريد عشيرة أقوى مني! أنا عشيرته!». على أن كلمة هشام قد تُخفف من آثارها السيئة متانة حكومته، ونفاذ صولته، وقوة شوكته، ولكن الخلفاء جميعاً ليسوا كهشام حرمًا واقتدارًا، وليست أيامهم كأيام هشام نجما وانتصارا.

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان، كانت في الواقع شؤماً على بني أمية.

وقد بلغت العصبة بين مصر واليمن في خراسان طوراً عبقاً، حمل التراوح بين الفريقين موضع اضطهاد ومُحرية وازدراء.

ولقد قالت أم كثير العبيبة لما هدم اليمينيون دور المصرية أثناء الحروب التي كانت بين مصر والكرمان في سبب العصبة:

لا بارك الله في أنثى وعدبها * تزوجت مُضرباً آخر الدهر
اللع رجال تميم قولٌ مُوجبة * أحللتوها بدار اللئ والمقبر
اب أنتم لم تكروا مد جوتكم * حتى تُعيدوا رجال الأزد والظهير
إني استحييت لكم من بذل طاعتكم * هذا المزوني ينجيكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد رَح الخلاء * وقد طال التقى والرحاء
وأصحت المزوؤ بأرض مَرِي * تُقصي في الحكومة ما تشاء
يموز قضاؤها في كل حكم * على مُصير وإن جار القضاء

وَجِئْتُ فِي مَجَالِمِهَا قَعُودٌ - تَفَرَّقْتُ فِي رِقَابِهِمُ الدَّمَاءُ
فَإِنْ مُصِّرٌ مِثْلَ رِصِيَّتٍ وَذَلَّتْ - فَطَالَ لَهَا الْمُنَّةُ وَالشَّقَاءُ
وَإِنْ هِيَ أَعْتَبَتْ فِيهَا وَإِلَّا - حُلَّ عَلَى عَسَاكِرِهَا الْعَفَاءُ

ولقد استغل الدعاة الماسيون العصبية ، التي فتت في عضيذ الأمويين ومرتفتهم أشتاتا وطرائق قيدا ، حير استعمال ، وهو ما كان له أبلغ أثر في القضاء على سلطان بني أمية . ذلك أن نصر بن سيار ، وهو عامل خراسان ، قد تحامل على اليمن وربيعه وقدم المضربة هوث به حديج بن علي الكرماني الأزدي ، وكان رئيس الأزد يومئذ ورحلهم ، وقال له : ندعك وملك ومالت معه اليمايه وربيعه فأحذه نصر وحبسه ، فأتت اليمن وربيعه حتى أخرجوه من محسرى كيف ا ثم اجتمعوا . ورأى نصر أن يحدهه فيصير اليه ، فلم يفعل . وكان في نصر مص الخسري . فلما علم حديج أن اليمن وربيعه قد اجتمع رأيهما معه على نصر وثب خاربه ، وكان له العلو على نصر ، فمال أبو مسلم إلى الكرماني فقال : ادع إلى آل محمد ، وجعل يمايل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك ، حتى أظهروا دعوة بني هاشم بخراسان .

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لى العباس .

على أنه يحذر بك ، ألا يعرب عن ذمك ، أن العصبية وإن كانت قد خدمت العباسيين أحل الخدم فكانت مفعول هذيم وعامل مساء في صرح الأموية ، كان صرامها وأجيجها وحروبها وفتنها لم تمجد سريعا ، ولم ترجع أمور العباد إلى نصابها من الموادعة وحسن المعاملة بتيسير حال ، بل أخذت دورها المحتوم ، وكانت حسكا وقنادا ، القبة بعد القبة ، في مضى الولايات والأمصار ، لنى العباس أنفسهم ، كما ستقف عليه فيما سنسره عليك ، من خلاصة أخبارهم ، وبجمل تاريخهم .

(ج) الموالى :

لما أفست الخلافة الى الأمويين، كان عدد الموالى آخذاً فى الازدياد، بسبب ما حلته الفتوح الإسلامية من الأسرى، وما كان يهديه الولاة الى الخلفاء من الرقيق، فإن الولاة كثيراً ما كانوا يبعثون الى الخليفة بنبات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هدية أو بدلاً من الخراج أو نحوه .

ومن كان يجر من هؤلاء متقى أو مكتنية أو تدبير يصير مولى، وينسب الى أسرة مُعتقه أو قبيلته، مع ملاحظة عدم أهليته للبناء على قرشية أو عربية .

كثُر عدد الموالى هذا، فانصرف فريق منهم الى الصناعة، وآخروا الى الزراعة أو غيرها من شؤون الحياة، وانصرف فريق آخر الى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جلة الفقهاء ورواة الحديث، كما كان منهم الشعراء والكُتّاب والمغنون، وتولت طائفة منهم المناصب السامية فى الدولة كالفضاء والحجابة وما الى ذلك .

على أنه مع ما كان لكثير من الموالى من قديم راسخة، ومنزلة رفيعة، فى العلم والأدب والصون، كان العرب ينظرون اليهم دائماً نظرة احتقار وازدراء .

وكان هذا الاحتقار والازدراء . يظهر فى معاملة العرب للموالى وأحاديثهم عنهم . ولما كان الموالى أهل علم وأدب، ويضمي كثير منهم الى ثوب كان لما من السلطان ومظاهر الحضارة حفظاً عظيماً، لم كان للفرس وحل الموالى منهم سيادة ظاهرة على العرب قبل الإسلام - لما كان كل هذا عظم على الموالى أن يحتملوا كل هذا الضيم من العرب فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم . ومن ها نشأت الشعوبية . والشعوبية مذهب من يرى تمضيّل الجرم على العرب أو التسوية بين الفريقين . ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون فى إكبار كل لفريقه والخط من الفريق الآخر .

وكان نصيب الموالى فى حالة تمدحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاة الى زيادة مقتهم لهم وزيادة السخيمة فى قلوبهم عليهم . وإنا نثبت لك هنا مثلاً امتشهد به الأستاذ

« برون » في كتابه عن أدب الفرس نقلًا عن الأغاني قال : « إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلّقه ، وهو بالرّصافة جالسٌ على بركةٍ له في قصره ، فاستنشد وهو يرى أمه يُنشدُ مديحًا له ، فأنشده قصيدته التي يتحرّ فيها بالعجم :

يارع رامةً بالعلاء من ريم • هل ترجعن إذا حيثُ تسلمي
ما مال حتى غدت بزّل المطى بهم • تحدى لغربهم سيرا بتعجيم
كأنى يوم ساروا شاربٌ سلبت • مؤاده قهوةٌ من حمرداروم

حتى انتهى الى قوله :

لأنى وحدك ما عودى دى خور • عد الحفاظ ولا يوصى بمهدوم
أصلى كريمٌ ومعدى لا يقاس به • ول لسانٌ كحد السيف مسموم
أحى به عد أقوام دوى حسب • من كل قرم بتاج الملك معموم
تحتاج سادة ثلج مرأزة • جرد حقائق مسايح مطاعيم
من مثل كسرى وساور الجود معا • والمهرمراة فحير أو لتعظيم
أسد الكائب يوم الرّوع إن زحفوا • وهم أدلوا ملوك التريك والروم
يمشون في حلقى المادى سابعة • مشى الصراعبة الأسد اللهايم
هناك إن تسالى تنهى بأن لنا • جرمومة قهرت عرّ الجرائم

قال : فعصب هشام وقال له : يا عاص نظير أمه ، أعلى تمحر ، وإياى تشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ! عطوه في الماء ، فغطوه في البركة ، حتى كادت نفسه تخرج ، ثم أمر بإحراجه وهو يشتر ، وعاه من وقته ، فأنجّح من الرّصافة منفيًا الى الجحاز . قال : وكان مبتلىً بالمصيبة للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال محرومًا مطرودًا .

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالى حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاةً ولا يعطونهم شيئًا من العائم والى ، نفرت نفوسهم منهم

وأصبح سلطانهم نصيباً اليهم، وصاروا عوناً لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج .

ولقد كان العباسيون يُدركون هذا الشمور فى الموالى، فاستغلّوه خيراً استفلايل، إذ آتحدوا حلة المبشرين بدعوتهم منهم، واعتمدوا كلّ الاعتماد عليهم . ورأى الموالى فى الدعوة الجديدة شفاءً لما فى صدورهم من حقد على بنى أمية خاصة وعلى العرب عامة، فأخلصوا للدعوة الجديدة، وبدلوا فى تحقيقها كلّ ما يملكون من نفوس وأموال .

على أن لهذا الموضوع نواحى متشعبة، يحول دون التحدث فيها ما رسمناه لأهسا من الترام القصد والإيجاز.

الفصل الثالث

الدعوة العباسية

توطئة — تأليف الجماعات السرية — الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني .

(١) توطئة :

كانت الدعوة العلوية تسير حسا الى حب مع الدعوة العباسية ، فقد كان العريقان مصطفهين مغلوبين على أمرهما ، وكان من المعقول والطبي أن ظلم بني أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمع ما تمزق من أهوائهم ويقل حدة ما يلهم من عوامل التناقص والخلاف . وقد كان بوهاشم أعداء للأمويين قبل الإسلام بسبب التراحم على السيادة في قريش . ولشد ما كان طلب السيادة والرامة مدعاة الى العداوة والشجاء وسببا الى التناحر والتقاتل بين بني الإنسان !

حدّ العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحجة من أعمال اللقاء بالشام ، وزادوا حجة وحاسة تنزل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي رعيم الحزب الكيساني لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس حين دس اليه سليمان بن عبد الملك من سمّه ، إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يؤهله للسلامة ويقزبه من قلوب الجماهير . وقد كان في تنزل أبي هاشم هذا لصاحب الدعوة العباسية توحيد لحزبين قويين : هما الحزب العباسي^(١) والشعبة الكيسانية . وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرته لحزب العباسيين .

(ب) تأليف الجماعات السرية :

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة ، واختاروا من الدعاة اثني عشر نقيبا وهم : سليمان بن كثير الخزازي ، ومالك بن الهيثم ، وطلحة بن زريق ، وعمر بن أعين ،
(١) هذا رأيا ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار : « أنه لم يكن لدى العباس حرب قبل أبي هاشم » .

وعيسى بن أمين، وقطبة بن شيب الطائي، ولاهز س قريط التميمي، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد س ابراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي شبل ابن طهمان الحنفي، وعمران بن اسماعيل المعيطي .

واختار محمد بن علي سبعين رجلا يأترون أمر هؤلاء الدعاة . وكتب اليهم كتابا يُوصيهم فيه بما يرجو أن يوفقوا الى العمل به وهم يوجهون الدعوة ويحاورون الأحزاب .

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره، ونصير لأحلاق الشعوب التي كانت حاصعة للسلطان الاسلامي، وما كانت تميل به النفوس في كل صُقع وحاضرة . وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن احتشام للدعوة العباسية ، قد كُتِبَ العوز لهذه الدعوة آخر الأمر . ومما قاله هذا الزعيم في كتابه :

« أما الكوفة وسوادها شيعة عليّ وولده . وأما البصرة وسوادها عثمانية تدّين بالكُفّ تقول : كي عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل . وأما الحريرة حرورية مارقة وأعراة كأعلاج ومسابون في أحلاق البصري . وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوة راحمة وجهلا متراكما . وأما مكة والمدينة فقد علب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الطاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تنقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل، وهم جدد لهم أبدان وأجسام ومالك وكواهل وهامات ويلحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات نفخة تخرج من أجواف مكورة ... وعد، فإنّي أهامل الى المشرق ، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .



(ج) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني :

كان الدعاة العباسيون يتقلدون في مختلف الأمصار ، وكانوا في ظاهر الأمر طلائع رزقي يزاولون التجارة ، وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء يثبثون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتى الأساليب .

وظلوا كذلك الى أن توفى محمد بن علي ، وعهد الأمر من بعده الى ابنه ابراهيم الإمام . فكتب هذا مشايخ خراسان ودهاقينها ، وبعث اليهم الدعاة ، وأرسل أبا مسلم الخراساني لبث الدعوة هناك ، فكان يدعو الى آل محمد ، يريد أهل البيت ، من غير أن يمين العباسيين ولا العلويين .

وقد كان أبو مسلم من أطال الحرب والسياسة ، شديد الإخلاص للعباسيين ، مسرعاً في خدمتهم ، كثير الدماء ، واسع الحيلة ، خبيراً بما يقتضيه عمله من الحزم والقسوة ، فلا تعرف الرحمة قلبه ، ولا يتناول الأمور إلا بالحرم والناس الشديد .

ونستطيع أن نتبين مرمى السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به ابراهيم الإمام الى أبي مسلم الخراساني ، فيما يرى أن عمله لتأييد الدولة الجديدة . قال : « إنك رجل ما أهل بيت ، احفظ وصيتي : اطهر هذا الخبيث واليمين فالزمهم وآسكن بين أظهرهم ، فإن الله لا يثم هذا الأمر إلا بهم . وأثمهم ربيعة في أمرهم . وأما مصر فإنهم الصدوق القريب الدار . وأقل من شككت فيه . وإن استطعت ألا تدع بحرسان من يتكلم بالعربية فافعل . وأبما غلام بلغ خمسة أشبار تهمه فأقله » .

وقد حرص أبو مسلم على تمييز هذه الوصية ، فكان يسرع الى قتل كل من يثمه ، ويقضى على كل من يرتاب في أمره ، حتى بلغت صحاها هذه الخطبة فيما يقول المؤرخون العرب ، ستائة ألف نفس قُتلت صبرا .

ومهما اقتضت المبالغة والغلط في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أَيْمًا إسراف في القتل وسفك الدماء تفتيدًا لوصية الإمام .

حل أبو مسلم خراسان سنة ١٢٨ هـ فسامها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام قرية من قرى مرو يقال لها "سفديج"، وقد كثُر أنصاره وأتتال الناس عليه من كل صوب، فأعلن فيهم لبس السواد واتخذ شعارا للناسيين، ثم غيّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بعير أدان ولا إقامة، وكانت سوامية تبدأ بالإقامة كهلاة يوم الجمعة، وأمر أن يكبر ست تكبيرات تناحا، وكاتب نصر س سيار الوالى الأموى . ولما صاقت "سفديج" عليه ولم تنسح لأنصاره، رحل الى الماخوان، وكانت عدّه رحاله، فيما يقول المؤرخون، سبعة آلاف رجل . ثم آحتال في التفرقة بين نصر ورحاله، حتى أحد باء خصمه يهار، ويتغلّى عه أنصاره واحدا بعد واحد . وفي هذا يقول نصر شعرا بعث به الى مروان الحمار الخليفة الأموى :

أرى بين الرماذ ومبص يار * ويوشك أن يكون لها صرام
إن لم تُطفها عقلاء قوم * يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالموذين تُدّكى * وإن الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري * أأبساط أُمّة أم نيام

ولما ورد هذا الشعر على مروان لم يُحبّ عليه بما يجب أن يُحبّ به الملك الحازم الحريص على ملكه المبتقى على عرشه : من مبادرته بإرسال الكاتب والجيش لكبح التآثرين على الملك أو إعداده المعدات لإرسالها، وإما كتب الى نصر كتابا يمثل الصمغ والاستسلام، ويُنبيّ بمجنوحه الى سياسة القول والكلام، في موضع يتطلب تفهيد الربح والحسام، يقول فيه :

(١) الماخوان بص الحاء المعجمة وآخره نون قرية كثر دات مارة وطامع من قرى مرو ومباحج أو مسلم صاحب الدعوة الى الصمغ .

« إن الحاصر يرى ما لا يرى الغائب ، فاحسب أنت هذا الداء الذى قد ظهر عندك »
 فقال نصر لأصحابه : « أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده » .



يحب آل يهوذا أن تشيرها الى ناحية مهمة في حُلُقِ أبى مسلم تُثَلِّ ما يجب على
 القواد من الحرم والكتبان ، فقد جاء في « كتاب المحاسن والمساوى » للبيهقي ما نصه :
 « قيل لأبى مسلم صاحب الدولة . ماى شئ أدركت هذا الأمر ؟ فقال : أرديت
 مالكتان ، وأتررت بالحرم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت طي وحرت حد
 نعتي . وأشد :

أدركت بالحرم والكتبان ما عثرت * عه ملوك بنى مروان إذ حشدوا
 ما زلت أنسى عليهم في ديارهم * والقوم في عسلة بالشام قد رقدوا
 حتى صر بهم بالسيف فانتبها * من لومة لم يمها قبلهم أحد
 ومن رعى عما في أرض مسبعة * ودام عنها تولى رعيها الأسد اه

على أن مروان استيقظ أخيراً من غفوته ، وانه من عسلته ، وأمر بأخذ إبراهيم بن
 محمد . فلما قبض عليه في الحيمة باللقاء أوصى بالأمر الى أخيه أبى العباس ، وأمر أهله
 وأنصاره بالمسير الى الكوفة ، وحصهم على السمع والطاعة لأبى العباس .

وقد حُيِس إبراهيم في محس « حران » مع جماعة من حصوم مروان من بنى أمية ، وظل
 في محبته حتى مات . وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : إنه سُقِيَ سُمًّا ،
 ومنهم من قال : هُذِمَ عليه بيت هات .

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات
 عيلةً وانتقامًا . وقد رثاه بعض الشعراء فقال :

قد كنت أحسبني جلتاً فضعفنى * فبر مجزات فيه عصمة الدين
 فيه الإمام وحر الناس كلهم * بين الصفايح والأحجار والطين

فيه الإمام الذي عمّت مصيئته * وعيّن كل دى مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة * لكن عفا الله عن قال آمين

ثم انتقل الأنصار إلى الكوفة، وقد ساعدتهم أبوسلمة الحلّال المعروف "وزير آل محمد"،
ولكنه عدل عنهم أخيراً . وقيل : إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني عليّ : يعرض الخلافة
على أحدهم وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبدالله المحض بن حسن، وعمر الأشرف
ابن زين العابدين ، وكانت حاتمة حياته القتل .

وزيد عد الذي قدمناه أن نلمّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، لنرى كيف
كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك بؤاءً صالحةً لعصر المأمون . وإنا
لنرجو، إذا وفقنا إلى بيان الماحى التي امتاز بها هؤلاء ، أن يكشف الغطاء عن حقيقة
أمرهم ومكانتهم التاريخية ، كما نرجو أن نطهر من وراء تمهيم أقدارهم وحقيقة عبورهم
بتمهم الأصول التي كوّنت العصر الذي من أحله وصنع هذا الكتاب .

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أوّل من تولى الخلافة العباسية وقتل الملك من بني أمية الى بني العباس . وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافر الكرم ، ظاهر المروءة ، حليّل الوقار ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق ، وصوّلاً لذوى الأرحام .

وكان الى جانب هذه الأخلاق السميحة الرصية ، يجمع قلباً ذكياً وأنفاً حمياً ، في تعقب الأمويين وتبديد شملهم ، في كل بقعة يحشى أن تُسمع لم فيها كلمة ، أو يطاع لم رأى ، أو يؤثر عنهم صنيعٌ . وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج الى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح .

ويجب أن نذكر ، دائماً في مثل هذه الظروف ، أن جلّ الملوك الذين بُعثوا لإنشاء دولٍ جديدة ، وممالكٍ حديثة ، وأسرار ملكيةٍ جديدةٍ ، مثل أبي العباس السفاح وصيره ، هم مُكرهُون لا محالة على استعمال القسوة وأخذ الأمور بالحزم والشدة ، دون إغفالهم المودعة والملاينة فيما لا يهتد عروش ملوكهم وصروح سلطانهم .

قالوا : إنه كان في بعض أيامه حالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سيديف الشاعر وأنشده :

لا يقرّك ما ترى من رجال * إن نحت الضلوع داءً دويّاً

فضع السيف وأرفع السوط حتى * لا ترى فوق ظهرها أويّاً

فقال له سليمان : قتلني ياشيخ ! ودخل السفاح وأحْدَ سليمان فقتل .

وهذا الذي صممه السفاح أصبح سنةً عباسيةً في تأييد الملك . وكان قليلٌ من الإغراء كاذباً في محق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة ، فقد دخل شبيل بن عبد الله مولى

بنى هاشم على عبد الله بن عليّ، وعده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام، فأقل عليه فقال :

أصبح الملك ثأت الآساس * ألبهايل من بى العباس
طلبوا وترهاشم مشعوها * عد ميل من الزمان وياس
لا تُقبل عد شمس عتارا * واقطعن كل رقلة وعراس
خوفهم أطهر التودد منهم * وبهم منكم كحز المواسي
ولقد ساءنى وساء قبلى * قربهم من مكارى وكرايى
أزلىوها بحيث أنزلها الله ندار الموان والإتناس
واذكروا مصرع الحسين وزيد * وقبلا بحساب المهراس
والقتيل الذى تحزان أمسى * رهن رمس فى عرية وتامسى

فأمر بهم عبد الله فصرىوا بالعمد حتى قتلوا، وبسط الطوع عليهم، فأكل الطعام طيبا وهو يسمع أين يصهم حتى ماتوا جميعا .

ولم تقف هذه الوحشية عند حد التبركل بالأحياء، بل تعدت إلى الأموات، فقد ذكر أن عبد الله بن عليّ أمر بشق قبور بى أمية بدمشق، فبش قبر معاوية بن أبى سفيان فوجدت فيه عظام كأنها الرماد . وبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جمجمته . وكان لا يوجد فى القبر إلا العنقود بعد العنقود، غير هشام بن عبد الملك فقد وجد صحيفا لم يتل منه إلا أربعة أنفه، فصر به بالسياط وصلبه وأحرقه وذراه والريح . ثم تعقب أولاد الخلفاء من بى أمية فلم يهلت منهم إلا من كان فى المهدي صبيا . وأدرك بعض الهاربيين إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبى طرس^(١)، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والعمر

(١) نهر أبى طرس هم الماء وسكون الطاء وصم الزاء وسين مهمة . موضع قرب الرملة من أرض فلسطين .

كانت رقعة عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن العباس مع بى أمية فقتلهم فى سنة ١٣٢ هـ .

ابن يزيد بن عبد الملك ، وعد الواحد بن سليمان ، وسعيد بن عبد الملك ؛ واستصغى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَسَبٍ ومال ، فلما فرغ منهم تمنى بيده الأبيات :

بني أمية قد أفيت حمكو * فكيف لي منكوب بالأقول الماضي
يُطِيبُ العَسَّ أن السار محمك * عُوْصُوْهُ من لظاها شرُّ مُعْتَاضِ
مُيْتِمُوْ - لا أقال الله عثرتم - * وليث عاب الى الأعداء نَهَاضِ
إن كان عيظي لعوت مسكو فقد * مُيْتِمُكُمْ بما ربي به راضِ

قلنا : إن السباح كان الى حاسب هذه القسوة تراى بدوى رحمه ، وُصُولًا لهم . ولد ذكر مثالا لذلك : نصره مع آل الحسن بن عليّ الذين بايع معصُ العباسيين رجلاً منهم هو محمد ابن عبد الله كما بنا من قبل ، فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصري عن عثمان بن سعيد ابن سعد المدنيّ : أنه لما وَلِيَ الخلافة أبو العباس السباح قدم عليه بنو الحسن بن عليّ بن أبي طالب فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع ، ثم قال لعبد الله بن الحسن : احتكم عليّ ، قال : « يا أمير المؤمنين بألف ألف درهم ، وإنى لم أرها قط » ، فاستقرصها أبو العباس من ابن مقرئ الصيرفيّ وأمر له بها . قال عبد العزيز : لم يكن يومئذ بيت مال . ثم إن أبا العباس أتى بخوهر مروان فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عنده فبكى عبد الله ، فقال له : ما يُبْكِيكَ يا أبا محمد ؟ قال : هذا عبد بات مروان وما رأيت نبات عملك مثله قط ! قال : عفاء به ، ثم أمر ابن مقرئ الصيرفيّ أن يصل اليه ويتأخّره منه فاشتراه منه ثمانين ألف دينار .

على أن هذا الرفق واللين ، وهذه السياسة والحكمة ، لم تُسبِ أبا العباس السباحَ ما يحب عليه من مراقبة الطالبيين ، والتسمع لما قد يخبئ في خواطرهم ، من الخروج عليه أو الكيد له ، وإن صلة الرحم من مثل السباح لا تكون ظاهرة حُلُقِيَّة بقدر ما تكون حيلةً سياسية ، وكذلك رأياه يقول لمعص تنصاته وقد خرج من عنده بنو الحسن :

« قُمْ بِأَزْأَلِهِمْ وَلَا تَأَلْ فِي إِيَّائِهِمْ ، وَأَظْهِرِ الْمَيْلَ إِلَيْهِمْ وَالتَّحَامَلَ عَلَيْهِمْ وَاعْتَنَائَهُمْ ، وَأَنْتُمْ

أحقُّ بالأمر منا كلما خلوت بهم، وأحصى لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم .

ومما ذكرناه يرى الفاربيُّ مما أن السفاح قد جمع حقاً بين القسوة واللين، وأنه لم يكن في عُنه بأخطر منه في رفقته، وإنما كان يلين ليستلَّ مخيمةً مدفونةً أو ليستدرج بعض الحاقدين، ويقسوليرى أعداءه أن لا أمل لهم في الكيد لذلك السيف المسلول .

ومهما يكن من شيء، فإن خلافة أبي العباس كانت أقصر من أن تسمح لحصانه وأحلافه بالظهور والتأثير القوي في سياسة الدولة وسيرة خلفائها .

ولو عُمِّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم خلفائه خطةً تُجلبهم بعض ما توزعوا فيه من الاضطراب .

الفضل النخعي

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكاً، سديد الرأي، مُحْكَم التدبير، وكان قوياً العزيمة، جرىء القلب، يمسى الى غايته موصي المهتم الى الربيه لا يثنيه عنها شيء . سياسياً حاذق لا يقبل أن تتدخل في سياسته عاطفة ولا حلق ولا اعتبار آخر إلا هوزه السياسي ليس مير . وهو الى ذلك داهيه، وربما اصطره الدهاء الى شيء إن لم يكن الإثم لخلق فهو شبيهه في كثير من الأحياء .

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عرفهم التاريخ من حين الى حين بالإقدام في غير تردد ولا لين ولا تهيّب للوسائل ، والذين مثلهم « ميكافلي » أحسن تمثيل . فقد ذكر ابن الأثير أنه أحصر مرة ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير الى المدينة لقتال محمد بن عبد الله ، فقال : شاور عمومك يا أمير المؤمنين ، قال المنصور : فإني قول ابن هرمه :

نزور أمراً لا يخلص القوم سراً * ولا ينتجى الأذنين فيما يحاول
إذا ما أتى شيئاً معنى كالذي أتى * وإن قال إني فاعل فهو فاعل

ثم قال : امض أيها الرجل ! فوالله ما يراد عيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أن شخص أنا ، فسار وسير معه الجلود . وقال المنصور لما سار عيسى : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » .

وكان الى جانب ذلك ، كما قال الجاحظ ، : مُقَدِّماً في علم الكلام ومُكثِّراً من كتاب الآثار ، ولكلامه كلب يدور في أيدي العارفين والوزائقين معروف عندهم .

وفى وصف المنصور يقول يزيد بن هيرة : « ما رأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سلم أمرك ولا أدع ولا أشد تيقظا من المنصور، لقد حصرنى فى مدينتى تسعة أشهر ومعى قُوسانُ العرب، بجهدنا كلَّ الجهد أن ننال من عسكره شيئا يكسره به مما تها ، ولقد حصرنى وما فى رأسى بيضاء، نخرجت اليه وما فى رأسى سوداء . »

وكان المنصور يعطى فى موضع العطاء ويمع فى موضع المع، ولكن المع كان أعلت عليه، حتى صرب المثل بشحه وسمى « أبا الدوانيق » ، لشدة فى عاسة المال والصباغ على الحبة والداق .

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئا مما رواه الطبرى فى تمثيل هذه الناحية من أحلاق المنصور، فقد جاء فيه : أن واحدا مولاة قال : « أبى لواقف يوما على رأس أبى جعفر إد دخل المهديّ وعليه قباء أسود جديد، فسلم وحلس، ثم قام مصرفا وأتمعه أبو جعفر بصره، لحه له وإعجابه به، فلما توسط الرواق عثر بسبعه فتحرق سواده، فقام ومضى لوحه غير مكترث لذلك ولا حافل به ، فقال أبو جعفر : ردوا أبا عبد الله فرددناه ، فقال . يا أبا عبد الله، أستقللا للواهب ! أم طرا بالعمة ! أم قلة علم المصيبة ! كأكك جاهل بما لك وما عليك ! » .

فاظهر اليه كيف لام ابنه وولى عهد، وقد كان عبده أثيرا، ولامه بمحضير من حاشيته فى شيء ليس ذا مال عد أوساط الناس فضلا عن الخلفاء ! .

ومهما يُعذّر للصور بحرصه على الاقتصاد فى أموال دولة ناشئة ، وأحد ولى العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها مما سنزويه لك ، تُظهر ناحية صغيرة من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائل الأعمال فى الدولة يستطيع أن يظهر فيها ميّله الى الحرص والاقتصاد، دون أن يُسِف الى هذه الصغائر .



على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقاربة بيه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقا من هذه الناحية ؛ فقد كان معاوية، كما رأيت،

أكرم الناس، وأشدّهم تسخيراً للأموال العامة والخاصة، في الأغراض السياسية. وكان المنصور أفتح الناس بالأموال العامة والخاصة، يؤثّر التصحية بالدماء والكفايات في سبيل أغراضه السياسيّة على التصحية بالأموال.

ولعلّ من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين العصرين، وبين الدعائم التي اعتمد عليها الزحلان في إقامة ملكهما. فقد كان معاوية في بيئة عربية، لم تحلّص بعد من البداوة ولا من سماحة الدين، فكان الحلم والكرم أليق به وأصح، بينما كان المنصور في بيئة من العرس والموالى، تأثّر بها بالحصاره شديد، وحظها من الدين قليل.

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لقتل، ولكسا نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمال في شيء من الحرم لوقف ولحق الدماء ولرسم لخلعائه حطة أقرب إلى اللين والعاية من هذه الحطة العبيّة التي سترها في سيرة أكثرهم.

وحدث الوضيئ بن عطاء قال: «استتراني أبو جعفر، وكانت يني وبني خلافة قبل الخلافة، عصرت إلى مدينته السلام، حللوا يوماً فقال لي: يا أماه عدا الله، ما مالك؟ قلت: الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عيالك؟ قلت: ثلاث بات والمرأة وحادم لمن؟ فقال لي: أربع في بيتك؟ قلت: نعم. قال: فواقه لرد ذلك على حتى ظننت أنه سيؤنني. قال: ثم رفع رأسه إلى فقال: أنت أيسر العرب، أرفع معازل يدور في بيتك!»

على أن فتح المنصور لم يكن يحلو أحياء من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم ابن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلاً على رجل يقال له أزهري السام قبل خلافته، طلب إلى الخلافة زاره الرجل وطلب صلته، فوصله ثم عاوده فوصله، وجاء في الثالثة فقال له المنصور: يا أزهري ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عسك؛ قال: لا ترده فإنه غير مستجاب، لأنني قد دعوت الله أن يرمني من خلقك فلم يفعل! وصرفه ولم يعطه شيئاً.

وربما كان من العدل التاريخي أن نحتاط أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتاً لحل المنصور وشعبه ، فقد يكون مصدرها ما ألقوه من إسراف الخلفاء ، ولعل المنصور لم يلع أكثر من أنه كان شديد الميل الى الحرص والتدبير ، والبُعد . من الملحقين ، وأحد أهل بيته بذلك كله .

ولم يمت المنصور أن يعلل ذلك الحل ، فقد جاء في عيون الأحرار أنه قال في مجلسه لقواده . « صدق الأعرابي حيث يقول : أَحَبُّ كَلْبِكَ يَتَمَكَّ » فقام أبو العباس الطوسي وقال : « ما أمير المؤمنين ، أحسن أن يلوح له عبرتك رعيب فينمته ويدعك ا » . وقد كان أبريزاً أحكم من المنصور ، إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه « لا تُوسَّسَ على حدك فيستموا عك ولا تُعَيِّنَنَّ عليهم ويصحبوا منك ، أعطهم عطاءً قصداً ، وأمعهم معاً حيلة ، ووسَّع عليهم في الرجاء ، ولا تُسِرِّفْ عليهم في العطاء » .



وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة ، هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره . فهذه السيرة تُبين لك ، في وصوح وحلا ، ما قدمناه من أن المنصور كان « ميكافلي » السياسة ، لا يُجِجُ عن العذر وقطع الرحيم وكفر النعمة ، إذا رأى منفعة في ذلك .

وهؤلاء الرعماء هم أولاً : أبو مسلم الذي أحلص في نُصره المنصور والسهر على ملكه ، فلم يَأُلْ جهداً في تعقب الخارجين على الملك ، لا يَفِرُّ في ذلك بين أشياخ المنصور وأهله من بنى العباس ، ولا خصومه الذين يكيدون له في السر أو في العلانية ، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلمة الخلال ، وحارب عم المنصور عبد الله بن علي واستولى على ما في عسكره من العاثم والأسلحة . وثانياً : عمه عدااته بن علي ، وهو الذي فعل ما فعل في نُصرة الدعوة العباسية وتقتيل خصومها من بنى أمية ، فصلا عن حروبه الموقفة في صدد جيوش مروان ، ومع ذلك فقد سَلَطَ عليه المنصور أبا مسلم فخاربه وقهره ، ولما لم يَصِلْ الى قتله ، كَلَّفَ ابن عمه عيسى

ابن موسى إلى الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولى المنصور قتله بنفسه، ليأمن ما قد يحدثه من الثورة والاضطراب . وثالثا : ابن عمه وولى عهده عيسى بن موسى ، وقد رأيت كيف أخصمه المنصور لقتال محمد بن عبد الله ملماً في ذلك ، حتى إذا أخصص قال المنصور : « لا أبالي أيهما قتل صاحبه ! » ثم ما زال المنصور يكيد لهذا الأمير حتى حمله من ولاية العهد ، وبايع مكانه لاسه المهدي ، ثم مضى في الكيد له . وقد يكون من المعيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن حلج عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور ، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي ، فإن فيما قاله تصويراً دقيقاً لسياسة المنصور ، وتخيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يسالي في سبيل توطيده أن يثبته بما عقد من عهد ، أو يقص ما أرم من ميثاق .

حاء في المستطرف : أن عيسى بن موسى لما عثر به المنصور وقتل ولاية العهد منه إلى المهدي أبوه أنشد :

أبست بسو العباس دبت عنمو * لسيى ونار الحرب زاد سميها
فتحت لم شرق البلاد وعمرها * فدلل معايدنا وعز نصيرها
أقطع أرحاما على عزيرة * وأيدي مكيدات لها وأثيرها
فلما وصعت الأمر مستقره * ولاحت له شمس تلالاً نورها
دفعت عن الأمر الذي استحقه * وأوسق أوساقا من الغدر عيرها

وحاء في ابن الأثير : أن المنصور أحصر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسه وسلم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره قتله وقال له : إن الخلافة صائرة إليك عبد المهدي فاضرب عنقه ، وإياك أن تصعب فتص على امرئ الذي دبرته . ثم مضى إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه عما فعل في الأمر الذي أمره ، فكتب عيسى : « قد أنقذت ما أمرت به » ، فلم يشك في أنه قلبه . وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دما كاتبه يونس بن مروة وأحبه الخبر ، فقال : أراد أن يقتله ثم يقتلك ، لأنه أمر بقتله

سرّاً ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله ولا تدفعه اليه سرّاً أبداً وأكتم أمره ، ففعل ذلك عيسى . فلما قدم المصور وصحّ على أعمامه من يحزّكهم على الشّعة في أخيهام عبّده الله فعلموا وشفّعوا ، وشفّعهم ، وقال لعيسى : إني كنتُ دفعتُ اليك عمّي وعمك ليكوا في منزلك وقد كنتُ عمومتك فيه ، وقد صفحتُ عنه فأتاه ، قال : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرني بقتله فقتلته ، قال : ما أمرتك ، قال : بل أمرتني ، قال : ما أمرتك إلا بحبه وقد كذبت . ثم قال المصور لعمومته : إن هذا قد أقرّ قتل أخيك ، قالوا : دافعه إليا قيّده به ، فسأله اليهم ونرحوا به الى الرحة واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدهم ليقتله ، فقال عيسى : أفاصل أنت ؟ قال : إني والله ! قال : ردوني الى أمير المؤمنين ، فردوه اليه ، فقال له : إني أردتُ قتله أن تقتلني ، هذا عمك حتى سوى ، قال : أتدنا به فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأيي ، ثم اصرفوا فامر بجعل في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه سقط عليه فمات . »

وهذه الرواية يؤيدّها أكثر المؤرّخين من العرب . وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير ، وكان من أركان هذه الدولة ، ما يُصيّفُ حلقه ، الى سلسلة الاصطهادات التي ارتكبتْ تأييداً لهذا الملك ، فقد أحصره اليه وقال له : أتحمّل قول الإمام لي : « من اتهمته فاقله » ؟ قال : هم ، قال : فإني قد اتهمتك ، تخاف سليمان وقال : أناشدك الله ! قال : لا تُشادني فأت مطوياً على عرش الإمام ، وأمر بصرب عنقه .

وقد سمّ الناس هذه الحالة ، ونارَ بعضُ أمراء بني العباس أضهم احتجاجاً على ما أريق من الدماء ، فقد جاء في الأخبار عبد الله بن عمر العقيلي الشاعر المخضرم : أن محمد ابن عبد الله لما سمع للعقيل قصيدته التي مطلعها :

تقول أمانة لما رأت * تُشوّي عن المصجّج الأفيص

والتي ختامها :

يا أنس لا أنس قتلهم * ولا عاش عدلهم من بني

بكي واستمر، فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي : أتبكي على بنى أمية، وأنت تريد بنى العباس ماتريد ! فقال . « والله يا عم لقد كما نَقَمًا على بنى أمية ما نَقَمْنَا، فما بنو العباس إلا أقلُّ حوافه منهم ، وإن المحنة على بنى العباس لأوجبُّ منها عليهم ، ولقد كانت للقوم أخلاقٌ ومكارمٌ ليست لأنى حمير » . وذكر الأصفهاني أيضا : أن مجملًا وآله وهوا للشاعر مالا يلدخته تلك . وهكذا تبيّرت نفوس آل البيت من إصراف العباسيين في الفتك والقتل .^(١)



ومادا كان حظُّ أبى مسلم وكيف كان حراؤه على ذلك الإخلاص الدموي ؟
كان حراؤه أن قُتلَ بيد الخليفة هبة عملاً بسنة المروفة : « أقتل من آتته » ، مع أنه كان لا يقطع أمراً دونة .

وقد ذكر الحافظ : أن المصور لما هم قتل أبى مسلم ، سقط بين الاستعداد برأيه والمشاورة فيه ، فأرق في ذلك ليته ، فلما أصبح ، دعا باصحاق بن مسلم المقليل ، فقال له : حدثني حديث الملك الذي أحرثني عنه بخزان ، قال : أحرثني أبى عن الحصين بن المدر : أن ملكاً من ملوك فارس ، يقال له ساور الأكبر ، كان له وزير ناصح ، قد اقتبس أدبا من آداب الملوك ، وشاب ذلك فهم في الدين ، فوجهه ساور داعية إلى خراسان ، وكابوا قوماً عظماء يعظمون الدين جهالةً بالدين ، ويحلقون بالدين استكانة لقوة الدنيا وذلاً لخبايتها ، بهمهمهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا ، واعتز بقتل ملوكهم لهم وتخولهم إياهم ، وكان يقال لكل ضعيف صولة ، ولكل دليل دولة . فلما تلاحت أعضاء الأمور التي لقع ، استحالت حرماً عواماً ، شالت أسافلها بأعاليها ، فانتقل الغزالي أرضهم ، والساهة إلى أنحلهم ، فأثيروا له حبا مع خصص من الدنيا اتتح بدعوه من الدين ، فلما استوسقت له البلاد ، بلغ ساور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم ، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء ، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم ، وكان يقال :

وما قُطِعَ الرجاء بمثل ياس * تُبادهه القلوب على اعتزار

(١) يحالها أسناد الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي قوله : (أحسب أن تبيع آل البيت على من العباس إما كان منه أهم هسوا عليهم ما أتبع لهم من ملك مع اعتقادهم أهم أخى ذلك منهم) .

فصم على قتله عدد وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم، فقتله ففتهم بحدث فلم يرعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين العربية، وأبى الرحمة، وتحطف الأعداء، وتفترق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستموا الدعوة طاعة ساور، ويتعصبوه من الفرقة، فاذعوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه . فاطرق المصور ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول :

لذى الحلم قبل اليوم ما تُقرعُ العصا . وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليعبأ

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا أبى مسلم فلما نظر إليه داحلاً قال :

قد اكتشفتك ثلاث . حلب عليك محذور الجمام

حلافك وامتساؤك ترتبني . وقودك للهاير العظام

ثم وثب إليه ووثب معه معض حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب صدره المصور مصرية ضربة طوَّحه بها، ثم قال :

إشرب بكأس كنت تسقى بها * أمر في الخلق من العظم

رعمت أن الدين لا يُقتعى * كذبت فاستوف أما تحرم

ثم أمر بخر رأسه وبعث به إلى أهل خراسان وهم بابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردهم عن شغبهم اقطعاعهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم . فدلوا وسلموا له . فكان إسحاق إذا رأى المصور قال :

وما صربوا لك الأمثال إلا لتحذو إن حدثت على مثالي

وكان المصور إذا رآه قال :

وحلقها ساور للاس يُقتدى * بأمثالها في المضلات العظام

وما أجمل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أتمه المصور على نفسه

فقد قال : إى أمان تعطيني : أمان أبى هيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبى مسلم !

ولقد تنفس المصور حين قتلَ أما مسلم، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قتله : عُدَّ هذا اليومَ أوَّلَ يومٍ من خلافتك !



على أنه من الحق أن يقرَّر أن عدوانَ المصور وإسرافه في التكيل بمحسومه له قيمته في الدلالة على عرفانه بحق الملك وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي، والخروج على الطام، هي سبيل هذه العاية أسرف في سبك الدماء وتقطيع الأرحام وقتل أمثال بني الحس والحسين، والديباح الأصغر، والفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك حُرابة رموس فيما ترك ميراثا لابنه المهدي .

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقبَ الرأي محكم التديبر، وهو الذي يقول لأبيه المهدي : «يا أبا عبد الله، ليس العاقلُ الذي يحتالُ للآمر الذي وقع فيه حتى يخرجَ منه، ولكنه الذي يحتالُ للآمر الذي عَيشه حتى لا يقعَ فيه» .

وقد ذكر المؤرخون أنه كان إذا جنى على أحد جنايةً أو أحد من أحد ما لا جملة في بيت المال معددا وكتب عليه اسم صاحبه، فلما أدركته الوفاة قال لاسمه المهدي : «يا بني إلى قد أوردت كلَّ شيء أحدثته من الساس على وجه الحياة والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا وليتَ أمت فأعِذه على أرامه، ليُدعوك الناس ويحولك» . وفي عهد المصور أنشئت «معدن» موئل العلم ودار السلام .

افضل الباس

المهدى

عياى واحدة تُرى مسرورة أميرها حنل وأخرى تُدْرِف
 شكى وتصحك تارة ويسومها ما أنكرت ويسرها ما تعْرِف
 يسومها موت الحليفه مُحَرِّمًا ويسرها أن قام هذا يحلِّف
 ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى شعرا أَسْرَحه وأخر أَتَيْف
 هذا حباه الله فصل حلافه ولذلك حنات العيم تُرَحِّف

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دلامة أول من تقدم بتعزية المهدي ب وفاة والده المصور
 وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وحسين ومائة للهجرة .

وقد كان المهدي ، بما أجمع عليه الرواة ، شهماً قطعاً كريماً ، شديد الأُس في تعق
 الملاحدين والزنادقة ، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم .

وكان كثيراً ما يجلس لرد المظالم . وقد عُرف عنه أنه كان إذا جلس للظالم قال :
 «أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى للظالم إلا للبراء منهم لكنى» . وروى الطبرى
 في حوادث سنة تسع وستين ومائة أن مسور س مساور قال : «ظلمنى ويكيل للمهدى
 وغصبني صبعة لي ، فأتيتُ سلاماً صاحب المظالم فتعلمت منه ، وأعطيتُه رُقعة مكتوبة
 فأوصل الرقعة الى المهدي وعده عُمه العباس بن محمد وابن عُلانة وعافية القاضي ، قال
 فقال لي المهدي : أدُّنهُ فدنوتُ ، فقال : ما تقول ؟ قلت : ظلمتني ، قال : فترضى بأحد
 هذين ؟ قلت : سم ، قال : فادنُ مني ، فدنوتُ منه ، حتى الترفت بالقراش ، قال : تكلم ،
 قلت : أصالح الله القاضي ، إنه ظلمني في ضيعتي هذا ، فقال القاضي : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟
 قال : ضيعتي وى يدي ، قال : قلتُ أصالح الله القاضي ، سله صارت الضيعة اليه قبل

الخليفة أو بعدها؛ قال : سأله ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : صارت إلى بعد الخلافة ؛ قال : فأطلقها له ، قال : قد فعلت ، فقال العباس بن محمد : والله يا أمير المؤمنين لهذا المجلس أحبُّ إلى من عشرين ألف ألف درهم !



أما كرمه فسجية قديمة فيه ، ونسبه بال عت المصور عمره . وقد ذكر الطبري أن المؤمل بن أميل قال : قدمت على المهديّ بالريّ وهو وليّ عهد ، فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُ بها ، فكتب بذلك صاحبُ البريد إلى المصور ، وهو بمدينة السلام ، يحضره أن المهديّ أمر لشاعر عشرين ألف درهم ، فكتب إليه المصور يعثله ويقول له : إما كان ينبغي لك أن تُعطي الشاعر بعد أن يُقِمَّ بياك سنة أربعة آلاف درهم . قال المؤمل : فكتب إلى كاتب المهديّ أن يوحه إليه الشاعر ، فطلب فلم يُقدَّر عليه ، فكتب إليه : إنه قد توجه إلى مدينة السلام ، فوجه المصور قائداً من قواده ، فأجلسه على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفَّح لباس رجلا رحلا من يتر به حتى يظفر بالمؤمل ، فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل من رِوار الأمير المهديّ ؛ قال : لِمَا كنت طلت ؛ قال المؤمل : فكاد قلبي يصدع خوفاً من أبي حمزة ، فقصّ عليّ ثم أتى بي باب المقصورة وأسلمني إلى الربيع ، فدخل إليه الربيع فقال : هذا الشاعر قد طفرنا به ؛ فقال : أدخلوه عليّ ، فأدخِلْتُ عليه ، فسألتُ فردّ عليّ السلام ، فقلت : ليس هاها إلا حيرٌ ، قال : أنت المؤمل بن أميل ؟ فقلت : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ؛ قال : هيه ! أتيت غلاماً عراً لخدمته ، فقلت : نعم ، أصلح الله أمير المؤمنين ، أتيت غلاماً كريماً لخدمته فاندع ، قال : فكأن ذلك أعجمه فقال : أشدني ما قلت فيه ، فأنشدته :

هو المهديّ إلا أنّ فيه * مَشَاية صورة القمر المير
تسأله ذا وذا فهما إذا ما * أمارا مشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراح ليل * وهذا في النهار سراح نور

ولكن فصل الرحمن هذا * على ذا المنابر والمرير
والمليك العزيز هذا أمير * وما ذا بالأمير ولا الوريير
وتقص الشهر محمدنا وهذا * مُتبرِّعاً عند تقصان الشهور
وبابن حليفة الله المصطفى * به تعلو معانرة العجور
لئن فت الملوك وقد توافوا * إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أولك حتى * نقوا من بين كاب أو حسير
وحثت وراءه تحمير حثينا * وما لك حين تحمير من فتور
فقال الناس ما هذان إلا * بمنزلة الخلق من الجدير
لئن سبق الكبير فاهل سبق * له فصل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى كبير * لقد حلق الصغير من الكبير

فقال : والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ! ثم قال لى :
أين المال ؟ قلت : ها هو داء ، قال : يارببع أنزل معه فأعطه أربعة آلاف درهم ، وحد
الباقى ، قال : نخرج الربيع لحظ ثقل ووزن لى أربعة آلاف درهم وأحد الباقى . فلما
صارت الخلافة الى المهديّ - ولّى ابن ثوبان المظالم ، فكان يحبس للناس بالرصافة . فاذا ملأ
كسائه رقاعاً رفعها الى المهديّ ، فرفعت إليه يوماً رقعة أدكره قصتي ، فلما دخل بها
ابن ثوبان حمل المهديّ ينظر فى الرقاع ، حتى اداطرق رقبتي صمكتك ، فقال له ابن ثوبان :
أصلح الله الأمير ! ما رأيتك صمكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ! قال :
هذه رقعة أعرف سبها ، رقاوا اليه العشرين ألف درهم ، فردت لى وانصرفت .

ولترك هذه الساحة فى إحازة الشعراء لئرى كيف كانت أريحية المهديّ فى الإحسان
الى الجماهير ، فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ستين ومائة أن المهديّ قسم فى تلك السنة
ملا عظيماً فى أهل مكة وفى أهل المدينة كذلك ، وأنه نظر فيما قسم فى تلك السفرة ، فوجد
ثلاثين ألف درهم حملت معه ، ووصلت من مصر ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليمن
مائتا ألف دينار ، فقسّم ذلك كله ، وفرّق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب .



وكان المهديّ الى جانب جوده وبهائه حيّاً مجولاً وبرّاً رحيماً . دخل عليه رجل فقال :
 « يا أمير المؤمنين ، إن المصور شقني وقذف أمي ، فأما أمرني أن أحله ، وإما عوصتني
 واستعمرت الله له ، قال المهديّ : ولم شمتك ؟ قال : شمتُ عدوّه بحصرته فغضب ، قال :
 ومن عدوّه الذي عصب لشتمه ؟ قال : ابراهيم بن عبد الله بن حسن ، قال : إن ابراهيم
 أمس به رجماً ، وأوجب عليه حقاً ، فإن كان شمتك كما زعمت من رجه ذنباً ، وعص عرصه
 دفع ، وما أساء من استصر لاس عمه ، قال : إنه كان عدوّاً له ، قال فلم يتصرّ للعداوة وإما
 استصرّ للرحم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليؤلّي قال : لعلك أردت أمراً فلم تحدله دريئة
 عندك أبلغ من هذه الدعوى ! قال : نعم ، قال : فبسم المهديّ وأمر له بحسّة آلاف
 درهم . »

ولسّظر الى ما يرويه الرّبيع عنه ، قال : رأيت المهديّ يصلي في سهوله في ليلة مُقمرة
 فما أدري أهو أحسن أم البهائم القمر أم ثيابه ! قال . فقرأ هذه الآية : ﴿ فَبِمَا عَصَيْتُمْ إِنْ
 تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال : فاتم صلاته والتفت الى فقال :
 يا ربيع ! قلت . ليك يا أمير المؤمنين ، قال : عليّ موسى ، وقام الى صلاته قال : فقلت
 من موسى ؟ أبوه موسى أم موسى بن حمير وكان محمداً عدي ، قال : جعلت أفكر قال
 فقلت : ما هو إلا موسى بن حمير . قال : فأحصرته ، قال : فقطع المهديّ صلاته وقال :
 يا موسى ، إني قرأت هذه الآية : ﴿ فَبِمَا عَصَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا
 أَرْحَامَكُمْ ﴾ جعلت أن أكون قطعتم رحمتك ، فوثق لي أمك لا تخرج عليّ ، قال : فقال نعم ،
 فوثق له وحلّاه . »

ومثل هذا ما حدث به علي بن صالح قال : غضب المهديّ على مص القواد ، وكان
 غلب عليه غير مرة فقال له : الى متى تُذنبُ اليّ وأغفوا ! قال : الى أيدي نبيّ ، ويُفبك
 الله جمعوناً ، فكرها عليه مرات ، فأستحي منه ورعي عنه .

ثم لننتقل الى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة فرى التولى بحثا عن البيعة للمهدى وما كان من أمر الربيع فيها فيقول : إن الربيع تناول يد الحسن بن زيد فقال : قم يا أبا محمد فإيسع ، فقام معه الحسن فأنهى به الربيع الى موسى فأجلسه بين يديه ، تناول الحسن يد موسى ثم التفت الى الناس فقال : يا أيها الناس ، إن أمير المؤمنين المصور كان ضربني واستصفي مالي ، فكله المهدى فرجى عني وكلمه في رد مالي علي فاني ذلك ، فأحله المهدى من ماله وأصعقه مكان كل علق علقين ، فمن أولى أن يبيع لأمر المؤمنين بصدر مفشرج ونفيس طيبة وقلب ماصح منى ، ثم باع موسى للمهدى ثم مسح على يده .



وبعد ، فالمهدى من الخلفاء العاسيين في الذؤانة . وقد صدق الأستاذ « ميور » اذ يقول : إن المهدى كان في إدارته لشؤون رعيته كمن يعمل بوجه عايم على رهاية الأمة وإسعادها ، وكان ميعباً ومعتلاً للعصر الذهبي الذي تلا أيامه . وما أحد عليه من بعض الهنات لا يبيع المؤرج المصنف أن يرى في عصره ترفيها للناس ، مما كانوا يعانون من الشقة أيام المصور . كان المهدى موقفاً في اختيار وورثائه ، وإن كانت السعاية أحلت سعضهم العذات وسوء المصير ، وكان دقيقاً في نظره للأمر . وقد بدأ حلاقته بإطلاق من كان في يمين المصور ، إلا من كان قبله تامة من دم أو قتل ومن كان معروفاً أنه يسعى في الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظالمه ، وإنما أطلق من كان جرمهم سياسياً .

وكان محباً للأدب ، مشجعاً على التأليف فيه ، حاذياً في طلب الزادقة والبحث عنهم في الآفاق ، عجا للغزوات والغنوج . وقد قيل : إنه كان لا يشرب البيرة وإن كان شامراً يشربونه في مجلسه ، وكان محباً للسماع ، ويحبرنا الطبرى في حوادث سنة تسع وستين ومائة ، أن المهدى مات مسموماً وقد لبست عليه قيأه المسوخ ، فقال أبو العتاهية في ذلك :

رُحْنٌ فِي الْوَتْنِ وَأَصْبَحَ * سَ عَلَيْهِ الْمُسُوحُ
كُلُّ طَّالِحٍ مِنَ الْبَحْرِ * رَ لَهُ يَوْمَ تَكُوحُ

لَسْتُ بِالْبَاقِي وَلَوْ مُحَمَّدٌ * رُبَّ مَا عَمَّرَ سَوْحُ
مَعْلَى بِمَسْكٍ تُحْ إِنْ * كُنْتَ لَا مَدْتُ سَوْحُ



والظاهر مما قدمناه أن المهدي كان يخالف أياه المصورَ مخالفةً شديدةً من بعض
الوإحيى، ويلائمه مُلاءمةً ما من وواحٍ آخر: كان كريماً مُهيئاً للال، بينما كان أبوه بخيلاً
شحيحاً، ولكنه وِثْرَ عن أبيه بعضَ القسوة والميل إلى سفك الدماء.^(١)

ولم تكن السياسة لتُغيِّبه على ذلك، فقد ثنَّتْ له المصور أركانَ الملك فالتمس الدماء
في نفع الزادقة والفتك بهم، وأسرف في ذلك، حتى قَتَلَ بعضَ الأبرياء في قسوة تُمثِّلها
قصته مع ابن وزيره أبي عبيد الله.

وفي المهدي ناحيةٌ جديدة في حلفاء العاسيين، هي الميلُ إلى الاعتدال السياسي
في معاملة الطالبين، فقد كان على شيء من الرِّفْقِ بهم والمُعْطِيعِ عليهم، لا يجمعه من ألقائهم
والإشفاق منهم.

وهذه السياسة الرقيقة الحازمة تدكرها بعضُ التذكير بما سيكون من سياسة المأمون.
ومن أظهرِ حصولِ المهدي الشَّخصيَّةَ خِبرته على النساء. تلك التي أعرته بشار
فصر به حتى مات، متعللاً بزندقته، وإن كانت العلة الحقيقية هي استنثار بشار بالفضل^(٢).
وقد أورث المهدي عيرته هذه أسه الهادي كما ستري.

(١) يخلصها أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار في هذا الرأي قوله: «قسوة المهدي وسفك الدماء، لم تكن
عامَّة وإنما كان ذلك في الزادقة خاصة».

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار: «أن قتل بشار لم يكن سببه العيرة على النساء وإنما كان يتدبر
يقطوع من داود الورد ودسيته» - ويشار هو الذي يقول

في أمية هوا طال يومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

صاعت حلامكم بأقروم فالتبسوا * حلقة الله بين اللى وللمود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أحمره بأن شاراً وقع في الخليفة وشناه. فاستنشد المهدي هجاءه
فامتنع صرم عليه فاستنشد.

حلقة يرفى حماه * يصرب بالدف والصولجان

أدلى الله وعيره * ودس مومي في حر الحيران

الفصل السابع

المهادى

قال محمد بن على بن طَبَّاطَبَا في كتاب «الآداب السلطانية» : كان المهادى مُتَقَفًا غيورًا كريما شديداً البطش جرىء القلب ، عتَمَعَ الحسَنَ دا إقدام وعَزَمَ وحريم .
وعن نحشى أن يكون في هذا النشاء إسرأف كثير ، فلم يطل عهد المهادى بالخلافة
يَمَكِّنَ الحكم له أو عليه ، وإما مرّة بها مرور الطيف .
ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدث عنه بالخير . وليس يستوفى من سيرته كلها
إلا ثلاثة أمور :

الأول ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال كَسْتُ أُوْتِلَ الشُّرْطَةُ للمهدى وكان
المهدى يبعث الى ندماء المهادى ومُعيه ، ويأمرنى بصرهم ، وكان المهادى يسألنى الرق
هم والترفية لهم ، ولا ألتفتُ الى ذلك ، وأمضى لِمَا أمرنى به المهدى . قال : فلما ولى
المهادى الخلافة أيقنْتُ بالثبُت ، فمَتَّ إلى يوما ، فدخلْتُ عليه متكففاً متحطفاً ، وإذا
هو على كرسى ، والسيفُ والقطعُ بين يديه ، فسلمتُ ، فقال . لا سلم الله على الآخر !
تذكُرُ يومَ بعثتُ اليك في أمر الخزانة وما أمر أمير المؤمنين به من صربه وحبسه
فلم تُجِبنى ؟ وفي فلان وفلان ، وجعل يُعَدِّدُ بدماؤه ، فلم تلتفتْ الى قولى ولا أمرى ؟ قلت : نعم
يا أمير المؤمنين ، أفنادُّ لى في استيلاء المحبة ؟ قال : نعم ، قلت . ما شدتُك بالله يا أمير المؤمنين ،
أيسرك أمك وليتى ما ولانى أولك ، فأمرتنى بأمرٍ بعثتُ إلى بعضُ نيكٍ بأمرٍ يخالف به
أمرك ، فاتبعتُ أمره وعصيتُ أمرك ؟ قال : لا ، قلت : فكذلك أأالك وكذا كسْتُ لأبيك ،
فاستدنانى فقتلتُ يديه ، فأمر يطلعُ فصببتُ على ، وقال : قد وليتُك ما كسْتُ لتولاه فامض
راشداً ، فخرجت من عنده فصررت الى منزلى ، ففكرنا فى أمرى وأمره ، وقلت : حدثتُ
يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم ندماؤه وورثاؤه وكناه ، فكأنى بهم حين يطلبُ

عليهم الشرائع قد أزالوا رأيه في وحملوه من أمرى على ما كنت أكره وأتخوف . قال :
 إلى الخالس وبين يديّ نيتي لي ، في وقتي ذلك ، وكأول من يديّ ، ورفاق أشطره بكاح
 وأتمحه وأصمعه للصبيّة ، وإذا صحّة عظيمة ، حتى توقفت أن الدنيا قد اقلعت وتزلزلت ،
 بوقع الحوافر وكثرة الضوآء ، فقلت : هاهنا كان واقعه ما طئت ووافاني من أمره
 ما تخوفت ، فإذا الباء قد فُتح ، وإذا الخدم قد دخلوا ، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار
 في وسطهم ، فلما رأيته ، وثنت عن مجلسي مُبادراً ، فقلت يده ورحله وحافر حمّاه ،
 فقال لي : يا عبد الله ، إلى فكرت في أمرك ، فقلت يسق إلى قلبك أيّ إذا شربت وحولى
 أعدائك ، أزالوا ما حسّن من رأيي بك ، فأطلقك وأوحشك ، فصرت إلى مراك لأونسك
 وأعلمك أن السحبة قد رالت عن قلبي لك ، فهات فاطمعي مما كنت تأكل فأفعل فيه
 ما كنت تفعل ، لتعلم أني قد تحزمت بطعامك ، وأيسست بمراك ، فيزول حوئك ووحشتك ،
 فأدبني إليه ذلك الرفاق والسكّبة التي فيها الكاعج فأكل منها ، ثم قال : هاتوا الرثّة التي
 أزلتها لسدّ الله من مجلسي فأدخلت إلى أربعائة غلّة موقرة دراهم ، وقال : هذه رثتك
 فاستعين بها على أمرك ، واحفظ لي هذه الحال عندك ، لعل أحتاج إليها يوم لبعض أسفاري ،
 ثم قال : أطلبك الله خير ، وانصرف راجعاً . ونحن وإن كنا نقرض في هذه الرواية وأمثالها
 المسالفة نرى أنها تدلّ في حملتها على بصير السياسة ، ووطية في العلم بالناس ، والانتفاع بكماياتهم .

الأمر الثاني وقوفه موقف حرم يعتقد أنه أنقذ القصر العباسي ، من شرّ عظيم ، أفسد
 على ملوك المرس قصورهم ، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أموراً خلفه بعد عصر المأمون ،
 ذلك هو تدخل النساء في أمور الدولة .

فقد ذكر الطبري أن الخيزرآن والدة الهادي ، كانت في أوّل خلافته ، فتتأت عليه
 في أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، في الاستداد بالأمر والنهي ، فأرسل إليها :
 ألا تحرّجني من خفر الكفاية إلى بدآذية التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض
 في أمر الملك ، وعليك صلاتك وتبديحك وتبتلك ، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيها يجب لك .

قال : وكانت الخيزرانُ فى حلافة موسى كثيرا ما تكلمه فى الحاجات ، فكان يجيبها الى كل ما تسأله ، حتى معنى لذلك أربعة أشهر من حلافه ، وانتال الناس عليها وطعموا فيها ، فكانت المواكُ تصدو الى بابها ؛ قال . فكلته يوما فى أمر لم يجد الى إحابتها اليه سبيلا فاعتل بعلته ؛ فقالت : لاند من إحاسى ، قل . لا أفعل ، قالت : فإنى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، قال . فعصب موسى وقال . ويل على أبي الفاعلة ! قد علمت أنه صاحبها ، والله لا قصبتها له ! قالت : إذا والله لا أسالك حاجة أبدا ؛ قال : إذا والله لا أنالى ، وحى وعصب ، فقامت مُغضّة ، فقال : مكانك تستوعى كلامى ، والله وإلا فأنا بئى من قرابى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لئن بلغنى أنه وقّف ببابك أحد من قوادى أو أحد من حاصتى أو حدى لأصربن عنقه ولا أقبصن ماله ، من شاء فليزِم ذلك ! ما هذه المواكُ التى تصدو وتروح الى مالك فى كل يوم ! أما لك مغزل يُشْفُلكِ ، أو مضحف يُدْركك ، أو بيت يصوبك ! إياك ثم إياك ما فحيت بابك الى - أولدى ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تطلق عنده بخلوة ولا مرة بعدها .

ولم يكتب المهادى بكلامه معها ، بل جمع قواده يوما وقال لهم : أيما حيرا أنا أم أنتم ؟ قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين ، قال . فأيما حير أئى أم أمهاتكم ؟ قالوا : بل أمك يا أمير المؤمنين ، قال . فأياكم يمت أن تحتل الرجال بحبر أمه فيقولوا فعلت أم فلان وصعدت أم فلان وقالت أم فلان ؟ قالوا . ما أحد ما تحت ذلك ، قال . فما بال الرجال يأتون أئى فيتحدثون بحديثها ! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها ألبته ، وشق ذلك عليها ، فاعتزته وحلفت لا تكلمه ، فلما دخلت عليه حتى حصرته الوفاة . وقد قالوا : إن المهادى حاول ستمها فلم يُفلح . على أن الخيزران أفلحت فى القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دسّت اليه من جواربها من قتله بالجلوس على وجهه .

لنتقل الآن الى الأمر الثالث وهو محاولته العذر بأخيه الرشيد .

ولسفر في حوادث سنة سبعين ومائة، لرى كيف أحلص آل برمك الرشيد، قد هم
 الهادي بحويل الخلافة عنه لاسه حمير، ولكن يحيى بن خالد ثبت في المحافظة على ولاية
 هارون، محتملا في ذلك كل مكره. وكان لطف الهادي أثره في تشجيعه على حلح الرشيد
 ومبايعه حمير، وكان فيما بينه يزيد بن مزيد وعداؤه بن مالك وعلى بن عيسى، ومن
 أشبههم، من أصحاب الأعراس.

ولم تزد الحوادث يحيى بن خالد إلا حرصا على حق الرشيد، فصار يطلعه ويسرى عنه،
 ولولاه خلح الرشيد نفسه، بعد أن تقصوه في مجلس الجماعة، وقالوا لا نرضى به، وصعب
 أمرهم حتى طهر، وأمر الهادي ألا يسار قدام الرشيد بحرية، فاجتده الناس.

أما الأحرار ص كرمه فكثيره. من ذلك ما رواه الطبري في حوادث سنة سبعين ومائة
 أنه أمر ذات ليلة ثلاثين ألف دينار اميسى بن دايب أحد حلاسه وكان - كما وصفه
 الطبري - لديد الفكاكه، طيب المسامره، كثير الناديه. ويقول على بن صالح: إنه كان
 يوما على رأس الهادي وهو علام، وقد كان حقا المطالم عامة ثلاثة أيام، فدخل عليه
 الخزان فقال له: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تطرف في المظالم
 مدة ثلاثة أيام، فالتفت إلى وقال: يا على - ائذن للناس على - بالحق لا بالقوى، فخرجت
 من صده أطير على وجهي، ثم وقعت فلم أدر ما قال لي، فقلت: أراجع أمير المؤمنين
 فيقول: أتحنني ولا تعلم كلامي! ثم أدركني دهى، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد،
 وسأله عن الحق والقوى فقال: الحق جفالة، والقوى بقر خواصهم، فأمرت
 بالاستور فرفعت، وبالأبواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم
 إلى الليل، فلما تقوض المجلس مثلث من يديه، فقال: كأنك تريد أن تدكر شيئا يا على؟
 قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كآتني بكلام لم أسمعه قبل يومى هذا، وخمت مراجعتك فقول
 أتحنني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابي كان عدنا ففسر لي الكلام، فكانته
 عنى يا أمير المؤمنين، قال: نعم، مائة ألف درهم تحمل اليه. قال: فقلت يا أمير المؤمنين،

لأنه أعرابي حُلُفٌ وفي عشرة آلاف درهم ما أغشاء وكفاه ! فقال : ويلك يا عليّ
أَجُودُ وَتَجُلُ !



وكان المهادي شديد العيرة ، طاهر الشّهامه . وهاك حديثاً لا يحلو من الأدب والمكاهيه ،
حدث به السّديّ بن شاهر قال : كنت مع موسى بجرّاح ، فأتاه بى المهديّ والخلافة ،
فركب البريد الى بغداد ومعه سعيد بن سلّم ووجهني الى حُرّاسان ، فحدثني سعيد بن سلّم
قال : سرنا بين أبيات جرّاح وبساتينها قال فسمع صوتاً من بعض تلك البساتين من
رجل يتنّى ، فقال لصاحب شُرطته : عليّ بالرجل الساعة ، قال : قتلْتُ يا أمير المؤمنين
ما أشبه قِصّة هذا الخائن ، قصّه سليمان بن عبد الملك ! قال : وليف ؟ قال : قلت له .
كان سليمان بن عبد الملك في مُتَنَزّه له ومعه حرّه ، فسمع من بستان آخر صوت رجل
يتنّى ، فدما صاحب شُرطته فقال : عليّ بصاحب الصوت فأتي به ، فلما مثّل بين يديه
قال له : ما حملك على العاء وأنت الى جبي ومعي حرّى ، أما علمت أن الرّماك^(١) اذا يَمَعَتْ
صوت العجل حتّت اليه ! يا علام جُبّه ! بلُحِبُّ الرجلُ ، فلما كان في العام المقبل ، رجع
سليمان الى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذي جلس فيه ، فذكر الرجل وما صنع به ، فقال
لصاحب شُرطته . عليّ بالرجل الذي كا حبّاه ، فأحصّره ، فلما مثّل بين يديه قال له :
إما ست فوفياك ، وإما وهبت فكافأناك ، قال : فواقه ما دعاه بالخلافة ولكمه قال له :
يا سليمان ! الله الله ! إنك قطعْتَ نسل فنهضت بماء وجهي ، وحرمتني لدّتي ، ثم تقول .
إما وهبت فكافأناك وإما ست فوفياك ! لا والله ! حتى أقيف بين يدي الله ! قال : فقال
موسى : يا علام رُدْ صاحب الشّرطة فردّه ، فقال : لا تعرّض للرجل .



وأما حقه للخدمة فيحدثنا به عمر بن شبة ، إذ ذكر أن عليّ بن الحسين بن عليّ بن الحسين
ابن عليّ بن أبي طالب ، وكان يلقّب بالجزريّ ، تزوّج رُقِيّة بنت عمرو العنانية ، وكانت تحت

المهدى، فبلغ ذلك موسى الهادى فى أوّل خلافة، فأرسل اليه لجهله وقال : أعيالك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين^١ فقال : ما حرّم الله على خلقه إلا نساء حدى صلى الله عليه وسلم، فاما غيرهنّ فلا ولا كرامة؛ فشبهه بمحصرة كانت فى يده وأمر بصره بحسائنه سوط فصرّب، وأرادّه أن يُطلقها فلم يفعل، فحُمِلَ من بين يديه ويطع فأُلقي داحية، وكان فى يده حاتم سرى، فراه بعض الخدم وقد عُثِيَ عليه من الضرب، فأهوى الى الخاتم فقصّ على مد الخادم فدقها، فصاح وأتى موسى فأراه يده، فاستشاط وقال : يفعل هذا بجادى مع استحقاقه ماى وقوله لى ! ومثّ اليه : ما حملك على ما فعلت^٢ قال : قل له وسله ومُره أن يضع يده على رأسك وليصدقك، فععل ذلك موسى فصدقه الخادم، فقال : أحسن والله ! أما أشهد أنه ان عى لو لم يفعل لانتصبت مه وأمر بإطلاقه .



وقد كان الهادى مثل أبيه عُجْباً للأدب مُشْتَحِماً للشعراء، وكان على سنته فى بعض الزادقة ومقتهم، موقفاً فى اختيار الوزراء، مُصاناً كأبيه بيطانة سوء، هُمها الوقيعه والوشايه وإمرأه الخليفة والبيت المالک ماجترّاح المآثم وأقتراب المظالم .

قال الطبرى : إن عبد الله بن محمد المقرئ حدّث عن أبيه قال : دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند مسرّوه من غ^(١)، فوحده حائفاً يلتمس عنرا من قتل من قتل فقال له : أصلح الله الأمير، أُنشدك شعرا كتب به يزيد بن معاوية الى أهل المدينة يتنذر فيه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه^٢ قال . أُنشدنى، فأنشده :

يا أيها الزاكب الفادى لِعِيتِهِ * على عُذافِرةٍ فى سيرها حَقْمٌ^(٣)

(١) غ مفتح أوّله وتشدّد ثايه : وادى الزاهر . ويوم غ كان أمر عبد الله الحسين بن على بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنه مخرج يدعو الى هبة فى دى القعدة سنة ١٦٩ هـ واپيه حاعة من العلويين بالخلافة فى المدينة ورجع الى مكة طبا كان مع لقيه حيوش بن العباس وطليم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره فانفروا يوم التروية سنة ١٦٩ هـ فقتلوا حاعة من عسكه وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء، أشدّ وألح من غ ووجه دعى عبد الله بن عمرو وهو من الصحابة الكرام هـ ملخصا من ياقوت مادة « غ » .

(٢) العداومة . المائة الشديدة الالامية الوثيقة الظهيرة، أنظر لسان العرب مادة « عدر » .

ألمع قريشا على شحط المزار بها * بنى وبين حسين الله والرحم
وموقف فناء البيت أنشده * عهد الآله وما تُرعى له الذمم
عصمت قومكم نحرنا بأممكم * أتم حصان لعمري برة كرم
هى التى لا يُداني فصلها أحد * بت التى وحيه الناس قد علموا
وفصلها لكم فصلٌ وعيركم * من قومكم لهم من فصلها قسم
إنى لأعلم أو ظنا كماله * والظن يصدق أحيانا فيتظلم
أن سوف يترككم ما تطلون بها * قتل تهادا كم المقيان والرخم
يا قومما لا تشبوا الحرب إذ حدثت * وسكوا بجبال السلم واعتصموا
لا تركبوا البعى إن البنى مصرعة * وإن شارب كأس البنى يتغم
قد جرب الحرب من قد كان قتلكم * من القرون وقد بادت بها الأمم
فانصموا قومكم لا تهلكوا مدحا * قرب ذى بذج زلت به القدم

قال : مُرّى عن موسى بن عيسى نَعَصُ ما كان فيه .

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة المهادى في كلمة حامية فليقل : إنه وَرِثَ عن أبيه
المهدى كرمه وغيّره وجهه للأدب، وَوَرِثَ عن حذّه المصور حرّمه وشيئا من مِيلِهِ إلى الغدو.

الفضل الثمين

هارون الرشيد

يَا حَيْرَاتُ هَاكَ ثُمَّ هَاكَ * أَمْسَى يَسُوسُ الْعَالَمِينَ أَسَاكَ

بهذا يُعلنُ مروانُ بنُ أبي حمصةَ الشاعرُ النابغةَ تَوَأُّ الرشيدِ عرشَ الخلافةِ ، بعد أخيه المهدي ، مهدٍ من أبيه منه سبعين ومائة هجرية . وبهذا يفتيُّ الشاعرُ الخيررانَ بِتَوَقُّلِ الرشيدِ لعرشِ كاتبِ الخيررانِ معدبةً مُعَاةً بمن كان يعتليه قبل الرشيد . وقد يكون من المستصوب أن تركَ يوسفُ بنُ القاسمِ كاتبُ الرشيدِ ، يُعلنُ اليأسَ ما أعلَّنه بنفسه إلى العالم العربي ، من حبرِ اعتلاء الرشيد للخلافة ، فإنه ، بأسلوبه الرشيقِ وبلاغته السهلة ومكانته من الرشيد ، أحقُّ بذلك وأحدرُ ، ولا سيما وقد طُبِّرَتْ قطعتُهُ للحافقين ، مُبَيَّنةً بموتِ حليلةٍ وتويعِ حليلةٍ .

قال يوسف بن القاسم بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله بمئة ولطعه ، من عليكم معاشرَ أهل بيت نبيه ، بيتِ الخلافةِ ومعدنِ الرسالة ، وأنا كم أهل الطاعة ، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة ، من معي التي لا تُحصى بالعدد ، ولا تُقصى مدى الأمد ، وأيديه الثامة إذ جمع ألفتكم ، وأعلى أمركم ، وشَدَّ عَصَدَكُمْ ، وأوهنَ عَدُوَّكُمْ ، وأطهرَ كلمةَ الحق ، وكنتم أولى بها وأهلها ، فأعزكم الله وكان الله قوياً عزيزاً ، فكتم أنصار دين الله المرتضى ، والذائب نسيمة المتصى ، عن أهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم . وبكم أستقدم من أيدي الظلمة أئمة الجور ، والباقيضين عهد الله ، والسافكين الدم الحرام ، والأكليين الهبة ، والمستأثرين به . فادكروا ما أعطاكم الله من هذه العمة ، واحسدوا أن تُغيروا فيغيركم . وإن الله حل وعز استأثر بحليسته موسى المهدي الإمام فقبضه إليه ، وولى بعده رشيداً مرضياً أمير المؤمنين كم رؤوفاً رحماً ، من تحسبكم قولاً ،

وعلى مسيبتكم بالمو عَطُوبًا . وهو — أمتعه الله بالعمة ، وحفَظَ له ما استترعه إياه من أمر الأمة ، وتولاه مما تولى به أوليائه وأهل طاعته — يَدَعُكم من محسه ، الرأفة بكم والرحمة لكم ، وقَسَمَ أَعْطَاكُمْ فيكم ، عَدَّ استحقاقكم ، ويسدل لكم من الجائزة مما آهأ الله على الخلفاء مما في بيوت الأموال ، مايوبُ عَم رزق كذا وكذا شهرا غير مُقَاصَّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم ، وحامِلًا ما في ذلك للدفع عن حريمكم ، وما لعله أن يحدث في السواحي والأقطار من المصاه المارقين الى بسوت الأموال ، حتى تعود الأموال الى حَامِيهَا وكثرتها والحال التي كانت عليها . فاحمدوا الله وحمدوا شكرا يوجب لكم المزيَد من إحسانه اليكم بما حدد لكم من رأى أمير المؤمنين وتخصَّلَ به عليكم أيده الله بطاعته ، وأرغبوا الى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامه العناء ، لعلكم تُرَجَّوْنَ : وأعطوا صفقة إيمانكم وقوموا الى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عاده الصالحين » .

هذا الكتاب القيم البليغ ، أشعر العالم العربي بابتداء خلافة هارون الذي نستطيع بحقي أن نقول إنه أصحُّ الخلفاء المسلمين اسمًا ، وأشدُّهم صوتًا ، وأشدُّهم في الخيال تأثيرًا ، فانت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد ، حتى يُحَدِّثَ في نفسك صورة خيالية ، مختلفة النوع ، ولكنها متفحة في القوَّة ، فهو يَنشِئُ في نفسك حيًّا صورة الخليفة المتَّرف ، المسرف في الترف ، الذي بلغ منه ما لم يبلغه أحدٌ قبله ولا بعده . وينشِئُ في نفسك حيًّا آخر صورة الخليفة القوي ، الذي أذلَّ أعداء الإسلام وبسط سلطان الخلافة على أطراف الأرض ، وأخذ ملوك الروم بدفع الجزية . وينشِئُ فيها مرةً أخرى صورة الخليفة الحَدِيدِ ، الذي بث الجوايس ، ليعرف من أمر الناس ما طهر وما حفى ، ثم لم يكتف بذلك بل استحال هو حاسوسا ، يطوف في الأسواق ، ويُوَعِّلُ في البيوت ، وينشِئُ المحاسن والأندية ، حتى ألَم بكل شيء ، وأحاط بكل خفية ، ثم طش ماعدائه والمؤتمرين به طشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه . ثم يَنشِئُ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب ، العقيق بالوان

العلم والدين والأدب ، المشجع للعقهاء والعلماء والشعراء والكُتّاب تشجيعاً أصبح فيه مثلاً لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب . ويُنشئُ في نفسك أيضاً صورة الخليفة الورع الزاهد، المتهاكك تُسكاً وطاعةً وتقلّاداً ، كما ينشئ فينا صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويَسْدِلُ الستارَ بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المحتاجين ومجوعهم ، يُجِبُّ اليك أنه لا يدعُ من سُبُل اللذة سبيلاً إلا سلكها وحسب ثمارها ، فمن غناء ، إلى شراب ، إلى عُبث ، إلى استمتاع بالنساء ، من حراير وإماء ، وهو مع هذا كله سياسيٌّ ، ماهرٌ ، بعيدُ النظر في تصرفه الأمور ، فيه حُرْمُ المصور وعُتْمُه وميلُه إلى الغدر والأثرة ، وكل ما يُشعّصُ سياسةً « ميكافلي » ، وفيه حلمٌ معاوية ودعائمه اللين المرن ، ومحاوُة المال واصطلاحه الناس .

ومن غريب الأمر أن كل هذه الصور المتناقضة التي تُتَناين أشدّ التناين ، قد اجتمعت حقاً في شخص هذا الخليفة ، لا كما يصورها المؤرخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير ، بل اجتمعت اجتماعاً يختلف قوه وضعفاً باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوّنت مِراجَه وشخصيته ، وقصره ، وبيئته السياسية العامة ، وليس الرشيد في حقيقته الأمر . شخصاً كبيره من الأشخاص يمثل نفسه وما وِث عن أسرته ، ولكنه مرآة اجتمعت أمامها صورٌ مختلفةٌ من الناس والكفايات والظروف فانعكست فيها هذه الصور .

الرشيدُ يمثل كل هؤلاء الناس ، وكل هذه الأشياء ، وكل هذه الظروف التي شهدتها بغدادُ قرب آخر القرن الثاني للهجرة . ومن هنا كان من العسير حداً أن نستخلص منه صورةً تاريخيةً صادقةً ، بريئةً من الغلو والإسراف .

فأما المؤرخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم بكل ما عرَفَتْ أنفسهم تأثروا به ، من الإغراق والمبالغة والغلو في المدح تخليصين في أكثر الأحيان .

وأما المؤرخون من اليرنج لم يسلم أشدُّهم احتياطا من التأثير هذه الطائفة الصحية من الأساطير التي شها في نفوس الجماعات كتاب " ألف ليلة وليلة " مد زمي طويل .

وقد طهر هذا التأثير مطهرين مختلفين ، مطهر المدح والإسراف فيه عند قوم ، ومطهر الدم والإعراق فيه عند قوم آخرين . وأولئك وهؤلاء محدوعون عن أنفسهم واحتياطهم ، بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته .

ومن يجتهدون — لا في أن يعطيك هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يرال التاريخ محتاجا إليها ، فليس ذلك عرصا في هذا البحث ، وليس في هذا الكتاب مُنْشَعُّ له ، بل في أن يعطيك صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب واليرمنية لعصر الرشيد ، غير مهيلين مع ذلك أن تُسَمِّلَ آراءَ لنا هنا وهناك حين نشعر بالحاجة الى ذلك ، لتوصيح مدھنا في فهم عصر المأمون الذي وضع فيه هذا الكتاب .



يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه ، وسطة يده بالحبر والعطاء ، وانطوائه على الجود والسعاء ، فقد ذكروا : أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة الى أن طارق الدنيا إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصنق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته . وكان اذا حجَّ حجَّ معه مائة من العقهاء وأبائهم ، وادا لم يحجَّ أجم ثلاثمائة بالعقة الساعة والكسوة الباهرة . وكان يفتي آثار المصور ويطلب العمل بها إلا في بدل المال ، فانه لم ير حليفة قبله كان أعطى منه لال ثم المأمون من بعده . وكان لا يبيع عبده إحسان محسي ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه . وكان يحب الشعراء والشعر ، ويميل الى أهل الأدب والفقه ، وكره المراء في الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له والحرى ألا يكون فيه ثواب . وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ، ويشتره بالثمن الغالي .

ولقد كانت دولة الرشيد — كما يقول الفخرى — : دولة من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقا وخيراً وأوسعها رقعة مملكة ، جبي الرشيد معظم الدنيا . ولم يجتمع على باب

حليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتّاب والدفء والمغنين من اجتمعوا على ماب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجرل صلة ، ويرفعه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راوية للأحبار والآثار والأشعار ، صحيح الدوى والتميز ، مهياً عبد الخاصة والعامة .



ولقد حاول الهادى أن برعم الرشيد على حلق نفسه من الخلافة هذه ، وأن يكتب ولاية العهد لأسه حممر، وقد تم له شىء من ذلك . وإما لحدى حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشىء الكثير من إحلاص آل برمك للرشيد لا سيما شدة محافظة يحيى البرمكى على حقوق الرشيد فى ولاية العهد، فعُدَّت وحيس وأودى فى هذا السبيل إبداءً شديداً .

ولقد أظهر الرشيد، وهو ولى عهد، من الجرأة ومثانة الأخلاق والصراحة ، ما هو حقيق بالإعجاب . ولما برى مدوحة من ذكر الرواية التى ذكرها محمد بن عمر الرومى ، هوى تعظيها صورة دقيقة لما نحن سنبله ، فقد حدثت عن أبيه قال : جلس موسى الهادى بعد ما ملك فى أوّل خلافته حلوسا حاصا ، ودعا إبراهيم بن حمفر بن أبى جعفر وإبراهيم بن سلم ابن قتيبة والحزائى بطلسوا عن يساره ، ومعهم خادم له أسود يقال له أسلم ويكنى أبى سليمان ، وكان يتق به ويقدمه ، فبما هو كذلك ، إد دخل صالح صاحب المصلى فقال : هارون بن المهدي ، فقال : آتدن له ، فدخل فسلم عليه وقتل يديه وجلس عن يمينه بعيداً من ناحية ، فأطرق موسى ينظر إليه وأدمن ذلك ثم التفت إليه فقال : يا هارون كأتى بك تحسنت نفسك بتمام الرؤيا ، وتؤمل ما أنت مه بعيد ، ودون ذلك خرط القنادر ، تؤمل الخلافة ! قال : برك هارون على ركبته وقال : يا موسى إلك إن تجرت وضعت ، وإن تواضعت رُفعت ، وإن ظلمت خُلت ، وإنى لأرجو أن فصى الأمر الى ، فأنصف من ظلمت ، وأصل من قطعت ، وأصير أولادك أعلى من أولادى ، وأزوجهم بناتى ، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي . قال : فقال له موسى : ذلك الظن بك يا أبى جعفر! أدنى منى ، فدنا

منه فقبل يديه ثم ذهب يعود الى مجلسه ، فقال له : لا والشيخ الجليل ، والملك البيل ،
أعني أهلك المصور ، لا حلتست إلّا معي ! وأجلسه في صدر المجلس معه . ثم قال : يا حراثي
إحبل الى أني ألف ألف دينار ، وإذا انتفع الحراج فاحمل اليه النصف منه وأعير من عليه
ما في الخزائن من مالنا ، وما أحد من أهل بيت اللمة ، فيأخذ جميع ما أراد ، قال : ففعل
ذلك . ولما قام قال لصالح : أدن دانتّه الى البساط .

قال عمرو الرومي : وكان هارون يأس في فمته اليه فقلت : ياسيدي ما الرؤيا التي
قال لك أمير المؤمنين ؟ قال : قال المهدي : أريت في منامي كأنني دققت الى موسى قصيباً
والى هارون قضيباً ، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلاً ، فأما هارون فأورق قصيبه من
أوله الى آخره ، هذا المهدي الحكم بن موسى الصمري ، وكان يكنى أبا سفيان ، فقال له :
صه هذه الرؤيا ، فقال : يملكك جميعاً ، فأما موسى فقتل أيامه ، وأما هارون فيبلغ مدى
ماعاش حليلة وتكون أيامه أحسن أيام ، ودهره أحسن دهر . قال ولم يلبث إلا أياماً
يسيرة ثم اعتل موسى ، ومات وكانت علة ثلاثة أيام .

قال عمرو الرومي : أفصت الخلافة الى هارون فروح محمدونة من جعفر بن موسى ،
وفاطمة من إسماعيل بن موسى ، ووق بكل ما قال ، وكان دهره أحسن الدهور .



ولقد كان الرشيد مشغولاً بالفنون والعلوم ، وكان قصره الراعي الزاهر مركزاً لمختلف
الثقافات . وأما ولعه بالشعر وصروب الآداب وإحارته الشعراء بسجاءه والحديث في ذلك
طويل المالح .

وكان الرشيد ، مع استمتاعه بمرافه الحياة ومناعمها : تزوج ست زوجات وتسرى
عشرين أمة ذكر اسماعن الطبري واسماء أولاده منهن ، وكان ، مع تبرج المدنية في أيامه ،
ومع إحيايه أنديّة اللغة والآداب والمداومة ، ورياً متأثراً بالمواظع والزهديات . وسد
لك طرفاً من مواقفه البالغة على خشية الله ، وأدبه ، وورعه ، وتواضعه .

أما خشيته لله وأدبه، فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرقبة مد أن شخص من بغداد، نخرح معه يوما الى الصيد، فمرض له رجل من النساء فقال : يا هارون اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن نهيك : خذ هذا الرجل اليك حتى أنصيف ، فلما رجع دعا فدائه، ثم أمر أن يطعم الرجل من حاش طعامة، فلما أكل وشرب دعا به فقال : يا هذا أيصمى في المحاطة والمسايلة قال : ذاك أقل مما يجب لك ، قال : فأخبرني أما شر وأخبت أم فرعون؟ قال : بل فرعون، قال . (*أَنَا رَأَيْتُكَ الْأَعْلَى*) وقال : (*مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي*) . قال . صدقت، فأخبرني : من خير : أنت أم موسى بن عمران؟ قال : موسى كليم الله وصميه اصطفاه لنفسه وآتمه على وجهه وكلمه من بين خلقه، قال : صدقت، أما تعلم أنه لما سمته وأحاه الى فرعون قال لها : (*قُولَا لَهُ قَوْلًا لِيَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى*) . — ذكر المفسرون أنه أمرها أن يكتياه — هذا وهو في عتوه وجبروته، على ما قد علمت، وأنت جنتي، وأما بهذه الحيلة التي تعلم أؤدي أكثر فرائض الله علي، ولا أعبد أحدا سواه، أقف عند أكر حدوده وأمره ونبيه، فوعظتني أعط الألفاظ وأشنعها، وأخشن الكلام وأنطعه، فلا أدب الله تأدبت، ولا أحلاي الصالحين أحدثت، فما كان يؤمك، أن أسطوك، فإذا أنت قد عرصت هسك لما كنت عنه عبدا، قال الزاهد : أخطأت يا أمير المؤمنين وأنا أستغفرك؛ قال : قد غفر لك الله، وأمر له بعشرين ألف درهم؛ فابى أن يأخذها وقال : لا حاجة لي في المال، أنا رجل سائح؛ فقال هزيمة ونحرة : ترد على أمير المؤمنين يا جاهل صيته ! فقال الرشيد : أميك عه، ثم قال له : لم تعطك هذا المال لحاجتك اليه، ولكن من عادتنا أنه لا يحاطب الخليعة أحد ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصله وسمعه، فاقبل من صلتنا ما شئت وصمها حيث أحببت؛ فأخذ من المال ألفي درهم ونزقها على الخجاء ومن حصر الباب .

وأما ورعه فقد ذكر، أن أبا مريم المدني كان مع الرشيد وكان مضطحا كاله عذاتنا فكها، فكان الرشيد لا يبصر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممن قد جمع الى ذلك المعرفة

بأخبار أهل المحاز، وألقاب الأشراف ومكاييد المحان، فبلغ من حاصته بالرشيد أن يؤاه منزلاً في قصره، وغلطه بجرمه وطغائه ومواليه وعلمائه، بجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع العجرُ وقام الرشيد إلى الصلاة فالفاه قائماً، فكشف الحاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك، قال: ويلك! قم إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي، ففضي وتركه قائماً وتأهب الرشيد للصلاة، بجاء علامه فقال أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة، فقام فإلى عليه ثيابه ومضى نحوه، فاذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ إِلَهِي قَطَرِي﴾ فقال ابن أبي مرزوم: لا أدري والله! ما تمالك الرشيد أن يحك في صلاته، ثم ألفت إليه وهو كالمغصّب فقال: يا ابن أبي مرزوم في الصلاة أيضاً! قال: يا هذا وما صنعت؟ قال: قطعت على صلاتي، قال: والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاماً عني حين قلت: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ إِلَهِي قَطَرِي﴾ فقلت: لا أدري والله، فماد فضحك وقال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وأما تواضعه فترك الكلمة فيه لأبي معاوية الصريري، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلت مع الرشيد يوماً، فصب على يدي الماء رحلُ فقال: يا أبا معاوية أنتدري من صب الماء على يدك؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم، قال: نعم. فتصور إلى أي حد بلغ صنيعه^١.



ترك جانباً الآن التكلم عن البرامكة وبكبة البرامكة إلى فصل مستقل. وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُرد لكل بحث من بحوثه باب خاص، نستوعب فيه ما يجدر بما استيعابه من تلك النواحي الهامة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى في عقننا أن نتحدث إليك في أمور أرملة قد تخيلك في عهد الرشيد عامة وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة وهي: (١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد؛ (٢) السياسة الخارجية؛ (٣) التكلم عن بعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم؛

(٤) التكلم عن الدولة الرميكية والسكة الرميكية . وسنستوفى الإيجاز المقع من غير إحلال بما لا يليق ما الإحلال به ، ولا سيما ما بيعات الرشيد ، وإما لا يرى مدوحة من إثبات خصوصها لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخي حقيق بالدراسة والبحث .

١ - السياسة الداخلية

أنت جد عالم مما كان من تطلع الطالبين للخلافة . وقد مر بك القول في تحفظاتهم وخروجهم وحروبهم للبيعة العاصي ، الحالس على العرش ، كلبا وائتهم الرص وأمكتهم الأحوال .

وأنت جد عالم أن الخلفاء ما كانوا يركنون إلى جانبهم بقاسا وتاغصا ، واصطداما للصحة الخاصة وتعارضها . بيد أن الرشيد وهو الروم نسجته ، المحول على الخير سريته ، رأى في أول عهده ، أن تحديت عليهم ويسئل بحيمه العداوه من قلوبهم ، ورفع الحجر عن كان منهم ببغداد ، وسيرهم إلى المدينة ، ما عدا العاصي بن الحسن بن عبد الله ، وكان أموه مع ذلك فيمن أشخاص إلى المدينة .

لم يشجع الطالبون الرشيد على الاستمرار على خطته تلك ، بل كان من مصهم ما دمه إلى تمييز خطته السديده ، إذ حرج عليه يحيى بن عبد الله أحد الناحين من وقعة « غ » التي كانت في أيام الهادي ، ونزح إلى بلاد الديلم ، حيث قويت شوكته واشتد ساعده ، وهرع إليه الناس من الأمصار والكور ، فاهتم الرشيد لذلك أيما اهتمام وترك ، فيما يقول الرواة ، شرب البهيد ، ثم دبت إلى قتاله الفصل س يحيى س خالد س خمسين ألفا ، ومعه من القواد صايدهم ومن الجند شعاعهم ، فسارتهم يحيى ، فكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله ، وكانت صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسئل له خروج يحيى وحملت إليه ، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج ، على أن يكتب له الرشيد أماما بقطه ، فادر الفصل برفع ذلك إلى الرشيد ، فأنجق فزاده وعظم موقعه لديه ، وكتب أمانا ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم ، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن

ابراهيم ومن أشبههم، ووجهه به مع حوائز وكرامات وهدايا، فوجه الفصل بذلك اليه فقدم يحيى بن عبد الله عليه .

و رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب الى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده، وأنه قد اشتد في مطاردته، واقتعاء أثره، طلب الأمان من الفضل، فأقننه وحمله الى الرشيد .

ويبحثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة : أنه لما ورد الفصل بن يحيى البرمكي يحيى بن عبد الله العلوي معداداً، لقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال كثير، وأجرى عليه أرزاقاً سنية، وأزله مراً سريعاً بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أياماً، وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره، وأمر الناس بماتياته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه، وبلغ الرشيد العتبة في إكرام الفصل، وفي ذلك يقول مروان ابن أبي حمزة :

طَفِرَتْ فَلَا شَلَّتْ يَدُ رَمَكِيَّةٍ * رَتَقَتْهَا الْعَتَقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمٍ
عَلَى حِينٍ أَعْيَا الرَّاغِبِينَ الثَّامَةَ * فَكَفُّوا وَقَالُوا لَيْسَ بِالْمُتَسَلِّحِ
فَأَصْبَحَتْ قَدْ فَازَتْ بِذَلِكَ عَطْلِهِ * مِنْ الْمَحْدَقِ ذِكْرُهَا فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا زَالَ قِدْحُ الْمَلِكِ يَمْحُجُ فَائِزًا * لَكُمْ كَلْبًا صُمْتُ قِدَاحُ الْمُسْلِمِ

ووجه النظر هنا الى طاهرة في شعر مروان وأى قامه الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أياتاً له يُستدلُّ منها على اغتباط الشاعر، وجمهرة الناس طمعاً، بالوفاق بين العلويين والعباسيين والإشادة بذلك، معبرة للعاملين على رتق العتق والثام الصدع . ولكن وأسفاه ! فإن للوجهة النفعية خطرهما بين الملوك وبين السعاة النخبة، ولها أثرها السيء في الصفاق تُهمُّ بالأبرياء، ولها مقبها الصارخ في بدور الكراهية والنفصاء، بين الملوك والزعماء .

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاء والقضاة وزعماء الشعب . وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي العصر أن نذكر

لك ها نصيب هذا الأمان وحطه من مصص الفقهاء ، و الفتيا ستقصيه وآخرين بالوفاء له . ولدع لأى خطاب أحد المعاصرين الكلمة قال . إن حمفر بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال : دعا الرشيدُ اليومَ يحيى بن عدا الله بن حسن ، وقد حصره أبو السحترى القاصى ، ومحمد بن الحسن العميه صاحب أبى يوسف ، وأحصر الأمان الذى كان أعطاه يحيى ، فقال لمحمد بن الحسن : ما تقول في هذا الأمانِ أصحيح هو ؟ قال : هو صحيح ، فحاجه في ذلك الرشيدُ ، فقال له محمد بن الحسن : ما تصنع بالأمان لو كان عاريا ثم ولى كان أمسا ! فاحتملها الرشيدُ على محمد بن الحسن ، ثم سأل أبا السحترى أن يظفر في الأمان ، فقال أبو السحترى : هذا الأمان مُتَقَصُّ من وحه كذا وكذا ! فقال الرشيدُ . أنت قاصى القصاه وانت أعلم بذلك ! ومزق الأمان وتفل فيه أبو السحترى !

ولك أن تعلق ما شئت على تصرف أبى السحترى ، الفقيه الدينى ، الذى أصبح هتياه تلك قاصى القصاه ، ولك أن تستدط ما أحببت في موقعه ومروسته حين مرق الأمان ، ولم ترد قيمته في نظره على "قصاصات الورق" حتى تفل فيه . ولك أن تقول ما أردت في موقف زميله محمد بن الحسن العميه صاحب أبى يوسف وعدم ترخصه أو جموده . أما نحن إنا لا نعدو خطئنا الى رسمها لأفسا ، في مثل هذه المواقف ، من الترام الحيديه التامة وعدم الرح بأفسا في المزالق الخطره ، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل .

ولقد سعى الخيمه بين الرشيد ويحيى بن عدا الله الساعون ، وكلما رقى الرشيد له أثاروا في نفسه السخيمه عليه ، فقد ذكروا أن يحيى بن عدا الله قال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إننا قرأناه ورحمنا ولسنا نترك ولا ذيقم ، يا أمير المؤمنين ، إنا وأتم أهل بيت واحد ، فاذ كرك الله قرابتنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علام تحبسنى وتعدنى ! قال : فرق له هارون ، ولكن الريرى — وكان حاكما للدينه أيام الرشيد ، وهو يعد من الأحزاب المعاديه للعلويين واشتهر بشدة بغض لم ، وكان حاصرا مجلسهما — أقل على الرشيد فقال : « يا أمير المؤمنين لا يترك كلام هذا ، فإنه شاق عاى ، وإنما هذا مه مكروخبث ، إن هذا أفسد علينا مدينتنا ، وأظهر

فيها العصيان؛ قال : فأقبل يحيى عليه ، فوافقه ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال :
أفسد عليكم مدينتكم ! ومن أتم عافاكم الله ! قال الزبيرى : هذا كلامه فقامك ، فكيف
إذا عابك ! يقول : ومن أتم استخفافنا ، قال : فأقبل عليه يحيى فقال : سم ومن
أتم عافاكم الله ! المدينة كانت مهاجرة عبد الله بن الزبير أم مهاجرة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ! ومن أنت حتى تقول أفسد عليا مدينتنا ! وإنما بآثا وآاه هذا هاجر أولك
الى المدينة . ثم قال « ما أمير المؤمنين إنما الناس محى وأتم ، فان خرعا عليكم قلنا : أكلتم
وأعتمدوا وليستم وأعريتمونا وركبتم وأرحتنمونا ، فوجدنا بذلك . قالا فيكم ، ووجدتم
محرورا عليكم مقالا فينا ، فتكافأ فيه العول ، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل ،
يا أمير المؤمنين فلم يشرئ هذا وضراؤه على أهل بيتك تسى بهم عدك ! إنه والله ما يسعى
بنا اليك نصيحة منه لك ، وإنما يأتينا فيسعى بك عدنا عن غير نصيحة منه لنا ، إنما يريد أن
يباعد بيننا ، ويتسنى من بعض بعض - والله يا أمير المؤمنين لقد جاء الى هذا حين قتل
أبى محمد بن عبد الله فقال : لمن الله فأناله ! وأنشدنى فيه مرثية قالها نحو من عشرين بيتا ،
وقال : إن تحركت في هذا الأمر فاما أقول من يابعدك ، وما يبعدك أن تلحق بالبصرة
فايديا مع يدك ! فتعير وجهه الزبيرى وأسود ، فأقبل عليه هارون فقال . « أى شىء
يقول هذا » قال : كاذب يا أمير المؤمنين ما كان مما قال حرف ! قال . فأقبل الرشيد على
يحيى بن عبد الله وقال : تروى القصيدة التى رثاه بها ؟ قال : سم يا أمير المؤمنين أصلحك
الله ! وأنشدها إياه ، فقال الزبيرى : والله يا أمير المؤمنين الذى لا إله إلا هو - حتى أتى
على آخر اليمين القموس - ما كان مما قال شىء ، ولقد يقول على ما لم أقول . قال : فأقبل
الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال : قد حلف فهل من بينة سمعوا هذه المرثية منه ؟ قال ،
لا يا أمير المؤمنين ، ولكن استحلها بما أريد ؛ قال فاستحلها ، قل : فأقبل على الزبيرى
فقال : قل أنا برئ من حول الله وقوته موكل الى حول وقوتي إن كنت قلته ؛ فقال الزبيرى :
يا أمير المؤمنين أى شىء هذا من الحلف ! أحلف له والله الذى لا اله إلا هو ويستحلنى

بشي لا أدري ما هو ! قال يحيى بن عبد الله : يا أمير المؤمنين إن كان صادقاً فما عليه أن يخلف بما استحلّه به ! فقال له هارون : احلف له وبلك ! قال : فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوى . ويقول الطبرى : إنه اضطرب منها وأرصد ، فقال : يا أمير المؤمنين ما أدري أى شيء هذه اليمين التى يستحلفنى بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء . قال : فقال هارون له : لتحلفن له أو لأصدقن عليك ولأعاقبك ! فقال : أنا برىء من حول الله وقوته موكل الى حولى وقوى إن كنت قتلته ، قال : فخرج من عند هارون فصر به الله بالفالج مات من ساعته .

وقد روى المؤرخون العرب في صدد موت ذلك الربرى روايات لا نرى بأساً بإيرادها ، فقد ذكر الفجرى أنه ما انتفى البهار حتى مات ، حملوه الى القبر وحطّوه فيه وأرادوا أن يطمّوا القبر بالتراب فكابوا كلما جعلوا الراب فيه ذهب التراب ولا ينطم القبر فعملوا أنها آية سماوية ، فسقموا القبر وراحوا . والى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان في ميمته اذ يقول :

يا جَاهِدًا في مَسَاوِيهِمْ يُكَنَّمُهَا * عَدُوُّ الرِّشِيدِ يَحْيَى كَيْفَ يَنْكُمُ
دَاقِ الرِّبْرِيَّ عَنِ الْحَيْثُ وَانْكَشَفَتْ * عَيْنِ أَنْيَاطِمَةَ الْأَسْوَالِ وَالْثَمَمُ

قالوا : ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى في الحبس شر قتلة . على أن هالك رأيا آخر في موت يحيى بن عبد الله ، وهو أن الموكل به في الحبس منعه الأكل مات .

ولسقط ما برويه لنا معاصِر وهو عاص بن الحسن عما كان من الرشيد بعد ما أصاب الربرى مما أجمع رواة العرب على إصابته به إثر كذبه في قسيه ، فقد قال . دخلنا على الرشيد ، فلما نظر إلينا قال يا عاص بن الحسن أما علمت بالخبر ؟ فقال أبى : بلى يا أمير المؤمنين ، فالحمد لله الذى صرعه لسانه ، ووقاك الله يا أمير المؤمنين قطع أرحامك ، فقال الرشيد : الرجل والله سليم على ما يحب ، ورمع السر فدخل يحيى وأنا والله أتينا الارتياح في الشيخ ، فلما نظر اليه الرشيد صاح به : يا أبا محمد ، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الحبار ! قال : الحمد لله

الذى أمان لأمبر المؤمنين كذب عدوه علىّ ، وأعهده من قطع رحمه ، والله يا أمبر المؤمنين لو كان هذا الأمر بما أطلته وأصلح له وأريده — فكيف ولست تطالب له ولا مریده — ولم يكن الظفره إلا بالاستعانة به ، ثم لم يبق في الدنيا عيرى وعيرك وعيره ، ما تقويت به عليك أندا ، وهذا والله من إحدى آفاته — وأشار الى الفصل بن الربيع — والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم ثم طمع مى في زياده ثمره لناعك بها ، فقال : أما العباسى فلا تقل له إلا حيرا وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار ، وكان حبسه بعض يوم . قال أبو يوس : كان هارون حبسه ثلاث حبات مع هذه الحبسة وأوصل اليه أرمائة ألف دينار .



ومعد ، فقد عيشاً بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليعة العاسى مع علوى من رجالات عصره لتبين نفسية المعاصرين والولاة ، وما اطوت عليه صدورهم من حبال آل علىّ وتوقر لانتخاصهم ، وعتهم بالكرامات والمعجزات . وإذا اعتبرت أب هذا كله قد حصل في عهد حليعه عظيم بسعائه وفواصله ، محبوب لما أثره وبوايله ، قوى في مملكته ، كثير الأنصار في شيعته ، أيقنت أن لخزب العلوى أنصاراً يعتد بهم ، ومكانة في القوس يُحفل بها . وهذا معقول حقاً ، وإليك لتستسيغه من نفسك ومهك اذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من العرس . وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة وبين الموالى وبنى أمية خاصة من عدا وخبائر ، ومقت وكراهية ، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم ، وأن القائمين بها كانوا من العرس ، فمن المعقول أن تُشرب قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة ، والتفتى بذهب هذه الدعوة ، سد الساعة الأولى ، ولا يزيد مرور الزمان كل دعوة أو مذهب حرق إلا قوة وانتشاراً وكثرة أنصار ورسوخ عقيدة . ملاحظ ذلك جيداً ، فإنه قد يفيدنا في تحليل بعض أعمال البرامكة .

وليرجع الى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد ، ولنقسم القول الى ناحيتين : أولهما ثوارت ناجمة عن العصبية ، وثانيتهما فتوق وتوارت في شتى ولاياته .

أما الحوادث العصبية بين التزارية واليمية وغيرها ، فإن آنَ جرير الطبري يَحْتَسِبُ أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين التزارية واليمية ، ورأسُ التزارية يومئذ أبو الهيثم ، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد ، وضم إليه القواد والأجَادَ ومشايخَ الكتّاب ، فذهب اليهم وأصلح بينهم حتى سكنت الفتنة .

وأما الثوراتُ الأثرُفَانَا نجد في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة ، وسنة ثمانين ومائة ، وسنة سبع وثمانين ومائة ، ما يدل على حصولِ فتَنٍ وحروب من جرّاءِ العصبية أيضا . ولقد حصلتْ حروبٌ في نُرَاسَانَ والطالقانِ وحُورَانَ والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لراع بن ليث ، وكان الصُرُفِيُّ أكثرها حليفَ جيوش الرشيد وولائه . على أن حُلَّ هذه الثورات ناجمٌ في الواقع عن اتساع رقعة المملكة ، وسُرعة تبدلِ الولاة ، ومُسوء تصرفِ بعض هؤلاء الولاة ، ولا سيما في جباية الأموال ، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة ، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى .

ولما احترق بما قدماه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد وانتقدم الآن الى الكلام عن السياسة الخارجية .

٢ السياسة الخارجية :

أما ملخصُ السياسة الخارجية أيام الرشيد فيمكن تقسيمه الى نقطتين : الأولى علاقته بالروم ، والثانية علاقته بالأندلس .

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية ، في بحثها عن الرشيد ، الى أن حروما ظلت نهاية الشدة قد وقعت بين الرشيد والبيزنطيين . وقالت : إن ولاية الرشيد عملوا مد بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود ، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة ، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١ هـ (٧٩٧-٧٩٨ م) ، بيد أنه عجل بعودته ، ثم شبت حربٌ في السنة التالية كالعادة ، واذ كانت الأمباطورة إيرين كانت تعاني مناهبَ داخلية فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية .

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تنبأ الأمبراطور بيقوم أريكته سنة ١٨٦ هـ (٨٠٢ م) فقد بعث الى الخليفة بكتاب مُبين طلب فيه أن يُعيد اليه الجزية التي أُدِّيت من قبل ، فلم يتخلف الخليفة بشروط الصلح صانت الحروب .

وفي سنة ١٩٠ هـ (٨٠٦ م) استولى هارون على "هرقلة" واضطر الأمبراطور الى أن يدفع جزية جديدة ، عن نفسه وعن أسرته ، هو الحرية العامة . وفي السنة التالية هزم الزطليون يزيد بن مقلد ، وكانت أغلاط هزيمة معهم مائة لأغلاط « ابن مقلد » .

ويعول بعض المؤرخين الغربيين : إن هارون كان على علاقة حسنة بـ «بشرمان» ، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيراً عند الآخر . على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية ، وإنه لبشك كثيراً في صحة هذه الرواية . وأما علاقته بالأُمويين في الأندلس ، فلم يكن مرجحاً أن تكون علاقة صفاء ومودة ، فقد كان العباسيون يمتدنونهم خارجين على سلطانهم ، ولا يرون في دولتهم نظيراً يستحق أن يمشى وإياهم في سلام وهناء .

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة « صفح » وهو أخو يحيى بن عبد الله ، فسار الى مصر وشخص منها الى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التفت حوله جماعة أوربة ، فأنشأ هناك أول خلافة للملوك وهي دولة الأدارسة .

وطهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأغالبة في إفريقية ، فإنه ولّاها إبراهيم بن الأخط التميمي ، ليحصل من مملكته حاجراً ميماً بين الخلافة العباسية والأدارسية الذين بالمغرب الأقصى ، وكذلك بينه وبين الأندلسيين ، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة ، معظم أمره ، وصار كملك مستقل ، إلا أنه كان يخاطب للرشيد .

٣ - التكلم عن البيعة

والآن نتحدث اليك عن أكرم أعلام الرشيد، وأعلما أئمة في حياته وفي الدولة العباسية، بل وفي حياة المسلمين السياسي بوجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه الأُميين والمأمون والقاسم .

وقد قلنا لك في الكتاب الأول رأياً في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأضياعهم ولأبنائهم ، وما كان له من الأثر السيئ في حياة القصور خاصة وفي السياسة عامة ، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد ، فقد كان ذلك يشقُّ بطانات مختلفه ، ويكوِّن أحراراً لا تتلف حول مدبّر أو فكرة وإنما تتلف حول الأشخاص والمناصب التي تنتظرهم .

وهذه الطانئات والأحزاب ، تنافس في القصر ، فتُعيد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة ، وتقطع ما بينهم من صلّات كان يجب أن تُرعى حرمتها . كما أنها تنافس خارج القصر ، فتُعيد على الدولة سياستها القائمة بتصرفها عن مراقبتها الداخلية ، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهامها الخارجية .

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سببُ أمويّ ، أنت ثمرها الخبيث ، وجرت على الأمويين أنواع الوصال فزقتهم وأضاعَت ملكهم ، كما قلنا ، وكان المعقول أن يسعيد العباسيون من هذا الدرس ، ويعرضوا عن سبب مكره في نفسها ، وقد سنّها أعداؤهم السياسيون - مع هذا كله - توارث الرشيد فيما توارث فيه عبد الملك ، وخلفاء عبد الملك ، وتعرضت الدولة العباسية لما تعرضت له الدولة الأموية ، بل كان حطرها هذه السبب على العرب أيام بني العباس أشد منه أيام بني أمية . ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد نقل السلطان من أسره إلى أسرته واحتيط به لقرش . فاما أثر هذه السنة أيام بني العباس فهو قتل السلطان العليّ من العرب إلى العرب ثم إلى التُرك ، وحصلُ الخلافة بوما من المبت والسحرة في أيدي المتعلمين من القواد والخدم والرقين .

ومهما تلمس الأسانِبَ لِتَوْزِطِ الرَّشِيدِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الَّتِي كَانَ يَحِبُّ أَنْ يَحْصِيَهَا فَلَمْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نُجَمِّلَ سَهْبِينَ أَسَاسِيَيْنَ . أَحَدُهُمَا تَأَثَّرَ الْقَصْرَ الْعَاسِيَّ بِسَيِّئِ الْمَلِكِ الْعَارِضِيِّ الْقَدِيمِ وَسِيَاسَتِهِ . وَالْآخَرُ تَأَثَّرَ الْخُلَفَاءَ بِمَا كَانَ لِلنِّسَاءِ ، حَرَائِشَ وَإِمَائِنَ ، مِنْ سُلْطَانٍ وَمَعُودٍ . فَلَوْلَا هَذَانِ السَّبَبَانِ لَمَا تَوَزَّطَ الرَّشِيدُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ الَّتِي تَوَزَّطَ فِيهَا أَبُوهُ الْمُهَدِيُّ ، وَدَايَ هُوَ صِرَافٌ قَلِيلٌ مِنْ نَمْرُهَا .

سَمْعُولُ : وَلَكِنَّ الرَّشِيدَ احْتَاطَ ، فَأَخَذَ عَلَى أَسْبَانِهِ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ أَنْ فِي مَعْصِهِمْ لِمَعْصٍ ، وَيَبْرَ مَعْصِهِمْ بِمَعْصٍ . وَلَكِنْ مَا قِيَمَةُ هَذَا الْإِحْتِيَاظِ أَمَامَ سَطْوَةِ الْمَلِكِ وَسُلْطَانِهِ ، وَمِطَامَعِ الْإِنْسَانِ الَّتِي لَا حُدَّ لَهَا ؟ وَمَا قِيَمَةُ هَذِهِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ وَقَدْ أَثْبَتَ التَّارِيخُ فِي حَلِّ مَرَاحِلِهِ أَنَّهَا لَا تُعْتَبَرُ عُهُودًا وَمَوَاقِيقَ إِلَّا عِنْدَ الصَّعْمَاءِ مِنَ الْأُمَمِ وَالْأَفْرَادِ ، أَمَّا الْأَعْوِيَاءُ وَدَوَى السُّلْطَانِ وَالطُّشِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ بِمَعُودٍ وَلَا مَوَاقِيقَ ، لِأَنَّهَا هِيَ « قُصَاصَاتُ وَرَقٍ » لَا أَكْثَرَ وَلَا أَقَلَّ ، وَقَدْ يُقْبَلُ بِأَنَّهَا « قُصَاصَاتُ وَرَقٍ » أَوْلَيْكَ الدِّسُّ وَكَذُّوْهَا وَشَهِدُوا عَلَى صَحَّتِهَا ، وَصَبَّامُوا فِي الرِّبَا وَهِيَ الْوَفَاءُ لِأَهْلِهَا .

وَقَدْ كَانِ الْخُلَفَاءُ قَبْلَ الرَّشِيدِ يَحْتَاطُونَ لِكُلِّ بَيْعَةٍ فِيهَا أَحَدٌ لِلْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَنْتَفِعْ هَذَا الْإِحْتِيَاظُ إِلَّا بِأَمْرِ سَيِّئٍ وَلَا أَمَامَ سَيِّئِ الْعَاسِ .

وَإِلَيْكَ الْآنَ أَحَادِيثُ الْمُؤَرِّحِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ :

لَمَّا لَاحَظَ الْعَصْلُ مِنْ يَمِينِهِ سِتَّةَ خَمْسِينَ وَمِائَةً أَوْ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي الْعَاسِ قَدْ دَنَوْا أَعْنَاقَهُمْ إِلَى الْخِلَافَةِ عِنْدَ الرَّشِيدِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيُّ عَهْدٍ ، أَجْمَعَ عَلَى الْبَيْعَةِ لِمُحَمَّدٍ ، وَلِمَا صَارَ الْعَصْلُ مِنْ يَمِينِهِ إِلَى خِرَاسَانَ فَرَّقَ فِي أَهْلِهَا أَمْوَالًا وَأَعْطَى الْجُنْدَ أَعْطِيَاةً مُتَابَعَاتٍ ، ثُمَّ أَطْهَرَ الْبَيْعَةَ لِمُحَمَّدِ بْنِ الرَّشِيدِ ، فَبَايَعَ النَّاسُ لَهُ وَسَمَّاهُ الْأَمِينَ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْخَمْرِيُّ :

أَمْسَى بِمَرُوعٍ عَلَى التَّوْفِيقِ قَدْ صَفَّقَتْ ، عَلَى بَدَنِ الْعَصْلِ أَيْدِي الْعُجَمِ وَالْعَرَبِ
بَيْعَةٍ لَوْلَى الْمَهْدُ أَحْكَمَهَا * فَالْصَّحْبُ مَعَهُ وَالْإِشْقَاقُ وَالْحَسَدُ
قَدْ وَكَّدَ الْعَصْلُ عَقْدًا لَا أَنْقَاصَ لَهُ ، لِلْمَصْطَلَقِ مِنْ بَنِي الْعَاسِ مُتَحَبِّ

ولما تنهى الخمر الى الرشيد بذلك وابع له أهل المشرق بايع، وصكت الى الآفاق
مُؤبَع له في جميع الأمصار . فقال أَنَا الْلاحِقُ في ذلك :

عَزَمْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّشْدِ . بِرَأْيِ هَدْيٍ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ دَى الْحَمْدِ

ويقول لنا اليعقوبى في هذا الصدد : إن هارون بايع لابنه محمد بالعهد من بعده
سنة ١٧٥ هـ ومحمد آن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمّة، وأخرج محمد الى
القواد، فوقف على وسادة محمد الله وصلّى على نبيه، وقام عبد الصمد بن علي ، فقال :
أيها الناس لا يبرئكم صَعْرُ السِّنِّ ، وإنما الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء .
وجعل الرجل من سى هاشم يقول في ذلك حتى اقصى المجلس ، وتبرّث عليهم الدراهم والدنانير
وفار المسك ويصنّ المبر .

ويقول لنا الطبرى في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة : أن فيها كان اصراف الرشيد
من مكة، ومسيره الى الرّقة، وبيعته بها لاسه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأحد
البيعة له على الجند بذلك بالركة، وصمّه إياه الى حمير بن يحيى وأنه قد بويع له بمدينة السلام
حين قدمها ، وولاه أموه نخراسان وما يتصل بها الى همدان ، وسماه المأمون . وقد قال
في ذلك سَلَّمَ بِنُ عَمْرُو الْخَلَّاسِ :

بايع هارونُ إمامَ الهدى • لِيَدِي الْجَا وَانْخَلَقَ الْفَاعِلُ
الْمُخْلِيفَ الْمُتَلَفِ أَسْوَالَهُ • وَالضَّامِنَ الْأَمْثَالَ لِمُحَامِلِ
وَالْعَالِمَ النَّاقِدَ فِي عِلْمِهِ • وَالْحَاكِمَ الْفَاعِلَ وَالْعَادِلِ
وَالرَّائِقَ الْفَاتِقَ حَلِيفَ الْهَدْيِ • وَالْقَائِلَ الصَّادِقَ وَالْعَاعِلِ
لِحَيْرِ عَبَّاسٍ إِذَا حَصَلُوا • وَالْمُفَصِّلَ الْمُجِيدِ عَلَى الْعَائِلِ
أَبْرَئِهِمْ سَرًّا وَأَوْلَاهُمْ • بِالْعُرْفِ عِدَ الْحَدَثِ الْبَازِلِ
لِمُسَيِّهِ الْمَنْصُورِ فِي مُلْكِهِ • إِذَا تَدَجَّتْ ظِلْمَةُ الْبَاطِلِ
فَمِ بِالْمَأْمُونِ نَوْرَ الْهَدْيِ • وَانْكَشَفَ الْجَهْلُ عَنْ الْجَاهِلِ

وفي سنة تسع وثمانين ومائة مايع الرشيد لأبيه القاسم عبد المأمون ، وحل أمر القاسم في حكمه وإقراره الى عبد الله بن أفضت الخلافة اليه .

وأراد الرشيد أن يؤثّق الأمر بين بني في ولاية العهد ، حتى يَسُدّ دونهم ماب الفتنة ، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يَحْتَشَاها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول : حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزرائه وقصائنه في سنة ١٨٦ هـ ، وحلف بالرقه إبراهيم بن عثمان بن نبيك المعكي على الحرم والخرازين والأموال والمسكر ، وأخصص القاسم ابنه الى مَنبج ، فأنزله إماما بني صَمَّ اليه من القواد والجديد ، فلما قصي ماسيكه ، كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين جهداً للعقاه والقضاء أراهم فيهما : أحدهما على محمد عما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما وليَّ عبد الله من الأعمال وصير اليه من الصبايع والغلات والجواهر والأموال . والآخر نسخة البيعة التي أخذها على انخاصه والعالمية والشروط لعبد الله على محمد وعليهم ، وحل الكاين في البيت الحرام ، وبعد أحده البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكفة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وعيرهم ، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام ، وتقدم الى المحبة في حفظهما ومع من أراد إخراجهما والذهاب بهما ، فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم الحمصي . أن الرشيد حصر وأحصر وجوه بني هاشم والقواد والعقاه وأدخلوا البيت الحرام وأمر قراءه الكتاب على عبد الله ومحمد وأشهد عليهما جماعة من حصر ، ثم رأى أن يعلّق الكتاب في الكفة . فلما رُفِع لعلّق وقع فقيل : إن هذا الأمر سريع انتقاصه قليل تمامه . وقد أشتنا الكاين ، لعظيم خطرهما التاريخي ، في باب المنثور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وبعد ، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره ، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار ، وظهرت فيه آثار تحقّول المدنية في العصور التي سبقتة ، كما أثر هو في العصور التي تلتة . ولقد صدق صاحب «العجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ ،

قال : « اجتمع للرشد ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه الرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حمصه ، وبديعه العباس بن محمد عم أبيه ، وحاحه الفصل بن الربيع أنبه الناس وأعظمهم ، ومُعيه إبراهيم الموصلي ، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر » .

ولما لحق محشاً في حياة الرشيد وعصره ، بكلمه تين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشقيقات وهو الأستاذ «ميور» ، ونتقدم بملاحظة واحدة وهي شدته على هارون الرشيد . وقد يكون الذي دفعه الى ذلك تأثره بمرجه العظيم الذي وصحه الأستاذ «ويل» . وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغاً في قسوته على هارون مبلنا عظيماً على نقيص ما عُهد فيه من الحيدة والهدوء في أحكامه ، فقد اعتبره من الظلم في الدروة ، ولم يكن الرشيد من الرذاه مملع من سقته ومن أقر عدده . ويظهر أن العاحمة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يُعبط عليها في حكاية الشرق وتاريخه .

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه ، أن كتابته عن الرشيد ، مع حفظها العظيم من المتانة والإصاف ، لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقوادح نقده .

ترجم لك رأي «ميور» ، لأنه يكاد يكون صورة صحيحة للرأي العلمي الأخير في الرشيد ، فهو لا يعدو الرأي الذي أبداه الأستاذ ك . ف . «زوتوسين» في العدد الثاني والعشرين من دائره المعارف الإسلامية . ونحن جدُّ عالٍ بمحط المراجع المدينة التي استند عليها «زوتوسين» في رأيه في الرشيد . فلننقل لك الآن كلمة «ميور» فهي مثل الأخرى إن لم تكن أوسع وأملح .

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة : «إن مكانة هارون الرشيد وأبنه المأمون في التاريخ لمي أسمى مكانة بلغها الخلفاء العباسيون ، وإن هارون لقي بأن يكون في الدروة مع الخليفة من أفاضل ملوك أسرة بني أمية ، لولا شائبة القساوة المطوية على الخذل التي وصفت سيرته جمعاء .

انقد كان الرشيد في قصوره محوطاً بصروب الرهايبه والرعد، وكان ملكاً في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أفساته خرائط عاصرة لعلت تسمياته مليون، جُمعت وسائل العسف وعدم التدقيق . واذا استنبينا ما ذكرناه فإن إدارته كانت عادلةً موفقة .

ولما كان الرشيد قد اعتاد مد ميعه شابه الحياة الحربيّه فإنه كثيراً ما شاطر جنده ميّدان القتال . وقد كان من حراء انتصاراته العديده، لا سيما على اليونان (الروم) ، أن طبع عصره بطابع المحيد والصّيت .

ولم يُظهر حليمةً، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الحمه والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الخ أم الإدارة أم الحرب .

على أن أصل شهره هذا الخليفه ، ومصدر صيته ، راجع الى أن حكمه عمّل مدحول عصر الآداب ، همد كان عصره المثابة التي يُهرج اليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سؤو البلاعه والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والصون نافقة، إذ يقاطها الخليفة مقابلة من في صحبته السّل والكرم ، كل ذلك مما آتى أكله وممره الناصح في العصور الآتية .

انقد كان الرشيد يُحير العلماء في كل من حازاب ملكية نائلة ، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه الخاص . وهالك مثلاً ما أحاربه مروان من أى حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار وكساه خلعتّه تشريقاً له ، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على بردوين من حاض مراكه . ١٥

٤ — الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفعري إذ يقول : إن دولة الراهكة كانت عرة في حبه الدهر ، وتاجاً على مفرق العصر، ضربت بمكارمها الأمثال، وشدت اليها الرحل، ونيطت بها الآمال، وذلّت

لها الدنيا أفلاذ أبنائها، ومحتبها أوفر إسماعلها، فكان يحيى وبنوه كالجموع زاهرة،
والبهور زاهرة، والسيول دافعة، والغياث ماطرة، أسواق الادب عندهم باقة، ومراتب
دوى الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأبهة المملكة ظاهرة، وهم ملحا
الليث ومعتصم الطريد، ولم يقول أو نواس :

سلام على الدنيا اذا ما فقدتكم * بى بريك من راحين وعاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للشرقين : أن البرامكة هم أسرة فارسية
أتحت أول الوزراء الفرس للامعة . وليست لفظة بريك باسم لشخص ، وإنما تدل على
رتبة وراثية خاصة برئيس الكهّان بمعد «نوبهار» ببلغ . وكانت البرامكة تملك الأراضي
التابعة للبعد، ويبلغ طولها ثمانية فراع وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعائة
ميل مربع . ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية . ويقول
ياقوت . إن قرية « روان » — الكبيرة الغنية — وهى شرق بلخ كانت في حوزة يحيى
ابن خالد .

ومعنى الاسم بالسسكريية : الدير الحديد . وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذى .
وقد وُصف كذلك بواسطة حاج صينى اسمه «هوان شايخ» في القرن السابع للسيرج في كتاب
اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية» وقد ترجمه الى الفرنسية «ست جوليان» . على أن
هذا المعبد كان معروفا لبعض الجغرافيين من العرب أمثال ابن الفقيه (أظهر طبعة جوج
ص ٣٢٢) إذ قزر أن الوهباء كانت محصنة لعباده الأوثان لا النار . وإذا تركنا جانباً
معنى المبالغات في وصف ابن الفقيه، فما نجد وصفاً مطابقاً للبوذية .

فللاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء المرس لموا دورا هاما في التاريخ
العباسى . وللاحظها جيدا، فرما أفادتنا في إمالة اللّثام قليلا عن عبادات لغات عديدة
اعتبرت زنادقة أو مانية أو ملحدين . ومهما كانت هذه اللغات موضع اضطهاد من خلفاء
المصر، فإنه من المبالغة الكتابية التى لأرضى الملم ولا التاريخ في شيء، ألا يُعطل بها

أولا يشار إليها إشارة طفيقة، اذا لم يكن لدينا من المواد ما نسمح لنا بأن نفرد لدراسها بأننا، كما حفل بها الخلفاء فأوردوا لها إدارة أتموا رئيسها «صاحب الرادقة» .

ولعل أول ذكر لبرمكة حفل به التاريخ واعتبره مؤسساً لتلك الأسره البرمكية الى نعت في تلك الأيام الراهية الزاهرة والتي امتدت الى أن انقضت في أيام الرشيد، وطيراليه باعتباره حذ البرامكة، هو خالد بن برمك الذي استورره السفاح بعد أن سلمه الخلال وأبى اللهم . كان خالد بن برمك من رجالات الدولة العباسية، فاصلاً حليلاً كما حارماً يقطاً، استورره السفاح وخف على قلبه، وكان يسمى وزيراً . وقيل . إن كل من استورر بعد أن سلمه كان يتحسب أن يسمى وزيراً، تعبيراً عما جرى على أي سلمة، ولقول من قال :

إن الوزير وزير آل محمد - أودى من يتسكك كان وزيراً

قالوا : فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيراً . كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء . قيل : إن السفاح قال له يوماً . يا خالد ما رصيت حتى استحدثتني ، فعزع خالد وقال : كيف يا أمير المؤمنين وأما عبدك وحادمك ! فصحك وقال : إن ربيطة ابني، نام مع انتك في مكان واحد، فأقوم بالليل فأحدهما قد سرح العطاء عنهما، فأرده عليهما؛ فقتل خالد يده وقال . موثق يكتسب الأحرى عده، وأميته .

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، واتقبعه الناس . وكان الوافدون يسمون سؤالاً، فقال خالد : إلى استقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء ومهم الأشراف والأكابر، فسماهم الرؤا، وكان خالد أول من سماهم بذلك، فقال له بعضهم والله ما ندرى أى أياديك عدنا أحل، أصلنا أم تسميتنا ! .

ولقد مدحه نشار بن برد فقال فيه :

لعمري لقد أجدى على ابن برمك . وما كل من كان العني عده يمدى
حلبت بشعري راحتيه فدرت . تمحاً كما در السحاب مع الرد
اذا جقه للحد أشرق وجهه . اليك وأعطاك الكرامة الحمد

له عِصْمٌ فِي الْقَوْمِ لَا يَسْتَتِيحُهَا حَرَاءٌ وَكَيْلَ النَّاجِرِ الْمَذْمُومُ
مُعْبَدٌ وَمِتْلَافٌ سَبِيلُ ثَرَانِهِ إِذَا مَا عَدَا أَوْ رَاحَ كَالْجَزْرِ وَالْمَذْمُومُ
أَحَالِدُهُ إِنْ الْحَمْدُ يَبْقَى لِأَهْلِهِ حَمَالًا وَلَا تَبْقَى الْكَنُوزُ عَلَى الْكَدِّ
مَاطِعِمٌ وَكُلٌّ مِنْ عَارَةِ مُسْتَرْدِّهِ وَلَا تُبْقِهَا إِنْ الْعَوَارِي لِلرَّدِّ

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفادة خمسة آلاف درهم،
وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان، الأخيران، في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه.
وقال أنه يحيى: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهدين البيتين.

ولقد أشركا في كلمتنا عن المهادي إلى ملج إحلاص يحيى بن خالد البرمكي للرشيد
في أيام المهادي حينما شرع في حلج هارون من ولاية العهد، وإن الأخبار التي رواها الطبري
في سنة سبع ومائة ماطقة بولاء يحيى وصدق إحلاصه.

ومجدر ما هنا أن تقتطف موقعين كثيرين لمواقف يحيى مع المهادي ذوقاً عن الرشيد
وحقوقي الرشيد، فإنهما يعطيانا صورة من إحلاص آل برمك للرشيد وبلغ ما رُوِّع به
يحيى في سبيل الرشيد.

ذكر أبو حفص الكوفي أن محمد بن يحيى البرمكي حدثه قال: بعث المهادي إلى يحيى
ليلا فليس من نفسه وودع أهله وتحفظ وحشد ثيابه ولم يشك في أنه يقتله؛ فلما أُدْخِلَ عليه
قال: يا يحيى مالي ولك! قال: أما عندك ما أمير المؤمنين، ما يكون من العبد إلى مولاه
إلا طاعته! قال: فليدخل بيبي وبين أخى تمسده علي* قال: يا أمير المؤمنين من أنا
حتى أدخل يسكاً! إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقامت بما أمرني به،
ثم أمرتني بذلك فالتفت إلى أمرك، قال: ما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئاً
ولا ذلك فيه ولا عده، قال: فسكن غضبه. وقد كان هارون طاب نفساً بالخلع فقال له
يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء والمرءى فهما يسمانني وأعيش مع أبنه عني،

وكان هارون يحب أم جعفر وجداً شديداً، فقال له يحيى . وأب هذا من الخلافة ! ولعلك ألا يترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع، ومعه من الإحابة .

وذكر الكرماني أنبأ عن خزيمة بن عبد الله قال : أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد، على ما أرادته عليه من حلج الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعة : إن عندى نصيحة، فدعا به، فقال : يا أمير المؤمنين أظني فأحلاه، فقال . يا أمير المؤمنين أرايت إن كان الأمر — أسأل الله ألا نسلقه وأن يقتلنا قبله — أظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم، ويرصون به لصالحهم وحجهم وعزومهم ! قال والله ما أظن ذلك، قال : يا أمير المؤمنين أقتام أن أسمو إليها أهلك وحلهم مثل دلائن وعلان ويطع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك ! فقال له : انتهى يا يحيى . قال وكان يقول . ما كلمت أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى . قال وقال له لو أن هذا الأمر لم يعقد لأحيك أما كان ينبغي أن يعقده له ! فكيف بأب تحمل عقده وقد عمده المهدي ! له ! ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وطع الله به أتيته بالرشيد فخلع حسه وكان أول من يبايحه ويعطيه صفقة بده، فقال : فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه .

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة، وقال له : قد قلدتك أمر الرعية وأحرحتك من عني إليك . فأحكم في ذلك مما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت وأعزل من رأيت، وأمس الأمور على ما ترى . ودفع إليه حاتمته . هي ذلك يقول ابراهيم الموصلي .

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولي هارون أشرق نورها

بين أمين الله هارون ذي السدى * فهارون واليها ويحيى وريرها

وليس في مقدورنا أن نصور شخصية يحيى بن خالد بن برمك فأحسن من إنساناً رأيته في الأخلاقيات، فقد قيل له : أى الأشياء أقل ؟ قال : قاعة دى المهمة العبيدة بالعيش الدون، وصديق كثير الآفات قليل الإمتاع، وسكون النفس الى المدح . وقيل له :

«الكرم» فقال . مَلِكٌ في زِيٍّ مَسْكِينٍ . وقيل له : ما الجود ؟ فقال . غفوَ بعد قدرة .
وقال مرة : اذا ضَحَّتْ بِنْتُكَ وِيسَ أَحَدُهَا مِنْ الْمَعْرُوفِ فَاحْذَرُ أَنْ تُنْفَلِقَهُ وَلَوْ بِالْكَلِمَةِ
الْخَمِيلَةِ . وقال . « أَحْسَنُ حِمْلَةِ الْوَلَاءِ إِصَابَةُ السِّيَاسَةِ ، وَرَأْسُ إِصَابَةِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ
اللَّهِ ، وَفَتْحُ بَابِينَ لِلرَّعِيَّةِ ، أَحَدُهُمَا رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَبَدَلٌ وَتَحَنُّنٌ ، وَالْآخَرُ غِلْظَةٌ وَمُبَاعَدَةٌ
وإِمْسَاكٌ وَمَعْ » .

ويروى لنا "ياقوت الرومي" في "معجمه" عه : أنه لما كان الفضل بن يحيى وإلياً على
نهراسان ، كتب صاحبُ البريد إلى الرشيد كتاباً يذكر فيه : أن الفضل تشاغل بالصيد واللذات
عن الطرقِ أمور الرعية ، فلما قرأه الرشيد رمى به ليحيى وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب
واكتب إلى الفضل كتاباً يردمه عن مثل هذا ، فقد يحيى يده إلى دواء الرشيد وكتب إلى
أنه على طهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد .

"حفظك الله يا يحيى وأمتع بك . قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل
بالصيد ومداومة اللذات ، عن الطرقِ أمور الرعية ما أنكروه ، معاوِذ ما هو أزيرُ بك ، وإبه
من عاد إلى ما يزيه لم يعرفه أهلُ زمانه إلا به والسلام" وكتب تحته هذه الأبيات :

إَصْبَتْ نَهَاراً فِي طَلَابِ الْعَلَا . وَأَصْبِرْ عَلَى فَقْدِ لِقَاءِ الْحَبِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ بَدَأَ مُقْبِلًا . وَعَابَ فِيهِ عَيْكَ وَجْهَ الرَّقِيبِ
فَادِرِ اللَّيْلَ بِمَا تَسْتَهِي . فَإِذَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ مِنْ قَتَى تَحْسِبُهُ مَسْكَاً . يَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبِ
الَّتِي عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَسْتَارَهُ . فَبَاتَ فِي لَهْوٍ وَعَيْشٍ خَصِيبِ
وَلَذَّةُ الْأَحْمَقِ مَكْشُوفَةٌ .. يَسْعَى بِهَا كُلُّ عَدُوٍّ مَرِيبِ

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون : «لم يكن كيعبي بن خالد وكولده أحد في البلافة
والكفاية والجود والشجاعة» . وهذا هو يحيى الذي كان يُجرى على سفیان الثوري رضي

الله عنه ألف درهم في كل شهر ، فكان اذا صلّى سعيان يقول في سجوده : « الله إن يحيى كفاني أمر دنباي فاكفه أمر آخره » .

هذا ، واذا علمت أن أم الفضل بن يحيى ، وهى زيب بنت مبر ، كانت ظفرا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل وأرضعت الخيزران . والددة الرشيد ، الفضل بلبان الرشيد ، استطعت أن تعدد الى أمى مدى كانت علاقه الرشيد بآل برمك ، وهو لم يدرج في مهده ، ولم يهرق بين أميه ويومه .

ونجد في أخبار سنة ست وسبعين ومائة أن الرشيد ولّى الفضل بن يحيى كور الجبال وطبرستان وندشوند وقومس وأرمينية وأذربيجان ، ونذبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبي حين خروجه بالديلم ، فوفق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد وأصلح أيتما لإصلاح ونجح النجاش كلّه في غزواته وحروبه ، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب :

للفضل يوم الطالقان وقبله . يوم أناخ به على حاقان
ما مثل يوميه للذين تواليا . في عزوتين تواليا يومين
سد الثغور ورد ألفة هاشم . سد الشناث فشعبها متدان
حصمت حكومتها جماعة هاشم . من أن يجرّد بينها سعيان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها . عظم الباء وعزق الحكمان

فأعطاه الفضل مائة ألف درهم وطلع عليه .

ونجد في أخبار السيرة نفسها أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصية التي بين التزارية والإيمانية ، فولى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام ، فهرع اليها موسى وأقام بها ، حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها ، فهدمه الشعراء . ومن قول بعضهم فيه :

قد هاجت الشام هيجا . يُنيب رأس وليه
فصّب موسى عليها . بخيله وجوده
فسدات الشام لها . أتى نسيج وحيد

هو الخوادم الذي تَدُّ كُلُّ حُودٍ بِجُودِهِ
أعداء حُودُ أَبِيهِ - يَحْيَى وَحُودُ جُلُودِهِ
عَادَ مُوسَى بْنِ يَحْيَى طَارِفٍ وَتَلِيدِهِ
وَالِ مَوْسَى ذُرَى الْحَجَّ - يَدٍ وَهُوَ حَشَوُ مُهَوِّدِهِ
حَصَصَتْهُ بِمَدِينِي - مَشُورِهِ وَقَصِيدِهِ
مِنْ الرِّمَاحِ حُودٌ - لَهُ مَا حَكَمَ بِسُودِهِ
حَوَّوْا عَلَى الشَّعْرِ طَرًّا - حَمِيمِهِ وَمَدِيدِهِ

وقد مدحه مثل ذلك اصحاب بن حسان الخريمي .

ويقول الطبري في أحبار سنة ثمان وسعين ومائة : إن الرشيد فوض أموره كلها إلى يحيى
ابن خالد بن برمك ، وقد ذكر فيها شيوخ الفصيل بن يحيى إلى نراسان وألبا عليها ، فأحسن
السيرة بها ، وصى بها المساحد والراطات ، وعزى ما وراء الهر ، فخرج إليه حارثه ملك
أشروسة . وكان ممتعا . وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وغيره بقصائد عدي ، وقد ذكر محمد
ابن العباس أنه سمع مروان يقول : إنه أصاب في قديمته تلك على الفصيل سبعائة ألف درهم .
وقد مدحه سلم الخاسر فقال .

وكيف نحاف من رؤس مدار تكلمها البرامكة الحور
وقوم منهم الفصيل بن يحيى - مبرما يوازيه فغير
له يومان يوم ندى وأيس - كانت الدهر بينهما أسير
أدا ما البرمكي عدا ابن عشر - مهمته وزير أو أمير

ولسطر إلى مكانة الفصيل وآل برمك من الرشيد ، إن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري
حدثنا أنه لما قدم الفصيل بن يحيى من نراسان حرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله ،

وتلقاه بوهاشم والناس من القواد والكباب والأشراف، حمل يصل الرجل ألف الألف
ونحوها ألف . ومدحه مروان بن أبي حفصة فقال .

حمدا الذي أدى ابن يحيى فأصبحت بتقديمه تحرى لنا الطير أسعدا
وما همت حتى رآته عيوننا وما زلنا ، حتى آت ، والدمع حشدا
فى عن ثراسان العدو كما نرى مضى المصيح جلبات الدجى فتزدا
لقد راع من أسمى ممره مسيره إلبا وقالوا شمسنا قد تئدا
على حين ألقى قفل كل ظلامه وأطلق ما لمعو الأسير المقيدا
وأنتى بلا من مع العدل فهم أيدى عريف باقيات وعودا
فأدعت روعاب المخاوف هم وأصدر ما فى الأمن بهم وأوردا
وأجدى على الأيتام بهم مرفه فكان من الآماء أحنى وأعودا
إذا الناس راموا غاية العصل فى الدى وفى البأس ألقوها من النجم أسدا
سما صاعدا بالعصل بحى وحاله إلى كل أمر كلب أسى وأتحدا
يلين لمن أعطى الطبيعة طاعة ويسقى دم العاصى السام المهدا
وشد القوى من تبة المصطفى الذى على فصله عهد الحليفه قددا
سمى الهى الفاتح الحاتم الذى به الله أعطى كل خير وسددا
أبنت جبال الكأبى ولم تدع بهن ليران الصلالة مؤقدا
فاطلتها خيلا وطئن حومة قبلا وما سورا وفلا مشردا
وعادت على ابن البرم ملك سدا تحوت محدولا يرى الموت ممردا

وفى أخبار سنة ثمانين ومائة، هاجت العصبية بالشام، وتفاقم أمرها، واعتم الرشيد
بذلك ، فعقد لجمع من يحيى على الشام ، وقال له . إذا أب تخرج أنت أو أرحر أنا ،
فقال له جعفر : بل أريك سسمى . وشخص الهم جعفر فى حلة القواد والكراع والسلاح ،

فأصلح بينهم ، وقتل زواجيلهم والمتلصصة منهم ، فعادوا الى الأمن والطمأنينة ، وأطاعوا تلك
الثائرة . وقد مدحه مصور الفمري بقصيدة مطلعها :

لقد أوقدت بالشام ناراً فيه * فهذا أوان الشام تمخض مارها
إذا حاش موج البحر من آل رميك * عليها خبت شهبانها وشرارها

ولما عاد حمصر موقفاً من معرفته هذه ، وقد استحل على الشام مكانه عيسى بن
العكي ، دخل على الرشيد فزاده إكراماً وإجلالاً .

وإنا لنقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد ، حين مثل بين يديه ، لأنه يُعتبر أثراً قيماً من
باحية تحليل نمسية الطرمين ، ولزوعته وملافته في أدب العصر ، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة
نص تاريخي للعصر الذي ندرسه .

قال الطبري : لما دخل حمصر على الرشيد قتل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه فقال :
الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آتس وحشقي ، وأحاب دعوتي ، ورحم نصرتي ، وأنسا
في أحل حتى أراى وجه سبيدي ، وأكرمنى بقربه ، وأمننى على بتقيل يده ، وردنى الى
جندته ، فوالله إن كست لأدكر عيبى عنه ومحرجى ، والمقادير التي أزعجتني ، فأعلم أنها كانت
مما يصح لحقتي ، وحطايأ أحاطت بي ، ولو طال مُقامى حاك يا أمير المؤمنين ، جعلني الله
مداك ، نلقت أن يذهب عقل ، إشفاقاً على قرك ، وأسفاً على فراقك ، وأن يُعجل بي عن
إدراك الاشتياء الى رؤيتك . والحمد لله الذي عصمنى في حال الفية ، وأمننى بالعافية ،
وعزمنى بالإحابة ، ومسكنى بالطاعة ، وحال بيني وبين استعمال المعصية ، فلم ألتخص إلا عن
رأيك ، ولم أقدم إلا على إذكراك وأمرتك ، ولم يخترنى أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين ،
ملا أعظم من الخيب بالله ، لقد عابت طو تُعرض لي الدنيا كلها ، لاخترت عليها قربك ومنا
رأيتها عوضاً من المقام معك . ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام : إن الله
يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكي في خلاقتك ، بغدر ما يعلم من نيتك ، ويُرِيكَ في رحمتك ، غاية

أمنتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعنتهم، حفظاً لك فيهم، ورحمة لهم، وإعماً هذا للتمسك طاعتك، والاعتصام بجبل مرصاتك . والله الصمودُ على ذلك، وهو مستحقه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كور الشام وهم سقاؤون لأمرك، مادمون على ما فرط من معصيتهم لك، ممسكون ببجلتك، نازلون على حركك، طالبون لعفوك، واثقون بجملتك، مؤثقلون فصلك، آمنوا بأذيتك، حللم و انتلاهم كالحلم كانت في احتلاهم، وحللم في ألفتهم كالحلم كانت في امتاعهم . وعضو أمير المؤمنين عنهم، وتنمته لهم سابق لمعزتهم، وصلة أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم متقدم عنده لمساتهم . وآيم الله يا أمير المؤمنين لئى كنت قد شخصت عنهم، وقد أحمده الله شرارهم وأطعاهم وأمرهم ونهى مراقهم وأصلح دهمهم وأولانى الجميل فيهم ورزقنى الانتصار منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك ويمك وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتحوفهم منك ورحايم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقممت اليهم إلا بوصيتك، وما عاملتهم إلا بأمرك، ولا سرتُ فيهم إلا على حد ما مثله لى ورسمته، ووقعنى عليه . والله ما أعادوا إلا لدعوتك وتوحد الله بالصم لك، وتحوفهم من سطوتك . وما كان الذى كان منى، وإن كنت قد بدلت جهدى وبلغتُ مهودى، قاضياً بعض حرك على، بل ما ازدادت بعنتك على عظماً إلا ازدادت عن شركك عجزاً وصعماً . وما خلق الله أحداً من رعيته، أمد من أن يطمع نفسه في قضاء حرك منى، وما ذاك إلا أن أكون نادلاً مهجنى في طاعتك، وكل ما يقرب الى موافقتك، ولكنى أحرف من أياديك صدى ما لا أحرف مثلها عند غيرى، فكيف بشكرى وقد أصبحتُ واحد أهل دهرى فيما صمته فى وبى ! أم كيف بشكرى وإعماً أقوى على شركك بيا كرامك لإياى ! وكيف بشكرى ولو جعل الله شكرى فى إحصاء ما أوليتنى لم يأت على ذلك عدى ! وكيف بشكرى وأت كهى دوى كل كهيف لى : أو كيف بشكرى وأت لا ترصى لى ما أوصاه لى ! وكيف بشكرى وأت تجتد من صمك عندى ما يسفرق كل ما سلف عندك لى ! أم كيف بشكرى وأت تُسيبى ما تهتم من إحسانك بما تحبده لى !

أم كيف بشكرى وأنت تُقْتَمَى بطولك على جميع أكفاني ! أم كيف بشكرى وأنت ولّيت !
 أم كيف بشكرى وأنت المكرم لى ' وأنا أسأل الله ، الذى رزقنى ذلك منك من غير استحقاق
 له ، إذ كان الشكر مُقَصَّرًا عن تَذِيَةِ بَعْضِهِ ، بل دون شعص من عُشر عُشره ، أن يتولى
 مكافأتك عى ، بما هو أوسع له وأقدر عليه ، وأن يقضى عى حَقَّك وحليلَ منك ، فإن ذلك
 بيده وهو القادر عليه " .

و فى أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولّى الرشيد جعفر بن يحيى الحرّس . وهكذا تحد
 فى أخبار كلّ سنة ساء عن آل برمك ، وتَمَدَّحًا لآل برمك وأثرًا حليلاً فى خدمة الدولة من
 آل برمك ، ومكافأة سامية نَوَّاهَا آل برمك من الرشيد .

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعه حال رواها العجوى بين جعفر بن يحيى البرمكى
 وعد الملك بن صالح الذى سعى به كاتبه قمامة وأبسه عبد الرحمن عبد الرشيد تهمه طلبه
 الخلافة لنفسه ، حتى حبسه الرشيد عند الفصل بن الربيع ، وهو منافس لآل برمك ، وكثيراً
 ما سعى الساعون بن صالح والرشيد . فإذا ما تمزق البرمكيون بالخير لرحل من كبار
 رحالات الدولة ، المتهمين بالتطلع الى الخلافة ، وإذا ما محج البرمكيون إلى إيصال الخير لهم ،
 وفى إرضاء قلب الرشيد عليهم ، كان فى ذلك أصدق دليل على مكاتمتهم الوفيعة من الرشيد ،
 وما بالك إذا ما وصلوا الى أب بنى أحد أولاد صالح على إحدى نيات الرشيد ، وإذا
 ما اقتطعوا له الولايات ورمّوه بأجرل الأموال ! .

على أنا نترك الكلمة لاس طناً ليعص عليك ما يرويه فيما نحن فى صدده — قيل : إن
 جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوماً للشرب ، وأحبّ الخلو ، فأحضر ندماء الدين يأس
 بهم ، وجلس معهم وقد هُيَّى المجلس ولبسوا الثياب المصبغة ، وكأوا إذا حاسوا فى مجلس
 الشراب واللهو ، لبسوا الثياب الحمرَ والعقَرَّ والحصر . ثم إن جعفر بن يحيى تقدّم الى
 الحاجب ألا يادن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من البداء كان قد تأخر عنهم
 اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسوا يشربون ، ودارب الكاسات ، وخففت العيسدان ،

وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوفا والدين والحشمة، وكان الرشيد قد اتهم منه أن يادبه ويشرب معه، وبذل له على ذلك أموالاً حيلة فلم يعمل، فاتفق أن عبد الملك بن صالح حصر إلى باب جعفر بن يحيى ليحاط به في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك ابن صالح العباسي على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وطمع أن القصبة قد انتهت على الحاجب، بطريق اشتباه الاسم، وقطع عبد الملك بن صالح أيضاً للقصبة وطهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى، فانسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحصروا لنا من هذه الثياب المصنعة شيئاً، فأحصر له قميص مصبوغ، فلبسه وحلس يياسط جعفر بن يحيى ويمارحه، وقال: اسقونا من شرابكم، فسقوه رطلاً وقال أرققوا سا فليس لنا عادة بهذا، ثم ماسطهم ومارحهم، وما زال حتى انسط جعفر بن يحيى وزال انصافه وحيائه، ففرح جعفر بذلك فرحاً شديداً وقال له: ما حاجتك؟ قال: حئت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة بها. أولها أن عليّ دسا مبلغه ألف أتم درهم أريد قصاه، وثانيها أريد ولاية لأخي يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدي بابيه الخليفة فإنها بنت عمه وهو كفء لها، فقال له جعفر بن يحيى: قد قصي الله هذه الحوائج الثلاث. أما المال فهي هذه الساعة يحل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت أهلك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كما وكذا، فأصير في أمان الله. فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سبقه. ولما كان من الغد، حصر جعفر عبد الرشيد وعرفه ما جرى وأنه قد ولّاه مصر، وزوجه ابنته، فحجب الرشيد من ذلك، وأمعى العقد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كتب له التقليد بمصر، وأحصر الفضاة والشهود وعقد العقد.

أرايت كيف لم ينقص الرشيد ما أبرمه جعفر في مسألة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد، وأسرره الرشيد، وشؤون الرشيد الخاصة !!

أليس في ذلك ما يقطع ربيع مكانة القوم وكبير قدرهم وسأى منزلتهم ، صد الرشيد وفي الدولة التي هم معزج رجالها وموئل زعمائها ؟ .

وأرجو ألا يهولك في المثل المتقدم ، ما جاء فيه حاصا بالملابس فإنه قد يعطيك فكرة ما عس تحصص بعضها للسهرات والرهات والمادامات مما لا يختلف عن نظام اليوم من « رديجوت » و « سموكج » و « فراك » الى غير ذلك مما يدل على ميلج الثروه واستعمال أمر المدنية ، حد القوم في تلك الأيام الخاليات ، فتأمل !



ربما تطلب الى مثلا على حودهم وعالق الناس بهم ، فأملك ، أرشدك الله ، أن كنت الأدب مُترعةً بالمئات من ذلك ، لا مبالغة ولا علو ولا تهويل ولا اغراق .

وسترك الكلمة في هذا الباب لمعاصرين : أحدهما إسماعيل الموصلي ، والآخر الاتليدي . فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمدرن المغيرة . وإنا نكتفى بإيراد هذين المثليين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جُلت عليه نفوسهم من المروءة ونُعِد الهمة وحب الخير .

أما مسألة إسماعيل الموصلي فتفصيل الخبر فيها أن الفصل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكيّ وعلوية ومخارفا للاجتماع عده ، وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورساه عه ، إلا أن حالة الفضل كانت ناقصة متضعضعة ، فلما اجتمعوا عده كتب الى إسماعيل الموصلي يسأله أن يصير إليه ، ويُعلمه الحال في اجتماعهم عده ، فكتب إسماعيل اليهم بمحبوره ولكن جاءهم متأخرا ، وكان علوية يعني فاحطا ، فقال له إسماعيل : أخطأت ، فعصب علوية وعاتبه بكلام طويل ، ومسه قوله له : إنه من صنعة البرامكة ، فقال إسماعيل : أما البرامكة وملازمي لم فاشهر من أن أجمده ، وإني لحقيق فيه بالمعيرة ، وأخرى أن أشكرهم على صنيعهم وأن أدبهم وأشره ، وذلك والله أقل ما يستحقونه مني . ثم أقبل على الفصل ، وقد عاطه مدحه لهم ، فقال : أنسمع مني شيئا أهلك به مما فعلوه ، وليس هو كبير في صنائعهم عدى ولا عد

أبي قبلى * فان وحدت لى عدرا وإلا لم . كست فى استدء امرى مازلا مع ألى فى داره ،
 مكان لا يزال يجرى بين علمائى وعلمائه وحوارى وحواريه المصومه ، كما يجرى بين هذه
 الطبقات ، فيشكونهم اليه ، فأتين الصجر والتكر فى وجهه ، فاستأجرت دارا قربه ، وانتقلت
 اليها أما وعلمائى وحوارى ، وكانت دارا واسعة ، فلم أرض ما معى من الآلة لها ، ولا لمن
 يدخل الى من اخوانى أن يروا مثله عدى ، فعكرت فى ذلك وكيف أصعب ، وزاد فكرى
 حتى خطر قلبى قبح الأحداث من زول مثلى فى دار مأجرة ، وإلى لا آمن فى وقت أن
 يستأذنى على ، وعدى من أحششه ولا يعلم حالى ، فيقال صاحب دارك : أو يوتى فى وقت
 فيطلب أجرة الدار وعدى من أحششه ، فضاق بذلك صدرى ضيقا شديدا ، حتى حاوز
 الحد ، فأمرت علامي بأن تُسرج لى حمارا كان عدى لأمصى الى الصحراء ، أنفج فيها بما
 دخل على قلبى ، فأمرته وركت برداء وعل ، فأصغى فى المسير ، وأما معكرو لا أمر الطريق
 التى أسلك فيها ، حتى هم فى على باب يحيى بن خالد ، فتوائب علمائه الى وقالوا : أين هذا
 الطريق ، فقلت : الى الوزير ، فدخلوا فاستأذنوا لى ، ورحح الحاحب فأمرنى بالدخول ،
 وقيت نجيلا قد وقع فى أمرين فاصحين : إن دخلت اليه برداء وعل وأعلمته أنى قصده
 فى تلك الحال كان سوء أديب ، وإن قلت له كست مجتارا ، ولم أقصدك ، بفعلتك طريقا ، كان
 قبيحا ، ثم عزمت فدخلت ، فلما رأى تسم وقال : ما هذا الزى يا أبا محمد * احتبسا
 لك ما لبر والقصد والتعقد ثم علما أنك حملتا طريقا ، فقلت : لا والله ياسيدى ، ولكنى
 أصدقك ، قال : هات ، فأحبرته القصة من أولها الى آخرها ، فقال : هذا حق مستو أهذا
 شغل قلبك * قلت : إى والله ، وزاد فقال : « لا تشغل قلبك بهذا ، يا غلام ردوا حماره ،
 وهانوا له حيلة » ، فجاءونى بحلة تامة من ثيابه فلبستها ، ودعا الطعام فأكلت ، ووضع البيدة
 فشربت وشرب فميتته ، ودعا فى وسط ذلك بدواة ورقعة وكتب أربع رقاع طنت بعضها
 توقيعا لى بيجائة ، فاذا هو قد دعا بعض وكلائه فدفع اليه الرقاع وسأله بشىء فزاد طمعى
 فى البجائة ، ومضى الرجل وجلسا لشرب ، وأنا أنتظر شيئا فلا أراه الى العتمة ثم انكأ يحيى

فنام، فقامت وأنا مسكراً حائب، فخرجتُ وقُدِّم لي حارِي، فلما تجاوزتُ الدارَ قال لي غلامي:
 الى أين نضي؟ فقلت: الى البيت، قال: قد وافقه بيعتُ دارك وأشهد على صاحبها
 وأبيع الدرَّ كله ووُوزَ ثَمُّه، والمشتري حالسٌ على مالك ينتظرُك ليعترفك، وأظنه اشترى
 ذلك للسلطان، لأني رأيتُ الأمر في استحالته واستحاثته أمراً سلطانياً؛ فوَقعتُ من ذلك
 فيما لم يكن في حسابي، وجئتُ وأما لا أدري ما أعمل، فلما نزلت على باب داري ادا أنا
 بالوكيل الذي سارَه يحيى قد قام الى، فقال لي: ادخل أَيْدِكَ الله دارك حتى أدخل الى
 محاطبتك في أمر احتاج اليك فيه، فطاب نصي بذلك، ودخلتُ ودخل الى فأمراني
 توقيع يحيى: يُطْلَقُ لأبي محمد إسماعيل بمائة ألف درهم يُتَّاعُ له بها داره وجميع ما يحاورها
 ويلاصقها، والتوقيع الثاني الى ابنه الفصل: قد أمرتُ لأبي محمد إسماعيل بمائة ألف
 درهم يُتَّاعُ له بها داره، فأُطْلِقُ اليه مثلها ليُفَقِّها على إصلاح الدار كما يريد وبانها على
 ما يشتهي. والتوقيع الثالث الى حمير: قد أمرتُ لأبي محمد إسماعيل بمائة ألف درهم
 يتَّاعُ له بها منزل يسكه، وأمر له أحوك بدفع مائة ألف درهم يمعقها على بانها ومرتقتها
 على ما يريد، فأُطْلِقُ له أنت مائة ألف درهم يتَّاعُ بها فرشا لمنزله. والتوقيع الرابع الى
 محمد: قد أمرتُ لأبي محمد إسماعيل أما وأحواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يتَّاعه ونفعه ينعقها
 عليه وفرش يتبدله، فمرَّ له أنت بمائة ألف يصرها في سائر مَعَقَتِهِ. وقال الوكيل: قد حملتُ
 المال واشتريتُ كُلَّ شَيْءٍ حاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الابناعات باسمي
 والإقرار لك، وهذا المال يورك لك فيه فأقِصه، فقبضته وأصبحتُ أحسن حالا من
 أبي في منزلي وفرشي وآلتي، ولا وافقه ما هذا ما كبر شَيْءٌ فعَلُوهُ لي، أألام على شكر هؤلاء!
 فبكى الفصل بـ الربيع وكل من حصروه، وقالوا: لا والله لا نُلَامُ على شكر هؤلاء!

أرأت الى أي مدى بلغت مكانة البرامكة من رجالات مصر وأدبائه، حتى تملَّكوا
 من القلوب أعنتها، ومن النفوس أزقتها، وكيف استحوذوا على السُّودَّاء والمهج، ولم
 لمهجِ الألسنة بمخادحهم والإشادة بذكورهم!

أما حديث المأمون والمعروف المسند الذي رواه لنا الاتليديّ مهاكّه عداهه : قال
 خادم المأمون : طلبني أمير المؤمنين ليلةً وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : حدّ ملك فلانا
 وفلانا ، سماهما لي . وأحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، وأدهتّ مسرعاً لما أقول لك ،
 فإنه بلغني أن شيخاً يحضّر ليلاً الى آثار دور البرامكة ويُبشِدُ شعرا ويدكّرهم ذكراً كثيراً
 ويلبّسهم ويكي عليهم ثم يصرف ، فأمص أنت وعلى ودبار ، حتى تَرِدُوا تلك الخمرات ،
 فاستترّوا خلف بعض الجُدُر ، فإدا رأيتم الشيعَ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً ، فأتوني
 به ، قال . فأحذهما ومصبنا حتى أيدا الخمرات ، فإدا نحن بعلام قد أتى ومعه بساطٌ وكري
 حديد ، وإدا شيخ قد أتى وله جمالٌ وعليه مهابةٌ ولطفٌ ، فجلس على الكرسيّ وجعل يبكي
 ويتحبّ ويقول هذه الأبيات .

ولما رأبُ السيفُ حدلَ جعمرًا * وبأدى مبادٍ للطيعةِ في يحيى

نكبتُ على الديارِ وزاد تأسُّي عليهم وقلت الآن لا تنفع الديار

مع أبيات أطالها . فلما ورح قصصا عليه وقلنا له : أحيّ أمير المؤمنين ، هزغ هزغاً
 شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصيه ، فإني لأؤقنّ بعدها عياه ، ثم قدّم الى بعض
 الدكاكين ، واستفتح وأخذ ورقةً وكتب فيها وصيه وسلمها الى علامه . ثم سرنا ، فلما مثّل
 بين يدي أمير المؤمنين قال : من أنت ؟ وما اسوجتّ منك البرامكةُ ما فعله
 في خرائب دُورهم ؟ قال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن البرامكة أبادى حصرةً عدى ، أقادد
 لي أن أحدّثك بحالي معهم ؟ قال : قل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا المدرّس المغيرة من
 أولاد الملوك ، وقد زالت عني معني ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركني الدين واحتضت الى
 بيع ما على رأسي ورعوس أهل ، وبقى الذي ولدت فيه ، أشاروا عليّ بالخروج الى البرامكة ،
 فخرجتُ من دمشق ومعي ثلاثون رجلاً وسيفٌ من أهل وولدي . وليس معاً ما يباع
 ولا ما يوهب ، حتى دخلنا ضداداً ونزلنا في بعض المساجد ، فدهوتُ ببعض ثياب كنت
 أهدتها لأستتر بها ، فلبستها ونجرت ، وتركتم جياطاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع

فقداد سائلا عن البرامكة، فإنا أنا بمسجد مزخرف، وفي جانبه شيخٌ بأحس زىً وزينةً،
وعلى الباب حادمان، وفي الجامع جماعةٌ حلوسٌ، فطمعت في القوم، ودخلت المسجد وحلست
بين أيديهم، وأنا أقدم رحلاً وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى لأنها لم تكن صناعتى، وإذا الخادم
قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، وإذا يحيى
جالس على دكة له وسط ستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدًا وبين يديه عشرة من ولده،
وإذا بمائة وأخى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صبيّةٌ من فضة على كل صبيّة ألف دينار،
فوضعوا بين يدي كل رجلٍ صبيّته، فرأيت القاضي والمشايخ يضمنون الدنانير في أكمامهم،
ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدى لا أحسّر على
أخذ الصبيّة، فغمزنى الخادمُ بهسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كفى والصبيّة في يدي،
وقمتُ وحملتُ أنفقت ورأى عفافه أن أمتنع من الذهاب، فوصلت وأما كذلك الى صحن
الدار ويحيى يلاحظنى، فقال للخادم: ائتنى بهذا الرجل: فأتاه بى فقال: مالى أراك تتلفت
يمينًا وشمالًا؟ فقصصتُ عليه قصتى، فقال للخادم: ائتنى بولدى موسى، فأتاه به، فقال:
يا بى هذا رجل عريب، نخده اليك، واحفظه بعسك وعمتك؛ فقبص موسى ولده على
يدي، وأدخلنى الى دار من دوره، فأكرمنى غاية الإكرام، وأقمت عنده يومى وليتى فى الذِّ
عيش وأتم سرورى، فلما أصبح دعا أخيه العباس وقال له: الوزير أصرنى بالمطف على هذا
الفتى، وقد علمت اشتغالى فى بيت أمير المؤمنين، فأقبضه اليك وأكرمه؛ ففعل ذلك وأكرمنى
غاية الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلمنى أخوه أحمد. ثم لم أزل فى أيدي القوم يتبادلونى
مدة عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء!، فلما كان
اليوم الحادى عشر جاءنى خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فانرج الى عيالك بسلام،
فقلت: واويلاه! سلّيت الدنانير والصبيّة وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وانا اليه راجعون!
فرجع السر الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم السر الأخير قال لى: مهما
كان لك من الخواصج فارفعها الى، فأتى مأمور بقضاء جميع ما أصرنى به، فلما رفع السر

الأخير، رأيتُ حجرة كالشمس حساً ووراً ، واستقبلني منها رائحةُ الدِّ والعود ونفحاتُ المسك ، وإذا بصبيان وعيال يتقلون في الحرير والديساج ، وحل إلى مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، ومنشور بصيبتين وتلك الصبيته التي كنتُ أحدثها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأملت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاثَ عشرة سنةً لا يعلم الناسُ أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما علمتُهم البليةَ ، وزل بهم يا أمير المؤمنين من الرشيد ما نزل، أجهضني عمرو بنُ مسعدة، وألزمني في هاتين الصيبتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلما تحمل على الدهرُ كنتُ في آخر الليل أقصدُ خراماتِ دورهم ، فأندبهم وأذكر حسنَ صليحهم إلى وأبكي على إحسانهم، فقال المأمون : على عمرو بن مسعدة! فلما أتى به قال له : تعرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة، قال : كم ألزمتَه في صيغته ؟ قال : كما وكذا ؛ فقال له : رُدَّ إليه كلُّ ما أحدث منه في مدته وأفرغهُما له ، ليكرنا له ولعقبه من بعده ، قال : فعلا نجيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرةَ مكائده ، قال له : يا هذا قد أحسنا إليك ما يبيحك ؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صليح البرامكة ! لو لم آت خراماتهم فأنكيتهم وأندبهم حتى أتصسل خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنتُ أصل إلى أمير المؤمنين ! قال ابراهيم ابن ميمون : فرأيتُ المأمون وقد دمعتُ عيناه وظهر عليه حره ، وقال : «لعمري هذا من صنائع البرامكة فطليهم فأبكيك، ولما هم فاشكر، ولم فأؤف، ولما إحسانهم فأذكر» .

فما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكرم قال : سمعتُ المأمون يقول : لم يكن كيميحي بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والوجود والشجاعة ؛ قال القاضي : فقلتُ يا أمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسباحة فنعرفها فيهم ، فميس الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رأيتُ أن أوليه ثغر السند .



مكانة عالية لا ريب مكانة آل رمل، وسلطان لا حد له سلطانهم، وغنى فاحش قبل الاسلام، وصوله وهود قول في دولة الرشيد، ها الذي يا ترى غير قلت الرشيد عليهم حتى نكهم °

لندكر ما يقوله المعاصرون وسقت عليه كلمة هادئة حكيمة لاس حلدون .

أما بختيشوع الطيب الماهوى، فانه يقول قلا عن أبيه حبريل : إنه لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد، وكان بما مضى يدخل ملا إددن، فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم، رد عليه ردًا صعيًا، علم يحيى أن أمرهم قد تغير . قال : ثم أقبل على الرشيد فقال : يا حبريل يدخل عليك وأنت في مراك أحد ملا إددن ! فقلت : لا ولا يطمع في ذلك، قال : ها بالنا يدخل علينا ملا إددن ! فقام يحيى فقال : يا أمير المؤمنين قدمنى الله قملك، والله ما استدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به دكرى، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجتدًا حيا وحيا في مص إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإد قد علمت فاني أكون عنه في الطقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك، قال : فاستحيا الرشيد، وكان من أرق الخلفاء وجهًا، وعباء في الأرض ما يرجع اليه طرقة، ثم قال : ما أردت ما تكره ولكي الناس يقولون، قال حبريل فظننت أنه لم يسح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى .

أما أحمد بن يوسف كانت عصرنا المأمونى الباه، فانه يتحدث عن عمامة بن أشرس حديث سنده لك . وقل إيراد هذا الحديث نوذ أن تذكر أن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي كاتبًا للسر في مجلس مشاورته لتدبير رأى في حرب نمراسن، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس وإثبات مقالاتهم في كتاب .

وربما كان من المفيد أن يزيد القارئ محمد بن الليث معرفة : لا لأنه من رحلات عصرنا ومن ذوى الأثر الادبى القيم فيه ، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشاهقة التى بُعِثَ بها من الرشيد الى ملك الروم التى أشتهاها في المجلد الثانى من هذا الكتاب ، بل لأنها نرى في توصيف قدره توصيفاً لقدر البرامكة ، ولأنك حينما نرى الرشيد يقصص على محمد بن الليث بسبب البرامكة وكرامتهم ومزلتهم من نفسه ، لمصلحة له أن يضع حداً لاستفحال شأن البرامكة ، وللرجل قدره ومزنته ، تستطيع أن تتصور تصوراً صحيحاً مكانة البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذى هم فيه ، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيلاً نكحة البرامكة تستطيع أن تعلم إذا مقدار التحول الذى نال نفسية الرشيد .

سنرى في مشاورة المهدي التى ذكرها اسعد ربه في العقد والثى أشتهاها لك في المجلد الثانى أن محمد بن الليث يتكلم في المجلس — وكان الرشيد ملائكاً ولّى العهد — كلاماً يُرضى الرشيد . إذاً فمحمد بن الليث كاتب الى جانب وظيفته كأمير مجلس المشاورة ، صاحب رأي في مجلس الاستشارة نفسه يُعْتَدُّ به . فهو ذو شخصية عظيمة من ذوى شخصيات الدولة الذين لكلامهم حظهم ولقولهم أثره .

قال : أقول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره أن محمد بن الليث رفع رسالة الى الرشيد عطفه فيها ، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُعْبَى عليك من الله شيئاً ، وقد جعلته فيما بينك وبين الله ، فكيف أنت اذا وقعت بين يديه ، سألك عما عَمِلْتَ في عبادته وولادته ، فقلت : يارب انى استكفيت يحيى أمور عبادك ، أنراك تحتج بحمده يرضى بها ! مع كلام فيه توبيخ وتقرع ، فدعا الرشيد يحيى ، وقد تقدم اليه خبر الرسالة ، فقال : تعرف محمد بن الليث ؟ قال : سمع ، قال فأى الرجال هو ؟ قال : منهم على الإسلام ، — لاحظ كيف يتهمون في الدين — فأمر به الرشيد فوضع في المطبق دهرًا . فلما تكرر الرشيد للبرامكة ، ذكره فأمر بإخراجه

فأخضر، فقال له بعد محاطة طويلة: يا محمد، أتحنى؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين؛ قال: تقول هذا!! قال: سم وصمت في رجلي إلا كآل وحلت بيني وبين العيال، بلا ذنب أنيت ولا حديث أحدثت، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويجب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك!! قال: صدقت، وأمر ماطلاقه؛ ثم قال: يا محمد أتحنى؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ولكن قد ذهب ما في قلبي، فأمر أن يعطى مائة ألف درهم فأخضرت؛ فقال: يا محمد أتحنى؟ قال: أما الآن فسم! قد أعمت على وأحسنت إلى؛ قال: انتقم الله من ظلمك وأحد لك بحقك من عنتي عليك، قال ثمامة: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم.

هنا حدث بعد ذلك *

حدث — كما يحبر أحد المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر — أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآونة التي نحن في صدها، فقام الغلمان إليه احتراماً وإحلالاً، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرور الحاديم: صر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار! قال: فدحل فلم يقم له أحد فأربد لونه، قال: وكان الغلمان وانخاضت سداً إذا راوه أعرضوا عنه، قال: فكان ربما استسقى الشرية من الماء أو غيره فلا يسقونه، والحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوها مراراً.

ولننظر في سبب آخريويه لنا أحد المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد اليزيدي، قال: من قال إن الرشيد قتل حمزة بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه، وذلك أن الرشيد دمع يحيى إلى حفرة هبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي، فسأله عن شيء من أمره فأجابته، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تعترض أن يكون خصمك صداً عمداً صل الله عليه وسلم، فوافقه ما أحدثت حدثاً، ولا آويت حدثاً؛ فرق عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله؛ قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردك إليك أو إلى غيرك! فوجه معه من آفاه إلى مأمونه. وبلغ أن ظهير الفضل بن الربيع من صين

كانت له عليه من حاص حنمه، فبلا الأمر فوجده حقا وانكشف عده، فدخل على الرشيد فاجبه فأراه أنه لا يسأ بجبهه، وقال : وما أنت وهذا ! لا أم لك ! قلل ذلك عن أمرى ! فانكسر الفضل وجاءه جعفر فدعا بالفداء فأكلا، وجعل يلقيه ويمادته، الى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال : بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأبكال، قال : بحياتى؟ فأحجم جعفر، وكان من أدنى الخلق دها وأحسهم فكرا، فهجس فى نفسه أنه قد علم شئ من أمره، فقال : لا وحياتك ياسيدى، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عده، قال : يتم ما فعلت، ما عدوت ما كان فى نفسى؛ فلما خرج أتبعه بصره، حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال : قتلى الله بسيف الهدى على عملي الضلالة إن لم أقتلك ! فكان من أمره ما كان .

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، وذكره لك هنا على طلائه، استكمالاً للوضوح من كل نواحيه . يقول الطبرى : إنه يطل أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب، قال : « إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر ص جعفر وعن أخته عاسه بنت المهدي ، وكان يحصرهما اذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره معه وعنهما ، وقال لجعفر تزوجها ليحل لك النظر اليها اذا أحصرتها مجلسي ، وتقدم اليه ألا يسأها ولا يكون معه شئ مما يكون للرجل الى زوجته ، فزوجها معه على ذلك ، فكان يحصرهما مجلسه اذا جلس للشرب ، ثم يقوم عن مجلسه ويظليهما ، فيشملان من الشراب ، وهما شابان فيقوم اليها جعفر فيجامعها ، فحملت منه وولدت علما ، خافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجهت بالمولود مع حواصن له من ماليكها الى مكة ، فلم يزل الأمر مستورا عن هارون ، حتى وقع بين عاسه وبعض جواربها شر ، فانتهت أمرها وأمر الصبي الى الرشيد وأحبرته بمكانه ومع من هو من جواربها وما معه من الحل الذي كانت زيتته به أمه ، فلما تخ هارون هذه الحجة — سة سح وثمانين ومائة — أرسل الى الموضع الذى كانت الجارية أخبرته أن الصبي به ، من يأتيه بالصبي ، ومن معه من حواصنه ، فلما أحصروا

سأل اللواتي معهنَّ الصبيُّ، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرتْها بها الرافعةُ على عباسةَ، فأراد، فيما زعم، قتلَ الصبيِّ ثمَّ تحوَّضَ عن ذلك، وكان حمير يتقصدُ للرشيْد طعماً كما حجَّ بسُفان فيُقْرِيه إذا أصرف شاحصاً من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام اتحد الطعامُ حميرٌ كما كان يتخذُه هالك، ثم استتراره فاحتلَّ عليه الرشيْد ولم يحصرْ طعمانه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان .

أما نحن فلا نريد القطعَ بأنَّ نكبة البرامكة كانت أثراً لسببٍ سببه من هذه الأسباب، وربما كانت نتيجةً لطائفةٍ من الأسبابِ مجتمعةٍ، منها ما نعرفه، ومنها ما لم نعرفه بعد، ونحبُّ ألاَّ يعوتنا هنا أبٌ نعتزُّ فرصاً مستوفٍ بأنه فرضٌ لا أكثر ولا أقل، ونعترف بأنَّه في حاجةٍ إلى التحقيق العلميِّ، ولكنَّا نعرفُ أيضاً أنَّ عرصه على علته لا يحلُّ من المبع، وهو أنَّ البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعتزلة^(١)، وهي الاعتدال بين أهواء الأحرار السياسية المتطرفة وتلطيف الخصومة بين جاحي الحزب الهاشمي فلم يرصَّ الرشيْدُ على هذا النحو من السياسة، ومالاه على ذلك المعيون من أنصار الجناح العباسيِّ . وسرى سد قليل أن المأمون كان يرى رأى البرامكة، في هذا النحو من السياسة المعتدلة، الموافقة بين وجهات النظر المختلفة .



أما كيفية القبض على البرامكة، واحتياطُ الرشيْد وحده قبل قتلهم، ومصادرتهم لأموالهم، وما قالته الشعراء في رثائهم، حديثٌ طويلٌ يتطلبُ رسالةً خاصةً، وفقاً لله لدراسه موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم في الدولة العباسية في موضوعاً (عصر الرشيْد) في القريب العاجل إن شاء الله .

(١) عفاها أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار في هذا بقوله . " ليس الاضلال مذهباً سياسياً ولم ترج سوق الاضلال في زمن الرشيْد ولم يكن شيئاً يعتد به على عهده " .

على أنسا نرى من المستصوب قل أن تم هذه العذلكة الموجرة أن نختصها بكلمة
لاس حلدون ، لا تحمل من تحليل صحيح ، وهذه في الموارنة رحيح ، وبات في التاريخ
بحيل المبهج ، معقول التعليل .

قال اس حلدون : إنما نكَّ البرامكة ما كان من استندادهم على الدولة واحتياهم أموال
الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب السير من المال فلا يصل إليه ، فلبوه على أمره وشركوه
في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وعُدَّ صيتهم وعمروا
مراتب الدولة وحطَّ علها بالرؤساء من ولدهم وصباغهم ، واحتاروها عن سواهم : من وزاريه
وكتابة وقياده وحجابه وسيف وقلم . يقال . إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد
خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، زاحوا بها أهل الدولة بالملك
ودعموهم عنها بالراح ، لمكان أهم يحيى من كفاءة هارون ولي عهد وحيطة ، حتى شت
في حجره ، ودرج من عشه ، وعله على أمره ، وكان يدعوهُ يأت ، فتوحه الإيثار من السلطان
اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانسط الخاء عنهم ، وانصرفت بحوم الوحوه ، وخصعت
لم الرقاب ، وقُصِرَتْ عليهم الآمال ، وتمطت اليهم من أقصى التحوم هدايا الملوك وتُحَفَّ
الأمراء ، وتسربت الى خزانهم ، في سبيل الترف والاستمالة أموال الجباية ، وأفاصوا
في رجال الشيعة وعطاء القراية العطاء وطوَّقوهم المن ، وكسوا من بيوتات الأشراف
المعديم ، وفكوا العاني ، ومُدَّحُوا بما لم يُمدح به حليقتهم ، وأسَّوْا لعقائهم الجواثر والصلات ،
واستولوا على القرى والصَّياع من الصواحي والأمصار في سائر الممالك ، حتى آسَعُوا البطانة
وأحقَدُوا النخاسة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكُشِفَتْ لهم وحوه الماسة والحسد ، ودبَّت
الى مهادهم الوثيرة من الدولة عمارب السعاية ، حتى لقد كان سوخطلة أخوال جعفر من
أعظم الساعين عليهم ، لم تَمِطْهُمْ ، لما وفر في هوسهم من الحسد ، عواطف الرِّحم ،
ولا وَزَعْتُمْ أواصر القراية ، وقارن ذلك عدد مخدومهم بواشي العيرة والاستكاف من الحجر
والأمنه وكان الحفود التي عنتها منهم صفائر الدالة ، وانتهى سهم الإصرار على شأنهم الى
بجائر المخالفة .

الفصل التاسع

الحياة العلمية في العصر العباسي

توطئة - حركة النقل - العلوم القرائية والعلوم والفقهية .

(١) توطئة :

هذه فذلكت مجلّة بمشابة توطئة لما سمرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح في العصر المأموني . مهمتها الآن أن تلمّ بيان العاصر المهمة في الحياة العلمية العباسية .

علم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيمٌ عميقٌ ، لأنه الى جانب إمداد العالم بمشحات فلاسفتهم وعلماهم وكتابهم ومفكرهم قد أمّدوه أيضا بالتخب والمُلج مما وقّف عليه اليونان من زُبد علوم الأشوريين والبابليين والميلقيين والمصريين واليهود والعرس واليونان والرومان . فاذا ما قلنا : إن العرب وقعوا على الفلسفة اليونانية ، ومُستحات المعول اليونانية ، فكأننا نقول صما إنهم وقعوا على آثار العقليات الإنسانية العامة ، وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة .

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسيةً الى حدّ ما ، أو على الأقل كانت مُنسمةً بالطابع الفارسي متأثرةً به . وعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «جبون» أن «جستنيان» اصطهد مدارس أديبا ، لأنه كان خَصماً للفلسفة الوثنية ، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين ذاك قد آتت ثمرتها ونصبت ، ثم هرع أصحابها الى العرس ، واتصل بأنوشروان سبعةً من علماء اليونان فأكرم وقادتهم ، وأفسح لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهل وأصحاب القُدح المعلّ فيه . ويقول ابن النديم في الفهرست : إن الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى اللسان العربي عبد الله بن المقفع . فن المعقول إذاً أن يكون

العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضا . ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغفط قدره، لأنك اذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابورس أردشير، تجد أنه في حلال عهده بعث الى بلاد اليونان، وحلب كتب الفلسفة، وأمر بقلها الى الفارسية، واحتربها في مدينته وأحد الناس في نسخها وتدارسها وهكذا . فالثقافة العربية أفادت أتما إفاده من مستجات العرس وآثارهم وتراجمهم .

(ب) حركة النقل :

لندرج الآن الى شيء من التوضيح، فسئل لك ما يقوله ابنُ صاعد الأندلسي في هذا الباب ، لأنه مختصر عما تعرض له أمثال الأساتذة « بلليو » و « ابن أبي أصيبعة » « والقفطي » « وابن النديم » وغيرهم ممن سيكونون عذتنا وموثنا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموي .

يقول ابن صاعد : « إن أول علم أعتني به من علوم الفلسفة علم المنطق والجوهر . فأما المنطق فأقول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقيه الثلاثة التي في صورة المنطق ، وهي كتاب « قاطاعورياس » وكتاب « ماري أرمياس » وكتاب « أتولوجيا » وذكر أنه لم يترجم منه الى وقته إلا الكتاب الأول ، و ترجم ذلك المدخل الى كتاب المنطق المعروف « بإيساغوجي » « المعروف بربوس الصوري » ، وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، و ترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بـ « كليله وديمه » ، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية

وأما علم الجورم فأقول من عني به في هذه الدولة محمد بن ابراهيم الغزاري ، وذلك أن الحسين بن حميد المعروف بابن الأديمي ذكر في تاريخه الكبير المعروف بنظام المقد . « أنه قدم على الخليفة المصور سنة ست وخمسين ومائة رجل من الهد عالم بالحساب المعروف

بالسند هندی فی حرکات النجوم مع تعادیل معلومة علی کزدحات محسوبة لنصف نصف درحة مع صروب من أعمال الفلك ومع کسوفین ومطالع الروح وعید ذلک ، فی کتاب یحتوی علی اثنی عشر مانا ، و ذکر آیه اختصره من کزدحات منسوبة الی ملک من ملوک الهند یسمى قمر ، وكانت محسوبة لدقیقة ، فأمر المصور ترجمة ذلک الکتاب الی اللغة العربیة ، وأن یؤلف منه کتاب یتحدّه العرب أصلاً فی حرکات الکواکب ؛ فتولّى ذلک محمد بن ابراهیم الفزاری ، وعمل منه کتابا بسمیه المنحومون "مالسد هد الکبیر" وتفسیر السد هد باللغة الهندیة : الدهر الداهر . »

وقد یكون من المستصوب أن همهم حقيقة وجهة نظر العرب حين ذلک الی علم الفلك ، همهم کالیونانیين فی رسم "طليموس" کان عرّضهم فی الهیئة تبین الحركات السماویة مع کل اختلافاتها المرئية ، فأشکال هندسیه ، ممکنهم من حساب أوصاع الکواکب لأی وقت فُرِضَ ، وإن کانت تلك الأشکال تصلح لحساب الظواهر رؤوا بها وما اهتموا بالبحث فی حقیقه حركات الأحرار السماویة ، وذلک لطمهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعللها یكون علی المشتغلین بالحکمة والطبیعة والحکمة الالهیة .

ونحن نجد ، نقطع الطر عن أحكام العجوم الی صارت غیر مقبولة فی آیامنا ، أن الهیئة عند العرب کما یقول الأستاذ «مليو» ، قد اشتملت علی علم الهیئة الکرویة والعملیة ، وقسم صغیر من النظریة یخصّ کسوفات واستتارات الکواکب السیارة ، مع علم التاریخ الریاضی وعلم أطوال البلدان وعروضها علی طريقة کتاب الجغرافیة لطليموس ، فقد حرج من علم الهیئة عند العرب علم المکانیکا الفلکیة وعلم طبیعة الأجرام السماویة وأکثر علم الهیئة الطری ، إذ إنه یبحث عن حقیقه حركات الکواکب .

فلا یمرّیه أنا فی أن العرب ، الی جانب وقوفهم علی الفلسفة الفارسیة والحکمة البوانیة ، قد وقفوا أیضا علی آخر الآراء العلمیة الخاصة بعلم الفلك فی ذلک الحین ، وأنهم وقفوا علی آراء طليموس فیهما وقفوا علیه من الآراء . و طليموس — کما قال البتانی — قد تقصی

علم الفلك من وجوهه، ودلّ على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعديّ الذي لا تُدعَى صحته ولا يُنكّر في حقيقته، فأمر بالحق والاعتبار بصدده، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أربخس وغيره من نظرائه، لحالة الصباغة، ولأنها سماوية جسيمة لا تُدرك إلا بالتقريب .

ولا يهوتا أن نشير هنا إلى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسراه لمحمد بن خالد البرمكي . وزجوج حين تمزضا هذه الموضوعات في العصر المأموني أن لم بها المساما أدق وأوسع .

على أنه بحدربنا في هذه المدركة أن نشير إلى الكتب البهلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ « بليو » أن يكتشف أثر قلها وما قبل انتهاء القرن الثاني للهجرة . الواحد منها في علم الهيئة الحقيقي وهو ريج الشاه أو ريج الشهر يار، والآحران في صباغة أحكام النجوم وهما المبيزنج في المواليذ المنسوب إلى بُزْجِيَهْر، وكتاب صور الوحوه لتسكلوس ؛ وكذلك يحدربا أن نشر إلى أن كتاب الحبسطى نقل في أيام الرشيد .

ولما نلخص لك هنا ما لاحظته المرحوم جورجى بك زيدان في أمر النقل من أن العرب ، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان ، لم يتمزصوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس واليهود، فقد نقلوا جملةً صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم وزججوا الشاهنامة، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا خُرافة استرابون ولا الإبادة هوميروس ولا أوديسته . وسبب ذلك أن أكثر ما بحث المسلمون على النقل رعبتهم في الفلسفة والطب والجوم والمسطق .^(١)

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبدالوهاب المحار : « أنه يمكن إرجاع ذلك إلى صف يراه أمّ . وهو أن الراحين من اليونان أيام الاضطهاد الحرا لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين وإنما كانوا غلاة وأطباء . فأسروا في تلك السلاذ مدرستهم وأحد أهل السلاذ عنهم ما يهرون . فالأدب والتاريخ والحرفا لم يباحرن إلى السلاذ التي أحد عنها العرب وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياسة » .

ولا يُستَحْفَ عما اقتضاه ذلك النقل، عن أشهر أُم الأرض في ذلك العصر، من التأثير في الآداب الاحتجاجية والآراء العامة ولا سيما ما نقل عن الفارسية، لأن معطيه في الأدب والتاريخ، فدخل الآداب العربية كثير من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العرب من الكتب التي جُلَّتْ عنهم، ولم يبق منها إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وُسْتُفْ متفرقة في بعض الكتب. وقد درس في هذا الموضوع المُنَشَّرُ «ابواسترانشيف» الروسي ووضعه فيه كتابا طبع في طرسبرج سنة ١٩٠٩ م.

على أن ملاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائما إلى الآن في بعض الكتب العربية التي وُصِفَتْ في عصور قريسه من عصر المأمون. يذكر منها، على طريق التمثيل، كتاب «عيون الأحرار» لأبى قتيبه، و «التاح» المنسوب للملاحظ. فعلى هذه المقولات وأمثالها بجى المسلمون ما ألفوه في هذه العلوم أشياء تمدنيهم غير ما اختروه وأصاهاوا إليها من عدد أنفسهم.

وإن المطلع على ما جاء بالمهرست لأبى البديع حاصا بتلك المقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلها قد صاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره للفعال في هضبة أوروبا، وأهم ما بقي من ذلك التراث القيم هو كتاب المجسطى لطليموس، ترجمه الحاج بن يوسف وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن الطريق. وبعض آثار لقسطا بن لوقا البطلي وعبرها.

(ج) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية :

كان المؤرخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية إنه قد تفرع عن القرآن نحو ثلثمائة علم. ونحن نحيطك على أمثال «مفتاح السعادة» لأحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى راده المطبوع بمطبعة دائره المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدمه أبى حلاون و «مفاتيح العلوم» وعبرها. وأما الحاة وطبقاتهم واللغة وما دخلها من الألفاظ المستعذنة في العصر العباسي، فأمامك أمثال «شفاء العليل فيما في كلام العرب من الدجيل» لشهاب الدين

الخفافى "ودرة المواص" للحريري . وكتاب "المعرب من الكلام الأعجمي" لأبي منصور الجواليقي المتوفى في منتصف القرن السادس وطبع في ليبسك سنة ١٨٩٧ م وكتاب «طبقات النحاة» المعروف "تذمة الأئمة في طبقات الأدباء" لأبي البركات عبد الرحمن ابن محمد الأنباري، وغيرها مما لا يقع تحت حصر .

وحسبنا أن نقول لك : إنه لم يكن في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضِعَ في العصر العباسي - خاصة أمثال قولهم صيدلية ، وتبريج ، ونبس ، وهضم ، ومبرذات ، وقانص ، ومسهل ، وشسج ، وذات الرئة ، وسج ، والطبول ، والقاموس ، والقانون ، إلى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذي تحده في مطالبه ، ولا يرى حاحه بها إلى الاستطراد فيه .

ويحذر بها أن نشير إلى أثر من أحل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية في بداية العصر العباسي . ويمكن النظر إليه كما ينظر الاسكتلنديون إلى كتاب "جون سنكلر" من تاريخهم الاقتصادي . وهذا الأثر القيم الحالد الذي نظم جباية الدولة أبجلاً تنظيم وأدقه ، هو كتاب الخراج للمقيه الأكبر أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنباري صاحب الإمام أبي حنيفة المعالج .

الفصل العاشر

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

توطئة — الخطأ والخطأ — الكفاة — محال الخطأ والمطارة — الشعر .

(١) توطئة :

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع، الى جانب ما بيناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلي، قريبة في مجملتها من عضاضة البدو وخشونة المدر، فلم تنسح لها الاغراض ولم تفرج لها الحوائث إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة، وما توحى به غياض دمشق ونبرات معبد، من صفاء الفكر ووصوحه، وجلاء المعنى وأقترابه، لا يبالي القوم الإيمان في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان مهمهم، كما يقول الرواة : أن تجود العاظمهم، وتجل تراكيهم . وفي الحقيقة أنهم قد اتعمدوا في ذلك من البلاغة ذروتها، وطفوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يصع لسانه حيث أراد ومتى شاء . وحسبك أن تنظر الى ما جاء به زياد وجند الملك والمحاج، وما أرسله جرير والأخطل والمرزوق، لتعرف أين كان القوم من اللافة، وكيف تملكو أعتها في أيديهم . فلما قامت دولة العاسيين وقامت أركانها على سواعد العجم ، ودلّ اليها السريان واليهود والعرس، وصمّتهم الدولة الى أحصانها، وأفرجت لهم بين دراعها، وأزلتهم في كثير من أمور الدولة وشؤونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيبرات، وتقذّموا لها بتراث آبائهم وعصارة قرائع علمانهم ، وحولوا ميراثهم الى ميراثها ، أفادت لغة العرب، وأمتجت المدنية السامية والآرية، وآسعت دائرة المعارف ، وتشتبت أغراض اللغة، وشتم كل ذي فضل في تدوين العلوم وأستنباط أحكامها ووضع الفنون واصطلاحاتها وترتيب الدواوين ومراسمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهاراً

الفتاء والقوة، فانتظمت رخاء الدنيا وسعادة الإنسان، وأزيت بالمحج الحكمة والبراهين العقلية. وتولى كبر ذلك بشار وأبو المقفع وأبو واس وأصرابهم، وأدخلوا إليها الحديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يفرحوا من استعمال الألفاظ الأغمية في أسماء الألوان والانية والفرش، وتأقوا في صوغ المارات وإحكاها، حتى مال بعضهم إلى السجع والأزدواج. ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: "أَسْتَيْسِي أَفَّهَ أَهْلَكَ، وَأَسْعِيدُهُ مِنَ الْآفَاتِ لَكَ، وَأَسْتَعِيهُ عَلَى شُكْرِ مَا وَهَبَ مِنَ الْعِمَّةِ فَيْكَ لِمَا لَدَيْكَ وَلِيَّ، وَبِهِ مَلِيَّ". أتاني علامك المليح قدّه، السعيد بملكك حدّه، بكتاب قرأته، غير مستكره اللفظ ولا مزور عن القصد، ينطق بحكمتك ويؤيّد عن فصلك".

وجملة القول أن الله قد تحدّد إهانتها، واهرحت شعابها، ووتعت أساليبها، بما دخل عليها من بعم الدولة وبرّ الحصار، وما أحتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيّدة لغات العالم جميعا.

(ب) الخطابة والخطباء :

كانت الداعيّة إلى الخطابة في العصر العباسي قوّة متوافرة بليغة. كانت قوّة لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادّة، والثورات الاجتماعية العسفة، من شأنها خلق محالّات التكلم وتقوية الملكات الخطابية وتمييزها وزيادة ثروتها والعمل على صقلها وملاعتها. وكانت متوافرة لتعدد موضوعاتها وتشعب مباحثها ولائها الدعاة والمعين عليها لا تهاز أمثال تلك المواقف. وكانت بليغة تقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشيع إلى سى العباس، وقوة الحاجة في إنكار ما آتته الأمويون من حرّات الدين، ولتعدد أسباب التعاضل بين آل العباس والعلويين.

وإن نظرة تحليلية إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحسن وإخوته والفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تُعزّز قولنا وتؤيّد حكما. قال: «يا أهل نخراسان

أنتم شيعتنا وأصبارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرا لم تبايعوا من هو خيرٌ منا، وإن اهل
 بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ركنهم، والله الذي لا إله إلا هو، والخلافة فلم تعرض
 لهم فيها قليل ولا كثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فتطخَّع وحكم عليه الحكماء،
 فاقرعت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثت عليه شيعته وأصباره وأصحابه
 وبطائنه وثمائه فقتلوه. ثم قام من بعده الحسن بن علي فوافقه ما كان فيها برحل! قد غيرت
 عليه الأموال فقلها فهدس اليه معاوية: إني أحطك ولي عهدي من بعدى، فهدسه
 فانسلك له مما كان به وسلمه اليه، فأقبل على النساء يترجح في كل يوم واحدة فيطلقها عدا،
 فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي فهدسه أهل العراق
 وأهل الكوفة أهل الشقاق والعماق والإعراف في الفتن أهل هذه المدرة السوداء—وأشار
 الى الكوفة—فوافقه ما هي بحرب فأسارها ولا يسلم فأسلمها، فترق الله بيني وبينها، فغذلوه
 وأسلموه، حتى قُتل. ثم قام من بعده زيد بن علي فهدسه أهل الكوفة وعمره ولما أخرجوه،
 وأطهره أسلموه، وكان قد أتى محمد بن علي فاشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل
 أهل الكوفة وقال له: إنا نحد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يُصلَّب بالكوفة وأنا أخاف
 أن تكون ذلك المصلوب، وناسده عمي داود بن علي وحدره عذر أهل الكوفة، فلم يقل
 وتم على خروجه فقتل وصُلِبَ بالكوفة^(١). ثم وثب عيسى بن أبي أمية فأماوتوا شرفا وأذلوا
 عزنا، والله ما كانت لهم عداوة يطلونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم
 عليهم، فمغوا من البلاد مصرا مرة الطائف ومرة الشام ومرة بالثراء حتى آستنك الله لنا
 شيعة وأصبارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمع بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا
 وأصار اليها ميراثنا عن نيتنا صلى الله عليه وسلم، ففتر الحق مقزّه وأظهر مناره واعز أنصاره
 وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. ولما استقرت الأمور فبنا على قرارها

من فضل الله فيها وحكمه العادل لها وشوا عليها طمعا وحسدا منهم لها ومعيا لها فصلا الله به عليهم وأكرما به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم .

جهلاً على وجباً عن عدوهم . لنستأنس الخلفان الجهل والجهنم

فإني والله يا أهل نهرسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت محالة . لعنى عنهم بعض السقم والتعزم ، وقد دمست لهم رحالا فقلت : قم يا فلان ، قم يا فلان فعد معك من المال كذا ، وحذوت لهم مثالا يعملون عليه ، فغرحوا حتى أتوهم بالمديسه فهدسوا اليهم تلك الأموال ، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عد ذلك بقصصهم يعنى وطلهم الفقه والتماسهم الخروج على فلا يرون أى أتيت ذلك على غير يقين . ثم نزل وهو يتلو على درج المبرهذه الآية : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِمَّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ ۝ ﴾

ولقد يلاحظ على الخطابة العباسية اتساعها بطاع العرة الدينية لماهاتهم بصلاتهم من النبي ، كما يلاحظ عليها اللمعة « الأتوقراطيّة » التي لا تختلف في شيء عن لغة ماواوت رومة في العصور الوسطى ولغة الملوك الدين يديون سطرية « حقوق الملك المقدسة » وأنهم ورثة الله في أرضه ومثلوه بين خلقه .

خطبة للنصور الخليفة العباسي

خطب في مكة فقال :

أيها الناس ، إنا أما سلطان الله في أرضه أسوسكم توفيقه وسديده وتأييده ، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه ، إذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحني وتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارعبوا الى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعطكم به في كتابه إذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۝ ﴾ أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان اليكم . أقول قول هذا وأستغفر الله لي ولكم »

خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورصى به من خلقه ، أحمده على آلائه وأعمده
 لئلانه ، وأستعيه وأؤم به وأتوكل عليه توكل راض بقصائه وصابر لئلانه . أوصيكم
 عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصار عليها سلامه ، والترك لها بدامه . وأحكم على إحلال
 عظمته وتوقير كبريائه وقدرته ، والاتهاء الى ما يقرب من رحته ، وينجي من صخطه ،
 ويُنال به ما لديه من كريم الثواب ، وجريل المآب . فاحتبوا ما خوفكم الله من شديد
 العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب ، يوم تُوقفون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على
 البار . يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه . فهم شقي وسعيد . يوم يفر المرء من أخيه وأمنه
 وبه لكل أمرئ يومئذ شأن يعيه . يوم لا يحزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها
 عدل ولا تنعمها شعاعه ولا هم يصرون . يوم لا يحزى والد عن ولده ولا مولود هو جار
 عن والده شيئا . إن وعد الله حق فلا تعزكم الحياة الدنيا ولا يفزعكم الله الغرور . إن الدنيا
 دار غرور وبلاء وشور وأصمحلل وزوال وتقلب وأتقال . قد أفنت من كان قبلكم
 وهي عائد عليكم وعلى من بعدكم . من ركن اليها صرعت ، ومن وثق بها خانت ، ومن أملها
 كدبت . ومن رحاها حدثته . عيرها دُل ، وصاها قصر . والسعيد من تركها والشقي من
 آثرها . والمعصون فيها من ماع حطه من دار آخرته بها . فالحمد لله عاد الله ! والتوبة مقبولة
 والرحمة ميسورة : ومادروا بالأعمال الركية في هذه الأيام الحالية قبل أن يؤخذ بالكظم
 وتندموا فلا تآلون الندم يوم حسره وتأسف ، وكآبة وتلهف . يوم ليس كالأيام وموقف
 صك المقام .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذي نحمد على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ونؤمن به
 حقًا ونتوكل عليه مُفوضين اليه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فان في التقوى تكبير
 السيئات وتضعيف الحسابات ، وفوزًا بالجنة ونجاة من النار ، وأحذركم يومًا تشخص فيه

الأبصار وثبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقى ويوم التنادى . يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد في حسنة . يوم الآزفة اذ القلوب لدى الحابجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم حائسة الأعين وما تحنى الصدور .. فاتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت . حَصَّسُوا إِيمَانَكُمْ بِالْأَمَانَةِ وَدَيْكُمْ بِالْوَرَعِ وَصَلَاتِكُمْ بِالزَّكَاةِ . وإياكم والأمانى فقد غرَّتْ وأردتْ وأوقفت كثيرا حتى أكدتهم مآياهم ، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون . فرغبَ ربكم عن الأمثال والوعد وقدَّم اليكم الوعيد . وقد رأيتم وقائمه بالقرون الخوالى حيلة خيلا ، وعهدتم الآماء والأبناء والأحبة والمشارب اختطاف الموب إياهم من سيوتكم ومن بين أطهركم لاتدعون عنهم ولا تحولون دونهم ، فرالت عنهم الدنيا واقطعت بهم الأساب ، فأسلمتهم الى أعمالهم عند الموقف والحساب ليحجزى الذين أساموا عما عملوا ويمجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وإن نظرةً عملى الى التحبب الصغيره التى احترماها لك عن المصور والمهدى والرشيد تعطيك فكرةً صحيحةً بأننا لم نعدْ نأب الصواب فيما ذهبنا اليه من "أبوقراطيتها" و"ماوييتها" في طبعه مسحاها، وطلاوتها وملاحتها في مساهها .



على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التى كانت عليها في صدر تلك الدولة حينما استقرت ورسخت ، اذ فترت عند ذلك الدواعى وهدأت الدواعى ، وأحدثت حالتها في الإصحلال لاشتداد احتلاط العرب بالأنعام ولأن الشخصيات البارزة في الدولة كانت في الغالب من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تعبر ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانا من الكفة التى وحصر العجمة وإن سميت معلوماتهم وارتقت في البلاغة أساليبهم .

وربما كان من المعقول أن نقول : إن الخطابة في العصر العباسى كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموى من ناحية البلاغة والأسلوب ، مع وجود بعض خطباء مصّاقع

لا يقلون عن إخوانهم الأمويين ملاعة واقتدارا، بيد أنها كانت متعددة الأبواب، لتشعب ما يباه لك من الوجوه والمناحي .

(ج) الكتابة :

حرت الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية : من حودة اللفظ، ومناة الأسلوب، وحلاء المعنى، ووضوح القصيد وبساطته ، فلم يكن القوم يُعَمِّمُوا في التصوّر والتصكير ، أو ينظروا الى السبأ فيستوحوها ، أو الى الطبيعة فيستيقظوها ، أو تستيقظوها ما وراء العالم ، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها من حاصر الديهة وعفوا الخطاير ، فلم يشاركوا الحكماء في تمكيزهم ، ولا الماطقة في محجهم ، اذا استنبيا نفرا قليلا أمثال أبي المقفع ، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع ، أو مثل سائر ، أو حكيه رائعيه ، أو فكره سامية ، أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان ، وأوعلوا في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمرأء البياض . فكان الأديب منهم يُرسل الرسالة أمام مقصيده تحمل في نفوس المأمون ما لا تعمله الأسنة والرماح . وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم ! .

فلما حطت عدداد ، وأقلت الدنيا وأوسع السلطان وأمتدت أطرافه ، وصميت الدولة الى أحصائها أرباء الفرس والشرقيان ، وكاوا يحملون ثراث آباءهم وطرف علمائهم ، وأوسع انحلافت رحاهم لكل ذى فصل من رحال الدولة ، وعرفوا للعلم مقامه مرفوعه ، وللأدب صولته فأكرموا . وقرئوا العلماء والأدباء ، وعقدوا مجالس المناظرة والمنازمة — كما سبى لك — وأكث الناس على العلم والتأليف والترجمة ، وتكشف كل ذلك عن علوم وميون لا عهد للعربية بها ، فقلوا اليها الطب والسياسة والحكمة والملك والمطلق والتنجيم ، وألف المسلمون في العقده والحو والحديث والتفسير — كان لكل ذلك اثره في أخيلة الكتاب وأسلان الأقلام ووحي القرائح ، فتعدت الأغراض ، وبوعت الأساليب ، ومال الكتاب الى السهولة في العبارة ، والتأني في اللفظ ، والجلودة في الرصف ، وأطالوا في المقتضات ، وتوعوا البله

واختتمَ والألقابَ والدعاء، ومالوا الى الغلو والمبالغه، وهالك مثلاً ما كتب أس سياه الى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها . «لَلْأَصْبَدِ الْجَوَادِ ، الْوَارِي الزَّيَادِ ، الْمَاحِدِ الْأَحْدَادِ ، الْوَزِيرِ الْعَاصِلِ ، الْأَشْمِ الْبَازِلِ ، الْبَابِ الْخَلَّاجِلِ ، مِنَ الْمُسْتَكْبِرِ الْمُسْتَحِيرِ ، النَّاسِ الصَّرِيرِ ، طَائِفَةِ أَحْمَدُ اللَّهِ ذَا الْعِزَّةِ الْقَدِيرِ ، إِلَيْكَ وَالِي الصَّغَرِ وَالْكَبَرِ ، مَالِحِهِ الْعَامَةِ ، وَالرَّكَّةِ الثَّامَةِ ، أَمَا مَعْدُ ، فَأَعِمْ وَأَسْلَمْ وَأَعْلَمْ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ ، أَنَّ مَنْ يَرْحَمُ يَرْحَمُ ، وَمَنْ يَحْرِمُ يَحْرِمُ ، وَمَنْ يُحْسِنُ يَنْفَعُ ، وَمَنْ يَصْغُرُ الْمَعْرُوفَ لَا يَعْدَمُ ، قَدْ سَقَى إِلَى مَعْصُكَ عَلِيَّ ، وَأَطْرَأْتُكَ لِي ، وَعَقَلْتُكَ عَنِّي بِمَا لَا أَقُومُ لَهُ وَلَا أَقْعُدُ ، وَلَا أَتَنَبَّهُ وَلَا أَرْقُدُ ، فَلَسْتُ بِحَيٍّ صَحِيحٍ ، وَلَا بِمَيِّتٍ مُسْتَرْحَبٍ ، فَرَرْتُ مَعَ اللَّهِ مِنْكَ إِلَيْكَ ، وَتَحَلَّيْتُ بِكَ طَلِيكَ . »

أما الإطبات في الكتابة فكان صمّة غالبية في كل ما شمل بيعةً ، أو عهداً ، أو احتجاجاً أو انتصاراً ، أو تقريراً للمذهب أو استهواءً ، أو دعاء لشبهة أو طلباً لعمّة ، أو ما يقوم نصالاً أو ما يدعو نزلاً . ويستعد طرماً من رسائل القوم في ذلك العصر الراهي الزاهر في باب المشور بالكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وقد بالعوا في مدح ممدوحهم وذم مذمومهم . وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المصور العباسي والفس الركية ، فقد جاء مما كتبه الأوّل قوله : «أما معد ، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك ، فإذا حلّ حرك بالنساء لتصل به الجفء والموعاء ، ولم يحل الله النساء كالمعومة ، ولا الآماء كالعصّة والأولياء ، وقد جعل العمّ أما وبدأ به على الوالد الأدنى ، فقال جل شأوه عن نبيه عليه السلام : «وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» . ولقد طَلَبْتُ أَنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَهْدِيَ عَمْدًا صُلِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمُومُهُ أَرْسَةً ، فَاجَابَهُ اثْنَانِ أَحَدُهُمَا أَبِي ، وَكَفَّرَ بِهِ اثْنَانِ أَحَدُهُمَا أَمْرُكَ . فَمَا مَا دَكَّرْتَ مِنَ النِّسَاءِ وَقَرَامَتِهِنَّ طَوَّأَتْهُنَّ عَلَى قُرْبِ الْإِنْسَانِ وَحَقِّ الْأَحْصَاءِ لِكُلِّ الْخَيْرِ كُلِّهِ لَأَمَةِ بَيْتِ وَهْبٍ ، وَلَكِنْ اللَّهُ يَخْتَارُ لِنَبِيِّهِ مِنْ شَيْءٍ مِنْ حَلْقِهِ . »

غير أن ذلك لم يكن ليجمع أن الميل إلى الإيحاء له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب البلغاء عزه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذى حايه وسلطان، فقد رَفَعَ إلى المصور شكاة من أهل الكوفة لأعوجاج في عاملهم، فوقع عليها « كيما تكونوا يؤلّ طيكم ». وكتب جعفر إلى عامل سُكِّي له منه : « قد كثرت شاكوك وقل شاكوك، وإما أعدلت وإما أعتلت » .

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المتأخر وحسن الإشارة ولطف المدخل ورواية المعنى وحسن الابتداء، حتى حلف من بعدهم حلف ضمعت فيهم ملكة اللغة وأعوزهم اليان، فمالوا إلى الألفاظ وصاغت، والامتجاج (وَزَحَرَتْهَا)، وبقيت الكتابة تُنْقَلَب في أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرن السابع الهجرى .

(د) مجالس الخلفاء والمناظرة :

للخلفاء العباسيين محكم طبيعة دعوتهم السياسية واستعمال أمر المدنية في أمهم محالّ حافظه بالأدباء والشعراء والمفكرين والمفكرين قد أُنْزِعَتْ بذكرها كتب الآداب واستوعب الشيء الكثير منها أبو الفرج الأصفهاني في أعانيه .

وكاوا يُجِلُّون العلماء، كما يينا لك في موقف الرشيد مع أبي معاوية الصيرى، ويعتنون بالشعر وللغة، ويحرضون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجال عصرهم، فالمصور ضمّ الشرق بر القطامي إلى ابنه المهدي وأوصاه أن يعلمه أحار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار . والرشيد عهد تعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوى ثم الكسائي، وعهد بتأديب المأمون إلى يزيدى وسيبويه وغيرهما . وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمر حينما عهد إليه بتأديب الأمين، ونحس تثبتها لها ثقّف بها على نوع التربية التي كان يطلبها خلفاء ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدلّ في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذى وصلت إليه المدنية العربية في العصر العباسي وكيف استعادت من نظم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العرب على آرائهم ومؤلفاتهم .

أما الوصية فهي : « يا أحرر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، صير يدك عليه مهسوبة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وصحك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن ، ونصِّره بمواقع الكلام وبدنه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه، ورفِّح مجالس القواد اذا حصروا مجلسه . ولا تمزك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تمزقه فتميت دمه، ولا تُمَيِّن في مسامحته فيستحل العراع ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أمأها عليك بالشتة والغلظة » .



وكانوا يسهون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة كما كانوا يسهون أيما عناية بحفظ الأشعار وروايتها، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة، فقد روى الميثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما مات جعفر المصورس الأكبر مشى المصورى جازته من المدييه الى مقابر قريش ومشى الناس أجمعون معه حتى دعه ثم أنصرف الى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال : يا ربيع أظن من في أهل يثدنى :

* آمين المنون ورَبيها نتوَّح *

حتى أتسأل بها عن مصيبي، قال الربيع : نخرجت الى بني هاشم وهم مجتمعون حصور، سألتهم عنها فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال : واقه لمصيبي ناهل بنى ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقله رعبتهم في الأدب، أعظم وأشد على من مصيبي بابي . ثم قال : أنظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها، فإني أحب أن أسممها من إنسان يُشَدُّها، نخرجت فاعتصمت الناس فلم أجد أحدا يُشَدُّها إلا شيعة كبيرة مؤدبا قد أنصرف من موضع تأديبه، فسأته هل تحفظ شيئا من الشعر ؟ فقال . سم شرأبي دؤيب فقلت : أنشدني ، فابتدأ هذه القصيدة العينية ، فقلت له : أنت عبي، ثم أوصلته الى المصور فاستنشدته إياها، ثم أجازته بمائة درهم .



أما التحول العظيم الذى حصل فى أبهاء "صالوات" الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديث
عنه يطول . وحسبك فى ذلك ما يدلى به إصحاق بن إبراهيم أحد المعاصرين العباسيين ،
فإنه يحدثك بما سَقَعُ القَلَّةُ إذ قد سُئِلَ عن أحوال الأمويين فى الشراب واللهو فتكلم بإيجاز
عن حالتهم ، وسُئِلَ عن العباسيين موصَفَ وأحد وصوَرَه وأما قال :

« أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليان وهشام ومروان بن محمد فكان بينهم
وبين الدماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الدماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للفنِّ والتَّهَنُّ
حتى يَقلَبَ ويمشَى ويمحُركَ كَتِفَيْهِ ويرْقُصُ ويتجَدَّد حيث لا يراه إلا خواصُّ حواريه،
إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستار صوتٌ أو نَمِيرٌ طَرِبَ أو رَقَصَ أو حَرَكَةٌ زفيرٌ يُجَاوِزُ
المقدارَ قال صاحب الستار : حَسْبُكَ يا جارية كُنِّي ! انتهى ! أقصِرِي ! يوم الدماء أن
العامل لذلك بعض الحوارى . فأما الناقون من حلفاء بى أمية ، فلم يَكُونوا يَحْشَونَ أن
يرقصوا ويمجدوا ويحضرُوا عُرَاءَ بِحَصْرَةِ الخلفاء والمغيثين ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم
فى مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد فى المَجْورِ والرهْثِ بِحَصْرَةِ الدماء والتجود
ما يباينان ما صمعا .

قلت : صمير بن عبد العزيز * قال : ما طلق فى سمعه حرف عتاء منذ أفضت الخلافه
إليه الى أن فارق الدنيا ، فأما قلبها ، وهو أمير المدينة ، فكان يسمع الفناء ولا يظهر منه
إلا الأصر الجليل . وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمتزج على فراشه وضرب برجليه وطرب ،
فأما أن يخرج عن مقدار السرور الى السخف فلا .

قلت : تغلفاؤما (حلفاء بى العباس) .

قال : كان أبو العباس فى أول أيامه يظهر للدماء ثم احتجب عنهم بعد سنه ، أشار
بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزازى . وكان يطرب ويتنجس ويصيح من وراء الستار :

« أحسنت والله ! أعِدْ هذا الصوت » فَعَادَ لَهُ مَرَارًا ، يَقُولُ فِي كُلِّهَا : « أَحَسَنْتَ » .
وَكُنَّ فِيهِ فَصِيلَةٌ لَا تُعْجِزُ فِي أَحَدٍ ، كَانَ لَا يَحْصُرُهُ دَيْمٌ وَلَا مُقْنٌ وَلَا مَلِيٍّ بِصَرْفِ إِلَّا
بِصَلَةٍ أَوْ كُسُوفَةٍ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ ، وَكَانَ لَا يُؤْتَرُ إِحْسَانٌ عُجَسٍ لَفْدٍ ، وَيَقُولُ : « الْعَجَبُ مِنْ
يُفْرِحُ إِنْسَانًا فَيَنْعَجِلُ السُّرُورَ وَيَحْمِلُ ثَوَابَ مَنْ سَرَّهُ تَسْوِيهَا وَعِدَّةٌ » فَكَانَ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
يَقْعُدُ فِيهِ لِشَعْلَةٍ لَا يَصْرِفُ أَحَدٌ مِنْ حَصَرِهِ إِلَّا مَسْرُورًا ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْعَرَبِيُّ وَلَا عُمَى
قَبْلَهُ . عِزَّ أَنْهُ يُحْكِي عَنْ بَهْرَامَ حُورٍ مَا يُقَارِبُ هَذَا .

« فَأَمَّا أَبُو حَمْرٍ الْمَصُورُ فَلَمْ يَكُنْ يَطْهَرُ لَدَيْمٍ قَطُّ ، وَلَا رَأَى أَحَدٌ يَشْرَبُ عِزَّ الْمَاءِ .
وَكَانَ بِيَسَهُ وَبَيْنَ السُّتَارِ عَشْرُونَ ذِرَاعًا ، وَبَيْنَ السُّتَارِ وَالِدِمَاءِ مِثْلُهَا . فَأَذَا عَاءُ الْمُغْنَى
فَاطِرُهُ حَرَكَتِ السُّتَارَ بَعْضَ الْخَوَارِ ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِ الْخَلَادُ صَاحِبُ السُّتَارِ يَقُولُ : قُلْ لَهُ
« أَحَسَنْتَ مَارَكَ اللَّهُ بِكَ » وَرَبَّمَا أَرَادَ أَنْ يُصَقِّقَ بِيَدَيْهِ فَيَقُومَ عَنْ مَحَلِّهِ وَيُدْخِلُ بَعْضَ
مُجَرِّمَاتِهِ فَيَكُونُ ذَاكَ هَاكَ . وَكَانَ لَا يُتَبَّعُ أَحَدًا مِنْ نَدَمَائِهِ وَصِدْقِهِمْ دَرَاهِمًا فَيَكُونُ لَهُ رَسْمًا
فِي دِيْوَانٍ . وَلَمْ يُقَطِّعْ أَحَدًا مِنْ كَانَ يَصَافُ إِلَى مُلْهِيَةٍ أَوْ صَحِيحَةٍ أَوْ هَزَلٍ مُوصَعٍ قَدِيمٍ مِنْ
الْأَرْضِ ، وَكَانَ يَحْفَظُ كُلَّ مَا أُعْطِيَ وَاحِدًا مِنْهُمْ عَشْرَ سِنِينَ وَيَحْسِبُهُ وَيَذْكُرُهُ لَهُ .

« وَكَانَ الْمَهْدِيُّ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ يَمْتَحِبُ عِزَّ الدِمَاءِ مُتَشَبِّهًا بِالْمَصُورِ نَحْوًا مِنْ سِتَّةِ ثَمَنٍ
طَهَّرَهُمْ ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ أَبُو عَوْنٍ أَنْ يَمْتَحَبَ عَنْهُمْ فَقَالَ : « إِلَيْكَ عَنِّي يَا حَاهِلُ ! إِمَّا اللَّذَّةُ
فِي مَشَاهِدَةِ السُّرُورِ وَفِي الدُّنُومِ سَرْتَنِي ، فَأَمَّا مِنْ وَرَاءِ وَرَاءِ مَا حَيْرُهَا وَلَذَّتُهَا ! وَلَوْ لَمْ يَكُنْ
فِي الطُّهُورِ لِلدِمَاءِ وَالْإِحْوَانِ إِلَّا أَنِّي أُعْطِيهِمْ مِنَ السُّرُورِ بِمَشَاهِدَتِي مِثْلَ الَّذِي يُعْطُونِي مِنْ
هَوَائِهِمْ لَجَمَلْتُ لَهُمْ فِي ذَلِكَ حَقًّا مُؤَقَّرًا » . وَكَانَ كَثِيرَ الْعَطَايَا يَوَاتَرُهَا ، قُلٌّ مَنْ حَصَرَهُ إِلَّا
أَعْنَاهُ ، وَكَانَ لَيْسَ الْعَرِيكَتَ ، سَهْلَ الشَّرِيعَةِ ، لَذِيذَ الْمَادِمَةِ ، قَصِيرَ الْمَاوِمَةِ ، لَا يَمَلُّ نَدِيمًا وَلَا يَتْرَكَ
إِلَّا عَنْ صَرُورَةٍ ، قَطِيعَ الْخَلَاءِ ، صَبُورًا عَلَى الْجُلُوسِ ، صَاحِكًا السَّنَّ قَلِيلَ الْأَدَى وَالْبَدَاءِ .

« وكان المادى شَيْكَسَ الأخلاق، صَفَت المرام، قَلِيلَ الإغصاء، سَيَّءَ الفِظْ، قَلَّ مَنْ تَوَقَّاه وعرف أخلاقه إلا أعاده، وما كان شَيْءٌ أَمَعَصَ اليه من ابتدائه بِسؤال، وكان يأمر للنبي بالمال الخطير الحريل فيقول « لَا يُعْطِي عِندَهَا شَيْئًا » فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

« ويقال : إنه قال يوما وعنده اس حامع و ابراهيم الموصلى ومُعاد بن الطيب — وكان أقل يوم دخل عليه مُعاد وكان حادقا بالأغنى عارضا بها — : مَنْ أَطْرَبْنِي الْيَوْمَ مَعَكُمْ فَلَهُ حُكْمُهُ فضاء اس حامع عياء لم يحزّه . وكان ابراهيم قد فهم عرصه فضاء .
سَلِمِيْ اُحْمَعْتُ يَدَا ۞ قَايْرُ تَقُولُهَا اَيْنَا

فطرب حتى قام عن مجلسه ورجع صوته وقال « أَعِذْ نَافَةَ وَبِحَيَاتِي ! » فأعاد فقال : « أَنْتَ صَاحِبِي فَاحْتِكِمِ » . فقال إبراهيم : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، حَاطَظْتُ عِندَ الْمَلِكِ - مَرْوَانَ وَغِيْهُ الْحَزَارَةَ الْمَلْبِسَةَ ، قَالَ : فَدَارَتْ عِيَاةُ وَرَأْسُهُ حَتَّى صَارَ مَا كِلَاهُمَا حِمْرَتَانِ . ثُمَّ قَالَ : « يَا بْنَ الْهَمَاءِ ! أَرَدْتُ أَنْ تَسْمَعَ الْعَامَةُ أَنَّكَ أَطْرَبْتَنِي ، وَأَنْىَ حُكْمُكَ فَاقْطَعْتَنِي ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا مَادِرُهُ حَمَلَكَ إِلَى عَلْتٍ عَلَى صَاحِبِ تَقْلُوكَ وَفَكَرَكَ ، لَصَرْتُ أَلَدِي فِيهِ عِيَاكَ ! » ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً . قَالَ إِبْرَاهِيمُ : فَرَأَيْتَ مَلِكَ الْمَوْبِ قَائِمًا بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَنْتَظِرُ أَمْرَهُ . ثُمَّ دَعَا إِبْرَاهِيمَ الْحَزْرَانِيَّ ، فَقَالَ : « حُدِّبِي هَذَا الْحَاحِلَ فَادْخِلِيهِ بَيْتَ الْمَالِ فَلْيَأْخُذْ مِنْهُ مَا شَاءَ ! » . فَأَخَذَ الْحَزْرَانِيُّ بِيَدِي حَتَّى دَخَلَ فِي بَيْتِ الْمَالِ ، فَقَالَ كَمْ أَحَدٌ هَمَلَتْ مَائَتُهُ بَدْرَهُ ، فَقَالَ : دَعْنِي أَوْامِرَهُ ، قُلْتُ : فَأَخَذَ تِسْعِينَ ، قَالَ . حَتَّى أَوْامِرَهُ ، قُلْتُ : فَمَائِينَ ، قَالَ : لَا ، فَأَنْىَ إِلَّا أَنْ يُؤَامِرَهُ ، فَعَرَفْتُ عَرِصَهُ ، هَمَلْتُ لَهُ : أَخَذَ سَعِينَ لِي وَلِكَ ثَلَاثُونَ ، قَالَ : شَأْنُكَ ؟ قَالَ : فَاصْرِفْتُ بِسَعِينَ أَلْمَا وَانْصَرَفْتُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَنِ الدَّارِ .

قال : وكان الرشيد في أخلاق أى جعفر المصور يمثّلها كلّها إلا في العطايا والصّلات والحلج . فانه كان يعفو فصل أى العباس والمهدى . وَمَنْ خَرَّكَ أَنَّهُ رَأَاهُ قَطْ وَهُوَ يَشْرَبُ

إلا الماء فكذبته، وكان لا يحضر شرابه إلا حاش جواريه ، وربما طربَ للعناء فتحزك حركة بين الحركتين في الثقلة والكثرة .

«وهو من بين حلفاء بني العباس من حمل للعين مراتب وطفقات، على نحو ما وصمهم أردشير بن مالك وأبو شروان، فكان إبراهيم الموصلي، وإسماعيل أبو القاسم بن جامع، وزلز مصور الصارب في الطبقة الأولى، وكاتب رزل يضرب ويغني هذيان عليه . والطبقة الثانية سليم بن سلام "أو عبيد الله الكوفي"، وعمرو العزال ومن أشبههما . والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والصبح والطاير . وعلى قدر ذلك كانت تحرح جواريزهم ويصلحهم . وكان اذا وصل واحد من الطبقة الأولى المال الكثير الخطير جعل لصاحبه اللدس معه في الطبقة نصيبا منه ، وحمل للطبقين اللتين تلياه منه أيضا نصيبا . وادا وُصل أحد من الطبقتين الآخرين بصلة لم يقبل واحد من الطبقة العليا منه درهما ، ولا يحترى أن يعرض ذلك عليه .

« قال : سأل الرشيد يوما برصوما الرامر، فقال له : يا إسماعيل ! ما تقول في اس جامع " محزك رأسه وقال : تحزق قطر^(١) رل يعقل الرجل وبُذِبَ القتل . قال : فما تقول في إبراهيم الموصلي " قال : سنان فيه حوح وكثرى وتُفاح وشوك وخروب . قال : فما تقول في سليم بن سلام " فقال : ما أحسن حصابه . قال : فما تقول في عمرو العزال " قال : ما أحسن بئانه . قال : وكاتب مصور زلز من أحسن وأدق من رأى الله بالحس . فكان اذا حس العود ولو سمعه الأحف ومن تحالم في دهره كله لم يملك أن يطرب .

« قال إبراهيم . فنبئت يوما على صربه ، خطأتني، فقلت لصاحب الستار : هو والله أخطأ . قال : قرع الستار ثم قال : يقول لك أمير المؤمنين أنت والله أخطأت ! فحني رزل وقال : يا إبراهيم تمحطش ! . فوالله ما فتح أحد من المؤمنين فاه صير لفظ إلا عرف عرصه .

(١) قطر بل بالهم ثم السكون ثم فتح الراء ، واء موحدة مشددة مصومة ولام . اسم قرية بين بغداد وعكرا يصب إليها الحروما والت متربها للطلال وحاة صبارين وقد أكثر الشعراء من ذكرها . أنظر ياقوت في معربل .

مكيف أخطأ وهذه حالي ! فأذاها صاحبُ السار . فقال الرشيد : قل له صدقت ، أنت كما وصفت نفسك وكذب إبراهيم وأخطأ . قال إبراهيم : فمتنى ذلك ، فقلت لصاحب السار : أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي ، أن فارس رحلا يقال له سَيْدٌ ، لم يحلق الله أصرت منه يعود ولا أحسن محسًا ، وإن بعث اليه أمير المؤمنين حملة عرف فصله وتعينت على صربه ، فإن زلزلًا يكليدي مكايده القصاص والقزادين . قال : فوجه الرشيد إلى العارسي فجعل على الريد فألقى ذلك زلزلًا وعمه . فلما قديم العارسي ، أحصرها وأحدا محالسا وحاموا العبدان قد سويت ، وكذلك كلب جعل في مجلس الخلافة ليس يُدفع إلى أحد عودُه فيحتاج إلى أن يمرَّكه لأنها قد سويت وعُلقَت مثانها مشاكلة للزيرة على الدقة والعلط . قال . فلما وصح عودُ العارسي في يديه ، نظر إليه منصور زلزل ، فأسفر وجهه وأشرق لونه ، فصر وبعى عليه إبراهيم . ثم قال صاحبُ السار لزلزل : يا منصور اضرب ! قال . فلما حسَّ العودَ ما نالك العارسي أن وثب من مجلسه عراذل حتى قبل رأس زلزل وأطرافه ، وقال : مثلك ، جعلت يدك لا يمتنُّ ويستعمل ، مثلك يُعبد . معجب الرشيد من قوله وعرف فصيلة زلزل على العارسي . فأمر له بصلة وردة إلى بلده . « وكان منصور زلزل من أسمى الناس وأكرمهم ، نزل بين طهراني قوم وعد كان يحل لهم أحد الركاة مما مات حتى وحبب عليهم الركاة .

« وكان اصحاب رصوما ، في الطقة الثانية . قال : فطرب الرشيد يوما لزمه ، فقال له صاحب السار : يا إصحاق أزمُر على عاء ابن حاتم . قال : لا أصل . قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ! قال : إن كنت أزمُر على الطقة العليا رُفعت اليها ، فاما أن أكون في الطقة الثانية وأزمُر على الأولى فلا أصل ! فقال الرشيد لصاحب السار . ارمه إلى الطقة الأولى ، فادفع يداك إلى السطح الذي في مجلسهم إليه . فرفَعَ اصحاب إلى الطقة العالية وأحد السطح وكان يساوي ألفي دينار . فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأحواته وكانت أمه تَبْطِئُه لكاء فخرج برصوما عن منزله لبعض حاجاته ،

(١) كذا صله صاحب القاموس « كمنهد » وصله ابن حنبلان « كمنهد » .

وجاء نساء جيرانه يُهَيِّئْنَ أمه مما حُصِّنَ به دون أصحابه ويدعون لها ، فأحذب سكيما وجعلت تَقَطِّعُ لكل من دخل عليها قطعة من البساط حتى أنت على أكثره . فعاد رصوما فاذا البساط قد تَقَسَّمَ بالسكاكين . فقال : ويلك ما صنعت . قالت : لم أدر ، طبتُّ أنه كذا يقسم . فحُدِّثَ الرشيد بذلك فصحك ووهب له آخر .

«وزم سعيد بن وهب أن ابراهيم الموصلي عني أمير المؤمنين هارون صوتا فكاد يطير طربا فاستناد عاتمة ليله ، وقال : ما رأيتُ صوتا يجمع السحابة والطرب وحودة الصبغة والخمرة غير هذا الصوت ، فأقبل ابراهيم فقال : يا أمير المؤمنين ، لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم أو لو وحدت مائة ألف درهم مطروحه ، كنت أسرَّ بها أو بهذا الصوت ؟ قال : والله لأما أسرَّ بهذا الصوت مني مالف ألف وألف ألف . قال : فلو فقدت من بيت مالك مائة ألف كان أشدَّ عليك أو لو فقدت هذا الصوت وفاتك هذا السرور ؟ قال : بل ألف ألف وألف ألف أهون علي . قال : فلم لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيء فقد أتني ألف أهون عليك مه ! فأمر له بمائتي ألف درهم .



امتاز العصر العباسي بتقدم محالس الماطرة ورواقها وتنظيمها وقيده المساقشات فيها . وقد يكون من المعيد إعطائك صورة صحيحة للماطرة وعظيمها ، واهتمامهم بترويق عارتها ، وطلاوة أساليبها ، وملاحظة تراكيبها ، وملاحظة قوة الجمج فيها ، وأن ننقل اليك مشاورة المهدي لأهل بيته . وهي إن صحت تعتبر أثرا أدبيا له قيمته وحطه ، وأثرا سياسيا لمساقشات القوم السياسية ولتصميمها خططا وصانح لا يزيد عليها إلا تلك الصانح التي تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأموي لأبيه عبد الله ، وستراه في موضعه من باب المشور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب . أما المشاورة فستعدها في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

(٥) الشعر :

لا يُقدِّسُ العرب من علوم الحياة ومونها شيئاً أكثر من تقدسهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم ، وحفظوا به نغمهم ومسابهم وساقوا به الحيوش والمحافل ، فذُكَّتْ عروشاً وأُمدت ممالك ، وصمموه من أخلاقهم وعاداتهم وشؤون حياتهم ما جعله مكان نغمهم ومفزع أمرهم ، فكتت نهد العربي يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح الشوان ، ويشور حتى كأنه حلل نار وكثيراً ما يمشدوا أمامه ، لمكانه من هموسهم . وقد روى الأصمعي وغيره من ذلك شيئاً كثيراً .

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كلِّ عصوره العربية ، ولم يَلَّ منه ان دولة العباسيين قامت على سواعد العرس ، وحلُّوا منها مكان الصدور والحكام ، فإن الخلفاء والسادة وحمرة الأمراء والأدباء ، كانوا يحملون فوق أكفهم ربوعاً عربية حفظوا فيها ثراث آثامهم ومفاخر أجدادهم ، وأقبلوا على الشعر وإنشاده ، وكانوا هم أنفسهم يقرضون الشعر . وإليك ما جاء في عيون الأخبار عن المصور قال : " كان عمرو بن عُبيد إذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطبي يقول : إن يُرد الله نامة محمد حياً يول أمرها هـد الشاة من مِى هاشم . وكان له صديقاً . فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلمه وأراد الانصراف قال : يا أبا عثمان ، سل حاجتك ، قال : حاجي ألا تعث الى حتى أنيك ، وألا تعطيني حتى أسألك . ثم بهن فقال المصور :

* كلهم مائى رُويد . * كلهم حائل صيد *

* غير عمرو بن عُبيد *

فلما مات عمرو رثاه المصور فقال

صلى الله عليك من مُتوسِّد * قرا مرثاة به على حراب

فمر نصي مؤمناً متحملاً * صدق الله ودان بالقراد

وإذا الرجال تنازعوا في سُنَّة * فصل الحديث بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أبى صالحاً * أبى لسا حياً أبا عثمان



ولقد أحصروا لأسانهم المؤدبين يقفونهم على الشعر وأستطهارة، وحلّسوا للشعراء محالس
أثابوا فيها وأعطوا، ووهوا من الميخ ماوهوا . روى الفصل من الريح : « أن مروان بن
أبي حفصه دخل على المهديّ بعد وفاة معن زائكة الشهايق في جماعة من الشعراء مهم
سلم الخاسر وغيره، فأنشد مديحاً فيه، فقال له : ومن أنت ؟ قال : شاعرك يا أمير المؤمنين
وعندك مروان بن أبي حفصه، فقال له المهديّ . ألسن القائل

ألقا بالجمامة بعد معن * مقاماً لا يزيد به زوالا

وقلنا أين رجل بعد معن * وقد ذهب النوال فلا بوالا

قد ذهب النوال مما رحمت، فلم حثت تطلب بوالا ! لاشيء لك عبدا، خروا رحله
خروا رحله حتى أخرج . لما كان من العام المقبل تطف حتى دخل مع الشعراء فقتل
بين يديه وأنشد .

طرقك زائرة حتى خيالها . بيضاء تحيط بالجمال دلالها

قادت فؤادك فاستقاد وتطلها * قاد القلوب الى الصبا فاملها

قال : فأنصت له الناس حتى بلغ قوله .

هل تطمسون من المياه نحوها * ما كفكم أو تسترون هلالها

أو تبحلون مقالة عن ربحكم * حبريل ملنها البي فسالها

شهدت من الأفعال آخر آية * ثرائهم فاردتمو إطالها

قال : فرأيت المهديّ قد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعظاما سمع،

ثم قال : كم هي ؟ قال : مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم .

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عزموا للشعر منزلة ،
فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأمويون يستعملون به فيها . وحسبك أن قول
لك : إنهم استعملوه في المفارقة وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة ، وفي الهجاء

والتحريض ، فقد دخل سديف على عبد الله بن علي العباسي وعده جماعة من بني أمية فأنشده قوله :

لَا يَفْرُكَ مَا تَرَى مِنْ أَتَّاسٍ * إِنْ تَحْتَ الضَّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا

فَصَحَّ السَيْفُ وَأَرْفَعَ السُّوْطَ حَتَّى * لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أُمُيًّا

فأمر عبد الله فذهبت أرواحهم هاء .

وكثيرا ما كانوا يستشعرون بالشعر والشعراء ويحاولون به على قصاء حاجاتهم ، ويُقدِّمونه أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الفصب ، فقد روي أن الرشيد عد رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب ، وهو في الطريق ، من ملك الروم "تَقُور" يفيد قُصَّ الصالح الذي عقد معه ، فهاب القوم إخبار الرشيد وامتسوا عن مكاشفته ، وقدموا لمكلمته من الشعراء المخاح بن يوسف التيمي واسماعيل بن القاسم أما العتابيه وغيرهما ، فأنشده المخاح بن يوسف :

نَقَضَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ تَقْفُورُ * وَعَلَيْهِ دَائِرَةُ الْبَوَارِ تَدُورُ

أَبْشِرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ * عُنْمُ أَتَّكَ بِهِ الْإِلَهِ كَبِيرُ

فَلَقَدْ تَبَاشَرَتِ الرَّيَّةُ أَنْ أَتَى * بِالْقَصَصِ عَنْهُ وَاهِدٌ وَبَشِيرُ

وَرَحْتُ يَمِينِكَ أَنْ تُعْمَلَ عَزْوَةٌ * تَسْفِي النَّفُوسَ مَكَانَهَا مَذْكُورُ

أَعْطَاكَ حِرْزِيَّتَهُ وَطَاطَا خَذَهُ * حَنْدُ الصَّوَارِمِ وَالرَّدَى مَحْدُورُ

فَاجْرَتْهُ مِنْ وَقْعِهَا وَكَأَنَّهَا * بِأَكْثَفَا شُئْلِ الصَّرَامِ طَبِيرُ

وَصَرَفَتْ بِالطُّولِ الْمَسَاكِرَ قَافِلَا * عَنْهُ وَحَارَكَ آيُنُ مَسْرُورُ

تَقْفُورُ إِنَّكَ حِينَ تَغْدِرُ أَنْ مَأَى * صَكَ الْإِمَامَ بِالْجَاهِلِ مَغْرُورُ

أَخْلَنْتَ حِينَ غَدَرْتَ أَلْكَ مُقَلَّتْ * هَلَيْكَ أَمْلَكَ مَا طُنَّتْ غُرُورُ

أَلْقَاكَ حَيْثُكَ فِي زَوَانِرِ بَحْرِهِ * فَطَمَتَ عَلَيْكَ مِنَ الْإِمَامِ بِحُورُ

إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى أَقْتَسَارِكَ قَادِرُ * قُرُبْتُ دِيَارُكَ أَمْ نَاتَ بِكَ دُورُ

ليس الإمام وإن عطلنا عافلا * عما سوس بحرمه ويُدير
ملك تحزّد للجهاد نفسه * صدّقه أبداً به مقهور
يامس يريد رضا الإله بسميه * والله لا يعي عليه صمير
لا يصحّ بيع من يغشّ إمامه * والصبح من نصحاته مشكور
نصح الإمام على الأنام فريضة * ولأهلها كفارة وطهور

مكر الرشيد راحما في أشد محه وأعطى كلفة حتى أراح ضائه، فلم يرح حتى رضى وطلع
ما أراد . فقال أبو العتاهية :

ألا نأذت حرقلة بالخراب * من الملك الموفق الصواب
عدا هارون يُرعدُ بالمأيا * ويرقّ المدكرة القصاب
ورايات يحل الصرمها * تتزكها قطع السحاب
أمير المؤمنين طفرت فاسلم * وأبشر بالقيمة والإياب



وكان الشعراء يلعبون دوراً هاماً في الحياة الحزبية . وحسبك أن تعلم أن خلفاء شعراء
اختصوا بهم كأبي دلامة، وحماد محمد، وبنار بن بُرد، ومروان بن أبي حفصة، وسلم
الخامر، وأبي نواس، ومصور الحمري، وغيرهم . وللرامكة شعراء أمثال أمان بن عبد الحميد،
وأبن منادر والرقاشي وغيرهم ، ولسائر الأمراء شعراء . وهناك شعراء لم يكتسوا بالشعر
كصالح بن عبد القدوس ، وشعراء للشعبة كالسيد الحميري وسليمان قتة ودعبل ، وشعراء
لم يحصروا كربيعة الرقي وكلثوم بن عمرو الغنوي وغيرهم . وإياها يحيلك هنا الى ما أشتاه
لك من منظوم العصر العباسي ، في الكتاب الثاني من المجلد الثاني .

وجمّاع المقال أن الشعر العباسي قد تضمن موما عديدة، ولكنه لا يحتاج به في اللغة
كلاؤوى مثلاً ، لأن القنّة في الشعر والأدب جعلوا حنهم نشاراً ولم يتعدوه بسبب
تمشي المني واستفعال اختلاط الأعمام بالعرب .

على أن الشعراء العباسيين قد تصفوا في أنواعه أيتما تخفف من قول في المهاجة إلى قول في الأخلاق، إلى مُلح إلى تصرُّع، إلى وصف، إلى تجوُّ الخطاء، برضاهم إلى مدحهم . وعلى الجملة فقد استعملوه في كل عرض من أعراض الحياة من مُفانحة وشمريات وزهریات ورتاء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره، فأنزى الشعراء وأتروا . وحسبك أن تعلم أن سلمًا الخاسر حلف ثروة مقدارها ٥٠,٠٠٠ دينار، ١٠٠,٠٠٠ درهم غير الصباغ . ومثله مروان بن أبي حفصة وغيرهما . وسكى الشعراء الاطام والقصور، وأقتنوا الأنف الحسانة من الحدائق وشاهقات الدور، واستخدموا الجوارى والغلمان، وأمعوا في شهواتهم ولذاتهم وتعموا بحطام الدنيا ومرافعها، فسُهلَّت ألعاطهم، ورتقت طباعهم . وقل أقتصائبهم، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمر وساقيتها من الدار ومايها . وتقدم في ذلك الواسي يحمل عنهم فقال .

صِفَةُ الطَّلُولِ بِلَاعَةُ الْقُدُم * فاجعل صفاتك لأبسة الكرم

وقد بالغ في ذلك حتى سمى الخليفة وأخذ طيه ألا يذكر الخمر في شعره، فقال :
أَمِيرَ شِعْرِكَ الْأَطْلَالُ وَالْمَتَزَلُّ الْقَمَرَا * هَدَّ طَالِبًا أَرَى بِهِ نَتَكَ الْخَمَرَا
دَعَانِي إِلَى مَتِ الطَّلُولِ مُسَلِّطُ * تَصِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرْدَلَهُ أَمَرَا
فَسَمِعَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ حَسَمْتَنِي مَرْبَا وَغَرَا

وسيج كثير من الشعراء نهج أبي نواس، وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن .



هذا الترف الذي شمل القوم، يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم، وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير، جعلهم يفتحون في اللغة العربية قنعا جديداً يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان، فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الأعجمي يصورون ما جاد به النعم وما استلزمته الحضارة . فيقول أبو نواس في ذلك :

وفات خد مؤرد * قوهية المتجرد
 تأمل العين منها * محاسن ليس تقدر
 وبعضها قد تاهى * وبعضها يتولد
 والحسن في كل عصور * منها مُعَادٌ مُرَدَّد

ولم يقيموا عند هدا، بل وصعوا ماطر الطبيعة ورعد العيش وبعيمه، وصحة الإخوان
 وغناء القيان، ومصايد الوحش والطيور، ومحاسن الأيس والسرور، واشتدوا كثيراً من
 المعاني الجديدة، كقول بشار :

يا قوم أدي لبعض الحى عاشقة * والأذن تمسق قل العين أحيانا
 قالوا من لا ترى تهدي فقلت لهم * الأذن كالعين توي القلب ما كانا
 وقال أبو تمام .

وإذا أراد الله شر فصيلة * طوبت ألتح لها لسان حَسود
 لولا اشتعال السار فيما حاورت * ما كان يُعرف طيب عَرَف المود

نيت هالك أمور حديره بالاهتمام، كان يصح أن يف عدها قليلا، فقد بالنوا
 في الوصف، وفتحوا باب القصص، وبزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك .

الكتاب الثالث

عصر المأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

توطئة — مولده — شأته وأحلاته .

(١) توطئة :

في التاريخ الأمويّ مأساة مُروّعة، وهي أن حدّ الوليد بن يزيد بن عبد الملك قتلوا حليفهم، وحروا رأسه، وذهبوا به الى يزيد، فقصه على ربح وطيف به في دمشق^١ . كانت تلك المأساة المروّعة نتيجة دعوى سياسية حاقة، على الخليفة الوليد الذي نُسيه حاله السياسية من حلّ وجوهها حالة الأمن، فقد كان من صحايا نظام ولاية العهد الثاني، ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله جارية بعده، فاضطر الى توليه أخيه هشام، ثم ابسه الصغير الوليد مد هشام . لمحاول هشام أن يوتى ابنة مسلمة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية ابنة الوليد، فلم يُفلح هذا ولداك . وكانت النتيجة المعقولة لخطتهما السياسية : من محاولة كليهما حلّح ولّى العهد والبيعة لولده، أن انضم الى كلّ من القوّاد والزعماء والأنصار، تأييداً له فيما يريد . وكان هؤلاء القوّاد والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاصطهاد من ولّى العهد المصطهد متى ولي الخلافة وصار الأمر

إليه . فاذا ما اصطُهِدَ الخليفةُ نفسه وَحِطَّتْ خُطَّتُهُ كَانَ نصيبُ سيرته من الرواة نصيبَ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين .

يريد أن يقول، إرصاداً للعلم والتاريخ والمطلق، أن الرواة إذا قالوا مثلاً : إن الوليد كان كافراً أو كلباً مجموعة قبائح، أو أنه سلم يوسف التقيّ - كلا من محمد وإبراهيم ابني اسماعيل المخروميّ - موثقين في عباةتين ، وأن يوسف أقامهما للناس وحلدهما وعذبهما وأماتهما، أو قالوا : إنه حبس يزيد بن هشام، وهوى بين رَوْحِ بن الوليد وبين امرأته، أو ذكروا أنه عذَّبَ خالد بن عبد الله القسريّ - سيدَ اليمن - وأنه سلمه للتقيّ - فزع ثيابه وعذبه مرَّ العذاب حتى أماته ، أو وصّوا مُنَافِسَهُ يزيدَ بالنسك والورع — فإن من واحد المؤرّخ المصنف، المتحرّي للحقائق التاريخية، والرابع في الصفة العلمية، والمتشئى في أمانة ورو وحقه مع الافتراضات التحليلية، والخاص لأحكام المطلق والحيدة والتعلل، أن يطر بـتقصيِّطٍ وتحرّز كبير، إلى مثل تلك الروايات التي يوصف بها الخليفة المصطهد والمعلوب على أمره، وكل من أشلَّ عرشه وصاع ملكه ، وَحُتِمَتْ بالقتل أو الحرمان حياته .

على أنه يحدّر بما أن نقسامل، قل أن نفتحم موضوعاً في هدوء وسكون : ما هو الروح الذي يعل على الرواة المعاصرين، والشعراء المعاصرين، والكتّاب المعاصرين، والمُحدِّثين المعاصرين ؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة ؟ أليس هو إلى حدٍّ صير قليل، مُبَاصِرَةَ الحزب القويّ أو الرعيّ القسويّ - مباصرةً حارّةً قويةً حادثةً، وقد لا تخلو من مبالغة في تمجّدها بمحاسنه، وإعراقٍ في روايتها على خصمه بقائضه .

فهمة المؤرّخ إذاً — حين يقرّص حياة خليفة مصطهدٍ انتهت حياته بمر رأسه : مثل حياة الوليد بن يزيد الأمويّ، ومحمد الأمين العباسيّ، وحين يعرض لتحليل حياة خليفة مستمر : مثل حياة يزيد حشم الوليد في العصر الأمويّ، وحياة عبد الله المأمون حشم محمد الأمين في العصر العباسيّ — ليست ميسورةً معدّة بل هي جدّ شائكة .

وقد يكون من الحصافة والنصبة العلمية أن يُعرَض ما يرويه الرواة المعاصرون من مَدَجِّ للغالب وانتقاص للغلوب، على بساط البحث التحليل . ولما رُمى بذلك الى أن تُرَقَّص مقولاتهم وتُنقَص بلا حق وجاهة رواياتهم ، وإما وصي الحيلة والاحتِراس لا أكثر ولا أقل .



(ب) مولده .

بعد هذه التوطئة الوحيدة التي لم نَرُدُّهَا عن إثنائها في هذا الموضع ، يبدأ كلنا عن محمد الأمين ، من الناحية التحليلية لأحلافه . أما ناحية التراجم الذي شجر به وبين أخيه المأمون ، فلها موضعها التاريخي من كتابنا .

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد ، ولد سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي السنة التي استُخْلِفَ فيها والده الرشيد . وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بسنة أشهر . ووُلِدَ المأمون في الليلة التي استُخْلِفَ فيها والده .

وأم الأمين أم جعفر بن عبد الله بن جعفر بن المصور ، وهو هاشمي الأب والأم . وقيل إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسي غيره .

واذ كان أحواله هاشميين ولم في الدولة بعد قوئ وكلمة مسموعة . فقد سَعَوْا ، فيما يحدثنا التاريخ ، حين مَدَّ جماعة من بني العباس أعناقهم الى الخلافة ، الى أن يكون الأمر الى أب اختهم ، وقد نحوا .

سعى حائل الأمين عيسى بن جعفر بن المصور الى الفصل بن يحيى الذي بعثه الرشيد على رأس جيش الى خراسان ، لمحاربة بعض الخارجين على الخلافة ، وتسكين الاضطراب في تلك البوارج ، وقد كان التوفيق حليمة في ذلك الوجه . فقال عيسى للفصل . « أَشُدُّكَ اللَّهُ لَمَّا عَمِلْتَ في البيعة لابن أخي ، فانه ولدك وخلافته لك » ، فوعده الفصل أن يفعل .

فلما كان الفضل بحراسان ، يُدبَل بما واثاه فيها من ظهور على الخارجين ، وهو معدٌ من آل برمك وزراء الرشيد ، وأصحاب السلطان العظيم في الدولة ، بايع لمحمد الأمين هو ومن معه من القواد والحد ، بعد أن فرق أموالاً عظيمة ، وأعطى أعطيات كثيرة . وتنفى بذلك شعراء العصر ، أمثال أمان بن عبد الحميد اللاحق ، والهمريّ وسَلَم الخاسير وغيرهم . وليان وجهة نظريهم في البيعة فتطلب لك شيئاً مما قاله سلم والهمريّ .

قال سَلَم :

قد وفق الله الخليفة إذ بي * بيت الخليفة للبحان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وحده * شهدا عليه بمطير وبحر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى * لمحمد بن ربيده أسه حمير

وقال الهمريّ .

أمنت بمرو على التوفيق قد صمقت * على يد المصلل أيدي النجم والعرب
ببيعة لولي المهدي أحكمها * بالصبح منه والإسماعيل والحديد
قد وكّد المصلل عقداً لا انتقاص له * لمصطفى من بني العباس مستحب
فلما تنهى أمر البيعة إلى الرشيد ، ووجد نفسه أمام «الأمر الواقع» ، إذ قد بايع لمحمد أهل المشرق ، بايع له ولاية المهدي ، وكتب إلى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار . ومن هذا يعلم ما يصح أن يعتبر سراً في أن الأمين كان ولي عهد الرشيد ، دون أن يكون أكرولده سا .



(ج) نشأته وأخلاقه :

نقرأ ما سطره أمثال «كارليل» عن «كرومول» و«فردريك الأكبر» وما كتبه «ترفيان» عن «ماكولي» و«زول» عن «جونسون» و«اللورد مورلي» عن

”جلادستون“، وعيرهم من الكتاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العقريين، فتلاحظ، في حل كتبهم، وفي الدقيق المستوى منها على الأخص، أنهم يعملون أيما احتفال، فيسند ملاحظاتهم عن تاريخ بطلم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في ميعه شبابه وطراوة إلهابه، وما هي الأواند والفرائب أيام كان حداثاً صغيراً. وقد لا تُدهشك متانه ”ما كولي“ وقوة مسكه وارتفاعه الى دروة اللاعة في أساليه، ولا يهولك كثرة ما حفظ وومرة ما أطلع، اذا علمت مثلاً أنه وهو لم يعد السادسة أو السابعة كانت محفوظاته في طفولته، تنشر بعقريته في رحولته. وكذلك يقال عن ”شارلس دكز“ وسبح الاطلاع في صباه على جل ما سطر وكتب، حتى صار في مقتل حياته وقد ملك ناصية اللاعة، وتسم الدروة في متزف العسيات وتحليل روح الطقات كافة: من أنسب معورين الى أشراف مترفين. وكذلك يقال عن ”سپسر“ الفيلسوف العظيم والمربي النابه الذي كان يحفل في مدأ نشأته، وهو لم يعد العاشرة مثلاً، بالدويات وغريب الهواثم التي كانت على شاطئ البر، فكيف على دراستها، تولدت في هسه صفات الحلد والأناة والمواطنة، حتى أصبحنا نراه، وهو في شجوحته، يجرح للباس المعجز المطير في علم النفس، وعلم الحياة، وعلم الأخلاق، وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر. كذلك يقال عن ”هومسون“ في صباه، وكيف كان يعال المرص والمرص يُقاله، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان يحرر يابه وتدقعه في محالسه، وكيف كان ألباً عيوفاً، مترفعاً أوفاً، مرفص في شم وإناه حداثاً جديداً اشتراه له من لاحظ تحرق حذائه وقصر يده عن جديد. الى آخر ما يقيد كتاب العصر عن نشأه أطالهم، مما نمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شبيهه ومثيله، مما يهيد في تعزف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم. لأن القارئ اذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبته وجته، وحلده أو ترمه، وتعلمه أو تعزمه، وشاطه أو تحوله، ووزانته أو تبدله، ووقف كذلك

على قائله وفصائله ، وهو حَدَّثْتُ عُدُ ، يستطيع أن يَهَمَّ بهما صحيحا ، حكمة تصرفاته
في مقبل حياته ، كما يفهم الصديق صديقه وإلحدُّ خِدْنَه .

ولتسأل الآن . هل تجل لنا التاريخ شهتا قويا عن نشأة الأمين وطعولته ؟

أظن أى لا أعدو الحق كثيرا اذا قلت لا ، إذ قلنا يمرض المؤرخون القدماء لشيء
من طفولة العظماء ورحال التاريخ .

على أننا قد وقضا من طفولة الأمين على شذرات ليست بدات عاء كبير ، نثبتها
لك وتدرسها معك ، وربما ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حداته الأمين ، وأستخلص
بعض الحقائق عنه .

يحدثنا البيهقي في «الحاسن والمساوي» بما سلخصه لك حاصا بنشأة الأمين التعلبية ،
لتقف على البيئة التي كان فيها الأمين ، ولأن روايته ، خصوصا ما جاء عن حلم زبيدة
وفزعها منه ، مما رواه المسعودي في «مروجه» أيضا ، قد تجعلنا نلحق بحق أثر الوسط
والوراثة في خلق ما كان بالأمين من استعداد لحب الاستحارة ، مما كانت له نتائج السيئة ،
ولأنه يفهمها بوجه عام لم كان الأمين فصيحاً ، أدبياً ، طبعاً ، ولم كان عابثاً مستهتراً ، ولم كان
وادعا متبها من الدماء ، ولأنه يهسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها ، ومرج الحدانة
ونعزها ، والاستمتاع بمال زبيدة والإدلال بها شيتها !



أنت حد عالم أن الرشيد حمل الأمين في حجر الفصل بن يحيى ، والمأمون في حجر
جعفر بن يحيى . وأنت جد عالم أن الفصل بن يحيى قال لمشيم بن نسر الواسطي : «ليكن
أكثرنا تأخذ به ولي العهد الأمين تعظيم الدماء ، فإني أحب أن يُشرب الله قلبه الهيبة لها ،
والعفاف عن سفكها» . وأنت حد عالم بوصية الرشيد للأمر الحوى تأخذ الأمين
بالشدة ، إن لم تنفع الملاية في تقويمه . وقد آن لنا أن نترك للأمر فرصة التكلم ، فيروى
لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين .

يقول الأحمر : « كنت كثيرا ما أشدد على الأمير في التأديب ، وأمعه الساعات التي يتفرع فيها للهو واللعب ، فشكا ذلك الى خالصة - ولعلها كانت كبيرة وصبيات أو أميات القصر الزبدي - فأنتى برسالة من أم حمير تمزم على بالكف عنه ، وأني أجمل له وقتا أحبه فيه لتوديع بدنه ، فقلت : الأمير قد عظم قدره وعُدَّ صوته ، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد ، لا يحتملان التصغير ، ولا يقلل من الخطأ ، ولا يرضى منه بالزلل في المطلق ، والجهل بالشرائع ، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السلطان وإحكام السياسة ، قالت : صدقت ، غير أنها والده لا تملك صمتها ولا تقدر على كفى إشفاقها ، ومع حديثها أمر أن شئت حدثتك به ، فقلت : وما ذاك ؟ قالت : حدثتني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت بها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها ، ففعدت منهن ثنتان ، واحدة عن يمينها ، وواحدة عن يسارها ، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها ، ثم قالت : ملك رحيل ، عظيم البدل ، قليل الحمل ، سريع الأمر ! وقالت الثانية : ملك قصير العمر ، سليم الصدر ، منهتك السر ! وقالت الثالثة : ملك قصاف ، عظيم الإخلاص ، يسير الخلاف ، قليل الإنصاف ! فانتبهت وأما عزة فلم أحس لها أثرا ، حتى كانت الليلة التي وصته بها ، أتيتني في الخلق الذي رأيتهن فيه ، ففعدت عند رأسه ، وأطلعت جميعا في وجهه ، ثم قالت واحدة منهن : شجرة نصره ، وريحانة حبيته ، وروضة زاهرته ، وعين صدقة ، قليل لئنها ، عجل دهابها ! وقالت الثانية : سفيه عارم ، طالب للغارم ، جسور على المخاصم ! وقالت الثالثة : احفروا قبره ، وشقوا لحده ، وقربوا أكفانه ، وأعدوا جهازه ، فإن موته خير له من حياته ! قالت : فقيت متحيرة ، وسمت الى المعجمين والمعبرين ومن يجر الطير ، فكل ينشئ طول عمره ، ويمدني بقائه وسعاده ، وقلبي يابى إلا الحذر عليه ، والتهمة لما رأيته في ماضي . وبكت خالصة وقالت : يا أحمر وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراق واقع العذر ، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبائه الأحل ! . قلت : صدقت ، إن القصاص لا يدمعه شيء . »

ويحدثنا التاريخ أن الرشيد أحمد حين اتحد لتربية الأمين وتعليمه ، فطرباً النحوى .
 وكان حامداً محمداً يتعشق الأمين ، ويطمح أن يتخذ الرشيد عليه مؤدماً . فلم يتبأ له ذلك
 لتهتكه وقبح ذكره فى الساس ، وقد كان رام ذلك فلم يُحْتِ اليه . فلما سمع أن قطربا
 قد استوى أمره وأجيب الى ذلك لستره وعماقه ، أحد حامداً المقيم المقعد ، حسداً على
 ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المتلة الرجمة والدرحة السنية ، فأخذ رقعةً وكتب فيها
 آياتاً ، ودفعها الى بعض الخدم ، الذين يقومون على رأس الرشيد ، وحمل له على ذلك
 جُعلاً ، وسأله أن يُودع الرقعة دواة أمير المؤمنين ، ففعل . فما كان بأسرع من أن دعا
 الرشيد بالدواء ، فادأ فيها رقعةً فيها هذه الأبيات :

قل للإمام جراك الله معصرة * لا يُتَجَمَّ الدهر بين السَّحْلِ والذَّيْبِ
 السَّحْلُ عِرٌّ وَهَمْ الدَّيْبُ عَمَلُهُ * والديبُ يعلم ما بالسَّحْلِ من طيبِ

فلما قرأ الرشيد الرقعة قال : أنظروا ألا يكون هذا المعلم لوطياً ! أهوه من الدار ،
 فأخرجوه عن تأديب الأمين . قيل : ثم جعل الرشيد على الأمين حراساً ، واتحد عليه حامداً
 وكان عليه رهاء سميين أو ثمايين ' .

وما كان من الحق أن تقول : إن هذه الشاه كانت لها آثارها السيئة ، خصوصاً أنا
 نلاحظ ، أن الأمين تنقصه الدربة السياسية . وأنت تعلم أن الدربة السياسية هى حاجة
 يُؤَبَّ لها كثيراً ، فى تمية روح الحكم ، وتقوية المواهب الإدارية ، وتعليم ملكات السلطان
 فى ولى العهد ، خصوصاً ذلك العصر الذى لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوافرة
 توافرها اليوم : من سياحه لولى العهد الى الممالك المتمدينه ، ووقوف على مبلغ الحضارة
 العالمية ، كما هى حال ولى عهد إنجلترا ونظرائه مثلاً ؛ مع أن الحاجة الى الثقافة السياسية
 فى ذلك العصر كانت أشد منها اليوم ، لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطانٍ فعلى
 مطلق ، غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع الى دينه وورعه .

نريد أن نقول إنه إذا كان مُدَّتْ الهادى للرشد، حين ولاء قياده الجند لحرب الروم،
 قد أوحى الرشيد في مركز القيادة العامه، وفيها من الشيوخ المحكمين والقادة المتمرزين
 والزعماء المظمين، مجموعة صالحة للتقافة السياسية، وحرص تسع، في القبة بعد الفقيه،
 للرائة السياسية وتحرير حليته مُدْزِب في فتون الملك، وإذا كان المأمون قد مُدَّتْ
 للحكم في نراسان وغير نراسان، حتى نكثت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال
 الخلافة وسمه اس زبيدة ودلال الهاشميين - يريد أن نقول إنه إذا كان ذلك كذلك،
 وكانت هذه هي نتائج الذرية السياسية، فمن الميسور أن نهم معه افتقادها، كما أنه من
 الميسور أن نستدق أن عصرًا هاما من عاصير تكوين رحل السياسية والحكم كان يقص
 الأمين الذي لم تستطع عاشيته من الخدم وطلانته من الموالى وأحواله من الهاشميين
 وأساتيده من المربين، أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوى طفولته .

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يكرهوه على أن يأخذ عسه مخزوم في أموره، وسداد
 في تصرفه، وقع لميوله، وتقويم لأعوجاجه، وبما يحمله رجلا كاملا ! أظن لا . وأظن
 أنك محق في نفيك هذا عن كان في ظروفه وبيئته .

على أنه من العدل والحق، أن نقرر أن الأمين لم يكن طيد الذهن أو ثقیل الظل،
 بل كان قبض ذلك على حظ من توقد الذهن وفصاحة اللسان، وخصة الروح والطل .
 وحسبك أن ترى شيئا مما كان يصح به في مجالس اللهو والمناذمة : من سرعة البديهة،
 وطراة السكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدطابة، وعدوبة المكاها، لتؤمن بما نقول .

وكل ما أجمع عليه المؤرخون الميرتجة « كبير » وكتاب دائرة المعارف الإسلامية،
 واتفقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعا، أنه كان مستهترا، مُسرِّقا، مع خور حُلُق .
 وعدم تصير في العواقب، ولا ترو في مهمات الأمور، مما يرجع في الواقع الى عدم
 العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا .

وإنّا محزون إذا ما قررنا أنّه لو وحّد الأمينُ يدًا حكيمةً تقسو عليه أحيانًا ففعل من شدة نفيه العاشية المريحة ، وتقوّم اعوجاج حلقه الرحو ، وتقوى بجهاد المسئلة ، وتبحث به الى الحروب ، ليصهر لظى أوارها ، ويصقل من جلادها وبجالتها ، ويهدسه من جبره كجأتها ، ودربة شيوخها ، وحّدع مدبرها ، وحطط مشيرها ، وتولييه حكم صقع من الأصقاع ، للزاة به على معصلات الحكم ومشكلاته ، والاحتكاك كقادته وقصاته ، إذا كان للمأمون مه حصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامر .

على أنا وإن قلنا إن الأمين كان مستهترا ، لا يستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذى رواه الطبرى وعيره والذى صر به المجرى مثلا على إهمال الأمين وعفته وحمله ، إلا بشئ من التحفظ كثير . وهاك خلاصه الخبر لى تقدّر معا ما لهذه الملاحظة من وجاهة وقيمة :

لما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون ، حتى انتهى الى عايتة ، أرسل الأمين لمحاربة أخيه هشما ، لم يرى معدّ قبل ذلك أكثف منه ، قوامه أرمون ألفا وقيل خمسون ، وزوّده بالسلاح الكثير والأموال الوافرة ، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة ، حليل القدير ، مهيب الجايب ، هو على بن عيسى بن ماهان . وقد نرج معه الأمين الى طاهر المدينة مشيا مودعا . وكان فى حكم اليقين أن الطغر سىكون حليفه ، لكثرة عديده ، ووفرة سلاحه وذخيرته . فلما التى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون — وعسكره فى حدود أربعة آلاف — ثم كات الفلة لطاهر ، وورد الخبر بعمى على بن عيسى الى الأمين وهو يصيد ، قال للذى أخبره بذلك : دعنى لرب كوثرا قد اصطاد سمكتين وأما الى الآن ما اصطدت شيئا ! وكان كوثر هذا حادما من الحضيان ، قيل إن الأمين كان يحبه كثيرا .

تقول - ولعلك توافقنا فيما نذهب اليه - إنما لا نستطيع أن نقبل هذا الخبر وأمثاله ، إلا بشيء من التحفظ كثير . فإن خليعةً يسمع مثل هذا السأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل في مصير سلطانه ثم لا يأبه له ، لا يكتفى أن يوصف بالإهمال والجهل ، بل هو جدير بما فوق ذلك ، بالسفه والبلاهة . والسميه الأبله أولى بالجر عليه منه أن يكون ذا سلطانٍ مطلقٍ في دولةٍ مبيدة الأطراف والنواحي . ومحالٌ على الرشيد الذي عُرف بالحرم ، وجودة الحديس ، والثاني في الأمور ، أن يُسَيِّدَ هذا السلطان العظيم من بعده لسعيه أمله .

لهذا نميلُ الى الافتراض كثيرا ، بل الى الترجيح ، أن هذا الخبر ، والكثير من أمثاله ، ليس إلا أثرًا من آثار الدعوة المأموية التي كان لها من الأثر في ثل عرش الأمين ، وتثبيت سلطان المأمون ، ما لا يقل عن أثر صاكر المأمون وحرم قواده وحكمة مشيريه .

ويقول "ميور" : إن أهل بغداد قد ندموا ، وأسقط في أيدي حوذيها ، لتورمهم في الدفاع عن الأمين وعَدِم استسالمهم في الذود عنه . ويعزو مؤرخه الأستاذ "ويل" أسباب ندمهم هذا الى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يُنفقُ عليهم من الأموال والخيرات .

أما أنه كان سخيا بل مسرفا في السخاء فما لا ريب فيه . ومهما اقترصت المبالغة فيما سنرويهِ لك نقلا عن المطان الأدبية والمصادر التاريخية ، فإن الصورة التي ستقع من نفسك ، مهما جعلتها متواضعةً مقتصدةً - وهذا ما وصيك به دائما - كافيةٌ للاقتناع بأنه كان سخيا ، بل مسرفا في السخاء .

يقول الأصمهاني في أعانيه : عني إبراهيم بن المهدي ليلة محمد الأمين صوتا في شعر أبي نواس :

يا كثيرَ الوج في الدّمني * لا عليها بل على السكي
سنة المشاق واحدة * فإذا أحبت فأستكن

طَنَّ نِي مَنْ قَدْ كَلَّفْتُ هـ هـ هـ يعفوني على الظَّنِّ
رثاً لولا ملاحظه . حات الدنيا من الصن

فامر له بثلاثمائة ألف دينار ، فقال إراهيم : يا أمير المؤمنين ، قد أرتقي الى هذه
الغاية عشرين ألف ألف درهم ، فقال الأمين : هل هي إلا خراج مصن الكُور ! . هكذا
ذكر إصحاق .

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إراهيم فقال : لما أردتُ
الانصراف قال : أوقروا رورق عمي دمايراً فاصرفتُ بمالٍ حريلاً .
ثم تسأل ، أرشدك الله ، لنظره ما فيما يرويه أحد المعاصرين ، وهو سعيد بن
حميد فإنه يقول .

لما ملك محمد وحه الى جميع البلدان في طلب الملوك وصمهم اليه ، وأجرى عليهم
الأوراق ، ونافس في ابتياع قُرهِ الدواب وأحد الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك ،
واحتجب عن إخوانه وأهل بيته وقواده واستحجف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما
بمحصرته من الجوهر ، في حصانه وحلقاته ومحدثيه ، وجعل اليه ما كان في الرقة من
الجوهر والحراثن والسلاح ، وأمر بساء محاليس لمتزهاته ومواضع حلوته ولطوه ولعسه ،
بقصر الخلد والحيزرانية ، وستان موسى ، وقصر عدونه ، وقصر الممل ، ورقة كلواذي ،
وباب الأنار ، وتاربي والبوب ، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة ، على حلقة الأسد ،
والميل ، والعقاب ، والحية ، والفرس ، وأفق في عملها مالا عظيماً . فقال أبو نواس يمدحه :

تَحَرَّاهُ الْأَمِينُ مَطَايَا * لَمْ تُسَخَّرْ لِمُصَاحِبِ الْمُهْرَابِ
فَإِذَا مَا رَحَّكَاهُ سِرَّ رَا * سَارَى الْمَاءَ رَا بِجَالِثِ طَابِ
أَسَدًا مَاسِطًا دِرَاعِيهِ يَهْوِي * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَالْحِ الْإِنْيَابِ
لَا يَمَانِيهِ مَالُهَا وَلَا السُّو * ط وَلَا عَمَزَ رَحْلَهُ فِي الرِّكَابِ
عَجَبَ النَّاسِ إِذَا رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَةِ لَيْثٍ تَمْتَرُ مِنَ السَّحَابِ

سَحَوَاد رَاوَك سِرَت عَلِيهِ * كَيْفَ لَوَأَصْرُوكَ فَوْقَ الْعَقَابِ
دَات رَوِيَر وَمَسْر وَحَاحِيَتْنِ تَشْقِ الْعُبَابَ مَعْدَ الْعَابِ
تَسْقِ الطَيْرِ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا أَسْتَصَلَّوْهَا بِجِيئَةٍ وَدَهَابِ
بَارَكْ أَفْقَهُ لِلْأَمِيرِ وَأَبْقَا * * وَأَبْقَى لَهُ رِذَاءُ الشَّابِ
مَلِكْ تَقْصِرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَاشِمِيٌّ مُوَقِّعٌ لِلصَّوَابِ

على أنه يصح التساؤل : من أين للعلية ما يكسبه من الأموال الطائلة، والثروات الوفيرة لسد مطامعه وإلحاحته الى شئٍ ماعمه ؟ .

وإما على أنه يكسبك أن تطرأ أيضا ، فيما تطرأ اليه من مختلف مصادر المال : من حراج ربما كان طامعا ، وجايا هائلة مرقومة ، وموازين عتية ، وصرائب مبالغ في فرضها ، الى باب الاستصفاء وحده وما يجمع عنه وعن نكدة الوزراء والكبراء . وجهدا لو وُفِّقَ لدراسته بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي فهو هام وهو خطير .

ثم اظهر ما ذكره الحسين بن الصحاك ، وهو شاعر الأمين كما تعلم ، قال : ابني الأمير سعيبة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم ، وأتعد أخرى على حلقية شئ يكون في العريقال له «الدلمين» . فقال في ذلك أبو نواس :

قَدْ رَكَبَ الدَّلْمِيُّ بَدْرُ الدَّبِيِّ . مُقْتَحِمًا فِي الْمَاءِ قَدْ بَلَغَا
فَاشْرَقَتْ دِحْلَةُ فِي حَسْبِهِ * وَأَشْرَقَ السُّكُلُ وَأَسْتَبْهَمَا
لَمْ تَرِ عَيْنِي مِثْلَهُ مَرَكَبًا * أَحْسَنَ إِنْ سَارَ وَإِنْ أَحْمَا
إِذَا اسْتَحْتَهُ مَجَادِيْقُهُ * أَسْقَى مَوْقَ الْمَاءِ أَوْ هَمَلَمَا
خَصَّ بِهِ أَفْقَهُ الْأَمِينِ الدِّي * أَحْمَى بَتَّاحَ الْمَلِكِ قَدْ تَوَّحَا

ثم لتندرمي ما يرويه لنا أحد الأسماء فقصر الرشيد ، وهو حسين حادم الرشيد ، فإنه يقول : إن الخلافة لما صارت الى محمد هُيَّيْ له منزل من مسازله على الشط برش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواء ، فقال : ياسيدي ، لم يكن لأبيك فرش يباهي

به الملك والموود الذي يدون عليه أحسن من هذا، فأحببتُ أن أفرسه لك، قال :
فأحببتُ أن يُمرّسَ لي في أول حلاقي المردراج !! وقال . مَرَقوه ! قال : فرأيتُ
والله الحدمَ الفزائين قد صبروه ممرقا وفَرَقوه .

وهناك مئات من الشواهد التي يرويها المعاصرون، أمثال محارق المعنى ، وأى عادة
المعتري عن مشيخته، والعاسس المصلح الربيع، وكوثر وصيرهم، عن سرف الأُميين
وبدحه ولهو وعنه، يصح أن ترجع إليها في مطائنها، وكلها تؤيد صدق اللاب والجوهر .
من ذلك ما يرويهِ لنا حميد بن سعيد، من أن محمدا الأُميين لما ملك، وكتبه عبد الله
المأمون، وأعطاه بيعته، طلب الخفصيان وأتباعهم، وعلى هم، وصيرهم لملوته، في ليله
ونهاره، وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، ومرص لهم فرصا، سماهم الجرادية، ومرصا
من الحبشان، سماهم الغرابية، ومرص النساء الحرائر والإماء، حتى روى هم، وحتى قال
في ذلك بعضُ شعراء العصر، وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأُميين معهم .

ألا يا مُزْمِنَ المنوى بطوس * حَرِيْبًا ما يهادى بالعوس
لقد أَضَيْتَ لَحْصِيانَ مَلًّا * تَحْمَلُ مِنْهُمُ شَوْمَ الْبَسُوسِ
فأما بوقلُ فالشأن فيه * وفي يدِ يالك من حليس
وما المصمى تشارٌ لديه * إذا ذكروا لدى سيم خسيس
وما حسنُ الصغير أخس حالًا * لديه عند عتق الكؤوس
لهم من غميره شَطْرٌ وشَطْرٌ * يعاقرُ فيه شربَ الحسدَينِ
وما للغناياتِ لديه حظٌ * سوى التقطيبِ بالوجه العوسِ
إذا كانَ الرئيسُ كما سقيًا * فكيف صلاحًا عند الرئيسِ
فلو علمَ المقيمُ بدار طوس * لَمَزَّ على المقيمِ بدار طوسِ



وفي الحق أن قصصَ الأمين، وأنهادَه في لَهوه، وعلوه في عبثه، وأستهتاره في مرجه، وأشتغاله بوحه حاص بخدمه، قد جرّ عليه وبالأكثر، وشراً مستطيراً، وقر منه قلوبَ العقلاء من مشايحه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه .

من أمثال ذلك ما ذكره عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بني هاشم، جليلاً وعقلاً، وصنيعاً، وكان يتخذ الخدمَ، كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا : كان له خادمٌ من آخر خدمه عنده، يقال له منصور، فوجد الخادمُ عليه فهرب إلى محمد، وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحيطى عنده حُظوةً عجيبة . فركب الخادم يوماً، في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيفاء، فترى بباب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يرى خدمَ العباس هيئته وحاله التي هو عليها، ولمع ذلك الخبر العباس فخرح إليه، وقامت معركة وكادوا يحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس، وهم أن يقتله، لولا وساطةُ أم جعفر من ناحيته، وأشتغاله بمحروج الحسين بن عليٍّ بن ماهان عليه وأصناماه إلى المأمون من ناحية أخرى .

ولموضوع خدم الخليفة وطاشيته، ذوى السلطان، من المقرّبين والرمعاء، والقادة والوزراء، بل الخدم والأماء، أسوأ أثر في تاريخ المدينية الإسلامية .



وهناك ظاهرة حُلُقية في أخلاق الأمين، وهي حُبُّه للاستحارة واحتفالُه بالبحث عن أمرٍ طالٍه، وركوبه، حتى في آخر لحظة من حياته وهي لحظة التقرير في مصيره أيسلم نفسه إلى طاهر أم إلى هرثمة، إلى مام رآه . وربما كانت هذه الحلة فيه، من أثر البيعة، كما أسلفنا، أو من روح العصر فيه، وإن كان أن ماهان قائده يحترقها . وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام أموره بالاستحارة ووحى الأحلام، بل كان يحمل جلّ اعتماده على مشورة رجاله وذوى النصيحة من أصداره .

على أنه ليس معنى ذلك أن الأميين لم يكن يستشير، ولكنه كان في كل شؤونه يغله هواه على وجه الصواب من أمره . وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيه السيئة السيئة، فكان لا يعمل مما يدل به إليه من نصيح . وحسبك دليلا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد، إذ يقول . « دخلت على محمد في حوف الليل، وكنت من خاصته، أصل إليه حيث لا يصل أحد، من مواله وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه، وهو يفكر، فسألت عليه، فلم يرد عليّ، فعدلت أنه في تدبر بعض أموره، فلم أزل واقفا على رأسه، حتى مضى أكثر الليل، ثم رفع رأسه إلى فقال : أحضرني عبد الله بن حازم، فضيت إلى عبد الله فأحضرته، فلم يزل في مناظرته، حتى انقضى الليل . فسمعت عبد الله وهو يقول . « أشدك الله يا أمير المؤمنين ! أن تكون أول الخلفاء بكث عهده، وقص ميثاقه، وأستحف بيمينه، ورد رأى الخليفة قلبه . » فقال : « أسكت لله أبوك ! فعُدَّ الله كان أفضل منك رأيا وأكمل طعنا، حيث يقول : لا يجتمع خلان في همه . » ثم جمع وجوه القواد، فكان يرض عليهم واحداً واحداً ما أعتربه بأبوه، ورعما ساعده قوم، حتى طلع إلى حريمه بن حازم، فشاورة في ذلك، فقال : « يا أمير المؤمنين لم يصحبك من كدك، ولم يشك من صدقك، لا تُحرر القواد على الخلع ويحلموك، ولا تجعلهم على بكث العهد فيكثوا عهدك ويبعثك، فإن المادر مخدول، والناكث مغلول ! » .

ولكن الأميين — كما قلنا — كان هواه يعنى عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقفا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته، وهم الذين كان رياضهم سما زماما، ونفاقهم ماء فتاكاً، وليس كلامهم حسكا وقناداً، والذين لم يخلصوا لملكهم أو بلادهم، فيما يدلون به من الآراء، وما يقدمونه من النصائح، وإنما يخلصون لعائل مصلحتهم، فزينوا له نكث العهد، وسهلوا له أمره، حتى أقدم عليه، وكان ما كان من النزاع على ما سطره لك في باب .

على أننا لا نغني بما ذكرناه لك الآن ، أن الأمين كان لبس الدخ ، وإنما معنى أنه كان ضعيف الإرادة ، عديم الثَّبة . ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك : من اعتقادنا توقد دهبه ، وفصاحه لسانه ، ومرر أيضا ، إحقاقاً للحق وإصفاً للتاريخ ، أنه كان بليغا ، متعهدا ، الى حد غير قليل ، قواده بالنصح والرأى ، فقد ذكر أحد معاصريه ، وهو عمرو ابن سعيد ، أن محمدا الأمين لما حارب باب حراسان تربَّل وأقبل يوصى على بن عيسى بن ماهان : «امنع جندك من العث والرعية ، والعارة على أهل القرى ، وقطع الشجر ، وابتاك النساء ، وولَّ الرئى ينجى بن على ، وأصم إليه حداً كثيراً ، وقره ليدع الى جده أرزاقهم مما ينجى من خراجها . وولَّ كل كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك . ومن حرج البسك من حد أهل حراسان ووحوها فاطهر لإكرامه ، وأحسن حائزته ، ولا تعاقب أحاً بأخيه ، وصنع عن أهل حراسان ربح الخراج ، ولا تؤم أحدًا رماك بسهم ، أو طمس فى أصحابك بريح» .

ولم تكن هذه الوصية هى الوصية الوحيدة للأمين فقول : طنة من عابث ، وإن هناك نائية وثالثة وهلم جرا . وما هو ذا أحد بن مزيد أحد قواده يجبرنا أنه لما أراد الشخوص فى مهمته ، دخل على محمد الأمين فقال : أوصى أكرم الله أمير المؤمنين ؛ فقال : «أوصيك بحصان عده : إياك والبعى ، وإبه عقال الدمر ، ولا تقدم رجلاً إلا باستحارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بصد إهذار ، ومهما قدرت عليه فاللن ، فلا تمتد الى الخرق والشر ، وأحسن صحابة من ممك من الجند ، وطالعتى بأخبارك فى كل يوم ، ولا تحاطر بنفسك طلب الزلعة عدى ، ولا تستقها فيما تخاف رجوعه على ...» الى آخر نصيحته .

ومن العدل أن نقرر أيضا أنه كان الى آخر لحظة من حياته محاولاً الانتصاراً ، باذلاً مقدوره فى الحرب ، ولكن عبته ولهوه كانا يقعدان به .

وكان طبيب القلب ، يصفو حتى عن الخارجيين عليه ، والمسيئين اليه . وإن موقعه مع حسين بن على بن ماهان المعروف مشهور . وكذلك موقعه مع أسد بن يزيد أحد قادته ، حينما طلب اليه أن يدع له ولدى عبد الله المأمون ليكونا أسيرين فى يده ، وإن أعطاه المأمون

الطاعة فيها، وإلا عمل فيهما بحكمه وأعد فيهما أمره! فقال له الأمين: «أنت أحرأى
محنون، أَدْعُوكَ إِلَى وِلَاةِ أَعْيَةِ الْعَرَبِ وَالْمَحَمِّ، وَأَطْعَمَكَ حَرَّاجَ كُورِ الْجِبَالِ إِلَى خِرَاسَانَ،
وَأَرْفَعُ مَنْرَتَكَ عَنْ طَرَاتِكَ، مِنْ أَسَاءِ الْقَوَادِ وَالْمُلُوكِ، وَتَدْعُونِي إِلَى قَتْلِ وَلَدِي، وَسَفْكَ دِمَائِهِ
أَهْلُ بَنِي! إِنْ هَذَا لَمُحَرَّقٌ وَالتَّحْلِيظُ! !

هذا الموقف البليل، دليلٌ على سلامة طويته، وطهر صحته. ولكن حفظه الحال،
وبحه الآمل، ورياء مشيريه، وصعف إرادته، وجور عزميه، وطمع وعيته، ونصيب
المغلوب من الدعوة عليه، والحيلة الموحهه اليه، قد صرت يجرأها على سيرته، فإذا بها شوهاء
مُرَرِيَّةٌ، وإذا بها مقصحةٌ بمعمره، حتى قيل فيه ما قيل مما يجلد بنا ألا نخل كتابنا من إنبات
معصيه .

حاء في الجزء السادس من كتاب ممداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور: «قال المأمون
لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب! صف لي أخلاق الخلو، قال: كان يا أمير المؤمنين
واسع الطرب، ضيق الأدب، يبيع نفسه ما تمناه هم ذوى الأقدار! قال: فكيف كانت
حروبه؟ قال: كان يجمع الكائن ويضها بسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال:
كما أسدائيت وفي أشداقها أعناق الكائن، وتسبح وفي صدورها قلوب المواقين،
قال: أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة، لست أنا ولا أنت راعهم
ولا حامسهم، وهم الفضل بن الربيع، وبكر بن المعتز، والسدي بن شاذك! هم واقه
نار أحي وعلم دمه...! » .

وقال المسعودي في التبيين والإشراف: «إن الأمين كان باسطاً يده بالعطاء،
قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سماً كاللداء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل
في جليلات الخطوب على غيره، ويتق بن لا يصحه، واستوزر الفضل بن الربيع، إلى
أن استر الفصل لما تبين من اختلال أمر محمد، ووهى أمره، فقام بوزارته من حوهر
من كتابه كاسماعيل بن صبيح، وعلب عليه عتة من الأولياء منهم علي بن عيسى، والسدي

ابن شاك، وسليمان بن أبي جعفر المصور . وقال غيره: « إنه كان كثيرَ اللهو واللعب، منقطعاً الى ذلك مشغلاً به، عن تدبير مملكته .

ويقول ابن الأثير . « لم يجد للأمين شيئاً من سيرة، نستحسنه مدركه . وهذا حق في حملته عن الأمين كدّر مملكة وحليفة ؛ وإن قُيِّعَ، لم يُثَقِّفِ الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصحح ذا سلطان مُطلق، في ملك كبير يشع ذوى المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشية من الدهاء، ذوى المطامع الواسعة، والأعراض الكبيرة : كالفضل بن الربيع، الذي أفسد ما بينه وبين أخيه، وبكر بن المعتمر الذي زَيَّن له حلمه، ثم هو فوق ذلك، يصرف الى حد كبير، عن معالجه تدبير الملك، الى اللهو، والى اللهو بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إصحاق أحد معاصريه : أنه لما أفصحت الخلافة الى محمد، وهذا الناسُ بعدد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالة واللب، فقال في ذلك شاعرٌ من أهل بغداد :

يحي أمينُ الله ميداناً * وصير الساحة بُستاناً

وكانت العزلان فيه مآماً * يُهدى إليه فيه عزلاً

يقول ابن مثل هذا القتي الذي يولى وجهه منذ الساعة الأولى الى مثل هذه الشؤون التي كان يحذر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبة الصيب الأول من عاينته واهتمامه، حليق ألا يجد المؤرخ له عملاً صالحاً في شأن من شؤون الدولة، وقيل، على ذلك أن يكون موصح استغلال كبير للدعوة المأموية .

وقال غير ابن الأثير : « كان الأمين فصيحاً بليغاً كريماً » . وكيف لا يكون تلميذُ الأحمر والكسائي وقطرب وحامد وغيرهم من حول اللغة وحفائذ البيان وأساتذة الأدب من مشهور ومظلوم فصيحاً بليغاً ! .

على أنه من الحق والعدل، أن نقرر أيضاً، أن هذه الصعوبات، تكاد تكون من سمات كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة العياشة . ومن أجل هذا، ذهبنا الى ما ذهبنا اليه، من

أن الأمين لم يكن كما صوروه لما من البله والسُحف ، ومن الجحول والبلادة . وعحال أن يكون كذلك ، وتصرفاته في بعض شؤون الدولة على ما وصفنا . وعحال أن يكون ليبدأ بفطرته وأستعداده ، أو حاهلاً عيياً ، لأنه في الدروة من الهاشمية . وأنت تعلم مقدار آهتاهم الخلفاء العاسيين ، والأمراء الهاشميين ، والثقافة الأدبية ، كما ينال ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية في العصر العاسي . وإنما طروفت حياة الأمين ، والبيئة التي أحاطت به ، وما إلى ذلك مما فصلناه لك ، جعلت صورة الأمين كما أراها التاريخ ، ثم هي في الوقت نفسه حنحت به إلى الاستهتار وإلى الصيت والمجانة .

وقد يكون أحسن ما نمحتم به كلمتنا عن تحليل الأمين وسيرته ، وأصدق وصف له ، مادكره المصل بن الربيع ، وزيره وورير أبيه من قلبه ، والذي سعرض لشيء من دقيق تصرفاته ، وحكيم تدبيراته ، عند ما عرض لتفصيل النزاع بين الأمين والمأمون ، فهذا الوصف ربما كان أقل تحاملاً من غيره على الأمين ، وربما كان حياً من سواه في تصوير الأمين وتحليل أخلاقه وعصبته .

ذكر الطبري : « أن أسد بن يزيد بن مزيد حدثه أن المصل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأباري ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه ، وحدثه قاعداً في محض داره ، وفي يده رقعة قد قرأها ، وأحمرّت عيانه ، وأشتد عصبه ، وهو يقول : يام يوم الطريمان ، لا يهكرى زوال سمية ، ولا يفرقى إمصاء رأي ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحُه ، فهو يجرى في طوره ، والأيام تسرع في هلاكه ، قد شتم عياد الله له عن ساقه ، وفوق له أصهب أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحنف الباهد والموت القاصد ، قد عني له المايا على متون الخليل ، واط له البلاء في أسه الرماح وشعار السيوف ، ثم استرجع وتمثل بشعر البعيت :

وتجسّدولة حذل الصان خريدة • لها شمر جعد ووجه مقم
وتشرقي اللون عذب مذاقه • نقي له الظلماء ساعة ينم

وتديان كالحقين والطن ضامر . تحيص وحنر ماره تنصرم
 لموت بها ليل التمام ابن خالد على ممر الرود عيظا تحرم
 اطل أناعيا ونحت ابن خالد أمية نهذ المركلين عنهم
 طواها طراد الخيل وكل عاريه * لها عارض فيه الأسة تزيه
 يقارع أتراك ابن حاقان يله * الى أن يرى الإصباح لا يتعلم
 يصبح من طول الطراد وجسمه * نجل وأصفي في العيم أنهم
 مشان ما بيني وبين ابن خالد * أمية في الرزوي الذي الله قاسم

م التفت إلى فقال : « يا أبا الحارث، إما وإياك لجرى الى عاية، إن قصرنا عنها
 دُحما، وإن اجتهدنا في بلوعها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل، إن قوى قويا، وإن
 ضعف ضعفنا، إن هذا قد ألقى بيده، إلقاء الأمة الوكهاء، يشاور النساء ويعتم على
 الرؤيا، وقد أمكن مسامحة ما معه من أهل اللهو والحسرة، فهم يعدونه الطمر، ويمثونه
 عقب الأيام، والمهلك أسرع اليه من السيل الى قيعان الرمل . وقد خشيت والله أن
 نهلك بهلاكه ونمطب بمطبه ! » .

الفصل الثنائي

المأمون

توطئة - مولده - نشأته وأحلامه .

(١) توطئة :

لننتقل الآن الى حداثه المأمون ، ولننص في دراستنا له هس الطريقه التي ترسمها حين دراستنا لحداثه الأمين ، فتكلم عن مولده ، كما نتكلم عن نشأته وأحلامه ، محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخيه في هذا الصدد ، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعاب وإمعان ومقاربه ومواربه بما تقتضيه المقام من إحمال وإبجاز .

(ب) مولده :

ولد عبد الله المأمون ، لأربع عشره ليله حلت من شهر ربيع الأول ، سنة سبعين ومائة هجرية ، وهي التي استعطف فيها الرشيد ، فلما نُشِرَ بمولده سرته سروراً عظيماً ، وسماه المأمون تيمناً بذلك . وأمه أم ولد بادعشيه تسمى «مرآجل» وقال : إنما نمتُ الى أسره عريقه في المجد من الأسر الفارسيه .

نشأ المأمون في حجر الخلاه ونهياً له من وسائل التربيه والتنشيف ما لم ينهياً إلا لأحبيه الأمين . وكانت ظاهره عليه مخاض الحايه والدكاه وسد الهمة والتعالي بنفسه عن سعياف الأمور .

ومع كبر سن المأمون ، وظهور هذه الخلال فيه ، وثقه الرشيد به ، ومحبه له لم يتح له ما أُتيح للأمين ، من البيعه بولاية العهد ، إذ كان لأم الأمين من المكانه لدى الرشيد ، وهي زوجه ، ما لم يكن لأم المأمون . وقد سبق أن بينا لك ، في كلامنا على الأمين ، ما قام به أخواله من المسعى الموفق ، في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد ، لأبن أختهم ،

وما قام به الفضل بن يحيى فى نراسان : من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أماً الأمر الواقع، فأعلى بولاية العهد للأمين راضياً أو مُكرهاً .

(ج) نشأته وأخلاقه :

وكل الرشيد كماله المأمون، والنظر فى شؤونه، ومراقب أحواله، حمير بن يحيى وزيره، كما جعل الأمين، فى كفالة الفضل أنى حمير . ونحن نحس، عدد ذكر كفالة الفضل للأمين، إحساساً قد لا يعدو الواقع كثيراً، أدب هذه الكفالة، وبين إعلان الفصل، بولاية العهد للأمين فى نراسان، صلة .

فلما نما المأمون وترعرع، أحد المؤرّخون بدكروا لنا من مظاهر بحايته وحرية، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بى كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجرى حوله من شؤون وأحوال، مما سقّصه عليك، ما ينبى بما سيكون لهذا العلام من شأن عظيم . ولعل أظهر ما يدل على بحايته المأمون فى صباه ما يقصّه علينا التاريخ عن أبى محمد اليزيدى مؤدبه الذى يقول « كنت أؤدّب المأمون، وهو فى كماله سعيد الجوهري، بفت دار الخلافه، وسعيداً قادم اليها، فوجهت الى المأمون بعض حديمه يعلمه بمكانى، فأطاعنى، ثم وجهت آخرافاً، فقلت لسعيد : إن هذا الفتى ربما تشاعل بالبطالة وتأنر، فقال : أجل ! ومع هذا فانه اذا فارقك تعرّس على حديمه، ولقوا منه أدب شديداً، فقومه بالأدب . فلما خرج تناولته بعض التاديب، فانه ليدلّك عينيه من البكاء، إذ قيل : جعفر بن يحيى الوزير قد أقبل، فأحد مندبلاً مسح عينيه وجمع ثيابه، وقام الى فراشه فقعده عليه متربهاً، ثم قال : ليدخل . فقامت عن المجلس، وخنفت أن يشكونى اليه، فالتى منه ما أكره . قال : فأقبل عليه بوجهه وحدته حتى أحسكه، وضحك اليه . فلما هم بالحركة، دعا المأمون بدابة جعفر ودعا غلماناً فسعوا بين يديه، ثم سال عنى بفتى، فقال : حدّ على بنية حربى ! فقلت : أيتها الأمير، أظال الله بقاكن ! لقد خفت أن تشكونى الى حمير

ان يحيى، ولو فعلت لتَنَكَّرَ لى، هال تَرَأَى يا أبا محمد كست أطلع الرشيد على هذه ! فكيف بحميرى يحيى حتى أطلعه على أى أحتاج الى أدب ! حد فى أمرك، عافاك الله ! فقد خطر سالك ما لا تراه أبدا، ولو عدت الى نادى مائه مره !

وكذلك مما يدل على دكاء المأمون، وثقوب بصريه، وأصانته وحصانه، بمد نعمه أطعماره، ومبغى صباه، ما يحكى من أب أم حميرى عانت الرشيد، فى تفریطه للمأمون، دون الأُميين ولدها، فدعا حادما وقال له : وَحَهْ الى الأُميين والمأمون حادما، بقول لكل واحد منهما على الحلوه ما تفعل اذا أفصت الخلافة اليك " فأما الأُميين فقال للخدام : أَقِطْعُكَ وَأَعْطِيكَ، وأما المأمون فابه قام الى الخادم بدواه كاس من يديه وقال : آتْسَانِي عما أَهْلُ بك يوم يموت أُمير المؤمنين وحليفه رب العالمين ' إلى لأرحو أن نكون جميعا فداه له ! فقال الرشيد لأُم حميرى : كيف رَئِيتَ، فسكتت عن الجواب .

وأعدل الشواهد على تقدير هذا العلامة لنفسه، كأمير وآبى حليفة، وشعوره بما له من منزلة اجتماعيه حاصيه، وبما يسعى أن يكون له، فى هوس الساس من إحلال واحترام، وما يحب لمثله، فى آداب التحية وحسن الخطاب، ما حبه به الحسن اللؤلؤى، وهو الذى اتخذه الرشيد مؤقبا للمأمون، بعد أبى محمد البربرى، حين كان يطارحه شيئا من الفقه، وأحدث المأمون يسه من اليوم، فقال له اللؤلؤى : مَتَ أبا الأُمير فقال المأمون : سوقى ورب الكعبة حدوا سده ! هاء العاهان فأقاموه . فلما بلغ الرشيد ماصع قال ممثلا : وهل يُنْبِتُ الحَقْلُ إلا وشيحه . وتُعَرَّسُ إلا فى مانتها العُلُ

ويتحدثنا التاريخ أيضا عن المأمون صبيا، أن الرقاشى هاه حين مدح الأُميين بقوله :

لم تلبده أمة تُعرف فى السوق الثمارا

لا ولا حد ولا حار * ن ولا فى الحزى حارا

يعرض بالمأمون، لأن الرشيد كان قد حدّه فى حارية أوى حمير .

ومهما يكن من شىء، فى صبا المأمون، فقد كانت ظاهرة فيه، غايل الجاية والذكاء

والحزيم، وحسن التدبير وجوده الحُدىس، والطموح الى الكمال ..

وقد محمد الذي يدهون ، الى أن في تلقيح الأحاسن محسباً للنوع ، حمّة طاهرة
في المأمون لمدهم ، إذ لا تُعِيرُهُم الوسيلةُ في أن يرجعوا نحاسته الى أنه من أمّ فارسية وأب
عربي ، أو بعاره أخرى . الى أنه قد جمع بين الدم الآري والدم السامي .

هذه المحامِلُ حبته الى الرشيد ، وحصلته يقدره قدره ، بجعله وليّ عهد الخلافة بعد
أبيه الأمين ، وجمعت حوله طائفة من دوى الهمم الشماء الذين توسموا فيه محققا
لأطماعهم الواسعة .

ومن أظهر هؤلاء الذين التمسوا حوله ، لتحقيق مآطمعهم ، الفصل من سهل الذي ائتمد
بمجي من خالد البرمكي وسيلة الى الرشيد . في أن يكون في خدمه المأمون . وحسبك أن تعلم
من أمر الفصل هذا ، أنه القاتل حين سئل عن السعادة : إنها أمر حائر وظلم نافده ! .
وأنه الذي قال له مؤذّب المأمون يوماً في أمام الرشيد : إن المأمون بليلُ الرأي منك ، وإني
لا أستمد أن يحصل لك من جهة . ألف ألف درهم ، فاعاط من ذلك وقال له : ألك
على حقدٍ الى اليك إساءة ' فقال المؤذّب . لا والله ماقلت هذا إلا محبة لك ' فقال :
أقول لي . إنك تحصل منه ألف ألف درهم ' والله ماصحته لأكتسب ما لا قىل أو حل ،
ولكن صحته ليصيّ حكم حاتمى هذا في الشرق والعرب ! قال . والله ما طالت المدة
حتى يلع ما أمل .

حسبك أن تذكر لك هذا ، من أمر الفصل من سهل . لتعلم ما لهذا الرجل من هم
وتأني ، وعزيمه مرهية مَصَاه ، ومطامع واسعة . وحسبك أن تذكر لك ما وضعه به أحد
معاصريه وهو إبراهيم بن العباس لتقدر الرجل وتقدر كفايته . قال

بعض الأمور على بدنه * وزنه مكرته عواقبها
ويطبل يُصْدِرُها ويورِدُها فعم حاصرُها وعائنها

(١) كتب أستاذنا الشيخ عبدالوهاب الحارثي هذا ما صعد « كذبت كان الرشيد » كان يجمع بين الدم الآري
والدم السامي . مهل التحسين يجمع في الطبقة الأولى فقط ويسد في الثانية * ومع هذا فان حورثاف لورون يخالف
هذا الرأي على اطلاعهم ويقول : إن أمة كل أفرادها مولدون لاساس ويطلق ذلك تصدر السطاي والحصال
والعقائد التي يرتبها من أويها واضطرابها في منه » .

وَإِذَا الْمُنْتِ صَعَةً عَطَمَتْ * فِيهَا الرِّزْيَةُ كَانَ صَاحِبَهَا
 الْمُسْتَقْلُ بِهَا وَقَدْ رَسَبَتْ وَلَوَتْ عَلَى الْأَيَّامِ جَانِبَهَا
 وَعَدَّتْهَا بِالْحَقِّ فَاغْدَلَتْ * وَوَسَّعَتْ رَاعِيَهَا وَرَاهِبَهَا
 وَإِذَا الْخُرُوبُ بَدَتْ مَعَتْهَا * رَأْيًا تَحُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
 رَأْيًا إِذَا نَبَتِ السُّيُوفُ مَضَى * عَزَمَ بِهَا فَشَقَى مَصَارِبَهَا
 وَإِذَا الْخَطُوبُ تَأَلَّثَتْ وَرَسَتْ * هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
 وَإِذَا جَرَتْ بِصَدِيرِهِ يَدُهُ * أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

يقول المعري قالوا لما رأى رأى الفصل بن سهل بحفاة المأمون في صباه، ونظر في طالعها، وكان حبرا سلم الحوم، فدلت الحوم على أنه سيصير حليمة، لم حاجته وحده ودبر أمره، حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون، إلى حرته بالحوم، أم إلى جودته حذسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته تحقيق آمال كبار، رأى بكاسته وحده في بحافة المأمون حبر كميل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون العطري مد نشأته أن يكون رجل جماعة، وقائد أمة، إذ قد حَبَّتْ الطبيعة فيما حته من شتى المواهب موهبة الخطابة والتميز فيها. فقد أحبرها محمد بن العباس اليزيدي قال حدثني عمي عبد الله وأبني أحمد قالا: لما بلغ المأمون وصاري حد الرجال، أمرها الرشيد أن يعمل له حطبة يومها يوم الجمعة، فعلمنا له حطبة المشهورة، وكان جهر الصوت، حسن اللهجة. فلما حطب بها رقت له قلوب الناس، وأبني من سمعه، فقال أبو محمد اليزيدي يمدح المأمون:

لَتَهْنِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَرَامَةً - عَلَيْهِ بِهَا شُكْرُ الْإِلَهِ وَحُوبُ
 مَنْ وَلَّى الْعَهْدِ مَأْمُونٌ هَاشِمٌ * بَدَأَ فَصَلُّهُ إِذْ قَامَ وَهُوَ خَطِيبُ
 وَلَمْ رَمَاهُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ حَايٍ * مَصَارِيحُ وَالْعُودُ مِنْهُ صَلِيبُ

رَمَاهُمْ يَقُولُ أَصْنُوْنَا عَمَّا لَهُ • وَفِي دُونِهِ لِلسَّامِعِينَ عَجِبُ
وَلَمَّا وَصَلَ أَذَانُهُمْ مَا أَتَى بِهِ • أَنَابَتْ وَرَقَتْ عِندَ ذَلِكَ قُلُوبُ
فَأَبْكَى عِوْنَ النَّاسِ أَلْعُوعًا وَاعْيَظُ • أَعْرَضَ بِطَلْحَى النَّحَارَ تَحِيْبُ
مَهِيْبُ عَلَيْهِ لِلوَقَارِ سَعِيْهِ • حَرَى حَنَانٍ لَا أَكْغُ هَيُوبُ
وَلَا وَاجِبُ مَوَى الْمَسَارِ قَلْبُهُ • إِذَا مَا اعْتَرَى قَلْبَ الْعَجِيبِ وَجِيبُ
إِذَا مَا عَلَا الْمَأمُونُ أَعْوَادَ مِثْبَرٍ • فَلَيْسَ لَهُ فِي الْعَالَمِينَ صَرِيْبُ
تَصَدَّعَ عَنْ النَّاسِ وَهُوَ حَدِيثُهُمْ • تَحَدَّثَ عَنْهُ نَازِحٌ وَقَرِيْبُ
شَيْءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ حَرَامَةً • إِذَا وَرَدَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ خُطُوبُ
إِذَا طَابَ أَصْلُ فِي عُرُوقِ مِثَابِهِ • مَا عَصَاهُ مِنْ طَيْبِهِ سَتِيبُ
قُلْ لِلْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي لَهُ • يُقَدِّمُ عُدَّ اللَّهِ فَهُوَ أَدِيْبُ
كَأَن لَمْ تَبْ عَنِ طَلْعَةٍ كَانَ وَالِيَا • طَلَبَهَا وَلَا التَّذِيرُ مَكْ مِيبُ
تَنَجَّ مَا يُرْصِيْكَ فِي كُلِّ أَمْرِهِ • سِيرَتُهُ شَخْصٌ إِلَيْكَ حَبِيْبُ
وَرِثْتُمْ بِي الْعِصَاسَ إِرْثَ مُحَمَّدٍ • فَلَسَ لِحَى فِي الثَّرَاثِ نَصِيْبُ

فلما وصلت هذه الأبيات إلى الرشيد أمر لأبي محمد بحسب ألف درهم ، ولأبيه محمد
ابن أبي محمد بمثلها .



« وبعد ، » فليس من شك في حماية المأمون وتبرزه . ولعل هذه العناية الحارقة ،
كانت من الأسباب التي حملت الرشيد ، على أن يستوثق له الأمر في ولاية العهد من أخيه ،
ولأخيه منه ، بجمعهما في بيت الله الحرام ، حين حج عام ست وثمانين ومائة ، ومعه بكار
رجال الدولة ، وحل الطاهرين من الأسرة المالكة ، واستكتب كليهما عهداً بما له وعليه
قبل الآخر ، وأشهد عليهما جماعة من دوى المكانة والعمود ، ثم علّق العهدين في الكعبة ،
ليكوما في مكان الاحترام الديني . وقد أثبتنا لك العهدين في باب المنشور من الكتاب الثالث
في مجلدنا الثالث .

نقول : اهل هذه الحابة الحارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل ، من استئثار الأمر بين الأخوين ، خوفاً على المأمون ومعه . ولما نكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه : من أن الرشيد كان يُقدّر قوّه حربيّ المأمون والأمين ، ومباريه أخرى ، حربيّ الفرس والعرب ، أو العلوية والهاشمية ، أو الشيعية والسنية .

وعن لا نستطيع أن نزع مظاهر العطف المحتلّه ، وفي مناسبات كثيرة من الرشيد على المأمون ، إلى الأتوه وحدها ، فان للرشيد أولاداً غير المأمون ، وغير الأمين ، لم يالوا شيئاً من هذه الخطوة العظيمة لديه . لذلك نرى — وقد ترى معنا رأياً — أن هذه الخطوة ، التي يالها المأمون من الرشيد ، في مناسبات كثيرة ، دون إخوانه ، ترجع إلى ما امتاز به المأمون ، من نخاية حارقة ، وميل إلى حدّ الأمور ، وترفع عن سماسها ، وسمو عن دنايها ، واصطلاح بما يكلف القيام به من أعاء ومهام .

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ، ما فعله الرشيد حين وافته ميتته "طوس" ، من وصيته بجميع ما كان معه ، من جيد سلاح ومالٍ للمأمون ، دون أن يكون تخليعه من بعده ، ليشدّ بذلك من أزر المأمون ، ويقوى من حانته . وأنت حدّ عالم بما قدّمناه لك من الكلام في العصر الأمويّ ، عن أثر المال فتقدّر مما ما كان يرومه الرشيد ، ولست في حاجة لأن أقول لك ، إن أثر المال وسلطانه في هود الكلمة ، وقوة الشوكة ، دونه كل أثر وكل سلطان !

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيراً ، حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحذر الخلاف بين الأخوين ، ويحاف كليهما على الآخر : يحاف الأمين على المأمون ، لأن الأمين سيُصبح الخليفة الذي بيده قوّه الدولة من جيد ومال ، وتصحبه مزايها من عظم الهيبة وهود الكلمة ، وسيكون مطمح آمال الأمين وموضع رجاء الراعي .

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعاً ، أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفون حوله ، رغبة أو رهبة . وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُحتسب ويُتقى .

ويحاف المأمون على الأمير، لأن ما امتاز به المأمون، من نجابة حارقة، وحدّ وحكمة، وعرفان بشؤون الحياة وأصطلاح، واعتداد بنفسه، يحصل منه خطراً شديداً على الأمير جديراً بأن يحشى ويبقى أيضاً . ويظهر أن كل هذا وقرى نفس الرشيد الذي كان معروفاً الحزم وحوّده الحديث، وقوة البصر بالعواقب، فأراد أن تنقيه، ورأى أن جبر وسيلة لانقائه، أن يستكتبهما المهدين، كما قدما، ويقطع بذلك أسباب الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دس الدسائس، وسعاية الساعين، ويهزم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمه وتوقير .

غير أن تصرفات الأيام، وآثار الطغاة، ونتائج السعاية، ومعات الرياح والعاو، كانت هوى ما كان يقدر الرشيد، فوقع الخلاف بين الأخوين أعف ما يكون . ولم يكن ما اتحد الرشيد من وقاية وحيلة ليصدّ سياره الجارف .

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق في اختيار حاشيته ومشرّبه، فجمع حوله طائفة من ذوى الدهاء والحكمة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوى المطامع والأعراض، قد أحلصوا له الصبح، وثقفوه التثقيف الذى يكفل له النجاح، فان تحقيق أطماعهم الواسعة، وقوف على نجاحه . فإحلاصهم له إحلاص في الواقع لأنفسهم أيضاً . ولما كانت أم المأمون فارسية فرما حار لنا أن نقول : لعل لكونها فارسية أثرا في أن نخلص له هؤلاء المشبرون إذ كانوا كلهم من الفرس واد كانت له بهم هذه العراة .

وهذا يعسر لنا عاطفة من عواطف المأمون، وهى ميله الى حراسان . ونعصه بعض التعصب للحراسانيين، إذ يتحدثنا التاريخ أن رجلا من الشام عرض طريقه مرارا وقال « يا أمير المؤمنين ، انظر لرب الشام كما نظرت لعجم حراسان ، فقال له . أكررت على واقه ما أنزلت قيسا عن ظهور حيولها إلا وأما أرى أنه لم يسق وى من الى درهم واحد ، يعنى فقه آبن العامرى ، وأما البمن فواقه ما أحبها ولا أحنى قط ، وأما قصاعة فساداتها تنتظر السمياني حتى تكون من أشياعه ، وأما ربيعة مساحطة على ربهها

مد بعث الله^(١) به من مصر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارباً . اعرف ! فقل
الله بك ! »

وإيه ليحوز لنا أن نرجع هذا الميل، لا الى ما ذكره المأمون وحده، بل الى التربية وأثر
البيئة الفارسية في نفسه ، وإلى مقابلة حسن الصنيع بمثله ، فأم المأمون فارسية ، والدين
كفاهو وقاموا بتنقيحه فارسيون، والدين أحاطوا به وبصروه فارسيون . ومن هنا نستطيع
أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين المرنجيه : إن انتصار المأمون على الأُميين كان
أيضا انتصاراً للعرس على العرب، كما كان انتصاراً للعرس على العرب انتصاراً للعاسيين على
الأمويين . ومن هنا نستطيع أن نعلم أيضاً ما ذهب اليه بعض الباحثين . من أن المأمون
كان شيعياً وهو عباسي ، لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حد كبير قليلة مهددة
التشيع للعلويين ، ويحور أن تكون قد صبغت المأمون بشئ من ألوانها ، وقد كان لذلك
آثاره ، لا في السياسة و نظام الملك حسب ، بل في الآراء والمذاهب مما سذكره حين عرض
للکلام على الخليفة المأمون .

ولعلنا نكون بما قدمناه لك عن شأن المأمون وصاه ، قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا
الأمير الذي سبكا كفاها شديداً في سبيل الملك ، والذي كان له أكبر أثر في الحضارة
الإسلامية .

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه ، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر
بالسياسة ، وحوته الخدس ، وكفاهة الطائفة ، وشفقه بالمعلم والأدب والجدال ، وما كان
لهذا الشغف من ثوره علمية وفكرية وكلامية في عصره ، فسرجى الكلام فيها الى موضعها
من كتابنا ، وهو الكلام على الخليفة المأمون ، بعد أن استقر له الأمر في بغداد ، وحين
صبغت فيه هذه الخلل وآتت كل ما لها من ثمرات .

(١) في اس الأثير (سائنا) وهو علط ، والصحيح ما أنشأه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار . والشرارة

الفصل الثالث

النزاع بين الأميين والمأمون

توطئة — بيعة الأميين وحلّاه — سداً البراع وكيف تحوّل — الوعود السياسية — هود الرأى العام واستمرار الوعود السياسية — اعلان الحرب — انتصار الخووش المأمونية ومقولات الشعراء — عود على بدء .
مجهودات الأميين في سبيل العود — الثورة وحطّاقها — قبل الأميين .

(١) توطئة :

عرفت مما ذكرناه لك في مجل كلامنا عن الرشيد والأميين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأميين في سنة ١٧٥ هجرية، وسن الأميين فيما قيل وقتئذ خمس سنين، ثم أشرك معه المأمون في ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أحبه سنة ١٨٦ هجرية وهو عام حج الرشيد : بأن استكتب كلا منهما عهداً بما عليه وله قبل الآخر، وعلّق العهدين بالكعبة كما قلنا .

ويؤخذ من نصوص العهدين، وما نؤدل بعد ذلك من الرسائل بين الأميين والمأمون، مما سورد لك بعصه لما نصمته من «الديلواماطيقه العباسيه» : وهى نين في حرم، وتينيس في تأميل طويل الأهل، - ويؤخذ منها أن حراسا وبواجبها الى الرى كالب تحت إمرة المأمون، تنصرف في جميع شؤونها، من سياسيه وحرسيه واقتصاديه ومصائبه نصرقاً تاماً، لا ترتبطه محاصره الحلاه إلا رابطة الدعاء للخليفة . وقد صارت اليه إمرة هذه الواحى في عهد الرشيد، وهى من الأمور التى أحد الأميين بالوفاء بها، فيما أحده من عهود ومواثيق .

وكان الرشيد قد أشرك في سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخوه في ولاية العهد، وحمل من نصيبه العمل على الشام وقدير برّ والمواصم والتهور .

وكانت الأمور جارية محرّاه الطيبي آحر أيام الرشد، ثم شطراً كبيراً من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء، طوى عليها المأمون كسماً، دُرْبَةً مِنْهُ وسياسةً، وحصافة ويكاسه، وتريناً وتغلاً، وحرامةً وتمهلاً .

ولم تنقص السنة الأولى من خلافة الأئمين حتى كآب الدسائس قد عملت فعلها، وحتى كآب المامسة العيفة بين البطانتين قد بلغت عايتها، وأحد كل من الأخوين يحذر أحاه ويتقيه، وآمناآت الصدور حفاظ وإحآ، ولم سق إلا أب تلمس تنصحر . وسعصل لك كل ذلك تمصيلًا .



(ب) بيعة الأمين وخلافته :

لما خرج رافع بن الليث بن صربر سيار محراسان، وكنف أنصاره، وقوبت شوكنه، وعظم حطره، رأى الرشيد أن يرحب اليه بنفسه لمحارسته وتسكين حبل الأمن الذى اضطرب فى تلك النواحي . فأصابه من مشاق السفر، وتغير الطقس، وشدة التمهكر، ما أعلّ محته . وبذا له من ظروف الأحوال ما حمّله على تحديد البيعة للمأمون، الذى كان يبرو، وأوصى أن يصير ما معه، من قواد وحيد وسلاح ومال الى حاسه، وأحد المواشقى على من معه أن يؤفوا بهذه الوصية .

ثم أخذت تشتد به العلة، حتى وافقه مبييه بطوس سنة ١٩٣ هجرية . ووبج للأئمين بالخلافة، فى عسكر الرشيد، ووصله بى الرشيد فى معداد يوم الأربعاء لآرع عشره ليلة، حلت من حمادى الآخرة، وقيل ليلة الصف من هذا الشهر، فكمّ الخبر بقة يومه وليته، ثم أظهره يوم الجمعة .

(١) هو حميد صربر سيار آروال لى أمية حراسان اذ دالت بعد ذلك دولتهم . وسب خروج رافع هذا أنه طمع فى رواج امرأة يحيى الأشعث بن يحيى الطافى لشرفها ومالها وكانت مماسة لزوجها، فحملها على أن تمل الكمر لتطلق ثم تزوج بها . فلع أمره الرشيد الذى كلف سامله أن يهزق بينهما وأن يماقب رافسا ويحمده الحد ويقيده ويظوف به فى مدينة سمرقند مقبداً على حمار حتى يكون علة لميره . فدرأ عنه السائل الحد وطاف به ثم سمحه فهرب من الحس طارده عمال الرشيد . وما زال أمره يشتد حتى اضطرب الرشيد الى الذهاب اليه بنفسه .

ويحدثنا التاريخ أن الأميين لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد، وتوقع وفاته، بعث بمرسول المعتمد رسولاً إلى مقر الحليفة، ليؤا فيه بالأحبار كل يوم . وكتب معه كتاباً، وحملها في قوائم صناديق مقورة، ألبسها حلد القرم، ليخفي أمرها، وكلفه ألا يظهر أحداً على شيء من أمره، وما توجه فيه ولو قتل، حتى إذا بعد أمر الله في الرشيد، دفع إلى كل من له كتاب كتابه . فلما وصل رسول الأميين، راب الرشيد قدومه، فسأله عما جاء به، فلما لم يجد في جوابه ما يُزيل ربه، أمر سفتينه وحبيه . ولعلك تعجب لئب الصواب، أولاً تصدوه كثيراً، إذا افترقت أن هذا الرتب الذي حامره من رسول الأميين، كان من العوامل إلى حملته على تحديد البيعة للمأمون، وأن وصى له بما معه من جيد وسلاح ومال .

لث رسول الأميين في الحبس شهراً، إذ ناربح الكتب التي يحملها إلى من أرسلت إليهم شوال سنة ١٩٢ هـ . ووفاء الرشيد كان في جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ . ثم بدا للرشيد أن يحمل مكرراً على الإقرار، فكلف الفصل الرابع من الريع ذلك، وأن يهتده بالموت إذا لم يقتر . وقد حالت وفاة الرشيد في ذلك اليوم، دون تمام هذا الإقرار . ثم لما وقع الرسول من وفاة الرشيد دفع إلى كل كتابه .

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه إلى أخيه المأمون وكتابته إلى أخيه صالح في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب، لما لها من حظ في موضوع النزاع، فاهما يدلان على أن الأميين لم يكن ليكتسبوا عقد من عهود ومواثيق، وإنما سلطانة السوء هي التي زينت له أن يفعل ما فعل، فراجعهما ثمة . وتأمل طويلاً فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين الأشقاء، والرعاء، والأمراء، وما نخره على البلاد من انتشار العقد وتشتت الشمل، وتشتت الألفة، وفرقة الجماعة، وسريان الفتنة وذبوع الفوضى، وانتشار الاضطرابات، وإدلاج ميران الثورات، ومن ترجيع كفة الأشرار على الأبرار، إلى غير ذلك من شتى النتائج السيئة، والعواقب المهلكة، التي سحلتك عنها، وستراها واضحة جليلة في كلمتنا الآتية .



(ج) مبدأ النزاع، وكيف تقلب، ونتيجته :

قد تطلب الى ، وفكك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب، من أثر في نفوس من أرسلت اليهم ، وإن شاف عليك، جيبك الى سؤالك ، محيلك الى الطبرى في هذا الصدد إذ يقول :

”لما قرأ الدين وردت عليهم كتب محمد طوس، من المؤاد والجيد وأولاد هارون، تناوروا في الحاق محمد، فقال العصل بن الربيع : لا أدع ملكاً حاصراً لا تحل يدرى ما يكون من أمره، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، محبه منهم للفوق بأهلهم ومنازلهم سعداء، وتركوا اليهود التي كانت أحدث عليهم للمأمون “ .

أما المأمون - بعد أن انتهى اليه بمرور حبر نكت العوم لليهود الى أحدث عليهم ، وهايرهم الى بغداد مما كان الرشيد أوصى بأن يكون له ، من حديد ومال وسلّاح - فقد اجتمعت كلمة الرواه على حسن تقفله وسرعة مادرتة لشئ أموره، وأنه شد لها حيازيمه، وحسرها على ساقه . ويحتشأ التاريخ أنه قد جمع من معه من قواد أبيه، وأخبرهم الخبر وشاورهم في الأمر، فأشاروا عليه أن يلحق القوم في ألبى فارس ، ويحول بينهم وبين ما أرادوا .

ولكى المأمون عمل مشوره العصل بن سهل ، الذى كان يثق به ونكايته ، ويؤم بكاسته وحسن سياسته ، ويقنع بثقوب نصره وصدق نظره ، فقد قال له الفضل : إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هديةً الى محمد ، ولكن الراى أن تكتب اليهم كتاباً، وتوجه اليهم فندكرم البيعة، ونسلم الوفاء ، ونعدهم الحث وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك، فنستبرئ ما عدا القوم . وتوجه سهل ابن صاعد - وكان على قهرمته - فانه بأملك، ويرجو أن ينال أمهه ، فإن بالوك نصحا، وتوجه معه نوفلا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين ، وكان عاقلاً . فلم ير المأمون، وهو

الحاذق الفطن، ندحة دون صدوره عن رأى ابن سهل، فكتب كتاباً ووجه من أشار بهما الفصل الى القوم ملحقهم سهاور، فقال الفصل بن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرا متعللا: "إنما أنا واحد منهم" ! وقد مال بعضهم من المأمون وأغلظ لرسوله، ثم رجع الرسولان بالخبر.

وكان ممكنا، بعد أن طوى المأمون كشفاً على ما وقع من القوم من نكث للمهود واعتصاب لما أوصى به الرشيد له. من حيد ومال وسلاح، وبعد أن أحد يهيدى الى أخيه حيرما وصلت اليه يمساء من تحيف نراسان وهائيهما، أن تسير الأمور في محراها الطبيعي، وأن يستقر الأمر بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن طاعة الأيمن أوفرت صدره على أخيه، ولولا أن طاعة المأمون حمزته الى مقابلة العدوان بمثله، وأضمت قلبه ثقة بالثقة والظفر وإيمانا بالصوز والجمع.

وإن كلمة الفصل بن الربيع "لا أدع ملكا حاضرا لآخر لا يدرى ما يكون من أمره" فيها العنية والكفاية في تعميمها الأساس الذي يثبت عليه تصرفاته بين الأخوين، فهو بنظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفل ببيع ولا عهد، ولا يكثر لوحدة قومية ولا يحصل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاة ولا وداية، وإنما همه الملك الحاضر، والإيمان في إرضاء الملك الحاضر.

كذلك كانت حال الفصل بن سهل في موقعه مع عداقه المأمون ! ومهما كانت صورة المأمون التي صورتها لنا التاريخ بأنه المطلوب على أمره، في الزراع الذي نشب بين الأخوين، وأن الأيمن هو الناكث القادر، ومهما كانت القلوب الإنسانية تحو على المظلوم وتعطف على المظلوم — مهما كان كل ذلك، مما يحملنا نستطيع تصرفات الفصل ابن سهل مع المأمون، بل مما يدفعنا الى الاقتراب بها وعزوا الحصافة، والأصالة، والكياسة، الى صاحبها، وأن ليس هناك من هو أنهد منه في مثل مواقفه ولا أجرى، ولا أحكم من تديراته ولا أوفى، ولا أرهف غرارا من عزيماته ولا أمضى، ولا أقدر منه

في حُطَّطِهِ وَلَا أَعْيَ، يَبْدُ أَمَا مَعَ ذَلِكَ، إِذَا جَرَّدَا الْعَسَّ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ بَعْضِ صِفَاتِهَا، وَطَرَا "رَدُّدٌ" — عَلَى حِدِّ التَّعْبِيرِ الْإِنْجَالِيَّةِ — وَبَجْدِهِ وَنَصْفِهِ مِنْهُ وَلَهُ، فَمَا نَقَرُّ، مِنْ عِبْرَانٍ عَدُوَّ الْحَقِّ وَالْوَاقِعِ، أَنَّ الْعَصَلَ بِرَّ سَهْلٍ لَمْ يَمُتْ مَعَ الْمَأْمُونِ، ذَلِكَ الدَّوْرَ الْحَطِيرَ مَدَانَهُ الَّذِي لَعَنَهُ الْعَصَلَ بِرَّ الرَّيِّعِ مَعَ الْأَمِينِ، وَأَنَّ كَلًّا قَدْ تَوَكَّلَ عَلَى أَمْرِهِ لِفَاتِنَتِهِ، وَاسْتَفْلَهُ فِي سَبِيلِ تَنْجِيحِ سِيَاسَتِهِ، وَدَفَعَ بِهِ إِلَى حَيْثُ رَدُّدٌ .

أَطْرَأَ إِلَيْهِ، وَفَعْدَ عَادَتِ وَفُودِ الْمَأْمُونِ مِنْ مَعَالِئَةِ الْعَصَلَ بِرَّ الرَّيِّعِ وَمِنْ لَحْقٍ بِهِ مِنْ حِدِّ وَاسْتِلَاحٍ، تَرَاهُ يَصَارِحُ الْمَأْمُونُ عَنْهُمْ فَقَوْلُهُ : أَعْدَاءُ قَدْ اسْتَرْحَبَ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ أَفْهَمَ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ . إِنَّ هَذِهِ الدَّوْلَةَ لَمْ تَكُنْ قَطُّ أَعَزَّ مِنْهَا أَمَامَ أَبِي جَعْفَرٍ، فَخَرَجَ عَلَيْهِ "الْمَقْعُ" وَهُوَ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ طَلَبَ بَدَمَ أَبِي مُسْلِمٍ، فَصَبَّحَ الْمَسْكِرَ، مَحْرُوحَهُ بِخِرَاسَانَ، فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ، ثُمَّ حَرَّحَ عِنْدَهُ بَوَسُفَ الْبَرَمِ، وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ الْمَسَامِينِ كَافِرٌ، فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ، ثُمَّ نَزَحَ أَسْتَادَ سَيْسٍ، يَدْعُو إِلَى الْكُفْرِ، فَسَارَ الْمَهْدِيُّ مِنَ الزَّيِّ إِلَى دَسَاوِزَ فَكَمَى اللَّهُ الْمُؤَنَّةَ . وَلَكِنْ مَا أَصْنَعُ أَكْثَرُ عَلَيْكَ، أَحَبَّرَنِي كَيْفَ رَأَيْتَ النَّاسَ حِينَ وَرَدَ عَلَيْهِمْ حَبْرٌ رَاصِعٌ قَالَ الْمَأْمُونُ : "رَأَيْتُهُمْ أَصْطَرُوا أَصْطِرَارًا شَدِيدًا" فَقَالَ لَهُ الْعَصَلَ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ نَازِلٌ فِي أَخْوَالِكَ وَيَعْنُكَ فِي أَعْقَابِهِمْ ، كَيْفَ يَكُونُ أَصْطِرَارُ أَهْلِ غَدَادٍ ؟ أَصْبِرْ وَأَمَّا أَصْحَى الْخِلَافَةِ قَالَ الْمَأْمُونُ : "قَدْ صَعَلْتُ وَصَعَلْتُ الْأَمْرَ إِلَيْكَ فَهَمَّ بِهِ" .

عَلَى أَنَّهُ إِذَا صَدَّقَ الرِّوَاةُ بِمَا يَرْوُونَهُ لَنَا : مِنْ أَنَّ الْعَصَلَ بِرَّ سَهْلًا قَالَ لِلْمَأْمُونِ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ : "لَأَصْدُقَنَّكَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَالِكٍ، وَبِخِي بِرَّ مَعَاذٍ، وَمِنْ سَمِينَا مِنْ أَمْرَاءِ الرُّؤَسَاءِ، إِنْ قَامُوا لَكَ بِالْأَمْرِ كَانَ أَضْعَفَ مِنِّي لَكَ، بِرِيَاسَتِهِمْ الْمَشْهُورَةِ، وَلَمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْحَرْبِ، مِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ كَسْتُ حَادِمًا لَهُ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَيَّ مَحْبُوكٌ، وَتَرَى رَأْيَكَ فِي" . وَصَدَّقُوا فِي أَنَّ الْعَصَلَ بِرَّ سَهْلًا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الرِّعَاءَ فِي مَازَلِهِمْ، وَذَكَرَ لَهُمُ الْبَيْعَةَ الَّتِي فِي أَعْقَابِهِمْ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَفَاءِ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ كَانَتْ نَصِيبَ دَعْوَتِهِمْ وَتَذَكُّرِهِ لِإِيَاهُمْ، وَأَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَمْ تَصْدِفْهُ عَنْ قَصْدِهِ الَّذِي نَهَدَى إِلَيْهِ، وَلَمْ تَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَصِيبِهِ قُدُّمًا فِي سَبِيلِ غَايَتِهِ، الَّتِي

تأدى لها بأداته ، وتذرع لها بذرائمه ، وأحد لها عذته ، وأدفع لها عزيمته . وأنه قال للمأمون
 "لقد قرأت القرآن ، وسمعت الأحاديث ، وعققت في الدين ، فالرأى أن تهبث الى من
 بالحصرة من العقهاء ، تدعوهم الى الحق والعمل به ، وإحياء السنة ، وتقدم على اللود ، وترد
 المظالم" . وصدقوا حقاً في أن المأمون والفصل فعلا ذلك ، وأنهما سنا الى العقهاء ، وأكرما
 القواد والملوك وأبناء الملوك . وصدقوا في أن الفصل كان قولاً للتمسك . "فقيمك مقام
 موسى س كعب ، وللمسمى مقام أبى داود خالد س إبراهيم ، وللمسمى مقام عطسة ومالك
 ابن الهيثم . وصدقوا في أنهما كانا مدعوان كل قبيلة ، الى قضاء ورؤساء الدولة ، كاستمالتهم
 الرؤوس . وصدقوا في أن المأمون والعصل قد خطا عن حراسان ربح انحراج حتى حسن
 موقع ذلك من انحراسانيين وسروا به وقالوا . «اس أخنا وابس مم سينا صلى الله عليه وسلم»
 وصدقوا في أن المأمون تواترت كنبه الى أخيه محمد الأمين ، بالتمظيم والهدايا اليه من
 طرف نراسان ، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح ، حتى أوائل سنة أربع
 وتسعين ومائة التي عزل فيها الأمين أحاه القاسم عما كان أبوه ولده من عمل قيسرين
 والشام والمواصم والثغور ، وولى مكانه خزيمة بن حازم ، والى أمر فيها بالدعاء لأبيه
 موسى على المابر بالإمرة ، وحتى مكر كل واحد منهما بصاحبه وطهر بينهما الفساد — ادا
 صدق الرواة في كل ذلك ، فانا نرى من الصفة العلمية والتاريخية ، أن قرر حينئذ أن
 الفضل بن سهل كان حياً حقاً ، وعمما في الدبلوماسية ، وكان موقعه لا يقل عن موقف
 «وارن هاستنج» و «كليف» في الهند ، وعبرهما من حياجه السياسة ، وأقطاب الدهاء .
 ورمكانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأحق عقارنتها من نشار اليه بالسنس سياسة هذا الزمان !

ولسظرمما ، وهبنا الله وإياك الجسد والأناة ، ووفنا الى ما نرومه من تمحيص
 وتحقيق ، ونعمهم وتديق ، في حوادث سه أربع وتسعين ومائة لتكون ملتين بحول النزاع
 الذى شجريين الأخوين ، ولؤوس الإيمان كله أن الطائفة قد لست دورا شيعا ، في إشغال
 حذوة الجحد والسعيمة بينهما ، وعملت على إصرام أوارها ، وسعت حنيتها في توسيع مساهم

الحلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نحمد أن الفصل بن الربيع، فيما برويه لنا المؤرخون، سعى بعد مقدّمه العراق على محمد، مصرفاً عن طُوس، واثقاً لليهود التي كان الرشيد أحدها عليه لأبيه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أوصت إلى المأمون يوماً وهو حتى لم يبق عليه، وكان يترقب في طعنه به عطية — سعى جهده في إغراء محمد به، وأعمل قريحته في حثه على حمله، ورزق له، بما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى أبيه موسى. ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عمره، بل كان عمره، فيما ذكر الرواة عنه، الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أحد عليه لما والدّه من اليهود والنسروط. فلم يزل به الفصل ابن الربيع يُصعّر في عييه شائب المأمون، ويُزتر له حمله، حتى قال له: "ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أحولك، فإن السعة لك كآب، يمتدح قلبهما، وإما أدحلا فيها بعدك، واحدا بعد واحد". قال ذلك أس الربيع، وصم إلى رأيه معه على بن عيسى ابن ماهان والسدي وعمرهما من شخصته.

ومن المعقول أن تقتصر أن الفصل مصى في الإيقاع على هذه الخطة، ثباً بعد ثبى ومرة إثر أخرى، وقدح في ذلك قريحته، وأستدتم شتى وسائل أمثاله وطرائه، حتى أزال محمداً عن رأيه. وقد ذكر المؤرخون. أن أول ما بدأ به محمد عن رأى الفصل بن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها، بالدعاء لأبيه موسى بالإمرة بعد الداء له وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقعت على تصرف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعه المأمون، لك أن تستنط ما يفعله الفريق الآخر، إحاطة على تصرف الفريق الأول. ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تديراً من يرى أن أحاه يدبر عليه حمله. ولك أن تنتظر مثل ذلك من جماعة المأمون وأصحابه.

وهكذا تنمنا حوادث السيرة نفسها، إذ ينبئنا الطبري أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وبها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة

نصر بن سيار، لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون، وحس سيرته في أهل عمله، وإحسانه إليهم، فيما يرويه المؤرخون، أوسى المأمون ورجالات المأمون، كهرثة وطاهر، في إصلاح ما بينه وبين المأمون، وطلب الأمان له ليكون عُدَّةً وطهراً للحرب المأمونية، كما نستسيغه نحن وتستخلصه، وفيها وثى المأمون هرثة رياسة الحرس، وهرثة مكاتنه وشهرته، وله سيرته ونجدته، ورامح بيته وأنصاره، وكاتنه وفرسانه، كما أن لطاهر ابن الحسين حرمه وشجاعته وفروسته وعرانه، ولأبن سهل ملا ريب جدته في تصرفاته التي يمثلها رُذُ الأهواء الشاردة، وتُستصرف الأنصار الطامع. وعلى رأسهم، أو إلى جانبهم إن شئت المأمون، وقد تسربل بالثوب الذي يُصَحَّح إليه بلبسه، فأصحى محمود النسيم مرضى الخلال، وهو باستعداده ونزعة ذلك الرجل السياسي، المعتدل المراح، الهادئ الأعصاب، السيد التصرف، السمع الأخلاق، اللين العريكة، الكريم المهزة، مع أمانة وحليه وعزم وكرم، ونفاذ ومضاء.

ومن المعقول أيضا أن يكر الأميين ذلك من ناحيته أيضا. والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدف عنه قلوب رحاله، وأن تسلسل الحلقات، وتستطرد الإجراءات، المحتومة الوقوع، في مثل هذه الحالات^١.

وربما كنا على حق، إذا قلنا: إن النزاع أضحى بين المصلين ابن سهل وأبن الربيع. وأعلنت عينا أعظم العنف فقد كان بين كعابتين لا يعرفان الونية والتصحيح^{١١}. ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة، ومن سعة الحيلة وقُدْح الحُتْل، ومن وفرة الحُكْمَة وعاء الاحتتار، ومن مضاء العزيمة وثروة الذهب. لهما من ذلك كله، وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية، ما لا قَلَّ لأحدهما به من صاحبه، فكل من صاحبه بواءً وبديد، ومُأزِل عَيْدٍ، وَكَيْ صَيْدٍ!

أنظر إلى الأميين، قد كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الري، وأمره بأن يبعث إليه بغرائب عروص الري، فبعث إليه المسكين بما أمره، به غير

عالم أن للمأمون ورجاله عيوباً وأرصادات، ولم، قل ذلك، يَقْظَتْهُمْ الى لا تى ولا تفعل .
هنا كان من للمأمون .

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذج المسكين - صرله ، ووجه مكانه الحسن من على
المأمون ، وأردفه بالرشي . على البريد . وهكذا حاولت الديبلوماسية "الرسمية" أن
تصرف قلب عامل كبير عن أمر المأمون . والعصه المأموسة ، نكابة الديبلوماسية
"السبيلية" التي اكتسبت رافعا وصمت الى حربها بنت ابن سيار . وماهيك بنت ابن سيار
ولنتنطق الآن الى التكلم عن الحرب الكلامية التي نشبت من الأخوين ، والتي
كانت - بلا ريب ، مقدّمة لوقوع الحرب العامة . ومما أدى لتكلم عن الوفود السياسية
محاولين ، على قدر استطاعتنا ، وأستنادا الى ما من أدبنا من مصادر وثائق ، وصف
الكهفيات السياسية في ذلك العصر العتيق حقا بحالاته ودعاهه .



(د) الوفود السياسية :

لنتأمل أولًا ماذا حدث في السنة التي نحن في صدددها وهي سنة أربع وتسعين ومائة ،
فانها مليئة ، والحق يقال ، بمتنحات هاتين العقليتين ، العاتيتين حقًا ، الجاريتين بلا مبالغة
ولا إغراق ، وهما عقليتي الفصل بن الربيع ، والفصل بن سهل .

حدث أن وحه الأمين وهذا سياسيًا الى المأمون ، قوامه العباسي ر موسى ، وصالح
صاحب المصل ، ومحمد بن عيسى بن هيك ، وطلوا اليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه
"الباطل بالحق" على عهده . وقد يكون من الطريف المتبع حقا ، أن نوضح ما كان من
أمر هذا الوفد ، وهل وفق الحزب المأموني فيها حاول من الأحد قلوب رجالة . أو بعضهم على
الأقل . فإن في توضيحها لذلك ما يمدنا بصورة لا بأس في حملتها ، من صور الديبلوماسية
في ذلك العصر ، وإن في تمهدها هذه الصورة ووقوعها عليها ، نعمًا عظيمًا يعيننا ، بلا ريب ،
على فهم العصر وروح سياسته .

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى أحد رجال الوفد الأمي قال للمأمون "وما عليك أيها الأمير من ذلك - أي من تقديم موسى عليه - فهذا حدّى عيسى بن موسى قد حلق ، وصارته ذلك ! " ويحدثنا أيضا بأن الفصل بن سهل كان موحوداً ، كما هو المستطر ، في ذلك المؤتمر السياسي . وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به : "أسكت بقلبك كان في أيديهم أسيراً وهذا بين أحواله وشيعته ! " .

أنعرف ماذا كان من أمر الوفد .

إنه قد أصرف ، ولكن لا إلى الأميين ، بل إلى سائرل حصصها لهم المأمون ، حيث أفرد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلاً ، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسي الذي نلتقي به الحكومات الحاصره الوفود السياسية . فتأمل ! .

ثم لسطر ممّا - معتمدين بالأماه والصبر قليلا - في تصرف العربي الآخر في السنة عيها ، فنرى أن الوفد قد عاد إلى الأميين . وأحبره امتناع المأمون ، فألح عليه الفصل بن الربيع وعلى بن ماهان ، في البيعة لأبيه موسى " الناطق بالحق " وحلح المأمون ، فأجاب الأميين إلى ذلك ، وأحصن اسمه على بن موسى الذي ولّاه العراق . وتصارع بعض ولاء الأميين في آتهار العرصه ، للتقرب منه والتحب إليه ، بالمساده فأحد البيعه له قبلهم . وقد كان أول من فعل ذلك شرس السعيد الأردى . وصاحب مكه وصاحب المدينة .

لم يكتف الفصل بهذا ، ولا بالكبر من أمثاله . ممّا يتطر من مثله في مثل تلك الظروف ، من سبه عن ذكر عداقه المأمون والقسام بن الرشيد ، وحظر الدطاء لها على شئ . من المنابر ، بل دس من ذكر المأمون بسوء . وحط من قدره . ولصق به أقبح النقائص والمثالب ، ووصمه بأشنع الوصمات والمعاب .

ولم يكتف الفصل بهذا ، بل وحه إلى مكّة ككّام مع محمد بن عبد الله ، أحد مدية البيت الحرام ، فأناه بالكاس اللدين كان الرشيد كتبها لعد الله المأمون على محمد الأميين .

وكان حطهما من الأُمس، لما صارا إليه، حطَّ غيرهما من المهود في ذلك العصر، "والمجاهدات" و"قصاصات الورو" في عصرها الخاصر فرقهما وأطلهما، وأحاز سارقهما !

ثم نعال معي لسطر معاً، نظره إمام وتروى في مشاوره المأمون لشيئته، حينما حربه الأُمس، وصاق به السبيل، فهي، أعمرك، آية في الحكمة والمهارة السياسية .

يقول الطبري . "كان محمد، فيما ذكر، كتب إلى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يصاح له عن كور من كور حراسان سماها، وأن يوجه العيال إليها من قبل محمد، وأن يحمّل توحيه رجل من قبله، يوليه البريد عليه ليكتب إليه ببحره . فلما ورد إلى المأمون الكتاب بذلك، كبر ذلك عليه وأشتد، فبعث إلى العصل بن سهل وإلى أخيه الحسن . فشاورهما في ذلك، فقال العصل : "الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة ولهم تأنيس بالمشاورة . وفي قطع الأمل دونهم وحشة وطهور قلة ثقة، فرأى الأمير ذلك"، وقال الحسن . كان يقال "شاور في طلب الرأي من تثق بصيحبته، وتألف العدو فيما لا أكتنم له بمشاورته" . فأحضر المأمون انلاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعاً له . "أيها الأمير! تشاور في خطر، فاجعل لبدبشتا حظاً من الروية"، فقال المأمون . ذلك هو الحرم، وأجلهم ثلاثاً . فلما أجمعوا بعد ذلك قال أحدهم : "أيها الأمير قد حملت على كرهين، ولست أرى خطأ مداعمة بمكروه أولها عافية مكروه آخرهما" . وقال آخر . "كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله، إذا كان الأمر محطراً فأعطاؤك من نازعت طرفاً من بعينه أمثل من أن تصير الملع إلى مكاشفته" . وقال آخر : "إيه كان يقال : إذا كان علم الأمور مضمياً عليك، فخذ ما أمكنك، من هدية يومك فانك لا تأمن أن يكون فسأد يومك راحماً بفساد عدك" . وقال آخر، "لئن خفت للبذل عاقبة، إن أشد منها لما يبعث ألا تأمن العرقه" . وقال آخر : "لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فطعني أعطى ممها العافية" . فقال الحسن : فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأي على مخالفتكم . قال المأمون . فاطرهم، قال : لذلك ما كان الاجتماع . وأقبل الحسن

عليهم فقال . هل تعلمون أن محمداً تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق ؟ قالوا . نعم ، ويحتمل ذلك لما عفا من صرصره . قال : تقولون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب إلى غيرها ؟ قالوا لا ، ولعل سلامة تقع من دون ما عفا وتوقع . قال . فان تجاوز بعدها بالمسألة أما تزوبه قد توهى بما بدل منها في حسه ؟ قالوا : ندع ما يمرض له في عاقبته بمدافعة ما تحزرون في عاجله . قال : فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قديماً ، قالوا : استصليح عاقبه أمرك باحتمال ما عرص من كره يومك ، ولا تتمسح هدية يومك بإحطار أدخلته على نفسك في عدك . قال المأمون للمفضل : ما تقول فيما أحتلموا فيه ؟ قال : ” أيها الأمير ! أسعبدك الله : هل يؤمن نحمد أن يكون طالك هصل قوتك ، ليستظهر بها عليك عدا على محالفتك ! وهل يصير الحارم إلى فصيلة من عاجل الدعة ، بحطر بتعرض له في عاقبته ! بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم “ . فقال المأمون : ” بل ياتر العاحلة صار من صار إلى فساد العاقبة ، في أمر دينا وآخر “ . قال القوم قد فلما يملع الرأي ، والله يؤبد الأمر بالتوقي . فقال . اكتب ما فصل إليه ويكتب .

وبستطرد الطبرى بعد ذلك في القول بأن المأمون أملى على المفضل هذا الكتاب ليعث به إلى أحبيه وهو . ” قد علمنى كتاب أمير المؤمنين . سأل التحاق عن مواضع سماها ، مما أئنته الرشيد في العهد ، وحمل أمره إلى ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يحاوز أكثره . غير أن الذى حمل إلى الطرف الذى آناه لا طيب في الطرامات ، ولا جاهل بما أسد إلى من أمره ، ولو لم يكن ذلك . ثبتا باليهود والمواثيق المأخوذة ، ثم كتبت على الحال إلى أما عليها : من إشراف عتق محو الشوكه . وعامة لا تتألف عن هصمها ، وأحادي لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال ، وطرف من الإفعال ، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامتة ، وما يح من لم أطرافه ، ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عايتة . وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله ، فكيف بمسألة ما أوجه الحق ، وكذتة مأخوذة العهد . وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين

لو علم من الحال ما علمتُ لم يطلع ما كتب عمأنته إلى . ثم أما على ثقهِ من القبول بعد البيان إن شاء الله . *

ألا يحذر بها — وقد أطلما على تلك المشاورة السياسية ، التي يحور لك أن تقول عنها ، بالنسبة لوقتها وحيلها ، وموضوعات وقتها وحيلها ، إنها لا تقل في دقتها ، وحدقتها ، وقوة مناحيها ، عما يحرى حول المائدة الحصراء ، من ساسة اليوم — أن نقول : إن المأمون قد حصّن بساسة عتاه ومشيرين دهاء ' .

ثم أطر الى مالمه المأمون في حدره ، أو مالمه حربه في الحيطّة والحدر ، فقد أنمت المؤزحون أنهم قد وحبوا خراساً من قبلهم على الحدود ، حتى لا يتركوا للأُميين أو لرجالهم فرصة الاتصال رعية المأمون . وناثوا أيما مبالغه في تديهم ، حتى جاء ، كما يقول الرواة ، « تديراً مؤيداً ، وعقدًا مستحصداً متأكداً » ، فصمموا بذلك ألا تحمل رعيته على منوال خلاف أو مفارقة » .

وها لا رى مدوحة ، من إثبات ذلك المجهود العظيم ، الذي بذله الفضل بن الربيع أو الأُميين ، كيما شئت التعبير ، في استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية ، فقد كان ، والحق يقال ، طلق اليد ، ندى الكعب ، كثيرة حذواه ، وامرّة حذياه ، عظيمة عطاياه ، ولم يألُ حهدنا في إرسال دعاته وأنصاره ، لست الدعوة الأمينية في العامه وإطهارهم على رحمانها وحقها وعدلها ، وإظهار الحمّة المعارقة ، والدعاء لأهل القوّه الى المحالمة . وكان هؤلاء الدعاة سُدُول المآل . ويصمنون لأنصار معطم الولايات والقطائع . وصعوة القول أن تصرّف الأُميين وجماعته ، من هذه الحاجة ، كان قرب الشئ بتصرّف المأمون وجماعته .

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك مموعاً محسوماً ، حتى صاروا الى ناب المأمون . وها يجب أن نقول . إن الحرب الكلامية قد بدأت تشتد بين الأخوين ، والحرب الكلامية ، أي ذلك الله ، هي ميّزه هامة من ميراث العصر العباسي . وقد صدق « كشاحم » في قوله مشيراً الى عداوة أصحاب الأقلام في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف :

هنيئاً لأصحاب السيوف طَالَةً * تقصى بها أوقاتهم في التعم
فكم ميمٌ من وادع العيش لم يهج : لحرب ولم يتهد لقرن مصمم
يروح ويضدو عاقداً في نحاده . حساماً سليم الحد لم يقتل
ولكن ذور الأعلام في كل ساعة .. سيوفهم ليست تحف من الدم

وان المطلع على تاريخ العصر، المستقصي لدقائقه وحلائله، الواقف على أسرارِهِ
وخفياته وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يدهون في القول بأن قيام السياسة في هذه
الدولة كان على التحيل والمخادعة، أكثر مما كان على القوة والشدّة .

لنتقل الآن الى ذكر الكتاب الذي صت به الأميُّ الى أخيه، مع رسله الذين بهشم
للدعوه، وإثارة رجالات المأمون، قبل كل اعتصار، مهاكّه . « أما بعد، فإن
أمير المؤمنين الرشيد، وإن كان أوردك بالطرف، وصم ما صم اليك من كور الجبل، تأييداً
لأمرك، وتحصيناً لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فصله المال عن كفايتك، وقد كان
هذا الطرف وحراجه، كافيّاً لخدمته ثم يحاور مد الكفاهه الى ما يحصل من رده . وقد
صم لك الى الطرف كوراً من أمهات كور الأموال، لاحاحه لك فيها، فالحق فيها أن تكون
مردودة في أهلها ومواضع حقها . فكتبت اليك أسألك ردّ تلك الكور، الى ما كانت طيه
من حالها، لتكون فصول ردّها مصروفة الى مواضعها، وأن تأدب لها ثم بالخبر، يكون محصرتك
يؤدّي اليسا علم ما معنى به، من حر طرفك، فكتبت تلظ دون ذلك، بما إن تم أمرك
عليه، صيرنا الحق الى مطالبتك، فاش عن هيك أش عن مطالبتك، إن شاء الله . »

ورد الكتاب على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فسرّعان ما ردّ المأمون وحره عليه
بهذا الكتاب . « أما بعد، فقد لمعى كتاب أمير المؤمنين، ولم مكتب فيما جعل فاكشف له
عن وجهه . ولم يسأل ما لا يوجه حق فيلرمي المحه ترك إحاشته، وإعما يحاور الماطران
منزلة الصصه ما صاقت الصصه عن أهلها، فتى تجاوزها متجاوز . وهى موجوده الوسع .
لم يكن تجاوزها إلا عن قصها، وأحتمال ما في تركها، فلا تمنى يان أى على مخالفتك،

وأنا مُدعى بطاعتك ، ولا على قطيعتك وأنا على إثثار ماتحت من صلتك ، وأرض بما حكم به الحق في أمرك ، أكنى بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك . والسلام ” .

ثم انظر الى بعوه المأمون السياسيه — وننقأ أها ستروقت كثيرا ، وأك سنشهد بعلو كعب صاحبها فى الصون السياسيه — فان التاريخ يحدثنا أنه أحصر رسل أخيه ، وقال لهم : « إن أمير المؤمنين ، كتب اليه ، فى أمر كتب الى جوابه . فاعلموه الكتاب ، وأعلموه أى لا أزال على طاعته ، حتى يصطرقى ترك الحق الواجب الى عافته » . فأراد أعضاء الوفد الأسمى أن يذهبوا فى أفاى القول ، وأرادوا المحاحه والمدافعه ، وأرادوا المعافهه والمناقشه ، ولكن المأمون ، السياسى المتيقظ حار العقل ، قطع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير اذ حاسهم بقوله « قَعُوا أَنْفُسَكُمْ حَيْثُ وَقَعْنَا الْقَوْلَ بِكُمْ » وأحسوا تأديه ما سمعتم . فقد ألعنوا من كتابا ما لا عسى أن تقولوه لنا .

انصرف أعضاء الوفد ، ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأهسهم حجه قِيلَ المأمون ، ولم يُوقَعُوا الى حمل حبر يؤدونه الى صاحبهم ، ورأوا من المأمون وجماعه المأمون ، كما يقول الطبرى ، « حذا غير مشوب مهزل ، فى مع ما لهم من حقهم الواقع رعمهم » .

وصل الخبر الى الأئمن فارعى وأربد . وأسفرت الحرب الكلاميه على حداثها بين الأحرى ، بشأن المال الذى ركه الرشيد ، وبسبب غير المال ، مما يصح الاطلاع عليه ، وعلى مارواه سهل بن هارون وأصرانه وصفاً لذلك فى مطانته .

على أنه محدثا هما أن تشير الى ما كان من نصيحه قدمها للأئمن ، أحد رحلات عصره ، المشهود لهم بالحزم ونسوج الرأى ، وهو يحيى بن سليم ، حينما عزم على حل أخيه ، اعلقتها بما نحن فى سبيل القول فيه من ناحيه ، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم ”الدبلوماسيه العباسيه“ فى ذلك العصر من ناحيه أخرى ، وأخيرا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأئمن والمأمون فى تقدير المشوره والأخذ بالصيحه .

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له في حلق المأمون : « يا أمير المؤمنين ، كيف بذلك لك ! مع ما قد وكد الرشيد من بيعته ، ووقوف بها من عهده ، والأحد للأيمن والشرائط في الكتاب الذي كتبه » فقال له محمد : « إن رأى الرشيد كان فته ، شهبها عليه جعفر بن يحيى بسحره ، وآستأله بُرقاه وعُقده ، هرس لما عرسا مكروها ، لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه ، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتنائه والراحة منه » ، فقال : « أما اذا كان رأى أمير المؤمنين حلمه ، فلا تحاخره محاهره ، فستنكرها الناس ، وستنسبعها العامة ، ولكن تستدعي الجند بعد الجند ، والقائد بعد القائد ، وتؤسسه بالأنطاف والهدايا ، وتمزق في ثقاته ومن معه ، وبرغبهم بالأموال ، وتسميلهم بالأطباع ، فادا وهت قوّته واستمرعت رجاله ، أمرته بالتدوم عليك ، فان قدم صار الى الذي تريد منه ، وإن أوى كست قد تناولته ، وقد كلّ حذّه ، وهيص حاحه ، وصعب ركه ، وأقطع عره » . فقال محمد : « ما أقطع أمرا كصريمه ! أنت مهدار حطيط ، ولست بدى رأى ، فزل عن هذا الرأى الى الشيخ الموفق والوزير الناصح ، قم فالحق بمدادك وأقلامك ' »

ونرى من المستصوب ، بعد هذا الاستطراد ، أن شيرها الى مارواه الطبرى من أن الفصل من سهل ، كان قد دسّ قوما آخثارهم ممن يثق بهم من القوّاد والوجوه سعداد ، ليكتسوه بأخبار الأميين وجماعه ، يوما فيوما . وكان التحسس لذلك العهد ما مظا متقدّما ، فكان للأمين ، وهو وليّ عهد ، على والده الرشيد عيون ، وكان لأخيه حين ذاك عيون ، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون ، ولولاته وعماله عليه عيون ، وكان للوزراء والكبراء والرمماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض ، وكانت روح العصر تساعد على ديوع الجاسوسية وأسعجال أمرها . من المحقول اذا شاور الأميين أو الفصل بن الربيع أحدا ، وقال بما فيه مصلحة القصيه المأمونية ، أن يصل خبر ذلك من فوره الى المأمون ، فيقف بذلك المأمون وجماعته ،

على حليته الخبز وحميفة الحال عد حصومهم السياسيين . ونكاد نرجح من أحيثنا أن
لتقدم من الجاسوسية عد المأمون أثره العظيم في علته وظهره على أخيه .

ولنتقل الآن الى أحارسه خمس وتسعين ومائة . ولسطر في حوادثها الحسام نظره
تخل فيما يهتما مما نحن في صدد من محوشتا هذه ، فمجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين
حمل الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان صُرب لأخيه عد الله المأمون من الدماير
والدراهم بحراسان في السنة التي قلها ، وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يثبت بها أسم محمد .
وقال بعض المؤرخين . إن تلك الدماير والدراهم كانت لا محور في مص الأحيائين وكانت
بدعى بالرعاية .

وقد سبق لنا القول إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه : المأمون والقاسم ،
وإنه أمر بالدعاء لعنه ولطفله الصغير من بعده . وإنه صدر في ذلك كله عن رأى الفصل
إن الرئيع وجماعة الفصل بن الرئيع . مما كان من نتائج شوب الحرب الكلايه بين
الأخوين . وإبذارها بوقوع شر مستطير بين الأميرين .



(هـ) نغور الرأى العام وأر الوفود السياسية :

وريد الآن أن نَقَعَك على ملح فغور الرأى العام من فعل الأمين وجماعته ، مما رواه
لنا المؤرخون . وسلخصه لك كطريقتنا ، التي أحدا بها أعسا ، والتي لم نَحِدْ عنها ، إلا إذا
دعت الضرورة والمصلحة الى تصوير امر هام يحتاج الى الشرح والإيضاح . ونعتمد
في تلخيصنا هذا على مصادر عدّه ، منها الطبرى وآبن الأثير واليعقوبى وغيرهم من الفرجة
الدين كتبوا في التاريخ الاسلامى في العصر الذى نحن بسبيل القول فيه .

روى المؤرخون أن محمدا الأمين عقد في السنة التي نسردي عليك بمجل أحارها
امل- بن عيسى بن ما هان على كُور الحل كلها : هَآؤَدَ ، وهَمْدَان ، وَقَمَ ، وَأَصْمَهَان ، حربها
ونراجها ، وصم اليه جماعة من القواد وأمر له ، بها ذكر بمائى ألف دينار ، ولولده

بحسين ألف دينار، وأعطى الجسد مالا عطيا، وأمر له بألفى سيف من السيوف المحلاة
 وستة آلاف ثوب للخلع . وقيل : إن محمدا الأمين أحصر مد ذلك رجال بيته ومُشِيريه،
 وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر، لو أن للأمين طهيراً من الرأى العام،
 أن يحد من يمتدح فعلته، أو يحط في نشر الدعوة له وبأن أنه على حق بما يريد أن يفعل،
 ولكنا نجد أنه انتهى الى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعة الظاهريين، ممن عرفوا
 مصالحهم في الرأى اليه والتقرب منه، وهم سبيد بن الفصل الخطيب، ومحمد بن عيسى
 ابن نبيك، والفصل بن الربيع .

على أن يجب أن يقول إن الفصل بن الربيع كان ما كرا أعظم ما كر، ولكن مكروه
 كان مصوحا في هذا الموقف، فقد قال في معرض كلامه : « إن الأمير موسى
 ابن أمير المؤمنين قد أمر لكم ما هانر أهل حراسان من صلب ماله بثلاثة آلاف درهم
 تقسم بينهم » .

نقول إن مكروه كان مصوحا . لأننا نعلم أن موسى كان طفلا عرا، لا يفهم
 هذه الأمور ولا يفعلها، ولكن الفصل أراد أن يُقر عينَ الأمين، ولا يمكن أن يكون حادثا
 في رعته في إثارة الحراسيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها الطاعة، بأن عليها رباؤها
 وضاقتها وتزلها إلا أن تصور لولى نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه الساعة
 والعقوبة، وأن سلالة قد جمع أحداثها مرآة الشيوخ وكهايتهم، وأصالة الهز من
 ودرايتهم، ودكاء الدواع ومواهمهم . وهكذا تستمر الطاعة على نعمتها هذه، لاصمه
 من عداها وعدا حاميتها وحاشته، ما شاء هوى الخليفة، حتى تقع في رُوعه أن حاشيته
 لا تطغى إلا حقا ولا تقول إلا صدقا .

ولنسأل الآن : ماذا كان من المأمون إزاء تصرفات أخيه ؟

إنه لم يتهاون ألبتة في أموره : صميرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرف من أخيه بمنزلة
 ونظيره، مع وضع كل شيء موضعه، وأستقصاء المصلحة والصواب في تصرفه .

وقد ترأسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدّه . وإما ثبت ها نص كتاب المأمون ردّا على كتاب بحث به اليه الأمين مع وفد سياسيّ في شأن البيعة لأبنة موسى ، قال : « أما بعدُ فقد انتهى إلى كتاب أمر المؤمنين مسكراً لإمانيّ مبرلة تهصمي بها وأراديّ على خلاف ما يعلم من الحقّ فيها . ولعمري ان أورد أمر المؤمنين موارد الصصة ، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها ، لا تسطتّ الخجه مطالعُ مقالته ، ولا كتّ محوحوّا بمعارفة ما يوجب من طاعته . فأما وأنا مُدعيّ ها ، وهو على رك أعمالها ، فأولى به أن يدير الحقّ في أمره ، ثم يأخذ به ويعطى من بهه . فان صرّت الى الحقّ فرغت عن قلبه ، وإن أيتّ الحقّ قام معدرته . وأما ما وعد من رّ طاعته وأوعد من الوطاء غفلته . فهل أحدٌ فارى الحقّ في فعله ، فأبقى للتّين موضع ثقة بقوله ! والسلام » .

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته ، أن كتب الى عليّ بن عيسى ، قائّد الحيوش الأيمية ، لما بلغه ما عزم عليه .

”أما بعدُ . فإنك في ظلّ دعوه لم رل أنب وسلّك بمكان دث عن حريمها ، وعلى العاية لحفظها ، ورعاية لحقها ، توحون ذلك لأتتكم ، وتعتصمون بحمل حمايتكم ، وتمطون بالطاعة من أنفسكم . وتكونون يدا على أهل مخالفتكم ، وحرّما وإخوانا لأهل موافقتكم ، تؤثروهم على الآماء والأبناء ، وتصرّفون فيما تصرّفوا فيه من مبرلة شديدة . ورحاء ، لا ترون شيئا ألع في صلاحكم من الأمر الجامع لألعتكم ، ولا أبرى لواركم مما دعا نّسات كلمتكم ، ترون من رعب عن ذلك حائراً عن القصد ، ومن أمة على منهاج الحق . ثم كسم على مباح الحق ، ثم كسم على أولئك سيوفاً من سيوف قم الله . فك من أولئك قد صاروا وديعة نّسميه وجرّراً حامده ، قد سقت الرياح في وجهه ، وتكادعت السباع الى مضرعه ، غير تمهيد ولا موسيد ، قد صار الى أمة . وغير عاجل حقله . فمن كانت الأئمة تترككم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم في أمورها ، والتّقديمه في آثارها . وأنت مستشعرّون كثير من نّفاتها وخاصتها ، حتى بلغ الله بك في ففسك

أن كنت قريع أهل دعوتك . والعالم القائم بمعظم أمرٍ أنتك ، إن قلت ادنوا دنوا ، وإن
 أشرت أقبلوا أقبلوا ، وإن أمسكت وقفوا وقفوا ، وإنمأ لك واستصاحا ، وزداد نعمة
 مع الريادة في نفسك ، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك ، حتى حلت المحل الذي
 قرئت به من يومك ، وأعرض فيما دونه أكثر مدتك ، لا ينظر بعدها إلا ما يكون حتام
 عملك : من حير مرصى به ما تقدم من صالح فعلك ، أو حلايف فيصل له مقدم سعيك .
 وقد ترى ما أنا بمحي حالاً عليها حلول أهل نعمتك ، والولاء القائمة بحق إمامتك ، من
 طعن في عقده كنت القائم بشدها ، وبمهود بوليت معاقد أحدها ، بُدأ فيها بالأحصين ،
 حتى أفضى الأمر إلى العامة من المسلمين ، بالأيمان المُحرَّج والمواثيق المؤكَّدة ، وما طلع
 مما يدعو إلى نشر كلمته ، وتمهيد أمه ، وشتت جماعه ، وتعرض به لتعديل نعمة ، وروال
 ما وطأت الأسلاف من الأئمة . وبني رالت نعمة من ولاء أمركم ، وصل زوالها إليكم
 في خواص أنفسكم . ولن يبرأ الله ما قوم حتى يغيروا ما بأهسهم . ولنس الساعي في شرها
 ساجع فيها على نفسه ، دون السعي على تحمليها القائمين بحرماتها ، قد عر صومهم أن يكووا
 بحرراً لأعدائهم ، وطعمه موم ، تتطفر محالهم في دماهم . ومكانك المكان الذي إن قلت
 رُجِع إلى قولك ، وإن أشرت لم تهتم في بصيحتك . ولك مع إثبات الحق الخطوة عدد
 أهل الحق ، ولا سواء من حطى ساحل مع فراق الحق فأوى به في عاقبته ، ومن أعان
 الحق فأدرك به صلاح العاقبة مع وفور الخط في عاجله . وليس لك ما تُستدعى ، ولا عليه
 ما تُستعطف ، ولكنه حق من حق إحسانك يحب نوابه على رك ثم على من قمت بالحق
 فيه من أهل إمامتك . فإن أعزك قول أو فعل ، فصر إلى الدار التي تأمن بها على نفسك ،
 وتحكم فيها برأيك ، ونجاوز إلى من يحس تبلاً لصالح فعلك ، ويكون مرحمك إلى عملك
 وأموالك ، ولك بذلك الله . وكفى بالله وكيلاً . وإن صدر ذلك فقيه على نفسك فإمساكاً
 بيدك وقولا بحق ، ما لم تحف وقوعه بركهك ، طعل مقتدياً بك ، ومعتطاً بهيك .
 ثم أعينني رأيك ، أعرفه إن شاء الله .

على أن ما يرى إليه الزواه من تحقير شأن الأُميين، لا يتحول بسببك وبين تبيين حقيقة الأُميين ورحالهم، لأنك ستلاحظ بلا ريب، في شأيا سطورهم، وقفات الحوادث التي يروونها لك، ما قد يتيح لك أن تؤمن أن عبد الأُميين مع رجالات أقداد، من الطبري يحتشأ في حوادث سه حسم وتسعين ومائة: أن ابن الربيع أشار على الأُميين، بأن يكتب لأخيه كتاباً، تستطيب به نفسه، وتسكن وحشته، فإن ذلك أبلغ في التدبير، وأحسن في القالة، من مكاتبة الخوود، ومعاقلته بالكيد، وإنه لذلك أحصر له إسماعيل بن صُبَيْح، للكتابة إلى عبد الله، قال: «يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفع عا في يديه، توليداً للطن، وتقوية للثمة، ومدعاة للهدر، ولكن آكتب إليه ما علمه حاجتك إليه، وما نحت من قره والاستعانة برأيه، وسله القدوم إليك فإن ذلك أطلع وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإحسانه»^(١).

فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين.

قال: فليكتب بما رأى. قال: فكتب إليه «من عبد الأُميين محمد أمير المؤمنين، إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين.

أما بعد، فإن أمير المؤمنين، رأى في أمرك والموصع الذي أنت فيه من فترك، وما يؤمل في قرك من المعاونة والمُكَانَسة على ما حمله الله وقلده من أمور عباده وبلاده، وفكر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فرحاً أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وكف في ديبه ولا نكت في يمينه، إذا كان إتحاضه إياك فيما يعود على المسلمون نفعه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله.

(١) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار. «أن هذه المكيدة التي دبرها الفصل من الربيع حانت معصوفة مهتورة الأستر. وكان أحد ريكاست أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر بعد أن يرد على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح — فأما بعد نكت الخوود والوزير والأمراء. وبعد طلب الكور. وبعد طلب تقديم القوائم على المأمون وبعد تلك العود السياسية وتمزيق اليهود التي كانت في طرهم مقدسة ومؤكدة فأخذها وتعلتها في حوف الكمية، فإن الأمر أتى مد أوانه ولا يحظر منه سوى الخلية والعشال»

وعلم أمير المؤمنين أن مكاتك بالقرب منه أسد للشعور، وأصلحُ للجنود، وأكدُ للفقراء، وأردُّ على العامة، من مقامك ببلاد خراسان منقطعاً من أهل بيتك، متعباً من أمير المؤمنين، وما يحث الاستماع به من رأيك وتديرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يوتئ موسى أب أمير المؤمنين، فيما يقلده من حلائك، ما يحدث إليه من أمرِك ونبيك، فأقدم على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رحاء، وأحمد عاقبه، وأتقيد بصيرته، فإنك أولى من استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته ودمته. والسلام“.

ولسفر الى ما يرويه لنا آس حريير الطبري عن أعمام هذا الوفد، فإنه يقول :

لما وصلوا الى عهد الله أدب لهم، فدعوا اليه لكتاب محمد، وما كان بحث به معهم، من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى محمد الله وأتى عليه، ثم قال : أيها الأمير ! إن أحلك قد تحمل من الخلافة ثقلاً عظيماً، ومن الطرق أمور الناس عثاً حليلاً، وقد صدقت بيتي في الخير فأعوزه الوزراء والأعوان والكفأة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه، وقد فرغ اليك في أموره، وأتمك للوزراء والمكائفة، ولما استعطك في ربه إهاباً لمصرك له، ولا تحصى على طاعته نحوفاً لخلافتك عليه، وفي قدومك عليه أنس عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فاجب أيها الأمير دعوة أحبك، وأثر طاعته، وأعنه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قضاء الحق، وصلة الرحم، وصلاح الدولة، وعز الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخير والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي حمزة فقال : إن الإشكار على الأمير، الله ! الله ! في القول ثورق، والاقصاء في عريفه ما يحث من حق أمير المؤمنين تقصير، وقد عاب الأمير، أكرمه الله، من أمير المؤمنين، ولم يستثن عن قربه من شهد صيره من أهل بيته، ولا يحد صده عنى، ولا يحد منه خلفاً ولا عوضاً. والأمير أولى من بزأه

وأطاع إمامه، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أرمى وأقرب، من موافقة أمير المؤمنين ومحبة، فإن القدوم عليه فصلٌ وحط عظيم، والإبطاء عنه وكفٌ في الدين، وصرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال: أيها الأمير! أنا لا تزيدك بالإثكار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا تُشعِدُ نكت الأساطير والخطب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين. وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والصحة بحضرته، وتناولك فرعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره. فإن نُحِبَّ أمير المؤمنين فيما دعاك إليه فعممة عظيمة يتلاقى بها رعيتك وأهل بيتك، وإن تقعد يعني الله أمير المؤمنين عنك، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من الربك، والاعتدال على طاعتك وبصيححتك.

وتكلم صالح صاحب المصل، فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلة، والأهوان قليل، ومن يكيد هذه الدولة ويطوى على عشا والمعادنة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير. وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه، وصلاح الأمور وفسادها راجع عليك وعليه، إذ أنت ولي عهد والمشارك في سلطانه وولايته، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتاب، ووثق بمعاودتك على ما استعانت عليه من أموره، وفي إحابك إياه إلى القدوم عليه صلاحٌ عظيم في الخلافة، وأنس وسكون لأهل الملك والدم، وفق الله الأمير في أموره، وقصى له بالذي هو أحب إليه وأفع له.

ثم اطرأ عليك الله، إلى مبلغ دهاء الفصل، ودقة سياسته، ونحْم أمره، وما يرويه نفسه عن صديعه مع أحد أعضاء الوفد، في إحدى الدعوات التي أرسل فيها إلى المأمون، لأنها ملاحظ وفود الأمين قد أرسلت إلى أخيه المأمون أكثر من مرة — قال: «أعجبي ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، نخلوت به فقلت: يذهب عليك بعقلك وسنك، أن تأخذ بحفظك من الإمام! — أي المأمون، إذ سُمي بذلك بسبب خلق الأمين له — فقال له العباس: قد ستمتوهم بالإمام! فأحابه الفضل: «قد يكون إمام المسجد والقبيلة!

فإن وقَّيت لم يصركم، وإن غدرتُم فهو ذاك». ثم وصل إلى أن قال للعباس: «لك عدى ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت..». وصل الفصل إلى ذلك القول وما ربح به حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافه. ونحو الأمر إلى أن أصبح لمحزب المأمون من العباس العين التي تلعبهم الأحبار، والمتفاني في المأمونية يمتنع بالأفكار ويشير عليهم بالآراء، وحتى أحصى منه الشخص الذي يقول لعلى بن يحيى السَّرجسي: إن دا الراسين أكبر مما وصفت، وإنه قد صاغ المأمون الامام، وإنه لذلك يمسح يده على رأس على بن يحيى لتأوله البركة والخير. وتأمل!

وإنه جميلٌ حقا أن نرى المأمون يترث في أمره تراث العاقل الحكيم، لما جاءه الوفد الأميني، ويتصرف تصرف الكيس الخافق، إذ قال لهم، فيما أثبت الرواء، بعد أن حاجوه وناقشوه في أمر الأمين: قد عرفتُموني من حق أمير المؤمنين، أكرمه الله، مالا أنكره، ودعوتُموني من الموالاة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدعه، وأما طاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعة إلى ما سرتَه وواقفه حريص، وفي الروية ثياب الرأي، وفي إعمال الرأي نصبح الاعتراف. والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أناحره تبظا ومداغة، ولا أقدم عليه اعتسافا وتغلة، وأما في نمر من نمر المسلمين كلب عدوه شديد شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الصرر والمكروه على الجود والريعة، وإن أقلت عليه لم آمن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين ومؤارته وإيثار طاعته. فاصبروا حتى أنظر في أمري ونصح الرأي فيما أقترم عليه من سيبري إن شاء الله، ثم أمر بإزالمهم وإكرامهم والإحسان إليهم.

ترث المأمون مع الوفد تراث العاقل الحكيم، وإن كان في الواقع قد هاله الأمر وخشى سوء مقبته. ويذكر لنا أحدُ المعاصرين، وهو سُفيان بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتاب سَقَطَ في يده، وتماخذه ما ورد عليه منه، ولم يدر ما يرد عليه، فدعا الفصل بن سهل فاقراه الكتاب، وقال: ما عندك في هذا الأمر؟ قال: أرى أن تمسك بموضعك، ولا

تجعل علينا سبيلا وأنت مجيد من ذلك بدأ . قال : وكيف يمكن التمسك بموصى ومخالفة محمد وعظم القواد والجنود معه ، وأكثر الأموال والحرائر قد صارت اليه ، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صلاته وفوائده ، وأما لباس ماثلون مع الدراهم متقادون لها ، لا يسيطرون اذا وحدوها حفظ بيعة ولا يربون في وفاء عهد ولا أمانة ! . فقال له العصل : اذا وقعت التهمة حتى الاحتراس ، وأنا لعذر مجيد متحوف ، ومن شرهه الى ما في يدك مشفق ، ولأن تكون في جندك وعزك مقيماً بين طهراني أهل ولايتك أخرى ، فان دهمك منه أمر حردت له واجرته وكايدته ، فإنما أعطاك الله الطعنة عليه وفائك ويسك ، أو كانت الأخرى فت محافظاً مكرماً ، غير ملقي بيدك ولا ممكني عدوك من الاحتكام في هسك ودمك . قال . إن هذا الأمر لو كان أنا في ، وأنا في قوة من أمري وصلاحي من الأمور ، كان خطه يسيراً والاحتياط في دعه ممكناً ، ولكنه أنا في بعد إفساد خراسان ، واضطراب عاصرها وعاصرها ، ومعارضة جميعويه الطاعة ، والتواء حاقان صاحب التبت ، وتبني ملك « كابل » للعار على ما يليه من بلاد خراسان ، وامتناع ملك أترابده الصربية التي كان يؤدبها ، وما لي بواحدة من هذه الأمور يد . وأنا أعلم أن عمدا لم يطلب قنومي إلا لشر يريده ، وما أرى إلا تحية ما أنا فيه والحق حاقان ملك الترك والاستحارة به وببلاده ، فأخبرني أن آدن على عصى وأمتنع من أراد قهره والفسد في . فقال له الفصل : أيها الأمير ، إن عاقبة المدر شديدة ، وتبعة الظلم والبنى غير مأمون شرها ، ورُب مستدلل قد عاد عزيزاً ، ومقهور قد عاد قاهراً مستطيلاً ، وليس النصر بالقليلة والكثرة ، وخرج الموت أسلم من حرج الذل والصيم ، وما أرى أن تحارق ما أنت فيه ، وتصير الى طاعة عميد ، متحزداً من قوادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه ، يجرى عليك حكمه ، فتدخل في حملة أهل مملكته ، من غير أن تبني عدواً في جهاد ولا قتال ، ولكن اكتب الى جميعويه وحاقان ، فولما بلادها ، وعندها التقوية لها في محاربة الملوك ، وابعث الى ملك كابل بعض هدايا خراسان وطرقها وسله الموادعة تجنّه على ذلك ، وبعث الى ملك أترابنده صريته في هذه السنة ، وصيرها صلة منك وصلته بها ، ثم اجمع اليك أطرافك ، واصمم اليك من شد من جندك ، ثم

أصرب الخليلَ الحليل والرحالَ بالرحالِ ، فان طفرت ، وإلا كنت على ما تريد من الخلق بخافان قادرا . معروف عند الله صدق ما قال ، فقال : اعمل في هذا الأمر وغيره من أموري بما ترى ! فتدبر ، وفقك الله ، هذا التفكير الدقيق ، وهذه السياسة المحكمة الأطراف من كليهما .

ثم انظر الى تصرف المأمون الحكيم ، بعد ما قدمناه لك ، فانه أهدى الكتب الى رحاله وأصاهاه ، وعمل على لَمْ شَعْبِهِ ورَأْبِ صَدْعِهِ ، واستقدم طاهرَ س الحسین ، عامله على الرّی ، ليعهد اليه في قيادة حنده ، ثم مكث دَر الرأى فيما يحبب به أخاه ، واستقر رأبه على ماحرة أخيه ومازلته ، بعد أب أعلمه أن سهل أن النصر له وأن الحوم تنى ذلك . وانظر ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب الى الأُميين : « أما بعد ، فقد وصل الى كتاب أمير المؤمنين ، وإعما أنا طامل من عماله وِعَوُّ من أحواله ، أمرنى الرشيد ، صلوات الله عليه ، بلزوم هذا الثغر ، ومكايده من كايده أهله من عدو أمير المؤمنين . ولعمري إن مُقَامِي به أردُّ على أمير المؤمنين ، وأعظم غناء عن المسلمين من الشخصوس الى أمير المؤمنين ، وإن كنت معتبطاً بقربه ، مسرورا بمشاهدة عمه الله عده . فان رأى أن يُقرّنى على عملى ويُعَينى من الشخصوس اليه فعل ان شاء الله والسلام » . ثم دعا العاس بن موسى ، وعيسى بن جعفر ، ومحمدا ، وصالحا ، فدفع اليهم الكتاب ، وأحسن اليهم في حوائجهم ، وحمل الى محمد ما تنيا له من أطاف نراسان ، وسألم أن يحسنوا أمره عده وأن يقوموا بصدقه لديه .



(و) إعلان الحرب :

ولنتقل الآن الى الكلام عن الحرب العملية التي تلت هذه الحرب الكلامية ، كما هو المنتظر : إن التاريخ يحدثنا أن الأُميين ورجال الأُميين ، بدعوا في تعبئة الحوود ، كما بدأ المأمون ورجال المأمون في حشد الكتائب . وإنا لثقات كثيرا ، في صحة ما ذكره الرواة : من أن طاهر بن الحسين القائد العام للجيوش المأمونية كان في جيش عدته ثمانمائة وثلاثة آلاف ،

بينما كان علي بن عيسى بن ماهان القائد العام للجيش الأمينية في زهاء أربعين ألفاً !
وزرح كثيراً أن الرواة قد نقصوا عند الجلود المأمونية، ليظهروا للناس مبلغ كفاية طاهر،
وأنه استطاع بحمد قليل عددهم أن يسأل جيوشاً حتراره ويطلبها على أمرها ، لأنهم
كثيراً ما يمتحون إلى الإغراق والمالفة في مثل هذه المواقف : من مظاهرتهم للأقوياء،
وانتقاصهم للصعفاء كما أسلفنا .

نشك في صحة ذلك كثيراً . ونشك كذلك فيما يروونه : من أن الجيش المأمونية
قد عثرت في عسكر ابن ماهان على سماعة كيس ، في كل كيس ألف درهم ، وأنها عثرت
كذلك على صناديق عدة فيها نحر سوادى وقناني عدة !

قد يكون أمر الأموال صحيحاً ، ولكننا نميل إلى الاقتراض بأن أمر الصناديق العدة ،
إن لم يكن مكذوباً في جملة ، بقصد الرأبة بالجماعة الأمينية ، فهو مغالى فيه كثيراً .

ويذهب ابن الأثير في بيان عرور علي بن عيسى بن ماهان إلى أنه ، لما قرب من
الري ، طعن أن طاهر بن الحسين قائد القوات المأمونية لا يثبت له ، وإن طبعاً قال :
« ما طاهر إلا شوكة من أغصان وشرارة من نار ، وما مثل طاهر يؤمر على جيش ،
وما يبه ويبس الأمين إلا أن تقع عينه على سوادكم ، فان السخال لا تقوى على تطاح الكباش ،
والثعالب لا تقوى على لقاء الأسد ، وأن علي بن عيسى بن ماهان قال لابنه ، لما أشار عليه
أن يبعث طلّاع ويرتاد موصعاً لمسكركه : ليس طاهر يستعد له بالمكائد والتحفظ ، إن
حال طاهر يؤدى إلى أمرين : إما أن يتحصن بالري ، فينبه به أهلها ، ويكفون مؤنته ،
أو يخلبها ويذمر ! فقال له أبه : إن الشرارة ربما صارت صراماً ! » فأجابه : « إن طاهراً
ليس قرناً في هذا الموضع ، وإنما تحترس الرجال من أقرانها ! » .

ونحن نقول : إن من الجائز أن يكون شيء من هذا قد وقع . ومن الجائز أن يكون
علي بن ماهان زهو وعرور ، وقصر نظره وسوء بدير . وقد يكون على حين المقارنة والموازنة

أقل شأنا من مُنازله وخصمه طاهر بن الحسين . ولكامع ذلك يُحس إحساساً لا يعدو الواقع كثيراً أن هذا الحديث المعرّو إليه من قبل الروايات المتحوّلة، والقِصص المخترعة، التي كثيراً ما تُخترع وتُحفل في مثل تلك الظروف .

على أنا مع ذلك نقرر أن الجيوش المأمونية كانت على أتمّ نصية، وأكمل كفاية، وأدقّ نظام، وأحسن حال، وأن حديعة طاهر وقواد طاهر : من حملي صورة البيعة على أسنة رماحهم^(١) يُعيد إلى الأذهان ما كُتب بين حد معاوية وحد عليّ من حمل حد معاوية المصاحف على الرماح .

لننتقل الآن إلى مسألة أخرى لها علاقة بعليّ بن عيسى بن ماهان من ناحية ، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القصاص والمؤزحون والرواة من تناقص من ناحية أخرى . تلك المسألة هي ما يُعزى إلى رُبَيْدَة من نصيحته لابن ماهان باحترام المأمون وإحلاله ، وأنها قالت له : « يا عليّ ! إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تاهت شفقتي ، وعليه تكامل حذري ، فإني على عهد الله متعطفة مُشفقة ، لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما أرى ملكاً نافس أحياه في سلطانه ، وغاره على ما في يده ، والكريم يأكل لحمه ويمعه فيره ، فأعرف أمد الله حقّ والده وإخوته ، ولا أتجبه بالكلام ، فانك است نظيره ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا ترهقه بقيد ولا علّ ، ولا تمنع منه حارية ولا حادما ، ولا تعفّ عليه في السير ، ولا تُساو في المسير ، ولا ترك قلبه ، ولا تستقلّ على دانتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شمتك فاحتمل منه ، وإن سَفِهَ عليك فلا تُرأده » .

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحارثي هذا قوله : « لم يكن كل الحدا المأموني حاملا صورة البيعة ولا كثير منهم ولكن الأمر في ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للمأمون على رمح وكان عليّ بن عيسى هو الذي أحدها للمأمون على أهل حراسان أيام كان واليا بها ليقيم بذلك الخطة على عليّ بن عيسى هذا مه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمه عليّ بن عيسى وقال له أحمد . ألا تنتهي الله عز وجل ؟ أليس هذه سمة البيعة التي أحدثها أنت خاصة اتق الله فقد طعت باب قرك ، لم يأله عليّ بن عيسى بل قال : من أتاني به فله ألف درهم فشنمه أصحاب أحمد .. الخ من أس الأئمة » .

مقول أب يكون ذلك من زينة لابن زوجها الرشيد . ولكن التاريخ يتحدثنا عن قيد من القصة قيل إنها أعدته ليقيد به المأمون ، كما يتحدثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد . بيد أن نصّ النصيحة ، وما اشغلت عليه من الأوامر ، وما جُلبت عليه نفسية السيدة زبيدة ، مما يرحم عدم صحة القول بإعدادها قيداً فضة أو ذهب ، ليقيد به المأمون .



(ز) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء :

وقد كتبت الله للجيوش المأمونية الفلج والصر على الجيوش الأيمينية . وتركها الكلمة لطاهر بن الحسين قائد المأمون ، فانه ينسب حليته عن ذلك الانتصار بقوله . «أطال الله مقامك ، وكنت أمداك ، وحمل من يسؤك فداك ، كتبتُ إليك ورأس عليّ ابن عيسى بن يدى ، وحاتمى وأصمى ، والحمد لله رب العالمين» .

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتاب طاهر يخبر على بن عيسى بن ماهان ، وما ناله حيوشه من فوز وانتصار ، وما أوقع الله بمحمد حصمه من قتل وانكسار ، فقد للباس ، فكانوا يدخلون عليه فيهنّونه ويدعون له بدوام العز والصر ، وأن المأمون ، في ذلك اليوم ، أعلن حلف محمد ، كما أعلن حلفه في جميع كور خراسان وما يليها ، وسرّ بذلك أهل خراسان ، وحطت الخطاء ، وأشدت الشعراء . وفي ذلك يقول الشاعر :

أصحت الأئمة في عطية * من أمر دنياها ومن دينها
اد حفظت عهد إمام الهدى * حير بنى حواء مأمونيا
على شفا كانت ، فلما وقت * تحلصت من سوء تخمينها
قامت بحق الله اذ درت * في ولده ككت دواوينها
الآ تراها كيف عد الردى * وقفها الله لتردينها

وهي أبيات كثيرة .

وذكر علي بن صالح الحرّني أن علي بن عيسى لما قُتل ، أَرْجَفَ الناسَ ببغداد إرحافاً شديداً ، وندم محمد علي ما كان من نكته وعثره ، ومشى القواد معهم الى بعض ، وذلك يوم الخميس للصف من شوال سنة ١٩٥ ، فقالوا : ان علياً قد قتل ، ولستنا نذك أن محمداً يحتاج الى الرجال واصطباع أصحاب الصائع ، وإعما يحرك الرجال أنفسهم ، ويرفعها بأشها وإقدامها ، فليأمر كل رجل منكم جسده بالشغب وطلب الأرزاق والجوائز ، فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يصلحنا ويصلح جدنا .

حبرني ، لعمرك ! أليست هذه بوادر الوصي وعلامات الانتقام ! أليست هذه هي معنى مبادئ الثورة وأمارات زوال الملك وسقوط العروش ، وأول نعم أصحابها ! أجل ! إنما لكذلك ، وإن في أنقسام كلمة الرعاء ، وإثارتهم العوس بالاضطراب والقتال ، وإصرارهم براء الفتى ، وتحريكهم الجسد وما الى الحد للشغب والهياج ، تقطيعاً لأوصال البلاد ، وديراً بالهدم والدمار .

ولسظر ماذا كان من حاقات رجال الأيمن ؟

ان التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشعب والاصطياد في الماء العكر ، وأنهم أصبحوا قنواوا الى باب الحسر وكبروا ، فطلوا الأرزاق والجوائز ، وطلع الخبر عبد الله بن حازم ، فركب اليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قواد الأعراب ، فقرأوا بالشباب والمخاضة واقتلوا قتالا شديداً ، وسمع محمد التكبير والصحيح ، فأرسل بعض مواله أن يأتيه بالخبر ، فرجع اليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشقوا لطلب أرزاقهم ، قال : فهل يطلون شيئاً غير الأرزاق ؟ قال لا ، قال : ما أهون ما طلوا ! ارجع الى عبد الله ابن حازم هُزْراً فليصرف عنهم ، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر ، وورع من كان دون الثمانين الى الثمانين ، وأمر للقواد والخواص بالصلوات والجوائز !

ولتسائل الآن ، إزاء إجابة الأيمن لسؤل القادة والجند ، ومادته الى رفدكم ، وإمراره بمسحهم الأعطيات والمهمات ، والجوائز والصلوات ، أكان في تصرفه حكمة ، وفي عمله مستنداً ، وفقاً ؟

لا نطق ذلك . وكان الحزمُ به أولى ، ليقْدَعِ الفتنة ، وليَضَعَ حدًا صارما لشبهوات
دوى الفايات والمستغنين الذين يكثر وجودهم وتوافر جماعتهم في إمانها وقراءتها .



وقد كان اختيار الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان ، خطأ سياسيا ، لأن سابقة
ابن ماهان في خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء ، فهو ممقوت أشد المقت عندهم .
وقرر هذه المناسبة ، أنه يحيل الياء ، الى حد غير قليل ، احتلاق تلك القصة التي تعزى
الى الفصل بن سهل : من أنه كتب الى الديسس الذي كان من مشاورهم الفصل بن الربيع
في أمره : أنه ان أبي جماعه الأمين إلا عزيمة في الخلاف ، فالطف لأن تجعل أمرهم
لعلي بن عيسى . وقال الطبري : وإنما حصن دو الرياستين علما بذلك ، لسوء أثره في أهل
خراسان ، واحتجاج رأيهم على كرهه ، وأن العامه قائلة بحربه . مشاور الفصل الديسس
الذي كان مشاوره ، فقال : علي بن عيسى ! وإنه إن فعل فلم يرمهم بمثله في بعد صومة ،
ومحاوة نفسه ، وكان في ملاد خراسان في طول ولايته وكثرة صائعه ، ثم هو شيخ الدعوة
ونقية أهل المشايعة . فأجمعوا على توجيهه .

يميل الى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان الى تدير اس سهل ، وإسناد كل فصل
اليه ، من ماب الدعوة لابن سهل . ونحن ممن يقرّ بذلكه وسعة حيلته ، كما أسلفنا . ولكنا
نقرر أيضا أن صلة ابن ماهان بالأمين ، وبدولة الأمين ، وماب الربيع ، كانت مما يحتم على
الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه وتفضيله على غيره من القادة ، لا أن ديسس جماعة
المأمون هو الذي أشار بسدبه واختياره . فلمحتس كثيرا من مالعلة المؤرخين والرواة ،
ولحمل من عقولنا ومطقنا محكما وحكما .

ولقيت النظر هنا الى تناقص وقع فيه الرواة من الحزب المأموني ، فبينا نراهم يقررون
أن جيش المأمون عثر على صاديق حدة من الجر ، فيما غمه من علي بن عيسى بن همامان ،
إذ بالدسيس يصفه بقوله : « ليس مثله في بعد صومة ومحاوة نفسه ! » .

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الخلل والخلدعة ، وأنه كان في حقيقة الأمر
سَكِينًا مُعَرِّبًا ، فما نرى أثر التأليف القصصى في الروايتين طاهرًا حليًا .

وسق لنا أن قد قَدَدْنَا ، حينما كنا بسبيل القول في الأمين ، ما رواه محمد بن يحيى بن
عبد الملك النيسابورى من أن الأمين قال لما نعى الباعى إليه قائده . « ويلك دعنى فإن
كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئاً هذا » . وترك الباعى وجهه ، وأقبل
على الصيد وكوثره ، فلصم هذه الى تلك .



ويجدر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء في موقف الأخوين ، مع
ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمداحهم للقوى ، وعلوهم في زرايتهم على الضعيف .
قال أحد الشعراء البغداديين :

أصابع الخليفة عيش الوزير . * وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزيرٌ وبكرٌ مشيرٌ * يريدان ما فيه حنف الأمير
وما ذاك إلا طريقُ ضرورٍ * وشرُّ المسالك طرقُ الضرورِ
لواطُ الخليفة أعوبةٌ * وأعجبُ مه حلاقُ الوزيرِ
فهذا يدوسُ وهذا يداسُ * كذاك لعمري اختلافُ الأمورِ
فلو يستعيان هذا هناك * لكانا بعُرصةِ أميرٍ سَيرِ
ولكن ذالَج في كوثِرٍ * ولم يَشِفْ هذا دِعاؤُ الحَميرِ
فشعُ فلاحها منها * وصارا حلاقاً كَبَوَّ العيرِ
وأعجبُ من ذَا ودا أُنثى * ناسِجٌ للطمِيلِ مِيا الصَغيرِ
ومن ليس يُحسِنُ عِسلَ آسَتِهِ * ولم يحلِ مَنَّهُ من حَجَرِ طَيرِ
وما ذاك إلا مَضِلٌّ وبِكرٌ * يريدان نَقصَ الكُتابِ المَيرِ
وهذان لولا انقلابُ الزمانِ * أَى العيرِ هذانِ أم في النَفيرِ

ولكنها من كالحال * ترفع بها الوصي الحفير
 مصراً في الصبر خير جميل * وإن كان قد ضاق صدر الصبور
 فيارب فاقضهما عاجلاً * اليك وأورد عذاب السعير
 ونكل بفصل وأشياعه * وصلبهم حول هدى الجسور



(ح) عود على بدء ، مجهودات الأمين في سبيل الفوز :

ولقد سبق أن قلنا لك : إنه مع ما يرى اليه الرواه من تحقير شأن الأمين
 ورحلات الأمين ، يمكننا مع ذلك نين حقيقة أمره ، مما يلاحظ في شأنا السطور
 وفتات الحوادث ، وقلنا : إن تلك الفتات قد نتيج لنا أن نؤمن بأن عهد الأمين
 حص رحايات أمداد . وزيد الآن أن ثبت لك ذلك . وهذا الطبري يتحدث ،
 في حوادث سنة ست وتسعين ومائة ، أنه لما قوى طاهر واستعل أمره ، وهزم
 من هزم من قواد محمد وحيوشه ، دخل عهد الملك صالح على محمد — وكان عهد الملك
 محمدا في حبس الرشيد ، فلما توفى الرشيد وأصبى الأمر الى محمد ، أمر بحل سبيله ،
 وذلك في دى القعدة سنة ١٩٣ ، فكان عهد الملك يشكر ذلك لمحمد ، ويوح به على نفسه
 طاعته وبصيحته — فقال : ” يا أمير المؤمنين ! إني أرى الناس قد طعموا بك ، وأهل
 العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن أتممت على أمرك أصدتهم
 وأطرتهم ، وإن كفت أمرك من العطاء والبدل أصعظتهم وأصعبتهم ، وليست تملك الجود
 بالإمساك ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعتهم
 المزامم ، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وانتلأت قلوبهم هية لعدوهم ، وتكولوا عن
 لقائهم وماهضتهم ، فإن سيرتهم الى طاهر ، غلب قليل من معه كثيرهم ، وهزم قوة نيته
 ضعف نصائحهم ونياتهم . وأهل الشام قوم قد ضمرتهم الحروب ، وأدبهم الشدائد ،
 وجلبهم متقاد الى مسارع الى طاعتي ، فإن وجهي أمير المؤمنين ، انقضت له منهم جدا ،

تعلم بكأيتم في عدوه و يؤبد الله هم أوليائه وأهل طاعته . فقال محمد : فإن مؤبك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعده ، فعلى الشخصوص الى ما هالك ، فاعمل عملا يظهر اثره ، وتجد بركته ، برأيك ونظرك فيه ، ان شاء الله . فولاه الشام والجزيرة واستحثه بالخروج استحثا شديدا ، ووجه معه كتما من الجند والأبناء .

حاول الأميين بعد ذلك أن يتصر على أخيه بكل ما في مقدوره ، وبعث له الجند تلوا الجند . ولما مع اعترافا كعناية قاده ، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذي ندب أهل البأس والعدو واللاء ، مرر أن طريقة الإرجاف وبث الدعاة الى اتباعها المأمونيون كانت حيرة جدا .

انظر الى من يقول لأهل حمص : ” يا أهل حمص ! الحرب أهون من العطب ، والموت أهون من الدل ! إنكم تعدتم عن بلادكم ، ونرحتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعروة بعد الدلة ، ألا وى الشر وقعتم ، والى حومة الموت أنتم . إن المنايا في شوارب المسودة وقلاصهم ، المعير المعير ! قبل أن يقطع السبيل ، ويترل الأمر الجليل ، ويعوت المطلب ، ويمسر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقتر الأجل ! “ ، وقام رجل من كلب في عرز باقته ثم قال .

شؤبوت حرب حات من يصلها . قد شرعت فرساتها قها
فاورد الله لطفى لقلها . اب عمزت كلبها لحاها

ثم انظر لمن يقول : ” يا معشر كلب ! إنها الراية السوداء ، والله ماؤلت ولا عدلت ، ولا دل صيرها ، ولا صعب وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل حراسان و رقابكم ، وآثار أسنتهم و صدوركم ، اعتلوا الشر قبل أن يعظم ، وتحطوه قبل أن يصطرم ، شامكم ! داركم داركم ! الموت الفلستيني حيد من العيش الجزرى ! ألا ولى راجع من أراد الانصراف فليصرف مى ! “ ثم سار وسار معه عامة أهل الشام .

أرايت الى أى مدى كان أثر الدعاية المأمونية ؟ .

لقد كان المأمون موفِّقا بلا ريب، وكانت ظروف العصر والاقبال تَوَاتِيه من هنا ومن هناك، وتُظَاهِرُهُ على السَّجَّاح من حَرَاءِ حِكْمَتِهِ وَكَمَايَةِ رَجَالَاتِهِ، كما كانت تُظَاهِرُهُ من جَرَاءِ حَمَاقَةِ خُصُومِهِ وَقَلَّةِ عِبَائِهِمْ .

ثم انظر ما كان من أمرِ العَصِيَّةِ في حوادث سِتِّي خَمْسٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةٍ وَسِتِّ وَتَسْعِينَ وَمِائَةٍ ، وما كان من اشتطاطِ حَسَدِ الْأَمِينِ في طلبِ الْمَالِ ، وما كان من عَدَمِ قُدْرَتِهِ على إِيَابَةِ طُلُجَاتِ الْقَادَةِ الْكُبَاةِ ، أَمْثَالِ أَسَدِ بْنِ يَزِيدَ ، وما كان من ثَقُلْبِ الْحُسَيْنِ اسْ عَلِيٍّ مَعَهُ وَعَلَيْهِ ، وما كان من لَيَّانِ الْأَمِينِ مَعَهُ بَعْدَ أَنْ حَسَبَهُ ؛ فَانِ التَّارِيخُ يَحْتَشِبُ بِأَنْ كُلِّ مَا فَعَلَهُ الْأَمِينُ مَعَهُ ، هُوَ أَنْ لَأَمَنَهُ عَلَى حِلَالِهِ ، وَقَالَ لَهُ : ” أَلَمْ أَقْتَمِ أَبَاكَ عَلَى النَّاسِ ! وَأَوَّلُهُ أَعْنَةُ الْخَبِيلِ ' وَأَمْلَأُ يَدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ ! وَاشْرَفُ أَقْدَارِكُمْ فِي أَهْلِ خِرَاسَانَ ! وَأَرْفَعُ مَا زِلْمَكُمْ عَلَى غَيْرِكُمْ مِنَ الْقَوَادِ ! “ . فَقَالَ لَهُ : بَلَى ! قَالَ : ” مَا الَّذِي اسْتَحَقَّقْتُ بِهِ مِنْكَ أَنْ تَحْمَلَ طَاعَتِي وَتَوَلَّى النَّاسَ عَلَيَّ ، وَتَدْبِيهِمْ إِلَى قِتَالِي ؟ “ قَالَ : التَّقَى بِعَفْوِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحَسَنِ الطَّلِ صَمْعِهِ وَتَمَصُّلِهِ . قَالَ : ” فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِكَ ، وَوَلَاكَ الطَّلِبَ بِثَارِكَ وَمَنْ قَتَلَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ! “ ثُمَّ دَعَا لَهُ بِحُلْمَةٍ نَخَّلَهَا عَلَيْهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى مَرَاكِبَ وَأَمَرَهُ بِالْمَسِيرِ إِلَى حُلُوفِ . وَوَلَّاهُ مَا وَرَاءَ بَابِهِ .

أَطْرَأَ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَأَمَّاكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقْتَتَعَ مَعَهُ ، بِأَنْ لَسَوْهُ التَّنْذِيرُ حَقًّا صِرَ قَلِيلَ فِي جِدْلَانِ الْأَمِينِ وَصَبَّاحِ مَلِكِهِ .



(ط) مظاهر الثورة وخطبائها :

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأميني والأطراف الأمينية ، مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من سبغ وحووها ، يحذر بنا أن نقيدها لك ، ولو « على الهامش » كما يقولون . ذلك أن الرُّوَاقِيلَ ، وَاللَّصُوصَ ، وَالتُّوَارَ . لَعَبُوا دَوْرَهُمِ الْخَطِيرَ ، كَمَا أَنَّ الْعَوْضَى ضَرَبَتْ

يجرئها على كل البقاع الأيمية ، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام ، لا في الجسد الأيمن ولا في قاده الجسد الأيمن !

وقد كان هناك خطأ ، كما كان في الثورة العرسية . وإن الطبرى ليحدثنا أن محمد بن أبي خالد قام بباب الشام ، فقال : أيها الناس ! والله ما أدري ماى سبب يتأمر الحسين بن عليّ عليا ! ويتولى هذا الأمر دوننا ! ما هو بأكبرنا ساء ، ولا أكرما حسبا ، ولا أعظما منزلة . وإن فيما من لا يرضى بالدنية ولا يُقاد بالخداة ! وإنى أولكم قصا لمهده ، وإظهارا للتغير عليه والاكثار لعله ، فمن كان رأيه رأيي ، فليعتزل معي . وقام أسد الحربى فقال : يامعشر الحربية ! هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد نِتم وطال بومكم ، وتأخرتم ففتم عليكم غيركم ، وقد ذهب أقوامٌ بذكر حلق محمد وأُسره ، فأذهبوا بذكر فكّه وإطلاقه . يحدثنا التاريخ عن ذلك كله ، كما يحدثنا أن شيخا كبيرا ، من أهل الكهامة ، قد أقبل على فريس ، فصاح بالناس : استكثوا ! مسكتوا ، فقال : أيها الناس ! هل تعتدون على محمد قطع مه لأرزاقكم ؟ قالوا . لا ! قال : فهل قَصَر بأحد منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علمنا ! قال : فهل عَزَل أحدًا من قُودكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون مثل ذلك ! . قال : فما لكم حَدَثتموه وأعتم عدوه على اصطهاده وأُسيره ! أما والله ما قَتَل قومٌ حليفهم قط إلا سَلَطَ الله عليهم السيف القاتل والخنف الجارف ! انهبوا الى حليفكم وادفعوا عنه ، وقَاتِلُوا من أراد حَلَمَه والعتك به ! — .

أما ما أصاب بعداد من سَلَب ونهب ، ومحريق وتحريب ، وقتل وشواء ، وقيل ودماء ، فإننا نترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر ، مما أثبتناه لك في باب المنطوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث ، ملراجع ثمة .

(ى) قتل الأمين :

ولقد صَيَّق طاهرٌ وهرثمة على الأمين الخلاق ، وفكروا فيمن يتسلم الأمين ليكون له قَصَبُ السبق . وإنه لمن المؤلم حقا أن ترى الأمين وهو يقسل أولاده . ومن المؤلم أن

الفصل الرابع

الخليفة المأمون

توطئة — السياسة الداخلية — ملخص الحالة العامة في المئة الحراسية — المئة العدادية — ثورة مصر
 ارسبت، الرط، ثورة مصر، ملك الحري، مذهب ومحل، اضرابات — السياسة الخارجية : عزوة
 المأمون للروم — كلمة خاتمة .

(١) توطئة :

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله المعري وغيره : من أن المأمون كان من أفاضل
 الخلفاء وعلمائهم ، وحكامهم وحكامهم ، أو أنه كان ديناً ، عارفاً بالعلم ، فيه دهاء وسياسة
 أو أنه كان فطناً ذكياً ، أو أنه كان كاملاً علماً حوذاً ، عظيم المعوق ، مجيئ البقية ، حسن
 التدبير ، جليل الصانع ، لا تحدده الأمانى ، ولا تحور عليه الخدائع ، علمه بما بعده
 كعلمه بما حصره ، أو أنه كان متصفاً بالعدل والحلم .

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من حاجيه ، ولأن خطنا
 في كتابنا ، ومنهجنا في بحوثنا ، أن نترك للحوادث الكلمة العاصلة في تحليل صغاته ، اتباعاً
 للطريقة التحليلية التي اتبناها فيما كتبناه من سواه .

وقد أسلفنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة ، ووصلنا لك ما كان من أمر
 النزاع بين الأخوين ، ووصلنا لك إلى مأساة تلك الحرب الشعواء والفنية العمياء ، ألا وهي
 قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة والآت تتقدم إلى القول بأن
 المأمون بؤيع له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ ، واستقر كذلك إلى أن توفي عازياً
 في ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ فتكون خلافته ، قد أمانت على عشرين سنة . أقام منها
 في خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ ، حين انتقل إلى بغداد ، مقر الخلافة العباسية .

فيمكنا إذا أن نَقِسمَ كلامًا عن حكم المأمون الى مَدينَين: المَدِينَةُ الخِراسَانِيَّةُ، والمَدِينَةُ البَغْدَادِيَّةُ. وفي بيان هاتين المَدِينَتَيْنِ، بيانُ الحَالَةِ السِّيَاسِيَةِ الدَّاخِلِيَةِ فِي عَصَرِهِ، وهو ما سَنَمَاجُ الكلام فِيهِ الْآنَ :



(ب) السِّيَاسَةُ الدَّاخِلِيَّةُ :

١ — ملخص الحَالَةِ العامَةِ فِي المَدِينَةِ الخِراسَانِيَةِ

اطلعا في دور النزاع بين الأخوين على شيءٍ عَيرٍ قَلِيلٍ من مَصَرَفَاتِ الفِصْلِ بِنِ سَهْلٍ وتَديراتِهِ، ووقعا على أثره العَظِيمِ في الدُولَةِ، كما اطلعا على ما كان من نَجاحِ طَاهِرِ بْنِ الحُسَيْنِ وَهَرَمَةُ بِنِ أَعْيَنَ، في حُرُوبِهِما لِلجُيُوشِ الْأَمِينِيَّةِ .

ونَسْأَلُ الْآنَ، سَدَّ أَنْ يَمَّ الْأَمْرُ لِلأُمَمِ وَحَرَبِهِ، وَحَلَا الْجَوْلَى حَتَّى كَثُرَ لِلْفِصْلِ ابْنِ سَهْلٍ، أَمْسَ الْمَعْقُولُ أَنْ تَسْتَطِيعَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةُ الْبَارِرَةُ، الْفَارِسِيَّةُ الْمَثَبِيَّةُ وَالْقُرْعَةُ، دَاتِ الْبَيْتِ الْكَبِيرِ، وَالْجُمَاهُ وَالْأَصْدِقَاءُ، وَالْعُقَاةُ وَالْأَنْصَارُ، أَنْ تَحْتَمِلَ أَرْبَ يَكُونُ إِلَى حَامِيهَا شَخْصِيَّاتٌ بَارِرَةٌ مِنَ الْعَرَبِ كَهَرَمَةُ بِنِ أَعْيَنَ، وَأَطْلُكُ مِنْ ذَوَى الْفِصْلِ الْعَظِيمِ وَالِدُورِ الْأَوَّلِ فِي السَّجَاحِ كَطَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ * .

نَحْنُ نَعْلَمُ مَا كَانَ مِنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخِراسَانِيَّ مَعَ أَمْثَالِهِ مِنَ الْقَادَةِ وَالْجُمَاهُ، كَمَا نَعْلَمُ مَا كَانَ نَصِيهِهِ مِنَ الْخُلَيعَةِ الْمَصْصُورِ . نَعْلَمُ ذَلِكَ، كَمَا نَعْلَمُ الْكَثِيرَ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِنَّهُ يَلُوحُ لَنَا، مِنْ عَيْرِ أَنْ يَصْدُو الْعُصُوبُ كَثِيرًا، أَنَّهُ فِي مَقْدُورِنَا أَرْبَ نَحْيِبُ عَنْ تَسْأُلِنَا هَذَا . إِنْ الْمَعْقُولُ، فِي طَبِيعِهِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ الْعَدُوَّةُ، فِي تِلْكَ الْأَرْمَانِ الْمَطْلُوقَةِ الْحَكْمَ، أَنَّهُ تَعْمَلُ عَلَى إِزَالَةِ كُلِّ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِرَةِ مِنْ طَرِيقِهَا، لِيَكُونَ ذَلِكَ لِأَطْلَاعِهَا مَهْذًا، وَنَحْطُطُهَا مَهْذًا .

يَلُوحُ لَنَا أَمَا لَا يَصْدُو الْعُصُوبُ إِذَا قَلْنَا ذَلِكَ . إِذَا أَنْ هَذَا هُوَ مَا فَعَلَهُ الْفِصْلُ بِنِ سَهْلٍ مَعَ الظَّاهِرِينَ وَأَصْحَابِ الْكَلَسَةِ فِي الدُولَةِ ؛ فَإِنَّ التَّارِيخَ يَنْبَغِي أَنْهُ رَأَى مُسْتَقْبَلَهُ وَمُسْتَقْبَلُ حَرَبِهِ، يَكُونُ مَهْذًا ، إِذَا بَقِيَ طَاهِرُ وَهَرَمَةُ فِي الْمَرَاقِ، فَاسْتَصْدَرَ أَمْرَيْنِ

ملوكين : أولها تولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فتح بجهود طاهر ، وقيادته الحكيمة ، وإخلاصه للقضية المأمونية . يسلنا بأنه نصّب على كُور الجبال وفارس ، وعلى الأهواز والبصرة ، وعلى الكوفة والمحاذ واليمن ، كما يبلّغنا بأنه ولى طاهرا الموصل والحزيرة والشام والمغرب . ولكي يتم الأمر بإبعاده ، كتب إليه أن يسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال ، وأن يبادر في الشغوص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شيث . وثانيهما إلى هرثمة أن أعين يكلفه به أن يشحص إلى نحرسان .

ولتسائل الآن : هل كان من المصلحة السياسية ، هذه الصدمة العيفة لزعيمين قويين ، أحسا اللآء في الدولة ، ولهما مكانتهما ، ولهما حزبهما ؟ وهل كانت من المصلحة السياسية إحلاء العراق ، وهو مصدر الشقاق والحقا والمصيان والعدوان ، من هرثمة وطاهر ؟ وهل كان من المصلحة السياسية ، أن يترك المأمون مسألة ، كسالة تعيين الحسن ابن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر ، عز هكدا ، فيستغلها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته ، ومن غير بني هاشم ممن يودون زوال الملك الهاشمي ، يقول — فيما يقولون عنه — إنه عُلب على أمره ، أو أت العرس ملكوا زمانه ، أو أت الفضل بن سهل أزلّه قصرا لحجه عن رجالات دولته ، وأن السلطان ومقاليد السلطان ، قد نُزعت منه ؟ .

نعود لتسائل : أكان ذلك كله من مصلحته السياسية ؟ .

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طعنا ، لا سيما أنه لم تسكن الفتى والثورات مدّ في الأقطار المأمونية . ولكننا نميل إلى اعتماد أن المأمون كان مرعيا على الوقوع في هذه العلطه السياسية ، وهو ذلك السياسي المحكم والداهية القدير ، كما رأيت وكما ستري في موضعه ، لأن ظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممن يكون في مكانه ، ولأنه ربما تخشى بتصرّفه ذلك خطراً أجسم ، وأوسع نطاقا ، وأبعد مدى ، وهو خطر إعصاب الفضل بن سهل وحماة الفضل بن سهل .

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل، وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون، بعد أن تم له الأمر، في مرو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شيعه المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والزاعمين عن سلطانه من جهة أخرى. ذلك أن أنصار المأمون وقواده، ونحس بالذكر منهم طاهر ابن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كسروا قلوبهم وقُل من عزائمهم، أن يكون جرائهم على فوزهم وحس ملائهم وإحلاصهم، تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

هذا كان أثرها في شيعته وخاصة أنصاره. وأما غير هؤلاء، فقد حملت هذه التصرفات ألسنتهم تطلق باتهام المأمون بأنه يميل إلى الحراسانيين، وأنه أصبح آله في أيديهم يحزكونه كما يشامون وقد حدث من خراء هذه الإشاعات وتورثه أنصار المأمون الذين لم يحازوا الحزاء الأولى، أن اضطربت الأمور، وكثرت الفتن، ووجد أعداء المأمون الفرصة سانحة لتحقيق أطاعهم. ومن تلك الفتن ما يمجسنا التاريخ عنه: من حروح محمد بن إبراهيم العلوي المروفي وابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتدبير أمره رجل من رجالات هرثمة بن أعين وبقار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزق: هذا الرجل هو أبو السرايا المروفي بن منصور، وكان هو الخارج على المأمون في الواقع لا ابن طباطبا وقد بلغ من أمره أن صرَب الدراهم ووجد الخوَد، حتى اضطَرَّ الحسُّ بن سهل أن يسترضى هرثمة، ويستعينة، ليكفيه شرُّ هذا الخارج القوي.

ويظهر أن موت الرعاء، كان طلبًا من الطلام، أو سرًا من الأسرار، أو صاعَةً من الصناعات الخفية إما نجد أن محمد بن إبراهيم هذا، الذي تمتَّ مزئله بين أتاعه، وعظمت طاعتهم له، قد مات، بعد أن كُتِبَ النصر للقائم بتدبير أموره علي سليمان بن جعفر وإلى الكوفة من قبل المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولّي مكانه غلاما أمرد حدّثًا، هو محمد بن محمد بن زيد العلوي.

وتَمَّالَ مَعَى لِنَظَرِى حَوَادِثَ سِتَّةِ سِنِينَ وَتَسْعِينَ وَمِائَةً . فَمِىهَا مَا يَكْشِفُ
الْقِيَاعَ عَنْ أُمُورِ جِسَامٍ ، تُعْبِدُنَا فِي تَعَهُمُ الرُّوحَ الْحَزْبِيَّةَ بَيْنَ الْعُلُوِّىِّينَ وَالْعَاصِيِّينَ وَتُعْبِدُنَا
أَيْضًا فِي إِمَامَةِ اللَّثَامِ عَنْ سَبَبِ هَامٍّ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا تَبَرُّمُ بَعْضِ الْوَلَاةِ الْكُفَّاءِ
بِدَوْلَةِ الْفَصْلِ بْنِ سَهْلٍ وَأَفْرَادِهِ هُوَ وَحَاضَتُهُ بِمَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ وَوُضَاعَتِهَا .

تَعَالَى نَظَرِى حَوَادِثَ تِلْكَ السَّنَةِ ، فَحَدَّ فِيهَا أَنْ هَرَمْتُ حَتَّى طَلَبَ أَبِي السَّرَايَا صَدِيقَهُ
بِالْأَمْسِ وَمُارِلَهُ الْيَوْمَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا وَقْعَةٌ شَدِيدَةٌ ، قُتِلَ
فِيهَا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي السَّرَايَا حَلَقٌ كَثِيرٌ ، أَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَقْصِمُكَ أَنْ إِيمَانُضَةً رَصًا وَأَسْمَامَةً
تَشْجِيعٌ ، لِرَحْلِ مَنْ رَحَالَابِ الدَّوْلَةِ ، كَافِيَةٌ لِأَنْ يَنْهَضَ فِيحَارِبَ زَمِيلِهِ وَيَقَاتِلَ حِدْنَهُ . ثُمَّ تَحَدَّ
فِي ذَلِكَ السَّنَةِ فِيهَا أَنْ عَمْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَثَبَ ، وَمَعَهُ الْحَزْبُ الطَّالِبِيُّ ، عَلَى دُورِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَدُورِ
مَوَالِهِمْ وَأَتْنَاعِهِمْ بِالْكُوفَةِ ، فَاتَهَوُّوْهَا وَحَرَّوْهَا ، وَأَخْرَجُوْهُمْ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَأَسْتَحْرَجُوْا الْوَدَائِعَ
الَّتِي كَانَتْ لَمْ عَسَدِ النَّاسِ فَأَحْدَوْهَا ، وَعَمِلُوْا فِي ذَلِكَ عَمَلًا قَبِيحًا . وَتَحَدَّ كَذَلِكَ فِيهَا أَنْ
مَسْرُورًا الْكَبِيرَ الْخَادِمَ الرَّشِيدِيَّ ، قَدْ حَمَّ تِلْكَ السَّنَةِ فِي مَائَتِي فَارِسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ عَنَى
لِحَرْبٍ مِنْ يَرِيدِ دُخُولِ مَكَّةَ وَأَخَذَهَا مِنَ الطَّالِبِيِّينَ ، وَأَنَّهُ قَالَ لِعَامِلِ مَكَّةَ دَاوُدَ بْنِ عَمِيصٍ :
أَقِمْ لِي شَعْمَكَ أَوْ شَعْمَكَ بَعْضَ وَلَدِكَ وَأَنَا أَكْفِيكَ قِتَالَهُمْ ! فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ : لَا أَسْتَحِلُّ
الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَاقْعَ لَنْ دَحَلُوا مِنْ هَذَا الْفَجِّ ، لِأَخْرَجَ مِنْ النِّجَاحِ الْآخِرِ . فَقَالَ لَهُ
مَسْرُورٌ : تُسَلِّمُ مَلِكَكَ وَسُلْطَانَكَ إِلَى عَدُوِّكَ وَمَنْ لَا تَأْخُذُ بِكَ لَوْمَةٌ لَائِمٌ فِي دِينِكَ
وَلَا حُرْمَتِكَ وَلَا مَالِكَ ! قَالَ لَهُ . أَيْ مَلِكِي ! وَاقْعَ لَقَدْ أَقْمْتُ مَعَهُمْ حَتَّى شَحَبْتُ ، مَا
وَلَوْنِي وَلَايَةً ، حَتَّى كَثُرَتْ سَيِّئَاتِي ، وَفَنِي عَمْرِي ، فَوَلَوْنِي مِنَ الْحِجَازِ مَا بَيْنَهُ الْقُوَّةُ ، إِمَّا هَذَا
الْمَلِكُ لَكَ وَلَا شَاهَكَ ! فَقَاتَلَ إِنْ شِئْتَ أَوْ دَعُ !

هَذِهِ حَالَةُ نَفْسِيَّةٍ لِبَعْضِ الْوَلَاةِ الْعَرَبِ ، قَدْ يَكُونُ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تُنَظَرُ تَرْبِيَّتُهَا
وَمُضْطَظُّهَا مِنْ سِيَاسَةِ الْعَصْرِ ، أَوْ مِنَ الْهَيْمَنَةِ الْفَارِصِيَّةِ عَلَى شَقِّ أُمُورِ الدَّوْلَةِ عَامَةً وَالْجَسِيَّاتِ
مِنْهَا خَاصَّةً فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ . وَرَبَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْحَالَةُ النَّفْسِيَّةُ تُمَثِّلُ لَكَ حَالَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ
نَفْسِيَّاتِ الْعَرَبِ لِذَلِكَ الْمَعْدِ .

ثم لسطر في حوادث سنة مائتين ، فجد أن زيد بن موسى الطالبيّ المعروف "زيد النار" كان بالبصرة ، وإما سُمّي "زيد النار" لكثرة ما حرقه من دُور العباسيين وأتباعهم في البصرة . وكان إذا أُنّيَ برحل من المسوِّدة العباسيّة ، كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار . وبعد فيها أن ابراهيم بن موسى الطالبيّ قد حرق باليمن . ونجد أيضا أن الكسة وخرائنها وأحجارها الكريمة ، لم تسلم من أي السرايا وأتاعها العلويين ، وكَم حبس من العباسيين وكَم آذى ! حتى نَدَّتْ محمد بن مسَلَمَة الكوفيّ لتولّي عذاب العباسيين ، فأشرف في ذلك ، حتى سُمّيت داره "بدار العذاب" . ونجد أيضا أن حارجيا آخر ، وهو حسن ابن حسين ، أراد اقتناء ما رَسَمه أبو السرايا ، فذهب الى علويّ وداع محبّ معروف في مكة والمدينة ، وهو محمد بن جعفر ، ونَصَبه خليفة أسما ، وجعل السلطان بيده فعلا . وبعد فيها قناخ ومصائح لحسن بن حسين هذا ، مع زوجة قرشيّة من بني فهر ، وروجها من بني مخروم ، ولها حمالٌ مارعٌ ، فاعتصمها من زوجها . ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المغيّب من عليّ بن محمد الخليفة المصوب ، مع ابن القاضي إسحاق بن محمد ، وكان حبيلا مارعا في الجبال ! .

نجد ذلك كله ، ونجد الكثير من أمثاله ، مما أدى الى إثارة الرأي العام في مكة ، فاحتجوا ، حتى ردّ الصبيّ لأبيه مكرها من عمّا ! ونجد فيها أمثلة عدّة لاستلاب أموال الناس ، كما نجد فيها رجلا عاسيا موتورا من العلويين ، وهو محمد بن الحكيم ، ممن كان الطالبيون قد انتهوا داره وعذبوه عذابا شديدا ، عَثَرَ على محمد بن جعفر الطالبيّ الخليفة المصوب ، وقد طُرِدَ شَرٌّ طردة ، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل . فلقيد هذه الحادثة ، فها تمعنا في تفهّم السر الذي كان كثيرا ما يحدو بالمأمون الى احترام العلويين ، وتقدير مكاتبتهم والعمل على إرضائهم لأن لهم حرمة في نفوس حرب غير قليل من الشعب . ونجد في السه ذاتها أن الخ قد تولاه أكثر من شخص ، تعمّد السلطات . فندب المأمونُ أبا إسحاق بن هارون الرشيد . ووجه ابراهيم بن موسى الطالبيّ ، الذي نخرج

بايمن ، رجلا من ولد عقيل بن أبي طالب ، كما وجه غيره من يمثله ، مما يدل على الفرقة والافتقار ، وعلى الفوضى والاضطراب . فلتتروا ذلك جيدا .

ويحذر بها ها أن نيتن نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين ، فقد بلغ أبا اسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية اتت أنت من اليمن للحج ، قد مرر بها فاعلمت من الحاج والتجار ، وفيها كسوة الكعبة وطيبها ، فاستلست أموالهم وطيبهم ، فذبت لهم محمد بن عيسى بن يزيد الحلودي الذي أحلف بهم فأسر أكثرهم ، وهرب من هرب منهم ، وأحد منهم الطبيب وأموال التجار والحاج ، فوجه به الى مكة . ودعا من أسر من أصحاب العقبيل العلوي ، فأمر بهم فقتل كل رجل منهم عشرة أسواط ، ثم قال لهم : ” أعزُّوا يا كلاب السار ! موافق ما قتلتم وعمر ، ولا في أسركم جمال “ . وحل سبيلهم . ولما لاحظ تسميته لهم ” بـكلاب السار “ !

وإنا لنحصى لك الحوادث التي وقعت بعد أن قمع هرثمة ثورة أبي السرايا ، التي انتهت بقتله عام ٢٠٠ هـ . وإجماع قننته ، معتمدين في ذلك على الطبري والأستاذ «ميور» خاصة :

لما قمع هرثمة ثورة أبي السرايا ، عاد الى نهروان ، دون أن يخرج على والي بغداد ، وهناك وافاه أمر الخليفة بتولية حكم سوريا وبلاد العرب ، وكان قد اعترم الزهراء بعد ذلك الى « مرو » مباشرة ، ليكشف للخليفة عن حقيقة الموقف وحرجه ، الذي يخفيه عنه وزيره الفضل ، بسبب بقاء الخليفة في « مرو » وأن الغرب سيتقص عليه سريرا ، ويخرج من يده اذا هو لم يبادر الى العودة الى بغداد . فلما أحسن الفصل عزم هرثمة على القدوم قتل الى ما يتوهم ، فدرس له عبد المأمون ، حتى أوعر صدره عليه ، وكادب السة تنهى قبل أن يذهب هرثمة الى « مرو » . فلما ذهب حتى أن يكتم الفصل خبر قدومه عن المأمون ، فبق الطول عد دخوله المدينة . فلما علم الخليفة الموعر الصدر قدومه أمر باحصاره ، فلما مثل بين يديه بالغ في تعريجه وتأنيبه على توانيه في تسكين ثورة أبي السرايا ، وفي مخالفة ما أصدره اليه من أمره بالذهاب الى ما ولأه من أعمال

وما كاد هذا القائد يهَمُّ بالكلام ويشرح لمولاه الحالة، حتى همَّ عليه الحرَّس الذين أسرَّ اليهم الفصل أن يُعطوا في تعذيبه، فاهالوا عليه صرماً وَلَكْجاً، على وجهه وجسمه، ثم محبوه بسرعة إلى السجن حيث مات به بعد زمن قصير، متأثراً بجروحه . ولقد اعتقد عامة الناس أن الذي أماته هو الفصل .

وهكذا اطّوت صحيفة هذا الداسل العظيم الذي ذُتَّ عن مُلكِ المأمون، وكأخٍ في توطيد دعائم الدولة، من أفريقية إلى خراسان، والذي رحع إليه الفصل الأكرم في انتصار المأمون على أخيه المخلوع . ومات هذا القائد العظيم محمياً للعبادة وبكرام الجليل، كما مات أمثاله من قبل من صادف هذه الدولة من حراء السعابة والمدافسة، ومن حراء أعمال البطانة ودسائس الخاشية .

ولتسائل ما ذا كانت بئحة قتل هرثمة ؟

محدثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوماً في القرب، وأن موته أحدث قتلاً وقلقاً في بغداد، وتارت الجود في وجه الحسن بن سهل، إذ علّوه آلة في يد أخيه الفصل الذي كانوا يعتبرونه المحبوس . وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، طجاً إلى «المدائن» ثم أرتدَّ إلى «وَأَسِط» . وأسقطت العتق والقلق بعد ذلك قائمه ببغداد شهوراً عنه، نشطت في حلالها عصابات اللصوص وشرادمة الصعاليك، وثمرت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب، حتى طغى سيل عاراتهم على تلك المدينة المسكودة، التي أصبحت تحت رحمتهم . ومحدثنا التاريخ أنهم قد أسروا في ذلك إسراماً عظيماً، مما فزع له أعيان المدينة ووجهاؤها، فأحموا أسرهم على صد هؤلاء السفلة الأشرار ودفع عائلتهم عن المدينة وأهلها . ولما تمَّ لهم ما أرادوا، احتاروا من يدهم رحلين من دوى الفضل والمكانة فيهم، وولّوها تدبير الحكم، ريثما تستقر الحال ويعود الأمن إلى بصابه . ثم عرّضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له، فتأبى عليهم، ولكنه عاد وقيل أن يتولّى الحكم باسم الخليفة المأمون . ولم تُورثك هذه السنة أن تنتهي حتى كان قواد الجند في بغداد قد سموا القتال،

فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالي هاد الى ضداد عد أن أصدر عفوا عاما ، ووعد بأنه يدهم لمجد روائتهم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لدوى المعاشات أوراقهم حسبما هو مُدرجٌ بقوائمهم .



ولتسائل الآن ما ذا حدث بعد ذلك ؟ .

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهى على هذه الشروط ، حتى عادت الفتنة والاضطراب أشد مما كان عليه . ذلك بأن المأمون، لفرض سياسى ، أو لفرعة شيعيه، أو لتقدير كفاية خاصة، استدعى واحداً من سلاله سيداً على ، وهو «على الرضا» رضى الله عنه ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين ، الى «مرو» ، وأختاره ولياً لمهد الخلافة، مع أنه يكبره بأثنتين وعشرين سنة . ووربما كان المأمون فى رأيه هذا صادرا عن رأى وزيره الفضل الذى رآه له أن هذه الأنجح وسيلة لتسكين ثوره العلويين فى الغرب . ووربما كانت تصح هذه الوسيلة فى التوفيق بن اليتس العلوى والعاسى ، قبل استعمال الخُطْب بينهما . أما وقد استطار الشر بينهم ، وقَلَب بعضُهم لبعض ظهرَ الحِجَب ، ولَبَسوا جِلْدَ الخِيَر ، وتحَمَّزوا للقتال ، وتَدَاوَا لِلحِلَاد ، فإن أمر الوفاق بينهم صار حُلماً ، وعاد الإقدام عليه صحفاً وحماقةً مُهلكة ! .

وما ذا ترتب على إساد ولاية المهد لعد من العلويين ؟ .

إن التاريخ يحدثنا أنه ترتب على إساد ولاية المهد لعد الرضا أن أمر الخليعة ولأته فى جميع أنحاء الدولة بأحد البيعة لولى عهد . ولكى يجعل المأمون الدولة يصططع بصيغة العلويين ، حلع الشعار الأسود ، شعار العباسيين ، وأرتدى الشعار الأحمر ، شعار الشيعة ، وأمر عُمَّالَه بالانقياد به . وفى أواخر هذه السه تلقى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمراً بإعلان ذلك وتسيينه ، فكان لذلك الأمر أسوأ أثر فى أهل ضداد ، إذ وقع عليهم كالصاعقة ، لأن أهلها كانوا يحافون الشيعة ويمقتونهم ، وكذلك شعر العباسيون بأن الصرمة موجهة للقضاء على خلافتهم ، فشَقُّوا عصا الطاعة ، وهُمُّوا بحلم المأمون واختيار خليفة

سواه ، ولم يعارض زعماء البيت الملكي من العباسيين في ذلك . فلم تأت أئرجمة من هذه السنة حتى دعى لإبراهيم بن المهدي على المأبر خليفة بدلاً من المأمون ؛ وسرعان ما أُوبِج له بالخلافة . وكان إبراهيم مارعا في الموسيقى والعِيساء والشعر ، ولكن كانت تنقصه المؤهلات التي يستطيع بها أن يصطلع ماعاء الملك التي أُلقيت على عاتقه ، والتي ناه محلها مدته سنتين .

ثم ماذا كان بعد ذلك ؟

نُسِب القتال بين حنود المأمون وحنود إبراهيم المختصب للخلافة ؛ فاصطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد الى وَاِسْط مرة أخرى ، وُخِيل اليه أنه اذا جارى أهل الكوفة في مُيولهم الشيعية ، يستطيع أن يصمها اليه ، وبدأ ذلك بأن ولى عليها أحد إخوة علي الرضا ولم يدر أن التوفيق بين عائلتي علي والعباس في مدينة كهده متقلبة الأهواء ، صرْب من المستحيل ، فان أهلها كانوا على استعداد ، في أول أمرهم ، للقاء الحسن كقائدي من صميم العلويين ، ولكنهم انتقصوا عليه باعتباره الوالي الفارسي من قَبْل المأمون ، وعلى ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضا كما قامت في صيرها .

ثم ماذا حدث بعد ذلك ؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب عارقا في لحج هذه الفوضى ، حدث في مَرَو تغييرٌ حديد ذو شأن : ذلك أن المأمون قد تنبه في آخر الأمر ، لحرج الموقف ، وخطورة الحالة ، ومن العريب أن أول من نبه الخليفة الى هذا الخطر المُحْدِق به ، وبعرش آبائه وأجداده ، هو علي الرضا نفسه ، فتبين المأمون أن ولايته للعهد كانت شؤما على الدولة ، إذ سارت الأمور فيها من سبي الى أسوأ ، زُهاء عام منذ توليه .

ويحدثنا التاريخ أن عليا الرضا حلا بالخليفة ، وكاشفه أن الفضل وزيره يُكَاثِمه حقيقة الحال ، ويعنى عه أمور الدولة ، وأن أهل العراق يقولون عنه (أى الخليفة) : إنه مجنون أو مسحور ، وأن الخلافة توشك أن تُخْلَت من يده بين إبراهيم والعلويين ، وأن الحسين

أخا الفضل يعمل في القضاء على الغرب ، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذي يستطيع أن يقود سعية الدولة الى شاطئ النجاء مبهوذ في سوريا .

وقد أبد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها ، بعد أن أعتنهم المأمون من غضب وزره ، ونصحوا اليه بأن حير علاج لسلامة الدولة أن يعمل بالعودة الى بغداد ، وقالوا له : إن هذه كانت نصيحة هرمة ، التي جاء من أهلها مد ستمين لسرها اليه لو أنه أمهله واستمع له ! .

فايق المأمون أخيرا أن استسلامه للعصل واهياده له ، كانا سببا لكل ما حدث من الفتن والثورات ، فأمر بانتقال بيت الخلافة الى بغداد ، وماكادوا يحلّون سرّخس وهم في طريقهم الى بغداد ، حتى وحدوا الفصل قتلا في حمامه ، وكان الفصل ، قبل ذلك قد اصطهد حماة القواد والرعاء الذين كشموا أمره عد الخليفة ، فعد الخليفة بمكافاة لمن يأتيه بالقتلة ، ولما قص عليهم داهوا عن أصعبهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة ، ولكن لم يُعهم دفاعهم شيئا ، وضربت أعاقهم ، وبعث الخليفة براء وسهم الى الحسن بن سهل مشفوعة بكتاب تعزية منه ، ووعد فيه بأنه سيستوزره خلفا من أخيه ، وطلع من عطف الخليفة عليه ، أو من سياسته وحكيم تديره ، أن عقد زواجه من ابنته بُوران ، التي كانت اد داك بما قيل طفلة في الحول العاشر من عمرها ، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك . وفي الوقت نفسه زوّج إحدى بياته لعلّ الرضا الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ الرامة والحسين من عمره ، كما زوّج بنتا له أخرى من اس عليّ الرضا ، وكذلك ولّى أحد إخوة عليّ الرضا إمرة الحج . وهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق الأوا بينه وبين الحزب العلوي . وكانت هذه المصاهرة في ذاتها تصرفا سياسيا آية في الحكمة والعداد .

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعا : ذلك انه في أثناء سفر الخليفة الى بغداد نزل طلوس في فصل الخريف ، وهناك مات عليّ الرضا فجأة ، وقيل : إن

موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، مدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهترت الدولة لموته الفحاشي الذي جاء عقب مقتل العصل، وإياه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته . كما أنه من المعقول أيضا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل : إن المأمون دس له السم في العنب، بيد أن الرعاية التي أطهرها المأمون لعل الرضا، خصوصا بعد توثيق عرا العلاقات بعد المصاهرة، قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة .

إما لا نتمكن من أن نعرض من جهة أخرى : أن العصل وعليًا كما عنة كآداء في سهل المأمون، لا يزيلها من سبيله إلا موتهما، ويحوز لك أن تذهب في التذليل على أن المأمون كان يعد عليا عنة في سهل إرضاء أهالي بغداد، إلى أنه في الوقت الذي كتب فيه كتاب تعزية إلى الحسن بن سهل يتبع فيه موت علي أرسل كتابا آخر إلى أهل بغداد يقول لهم فيه : إن عليا الذي أطهروا مضطهم وتترهم من إساد ولاية العهد له قد قصي، فلا شيء إذا يمهم الآن من العودة إلى طاعته وموالاته .

على أنا لا نحاريك في هذا الافتراض، لما بناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وحالته، مما ستقف عليه قريبا، لما يجعل هذا الافتراض واهنا ضعيفا .

أما فيما يختص بكتاب المأمون إلى البغداديين بشأن موت علي الرضا فنقول لك : إنه وإن لم يُحدث أثره المطلوب تماما في نفوس البغداديين، لأنهم أحابوا به بكتاب جاف فاتر، إلا أنه قد حطاه بخطوة ثا في سبيل استمالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار أراهم القلائل يتفصون من حوله، لضعفه وسوء تديره في إدارة الحكم، وتحلى به جوده، ولم يتقدموا المدافعة لجود المأمون، وسقطت المدائن التي كان فيها مقر حلاقته، في أيدي جود المأمون، وسامت أحواله، واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء. ولما دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها، خرج اليهم قواد المدينة وزعمائها، يظهرهم ولائم وطاعتهم للمأمون .

وما كادت تتصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة ، وحتى اختفى إبراهيم كما اختفى غيره ، ممن كانوا قد خرجوا على المأمون ، وذلك بعد أن عانت ماعانت من ضروب العوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريباً ، وبقى محتجاً فيما يقال ثمانى سنين ثم قُبِضَ عليه متنكراً فى زى امرأة ، ثم عفا عنه المأمون وسند ذكر ذلك فى موضعه .

٢ — ملخص الحالة العامة فى المدة البغدادية — دخول المأمون بغداد

فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م)

لما نحدث ثورة بغداد ، وفزع إبراهيم بن المهدي محتجياً ، واستقرّ النظام وعاد أهلها الى الطاعة والولاء لخليفتهم ، تقدم اليها المأمون مُتّبِداً فى سببه ، إذ كان يقف فى أثناء سفره بالمدائن التى يمر بها كي يعيد اليها الأمن ويُقرّ فيها النظام ، فأقام فى جُرحان شهراً كما أقام فى التَّهْرَوان ثمانية أيام ، فخرج لاستقباله أهل بغداد ، يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاءً بقدومه اليهم .

وكان المأمون قد كتب فى أثناء سفره ، الى طاهر وهو فى الرقة أن يوافيه فى التَّهْرَوان فوافاه بها ، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغداد فى صفر سنة ٢٠٤ هـ (أغسطس سنة ٨١٩ م) .

وكان لا يزال الشَّعارُ الأخضر ، شعارُ العلويين الذى اتخذه المأمون وهو مَرُوء ، شعارَ الدولة ، فما زال به يكرِّم قواده وأهل بيته حتى طرحه ، واستبدل به الشَّعارُ الأسود : شعارُ العباسيين . ويحتشاً يحيى بن الحسن : أن المأمون ليس الخُفْزَة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوماً ثم مُرِّزَتْ ، ثم حُلِجَ الخَلْعُ السَّيِّئُ على من حَصَرَ من القواد والأشراف ورجال الدولة ، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين ، الذى كان اختفى بعد مقتله ، ثم ظهر مساعداً لإبراهيم بن المهدي فى ثورته ، وكذلك عفا عن عيسى وزير إبراهيم ، مع انهما كانا رأسى الفتن والقلاقل التى أثيرت على حكم المأمون ، فكان موقفُ المأمون منهما غايةً فى التسامح والكرم .

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة، بدحول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نُصْرَبِ شَبَت حارحا في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحا للفتن والقتل، وبأنك الخُرْمَى يعظم خطرُه في شمال فارس، والزُّطُّ لا يزالون يعيشون في الأرض مسادا على الخليج العارسي. وسقَصَ عليك في موضعه ما وصلت اليه هذه الثورات وكيف أُجِبت.

ثم ولَّى المأمون طاهرا حاكما على بغداد، وأقام أبه عَدَّ الله واليا على الرِّقَّة حلفا من أبيه. حير أن المأمون لم يلبث أن تنكر طاهرا وأظهر له الجفوة. ثم نرى بعد قليل أن طاهرا ولَّى حاكما على حُرَّاسان.

وقد كنا نكون في حيرة من أمر هذا التنكر الصغاني من الخليفة على رحله العظيم من غير سبب طاهرا، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكما على حراسان، أولا أن أبي طيعور بروى لنا أسباب كل هذا في قصبة مُتَمَتِّة ملحصا: أن طاهرا دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيما قيل في مجلس شراب، فأمر له بِرِطْلَيْن من البسند ثم بكى المأمون وتغصَّرت عيابه، فقال له طاهرا: يا أمير المؤمنين لم تنبكي لا أنكى الله عيك! فوافقه لقد دانت لك البلاد، وأدعى لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك، فقال: أبكي لأمرٍ ذكَّره ذلَّ، وستره حرن، ولن يحلو أحد من قُجَّي: فكلم بحاجة إن كانت لك. فما زال طاهرا بعد ذلك يتحد الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفق بالمال إلى إعراء ساق المأمون أن يتعرَّفَ كُتَّة ذلك السبب. فلما تعدى المأمون ذات يوم قال لساقه: يا حسين، اسقني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لم يكيت حين دخل عليك طاهرا! قال: يا حسين، وكيف عُيِّيت بهذا حتى سألتني عنه؟ قال: انمى بذلك، قال: هو أمرٌ إن خرج من رأسك قتلُك، قال: ياسيدي، ومتى أخرجت لك سرا! قال: إني ذكرت محمدا أنى، وما ماله من الذَّلَّة لمحقني القبرة، فاسترحت إلى الإفاضة. ولن يفوت طاهرا متى ما يكره. قال: فاحبر حسين طاهرا بذلك، فركب طاهرا إلى أحمد

ابن أبي خالد — وهو وزير المأمون — فقال له : إن الثناء متى ليس بريخيص، وإن المعروف عدى ليس بضائع، فثبني عن عيه . فقال له : سأفعل فبكرت على عدا . قال وركب ابن أبي خالد الى المأمون، فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة، فقال له : ولم ويحك ! قال : لأنك وليت غسان خراسان، وهو ومن معه أكلة رأس^(١)، فأحاف أن يخرج عليك حارجة من الترك فيصطلمه ؛ قال : لقد فكرت فيما فكرت فيه، قال . من ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين ؛ قال : ويلك يا أحمد ! أهو والله خالع ! قال : أنا الصامن له ؛ قال له : فأعذه، قال : فدعا طاهر من ساعته .

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواء، لم يكن مطمئنا، مع صمان وزيره لطاهر، الى تعيينه حاكما على خراسان، فان بعض الرواة يقول : ان المأمون أسر الى خيصى له أمين يرافقه طاهر، حتى اذا رأى منه نعروحا دس له السم .

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولى شؤون خراسان، وأدارها بحزم وسداد رأى، حتى طهر منه ما كان يحشاه المأمون، من خروج وعصيان، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، ودكر دعاء مبهما لصرة الدين، فأنفذ عن المأمون طامل البريد هورا بكتاب الى المأمون، يحسبه فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوهم عن كتاب آخر ويخطر هارح الصبرى اليوم التالى لورود الكتاب الأول، وقد جاءه هذا الكتاب فعلا يبنى طاهرا الذى وجد ميتا فى فراشه .

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من التموض فى هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرفات المأمون مع طاهر، ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك، كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج . ولا نستطيع أن نمشئ الأسناد « ميور » الذى يرى أن على هذه الحوادث جميعها عشاء من التموض كشيئا .

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشعهم رأس واحد .

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولى مكانه ابنه طلعة، وأن يستبق ابنه عبد الله وإليه على الجانب الشرقي من الخلافة، ليقمع ما فيه من ثورات، ويسكن مابه من اضطراب. ثم أرسل وزيره مع طلعة ليقوى دعائم سلطانه في ولايته، فشخص الوزير إلى ما وراء النهر، وقام بحملة موفقيه على بعض المصاة، ثم قفل راجعا إلى بغداد مزقدا — فيما يقول الرواة — بهدية نفيسة له من طلعة مقدارها ثلاثة آلاف ألف درهم ولكتبه أخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي تولى في فراشه، وربما كان الذي يعلم سر وفاته قبل سواء هو المأمون وطائفة، فقد قدما لك شيئا في كلنا عن النزاع بين الآخرين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وحبرته بالحروب، ولا يقل خطره في تدبير الحكم وشؤون السياسة عن خطره في الحرب، وكان مع ذلك مشعورا بالعلم والأدب، مشجعا لأرماهم، حاثا على تعلمهما. وليس أدل على تميزه في العلم والأدب، وحبرته بشؤون السياسة، وبصره بتصرف الأيام، من عهده الذي كتبه إلى ابنه عبد الله. ولما نرى ما تقدم به إليك هذا العهد، حيرا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له، واحتفائه به، واستنساخه، ثم إرساله إلى عماله والولايات. قال ابن طيغور: لما عهد طاهر بن الحسين إلى عبد الله ابنه هذا العهد، تنازع الناس، وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره، حتى بلغ المأمون فدعا به، وقرئ عليه وقال: ما بقى أبو الطيب شيئا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرجح وحفط البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدم فيه، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمون عبد الله لولاية مصر ومحاربة نصر بن شبيب لما رآه فيه من حرم وفضيلة وكفاية وحسن بلاء. وكان عهد أبيه إليه قابوا يطبقه على نفسه أحرم تطبيق، وكان لا يؤرد شيئا في شأن من شؤنه أو يصدره إلا على منجه وفي حدود إرشاداته.

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرا ذكره، وقد أثناء في باب المنشور من الكتاب الثالث في المجلد الثالث مراجعه .

٣ - ثورة نصربن شهب

أما نصربن شهب ، الذي وحّه عبد الله طاهر لمحارسته بعد أن وجه إليه أهوه ، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة ، وكثرت الأراجيف ، ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة لقاء المأمون في مرو بعيدا عن عاصمة الملك وحاصرة الخلافة . وكان من الممكن أن يكون مصبر ثورة نصر مصير غيرها من الثورات ، التي نهدت بسرعة ، لولا أن طاهرا لم يحد في محارسته . وقد ذكر أنه قال للحسب سهل حينما ندبه للخروج الى محاربة نصرب شهب : حاربته حليفة ، وسقت الخلافة الى حليفة ، وأؤمر بمثل هذا ! وإما كان يسعى أن توجه لهذا قائما من قوادى ! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرا ترك المنزعم أمام نصر بعد معارك حامية بين جديهما ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقى في يده من البلاد أن يعبر نصر عليها .

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهرا في محاربة نصرب شهب ، يرجع الى الصدمة التي صدمه بها آل سهل . حين حرموه من ثمار فتوحه في العراق ، له حظ كبير من الحق ، فاما لا نسيج غمز طاهرا عن مآهده نصر ، واحصاءه مع ما هو معروف عنه من الدهاء والبصر بالحرب ، وحسن معيته للجيوش ، ووضع أدق الخطط لحملاتها ، ومع أن وراء الدولة ثمة بما يحتاج اليه من حشد وسلاح وهال .

ومهما يكن من شئ ، فقد كثفت أنصار نصر وعظم خطره ، حتى ذهب اليه من شيعه الطالبيين فقالوا له : قد ورتت بجى الناس وقتلت رحالم ، فلوامنت حلیمه لكان ذلك أقوى لأمرک ! فقال : من أى الناس ؟ فقالوا : تباج لبعض آل على بن أبى طالب ،

فقال : أبايَ بعض أولاد السُّوداوات فيقول إنه حلقني ورزقني ! قالوا : فتابع لبعض
 بجي أميه ، قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم ، والمُنذر لا يُقِيل أبداً ، ولو سلم على رجل
 مدر لأعدائ إدباره ، وإعسا هوأي في عي العباس ، وإنما حاربهم بحماة عن العرب ،
 لأنهم يقدمون عليهم الحجم . فأقل قوله هذا طويلا ، فهو يُبَيِّط لنا اللثام عن حقائق يجب
 أن نقف عليها .

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر ، الذي نهض لمحاربة بصرى شَبَّهت كتب
 الى المأمون يعلمه أنه حصَّره ، وصيَّق عليه ، وقتل رؤسا من معه ، وأنه قد عاد بالأمان
 وطلَّه ، فأمره أن يكتب له كتابَ أمان ، فكتب اليه أمانا تسخته «أما بعد ، فإن
 الإعدام بالحق محمُّه الله المقرون بها البصر ، والاحصاح بالعدل دعوه الله الموصول بها
 العر . ولا رال المُعْصِر بالحق ، المحمَّ بالعدل ، في استفتاح أبواب البأسد ، واستدعاء
 أسباب المحم ، حتى يسمع الله وهو حر العاصم ، وعمَّكي وهو حر الممَّكين .
 ولست بعدو أن تكون فيما لمحت به ، أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملِّيس دسا ،
 أو مهوِّرا بطلب العَلَّة طلما ، فإن كتب للدين نسعى بما نصبح فأوضح ذلك لأمر المؤمنين
 يعتنم قولَه إن كان حقا ، فاعمرى ما همته الكبرى ولا عايته القصوى إلا الميل مع الحق
 حيث مال ، والروال مع العدل حيث زال . وإن كنتَ للدنيا تقصد ، فأعلم أمير المؤمنين
 عايك فيها ، والأمر الذي تسحقها به ، فإن استحقها وأمكنه ذلك فعله بك ، فلعمرى
 ما يسحبر مع حلق ما تسحقه وإن عظم . وإن كنتَ متهورا فسيكفى الله أمير المؤمنين
 مؤنتك ، وصحل ذلك كما عجل كفايته مؤن قورم سلوكوا مثل طريقك ، كانوا أقوى يدا ،
 وأكتف حندا ، وأكر حما وعددا وبصرأ منك ، فيما أصارهم اليه من مَصَارِع الحاسرين ،
 وأنزل هم من حوائج الطامس . وأمر المؤمنين يحم كتابه شهاده أن لا إله إلا الله وحده
 لا نبرك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وصمانه لك في دينه وذمته
 الصصح عن سوائف حرائمك ، ومعتقدات حرائرك ، وإزألك ما تستأهل من مبارل العز
 والرمه ، إن أنتَ وراجعت إن شاء الله ، والسلام .

وقد ذهب عبد الله بن طاهر الى وجهه في محاربة نصر، ولست في ما هديه، حتى اصطره الى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدة سعى المأمون الى إخماد الثورة من طريق الصلح، فهدى جعفر بن محمد العامري، ليؤدى رسالة منه الى نصر، يطلب منه فيها ترك الحرب والخروج الى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين، وتُخص الدماء، ويذهب عن الناس في تلك الواحي ما أصابهم من مروع وهلع، لولا حروانه^(١) في رأس نصر قاتلها أخرى، فيما يقول الرواه، في رأس المأمون، حالتا دون هذه الغاية السامية: ذلك أن نصر أقبل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطا بساطه. فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أحبيه والله الى هذا أبدا ولو أضيفت الى بيع ميمى حتى يطا بساطي^١ ثم كتب اليه المأمون بمد ذلك كتابا هذه نسخة:

أما بعد، فإني يا نصر بن شهاب قد عرفت الطاعة وعزها ورد طلبها وطيب مرمرها، وما في خلافها من الدم والخسار. وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يئلي لمن يلبس مظاهره المحم عليه، لتقع عنده ناهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إداركك وبصيرتك، إنما رجوت أن يكون ليما أكتب به اليك موقع منك، فإن الصدى صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وأهله الذين يُعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أعم لك في مالك وديك وبصيرتك، ولا أحرص على استنقاذك والانتبش^(٢) لك، من خطائك مني. فأى أقول أو آخر أو وسطه أو إفره إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين، فأحد أمواله، وتوالت دونه ما وآله الله، وزيد أن نيب أما أو مطمئا أو وادعا أو ساكنا أو هادئا، فوعالم السر والظهر، إن لم تكن للطاعة ضارحا، وبها حايحا، لتستو بلن وحم العاقبه، ثم لأند أن بك قبل كل عمل، فإن قروا الشيطان ادا لم تقطع،

(١) الحروانه، لك.

(٢) استنقاذك من الخطأ.

كانت في الأرض فتنة ومسادا كبيرا، ولأطانت بمن معي من أنصار الدولة صكواهل رِطَاج أحصائك ، ومن تأثت اليك من أداني البلدان وأقاصيها ، وطفانها وأوامشها ، ومن أنصوى إلى حورتك من حُرَابِ الساس ، ومن أعطه مله ونفثه عشيره لسوء موضعه فيهم ، وقد أخذ من أندرو والسلام .

ثم أحد عبد الله يَحْدَى عمارته وحصره حتى صبق عليه ، واصطره إلى طلب الأمان . وقد احتسب نصره وهو داهب إلى بغداد حاصبا للجليه ، احتفاء عظيميا ، بيد أن جماعة من كانوا مقيمين على المأمون ، لم يرفههم أن ينهض الخلاف بنه وبين نائز قوي ، فأرادوا أن يكتدروا صفاء السرور فدرؤوا مؤامره . وهي أن يقطعوا حصر الرواق ، عند اقتراب نصر بموكبه الحافل ، فصص عايهم . ولأمر ما كان المأمون ، على عبر عادته ، قاسيا في عقابهم . فقد جاء رعيهم اس طائسه ، فيما قال الرواه ، وهو من سى العاص ، ووضع على باب داره ، في أشعه الشمس المحرقة ثلاثة أيام ، ثم أمر نصر به بالنسياط ثم أمر نصر بعنه مع كثير من كانوا معه .

فول لأمر ما كان المأمون قاسيا في عقابهم . لأن الرجل الذي يصل به عفوه وحاميه إلى أن يعمو عن ابراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرهما ، من أصحاب الجبائر ومن كادوا له حما . وسعوا في صياح ملكه ، وأستلاب عرشه ، لا بد أن يكون الداهع له إلى القسوة في عقاب هؤلاء الأشخاص حاحه في نفسه غميب عليا . ونحن نعتز بأن المصادر التي بين أيدينا لم تفسر لنا نصيرا . معصا ، السر في هذا الاضططاط وهذه المبالغة في العقوبة من المأمون الوديع الحليم .

على أن هذه الحادثة تحتاج إلى تحقيق دقيق ولم تتح لنا المصادر الحاصرة القيام سترزوحه الحق فيها . ولا يستعد الله أن يكون المأمون منها برأ . ولت أعضاء المجمع العلمي العربي وعيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يصون بتحخيص مثل هذه القطع المهمة في تاريخ أزهي عصورنا الاسلاميه .

(١) أن احتطت لك واسمك اليك . (٢) الطام . أوعاد الساس . (٣) جمع حارب وهو اللص . وحده الأصمى سباق الاول .

٤ - الزط

أما الزط، فهم المعروفون بالثورة، وقد قال ابن خلدون عنهم : إنهم قوم من أحلاط الناس علوا على طريق البصرة، وعانوا فيها، وأهصدوا البلاد .

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء العموم في سلك أصحاب الثورات ، أو الخارجين على الخليفة، ليحلّ ديبه ، أو مذهب سياسي، وإعناهم طائفه من هود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، قد وُحدوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة، وضعف سلطان الحكومه، وانصراف القائمين بتسيير الشؤون العامة ، الى أمر القنص القائم بين الأميين والمأمون، التي انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعيث في الأرض فسادا، فتجمعوا واسلولوا على طريق البصرة ، فهم يُقرضون البحر وقطاع الطرق أشبه منهم بالناشرين وأصحاب المبادئ^١ .

ويظهر أنهم ، كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الحصري بك ، كانوا اذا أخرجهم الحد، معزّوقا في تلك القبايا ، فاسا يرى المأمون يكلف غير مرة أكثر من قائد أمر القنصاء عليهم، ثم زاهم لا يزالون يعيشون في الأرض فسادا، حتى السنة الأولى من عهد المعتصم ، الذي كلف أحد قواده : عُجَيْفَ بن عتسه القنصاء عليهم ، فاهتم عُجَيْف بحربهم ، وصيق عليهم طريق البر والبحر ، وحصرهم من كل وجه ، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل ، وقتل منهم نحو ثلاثمائة ، وقطع رموس الأسرى ومعت بالرموس جميعا الى المعتصم ، وجذ في حربهم حتى اضطروهم الى التسليم ، فادّا عنهم سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأه وصبي، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل ، ثم حملهم في السفن

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب العار : « إن الوثيقة من القائل الأسبوية كالفاحار اندرس سميه الصر والناثا وأرتز ، وهم يرمون بالثلمت في النساء والهايا ، وفي بلاد الانكليز اسمهم حسون ، ويسمى الترك باسم (قبط) ويربى منهم يسمى سبطه وهم سكان ترافيا ، وفي مصر يسمون تارة عمرا وتارة حلا » .

الى بغداد، فمروا على الموضع بأوقافهم وهيتهم الحربية، ثم يُقَلُّوا آخر الأمر الى قرية تسمى عين رربة^(١).

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤١ هـ في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين رربة هذه، فأحدثت من كان فيها أسيرا من الرط مع نسائهم وذراريهم ودوهم.

٥ - ثورة مصر

أما مصر، فقد كانت مسرحا للثقل والفتن، وكان رأس الفتنة وزعيمها عبيد الله بن الميرى بن الحكم الذي عظم خطرته ناشعا لعبد الله بن طاهر بخارطة نصر بن شيبث وإحصاءه، ومما راد في اضطراب الطام في مصر قدوم جماعة من أفاق الأندلس الى الاسكندرية، يبحثون عنهم الطبرى بقوله: حدثني غير واحد من أهل مصر أن مراكب أفلت من بحر الروم، من قبل الأندلس، بها جماعة كثره، أيام شعل الناس قتلهم بعنة الجعري وأبن الميرى، حتى أرسلوا مراكبهم بالاسكندرية، ورئيسهم يومئذ بدعي أبا حفص، فلم يزلوا بها مقيمين، حتى قدم عبد الله مصر.

ويحدثنا عن العدة التي كانت بمصر بقوله: قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قبل المشرق في حدث - يعنى عبد الله بن طاهر - والدنيا عندما مفتونة، قد غلب على كل ناحية من بلادها عائل، والناس منهم في ملاء، فأصلح الدنيا، وأمن البرى، وأحاف السقيم، واستوثقت له الرعية بالطاعة.

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر في مصر، فان التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شيبث، كما قدمنا، كتب المأمون الى عبد الله يأمره بالتوجه الى مصر لإنقاذ ما فيها من قوته، فذهب اليها، وحادث الثائرين القتال، حتى اضطروهم جميعا الى طلب الأمان، فأحاطهم اليه.

(١) مسطحا ياقوت فتح الزاى وسكون الراء وما، موحدة وألف مقصورة وقال إنها له الثغر من نواحي المصيصة ساها الرشيد سنة ١٨٠ هـ وذهب اليها بدة من أهل حراسان وعيرم وأقطنهم لإياها.

وأما الأندلسيون الذين حُصِرَ جماعه كبيرة منهم إلى الإسكندرية، هَدَّ طَلَبُوا الأمان، على أن يرتحلوا عنها إلى مص أطراف الروم، فرَحَلُوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) فاستوطنوها وأقاموا بها .

وأما ما كان من ابن السري، فإنه طلب الأمان إلى عبد الله وذلك بعد قتال عنيف، وانهزامه شرهزيمة .

ولما أُحْدِثَ الفتنة في مصر، وبلغ المأمون الخبر، كتب إلى عبد الله بهتة، وحمل في أسفل كتابه آياتا من الشعر، إن ثبت صدورهما من المأمون حقا، ولم يكن من وضع القصاص والرواية، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون . وقد ذكرناها في علاقه المأمون مع عماله .

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون بهتة بهذا الفوز كابا بليغ اللفظ، رشح الأسلوب، هذه نسخته . بلعي، أعر الله الأمير، ما فتح الله عليك، ونروح ابن السري إليك . فالحمد لله الباصير لديه، المعر لدوله حليفته على عاده، المذل لمن عُدَّ عنه وعن حمه، وزع عن طاعته، وسأل الله أن يُطاهِر له العم، ويفتح له بلدان الشرك، والحمد لله على ما وليك مد ظمعت لوجهك . وإما ومن قبلنا نتذكر سيرتك في حرك ومهلك، وكثير التعجب لما وُفِّعَ له من الشقة والأليان في مواضعهما، ولا علم سانس حيد ورعيه عئل بينهم عذلك، ولا عفا بعد القدرة عن آسفه وأصمعه عموك، ولقلنا رأسا أن شرف لم يُبقي بيده بُكلا على ما قدمت له أوثقه، ومن أوتي حظا وكفاية وسلطانا وولاية، لم يُجَدِّد إلى ما عا له حتى يُحْمَلَ بِمَسَامِهِ ما أمامه، ثم لا يعلم سانس استحق التُّجُّع لحسن السيرة، وكفَّ مَرَّه الانتاع استحقاقك، وما سحير أحد من قبلنا أن يقدم عليك أحدا نهوى عد الحاقه والبارلة المفضله . قلربك لله الله ومريدُه، ويسوعك

(١) عدهم الشيء . مال منه وعدل .

(٢) آسفه : أعصه .

الله هذه العمة التي حواها لك ، المحافظة على ما به تمت لك ، من نفسك بمجل إمامك ، ومولاك ومولى جميع المساكين ، وملاك وإمام العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندما وعد من قتلنا مكرماً مقتلاً مظلماً ، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلالة ونحالة ، فأصحبوا زحوتك لأهسهم ويثوبك لأحدائهم ونوابيهم ، وأرحو أن يوفيك الله نجاته ، كما وفي لك ضعفه وتوفيجه ، وعد أحسنت حوار العمة ، فلم تُطْفِك ولم تردد إلا مدلاً وبواصعاً ، فالحمد لله على ما أملك وأملك وأودع فيك ، والسلام .

وقد نرح المأمون الى مصر في ١٦ المحجة سنة ٢١٦ هجرية ، أثر شخوصه الى دمشق للره الثانيه . وكان حروجه الى مصر ، بما يقول الرواة ، لإخماد ما قام فيها من فتنة واضطرابات ، وذلك أن أهالي الوجه البحري حرجوا ومعهم أقباط السلاط على عيسى بن منصور عامل مصر ، لسوء سيرته فيهم ، ولقبح صديقه معهم .

ويحدثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بدل ما في مقدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة . فلم يحالعه الطمر ، وأحرجه التوار أقبح مخرج من البلاد ، فقدم القائد التركي المعروف بالأفسين وعمل على قبح الفتنة وإخماد الثورة ، وقتل مقتلة دريعة من الأهلين ، فسكت الفتنة الى حين .

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها ، واستدعت خطورتها قدوم المأمون الى مصر ، فهاهنا إليها ، ونظري شكاه الأهلين ، وعمل على إصابتهم ، وتخطيط على عيسى بن منصور ، وتسب إليه وإلى سبأ أعماله كل ما حدث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات .

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُخمد تماماً ، وأنها طلعت من المأمون ، الى حاس ما أظهره من رعية وإحقاق الحق وإجراء العدل ، شيئاً من الخزم واستعمال القوة ، بجاذب التأثير القتال ، حتى أذعوا أحياء : ويقول المؤرخون : إنه لمت في مصر أربعين يوماً أو يزيد ، إذ قدمها في الخامس من محرم سنة ٢١٧ هـ وبقي بها الى الثامن عشر من صفر .

ويظهر أنه قصى هذه المدة، الى جانب اشتغاله بحرب أهلها، بالنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل (سبّار وحلوان وعبرهما) .

ومن أعماله في مصر تعمير مياس النيل، وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه السطاط . وعاد المأمون أحرا الى دمشق بعد أن شهد المصريين وحربهم وعدم احتياهم ظلم الحكام والولاة .

٦ - ملك الحزمي

يحمرا المؤرخون أن ملك الحزمي، قد ظهر من كوره في شمال بلاد فارس تُسمى «الند»، وقد كان خروجه للدعوة الى مذهبه الإباحي سنة ٢٠١ هـ، وكان المأمون لا يزال في «مرو» قبل أن ينتقل الى عاصمه ملكه بغداد . وقد امتدت حنة بابك عنيفة، طوال عهد المأمون، وصدرًا من عهد المعتصم .

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي، في كتاب الانساب^(١) الحزمي: هذه النسبة الى طائفة من الباطنية، يقال لهم : الخرمدييه، قوم يديسون بما يريدون وشتهون ، وإعما لقوا بذلك لاحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات وبكاح ذوات المحارم وفصل مايتلدون به، فلما شابهوا في هذه الإباحة المزدكية من المجوس ، الذين خرجوا في أيام قباد وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات ، الى أن قتلهم أنوشروان س قباد، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدييه كما قيل للزدكية .

وقيل أن نحو من تفصيل حوادث هذا الرجل ، وما بدله المأمون ، ثم المعتصم في قتاله ، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأميين فائد المعتصم التركي سنة ٢٢١ هـ - قبل كل هذا، يجب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم في فهرسته عن مذهب الخرمية البابكية وما يتعلق به، لتكون على بصيرة من مذهب الرجل . وما كان يدعو اليه من تحفة وبذعة .

(١) جاء في القاموس وشرحه « حربة » كسكرة قرية هارس بها ملك الحزمي الطاعة الذي كاد أن يستول على المسالك من المعتصم . ثم قال . وتحزم الرجل دان دين الحزمية أصحاب التامح والحلول والإباحة .

قال محمد بن إسحاق : « الخزمية صفان . الخزمية الأولون ، وبُسمون المَحْمَرَّة ، وهم متشرون بواحي الحبال فيما بين أذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وحمدان ، وديسور ، وفيما بين أصمهان وبلاد الأهواز . وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم . وهم ممن يعرف باللقطة ، وصاحبهم مردك القدم ، أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات ، والأكل والشرب ، والمواثاة والاحلاط ، وترك الاستعداد بمعصم على صص ، ولهم مشاركة في الحريم والأهل لا يتمتع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا بمعص . ومع هذه الحال وروى أفعال الخير وترك القسل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الصبيانات ليس هو لأحد من الأمم . إذا أصابوا الانسان لم يمعوه من شيء لشمسه كانوا ما كان . وعلى هذا المذهب مردك الأحمر الذي طهر في أمام قاذر من مرور وقتله أبو شروان وقتل أصحابه . وحده مشهور معروف . وقد استقصى المعنى أحبار الخزمية ، ومذاهبهم ، وأفعالهم ، في شرحهم ولذاتهم وعاداتهم ، في كتاب "صيون المسائل والحوانات" ولا حاجة سا الى ذكر ما قد سبقنا اليه عبرنا » .

« فاما الخزمية الثانية ، فان صاحبهم مالك الخزمي . وكان يقول لمن استفواه : إنه إله . وأحدث في مذاهب الخزمية القتل والمصعب والحروب والمثلة ، ولم يكن الخزمية يعرفون ذلك .

ثم ذكر صاحب المهرست سد ذلك نشأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار إمام هذه الحلة التي تنسب اليه فلا عى واقدر عمرو التميمي الذي عمل أحبار مالك ، فقال . وكان أبوه رجلا من أهل المدائن دهايا ، زرع الى عمر أذربيجان ، فسكن قرية تدعى « بلال أماد » من رُستاق (ميمد) ، وكان يحمل دمه في وعاء على طهره ويطوف في قرى الرستاق ، يهوى أمرأه عوراء ، وهي أم مالك ، وكان يعجزها برهة من دهره ، فينهاى وهو مُتدنان عن القرية ، متوحدان في عبيضة ، ومعهم شراب يتكفان عليه ، إذ خرج من القرية يسوة يستقي الماء من عين في الفيضة ، فسمعن صوتا يتطيا يُترنم به فقصدن اليه ، فهجم عليهما ، فهرب

عبد الله وأحمد شعر أم مالك، وحش بها إلى القرية وفصحها فيها . قال واقد ثم إن ذلك الدهان رعب إلى أبيها، فزوجه بها فأولدها "بابكا" . ثم خرج في بعض سفراته إلى جبل سيلان واعتصره من استغماه وبحره فقتله ، مات بعد مدنة . وأقبلت أم مالك تُرْصِع للناس أحمره ، إلى أن صار لمالك عشرين سنة ، فيقال . أنها خرجت في يوم من الأيام تلتبس بمالك ، وكان يرى مرأا لقوم ، فوجدته تحت شجرة قائلا وهو عُريان ، وإياها رأت تحت كل شجرة من صدره ورأسه دما ، فأنقذه من نومه . فاستوى قائما وحال مارأت من الدم فلم تحده قال : هلمب أنه سيكون لابي نأ حليل .

«قال واقد . وكان أيضا مالك مع الشبل من المني الأردى رستان سراه ، يعمل في سياسة دوابه ، وتعلم صرب الطنور من علمانه ، ثم صار إلى تبريز من عمل أذربيجان ، فاشتغل مع محمد بن الرقاد الأردى نحو ستين ، ثم رجع إلى أمه ، وله ثمان عشرة سنة ، فأقام عندها . قال واقد بن عمرو . وكان يحمل البد وما يليه من حاله رجلان من العلوج ، متحزمين ولهما حدة وثروة ، وكان متشاجرين في التملك على من يحال السد من الحرمية ليتوحد أحدهما بالرياسة ، يقال لأحدهما « حاويدان بن سهرك » ، والآخر علت عليه الكيه يعرف « بأبي عمران » وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف ، وتحول بينهما الثلوج في الشتاء لانسداد العقاب . فإن حاويدان ، وهو أستاذ مالك ، خرج من مدينته بألف شاه . يريد بها مديه ربحان من مدائن ثعور قرويس ، فدخلها وداع عمه وانصرف إلى جبل البد . فأدركه الثلج والليل رستان محمد ، فصاح إلى قرية "للال آباد" ، فسأل بحررها إزاله . فمضى به ، بالاستحفاف منه بحاويدان ، فأزله على أم مالك وما تسليت من صنك وعُدم ، فقامت إلى دار فأجبتها ، ولم تقبل على غيرها ، وقام مالك إلى علمانه ودواته خدمهم وأسقى لهم الماء ، وسعت به جاويدان . فابتاع له طعاما وشرابا وطما وأناه به . وحاطبه وناطقه ، فوجده ، على رداءه حاله وتفقّد لسانه بالأنعمية ، فهما ، وراه حينئذ شهما ، فقال لأمه : أيتها المرأة ! أنا رحل من جبل البد ، ولّى به حالٌ ويسار . وأما محتاج

الى أبسك هذا ، فادعيه الى لأمصى به موى ، فأوكله بصياعى وأمواى ، وأعت مأجرته اليك فى كل شهر خمسين درهما ، فقالت له : انك لشبيه بالخير ، وان آثار السعة طليك ظاهرة ، وقد سكن قلبى اليك ، فأنهضه معك اذا نهضت . ثم إن أبا عمران نهض من جبيله الى حاویدان لحاربه فهُزم ، فقتل حاویدان أبا عمران ، ورحع الى حبله وبه طعنة أحافسه ، فأقام فى مرله ثلاثة أيام ثم مات . وكاتب امرأه حاویدان لتعشق مانكا ، وكان يصعُربها ، فلما مات حاویدان ، قالت له : لأك حَلْدُ شهم ! وقد مات ! ولم أرفع بذلك صوتى الى أحد من أصحابه ، فتبأ لعد ، فانى حاميئهم اليك ، ومُعابيتهم أن حاویدان قال .

انى أريد أن أموت فى هذه الليلة ، وإن روى تخرج من بدى وتدحل فى بدن بابك ونشترك مع روحه ، وانه سيبلغ بنفسه وكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وانه يملك الأرض ، ويقتل الحساره ، ويرد المردكية ، ويعز به دليلكم ، ويرتفع به وصييعكم ؛ فطمع مانك فيما قالت له ، واستبشر به وتبأ له . فلما أصبحت ، تجع اليها جيش حاویدان ، فقالوا كيف لم يدع سا ويوص لنا ! قالت : ما سمعه من ذلك إلا أنكم كنتم متعزبين فى منارلكم من العرى ، وأنه إن سث وجمعكم انشتر حره ، فلم يأس عليكم سرة العرب ، فعهد الى بما أأؤديه اليكم ان قتلتموه وعلمتم به ؛ فقالوا لها : قولى ما عهد اليك ، فانه لم تكن ما مخالفة لأمره أيام حياته ، وليس ما مخالفه له بعد موته ، قالت : قال لى : انى أموت فى ابلقى هذه ، وان روى تخرج من حسدى وتدحل بدن هذا الغلام خادمى ، وقد رأيت أن أملكه على أصحابى ، فادنا مث فاعلهم ذلك ، وانه لا دين لى خالفى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى ، قالوا : قد قبلنا عهدك اليك فى هذا الغلام ! فدعت ببقرة فأمرت قتلها وسحقها وتسقط جلدعا ، وصيرت على الجلد طسنا مملوءا نمرأ وكسرت فيه حُبزا ، فصبرته حوالى الطست ، ثم دعت رجل رجل فقال : علما الجلد برحلك ، وحذ كسرة واعمسها فى الحمر وكُلها ، وقل : آمنتُ لك يا رَحَ بابك كما آمنتُ بروح جاویدان ، ثم خد بيد بابك فكفر طليا وقلها ، ففعلوا ذلك الى وقت مانيا لها فيه طعام ، ثم أحضرتهم

الطعام والشراب ، وأقعدته على فراشها وقعدت معه ظاهرة لهم ، فلما شربوا ثلاثاً ثلاثاً ، أخذت طاقةً ریحان ، فدفعها الى مالك ، فساوفا من يدها ، وذلك تزويجهم ، فنهضوا وكفروا لها رصاً بالترويح ، والمسلمون عريهم ومواليهم .



وبعد ، فانا نستطيع أن نقول ، مستندين الى ما ذكره ابن النديم وغيره ، عن نشأة مالك ومدبه وتعاليمه : إن الباعث الذي دفعه الى الخروج ، غير الواعث التي ذهبت نصر ابن شَبَّث في الشام ، وابراهيم بن المهدي في بغداد ، ومحمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا في الكوفة ، وصيرهم . ممن كانوا مفادين بفكره سياسية أو عامل حسبي ، واما كان خارجا على النظم السياسي والاجتماعي والاقتصادية في ذلك العصر ، وكذلك كانت وجهه نظر بغداد في قتاله ومطاردته .

أحل ! لم تكن العاية في خطر بغداد من قتاله ، إحصاءه لسلطان الخلافة ، حتى اذا أتيج لها إحصاءه رصبت عنه وكفت القتال دونه . واما كانت العاية التي ترى إليها القضاء على مدبه وتعاليمه الصائره بنظم الحياة والاحتجاج .

وربما حاز لنا أن نقول . إن موقعه من الخلافة الاسلامية في ذلك العصر أشبه شيء بموقف البلاشعة من الأئم المتحصرة في عصرنا الحاضر .

وهاك ما فعله الخليفة المأمون مع مالك والباكيين ، بعد ما عاثوا في الأرض فسادا وأحافوا السبل وأثاروا الاضطراب : بعث المأمون لمحاربتهم ، بعد أن انتقل الى بغداد ، يحيى بن معاذ ، فكانت بينهما وقعة ، لم ينتج الفوز بها لأحدهما على الآخر . ثم اختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد ، فولاه أرمية وأذربيجان وخراسان ، فملك وفيل . ثم وجه اليه صدقه بن علي المعروف بزريق ، ونذبت للقيام بأمره أحمد بن الحيد الاسكافي ، فأمره مالك . ثم بعث اليه محمد بن حميد الطوسي ، فقتله مالك سنة ٢١٤ هـ بهشتادسر وخص عسكره ، وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه .

وهكذا كان أمر بابك . كلما وُجِّهت إليه حملة هَزَمَهَا ١ لمكانه الحصين ، وقوته الكبيرة ، وشدة تأثيره في قلوب أتباعه وأتباعه . وأخيرا انصرف عنه المأمون لانتقاله بماوأة الروم ، حتى اذا شَعَرَ بدق ميته كتب في وصيته الى المعتصم بشأن بابك يقول : « والخزمية فأعزهم دأ حراميه وصَراميه وجَلَدِه ، واكفَّه الأموال والصلاح والجنود ، من الفرسان والرحالة ، فان طالت ممتتهم ، تحزَّذ لهم بمن معك من أنصارك وأولائك ، واعمل في ذلك مقدِّم اليه فيه ، راحيا ثواب الله عليه » .

وقد عظم خطر بابك ، وكثر الداحلون في مدهه ، في أوَّل عهد المعتصم (سنة ٢١٨هـ) . وما زال به المعتصم يحزَّذ اليه الحلات تلوح الحلات ، حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١هـ بأسره وقتله « سرتم رأى » ، هو ورهطا من أتباعه ، على يد قائد المعتصم الركني العظيم حيدر بن كلوس الأشروسي المعروف بالأفشين .



٧ - مذهب ونحل

ويمحس ما أن تُشرِّهها الى أن هذا العصر من العصور الاسلامية ، قد كثرت فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب ، فظهرت في العالم الاسلامي مقالات دينية وفلسفية كثيرة عربية ، أشار اليها مؤرِّحو الآراء والمذاهب ، محد طرفا منها في فهرست آبر الدين ، وطرفا في كتب « الملل والنحل » ، وطرفا في كتاب الأستاذ « برون » الذي وضعه عن « تاريخ الفرس الأدنى » فعبه شيء عن المسألة ^(١) وغيرها . وقد وقف أبو العلاء المعزى عند هذه الآراء والمذاهب في « رسالة الفخران » ووقعه ممتعة .

(١) المسألة واتباعها يقال لهم الماوية هي الحلة التي ماني من وجود يلبي إليه الخير وإله الشر ، وكان وجوده قبل الاسلام عمدة طويلة . وقداء . وديقا وول وسلاح وحش حله وعلق على أحد أبواب بياور ويعرف باب ماني . ولكن عنه م تكن تعدد أصارا بعد موته ، فكانت تظهر وينحها آلاس في قرات مختلفة :

ولم تلام الليل عندك من يد * تحقق أن الماوية يكتب

وفاك ردى الأعداء تسرى إليهم * وراوك فيه دو الدلال المحب

على أن لا يحب أن تعرض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل ، لأنها تحس إحساسا صادقا ، وربما تكافيه على حق ، أب الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال مامصا ، لقلة النصوص وعدم عماء المصادر وكما أنها . ونظن أن الاحتياط في مثل هذا الموقف أسلم وأبقى . وكل ما نأمل هنا ونزوه حقا ، أن يتجوز لمثل هذا البحث المنع النافع ، بعض الدين يمتون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الاسلام .



٨ - افتراضات

أذا وقد انتهينا من كلتنا الموجهة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون ، فقد حق علينا أن نسأل : لماذا مكث المأمون شطرا طويلا من سسى حكمه في حراسان دون سداد عاصمه الخلافة الاسلاميه ؟

أما أن نزم لك أما سحيك إجابته ديمه مصعة ، فهذا ما لا نقله لك ولا لأعسا . لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك .

إذن فسقدم لك آراء لنا في هذا الصدد ، بحذر بما أن معتبرا بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل .

فترض أن الفصل بن سهل وجماعه الفصل بن سهل ، وحوثم حوثم وسلطانهم سلطانهم ، آثروا نقاء المأمون في "مرو" عاصمة حراسان حيث يحبي أموال الدولة اليه ، ليكون نصيب القناع الفارسيه والشيعة الفارسيه من هذه الأموال أوفر .

وهرض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسا ، ربما كان صادقا ، أن كبار رحالات الدولة من العرب القاطنين بسداد ، لم يكن هوامم مع دولته الفارسيه الطائع والميول ، وأهم كانوا لذلك يحشون الروح الى سداد قبل أن شعهم وتقوية سلطانهم .

وهترض أنهم آثروا القرب من الولايات التي تمتهم بمحدها ورحالها ، كما آثروا أن يكونوا في أوساطهم الفارسيه الى من مصلحتها نصره المأمون وبوطيد دعائم ملكه ، والعمل على خذلان منافسيه .

هذه افتراضات رأينا أن قيدها لك لتأمل فيها . وربما كان بعضها سائفاً معقولاً؛ حل أن تكون حذراً كل الحذر، فلا تتوخط في اعتبار كل فرض سائغ معقول، لازم الوقوع في التاريخ . فكتيراً ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث !



(ج) السياسة الخارجية :

نعتقد أن الوقت لم يَأْنِ بعدُ، لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين، دراسة علمية محققة . ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون، متأثرين بأشياء كثيرة . فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأحبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين، كما كانوا متأثرين بالحرص على دفع شأن الدولة الإسلامية، والتبويه عهدها وسلطانها، فاصطنعوا هذا كله إلى الفلق حياً، وإلى التقصير حياً آخر .

ولم يطرأ البحث بعدُ بموضوع تاريخيه واضح معاصره، كتبت في غير الله العربية . ومع أن الباحثين في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الروم) حاذقون في التنقيب على النصوص والآثار التي تحمل تاريخ هذه الدولة في العرون الوسطى فهم لم يصلوا بعدُ، إلى شيء ذي شأن فيما يمسّ علاقتها بالدول الإسلامية . فأما الأمم الشرقية الأثر التي كانت على اتصال المسلمين، فلم تترك لنا شيئاً، أو لم نطفر من آثارها التاريخية شيء ذي قيمة . وإذا نحن مضطرون إلى أن نتمتع اعتماداً مؤقتاً، بلؤه الاحتياط والتحفظ، على ما كتبه العرب .

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية في عصر المأمون كانت تنقسم إلى قسمين متميزين : الأولى سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة . والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلامية .

وليس هناك شك في أن سياسة المأمون، مع الدول الإسلامية المستقلة، كانت واضحة بنية الأسلوب ؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائماً أن المسلمين جميعاً يجب أن يُدعوا لسلطانها، وإذا لم تعترف، في وقتٍ من الأوقات ، استقلال الأمويين في الأندلس ، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى، وأما اعتبرتهم مُفاهة، وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها، فعلا أو اسماً. فاضطرت إلى أن تُقيمهم من ناحية، وتؤلب عليهم من ناحية أخرى .

على ذلك نستطيع أن نفهم شحيمها دولة بني الأُطلب في إفريقية وعطموها عليها، فقد كانت هذه الدولة تتمتع بدرجة من الاستقلال غير قليل ، وتظهر بحماية الخلافة، لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يرد عن الخلافة عارات هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

نستطيع أن نفهم هذا، وأن نفهم أيضاً ما يلحقه لها في العصور من اتصال علاقات ودية بين بغداد وملوك المرع الذين كانوا يباوئون بني أمية في الأندلس .

أما القسم الثاني من السياسة الخارجية، فيقسم أيضاً إلى قسمين : أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يحصوا لسلطان المسلمين، كالترك والديلم . وهذه السياسة واضحة أيضاً . على قلة النصوص، فقد كانت سياسة بوسع وسيط للسلطان، ولكن في احتياطات وتحفظ ومصاصه . وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ، تسلك في استعمالها وإقائها ضد الحاجة ، طريقاً كلها حكمة وقطعة . فبينما زارها تهاجم فتفتح وتأسر، زارها مره أخرى موادعة محالفة مستخدمة . وهي تستعيد في الحالين . ولذلك تعلم حق العلم ما أتعجت به السياسة ، آخر الأمر ، حين ضعف الخلفاء، من تسلط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة، وعجزهم عنظمة الخلافة .

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قباصة « قسطنطينية » . وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول ، في غير تردد، أنه احتاج حقاً إلى جهود الخلفاء وكماياتهم . فقد كانت

العلاقة بين «قسطنطينيه» و«دمشق» أيام الأمويين وبنها وبين «بغداد» أيام العباسيين، شديدة الاضطراب والتعقيد، لا تكاد تستقر على حال، وإنما هي حربٌ حيةٌ وسلمٌ حياً آخر. ومهما نكس من شيء، فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة، أن الحرب هي الحال الطبيعية بين الدولتين، فأما السلم فحال عارٍ، ولذلك كانت تسمى دائماً هدنة. وربما كان من المعقول أن نقول: إن أصحاب «قسطنطينيه» و«بغداد» كانوا يصطرون إليها اضطراباً.

غزو المأمون للروم

قدّمنا لك في الكلام على مالك الحزمي أن المأمون أرسل إليه آخر حملة، بقيادة محمد ابن حميد الطوسي سنة ٢١٢ هـ، وأن هذه الحملة مات بالمريه والفشل، كما ماء غيرها، مما سبها من حملات، وأن المأمون اصرف على مالك مؤقّتاً، لأشغاله بعزو الروم الذين يطل بعضهم سبب تحفّز المأمون الى عزوهم، بعد أن طل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة، بما تأكده المأمون من مشاعرهم لماك وإمدادهم إياه بالمعونة.

ويقول الأستاذ «ميور»، في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم، وعدم انتهاز المسلمين فرصه الثورة، التي نشبت في بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لفزو آسيا الصغرى: "إنه لاشك أن ريث العرب عن اقتحام بلاد الروم، في ذلك الوقت، يرجع الى أن بطريق أنطاكية بسلاد سوريا، كان قد تزج توماس امبراطورا، ولو نجح في تأميره وسلطانه، لكفى العرب مؤونة القتل، ولكان توماس هذا تاماً للحملة المأمون".

على أن المأمون قد تخصّص سنة ٢١٥ هـ الى بلاد الروم ليفزوها سالكا إليها طريق الموصل، ثم منبج، ثم دابق، ثم أنطاكية، ثم المصبصة، ومنها خرج الى طرسوس، وهي الثغر الاسلامي، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، في منتصف جمادى الأولى (يوليو سنة ٨٣٠ م)، ففتح وغنم كثيراً من الحصون، ثم تخصّص الى الشام. وورد عليه

في دمشق الخبر أن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكره الى بلاد الروم، وكان الظفر والتوفيق حليقه في هذه الكزة أيضاً .

وفي المدة التي قضاه المأمون في مصر ودمشق، بدأت المناوشات بين عماله وملك الروم، ثم اشتدت حتى أصغرُ الى أن يشخص الى بلاد الروم لثمة الثالثه، وهي المزمه التي تُوِّفِي فيها .

وفيما هو سائر إليها، معترفا بتحقيق خطئه رسمها لنفسه، إذ يقول : أُوِّحَ الى العرب، فأتي بهم من البوادي، ثم أُزِلِم كل مدينة أُتَتَّحَها، حتى أصرب الى القسطنطينية، إذ حاه رسول ملك الروم يجعل اليه كتاب مولاه، يطلب فيه الصلح والمهادنة . وهذه نسخته، فيما يقول الرواة العرب : ”أما بعد، فإن احتجاج المحتلمين على خطئهما، أولى بهما في الرأي مما عاد الصرر عليهما . ولست حرياً أن تدع لحط يصل الى غيرك حظاً تحوزه الى نفسك، وفي علمك كاف عن إحارك . وقد كنتُ كتبتُ اليك، داعياً الى المسالمة، راعباً في فصيلة المهادنة، لتصح أوزار الحرب عا، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحرماً، مع اتصال المراقق، والفسح في المتاجر، وملك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة . فان أبيت، فلا أدب لك في الحر، ولا أزعرف لك في القول، فإني لخائض اليك عمارها، آخذ عليك أسدأها، شأن حيلها ورحالها . وان أصل معد أن قمتُ المعيرة، وأفتت بني وبينك علم المحمة . والسلام“ .

أما رد المأمون عليه فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت : ”أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت اليه من المودعة، وحطت فيه من اللين والشدّة، مما استعطفت به من شرح المتاجر، واتصال المراقق، وملك الأسارى، ورمج القتل والقتال . طولا ما رحمتُ اليه من أعمال التؤدة والأحدِ بالخط في قلب العكرة . وآلا أعتقد

الرأى فى مستقبله إلا فى استصلاح ما أُوْزِرَ مُنْقَصَه ، بلجأتُ جواب كتابك خيلاً نخل
 رجالاً من أهل الناس والعهده والبصيره ، سارعونكم عن نُكلكم ، وبقترنوا الى الله بدمائكم ،
 ويستقلّون فى ذات الله ما لهم من ألم شؤكتكم ، ثم أوصل اليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم
 كافيّاً من العُدّة والعنّاد ، هم أظلموا الى موارد المايا منكم الى السلامه من مخوف معتزهم
 عليكم ، موعدهم إحدى الحُسَيْنين : عاقل علّه ، أو كريمة مُنْقَلَب . عرأى رأيت أن أتقدم
 اليك بالموعظة التى شئت الله بها عليك المحمّه من الدعاء لك ولمن ملك الى الوجدانية ،
 والشريعة الحبيّة ، فان أيب ، ههذه بوحدة ، وتثبت يطرده . وان ركب ذلك ،
 هى يقين المعاسة لموتنا ما يقضى عن الإللاج فى القول والإعراف فى الصعه ، والسلام
 على من اتبع الهدى .



(د) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته :

لقد عاشت المنيّة المأمون ، دون تحقيق خطه ، بموضع يقال له « السّدَنون » من
 « لؤلؤة » و « طرسوس » . وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ
 وسه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر .

أما عن كبار رجالات المأمون وولّاته ، فيقول اليعقوبى . وكان الغالب عليه فى حلاته
 دو الرياستين ثم جماعة : منهم الحسن بن سهل ، وأحمد بن أبى خالد . وأحمد بن
 يوسف . وكان على شُرطته العباس بن المسيّب بن رهير ، ثم عزله وولّى طاهر بن
 الحسين ، ثم عبد الله بن طاهر الذى استخلف اصحاب بن ابراهيم بغداد ، فوجه اصحاب
 أخيه خليفة له على شُرطته . وكان على حرسه شبيب بن حميد بن قطب ، ثم عزله
 وولاه قُومس ، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ، ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوى ،
 قرابة هرثمة ، ثم على بن هشام ، ثم قتله وولّى مُخَيّف بن عَبْسة . وكانت حجابته الى أحمد
 ابن هشام ، وعلى بن صالح صاحب المصلّى . قال : وخلف من الولد الذكور ستة عشر

ذكرنا، وهم محمد، واسماعيل، وعلى، والحسن، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى،
 وإحمد، والعباس، والفصل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر، وهو ابن
 معللة وتوفى في حياته، ومحمد الأصغر، وعبيد الله، أمهما أم عيسى بنت موسى الهادي.

أما صاحب «نهایة الأرب»، فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه: أن مُجَابَه هم
 عبد الحميد بن شَبَث، ثم محمد وعلى أسا صالح مولى المصور، ثم اسماعيل بن محمد بن
 صالح. وذكر أن قصائده هم محمد بن عمر الواقدي، ثم محمد بن عبد الرحمن المخرومي، ثم بشر
 ابن الوليد. وكان نقش حاتم، فيما ذكره المسعودي في التنبية والإشراف: «الله معه
 صد الله به رؤس».



وقد يكون من المفيد لنا، من وجهه نظر التاريخ المصري، أن نقف على ولاية مصر
 وقصائدها في عهد المأمون، وذلك يسره لنا كتابان مُتِمِّعان وأحيان في هذا الموضوع،
 وهما كتاب «الحوم الزاهرة» لابن عري بردي الأتاتكي وكتاب «الولاء والقصاه»
 الدين ولوا أمر مصر وقصائدها للكندى. ونحن نذكر لك هؤلاء الولاة والقضاة على
 وجه الاختصار.

أما الولاة فهم: مالك بن دلم، وحاتم بن هرنم، وحارس الأشعث، وعبد بن محمد،
 والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى. والسري بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد
 ابن السري، وعبيد الله بن السري، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن زيد، وعمر بن الوليد،
 وعدويه بن حلة.

وأما حديثنا المؤرخون في أيامه عما سمى في مصر بالدع المأمونية الأربع: فالبدعة
 الأولى منها هي ليس الخضره وتقرئ العلوية وإحد بجى العباس. والثانية القول بخلق
 القرآن. والثالثة ما كتبه المأمون الى نائيه سعداد أن مآحد الجحد بالتكبير اذا صلوا الجمعة وبعد

الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون في هذه السنة وهي سنة ٢١٥ هـ «المتعة» فقال الناس : هذه بدعة راحه ، وبعد ولاية اس حله هذا ، ولاية عيسى بن منصور ، ونصر بن عبد الله ، وشهرته كيدر ، والمظفر بن كيدر .

أما قصاة مصر في عهده فهم : عبد الرحمن العمري ، وهاشم بن أبي بكر البكري ، وإبراهيم بن السكاء ، ولطيفة بن عيسى المصري ، والفصل بن عاتم ، وإبراهيم بن اسحاق العاري ، وعطاف بن عزوان ، وحمله عبد الله بن طاهر على المطالم ، وسعد بن ولي القصاء من قبله عيسى بن المنكدر ، وأخيرا هارون بن عبد الله .

أما معاصروه ، فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ، ثالث أمراء بني أمية ، ثم ابنه عبد الرحمن . وفي عهدهما سمعا رأى الأندلس ، في القول علق القرآن ، فقد قال أبو خلف المعافري :

لَا وَالَّذِي رَقَعَ السَّمَاءَ * لَا عِمَادَ لِلطَّرِ

مَا قَالَ حَلَقٌ فِي الْقُرْآنِ * بَ بِحَلْقِهِ الْإِكْفَر

لَكِنْ كَلَامٌ مَرْتَلٌ * مِنْ عَدِ حَلَاوِ النَّشْرِ

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى : ادريس بن ادريس بن عبد الله ، ثم ابنه محمد بن ادريس . ويعاصره في إفريقيا من بني الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ، ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم ، فاتح صقلية . ويعاصره في فرنسا « شارلمان » صديق أبيه ثم « لويز الأول » الملقب باللي . ويعاصره في المصطنطينية « ليون الأرمني » و « ميخائيل » الملقب بالتمتام ، ثم ابنه « بوبيل » .

أما صفته فهي ، كما ذكرها صاحب « نهاية الأرب » ، « كان المأمون ربة ، أبيص ، طويل اللحية ، رقيقها قد وحطه الشيب . وقيل : كان أسمر ، تعلوه صفرة ، أجى ، أعين ، صيق الوجهة ، بجمته حال أسود » وكذلك وصفه الطبري وغيره .

ولما حصرتة الوفاء أوصى لأخيه المعتصم من بعده . وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس لأن الثاني كان متغيبا عنه ساعة وداته .

ولقد أثبتنا لك في باب المشور من الحجاب الثالث في مجلدها الثالث وصيته التي أوصى بها حين مماته ، اقيمتها التاريخية ، ولأنها توهم بعض آرائه ، وتصحح من السرد في بعض تصرفاته ، فراجعها ثمه .

الفصل النجاشي

الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون تاريخ الوزارات المأمونية

توطئة عن تاريخ الوزارات المأمونية — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن — وزارة أحمد بن أبي حاتم —
وزارة أحمد بن يوسف — وزارة يحيى بن أكرم — وزارات أخرى — الحد والفقر في عصر المأمون —
القصة وديوان الخلاء .

(١) توطئة :

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ، ومكانها في العصر العباسي ، فقد تمّوص
لدرسها كثيرون ، يذكر منهم على سبيل التمثيل الأستاذ «رون» في كتابه تاريخ العرس الأدبي ،
والمؤرخ آس طباطبائي في الآداب السلطانية ، وإنما قصّار ما رمى إليه ، كتابة فذلكة موحدة
عن حياة البارزين من وزراء المأمون ، حتى تفق بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع ،
عن العصر الذي تصدّروا للكتابة عنه ، ومكانة رحلاته البارزين فيه ، مقول :

١ و ٢ — وزارات الفصل بن سهل وأخيه الحسن

بمحدثنا التاريخ أن أوّل وزراء المأمون الفصل بن سهل ، وهو من رجال حمير البرمكي ،
فلا عرو إذا زرع في سياسة الملك معوّع البرامكة ، ولا عرو إذا اتّم بهم وتلا تلومهم
في تدبير أمور السلطان ، ولا عرو إذا كانت دولة بني سهل عثره في جبين الدهر ، ودوة
على مفرد العصر ، لأنها كانت ، كما يقول الفحري ، مختصر الدولة البرمكية .

أما طريقة اتصاله بالمأمون ، فإن المطاط التاريخي والأدبية تحدّثنا أن جمعوا البرمكي
لما عزم على استخدامه للمأمون ، وصمعه يحيى بن خالد محصرة الرشيد ، فقال له الرشيد :
أوصله إليّ ، فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد إلى يحيى نظر مُنكر

لاختياره ، فقال ابن سهل : يا أمر المؤمنين ، إن من أعدل الشواهد على قرآنة المملوك أن يملك قلبه هيئة سيده ، فقال الرشيد . لئن كتب سكتٌ لتصوغ هذا الكلام ، فقد أحسنت ، وإن كان بدبهة إنه لأحسن وأحسن . ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء ، إلا أحابه بما يصدق وصف يحمي له .

ويروى لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو كما تعلم ، شيخ من مشيخ الأدب والبيان في عصر المأمون . في كتابه «الحيوان» . أن حمعرا الصبي . وصف الفضل بن سهل بقوله . أيها الأمير ، أسكنتني عن وصفتك نساوي أفعالك في السؤدد ، وحيرتني فيها كثرة عددها ، فليس لي ذكر جميعها سبيل ، وإن أردت وصف واحدة ، اعترضت أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر ، ولست أصعها إلا ما طهار الععر عن وصفها .

ويقول ابن طاطا . إن الفصل كان يحيا كرماء ، يحارى الرامكة في حوده ، شديد العقوبة ، سهل الاعطاف ، حلما ليظا . عالما بأداب المملوك ، بصيرا ، جيد الحدس ، محصلا للأموال ، وكان يقال له الوزير الأمير .

وكان الفصل بن سهل يتشبع كذهب غالب الفرس ، وكانت له إصابة حسنة ، علم الجوم كما أسلمها لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه ، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلمي في تاريخ ولاء حراسان : أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين ، نظر الفصل بن سهل في مسأله ، فوحد الدليل في وسط السماء ، وكان ذا يمين . فأحمر المأمون أن طاهرا يظفر بالأمير ويلقب بدى اليميني . فتعجب المأمون من إصابة الفصل ولقب طاهرا بذلك .

وكان الفصل بن سهل شبيها بأساتذته الرامكة في زعد الشعراء ، وتشجيع الشعر . وكان منتج القصاد مهم قبل وراثته ، فإن كتب الأدب تحذنا أن مسلم بن الوليد ، قال فيه حين ذاك ، وكان من ندمائه وسماره :

وقائيل ليست له همه * كلا ولكن ليس لي مال
 وهمه المُقْتَرِ أُمِّيَّةٌ * عَوْتُ عَلَى الدَّهْرِ وَأَتَقَالُ
 لَا حِدَّةَ يَنْهَضُ عَنْهَا * وَالسُّؤَالُ وَبُحَالُ
 فَاصْبِرْ عَلَى الدَّهْرِ إِلَى دَوْلَةٍ * يَرْمَعُ فِيهَا حَالُكَ الْحَالُ

ويقول لنا الفحري : إن الفصل لما علتْ حاله وتولى الوارده ، قصده مسلم بن الوليد ، فلما رآه سرَّ به ، وقال له . هذه الدولة التي رمع فيها حالك الحال ، وأمر له بثلاثين ألف درهم ، وولاه ريد خرحان ، فاستفاد من ثمَّ مالا طائلا .

ومحدثا آس حلكان . أن الفصل بن سهل ، قال يوما ثَمَامَةَ بن الأَثَرَمِ بن المتكلم المعروف ما أدري ما أصعب طَلَابُ الحاحات ، فقد كُتِرُوا عَلَى وَأَصْعَرُوا ! فقال له : رُلُّ عَنْ مَوْصِيكَ ، وَعَلَى أَلَا يَلْقَاكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ؟ فقال صدقت ! وانتصب لقضاء أشعالم ، وكان قد مرض بحراسان وأنشئ على التَّلف ، فلما أصاب العافية ، جلس للناس فدخلوا عليه وهنؤه بالسلامة وتصرَّعوا في الكلام ، فلما فرغوا من كلامهم أقبل على الناس وقال : إِنْ فِي الْعَالِ لِمَا لَا يَدْنِي لِلْعَقْلَاءِ أَنْ يَجْهَلُوهَا : نَجِيصُ الدُّيُوبِ ، وَالتَّمَرُّضُ لثَوَابِ الصَّوْبِ ، وَالْإِيقَاطُ مِنَ الْفَعْلَةِ ، وَالْإِدْكَارُ بِالْعَمَةِ فِي حَالِ الصَّعَةِ ، وَاسْتِدْعَاءُ التَّوْبَةِ ، وَالْحَصُّ عَلَى الصَّدَقَةِ .

وقد مدحه حماته من أعيان الشعراء ، وفيه يقول إبراهيم بن عباس الصُّولي .

لِلْفَصْلِ بِنِ سَهْلٍ بُدُّ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلُ
 مَائِلُهَا لِلْعَمَى وَسَطَلُوتُهَا لِلْأَحْلُ
 وَمَاطِنُهَا لِلدِّي وَظَاهَرُهَا لِلْقُبْلُ

ويقول آس حلكان : إن ابن الرومي أخذ من قول الصُّولي هذا مدحته التي صاعها في الوزير القاسم بن عبيد الله التي فيها :

أصحتُ بين خصاصه وتحمل ، والحزب بينهما يموت هريلاً
فامدُّ إلى يدا سؤد طئها * بدل السوال وطهرها التقيلاً
وفيه يقول آخر :

لعمرك ما الأشراف في كل ملده وان عظموا للفصل إلا صائغ
ترى عطلة الناس للفصل خشعاً اذا ما بدا والفصل لله حاشع
تواضع لما راده الله رعه * وكل حليل عده متواضع

وحكى الخهشياري : أن الفصل بر سهل أصيب ما له يقال له العاس لخزع عليه
أشد الخزع ، فدخل عليه ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوي وأفسده .
خير من العاس أحرك مده والله حر منك للعاس

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له :
لو طلق الناس أو أقتلوا سلمهم * ونبات عن معالي دهر ككت
لم يلفوا منك أدنى ما يمت به * اذا تعانرت الأملأك وانتسوا
فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة ألف درهم .

وانه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين
كأوا يمتدحون البرامكة — وما أكثرهم — هم أنفسهم الذين امتدحوا آل سهل ، واتحدوا
منهم برامكة آخري . كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم واطهار قوتهم
واستعمال سلطانهم ، بعض الأثرى نكتهم . لأنه غير معقول آتة أن يمز على المأمون قول
مثل قول القائل :

أفت حلافة وأزلت أخرى * حليل ما أفت وما أرتأ

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تركه على البرامكة ، أمثال تلك الأقوال في نفس
الرشيد ، وهما قبل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعه صدره فان النفس
الانسانية هي هي .

وقد مرّ بك فيما أحسّاه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون ، أنه جعل في سنة ٢٠١ هـ على س موسى العلوي وليّ عهد المسلمين وانخليعه من بعده ، وسمّاه الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه أمر حده بطرح السواد ولبس الحُصْره وبنياً ما كان لذلك من ثورات وقت لم تهدأ إلا بعد أن عاد الى معز ملكه ، وأعلم آلّه وأنصاره بوفاء الرضا ، وعاد الى لبس السواد وهو شعار العباسيين .

ويريد الآن أن يشير هنا الى ما كان من الفصل س سهل فيما نحن في صدره ، ويعتمد على ما رواه الطبري ، قال . إن على س موسى س حمير س محمد العلويّ أحرار المأمون بما فيه الناس من الفتنه والقتال مدّ قُتل أخوه ، وبما كان الفصل س سهل يستريحه من الأحار ، وإن أهل بيته والناس قد تقمّوا عليه أشياء ، وإيهم يقولون : إنه مسجون محبوس ، وإنهم لما رأوا ذلك مايموا لعمّه ابراهيم س المهدي بالخلافه ، فقال المأمون إيهم لم سابعوا له بالخلافه . وانما صيروه أميراً موم بأمرهم ، على ما أحبر به الفصل ، فأعلمه أن الفصل قد كذّبه وعشه ، وأن الحرب قائمه بين ابراهيم والحسن اس سهل ، وأن الناس يتقمّون عليك مكانه ومكان أخيه . ومكان يتبعك لي من بعدك ، فقال ومن علم هذا من أهل عسكرى " فقال له : يحيى بن مُعَاد ، وعد العزيز اس عمران ، وعدّه من وحوه أهل العسكر ، فقال له . أدخلهم علىّ حتى أسألتهم عما ذكرت ، فأدخلهم عليه . وهم يحيى بن معاد ، وعد العزيز س عمران ، وموسى ، وعلى بن أبي سعيد ، وهو ابن أحب الفصل ، وحآف المصريّ . فسألهم عما أحرره . فأبوا أن يحرروه حتى يحمل لهم الأمان من الفصل س سهل . ألا يُعرّض لهم . فصم ذلك لهم ، وكتب لكل رجل منهم كتاباً بخطّه ودفعه اليهم ، فأحرره بما فيه الناس من الفتن ، ويبنوا ذلك له ، وأحبروه بمصّب أهل بيته ومواليه وقواده على في أشياء كثيره ، وبما قوّه عليه الفصل ، من أمر هرّمة ، وأن هرّمة اما جاء ليصحه وليبين له ما يحمل عليه ، وانه ان لم يتدارك أمره خرجب الخلافه منه ومن أهل بيته ، وان الفصل دس الى هرّمة من قتله ، وأنه

أراد يصحه، وأن طاهر بن الحسين قد أبل في طاعه ما أبل، وافتح ما افتح . وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله، وصير في راوية من الأرض بالرقه، قد حُطِرْب عليه الأموال حتى صُعِف أمره . فمَتَّع عليه حسده، وأنه لو كان على خلافك بعداد اصسط الملك ولم يُجْزَأ عليه مثل ما أُخْبِرْتُ به على الحسن بن سهل، وإن الدنيا قد هتكت من أقطارها، وإن طاهر بن الحسن قد سوسى وهذه السس، مد قتل محمد في الرقه، لا استعان به في شيء من هذه الحروب . وقد اسمع من هو دونه أصعافا، وسألوا المأمونَ الحروخَ إلى عداد، فإن سى هائم والموائ والقواد والحسد لو رأوا عرتك سَكُوا إلى ذلك، وبَجَعُوا بالطاعة لك . فلما تحقق ذلك عند المأمون، أمر بالرحيل إلى عداد . فلما أمر بذلك علم العصلُ بن سهل بعض ذلك من أمرهم، فعَثَمَتْهُم حتى صرب معصمهم السَّيَاط وحبس بعضا ونَفَّ لِحَى بعض، فعادوه على س موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من صنامه لهم، فأعلمه أنه يُدَارَى ماهويه، ثم ارتحل من مَرَوْ، فلما أتى سَرَحْس، شدَّ قوم على العصل بن سهل وهو في الحُجَّام فصرَّوه بالسيف حتى مات . وذلك يوم الجمعة لليلتين حَلَّتَا من شعبان سنة ٢٠٢ هـ فأُحْدُوا . وكان الذين قتلوا العصل من حَشَمِ المأمون، وهم أربعة مرءِ عَالُ السُّعُودَى الأسود، وقُسْطَظِين الرُّومى، وفَرَحُ الدَّيْلَى، ومَوْقُ الصَّقِيلِ، وقتلوه وله ستون سنة وهربوا . فعث المأمون في طلبهم وحمل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، بجاءهم العباس بن المهيم بن بُرْجَمَهْر الدُّسُورى، فقالوا للمأمون . أنب أمرتنا فقتله، فأمرهم فصيرت أعناقهم، وقد قيل إن الذين قتلوا العصل، لما أُحْدُوا سألهم المأمون، فمنهم من قال : إن على بن أبى سعيد بن أخب الفضل دَسَمَهم، ومنهم من أنكر ذلك . وأمر بهم فقتلوا، ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمراب وعلى وموسى وحلف، فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، وأمر بهم فقتلوا، وبعث رءوسهم إلى الحسن بن سهل في وآيسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صرَّه مكانه . وترَّجَح المأمون من ابنته ثوران، وأظهر الحسن في حملة

رواجها من الكرم الحارق ، والحدود الحاتمي ، ما دعا المأمون الى أن يسبه فيه الى السرف ،
ولقد قَدِمَ على الحسن بن سهل شاعر يلتمس صلته وعارفته ، فاشتعل عنه مُدِيْدَةٌ فكتب اليه :

المال والعقل مما يُسْتَعان به على المُقَامِ بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنّي مهتما عَطِلُ اذا تأملتني ياس الدّعاقين
أما تدلُّك أنثوانى على عَدَمِي والوجه أنى رئيس في المحابين
واقفه يعلم ما للذِّكِّ من رحل سواكَ يصلح للدينيا وللدين

فحيل : إن الحسن أمر له ، بمنه آلاف درهم ، ووقع في رقعته :

أَعْلَيْتَ فأنالك عاجلٍ رِمَا قُلًّا ولو أنظرتنا لم يُقْلِلِ
حد القليل وكُنْ كَأَنَّكَ لَمْ تَنْلِ ويكون محس كَأَنَّكَ لَمْ تُسْأَلِ

ويظهر لنا مما قرأناه عن الحسن بن سهل في أمالي أبي عليّ القالى وعمره من مظان
الكتب الأدبية ، أن له بصرا بالأدب عظيما ، ومكانة في الكفاية سامية ، وحظا بأمانين القول
ومناحيه ويرا .

فقد روى عنه أنه كتب الى محمد بن سَمَاعَةَ القاصي « أما بعد ، فاني احتججت لبعض
أموري الى رجل جامع لحصال الخير ، دى عمي وزأمة طُعْمِيهِ ^(١) ، قد هدنسه الأخلاق ،
وأحككه التحارب ، ليس بطيب في رأيه ، ولا بمطمون في حسنه ، إن آفتم على الأسرار
قام بها ، وإن قُلْدُ مُهِمًا من الأمور أحرأ فيه . له سنٌ مع أدب ولسان ، تُقْعِده الرزانة ،
ويسكبه الحلم ، قد تَرُع دكاؤه وفضله ، وعَصُ على قارحه من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده
السكته ، قد أنصر خدمة الملوك وأحكها ، وقام في أمورهم حُجْمِدَ فيها ، له أناة الوزراء ،
وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وحوار الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه
بجرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دلائل المفضل عليه

(١) الطعمة صم الغطاء وكسر ها وجه للكسب الطيب أو الحديث .

لأنه ، وأما راب العلم له شاهده ، مصطلحاً عما استنصص ، مستعلاً بما حُمل ، وقد أثرتك طلبه ، وحبوتك بارتياحه ، ثقة فصول اختيارك ، ومعرفة بحس تأنيك .

وقول ابن طباطبا : إن الحس بر سهل كان أعظم الناس مبرلةً عند المأمون ، وكان المأمون شديد المحبة للمفاوصته ، فكان إذا حصر عده طاولة فى الحديث ، وكلما أراد الانصراف معه ، فاقطع رمان الحس بذلك وثقلت عليه الملامه ، فصار يترانى عن الحضور بحس المأمون ، ويستحلف أحد تلاميذه ، كأحمد بن أبى خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما ، ثم عرّصت له سوداءً كان أصلها جرحه على أخيه ، فكان سبب انقطاعه فى داره واحتجابه عن الناس . وقد هاه حين داك بعض الشعراء فقال :

تولت دولة الحس بر سهل * ولم أتلُ لها من نداءها

فلا تحزغ على ما فات منها . وأبكى الله عيني من بكائها

وقد قرأنا فى كتاب الأغانى ما يستدل به على أن الحس بر سهل هو صاحب الوساطة فى العفو عن إبراهيم بن المهدي ، وذلك يختلف مع ما رواه العيص من أن بوران ابنته هى التى طلبت العفو عنه ، وما رواه العيص الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة . ومصعب الرواية . أن الحس بر سهل دخل على المأمون ، وهو يشرب فقال له : نحياتى وبحق عليك يا أما محمد إلا شربت معى قدحاً ، وصت له من بيده قدحاً ، فأحده بيده وقال : من تحب أن يعينك ؟ فأوما إلى إبراهيم بن المهدي ، فقال له المأمون : عنه ناعم ، فعاه . . . نسمع للحلى وسواساً إذا انصرف * يعرض به ، لما كان لحقه من السوداء أو الاحتلاط . فعصب المأمون حتى طرد إبراهيم أنه سيوقع به ، ثم قال له : أيت إلا كُفراً ، يا أكفر حاق الله ليعيسه ، والله ما حقى دمك غيره ، ولقد أردت قتلك ، فقال لى . ان دعوت عنه فعلت فعلا لم يسبقك إليه أحد ، صفوت والله عنك لقوله ، حققه أن تُمرّص به ! ولا تدع كينك ولا دَعْلَكَ ! أو أَيْسَت من إيمانه إليك بالعناء ! فوثب إبراهيم قائماً وقال . يا أمير المؤمنين ، لم أذهب حيث طبت ولست هائت ، فأعرض عنه .



٣ - وزارة أحمد بن أبي حالد

يظهر أن المأمون كان قد صُدِمَ صدمةً عيفةً، من وراثة الفضل بن سهل ومن أحبه، لاستئذادهما محلّ الأمور من دونه، ويظهر أنه فكرَ جدًّا في ألاّ يستورّر بعد الفضل أحدًا، ويقال إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي حالد - وكان أبوه كاتب سرّ ابن عبد الله، كاتب المهدي ووريه - قال له: إني كنت عرّمت ألاّ أستورّر أحدًا، ثم عرض عليه الوزارة، فنصّل أحمد معها، وقال يا أمير المؤمنين: أعصى من التسمّى بالوزارة، وطالبي بالوacht فيها، واحمل بي ومن العامة مرّله يرحون لها صديق، ويحامي لها عدوى، فما بعد الغامات إلا الآفات.

وبدل هذه المناقشة، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبي حالد قد وحد العروة في تاريخ الفضل بن سهل - وأمثاله - فرأى أن يكون مقتصدًا في مكانته وسلطانه، وقد أعجب المأمون بكلامه واستورره.

وسترى في كتابنا المحمل التي عهداها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية، طَرَفًا من تصرفات أحمد بن أبي حالد، وحسن محصله. في حادثه عمرو بن مسعدة، وكيف كان شجاعًا وصادقًا، وكيف كان محلصًا للمأمون. عاملًا على إصلاح ما بينه وبين رحلات دولته.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية: إن المأمون لما ولّى طاهر بن الحسين نراسان، استشار فيه أحمد بن أبي حالد، فصوّب أحمد الرأي في بوليّة طاهر، فقال المأمون لأحمد: إني أخاف أن يَغْدُرَ ويحلّجَ ويهارق الطاعة، فقال أحمد: الدَّرَكُ في ذلك على - ويجب أن تُشيرها إلى ما جاء في كتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف، فإن المصلّي بن أيوب أحد المعاصرين يحدّثنا عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: من مدح لنا رجلاً، فقد تضمّن عيّه - مولاه المأمون، فلما كان

بعد مده، أنكر عليه المأمون أمورا، وكتب اليه كتابا يتهدده فيه؛ فكتب طاهر جوابا، أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد ابن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر، وصمت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطة ومعارفة الطاعة، فوافقه ثلث لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا صررتُ عتقك؛ فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طِبْ نَسَاءً، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه. ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا، فيها كَوَاسِغُ مَسْمُومَةٌ، — وكان طاهر يحب الكَاسِغَ^(١) — فأكل منها مات في ساعته.

فان سمحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورحاله لم يَكُونُوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التنزع إلى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال المعري: إن أحمد بن أبي خالد لما تولى طاهر خراسان، حسب هذا الحساب، فوهب له حامدا وباوله سماء، وقال له: متى قطع حطبة المأمون فأجعل له هذا السم في بعض ما يحب من المأكَل، فلما قطع طاهر حطبه المأمون جعل الحامد له السم في كَأْسٍ، فأكل منه مات في ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد بن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الزعماء في ذلك الحين، ولا تحط كيف كانت عندهم حاتمة الحياه لمن يتبرمون لهم من كبار القواد والوزراء. ولتأمل بعد ذلك لم أفقرت البلاد من قادتها وكُجائها، ولم أتحمت الكلمة البائدة فيما بعد للنبلَة الأثرَك وغيرهم من الغرهاء!

وكان أحمد بن أبي خالد، إلى جانب كفايته، وبصره بالأُمور مصابا بالشره. وقد قال أحد المعاصرين — لما مات المأمون أحمد بن أبي خالد هذا —: ما أظن أن الله خلق

(١) هو إدام يؤتد به وقيل هو حرجل. مبرك كانه بالفارسية ووجه مصمم بالخطلات التي تستعمل لتشبه الطعام.

(٢) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار: «يلوح لي أن هذه الحكاية مصوغة فكيف يجترئ أحمد بن

أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكاة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأهله وحسن تأتية للأُمور. فهل يأمن أن يمتريه عبد الله مما يؤتد به ويصلح هلاكه. ومعهذه الرواية ناقص الرواية الأخرى. وهي أن صاحب البريد

كتب إلى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدماء له وكتب إليه في اليوم الثاني بموته.»

في الدنيا نفساً أنبل ولا أكرم من نفس المأمون ، فلما سئل لماذا ؟ قال : لأنه عرف
حسن الرجل - يعني أحمد بن أبي خالد - وشعره فكان اذا وجهه الى رجل برسالة أوى حاجة ،
قال : ائنه بالفداء واحلّ نيابك واطمئنّ عده ، فان اصرفت وقد هت فاكنت الى
بحواب ما جئت به في رُقعته وادفعها الى قنّح يوصلها الى .

ومما ينسب اليه أنه وليّ رجلاً كورة عظيمة القدر يحوّان قالونج أهده اليه .
وقيل . إن حمّاه من أهل كورة الأنوار شكّوا عاملاً كان عليهم ، فُعلّ وصار الى مدينة
السلام ، فتكلموا فيه . فأنبى حرمهم الى المأمون ، فأحصّهم وحصّهم ، وأمر أحمد بن
أبي خالد بالطرفي أمورهم ، فقال رجل من خصوم العامل . يا أمير المؤمنين ، حلفي الله
مدامك . تقدّم الى أحمد ألا يقبل من هذا العاهره دبة حتى يقطع أمرنا ، فوالله لئن أكل
من طعامه رعيماً ومن قالودجه حاءاً ، ليدحصن الله محمّتا على يديه ، وليبطل حقاً على
يديه . فكان من حراء ما قاله منكلم الجاعة أن المأمون طلب اليهم أن يحضروا اليه يوم
الأرعاء ، ليطرفي شكايتهم بسسه ، وكان من حراء . نل هذه الشكاوى وما قيل في آس أبي خالد
من أنه « يقتل المعلوم ويعين الظالم بأكله » أن آخرى المأمون عليه في كل يوم ألف
درهم لمائدته ، لئلا يشتره الى طعام أحد من يطأنته أو من طعام الناس .

ومن طريف حوادثه مع المأمون - وهي تؤيد لما سمعنا ما يُرى به من هذه الحاجة
وتدل على اقتناع المأمون بإصاحه بها - ما روي له ابن طيعور في تاريخه ، قال :
« حدثني بعض أصحابي قال قال المأمون يوماً لأحمد بن أبي خالد : أغدُ عليّ بأكرأ لأخذ
القصص التي عندك ، فانها قد كثرت لقطع أمور أصحابي ، فقد طال انتظارهم إياها .
مبكراً ، وقعد له المأمون ، فجعل يترصّها عليه ويوقع عليها ، الى أن مرّ بقصة رجل من
البريديين يقال له فلان البريدي مصحف ، وكان جاثماً فقال : البريدي ، فضحك
المأمون ، وقال . يا علام ! تريدُ محمّة لأبي العباس ، فانه أصبح جاثماً ! فخبّل أحمد ،
وقال : ما أمانع يا أمير المؤمنين ، ولكن صاحب هذه القصة أحق ، وصنع نسبته ثلاث

تقطعت قال . دَعَّ هذا عك والجوع أصْرَبَكَ حتى ذكرت الثريد، بلقاءه بصَحْفَةٍ عظيمة، كثيرة العِراق^(١) والدُّك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون : عِمَاتِي عَلَيْكَ ! لَمَّا عَدَلْتُ نَحْوَهَا، موضع القصص ومال الى الثريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر اليه، فلما فرغ دعا بَعْلَسْتُ فمسح يده ورجع الى القصص، فمزت به قصة فلان الجَيْصِي، فقال : فلان انجَيْصِي ! فصحك المأمون، وقال : يا علام ! حَامًا صَحْمًا فِيهِ خَيْصٌ، فان عدَاءَ أَبِي العباس كان متورًا، خجل أحمد، وقال : يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحق ! ففتح الميم فصارت كأنها سِتْنَانِ قال : دع عك هذا، فلولا حقّه وحقي صاحبه لمت حوطة بلقاءه محام خييص، ففعل، فقال له المأمون : عِمَاتِي عَلَيْكَ إِلَّا مِلْتُ إِلَيْهَا ! فانحرف فانتفى عليه، وعسل يده، ثم عاد الى القصص، فما أسقط حرفًا حتى أتى على آخرها .

«و بعد» فاما نستط — من هذه الرواية وبما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عند دينار بن عبد الله التي كلفت المأمون ألف ألف^(٢) — شرّة هذا الوزير الجليل . ومحمد بن أبي سعيد هنا ملاحظه أخرى، وهي طول احتيال المأمون، وكبر حيله، وقوّة اصطباره، على مطالعته شكاوى الجمهور ومطالبهم، غير مكترب لألم الجوع ولا حاج الى الرعد والراحة، في سبيل تطرها وإبصار أصحابها .

على أن هذه الهمة في هذا الوزير وإن كانت عائنة للرجل ناقصة من كرامته، فكمايته مقطوع بها . وليس أدلّ على عظم قدره، وسموّ مكانته، من حصول المأمون جازته، وصلاته بنفسه عليه، وقوله عنه . بعد أن دُلِّيَ في خُفْرَتِهِ وترَّحَّم عليه، أنت والله كما قال القائل :

أخو الحِدِّ إن حدَّ الرِّحَالِ وشمروا . ودو باطلٍ إن كان في القوم باطلٌ

(١) العراق . جمع عرق وهو القطعة من اللحم وهو أحد الجوع الباردة (وقد سَمَّاهُ هذه الجوع ابن السكيت في لسان العرب مادة عرق فراحها) والدُّك . الدم .

(٢) صوح من الحلوى .

(٣) أصل هذه الحكاية في تاريخ بغداد لاس طهوع ص ٢٢٢ — ٢٢٤



٤ - وزاره أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبي حالد أحمد بن يوسف الكاتب . ولما تكأ سَعَقَدَ له
بمُخْتَا خَاصَا في قِسمِ الآدَابِ وَالْعُلُومِ ، فَسَتَعَدَّ نَمَّةً طَرَفَا عَن حَيَاتِهِ وَأَثَرِهِ .



٥ - وزاره يحيى بن أكرم التميمي

استوزر المأمون بعد أحمد يحيى بن أكرم . وهو من أصحاب ثُمَامَةَ بن أَثْرَسِ المُنْتَكَمِ
المَعْرُوفِ ، وَلَآه المَآمُونُ وَطِيعَتِي الوِزَارَةِ وَقَاصِي القَضَاةِ .

وَلَمْ أَحَدُ احْتِلَافًا قَوِيَا ، هُوَ اخْتِلَافُ القِيَصِبِ ، كَاخْتِلَافِ القَدَمَاءِ فِي يَحْيَى بنِ أَكْرَمِ .
وَلَمَّا كَانَ لَهُ مَظْهَرٌ بَارِزٌ فِي الدَّوْلَةِ المَآمُونِيَّةِ مِنْ الوُجْهِهِ الْعَلَمِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ — لِأَنَّهُ كَانَ ،
كَمَا يَقُولُ أَحْمَدُ بنُ حَبِيلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، مُتَعَسِّيًا فِيهَا : فَكَانَ إِذَا طَرَأَ إِلَى رَجُلٍ يَحْمِطُ الْعَقْلَ سَأَلَهُ
عَنِ الْحَدِيثِ ، وَإِذَا رَأَاهُ يَحْمِطُ الْحَدِيثَ سَأَلَهُ فِي الْحَوِّ ، وَإِذَا رَأَاهُ يَعْلَمُ الْحَوَّ سَأَلَهُ عَنِ الْكَلَامِ ،
لِيَقْطَعَهُ وَيُجَيِّلَهُ — أَثَرًا أَنْ نَلَمَّ بِجَيَانِهِ وَأَقْوَالِ الْبَاسِ فِيهِ مِنْ قَادِحٍ وَمَادِحٍ ، وَنَبِيْنِ قَدْرِهِ عَلَى
وَحْدِهِ الْإِحْمَالِ لَا التَّعْصِيلِ . وَسُورِدَ كَلَامًا فِيهِ أَيْضًا فِي قِسمِ الْعُلُومِ وَالْآدَابِ مِنْ هَذَا الْكُتَّابِ .



٦ ، ٧ ، ٨ - وزارات أخرى

وَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ المَآمُونِ اسْتَوْزَرَ ، بَعْدَ مَنْ قَدَّمَاهُ لَكَ ، أَبَا عِبَادٍ ثَابِتَ بنَ يَحْيَى بنِ يَسَّارٍ ،
وَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بنُ يَزِيدَ ، وَقَدْ آتَمَّا فِي سِيرَتَيْهِمَا بِمَنْ سَبَقَهُمَا ، كَمَا أَنَّهُ ذُكِرَ أَنَّهُ اسْتَوْزَرَ
عَمْرُو بنَ مَسْعُودٍ وَهُوَ صِوُّ أَحْمَدَ بنِ يَوْسُفٍ نَبَاهَةً وَكِفَايَةً وَكُتَابَةً . وَإِنَّمَا لَا نَرَى مَدْعَاةَ
لِاثْبَاتِ مَا هُوَ مِنْ لَوْدٍ وَاحِدٍ ، فِي ذَلِكَ إِضَاعَةُ الْوَقْتِ وَتَكَرُّارُ الْقَوْلِ .



(ب) الجند والقواد في عصر المأمون :

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ، ولا عن مرئيات الجند وتحولهم ، مسد المهود الأولى ، فان ذلك يطول كثيرا . على أما نحيك مع ذلك الى ما جاء بالحزبه الأول من تاريخ التمدن الاسلامى في هذا الباب . وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندى الراحل ، وهو مثل « العر » في النظام السكرى الحديث ، هو ٢٤٠ درهما في السنة ، فضلا عن حصته في العائم عد العروات . ويظهر أن حصه الجند من العائم كانت قد حُيست عنهم ، حتى ردها عليهم الأُميين سنة ١٩٨ هجرية ، فأصاب الرجل ستة دماير .

ولما قام النزاع بين الأُميين والمأمون جعل المأمون راتب الجندى ثمانين درهما في الشهر ، على أن هذا الراتب عاد الى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة . أما القواد المظام في هذا العصر ، فاما نكتفى بما وقفت عليه أثناء النزاع بين الأخوين ، لأن من التكرار في القول أن عيدها ما قلناه هاك .



(ج) ديوان القضاء والمظام والحسبة :

ستقف من بحوثنا التي أوردناها لتحليل أحلاى المأمون على شئ من سلطان القضاء في ذلك العهد . ونحيك ها الى المحاصرة القيمة التي أقيمت في المجمع العلمى بدمشق عن تاريخ القضاء في الاسلام ، كما نحيك الى الفصل المُسَهَّب الذى أوردته في هذا الموضوع صاحب التمدن الاسلامى .

ويكفينا ها أن نقول . إن نظام الحكم أو المصل في الدعاوى ، في ذلك العهد ، كان متشعبا بقدر ما كان محكما ، إذ قد كان يوجد الى جانب ديوان القضاء : ديوان المظام وديوان نظر الحسبة ، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع اليها من دعاوى .

ويطول بنا الحديث، في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه .

على أنه يحور لك، أن تعرض الى حد ما، أن ديوان المظالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كحاكم الاستئناف والنقض والارام، كما يشبه الى حدٍّ مِرْقِلِيل المجالس التأديبية .

وأما يحيلك ها الى الفصول المتعة التي أفردتها أو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي في كتابه القيم " الأحكام السلطانية " فقد عاجل فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاية المظالم وما يختصون به أيضا، وكذلك عن ولاية الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الحزب السادس جملة صالحة منه فراجعها .

أما راتب القضاة فنقول . إن راتب القاضي بلغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أى حوالى ٣٧٠ ديناراً . وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت اليه الثروة في ذلك العصر . وقد كنا نود أن نختص الولاية وراتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا . وفيما بيناه عن القضاة مقياس لمن كان في مكاتبتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة . فعليك أن تفكر وتوازن .

افضل البناين

خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

توطئة — حكمة الورداء — الاستصماء — ثروة الخلفاء ورجال الدولة ودمهم — الحراج في عهد المأمون — الحراج في عهد المتصم — السمايات والحاسوسية — الدناوة (ال) وباحدا) — صعوبة مهمة المؤرخ .

(أ) توطئة :

أما أثر المال في العوس ، وأثر الأحزاب السياسية ، وكيف تعبر وجهاً النظر في كثير من الأمور الديني ، فإليك قد وقعت على شيء من ذلك وما سردناه لك .

على أما نضل أنه قد آت لنا أن ندقن بعض ملاحظاتنا في هذا العصر ، وآن لنا أن نكلم عن نصيب الورداء والقواد والرعاء في هذه الدولة ، التي كان للوزراء والقواد والرعاء الأمر الكبير في تقدم بيانها ، وتقوية أركانها ، وتشديد سلطانها .

(ب) نكبة الوزراء :

زيد أن ملاحظ أن حياة الورداء وحياة القواد والرعاء كانت تنتهي ، في الغالب ، بكتبتهم في حياتهم ، أو استصماء أموالهم .

ومع أما يحيلك الى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع ، مثل كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، لأبي الحسن الهلالي بن المحسن بن ابراهيم الصافي الكاتب ، وإلى ما كتب من الفصول في غيره ، يريد أن ملاحظ أن حلهم قد نكبه حليفته ، مثل نكبة المنصور لأبي مسلم ، وعبد الله بن علي ، وأبي سلمة الخلال ، وأبي الجهل ، ونكبة لأبي أيوب المورياني ، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمّه الهادي ، ونكبة المهدي ليحقوق ابن داود ، ونكبة الرشيد للبرامكة ، والمأمون لمن رأيت .

ملاحظ ذلك . ونلاحظ أن عدد الخلفاء بوزرائهم في ذلك العهد قد لاكنه الألسنة وتكلمت فيه الشعراء ، فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكل وزيره محمد بن عبد الملك الزيات :

يكاد القلْبُ من جرع يطيرُ ، إذا ما قيل قد قُتِلَ الوزيرُ
أمرَ المؤمنين قتلَتْ شخصاً * عليه رَحَاكُمُ كانت تدور
مهلاً يا بني العباس مهلاً * لقد كُوتَ صدركم الصدورُ

كما نلاحظ أيضا سبيل شخصيات عظيمه من قول الوراره في ذلك العهد ، لما عهدوه من وحم عواقبها ، وسوء مَعْنَى الاصطلاح بها . فقد ذكر ابن طيعور أن ثَمَامَهُ اس أَشْرَسَ المتكلم المعروف ، قال : لما قُتِلَ الفضل بن سهل بعث الى المأمون وكنت لا أنصرف من عده إلا الوقعة الى منزلي ، ثم يأتيني رسوله في خوف الليل فأتيه ، وكان قد أهْلَى لِمَكَانِ الفصل بن سهل من الوراره ، فلما رأيته قد ألح علي في ذلك تعاللت عليه ، فقال لي : إما أردت لك وكدا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، إني لا أقوم بذلك ، وأحربني أن أصح بموصى من أمير المؤمنين وحلى أن تزول عده ، فاني لم أر أحدا تعرض لخدمه والوزارة ، إلا لم يكن لتسلم حاله ولا تدوم منزلته . ورشح له أحمد بن أبي خالد الأخول . ثم اضطر الى اعتلاله عليه مره أخرى حينما رشح له يحيى بن أكرم ، فامك توقن معا بفسور رجال الدولة من الوزارة ، وهرهم من شركها وسوء عقابها .

(ج) الاستصفاء :

هم ينهرون من الوزارة ، لأن حاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت . ويعفرون منها ، لأن مصير أهوالهم وأموال دويهم كان ، في الغالب ، الى الاستصفاء والاعتصاب . ولقد عم الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت ، بتوالى الأيام ، المصدر الأول لتحصيل المال .

فالعامل يستصفي مما للرعيه ، والورير يستصفي مما للعمال ، والحليعه يستصفي مما للوزراء ، ومما للناس على اختلاف طبقاتهم ، حتى لقد أنشؤا للاستصماء ديوانا خاصا مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يتداول بالاستصماء كما يتداول بالمتاحرة .

أما أنواع الاستصماء ومقاديره في ذلك العصر ، فترك الكلمة في هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون ، قال : « تأملت ما صار الى السلطان من مالى ، فوجدته ١٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبدالله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك . فكانه لم يحمر شيئا ، لأنهم كانوا يقتصون بالاستصماء ويدفعون بالاستصماء . وإذا استصفى أحدهم من مال لم يكن في وسعه أداؤه كله مصحلا ، أحلوه بالناق وساعدوه على تحصيله أو جمعه رد حايه وتميزية ، وإنزاله في دار كبيره فيها الفرش والآلة الحسنة ، ليستطيع التدخل في جمع الأموال من الناس .

وتعددت أسباب الاستصماء وجهاته ، حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرصه له . وهالك ساء لما قبضه ابن الفرات من الاستصماء ، على أيام الراضى بالله ، نشرها لك لتكون أنموذحا لأنواع الاستصماءات ومقاديرها .

دينار

٧٣٠٠ من أحمد بن محمد بن ابراهيم البساطي ، عن الصف مما بقى عليه من استصمائه في سنة ٥٣٠٠ .

- | | |
|--------|---|
| ١١٠٠٠ | من علي بن الحسين البادي الكاتب ، عما تولاه من الموصل . |
| ٣٠٠٠٠ | « محمد بن عبدالله الشافعي ، عما تصرف فيه لعلى بن عيسى . |
| ٨٠٠٠٠ | « محمد بن علي بن مقله ، عما تصرف فيه . |
| ١٠٠٠٠٠ | « محمد بن الحسن المعروف بأبي طاهر . |
| ١٣٠٠٠ | « الحسن بن أبي عيسى الباقد ، عما ذكر أنه وديعه لعلى بن عيسى . |
| ٤٠٠٠ | ومنه أيضا صلحا عن عسه . |
| ٢٠٠٠٠ | من ابراهيم بن أحمد المادرائي . |

٢٦٥٣٠٠

دينار	ما قبله
٢٦٥٣٠٠	
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبد الله بن عيسى، عن بقية استصفاة والده .
١٠٠٠٠	» أحمد بن يحيى بن حاتم الكاتب عن مصلحه وجبت .
٦٠٠٠	» ابراهيم بن أحمد بن أدريس الجتهيد، عن صلحه .
٤٠٠٠	» محمد بن عبد السلام بن سهل ، عما عده من الوديعه لمحمد بن علي و ابراهيم بن أحمد السادراني .
٤٠٠٠٠	» عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه .
١٠٠٠٠	» محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه .
٢٥٠٠٠٠	» محمد بن أحمد بن حماد، عما تصرف فيه الموصل وغيرها .
١٥٠٠٠	» ابراهيم بن أحمد السادراني، عن الباقي عليه من جملة نعمتين أُلما .
٣٠٠٠	» أنى عمر محمد بن أحمد الصباح الحرجاني، عن صيانة الساق على أبي العباس أحمد بن محمد بن علي المعروف بقرقر .
٧٠٠٠٠٠	» علي بن محمد بن الحواري وقتل .
٧٠٠٠	» هارون بن أحمد الهمداني .
٢٠٥٠	» عبد الله بن زيد بن ابراهيم .
١٥٠٠٠	» عبد الله بن زيد، صلحا عن نفسه .
٦٠٠٠٠	» علي بن مأمون بن عبد الله الاسكافي كاتب ابن الحواري وقتل .
٧٠٠٠٠٠	» يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرف فيه مع حامد .
١٣٠٠٠٠٠	» حامد بن العباس، وقتل .
١٥٠٠٠٠	» محمد بن محمد بن حمدون الواسطي .
٣٢١٠٠٠	» أبي الحسن علي بن عيسى .
١٠٠٠٠٠	» ابراهيم بن يوحنا جهيد حامد بن العباس .
١٢٠٠٠٠٠	» أبي محمد الحسن بن أحمد السادراني .
٥,٢٩٤,٦٨٠	

ديار	
ما قبله	٥٢٩٤٦٨٠
ومنه أيضا .	١٠٠٠٠٠
من أبي بكر محمد بن علي المادرائي .	١٠٠١٠٠
ومنه ايضا .	١٠٠٠٠
	٧,٣٠٥,٦٨٠
درهم	
من أبي العصل محمد بن أحمد بن بسطام .	٥٠٠٠٠
» علي بن الحسن الباذيني، صلحا عما نصرى فيه بالموصل وقتل .	٢٠٠٠٠
» أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الحراري، عن صمان الباقي من استصفاه أبي ياسر الحماني بن أحمد .	١٠٠٠٠٠
» عبيد الله بن أحمد اليعقوبي .	١٠٠٠٠٠
» الحسن بن ابراهيم الخرائطي، صلحا عما اقتطعه من مال الرئيس .	١٠٠٠٠٠
» الحسن بن علي بن نصير أنصاري نصير بن علي .	١٠٠٠٠٠
» علي بن محمد بن أحمد بن الشمان، عن ورثة قرق .	٢٥٠٠
» أبي بكر أحمد بن القاسم الأزري الجرحاني، عن صباغ علي بن عيسى .	١٠٠٠٠
» الحسين سعد بن القطراني .	١٣٠٠٠
» محمد بن أحمد .	١٥٠٠٠٠
» أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام .	٣٠٠٠٠٠
» أحمد بن محمد بن حامد بن العباس .	٥٠٠٠٠
» سليمان بن الحسن بن محمد .	١٣٠٠٠٠

ومن المقول أن مستنبط من ذلك أن الورير أو العامل ، لابد أن يمتنع الى الرشوة ، يحوز المال الذي يستصفي منه ، والثروة التي تستغنى به . ومن المقول أيضا أن نعلل لم تعددت الثورات في بعض الولايات ، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد . وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة

وأسياب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على العارة الآتية في الجزء الثاني من اليمقوبي، تنبها لك بصها . « أحد الرشيد المال والثاء^(١) والدهاقين^(٢) وأصحاب الضياع والمتاعين للعلات والمقيلين^(٣)، وكان عليهم أموال محتمة، مولى مطالبتهم عبد الله بن الهيثم اس سام، فطالبهم بصوف من العذاب، وكان ذلك سنة ١٨٤ وأعتل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشفى منها، فدخل إليه الفصيل، فرأى الناس يعدون في الخراج، فقال : ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . "من عذب النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة" فأمر أن يرعى عن الناس، فارتفع العذاب من تلك السنة^(٤) .

ويحوز لنا أن نستدل من هذه العارة ومما ذكره الطبرى وسواه : من تخصيص بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيارة ملكية، على أن المال كانوا يحسبون إلى الشدة والعسف وجمع المال بشق الوسائل، وكل ذلك من حزاء النظام المتبع معهم كما أسلفنا . فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعية بسبب عسف المملوك للولاة والمال .

^(٥) يسمون ويظلمون، والرعية وحدها هي التي تحتل وتصبر . بيد أن التاريخ يحنثنا دائماً، في كافة الدول وكافة الأجيال، أن نهاية هذا الاحتمال وذلك العبر هي نقطة الأثم وانتهاها، ونهضة الشعوب ونصوحها، ورفضها في إياه وثميم وفي عقيدة وإيمان، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة إرادته، احتمال أمثال هذه الأدوار والمآثم، وتلك الإسماء والمظالم، ممن تسلموا عقائد الرعية : من الحكام ودوى السلطان .

(١) الثاء (براز سكان) جمع ثاء، والثاء الفهق . أسطر الفاموس . (٢) الدهاقين جمع دهقان وهو التاجر أو رئيس الاقليم وهو فارسي معرب . (٣) هم متمردين حامية الخراج للولاة . (٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب الحارث أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستعفاء وإسماء هو من قبيل الإعنات في استيعاء الحقوق . (٥) يلاحظ الأستاذ البحار أيضاً أن كل ما ذكر في هذا الباب لا يتناول رس المأمون وإسماء كان ذلك معه . والرشيد لم يجهط عليه إلا استعفاء البرامكة حين نكسهم وأن المأمون رعت إليه رقعة فيما أن علاما مات وترك لورثته كذا وكذا وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم فكتب في الرقعة : هذا قليل لمن تغلب في دولنا وطالت خدمه لنا مبارك الله لورثته ما ترك لهم .

(د) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم :

نريد أن نعيد ملاحظة أخرى ، وهى نتيجة لازمة من نتائج الاستعلاء والاعتصاب . تلك الملاحظة هى استعمال ثروة الخلفاء طبعاً ، واستعمال ثروة كبار رجالهم والمقربين من أفراد البيت الملكى من طاعة وحاشية ، واستعمال بدخهم ، واستعمال أعطياتهم . ونحن وإن كنا لم نجد مصدراً معطياً هذا الموضوع ، وخاصة فى العصر المأمونى ، فقد عثرنا فى كتاب لطائف المعارف للشمالى ، أن « المكتفى » وهو قريب الصلة بصهر المأمون ، قد خلف مائة مليون دينار ! وهذا تفصيلها :

- دينار ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .
- ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الفرش .
- ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ « الكراع والسلاح والفلان .
- ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الضياع والعقار والأملك .
- ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ الجوهر والطيب وما يجرى منهما .

ومن المقول أن نخذ من حالة هذا الخليفة العاسى مقياساً لغيره ، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطاناً وأكثر أعواناً ، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ، ليسا بأقل منه بالثروة مكاناً !

أما ثروة كبار رجالهم ، وإننا نذكر لك هنا على سبيل المثال نعتاً هاتماً ، يصحح أن نغذه أساساً لتقدير ثروته أسرة الفضل بن سهل ، أو أسرة طاهر بن الحسين ، أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة . وهو النص الذى رواه سهل بن هارون أحد المعاصرين حاصداً ثروته البرامكة . وكلامه حجة لا محالة ، لأنه إلى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على ما جرى بآب الأمور وبواطنها فى ذلك العهد ، فقد كان يشغل وظيفته خازن دار الحكمة أيام المأمون . قال . « .. وأمر الرشيد بجمع أموالهم ، فوجد من العشرين ألف ألف

التي كانت مبلغ حياتهم ، اثني عشر ألف ألف مكتوبٌ على يَدِها صكوك غنومة
تسيرها رقما ، حواها ، ها كان منها حياءٌ على عريسة أو استطرف مُلعة بصنق به
يحيي ، وأنت ذلك في ديوانها ، على تواريج أمانها ، فكان ديوان إغاق واكتساب فائدة ،
وقص من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستائة ألف وستة وسعين ألفا ، الى سائر
صباغهم وعلاتهم ودورهم وريائتهم والديق والخليل من مواعينهم ، فانه لا نصف أقله ،
ولا يعرف أيسره ، إلا مَنْ أَحصى الأعمال ، وعرف منتهى الآجال .

ويحوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على رواج بُورَان المأمون ، مبلغ ثروه
الحسن بن سهل . كما يحور لنا أن بين مقدار ثروه عبد الله بن طاهر من روايه
صاحب العجوم الزاهره الخاصة بإحدى مواقفه في الكرم . ومؤداها . أنه اقتدى الأُسرى
من الترك بنحو أُلَى ألف درهم . ثم أنظر ما رواه المسعودي في مُروجه حاصا بما
عمله ابراهيم بن المهدي ، في رماه للرشد له ، اد اصطح له طاهيه حمله أطعمه نغمة ،
وكان من حملتها حاتم سمك مقطع ، فاستصر الرشد قطعهُ ، واستفسر منه عن حقيقتها ،
فأجاب ابراهيم بن المهدي : ما أمير المؤمنين ، هذه أسنة السمك . وقدّرت نفقة ما في ذلك
الجام ألف درهم !

ثم أنظر بدّحهم في لباسهم . وقد سبق لنا أن أشرنا الى ما كانوا يلبسونه في المادامه ،
من مختلف الثياب وغالبا . ويرد أن نبين ها ما وقعا عليه من مخلفات بعض المعاصرين
من الخلفاء والقواد ، يكون مثالا تقر بيا لحالة مَنْ لم يصل الى علما حبره . فقد ذكر أن
ما حمله المُكْتَنِي من الألبسة هو :

عبد

٤٠٠٠٠٠ من الثياب المقصوره سوى الخيامات .

٦٣٠٠٠ » الأتواب الخراسانية المروية .

٨٠٠٠ » الملاعات .

عدد	المائتين المروية .	١٣٠٠٠
١٨٠٠	الحلّل الموشاة اليمانية وصيرها منسوحة بالذهب .	
١٨٠٠٠٠	البطائن التي من كَرَمَانِ في أناييب القصب .	
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمية .	

وذكروا أن دا إيميين توى وى حراسته ألف وثلاثمائة سراويل ديبقى لم يستعملها . وقيل
لهم وجدوا فى كسوة بمحتشوع الطيب ٤٠٠ سراويل ديبقى .

وقد اطلعنا فى الجزء العشرين من « كتاب نهاية الأرب » على أن ملك التبت قديم
على المأمون، ومعه صم من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر، فأسلم الملك،
وأخذ المأمون الصم وأرسله الى الكعبة . وطالما فيه أيضا أن ملك الهند أهدى اليه
هدية هيسه، وكتب اليه معثدا أمواله وثروته، مما يدل على بدح العصر وثروة الملوك فيه .

وقد استفحل أمر البدح فى ذلك العصر، حتى أصبحنا نرى أما العنايه مثلا، وهو
المعروف ببغله، يهدى الى الرشيد، فى سبيل طلبه لعتنه، ثلاث سراويل، وكان العباسيون
قد تعصوا بها وى المئات الى احتُرعت فى أيامهم، وكتب على كل مروحة بيتا، قال
فى مجموعها :

ولقد تسمتُ الرّيحَ لحاقى * فادأ لها من راحيته شميمُ
أعقبتُ نفسى من رحائك ماله * عَقُّ يَحْتُ اليك فى ورسمِ
ولربما استيأتُ ثم أقول لا ، * إن الذى ضمن الرّيحَ تَكرِيمُ

ولعلك اذا تذكرت أمر سُقْن الأمين وبدخه وإسرافه مصافا اليه ماذكرناها وغيره،
تؤمن بما نقول من بدح العصر واستفحال ثروته . على أننا قد عثرا على مصدرين، نشرهما
مع الحيلة والحدس، لبيان ثروة العصر . يتضمن الاول بيانَ الجباية فى أيام المأمون،
ويتضمن الثانى حالتها فى أيام أخيه المعتصم . مفترضين وكلتا الحالتين حوَارَ المبالغة

في التقدير ، ذلك لأن ديون المؤرخين القدماء ، أن يحسوا في الغالب الى المبالغة والنفق .
ولنا مع اقتراصا المبالغة في التقدير والمصدرين ، نرى مع ذلك أن أى تقدير متواضع
للمخرج ، في ذلك العصر ، لابد أن يكون عطيا ودالا على الثروة والسي والندح .

(هـ) انخراج في عهد المأمون :

يمتاز عهد المأمون بوحود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع
الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية ، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون
في تاريخه ، وقد أحبا ، لما في ذلك الثبت من العائد ، أن نقله عنه . وها هو ذا :

الإقليم	الجباية من الدراهم والدماير	الجباية من العروش
السواد	درهم ٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠ / حلة نحرانيه
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠	٢٤٠ / رطلا من طين الحتم
كورد حلة ...	٢٠٨٠٠٠٠٠	
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ / قاروره ماء ورد
كerman	٤٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل زيت أسود
مكران	٤٠٠٠٠٠٠	٥٠٠ / ثوب متاع يمانى
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ / رطل نمر
مخستان	٤٠٠٠٠٠٠	١٥٠ / رطل عود هدى
		٣٠٠ / ثوب معين
		٢٠ / رطل من الفانيد

(تابع) الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الحمايه من الدراهم والدنانير درهم	الحمايه من العروش
		٢٠٠٠ نقرة فضة
		٤٠٠٠ رديف
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق
		٢٠٠٠٠ ثوب متاع
		٣٠٠٠٠ رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ شقه إبرسم
قومس	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠ ميره فضة
		٦٠٠ قطعة فرش طبرى
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠٠٠٠	٢٠٠ كساء و ٥٠٠ ثوب
		٣٠٠ مديل و ٣٠٠ جام
الري	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الزمان
		١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصره والكوفه . . .	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أدربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
		١٠٠٠ رأس رقيق
		١٢٠٠٠ زق عسل
الجزيره وما يليها من أعمال العراق	٣٤٠٠٠٠٠٠٠	١٠ بزاه
		٢٠ كساء

(تبع) الخراج في عهد المأمون

الإقليم	الحماية من الدراهم والدنانير درهم	الحماية من العروض
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠	٢٠ قسط محصور ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المساج السراهي ١٠٠٠٠ رطل صوغ ٢٠٠ سل ٣٠ مهرا
برقة	١٠٠٠٠٠٠	
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠	١٢٠ لسط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠ درهم	
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠ حل ريت
دمشق	٤٢٠٠٠٠	
الأردن	٩٧٠٠٠	
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠	
اليمن	٣٧٠٠٠٠	سوى المتاع (الذي لم يذكر)
الجهاز	٣٠٠٠٠٠	
	٤٨١٧٠٠٠	ديار وسواى ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعثار الدينار ١٥ درهما وهو تقدره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠	
يضاف اليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠	
الجملة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠ درهم	



(و) الخراج في عهد المعتصم :

أما جباية الدولة في أيام المعتصم فهناك هي نقلا عن قدامه بن جعفر ، كانت جباية السواد معظمها من الحطة والشعير ، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلا باعتبار طسايح السواد، أي واحة في الشرق والعرب .

اسم الناحية	مقدار الحطة مالكز	مقدار الشعير مالكز	الدراهم
طسايح السواد في الجانب الغربي :			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج . مسكن . . .	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
» قطريل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
» بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
بهر سبر	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثي	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
هر درقبط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر حوير	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
ماروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزواحي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطونية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
العلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠

(تابع) الحراحي في عهد المعتم

اسم الناحية	مقدار الحطه الكتر	مقدار الشعر الكتر	الدراهم
(تابع) طسايج السواد في الجانب الغربى			
طسوح النهرين ..	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
» الحنه والدناه	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا وبرسيا ...	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
الرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فراش ماذقل .	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوح السيلحين..	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
رودستان وهرمزجرد . .	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
ايجار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠

طسايج السواد في الجانب الشرقى .

طسوح بررساوير	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
» الراذامين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
» نهر يوفى ..	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهرين ..	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
حازر والمدينه العتيقه	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهرود	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجلالتا..	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠

(تابع) الحراج في عهد المعتمد

اسم الناحية	مقدار الحطة بالكتر	مقدار الشعير بالكتر	الدرهم
(تابع) طاسج السواد في الجانب الشرقي :			
الذينين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
السدينيين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوح رار الرود	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
الهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا ونكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كوردحلة	٩٠٠	٤٠٠	٤٣٠٠٠٠
مهر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
الهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع حراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

المجموع حباية السواد ماعبار بواحيه ١١٥٦٠٠ كتر حطه و ١٢٣٩٢١ كتر شعير و ٨٨٢١٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامه المذكور بعد أن أورد نراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم . فقد قال في إيراد المجموع « ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصره من الحطه ١٧٧٢٠٠ كتر ومن الشعير ٩٩٧٢١ كتر ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم » وقد قال المرحوم جرحى بك ربدان « ولملّ سبب هذا الفرق خطأ في قراءه بعض الأعداد ، على أن الضرر على كثرتة لا يعتد به فيما نحن فيه . بقي علينا أن نحول الحطه والشعير الى دراهم ، وقد عمل جمع ذلك لحولها باعتبار ثمن الكثرين المقروين من الحطة والشعير ٦٠ ديسارا والديار على صرف ١٥ درهما بديسار مبلغ ذلك

١٠٠٣٦١٨٥٠ درهما وقال : إن صدقات البصرة تجمع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، فإذا جمعت ذلك كله ، بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهما على هذه الصورة .

الدراهم المجموعة ورقا	٨٠٩٥٨٠٠
قيمة الحطة والشعر بالدرهم	١٠٠٣٦١٨٥٠
صدقات البصرة	٦٠٠٠٠٠٠
درهما	١١٤٤٥٧٦٥٠

هذا هو ارتفاع السواد ، فليست إلى إيراد حانات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب

وهي مع السواد

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠	ما قبله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠	الري ودمابند	٢٠٠٨٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠	قزوین وريحان وأهر	١٨٢٨٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠	قومس	١١٥٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠	حراكان	٤٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠	طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
صهستان	١٠٠٠٠٠٠	تكريت والطبرهان	٩٠٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠٠	الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠	قردي وبديدي	٣٢٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠	ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠	أرزن ومياقارقين	٤٢٠٠٠٠٠
ماسبدان	١٢٠٠٠٠٠	طروند	١٠٠٠٠٠٠
مهرجان قنق	١١٠٠٠٠٠	آمد	٢٠٠٠٠٠٠
الايغارين	٣١٠٠٠٠٠	ديار مصر	٦٠٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠	المجموع	٣١١٥٨١٣٥٠
نقل يسله	٢٤٢٢٥٧٦٥٠		

(تابع) ارتفاع السواد وإيراد جبايات سائر الأقاليم

أقاليم المغرب	دما سير	أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعوامم ..	٣٦٠٠٠٠	ما قبله ...	٣٥٩٢٠٠٠
جد حص .	٢١٨٠٠٠	الحرمين .	١٠٠٠٠٠
» دمشق ..	١١٠٠٠٠	انيس .	٦٠٠٠٠٠
» الأردن	١٠٩٠٠٠	الجمامه والحريين .	٥١٠٠٠٠
» فلسطين ..	٢٩٥٠٠٠	عمان	٣٠٠٠٠٠
مصر والاسكندرية .	٢٥٠٠٠٠٠	المجموع	٥١٠٢٠٠٠
كل معده	٣٥٩٢٠٠٠		

وإذا ما حولنا هذه الدماير الى دراهم ، باعتبار الديار ١٥ درهما فانها تساوى ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم وبإضافتها الى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيره ، يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهما وهو ارتفاع الخراج على تقدير قداوة .



(ز) السعاليات والخاصوسية :

وهناك ملاحظه أخرى حديره بالقييد ، وهى اشارة السعاليات والدسايس فى ذلك العصر انتشارا مرقطا . ولعل سبب ذلك حووح العباسيين الى استعمال الحواميس والرقاء بكثيرة هائله . فاطر مثلا ما جاء فى الجزء العشر من كتاب « نهابة الأرب » عن المأمون إذ يقول : إنه كان يحب سماع أحبار الناس حتى جعل يرسم الأخبار بعدد ألف محوز وسبعة عوز . فتأمل حاسوسيه العصر التى لا بعد التة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة ١

وسعد ، فهما يكن من افراصك للمالعه والقلوبيا رويه لنا صاحب هاية الأرب ، فان اطلاقك على كتاب اس طيعور الذى كان معاصرا لكثير من رواه ، والذي كان

قرب العهد بالمأمون وعصره ، فتمكك بكثرة الميول وكثرة الأرصاد ، كثره قد تهولك حقاً وتدهشك صدقاً ! .

وقد سبق أن قلنا إن حل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار ، ويحسون الرجل الكُتْمَةَ المُقْلَةَ . وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة . وملك اذا نظرت الى قول المأمون « نَحْمَلُ الْمُلُوكَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا ثَلَاثَةً . إِنْشَاءَ السَّرِّ ، وَالْقَدْحَ فِي الْمَلِكِ ، وَالتَّعَرُّصَ لِلْحَرَمِ » علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم ، وأنها في المنزلة الأولى من اعتبارهم ، واستطعت أن تملأ لم كانت حططهم غير واضح ولا حليه ، وربما كانت مُعَاهِدَةً مَبْهَمَةً .



(ح) الدعاوة ” البر وياخذنا “ :

وهناك مسألة أخرى محدثت لها ، وهي حديره بالملاحطة قِيَمَةُ الْحَدِثِ ، تلك هي عايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفَاعَ عَنْهُ . فقد كان إقناعهم لأمرها وعلمهم بأما يبتغيها ووقوفهم على نُظْمِهَا ، بالغا ملحا عظيمًا ، إذ كان في مُكْنَتِهِمْ وَطُوعِ سَانِهِمْ ، أَنْ يَصَوِّرُوا الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا . وإن فيما رواه الطبري وغير الطبري عن سبي حياة المأمون ، واستخدامه للرقاع تعلق على طهر من يُقْتَلُ أَوْ يُعَاقَبُ مِنْ رِحَالَاتِ دَوْلَتِهِ ، الْعِيَّةَ وَالْكَفَايَةَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِ الْقَوْلِ فِيهِ .

وَأَنَا نَسُوقُ إِلَيْكَ مَثَلِينَ لِتَأْيِيدَ مَا دَعَا إِلَيْهِ

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل علي بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقرأها الناس ، فُكِّتْ - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لمأساة أخرى - : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ دَعَا عَلِيَّ بْنَ هِشَامٍ فِيمَنْ دَعَا مِنْ أَهْلِ حِرَاسَانِ ، أَيَّامَ الْخُلُوعِ ، إِلَى مَعَاوَنَتِهِ وَالْعِيَامِ بِحَقِّهِ ، وَكَانَ فِيمَنْ أَحَابَ وَأَسْرَعَ الْإِحَادَةَ ، وَعَاوَنَ فَاخِسَ الْمَعَاوِيَةَ ، فَرَعَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ لَهُ ، وَاصْطَطَمَهُ ، وَهُوَ يَطْلُبُ لَهُ تَقْوَى اللَّهِ

وطاعته ، والانهاء الى امر أمير المؤمنين في عمل إن أسد اليه في حسن السيرة وعفاف الطَّعْمَة . وبدأه أمير المؤمنين بالإفصال عليه ، فولَّاه الأعمال السَّيِّئَة . ووصله بالصلوات الجريئة الى امر أمير المؤمنين بالطرف في قدرها ، فوحدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم . فهدَّيه الى الخيانة والتصنيع لما استرعا من الأمانة ، فاعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عَثْرُهُ ، فأقاله إياها ، وولاه الجبل وأدْرَجَ بحان وكور أَرْمِيْدِيَّة ، ومحاربة أعداء الله الخوثة ، على ألا يعود لما كان منه ، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الديار والدرهم على العمل لله ودينه ، وأساء السيرة ، وعَسَفَ الرعيه ، وسكَّ الدماء المحترمة . فوحه أمير المؤمنين عُجِيف بن عُبَيْسَة مائشرا لأمره ، وداعيا الى تلاقى ما كان منه ، فوثب عجيف يريد قتله ، فقوى الله عجيما بيته الصادقة في طاعه أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه . ولو تم ما أراد عجيف لكان في ذلك ما لا يُستدرك ولا يُستعال ، ولكن الله اذا أراد أمرا كان معمولا . فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام ، رأى ألا يؤاخذ من حلفه بدينه ، فأمر أن يحرق لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يحرق عليهم ، مثل الذي كان جاريا لهم في حياته . ولولا أن علي بن هشام أراد العُطْمَى بعجيف لكان في عداد من كان في عسكره ممن حالف وحان ، كعيسى بن منصور وطرائه والسلام .

فانت ترى من هذا الى أبة درجة من العاية والاهتمام وصلت الدعاوة « البرواحدة » المأمونية !

ولا عرو فقد أهدب المأمون أيما إفاده . وقد كان المسلمون ، بسبب نشاط العباسيين في الدعوه لأنفسهم ، أطوعَ لهم مما كانوا لنبي أميه ، واعتقدوا أن حلامهم تنقئ أمد الدهر حتى يأتي السيد المسيح . وعُيِّرَ في أذهان الناس . تنوالى الأرماء ، أن الخليفة العباسي اذا قُتِل احتل نظام العالم واحتضت الشمس وامتنع القَطَر وحفَّ السات ! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاوة لأنفسهم . واهتمامهم أمما اذتمام بتبوير نصرتهم وتركية أعمالهم .

ثم أنظر ماذا حصل لأبراهيم بن المهدي، ترأ الدعو المأمونية أنت إلا أن تقعد في دار المأمون ليظهر اليه سواهشم والقواد والحد، وصير الدعاة المقتعة الى كان منتقيا بها في عتقه، والملحمة الى كان ملتحقا بها في صدره، ليراه الناس ويعلموا كيف أحد.

واطر أحرا - رعاك الله ووفقك - الى ما يحقشاه أحمد بن أبي قواد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال « قال لي المأمون : لا يستطيع الناس أن يصفوا الملوك من وررائهم، ولا يستطيعون أن يبطروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكلماتهم، ومن صانعهم وطلابهم، وذلك أنهم يرون طاهر حرمه وحلمه واحتياجه وصيحه، ويرون إيقاع الملوك بهم طاهرا، حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رعة في ماله أو رعة في مص ماله بخود العوس به. ولعل الحسد والملافة وشبهه الاستبدال اشتركت في ذلك، وهناك حياتات في صلب الملك أو في بعض الحرم، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك. ولا أن يمتح تلك العقوبة مما يستحق ذلك الدس، ولا يستطيع الملك ترك عقابه، لما في ذلك من الفساد على علمه أن صدره غير مسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة».



(ط) صعوبة مهمة المؤرخ :

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم، والغالب من المعلوم، والهادي والصال، في هذه الدولة التي لمت فيها الأقلام والألسنة دورا عظيما، ولولا ما حجبنا الله من الاطلاع على شتى المصادر وقصصها في ذلك تمهيدا طويلا ودرسا مملا متعا، فطالما أقوال الأحرار المتصارعة، ووازما بين كلمة هذا ودفاع ذاك، لما كانا مالفين بعض ما بلغنا من إمالة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية. وفي هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآل لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية.

الفصل الثمان شخصية المأمون

توطئة — كرمه وبخائه — كيف ملك المأمون قلوب طائفة — مدره لرجال دوله — قدره للشجاعة الأدبية — عدله وأصابه — عمره — بصره بالأدب — علم المأمون — احترامه للدين — سياسته — مدحه الدينى — كلمة ختامية .

(أ) توطئة :

زيد هذا أن محل أحلاق المأمون ، ويريد أن نستقصى كل ما قيل عنه وأن ندرس شتى نواحيه الخلقية بما يستحقه من العناية والتعليق والتوضيح . وسنعمد فيما سكته على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه . ورحو أن نوفق فيما سعائيه .

(ب) كرمه وبخائه :

يعول صاحب الحجوم الزاهرة : أنه لم يعزى ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما عرّفه المأمون يوم ولّى ولده العباس على الخزيرة ، اد أمر لكل من المعتصم والعباس بمئة ألف دينار ، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر .

وقد يكون من مافلة القول أن تذكر أن المأمون كان من أكثر حكامه العباسيين حودا وأسطهم يدا ، وأصحابهم مضاء ، بعد أن يرى كثرة التاريخ والأدب معمة بما كان له من حوادث عريته في السجاء والحود .

والذى يتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث حوده وفيص إسمائه ، يرى أن كرم المأمون وبخائه يرجع الى عاصر محتله في نفسه ، فمنها ما يرجع الى ما في فطرته من أريحية واعتزاز للعروف ، ومنها ما يرجع اليه كسياسى يريد أن تطهر ويملك القلوب ، ويوطد أركان سلطانه بالمال .

ومن ادا بطرا الى الدوحة الهاشميه الى هزاع عنها المأمون، وأنه شأ في حجر الخلافة في العجم والترف، ومن هذا شأنه قل حرصه على المال، وادا بطرا أيضا الى أنه حاض معه سياسة وحريه كان المال من أهل آلاتها وأصدها أنرا — وقد بنا لك في العصر الأموي ما كان لئال من أنزقوى في إمامه سلطان بن أميه وبوطيده — لم نزلوا كثيرا فيما أُرعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث حود المأمون وكرمه . ولسطر بها رونه لنا اس طيعور في هذا السبيل، فانه قال . إن المأمون لما فتح « حصن قزو » وعم ما فيه اشترى السني بسنة وحسين ألف دينار، ثم حُلَّ سبيلهم وأعطاهم دينارًا دسارا .

وهناك مثالًا لما نصح أن يكون من آثار أرنحية المأمون وإرادته بوطيد سلطانه

نحدثنا اس الأثير والطبري، أن العسني صاحب اسحاق بن اراهيم قال كُتِبَ مع المأمون بدمشق، وكان قد قل المال عنده حتى أصاب وشكا ذلك الى أبي اسحاق المعتصم، فقال له يا أمير المؤمنين، كأنت للمال وقد وافك بعد حُجْمه، وكان قد حَمَلَ اليه ثلاثين ألف ألف درهم من حراج مايتولاه له . قال: فلما ورد عليه ذلك المال، قال المأمون ليحيى بن أكرم . أخرج ما سطر الى هذا المال، قال . خرجنا حتى أصحرا ووهما يسطرانه . وكاب قد هُتِيَ ما حسن هيئه وحُلَّتْ أناعرُهُ وألبست الاحلاس الموشاه والخلال المصعنه وقُلِدَت العيَن، وجُعِلَت البَذَرُ بالحرر الصبيي الأحمر والأحمر والأصغر، وأُنْدِت رؤسُها، قال . فطر المأمون الى نبيء حسن، واستكثر ذلك مَعْطَم في عيسه، واستشره الناس يسطرون اله وبعحون منه، فقال المأمون ليحيى . يا أبا محمد، يصرف أصحابنا هؤلاء الدين راهم الساعه حاشين الى مارلهم، وسصرف هذه الأموال وقد ملكها دونهم، إنا إذا للثام ثم دعا محمد بن يزداد، فقال له . وَقَعَ لآل فلان ألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرَّق أرسه وعشرين ألف ألف درهم، ورحلَه في الركاب، ثم قال. ادفع الباقي الى المعلق يعطى جدما . قال العسني : بختت (١) يقول أسامدا الشيخ عبدالوهاب الحار « أحسب أن ألفا رائدة في آراتهم المقولة لأن حساب ذلك يؤد الى مليارين من الدنايا، وعلة بن العباس في عشر سوات لا تنى بذلك، فكيف بمصر وحدها » .

حتى قُتُّ نُصِبَ عِيْه، فلم أرْذَ طرقِ عِها لا يَلْطَفي إلّا رآني مُتلك الحال، فقال يا أبا محمد: وَقَعَ لَها بِمِئْسين ألفِ درهمٍ من سِتِّه آلافِ الألفِ. قال: فلم يأتِ عليّ ليلتان حتى أُحْدِثَ المالَ.»

ومما يدل على كرمِ نَفْسِ المأمون وَحُسنِ تَنَسُّطِه، ما رواه القاسم بن محمد الطيغوري. قال: «شكا اليربديّ إلى المأمون حَلَّةَ أَصاِسِه ودَسَّ لَحِقِه، فقال ما عَدَدنا في هَذِهِ الأيَّام ما إنْ أَعْطَسا كَهْ طَلَّتْ بِهِ ما تَرِيدُ، فقال. ما أَمَرُ الْمُؤْمِينَ، إنْ الأَمْرُ قَدْ صَاقَ عَلَيَّ، وإنْ عُرِّماني قَدْ أَرَهَقُوني، قال «فَرَمْتُ لِنَفْسِكَ أَمْرًا سَلُّ بِهِ نَعْمًا، فقال لَكَ ما دُمونَ فيهِمْ مَنْ إنْ حَرَكْتَهُ لَبَّ مِمَّه ما أَحَبَّ، فأطْلِقْ لي الحِلَّةَ فيهِمْ. قال هلْ ما بَدَا لَكَ، قال. فاذا حَصَرُوا وَحَصَرْتُ فَرُّوا فَلَما الحادِمُ أنْ يُوصَلَ اليكَ رَقْعَتِي. فاذا هَرَأَها فَأَرْسَلْ إلى «دَحُولِكَ في هَذَا الوَقْتِ مُتَعَدِّرٍ. وَلَكِنْ احْتَرَلْ نَفْسَكَ مِنْ أَحْدَثَ.» قال: فلما عَلِمَ أبو محمد بِمَحْلوسِ المأمون وَاجْتِماعِ نَدَمائِه إِلَيْه وَبَيَقُرَّ أَنَّهُمْ قَدْ تَمَلَّوْا مِنْ سِرِّهِمْ، أَتى البابَ فَدَفَعَ إلى ذَلِكِ الحادِمِ رَقْعَةً قَدْ كَسَها، فأَوْصَلها إلى المأمون، فَمَرَأَها فاذا فيها.

يا حَبِيرَ إِحْوانِي وَأَصْحابِي * هَذَا الطُّغَيْلِيُّ - لَدَى البابِ
حَرُّ أَرْبِ العُومِ في لَدَهْ يَصْوَ اليها كَلَّ أَزْبابِ
فَصَبِّرُونِي واحِدًا مَعَكُمْ أَوْ أَحْرِحُوا لي عَصَّ أَتْرايِ

قال: فَمَرَأَها المأمون على مِنْ حَصْرِه، فقالوا: ما نَدَعِي أنْ يَدْخُلَ هَذَا الطُّغَيْلِيُّ - على مُثَلِ هَذِهِ الحالَةِ، فَأَرْسَلْ إِلَيْه المأمون. «دَحُولِكَ في هَذَا الوَقْتِ مُتَعَدِّرٍ، فاحْتَرَلْ نَفْسَكَ مِنْ أَحَبَّتْ تادِمِه.» فقال: ما أَرى لِنَفْسِي اخْتِيارًا عِزَّ عِبدِاللهِ بنِ طاهِرٍ. فقال لَه المأمون: قَدْ وَقَعَ احْتِيارُه عَلَيكَ فَسَرُّا لَه، قال: يا أَميرَ الْمُؤْمِينَ، ما أَكُونُ شَرِكَ الطُّغَيْلِيِّ. قال: ما يَمْكَرُ رَدَّ أَيْ مُحَمَّدٍ عَنِ أَمْرِ، فانْ أَحَبَّتْ أنْ تَحْرُجَ وإلا فاقْدِرْ نَفْسَكَ. فقال: يا أَميرَ الْمُؤْمِينَ، لَه عليّ عَشْرَةُ آلافِ درهمٍ! قال: لا أَحَسُّ ذَلِكَ تُقَعِّه مِلكَ وَمِنْ مِجالِستِكَ، قال. فلم يَزَلْ يَزِيدُه. عَشْرَةُ عَشْرَه، وَالْمأمون يَهولُ لَه. لا أَرْصِي لَه بِذلِكَ،

حتى بلغ مائة ألف . قال : فقال له المأمون . صَحَّلَهَا لَهُ ، قال . فكتب له بها الى وكيله ،
 ووجه معه رسولا . فأرسل اليه المأمون « قَنَصْ هَذِهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ أَصْلَحُ لَكَ مِنْ
 مَا دَمْتَهُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ ، وَأَنْتَ عَاقِبُهُ » .

و يتجلى بماء المأمون ، مع الوفاء وطيب النفس ، في موقفه مع غلام سعيد الجوهري
 الذي كان قد لُرَّ بالمأمون في الكتَّاب ، فكان اذا احتاح المأمون الى نحو لَوْحَةٍ نادر اليه
 فاحد اللوح من يده فحاه وطب على غلمان المأمون ومسحه وحاه به فوصعه على
 المديل في حجره . فلما سار المأمون الى حراسان وكان من أحبه محمد الأُمس ما كان ، خرج
 اليه غلام سعيد هذا فوقف بالناب حتى جاء أبو محمد اليربُدي . فلما راه عرفه ، فدخل
 فأحمر المأمون ، فقال له مستبشرا بقدومه لك النُشْرُ ' ثم أدِن له فدخل عليه ، فضحك
 اليه حين رآه ، ثم قال . أتذكر وأنت تادري الى نحو لوحى ! قال : نعم يا سيدي . فوصله
 بمسماة ألف درهم .

واظهر فيما يحدثنا به الطري عن محمد بن أيوب ، قال . إنه كان بالصره رجل من
 بجي ميم وكان شاعرا طريفا ، حيثما ما كرا ، وكنت أنا وإيَّي الصرة آنس به وأستعليه ،
 فاردت أن أحدهه وأستزله ، فقلت له . أنت شاعر ، وأب طريف ، والمأمون أجود من
 السحاب الخافل والريح العاصف ، فما يمتعك منه ؟ قال : ما عدى ما يُقَلِّتِي ، قلت : فاما
 أعطيك مجيئا فارها ونقمة سامة وتحرج اليه وقد امتدحته ، فإني إن حظيت بلفائه ،
 صِرْتُ الى أُنْهَيْتِكَ ، قال . وافقه أيها الأمير ، ما إحالك أعدت ، فأعد لي ما ذكرت ، قال :
 مدعوت له بجيب فاره ، فقلت : شألك به فأنطيه . قال : هذه إحدى الحُسَيْنَيْن ، فاما
 الأخرى ؟ مدعوت له بثمائة درهم ، وقلت : هذه نهقتك ، قال : أحسك أيها الأمير قصرت
 في النقمة ، قلت : لا ، هي كايه إن قصرت عن السرف ، قال : ومتى رأيت في أكابر سُمَد
 سرفا حتى تراه في أصابعها ! فأحد الجيب والثقة ، ثم عمل أرحورة ليست بالطويلة ،
 فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء على ، وكان ماردا ، فقلت له : ما صنعت شيئا ، قال :

وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولا تأتي على أميرك! قال: أيها الأمير أردت أن تحدمني موحدي حذقا! أما والله ما لكراحتي حملتي على بحبك ولا حدث لي بمالك الذي ما رايه أحد قط إلا جعل الله حذاه الأسفل، ولكن لأذكرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، أهم هدا، قلت قد صدقت، فقال: أما إذا أدبت ما في صميمك، فقد ذكرتك وأثبتت عليك، قل: فأنشدني ما قلت، فأنشدته، فقلت أحسنت، ثم ودعني ونرج، فأتى الشام وإذا المأمون «سَلْمُوس». قال: فأحري، قال: «بينا أنا في عمرة قُزَّة، قد ركبتُ بحبي داك، ولبستُ مُقَطَّعاتي وأنا أروم العسكر، فإذا أنا بكهل على حل فاره، ما يقر قراره ولا تدرك خطاه، قال: فتلقاني مكافئة ومواجهه وأنا أردد نسيد أرجوزي، فقال: سلام عليكم! بكلام حُورِيّ ولسانٍ نسيط، فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته! قال: في باب شئت، فوقف، فتصوّعتُ منه رائحة العبر والمسك الأذفر، فقال: ما أولك؟ قلت: رجلٌ من مصر، قال: ونحى من مصر، ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رحل من بني تميم، قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد، قال: هيه! ها أقدمك هذا البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة، ولا أوسع راحة، ولا أطول باعا، ولا أمدّ ماعا، قال: ها الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلد على الأهواه وتفتقيه الرواة ويحلوق آذان المستمعين، قال: فأنشدني، فصبتُ وقلت: ياربك! أحبرتك أفي قصدت الخليفة شعر قلته ومدح خبرته، تقول أشدني؟ قال: فتغافل والله عنها وتغافل لها وألني عن حواها، قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لي عنه، فألف ديار قال: ما أعطيك ألف ديار إن رأيت الشعر جيّدا والكلام عذا، وأصع منك الماء وطول الترداد، ومتى تصل إلى الخليفة وبيك وبه عشرة آلاف راع وبابل؟ قلت: هل الله عليك أن تعمل، قال: نعم، لك الله على أن أفعل، قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا على، وهو خير من ألف ديار. أنزل لك عن طهره، قال: فصبت أيضا وعارصي نرى سعد وجهه أحلامها، فقلت: ما بساوي

هذا العمل هذا الحبيب، قل - فذبح عنك الغل، ولك الله على- أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال - فاشدنه :

مأمون إذا الميَّ الشريعة * وصاحب المرتبة الميعة
وقائد الكتبة الكثيفة * هل لك في أرحوزة طريفة
أطرف من فقه أى حيفة * لا والدى أت له حليفة
ماطلمت فى أرضا صعيقة * أميراً مؤتته خفيفة
وما أحتى شيتا سوى الوطيفة * فالدث والمعه فى سميعة
* واللص والتاخرى قليفة *

قال : فوالله ما عدا أن أشدته، فادأ زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأقب، يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته ! قال : فأحدى أفكل^(١)، وطرالى بترك الحالة فقال : لا بأس عليك أى أحي، قلب . يا أمير المؤمنين، جعلنى الله فداك، أتعرف لغات العرب ؟ قال إى لَمَرُ الله ! قلت : من جعل الكاف منه مكان القاف ؟ قال : هذه حمير، قلت . لعننا الله ولن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم ! فصحك المأمون وعلم ما أردت، وألتمعت الى خادم الى حاسه فقال : أعطه ما معك، فأخرج الى كبسا فيه ثلاثة آلاف دينار، فقال . هاك، ثم قال . السلام عليك ومضى، فكان آخر العهد به . أما عن كرم نفسه فان ابن طيمور يحتشأن أن يحارقا قال . كناعد المأمون أنا والمفتون بدمشق وعيربُ معا، فقال : عسَّ يا محارق، فقلت . أما محوم، فقال : يا عريب حُسيه، فوصت يدها الى عصى، فقال لها المأمون . قد اشتبهته، تحبب أن أروحك ؟ قالت . نعم ! فقال من تريد ؟ قالت : هذا، وأومأت الى محمد بن حامد، فقال : اشهدوا أى قد زوجتها مه . ثم انظر ما استطرد به محارق من أن المعتصم لما ولي، كتب الى اسحاق ابن ابراهيم : أن مَرَّ محمد بن حامد أن يطلق عيربى، فأمره فأتى، فكتب اليه : أن

أضرته ، فصر به بالمقارع حتى طلقها . ففى هذه الرواية ما يساعد على الوصول الى تنظير فى هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم .

أما كرم بطانته واقتفاؤهم أثره ، وترشيهم خطواته ، فأت الحديث فى ذلك يطول ، وقصارا أن نحيل الى ما فعل طلعة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وصيرهما ، فأطلب ذلك فى مطائنه .

« وبعد » فانه لمن الجليل المتع حقا أن يكون الملك كريما بسجيته ، جوادا ببرعته ، وقد يكون أجمل وأمتع ، وأبلغ وأوقع ، أن يكون من وراء فواصله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور ، واستحثات أصحاب المهام والعزمات ، والمواهب والعقريات ، على التبريز والإحسان ، والإحادة والإتقان ، خدمة لئى الإنسان ، وروعة للأوطان .



(ج) كيف تملك المأمون قلوب بطانته :

زيد أن ترك الكلمة فى تصوير هذه الناحية ، لما يرويه لنا ولادة المأمون أعظمهم . فقد قال رجل من إخوانه المأمون للمأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل الى ولد أى طالب ، وكذا كان أبوه فله . فدفع المأمون ذلك وأكرهه ، ثم عاد بمثل هذا القول ، فدمس اليه رجلا ثم قال له : امص فى هيئة القزاء والنسك الى مصر ، فادع جماعة من كبارها الى العاسم بن ابراهيم بن طاطلا ، وأذكر مناقبه وعلمه ومصائبه ، ثم صر بعد ذلك الى مص بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم أتبه فادعه ورجعه فى استعابته له ، وانحس عن ذنوبه بختا شافيا ، وأتته بما تسمع منه . قال : فعلم الرجل ما قال له وأمره به ، حتى اذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام ، فعد يوما ساب عند الله بن طاهر ، وقد ركب الى عيد الله بن السرى بعد صلحه وأمانه ، فلما انصرف قام اليه الرجل فأخرج من كفه رقعة فدفعها اليه ، فأحدها بيده ، فها هو إلا أن دخل نخرج الحاجب اليه ، فأدخله عليه ، وهو قاعد على ساطله ما بينه وبين الأرض غيره ، وقد مدّ رجله وحققه فيها ، فقال له : قد فهمت ما فى رقعتك

من جملة كلامك ، فهات ما عندك ؛ قال : ولى أمانك وذمة الله معك * قال : لك ذلك . قال :
 فاطهر له ما أراد ودعاه الى القاسم فأجبه بفصائله وعلمه وزهده ، فقال له عداقه : أنصفني *
 قال سم ، قال : هل يحب شكر الله على العباد * قال سم ، قال : فهل يحب شكر بعضهم لبعض
 عند الإحسان والمنة والتفضل * قال سم ، قال : تنحى الى وأما في هذه الحال التى ترى :
 لى حاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك ، ومعا بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم
 ما التمت يمينى ولا شمالى وورائى وقدامى . إلا رأيت عمّة لرحل أعمها على ومته حتم
 بها رقبتي ويداً لائحة ببصاء ابتدأت بها مفصلاً وكرماً ، فتدعوى الى الكفر بهذه العمه
 وهذا الاحسان ! وتقول اصبر من كان أولاً لهذا وآخراً ! واسع فى إزالة خيط عقده وسفك
 دمه ! رالك لو دعوى الى الجسه عيائاً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أعدر به وأكفر
 إحسانه ومته ، وأنكث بيعته ! فسكت الرجل ، فقال له عدا الله أما إنه قد بلغنى
 أمرك ، وتالله ما أحاف عليك إلا نفسك ، فارحل عن هذا البلد ، وإن السلطان الأعظم إن
 بلغه أمرك . وما آمن ذلك عليك . كنت الباطى على نفسك وهس عيرك . فلما أيس الرجل
 مما عده جاء الى المأمون فأخبره الخبر ، فاستشر وقال : ذلك عرس بدى ، وإلّف أدبى ،
 وترت تلقى ، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عدا الله إلا بعد موت
 المأمون .

وانظر الى تلك النصيحة التى تقدم بها عدا الله بن طاهر لمصور بن طلحة ، يهاه
 عن الكلام فى الإمامة اذ يقول : ” إيماننا شعرتنا على رموسا بنى العباس “ . ثم انظر
 الى ما كتبه المأمون الى عدا الله المذكور :

أنى أب ومولائ * ومن أشكر نعمه
 فما أحببت من أمر * فإنى الدهر أهواه
 وما تكره من شيء * فإنى لست أرحاه
 لك الله على ذاك * لك الله لك الله

واظهر الى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مختصر بمصر عبيد الله ابن السري إذ قال :

بَكَتْ نُسْلُ دِمْعَا * أَنْ رَأَتْ وَشَكَ بَرَّاحِي
وَتَذَلَّتْ صَمِيلًا * يَمْبَا يَوْشَاحِي
وَتَمَادَيْتُ بِسِيرٍ * لَغْ - لَمَوْ وَرَوَّاح
زَعَمْتُ حَمَلًا فَنِي * يَبُّ عَيْدُ مُرَّاح
أَقْصِرِي عَنِّي فَنِي * سَالِكُ قَصْدِ فَلَاحِي
أَنَا لِلْأَمُونِ عَبْدٌ * مَهْ فِي طَلِّ حَنَاج
إِنْ يُعَايِ اللَّهُ يَوْمًا * هَرِيْبٌ مُسْتَرَّاحِي
أَوْ يَكُنْ هُكُّ نَقْوَى * مَوِيلٌ وَصِيَّاح
حَلَّ فِي مَصْرَ قَبِيلٌ * وَدَعَى عَكَّ التَّلَاحِي

ألا يحوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محباً ما عهد بطاقته ! ولنا نرى بذلك أن الأئمة لم يكن محبوباً ، وأن موته ألم أهل سداد وجددها ، ولا ننكر أن بعضاً من جنس طاهر بن الحسين انصم إلى الأئمة طمعاً في ماله وحبا في شجائره مما يتناه لك في موضعه ، ولكننا الآن بموقف الدرس يحللون أخلاق المأمون ، وفي عقننا ألا تترك ما حبه من واحة من غير أن يبينها حقها من البحث ، ومطعها بصددها من الاستقراء .

« وبعد » فانه مما لا مدوحة لليك عهد أن يكون وادها محبا إلى طاقته وحاشيته ، بأحسانه إليهم ، وتمهده إياهم عطفه ورعايته ، وأن يتحدث عليهم ويرعاهم بحاية تشملهم ألفتها وتقلد أعاقهم منها ، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقهم من شخصه الحليل ، إذ هو ملك للرعية جميعها ، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها ، وهو عظيم البعة أمام الله والتاريخ عمن تملك عليهم وتولى أمر ديارهم وأحزمتهم .



(د) تقديره لرجال الدولة :

كان المأمون أكثر توفيقاً من أخيه الأمين ، وكفاية طاعته ، وقُدرة قادته ، وحريم مشيريه ، ونَصيرُ ولاته . وكان ، مع طمعه بالاصحاح من حاصته ، كثير التأمل لما يحرى في ملكه من مظاهر الصعف والقوة ، حريصاً على تدبر ما يترتب من مختلف الشؤون ، في تعزف الشخصيات القوية التي رحو أن يستند اليها الملك ويتأد بها النظام .

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المتصم قال له : يا إسحاق في قلبي أمرٌ أنا معك فيه مدّة طويلة . وإنما سطنتك في هذا الوقت لأُمّتيه اليك ، فقلت : قل يا سيدي ما أمير المؤمنين ، فأما أنا عبدك وابن عبدك قال : بطرت الى أمّتي المأمون وقد اصطلع أربعة أعصا ، واصطلمت أنا أربعة لم يُفْلِح أحدٌ منهم ، قلت : ومن الذين اصطلمهم أحوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ، وعبدُ الله ابن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يَرْمِثْهُ ، وأت ، فأت والله الذي لا يمتاض السلطان ملك أبداً ، وأحوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثلُ محمد ! وأنا فاصطلمتُ الأميين ، فقد رأيتَ الى ما صار أمرُهُ ، وإشساس ففَسِّلْ رأيُهُ ، وإيتاح فلا شيء ، ووصيفا فلا مُعَي فيه . فقلت : يا أمير المؤمنين - حملني الله فذلك ، أجيب عن أمان من غصبك ؟ قال : قل ؛ قلت : ما أمر المؤمنين . أعرك الله ، نظر أحوك الى الأصول فاستعملها فأحب فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تُخَب ، إدا لأصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما صرتي في طول هذه المدة أسهل على من هذا الحواب .

ولقد كان المأمون ، الى جانب هذه الخبرة بما يحتاج اليه من صفوة الرجال ، بصيرا بما في مملكته من ألوان المكر وصوف الرياء . فقد حدثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي ، قال : قال المأمون يوما ، وفي مجلسه جماعه ، هاتوا من عسكرنا مَنْ يطلب ما عدنا بالرياء ؟ قال : فقال كل واحد بما عده : إما أن يقول في عدو بما يقدح فيه ، أو يقول

بما يعلم أنه بسرّ خليفته، فلما قالوا ذلك، قال : ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يتحدث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى وافقه لو كان قد أقام في رَحْل كل واحد منهم حولاً محرماً ما زاد على معرفته . قال . فكان مما جمعت عنه في تَلَبِّ أصحابه أن قال، حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس . تسبيح حميد الطوسي، وصلاة حنطه، وصيام البوشحاني، ووصوه الميرسي، وباء مالك بن شاهي المساعد، ونكاه إبراهيم بن ربيعة على المبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص مضا، وصدقه علي بن الحفيد، وحملاں إسماعيل بن إبراهيم في السبيل، وصلاه أبي رحاء الصمعي، وجمع علي بن هشام القصاص . قال : حتى عددا جماعه كثيرة، فقال لي رجل من عطاء العسكر، حين نرحلنا من الدار، والله هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشدّ تقيراً من هذا ؟ قلت : اللهم لا ! فحدث بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الأحرار والعلم، فقال : وما يصعب بهذا، قد شهدت رسالته إلى إسماعيل بن إبراهيم في الفقهاء، يحبر بما يهيم رجلاً رجلاً، حتى لهوها أعلم منهم بما في سائرهم . وإن في ذبوع هذه الأخبار عن المأمون دليلاً على عابته بنشر دعوته الملك الموظّل الذي يبتس المقاتلون من التكرّله والخروج عليه، فإن طهور الملوكة بالقاذ إلى سرائر الرعية، يزيدهم قوّة إلى قوّة، وسلطاناً إلى سلطان .

ولما إذا نظروا إلى من استورره وأعلّ مكانه واستخلصه لنفسه من رحلات دولته وقواد ملكه، لم ترتد في الحكم للمأمون، وأنه كان الموفق المستند في اختيار أهل الكفايات والنبوع .

وقد كان، إلى جانب هذا، مقدّر الكفاية في خصوصه . ونظرة فيما رواه ابن طيعور عن الحسن بن عبيد الخلق خاصاً برأى المأمون في الفصل بن الربيع، وهو الذي تعلم مقدار إساءته إليه، تلك على هذا، فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفصل : « كان يدبّر الخطأ فيقع صواباً، ويبتّ بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبراً ما فيقع بنصر ذلك . فلما وقعت على البصيرة من أمرى، وفكرت في نفسي، وعملت بالأحرز

في ذلك، مات الى الحرم فوردتُ العراقَ . وإن الفصلَ من الربيع بقية الموالي . فلا تخفروا بذلك حتى، فاني أكره أن يبُلِّغَ عني ما يسره .

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره بشر الساماني من المعاصرين اذ يقول : « سمعت أحمد بن أبي خالد يقول : كان المأمون اذا أمرًا بأمر فطهر من أحدا فيه تقصيرٌ ، يقول : « أترون أني لا أعرف رجلًا يباني ، لو قلدته أمودي كلُّها لعام بها ! » فقال بشر : قلت لأحمد بن أبي خالد : يا أبا العباس، من يعنى قال . الفصل من الربيع .

ويظهر أن خطه المأمون في تقدير الكفايات أتى وحدث . قد اتبعها قادة المأمون بعده . فان ابن طيعور يحنثنا أنه لما وُتِّي طاهر بن الحبيب على شرطه المأمون سه أربع ومائتين، وكان عليها من قبل العباس بن المسيب بن رهير، كتب طاهر الى العصل ابن الربيع . « إني رأيت البركة ، وفي مشورتك الصواب ، فان رأيت أن تختار لي رجلين للحسرة » فكتب اليه ابن الربيع . « قد وحدثهما لك ، وهما خيار السدي بن يحيى وعباس بن القاسم » . ولأما طاهر الحسرين .

« وبعد » فاما نرى أن في هذا التقدير الكفاية لاثبات ما كان من تقدير المأمون ورحاله ، لأهل الكفاية والافتداز ، وحرصهم على استئصال أصحاب المواهب ، والاستعانة بهم وبكفاياتهم ، في خدمة الدولة .

(هـ) قدره للتعجاة الأدبية :

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل بقى السريرة ، راططًا بالخش ، يُقَدِّم على كلمة الحق غير هَيَّاب . وقد حدثنا ابن أبي طاهر طيعور عن روى عنه قال : « حدثني أحمد بن أبي خالد الأحول بحراسان ، فيما كان يحبرني به عن كرم المأمون وفصله واحتماله وحسن معاشرته ، أنه سمع المأمون يوما ، وعنده علي بن هشام وأخوه أحمد والحسين ، ذكر عمرو بن مسعدة فاستبطاءه ، وقال : أيمسبُ عمرو أني لا أعرف أخباره

وما يُجئى إليه وما يعامل به الناس ! بل والله ! ثم سئله ألا يسقط علىّ منه شيء ! ونهض
 واصررنا فقصدت عمرا من ساعتي ، فخرته بما جرى ، وأنسيت أن أستحله من حكايته
 عني . فراح عمرو الى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم ، لموقعه من الرسائل
 والمظالم والوزارة ، فأذن له . فحبرني عمرو أنه لما دخل عليه وصع سيفه بين يديه ،
 وقال يا أمير المؤمنين ، أنا عائد باقه من سخطه . ثم عائد بك من سخطك يا أمير المؤمنين . أنا
 أقل من أن يشكوى أمير المؤمنين الى أحد أو يُبَرَّ علىّ صغما ببعثه بعض الكلام على
 إظهاره ما يظهر منه ! فقال لي وما ذاك ؟ فخرته بما تلقى ولم أسم له بخيرى ، فقال لي : لم يكن
 الأمر كما ظنك ، وإنما كاب حمله من تفصيل كسب على أن أحرك به ، وإما أخرج منى
 ما أخرج معي تخاريتاه . وليس لك عدى إلا ما نحت ، فليفرح روعك وليحسن طئك ،
 فأعدت الكلام ، فما زال يسكن منى ويطيب منى ، حتى نخل بعض ما كان
 في قلبي ، ثم بدأ فصننى الى نفسه ، وقتل بدنه ، فاهوى ليعاقبنى فشكرته ، وتبينت في وجهه
 الحياء والمجل مما تأدى الى . قال أحمد . فلما غدوت على المأمون ، قال لي : يا أحمد أما لمجلى
 حرمة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرم إلا لما فصل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترصون
 بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت . وأبته معاملته ما أمير المؤمنين . هذا كلام لا أعرفه ، قال : بل ،
 أأ سمعت ما سكتاه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعض من حصر من بجى هاشم فخره به ،
 فراح الى عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يظهره ، فدعمت منه ما أمكن دفعه ، وحملت
 اعتذر اليه منه سدر قد تين في الجمل منه ! وكيف يكون اعتذار انسان من كلام قد تكلم
 به إلا كذلك يبين في عيبيه وشعته ووجهه ، ولقد أعطيته ما كان يقع منى بأقل منه ،
 وما حدانى عليه إلا ما دخلني من الحساسة ، وإما كان تطلق به اللسان عن غير روية
 ولا احتمال مكروه به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أحبرت عمرا به لا أحد من ولد هاشم ،
 فقال : أنت ! قلت أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والصبح والمجبة
 لأن تم نعمتك على أوليائك وحذمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يجب أن يصلح له الأعداء

والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء، ولا سيما مثل عمرو في دونه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين، أطل الله قاه^١ سمعت أمير المؤمنين أنكرمه شيئاً، فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه، ويتلاق ما قُط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل الماء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيياً، لو أشئتُ سرّاً فيه قدحٌ في السلطان، أو قصصٌ بديرٍ قد استتب، فأما مثلُ هذا فما حبيبته يسلع أن يكون ذنباً على، منظر إلى ملياً ثم قال: كيف قلب^٢ فأعذبُ عليه، ثم قال: أعذ، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنت والله يا أحمد! لما حترى به أحث إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف، وعقد خصره وبصره والوسطى، ثم قال: أما ألف ألف فطبيبك عني سوء العلى وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فطصدقك إياي عن نفسك، وأطلق البصر، وأما ألف ألف فطحسن حوارك، وأطلق الحصر، وأمر لي بهال.

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لتصدر كرام الحلال. فلو أنه كان معروفاً بالاستعداد لما أمكن هذه العوس أن تلح ما كانت تطمح إليه من السل والكرامه. وفي استمائه لاحتجاج حليسه حرصاً على استبقائه واستكراه ما في نفسه، فصلاً عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود، من التعاف حول شخصه، وتغاف في الوفاء له، وإمعان في خدمته وخدمه بلاده، خدمة الحز للخر باعث وحداني، لخدمة العد للسيد معاملة الإرهاب والإكراه. ولما تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالارهاب والاكراه، ولما تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع السف والإهانات، وأما يكون ذلك جميعه بحسب الصنيع وجمل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء العوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشجاع، قال: "قال لي المأمون وعده الزيدى والثقفى مولى الخيزران، واسماعيل بن توبخت، وتناكروا الشراء، فقالوا: النابغة، وقالوا: الأعشى، وخاضوا فيهم، فقال: لا أشعرهم إلا واحداً كان خليفاً: الحسن بن هاني، فقالوا:

صدق أمير المؤمنين ، قال : الصدق على الماظرة أحسن من الصدق على الهبة ، فقالوا :
مِمَّ قَدَمْتَهُ ؟ قال بقوله .

يا شقيق النفس من حكمي * يمت عن ليل ولم أنم

ثم لم يسقه الى هذا البيت أحد

ثم دت في عروقهم * كذيب الرؤى والسقم

و في عباره «الصدق على الماظرة أحسن من الصدق على الهبة» دلالة على رغبته
في إحياء العرائز الأديبة التي بُمِتَتْها المصاهرة ، وبقَرُّها الرِياء . ولا يفوسا أن نشر الى أن
تقدمه ابن هاني ، لتحويده في وصف الراح ، له دلالة وله مزاء ، فهو يدل ، الى حد
غير قليل ، الى جانب ما علمناه عن المأمون ، أصيدَ الهمة ، مستحصداً العزم ، على أنه كان
في أوقات أسسه ومرحه الرجل المرح الطروب ، الذي يتدقق المعاني العريضة ، وما لها من
محاملات وأفانيس .

« وسعد » وإن ربسه الشعوب على قدر كرامتها الخاصة ورفعة شأها بين الأمم ،
لتنطلب مهتداً خاصاً ممن يتولّى أمرها في هذا السبيل ، فيعمل على أن يُحَسِّنَ الافرادَ
والحكامَ ، ممن هم في عهده وتحت هيمنته ، ما لهم من مكاييد ومبرلة ، وما لآرائهم وتصرفاتهم
من احترام وقدر ، أحدا لهم بالشجاعة في المحاهره بمعتقداتهم ، وتبعية للروح الذي تهيده
هذه الألفاظ : « حرية . إياه . مساواة » في نفوسهم . وإن في آنتهاهم هذا السبيل
لأحلّ خدمة لئالكهم وشعوبهم وعروشهم .



(و) عدله وإنصافه :

كان المأمون عدلاً منصفاً الى حد بعيد . وقد عرّف فيه الناس هذه الحلة ، فكانوا
يطمّعون في أنصاره والمقترزين اليه ، ويمهرون بالشكوى من كل من يسومهم طمعه أو يفتد
اليهم عدوانته ،

حدث بعض المعاصرين قال : « شهدت المأمون وقد ركب بالثيابية وخلف طهره أحمد بن هشام . فصاح به رجل من أهل فارس : الله الله يا أمير المؤمنين ! فان أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليّ ! فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى ، فلما جاز الموضع عدوة التمت الى أحمد ، فقال : ما أقبح بنا ولك أن تفعلك وصاحك هذا رهوس هذه الجماعة ، ويقعد في مجلس خصمك ، ويُسمع منه كما تُسمع منك ، ثم تكون محققاً ، ثم تكون مبطلاً ، فكيف إن كتب في صفته لك ، فوجهك إليك من يحوله من بابا الى رحلك ، وأنصفه من نفسك وأعطه ما أنفق في طريقه الياء ، ولا تحمل لسا دربعة الى ما تركه من لائمتك ، فوالله لو طلعت العباس ابنى كنت أقل مكبراً عليك من أن تغلم صميغاً لا يحدى في كل وقت ، ولا تخلوا له وجهي ، وسيا من تحشم السعير البعيد وكابد حرّ الهواجر وطول المسافة » .

قال المحدث المعاصر : فوجه اليه أحمد بجاء به وكتب الى عامله رد عليه ما أحد منه ، ويشتمه ويعسقه ، ووصل الرجل بأرمه آلاف درهم ، وأمره بالخروج من يومه .

وهناك الكثير من هذا المثل ، كوقعه مع موسى بن الحسن ، وإصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبي العباس الطوسي ، وموقعه مع الصراني الذي من أهل كَشْكُر^(١) .

ثم انظر موقعه المشرف له وللقضاء في أيامه ، فقد قالوا : إن رجلاً دخل على المأمون ، وفي يده رقعة فيها مطيعة من أمير المؤمنين ، فقال : أمطمة مني ؟ فقال الرجل : أفأخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك ؟ قال : وماهي طلامتك ؟ قال : إن سعيداً ويملك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار ، قال : فادا اشترى سعيدُك الجواهر تشكو الطلامة مني ! قال نعم ، اد كانت الوكالة قد صححت له منك ! قال . لعل سعيداً قد اشترى منك الجواهر وحمل اليك المال أو اشتراه لنفسه ، وعليه فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك طلامة ؟ فقال له (بعد كلام طويل) : إن في وصيه عمر بن الخطاب لقضاتكم "البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر" قال المأمون : إياك قد علمت البينة ، فما يجب لك إلا حقة ، ولئن حلفتُ لأنا

(١) أطر هذه الحكاية في الجزء السادس من تاريخ بغداد ص ١٠١

صادق اذ كنت لا أعرف لك حقاً يلزمي . قال : فاداً أدعوك الى القاصي الذي نصبتك لرعيته، قال : نعم ! يا علام، على يحيى س أكنم، فاداً هو قد مثل من يديه، فقال له المأمون . اقص بيديا ! قال : و حكم وفصية ! قال سم، قال إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء، قال : قد فعلت، قال . فاني أبدأ بالعامه أولاً ليصلح المجلس للقضاء، قال . اعمل، ففتح الباب وقعد في ناحية من الباب وأذن للعامه، ثم دُعي بالرجل المنظّم، فقال له يحيى ما تقول ؟ قال : أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون، فادى المادي، فاداً المأمون قد حرح، ومعه علام يحمل مصلياً حتى وقف على يحيى وهو حالس، فقال له : احلس، فطرح المصلي ليقعد علماً، فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين، لا تأخذ على حصصك شرف المجلس، فطرح له مصلياً آخر، ثم نظروا دعوى الرجل، وطالب المأمون باليمين لحلف، ووثب يحيى بعد فراع المأمون من بيمه فقام على رجليه، فقال له المأمون . ما أقامك ؟ فقال : إني كنت في حق الله حل وعمر حتى أحدثه منك ، ولس الآن من حتى أن أبيضد عليك ، ثم أمر المأمون أن يحصره، أأذعي الرجل من المال، فقال له . حده الك، والله ما كنت أحلف على بخره ثم أسمع لك فأفسد دني ودياي، والله يعلم ما دعيت اليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيه، اعلمها ترى أني تناولتُك من وجه القدره، وإني لتعلم الآن أني ما كنت أسمع لك باليمين والمال .

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمه القضاء في تلك الأيام ، واحترام الخلفاء أو من تمت الى الخلفاء لشعاره وأحكامه . ولا يستعد الائمة صحه تلك الرواية، لأن تصرفات المأمون العاسي تجعلنا نترها وثمن بصدقها من جهة، ولأننا قرأنا شهبانها من جهة أخرى، فقد قيل . إن ابراهيم بن المهدي تنازع وأبى بختيشوع الطبيب، بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار ساحية السواد، فأرى عليه ابراهيم وأعطى، فأحفظ ذلك آس أبي دؤاد، فقال : يا ابراهيم ادا بازعت في مجلس الحكم محصرتنا امراً فلا أعلم أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، ولكن قصصك أتماً وريحك ساكنة ، وكلامك

معتدلاً ، ووفّ مجالس الخليفة حقوقها : من التعظيم والتوقير ، والاستكانة والتوجه الى الواجب ، فان ذلك أشكلُ لك وأشمل لمذهبك في محنتك وعظيم خطره ، ولا تعجلن قرب عجلة تَهْتُ رَبِّئاً ، والله يصمك من خلل القول والعمل ، وإن يتم نعمته عليك كما آتمها على أويك من قبل إن رك حكيم عليم ، فقال ابراهيم : أصلحك الله تعالى ، أمرت بسداد وحصصت على رشاد ، ولست عائدا لما ينلمُ مروءتي عندك وتسقطني من عينيك ويخرجني من مقدار الواجب الى الاعتذار ، وهامدا معتدرك من هذه الدائرة اعتذار مقرر بدنبه معترف بخبره ، ولا يزال العصب يستعرق بخواذه هيردني مثلك بجله وتلك عادة الله عندك وعدنا منك ، وقد جعلت حق من هذا القار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافقاً لما رُش الجاية عليه ، ولم يتلف مالٌ أمد موعظه ، وحسبنا الله وسم الوكيل !

فترى مما قدماء لك مبلغ سلطان القضاة وحرمة عبد الهت المسالك .

وقد يكون أحمل من هذا كله — فيما لو صح — ذلك الموقف الروائي الذي تقدمت الى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم أبه العباس فقد شكت اليه بأبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يعدها الإصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية ، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجوده انخاطر بها في ساحتها ردا وسلاما على قلب تلك المرأة المظلومة .

قال الشَّيْبَانِي : جلس المأمون يوما للظالم ، فكان آخر من تقدم اليه ، وقد هم بالقيام ، امرأة عليها هيئة السمير ، وعليها ثياب رثة ، موقفت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فنظر المأمون الى يحيى بن أسثم ، فقال لها يحيى : عليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فقالت :

يا حير متصيف يهدى له الرشد * ويا إماماً به قد أشرق البلد
تسكو اليك عميد القوم أرملة * عدا عليها فلم يترك لها سبب
وأبت مني ضياعي بعد متعتها * ظلماً وثوق مني الأهل والولد

فاطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دوين ما قلت زال الصبرُ والحلْدُ • عني وأفرح مني القلْبُ والعكْبُ
هذا أذانُ صلاةِ العصرِ فانصرفي • وأحضري الخضمَّ في اليوم الذي أعدُّ
والمجلسُ السبتُ إن يقصَّ الحلوسُ لنا • تُنصِفُك منه والا المجلسُ الأحدُ

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس ، فكان أوَّل من تقدم إليه تلك المرأة ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال : وعليك السلام ، أين الخضم ؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأومات إلى العباس ابنه ، فقال لأحمد بن أبي طالب : حدِّ بيده فأجلسه معها مجلسَ الخصوم ، فجعل كلامها يملؤ كلامَ العباس ، فقال لما أحمد ابن أبي طالب : يا أمة الله ، إنك بين يدي أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فأخفي من صولك ، فقال المأمون : دعهما يا أحمد ، فإن الحق أطلقها وأخرسه ! ثم قصى لها برقة صيغتها إليها ، وطمع العباسُ نظمه لها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها ، أن يوقر لها صيغتها ويحسن معاومتها وأمر لها بعبقة .

وبعد فان المؤرخ المصنف ، لجذربه أن يقف أمام هذه المثل العليا وقفة احترام واحلال ، وعطيه واعتبار ، وأن يرهب رعه صادقه في إدانته هذه المثل ونشرها ، والعمل على تداولها ودكورها ، لأنها قدوة صالحة لحمة التبحان ، في انصاف زميلهم الانسان . وإن قدس العدالة لواجب احترامه ، وأحق الناس باحترامه هم الولاء وحمة التبحان ، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بهم وحكماتهم سواسية ، لمدعاة للرصا والاعتباط ، والإمعان في خدمة الأوطان ، والذنب بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان .



(ز) عفووه :

كان المأمون مضرب المثل في العفو ، حتى لقد كان يتحشى أن لا يُجر عليه ، إذ صار فطره فيه ، وأظرف أنواع عفو تماضيه عما كان يحدث في قصره .

قالت شكر مولاة أم جعفر بنت جعفر بن المصور، سمعت المأمون أمر المؤمنين :
 وكانت عده أم جعفر، فدعا بمقاريض^(١)، فقال الغلام : قد دُحِبَ المقاريض إلى الشمسية^(٢)، ثم
 قال بإعلام : مل لنا الخيش فوق^(٣)، فقال الغلام : لا، قال : يبل، فقالت أم جعفر : سبحان الله
 يا أمير المؤمنين ! ، ما هذا ! وأكرت أن يكون سأل عن شيئين فلم يعمل، فقال المأمون :
 من قدرت على عقوبته ، لسوء فعله ، وبيع جرته ، فقدرت عليك كافيتك نصرًا لك منه ،
 ولا معنى لعقوبة بعد قدره ، الحلم عن الذنب أطع من الأُحده به .
 وهو هنا يعلل العفو تعليلًا مقبولًا حديرًا بأن يكون درسا في الأخلاق .

ثم انظر مبلغ عذوه وحلمه وسماحه معه ، فيما يرويه أبو العفضل أحمد بن أبي طاهر
 طيفور في كتابه ، قال : « كان للمأمون خادم يتولى وصووه ، فكان يسرق طساسة ، فلع
 ذلك المأمون معاسه . ثم قال له يوما وهو يوصئه . ويحك ! لم تسرق هذه الطساسة ،
 لو كنت اذا سرقتها استنى بها اشتريتها منك ، قال : فاشتري هذا الذي بين يديك ، قال : بكم ؟
 قال بديارين ، قال المأمون : أعطوه ديارين ، قال : هذا الآن في الأمان .
 ومهما يكن على هذه الرواية من مسخه المبالغة ، أو أنها أقصوصة أكثر منها حقيقة ،
 فان طبيعة المأمون وصحته ، وجسوده إلى العفو ، وأحدّه الحلم ، لما يؤيد لهاها وعصارتها ،
 ويفرر جوهرها وحلاصتها ، ولما يصدق فيه قول من قال له .

أمير المؤمنين عفو حتى * كأن الناس ليس لهم دوت

أما حديث حلمه مع عمه إبراهيم بن المهدي فتعارف مشهور ، ومُدَاع مدكور ، فقد
 أبي ابراهيم أن يبايعه ، ثم ذهب إلى الرّي ، وادعى فيها الخلافة لنفسه ، وأقام ملكها سه
 وأحد عشر شهرا واثني عشر يوما ، والمأمون بتوقع منه الانقياد إلى الطاعة ، والانتظام

(١) جمع مقراض وهو ما يتطعم به الثوب أو غيره وهو المعروف بالمقصر .

(٢) العادة كانت حارية في العراق أن يرصع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس

واقعا عليه دون السقف وهكذا كانت تحمل ملوك فارس . فلو كان ربي المأمون مثل بطاة السقف استسعى بها
 عن الخيش وله وهي ما سببه (بمداد) وفي بعض النسخ المأمون .

في سلك الجماعة ، حتى يئس من عَوْدِهِ ، فركب بِحَيْلِهِ وَرَجَلَهُ ، وَذَهَبَ إِلَى الرِّىِّ وَحَاصَرَ الْمَدِينَةَ وَافْتَتَحَهَا ، فَهَرَبَ إِبْرَاهِيمُ وَتَوَكَّرَ ثُمَّ أَحْذَى مَعْدَلًا ، وَقَدِمَ إِلَى الْمَأْمُونِ فِي زِيٍّ أَسْرَءَ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، سَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْخَلَامَةِ ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ : لَأَسَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا حَيَّاكَ وَلَا رَعَاكَ ! فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنْ وَلَّى الثَّارَ عَمَّكَ فِي الْقِيَصَاصِ ، وَلَكِنْ الْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَمَنْ تَنَاولَهُ الْإِغْتِرَارُ بِمَا مَدَّ لَهُ مِنْ أَسَابِ الشَّقَاءِ ، أَمَكُنْ عَادِيَةَ الدَّهْرِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ فَوْقَ كُلِّ ذِي ذَنْبٍ ، كَمَا جَعَلَ كُلَّ ذِي ذَنْبٍ دُونَكَ ، فَإِنْ أَحْدَثَ مُحَقِّقٌ ، وَإِنْ عَفَوْتَ فَفَضْلُكَ ، ثُمَّ أَشَدُّ .

دَتَى الْبَيْكَ عَظِيمٌ • وَأَنْتَ أَعْظَمُ مَسْه
نَفْسُ بِحَقِّكَ أَوْلَا • فَاصْبِرْ بِمَصْلُوكِ عَه
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي مَعَالِي • مِنَ الْكَرَامِ فَكُنْهُ

فَقَالَ الْمَأْمُونُ : شَاوَرْتُ أَمَا أَسْحَى وَالْمَأْسَ فِي قَتْلِكَ ، فَأَشَارَ بِهِ ، فَقَالَ : مَا قُلْتُ لَهَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ . قُلْتُ لَهَا : بَدِئْهُ بِإِحْسَانٍ ، وَتَسْتَأْمرْ بِهِ ، فَإِنْ عَيَّرَ فَأَنْتَ بغيرِ مَاهٍ . قَالَ : أَمَا أَنْ يَكُونَا قَدْ نَصَبْنَا عَظِيمًا مَا جَرَتْ عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ فَقَدْ صَلَا ، وَلَمَّا مَا يَلْرَمُهُمَا ، وَهُوَ الرَّأْيُ السَّيِّدُ ، وَلَكِنَّكَ أَبَيْتَ أَنْ نَسْتَعْلَبَ الْبَصَرَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ عَزَدَكَ اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَعْرَ مَا يَكُنَّا ، فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ : مَا يُبْجِكُ ؟ قَالَ : حَدَلًا أَدَكَانَ دَعَى إِلَى مِنْ هَدَاهُ صَفْتَهُ فِي الْإِنْعَامِ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ بَلَغَ جَرْمِي اسْتِحْلَالَ دَعَى ، فَلَمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَضْلُهُ بَلْفَانِي عَوَّهَ ، وَلِي مَدَهُمَا شِمَاعَةَ الْإِقْرَارِ بِالذَّنْبِ ، وَحَقُّ الْأَبْوَةِ سَدُّ الْأَبِّ ، فَقَالَ الْمَأْمُونُ : يَا إِبْرَاهِيمَ ، لَقَدْ حَسَّبَ إِلَى الْعَفْوِ حَقِّي خِفْتُ إِلَّا أَتُوجَّرَ عَلَيْهِ . أَمَا لَوْ لَمْ يَلْبَسَ مَا لَنَا فِي الْعَفْوِ مِنَ اللَّهِ ، لَتَقَرَّبُوا إِلَيَّا بِالْجَاهِيَّاتِ لَا تَثْرِيْبٌ عَلَيْكَ ، يَعْرِفُ اللَّهُ لَكَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي حَقِّي سَبْكٌ ، مَا يَبْلُغُ الصَّبْحَ عَنْ جُرْمِكَ ، لَلْتَنَكَّ مَا أَتَمَلَّتْ حَسَنُ تَعْمُضِكَ وَلَطُفُ تَوْصَلِكَ . ثُمَّ أَمَرَ رَدَّ صِيَّاعَهُ وَأَمْوَالَهُ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ :

رددت ما لي ولم تجل علي به * وقل ردك ما لي قد حقنت دمي
وقام عليك بي فاحتج عليك لي * مقامَ شاهدٍ عدلي غير منهم
فلو بذلت دمي أبني رصاك به * والمال حتى أسأل النمل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلطت * لو لم تهبها لكنت اليوم لم تلم

« وسعد » فشد ما يحتاج الولاية والقادة والزعماء، الى خلة العفو والاحسان، في حزم وحسن موافاة، ليستلوا من القلوب عداوتها، وليستأصلوا من النفوس سيميتها، وليضمنوا من الرعية والأتباع الاخلاص المحض والود الصحيح .



(ح) احتماله :

ومن الدلائل على صلاحه المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذي لا يقوم الملك إلا به ، ولا تسير الأمور بدونه ، وهو حلق يراه العصف سماسه ، وزاه من المأمون سياسه ، هي من الصميم في آداب الملوك ، وإبه ليحتمل ، حتى اتحسبه من الغافلين ، ولكن الرجل كان يعرف أن تلك مصاعب ومتاعب ، أقلها مداراه الساس ، والنزول لهم من بعض ما يشتهون .

روى عنهم عن قثم بن جعفر أنه قال : قال المأمون في يوم الخميس ، وقد حضر الناس الدار لعلي بن صالح ادع اسماعيل قال : لخرج ابن صالح ، فادخل اسماعيل بن جعفر ، وأراد المأمون اسماعيل بن موسى ، فلما نصر به من بعيد ، وكان أشد الناس له عصا ، رفع يديه ماذها الى السماء ، ثم قال : اللهم أبدلي من ابن صالح مطيعا فاه لصدائقه لهذا أثر هواه على هواي ، قال : فلما دعا اسماعيل بن جعفر ، سلم فرد عليه ثم دعا قتل يده ، فقال : هات حوائجك ، قال : صيغتي بالمعينة ، غصبتنا وقهرت عليها ، قال : تأمر ردها عليك ، ثم قال : حاجتك ، قال : يادى لي أمير المؤمنين في الخ ، قال : قد أذنا لك ، ثم قال : حاجتك ، قال : وقف أبى أخرج من يدى وصار الى قثم والقاسم أبى جعفر ، قال : فزيد مادا ؟ قال : يرذ الى ، قال :

أما ما كان يُمكننا من أمرِك فقد حُدنا لك به، وأنا وقفُ أُمِّك فذاك الى وِثته ومواليه، فان رَضُوا لك واليا عليهم وقبَّاهم رَدَدناه اليك، وإلا أفرغناه في يد من هو في يده، ثم نخرج، فقال المأمون لعل بن صالح : مالي ولك عافاك الله، متى رأيته تَسِطُّ لاسماعيل بن جعفر وضُنت به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة ! قال : ذهب عن فكري ما أمير المؤمنين، قال : صدقت، لعمري ذهب عن فكرِك ما كان يحب عليك حفظه، وحفظ فكرِك ما كان يحب عليك ألا يخطُر به، فاما اذْ أخطأت فلا تُعلم إسماعيل ما دار بيني وبينك و أمره . فظن على أنه عنى قوله هذا إسماعيل بن موسى ، فأحبر إسماعيل بن جعفر القصة حرا حرا ، فأذاعها ، وبلغ الخبرُ المأمونَ فقال : الحمد لله الذي وهب لي هذه الأَحلاق، التي أصبحتُ أحتمل بها على بن صالح وابن عمران وابن الطوسيِّ ومُحمَّد بن عبد الحميد ومصبور ابن النعمان ورعامش .

« وعد » فالاحتمال حلة محبة الى العوس ، تدعو الى الوفاق والوفاق ، وهي بالملك أولى وأجدر لمكانهم من الرعامه والقيادة ، ولما تلتهم من الرياسة والسلطان . ولأنهم أحق الناس بكل محبة تحببهم الى الناس ، وتكون قدوة يَرْتَسِمُها مَنْ عداهم من يتصرفون في شؤون العباد ومستقبل البلاد .



(ط) بصره بالأدب :

سترى فيما نعرض له ، في القسم الأدبي ، من آثار المأمون وكتابته ، مبلغ تميزه في الفنون الأدبية ، وتملكه أَسْنة البلاغة ، وحسن تصرفه لكل أفانين الثقافة العربية ، الى جانب حسن تصرفه ، لشتى أمور ملكه .

والآن — وسبيلنا تحليل شخصية المأمون ، نرى من الواجب لتوفية البحث حقّه من مختلف وجوهه ، أن نشير الى كلفه بالأدب ، مفترعين على كل حال ، ما قد يكون بمنزلة ، من تشجيع المخالين من الولاء له ، وما قد يضاف اليه من الآثار .

ولكن ذلك كله، لن يؤثر في القلب والجواهر، وهو أب المأمون كان أدبياً، عالماً
مأفانيس القول ومباحيه، وليس ذلك ببعيد، على من ننمذ على شيوخ الأدب العربي،
كسيبويه واليربدي ويحيى بن المارك بن الميرة، الذي أحد العربية عن أمثال أبي عمرو
ابن العلاء وابن أبي اسحاق الحصري، وأحد اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذي
ألف كتاباً في النحو لبعض أولاد المأمون.

فقد أعاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية آتياً إعادة .
قال عمارة بن عقيل . أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت، فأتدئ بصدر البيت ،
فيبادرنى الى قافيته كما قفيته، فقلت . والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها منى أحد قط! فقال
هكذا ينبغي أن يكون، ثم قال لى أما ملك أن عمرى أى ربيعه أنشد عد الله بن عباس
قصيدته التي يقول فيها * تَسْطُ عِدًا دَارُ حَبْرَاسَا * فقال ابن عباس * ولَدَارُ عِدْ غِدْ أَعْدُ *
حتى أنشده القصيدة يفتحها ابن عباس ثم قال أما أبى ذك . ورووا أن المأمون قال :
عَسْتُكَ مُرْتَادَا فَمَرَّتْ سَطْرُهُ وَأَغْلَانِي حَتَّى أَسَاتُ مَكِ الطَّيَا
فَاجِيَتْ مِنْ أَهْوَى وَكُنْتُ مَبَاعِدَا . ماليت شعري عن دنوك ما أغنى
أرى أنراً مه عبيدك نسا * أهد أحدث عيناك من عيه حسنا
ومهما قيل إن المأمون أحد هذا المعنى من العباس بن الأخف الذى يقول .
إن تَشَقَّ عَيْبِي فَقَدْ سَعِدْتُ . عِبْنُ رَسُولٍ وَهَرْتُ بِالْحَبْرِ
وَكَلَّمَا حَاءِ نِي الرِّسُولُ لَهَا * رَدَدْتُ عَهْدَا فِي عَيْهِ نَظْرِي
حَد مَقْلَتِي يَا رَسُولَ عَارِيَّةَ فَأَنْطَرَهَا وَأَحْتَكَمُ عَلَى بَصْرِي
فان شعر المأمون يدل في حملته، على تدوقه الحسي، والشعر الحسي، والخيال الحسي .
ثم لننظر معى في الحديث الذى دار بين عبد الله بن أبى السَّمُطِ وعمارة بن عقيل، فاب
أولها يقول لعمارة : أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقال عمارة : ومن يكون أعلم منه ؟
فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبقنا الى آخره، قال عبد الله : إني أنشدته بيتاً أجدت
فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة : وما هو ؟ قال :

أصحى إمام المهدي المأمون، شتلا * بالدين والسأس بالدنيا مشاعيل
فقال عماره : والله ما صنعت شيئا^١ هل ردت على أن جعلته عجورا في محرابها ، فاذًا من
الذي يقوم بأمر الدنيا اذا تساعل عنها ، وهو المظنّون بها * ألا قلت كما قال حتى جرير
في عبد العزيز بن الوليد :

فلا هو في الدنيا مصيغ نصيبه ولا عراض الدسا عن الدس شاعله

فقال عبد الله : الآن علمت أي قد أخطأت .

ولقد كان المأمون واقفا أتم وقوف وأكله على شعر العصر ، ومقولات الشعراء ، مع
حسن بصر ، وأتم حدق ، وأدق فهم ، وذلك على ذلك ، ما ذكره أبو نزار الصيرير الشاعر قال :
قال لي علي بن حنّلة قلت لحميد بن عبد الحميد . يا أبا عامر ، قد امتدحت أمير المؤمنين
بمنهج لا يُمْنيس مثله أحد من أهل الأرض ، فاذكرني له ، فقال : أشدّيه ، فأنشدته ، فقال :
أشهد أنك صادق ، فأحد المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا عامر ، الجواب في هذا واضح ،
إن شاء عفوا عنه ، وحملنا ذلك ثوابا لمديحه ، وإن شاء حملنا بين شعره بك وفي أبي دلف
القاسم بن عيسى ، فإن كان الذي قال بك وفيه أجود من الذي مدحنا به ، صرنا ظهره
وأطلقنا حبسه ، وإن كان الذي قال فيما أجود أعطيتُه بكل بيت من مديحه ألف درهم ،
وإن شاء أقتله ، فقلت : يا سيدي ، ومن أبو دلف ومن أبا حتى يمدحنا بأجود من مديحك !
فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء ، فأعرض ذلك على الرجل . قال
علي بن جبلة : فقال لي حميد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحبّ إليّ ، فأحمر المأمون ، فقال :
هو أعلم ، قال حميد ، فقلت لعلي بن جبلة : إلى أي شيء ذهب في مدحك أبا دلف
روى مدحك لي ؟ قال : إلى قول في أبي دلف :

إنما الدنيا أبو دلف * بين مُسَداه ومُخَصِّره

فإذا ولي أبو دلف * ولت الدنيا على أثره

والى قولى فيك :

لولا حميد لم يكن * حسبت بعد ولا نسب

يا واحد العرب الذى * عزت بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه، وكثير تسامحه، وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم، فيما رواه أحد قرابة دِجبل الشاعر، حيث قال : إن دعبلا هما المأمون بقوله :

أيسومنى المأمون خطبة عاجر * أو ما رأى بالأمس رأس محمد

يؤبى على هام الحلائف مثل ما * توفى الجبال على رؤوس القردد^(١)

ويجمل فى أكاف كل ممح * حتى يدل شاعها لم يصعد

إن الترات مسهد طلابها * فاكفف لعائك عن لعاب الأسود

لم يتقدم المأمون بإيداء دجبل، وكل ما فعل أن قال : هو يهجو أبا عباد، ولا يهجونى . يريد حدة أبى عباد .

وكان بصيرا بأحار العرب ، واقفا على تاريخ محاولتهم وعطارهم . فقد ذكر عماره

ابن عجيل قال : « قال لى المأمون يوما ، وأنا أشرب عده ، ما أحببك يا أعراى ، قال

قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ، وهمتنى ضفى ، قال كيف قلت :

قالت مُقدأة لما أن رأت أرقى * والهم يعتاده من طيعه لم

نهت مالك فى الأدنين أصرة * وفى الأبعاد حتى حقتك المدم

فاطلب اليهم ترى ما كنت من حس * تُسدى اليهم فقد بات لم صرم^(٢)

فقلت عدلك قد أكثرت لائتى * ولم يمت حاتم هنلا ولا هيرم

فقال لى المأمون : أين رميت بعسك الى هيرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائي .

صلا كذا وفلا كذا وأقبل يتال على^(٣) بفضلها ، قال : فقلت يا أمير المؤمنين : أنا خير منهما ،

أنا مسلم وكانا كافرين وأنا رجل من العرب .

(١) القردد : ما ارتفع وعط من الأرض . (٢) الصرم : جمع صرمة وهى القطة من الإبل محرر الثلاثين .

(٣) يمدد محاسنها ويدكرها .

ثم انظر بلاعته ومثانة عبارته ، في مشافهاته ومبادعاته . فقد روى ابراهيم بن عيسى قال : لما أراد المأمون الشحوص الى دمشق هيات له كلاما ، مكثت فيه يومين وبعض آخر ، فلما مثلت بين يديه ، قلت : أحال الله فناء أمير المؤمنين في أديم العز وأسبغ الكرامة ، وحطى من كل سوء فداء ، إن من أمسى وأصبح يتعزف من نعمة الله — له الحمد كثيرا — عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه ، وحسب تأنيسه له ، حقيق بأن يستديم هذه النعمة ، ويلتمس الزيادة فيها ، شكر الله . وشكر أمير المؤمنين — مد الله في عمره — عليها . وقد أحب أن يعلم أمير المؤمنين أيده الله ، أنى لا أرهب بنفسى عن خدمته ، أيده الله بشئ من الخفيض والدعة ، إذ كان هو أيده الله ، يتجشع خشونة السفر ، وصعب الطعن ، وأولى الناس بجواساته في ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا ، لما عرفني الله من رأيه ، وجعل عسدى من طاعته ، ومعرفته ما أوجب الله من حقه ، فان رأى أمير المؤمنين أكرمه الله ، أن يكرمنى لمزوم خدمته ، والكيثونة معه هل . فقال لى المأمون مستدنا من عبر زوية : لم يعزم أمير المؤمنين في ذلك على شئ . وإن استصحب أحدا من أهل بيتك ، بدأ بك وكنت المقسم صده في ذلك ، ولا سما إذ أنزلت نفسك بحيث أتراك أمير المؤمنين من نفسه ، وإن ترك ذلك من غير قتل لمكانك ، ولكن مالحاة اليك . قال ابراهيم : فكان والله ابتداءه أكثر من ترويضه .

قال أبو العتاهية : وحه الى المأمون يوما ، فصرت اليه ، فالتعته مطريرا مفكرا ، فاجمعت عن الدعوم في تلك الحال ، ورفع رأسه ، فظفر الى ، وأشار سده أن آذن ، فدوت . ثم أطرق مليا ، ورفع رأسه ، فقال : يا أبا اصحاى ، شأن النفس الملل ، وحسب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالأنفة . قلت : أحل يا أمير المؤمنين . ولى في هذا بيت قال : ما هو ؟ قلت .

لا يُصلح النفس إذ كانت مدبرة . إلا التمثل من حال الى حال

ثم انظر الى ملاغة المأمون ، التي كانت سليقة فيه ، وإن رلت بساحته المموم والفوادح ، فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب ناسه له ، كان يحد طليا وجدا شديدا . بجلوس وأمر أن

يؤد لمن الباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي، فقال له: يا أمير المؤمنين إما لم تأتكم معزير، ولكن أنذاك مقدين. ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن لسانى يطلق بمدحك عائداً. وأحت أن تريد عك حاصرا. أفتأذن فأقول، قال المأمون: قل فأك تقول فتحس، وتشهد فترس، وتعيب فتؤتمن، فقال العباس له، وصدق فيما يقول، يا أمير المؤمنين ما أقول بعد هذا! لقد ظفقت من مدحى إلا أبلغه من مدحك.

وانظر الى حلاوته في ملاعته، ومراحتة في طلائوته، ومناشاة في عارته، حين يصيح لاسه العباس فقال له: مدحى يا حى لمن أسع الله عليه بعمه، وبشركه في ملكه وسلطانه، وبسط له في القدره، أن ينافس في الخير بما يبق ذكره، ويحب أحره، ويرضى نوابه. وأن يجعل همته في عدل ينشره، أو حور يدفعه، وسية صالحة يجيها أو بدعه يبيتها. أو مكرمة يعتمدها، أو صدقة يسديها، أو يد يودعها ويوليها، أو أثر محمود يتبعه.

ويقول لنا الجاحظ في اليباب والتبليس. كان سهل بن هارون شديد الإطباب في وصف المأمون بالبلاعة والجهارة، وبالخلاوة والصفامة، ووجوده اللهجة والطلاوة. ويقول ثمانية بن أشرس الفهرى: ما رأيت رجلاً أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون. وإن فيما ذكره آس الجورى والعالمى وعمرهما في طرب المأمون للطرف واللثة. لما ثبت بصره بالأدب وحده لافسة، وبمكة في الحو. وإنا نحتم كلمتا هذه عما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكنم فاهما في التماك بلاعة ودقه معنى وحلاوة أسلوب وسمو سهاها وحسن تدير وصوبح ذرة ولا يقولها إلا من كان الى جانب ما وصفاه حمال أعاء، نهاصاً ببلاده، قصياً مرمى همته، ربيعاً من أطع عربته، وهى مع كل ذلك من عفو الخاطر، ونتاج البدية.

قال: «اعتبروا في علو الهمة على تروى من وزرائى وخاصى، إهم واقع ما لفظوا راتهم عدى إلا ناههم. إنه من تنع مكم صغار الأمور، سمه التصغير والتحقيق وكان

قليل ما يعتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار ، فترفعوا عن دماء المهمة ، وتفرغوا لحلائل الأمور والتدبير ، واستكفوا الثقات ، وكوؤوا مثل كرام السباع التي لا تستغل بصغار الطير والوحش بل تحليها وكبارها . واعلموا أن أقدامكم ان لم تتقدم بكم ، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يعي الولي عكم شيئا ما لم يعطوه حقه . وأنشد

نحن الذين اذا تمحط غصبة من مفسر كمالا أنكالا
وزرى القروم محالة لقروما قبل اللقاء تقطر الأنوالا
برد المسية لا نحاف ورودها بحب المعاحه والعيون تلالا
سعى الحرمل فلا يمن عطاء قبل السؤال وبحمل الأنقالا
وإذا البلاد على الأنام ترلزلت . كما لرلة السلا حمالا

«وسعد» فشد ما يروى الرعيه تبرز ولاتها في السلاعه والبيان ، وشد ما يتلج الأفئدة ويقت العيوب تملكهم لأعنه القول ، واطلاهم على السرر والملح وتجميعهم لدوى الاحسان .

وجميل حدا أن تنشر الكهايات ، وأن تتخذ الولاة من كلمة المأمون . «إن وزرائى والله ما طفوا مراتهم عدى إلا بأعصم» سمه يرمونها ، وقاعده يتمونها ، وحكمة يديعونها لترتفع العوس وتسمو الرعاب وليال الاحسان أهل الاحسان .

(ى) علم المأمون :

كان المأمون وافر العلم ، عرير الاطلاع وليس ذلك بمنزلة على حاكمة ملأ عصره بأنواع المعارف الانسانية ، وضع فيه من روحه القوى ، حتى استطاع الباحث أن يسميه بسمته ، وأن يرجع فضل الحضارة العباسية اليه .

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الدانية ، وإنما وجه حرصه الى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن الرعة الى اتعمق في الدرس ، والشوق الى إدراك حقائق الأشياء ، وكانت له في ذلك طريقة معروفة ، هي توجيه السمر والحديث الى فنون

العلم، وصروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة ففتح لجلسائه أبوابا من القول ما كانت تعطر لهم سال .

قال جعفر بن محمد الأنماطي . إن المأمون لما دخل بغداد، وقربها قراره، وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة، يختارهم لجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر ساره على ثوب في الشتاء وعلى حصير في الصيف، ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للطالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته، مائة رجل، مما رآل يختارهم، طعمة بعد طعمه، حتى حصل منهم عشرة، كان أحمد بن أبي ثؤاد أحدهم، وإشْرُ الميريسي . قال جعفر بن محمد الأنماطي : وكنتُ أحدهم، قال فتعدينا يوما عنده، فطست أنه وضع على المائدة أكثر من ثلثائة لون، فكلما وضع لون، نظر المأمون إليه، فقال هذا يصلح لكنا، وهذا ناص لكنا، فمن كان معكم صاحب بلم ورطوبه، فليحتب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن علبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة العذاء فليقتصر على هذا، قال : فواقع إن زالت تلك حاله في كل لون يقدم، حتى رُصيت الموائد . قال فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين، إن خضا في الطب كنت حاليوس في معرفته، أو في الجوم كب ميريس في حسابه، أو الفقه كنت على ر أي طالب صلوات الله عليه في علمه، أو ذكرنا السحاء فانت فو حاتم في حوده، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أما نَز في صدق لمحتة، أو الكرم كب كعب بن مامة في إثارة على مصه، قال : فسرت بذلك الكلام، وقال : يا أبا محمد، إن الانسان إنما فصل على غيره من المواقم عمله وعقله وتيميره، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم . واما اذا قلت : إن يحيى بن أكثم، قد بالغ في تحليل المأمون، وعلا في صفته، فانا نملك في ذلك، ولكني ألاحظ أن هذا القلو لا يخلو من آثاره من حق وصدى .

ولنتنظر معى نظرة مُستقيص لاطلاع المأمون ، وتدفق المعانى اليه ، وموائاة الأفكار له حينا ارتدّ رجل من أهل حراسان ، وأمر المأمون بحمله الى مدينه السلام ، فلما أُدخل عليه أقبل بوجهه اليه ، ثم قال له : « أحرّى . ما الذى أوحشك مما كنت به آنسا من ديننا ، فوالله لألّ أستحيك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق ، وقد صرت مسلما بعد أن كنت كافرا ثم عدت كافرا بعد أن صرت مسلما . فإن وَحَدت عندنا دواء دائم ، تعالجت به اد كان المريض يحتاج الى مُشاورة الأطباء . فان أخطأك الشعاء وبسا عن دائم الدواء ، كنت قد أضررت ولم رجع على نفسك ملائمة ، فان قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك الى الاستنصار والثقة ، وتعلم أنك لم تُقصر فى احتشاد ، ولم تدّج الأحد بالحرم » . فقال المرتد . « أوحشى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم » فقال المأمون « فإن لنا اختلافين : أحدهما كالاختلاف فى الأدان وتكبير الحماز والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد ، وتكبير التشريق ووجوه القراءات ، واختلاف وحوه الفُتيا ، وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف إنما هو تحيير وتوسعة وتحفيف من الحجة ، من أذنَ مَتْنٍ وأقام فُرَادَى لم يُؤْمَ من أذنَ مَتْنٍ وأقام مَتْنٍ ، لا يتمايرون ولا يتعاضون ، أنت ترى ذلك عيانا ، وتشهد عليه بآنا ، والاختلاف الآخر كحوى الاختلاف فى تأويل الآية من كُتِلَا ، وتأويل الحديث عن نبيا صلى الله عليه وسلم ، مع إجماعا على أصل التعريل واتفاقا على عين الخبر ، فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كُتِلَا ، فقد يدعى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التواره والإنجيل متعقا على تأويله ، كالاتفاق على تعزيله ، ولا يكون بين المتن من اليهود والمصارى اختلاف فى شئ من التأويلات ، وينبى لك ألا ترجع إلّا الى لغة لا اختلاف فى أفعالها ، ولو شاء الله أن ينزل كُتْلَه ويعمل كلام أنبيائه وورثته رسله لا تحتاج الى تفسير لعمل ، ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنا دُعِ البسا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك اسقطت التلوى والحجة ، ودعبت المسابقة

والمناصفة ولم يكن تعاضل ، وليس على هذا سوى الله حل وعز الدنيا » فقال المرتد : « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقاً ! » قال : فانحرف المأمون نحو الصلة فخر ساجداً ، ثم أقبل على أصحابه فقال : « وقرؤا عليه عِزَّه ، ولا تترؤه في يومه ، ريثما يعتق إسلامه ، كيلا يقول عدوه إنه سلم ردة ، ولا ناسوا نصيبكم من ره ونصرته وتأنسه والعائده عليه » .

وهذا المحي الذي نحاه المأمون ، في إصاع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره :

الأولى : نصره بأسرار الشريعة ، وعلمه بدقائق الدين ، وبديقه في فهم أنواع الخلاف بين المسلمين ، ويؤكد هذا التقسيم يقص على كل شُبْهه ، عدم من يربُّهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية ، وتشعبت به مذاهب الفقهاء .

الثانية . تعمقه في درس المصنّات ، واستعصاء حلقات القلب ، وهسات الصمير ، وذلك ظاهر في مراحته لحياه الرجل الروحية ، وتأمله لما ألفتَه هُسه وسكى اليه وجدانه قبل إسلامه ، فقد بجى على هذه الساقية طريقه التآف والتسامح التي قصى بها على مأمئى به الرجل من الكفر عد الإيمان .

« وبعد » فان المأمون في علمه وعرفانه أهلُّ للأحتداء والارتسام من أقرانه ، قَيْنُ بالقتل به والافتقاء من أحداته ، ليكون رده انهم عُرّة في جبين الدهر كرماته ، وليكون نصيبهم نصيبه في مهاتته ورحمة شانه ، ورسوح عُرْشه وقوه بيايه .



(ك) احترامه للدين :

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية ، يرى فيها صيانته لنفسه ، واستبقاء لقلوب رعيته ، ولكنه كان يَسْتَسْطِ في ذلك ، بمعاقب على هَفْوَة مَرَّب عليها عشرات السنين ، وستقص عليك حادثة ، هي دلالة على هذا الإسراف ، وهي أيضاً عنوان على ذوقه في نقد

الشعر، وإما لترجح أن للزلف الذي وقعت فيه هذه الحادثة تميلاً لما أُحْرِحَ فيها، فلولا مجلس العناء ولعبه بالعس، لما عُزِلَ قاضٍ لطفه لفظية، طال على عهدها الزمان، واليك الحديث .

ذكر أحد المعاصرين وهو أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال . كما قدّام أمير المؤمنين المأمون بدمشق، فغنى علويّه :

رَبِّتْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي * أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
وَلَكْتَهُمْ لَمَّا رَأَوْكَ سَرِيعَةً * إِلَى تَوَاصُّوا بِالْفِيْءِ وَأَحْتَالُوا

فقال : يا علويّه، لمن هذا الشعر؟ فقال : للقاضي، قال : أي قاضٍ ويحك؟ قال : قاضي دمشق . فقال . يا أبا اسحاق، اعزله . قال : قد عَزَّزْتُهُ . قال : ويحضّر الساعة، قال : فأحضر شيخ محبوت قصير، فقال له المأمون : من تكون؟ قال : فلان بن فلان الفلاني . قال : تقول الشعر؟ قال : قد كنت أقوله، فقال . يا علويّه، أنشد الشعر فأنشده، فقال . هذا الشعر لك؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين، وسأؤد طوائف وكل ما يملك في سبيل الله، إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في زُهد، أو معاتبة صديق، فقال : يا أبا اسحاق، اعزله، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ في هَرْبِهِ بالعراء من الإسلام ثم قال . يا علونه، لا تغل ربّت من الإسلام، ولكن قل .

حُرِّمْتُ مَنَاسِكُكَ إِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي * أَتَاكَ بِهِ الْوَاشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا

وهذا الموقف من المأمون شبيه كل السه بموقفه مع يحيى بن أكنم وريه وقاصيه، حيث قال له المأمون : « لا أترك قاصياً لسرب البعد » .

ثم لنظر ما يروى عن سعيد بن زياد أحد المعاصرين، فانه يدلّك على تقدّس المأمون لآثار النبي واحترامه لها، وتمه بها، مع وَرَجٍ وحشوع، فقد قيل . إنه لما دخل الماء من دمشق قال له : « أَرِنِي الْكِتَابَ الَّذِي كَتَبَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكُمْ، فَأَرَاهُ سَعِيدٌ إِذَا مَا، فقال له : « إِنِّي لَا أَشْتَهُ أَنْ أُدِرَى أَيْ شَيْءٍ هَذَا الْعِشَاءُ عَلَى هَذَا الْخَلَامِ » فقال له أبو اسحاق :

حُلُّ المُقَدِّمَةِ حَتَّى تَرَى مَا هُوَ قِفَالُ الْمَأْمُونِ : مَا أَشْكُ أَنْ الْبَيْتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَدَ هَذَا الْعَقْدَ ، وَمَا كُنْتُ لِأَحُلَّ عَقْدًا عَقَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْوَاتِقِ : حَذِّهِمْ عَلَى صَبْرِهِ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيكَ ، وَجَعَلَ الْمَأْمُونُ يَصْعَقُ عَلَى عَيْنِهِ وَيَبْكِي .

عَلَى أَنَا نَرَى مِنْ الْوَفَاءِ لِلْعَقْدِ الْعَالَمِيِّ أَنْ يَحِيلَ الْقَارِئُ هَبَ إِلَى كَلِمَتِنَا عَنْ سِيَاسَةِ الْمَأْمُونِ ، وَإِلَى مَدْعَاهِ الدِّينِيِّ وَالْإِعْتِرَالِ ، كَمَا يَحِيلُهُ إِلَى مَبْجُثَاتِ الْحَيَاةِ الْعَالَمِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ فِي عَصْرِهِ ، وَنَظَرْنَا أَنَّهُ سَيَلْحَظُ مَعًا أَنَّ هَذِهِ السَّدَاحَةَ الْعَلِيَّةَ ، وَدَلَّكَ الْإِيمَانُ الْخَمِيلُ فِي تَقْدِيرِ الْمَأْمُونِ لِلْآثَارِ الْبُيُوتَةِ لِاتِّعَاقِ فِي حَقِيقَةِ حَوَاسِرِهَا مَعَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُؤَرِّحُونَ فِي سِيَاسَتِهِ ، وَلَا مَعَ اعْتِرَالِهِ^(١) أَوْ تَوَعُّلِهِ مِمَّا تَرَكَ الْفَلَاسِفَةُ الْأَوَّلُونَ ، وَلَا مَعَ مَا أَحَدَهُ الْمَأْمُونُ مَعَهُ مَعَاصِرِهِ مِنْ أَلْوَانِ التَّقْدِيرِ فِي شُؤُونِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .

وَالْمَأْمُونُ عِنْدَ مَحْمَدٍ هَذِهِ الرِّوَايَةُ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَوِيَّ الْعَاطِفَةِ الدِّينِيَّةِ ، رَقِيقِ الْحَسَنِ ، يَحْصَحُّ لِحُجَّتِهِ وَإِيمَانِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ رَحْلَ سِيَاسَةٍ وَدَهَائِجٍ ، يَحْسَبُ أَلْفَ حَسَابٍ لِعَوَاطِفِ الْجَاهِلِينَ وَيَحْتَرِّمُ مُيُولَ الْجَاهِلَاتِ الدِّينِيَّةِ .

« وَبَعْدَ » فَالَّذِينَ لِلدِّيَانِ حُلُّ حَلَالِهِ ، وَأَنْفُسُ الْوُلَاةِ الَّذِينَ يَحْتَرِّمُونَ مَا لِلجَاهِلَاتِ مِنْ آرَاءٍ وَمَعْتَقَدَاتٍ وَدِيَانَاتٍ .



(ل) سِيَاسَتُهُ :

وَلَقَدْ كَانَ الْمَأْمُونُ سِيَاسِيًّا فِدَاً ، وَلَيْسَ أَذَلَّ عَلَى « دِيْلُوْمَاطِيَّةِ » ، مِنْ خُطَّتِهِ الَّتِي لَا يَحْدُهَا فِي عَصْرِهِ مَا هُوَ أَحْكَمُ مِنْهَا وَلَا أَسَدُّ ، مَعَ رُكُونِهِ إِلَى مُشَاوَرَةِ شَيْعَتِهِ وَأَنْصَارِهِ إِذَا حَرَّبَهُ أَمْرٌ . وَلَا أَذَلَّ عَلَى كِبَاسَتِهِ وَكَيْفِ مَهَارَتِهِ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ مَعَ سَعْرَاءِ أَخِيهِ الْأَمِينِ مِمَّا وَقَفْتُكَ عَلَى طَرَفِ مَعَهُ ، فِي فِصْلِ التَّرَاجُعِ بَيْنَ الْأَخْوِي .

(١) يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الشَّيْخُ حَسَنُ الْوَهَّابِ الْحَارِثِيُّ : « الْإِعْتِرَالُ مَدْعَبٌ مِنْ مَدَاجِبِ التَّوْحِيدِ أَرَادَ الْقَائِمُونَ بِهِ تَرْبِيَةَ اللَّهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَعَهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَعَدَّدُ الْقَدَمَاءُ ، ثُمَّ انْطَلَقُوا إِلَى الْأَصَالِ مَعَهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَثَرٌ مِنْ الشَّرِّ فَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ مَرَّةً مِنَ الشَّرِّ إِنَّ الْإِنْسَانَ يَخْلُقُ أَصَالًا هَذِهِ الْإِجْتِهَادِيَّةُ قُدْرَةُ أَوْدَعَهَا اللَّهُ فِيهِ الْخَلْقَ مَا قَالُوا . وَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَنْتَهِى لِجَلَالِ الْمَأْمُونِ لِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »

وكان سياسياً فذاً ، في تزوجه من بُورَان بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسي ، وفي تزويجه علي بن موسى الرضا ابنته أم حبيب ، ومحمد بن علي بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلوي ، وأما ذلك كله انى صمان تأييد الأحراب له ، عارفاً لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات .

وكان سياسياً فذاً ، مصيباً ثبات الصواب في قوله لأحمد بن أبي دؤاد عن أهل بغداد : « الناس على طنقات ثلاث في هذه المدينة ، ظالم ، ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، وأما الظالم فليس يتوقع ألا عفوياً وإسكاً ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن يُنصف إلا بئناً ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً ميتة يسمعه » .

وكان سياسياً فذاً ، في مداراته عماله ، وليس أدل على ذلك من تصرفه مع إبراهيم السدي صاحب الأخبار ، وقد رفع إليه حراً عن حادثة عصر ، فكذبه عبدالله بن طاهر ، مصف المأمون السدي آثم التصفيف ، أمام ابن طاهر ثم بحث إليه ، وقال له . « إني أمر وأدأري عمالي وعمالمهم ، مداراة الخائف ، والله ما أحد إلى حملهم على المحمة البيضاء سيلاً ، فأعمل نى على حسب ما ترى أعمل ؟ وإن لم تسلم لك أيامك ، ويقتص ديك » .

وكان سياسياً فذاً ، حينما رفع إليه صاحب خبره « إما أصبها يا أمير المؤمنين رقاعاً ، فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهديد ووعيد ، ومعها عذاب محموط ، إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره ، فكتب المأمون بحظه : « هذا أمر إن أكرهه أكثر عما به ، وأوسع علياً تحرقه ، فقرأ أصحاب أخبارك ، متى وحدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها ، قبل أن ينظروا فيها ، فانهم اذا فعلوا ذلك لم يرها أثرولاً عين » ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال .

وتعال سطر نظره تحليله قصيره ، فيما برويه لنا زبد بن علي بن الحسين ، قال : « لما كان في العيد ، بعد قدوم المأمون سه أربع ومائتين والمأمون يتقدى ، وعلى مائته طاهر بن الحسين وسعيد بن سلم وحميد بن عبد الحميد وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرظه ، ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجلسه ، اذ أنهملت عينا المأمون بالدموع ، فرفع يده عن الطعام ، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال ، حتى اذا كف ، قال لهم : كلوا ، قالوا : يا أمير

المؤمنين، وهل تُسبغ طعاما أو شرابا وسُدنا هذه الحال. قال : أما والله ما ذلك من حَلَّت ولا لمكروه حَمَّتْ به أحد، ولكنه حسن من أحاسن الشكر لله اعطمته ، ودكر معته التي أتمها على، كما أتمها على آتوى من قبلى، أما تَرَوْنَ ذلك الذى فى صحن الدار، يعنى الفصل س الربيع — قال وكانت الستور قد رفعت ، ووُضعت الموائد للناس على مراتبهم ، وكان مجلس المفضل مع أصحاب الحرس - وكان فى أيام الرشيد وحالُه حاله يرانى روحه أعيرف منه العصاء والشآب ، وكان له عدى كالدَى لى عده، ولكنى كنت أداريه حوفا من يسعاه وحدراً من أكاديبه، فكنت اذا سألت عليه، فرد على أطلُ لذلك فريحا، وبه متبها، وكان صغوه الى الخلوغ، عمله على أن أصراه فى، ودعاه الى قتل، وحرك الآخر ما يحرك القراءة والرحم المسألة، فقال : أما القتل فلا أقتله، ولكنى أحمله بحيث اذا قال لم يُطع، واداعا لم تُحب، فكان أحسن حالانى عده، أن وحه مع على بن عيسى قيد قصة، بعد ما تنازعا فى العِصَّة والحديد يُقيدنى به، وذهب عنه قول الله حل وعز : ﴿ ثُمَّ بَيَّعَ عَلَيْهِ لَيْتُصْرُهُ أَفَهُ ؟ ﴾ فذاك موضعه من الدار فأخس مجالسها، وأدى مراتبها، وهذا الحطيب على رأسى، وكان الألامس يصف على هذا المبر، الذى بإزائى مرة، وعلى المنبر الغربى أخرى، فيزعم أنى المأمون ولستُ بالمأمون، ثم هو الساعة يقرظنى بقرطبه المسيح ومحمدا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين : يا سيدنا، فما صدنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمايتهما، فحَصْنَتُهُما بالعفو والحلم ! قال . فعلتُ ذلك لموضع العفو من الله . ثم قال المأمون : مُتُوا أيديكم الى طعامكم، ما كَلَّ وأَكَلُوا .

ألا يسوع لنا أن نستبط مما قدمناه لك أن المأمون كاتب سياسيا ذُهِتًا، حادقا فى تصرفه مع المفضل * ألم يكن للمفضل مكانة عند الرشيد، وفود بعيد المدى فى الدولة * ألا يجوز أن يساعيته بالمأمون وأكاديبه عليه، إن لم يُداره، تحد أانا مُصْصية . وأنها قد تحز عليه من الشرور ما ليس فى حاجة اليه *

ألم يكن حير سبيل لانتفاء شائته أن يداريه، عملا بهول أبى الدرداء «إنا لننشئ وجوه قوم وقلوبنا تلتمهم» *

فهل ترى سياسة أحكم ، و بصرا بالأمور أتم ، من تصرف المأمون ومداراه ، ثم انظر ما كان من مداراه للفضل بن سهل ، كما صرح بذلك لولى عهده على بن موسى الرضا ، ومداراه لطاهر بن الحسين قاتل أخيه ، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأممية ، تؤمن معا أن المأمون كان سياسيا ، ولعل لأطلاعه على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والعربية ، مع استعداده الخاص وروعه الى البحوث الكلامية عاتمة ، وحسه للشاورة واكتشافه للرؤوس المعقدة الباصحة ، امل لهذا وأمثاله الفصل في تكوين المأمون على ما رأيت ، وتحريجه على ما شاهدت .

« وعد » باب الخياه تقاليدها . وإن لسياسة الشعوب أسرارها . كما أن للصراحة محامدنا ، وللدراة ضرورتها ، وأسم بمن يصعب الأمور في مواضعها ، ويرن المواقف ميذاها ، ويطلب لكل حاحه دواءها وعلاجها .



(م) مذهب المأمون الديني :

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت ، وهل كان يميل للفرس حقا ويؤثرهم على غيرهم من العرب في خدمة الدولة ، وهل كان شيعيا طويًا ، أو معتدلا في التشيع ، أو معتزليا ، فهذا ما يستفيض القول في شتى بواحيه ، ورددحم معانيه ، لاختلاف وجهات الطرف فيه . ولعلك تبين مما كتبنا عن المأمون السياسي ، بعض ما يساعدك على فهم مذهب الديني .

ولما كنا قد أرحنا الكلام في موضوع المحنة والقول غلى القرآن الى قسم العلوم والآداب ، فحين قلنا الطرهما الى ذلك .

بيد أننا نرى من واجبتنا أن نشيرها ، الى أن المأمون كان محوطا بسبوح الاعتزال والكلام ، أمثال ثمامه بن أثرس ويحيى بن المبارك وغيرهما . ويموز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه ، فان ياقوتا الرومي قد ذكر

عه ، في الحزب الساع من معجده ، : أنه كان يُتهم بالميل الى الاعتزال ، فلا يستعد اذا ،
وصلته بالمأمون صلة الأستاذ بتلميذه ، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصاً ، أنه اتصل
به مد صاه في أمام الرشيد . وكذلك كان محوطاً بشيوخ آخرين ، لهم آثارهم ومكاتبهم
في الدولة ، مثل يحيى بن أكرم وعبر يحيى بن أكرم .

وكان على ذلك ، متأثراً بما نُرحم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم ، وآداب
الفرس وموسم . كما كان . الى حد غير قليل ، تحت سلطان الفرس ووررائهم أمثال
الفصل بن سهل . وكان يحسب للعلويين حسابهم ، وللعباسيين حسابهم . فلا عرو أدا
أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تكييف مراعاة الديني . وقد يفتقر بعض هذه
العوامل حياً وقد يستند حياً آخر ، طبقاً للأحوال .

هذا هو رأينا في مدعاه الديني أو السياسي على وجه عام . على أن هذا لا يمنعنا ، وقد
انحدنا لأنفسنا خطه الحيدة في تدوين التاريخ ، من أن نُثبت آراء القدماء فيه ، وأن نذكر
طرقاً مما جاء منها في هذا الصدد .

قال ابن الأثير في كامله : « قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار : كان المأمون
شديد الميل الى العلويين ، والإحسان اليهم . وحره مشهور معهم ، وكان يفعل ذلك طمأناً
لانكفأ ، من ذلك أنه توفى في أيامه يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين العلوي ،
فحضر الصلاة عليه بنفسه ، ورأى الناس عليه من الحزن والكتابة ما تعجبوا منه ، ثم إن ولداً
لربيع بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس . وهي ابنة عم المصور توفى بعده ، فأرسل
له المأمون كفناً ، وسير أياه صالحاً ليصل عليه ويعرى أمه ، فها كانت عبد العباسيين
بمثلة عظيمة ، فأتى إليها وعزاها عنه واعتذر عن تحلقه عن الصلاة عليه ، فظهر غصها
وقالت لابن ابنها : تختم فصل على أبيك ، وتمثلت :

سَبَّكَاهُ وَنَحَسُّهُ بِحَيَاتِنَا * فَأَبْدَى الْكَبِيرُ مِنْ خَبَثِ الْحَدِيدِ

ثم قالت لصالح : قل له يا بنِ سراجٍ ، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لو صعدت ذلك حل فيك ، وعدت حلف جازته .

ثم تعال معي نتدبر ما يرويه لنا الثعلبي أحد المعاصرين ، قال : سمعت يحيى بن أكرم يقول : أمرني المأمون عند دخوله بغداد ، أن أجمع له وجوه الفقه ، وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلاً وأحضرتهم وحلّس لهم المأمون فسأل عن مسائل ، وأما في فروع الحديث والعلم ، فلما انتهى ذلك المجلس ، الذي جعلناه للنظر في أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد ، كره هذا المجلس الذي جعلناه للطوائف من الناس ، بتعديل أهوائهم وتركيز آرائهم ، مطابقة ما رواه علياً ما نقول في تفصيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وطلّوا أنه لا يجوز تفصيل علي إلا باستقاص غيره من السلف ! والله ما استعير أن انتقص المحاج فكيف السلف الطيب ! وإن الرجل ليأتيني بالقطيعة من الخود أو بالحشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهماً أو نحو ، فيقول : إن هذا كان للنبي صلى الله عليه وسلم قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه ، وما هو عدى بثقة ولا دليل على صدق الرجل ، إلا أتى بفرط البية والمحة أقبل ذلك واشترى به ألف دينار وأقل وأكثر ، ثم أصعه على وجهي وعيني ، وأتبرك بالطرائف وبسمه ، فأستشفي به عند المرس يصيبني أو يصيب من أهتم به ، فأصوبه كصباي بسمي ، وإنما هو عود لم يفعل شيئاً ، ولا فضيلة له يستوح المحبة ، إلا ما ذكر من من رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرتقي حق أصحابه وعزيمته من قد حصه ، وبذل ماله ودمه دونه ، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة ، وعادى العشار والعائر والأقارب ، وفارق الأهل والأولاد ، وأغترب عن داره ليؤمن الله دينه ويظهر دعوته ، يا سحان الله ! والله لو لم يكن هذا في الدين معروفاً ، لكان في الأخلاق جميلاً ! وإن من المشركين من يرتقي في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا . معاذ الله مما نطق به الجاهلون . ثم لم ترخص هذه الطائفة بالعيب لمن حالفها ، حتى نسيته إلى البدعة في تفصيله رجلاً على أحبه ونظيره ومن

(١) هذه القطعة منقولة كما هي عن تاريخ بغداد ج ٦ ص ٧٥ وما بعدها .

يقاربه في الفضل، وقد قال الله حلّ من قائل : (وَلَقَدْ فَصَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ)
ثم وسّع لنا في جهل العاقل من الموصول، فما قرّض علينا ذلك ولا تنبأ إليه، إذ شهدنا
لجماعتهم بالنبوة، هي دون البين من ذلك صدّ إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل آخرو
لوجهه جاهل رجونا ألا يكون احتريح إنما . وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال قول واحد
من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وشك الآخرو احتج في كسره وإطاله من الأحكام
في الفروع والدماء والأموال التي الطرّف فيها أوحى من النظر في التفصيل . فيغلط
في مثل هذا أحد يعرف شيئاً ، أوله روبة أو حسن نظر ، أو يدفعه من له عقل ،
أو معاند يريد الإلطاط ، أو متّبع لهواه ، ذاب عن رياسة اعتقدها . وطائفة قد أخذ كل
رجل منهم مجلساً ، اعتقد به رياسة ، لعله يدعو فئة إلى صرب من البدعة ، ثم لعل كل رجل
منهم يُعَادَى من حالفه في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة ، ويُشَيِّط بدمه ، وهو
قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك ، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه ، فسأله
عليه وأمسك عنه ، صد ذكر حالته إياه فيه ، فإذا خولف في نيّته ، ولعلها تمّ وسّع الله
في جهله بها ، أو فيها اختلف السلف في مثله ، فلم يُعَادِ بعضهم بعضاً ، ولم يروا في ذلك إثماً ،
ولعله يُكفّر بحالته ، أو يُبدعه أو يرميه بالأمر التي حرّمها الله عليه من المشركين دون
المسلمين ، نبياً عليهم ، وهم المترقون الفتن ، والراحمون فيها ، لينبؤا أموال الناس ويستحلّوها
بالغلبة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون ، يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها .
وإني لأرجو أن يكون مجلساً هذا — بتوفيق الله وتأييده ، ومعونته على إتمامه — سبباً
لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أَرْضَى وأصلح للدين ، إما شاكاً فبيتين ويتنبّه فينقاد
طوعاً ، وإما مُعَانِد فيردّ بالعدل كرهاً » .

ولقد هم في سبيل علويّته هذه أد يلس معاوية ، وأن يكتب بذلك كتاباً ، يُقرأ يوم
الدار ، وحفل الناس ، فشاء عن ذلك يحيى بن أكرم ، وقد يكون من المتع الطريف حقاً أن
بذكر لك ما قاله يحيى وعيره ، لتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله .

قال يحيى بن أنس : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا ، ولا سيما أهل نحرآسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نقرة وإن كانت لم تدبر ما عاقتها ، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تبذل إلى فرقة من الفرق ، فإن ذلك أصلح في السياسة ، وأحرى في التدبير . فركب المأمون إلى رأيه ، ثم دخل عليه ثمانية أحد المعاصرين ، فقال له المأمون : يا ثمانية ، قد علمت ما كادبراه في معاوية ، وقد عارصا رأى هو أصلح في تدبير المملكة ، وأبقى ذكرًا في العاقبة ، ثم أحره أن ابن أكنم حقه إياها ، وأجبره بغيرها على هذا الرأي ، فقال ثمانية . يا أمير المؤمنين ، والعامة في هذا الموضع الذي وصعها به يحيى ! والله لو وجهت إسماء على طائفة سواد ، ومعه عصا لساق إليك بمصاه عشرة آلاف منها ! والله يا أمير المؤمنين ، ما رضى الله حل شأوه أن سواها بالأنعام ، حتى جعلها أضل منها سيلا ، فقال تارك وتعالى . **فَإِنْ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** . والله يا أمير المؤمنين ، لقد مررت منذ أيام في شارع الخلد ، وأما أريد الدار ، فانا إنسان قد سطر كساءه ، وألقى عليه أدوية ، وهو قائم ينادى عليها : هذا الدواء لياص العين والعشا والنفاوة والظلمة وصعف البصر ، وإن إحدى عييه لمطموسة ، وفي الأخرى مؤتى له ، والناس قد اسألوا عليه وأجفلوا إليه يستوصونه ، فزلت عن دأتي حاجية ودخلت في غمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينك أحوج هذه الأيام إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين ، فلم لا تستعمله ؟ فقال : أما في هذا الموضع منذ عشرين ما مر في شيخ أجهل منك ، فقلت له : وكيف ؟ قال : يا جاهل ، أيس اشتكت عيني ؟ قلت : لا أدرى . قال : بمصر ، فأقلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل ، أنت جاهل ، ومثوا ، فقلت : لا والله ، ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، فما تحلصت منهم إلا بهذه الجملة .

نريد بعد ما قدمناه لك أن نقول لك : إن مذهب المأمون الديني كان متمشيا تماما مع مذهب الساساني ، وإنه إذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوج من هذا

الحزب وذاك، ومن إرصاد هذا الطرف وذاك، أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شق الأحرار ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين حليقة، ثم من العباسيين حليقة ما دامت غيته متحققة من استئجاب الأمن، وامتزاج الأحرار، وتوحيد القوى، فكذا كان يريد أن يخذ من مذهبه الديني مدها وسطاً . ويحيل البيا من التنازع التي وقعها عليها من دراسته هذا العصر أن المأمون لم يظفر بمايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياته الرضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية .

ومعد، فقد قلنا لك : إن الدين للديان حل حلاله ، وأكبرها وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات، ويظهر أن المأمون لم يكن فيها رامة في هذا السبيل موقفاً توفيقه فيما عداه، وأن له رلة كان يحدر ألا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضحاً في الفصل الذي عقدهاه عن « محه القرآن » .

(ن) كلمة ختامية عن المأمون :

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يحس من التفصيل والتوصيح ، رى من المستصوب أن نصم الى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمديحهم مصائله ، رأى مؤرخ معشر عكف على دراسته عصر المأمون وهو السيروليم موير، فربما أجادنا كثيراً من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا نخدم بمثل ما يخدمها تبائن الآراء وأحتلاف المصادر وتناقض الروايات . وليس من مهمتنا أن نعرض للرد على « السير موير » وإما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا .

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في غنم بحثه عن المأمون ما ترجمة لك بنصه :
« مما لا راع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفاً بالعدل والحلم ، وإنما يؤحد أنه كان متقلبا في آرائه وشعوره ، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية .

ويرجع السبب في ذلك الى نزعه العارسية التي ورثها عن أمه ، والبيئة التي رُئى فيها من جهة ، والى عريزه حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى . على أسا مع اعترافا مدله ، لا يستطيع أن ينزعه عن الحوح في بعض الأحيان الى الجور وأستعمل القسوة من غير مسوق ، فإنه قد تصرف في بعض الحوادث تصرف الجارية والقساة من أسلافه الذين أتوا من المكرات ما سؤدوا به صحائف تاريخهم . وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية عربية ، ذلك أن أبا دأف — وكان بطلا من أشرف العرب وزعيما لإمارة همدان ، إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتا واسعا بين عشائرها ودوى البيوتات فيها — كان من الذين اصبموا الى نصرة الأمين وشايصوه ، فلما قُتل وأستقل المأمون بالخلافة ، أبى أبو دأف أن يدخل في طاعته ، وآثر العودة الى مسقط رأسه في فارس ، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة ، وعالى في مدحه وإطرائه ، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم ، فاعتاط المأمون من الشاعر عيظا شديدا ، إذ ظن أن الشاعر يقصد إهائته ، فأمر بتعديسه وقتله شر قتلة ، ولكن لم يمض على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دأف في طاعة المأمون فاحتمل به وقربه اليه ، فان كان تحاوزه عن أى دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون ويدل على رحابة صدره ، فهذا التحاوز لا ينبغي حكما عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى ، ولو أفضيا عن الشبهات التي حامت حول مقتل العصل وموت على الرضا عدرا وعيلة ، فاننا لا نستطيع أن نعصى عن معاملته الجائرة لاس عائشة ، وما لقيه هزيمة وطاهر مع تمانيهما في نصرته وتوطيد حكمه ، واصطهاده لكثير من أحلأ المعكرين ، وأصحاب الآراء المخالفة لآياه في بعض مسائل الدين ، في مجلس المناظرة ، مما يدل على قسوته ، إلا أننا اذا راعينا طول مدته حكمه وموقفه البيل في عموه عن الخارجين عليه في همدان ، نرى كفة عدله وحلمه أرحم من كفة جورهِ وقسوته ؛

وقصارى القول أن عصر خلافته كان موحه الإحمال من أزمى عصور التاريخ
الاسلامى « اه .



ومعد ، فلقد حللنا شخصية المأمون المدة البارزة بما استحقته من الاستقصاء
والاستيعاب ، والدرس والتحليل ، وأعقبا كل كلمة عن مجاياه ما يعتبره موضع العظة
والاعتبار من دراسة هذا العصر المتزعج المثل العليا . ونأمل أن نكون قد وفقنا فيما
رُمناه من إصاابة شاكلة الحق ولأب الصواب .

افضل الثمن

الحياة العلمية في عصر المأمون

توطئة — حركة القل — الترجمة — كتب العصر — آثار البصرة المأمونية — القول بحقوق القرآن .

(١) توطئة :

قيل : إن سهل بن هارون كان يتولى الميمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف بيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزائن المأمون . وقيل : إن بيت الحكمة هذا أنشئ في العال أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وقَّفوا إليه، هدية كانت أو فارسية أو يونانية .

وقيل : إن يحيى بن أبى منصور الموصلى المنعم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في العصر المأمونى ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج وصورة الأرض، كما من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جد أحمد الطيبي المعروف بالصَّوْبَرِيّ الحلبي والفضل ابن توجت وأولاد شاكر وصبرهم من رحالات بيت الحكمة في العصر المأمونى ، أو من كان يتردد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للطالعة أو للنسخ أو الترجمة أو التأليف .

وقيل : إن الراوية النسابة المعروف علان الشُّعُونِيّ العامريّ الأصل، كان ممن ينسخ في بيت الحكمة ، أو في أحد بيوت الحكمة هذه، إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت، للرشيد والبرامكة والمأمون .

وقيل : إن المأمون سمع إلى حاكم صِغْلَةَ المسيحي أن يبادر أن يرسل إليه مكتبة صِغْلَةَ الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردّد في إرسالها، وكان بين الضنّ بها والحِرص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجال الدولة وأدلى إليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله :

« أرسلها إليه ، فواقع ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أهدتها » فأدعى الحاكم لمشوره وعمل بها .

ويقول الأستاذ كرد علي : إن المأمون هو الذي جمع مص حكام عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صوّروا بها العالم بأفلاكه ونجومه ورة وبجره وعاصره وعاصره ومسكني الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقتضها من حفرافية بطليموس ، وحفرافية ماريوس ، وقد وصع له علماء رسم الأرض - وقال الزهرى : إنهم كانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق - كما في الجفرافية أعلن عمال الدولة على التعزف الى البلاد والأمم ، التي أطلتها الزاة العاسية ، هذا الى عايته بالملك ، وفلكيّه السزاريّ أول من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وعُي بالطبيعة والرياصيات فوق عايته بالطلب ومعرفة العقاقير والسات والحيوان ، الى ما شا كل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وتفتح به المأمون باب العقل على مضراعيه في كل مطلب وشأن .

قيل هذا ، وقيل أكثر من هذا ، مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريدية على كثرة الكتب في العهد المأموني ، وما يشير الى عدم قلتها في أيام من سقه من الخلفاء العاسيين . والان يحق لنا أن نتساءل ، هل أفاد المأمون من هذه الكتب ؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة ؟ وما هي الحركة العملية المأمونية ، ومن هم رجالها وما هي مؤلفاتها ؟
يحق لنا أن نتساءل عن ذلك ، وعن مثل ذلك ، ويحق لنا أن نعريض لهذه البحوث ، وأن نوجع مص ما كا أجملناه في كلتنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي .

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره ، سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية ، أو غيرها ، أم كانت مؤلفة موضوعة ، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبيته فيما وصناه لك عند تعرضنا لتصيل شخصيه المأمون ، وعين نكلما عه تليدا ، وولى عهد ، وخليفة ، وأديبا ، وطالما ، وسياسيا ، وباحثا دينيا .

وأما أن المأمون أعاد عصره مؤلفاته الخاصة ، فهذا مالا ريب فيه أيضا ، وهالك ابن السديم يحدثنا في فهرسته أن المأمون من الكتب كتب جواب ملك الرغز فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد . ورسائله في إعلان النبوّة .

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورحالاتها ومؤلفاتهم فهذا ما نحن مقبلون على بحثه . يحدثنا ابن أبي أصيبعة في طبقاته عن أوكد الأسباب عد المأمون لاستخراج الكتب فيقول : قال يحيى بن عدى : قال المأمون : رأيت فيما يرى السائم . كأن رجلا على كرسى حالسا في المجلس الذي أجلس فيه فتعاطفته وتهايتته وسألت عنه ، فقبل لى هو أرسطوطاليس . فقلت : أسأله من شيء ، فسأته . فقلت : ما الحس ؟ فقال : ما استحسنته العقول ، فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسنته الشريعة ، قلت : ثم ماذا ؟ قال : ما استحسسه الجمهور . فقلت : ثم ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المأمون من أوكد الأسباب في إنخراج الكتب . فان المأمون ، كان بينه وبين ملك الروم مراسلات . وقد استظهر عليه المأمون . فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المغزونة في بلد الروم . فأجاب الى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة ، منهم الحاجب بن مطر ، وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وعيهم فأخذوا مما وحدوا ما اختاروا . فلما حملوه اليه أصرهم بقله فقل ، وقد قيل . إن يوحنا بن ماسويه من وفد الى بلد الروم . وأحصر المأمون أيضا حنين بن إسحاق وكان في الس وأمره بقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى القري وإصلاح ما يقله غيره فامتثل أمره .

ومما يحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب رنة ما يقله من الكتب الى العربي مثلا مثل . وقال أبو سليمان المظني : إن بى شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن ، كانوا يرزقون جماعة من النقلة . منهم حنين بن إسحاق ، وحنين بن الحسن ، وثابت ابن قرة وعيهم ، في الشهر نحو خمسمائة دينار للقل والملازمة .

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : إن العرب في صدر الإسلام لم تُعن بشيء من العلوم، إلا لِبُعْثِها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صباغة الطب . فانها كانت موجودة عند أفراد منهم صير مسكرة عند حماهيرهم، لحاجة الناس طُرّاً إليها . فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية . فلما أدّأ^(١) الله تعالى للهاشمية، وصرف الملك إليهم ثابت المهم من عملتها، وهت العطر من موتها، فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المصور، وكان مع راعته في الفقه، كَلِمًا بالفلسفة وعلم الحجوم . ثم لما أفضت الخلافة إليهم إلى الخليفة الساج عد الله المأمون س هارون الرشيد، تم ما بدأ به جده المصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، ودأخل ملوك الروم وسألم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه عما حصرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وحاليبوس وأوقليدس وعلابوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستحدا لها مهرة التاجمة وكلفهم لإحكام ترجمتها . فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حصّ الناس على قراءتها ورجعهم في تعليمها . وكان يحلو للحكماء ويأسس بما ظرتهم، ويلتد بمداكراتهم، علما منه أن أهل العلم هم صعوة الله من خلقه، وتُحبته من صاده، وأنهم صرفوا عنايتهم إلى تيّل فضائل النفس الباطنة ورهدوا فيما يَرى فيه الصّين والترك ومن نزع مَرَعهم من التنافس في دقة الصباغة الممليّة، والتأهي لأخلاق النفس والتعارفاتوى . إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها وتَفْضُلهم في كثير منها . فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى، وسادة البشر وأوحشت الدنيا لفقدهم .

فهذا الحلم الذي قيل إنه دفع بالمأمون إلى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو عبارة علمية أدق، هذا الميل إلى الفلسفة والمطوق عد المأمون، كان من آثاره حركة نقل وتأليف عيمة قوية . ويحيل اليّا أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورعفته في القياس العقل، وتأثره بمدبب الاعتزال كما سترى في كتبنا التي عقدناها لك في القول بخلق القرآن،

كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف. وخاصة في مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عدهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة .

(ب) حركة الترجمة والنقل :

يقول الأستاذ «سنتلانه» في مفتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية : إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار : فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد ، أي من سنة ١٣٦ إلى سنة ١٩٣ وهي الطبقة الأولى من المترجمين ، منهم يحيى بن بطريق مترجم المجسطى في أيام المنصور . وجورجيس بن حريثيل الطبيب عاش سنة ١٤٨ . وعبد الله بن المقفع الذي مات نحو سنة ١٤٣ وترجم بعض الكتب المخطوطة لأرسطوطاليس . ويوحنا بن ماسويه ، وكان في أيام الرشيد ، وقد أدرك أيام المتوكل ، واضنى في الأغلب بالكتب الطبية . وسلام الأبرش ، وكان في أيام البرامكة . وماسيل المطران .

والدور الثاني ، من ولاية المأمون سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠ ، وهي الطبقة الثانية من المترجمين ، منهم يوحنا بن بطريق . والمحاج بن مظهر الذي عاش سنة ٣١٤ . وقسطا ابن لوقا العلبكي وعاش سنة ٢٢٠ . وعد المسيح بن عيسى الجهمي وعاش سنة ٢٢٠ . وحسين بن اسحاق وتوفي سنة ٢٦٠ وقيل سنة ٢٦٢ . وابنه اسحاق بن حسين ، وتوفي سنة ٢٩٨ . وثابت بن قرة الصابي المتوفى سنة ٢٨٨ . وحيش بن الحسن ، ويدعى حبش الأعسم ابن أخت حسين ، وتوفي سنة ٣٠٠ ، ومما ترجم في هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس ونحوه من كتب أفلاطون ومن التماسير على الكتب المذكورة .

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهي تاريخ وفاة حيش ، إلى منتصف القرن الرابع ، ومن مترجمي هذه الطبقة ، متى بن يونس ، وتاريخ وفاته مجهول إلا أنه

مُذكر عنه أنه كان سعداد من سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠ . ومنهم سنان بن ثابت بن قُزّة ، المتوفى سنة ٣٦٠ . ويحيى بن عديّ وتوفى سنة ٣٦٤ . وأبو عليّ بن زرعة ، من سنة ٣٣١ الى سنة ٣٩٨ . وهلال بن هلال الحِمْصيّ . وعيسى بن سهرنخت ، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المطلية والطبيعة لأرسطو ، والمفسر كالا سكندر الأفروديسي ونحو الجوى وغيرهما اه .

وبعد ، فقد سبق لنا أن بينّا لك طرّفاً عن الحياة العلمية في العصر الأمويّ وفي صدر العصر العباسيّ ، وأن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت في علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ، ترجمة وتاليفا في العصر المأمونيّ ، معتمدين في ذلك على الفهرست لابن النديم ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيّبة ، وكتاب أحبار الحكماء للقفطيّ .

وهاك جملة منهم وهم . أحمد بن محمد بن كثير الفرغانيّ أحد معلمي المأمون ، وبختيشوع حورحيس ، وحراثيل بن بختيشوع ، وحراثيل الكمال المأمونيّ ، والحارث المتعمّ صاحب الحسن بن سهل ، والحسن بن سهل بن توتخت ، وركيا الطيفوريّ ، وسهل بن ساور ابن سهل المعروف بالكوّع الذي كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه وحورحيس بن بختيشوع وعيسى بن الحكم وزكريا الطيفوريّ ، ثم سنده بن عليّ المنجم المأمونيّ ، وسلمويه بن سنان صاحب المتعمّ ، وصالح بن هلة المهديّ صاحب الرشيد ، والعباس بن سعيد الجوهريّ المنجم صاحب المأمون ، وعبد الله بن سهل بن توتخت المنجم المأمونيّ ، وأبو حفص عمر ابن الفرّخان الطبريّ أحد رؤساء التراجمه والمتحققين بعلم النجوم ، وموسى بن شاكر وبنوه محمد وأحمد والحسن من معلمي المأمون ، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطيّ من أنصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ، وموسى بن إسرائيل صاحب أبي اسحاق بن ابراهيم بن المهديّ ، وما شاء الله المحمّ اليهوديّ ، وميثايل بن ماسويه ، ويحيى بن أبي منصور المنجم المأمونيّ ، ويعقوب بن اسحاق وتلاميذه : حسنويه ونعظويه وسلمويه ورحويه وأحمد بن الطيب ، ثم يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، ويوحنا بن ماسويه النصرانيّ السريانيّ ،

وأبو قريش المعروف بعبى الصيدلانى وغيرهم كآل ثامت وماسرجويه ، وآل الكرخى ، وابن دهن الهمدى مدير بیمارستان البرامكة ، وكان فيما يذكره ابن النديم يقبل من الهمدية الى العربية ، ومنكه طيب الرشيد الهمدى ، وكان يقبل من الهمدية (السسكريته) وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر .

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العظيمة لخرجنا عن وضع كتاب في العصر المأمونى ، الى وضع موسوعة أو معجم ، وإذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعبى ولم نصور العصر بما ينبغي أن يصور به ، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن حنبلشوع ، وقدره في العصر قدره ومنزلته منزله ، لتكون مثالا وتوضيحا لسواه من رجال العلم في ذلك العصر الفنى حقا ، والفنى برحالاته صدقا ، ومستشف على هذه الكلمة في موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب .

(ج) كتب العصر :

ولما نقل لك هنا طرأا من أسماء الكتب التى تُرجمت في ذلك العصر من اليونانية ، والفارسية ، والهندية ، والقبطية ، والعبرانية ، واللاتينية ، والبطنية ، معتمدين في ذلك على البحث الطريف الذى كتبه صاحب التمدن الاسلامى ، ولخص فيه ما كتبه ابن الديم ، وصاحب الطبقات ، وتراجم الحكماء ، مؤهين بجهده أمانة للعلم واعترافا بالفصل .

أولا - الكتب المنقولة عن اليونانية

(١) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون :

- (١) كتاب السياسة فله حنين بن إسحاق
- (٢) » الماسبات . . . » يحيى بن عدى
- (٣) » الواميس . . . » حنين ويحيى
- (٤) » طليانوس . . » ابن البطريق وأصلحه حنين

(٥) كتاب أفلاطن الى أقرطن... نقله يحيى بن عدي

(٦) » التوحيد » » » »

(٧) » الحس واللذة ... » » » »

(٨) » أصول الهندسة .. » قسطا بن لوقا

كتب أرسطوطاليس :

(١) فاطينورياس (المقولات) .. نقله حين بن إسحاق

(٢) كتاب العبارة . . » الى السريانية وإسحاق الى العربية

(٣) تحليل القياس » ثيادورس وأصلحه حين

(٤) كتاب البرهان . . » إسحاق الى السريانية ومتى الى العربية

(٥) » الجدل » » » » ويحيى »

(٦) » المغالطات أو الحكمة الموهمة » ابن ماعق أو بشرى الى السريانية ويحيى الى العربية

(٧) » الخطابة » إسحاق وإبراهيم بن عبد الله

(٨) » الشعر » أو بشرى الى السريانية الى العربية

(٩) » السماع الطبيعي » أو روح الصابي وحين ويحيى وقسطا وابن ناعمة

(١٠) » السماء والعالم » ابن البطريق وأصلحه حين

(١١) » الكون والفساد » حين الى السريانية وإسحاق والدمشقي الى العربية

(١٢) » الآثار العلوية » أو بشرى ويحيى

(١٣) » النفس » حين الى السريانية وإسحاق الى العربية

(١٤) » الحس والمحسوس » أو بشرى بن يونس

(١٥) » الحيوان » ابن البطريق

(١٦) » الحروف أو الإلهيات ... » إسحاق ويحيى وحين ومتى

(١٧) » الأخلاق » إسحاق

(١٨) كتاب المرأة نقله المحامد بن مطر

(١٩) » أثولوجيا » » » »

ولكتب أرسطو شروح وتعليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده، ثاوفرسطس،
وإدونيوس بركلس، والاسكندر الأفروديسي، وفرفوريوس، وأمونيوس، وتامسطيوس
ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى الحوى وغيرهم . ولكتب هؤلاء مؤلفات خاصة،
وكلها في الفلسفة وفروعها، وقد نقل كثير منها إلى العربية ولم نعلم نقلها، فأعصينا عن
ذكرها وقد ذكرها صاحب الفهرست .

وذكروا جالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بصحة كتب في الفلسفة والأدب،
وهي كتاب ما يعتقد رأيا، ترجمه ثابت، وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه، نقله توما
وأصلحه حين، وكتاب الأخلاق نقله حيش، وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم، نقله
حيش، والمحرك الأول لا يفرك، نقله حيش وعيسى، وغير ذلك .

(٢) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط :

(١) كتاب عهد أبقراط نقله حنين إلى السريانية وحيش وعيسى إلى العربية

(٢) » الأصول » حنين لمحمد بن موسى

(٣) » الكسر » » » » »

(٤) » مقدمة المعرفة » وعيسى بن يحيى

(٥) » الأمراض الحادة عيسى بن يحيى

(٦) » أيديما » » » » »

(٧) » الأخلاط » » » » » لأحمد بن موسى

(٨) » قاططيون » حنين لمحمد بن موسى

(٩) » الماء والهواء » » وحيش

(١٠) » طبيعة الإنسان » » وعيسى

كتب جالينوس :

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشرو هي : كتاب الفرق، الصناعة، كتاب
النفس، شعاع الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، ذات المزاج، القوى
الطبيعية، العلل والأمراض، تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النص الكبير،
كتاب الحيات، البُحران، أيام الحران، تدبير الأمعاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها
حنين بن إسحاق الى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النص الكبير، وكتاب
تدبير الأمعاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حيش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية،
فإليك أممائها مع أسماء ناقلها :

(١)	التشريح الكبير	حيش الأعمى	(١٧)	الحث على تعليم الطب حيش الأعمى
(٢)	اختلاف التشريح	» »	(١٨)	قوى النفس ومزاج البدن » »
(٣)	تشريح الحيوان الحى	» »	(١٩)	حركات الصدر { نقله أصطفان وأصلحه حنين
(٤)	» » الميت	» »	(٢٠)	علل النفس أصطفان وأصلحه حنين
(٥)	علم أبقراط بالتشريح	» »	(٢١)	حركة العصل » » »
(٦)	الحاجة الى البض	» »	(٢٢)	الحاجة الى النفس » » »
(٧)	علوم أرسطو	» »	(٢٣)	الامتلاء » » »
(٨)	تشريح الرحم	» »	(٢٤)	المزة والسوداء » » »
(٩)	آراء أبقراط وأفلاطون	» »	(٢٥)	علل الصوت حنين
(١٠)	العادات	» »	(٢٦)	الحركات المجهولة »
(١١)	خصب البدن	» »	(٢٧)	أفصل الهيئات »
(١٢)	المنى	» »	(٢٨)	سوء المزاج المختلف »
(١٣)	منافع الأعضاء	» »	(٢٩)	الأدوية المفردة »
(١٤)	تركيب الأدوية	» »	(٣٠)	المولود لسبعة أشهر »
(١٥)	الرياضة بالكرة الصغيرة	» »	(٣١)	رداءة التنفس »
(١٦)	» » الكيرة	» »		

(٣٢) الدول	حين	(٤١) أفلطون في طيماوس حين واصحاب
(٣٣) قوى الأعديبة	»	(٤٢) مقدمة المعرفة عيسى
(٣٤) التدبير الملطف	»	(٤٣) الفصص عيسى وأصطفان
(٣٥) مداواة الأمراض	»	(٤٤) صفات لصبي يصرح ابن الصلت
(٣٦) أقرط في الأمراض الحادة	»	(٤٥) الأورام »
(٣٧) الى تراسوبولوس	»	(٤٦) الكيموس ثابت وحيش
(٣٨) الطبيب والفيلسوف	»	(٤٧) الأدوية والأدواء عيسى
(٣٩) كتب أقرط الصحية	»	(٤٨) الرماق ابن الطريق
(٤٠) محه الطبيب	»	

وهناك كتب في الطب وتواصه ذكرها صاحب المهرست ولم يذكر ناقليها .
وأما مؤلفوها فيها نضعه وعشرون كتابا لروفس من أهل أفسس كان قسلا جاليوس ،
ولعلها لم تنقل كلها . ومما ذكر ناقلوه نضعه كتب لأورياسيوس ، وهي كتاب الأدوية
المستعملة ، نقله أصفهان بن ناسيل . وكتاب السمين مقالة نقله حين وعيسى بن يحيى الى
السرماية ، وكتاب الى اسه أسطاث نقله حين ، وكتاب الى أبيه أواميس نقله حين .
ولديسقوريدس العيب روى ، ويقال له السائح في السلاذ لسياحته و طلب العقاقير
والخشائس ، كتاب في الخشائس سيأتي تاريخ نقله . ولاسكندروس كتاب البرسام نقله ابن
الطريق . وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها .

٣ - كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويستمل الطريق ذلك على علم النجوم والمهندسه والحساب والموسيقى والميكانيكات ،
وهناك خلاصه الكلام فيها .

(١) كتب أفليدس ، منها أصول المهندسه ، نقله المحاج بن مطر نقلين الحاروني
والمأمون . ونقله اصحاب بن حين ، وأصلحه ثابت بن قره ، ونقله أبو عثمان الدمشقي ،
ولا يزال هذا الكتاب ماقيا الى الآن . ومن كتب أفليدس التي لم يعرف مترجموها كتاب

الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والحقه .

(٢) كتب أرخميدس، وهى عشرة ولم يعرف مقلوها .

(٣) الموليوس ، صاحب كتاب المخروطات ، وكتاب قطع السطوح ، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر المتماثلة، ولم يعرف مقلوها .

(٤) مالاوس ، له كتاب الأشكال الكروية ، وكتاب أصول الهندسة، نقله الى العربى ثابت بن قرة .

(٥) بطليموس القلودي، صاحب كتاب المجسطى الشهير، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي . ولطليموس أيضا كتاب الأرسطية، نقله ابراهيم بن الصلت وأصلحه حينئذ، وكتاب جغرافيا المعمور وصحة الأرض، نقله ثابت الى العربى قلا جيدا، ولطليموس ١٥ كتابا أخرى الجغرافيا وغيرها، لم يعرف مقلوها .

(٦) أبرحس، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحديد، وكتاب قسمه الأعداد لم يعرف مقلهما .

(٧) ديومطس، له كتاب صناعة الجبر، لم يعرف مقله .

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر مقلها . منها : كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون الطريق ، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس . وكتاب العمل بدات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكلها لتاون الاسكندري .

أصف الى ذلك كتب الرياضه التي تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة وعنه في إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم . وقد نقل للسلميين من كتب الموسيقى عن اليومايه كتاب الموسيقى الكبير ليقوموا بحس الهراسيه، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقدم ذكره،

ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الرمحوس، وكتاب الايقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصنوعة السماء بالأرض البوق، والأرض الزمرى، لمورطس .

وقل لم من كتب الميكانيكات غير ما جاء في كتب أرحميدس ، كتاب الحيل الروحانية ، وكتاب رفع الأثقال لأيرد، وكتاب استخراج المياه لابادروعيما ، وكتاب الآلات المصنوعة على ستين ميلا لمورطس .



ثانيا - الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبل الآداب والأخبار والسير والأشعار ومصها في النجوم مما نقله آل نوحث وعلّى بن رباد التميمي وعبرهم . أما ما بقي من كتبهم المنقولة الى العربية فهي مع أسماء ناقلها .

(١) كتاب رسم وأسمديار حيلة بن سالم

(٢) » بهرام شوس »

(٣) » حدياسمه في السير عبد الله بن المقفع

(٤) » آيين نامه »

(٥) » كليله ودمه »

(٦) » مزدك »

(٧) » التاج في سيره أبوسروان »

(٨) » الأدب الكبير »

(٩) » الأدب الصغير »

(١٠) » اليتيمة »

(١١) » هزارأفسانه لم يذكر ناقله

(١٢) » شهرزاد مع أبرويز »

- (١٣) كتاب الكارماج أوشروان . لم يذكر ناقله
 (١٤) » دارا والصم الذهب . »
 (١٥) » هرام وريسي »
 (١٦) » هراردستان »
 (١٧) » الدب والتعلب . . . »
 (١٨) سير ملوك الفرس ، وهي غير كتاب . ترجم أحدها محمد بن حنبل الرميكي ، وآخر
 رحمه رادويه بن شاهويه الأصمهاني ، وآخر محمد بن هرام بن مطيار الأصمهاني .

ومما يح ذكره من مترجمات الفرس — وإن كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن
 الاسلامي — كتاب « شاهنامه » التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤ هـ
 في نحو ٦٠,٠٠٠ بيت على نسق إياده هومروس ، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم ،
 نقلها الى العربية الفتح بن علي السدائي الأصماني ثرا لثلاث المعظم عيسى الأيوبي . أم
 ترجمتها سنة ٦٩٧ هـ . ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتباً أخرى تاريخية
 وأدبية وخصوصاً مما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها .



ثالثاً — الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السمسكر بنيه) كثيراً من كتب الطب والحوم
 والرياضيات والحساب والأشجار والوارث . والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم
 يصل إلينا من أخبارها إلا القليل ، لأن عدد كتابي إبان الزهو العاسي ، كاه العلماء
 والأطباء والتجار والسياح من كل الملل . وكان للرامكة عاية لاستخدام أطباء الهند إليها .
 وقد بحث يحيى بن خالد فاستقدم بصغة صالحة منهم : ” ككه ” و ” نازيكر ” و ” فيلرول ”
 و ” سداز ” وغيرهم .

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العاسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير
 أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل ، فالك إذا راجعت مثلاً قانون ابن سينا

أو الملكي للراى أو غيرهما من كتب الطب الكبرى ، رأينهم يدكرون بعض الأمراض ويشيرون الى أن الهود يسمونها مثلا كذا وكذا أو يحالونها كذا وكذا . واذا قرأت المعد الفريد لاس عدد ربه أو سراح الملوك للطوطشى أو غيرهما من كتب الأدب المهمة ، رأيت مؤلفيها اذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا : « وى كتاب الهند كذا وكذا » .

كتب الطب وفروعها

على أننا علم مما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالى العصر العباسى جماعة من علماء الهند فى الطب والحجوم والفلسفة وغيرها ، منهم كسكة الهندى ، وهو من متقدميهم وأكابرهم ، وخصوصا فى علم العجوم فصلا عن الطب ، وله مؤلفات كثيرة منها . كتاب الهمودار فى الأعمار ، وكتاب أسرار المواليد ، وكتاب القرائات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يحسرى بحرى الكاش ، وكتاب فى التوهم ، وكتاب فى إحداث العالم والدور فى القرآن ، ومنهم أيضا صجهل وما كهر ، وغيرهما .

وقد هل كبير من مؤلفاتهم فى الحجوم والطب الى اللغة العربية ، إما رأسا أو بوساطة اللغة الفارسية ، فأن يقل الكتاب من الهندى الى الفارسي ، ثم يقل من الفارسي الى العربى ، منها كتاب سيرك الهندى ، وقد نقله من الفارسي الى العربى عبد الله بن على . وكتاب آخر فى علامات الأدوية ومعرفه علاجها ، أمر يحيى بن خالد البرمكى بنقله . وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد ، وقوى الأدوية . وكتب أخرى فى فروع الطب .

ومن مشهورهم من كتب الهندى المتقدم ذكره بن المترجمين . وقد أتى مداد بإشارة يحيى ابن خالد لمعالجه الرشيد فشفاه فأجرى عليه الرشيد ررقا واسعا . وكان من كتب يعرف الفارسية أيضا ، فكان ينقل من الهندى الى الفارسي ، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء . ومنهم صالح بن بهلة الهندى ، جاء العراق فى أيام الرشيد أيضا ، وبال شهرة واسعة

وحالط أطباءها يومئذ واحتلطوا به ، فان لم يكونوا نقلوا شيئاً من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئاً من آراء الهدى .

ومن مشهورهم أيضاً شافى ، وله كتاب في السموم خمس مقالات ، نقله من اللسان الهدى إلى الفارسي منك الهدى ، وأورع يحيى بن خالد إلى رجل يعرف بأبي حاتم اللحيّ نقله إلى العربيّ ، ثم نقل للأوون على يد العباس بن سعيد الجوهريّ مولاه . ولجود الحكيم كتاب في المواليد نقل إلى العربيّ أيضاً .

ومن الكتب الطيبة التي نقلت من الهندية إلى لسان العرب في العصر العباسيّ غير ما تقدّم ذكره .

- (١) كتاب سمرق في الطب نقله منك .
- (٢) « أسماء عقاقير الهند نقله منك لاسحق بن سليمان .
- (٣) « استانكر الحامع » اس دهن .
- (٤) « صعوة النجح » »
- (٥) « مختصر الهند في العقاقير لم يذكر ناقله .
- (٦) « علاجات الحبال للهد » » »
- (٧) كتاب روسا الهندية في علاجات النساء لم يذكر ناقله
- (٨) « السكر للهد » »
- (٩) « التروم في الأمراض والطل » »
- (١٠) « رأى الهند في أحاس الحيات وسمومها » »

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فالهند شأن كبير فيه ، وقد ذكرنا بحر السدھد فيما تقدّم ، وكان لقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب ، وقد تقدّموا وألّفوا على مذهبه . فمن ألّف على هذا المنهج محمد بن ابراهيم الفزاريّ ، وحش بن عبيد الله البغداديّ ،

ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم . والفزارى أول من عمل إسطرلابا في الاسلام . وما من فلكي من فلكي المسلمين أراد التوسع في علم النجوم إلا طالع كتبهم ، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها إلى العربية . وأكثر المسلمين عناية في ذلك وإطلاعا على آداب الهند وعلومهم ، أبو ريمحان البيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم ، ثم ألف كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات ، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحا أو نقدا .

ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله . وعملت في السد هند كتابا سميته حوامع الموجود لحواضر اليهود في حساب التنجيم حاء ماتم منه ٥٥٠ ورقة . وهدت زيج الاركند وحصلته ألفاظا اذ كانت الترجمة الموحدة منه غير مفهومة وألغاط الهند فيها متروكة لحالها . وعملت كتابا في المدارب المتحددين والمتساوين ، وسميته بحيال الكسوفين عند الهند ، وهو معنى مشتهر فيا بينهم لا يعلومه زيج من أزياجهم وليس بعلوم عند أصحابنا . وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السد والهند في ٣٠ ورقة وكيفيه رسوم الهند في تعلم الحساب ، وتذكرة في أب رأى العرب في مرانف العدد أصوب من رأى الهند فيها . وفي راسكات الهند وترجمة ما في ابرهم سدھاند من طرق الحساب . ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند . ومقالة في الجوانات على المسائل الواردة من محمى الهند . ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر . وترجمة كلب ناره ، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تمرى تمرى المعوية وغير ذلك .

فيؤخذ من هذا أن اليهود أهل علم ورأى في النجوم وعلومها وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئا كثيرا .

كتب الأدب

وأما ما قيل إلى العربية منها : كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأشمار والخراطات : (١) كتاب كليله ودمنة ، وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم ، وبعد نقله إلى العربية

نظموه شعرا كما نظمهم العرب من قبلهم . ومن نظمهم في العرسه أمان بن عبد الحميد
ابن لاحق بن عمير الرقاشي وعلى بن داود . (٢) كتاب سدياد الكبير (٣) كتاب سدياد
الصغير (٤) كتاب السد (٥) كتاب يوداسف (٦) يوداسف معرد (٧) كتاب أدب الهند
والصين (٨) كتاب هابل في الحكمة (٩) كتاب الهند في قصه هبوط آدم (١٠) كتاب طرق
(١١) كتاب ديك الهندى في الرجل والمرأه (١٢) كتاب حدود مطنى الهند (١٣) كتاب
ساديرم (١٤) كتاب ملك الهند القتال والساح (١٥) كتاب بيدما في الحكمة .

ومما نقله العرب عن الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية « يافرا » ومعناه ثمار
الحكمة ، وفيه أصول الألحان وحوامع تأليف العم .



رابعاً - الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتباً كثيرة فلسفية وطبية نُقلت من اليوناني إلى العربي بواسطة
اللغة السريانية أحب النبطية أو هي عنها فلا تتعزّص لدكرها ، وإيما ربد بها الكتب
التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو السطية ، وجلب إلى العربية رأساً ، ولولا نقلها
إصاحت . وأهم تلك الكتب . (١) كتاب الفلاحه السطية ، فانه فريد في ماله ، وقد نقله
إلى العربية أحمد بن علي بن المختار السطى ، المعروف بأن وحشية سنة ٢٩١ هـ وطل معتمد
أهل الرراعه إلى أميد عريهيد ، وقد نُقل إلى اللغات الأفرنجية ، وأولا نقله إلى العربية
لصاح وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدّمته ، فقد قال آن وحشيه ، وهو يلى الكتاب
على علي بن محمد بن الربات سه ٣١٨ هـ « أعلم يا سى أنى وجدت هذا الكتاب في كتب
الكسديين (الكلدان أو السط) ترجم معناه في العرسه كتاب فلاحه الأرض وإصلاح
الرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها ، وكان هؤلاء الكسديون أشدّ عبّرة عليها ، لثلا
يظهر هذا الكتاب ، فكانوا يحفونه بمجهودهم ، وكان الله عز وجل قد رزق المعرفة لهم
ولسانهم ، فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه . وكان هذا الكتاب عند رجل

متميز، فأخى عنى علمه، فلما اطلعت عليه لُنته و إحماء الكتاب عني، وقلت له : إنك إن أحييت هذا العلم دُرِّره صبي ولا يبقى لأسلافك ذكر، وما يصنع الانسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهي عنده بمنزلة المحار والمدر، فصَدَّقني ذلك وأخرج إلى الكتب، فحملت أقل كتابا بعد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفه أسرار الملك والأحكام على حوادث الحجوم، وهو كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب العلاج هذا بتمامه» الخ... (٢) كتاب طرد الشياطين، ويعرف بالأسرار (٣) كتاب السحر الكبير (٤) كتاب السحر الصغير (٥) كتاب دوار على مذهب السط (٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الأصنام (٧) كتاب الإشارة في السحر (٨) كتاب أسرار الكواكب (٩) كتاب العلاج الصغير (١٠) كتاب في الطلسمات (١١) كتاب الحياة والموت في علاج الأمراض (١٢) كتاب الأصنام (١٣) كتاب القرائن (١٤) كتاب الطبيعة (١٥) كتاب الأسماء، وأكثرها من نقل آس وحشيه، غير ما لا بد من نقله من كتب الدين وأخبار الكلدان القدماء .



خامسا - الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نُقل إلى العربية، وإن كنا لا نرى شيئا منها مدقوا على أنه مترجم، لأنهم كانوا يقولونها شفاهة للصحابة وغيرهم على ما تقدم، وربما دقوا بها شيئا وصاع، وأما ما وصل إلينا حبره من المنقول عن العبرانية، فترجمه أسفار التوراة، قلها سعيد الصوي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ، وهو أقدم من نقل التوراة إلى العربية، مما وصل إلينا حبره، وله أيضا شروح وتفسير عليها .

ولا سعد أب يكون قد نُقل إلى العربية بعض الكتب عن اللاتينية، لأنها كانت تحوى كثيرا من العلوم الفلسفية والتاريخية والسرعة وغيرها، وربما فات نقلة الأحبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن الطريق لا يعرف عبر اللغة اللاتينية، وأنه ترجم مدة كتب، فاعلم أنه ترجمها عن اللاتينية .

وأما القبطية فإذا لم يقل العرب عنها رأساً - فلا شك في أنهم نقلوا كثيرا من علوم المصريين بواسطة اللغة اليونانية، وخصوصا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون، وأما الكيمياء فقد نقلت من القبطي - واليوناني - معا بأمر خالد بن يزيد .

(د) آثار النهضة المأمونية :

هذه هي بعض كتب العصر وكانت لها آثارها ونتائجها في العقلية العربية أولا، وفي المدينة العربية ثانيا، حتى أصبحنا نرى المأمون يُصرّب به المثل في عظم الحركة العلمية، وحتى يرى «ولدكا» ومحرمي دائرة المعارف البريطانية وغيرهم، يمثلون المأمون بأوشروان وغيره من حُدَمَة الإنسانية ورُسُل الثقافة العاتقة .

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقنمين عن زمنهما ، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية وذلك الحس . أرى بجراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا . ويقول الدكتور «طوطح» في رسالته الانجليزية عن حالة التعليم عند العرب : «إياه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكأ على مطالعته رسائله مع أتباعه في مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقصيتها هناك في بغداد» . ويقول في مكان آخر من رسالته القيمة : «إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة الى بلاد اليونان ليقبل حكمة اليونان وعلوم اليونان الى اللغة العربية» . وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية، وهي لا تحرج عما قدّمناه لك من رأى السير ويليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف في عصر المأمون . مكتفى بما قدّمناه عن التبسط في القول في هذه الناحية الهامة حقا .

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضا في زيادة الثروة اللفظية في اللغة العربية، وقد بينا لك طرفا منه في كتابنا عن حالتها في الصدر العاصي ، فلا حاجة إذا بنا الى تكراره هنا، وقصارى ما نقوله أنا نحبك الى بعض المصادر القيمة فيا نحن في صددنا من بيان تأثير اللغة بهذه النهضة التي تشه في كل وجوها حركة التجديد «ريفاينس» في أوروبا، وهي : كتاب خطي - منسوب لمجاظف عن الألفاظ الفارسية في اللغة العربية، وبحوث العلامة

أدستانس الكرمل- البندادى في السمة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية في اللغة العربية ، كما أحيلك الى بحوث « مجلة المجمع العلمى » في شأن تفسير الألفاظ العاسية الواردة في تلك « نشوار المحاصرة » .

أما في التاريخ والجغرافيا ، فلم تبدأ العاية الحديثة بهما إلا منذ أيام الحقوى ، و ابن خرداذية في نهاية القرن الثانى .

وأما العلوم القرائية وما تفرع عنها ، فقد سبق أن أشرنا إليها في بابها من العصر العاسى . و يظهر أن عاية المأمون بها لم تكن مثل عايته بالفلسفة اليونانية ، وما إليها ، اللهم اذا كانت موجهة الى اللاحية الاعتزالية الكلامية .

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لانصاله وكبير أثره في الحياة العلمية والعقلية في عصر المأمون .

(هـ) القول بخلق القرآن :

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك : إن الخعد بن درهم قد أظهر مقائله بخلق القرآن أيام هشام ، فأحذه وأرسله الى خالد القسرى ، وهو أمير العراق ، وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله ، فلع الخمر هشام فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس في وثاقه ، فلما صلب العيد يوم الأحمى ، قال في آخر خطبته : إنصرفوا وضحوا يقبل الله مسكم ، فإني أريد أن أحمى اليوم بالخعد بن درهم ، فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتحد إبراهيم خليله ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ، ثم نزل وذبجه . و يقول ابن الأثير في حياه مروان بن محمد : إن سبب تسميته بالجهدى ، دها به مذهب الخعد بن درهم في القول بخلق القرآن ، والقدر ، وغير ذلك .

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن ، بدعه ننت في العصر الأموى ، ثم لم نخد الحق الذى تموفيه وترعرع ، حتى كان عصر المأمون فوحدت من شخصيته العالمه ومن هؤلاء العظيم ونفوذ علمائه ، خرمتمهد لثانها ، حريص على نصرتها ، شديد اليد بالبطش على مخالفيها .

(١) أطر القاموس وشرحه في مادة « درهم » فانه صبطه بالياء المشاة بعد النال المسبعة وبعد الياء ها .

ولعلك تسأل لم وجد القول بحلق القرآن من المأمون الصدر الرحب والعامل على نصرته، وهل كان موقفاً فيما أحده على عاتقه أو قد اشتد به العلو في تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد ؟ .

ونحن قل أن يُحكى عن هذه الأسئلة، وقبل أن نعرض للوصوع من وجهاته المحتملة، يريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» في هذا الصدد، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظري في هذا المحث، تبين لنا وجهة نظر مُتَشَرِّقٍ كبريما عن بصلده .

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه المتع «الخلافة» :
 «وحي الحق أن المأمون كان متمسكاً لعارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل إلى العلويين، ونشأ عن ذلك في السوات الأخيرة من حكمه، مَنَيجٌ من حرية الأفكار والتعصب .
 وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحزبية حقاً لدرجه مذهبه . وقد ألقى من صمم سوات مصت، الامر الذي كان أسلافه قد أصدروه، يحزمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بحير، وأماح للسيحيين حرية المناقشة في أى الدين أفضل : الإسلام أم المسيحية .
 غير أن ميوله العارسية التي كان يسمح اليها دائماً، دفعته أحياناً أن يناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير . ثم أحاط المأمون بهه بالمفتاه وعلماء الدين من كل فئة ، وأماح لهم المناقشة في حصرته في نظريات كان الحث مموها فيها ، كعلاقة الانسان بحالقه ، وطبيعته الألوهية وغير ذلك . وأحياناً أعلن تحوله الى عقائد تحالف تعاليم الدين الصحيحة، من ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالخبر، وأن القرآن وإن كان وحياً إلا أنه مخلوق ، بدلا من العقيدة التي كانت لا تُنَازَع ^(١) وهي أن القرآن أنزل

(١) يقول أستاذنا الشيخ عده الوهاب الحار « ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف ولكن القول بحلق القرآن جاء نكراً لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا لتابعي قول يابوه أو يوافقه لها أعزم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء فلما رأوا إلى كتاب الله يطرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها لم يحدوا . فطروا إلى السنة فلم يحدوا . والقوم في ذلك المهد يردون كل شيء إلى الكتاب والسنة . فلما لم يحدوا جميعاً حكوا تفرعوا في هذا القول احتياطاً منهم أن يقولوا على الله ما لا يطعون . فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقدوا أنهم يرمون بهذا الاعتقاد أن مع الله قديماً سواء وأنه يوجد موحود ولا أثر لله في إيمانهم وخل في إيمانهم وتناولهم بالحسن والإيمان . »

غير مخلوق . وأطن المأمون أيضا أن عليا أشرف الخلق بعد النبي ، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزعامه الدينية التي كانت تتنقل من عضو الى آخر من بيت علي . وبدأ في تلقين الناس أنه يوحد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين ، وفسّر القرآن تفسيراً من غير تقييد لمعطه ، وبذلك دُلّت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو توقف عثره في تقدم العمران ، كما ماحة شرب الخمر (كذا !) وزواج المتعة ^(١) . وعلى مَرَّ السنين تحولت فكره المأمون في حل القرآن من محذور رأى الى إعلايه المشعوم الذي حَمَلَ فيه رعاياه بالاصطهاد والمقومات على اتخاذه عقيدة لهم . وقد أرسل الى وإلى بغداد ، وهو في حملته الأخيرة على الروم ، أمرا بأن يجمع كبار العلماء والعقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة ويرسل اليه إجابهم ، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحاكمة التعتيس ، حتى أظهروا القول بحل القرآن ، إلا أن البعض بقي ثابتا على عميده . بأن القرآن غير مخلوق ، كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبل ، الذي حملوه مبعلا بالحديد الى معسكر الخليفة . ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُذِمَا بالقتل ، وأُرْسِلَ عضرون منهم تحت حِمَارِهِ حُرَّاسَ لِيَتَطَرَّوْا في "طَرَسُوس" عوده الخليفة من حروبه ، ولكن جاءتهم الأناء في أثناء سبهم في الطريق بموت المأمون . ولقد سُوِّدَت أمثال هذه المظالم تُسمَّع المأمون في سنوات كثيرة « اه .

ذلك هو رأى المتشوق « ميور » . وليرجع الآن الى معالجه الإحالة عما نساءلت عنه ، فنقول : إنك جد عالم بأن المأمون كان تلميذا يحيى بن المارك الرندي المتهم بالاعتزال . جد عالم بصلته بجماعة بن أنرس ، زعيم المذهب الثماني في الاعتزال ، وإعجابه به . حتى عرض

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحار : « قد رجح المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحد من دواة الحجة عليه في ذلك بما ملخصه . أن روعة المتعة ليست الروحة التي يجب عقبتها ورثت وريثت نسب الولد بها ، شأن الروحة الشرعية هي ليست روعة وليست ملك عين واقع تعالى يقول (والذين هم لزوجهم حاطون إلا لعل أرواحهم أو ما ملكت أيامهم فاهم غير ملومين من أنى وراء ذلك فأولئك هم العادون) هي بما وراء ذلك ويكون رواج المتعة روا — وبما أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة الزاهية » .

عليه الوزارة مرتين، كما أسلمنا لك القول في باب الوزارة . حُدِّ عالم بأن المأمون كان يعتقد مجالس للكلام في مختلف البحوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قُرِبَ إليه كل متكلم حافظ، أو مُعَكَّر بصير بمداحل القول وعارجه ، مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم ابن سيار وغيرهم . وأنت حُدِّ عالم بأن ثَمَامَةَ والعلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال . أنت حُدِّ عالم بهذا كله، فلا عرو أن حُبَّ هؤلاء القوم الى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معدة، لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التأييد المتأثر بمذهب أستاذه آس المبارك .

كل هذه العوامل كانت في الواقع ماحية واحدة، ولما أثرا القوى في تنمية البرعة، الاعتزاليه في مس المأمون . بيد أن هنالك ماحية قوية أخرى لها أثرا القوى أيضا، تلك الماحية هي حركة العقل والترجمة، تلك الحركة التي حبت الى المأمون الفلسفة وما الى الفلسفة، ووجهت عنايته الى المطلق وما الى المنطق، وبعثت في نفسه حبَّ أرسططاليس، حتى أصبح موضع تفكيره في يقظته ويومه . وصعوه القول أن الماحية الثانية لم تكن لتقلَّ عن الأولى أثرا، فقد هيات معه ذلك التسامح الذي ينبع ما توحى به سلسلة أفكاره .

وسترى في أحده ما قول بحلق القرآن الى أي مَسْدَى دعت به حرية التفكير حتى وصلت به الى ما يناقص حرية التفكير، لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء وحلّة الفقهاء الأحاد بمذهبه . وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت اليها مأساه القول بحلق القرآن . في أيام المعتصم وأمام غير المعتصم . وقد أشتنا لك في باب المنشور في الكتاب الثالث من مجلدا الثالث مثلا مما كتبه المأمون الى ولاته في الأحاد بمذهبه في القول بحلق القرآن، وهو كتابه الى اصحاق بن إبراهيم؛ كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذ . فراجعهما تَمَّة .

افضل الرابع

الحياة الأدبية في عصر المأمون

توطئة : المحادة أو لغة الصالح ، الخطابة ، النخبة ، محاسن المظاهرة وأنها الأدب ، الشعر .

(١) توطئة :

لكتاب الخلافة «للسيروليام ميور» ، مكانة رفيعة في التاريخ العربي ، ولا سيما عصر المأمون ، ساجيته العلمية والأدبية . ذلك لأن الرجل ، إلى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب ومجوت المؤرخين العرب ، لم يترك مصدرا من مصادر المشرقين أمثال : «بولدكه» و«كريم» و«هرزلد» و«أمر» و«برياد» و«مبارد» و«جوج» وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه . كذلك لم يترك مصدرا من مصادر التاريخ الفارسي ، وهو كما نعلم ، شديد الصلة بعصر المأمون ، من غير أن يدرسه حتى دراسته ويهيمه حق فهمه ، فطالع فيما طالع في ذلك الباب ، آثار «ماكولم» و«فرار» و«برون» و«سيكس» و«جوجيس» وغيرهم .

من أجل هذا ومن أحد ذلك المؤرخ البعثة بالدقة في كل ما تصدر له ، جاءت حل محوته أفضل من سواء وأرض مكانة من غيره . ونحن نستطيع لأنفسنا أن نقل اليك ما ذكره في هذا الباب . قال : «كان حكم المأمون مجيدا عادلا ، وكان عصره مزدهرا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة ، وكان أدبيا مولعا بالشعر متمكنا منه . ولقد حدث مرة أن شاعرا كان يشد بين يديه قصيدته من مائة بيت ، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر ، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديته . وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، إذ كان يقربهم إليه ويجزل لهم العطاء ، وكان عصره عامرا بالعلماء والأدباء والباحثين ، فإنه كان كذلك حافلا بمجاعة المهذنين والمؤرخين والعقهاء

(١)
 كالحارثي ، والواقدي ، الذي نحن مديسون له بأوثق السَّير عن حياة النبي ، والشافعي
 وابن حنبل . وكان المأمون يُحِبُّ علماء اليهود والنصارى ، ويَحْتَجِّي بهم في مجلسه ، لا لعلمهم
 بحسب ، بل لثقافتهم في لغة العرب وحديثهم في معرفته لغة اليونان وآدابها . ولقد أخرجوا
 من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين ، كتباً حطية في الفلسفة
 والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم ، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية
 عظيمة . وبهذه الوسيلة انتقلت علوم العرب إلى العالم الإسلامي . ولم تقتصر جهود هؤلاء
 الجهادية على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية ، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه
 من مباحثهم واطلاعاتهم . وأقاموا مرصداً في «سبل تدمر» مُعْهِراً بجميع الآلات التي تمكنهم
 من السباح في دراسة علمي الطلوك والهندسة والتوسُّع فيهما . وقد صنفوا كتباً في الرحلات
 والتاريخ ، ولا سيما كتب الطب ، وعُيِّنوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهه ، إلا أنها كانت
 أكثر ديوماً وانتشاراً ، كالنجوم والكيمياء . وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة
 أوروبا التي كانت عارقه في بحار الجهالة في العصور الوسطى ، حيث أيقظتهم من غفلتهم
 وأمازت لهم سبل علومهم التي كانوا أعفلوها ، وهي علوم اليونان وفلسفتها » اهـ .

ويقول الأستاذ الجليل «كرد علي» في بحث طريف له . إن عصر المأمون قد ازدان
 بكثير من حملة الشريعة والأدب ، منهم : يحيى بن أكثم ، وأبو محمد البريدي ، والحسن
 ابن زياد ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وابن الأعرابي ، والنضر
 ابن شميل ، وأبو عمرو الشيباني ، ومحمد بن عمر الواقدي ، وأبو عبيدة ، والغزالي ، والأخفش ،
 والأصمعي ، والصغاني ، والصبي ، والشافعي ، وابن سعد ، وأبو داود ، وابن أبي دؤاد ،
 وابن حرب ، وابن حنبل ، والجاحظ ، والقواريري ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ، وابن
 الجعد ، وابن عُلَية الأكبر ، وأبو نصر التمار ، وأبو مَعْمَر القطيعي ، وأبو العوام البزاز ،
 وابن شجاع ، وبشر المريسي ، وبشر بن الوليد ، ومحمَّد ، ومحمد بن بوح ، وأبو هارون

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب الحارثي : « لم يكن للتأني اتصال بالمأمون » .

ابن البكاء، والمهذبل محمد بن المهذبل، وأبو زكريا المُرِّي ومحمد بن مبشر، إلى مئات صيرهم، كانوا غرّ الدولة وصوّان نبوغ الأمة. أما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عايلة، كثيرة العدد كالخصى، جيّدة المتحنّي والأسلوب، ضلّ الرقّة والجراثة على أهل هاتين الصاعتين. تأثروا كلهم بالحضارة الحديدية، حتى غدا الشعر المدني البديع طاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي، بعيدا عن وصف الأطلال والدمن والركاب، وطلب الثار، والمفانرات الفارعة. هذا، وكان الجمهور يُشارك الأداء في فهم الشعر، وقدّر الخطيب والرسائل قدرها، فلم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب، إذا قرّض شعرا أو حبر خطابا، يُناقله الأيدي في الحال، وتُتوارره الرواة فيفسو في الأمصار. وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب وشعر الشاعر وخطبة الخطيب، ويحتّ على تهويد مقاله. ١٥

ومعد، فقد بينّا في كلمتنا عن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسي ما أحدث تحوّل إليه الآداب العربية عامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأعراض، وبينّا لك الأسباب التي كانت تبتّ على هذا التحوّل، من شدة الامتزاج بين العاصر المختلفة التي حصعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إصابة ثقافات ومدنيات جديدة، إلى ما كان للعرب من ثقافة ومدنية، ومن اتساع السلطان، وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف هم أولى العصل إلى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيناه لك، أن تفرج جوانبها، لتسع هذه الأعراض، ولتقوم بحاجات الناس، طبقا لمقتضيات العصر، وخصوصا لسنة التحوّل.

بينّا لك كلّ هذا. وقد يكون من التمسيف أن نعريض لتحوّل الآداب في أيام المأمون خاصة؛ فانه إذا افترضنا أن الآداب تحوّلت تحولا خاصا في أيام المأمون، فقد يكون من العسير تبين هذا التحوّل وتحديد مداه، ذلك بأن محوّل الآداب على، ولا يمكن

تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهوراً لا سبيل إلى الشك فيه ، بخلاف الحوادث السياسية ، فانك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالنسبة إلى الشهر بل باليوم ، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين .

إذا رأينا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي . وإما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت عايتها في أيام المأمون ، فعصر المأمون إذاً هو النثرة الناصحة لتغيير الآداب في العصر العباسي ، أو صاره أخرى . يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقذور لها .

وسنبينا الآن أن يورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلاً على هذه النتيجة . وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية .

(ب) المحادثة أو لغة التخاطب :

بدأت لغة التخاطب تتحدّر مدارحةً عن المصحى مسد الفتوح الإسلامية ، بسبب اتصال العرب بغير العرب ، ثمّ دان لسلطانهم وانتظم في ملكهم .

ولقد لاحظنا أثناء مطالعنا في الطبري وفي غير الطبري في العترة المأمونية ، أن بعض جُدد نُرسان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلاً (يُسرّ زيدَه) (ومكّي) وغيرها من الألفاظ الفارسية التي أثمنتها المؤرّحون .

وقد يكون من المنع حقاً أن يُخصّص باحث من لهم اطلاع على لغات البلدان التي فتحها العرب مكاناً لدراسة مبلغ تأثير اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأجزاء المختلفة . ونُصارى ما نقرّه هنا أن اللغة العربية تأثرت حقاً من أثر الفتوح سواء أكانت فتوح سيف أم فتوح ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان ومثانة اللفظ بقدر ما أعنت من ثروة ذهنية عظيمة .

ولك اذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة في ذلك العصر، وذكرت أن الموالى الفرس وغيرهم، هم الذين قد عُهد اليهم بالترجمة والنقل والتحرير، اذا ذكرت هذا، الى جانب ما قدمناه لك، فانك تسوق معنا ما نذهب اليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولنتدرج الى ذكر كلمة عن الخطابة.

(ج) الخطابة :

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرة الباسقة للاداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضا ؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع الى قوة عوامله وأسبابه . ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابه لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها، كانت ضعيفة ضعفا نسبيا، ومن ثم لم تُماش الخطابة سائر أنواع الآداب في سبيلها الى الكمال المقدور لها. ولعل ذلك يرجع الى صيق مجالها وضعف الحاجة اليها، فبعد أن تكاثرت زواها في العصر الأموي، الوسيلة الى قمع العتس ورد البدع، ولسان الخليفة في رعيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن تكاثرت خطبها في عصر الاستقلال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي، لحاجة الدعاية والزعامة اليها، أصبحنا نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تُقتصر على التهنئة والتمزية والخطب الدينية كالجمعة والعيد . وصيقت مجالها يرجع الى استثناء الخلفاء العباسيين وعُثمالم وقوادهم عنها بالمشورات العامة، حيث يتسلطون فيها ويضمونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يُراد أن تُتلى عليهم. ولعل ذلك لاصطباع الخلافة العباسية بالصيغة الفارسية، واحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جُل عُثمالي بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالى وهؤلاء وإن أُوتوا

حطاً عظيماً من بلاعة القول وحسب البيان ، فقد كانت لا تزال بالسببهم لؤنة من العجمة ، تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفعها .

لعل لكل هذا أو بعضه أثر ما في تضيق حال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمندشورات العامة . ومهما يكن من شيء ، فقد أُلقيت في عصر المأمون خطبة قليلة القدر والقيمة ، نشر لك منها على سبيل المثال خطبتين . إحداهما للمأمون في عيد الفطر ، والأخرى تهته بمقدم المأمون الى بغداد .

خطبة المأمون :

ألا وإن يومكم هدايوم عيد وسه وآتاهل ورعبة ، يوم حتم به الله صيام شهر رمضان ، وافتتح به فتح بيته الحرام ، فجعله أول أيام شهور الحج ، وجعله ممكناً لمفروض صيامكم ومتمكلاً لقيامكم ، فاطلبوا الى الله حوائجكم واستغفروه لتغريطكم ، فانه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار ، ولا قليل مع تباد وإصرار . اتقوا الله عباد الله ، وادبروا الأمر الذي لم يحضر الشك فيه أحدا منكم ، وهو الموت المكتوب عليكم ، فانه لا يستقال بعده شرة ، ولا تحطرق قبله توبة . واعلموا أنه لا شيء بعده الا فوقه ، ولا يبعث على جرحه وطّره وكربه ، وعلى القصر وظلمته ، ووحشته وضيقه ، وهول مطلعه ومسألة ملكه ، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به ، فمن زلت عند الموت قدمه ، فقد ظهرت مدامته وهاتته استغاثته ، ودعا من الرجعة مالا يُحاث اليه ، وبذل من الفدية مالا يُقبل منه ، فآله الله عباد الله ، كونوا قوما سالوا الرجعة فأعطوها إذ مُيعها الذين طلبوها ، فانه ليس ينجى المتقدمون قبلكم ، إلا هذا الأجل الميسوط لكم . فاحذروا ما حذركم الله منه ، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر محفكم الحافظة لأعمالكم . فليظن عبداً ما يضع في ميزانه مما يتقبل به ، ومما يُبلى في صحيفته الحافظة لما عليه . ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فان كل ما بها يُحذر منها وينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو الى عبرها . وأعظم ما رآته أعيكم من بئامها وزوالها ذم الله لها والنهي عنها ، فانه يقول تبارك

وتعالى : ﴿ فَلَا تَقْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرُقُكُمْ بِاللَّهِ الْعَرْشُ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَمِزٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ . فانتفعوا بمعرفتهم بها وبإخبار الله عنها . واعلموا أن قوما من عباد الله ، أدركتهم عصمة الله ، لحِدروا بمصارِعها ، وحانبوا حداثِها وآثروا طاعة الله فيها وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

خطبة التهيئة :

قال أبو طاهر : دخل المأمون سداد فلقاه وحوهاها ، فقال له رجل منهم : يا أمير المؤمنين ، بارك الله لك في مَقْدَمك ، وزاد في نعمتك ، وشكرك عى رِعيتك ، تقدّمت من قَبْلُكَ ، وأتمت من سَدِّكَ ، وأياست أن يُعَايَنَ مثلك ، أما فيما معنى فلا نعرفه ، وأما فيما يبقى فلا نرجوه ، محس حبيما ندعو لك ونُلْغِي عليك . خَصَبَ لنا حائِك ، وعدب ثوابِك ، وحسنت نظرك ، وكُرمَت مقدُرك ، حبرتَ الفقير ، وفككتَ الأسير ، والخير ضائك ، والشرُّ بساحة أعدائك ، والصبرُ مَوْطٌ بلوائِك ، والخِذلانُ مع أَلْيَةِ حُسّادِك ، والبرُّ مِلك ، قد طَحَطَحَ عدوك غصنك ، وهزَمَ معايِبهم مشهدك ، وسارَى الناس عدلُك ، وشَسَعَ بالصر ذكُوك ، وسَكَنَ قِوَارِعَ الأعداء ظَفَرُك ، والذهب عَطَاؤُك ، والدواة رمزك ، والأوراق لحظك وأطرافك .



(د) الكتابة :

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي : إن أسبا ما كثيرة وقوية — ذكرها هاك — دفعت الكتابة فتمددت أغراضها ، وتنوعت أساليبها ، ومال الكتاب الى السهولة في العبارة ، والتأق في اللفظ ، والجودة في الرصف ، وأطالوا في المقدمات ، وتوعوا المبدأ وانختم ، والألقاب والدعاء ، ومالوا الى الغلو والمبالغة . ثم قلنا بعد كلام : أما الإطباب في الكتابة فكان صفة غالبية في كل ما شَمِلَ بَيْعَة ، أو عهدا ، أو احتجاجا ، أو انتصارا ، أو تقريرا لمذهب ، أو استهواء أو دفعا لشبهة ، أو طلبا لعملة ... الخ . وقد أثننا لك بجملة صالحة

من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبنا إليه . ونحيلك الى رسالة أبي الريح محمد بن الليث ، الى قسطنطين ملك الروم ، والى رساله يحيى بن زياد الحارثي في تقرير أمير المؤمنين الرشيد ؛ وقد أثبتناهما لك — نقلا عن النسخة الخطية من كتاب المنظوم والمنثور لابن طيفور — في باب المنشور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني ، كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قيصة للمأمون تسمى رسالة الخميس ، كان سببها الى أهل نجران كمشور من الخليفة . ورسالة ممتعة لسهل بن هارون حازن بيت الحكمة في عهده ، فراجع ذلك ثمة .

ولو قد ذهبنا يورد لك من آثار عصر المأمون الكتابية لعدونا القصد وأملنا ، حسبنا ما أحطناك الى مراجعته الآن ، وهو فيه الكفاية لاثبات ما ذهبنا إليه . وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن تعرض لها تحليل أو بيان . فهي في وصوحها ودلالاتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .



(هـ) مجالس المناظرة و"أبهاء" الأدب والفناء والمنادمة :

أما مجالس المناظرة ومكاتها السامية في العصر المأموني ، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه ، وأدبه ، ودينه ، وسياسته . من مائة القول وتكراره أن نقلها لك هنا . وقصارانا أن نقول : إن المناقشات الحادة بين سيبويه واليكساني في شأن مسألة نحوية ، وبين الشعراء والأدباء في تمصيل شاعر على شاعر ، وبين السنين والمعتلة في القول بحلق القرآن ، وأبهاء الأدب عند الأئمة والمأمون وأنصارهما ، وأسماء العرب كابى دلف وعبد الله بن طاهر وغيرهما ، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة ، حتى أصبحت من أهم مميزات وكبريات آثاره .

وأما المنادامة والفناء ، فقد سبق أن قلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادامة في العصر العباسي . وقد آن لنا أن نتم لك القول في حالتها في العصر المأموني ،

ونحملك في الوقت نفسه الى كتاب حَلَبَةُ الكَيْت، والأعاني، ونهاية الأرب، وغيرها من كتب الأدب، فهي مُترعة بأخبار العناء والمداومة، غنية بأحبار الماديين والمفسرين .

سئل إسماعيل بن إبراهيم الموصلى عن رأيه في حال المداومة في تلك الأيام ، فقال عن الأيمن: ما كان أعجب أمره كله ، فأما تبدُّله ما كان يُبلى أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب حرقها كلها وألقاها من وجهه ، حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى انطلق لدمعٍ ووصية ، وأهبطهم للأموال إذا طَرب أو نَسا . وقد رأيته وقد أمر لمص أهل بيته في ليلة يوقر زُورَى ذهاباً فاصرف به ، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامي . ولقد عناه إبراهيم بن المهدي عناه لم أرتضه ، فقام من مجلسه فأكب عليه فقبل رأسه ، فقام إبراهيم فقتل ما وطئت رحلاه من بساطه فأمر له بمائتي ألف دينار . ولقد رأيته يوماً وعلى رأسه بعض غلمايه فطرا إليه ، فقال ويلك ! ثيابك هذه تحتاج الى أن تُغسل ، إنطلق نحد ثلاثين بدره فاغسل بها ثيابك .

ولقد حدثني علوية الأعسر ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف عنه قال . لما أُحيط به ولفقت حجارة المتجيق بساطه ، كذا عده ، ففتته حارية له عناء تركت فيه شيئاً لم يُحَدِّث حكايته ، فصاح : يارانية ، تُقَيِّني الخطأ ! حدوها لحملت ، وكان آخر العهد بها .

وسئل عن حال المداومة عند المأمون ، فقال : أقام بعد قدومه عشرين شهراً ، لم يسمع حرفاً من الفناء ، ثم سَمِعَهُ من وراء حجاب متشبهاً بالرشيد ، فكان كذلك سبع حجج ، ثم طهر للندماء والمفتنين . قال : وكان حين أحت السماع ظاهراً عييه ، أكبر ذاك أهل بيته وبنو أبيه .

ويقال إنه سأل عن إسماعيل بن إبراهيم الموصل ، فغمره بعض من حصر وقالوا : ما بغادر تيباً وبأوا ، فأمسك عن ذكره . قال بهاء زُرْزُر يوماً ، فقال له : يا إسماعيل نحن اليوم عند أمير المؤمنين ، فقال إسماعيل : فتته بهذا الشعر :

يَا سَرَحَةَ الْمَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ * أَمَّا إِلَيْكَ طَرِيقُ غَيْرِ مَسْدُودٍ
لِحَائِمٍ حَامٍ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ * مُحَلَّلٍ عَنِ سَبِيلِ الْمَاءِ مَطْرُودٍ

فلما عناه به زُرْزُرُ أطربه و بهمه ، وحرك له جوارحه ؛ وقال : ويلك ! من هذا ؟ قال :
عندك المحموق المَطْرَح . ياسيدى إسمحاق ! قال يحصر الساعة ! بجاءه رسوله ، وإسمحاق مستعِد ،
قد علم أنه إن سمع الماء من مُجِيدٍ مُؤَدٍّ أنه سيبعث إليه ، بجاءه الرسول ، وحدثت أنه لما دخل
عليه ، ودأ منه ، مَدَّ يده إليه ، ثم قال : اذْنُ مَيِّ مَأْكَتٍ عليه ، واحتضنه المأمون وأدباه ،
وأقبل عليه بوجهه مُضِعِياً إليه ، مسروراً به .

وحسبنا هذا القدر . وإن أردت زيادة وإفاضة فانا نُحْيِيكَ الى بعض أخبارها في الجزء
السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع .



(و) الشعر :

أشرنا في كلمتنا عن حالة الشعر ومونه في صدر العصر العباسي ، الى ما أخذ يحصل هو
اليه أيضاً ، تما لمقتضيات العصر وطروف الزمان ، ومسايرةً للحياة الاجتماعية والاقتصادية ،
ولمّا حدّ على أحوال الناس ومعايشهم من العنى والتّرف ، وما يستلزمه العنى والتّرف من
الاستمتاع بألوان اللهو واللذات ، والافتنان في ساء القصور والسمن وإنشاء الحدائق
والمنتزهات . ولقد كان في مرحوتنا أن نقرّد لك فصلاً خاصاً نصمّمه ما كان من الحلفاء
في إقامة مباه وقصور وحدائق ودُور ، لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقة عهد ، وإنما
ألباتهم اليها المدنية والبذخ ، وما أصابوه فيها من رقاعة عيش ، وسعة يد ، ووفرة عنى .
سيد أن ذلك يطول ، ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القصد والإيجاز ، مع الإلمام
بكافة الواجبات لهذا العصر .

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأمراء البيت المالِك ورحلات الدولة من الثروة والبَذخ، بما أومأنا إليه في كلمتنا عن نراج الدولة، وما كان فيها من استصعافٍ وأعطيات عظيمة .

وقد كانت أيضا الحياة السياسية والعسكرية حادة عيعة، فقد اشتدت المُلحاحَةُ بين شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ النزاع غايته بين أصحاب المذاهب وزعماء الآراء، ولا تنس أن تضيف إلى ما تقدم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار .

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر، إلى حد ما، مرآة صادقة لأحواله وما كان يجرى فيه من شؤون .

أسرف الناس في شرب الخمر فاقن الشعراء في وصف الخمر ووصف كؤوسها . وتغيرت لباس السفاة من الغلمان ومن في زِيّ الغلمان، فوصف الشعراء السفاة وتغزلوا في الغلمان . وولع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجرى في مجال الصيد . وأقن الناس كما قلنا في بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعا لخيال الشعراء في شتى الأبواب . واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق يتنصّحون من رأيهم ويؤيدون مذهبهم . وألّف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء بما لحقون نظم الفقه والأخلاق والكلام . وهكذا تعددت أغراض الشعر وتنوعت ألوانه . وتخصّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، فرقت طبائعهم، ولات أخلاقهم، ونبت عن الحوشية أدواقهم، فرق شعر أهل الحواضر، وسليست ألفاظه، وتعدت من الحوشية . وترجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية، من فلسفة ومسطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها في تغليم أفكار الشعراء ودقة خيالهم .

ولو ذهبنا نورد لك شواهد على كل هذا وغيره، لأطلنا وأملنا . وإنما نحملك على آثار شعراء هذا العصر، كأبي نوّاس في الخمر وكؤوسها، وأوقات شرايها وسفقاتها، والغزل

بالغلمان، والصيد، والطرْد، ووصف مظاهر الحَصَّارة العباسية. وكَيْعِيل الخَزَاعِيّ والسيد الحِمْيَرِيّ في التّراع السّياسي بين العلويين والعباسيين . وكأى العتّاهيّة في الأخلاق، وأنّ ابن عبد الحميد في نظم العلوم كالنّفقه وغيره . وهذه الإحالة لا تمعنا أن يورد لك أمثالا من آثار هذا العصر الشعرية .

وهي تعرض لنا ملاحظة نرى إيرادها حتّى عليا ، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شؤون الى حدّ ما .

نقول «الى حتّما» . ويدفعا الى هذا القول مُتَقَدِّمُ القويّ الذي تكوّن لنا من دراستنا لروح هذا العصر . ذلك أنّنا نرى كثيرا من شعراء الحاصرة المُحْدِث في هذا العصر وفي العصر الذي قبله ، يَحْمِلُونَ نتائج أفكارهم وما تحوّد به فرائضهم ، شعراء الجاهلية وأعراب البادية . ورى أيضا أن كبار الرّواة وأهل الأدب، يُشَدُّون الشعر الجيد لِحُدُثٍ، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابي، حتى اذا تبين لهم أنه لِحُدُثٍ أنكروه وأزوروا عنه .

هذا يدلّنا على أن جماعة قوية يُعْتَدُّ بها في هذا العصر، كانت تَمِيل الى إثارة الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد . واذا كان هذا حقا كان من الطّبيعي أن يعيش الشعراء من الباحية الشعرية في غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيبتهم في غير حاصرهم، لكن يَحْمِلُوا الرّوح العاليه وَيَطْفُرُوا برضا العلماء . وقد يكون هؤلاء العلماء والرّواة خطأ كبير في صرف أذهان الناس الى الشعر القديم .

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على القبيص كانت له منزلة رفيعة في النفوس .

لذلك نحن نميل الى القول بأن حير من يمثّل هذا العصر أولئك المحدثون الذين لم يتقيدوا بكاء الأطلال، والحين الى الرسوم، كأبي نواس وأضراب أبي نواس .

على أنه يحذر بنا أن يورد لك مثلي مما كانوا يتذوّقونه في هذا العصر من شعر المحدثين، وما قاله أبو دُلْف ناعيا منهمج التّعمر، صد إرادتنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شتى الأنحاء .

وقد نشرنا لك في باب المظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا المصركما نشرنا لك تلك القصيدة التي أنشدتها محمد بن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل ابراهيم بن المهدي حين طفر به ، فقال المأمون : لا ! والله أُنْتِ به بل أغفو عنه . واطرأ الى مطلع القصيدة ، ترالسفة اليونانية حاثمة فيه :

ألم تر أن الشيءَ للشيءِ علَّةٌ * يكون له كالأرثوذكس بالزَّيد

وكان للمأمون حارية تسمى عَرِيب ، كانت تعشق جعفر بن حامد ، وكان يتعشقها ، فلما وجدت من المأمون غفلةً ، وصعت على فراشها مثال رحام ، يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة . وكان جعفر بن حامد قد نزل الى حانب قصر المأمون . فصعدت الى السطح ونزلت في زَيْبِيل ، فلما قصي نَهْمَتَ منها قعدت في الزنيل فصعدت ورجعت الى مكانها . وطلبها المأمون فل أد ترجع الى فراشها فلم يجدها ، فعلم الى أين صارت . فقال أو موسى حاكيا لهذه القصة :

قائل الله عَرِيبًا * فعلت فعلًا عجيبًا

ركبت والليل داج * مركبا صعبا مهيبا

فارتقت متعبلا بالشجم أوامه قريبا

صبرت حتى اذا ما * أقصدت النوم الرقيا

تثلت بين حشايا * ها لكي لا يستريا

خلفا منها اذا نوى * دى لم يُلَفَّ بُجِيَا

ومصت يملها الخلو * و قصيّا وكثيّا

مُحَّةً لو حُرِّكت خفَّتْ عليها أن تدوما

فصدت الحب * فلقاها حييا

جذلا قد نال بالذ * نيا من الدنيا رغيّا

أيها الغلي الذي تسترحر عيناه القلوا

والذي يأكل بعضا * بعضه حسنا وطيبا

كنت ههنا لدائب * فلقد أطعمت ديبا
 وسكدا الشاة ادا لم * يك راعيها ليبا
 لا يبالى وبأ المر * عى اذا كان حصيا
 ولقد أصبح عدو * الله كَشَعَانًا حَرِيَا
 قد لعمري أظلم الحد * وقد شق الجيونا
 وحرث منه دموع * بلت الذقن الخضيبا

ومما يعتبر من المهج السياسي قصيده محشويه الشاعر في يحيى بن أكرم قاضى المأمون
 بالبصرة، إذ فيه أيضا هجو لآل العباس وحلافهم . قال :

أطلقني الدهر بعد إخراس * بمجاذبات أطلت وسوايس
 يا مؤس للدهر لا يزال كما * يرقع ناسا يحط من ناس
 لا أطعت أمة وحق لها * طول لعين وطول إتمام
 ترضى يحيى يكون ساقها * وليس يحيى لها بسواس
 قاض يرى الحد في الزاء ولا * يرى على من يلوط من ناس
 يحكم للأمرد الظريف على * مثل جويي ومثل عداس^(٢)
 فالحمد لله قد ذهب الوجود وقل الوفاء في الناس
 أميرنا جائر وقاضينا * يلوط والرأس شر ما راس
 لو قصد الرأس واستقام لقد * قام على المصد كل ممراس
 ما حسب الجور يتقوى على الناس أمير من آل عباس

وقد أثبتنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث مثالا آخر من
 المهج قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكرم ، فراجعه ثمة .

(١) الكشاح منح الكاف وبكسر : القبروث .

(٢) كذا في تاريخ معادوني ابن حلكان ح ٢ ص ٣٢٦ : « مثل حير ومثل عباس » .

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من واحة العصبية بين القبائل وهو الى حد ما يعتبر من الشعر السياسي . وهذا النوع مثل ما قاله مُسْلِم بن الوليد في هجاء قريش والافتحار بالانصار، ورد ابن قُتَيْبَة عليه . وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه، لصيق المقام من إirاده ها .

و في هذه القصة الآتية طَرَاة من الفِرَاسَة في العصر، آثرنا إثباتها لذلك وهي :

قال أبو السَّمَاء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر فتوجهنا الى مصر ، حتى اذا كنا بين الرَّمْلة ودمشق ، إذ نحن ماعرابي قد اعترض ، فاذا شيخٌ فيه بَقِيَّةٌ ، على بعير له أَوْرَقٌ ، فسَلَّم علينا فرددا عليه السلام ، قال أبو السَّمَاء : وأما وإسحاق بن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربيع ، ونحس نُسَائر الأمير ، وكنا يومئذ أَقْرَب من الأمير دَوَات ، وأجود منه كُتَا . قال : فجعل الأعرابي ينظرو وجوها ، قال : فقلت : يا شيخ ، قد ألححت في الطر ! أعرفت شيئا أم أنكته ؟ قال : لا والله ما عرفتم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراء فيكم ، ولكنى رحل حَس العِرَاسَة في اللاس جيد المعرفة بهم ، قال : فأشرت له الى إسحاق بن أبي ربيع ، فقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أرى كَتَبًا دَاهِي الكُتَابَة يَنْ . عليه وتاديبُ العراق مِيرُ
له حركاتٌ قد يشاهدن أنه * عَلِيمٌ بتقسيم الخراج بصِيرُ

ونظر الى إسحاق بن إبراهيم الرافقي فقال :

ومظهر نَسِك ما عليه صمِيرُ * يحبُّ الهدايا بالرجال مَكُورُ
أحل به جُبْنًا وبجلا وشِمَة * تحبُّ عنه إنه لوزير

ثم نظر الى وأنشأ يقول :

وهذا نديم للأمير ومؤنس * يكون له بالقرب منه سرورُ
وأحسبه للشعر والعلم راويًا * فبعض مديم مرةً وسَمِيرُ

ثم نظر الى الأمير وأنشا يقول :

وهذا الأمير المرتضى سبَّ كفه * فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبه * ووجه يدرك الجاح بشير
لقد عصم الاسلام منه بذائد * به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبدُ الله بن طاهر * لنا والدُ برِّ بنا وأمير

قال : موقع ذلك من عداقه أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بحماسة
دينار وأمره أن يصحبه .

هذا ، وقد حثَّ معهم قال : احتج أصحاب المأمون عده يوما ، فأقاصوا في ذكر
الشعر والشعراء ، فقال بعضهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مُسلم بن الوليد حيث يقول ،
قال : ماذا قال ؟ قال : حيث يقول ورثي رجلا :

أرادوا ليُحموا قبره عن عدوه * فطُيبُ ترابِ القبرِ دلى على القبر
وهجا رجلا بقبح الوجه والأخلاق فقال :
قُبُحَتْ مَاطِرُهُ حينَ حَبْرته * حُسْنَتْ مَاطِرُهُ اقْبَحَ المحبر
ومدح رجلا بالشجاعة فقال :

يُجود بالنفس إن صَنَّ الجوادُ بها * والجود بالنفس أَقْصَى غايةِ الجود
وتغزل فقال :

هوى يَمْدَحُ وحيبٌ يَلْبُسُ ^(١) . أنت لقيَ بينهما مُعْدَبُ

ومما كان يستحسه المأمون من دُعيل الحزاعي هَماهِ المأمون المعروف قوله :

ألم يَأْنِ لِلسَّفَرِ الَّذِينَ تَحْمَلُوا * الى وطني قبل الممات رجوعُ
فقلتُ ولم أملك سِوَايَ عِبرة * طَلَقَ بما صُمَّتْ عليه ضلوعُ

تَيْنَ فَمَك دَارِ تَغْزَقَ شَمْلُهَا * وشمل شَتَيْتِ عاد وهو جميعُ
طَوَالَ اللَّيَالِ صَرَفُهنَّ كما ترى * لكل أَمَس جَسَدُهُ وَرَبِيعُ

وقد حدث ابن طيمور عن مشيخته أن مصورا الثمري، والحسن بن هاني، وأبا العتاهية
وأما زعبة احتنموا فذاكروا أبا ناس على وزن واحد، ففصل أبو العتاهية عليهم. فقال الثمري:

أَعْمِيْرُ كَيْفَ بِحَاجِيهِ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصَّحُورِ
لَهُ دَرَّ عُدَاتِكُمْ * كَيْفَ انْتَسَبَ إِلَى الْفُرُورِ
وَلَقَدْ تَيْتُ أَمَامِي .. يَحْيَى رُمَانِ السُّحُورِ

وقال أبو العتاهية :

لَهْفِي عَلَى الرِّمْسِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْخَوَرَقِيِّ وَالسَّيْدِي
إِدْنِي وَ عُرْفِ الْجَمَا * نَ نَعُومُ فِي بَحْرِ السُّرُورِ

وقال الحسن بن هاني .

وَعَظْمَتُكَ وَاعْظَمُ الْقَتِيرِ (٢) * وَعَظْمَتُكَ أَهْمَةُ الْكَبِيرِ
وَرَدَدْتُ مَا كَتَبْتَ أَسْتَعْرِ * تَ مِنْ الشَّابِّ إِلَى الْمَعِيرِ
وَلَقَدْ نَحَلْتُ مَقْوَاهُ السَّالِبِ (٣) مِنْ قَرَارِ الْقُصُورِ
صُورُ الْبِكِّ مَوْثِقَا * تَ الدَّلُّ فِي زَيْ الدُّكُورِ
أَرْهَقَ إِرْهَافَ الْأَعْمَشِ وَالْحَمَائِلِ وَالسُّبُورِ
أَصْدَاعُهُنَّ مَعْقَرَا * تَ الشَّوَارِبِ مِنْ عَيْرِ

قال المحدث : ولا أحفظ ما قال أبو زعبة ، ففصلوا أبا العتاهية ، وأبو نواس عدى
أشعرهم .

(١) كذا في تاريخ سداد، وعلق عليه ماثرة مائة في ديوانه « ابن رجب » .

(٢) القنير : الشيب .

(٣) المقوة : ساحة الدار .

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دلف قد قصر في أمره ، فبعث إليه من عزله
وقيده وحسنه ، فكتب الى أبي دلف من السجن كتابا تنطع فيه وقمر وطول ؛ فكتب
إليه أبو دلف :

يا صاحبَ الطويل في كُتُبِهِ * وصاحبَ التقصير في صِلِهِ
وراكِبَ الغامض من جهله * وتارك الوامع من عقله
لم يُحِطْ من ألزمه قيده * بل صير القيدَ الى أهله
قيدَه للحبسِ تقعيْرُهُ * فالفيد لن يخرج من رِجله
واقفه لا فارقه قيْدُهُ * أو يقطع التقعيْرَ من أصله

وإلى الختام نرى زائما في حقنا ، أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفا لثورة بغداد
وحريقها ، وكل رثائهم للأمين ونماذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف الماسى .
وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث ،
فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر في ذلك العصر ، فراجعهُ ثمة .

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

توطئة — جبرائيل بن مجتيشوع — الملاحظ — أمّان بن عبد الحميد اللاحق — أحمد بن يوسف الكاتب —

يحيى بن أئتم القاصي — اسحاق بن ابراهيم .

(١) توطئة :

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج . لأن الكثرة من رجالات العصر من الناهة والكفاية بمكان ، وقد كان يحلّون حقا ويسرقون أيما سرور لو أنسعت رسالتى للكثافة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكُتّاب وأطباء ومعينين وتُلماء ، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يحتملها هذا المقام .

على أن قد رأيت أن نكتب لك كلمات مجملة عن « جبرائيل بن مجتيشوع » من أطباء العصر ، وعن « الملاحظ » من ملوك الكُتّاب ورؤساء الاعتزال ، وعن « أمّان اللاحق » الشاعر وصاحب نظم كَلَيْسَلَة وَدَيْمَة ، وعن « أحمد بن يوسف » الوزير المأموني ومدبج رسالته ، وعن « يحيى بن أئتم » قاصى قصائده وأخيرا عن « اسحاق بن ابراهيم » وهو مجموعة هؤلاء .

وعترف لك بأن فى كتابنا شيئا من التقصير نحسّه ، وسببه حاجة هذه الموضوعات الى الإفاضة فى الشرح والبيان وإلى التحليل والإسهاب مما لا قَلَّ لرسالتنا به .

« وعد » طليدأ بهذه النماذج مقول :

(ب) جبرائيل بن مجتيشوع الطبيب التّسطورى :

لستأ نريد أن نستطرد فى الحديث عن مجتيشوع الطبيب الشهير وإمّا نريد أن لمّ للمّامة به يتنزّف منها القارئ ما كان للرحل من أثر فى عصره فنقول : إن هذه

الأُسرة هي الأُسرة الوحيدة التَّسْطُورِيَّة ، التي استقام دور عِزِّها ثلاثة قرون ، كان لها خلالها حُظٌّ وحده ، وكانت لأفرادها حُطُوه ، فاستعملهم الخلفاء العباسيون ، فاستغفوا من الخلفاء ، وهموا الطب وغير الطب من العلوم بأنارهم ومُتَّحَات عقولهم .

أما هذه التسمية فسرِّيائية ، وهي مرصَّكة من لغتين سريائيتين . بُحِثَ ومعاها العدد ، ويُسَّوَّع ومعاها يسوع أى عدد يسوع ، وكانت هذه الأُسرة من مدينته حُدَيْسَاوْرَ ، وأوَّل من عرَّفه التاريخ منها هو ديورحس بن حراثيل بن يحيىشوع وكان يزاول مهنة الطب فَرَّعَ فيها ، وسَّهَّ ذكره ، وأقيم رئيساً لمستشفى مدينته حتى إن أنا جمع المصور قد أرسل وفداً من قِبله الى حديساوور يستدعيه إليه إذ كان قد ابتابه مرض ففجرت عن شفائه نُطَسُ الأطباء فتأى بِمُحْتِشِوْعَ فادى الرأى حتى اعقله العامل ، ولكن أعيان بلده من مَقَارِيَّةٍ وَقَسَاوِسَه وعير هؤلاء بصحوا له بأن يمثل للأمر ، فانقاد لصيحبهم وولى وجهه شَطْرَ دار السلام ، ثم كانت له حُطُوه عند المصور . وما كما لستطرد في الحديث عن هذه الأُسرة ، وإتِّمَّ سقا هذه الكلمة لما تى على شئ من أحوار أسرة حراثيل ، نُظْهَر ما لهذا الرجل من المكانة في عالم الطب ، وأنه من سُلَّالَه كانت تتوارث أحوالها عن أسلافها هذه الصَّاعَة .

قول : إن حراثيل هذا ، قد سبغ على مثال دَوِيَّه ، وظهرت فيه عوامل الوراثة ، مورث عن آبائه الصِّعَات الأدبية ، وَرَّع في صِباعه الطب ، وكان الى جانب هذا وديع الخلق ، لطيف المحصر ، كريم السحابا ، عُرِفَ في حق الطب سنة ١٧٥ هـ — سنة ٧٩١ م . ذلك بأن جمع بن خالد بن بَرَمَك ، بعد أن أَلَّ من مرصه باعتناء يحيىشوع ، رعب اليه أن يبقى معه طبيباً له ، فاعتذر وأجاب عه ابه حراثيل هذا ، طلق منه كل رعاية . وكاشمه جعفر بدءاً خمي كان قد أصابه ، فعالجه حراثيل في ثلاثة أيام ، وشعى جعفر فرادت مكانة حراثيل عنده ، وقربه منه فكان حليسه ، وكان نديمه ، وكان لا يفارقه ساعه واحده . وحدث أن حارية من جوارى هارون الرشيد قد يوسَّت ذراعها ، فأبرأها جبرائيل بحيلة عظيمه بعد أن

أخفق الأطباء في معالجتها، فحماه بمحسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه : كل من كانت له إلى حاحه فليحاطب بها جبرائيل لأني أقبل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، وكان في صحبة الرشيد أبما حلّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه إلى الرقة وصار معه إلى الحجاز .

ولما تولى الأمين الخلافة عرّص جبرائيل على الخليفة أن تكون له حاداً، فقبله ورحّب به، ولم يكن يا كل شيئاً إلا مادته، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل ولم يُطلق سراحه حتى شفع فيه الحسن بن سهل . وفي سنة ٢١٠ هـ - ٨٢٦ م مرض المأمون مرضاً أعجز أطباءه وكان في مقتبلتهم ميحائيل صهر جبرائيل، فأحد جبرائيل على هسه شفاء المأمون، وكان موقفاً، ولم تمض أيام حتى نفى المأمون، فعمره سمانه وانخذه أنيسا ونديما، ولم يقف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحد بل قد عدّاه إلى عيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره إلى الموطعين والعمال والقواد، أن يوقروا جبرائيل ويحلّوه، وكان الرجل يتدخل في شؤون طائفته كلها، حتى الشؤون الكنسية، وبتأثيره انتخب الطبريك جيورجيس المعروف بأن الصاع فتولى الرئاسة الدينيّة في طائفته وهو في سنّ الشيخوخة . ولما كانت سنة ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م . مرض جبرائيل، وانفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك المهد قد سافر إلى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنه أناب عنه ابنه يحيى شوع، ولم يرجع المأمون ويحيى شوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد توفي . فاقبم له . أنتم حافل، فلما كان ليله في ذلك العصر . ودس في مدهن القديس سرجيس المدينة، وترك مالا كثيرا، وملكاً واسماً، فكانت له صياغ تحنّيناً نور والسوس والبصرة والسواد . حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والمسايا الكثيرة في المواسم والمعاشات . وله من الكتب رسالة في المطعم والمشرب قدّمها إلى المأمون، وكتاب المذلل إلى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وحاليوس ونولس الايجيني، وله أيضا كتاب في صناعة البحور وقد نسب إليه السمعاني في مكتبته الشرقية معجماً سريانيا على أن هذا مشكوك في روايته .



(ج) الجاحظ :

«الكتاب وعاء مليء علمًا، ونظرف حُشِي طَرَفًا، وبستان يُجَلَى رُذُن، وروضة تَقَلِّبُ في حجر، يَطلِقُ عن الموقى، ويترحم كلامَ الأحياء، ولا أعلم حارًا أبرَّ، ولا خَلِيطًا أنصف، ولا رقيقًا أطوع، ولا معاتبًا أخضع . ولا صاحبًا أظهر كَفَايَةً، وأقل جَنَابَةً، ولا أقل إِمْلَاقًا وإِرَامًا، ولا أقل حلافا وإِجرامًا، ولا أقل غِيَةً، ولا أهد من عَضِيبة^(١)، ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا . ولا أقل صلفًا وتكلفًا، ولا أهد من مِرَاء، ولا أَتْرَكَ لَشْف، ولا أزهَد في حِدَال، ولا أَكْتَفَ عَنْ قِتَال من كتاب . ولا أعلم قريبًا أحسن مَوَاتاة، ولا أَعْمَل مكافأة، ولا أحصر مُعَوَّة، ولا أقل مؤوَّة، ولا شجرة أطول عُمْرًا، ولا أجمع أُمْرًا، ولا أطيب نَمْرَة، ولا أقرب مُخْتَنَى، ولا أسرع إدراكًا في كل أَوَان، ولا أُوحد في عِير إِيَّان من كتاب . ولا أعلم تَنَاجَى في حادثة سَه، وقرب ميلاده، ورخص ثَمه، وإمكان جوده، يجمع من التداير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المداهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار من القرون الماضية، والبلاد المتراحية، والأمثال السائرة، والأئمَّ البائدة ما يجمع الكتاب» .

هذا الأسلوب الحسن في تَمَاجه، الناصح البليغ في مَبَاه، الداني القطوف، السيد في منحه، العذب في مورده : يحاطبنا شيخ الكتاب غير مدامع، والمتن في الرسائل غير مازع، أبو عثمان عمرو س بحر الجاحظ عبارات تُستَسَاع في غير مؤوَّة ولا كَد ذهن، وتُستوعب بلا إِرْهاق حاطر ولا إِعْات روية . والجاحظ أيلك الله ليس وراء كتاباته — كما تعلم — مذهب لمستفيد، ولا مَرَاد لراغب يقرأها متناسبة متراصفة، وألماظها متنخلة متعبرة . وعاراتها مُطْرَدة منسجمة، وجمالها مما يُوطأ له يَهَادُ الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهي — وأنت حذُ علم — من ذلك النوع الذي يدخل الأذان بلا استئذان، لمكاتها

من الألباب، وهو من أحل ذلك يتطلب ما درسنا تحليليا مطولا، وليس هذا في مقدورنا لتعدد الموضوعات التي صالحتها، ولأنها تستلزم عناية بمحتها، والاشارة اليها، فقد ما يتطلبه الملاحظ من عناية ودرس، فنكتف بملاحظة موجزة عن حياة هذا النابه العبد الذي تسم ذروة الكمال، وبلغ عاية النصح في الأدب العربي وفنونه، وكان الى حاسب هذا صاحب مذهب في الاعتزال، هو المذهب الملاحظي، معتمدين فيها على ما كتبه ان حلكان وصاحب معجم الأدياء ومؤلفات الملاحظ نفسه .

نسأته :

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملاحظ . ولم تكن أسرته رفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على البقيص كانت حذما وخولا لمولاهم أبي القاسم عمرو بن قلع الجاني ثم الفقي النساب . وقد قيل : إن فرارا حد الملاحظ كان حمالا، وإن الملاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسك بسينان .

قال الملاحظ : أنا أس من أبي نواس بسة، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها . وانكت الملاحظ على العلم منذ طفولته انكبنا عاليا، وشغف بالمطالعة والقراءة . وعكف على الدرس والحفظ . وقد قال عنه أبو هقان أحد معاصريه : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الملاحظ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كالنا ما كان، حتى إنه كان يكثرى دكاكين الزاقيين ويبيت للنظر فيها، ثم ثي أبو هقان بالقنح بن حاقان، وذكر عنه اسماعيل بن إسحاق القاضي .

سمع الملاحظ من أبي عبيدة، والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري . وأحد الحو عن صديقه أبي الحسن الأحفش . وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون، والمري بن عبدويه، وأبي يوسف القاضي، والجهاج بن محمد بن حماد بن سائلة . والكلام عن أبي إسحاق ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي النابه الذكر، وبه تأثر، وعليه تخرج في مذهبه في الكلام والاعتزال .

وإذ كانت ميوله الى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا ، وكان قصارى همه ، في معداته ومراحته وتكوره وأصاله ، أن يجمع كتاباً أو يفهم باماً ، وكان العصر الذى فيه درّج وعما على ما علمت من عزارة المادة ، وتعّدّد التأليف ، وازدحام المعارف ، ووفره مختلف الثقافات ، فلا عرو اذا أحدثنا الجاحظ عن نفسه بقوله : «لقد نسبتُ كيتي ، لقد تعيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لم : يم أشكى» فقالوا : أبى عثمان . ولا عرو اذا كان الجاحظ قد اتّصل بكثير من علماء وبواع عصره ، وشهري الكتاب والمترجمين من فرس وسريان ، فتأثر لا ريب دكاؤه بهذا الاحتلاط ، وطالّع جماع ما ترجم في أرومان المصور والرشد والمأمون ، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوى قراءته كاشاما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوزاقين ويسيت فيها للنظر — كما قلنا أنفا — فكان لذلك من بواع العالم .

وعلى عليه أمرا انشا : الكلام على طريقة المعركة ، والأدب مزوجا بالفلسفة والفكاهة . ولقد قصى عاتمة عمره بالصرة موهور الكرامة ، محمواً من حلائق الله ، سيماً رؤساء الموالى وأعيان الهاشمية والعناية بالعطايا والمسخ ، لما كان يصنّفه لهم من الرسائل التى كاتبت بتعمد وكتابتها التشجيع لمذهبهم ومعاصده مزاعمهم وقصص أقوال محالفهم . وكات له مهاره فى البلاع معقولهم وانتراز أموالهم . واقتدار على التصرف فى كل ما يعالجه وفى كل موقف . وكان يحج كثيرا الى بغداد فى أواخر عصر المأمون وعبره ، فكان المأمون يُرفده . ثم انقطع الى الاتصاح الى محمد بن الريات طوأل وزاراته الثلاث ، ثم أقام بعد موت ابن الريات بالبصرة حتى أصيب بالمالح ، فتنى معلوحا حتى أسلم الروح .

ذكاءه وخلقه :

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشهور ودقة العاطفة . وله فى ذلك نوادره من حوارق الطبيعة . وكان غريب الأطوار ، به شنوذ فى أحواله وأطواره . ذلك لأنه كان يجمع بين الحد والفكاهة ، حاصر الكتبة ، حاضر البديهة ، سريع

الخطاير . وكانت به دُماة وتظرف وتماجن . وكان لا يمتثل لما يأمره الناس به أنفسهم وما يتواصمون عليه من العادات والرسوم وأنواع المصيبة والمدهية والجنسية . وكان كريم الأخلاق ، كريم اليد ، متعباً متمحاً ، ولطيفاً متحسراً ، ضعيف الروح ، وكان على ما به من دُمَامه ، غايةً في الطُرف وحلاوه اللطع ، وهو من أهل ذلك كان يجمع بين الصدين .

اعتقاده ومذهبه :

قلنا إنه تمزج على أي اصحاق إبراهيم بن سيار النظام رعيم الفرقة التي تنسب إليه من المعتزلة ، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوقر على دروسه . من أهل ذلك كان المحافظ معتزلياً ، وزعيم الفرقة المحافظية في الاعتزال . وقد انتفع مواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان ، في ترويح مذهبه والدعوة له ، فكان لسان المعتزلة الباطق ، وسلاحهم القاطع . وبرع في الكلام ، وحلله في الفلسفة اليونانية . ويرميه كثيرون بالضلالة ، وأنه مآجِنٌ مهذار ، متناقض تقال ، يتلاعب بالساس ، ويعصم اليوم ما بهاء أمس . وقد دافع عنه أبو الحسن الخياط في كتابه "الانتصار" على انتقادات ابن الراوندي العبيدة المرة التي تناول فيها عقيدة المحافظ بالتجريح الشديد .

ومما قاله أبو الحسن الخياط مما يهتد به هجمات ابن الراوندي : «وأما رديك للمحافظ بيفض الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبهض ، ولا الولي من العدو ، لأنه لا يعرف المتكلمون أحداً منهم نصر الرسالة وأحتج للسوء ، بلع في ذلك ما يلفه المحافظ ، ولا يعرف كتاباً في الاحتجاج لطعم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه محمّد لمحمد صلى الله عليه وسلم على نؤوته غير كتاب المحافظ . وهذه كتبه في إثبات الرسالة ، وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة . وهل يُستدل على حب الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أوكد مما يستدل به على حب المحافظ الرسول وتصديقه لإياه ! » .

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب : كابن قتيبة ، والأزهري ، والمسعودي ،
والبديع الهمداني ، وأبي العباس أحمد بن يحيى ، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد ،
والفتح بن حاقان ، والرئيس أبي المصلح بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما تستحقه
من المايّة والدرس ومن النقد والتفريط ، مما لا تنته لك هنا عناه الإطالة والملل ،
فلترجع في مطاها ومواضعها .

عليه :

يقول صاحب المعجم . « كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث
شاع ذكره ، وعلا قدره ، واستعنى عن الوصف » . وقال غيره : إنه كان واسع العلم بمون
الكلام ، كثير التحريه ، شديد الصبغ لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم
الدين والدنيا . ولا عرواق مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقاً ، غزير
المادة ، خصّصَ الدهن ، كثير المصنوع العقل ، وقد أكثر التصنيف في الأدب والطوائف
والعكاكات ، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السمار .

ويقول الفتح بن حاقان في كتاب له الى الجاحظ : « إن أمير المؤمنين يحمّدك ، ويهش
عدد ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسه ، لما ملك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بؤسك عن
مجلسه ، ولعصك رأيك وتديرك فما أنت مشغول به ومتوقر عليه . ولقد كان ألقى إلى
من هذا عوانه ، فزدتك في نفسه ريادة كف ما عن تحشيمك ، فاعرف لي هذه الحال
واعتقد هذه الميتة على كتاب « الرد على الصاري » وافزع منه وعجل به إلى ، وكُنْ من
حدا به على نفسه ، وتال مشاهرتك . قد استطلعت لما معي ، واستسلمت لك لسنة
كاملة مستقلة ، وهذا مما لم تحتكم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غمام » ،
ولولا أني أزيد في تحيلتك لعرفتك ما يعتري عند قراءتها ، والسلام » .

رسائله :

لجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها ، منها : أنه كتب الى عبد الله بن حاقان في يوم
عيد : « آخرتني العلة عن الوزير ، أعزّه الله ، حضرت بالنداء في كتابي ليوب عنى ،

وَيَعْمُرُ مَا أَخْلَقْتَ الْعَوَائِقُ مِنِّي ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعِيدَ أَكْبَرُ الْأَعْيَادِ السَّالِفَةِ
بِرَكَةٍ عَلَى الْوَزِيرِ ، وَدُونَ الْأَعْيَادِ الْمُسْتَقْلَةِ فَيَا يُحَيِّتْ وَتَحَيَّ لَهُ ، وَيَقْبَلْ مَا مَا تَوْسِلُ بِهِ إِلَى
مَرْضَاتِهِ ، وَيَصَافِ الْأَحْسَانَ إِلَيْهِ عَلَى الْأَحْسَانِ مِنْهُ ، وَبِمَنْعِهِ نَصِيحَةُ الْعَمَةِ وَلِبَاسُ الْعَافِيَةِ ،
وَلَا يُرِيهِ فِي مَسَرَّةٍ قَصْصًا ، وَلَا يَقْطَعُ عَنْهُ مَزِيدًا ، وَبِجَعْلِي مِنْ كُلِّ سُوءٍ مَدَاءً ، فَيَصْرِفُ عَيُونِ
الْفِتْرِ عَنْهُ وَعَنِ حَقِّي مِنْهُ .

وَكُتِبَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الْزِّيَّاتِ اسْتَعْلَفَهُ . « أَطَاعَكَ اللَّهُ مِنْ سُوءِ الْعَصَبِ ، وَعَصَمَكَ
مِنْ سَرَفِ الْهَوَى ، وَصَرَفَ مَا أَعَارَكَ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى حُبِّ الْإِنْصَافِ ، وَرَوَّحَ فِي قَلْبِكَ إِثَارَ
الْإِيمَانِ ، فَقَدْ حَفَّتْ ، أَيْدِكَ اللَّهُ ، أَنْ أَكُونَ عَبْدَكَ مِنَ الْمُسَوِّينَ إِلَى تَرْقِ السَّمَاءِ ، وَمَحَانَةِ
الْحِكْمَاءِ . وَبَعْدَ ، فَقَدْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ :

وَأِنْ أَمْرًا أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا * مِنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَنِي لِسَعِيدٍ

وَقَالَ الْآخَرُ :

وَمَنْ دَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّةِ ذِمُّهُ بِالْحَقِّ وَالسَّاطِلِ

فَإِنْ كَسَتْ احْتِرَأتُ عَلَيْكَ ، أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، فَلَمْ أَحْتَرِ إِلَّا لِأَنْ دَوَّامَ تَفَافُكَ عَنِي
شَبِيهُ بِالْإِهْمَالِ الَّذِي يُورِثُ الْإِعْمَالِ ، وَالْعَوَى الْمُتَابِعَ يُؤَيِّسُ مِنَ الْمَكَاوَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ عُبَيْدُ
ابْنُ حَصِّنٍ مِنْ حُدُومَةِ لُبَّانٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : عَمْرُكَ كَانَ حَرًّا لِي مِنْكَ ! أَرَهْنِي فَاتَّقَانِي ، وَأَعْطَانِي
فَأَغْنَانِي . فَإِنْ كُنْتَ لَا تَهْتَبُ عَمَانِي ، أَيْدِكَ اللَّهُ ، لِحُدُومَةِ سَلَفَتِ لِي عَبْدَكَ ، فَهِنَّ لَا يَأْدِيكَ
عِنْدِي ، فَإِنَّ الْعَمَةَ تَشْعُرُ فِي النِّقْمَةِ . وَإِلَّا تَفْعَلْ ذَلِكَ لِي ، فَعُدَّ إِلَى حَسَنِ الْعَادَةِ ،
وَالْإِفْعَالِ ذَلِكَ لِحَسَنِ الْأَحْدُوثَةِ ، وَإِلَّا قَاتَبْتَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ مِنَ الْعَوْدُونَ مَا أَمَا أَهْلُهُ
مِنَ الْعُقُوبَةِ . فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَكَ تَعْمُو عَنِ الْمُتَعَمِّدِ ، وَلِتُجَبَّاقِي عَنِ عِقَابِ الْمُبَصِّرِ ، حَتَّى إِذَا
صَرْتَ إِلَى مِنْ هَفْوَتِهِ ذِكْرًا ، وَذَنْنُهُ نَسْيَانٍ وَمَنْ لَا يَسْرِفُ الشُّكْرَ إِلَّا لَكَ ، وَالْإِنْفَاقَ إِلَّا لَكَ ،
مَجْمَعَتَ عَلَيْهِ الْعُقُوبَةُ . وَاعْلَمْ ، أَيْدِكَ اللَّهُ ، أَنْ تَسْبِيحَ عَصَبِكَ حَتَّى ، كَرِّينَ صَفْحِكَ حَتَّى ،
وَأَنْ مَوْتَ ذِكْرِي مَعَ انْقِطَاعِ سَبِيحِي مِنْكَ ، لِحَاةِ ذِكْرِي مَعَ انْقِطَاعِ سَبِيحِي مِنْكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ
فِطْرَةً عَلِيمٍ ، وَغَفْلَةً كَرِيمٍ . وَالسَّلَامُ .

وللحافظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان المهداني في المقامة الحاحطية . « إن الحاحط في أحد شقّ
من هذا الكتاب .

وقد قال فيه بدع الزمان المهداني في المقامة الحاحطية . « إن الحاحط في أحد شقّ
البلاغة يقطع ، والآريقف ، والبلع من لم يقصر طمعه عن ثره ، ولم يزر كلامه بشعره ،
فهل تروون للجاحظ شعراً رائقاً قلنا لا . قال : فهلموا الى كلامه ، فهو سيد الاشارات ،
قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، مقاد لعمري ان الكلام يستعمله ، ففور من معتاصه
يُحْمَلُ ، فهل سمعتم له لمطة مصبوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ » .

شعره :

قيل : إن للجاحظ شعراً ، ولكنا نظروا فيما ينسبه له يموت بن الزُرَّع وأبو العبيد
وأبو الحسّ البرمكي وغيرهم فوجدناه أقل طمعة من بلاغته . فما ينسب اليه قوله .

يَطِيبُ العَيْسُ أَنْ تَلْقَى حَكِيماً * عَدَاهُ الْعِلْمُ وَالْعَهْمُ الْمَصِيبُ
يَكْشِفُ عَكَ حَيْرَةَ كُلِّ حَيْلٍ * وَفَصَلَ الْعِلْمَ يَعْرِفُهُ اللَّيْبُ
سَقَامُ الْحِرْصِ لَيْسَ لَهُ شِعَاءٌ * وَدَاءُ الْجَهْلِ لَيْسَ لَهُ طَيْبُ

مصنفاته :

صنف الجاحظ أكثر من مائة كتاب . قال المسعودي : وكتب الجاحظ مع انحرافه
تحلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن
رصف ، وكساها من كلامه أحسن وأجزل لفظ . وكان اذا تخوف ملل القارئ وسامة
السامع ، نرح من حدّ الى هزل ، ومن كلمة بليغة الى مادرة طرفة . وله كتب حسان : هما
« البيان والتبيين » وهو أشهرها ، لأنه جمع فيه من المنثور والمنطوم ، وعرر الأشعار ومستحسن
الأخبار وبلغ الخطب ، ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى ، « وكتاب الحيوان » و « كتاب
الطليين » و « كتاب الحلاء » . وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها الى تصعيب
ولا الى دفع حق . ولا يعلم من سلف وحلف أفصح منه .

وقال ابن العميد : كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً .

أخباره :

حدثنا أبو معاذ عبد الله الخولي المتطلب قال : دخلنا يوما «بُسْرَمَنْ رَأَى» ، على عمرو بن بَحر الجاحظ يعودده وقد قُلِّجَ ، فلما أخذنا مجالسا ، أتى رسول المتوكل فيه ؛ فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشيئ ماثل ، ولُعَابِ سائل . ثم أقبل علينا فقال : ما تقولون في رجل له شقان ، أحدهما لو عُرِزَ بالمسأل ما أحس ، والشق الآخر يمز به الدباب فيغوث ، وأكثر ما أشكوه الثمانون . ثم أنشدنا أبياتا من قصيدة عَوْف بن محم الخزاعي . قال أبو معاذ : وكان سبب هذه القصيدة أن عوفا دخل على عبد الله بن طاهر ، فسلم عليه عبد الله فلم يسمع ، فأعلم بذلك ، فزعموا أنه ارتحل هذه القصيدة ارتحالا .

ياي الذي دَانَ له المشركان * طُرًّا وقد دان له المغيران
إِنَّ الثمانينَ وُلِّمَتْها * قد أحوجت سمي إلى ترجمان
وبدلتني بالشطاط احنا * وكست كالمصعدة تحت السنان
وملتني من زماع العتي * وممتني هم الجبان الهدان
وقاربت مني خطأ لم تكن * مقاربات وثنت من عيان
وانشأت بيني وبين الوري * عانة من غير نسج العان
ولم تدع في المستمتع * إلا لسانى ، وبحسبي لسان
أدعوه الله واثي به * على الأمير المصححي الهجان
فقراني ، ما لي أنما ، * من وطني قبل أصفرار البنان
وقبل منعاى الى نسوة * أوطانها حران والزمان

والجاحظ ، أيدك الله ، قد جمع الى مواقفه الكبارى الحدل والتأخر ، ومناة الأسلوب وتدقيقه ، وسمو المنحى وبلاغته ، وقوة اللفظ ونغمته ، حوسا عظيما الى الدعابة واللطائف والتندر والطرائف ، والمُلح والنَّحْب ، والكت مع الأدب ، مع خعة ظل ، وظرف روح حيّاه الى النفوس ، ومع نباعة وعبقرية جعلناه فوق المأم والرموس ، وعدوبة عبارة ، ومائية أسلوب ، كأنهما الراح في الكؤوس !

ومن حملة أحابره أنه قال . ذكرت للتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منتظري، فأمر لي عشرة آلاف درهم وصرفني، فخرحت من عنده، فلقيتُ محمد بن إبراهيم، وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فمرص على الخروج معه والاعتماد في حرافته، وكنا نُسَرِّمَن رَأَى، فركنا في الحزافة، فلما اتبها إلى نهر القاطول، صرب ستاراً وأمرنا بالغناء، فاندفعت عَوَادَةٌ فَنَسَتْ :

كَلْ يَوْمَ قَطِيعَةً وَعِثَاتُ * سَقِضِي دَهْرًا وَمِنْ عِصَابُ
لَيْتَ شَعْرَى أَنَا خُصِصْتُ بِهِدَا * دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَمَا الْأَحَابُ
وَسَكَنْتُ، فَأَمَرَ الطُّنُورِيَّةَ فَتَتْ :

وَأَرْحَمَتَا لِلْعَاشِقِيَا * مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ مُعِيَا
كَمْ يُهَجَّرُونَ وَيُضَرَّمُونَ * نَوْقُطَعُونَ فَيُضَبَّرُونَ

قال : فقالت لها العَوَادَةُ : فيصنعون ماذا ؟ قالت : هكنا يصنعون، وصربت بيدها إلى السنار فهتكته، وبرزت كأنها طقة قر، فالقت فسها في الماء، وعلى رأس محمد علامة يصاهيها في الجمال وبيده مذبذبة، فألق الموصع وطر إليها وهي بين الماء وأنشد :

أَيُّ الْتِي عَرَفْتِي * مَعْدُ الْقَصَا لَوْ تَعَلَّمَا

وألقي نفسه في أنهرها، فأدار الملاح الحزافة، فاذا بهما متعاقبان، ثم عاصا فلم يُرَيَا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما، ثم قال : يا عمرو لتحدثني حديثاً يُسَلِّي عن فعل هذين وإلا ألحقنك بهما، قال : لحصرتي حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للظالم يوماً، وعُمر صت عليه القصص، فزت به قصة فيها . « إن رأى أمير المؤمنين أن يُخْرِجَ إِلَى جَارِيَتِهِ فَلَانَةٌ حَتَّى تَعْتَنِي ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ فَعَلَّ » فاحتاط يزيد من ذلك وأمر من يجرح إليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول رسولاً آخر، يأمره أن يدخل إليه الرجل فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له : ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : الثقة بحملك والامتكال على عموك، فأمره بالجلوس

حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا نرح، ثم أمر فأخرجت الجارية ومعهما عودها، فقال لها
الفتى عني :

أَقَاتِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَائِلِ * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْهَمْتِ صِرْمِي فَأَجْمَلِ
فَضْلَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ، فَقَالَ : عَنِّي :

تَأْتِي الْبَرْقُ مَحْدِيًّا قُلْتُ لَهُ * يَا أَيُّهَا الْبَرُّ إِنِّي عِنْدَكَ مَشْغُولٌ

فَضْلَهُ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ، فَقَالَ : يَا مَوْلَايَ، تَأْمُرُنِي بِرَطْلِ شَرَابٍ فَأَمْرٌ لَهُ بِهِ،
فَمَا اسْتَمْتُمْ شَرِبَهُ حَتَّى وَثَبَ وَصَبَدَ عَلَى أَعْلَى قَبْضِهِ لِيُرِيدَ مَرْمِيهِ عَلَى دِمَاعِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ
يَزِيدُ : (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاْجِعُونَ) أَتَرَاهُ الْأَحْمَقُ الْجَاهِلُ طَلَعَ أَنِّي أَحْرَحُ إِلَيْهِ حَارِبِي وَأَرْدَهَا
إِلَى مِلْكِي ! مَا عَلِمَانِ، حَدُّوْهَا بِيَدِهَا وَأَحْمِلُوْهَا إِلَى أَهْلِهَا إِنْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ وَإِلَّا فَيَعْمَلُوْهَا
وَتَصْدُقُوا بِمَنْهَا، فَانْطَلَقُوا بِهَا إِلَى أَهْلِهَا، فَلَمَّا بَوَسَطَتِ الدَّارَ نَظَرَتْ إِلَى حَمِيرَةٍ فِي وَسْطِ دَارٍ
يَزِيدٌ قَدْ أَتَتْ لِلطَّرَفِ، فَحَدَّثَتْ نَفْسَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَأَنْشَدَتْ :

مَنْ مَاتَ عَشَقًا فَلَيْمَتْ هَكَذَا * لَا حَيْرَ فِي عَشَقٍ بَلَا مَوْتَ

فَأَلْقَتْ نَفْسَهَا فِي الْحَمِيرَةِ عَلَى دِمَاعِهَا فَمَاتَتْ، فَسُرِّيَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَأُجِرَ صُلْبِي .

«وبعد» فان رسائلنا لاتسع التبسط والقول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ،
التي نطلب كما قلنا رسالة مُسَهَّبة، لمكانة الرجل، فيما قدمناه لك عنه العُيَّة والكُمَاية. ورى
واجبا علينا قبل أن نعم كلمتنا أن نحيلك هنا، على رسالة حطية، مسوبة اليه عثرا عليها
بدار الكتب المصرية . قيل إنه كتبها عن بني أمية : وسبق أن أشرنا اليها في كلمتنا عن
العصر الأموي . وهي وحدها تنطق بوحدة نظر الرجل ومدبه في الاعتزال، وتشهد بطول
باعه في التبسط والإسهاب، مع نخامة اللفظ وحلاوته، وقراءة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان
ومكانته. وقد أشتناها لك في باب المنشور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فراجعها ثمة.

(د) أبان بن عبد الحميد اللاحق :

هو أنان بن عبد الحميد بن لَاحِق بن عفر مولى بني رِفَاش . كان بالعصرة، ثم رحل
إلى البرامكة ببغداد، فاتفصل بهم ومدحهم ونال جوائزهم، ثم قويت الصلة بينهم

وبينهم حتى اتحدوه لهم معلماً ونصبوا ، يستشيرونه في مهام أمورهم وتدير شؤونهم .
 وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له ، أن جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدير ما يستحقون
 من الجوائز والصلوات لكن هذا المنصب ، جعله عرضاً لمحبو الشعراء وذقهم ، لأنه
 ليس في مقدوره أن يرصيه جميعاً من جهة ، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حكا
 من جهة أخرى .

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء يقمّة على أبان ، فان أما المرحج الأصبهاني
 يحدثنا أن أما نواس لم يرض المرتنة التي حمله فيها أبان ، فقال بهجوه بهذه الأبيات :

حالتُ يوماً إماماً * لاندَرْتُ إماماً
 ونحن حصرُ رِواي ال : أمير الهروان
 حتى إذا ما صلاة ال : أولَى دنت لأوان
 فقام مُنذرُ ربّي * بالير والإحسان
 فكلما قال فلما * ال أقصاء الأذان
 فقال كيف شهدتُم * بدا غير عيان
 لا أشهدُ الدهرَ حتى * تُعَارِنَ العيان
 فقلت سبحان ربّي * فقال سبحان ماني^(١)

وفيه القصيدة في ديوان أبي نواس .

فقال أبان يحميه : —

ان يكن هذا السوا * يسي ملا ذنب هماما
 فلقد ... حيناً * وصقعا زمانا
 هاني الجون أبوه * زاده الله هواما
 سائل العباس وأسمع : فيه من أمك شانا
 عجنوا من حليار : ليكبدوك عجاما

(١) اسم لصاحب طائفة من الملحدين .

وحلّار هذه هي أم أي نُوّاس، كاب قد تزوّجها العباس بعد أبيه . ورتما كان لباعث هذه المهادنة بين أي نُوّاس وأمان أثر كبير فيما كان بين أي نُوّاس والبرامكة من كراهيه ونفصاء ، فان أمان نُوّاس كان معروفا بسمو المكاة في الشعر ، فلا يستطيع مثل أمان أن يُبرّله عن مبرليه التي هو حديرها ، إلا اذا كان في ذلك هوّى للبرامكة ، وقد يكون نوحى منهم . لكن أمان نُوّاس لم يجد مصدراً للحكم غير أن ههنا ، ولم يكن ههنا أمان لينشئ عليه وإنما يشئ عليه لو استطاع أن يبال بالهجو من راهم حليقيين ههجو ، وهم البرامكة ولكنّه لا يستطيع أن يباهم بالهجو ، وهم أصحاب الدولة والسلطان .

كان أمان شديد الإعجاب بنفسه ، مُدلاً عليه وأديه . والقصيدة التي قدمها للبرامكة ، حين حاول أن يتصل بهم ، على زعم أن يكون له شيع من تزيينهم فيه ، مُعطياً صورة واضحة عنه . وهذه هي القصيدة —

أنا من نعمة الأمير وكثر * من كُوز الأمير دو أرباح
كانت حاسب حبيب أديب * ناصح زائد على الصباح
شاعر مُفلق أخف من الزينة مما يكون تحت الحماح
لى في الحوِطنة واتقاد * أنا فيه قِلانة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلم تقوى مؤر الإنصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعر وقول السيب والأمداح
وطريف الحديث في كل فن * ونصر تروحات الملاح
كم وكم قد حانت عدى حديثاً * هو عد الملوك كالتفاح
فيمثل تحلو الملوك وتلهو * وتناحى في المشكل الصّاح
أيمن الناس طائراً يوم صيد * لعدو دُعيت أو لرواح
أهمل الناس بالخواهر والخيل وبالحرّ الجسان الصّباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنى طريف المزاح

لست بالناسك المشمر نوبيته ولا الماجن الخليج الوقاح
 لورى فى الأمير أصلحه الله رماحا نلت حد الرماح
 ما أنا واهى ولا مستكن * لسوى أمر سيدى ذى السباح
 لست بالصخم يا أميرى ولا القز * م ولا بالتحدر الدحاح
 ليلة جفده ووجه صبيح * واتقاد كشملة المصباح
 إن دعانى الأمير عاين منى * ثمرياً كاللؤلئى الصباح

على أن أن ، مع إعجابه نفسه ، وإدلاله عليه وأدبه ، لم يكن فى مقدوره أن يسار
 بكار معاصريه من الشعراء ، كأمى نواس وأضرابه ، فى قوة الشعر واختلاف صوته ،
 وحسن لفظه ، ورقة معانيه .

ولعل ذلك رجع الى أنه كان ينقصه حب النفس ، وقوة الحس ، والخيال
 المدع للصور الشعرية ، أى قوة الابتكار والاختراع ، فان هذه القوى جميعا لا بد منها
 للشاعر ، لكى يُحس وسترع ويصور . وهذا يعنى بنا الى إحدى نتيجتين : إما أن نشك
 فيما وصف به نفسه : من جمال الظرف ، ووجه الروح ، واتقاد الدهن ، نشك فى أنصافه
 حقاً بهذه الصفات ، التى تملأ النفس شعوراً بما فى الحياة من صور للشعر ، وإما أنه
 كان قصير الباع فى تصوير ما يحسه نفسه . وكلا الأمرين يبعد البؤن منه وبين أبى نواس
 وأضراب أبى نواس . ولئن نقصته القوى التى تمده بالصور الشعرية ، فقد وفق إلى
 فن حديد تحسب أنه لم يسبق إليه ، وهذا الفن لا يصطوره الى كد القريحه وإعمال الفكر
 فى تصيد المعانى الخيلة ، وإرارها فى أبواب راهية حدابة ، بل لا يحتاج معه الى أكثر من
 أن تكون لديه ملكة النظم ووزن الكلام ، اذ المعانى بين يديه ، لا يتكلف فى سبيلها
 سعيًا ، أو كد قريحه . وهذا الفن الحديد هو النظم التلميحى ، وهو أن يعتمد الشاعر
 الى كتاب معروف مثبور قبيطمه ، أو الى قواعد عامة فى الشريعة أو فى اللعبة أو فى فرع
 من فروعها ، فينظمها أيضاً ، ليُسَهِّل حفظها ويقرَّب تناولها . وهذا ما فعله أبان ،

وما جعلنا نُؤثِّره بالكلام، وإن هذا النوع من النظم، يُثَلِّل ناحية طريفة من نواحي الأدب الجديدة في عصرنا المأمونى . فقد يكون مُقَصِّرِينَ كُلِّ التَّقصير، إذا أغفلنا ذكر مُبْدِئِهِ ومُبْتَكِرِهِ . نقول « وهذا ما فعله أمان » فإن الصُّولى وأما الفرج الأصفهانيّ يحدِّثنا بأن أماناً نظَّم للبرامكة كتابَ كَلِيلَةٍ وِدْمَةٍ ، لِيسهل عليهم حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه العِصْل بن يحيى خمسة آلاف دينار ، ولم يعطه جعفر شيئا ، وقال له : يكعبك أن أحفظه فأكونَ رَاوِيَتَكَ . وقد قل الأصفهانيّ من هذا الكتاب بيتين هما :

هذا كتاب أدبٍ وِجْدَةٍ * وهو الذى يُذَعِّى كَلِيلَهُ دِمْنَةً
فيه أحتيالاتٌ وفيه رُشْدٌ * وهو كتاب وضعته الهندُ

وقد أمدت الأيام هذا الكتاب، كما أمدت كثيرا غيره من الكتب العربية القيمة ، حتى يئس الأدباء والمؤرخون في العصر الحديث، من العثور على شيء منه . وقد يكون من حسن الحظ أن نلن سرورا مانا قد وُقِّعَا الى جرة كبير من هذا الكتاب ، في جرة أو أوراق من حرة من كتاب الأوراق المسبوبة للصُّولى، اذ عثرا عليه بدار الكتب المصرية . سد أمد طويل حينما كنا نبحث فيها عما وصَّه العرب من الموسوعات والمُعَلَّات . وسذكر في المجلد الثانى ما وحدهاه فيه .

ويحدِّثنا أبو العرج أنه عمل أيضا القصيدة التى ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئا من المنطق، وسمَّاها ذات الحُلُل، ومن الناس من يَسُبُّها الى أبى التَّاهِيَةِ، والصحيح أنها لأمان . وسياق أبى العرج هذا ، لا يدع سبيلا الى الشك في وجود هذه القصيدة ، ومع الأسف لم يسقل اليها منها شيئا .

ويحدِّثنا الصُّولى بسنده أن أمانا، لما عَمِل كتابَ كَلِيلَةٍ وِدْمَةٍ شعرا، في قصيدته المزدوجة أعطاه البرامكة على ذلك مالا عظيما ، فقليل له بعد ذلك : ألا تعمل شعرا في الزهد ؟ فعمل قصيدةً مزدوجة في الصيام والزكاة ، وقد وحدت هذه القصيدة ،

وترجمتها « قصيدة الصيام والزكاة نقل أمان من م الرواة » ثم ذكر القصيدة . وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني .

(هـ) أحمد بن يوسف الكاتب :

هو أبو حمزة أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالى بى عجل . كان مذهبه الرسائل والإنشاء ، وزره المأمون بعد أحمد بن أبي خالد ، وقد كان يتولى ديوان الرسائل له ، وكان معروفا بين أهل عصره بسمو المكانة في العلم والأدب ، والثقة والشعر . حكى عن المأمون ، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وعلي بن سليمان الأخفش ، وغيرهما .

كتابه :

أما مكانته في الكتابة فم رسائله وتوقيعاته التي تحلت بها صدور الأدب ، وزينت بها كتب التاريخ ، فعمله في مقدمة الكتاب ومن أتمهم ، وهي بما فيها من حوذة وإحكام ، وتغير للألفاظ ، وسلاسة في المعاني ، تدل على أنه كان خصيب النفس ، سريع الخاطر ، وعلى أنه مالك أعة المعاني وبواصي الكلام . ولقد شهد له السبق في الكتابة والرسائل بكار رجال عصره ومن جاء بعده .

قال الصولي : لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول ، شاور المأمون الحسن بن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه ، فأشار عليه أحمد بن يوسف ، وأبى جاد ثابت بن يحيى الرازي ، وقال : هما أعلم الناس بأحلاق أمير المؤمنين ، وخدمته ، وما يرضيه ، فقال له : احتلني أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لدته قليلا ، فهو أحبهما إلي ، لأنه أعرف في الكتابة وأحسهما بلافة ، وأكثر علما ! فاستكنه المأمون .

وروى الصولي بسنده : أن الكتاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل ، فذكروا المصنفين من الكتاب ، فأجمعوا أن يكتب من كان في دولة بى العباس : أحمد بن يوسف ،

وإبراهيم بن العباس؛ وأن أشعر كتّاب دوتهم : إراهيم بن العباس ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فإبراهيم أجددهما شعرا ، ومحمد أكثرهما شعرا ، ثم الحسن بن وهب ، وأحمد ابن يوسف .

فأنت ترى - أعرك الله - أن هؤلاء الكتّاب لم يقدموا أحدا من كتّاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكتّابة . وإن قدموا عليه في الشعر . والحق أن نبوغه في الكتّابة هو الذي كان سببا إلى طهوره ورصعته ، فقد روى العلاء أنه لما قُتل الأمين ، أمر طاهر بن الحسين الكتّاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا ، فقال طاهر : أريد أقصر من هذا ' فوصف له أحمد بن يوسف فأحصره لذلك ، فكتب :

« أما بعد ، فإن المخلوع ، وإن كان قسيم أمير المؤمنين في التسبب والمهنة ، فقد فرق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمه ، لمعارفته عصمه الدين ، وحروجه عن إجماع المسلمين ؛ قال الله عز وجل لوح عليه السلام في آية : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله ، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ؛ وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمر المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأكفافها أو طامها لمهاد لطاعته ، وأتبع شيء لمستيقته ، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهي الردة والقصيب ، والحمد لله الأحمد لأمر المؤمنين بحقه ، والكائد له من حال عهده ومكت عقده ، حتى رد الأئمة ، وأقام به الشريعة . والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » .

قيل : فرصى طاهر ذلك وأهذه ، ووصل أحمد بن يوسف وقتمه .

وقيل : إن المأمون لما جُل رأس المخلوع إليه ، وهو بمرو ، أمر بإنشاء كتّاب عن طاهر ابن الحسين ، ليقرأ على الناس فكُتبت عدة كتب لم يرصها المأمون ولا الفضل بن سهل ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عُرضت السعة على ذى الرياستين ، رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد بن يوسف : ما أصعبك ، ودعا قهقرامه ، وأخذ القلم والقرطاس ،

وأقبل يكتب بما يُقرع له من المازل، ويسد له فيها من الفُرش، والآلات، والكسوة،
والكرّاع، وغير ذلك؛ ثم طرح الرقعة الى أحمد بن يوسف وقال له: اذا كان في مد، فاقعد
في الديوان، وليقعد جميع الكتّاب بين يديك، واكتب الى الآفاق .

قيل : ومما كتبه لأماون حين كثرت الطلاب للصلوات ساه : «داعى نذاك يا أمير المؤمنين،
ومُبادى جندوك، جمعا الوفود بياك يرجون نائلك المصهود، فهم من يمت بحُرمة، ومنهم
من يُبدل بخدمه، وقد أبجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، وإن رأى أمير المؤمنين أن
يُنشئهم بسبيه، ويحقق حُسن ظنهم بظوله، فمل إن شاء الله تعالى». موقع المأمون : «الخير
مُتّع، وأواب الملوكة معاني لطال الحجاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر :

يَسْقُطُ الطَيْرُ حَيْثُ يَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَتُنْشَى مَنَارُ الْعُكْرَاءِ

فاكتب أسماء من بياها منهم، وأحك مرآتهم، ليصل الى كل رجل قدر استحقاقه،
ولا تكدر معروفا عديم بطول الحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر :

هَإِذَا لِي تَرَى طَرْدًا لِحَسْرَةٍ * كَالصَّاقِ بِهِ طَرَفَ الْهَوَا

وقال ابراهيم بن العباس : سمعت أحمد بن يوسف يقول : أمرني المأمون، أن أكتب
الى السواحى والامتناع من القناديل والمساحد، ويت لا أدري كيف أفتح الكلام،
ولا كيف أحده، فأتى آت وماعى، فقال : قل : فإن ذلك أنسأ للسائلة، وإصاءة
للتجدة، ونفياً لمكامس الرّيب، وتزيتها لبوت الله عن وحشة الظلم، فانتبهت وقد أفتتح لى
ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه .

ومن رسائله أيضاً : «لقد أحلك الله في الشرف أعل ذروته، ولعلك من الفضل أبعد
مايته؛ فالأمال اليك مصروفة، والأصاق اليك معطوفة؛ عندك تنتهى الهمم السامية،
وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تُنقى الاختناصر، وتُستمتع أغلاق المطالب؛ ولا يُستترى
النجع من رحالك، ولا تمرره النوايب في دارك» وإنا نخيلك على ما أبتناه لك في المجلد
الثالث من آثاره الممتعة .

شعره :

كان أحمد بن يوسف شاعرا مُعَرِّفاً في الشعر كما كان مُعَرِّفاً في الكتابة، إلا أن حطه من الشعر كان دون حطه من الكتابة، فإن تَقَادَّ عصره لم يقدِّموا عليه أحداً في الكتابة من كتاب بني العباس ووزرائهم، وقد قدِّموا عليه كثيراً في الشعر. وقد ذكرنا فيما سبق من ترجمته إجماع فريق من الكتاب على سقته في الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولي بسنده أن قَعَبَ بن مُحَرَّز الباهلي قال: كما يقول لم يل الوراثة أشعر من أحمد بن يوسف، حتى وَلَّى محمد بن عبد الملك، فكان أشعر منه !

ولم يكن المدح كثيراً في شعر أحمد بن يوسف، فإنه كان يحكم مركزه كورير للأمون ورئيس ديوان رسائله، غير محتاج إلى أن يتكسب بشعره، أو يمدح الناس، ولذلك لا نرى في شعره مدحا لغير الأمون ولله ورب نعمته. وكذلك كان هفاؤه قليلا، فإن مروءته، وأدبه، ومركزه، وأعتداده بنفسه، كل ذلك كان يرهعه عن أن يكون هجاء مُقَدِّما، وإنما كان يُصْطَرُّ أحيانا إلى ذم أعدائه ومناصيه، في غير إقْداع ولا غش. فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده—وقد كانت بينهم وبينه عداوة— فذكرهم يوما فقال: «لولا أن الله عز وجل ختم رسالته محمد صلى الله عليه وسلم، وكُنَّه بالقرآن، لبعث فيكم من نَقَمَةٍ، وأنزل عليكم قرآن غدر، وما صَبَيْتُ أن أقول في قوم، محاسنهم مساوي السَّفل، ومساوئهم فصائح الأمم». وقال يهجوهم :

أَبَى سَعِيدُ إِنَّكُمْ مِنْ مُعْشَرٍ * لَا تُحْسِنُونَ كَرَامَةَ الْأَصْيَافِ
قَوْمٌ لِبَاهِلَةٍ بَنَ أَغْصُرُ إِنْ هُمُو * نَحَرُوا حَبِثَهُمْ وَلَعَدَ مَنْافِ
مَطْلُوا الْعِدَاءَ إِلَى الْعِشَاءِ وَقَرُّوا * زَادَا لَمَرُّ أَيْبِكَ لَيْسَ بِكَافِ
بَيْنَا أَتَاكَ أَنَا هُمْ كِبَارُهُمْ * يَلْحَوْنُ فِي التَّبْدِيرِ وَالْإِسْرَافِ
وَكَا نَفِي لَمَّا حَطَطْتُ الْهِيمُو * رَحَلِي حَطَطْتُ بِأَبْرِقِ الْعِزَافِ

أخلاقه وسيرته :

كان أحمد بن يوسف قبطاً ، بصيراً بأدوات الملك وآداب السلاطين ، ديكاً صريح الخاطر ذا مروءة وكرم ، وكان مع ذلك يصرب في المجون واللهو بسهم . ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبدالله بن طاهر حين خرج من بغداد إلى حراسان لأبنته محمد ، وما وقع بين محمد هندا وبينه بعد ذلك . قال عبدالله لابنه . إن عاشرت أحداً بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فما عرح محمد حين أنصرف من توديع أبيه على شيء حتى هم على أحمد بن يوسف في داره ، فأطال عده ، فمِطْن له أحمد فقال : يا جارية علياً ، فأحصرت طبقاً وأرعمة نقيّة وقدمت ألواناً يسيرة وحلاوه وأعقب ذلك بأواع من الأشربة في زجاج فاخر وآية حسنة وقال : يتناول الأمير من أيها شاء . ثم قال : إن رأى الأمير أن يُشرف عده ويحيته في عِد فائِم بذلك . فهنّ وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد فصيحته ، فلم يترك قائداً حليلاً ولا رجلاً مدكوراً من أصحابه إلّا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف وأمرهم بالفتوق معه ، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته وأطهر مروءته ، ورأى محمد من الصائد والمُرُش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، ونصّب ثلثائة مائدة وقد حُفَّت ثلثائة وصيعة ، ونقل إلى كل مائدة ثلثائة لون في صحاف الذهب والعصنة ومثارد الصين ، فلما رُفعت الموائد قال ابن طاهر : هل أكل من الباب ؟ مطروا ، فإذا جميع من الباب قد نُصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا الحسن ! (كما في هذه الرواية كتبه أبي الحسن) فقال : أيها الأمير ، ذاك قُوتى وهذه مروءتى .

أما اللهو والمجون فقد كان حظّه منهما غير قليل . وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن ابن سهل ، حين شاوره المأمون فيمن يختاره ، بعد أحمد بن أبي خالد ، فأشار عليه بأحمد ابن يوسف وأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي ، فقال له . احترلى أحدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد وجفا لذته قليلاً فهو أحبهما إلى .

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه ، من الكتاب والشعراء والادباء ، من ميل الى الغلمان .. ! لذلك لم يكن عزله بريئا ، ولم يبالغ على أنه فنٌ من فنون الشعر ، وإنما كان عزله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه ؛ فألك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطلح الغزل فأما فنون الشعر ، فقد كان موسى هنا في ناحيته ، وهو الذي قدمه وحرّجه ، وكان يرى بما كان يُرى به مما يمسك عن ذكره .

حدث موسى نفسه ، فقال : وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم و مّرات .

وقد لامة محمد بن الحهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه ، فكتب اليه أحمد اس يوسف شعرا يلتمس اليه فيه أن يكف عن عدله . وقد أسكنا عن ذكره أيضا لما فيه من محو .

ومن عزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب ، وكان يميل اليه ، وقيل عنه إنه كان صبيّا مليحا :

صَدَّ عَنِّي مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ * أَحْسَنُ الْعَالَمِينَ ثَانِي حَيْدٍ

صَدَّ عَنِّي لَفْزُ جُرْمٍ إِلَيْهِ * لَيْسَ إِلَّا لُحْسُهُ فِي الصُّدُودِ

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه ، فنظر الى عارصه قد أحتط في حذنه ، فأخذ رقعة وكتب فيها :

لِخَالِكَ اللَّهُ مِنْ شَعْرٍ وَزَادَا * كَمَا أَلْبَسَتْ عَارِصَهُ الْحَدَادَا

أَغْرَتْ عَلَى تَوَرَّدِ وَجْهِهِ * فَصَبَّرَتْ أَحْمَارَهَا سَوَادَا

ورمى بها الى محمد بن سعيد ، فكتب مجيبا : عَفَلَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ وَ يَاسِيدِي وَأَحْسَنَ لَكَ الْعَوْصِ مَيِّ !!

وكان لطرفه وفعلته وصره بالأمور موصعا لرضا المأمون وعطفه عليه . ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وبله يديه مه جعلته لا يتحوز في كلامه كثيرا ، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أظف نفسه في مص سَقَطَاتِهِ ؛ فقد حكي : أن المأمون كان اذا تبخّر

طُرِحَ له العود والعبر، فإذا بَجَرَّ أمرُ بِإخراجِ الجَمْرَةِ وَوَضِعِها تحتَ الرجلِ من حِلْسائِهِ إِكراما لَهُ . وَحَصَرَ أَحْمَدُ بنَ يوسُفَ وَتَجَرَّ المأمُونُ على عاتِدَتِهِ ، ثُمَّ أمرُ بوضعِ الجَمْرَةِ تحتَ أَحْمَدَ بنِ يوسُفَ ، فَقَالَ : هاوَا ذَا المَرْوَةِ ! فَقَالَ المأمُونُ : أَلَا يَقَالُ هَذَا ؟ وَنَحْنُ نَفِصِلُ رَحِلا وَاحِداً مِنْ حَدمِنا بِسِتَةِ آلافِ دِينَارٍ ! إِمَّا قَصِدُما إِكرامَكَ ، وَأَنْ أَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ قَدِ اقْتَسَمَما بِمُجُورٍ واحِداً ، يُحَصَّرُ عَنَّا ! فَأَحْصَرَ مِثْلَهُ شَيْءٌ فِي النِّفَاةِ مِنَ الجُلُودَةِ ، فِي كُلِّ قِطْعَةٍ ثَلَاثَةُ مِثاقِيلَ ، وَأَمْرُ أَنْ تُطْرَحَ القِطْعَةُ فِي المِحمَرِّ يَنْحَرِبُها أَحْمَدُ بنُ يوسُفَ ، وَيُدْخِلُ رَأْسَهُ فِي رِيقِهِ حَتَّى يَبْقَدَ بِمُجُورِها ، وَقِيلَ لَهُ ذَلِكَ قِطْعَةٌ ثَانِيَةٌ وَثَالِثَةٌ ، وَهُوَ يَسْتَعِيبُ وَيَصْبِيحُ ، وَابْصُرْ إِلَى مَنزِلِهِ وَقَدْ أَحْتَرَقَ دِمَاعُهُ ، وَأَعْلَى وَمَاتَ سَنَةَ ٢١٣ وَقِيلَ سَنَةَ ٥٢١٤ هـ .

وكانت له جارية يقال لها نسيم ، لما من قلبه مكان حطير، فقالت ترثيه :
ولو أن ميتاً هابه الموت قبله * لما جاءه المقدار وهو ميؤت
ولو أن حياً قبله هابه الردى إذا لم يكن للأرض فيه نصيب
وقالت أيضاً ترثيه :

نَفْسِي وَدَاؤُكَ لَوْ بَالَسَ كُلِّهِمْ * مَا بِي عَلَيْكَ تَمَنَّوْا أَهْمَ مَا تَوَا
وَاللَّوْزَى مَوْتُهُ فِي الدَّهْرِ وَاحِدُهُ * وَلِي مِنَ الْهَمِّ وَالْأَحْرَانِ مَوْتَاتِ

(و) یحییٰ بن اکثم القاضی :

هو أبو محمد يحيى بن أحمد بن محمد بن قطل يتهى نسبه إلى أحمد بن صفى التميمى
حكيم العرب المعروف .

عرف التاريخ يحيى بن أكرم حدثاً في مجلس سفيان بن عُيَيْة ، المعروف بعلمه وورعه ونموذه ، اذ يقول ابن جُلْكان في كتابه ”وفيات الأعيان“ : ورأيت في بعض المجاميع أن سفيان نرج يوماً الى من حواه يسمع منه وهو صَحْرٌ ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون حاليستٌ مُحْمَرَةٌ بن سعيد وحالِس هو أبا سَعِيد الخُدْرِي ، وجالست عمرو ابن دينار ، وحالِس هو عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وجالست الزُّهْرِي وجالِس

هو أنس بن مالك، حتى عذ جماعة، ثم أنا أحالكم ! فقال له حدث في المجلس : انتصف
يا أما محمد ، قال : إن شاء الله تعالى ، فقال : والله لشقاء أصحاب رسول الله مك
أشد من شقائك با ! فاطرق سفيان وأشد قول أبي نواس :

حَلَّ جَنِيكَ لِرَامٍ • وَأَمِيسَ عَه بِسَلَامٍ

مُتَّ بَدَاءَ الصَّمْتِ حَيْرٌ • لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ

إِنَّمَا السَّالِمُ مِنَ النَّجَمِ مَاءٌ طَلَامِ

فتفرق الناس وهم يهذئون راحة الحديث ، وكان ذلك الحدث يحيى بن أكرم القمي ،
فقال سفيان : هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء ، يعني السلاطين . اهـ

هذا كل ما علمه عن حدائث يحيى بن أكرم . وهي حدائث تبشر بما سيكون لهذا
الباشي من مكانة وفود حديرين بما وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر ، وقوة قلب وسلطة
لسان . تلك المخايل كانت واضحة فيه ، وقد جعلته حديث حاصري مجلس سفيان ، وحملت
سفيان على أن يقول عه . هذا العلام يصلح لصحبة هؤلاء (مشيرا الى ولاية الأحكام) !
لقد صدقت الأيام حدس سفيان فيه ، فقد انحط يحيى في سلك القصة صغيرا
لحائته ، ثم درج في مناصب القضاء حتى تنوأ اسمي مناصب الدولة ، تنوأ منصب قاضي
القضاة ، ومنصب الوزارة للأموال ، مطورا اليه في كل ما تولاه من المناصب بالتجلة
والإكثار من الخاصة والعامة .

ونحن ذا كرون لك حياته وما تولاه من مناصب ، ومكانته العلمية والأدبية ، وما كان
متصفا به من الحزم وحسن السياسة ، وأقوال الناس فيه وفي أخلاقه ، ووجهة نظر كل
فريق من الناس فيه ، معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية ،
منبين على ما يمكن أن يقع بينها من خلاف كثير أو قليل .

أول عمل تولاه :

أما أول عمل تولاه فيحدثنا عنه ابن طيفور بقوله : « قال حدثني أحمد بن صالح الأصبهاني ،
قال : هل تدري ما كالب سبب يحيى بن أكرم ؟ قلت : لا وإني أحت أن أعرفه .

قال : يحيى بن حاقان هو وصّله بالحس من سهل وقربه من قلبه وكثره في صدره ، حتى ولّاه قضاء البصرة ثم استورده المأمون فعمل عليه . وحدثني عبد الله بن أبي مروان الفارسي ، قال : كان ثَمَامه سبب يحيى بن أكرم في قضاء البصرة مرتين وسبب تحلّصه من الخادم الذي أمر بتكشيفه بالبصرة ، ويقال إنه قطع حُصَيْنَه في تمديده بالقصب اه .

ويقول ابن حلكان في سبب اتصاله بالقضاء : أراد المأمون أن يُوتّي رجلا القضاء ، فوصّف له يحيى بن أكرم فاستحصره ، فلما حصر دخل عليه ، وكان دِيمَم الخلق فاستحقّقه المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال . يا أمير المؤمنين سلني إن كان القصد علمي لا حلق ، فسأله المأمون المسألة المعروفة والميراث والمسئلة المأموية ، وهي أوام وبنان لم تُقسم التركة حتى ماتت إحدى البنين وحلفت من في المسألة ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الميت الأول رجل أم أصرأه * يعرف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلّده القضاء .

ثم يذكر لنا ابن حلكان مد ذلك قللا عن تاريخ سداد للحطيط . أن يحيى بن أكرم ولى قضاء البصرة وسبب عشرون سنة أو نحوها ، فاستصره أهل البصرة فقالوا : كم سن القاصي ، فعلم أنه قد استصر فقال . أنا أكبر من عتّاب بن أسيد الذي وّحه به النبي صلى الله عليه وسلم قاصيا على مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من مُعَاد بن حَلّ الذي وّحه به النبي صلى الله عليه وسلم قاصيا على اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وّحه به عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قاصيا على أهل البصرة ، فجعل جوانه احتضاحا .

قد عرّفت مما ذكرناه عن ابن طيعور المعاصر ليحيى وعن ابن حلكان أن بين روابق المؤرخين في سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافا ، فابن طيعور يروى لنا أنه اتصل أولا بالحس من سهل نائب الخليفة المأمون في سداد ثم ولّاه قضاء البصرة . وإن خلكان يروى لنا أنه اتصل بالمأمون وهد أن امتهحه وعرف فضله ولّاه القضاء . فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما .

يُخَيَّلَ إلَيْنَا أَنَّ كُلَّتا الرِوَايَتَيْنِ صَحِيحَةٌ، حُصُوصًا إِذَا دُكِّرَ مَا رَوَاهُ ابْنُ طَيْفُورٍ مِنْ أَنَّ ثَمَامَةَ كَانَ سَبَبَ يَحْيَى بْنِ أَكْرَمٍ فِي قَضَاءِ الْبَصْرَةِ مَرَّتَيْنِ، إِذْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ تَوَلِيَّتُهُ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى كَأَنَّهُ عَنْ طَرِيقِ اتِّصَالِهِ بِالْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ، وَأَنْ تَوَلِيَّتُهُ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ كَأَنَّهُ عَنْ طَرِيقِ اتِّصَالِهِ بِالْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ، وَأَنْ مَا دُكِّرَهُ ابْنُ حُلَكَانَ فِي تَارِيخِهِ مِنْ اسْتِصْفَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ لَهُ ثُمَّ احْتِجَاجِهِ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا فَعَلَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى .

وَبِهَذَا التَّحْلِيلِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَفْهَمَ مَا يَدْكُرُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّهُ عُرِّلَ مِنْ قَضَاءِ الْبَصْرَةِ لِأَمْرِهِ بِتَعْذِيبِ حَادِمٍ مَالِقَصْبٍ مَعْدَ تَكْشِيفِهِ حَتَّى قَطَعَتْ حَصْبَتُهُ، ثُمَّ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ أَنَّهُ عُرِّلَ لِقَوْلِهِ أَيْبَاتًا مِنَ الشَّعْرِ تَفْزِلًا فِي أَيْمَنِ مَسْعُودَةٍ، وَكَأَنَّهُ عَلَى نَهَايَةِ الْحَمَالِ .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ، فَحَسْبُ زَجْحٍ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ مَرَّتَيْنِ : الْأُولَى عَنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ ثُمَّ عُرِّلَ لِأَحَدِ السَّبَبَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ أَوْ عِيَرَهُمَا بِمَا لَا يَقْطَعُ بِهِ ، وَالثَّانِيَةِ عَنْ طَرِيقِ الْمَأْمُونِ .

بَقِيَ شَيْءٌ آخَرٌ مِمَّا يَرْوِيهِ ابْنُ حُلَكَانَ زَيْدٌ أَنْ نَلَفْتَ الْبَطْرَالِيَّةَ، فَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّنَاقُضِ أَوْ السُّهْوِ . فَكَأَنَّهُ يَرْوِي لَنَا أَنَّ يَحْيَى حِينَ وُلِّيَ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ كَانَتْ سِنُهُ نَحْوَ عَشْرِينَ سَنَةً وَأَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ اسْتِصْفَوْهُ فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ وَعُمَرُ . وَسِوَاهُ أَكَانَتْ تَوَلِيَّتُهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ أَمْ عَنْ طَرِيقِ الْمَأْمُونِ، فَهِيَ لَا بَعْدَ أَوَائِلِ الْقُرْنِ الثَّلَاثِ الْهَجْرِيِّ، ثُمَّ يَذْكُرُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَوَلَّى مَالِيَّةَ سِتَّةِ أَثْنَتَيْ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ وَقَبْلَ غُرَّةِ ثَلَاثِ وَأَرْبَعِينَ وَعُمُرُهُ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ سَنَةً . إِذْ مَهْمَا مَالِقَصْبٌ فِي سِتَّةِ مِائَتَيْنِ مَعَ رِوَايَةِ ابْنِ حُلَكَانَ فَقَلَّا عَنْ تَارِيخِ بَعْدَادٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ وَسِنُهُ نَحْوَ الْعَشْرِينَ فَلَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ السَّنَتَيْنِ إِلَّا قَلِيلًا ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ حُلَكَانَ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى وَعُمُرُهُ ثَلَاثَ وَثَمَانِينَ سَنَةً ! وَلَوْ فَرَضْنَا صَحَّةَ مَا يَقُولُهُ ابْنُ حُلَكَانَ فِي عُمُرِهِ حِينَ الْوَفَاةِ ، وَفَرَضْنَا أَيْضًا صَحَّةَ مَا تَقْلَهُ عَنْ تَارِيخِ بَعْدَادٍ مِنْ أَنَّهُ تَوَلَّى قَضَاءَ الْبَصْرَةِ وَسِنُهُ نَحْوَ

العشرين لكنت توليته قضاء البصرة في النصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون ، وهو خلاف المجمع عليه وحلاف ما ينقله هو أيضا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين .

ثم رى يحيى سعد أن عزل من قضاء البصرة في بغداد ناويا في دار شادها له صديقه الحميم ثمامة بن أشرس بحضرته ؛ وكان ثمامة بن أشرس هذا عالما متكلما سليط اللسان قوى المحبة ذا آراء في الاعتزال واليه تنسب الطائفة الثمامية من المعتزلة ، وكان متصلا بالمأمون ، محبا اليه ، موثوقا به ، فكان حير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون ، ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاء وحزم فأدماه اليه وقربه منه وحصنه برعايته وعطفه حتى علب عليه دون الناس جميعا .

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكرم قال للمأمون : أظهر لكل قاص ما تريد أن توليه إياه وأمره بكتابه ، ثم أنظر أيفعل أم لا ، وصنع عليهم أصحاب أحبار ، فقال له المأمون : أولئك قضاء القضاة ، وقال لغيره ما يريد أن يوليه ، فشاغ ذلك كله إلا يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج الى البصرة على قضائها ، فدمتهم وقال له : كيف شاغ هذا وأمرت باكتراء السفن الى البصرة * قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، ليس يستقيم كتاب شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه ، قال : صدقت وحده .

من المجمع عليه أن يحيى بن أكرم كان قاضي القضاة للخليفة المأمون ، ولكن هل تَوَزَّر له لم يدركه الفجرى في وزراء المأمون ، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنه أن المأمون استوزره . فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طائفة من محمد بن جعفر إذ يقول في آخر وصفه لفضل يحيى بن أكرم وعلمه وأخلاقه : وكان المأمون ممن برع في العلوم فعرف من حال ابن أكرم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئا إلا بعد

مطالعة يحيى بن أكرم . ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد . على آثا قد عددناه من وزراء المأمون في كتابنا المجمل عن وزرائه .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان يحيى بن أكرم قاصي القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ في الدولة ، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة . ولكي تقدّر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكرم نفسه . قال :

« بَتَ ليلةً عبد المأمون فانتبه في مضى الليل فطن أني نائم ، فمطش ولم يدعُ السلام لئلا أنتبه ، وقام متسللاً حائماً هادئاً في حُطاه حتى أتى البرادة ، فشرب ثم رجع وهو يُخفي صوته كأنه لص حتى اصطجع ، وأحده سُـمـالَ فرايته يجمع كنه في فـهـ كـي لا أسمع سُـمـالَه ، وطلع الصبح فأراد القيام وقد تناومت فصـبـر إلى أن كادت تموت الصلاة ، فتحرّكت ، فقال : الله أكبر ، يا علام نـبـه أبا محمد . فقلت : يا أمير المؤمنين رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صميمك وكذلك جعلنا الله لكم عييدا وجعلكم لما أربابا » .

وهالك حكاية أخرى تدلّ على أدب المأمون وحُظوة يحيى لديه ، وهي مَرْوِيَةٌ عن ثُمّامة ابن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون . قال ثُمّامة : « كان يحيى بن أكرم يمشي المأمون يوما في سنان موسى والشمس على يسار يحيى والمأمون في الظل ، وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدّثان حتى طلع حيث أراد ، ثم كَرَّ راجعا في الطريق التي بدأ فيها ، فقال ليحيى : كانت الشمس عليك لأنك كُتَّ على يساري وقد نالت منك ، فكن الآن حيث كُتُّ وانتحول أنا إلى حيث كُتَّ ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أفيك هَوَلَ المطلع بنفسى لصعلت ؛ فقال المأمون : لا والله ما بُدُّ من أن تأخذ الشمس مني مثل ما أخذت منك ، فتعزّل يحيى وأحد من الظل مثل الذي أخذ منه المأمون » اهـ .

ولم يزل في هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه ، يفوّض إليه المأمون جليل الأعمال ويرسله في مهام الأمور ، حتى كانت سنة ٥٢١٦ هـ إذ نرى المأمون بمصر يَسْخَطُ على يحيى بن أكرم الذي كان في حاشيته ويرسله مضموبا عليه إلى العراق ، ثم يبلغ من حَقِّقه عليه أن يكتب

في وصيته الى ولّى عهده المعتصم محدّرا إياه من اصطلاح الوزراء والركون اليهم ضاربا يميني ابن أكرم مثلاً في سوء السيرة وقبيح العمال . ونحن تلقى على مسامحك ما كتبه في وصيته متعلّقا يميني : « ولا تتخذن بعدى وزيراً تلقى اليه شيئاً ، فقد علمت ما نكتبي به يميني بن أكرم في معاملة الناس وخست سيرته ، حتى أمان الله ذلك منه في صحة منى ، فصرت الى مفارقه قالياً له غير راض بما صنع في أموال الله وصدقائه ، لا حراه الله عن الاسلام حيرا » .

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يميني بن أكرم بعد ذلك ، وتتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله ، فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي دؤاد قوض ولاية القضاء الى القاضي يميني وحل عليه خمس حلج ، ثم عصبت عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله وألزم مرله . ثم حجّ بعد ذلك وأحد معه أخته واعترم أن يحاور ، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له ، فدا له في المحاوره ورحح يريد العراق ، فلما كان بالزبدية في طريقه الى العراق واقعه المية يوم الجمعة منتصف ذى الحجة سنة أربعين ومائتين ، وقيل عمرة ثلاث وأربعين ومائتين ودفن هناك . وقد قدّما لك ما ذكره ابن خلكان في عُمره حين الوفاة وشفعاء بما يمكن أن يكون في كلامه من تناقص أو مهو أو تحريف .

كان يميني بن أكرم فقيها عالماً بالفقه ، بصيراً بالأحكام ، وقد عدّه الدارقطني في أصحاب الشافعي رضى الله عنه ، راوياً للحديث ، أحداً بحظ كبير من كل فن ، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما ، ويروى عنه الترمذى وغيره من رجال السنة وحفظة الحديث . وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة . ومما رفع منزلته لدى الناس جميعاً موقعه المشهور ، مع المأمون بما يدلّ على سعة علمه وقوة حجته وعظيم جراته . ذلك بأن المأمون رأى وهو في طريقه الى الشام جواز نكاح المتعة فوقف له يميني موقفاً أكسبه حمداً أئمة الدين وشاءهم عليه . ونحن نرجى إليك هذا الحديث نقلاً عن ابن خلكان . قال : « حدثت محمد بن مصبور قال : كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فودى بتحليل المتعة ، فقال يميني بن أكرم لى ولأى العيباء : بركاً غداً اليه فإن رأيتما للقول

يحيى بن أكرم القاصي

وجها نقولا وإلا فأمسكا إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه وهو يستاك و
 متمنان كاتتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهد أبي بكر رضي
 أنهي عنها ! ومن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله
 رضي الله عنه ! فأوما أبو العياد إلى محمد بن منصور وقال رجل
 ما يقوله بكلمة نحن ! فأمسكا . فجاء يحيى بن أكرم مجلس وحلسا . يحيى : مالي
 أراك متعيرا ؟ فقال . هو عم يا أمير المؤمنين لما حدثت في الإسلام . وما حدث
 فيه ؟ قال : البداء تحليل الرأ ، قال : الرأ ؟ ! قال . نعم . المتعة رأ . ال . ومن أين قلت
 هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال
 الله تعالى . ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِعُرْوَجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ ، فَمَنْ أَتَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾
 يا أمير المؤمنين ، روحه المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال : فهي الروح التي عند الله ترث
 وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها ؟ قال : لا ، قال : فقد صار متجاوز هدي من العادين ،
 هذا الزهرى . يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن أبي محمد بن الحنفية عن أبيهما
 من علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن
 أأدى بالنهي عن المتعة ومحريمها سد أن كان قد أمر بها ، فالتفت إليها المأمون فقال :
 أحفظ هذا من حديث الزهرى ؟ قلنا : نعم يا أمير المؤمنين رواه جماعة منهم مالك
 رضي الله عنه ، فقال : أستغفر الله ! مادوا بتحريم المتعة فأتوا بها . “ اه

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام ، ويحتاج إذا أراد
 أن يسدى رأيا فيها إلى شيء غير قليل من الأمانة والروية . ذلك بأن يحيى كان يقف موقفا
 قريبا من الفتنة العيفة التي كانت مصطمره في وقته ، فهو قاصي قصاص المأمون ، ومنزلته منه
 منزلة يُقْبَطُ عليها ، والمأمون زعيم القائلين بخلق القرآن ، وهي مدعة اعتزالية ، ثم هو في الوقت
 نفسه مرصى عنه من الجماعة وأهل السنة ، ثم نراه حيا تقف موقف المعارضة من صديقه

شمر المقتلى وزعيم الطائفة الثمانية، معارضة تشدد في بعض الأحيان

رة . وأنت تعلم من هو ثمانية وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به ، ثم تعلم

ف نفسه وكل له من يد عليه . أصف الى كل هذا ما يرويه اس خلكان

من أنه كلام الله ، من قال : إنه محلول يستتاب ، فإن تاب وإلا

صرت ص . ن المأمون زعيم القائلين بذلك .

فهل يمكن - إبداء رأى في عقيدة يحيى الكلامية ؟ وهل يمكن أن تكون كل

هذه الروايات : يتج مع ما يبدو عليها من شبه تناقض ؟

نظن أنه مستعمل شيء من التحليل يمكن إبداء الرأى ، ويمكن التوفيق أيضا . ذلك

بأن يحيى بن أكرم كان كتيبا حازما ، حفيظ الروح حلو اللسان ، فاستطاع بذلك أن

يدارى الناس جميعا ، خاصتهم وعامتهم ، وأن يكتسب رضاهم جميعا . فاذا حوِّروا وحوِّد

فاشتهد أحيانا فإنما يكون ذلك الى الحد الذى لا يمس مكانته وعهده ، ففى فى خطوة

لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل خطوة ، وكان فى الوقت نفسه بموضع الكرامة

والرضا من أهل السنة والجماعة .

الى هنا لم نستطع أن نندى شيئا فى رأيه . وكل ما يمكن أن يستنتج مما تقدم أنه كان

حسن التقية ، مارعا فى المداراة والمصانعة والرأى . وكانت هذه الخلقة من أظهر تمييزات العصر ،

فانطليفة يدارى فيقابل قاتل أخيه بالترحاب ، فاذا ما خرج القائد القاتل وسئل المأمون عن

صره استعبرها كانت إجابته : « قتلتى الله إن لم أقتل طاهرا » ، ثم هو يعد يوصى صاحب

أخباره بالرأى ، ويعتد لنا أهل الرأى وعصره ، وهالك مثلا قاصى قصاته كما ترى من سيرته .

ولكن هل من الممكن أن يستسيغ مشاقته السبعة أحيانا فى معاورة صديقه ومصططحه

نمأة بن أشرس ، مع ما فى هذه المشاقة من نُكْزَان للحميل ومن تعريض نفوده للصيباع ،

نون أن يكون على خُلف معه فى الرأى ، ودون أن يعيل الى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه

كان سليما من الدمة ، يتحمل مذهب أهل السنة ؟

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبي دؤاد ويحيى بن أكرم في أخلاقهما وآرائهما وفقردهما لدى الملوك فيقال إن كليهما علب على سلطانه في عصره . ووصفهما بعض اللغاة وقد سئل عن أيهما أنبل فقال : كان أحمد يحدّث مع جاريته وأبنته ، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه .

سيرته :

أما سيرته فلم نر حلا في مركزه الديني والاجتماعي حامت حوله الرّيب والإشاعات مثل ما حامت حول هذا القاضي ، ومع هذه الرّب والإشاعات فقد كان مرعياً بالجنب ، موفوراً الكرامة . ويظهر أن حلّ الناس حتى أحصّ أصدقائه به ، كانوا ينجحون الى تصديق هذه الإشاعات ، إلا أئمة الدين فقد كانوا يكبرونه ويكبرون أن يكون لهذه الاشاعات ظلّ من الحق ، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأبكرها إنكارا .

ولعل الذي يعسر موقف رجال الدين من هذا الموقف ، وإنكارهم ما ينسب اليه من إشاعات ، موقف يحيى من المأمون يوم (المنعة) وغير يوم المنعة ، مما جعله في بطرهم بطلا من أبطال الدين ، وحليفاً بمثله أن يكون تتّحوّ من كل منكر .

أما يحيى نفسه فيحدثنا ابن خلكان قلاص ابن الأنباري أنه قال لرحل كان يأنس به ويمارحه : ما تسمع الناس يقولون في . قال : ما أسمع إلا حياء قال : ما أسألك لتركني . قال : أسمعهم يرمون القاضي . قال : فصحك وقال : اللهم عَفِّراً المشهور عا غير هذا .

ويقال : إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأحلى له مجلساً واستدعاه ، وكان قد أسرّ الى علام حرّري أن يكون في خدمتهما وحده ، حتى اذا خرج المأمون طابث القاضي ، فلما استقرّ بهم المقام وخرج المأمون ، أحد العلام يعايب القاضي ، فسمع المأمون — وكان يستمع حديثهما — القاضي يقول : " لولا أنتم لكانّا مؤمنين " فدحل عليهما منشداً قول أبي حكيمة راشد بن اسحاق الكاتب :

وَكَا تُرَجَّى أَنْ نَرَى الْمَدْلَ ظَاهِراً * فَأَعْقَبَا مَعْدَ الرِّهَاءِ قُنُوطَ
مَنْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا وَيَصْلُحُ أَهْلُهَا * وَقَاضَى قُصَاةَ الْمَسْلُوبِ يَلُوطَ

وقد قلنا : إن أحسن أصدقائه به كان يمنح الى تصديق هذه الإشاعات ، فقد قيل : إن صديقه أما عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد انتهى بعد أن مات يحيى أن يراه في المنام ليعلم ما فعل الله به ! فأوحى اليه الأحلام أن الله عفر له بعد أن وبّحه على تحليطه ، وأن يحيى حاج ربه بالحديث المشهور : « إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة بالنار » فهل يستوحى الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه من يعتقد براءته ! .

تأليفه :

يحتشأ المؤرخون أن يحيى بن أكرم ألف كتباً في الفقه ، وأخرى في الأصول ، وله كتاب أوردته على العراقيين أصحاب أبي حنيفة سماه : « كتاب التنبيه » . وهذا يؤيد ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي .



(ز) إسماعيل بن إبراهيم الموصلي :

قد يكون حظ المصنف وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في المصور الإسلاميّة أكثر من حظ غيرهم ، وقد عُني المؤرخون بتسجيل حوادثهم وأحوالهم وإيقاعاتهم ، وما كان يقع بينهم من خلاف مدشّوه المفاضة والحسد ، أو التقرب الى ذوى السلطان ، وما كان يتبع لهم من معاكمات لطيفة ، وبكات طريفة . وهذه العناية طاهرة من الكتب الكثيرة التي أُرصدت لهذه الحاجة من تاريخ الحضارة الإسلامية ، وقد عثت الدهر بجل هذه الكتب ، ولم يبق منها إلا القليل ، وعلى رأس هذا القليل الباقي ، وهو المحلّة في هذا الموضوع « كتاب الأغاني لأبي المرحج الأصمّهاني » .

وقبل أن نعرض للكلام على إسماعيل ونفصيل حياته ، نقرّر أسا عاجزون كلّ العجز عن أن نخلو الحاجة المنيّة من شخصيته ، فإن حلاّه هذه الحاجة وكشفها لا يتسق إلا لرحل أوتيَ حظاً كبيراً من الموسيقى ، يستطيع به أن يقدر مواهب أهل الفنّ وما وقّوا اليه من إحاده ، وزجوا أن يتاح لإسماعيل من يتوافر له هذا الخط ، فيخلو لنا شخصيته الفنية ، ومبلغ

المدى الذى قطعته فى سبيل الكمال الموسيقى، كما أتيح "لبتهوفن" و"غيرتهوفن" من أصحاب المواهب الكبيرة فى الموسيقى، من أبرز شخصياتهم العناية للناس، وأمان ما لعقوماتهم من آيات حالات فى الفن .

ولن يستطيع أحد مهما أوتي من مواهب، واتحد من أسباب أن يحلوا شخصية إسحاق الصبي، ما بقيت مصطلحات الموسيقى العربية مقلقة لم تعج، وما بقيت تعاليمها أعالما لم تحل .

واذ كان هذا هو موقفا من اللاحية الصبي إزاء شخصية إسحاق، فلكن مؤرخين ليس غير . نورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون، مع تحليل ما توفق الى تحليله من أخلاقه وأعماله، ومقول :

هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون بن هاشم بن نسيك . ووالده إبراهيم وهو ماهان ، وسبب سببه الى ميمون أنه كتب كتابا الى صديق له فصوره : من إبراهيم بن ماهان فقال بعض إخوانه من بنيان الكوفة : أما تستحي من هذا الاسم ؟ قال : هو اسم أبي قال : فعبره ، قال : فكيف أصبره ، فأخذ القى الكوفى الكتاب فحما ماهان ، وكتب ميمونا فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون .

وأصل أسرة إسحاق من فارس ، من بيت شريف فى العجم ، كان حرب حده . ماهان من حور بعض عمال بى أمية نقرأح طولب بأدائه ، فزل الكوفة . وأم إبراهيم والد إسحاق من سات الدهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان ، وتروجها ماهان بالكوفة ، فولدت له إبراهيم ثم مات وسن إبراهيم ستان أو ثلاث فكمل إبراهيم آل حريمة بن حازم ، ومن هذا صار ولأؤه الى تميم .

وقد سأل الرشيد إبراهيم عن السبب بينه وبين تميم فقال له : روتنا يا أمير المؤمنين ، فاحسوا تربيتنا ، ونشأت فهم وكان بيديا وبينهم رصاع حولونا بهذا السبب . وقال إسحاق يفتخر بأصله وببته وكافل أبيه :

إذا كانت الأشراف أصل ومُصْبِي * ودافع صمى حازم وأبن حازم
عَطَسْتُ مايف شامح وتناولت : يَدَايَ الثَّرَيَا قَاعِدًا عَيْرَ قَائِمِ

وسبب قولهم الموصل أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك محب العتيان وأشتهى العناء وطلبه، فاشتد أحواله عليه في ذلك، وطمعوا منه، فهرب إلى الموصل، وأقام بها سنة، فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من العتيان : مَرَّحَا مَالِقِي المُوَصِّلَ، فغلبت عليه .

ثم ما زال إبراهيم يأخذ بأساب الماء حتى حذقه، وأتصل بأحد عمال المهدي، ثم بلغ المهدي أمره، فطلبه إليه، وبقى بعد ذلك متصلاً بالخلعاء ورحلات الدولة حتى توفى في عهد الرشيد سنة ١٨٨ هـ .

أما ابنه إسحاق الذي عَقَدَا هذا الفصل لتحليل شخصيته، وللكشف عن مواهبه وأخلاقه، فوُلِدَ سنة ١٥٠ هـ . ولم يظهر شأنه، وتَمَّ منزلته إلا في أيام الرشيد، ثم أحد تجرئه يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد والأُميين والمأمون والمعتمد والواثق، ثم توفى سنة ٢٣٥ هـ في صدر أيام المتوكل . وكان يَحُلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعاً بموضع العطف والتعطف، وسند كرشيتا من صلته بكل خليفة، وما كان يُفِدِّقه عليه كل خليفة من عطف ومال .

نشأته :

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتثقيف حيراً من حظ والده إبراهيم، وإن والده نشأ يتيماً فكَمَلَه غير أبيه حتى إذا شَت وترعرع، وطمهر ميله إلى نوع خاص من الصون، لم يجد من الثمانيين أمره ومن لهم سلطان عليه من يقدّر استعداداته الفطرية، وتزعماته النفسية، حتى أصطر من إلحاح صمط أحواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك النساء، وآلا يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى أن يهيم على وجهه في الأرض، في سبيل تحقيق ما يميل إليه نفسه، ويهيئه له استعداداً .

(١)
أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبية، وشب وترعرع ببيه، وقد وحد من أبيه الذي
فهم الحياة ولدعته الأمها، من يهتم بتتبعه، ويحترم نزاعه الفطرية، وميله المسية .
وإسحاق بعد ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقَدَّم لدى رجالات الدولة، وفي وفرة من الثراء،
وحظ عظيم من الترف، مما يصله به الخلفاء وغير الخلفاء، فاستطاع إسحاق لجاء أبيه وماله
أن يختلف إلى حلة العلماء، ويكره رجال الفن، وأب يرثاد حير البيئات والأوساط التي
لا يقل أثرها في تهذيب العوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظ الموسيقى والآداب أن
تنبأ الأسباب وتستوى الوسائل لرحلها القَدِّ وابعثها العظيم .

وبجئنا إسحاق عن شيء من تربيته وتثقيفه، فيقول : «أنت دهرًا أظن كل يوم
إلى هشيم ، فأسمع منه ثم أصير إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جرما من القرآن،
ثم آتي منصور زرل، فيصاري طريقتين أو ثلاثا، ثم آتي عائكة بنت شهدة، فأخذ منها
صوتا أو صوتين، ثم آتي الأحمسي وأما عبيدة، فأشدهما وأحادهما وأستعيد منهما،
ثم أصير إلى أبي، فأعليه بما صنعت وأحدث، وأتفدى معه وأروح معه عشاء إلى
أمير المؤمنين» .

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه، أنه كان يختلف
كل يوم إلى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والحو، ثم أهل الفن الضارين على الآلات
والمُحَسِّن، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيتأشدهم ويحادثهم، ويستفيد
منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله يخبره بما صنع وأخذ، حتى إذا جاء النساء ذهب مع أبيه
إلى دار الخلافة، وهي — أيدك الله — خير مُتَدِّ لرجال العلم والأدب والسياسة في الدولة .

هذه التربية المنظمة، والبيئات الراقية، أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي : ذلك
الطفل الذكي النشيط، رجلا يصنفه صاحب الأغاني بقوله : «موصعه من العلم، ومكانه

من الأدب، وعمله من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزته في سائر المحاسن، أشهر من أن يُدَلَّ عليها بوصف، وسترى في مَطَاوِي ما نوره عليك من أحاديثه، ونواده أنه ما طالع علما من العلوم، أو فنا من الفنون، إلا رَعَّ فيه وبرَزَّ .

فاما الفناء، فحدثنا أبو الفَرَح صاحب الأَعْلَى أنه كان أصغرَ علومه، وأدنى ما يؤمَّم به، وإن كان العال على وعلى ما كان يُحسبه، فإنه كان له في سائر أدواته، نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا بطير لِحَقَى مَيَّ مَصَى فيه، وسَوَّى مَن قد بَقِيَ، وسهل طريق العناء وأثارها، فهو إمام أهل صناعته جميعا، وقُدُوتُهُم ورَأْسُهُم ومعَلَّمُهُم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد له المؤاقر والمُعَارِق، على أنه كان أكرهَ الناس للفناء، وأشدَّهم سُفْضا له، لثلا يُدعى عليه ويُسمَّى به .

وهذه الجملة الأخيرة، وهي أنه كان من أكره الناس للفناء الخ، تدلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من حجة، وعلى ما كان للفنّين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومترلة من حجة أخرى، كما تدلنا على أن المفس وأهل الموسيقى، كانت مترلّتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون مترلة الرُؤَاة وأهل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضا على أن إسحاق كان على العكس، بعيدَ الهِيمَة، يَكْرَهُ أن يتصل عن يقعد به دون ما هو حليق به من مترلة ومكامة، ومادا يصعب إسحاق وقد أُوتِيَ مَوْهَه لم يُؤَثِّرْ أَحَدٌ صِيْرُهُ، وهي مَوْهَةٌ تَأْبَى إِلَّا أَنْ تُعْلَى نَفْسُهَا، كما يُعْلَى الزهر نفسه مَارِحَه، والقُمَيْرِيَّ يَهْدِيْلَه، ومادا يُجْعِدِي عليه كَرِهُهُ للفناء ونفسُهُ له، وقد يطالبه به مَن لا يرى سبيلا الى مخالفته ؟

ولقد كان إسحاق في كراهيته للفناء صادقَ الشعور، صادقَ الحس، فإنه لم يَحُلْ بين المأمون وبين أن يُؤَلِّبَه أسمى المناصب إلا شهرته بالفناء، إذ يقول المأمون : « لولا ما سبق لإسحاق على أَلِيْسِه الناس وشهرته عندهم بالفناء، لَوَلِيْتُهُ القَصَاءَ بِعَصْرِي، فإنه أولى به وأعف وأصدق وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القصةاء » . وقد يكون من حق إسحاق أن يَكْرَهُ الفناء، ويَأْلَمَ لآلِصَالِه به، إذ يرى المناصب السامية في الدولة، يتزوَّها قوم

هم دونهم فيما وصلوا إليها به، وهم وصلوا إليها بالمسلم، وقد كان هو عالمًا بالغة والحديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكان لا يذبح قُرْصَةً دون أن يُعلَى مُحَطَّه وما ناله من ظلم، فقد حدثنا ابن حلكان أن محمدر عطية المَطْلُوي الشاعر قال: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكرم، فوالى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأحد ياطر أهل الكلام، حتى انتصف منهم ثم تكلم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة فهاق من حصر، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال: أعر الله القاضي، أي شيء مما طرب فيه وحكيته نقص أو مَطْلَسٌ، قال: لا، قال: ها بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها، وأنتسب إلى من واحد، قد اقتصر الناس عليه، يعني الفناء، قال المَطْلُوي: فالتفت إلى القاضي يحيى، وقال لي: الجواب في هذا عليك، وكان المَطْلُوي من أهل الحَدَل، فقال للقاضي يحيى: نعم—أعر الله القاضي—الجواب على، ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالغزاة والأخمش في النحو؟ فقال: لا، فقال: أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأضحية؟ وأي عُبيد؟ قال: لا، قال: فانت في علم الكلام كأبي الهذيل المَلَّاف والطَّام اللَّحِي؟ قال: لا، قال: فانت في الفقه كالقاضي؟—وأشار إلى القاضي يحيى— فقال: لا، قال: فانت في قول الشعر كأبي التَّاهِيَة وأبي نُؤاس؟ قال: لا، قال: فمن هاهنا تُسبِت إلى ما تُسبِت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله، فصيحك وقام وانصرف، فقال القاضي يحيى للمَطْلُوي: لقد وَيْتَ المَجْهَةَ حقها، وفيها ظلم قليل لإسحاق، وإنه ممن يُقَلُّ في الزمان نظيره . اهـ .

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالفناء دون غيره، مما كان يُحسِنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلو نفسه، وعد همته، مهيباً كريماً، حمُّ الأدب، غفيف اللسان . أما عن كرمه فيروى لنا صاحبُ الأغانِي، أنه كان يُجْزِي على أبي عبد الله الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، وأن ابن الأعرابي هذا وقب على

المدائن يوما، فقال له المدائن : الى أين يا أما عبد الله ؟ فقال : أمضي الى رحل هو كما قال الشاعر :

نزي ماشباحنا الى ملك • نأخذ من ماله ومن أدبه

قال : ومن ذلك ؟ قال : إسحاق بن إبراهيم ! .

وإنا نسوق اليك قصة أخرى وهي مع دلالتها على شغف إسحاق بالعلم، والحرص على استنباطه، تدل أيضا على سخاءه وكرمه .

قال إسحاق : جئت يوما الى أبي معاوية الضير، ومعي مائة حديث، فوجدت حاجبه يومئذ رجلا صريحا، فقال لي : إن أبا معاوية قد ولّاني حجابته ليفتني، فقلت له : معي مائة حديث، وقد جعلت لك مائة درهم اذا قرأتها، فاستأذن لي، فدخلت على أبي معاوية فلما عرفني دعاه، فقال له : أخطأت، إنما جعلت لك ذلك على الصمغاء من أصحاب الحديث، فانما أبو محمد وأمثاله فلا، ثم أقل على يرضني في الإحسان اليه، ويذكر صمغه، وصايته به، فقلت له : احتكم في أمره، فقال : مائة دينار، فأمرت الغلام بإحضارها، وقرأت عليه ما أردت وأصرفت . وهذه القصة تدل على أريحيته الى جانب دلالتها على علمه .

قال أحمد بن الهيثم : كنت يوما حالسا «بئر من رأى» عند إخوان لي، وكان طريق إسحاق في مضيه الى دار الخليفة، ورجوعه علينا، فجاءني الغلام يوما، وصدى أصدقائي، فقال : إسحاق بن إبراهيم الموصلي بالباب، فقلت : يدخل، أوفى الأرض من يستأذن عليه لإسحاق، فذهب الغلام يأذنه، وبادرت الى توقيه، فدخل وحلّس مبسوطا آتسا، فمرصا عليه ما عندنا، فأجاب الى الشراب، فأحضروا بيذا مشمسا، فشرب منه، ثم قال : أتحبون أن أهنئكم ؟ قلنا : إي والله ! أطال الله قدامك، إنا نحب ذلك، قال : فلم لا تسألوني ؟ قلنا : هبتك، قال : فلا تفعلوا، ثم دعا سودا، فأحضروا فاندفع يقى، فشربنا وطربنا، فلما فرغ قال : أحسنت أم لا ؟ قلنا : بلى والله ! جعلنا فداك، لقد أحسنت، قال : فا

منكم أن تقولوا لي أحسنت^١ قلنا : الميثة والإجلال لك ، قال : فلا تعملوا هذا فيما تستأنفون ، فإن المفتي يحب أن يقال له : أحسنت ، ثم خفي :

حليل^٢ مهابا نصطبح بسواد * وزرقلوا هامهت صوادي

وقولا لسافيا زياد يرقها * فقد هدّ مصّ القوم سقى زياد

فقلت : يا أبا محمد ، من هو زياد^٣ قال : علامي الواقف على الباب ، أذنه ياعلام ، فدخل فإذا هو غلام^٤ حلائي^٥ ، قيمته عشرون ديناراً أو نحوها ، فقال : أتسالوني عنه ، فأعرفكم إياه ، وأدخله إليكم ، ويخرج كما دخل^٦ وقد سمعت شعري فيه وعاني ! أشهدكم أنه حر لوجه الله تعالى ، وقد زوجه أختي فلانة ، فأعيوه على أمره ، قال : فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم . ولعل في هذه القصة المتقدمة أيضا ، مقمعا لك بما كان لإسحاق في نفوس الناس من قينة وكرامة .

منزلة إسحاق في الغناء :

قدّمنا لك أننا نتعرف بالمرء عن أن عكّلوا الناحية الميثة من حياة إسحاق ، وأن ذلك لا يتسق إلا لرسل أوتي من المواهب الفنية حظا عظيما ، وقدّمنا لك أن إسحاق كان يُحسّن كثيرا من العلوم إحسانا ، قل أن يَنسَقَ لغيره ، وأنه كان مع إحادته الغناء وتبريزه فيه ، وسنقه أقرانه ، يكرّه أن ينسب إليه أو يُستَئى به ، لأنه كان على النفس ، بعيد مرامي المهمة ، ويرى أن انتسابه إلى الغناء يقصر به عن ملوع مرامي همته . والآن قول : إنه كان مع هذا شديد الفطنة على الغناء ، كثير الدبّ عنه ، وله العدر ، فإن صاحب الفن أيا كان الفن ، لا يجد إلى الصبر سبيلا ، إذا عيبت به العابثون أو تهجّم عليه المتهجمون .

وإذا كنا نعرف بالعجز عن أن نجعل الناحية الفنية لإسحاق ، فإن ذلك لا يمتعا من أن ننقل اليك شيئا مما رواه المؤرخون ، لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الملطاء ، ورجالات الدولة ، وأصحاب الفن ، لبوعه في فنه ، وتبريزه فيه ، ولتعلم — أيضا — ما كان

(١) اختلافي : الولد بين أبرين أسود وأبيض .

يُبديه من ملاحظات — ملع ما كان له من دقة حتى ، وقوه ذوق ، وحدة شعور ، وسلامة فطرة .

ويمد بنا الكلام عن القصد ، لو أطلقنا لأنفسنا العنان ، في إيراد كل ما رآه حسا وطريفا من أحداث إسحاق وعالمه ، وما كان يتفق له من مفاهيم وواد ، لذلك نكتفي بإيراد بعض حوادثه ، مما يتصل بالخلفاء الذين عاشهم ، وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية .

وقننا لك أن إسحاق طهر في عهد الرشيد ، وتوفى في صدر أيام المتوكل ، فلذكر لك شيئا من تاريخه ، ووادره مع كل خليفة من خلفاء هذه العترة من العصر العباسي .

أما الرشيد فقد كان يُلقب من إغماء به ، بأبي صفوان ، ولقبه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت ، وقد ملع من إغماء به أن استأثر به لنفسه ، ونهاه عن أن يُغنى أحدا غيره ، ويحدثنا إسحاق عن هذا بقوله : نهاني الرشيد أن أعنى أحدا غيره ، ثم استوهى حمير بن يحيى ، وسأله أن يأذن له في أن أعنيه فعل ، وانعما يوما عند حمير وعنده أخوه الفضل ، والرشيد يومئذ عقيب حلة قد عوفي منها ، وليس يشرب ، فقال لي الفضل : انصرف الليلة ، حتى أهب لك مائة ألف درهم ، فقلت له : إن الرشيد نهاني أن أعنى إلا له ولأخيك ، وليس يعني عه خرى ، وأنا متهم بالميل إليكم ، ولست أتموص له ولا أعرضك ، فلما بكهم الرشيد ، وقال : إيه يا إسحاق تركني بالرقعة ، وحلست بعدد تئني الفصل بن يحيى ، خلفت بحياته إنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة ، وإنه ما سمعني قط إلا عند أخيه وحفته تربة المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائهم ، فسأل عنه فحدثت مثل ما ذكرته وعرف خبر المائة ألف درهم التي بذلها لي ورددتها ، فلما دخلت عليه ضحك ، ثم قال : سألت عن أمرك فقررت مثل ما عرفتني ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، عوصا عما بذله لك الفضل .

ويقول الأصمعي : دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يوما على الرشيد، فرأياه لقس^(١)
القس فأنشده إسحاق :

وأمره بالبحل قلت لها أقصرى * فذلك نبيء ما إليه سبيلُ
أرى الناس حُلَّانَ الكرام ولا أرى * بجيلا له حتى الممات حيلُ
ولائي رأيتَ البحل يُرى بأهله * فأكرمْتُ نفسي أن يُقالَ بجيلُ
ومن حير حالات القتي لو علمته * إذا مال حيرا أن يكون يُيلُ
فعالي مقلن المكثيرين ثَمَلًا * ومالي كما قد تَمَلَّيتَ قليلُ
وكيف أخاف العقر أو أحرَمَ النقي * ورأى أسير المؤمنين حيلُ

قال فقال الرشيد : لا تخف إن شاء الله، ثم قال : قد درُ أبيت تاتينا بها، ما أشدَّ
أصولها، وأحسنَ فصولها، وأقلَّ فصولها، وأمر له بمئتين ألف درهم، فقال له إسحاق :
وصفُّكَ والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه ، فعَلَّامُ آخذ الجائزة ؟ فصحك الرشيد،
وقال : أجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعي : فعلت يومئذ أن إسحاق أحْدقُ بصيد
الدراهم مني ! .

وكان من أشدَّ مفاصلي إسحاق في العِياء إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد الذي كان يعتزُّ
عليه بجاهه ، وبأله من حظِّ في الص كبير، ومن أشدَّ الملاحاة التي حدثت بينهما، ما كانت
في مجلس الرشيد . قال إسحاق : كنت عند الرشيد يوما، وعنده ندماءؤه وحاصته، وفيهم
إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد عني :

أعادل قد نُهِيتُ لها انتهيتُ * وقد طال العتاب فما أروعيتُ
أعادل ما كبرتُ وفي مَلْهُي * ولو أدركتَ غايَتَكَ آتَنَهتُ
شَربْتُ مُدَامَةً وَسُقِيتُ أخرى * وراحَ المُتَشَوُّونَ وما أَتَنَهتُ

فنيته، فأقبل على إبراهيم بن المهدي فقال لي : ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له : ليس هذا مما تعرفه ولا تحسه، وإن شئت فقل، فإن لم أجذك أنك مخطئ فيه مد ابتدائك إلى اسهائك، فدمي حلال ! ثم أقبلت على الرشيد فقلت : يا أمير المؤمنين، هذه صاعتي، وصاعة أبي، وهي التي قربتنا منك، وأوطأنا بساطك، فإذا نازعا أحد بلا علم، لم نجد بدا من الإيصاح والدب، فقال : لا لوم عليك، وقام الرشيد ليبول فأقبل إبراهيم بن المهدي على وقال لي : ويلك يا إسحاق، أتجترى على وتقول ماقلت يابن الزانية ! فداخلي ما لم أمالك مضي معه، فقلت له : أنت تستنفي، ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة، وأخو الخليفة، ولو لا ذلك لقلت لك : يابن الزانية، كما قلت لي يابن الزانية، أو تراني لا أحسن أن أقول لك يابن الزانية، ولكن أقول لك ذلك يصرف إلى حالك، ولو لا ذلك لذكرت صاعته ومدمبه، قال : وكان يبتطارا، ثم سكنت، وعلمت أن إبراهيم سيشتكوني إلى الرشيد، وسوف يسأل من حصر عما جرى، فيخبرونه فلاميت ذلك ما ن قلت : أنت تظن أن الخلافة لك، فلا تزال تهددني بذلك، وتعاديني كما تعادى سائر أولياء وغلمان أخيك حسداً له ولولده على الأمر، وأنت تصعب عه وعهم وتستحق أوليائهم تشقياً، وأرجو ألا يخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتلك دونه، فإن صارت إليك — والعياذ بالله تعالى — حرام على العيش حينئذ ! والموت أطيب من الحياة معك، فأصعب حينئذ ما بذاك ! فلما خرج الرشيد وثب إبراهيم مجلس بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، شقني ودكر أمتي واستخفني ! فغضب الرشيد، وقال لي : ويلك ما تقول ؟ قلت : لا أعلم، فقتل من حضر، فأقبل على مسرور وحسين، فسألما عن القصة، فغلاما يجربانه ووجهه يتردد إلى أن اتبها إلى ذكر الخلافة، فسرى عنه ورجع لونه، وقال : لا ذنب له، شقته فترتك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك، وأمسك عن هذا ! فلما انتهى المجلس وانصرف الناس، أمر بالآبترج، ونرج كل من حصر حتى لم يبق غيري، فساء ظني وأوهنتي نفسي، فأقبل على

وقال : يا إسحاق أتراني لم أنهم قولك ومرادك ! وقد زبنته ثلاث مررات ، أتراني لا أعرف وقائمك وإقدامك وأين ذهبتي ! ويلك لا تعد ! حدثني عنك : لو ضربك إبراهيم أكننت أضربه وهو أنى يا جاهل ! أترأه لو أمر غلامه بقتلوك أكننت أقتله بك ! قلت : والله يا أمير المؤمنين ، تقتلني بهذا الكلام وإن بلغه ليقتنى ، فما أشك في أن بلغه الآن ، فصاح بمسروور وقال : علي إبراهيم ، فأحصر فقال لي : قم فانصرف فقلت لجماعة من الخدم — وكلهم كان لي حبيبا ، وإلى ما ملأ الله ، وإلى مطيحا — : أخبروني عما يجري ، فأخبروني من غد ، أنه لما دخل عليه وبجته وجوهه وقال له : أنت ستحلف بحدادي وصديقتي ، وابن خادمي وصديقتي ، وصديعة أبي في مجلسي ! وتقدم علي وتستحلف بحدادي وحصري ! هاه هاه ! وتقدم علي هذا وأمثاله ! وأنت مالك وما للفناء ! وما يدريك ما هو ؟ ومن أحذرك به وطارحك إياه حتى تنوم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذي غُدِّي به وأُلبس ، وهو من صاعته ؟ ثم تظن أنك تحطته فيما لا يكرهه ويدعوك إلى إقامة المحبة عليه ، فلا تثبت لذلك ، وتعتصم بشتيه ، هذا مما يدل على السقوط وضعف العقل ، وسوء الأدب ، من دخولك فيما لا يشبهك وطبقة لذلك على مروءتك وشرفك ، ثم إظهارك إياه ولم تحمكه ، وإدمائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل ، ألا تعلم أن هذا سوء أدب ، وقلة معرفة ، وعدم مبالاة للخطأ والزلّة القبيح والتكذيب ثم قال : والله العظيم ، وحق رسوله ، وألا فأنا برىء من المهدي إن أصابه أحد بمكروه ، أو سقط عليه حجر من السماء أو وقع من دابته ، أو سقطت عليه سقيفة ، أو مات بجأة ، لأقتلك به ، والله والله وأنت أعلم . قم الآن فانحرج ولا تمرض له . فخرج وقد كاد أن يموت ، فلما كان بعد ذلك ، دخلت عليه وإبراهيم عنده ، فجعل ينظر إليه مرة ، وإلى مرة ، ويضحك ، ثم قال له : إني لأعلم شيتك لإسحاق وميلك إليه ، وإلى الأخذ به ، وإن هذا لا يبيحك من جهنم كما تريد ألا بعد أن يرضى ، والرضا لا يكون بمكروه ، ولكن أحسن إليه وأكرمه ، وأعرف حقه ويصله ، فإذا فعلت ذلك ، وخالف ما تنهواه ، عاقبتك بيد

مستطيلة ولسان مطّاق، ثم قال لى : قم الآن الى مولاك، وابن مولاك، فقبّل رأسه، فقامت اليه، وقام الى واصطاحا .

ولعل ما قدّمناه لك يعطيك صورة واضحة ، عما كان لإسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حذب عليه وبر به .

أما مكانة إسحاق عند الأمين وبطانته، فإياها لا تقل، أبداً الله، عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى حيراً في الدلالة على هذه المكانة، من كلام إسحاق نفسه قال إسحاق : استدانى الآمين يوماً ، وهو مُسْتَلْقٍ على فراش، حتى صارت ركبتى على الفراش، ثم قال : يا إسحاق، أشكو اليك أصحابي، فعلت فعلان كذا ففعل كذا، وفعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، حتى عند جماعة من حواصه، فقلت له . أس يا سيدى لتفصل عنيّ ونحس رأيك في! طبت أنى من يُساور في مثل هذا الحديث، تجاوزت في حدى ومقدارى، وهذا رأى يحل ولا يعلوه قدرى، فقال : ولم ؟ أنت عدى عالم عاقل ناصح . قلت : هذه المنزلة عند سيدى ! علّمتنى ألا أقول إلا ما أعرف، ولا أطلب إلا ما أنال، فصحك وقال : بلغنى أنك عملت في هذه الأيام لحماً في شعر الراعى، فلم أسمعك منك، فقلتُ : يا سيدى ما سمعه أحد إلا حواريّ، ولا حضرتُ عندك مدُ صمته . فقال : عنه فقلت : الهبة والصحو يمعانى من أن أؤديه كما أريد، فلو أنس أمير المؤمنين عنده بشئ يطربه ويقوّى طبعه كان أحود . قال : صدقت، ثم أمر بالغداء فتغلبنا، وأمر بالتائر فتمت، وعنى من ورامها وشربنا أفداها، فقال : يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت ؟ فقلت : لى يا سيدى، وعيتُ في شعر الراعى :

ألم نسأل بمارمة الدّياراً * عن الحى المفارق أين سارا
لى ساءلُها فابث جواباً * وكيف تسائل السّمس القفارا

فاستحسنه وطرب عليه ، وقال : يا إسحاق ، لا تطلب حمد النّبة ووجود النّيسة، وما أشربُ بقية يومى إلا على هذا الصوت، ووصلنى وخلع على من ثيابه .

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطحب دات يوم ، وأمر بالتوجه الى إسحاق ، فوجه اليه عتده رسل كلهم لا يصادفه ، حتى جاء أحدهم به ، فجاء مستنثياً ومحمد مغضب ، فقال له : أسكت ! ولك ! قال : أصبحت يا أمير المؤمنين شيطاً ، فكرت الى بعض المتبرهات ، فاستطعت الموصع فأقت فيه ، وسقاي رباد قد كرت أبيانا للأحطل وهو يسقيني ، فدارك فيها لحى حس ، فصعته وقد حثت به ، فبسم وقال : هاته ، فما زال تأتي بما يرضى عنك عند السطح ، فعاه .

إذا ما ربادُ عليّ ثم علي * ثلاث زحاحات لمن هدير
رحمت آخر الدليل حتى كأني * عليك أمر المؤمنين أمبر

فقال : بل على أيك قبح الله ممالك ! فما زال إحسانك في عانتك يحو إساءتك في ممالك ، وأمر له بألف دينار . وأصل قول الأحطل :

* إذا ما نديمي طلى *

وراد هذا علام لإسحاق . وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعقه وزوجه من أخته بدافع من أريحيته وأثر الشراب فيه .

أما عبد الله المأمون ، فيحدثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته ، وهي موقفه من الساء وسماعه ، وقد ألما إليها حين عرصا للكلام عن المادمة في عصره ، ثم سوق اليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضا .

قال إسحاق . أقام المأمون بعد قدومه بعدد عشرين شهرا لم يسمع حرا من الأتاني ، ثم كان أول من تقى بحضرته أبو عيسى س الرشيد ، ثم واطب على السماع مستترا ، متشبا في أول أمره بالرشيد ، فأقام على ذلك أربع حجج ، ثم طهر للدماء والمعين . وكان حين أحب السماع سأل عني ، فخرجت بحضرته ، وقال الطاعى على : ما يقول أمير المؤمنين في رجل ينيه على الخلالة ، وما أتى من التيه شيئا حتى استعمله ! فأمسك المأمون عن ذكرى ، وجعاني من كان يصلى لسوء رأيه في ، فأصر ذلك بي ، حتى جاءني علويّه يوما فقال لي :

أناذني في ذكرك عند المأمون^١ وإنا قد دُعينا اليوم، فقلت : لا ولكن عنه الشعر،
إفانه سيبعثه على أن يسألك لمن هذا الشعر، فإذا سألك فتح لك ما تريد، وكان الجواب
أسهل عليك من الابتداء، فقال : هاب، فألقيت عليه لحي وشعري :

يأسرحة الماء قد سُدَّتْ موارده * أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حراك به * مخلاص من طريق الماء مطرود

ومضى علويه، فلما استقر به المجلس عناه، فإذا عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال :
ويحك يا علويه ! لمن هذا الشعر؟ فقلت : ناسيدي أهد من عيدك حفوته وأطرحته بغير جرم،
فقال : إصحاقي تنبي^٢ فقلت : نعم، فقال : نحضر الساعة، فإني رسولك، فحضرت فلما
دخلت، قال : أدن ودبوت، ورفع بديه ماذها إلى، فأكبته عليه فاحتصني بيديه،
وأظهر من يرى ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لسره^(١).

ثم ما زالت تعظم مكانته عند المأمون، حتى سأله يوما أن يكون دحوله مع أهل
العلم والأدب والرواة لا مع المغنين، فإذا أراد الغناء عناه، فأحابه إلى ذلك. ثم سأله
بعد مدة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء فأذن له، فدخل يوما مع يحيى بن أكثم
متماسكين، وعلويه ومخاري في محبرة فلما حالسين ينتظران جلوس المأمون، ورأياهما
وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون، فكاد علويه أن ينجح، وقال : يا قوم سمعتم ما عمت
من هذا ! يدخل قاضي القضاة ويده في يد من حتى يحلسا بين يدي الخليفة ! ثم مصت
مذنه فسأل إصحاقي المأمون و أنس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المصنوعة، فضحك
المأمون وقال : ولا كل هذا يا إصحاقي ! وقد اشتريت منك هذه المسألة بمائة ألف درهم،
وأمر له بها. وهذا الخبر يؤيد ما ذكرناه في أول كلامنا على إصحاقي من أنه كان يطمح
إلى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المغنين.

(١) أنظر كتاب بسداد (ج ٦ ص ٢٢٨) وقد سبق أن ذكرنا هذه القصة في فصل المادة صبية أخرى

وانظر الى دقة إحساس إسحاق وقوة دوقه في تبييه الخطأ في وتر واحد بين ثمانين وترًا، وكان ذلك في مجلس المأمون، قال إسحاق : دعاى المأمون يوما، وعده إبراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية، قد أجلس عشرا عن اليمين وعشرا عن يساره، فلما دخلت، سمعت من اللاحية اليسرى خطأ فأنكرته، فقال المأمون . اسمعت خطأ ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي : هل تسمع خطأ ؟ قال لا، فأعاد على السؤال فقلت : بل يا أمير المؤمنين . فإنه لم يلب الجانب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه الى اللاحية اليسرى، ثم قال : لا، واقه يا أمير المؤمنين ما في هذه اللاحية خطأ ! فقلت : يا أمير المؤمنين مر الجوارى اللاتي على ايمين يُمسكن، فأمرهن فأمسكن، ثم قلت لإبراهيم : هل تسمع خطأ ؟ فتسمع ثم قال : ماهاها خطأ، فقلت : يا أمير المؤمنين، يُمسكن ويصير التامه، فأمسكن وصرت التامه، فعرف إبراهيم الخطأ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين هاها خطأ، فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم اس المهدي : لا تُمارِ إسحاق بعدها، فان رحلا عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حلما لحدب الأتارمه ! قال : صدقت يا أمير المؤمنين، وكان في الأوتار كلها منى فاسد التسوية، فطرب المأمون وقال . لله درك يا أبا محمد ! فكانى يومئذ .

وحبر آخريدل على جذق إسحاق بعنه في مجلس آخر للمأمون، قال إسحاق : دخلت على المأمون يوما، وعقيد يُعْبِه مرتحلا وغيره يصرب عليه، فقال : يا إسحاق كيف تسمع مُقْبِنًا هذا ؟ فقلت . هل سأل أمير المؤمنين عيرى عن هذا ؟ فقال . نعم، سألت عمى إبراهيم فقرطه، واستحسسه، فقلت : يا أمير المؤمنين — أدام الله سرورك، وأطاب عيشك — إن الناس قد أكثروا في أمرى، حتى نستنى فرقه الى الريد في علمى، قال : فلا يملك ذلك من قول الحق اذا لم يك، فقل لعقيد : أردد الصوت الذى عيّته، فردّه وتخط فيه وصرب عليه صاربه، فقلت لإبراهيم بن المهدي . كيف رأيته ؟ فقال : ما رأيْتُ شيئاً أنكرهُ مما سمعته، فأقبلتُ على عقيد، وقلتُ له لما استواه : في أى طريقه عيّت ؟ فقال : في الرمل، فقلت للضارب : في أى طريقه صربت ؟ فقال : في المَرَج الثقيل، فقلت : يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول

في صوت يُصَيِّرُهُ مُعْتَبِرًا رَمَلًا ، ويصره صاربه هَرَجًا ثَقِيلًا ، وليس هو صحيحًا في إيقاعه الذي صُيرِبَ عليه . قال وَهَمَّهُم إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُهْدِيِّ ، فقال : صَدَّقَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، والأمر فيه يَنْ . فَعَجِبَ الْمَأْمُونُ مِنْ ذَلِكَ كَيْفَ حَيَّى عَلَى كُلِّ مَنْ حَصَرَ .

أَمَّا مَنَزِلَتُهُ عِنْدَ الْوَاتِقِ ، فيقول ابن خلدون : سمعت الواثق يقول . مَا عَابَى إِسْحَاقُ قَطُّ إِلَّا طُنْتُ أَنَّهُ قَدْ رِيدَ فِي مَلَكِي ، وَلَا سَمْعَتُهُ قَطُّ يُعْنَى عِثَاءُ ابْنِ سُرَيْجٍ إِلَّا طُنْتُ ابْنَ سُرَيْجٍ قَدْ تُبِّرُ ، وَأَنَّى لِيَحْضُرُنِي غَيْرُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ حَاصِرًا يَتَقَدَّمُهُ عَسَدِي نَطِيبِ الصَّوْتِ ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ عَسَدِي رَأَيْتُ إِسْحَاقَ يَلْعُو وَرَأَيْتُ مِنْ طُنْتُ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُهُ بِقُصَصٍ ، وَإِنْ إِسْحَاقُ لَعَمَهُ مِنْ سَمِّ الْمُلُوكِ الَّتِي لَمْ تَحْطُ أَحَدٌ مِثْلَهَا ، وَلَوْ أَنَّ الْعُمَرَ وَالشَّابَّ وَالشَّاطَّ مِمَّا يُشْتَرَى لِأَشْرِيَّتِهِمْ لَهُ شَطْرُ مَلِكٍ .

أما المتوكل الذي نُوقِيَ إِسْحَاقُ فِي أَوَّلِ عَصْرِهِ ، فيحدثنا ابن خلدون أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ إِسْحَاقَ ، صَرَفَ أَنَّهُ كُتِبَ وَأَنَّهُ بَمَنْزِلَةِ بَعْدَادٍ . وَكُنْتُ فِي إِحْصَارِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ رَفَعَهُ حَتَّى أَحْلَسَهُ قُدَّامَ السَّرِيرِ ، وَأَعْطَاهُ عِجْدَةً . وَقَالَ : لَعَنِي أَنْ الْمُنْتَعِمَ دَعَا إِلَيْكَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ حَلَسَتْ بِي يَدَايِي عِجْدَةً ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَسْتَعْلَبُ مَا عَدَّ حُرْمًا مِثْلَ إِكْرَامِهِ . ثُمَّ سَأَلَهُ : هَلْ أَكَلْتُ ؟ فَقَالَ : سَمِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُسْقَى ، فَلَمَّا شَرِبَ أَقْدَاحًا قَالَ : هَاتُوا لِي مُحَمَّدَ عُدَا ، يَحْيَى ، هَذَا فَاذْفَعْ يُعْنَى شَعْرَهُ :

هَذَا عِلَّةُ الشَّيْخِ عِيَاهُ نَارِيهِ . تَعَرُّوْرَقَانِ بِدَمْعٍ ثُمَّ تَنَسَّكُ

قال ابن خلدون . مَا بَقِيَ عِلَامٌ مِنَ الْعِلْمَانِ الْوُفُوفِ إِلَّا وَحْدَتُهُ يَرْقُصُ طَرَاءً ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُ ، فَأَمَرَ لَهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . ثُمَّ أَحْدَرَ الْمُتَوَكِّلَ إِلَى الرَّقَّةِ ، وَكَانَ يَسْتَطِيعُهَا لِكَثْرَةِ تَعْرِيدِ الطَّيْرِ فِيهَا ، فَفَتَاهُ إِسْحَاقُ :

أَنْ تَهْتَفَ وَرَقَاءً فِي رَوْقِ الصُّحَى عَلَى قَسَ النَّبَاتِ مِنَ الرَّيْدِ

بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ فَلَمْ تَكُنْ * جَلِيدًا وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يُبْدِي

فَصَلَحَ الْمُتَوَكِّلُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا إِسْحَاقُ ، هَذِهِ أَحْتُ مِثْلِكَ بِالْوَاتِقِ لَمَّا عَيَّنَتْهُ بِالْهَاصِلِيَّةِ :

طَرِبْتُ إِلَى أَصْبِيَّةٍ صَحَارٍ * وَدَنَوْتُ مِنَ الْمَوِي قُرْبَ الْمَزَارِ

فكم أعطاك لما أدرك في الانصراف . قال . مائة ألف دينار ، فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف .

وإنما أودعنا نذكر لك من أخبار إسحاق . وما كان له من نوادر في مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رحلات الدولة لعدونا حد القصد ، وإنما يُجبل من يريد التريّد من أمر إسحاق على كتاب الأغاني . ونحن هذا الفصل من أخبار إسحاق عما قاله محمد بن عمران الجرجاني ، حين ذكر عنده . قال . كان والله إسحاق عُرّة في زمانه ، واحداً في عصره ، علماً وفهماً ، وأدباً ووقاراً ، وحوّده رأى ، وصحّه مودّه ، وكان والله يُعرس الباطق إذا بطق ، ويُجبر السامع إذا تحدث ، لا تمل حليسه في مجلسه ، ولا تمنع الآذان حديثه ، ولا تنو العس عن مطاوعته ، إن حدثتك الهالك ، وإن طارك أفادك ، وإن عاك أطرك ، وما كان حصيلة من الأدب ولا حُس من العلم ، يتكلم فيه إسحاق فيقيم أحد على مساحلته أو مباوئته فيه .

قال إسحاق بن إبراهيم . رأيت في ماضي حريراً حالساً يشد وأنا أسمع . فلما فرغ أحد كبة من شعري فلقها في - وباتلعتها . فأول ذلك مص من ذكرته له أنه وزّني الشعر . قال زيد بن محمد المهلب . وكذلك كان ، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه .

وقال أبو العرج الأصمهاقي . وكان إسحاق حيد الشعر ، كان يقول وينسيه للعرب ، من ذلك قوله :

لَقَطَ الْحُدُورُ عَلَيْكَ حُورًا عِيَا * أُنْسِيَنَ مَا جَمَعَ الْكِاسُ قَطِيَا
فَإِذَا بَسَمَنَ مَنْ كَتَلَ عَمَامِهِ * أَوْ أَقْشَوَانَ الرَّمْلِ نَاتٍ مَعِيَا
وَأَصَحَّ مَا رَأَيْتُ الْعَيُونَ مَحَارَا * وَلَقَدْ أَمْرُصُ مَا رَأَيْتُ عَيُوَا
مَكَانًا تَلِكَ الْوَحْوَءَ أَهْلَةً * أَقْرَنَ بَيْنَ الْعَمِيرِ وَالْعِشِيرِيَا
وَكَاثِبِينَ إِذَا نَهَضْنَ لِحَاجَةٍ * يَهْصِنُ بِالْعَقْدَاتِ مِنْ يَبْرِ يَا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة. ولعل الذي كان مدح أولئك الشعراء إلى أن يسبوا خير ما تحود به قرائعهم إلى العرب الجاهليين أو أعراب الصحراء، رُوح ذلك العصر، وأنها كانت رُوحاً تميل إلى القدم، ولا سيما إذا رُتس هذا التمدد، وإطار من خيال الرواة والمقاصدين ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رواة للسعر العربي أكثر مما كانوا يظفرون به شعراء مجيدين، وإلا فهل تصوّر أن تنسب المرء شاح قريحته إلى غيره، ما لم يكن ممن ذلك عطياً ؟

ومن شعر إصحاح ما اعتذر به إلى الواثق حين عنت عليه في تأخره عنه، وهو قوله :

أشكو إلى الله عدى عن حليته . وما ألتاح من سقم ومن كبر

لا أستطيع رجلاً إن قمت به * إليه يوماً ولا أقوى على السمر

أنوى إليه رجلاً ثم بمعي * ما أخذت الدهر ولا نام في نصري

ومن شعره أيضاً عند علوسه .

سلام على ستر القلاص مع الزك * ووصل العواص والمداخن والشرب

سلام امرئ لم ينه به قبه * سوى نظير العينين أو شهوة القلب

ومن جيد شعر إصحاح ما كان يستحسه ابن الأعرابي وحب به أيما إعجاب، وهو قوله .

هل إلى أن تام عني سهل * إن عهدي بالنوم عهد طويل

عاب عني من لا أنسى عبي * كل يوم وحداً عليه تسيل

إن ما قل منك يكثر عدي * وكثير من ثحب القلب

وكان إصحاح إذا عني هذه الأبيات يفيض عيانه . ولما سُئِلَ عن مكانه أجاب :
تَعَشَّقْتُ حارية فقلت لها هذه الأبيات، ثم ملكتها، فكنت مشغولاً بها، حتى كبرتُ واعتلّ عني، فإذا غيت هذا الشعر ذكرت أمانى المتقدمه، وأنا أنك على دهرى الذي كنت فيه .

وقال إسحاق . أشدّت الأصمعيّ الأبيات الثلاثة ، فجعل يحب بها ويرتدها . فقلت له .
لأنها بنتٌ ليبتها ، فقال . لا حرّم أن أثر الوليد فيها طاهر . فقال إسحاق . ولا حرّم أن أثر الحسد
فيك طاهر ! ولعل هذا هو سبب الحقوه الى كات بين إسحاق والأصمعيّ . فإن ابن مطور
يروي لنا في مختصره . أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعيّ . ويذكر عنه الروايات ، ثم يمد
ما بينهما ، فهاهنا إسحاق وتلكه . وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر ، خيل ، ساقط النفس ،
لا زكو الصنعة عنده ، وذكر له أما عبيده مغمّس المنيّ والمعة والصدق والسباحة ، واشتماله
على جميع علوم العرب ، وفعل مثل ذلك عند الفصل من الربيع ، ولم يرل هما حتى وضع معرفة
الأصمعيّ عندهما ، ثم أُنْعِدَا الى أيّ عبيده مالا حليلا واستقدّماه . فكان إسحاق سبب ذلك .

وكان إسحاق قليل المحو . فإذا هنا رأيت في هجوّه عنه اللسان . وبجمال التعريض .
وزيد أب ذكر لك من هذا الباب قوله في أحد من هنام . وكان إسحاق يالف
أحمد هذا وأباه علّا وسائر أهله إلّفا شديداً ، وقعت منهم نبوةٌ ووحشه فهاهم . وهذا
مما قاله في أحد :

وصايفه تُعْشِي العُيُونَ رِقِيقَه . رهيه عام في الدنّايّ وعام
أدرباها الكأس الرونة مَوْهِنًا . من الليل حتى انمَحَتْ كُلُّ ظِلَامٍ
ها دَرَّ قُرُونُ الشَّمْسِ حَتَّى كَانَا . من اليمى يحكى أحمد بن هشام

ويقال إن أحمد سأل ما دى ؟ فقال . لأنك قعدت على طريق القافية .. !

وكان إسحاق يسأل الله ألا يتّليّه بالقولنج . لما رأى من صُعوته على أبيه ، فرأى
في مامه كأن قائل يقول : قد أُحِبَّتْ دعوتك ، ولسب موت بالقولنج . ولكنك تموت بصدّه .
ثم أصابه دَرٌّ في شهر رمضان سنة ٢٣٥ هـ فكان يتصدق في كل يوم بمكة صومه بمائة
درهم ، ثم ضعّف عن الصوم فلم يطقه ومات في الشهر .

ولما نُيى الى المنوكل عمّه وحرب عليه ، وقال . ذهب صدرٌ عظم من مال الملك
وبهائه وزينته !

مؤلفاته :

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إحصاء أنه كان نجس كل ما كان طابعه من العلوم إحساناً قل أن يستوى لغيره، ولكنه قصر تأليفه على ما قصرته عليه وطبقته، وعمله، فآلف في الأغاني، والإيقاع والنغم، وآداب الشراب، والدماء. والمأدبات، وأحجار الشعراء، وأهل الفن من المعينين والمعينات. من مؤلفاته . كتاب الأغاني الكبير، وكتاب المحظ والإشارات، وكتاب الرقص والرقص، وكتاب النغم والإيقاع، وكتاب الدماء والمأدبات. وله مؤلفات غنم سبعة من أهل الفن. رجالاً ونساء، أمثال . عماد، وابن مسجح، وعزّه الميلاء، وغيرهم . وله أيضاً كتاب الهدى، وكتاب تفصيل الشعر. وكتاب أحجار ذى الرمة، وكتاب حواهر الكلام . وله كتاب مناده الإحوان . وتسامر الخلق، وكتاب القيان، وغير ذلك مما يطبق بطوكمه في شتى الصون، ونشهد أنه دائرة معارف عاتقه .

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فريد زفاعي

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثاني

(حقوق الطبع محفوظة للزلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثاني من عصر المأمون

ملحق الكتاب الأول — عصر بني أمية

صفحة	باب المشهور :
١	رسالة أبي بكر
١٢	كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها
١٤	كلمة أم الخير بنت الحريش
١٧	كلمة الرقاء بنت عدي
١٨	كلمة عكنة بنت الأبرش
٢٠	رسالة لعبد الحميد الكاتب كتبها عن مروان بن محمد لعصم بن ولاد
٥٣	رسالة توبة لعبد الحميد الكاتب أوصى فيها الكتاب
٥٧	رسالة تالة لعبد الحميد الكاتب في الشطرنج ..
٦٠	رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب وصف بها الصيد

باب المعلوم :

٦٣	أنواع العزل ودعم كل نوع .
٦٤	العزل الإمامي — عمر بن أبي ربيعة .
١٠٣	العزل العذري — جميل .
١٢٤	العزل الصاعى — كثير .
١٣٨	العزل القصصى — قيس بن الخثعم (المصور)
١٥٢	قيس بن دويج ..
١٦٤	الشعر السياسي — الهادي بن بشر

ملحق الكتاب الثاني — عصر بني العباس

باب المشهور .

١٦٩	مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان
١٨٨	رسالة أبي الزبيع محمد بن البيث التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين ملك الروم . .

٢٣٧	رسالة يحيى بن زبادى تقرير الرشد	٢٣٧
٢٤٤	كتب الرشد	٢٤٤
٢٤٤	كتاب عهد الية	٢٤٤
٢٤٧	سنة الشرط الذى كتب عنه من أمير المؤمنين خط يده فى الكمة	٢٤٧
٢٤٩	سنة كتاب الرشد الى العمال	٢٤٩
	باب المطبوع .	
٢٥٢	نثار بن يد	٢٥٢
٢٧٧	حد غرد	٢٧٧
٢٨٧	مروان بن أبى حفصة	٢٨٧
٣٠٠	يو دلامة . . .	٣٠٠
٣١٧	أمان بن عبد الحميد الأحمق	٣١٧
٣٢٦	حار حذاد بن د	٣٢٦
٣٣٣	مصور البصرى	٣٣٣
٣٣٩	السيد الحيرى	٣٣٩
٣٤٩	سلم بن عمرو الحامر . . .	٣٤٩
٣٥٤	ربعة الرق	٣٥٤
٣٥٩	السرقاشى	٣٥٩
٣٦١	أبو العنايه	٣٦١
٣٧٤	سلم بن الوليد	٣٧٤
٣٩٣	العاس بن الأحف	٣٩٣
٤٠٠	أمن مبادر .	٤٠٠
٤٠٣	صالح بن عبد القدوس	٤٠٣
٤٠٧	سعيد بن وه	٤٠٧
٤١١	الحسن بن وه	٤١١
٤١٩	أشمع السلى	٤١٩
٤٢٣	عل بن الجهم . .	٤٢٣
٤٣١	عل بن حنيفة . . .	٤٣١

ملحق الكتاب الأول

باب المنشور

ذكرنا في مقدمة المجلد الأول من "عصر المأمون" أننا قسمنا المجلد الثاني الى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، وعينا عاية خاصة الى جانب ذلك ذكر جملة صالحة من آثار كاتب حاص وشاعر خاص لتمثيل عصرهما . وأتبعنا من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة أنموذحا أمويًا ، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن برد مثالاً عباسياً ، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نؤاس أنموذحا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأُميين والمأمون، الى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، وقد أوردناها من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيان - اللهم إلا تفسير بعض ألفاظها الغريبة وشرح كلماتها الغامضة - فهي في وصورها ودلالاتها على ما أوردنا من إيرادها غير محتاجة الى شيء .
وها نحن أولاء نذكر ما وعدناك به .

١ - رسالتنا أبي بكر وعلى

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرًا لَيْلَةً صد الفاصى أبى حامد أحمد بن بشر المروؤفى ببغداد، فتصرف فى الحديث كل متصرف، وكان غزير الرواية،

(١) اطريظ صبح الأعشى ص ٢٣٧ ح ١

لطيف الدّراية، بغرى حديث السّقيفة، فركب كلّ مركبا، وقال قولا، وعرض بشيء،
ونزع الى فن . فقال : هل فيكم من يحفظ رسالة لأبي بكر الصديق^(١)، رضى الله عنه، الى
على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وحواب على عنها، ومبايعته إياه عقيب تلك المناطرة ؟
فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق، وعجبات الصادق، ومذ
حفظتها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلبى فى وزارته ، فكتبها عنى بيده . وقال : لا أعرف
رسالة أعقل منها ولا أئين، وإنما لتدل على علم وحلم، وفصاحة ونباهة، ومُد غور، وشدة
عوص . فقال له العبادانى : أيها القاصى، علواتمت المسة عليها بروايتها ! أسمعناها،
محس أوعى لك من المهلبى، وأوجب ذمّا عليك، فاندفع وقال :

حدّثنا أنخراعى بمكة عن أبى مبصرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى قُليح عن عيسى بن
دوّاب بن المتّاح ، قال سمعت مولاى أبا عبيدة يقول : لما استقامت الخلافة لأبى بكر
رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنة كاد الشيطان بها ، فدفع الله شرّها ويسر

(١) هو أبو بكر عبد الله بن أبى لحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة صاحب رسول
الله وأول خليفة له فى الإسلام وحظيب يوم السقيفة .

ويجتمع معه مع سب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرة بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم
ستين وصية أشهر . ومنا من أكرم قريش حلقا ، وأرحمهم حلما ، وأماهم دينا ، وأشدّهم همة . وكان أعلمهم بالأنساب
وأيام العرب ومعارها . صحب رسول الله قبل النبوة . وكان أول من آمن به من الرجال وصنّفه فى كل ما جاء به ،
ولذلك سقى الصديق ، وأحق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤزرا حصصه على كل أهله وولده ، وشهد معه
أكثر العروات . وما زال يثق ماله وقوته فى معاصرة رسول الله حتى استقل صلى الله عليه وسلم الى الرقيق الأهل .
واحتضت العرب ، وارتدت عن الإسلام ، وصمت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، فخرّده عليهم
الخيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الإسلام ، وساقهم قوا إلى فتح عمالك كسرى وقيصر . وما مات إلا وحيوشه
تهرم حيوش العرب والزوم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكان رحمه الله صبيحا ليلا ، سليبا مقوفا ، حاسر
الديبة ، قوى الحجة ، شديد التأخير ، يشهد ذلك حطه يوم السقيفة ، وذلك أنه لما مات رسول الله احتضت الصحابة
ميس يابحوه خليفة له عليهم ، فأبت الأنصار إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون
مهم . واشتدّ الرابع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة لم يلبث الجميع بعدها أن يأموه خليفة . وكانت وفاته
سنة ١٣ هـ ومدة خلافته ستين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلْكُؤُ وشِمَاس^(١) ، وتهم ونفاس^(٢) ، فكه أن يتبادى الحال فتبدو العورة ، وتشتعل الجمره ، وتنفرق ذات البين ، فدعاني بمحضته في حلوة ، وكان عنده عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وحده ، فقال : يا أبا عبيدة ، ما أئمن بأصيتك ، وأئمن الحير بين عيذك ، وطالما أمر الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحووط ، والحل المفوظ ، ولقد قال فيك في يوم مشهود : "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة" ، ولم تزل للدين ملتمًا ، وللؤميين مُرتجى ، ولأهلك ركا ، ولإخوانك يذمًا . قد أردت لك لأمرٍ خطره مخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم يتدمل جرحه بيسارك ويرفك^(٣) ، ولم تجب حيتته برقيتك ، وقع اليأس ، وأعصل اليأس ، وأحتجج بعد ذلك الى ما هو أمرٌ مه وأعلق ، وأعسر مه وأفلق ، والله أسأل تمامه بك ، وظلمه على يديك . فتأت له أبا عبيدة وتطلف فيه ، وأنصح لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا العصابة حير آل جهنم ، ولا قال حمدا ، والله كالكف وناصرك ، وهاديك ومبصرك ، ان شاء الله . امض الى عليّ وأخضع له جاحك ، وأغضض عنه صوتك ، واعلم أنه سلاله أبى طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس — صلى الله عليه وسلم — مكانه ، وقل له : البحر مفرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف^(٤) ، والليل أعطف^(٥) ، والسماء حلواء^(٦) ، والأرض صلواء^(٧) ، والصمود متعذر ، والمهبوط متعسر ، والحق عطوف رعوف ، والباطل عوف صوف ، والمعجب قداسة الشر ، والضيق رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والفيعة تقوب العداوة ، وهذا الشيطان منكى على شماله ، متحيل يمينه ، نافخ حصينه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشعواء والعداوة ، عاددا لله عز وجل

(١) الشماس : المعادة والمعادة . (٢) تهم الشيء . طله وتحمسه . (٣) داس في الشيء . ماسة : رعبه على وجه الماراة والمهارة . (٤) تحب : تقطع . (٥) تأتي ملائح للأمر : تها له وأتاه من وجهه .

(٦) الجوا أكلف : أسود طوره حمرة . (٧) الليل أعطف : مرج مدولة عظم . (٨) السماء حلواء : مصحية . (٩) خالية لا شجر فيها . (١٠) أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر .

أولاً، ولآدمَ ثانياً، ولإيه — صلى الله عليه وسلم — وديهِ ثالثاً، يُوسُفُ بالفُجُور، ويُذِلُّ بالفُرُور، ويمَيُّ أهلَ الشرور . يُوحى الى أوليائه زُخُرفُ القول غُرُوراً بالباطل، دُأْباً له مُدْكَان على عهد أبينا آدمَ صلى الله عليه وسلم، وطادَه له مسدُّ أهانه الله تعالى في مالف الدهر، لا مَسْجَى منه إلا مَصَّ الباحد على الحق، ومَصَّ الطَّرف عن الباطل، ووطء هامة عذراؤه بالأشدَّ فالأشدَّ، والأكدَّ فالأكدَّ، وإسلام النفس لله عز وجل في آستفاء رضاه. ولا بدَّ الآن من قول يبع إذا صرَّ السكوت ويخفَّ غيبه، ولقد أرشدك من أهاء ضالتك، وصافاك من أحيا مودته بيتاك، وأراد لك الخير من أثر البقاء معك، ما هذا الذي تُسَوِّلُ لك فسك، ويتوى به قلبك، ويتوى عليه رأيك، ويخاوض دونه طرُكك، ويتبرى فيه طعُك، ويرادُّ معه فسك، وتكثر عسده صعداًؤك، ولا يفيض به لسائك. أنعمه بعد إفصاح! أنلبس بعد إفصاح! أدينَّ ميردين الله! أخلق غير خلق القرآن! أهدى غير هدي الهى صلى الله عليه وسلم! أمثل "تمشى له الصرَّاء وتدبُّ له الحمراء" أم مثلك يتقيض عليه الفصاء، ويكشف في عيه القمر! ما هذه القمعة بالشان! وما هذه الوعوعة باللسان! إلك والله جدُّ عاربٍ بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبحروجنا عن أوطانا وأموالنا وأولادنا وأحبنا، هجرةً الى الله عز وجل، وبصرةً لديه في زمان أنت فيه في كِنِّ الصَّبا، وحذرِ العرَّاء، وصُعُوانِ الشَّيْبة، عاهلُ عما يشيب ويريب، لا تبعي ما يرادُّ ويُناد، ولا تحصِّل ما يُساق ويُقاد، سوى ما أنت جارية عليه الى عاتيك التي اليها عُذْلُك، وعدّها حطَّ رحلك، غير مجهول القدر ولا مجهود الفصل، ونحن في أثناء ذلك نعاين أحوالاً تُزيل الرِّوْاسي، ونُقايس أحوالاً تُشيب الوَاسي، حائضين عمارها، راكبين تيارها، تنجز صابها، ونُشرج عابها، ونُحْكِمُ أساسها، وبرم

(١) أهاء: أرحع . (٢) يخاوض: يعض من صره . (٣) الصرَّاء: الاستحشاء . والخمر: ما وارك من شجر، وهو مثل يصرب لم يصدح صاحبه . (٤) الشان جمع ش وهو القرعة الخلق الصميرة . والقمعة: الصوت، يريد أنه لا يحرف مثل هذا . (٥) شرح عابها: نصدها وصم مصها الى مصص . والعياب: جمع عبة، وهي رجل من آدم تحمل به الثياب .

أَمْرَاسَهَا، والعيونُ تَحْدِجُ بِالْحَسَدِ، والأنوفُ تَغْطِسُ بِالْكِبَرِ، والصدورُ تَسْتَعِيرُ بِالْعَيْطِ، والأعناقُ تَتَطَاوَلُ بِالْفَحْرِ، والشِّفَارُ تُشْعَذُ بِالْمَكْرِ، والأرْصُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ، لا نَنْظُرُ عِنْدَ الْمَسَاءِ صَاحَا، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءَ، وَلَا نَدْفَعُ فِي مَحَرٍّ أَمْرًا إِلَّا هَدَّ أَنْ نَحْشُوَ الْمَوْتَ دُونَهُ، وَلَا نُلْعِمُ مُرَادًا إِلَّا هَدَّ الْإِيمَانَ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ، فَادِينِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِّ وَالْأُمِّ، وَالْحَالِ وَالْعَمِّ، وَالْمَالِ وَالنَّسَبِ، وَالسُّدِّ وَاللَّدِّ، وَالْهَلَةِ وَالْبَلَّةِ، يَطِيبُ أَنْفُسَ، وَفَرَّةَ أَعْيُنَ، وَرَحِبَ أَعْطَانِ، وَثَنَاتِ عِزَائِمِ، وَصَحِيحَةِ عَقُولِ، وَطَلَّاقَةِ أَوْحِهِ، وَدَلَّاقَةِ أَلْسِنِ، هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارِهِ، وَمَكْنُونَاتِ أَحْصَارِهِ، كَتَبَ عَلَيْهَا عَاقِلًا، وَلَوْلَا سَيْكُ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا، كَيْفَ وَفَوَازُكَ مَشْهُومٌ، وَعُودُكَ مَمْحُومٌ^(١). وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ، وَحَمَلَ مُرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَعَنْ عِلْمِ أَقْوَلِ مَا تَسْمَعُ، فَارْتَقِبْ زَمَانَكَ، وَقَلِّصْ أَرْذَانَكَ، وَدَعْ التَّعَقُّسَ وَالتَّحَسُّسَ لِمَنْ لَا يَنْطَلِعُ لَكَ إِذَا حَطَا، وَلَا يَتَرَحَّجْ عَنْكَ إِذَا عَطَا^(٢)، فَالْأَمْرُ عَصٌّ، وَالْفَوْسُ فِيهَا مَقْصٌ، وَإِلَيْكَ أَدِيمُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَلَا تَحْمِلْ^(٣) بَلْخَا، وَسِبْغُهَا الْعَصْبُ، فَلَا تَنْتُ أَعْوِجَاحًا، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ فَلَا تَحْمِلْ أَحَاخًا. وَاقِهِ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا بَكْرٍ هُوَ لِمَنْ يَرْعَى عَمَلَهُ لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ عَلَيْهِ^(٤)، وَلِمَنْ يَتَضَامَلُ عَمَلُهُ لَا لِمَنْ يَنْتَفِعُ إِلَيْهِ^(٥)، هُوَ لِمَنْ يَقَالُ هُوَ لَكَ لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي».

وَلَقَدْ شَاوَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّبْرِ، فَذَكَرَ قِتْيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ، فَقُلْتُ: أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي أَكْرَهُ لِفَاعِلَةِ مَيْعَةٍ شَبَابِهِ، وَحَدَاثَةِ سَنَةِ. فَقُلْتُ لَهُ: مَتَى كَفَفْتَهُ يَدُكَ، وَرَعْتَهُ عَيْكَ، حَمَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ، وَأُسِفَتْ عَلَيْهِمَا الْعَمَّةُ، مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ حَاطَتْهُ بِهِ رَغْبَةً فِيكَ، وَمَا كُنْتَ عَرَفْتَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوَا^(٦).

- (١) جمع مرس ككتبت وهو الحبل. (٢) السد الشعر. والده: الصوف. (٣) يقال حاطا ما ملاه فلم يأتها به ولا طلة أي لم يأتها شيء، فالهلة من الفرح والاستهلال، والبلية من اللذات والخير. (٤) مشهور (بالشعر المحممة) ذكرته متوقفاً. (٥) عطا: مذكرك عطفه وأقبل بحوك (٦) حلم الحلد (من باب مارج) - صدق وتثبت. (٧) أي يظلمه ويبدع عنه. (٨) يتطلع إليه ويبتهر به. (٩) أي ما كنت عرفت منك شيئاً.

ولا لَوْحَاء، قُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ، وَأَجِدُ رَائِحَةَ سِوَاكَ؛ وَكَتُبْتُ إِذْ ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي . وَلَئِنْ كَانَ عَرَضُكَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ؛ وَإِنْ كَانَ قَالُوكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ؛ وَإِنْ تَلَجَّجَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَهَلُمَّ، فَالْحَكْمُ مَرْصُوعٌ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ، وَالْحَقُّ مُطَاعٌ . وَلَقَدْ يُقَالُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ عَنْ هَذِهِ الْعِصَابَةِ رَاضٍ، وَعَلَيْهَا حَذَرٌ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا وَيَسُوهُ مَا سَاءَهَا، وَيَكِيدُهُ مَا كَادَهَا، وَيُرْصِيهِ مَا أَرْصَاهَا، وَيُسْخِطُهُ مَا أَسْخَطَهَا. أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَنَجَرَانِهِ^(١)، إِلَّا أَمَانَةً بِفَضِيلَةٍ، وَخَصَمَةً بِمُزِيَةٍ، وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ! أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ سُدًى بَدَأَ، حَبَّاهِلَ مَبَاهِلَ، طَلَّاحِي مَفْتُونَةَ الْبَاطِلِ، مَغْبُونَةَ عَنِ الْحَقِّ، لَا رَائِدَ وَلَا دَائِدَ، وَلَا صَابِطَ وَلَا حَاطِطَ، وَلَا سَاقِي وَلَا وَاقِي، وَلَا هَادِي وَلَا حَادِي! كَلَّا! وَاللَّهِ مَا أَشْتَقُّ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَلَا سَأَلُهُ الْمَصِيرَ إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ صَرَبَ الْمَدَى، وَأَوْحَمَ الْهَدَى، وَأَمَانَ الصُّوَى، وَأَمِنَ الْمَسَالِكَ وَالْمَطَارِحَ، وَسَهَّلَ الْمُبَارَكَ وَالْمَهَاجِ^(٢)، وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ شَدَحَ يَأْفُوحُ الشَّرْكَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَشَرَّمُوحَةَ الْعَمَاقِ لَوْحَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَجَدَّعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بَعُونُ اللَّهِ، وَصَدَّعَ بِمَلَأَ فِيهِ وَيَدُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبَعْدَ، فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ وَمَعَكَ فِي بَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ وَدَارِ جَامِعَةٍ، إِنْ اسْتَقَالُوا لَكَ وَأَشَارُوا عَسَدِي بِكَ، فَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ، وَصَائِرٌ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ . وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى فَادْخُلْ فِيهَا دَحْلَ فِيهِ الْمَسَامُونَ، وَكُنِ الْمَوْنُ عَلَى مَصَالِحِهِمْ، وَالْعَاجِجُ لِمَعَالِفِهِمْ، وَالْمُرْشِدُ لِمَصَالِحِهِمْ، وَالرَّادِعُ لِنَوَائِبِهِمْ . فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَالتَّأَصُّرِ عَلَى الْحَقِّ . وَدَعَا بِقِصَى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغِلِّ، وَتَلَقَّى اللَّهُ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

(١) صحرائه أصدقائه . (٢) جاهل جاهل (بالألمة الموحدة في الكلبيين)؛ مهمة . (٣) الصوى : الأعلام . (٤) المهاج : الطرق . (٥) الياحج (يهيرون لا يهيم) حره الرأس الذي يفرق في الطفل . (٦) في صح الأعتى : «مهنة» .

وبعد، فالناس ثمانية فارقهم وأحن عليهم ولين لهم، ولا تُشقي هسك با حاصة فيهم، وأترك ناجم الحقد حصيدا، وطائر الشر واقعا، وباب الفتنة مغلقة، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبجح، والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض، قال عمر رضى الله عنه : كُنْ لَدَى الْبَابِ هُنَيْدَةً عَلَى مَعَكَ دُورٌ مِنَ الْقَوْلِ ، فَوَقَعْتُ وَمَا أَدْرَى مَا كَانَ بَعْدِي ، إِلَّا أَنَّهُ لِحَقْنِي بَوَاجِهٍ يَسْدَى تَهْلًا ، وَقَالَ لِي : قُلْ لِمَلِي : الرَّقَادُ مَحَلَّةٌ ، وَالْهَوَى مَقْصَمَةٌ ، وَمَا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ، وَحَقٌّ مَشَاعٌ أَوْ مَقْسُومٌ ، وَبِنَا طَاهِرٍ أَوْ مَكْتُومٍ ، وَإِنْ أَكْبَسَ الْكَنْهَسَ مِنْ مَسَحِ الشَّارِدِ تَأَلَّمَا ، وَقَارَبَ الْبَعِيدَ طَلَعَا ، وَوَرَبَ كُلِّ شَيْءٍ بَمِيرَانِهِ ، وَلَمْ يَحِلْطِ حَبْرُهُ بَمِيرَانِهِ ، وَلَمْ يَحْمِلْ قِرَّةَ مَكَانٍ شِبْرُهُ ، دِيًّا كَانَ أَوْ دُنْيَا ، صِلَالًا كَانَ أَوْ هُدًى . وَلَا حَيْرِي فِي عِلْمِ مُسْتَعْمَلٍ فِي جَهْلٍ ، وَلَا حَيْرِي فِي مَعْرِفَةِ مَشْوِيَةٍ بِسُكْرِ . وَلَسَا كَحَلَّةٍ رَمَعَ الْعَبِيرُ بَيْنَ السِّحَانِ وَالذَّنْبِ . وَكُلُّ صَالٍ فَبِتَارِهِ ، وَكُلُّ سِيلٍ فَاَلَى قَرَارِهِ . وَمَا كَانَ سَكُوتُ هَذِهِ الْعَصَابَةِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ لِمِي وَنِيٍّ ، وَلَا كَلَامُهَا الْيَوْمَ لِفَرَقِي أَوْ رِفْقِي . وَقَدْ حَدَعَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْفَ كُلِّ ذِي كِبَرٍ ، وَقَصَمَ طَهْرَ كُلِّ جَبَّارٍ ، وَقَطَعَ لِسَانَ كُلِّ كَذَّابٍ ، لِمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ . مَا هَذِهِ الْخُنُورَانَةُ الَّتِي فِي قَرَائِشِ رَأْسِكَ ! مَا هَذَا الشُّعَا الْمَقْتَرَضُ فِي مَذَارِجِ أَنْفَاسِكَ ! مَا هَذِهِ الْقِدَاءُ الَّتِي تَغَشَّتْ مَظَلَّكَ ! وَمَا هَذِهِ الْوَحْرَةُ الَّتِي أَكَلَتْ شَرَّاسِفَكَ ! وَمَا هَذَا الَّذِي لَيْسَتْ بِسَبَبِهِ جِلْدَ الْبُحْرِ ، وَأَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مَالِ الشُّحْنَاءِ وَالسُّكْرُ ! وَلَسَا فِي كِسْرِيَّةٍ كِسْرِيٍّ ، وَلَا فِي قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرٍ ! تَأْمَلْ لِإِخْوَانِ فَارَسٍ وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ! قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَرَرًا لِسُيُوفَا ، وَدَرِيئَةً لِرِمَاحَا ، وَمَرْمَى لِبَطْعَانَا ، وَتَبَعًا لِسُلْطَانِنَا ، بَلْ نَحْنُ فِي نُورِ نُبُوَّةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَأَثَرَةِ رَحْمَةٍ ، وَعُؤَانِ رِيعَةٍ ،

(١) الرع : أصل العمد من طلع . والعمان : الاست . يريد أن مرهم من الأحياء . والعائز ليست حقيرة مهمة . (٢) الشيء بالكسر اجتماع على . (٣) الحبروة . الكبر . (٤) الوحرة (التحريك) : والحقد البدانة والشراسيف : جمع شرسوف ، والشرسوف مقط الصلح .

وطُلَّ عَصْمَةٌ ، بين أئمة مهديّة الخلق والصدق ، مأمونيّة على الرِّقِّ والعتق ، لها من الله قلبٌ
أبى ، وساعِدٌ قوى ، ويدٌ ناصره ، وعينٌ باصرة . أنظن طمًا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا
الأمر مُفْتَنًا على الأمة حادعًا لها أو متسلطًا عليها ! أترأه حلَّ عقودها وأحلَّ عقولها ! أترأه
حصل نهارها ليلا ، ووَزَنها بكلا ، وقَفَظَها رُقَادًا ، وصلَّحَها فسادًا ! لا والله ! سَلَا عنها قولُها
له ، وتَطَامَسَ لها قَلْبُها به ، ومال عنها هالت إليه ، وأشتمَّاز دونها فأشتملت عليه ، حَنَوهُ
حَبَاهُ الله بها ، وعَاقَبَهُ اللهُ الله إليها ، ونعمه سَرَّه له جمالها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ،
وأئمة نظر الله به إليها . والله أعلم بحلقه ، وأراؤف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيرة . وإليك
بجبت لا يُجْهَلُ موضعُك من بيت السَّوء ، ومَعِينُ الرِّسَالَةِ ، ولا يُصَحِّدُ حَقُّك فَمَا آتَاكَ اللهُ ،
ولكن لك مَنْ يَزَاحِمُكَ بِمَنْكِبِ أَحْمَمٍ من سَبْكَك ، وقُرْبِ أَمْسٍ من قُرَابَتِكَ ، وسَنْ أَعْلَى من
سَبْكَ ، وشَيْءٍ أَرْوَعُ من شَيْئِكَ ، وسيَادَةِ لها أَصْلٌ في الجاهلية وفرعٌ في الإسلام ،
ومواقِفٌ ليس لك فيها حُلٌّ ولا نَاقَه ، ولا تُذَكَّرُ منها في مَقْتَمَةٍ ولا سَاقَةٍ ، ولا تُصِيبُ فيها
بذراع ولا إصبع ، ولا تُخْرَجُ منها بِيَاظٍ ولا هَمٌّ . ولم يزل أبو كَرَجَةَ قلب رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعِلَاقَةً نَفْسِهِ ، وَهِيَّةَ سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ ومشورته ، وراحَةَ كَفِّهِ ،
ومَرْمَقَ طَرْفِهِ . وذلك كله بِمَحْصَرِ الصَّادِرِ والوَاردِ من المهاجرين والأنصار ، شهرته مغنِيَةٌ
عن الدليل عليه . ولعمري إلك أَقْرَبُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابةً ، ولكه
أَقْرَبُ منك قرابةً ، والقُرَابَةُ لَحْمٌ ودم ، والقُرْبَةُ هَسٌّ وروح . وهذا فرق عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ،
ولذلك صاروا إليه أَجْمَعُونَ . ومهما شَكَّكَتَ في ذلك ، فلا تَشْكُ أن يَدَّ الله مع الجماعة ،
ورضوانه لأهل الطاعة . فادْحُلْ فيما هو حَيْرُكَ اليوم وأهْجُكَ لَكَ غدا ، وَأَلْفِطْ مِنْ يَدِكَ
مَا يَتَلَقَّى بِلَهَائِكَ ، وَأَنْفِثْ سَحَابَةَ صَدْرِكَ عَنْ ثَمَانِكَ ، فَإِنَّ يَدَكَ فِي الْأَمَدِ طَوِيلٌ ، وَفِي الْأَجَلِ
فُسْحَةٌ ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيثًا أَوْ عَيْرَ مَرِيٍّ ، وستشربه هَبِثًا أَوْ خَيْرَ هَنٍِّ ، حين لا رَأْدَ لِقَوْلِكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَأْتِجْ لَكَ إِلَّا مَنْ كَانَ طَامِعًا لَيْكَ ، يَحْضُ إِهَابَكَ ، وَيَعْرِكُ أَدِيمَكَ ،

(١) الازل الحلق القوي الذي دخل في سته الائمة والهج : الفصل الذي يخضع في الصبب يكون ضعيفا .

(٢) يحض إهابك : يحرق جهك . (٣) يترك : يهلك .

وَيُزَيِّرُ عَلَى هَدْيِكَ . هَالِكُ قَرَعَ السَّيِّئَ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجَرَّعَ الْمَاءَ مَزْجُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى عَلَى مَا مَضَى مِنْ عَمَلِكَ وَدَارِجٍ قَوْلِكَ ، هَوْدَ أَنْ لَوْ سُقِيَتْ بِالْكَأْسِ الَّتِي أَبْتَهَا ، وَرُدِدَتْ إِلَى حَالَتِكَ الَّتِي أَسْتَفْوَيْتَهَا . وَلَهُ تَعَالَى فِيكَ أَمْرٌ هُوَ الْغُهُ ، وَعَيْبٌ هُوَ شَاهِدُهُ ، وَعَاقِبَةٌ هُوَ الْمَرْجُؤُ لَسَرَاتِهَا وَضَرَاتِهَا ، وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ، الْغَفُورُ الْودُودُ .

قال أبو عبيدة : فتمشيت مترملاً أنوء كَأَمَّا أَخْطُو عَلَى رَأْسِي ، فَرَقًا مِنَ الْفَرْقَةِ ، وَشَقًّا عَلَى الْأُمَةِ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خَلَاءٍ ، فَأَتَيْتُهُ نَحْيَ كُلِّهِ ، وَبَرَّتُ إِلَيْهِ مِنْهُ ، وَرَفَقْتُ بِهِ . فَلَمَّا سَمِعَهَا وَوَطَّأَهَا ، وَسَرَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ حُمَاهَا ، قَالَ : "حَلَّتْ مُعْلُوطَةٌ" (١) وَوَلَّتْ مُحَرَّوْطَةٌ (٢) ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إحْدَى لِبَالِيكَ فِيهِبِي هَيْبِي * لَا تَعْمَى اللَّيْلَةَ بِالْتَّمْرِيسِ (٣)

نعم يا أبا عبيدة ، أَكَلْتُ هَذَا فِي أَنْفَسِ الْقَوْمِ ، وَيُحْسِنُونَ بِهِ ، وَيَضْطَمِعُونَ عَلَى ! قَالَ أَبُو عبيدة : فقلت : لا جواب لك عدى ، إِنَّمَا أَنَا قَاصِحٌ حَقَّ الدِّينِ ، وَرَاتِقٌ حَقَّ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَادُّ ثَلَاثَةِ الْأُمَمَةِ ، يَعْلَمُ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ جُلُجْلَانٍ قَلْبِي ، وَقَرَارَةِ هَيْبِي .

(١) هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب . واسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وروح الله . وراح الخلفاء الراشدين . وإمام الخطأ من المسلمين ولد رحمه الله بعد مولده إلى صلى الله عليه وسلم فأتى ثلاثين سنة . وهو أول من آمن من الصبيان . وكان شعاعاً لا يشق له غار . أبداً حليداً . شهد العروا كلها مع إلى إلا عروة توك . وأمل في صرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يله أحد . ولما قتل عثمان ما به الناس بالخيار وانتفع عن بيعة معاوية وأهل الشام شيعة من أمة عصا مسمم لقتل عثمان وقلة عايشته فالتفت عن الفتنة على حسب اعتقادهم ، فحدثت من جراء ذلك الفتنة الطغيان بين المسلمين وافتراقهم إلى طائفتين تتعاربان مدة من غير أن يستتب الأمر لكل أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً بن عبيد الله بن محمد الكوفي . وكان كرم الله وجهه أصبح الناس بعد رسول الله . وأكثرهم علماً وهدى وشدة في الحق : وهو إمام الخطأ من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته سنة ٤٠ هـ ومدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

(٢) معلوطة . مفتحة من غير روية . (٣) محرورة : بسرعة . (٤) هيبى : سبى أى سبك . (٥) أى يطرون على الصبي وهو الحقد . (٦) جلجلان قلبى ، أى حسه .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قُعودي في كِنِ هذا البيت قصداً للخلاف ، ولا إنكاراً للعروف ، ولا زيارَةً على مسلم ، بل لما قد وقَّدي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعي من الحزن لعقدته . وذلك أي لم أشهد بعده مَشْهَدًا إلا جتد علي حزنًا ، وذكُرتُ شُعبًا . وإن الشوق إلى الخلق به كآف عس الطمع في غيره . وقد عكمتُ على عهد الله أظرفه ، وأجمع ما تهزق ، رحاء نواب مُعَدٍّ لمن أحلص لله عمله ، وأسلم لعلمه ومَشِيئته ، وأمره ونبيه . على أي ما علمت أن التطاهر علي واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع . وإذ قد أُفيم الوادي بي ، وحشد البادي من أهل ، فلا مرحبًا بما ساء أحدًا من المسلمين وسرتي . وفي المس كلامٌ لولا سائق عقد وسالف عهد ، لَشَقِيْتُ غِيظي بِخِصْرِي وبِصْرِي ، وَخَضْتُ لِحْنَتَهُ فَأَتَمَّحِي وَمَفْرِقِي ، ولكنني مُلْجَمٌ إلى أن ألق الله ربي ، وصده أختيب ما رل بي . وإني عادٍ إلى جماعتكم ، فبائعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرتكم ، لِيَقْصِيَّ الله أمرا كان مفعولا .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فعدتُ إلى أبي بكر رضي الله عنه فَقَصَصْتُ عليه التَّوَلَّ على عمره ^(١) ، ولم أخترل شيئا من حُلُوهِ ومُرَّهِ ، وسَكَرْتُ عُدُوهُ إلى المسجد ، فلما كان صباحُ يومئذ وإذا علي مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضي الله عنهما فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف حميلا ، وجلس زَيْمِيتًا ، وأستاذن للقيام فقصي وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستأثرا لما عده .

فقال علي رضي الله عنه : ما فعلتُ عى صاحبكم كارهاً ، ولا أُنَيْتُهُ فِرْقًا ، ولا أقول ما أقول تَعْلَةً . وإني لأعرف منتهى طَرَفِي ، وَمَحَطَّ قَدَمِي ، وَمَتَرَع قَوْمِي ، وموقع مهمي ، ولكن قد أَرَمْتُ على فَأَيْسَى ثِقَّةً بَرِي في الدنيا والآخرة ^(٢) .

فقال له عمر رضي الله عنه : كَفَيْكَ غَمْرُكَ ، وَأَسْتَوْفَى سِرِّكَ ، ودَعَ الْعِيَّ بِلَحَائِهَا ، والدَّلَاةَ على رِشَائِهَا . إنا من حلفيها وورائها ، إن قَدَحْنَا أَوْ رَيْنَا ، وإن مَتَحْنَا أَوْ رَيْنَا ،

(١) على مره ، أي كما هو كائن على . (٢) ريتا : حليا وغورا . (٣) يقال : أرم الحرس على رأس الحمام إذا صها وقص طليا . ورأس الحمام : الحديدة الممرمة منه في الحنك . يريد أنه ألهمه ثقة الخ .

وإن قَرَحْنَا أَدَمِيْنَا . ولقد سمعتُ أمانيك التي لَمَزْتَ بها عن صدرٍ أكل بالجوَى ، ولو شئتُ
لقلتُ على مقالِكَ ما إن سمعته يَدِمْتَ على ما قلت . وزعمتُ أنك فعلتُ في كُنْ بِبَيْتِكَ
لما وَقَدَكَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من نَفْسِهِ ، فهو وَقَدَكَ ولم يَقدْ غَيْرَكَ ! بل
مصابُهُ أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حقِّ مُصابِهِ ألا تُصدعَ شَمْلَ الجماعةِ مُفَرِّقَةً لا عصامَ
لها ، ولا يؤمِّنُ كَيْدَ الشيطانِ في قاتِئها . هذه العربُ حولًا ، والله لو تَدَاعَتْ عليا في صبحِ
نهارٍ لم نلتقي في مساءهِ . وزعمتُ أن الشوقَ إلى المُهاجِرِ به كأيِّ من الطمعِ في غيره ! فمن
علامةِ الشوقِ إليه بصرُهُ دينه ، ومُؤازرةُ أوليائِهِ ومعاوِنتِهِمْ . وزعمتُ أنك عَكَمْتَ على
عهدِ الله فجمع ما عَمَزَ منهُ ، من العكوفِ على عهدِ الله الصبيحةُ لِعِبادِ الله ، والرأفةُ على خَلْقِ
الله ، وبَدَل ما يَصْلُحون به ، وَيَرْتُدُّون عليه . وزعمتُ أنك لم تعلم أن الظاهرَ واقعٌ عليك ،
وأىُّ حقٍّ لَطَمٌ دُومَكَ ! . قد سَمِعْتَ وعلمتَ ما قال الأَنْصارُ لأُمِّسِ سِرًّا وجهرًا ، وتَقَبَّلْتَ
عليه بطنا وطهرا ، فهل ذَكَرْتَ أو أشارتُ بك ، أو وجدتُ رِضاها عك ؟ هل قال أحدُهم
بلسانِهِ إنك تَصْلُحُ لهذا الأمرِ ؟ أو أوماً مِنهُ أو هم في نفسه ؟ أنظُر أن الناسَ ضُلُّوا من
أَجلك ، وعادوا كُفَّارًا زُهْدًا بِكَ ، وَاَعُوا اللهَ تحاملاً عليك ؟ . لا والله ! لقد جَاءني عَقِيلٌ
ابنُ زِيَادٍ الخَزْرَجِيُّ في نَفَرٍ من أصحابِهِ ومَعَهُم شُرَحْبِيلُ بنُ يَعْقُوبٍ الخَزْرَجِيُّ وقالوا : إن
عليًا يَنْظُرُ الإمامَةَ ، وَيَزْعُمُ أنه أَوْلَى بها من غيره ، وَيُنْكِرُ على من يَتَّقِدُ الخِلافةَ ، فأبكرتُ عليهم ،
ورددتُ القولَ في تَحَرُّمِها حيث قالوا : إنه يَنْظُرُ الوَحْيَ ويتوكَّفُ سَاحَةَ المَلِكِ ؛ فقلتُ :
ذاك أمرُ طَواه الله بعد نبيهِ عهدَ صلى الله عليه وسلم أكان الأمرُ مَقْضًى بِأَشْوَطَةٍ ،
أو مَشْدُودًا بِأَطْرافِ لِيْطَةٍ ؟ كَلَّا ! والله لا عَمَلًا بِمُجْدِ الله إلا أَفْصَحْتُ ، ولا شُوكًا إلا وقد
نَفَتَحْتُ . ومن أعجبَ شَأْنِكَ قولُكَ : « ولولا سالفُ عهدٍ وسابقُ عهدٍ ، لَشَقِيتُ غِيْظِي »
وهل تركَ الدينَ لأَهْلِهِ أن يَشْفُو عِيْظَهُمْ بيدَ أو بِلِسَانِ ؟ تلكَ حاهِلِيَّةٌ وقد استأصلَ الله شَأْقَهَا
وأَقْلَعَ جُرْثُومَهَا ، وهَوَّزَ لِيْلَهَا ، وَغَوَّزَ سِيْلَهَا ، وأبْدَلَ مِنْهَا الرُّوحَ والريحانَ ، والمُهدى والبرهانَ .

(١) لَط : جَدَّ . (٢) يَتَوَكَّفُ : يَصْطَر . (٣) الْأَشْوَطَةُ : مَقْدَةُ يَسِيلُ اعْصَلَاهَا .

إذا أخذ أحد طرفيها امتعت . (٤) البقرة عشرة القصص التي تليها أي ترق .

وزعمت أنك مُلَمَّمٌ؛ ولعمري إن من آتقى الله، وآثر رِصاءه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه وأطبق فاه، وحمل سعيه لما وراءه .

فقال جل رضى الله عنه : مهلاً يا أبا حفص، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد نكته، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي جِوْلاً عنه . وإن أخسر الناس صفقةً عند الله من أثر الشقاق، وأحسن الشقاق، وفي الله سلوةٌ عن كل حادث، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارحم يا أبا حفص الى تحريك نافع القلب، مبرود الغليل، فسيح اللسان، فيصيح اللسان، طيس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر، ويحطّ البزور، ويصع الإصر، ويجمع الأله بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو هبيرة رضى الله عنه : فأنصرف علىّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ علىّ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .



٢ — ومن كلام عائشة رضى الله عنها في الانتصار لأبيها

يروى أنه بلغ عائشة رضى الله عنها أن أقواماً ينادون أبا بكر رضى الله عنه، فأرسلت الى أرقط^(١) من الناس، فلما حصروا، أسدلت أستارها، وعَلَّتْ وِسَادَهَا، ثم قالت : أبى، وما أبىة ! أبى والله لا تَعْطَوْهُ الأَيْدِىَ، ذاك طَوْذُ مُبَيْفٍ، وفرعٌ مَيْدٍ، هِيَاهُ، كَدَيْتِ الطَّنُونُ ! أُنْحِ إِدْ أَكْذَيْتِمْ، وَسَبِّحْ إِدْ وَتَيْتِمْ، سَسَقِ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوَلَى عَلَى الْأَمْدِ . ففى

(١) البان . الصدر . (٢) هى عائشة بنت أبى بكر الصديق س أبى نخاعة، عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عكة وهى بنت ست سنين، ودخل بها فى المدينة وهى بنت تسع، وكان مولدها سنة أربع من النبوة، وأما أم رومان بنت عامر بن عويمر، وكان صداها أوصافه درهم، وكانت أحسنائه إليه، وكنيتها أم عبد الله، كبت ما سحتها أسماء، ولها حطب ووقائع . وكانت من أكرم العائلات فى وقعة الجمل المشهورة فى الاسلام مصبة الزبير وطلحة . وكانت أصح أهل زمانها وأبهم مطلقاً وأحفظهم لحديث وأفهمهم . توفيت سنة سبع وخمسين ودعت ليلاً بالقبح ومضى عليها أبو هريرة رضى الله عنه . راسح ترجمتها فى طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩) .

(٣) الأرقط . الحماة . (٤) لا تعطوه : لا تاله .

فريش ماشا، وكهفها كهلأ، يَمَك عايها، ويريش ثَمَلَقها، ويراب شَعْبها، ولم شَعْبها، حتى
حَلَيْتَه قلوبها، ثم استشرى في دين الله ما بَرَحَتْ شَكِيمَتُهُ في ذات الله عز وجل حتى اتحد
بِإِثْنِهِ مَسْجِدًا يُحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطَلُونَ . وكان رحمه الله عَزِيزَ الدِّمْعَةِ ، وَقَبِيذَ الْجَوَانِحِ ،
شَقِيَّ النَّشِيجِ ، فَاغْصَتْ إِلَيْهِ إِسْوَانُ مَكَّةَ وَلُدَانُهَا يَسْعَوْنَ مَعَهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ (١) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ
بِهِمْ وَيَذَلُّهُمْ فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْصُونَ) فَاكْبُرَتْ ذَلِكَ رِجَالَاتُ مَنْ فَرِيشَ حَسَتْ قِيَمَتُهَا ، وَفَوْقَتْ
سَهَامَتُهَا ، وَادَّثَلُوهُ عَرَصًا ، مَا قَلُّوا لَهُ صَعَاةٌ ، وَلَا قَصَعُوا لَهُ قَنَآةٌ ، وَرَمَوْا عَلَى سِيَّسَاتِهِ (٢) ، حَتَّى
إِذَا صَرَبَ الدِّيرُ بِحِرَابِهِ ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ ، وَدَحَلَ النَّاسُ فِيهِ أَمْوَاجًا ، وَمِنْ كُلِّ مِرْقَةٍ أَرْسَلَا
وَأَشْنَاتَا ، احْتَارَ اللَّهُ لِبَيْتِهِ مَا عَدَهُ ، فَلَمَّا قَبَصَ اللَّهُ بَيْتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرَبَ الشَّيْطَانُ
رَوَاقَهُ ، وَمَذَّ طُسُهُ ، وَهَصَبَ حَائِلَهُ ، وَأَحْلَبَ نَحْلَهُ وَرَحْلَهُ ، وَأَصْطَرَبَ حُلَّ الْإِسْلَامِ ،
وَصَرَجَ عَهْدَهُ وَاجَ أَهْلِهِ ، وَبَيَّيَ الْمَوَائِلَ ، وَطَلَّتْ رِحَالُ أَنْ قَدْ أَكْثَبَتْ أَطْلَاعُهُمْ نُهْرَهَا ،
وَلَاتَ حَيْزَ الَّذِي يَرْحُونَ ، وَأَتَى وَالصَّدِيقِ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ! فَقَامَ حَاسِرًا مَشْتَمًا ، بِجَمْعِ
حَاشِيَتَيْهِ وَرَمَعَ قُطْرِيَهُ ، فَرَدَّ رَسَّ الْإِسْلَامِ عَلَى عَرَبِهِ ، وَلَمْ شَعْنَهُ يَطْبَعُهُ ، وَأَتَشَّاهُ الدِّينَ
فَمَعَشَهُ ، فَلَمَّا أَرَّاحَ الْحَقُّ عَلَى أَهْلِهِ ، وَقَزَرَ الرُّعُوسُ عَلَى كَوَاهِلِهَا ، وَحَقَّ الدَّمَاءُ فِي أَهْلِهَا ،
أَنَّهُ مَيِّتُهُ ، سَدَّ ثُلُمَتَهُ بِظُلْمِهِ فِي الرَّحْمَةِ ، وَشَقِيَقَهُ فِي السَّيْرِهِ وَالْمَعْنَةِ ، ذَاكَ ابْنُ الْخَطَّابِ ،
لَهُ دَرَأٌ أَمْ حَمَلَتْ بِهِ وَدَرَتْ عَلَيْهِ ! لَقَدْ أَوْحَدَتْ بِهِ ، فَصَخَّ الْكَعْبَرَةُ وَدَيَّحَهَا (٣) ، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ
شَدْرَ مَدْرَهُ ، وَصَجَّ الْأَرْضَ وَبَجَّعَهَا ، فَقَامَتْ أَكْطُلُهَا ، وَلَمَطَتْ خَبَابُهَا (٤) ، تَرَامَهُ وَيَصْدِفُ عَنْهَا ،
وَتَصَبَّدَى لَهُ وَيَأْمَاهَا . ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فَيْئَهَا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحَّيْبَهَا . فَارَوْنِي مَاذَا تَرْتَنُونَ ، وَأَيُّ
يَوْمِي أُنْبِي تَقِيمُونَ : أَيَوْمَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَتَلَ فِيكُمْ ، أَمْ يَوْمَ ظُلْمِهِ إِذْ نَظَرَ لَكُمْ ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا
وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى النَّاسِ بَوَاجْهِهَا فَقَالَتْ : أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ هَلْ أَنْتُمْ مِمَّا
قُلْتُ شَيْئًا ؟ قَالُوا : أَلَلَّهُم لَا .

(١) حَاها :

(٢) هَج : عَلَ وَفَهَر .

(٣) عَلَى سِيَّسَاتِهِ ، أَي عَلَى دَأَاهُ وَمَادَتِهِ .

مَا عَابَهَا .



٣ - كلمة أم الخير بنت الحرث^(١)

ومن كلام أم الخير بنت الحرث البارقية يوم صمّين في الانتصار لعلّ رضى الله عنه :
 يروى أن معاوية كتب الى واليه بالكوفة أن يجعل اليه أم الخير بنت الحرث البارقية
 برّسلها ، وأعلمه أنه يجازيه قولها فيه بالخير حيرا وبالشر شرا . فلما ورد عليه كتابه ، ركب
 اليها فاقراها الكتاب ، فقالت : أنا أنا فخيرُ زائعة عى طاعة ولا معتلة بكذب ! ولقد كنتُ
 أحب لقاء أمير المؤمنين لأموّر تحتلج في صدرى . فلما شبعها وأراد مفارقتها قال لها :
 يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين كتب الى أنه يجازىي قولك في بالخير حيرا وبالشر شرا ،
 فما عندك ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك رُكّى أن أسرك باطل ، ولا تُؤسك معرفى بك
 أن أقول فيك غير الحق . مسارت حير مسير حتى قدمت على معاوية ، فأتوها مع حريمه ثلاثا ،
 ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين
 ورحمة الله وبركاته ، قال لها : وطبك السلام يا أم الخير ، وبالرم منك دعوتى بهذا الاسم ،
 قالت : مة يا أمير المؤمنين ! فإن بيته السلطان منحصّة لما يحب علمه ولكل أجل كتاب ،
 قال : صدقت ، فكيف حالك يا حالة ؟ وكيف كنت في مسيرك ؟ قالت : لم أزل في عافيه
 وسلامة حتى صرتُ اليك فأنّا في مجلس أنيق ، عند ملك رقيق ، قال معاوية : بحسن نيتى
 طفرتُ بكم ، قالت : يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دَخِص المقال وما تُردى عاقته ،
 قال : ليس هذا أردنا ، أحيرىي كيف كان كلامك يوم قُبل عمار بن ياسر ؟ قالت :
 لم أكن واقفه زورته قبل ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات تفتن لسانى حين الصدمة ،
 فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلتُ ، قال : لا أشاء ذلك . ثم التفت الى
 أصحابه فقال : أيكم يحفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
 كحفظى سورة الحمد ، قال : ها به ، قال : نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم طليها

(١) مقولة من صح الأئمة ح ١ ص ٢٤٨ (٢) ردود الكلام في مة : هيا .

برء زبدي كثيف الحاشية، وهي على جبل أزمك وقد أحيط حولها، وبيدها سوط منتشر الصعر، وهي كالحمل يهدر في شقيقته تقول :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) ! ان الله قد أوضح الحق، وأبان الدليل، وقور السبيل، ورفع العلم، فلم يدعكم في عمياء مَهْمَة ! ولا سوداء مُدْهِمَة، فإلى أين تريدون رحمكم الله ! إفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الاسلام، أم ارتداداً عن الحق ! أنا سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَسَبَّوْنَكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالْعَصَابِيرَ وَنَلَوْا أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها الى السماء وهي تقول :

قد عيل الصبر، وصمف اليقين، وانتشر الرعب، وبيلك يا رب أرمة القلوب، فاجمع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى . هلموا رحمكم الله الى الإمام العادل، والوصي الوفي، والصديق الأكبر ! إياها نحن بذرية، وأحفاد جاهلية، وصفائن أهدية، وثب بها معاوية حين النفلة ليُذرك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت : قَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صراً معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من ديسكم، وكأني بكم عدداً قد لقيتم أهل الشام كحمر مُسْتَفِرَّة، قوت من قسورة، لا تدري أين يُسَلَّكُ بها من بهاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الصلاة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعماً قليل ليُصِحِّحُنْ مادمين، حين تحل بهم الدامة، فيطلبون الإقالة ! إنه واقع من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجسة نزل في النار . أبها الناس، إن الأيكاس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطئوا مده الآخرة فسعوا لها . والله أبها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتُعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما احتزنا المايا على خفص العيش وطيبه، فإلى أين تريدون — رحمكم الله — عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

وزوج ابنته وأبى آبنه^١ خلق من طيبته، وتخرج عن نعته، وخصه بستره، وجعله باب مدينته، وأعلم بحم المسابين، وأمان بغضه المنافقين. فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته، ويمضي على سنن استقامته، لا يعترج لراحة اللذات. وهو مُفَلِّقُ الهام، ومكسّر الأصنام، إدا صلت والباس مُشركون، وأطاع والباس مرتابون. فلم يزل كذلك حتى قتل مُبارِزِي بَدْر، وأبى أهل أحد، وقرق جمع هوازن، فإلهة وقائع زرعته في قلوب قوم غافقا، وريدة وشقاقا. وقد آجبت في القول، وبالمث في المصيبة، والله التوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فقال معاوية: والله يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلى! والله لو قتلناك ما حرجت في ذلك.

قالت: والله ما يسوءني يا ابن هذ أن يُحَرِّى الله ذلك على يدي من يُسعدني الله بشفاؤه؛ قال: هيات يا كثرية المعضول، ما تقولين في عثمان بن عفان؟ قالت: وما عسيت أن أقول فيه، استخلفه الناس وهم كارهون، وقتلوه وهم راصون؛ فقال: إياها يا أم الخير، هذا والله أصلك الذي تدين عليه، قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا، ما أردت عثمان نقصا، ولقد كان سبأقا إلى الخيرات، وإنه لرفع الدرجة. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما صبي أن أقول في طلحة، إغتيال من أمته، وأتني من حيث لم يتحدّر، وقد وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيخ يترك في المِرْك^(١)؛ قال: حقا لتقولن ذلك وقد عزمْتُ عليك؛ قالت: وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سبأقا إلى كل مكرمة في الإسلام. وإني

(١) المِرْك: الإحالة وهي إياه تشمل به الثياب. وبهرك. يحك. والرجع المردود. أي لا تتهلى كالنوب المصروع يحك في الإباء مرة بعد أخرى لإحراج صممه. نكس محاورة معاوية لإياها وسؤاله لها مرة بعد مرة لاستخراج ما فيها مما يصل من الثياب المصوعة لاستخراج صبيها منها.

أسألك بحق الله يا معاوية، فإن قرشنا تحتك ألك من أحلمها، أن تَسْعَىَ فضل حلمك، وأن تُعْفِيَنِي من هذه المسائل، وأميص لما شئت من غيرها، قال: نعم وكرامة، قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلى بلدّها .



٣ - كلمة الزرقاء بنت عدى

ومن كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ما قالته يوم صغى أيضا :

يروى أنها دُرِكت عند معاوية يوما، فقال جلسائه . أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال : فاشيروا علىّ في أمرها، فأشار بعضهم بقتلها، فقال : لس الرأي ! أيحسُنُ بمثل أن يقتل امرأة ! ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يؤدّها إليه مع ثقة من ذوى محرّمها وعنه من فُرسان قومها، وأن يهدّها وطاءً ليا ، ويستترها ستر حصيف^(١)، ويوسع لها في العقّة . فلما دخلت على معاوية، قال: مرحباً بك وأهلاً ! قَدِمْتِ حيرَ مُقدّم قديمه واعد ، كيف حالكِ ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين، أدام الله لك العمة ! قال : كيف كنتِ في مسيركِ ؟ قالت : ريدة بيت أو طِفلا ممهدا، قال : بذلك أصراهم . أتدريين فيم بعثتُ إليك ؟ قالت : وأنى لى علم مالم أعلم ؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل ، قال : ألسيتِ الراكبة الجمل الأحمر، والواقعة بين الصقيين يصغين تحصين الناس على القتال، وتوقدين الحرب ؟ لما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وُبر الدّيب، ولن يعود ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تمكّر أبصر، والأمرُ يحدث بصدّه الأمر، قال

(١) هي الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية، كانت من أهل الكوفة، وكانت ذات شجاعة ماهرة، وبلاغة نادرة، شهدت مع قومها واقعة صفين، ولها عدّة حيل تحرض الناس على القتال ضد معاوية . وبعد أن تم لمعاوية ما أراد كتب إلى عامله بالكوفة باستدانتها، فأحصرت إليه، وبعد محاورته به وحبسها سألها حاجتها، فقالت « يا أمير المؤمنين، أليت على مني ألا أسأل أميرا أعنت عليه أبدا » ثم انصرفت، وبعد ذلك أرسل لها معاوية حائزة . (٢) حصيف : طيب .

لها معاوية: أنحفظين كلامك يومئذ قالت: لا والله، ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه،
 لله أبوك حين تقولين:

أيها الناس، إرعووا وأرجعوا! إنكم أصحتم في فتنه غشتكم جلايب الظلم، وحارت
 بكم عن قصد المحمة. يالها فتنه عمياء، سماء بكاء، لا تسمع لناعها، ولا تسلس لقائدها.
 إن المصاح لا يضيء في الشمس، والعكواكب لا تير مع القمر، ولا يقطع الحديد
 إلا الحديد. ألا من أسترشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها! فصبرا يا معاشر المهاجرين والأنصار
 على الفصص، فكان قد أدخل شعب الشتات، وأتامت كلمة التقوى، ودمع الحق باطله!
 فلا يجهلن أحد يقول: كيف العدل وأنى! ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ألا وإن خضاب
 النساء الحناء، وخصبات الرجال الدماء! ولهذا اليوم ما بعده، والصبر خير في عواقب
 الأمور. أيها إلى الحرب قدما غيرنا كهين ولا متشاكين.

ثم قال لها: يا زرقاء، لقد شرتك طيا في كل دم سفك؛ قالت: أحسن الله بشارتك،
 وأدام سلامك، فمثلك من بشر بغير وسر جليسه؛ قال: ويسرك ذلك؟ قالت: نعم سررت
 بالخبر فأنى لي بتصديق الفعل! فصحك معاوية وقال: لوفاؤكم له بعد موته أعجب عدى
 من حبكم له في حياته! أذكرى حاجتك، قالت: يا أمير المؤمنين، أليت على نفسي ألا
 أسأل أميرا أعنت عليه أبدا، ومثلك من أعطى من غير مسألة، وجاد من غير طلب؛ قال:
 صدقت، وأمر لها وللذين حاموا معها بجوائز وكسا.

٤ — عكرشة بنت الأطرش

ومن كلام عكرشة بنت الأطرش ما قالته يوم صيفين أيضا:
 يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عكاز لها، فسأمت عليه بالخلافة ثم جلست؛
 فقال لها معاوية: الآن صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم إذ لا على حق! قال:

ألسيت المتخلّدة حائل السيف بصيّين وأنت واقفة بين الصّبيّين قولين : أيها الساس ، عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ اذا آهتديتم . إن الجلة لا يحرّون من قتلنا ، ولا يهرّون من سكننا ، ولا يموت من دحاهنا ، فابتاعوها بدار لا يدوم بيمها ، ولا تصرّم همومها . وكووا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهرين على حقهم ، إن معاوية دلف إليكم معكم العرب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم الى الباطل فأجابوه ، واستدعاهم الى الدنيا فلبّوه . فافقه الله عباد الله في دين الله ! وإياكم والتواكل فإن ذلك يقصّ عرى الإسلام ، ويطفئ نور الحق . هذه بذرة الصغرى ، والعقصة الأخرى . يامعشر المهاجرين والأنصار ، أمضوا على بصيرتكم ، وأصبروا على عزيزتكم ، مكأى بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناعقة تقصّع قصع البعير^(١) .

ثم قال : فكأنى أراك على عصاك هذه قد انكأ عليك المسكران يقولون هذه عكشة بنت الأعرس ، فإن كدت لتعلين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، يقول الله جل ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ الآية ، وإن اللييب إذا كره أمراً لا يحبّ إعادته ، قال : صدقت ، فاذكري حاجتك ، قالت : كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتؤدّ على فقرائنا ، وقد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كبير ، ولا ينفع لنا فقير ، فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من العملة وراجع التوبة ، وإن كان عن غير رأيك فما مثلك من استعان بالحنونة ، ولا استعمل الظلمة ، قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيتنا نفور نمتق ، وبحور نندقق ، قالت : سبحان الله ! والله ما عرض الله لنا حقاً جعل فيه صرراً لنفينا وهو علام الغيوب ، قال معاوية : هيات يا أهل العراق ، تبكم على فلن تطأقوا . ثم أمر برّد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

(١) يقال : قصع البعير عزّته يقصّع قصعا . مصمها .

٦ - رسالة لعبد الحميد الكاتب^(١)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب عن مروان بن محمد لمعص من ولده^(٢) :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عد ما أعترم عليه من بوجيهاك الى عدو الله الحلف
الجاني الأعرابي ، المسكح في حيرة الجهالة ، وطلم الفتنة ، ومهاوى الملكة ، ورعاه الدين
عائوا في أرض الله صاددا ، وأتتهكوا حرمة الإسلام استخفافا ، وقلوا نعمة الله كفرا ،
وأسنحلوا دماء أهل سلمه جهلا - أحب أن يتهد إليك في لطائف أمورك ، وعوام
شؤورك ، ودحائل أحوالك ، ومضطرب تفكك هذا يحملك فيه أدبه ، ويتشرع لك به

(١) هذه الرسالة منقولة عن صحيح الأضنى ج ١٠ ص ١٩٥ (٢) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد
العامري ولده ، الشامي دارا ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأول من أطال الرسائل .

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بني عامر ، وتخرج في البلاعة والكفاة على حبه أي السلاء سالم مولى
هشام بن عبد الملك وكانت دوله وأحد طغاة العالم والقلعة من البرابرة . وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صبيان
ينقل في البلدان حتى طلع له مروان بن محمد أيام توليه أرمينية وانتداه لتسكين فتيتها ، فكنت له مدة ولايته ،
حتى إذا طع ما به أهل الشام له بالخلافة محمد مروان فقه شكرا ومجد أصحاه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان
لم لا تسعد ؟ فقال ولم أحمد ؟ أجلي أن كنت معا طرقت عا ! قال : إذا طعير معي ؟ قال : الآن طاب لي السجود
ومحمد ، فاتخذ مروان كاتب دوله ، صدر عنه من الرسائل ما صار يودحها يحاكمه من بعده من العلماء .

ولما دعت مروان حيوش حراسان أصدار الدعوة العاسية وتوالت عليه المراثم كان عبد الحميد يلزمه في كل
هذه الشدة ، فقال له مروان : عد احتجت أن تصير مع عدوي وتطهر العذرى ، فإن إنعاهم ، أذلك ، وحاحتهم
إلى كتابتك ، تنوحهم إلى حسن الطل بك ، فإن استطعت أن تمنعني في حياتي وإلا لم تنص من حط حري عبد
وطاقي ، فقال له : إن الذي أشرت به على أفع الأمرين لك وأقبحهما لي ، وما عدى إلا الصبر حتى يفتح الله
عليك أو أقتل منك . وأشد :

أمر واه ثم أظهر عذرة : مولى منديوسع الناس طاهره

وبقي معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ هرواحنا عبد صديقه أن المجمع هاجاه الظلم وهرب في بيته ، فقال
الذين دخلوا عليها أياك عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، حوا على صاحبه ، وحاف عبد الحميد أن يسرعوا
إلى أن المنع فقال : ترفعوا ما كانت كلاما له علامات ، فوكلوا ما يصعبكم ويصعب بعض آخر ويذكر تلك
العلامات لم وحكم هملوا وأحد عبد الحميد إلى المنع فقتله سنة ١٣٢ هـ . أظهر ترجمته في ابن حنك
(ج ١ ص ٤٣٦) . (٣) هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الصفاك بن قيس الشيباني المخارحي .

عِظَتُهُ ، وَإِنْ كُنْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَحِلَالَتِهِ بِحَيْثُ أَصْطَلَحَ اللَّهُ لَوْلَايَةِ الْعَهْدِ مَحْتَصِبًا
لَكَ بِذَلِكَ دُونَ لِحْتِكَ وَتَنِي أَيْسِكَ . وَلَوْلَا مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دَالًّا عَلَيْهِ ، وَقَدَّمَتْ بِهِ
الْحِكْمَاءُ أَمِيرِينَ بِهِ : مِنْ قَدِيمِ الْعِظَةِ ، وَالتَّذَكُّيرِ لِأَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، وَإِنْ كَانُوا أَوْلَى سَاقِهِ
وَالْفَصْلِ وَحِصَّيْهِمَا فِي الْعِلْمِ ، لِأَعْتَمَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَصْطِلَاحِ اللَّهِ إِيَّاكَ وَتَفْصِيلِهِ لَكَ
بِمَا رَأَى أَهْلُهُ فِي مَحَلِّكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسَيَقِيكَ إِلَى رِغَابِ أَحْلَاقِهِ ، وَأَتْرَاعِكَ بِمُجْدَى شَيْبِهِ ،
وَأَسْتِيلَاكَ عَلَى مَشَاهِيرِ تَدْبِيرِهِ . وَلَوْ كَانِ الْمُؤَدَّبُونَ أَحْدَاوُ الْعِلْمِ مِنْ عِدِّ أَهْلِهِمْ ، أَوْ لَقَمَوْهُ
إِلْهَامًا مِنْ تِلْقَائِهِمْ وَلَمْ يُصِيبِهِمْ تَعَلُّوْا شَيْئًا مِنْ عَيْرِهِمْ ، لَحَلَّاهُمْ عِلْمُ الْعَيْبِ ، وَوَصَّاهُمْ بِمِرَاةِ
قَصْرِهَا عَنْهُمْ حَالِقُهُمُ الْمُسْتَأْثِرُ بِعِلْمِ الْغَيْبِ عَنْهُمْ بَوَحْدَانِيَّتِهِ فِي فِرْدَانِيَّتِهِ وَسَابِقِ لَاهُوتِيَّتِهِ ،
أَحْتِثَانًا مِنْهُمْ لَتَعْقِيْبِ فِي حِكْمِهِ ، وَتَنْثِيْتِ فِي سُلْطَانِهِ وَتَفْخِيْذِ إِرَادَتِهِ ، عَلَى سَابِقِ مَشِيئَتِهِ .
وَلَكِنْ الْعَالَمُ الْمَوْفِقُ لِلْخَيْرِ ، الْمَحْصُوصُ بِالْفَضْلِ ، الْمَحْصُورُ بِمِزْيَةِ الْعِلْمِ وَصِعُونَهُ ، أَدْرَكَهُ مُعَامًا عَلَيْهِ
لَطْفَ بَحْتِهِ ، وَإِذْلالَ كَمَفِهِ ، وَبِحَقَّةِ فَهْمِهِ ، وَتَجَمُّرِ سَامِيَّتِهِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، أَحَدًا مَالِحْتَهُ عَلَيْكَ ، مُؤَدِّيًا حَقَّ اللَّهِ الْوَاحِدَ عَلَيْهِ
فِي إِرْشَادِكَ وَقَصَائِرِ حَقِّكَ ، وَمَا يَنْطَرِقُهُ الْوَالِدُ الْمَعْنِيُّ الشَّفِيقُ لَوْلَدِهِ . وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ رَحُو أَنْ
يَنْزِعَكَ اللَّهُ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ يَهْتَشُّ لَهُ طَمَعٌ ، وَأَنْ يَقْصِمَكَ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ حَاقٍ بِأَحَدٍ ، وَأَنْ
يَحْصُبَكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ أَسْتَوْلَتْ عَلَى أَمْرِيٍّ فِي دِينٍ أَوْ حُلُقٍ ، وَأَنْ يَلْتَفِتَ فَيْكَ أَحْسَنَ مَا لَمْ يَزَلْ
يَعُوْدُهُ وَيُرِيهِ مِنْ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ ، سَامِيَةً بِكَ إِلَى ذِرْوَةِ الشَّرَفِ ، مَتَبَّحِحَةً بِكَ بِسُطَّةِ
الْكَرَمِ ، لِأَنْعَمَةٍ بِكَ فِي أَزْهَرِ مَعَالِي الْأَدَبِ ، مُورِثَةً لَكَ أَهْسَ ذَخَائِرِ الْعِزِّ ، وَاللَّهُ يَسْتَحْلِفُ
عَلَيْكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْأَلُ جِبَاطَتَكَ ، وَأَنْ يَعْصِمَكَ مِنْ زَيْجِ الْهَوَى ، وَتُحْصِرَكَ دَائِعَى
التَّوْفِيقِ ، مُعَامًا عَلَى الْإِرْشَادِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُعِينُ عَلَى الْخَيْرِ وَلَا يُوقِقُ لَهُ إِلَّا هُوَ .

إِعْلَمْ أَنَّ الْحِكْمَةَ مَسَالِكَ تُعْصِي مَضَائِقُ أَوَائِلِهَا بِمِثْلِهَا سَالِكًا ، وَرَبَّكَ أَحْطَارَهَا
قَاصِدًا ، إِلَى سَعَةِ عَاقِبَتِهَا ، وَأَمْنِ سَرَحِهَا ، وَشَرَفِ عِزِّهَا . وَأَنَّهَا لَا تُعَارِ بِسُخْفِ الْحَقَّةِ ،
وَلَا تُنْشَأُ بِتَفْرِيطِ الْعَمَلَةِ ، وَلَا يُتَعَدَّى فِيهَا بِأَمْرِيٍّ حُلَّةٌ . وَرَبَّمَا أَطْهَرَتْ بِسُطَّةِ النَّفْسِ

مستور العيب . وقد تلقّنتك أحلاق الحكمة من كل حية بمصلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا مُتطاوّل لمساولة ذرّوتها ، بل تأثّلت منها أكرم نبتاتها ، واستخلصت منها أعتق حوايرها ، ثم سموت إلى لباب مُصاصها ^(١) ، وأحرزت مُنيس ذائرها ، فأقتصد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

وأعلم أن احتوائك على ذلك وسبّك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك مؤثرا لها ، وإصمار طاعته منطويا عليها ، وإعطاء ما أنتم الله به عليك شاكرا له ، مرتبطا فيه للريد بحس الجباطة له والدب عنه من أن تدّلك منه سامة ملال ، أو غلة ضياع ، أو سبه تهاون ، أو حيلة معرفة ، فإن ذلك أحق ما يدي به وطر فيه ، معتمدا عليه بالقوة والاكلة والمعدة والأمراد به من الأصحاب والخاصة . فمسك به لاجئا إليه ، وأحميد عليه مؤثرا له ، والنجي إلى كفه متحميا إليه : فإنه ألمع ما طُلب به رضا الله وأنجحه مسألة ، وأحرله ثوبا ، وأعوذه دعا ، وأعنه صلاحا ، أرشدك الله لحظك ، وفهمك سدا ، وأخذ قلبك إلى محموده . ثم أجعل الله في كل صباح يُعِمّ عليك ببلوعه ، ويُظهر ملك السلامة في إشرافه ، من هسك نصيبا يجعله له شكا على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح وعافية بدن ، وسبوع يَمّ ، وظهر كرامة ، وأن تقرأيه من كتاب الله — تبارك وتعالى — حرا تُرَدّد رأيك في آيه ، ونزل لفطك قراءته ، وتُحصِر عقلك ناظرا في مُحكمه ، وتُفهمه معكرا في مُتشابهه : فإن في القرآن شعاء الصدور من أمراضها ، وحلاء وساوس الشيطان وصعاصيعه ، وضياء معالم السور ، تباها لكل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ثم تعهّد نفسك بمحادثة هواك ، فإنه مِفلاق الحسّات ، ومِفتاح السيئات ، وخَصم العقل .

وأعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويستترّض غفلتك ، لأنها خُدع إبليس ، وخَوائِل مكره ، ومصابيد ميكيدته ، فأحذرهما مجانبيا لها ، وتوقّها محترسا منها ، وأستعد

(١) المصاص : حاصر كل شيء .

(٢) كذا في صح الأعمى وفي مفتاح الأُمكار (ص ٢٨٢) وغيره « وترى » . (٣) الصماص :

جمع صمص وهو طائر أعقب يصيد الخنازير ، شبه رسومه الشيطان . وفي بعض المخطوطات « وسماصه » .

بأنه عز وجل من شرها، واحدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا وثبة فيه، وحريم نافذة لا مثبوتة^(٢) رأيك بعد إصداره، وصديق غالب لا مطمع في تكذيبه، ومصايب صارمة لا أناة معها، ونية صحيحة لا خلجة شك فيها: فإن ذلك طهرى صديق لك على ردها عنك، وقيامها دون ما تنطلق إليه منك؛ فهي واقية لك من خطئ ربك، داعية إليك رضا العاقبة عنك، سارة عليك عيب من ذلوك؛ فازد من متعليا، وأصب بأحلاقك مواضعها الحبيدة منها، وتوق عليها الآفة التي تقتطعك عن بلوغها، وتقصرك دون شأوها: فإن المؤونة إنما آشتت مستصعبة، وقدحت باهظة أهل الطلب لأخلاق أهل الكرم المستحلين سمو القدر. بجهالة مواضع ذميم الأخلاق ومجودها، حتى فرط أهل التقصير في بعض أمورهم، فدخلت عليهم الآفات من جهات أسوها، فلبسوا إلى التفریط، ورسوا بذلك المتزل، فأقاموا به جاهلين بموضع الفضل، تغييب عن درج الشرف، ساقطين دون منزلة أهل الجاه. فحاول بلوغ غايتها تحريزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصا أعمالك من العجب: فإنه رأس الهوى، وأول العوایة، ومقاد الهلكة، حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوى الألقاب وذمير تآزرها، من حيث أنت الغفلة، وأنشر الضياع، ودخل الوهن. وتوق غلوب الآفات على عقلك، فإن شواهد الحق ستظهر بآماراتها تصديق آرائك عند دوى الجحاح حال الرأي وقص الطر. فاحتل لنفسك عمود الذكر وابق لسان الصديق الحذر لما تقدم إليك فيه أمير المؤمنين، متحرزا من دخول الآفات عليك من حيث أسك وقلة ثقتك بمحكمها. من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصون سرك بالكتان، وتدارى جندك بالإيناف، وتذل نفسك بالعدل، وتحصن عيوك بتقويم أودك، وتمتع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردى. وأنتك فوقها الملال وموت العمل، ومصايبك فدرعها روية النظر وأكثفها بأناة الحليم. وخلوتك فأحرسها من الفعلة وأعتاد الراحة، وتمتكت

فأَيْفَ عَمَى الْلفْظُ ، وَخَفَ سَوَاءُ الْقَالَةِ ؛ وَاسْتَمَاعَكَ فَأَرْعَهُ حُسْنَ التَّفْهِيمِ ، وَقُوَّةَ بَيِّنَاتِ الشَّهَادَةِ ؛ وَعَطَانَكَ فَأَتَمَّهُدْ لَهُ بَيِّنَاتِ الشَّرَفِ وَذِي الْحَسْبِ ، وَتَحَوُّزَ فِيهِ مِنَ الشَّرَفِ وَاسْتَطَالَةَ الْبَدْحِ وَأَمْتَانِ الصَّبِيحَةِ ؛ وَحِيَاكَ فَأَمِّعْهُ مِنَ الْخَمَلِ وَبِلَادِهِ الْحَصْرِ ، وَحِلْمَكَ فَزَعَهُ عَنِ التَّهَوُّنِ وَأَحْصِرْهُ قُوَّةَ الشَّيْكَةِ ، وَعَقُوبَتَكَ فَقَصِّرْهَا عَنِ الْإِفْرَاطِ ، وَتَعَمُّدِهَا أَهْلَ الْاِسْتِحْقَاقِ ، وَعَفْوِكَ فَلَا تُدْخِلْهُ تَعْمِيلَ الْحَقِيقِ ، وَحَذِّبْهُ وَاجِبَ الْمَعْتَرِضِ ، وَأَقِمْ بِهِ أَوْدَ الدِّينِ ، وَاسْتِثْنَاكَ فَأَمِّعْ مِنْهُ الدَّاءَ وَسُوءَ الْمُنَاقَاةِ ^(١) . وَتَعَهَّدْكَ أُمُورَكَ حُدُودَ أَوقَاتِهَا ، وَقُدْرَةَ سَاعَاتِهَا لَا تَسْتَفْرِغْ قُوَّتَكَ ، وَلَا تَسْتَدِيعِ سَامَتَكَ ، وَعَزَمَاتِكَ فَأَيْفَ ضَمَّا عَمَلُهُ الرَأْيَ ، وَبَلْجَاةَ الْإِقْدَامِ ؛ وَفِرَاحَتِكَ فَأَشْكُهَا عَنِ السَّطْرِ ، وَقَيْدِهَا عَنِ الرَّهْوِ ، وَرَوَاعَاتِكَ لِحُطْمِهَا مِنْ دَهْشِ الرَأْيِ وَاسْتِيسْلَامِ الْخُضُوعِ ، وَحَدَرَاتِكَ فَأَمِّعْهَا مِنَ الْجَبَنِ ، وَأَعْمِدْهَا بِالْحَزْمِ ؛ وَرَحَامَتِكَ فَقَيِّدْهُ بِخَوْفِ الْفَاتَةِ ، وَأَمِّعْهُ مِنْ أَمْنِ الطَّلَبِ .

هذه جوامعُ حلالٍ ، دَحَالُ الْقِيَصِ مِمَّا وَاصِلٌ إِلَى الْعَقْلِ لِبَلَطَاتِيفِ أَتْنِهِ ، وَتَصَارِيفِ حَوِيلِهِ ، فَأَحْكِيهَا عَارِفًا بِهَا ، وَتَقَدَّمْ فِي الْحِفْظِ لَهَا ، مَعْتَرِئًا عَلَى الْأَخْذِ بِمَرَاشِدِهَا وَالْاِسْتِثْنَاءِ مِمَّا إِلَى حَيْثُ بَلَفَتْ لَكَ عِطَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدْبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم اتكى بِطَانَتِكَ وَحُلَسَاؤُكَ فِي حُلَاتِكَ وَدَحَلَاؤُكَ فِي سِرِّكَ ، أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْوَرَعِ مِنْ حَاصَةِ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَعَامَّةَ قَوَادِكِ مِمَّنْ قَدْ حَكَّمْتَهُ السُّبُوتُ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ ، وَحِطَّتْهُ فِصَالُهَا مِنْ فَرَايسِ الْبُرْلِ مِمَّا ، وَقَلْبَتَهُ الْأُمُورُ مِنْهَا ، وَرَكِبَ أَطْوَارَهَا ، عَارِفًا بِمَخَاسِنِ الْأُمُورِ وَمَوَاصِعِ الرَأْيِ وَعَيْنِ الْمَشُورَةِ ، مَأْمُونِ الصَّبِيحَةِ ، مَطْوِيِ الصَّبِيرِ عَلَى الطَّاعَةِ . ثُمَّ أَحْصِرْهُمْ مِنْ هَسَلِكَ وَقَارًا يَسْتَدِيعُ لَكَ مِمَّنْ هَمِيَّةُ ، وَاسْتِثْنَاكَ يَعْطِفُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ الْمُؤَدَّةُ ، وَإِنْصَابَاتُ يَهْلُ إِحَاصَتِهِمْ لَهُ عِنْدَكَ بِمَا تَكْرَهُ أَنْ يُنْشَرَّعَكَ مِنْ مَخَاصِيهِ الرَأْيِ وَصَيَاحِ الْحَزْمِ . وَلَا تَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ هَوَاكَ فَيَصِيرَ لَكَ مِنَ الرَأْيِ وَيَقْتَطِعْكَ دُونَ الْعِصْرِ . وَتَعَلَّمْ أَلَمَكَ وَإِنْ خَلُوتَ بَيْتَ

(١) يقال . فانت طالع طلاق الكلام . آداه (٢) الحزب : الخلق والقدرة على الصرف .

(٣) الفراس : واحدا فرس وهو طرف جب العير .

فألقيت دونه سُتورك، وألقت عليه أبوامك ، فذلك لا محالة مكتوف للعامة ، ظاهر
 عنك وإن استترت برتبا واصل وما أرى إغاظة ذلك وأعلم ، بما يرون من حالات من
 يتقطع به في تلك المواطن . فتقدم في إحكام ذلك من نفسك ، وأسدد حلقه عنك : فإنه
 ليس أحدٌ أسرع إليه سوء القالة ولمعط العامة بحير أو شر من كان في مثل حالك ومكايك
 الذي أصححت به من دين الله والأمل المرجو المنتظر فيك . وإياك أن يغيز فيك أحدٌ
 من حانتك ويطانة حذمتك بضعة يحد بها مساعا إلى الطق عندك مما لا يتبرك عيه ،
 ولا تحلو من لائمه ، ولا تأمن سوء الأحداث فيهِ ، ولا برخص سوء القالة به إن نعم طاهرا
 أو علن ناديا ، ولن يحتروا على تلك عندك إلا أن بروا منك إصغاء إليها وقبولا لها
 وترخيصا لهم في الإصا به . ثم إياك وأن يخاص عندك شيء من المكاهات والحكايات
 والمراج والمصاحك التي يستحيف بها أهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ؛ ويحد بها
 أهل الحسد مقالا لعب يدعونه ، وطعنا في حق يحسدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ،
 ودرج العرض ، وهضم الشرف ، وتأنيل العقلة ، وقوه طبايع السوء الكاميه في بني آدم
 ككثو الساري المجر الصلْد ، فإذا قُدح لاح شره ، وظهت ومبصه ، ووقد تصرمه .
 وليست في أحد أقوى سطوة ، وأظهر توقدا ، وأعلى كُوبا ، وأسرع إليه بالعب وتطرش
 الشين منها لم يكن في مثل سلك : من أفعال الرجال ودوى العُنوان في الحدائث الذين
 لم يقع عليهم سمات الأمور ، فاطقا عليهم لائحتها ، طاهرا فيهم وشمها ، ولم تحصهم شهادتها ،
 مظهرة للعامة فصلهم ، مديمة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ هم الصبب في الحكمة مستمعا
 يدفعون به عن أنفسهم واطق السن أهل النعي ، ومواد أنصار أهل الحسد .

ثم تهتد من هسك لطيف عيب لارم لكثير من أهل السلطان والقدرة : من
 إظهار الدرع ونخوة الشرف والتية وعيب الصلَف ؛ فإنها تُسرِع بهم إلى فساد وتهجين^(٢)

(١) الأحوال جمع عمل وهو الذي لم يحبر الأمور . (٢) يقال : أطره دره إذا حله فوق

ما يلقى . وفي صحيح الأعشى (ج ١٠ ص ٢٠١) «أهلال الدرع» . وقد توقف فيها مصححه .

عقولهم في مواطنَ جمة، وأنحاءَ مُضطربة، منها قلةٌ آتتَدارهم على ضُطْأ أنفسهم في مواكبتهم
ومسايرتهم العاتية : من مُثْقِل شخصه بكثرة الالتفات عن يمينه وشماله، تَزِدِيه الخلة،
ويُطِرُه لإجلاب الرجال حوله ، ومن مُثْقِل في موكبِه على مداعبة مسأيره المفاكهة له
والتضاحك إليه، والإيحاء في السير مَرَحاً، وتحريك الجوارح متسرّتا بحال أب ذلك
أسرعُ له وأحثُّ لمطيبته . فلتَحَسَّ في ذلك هبتك، وتُجَمِّل فيه دَعَتك ؛ وليَقُلَّ على
مسأرك إقبالك إلا وأت مطرُ الطر، غير ملتفتٍ إلى محدث، ولا مقبل عليه بوجهك
في موكبك لمحدثه، ولا مُوجِب في السير مُثْقِل لجوارحك بالتحريك والاستنهاض، وإن
حسن مسأرة الوالى وأتداعه في تلك الحالة دليلٌ على كثير من عُيوب أمره ومستتر أحواله .

وأعلم أن أقواما ينسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك على وجه النصيحة، ويستميلونك
باطهار الشفقة، ويستدعوك بالإعراء والشبه، ويوطئوك عشوه الحيرة : ليجعلوك لهم
ذريعة إلى استئكال العاتية بموجعهم منك في القول منهم والتصديق لهم على من قروءه
بتهمة، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظن؛ فلا يصلح^(١) إلى مشاهمتك ساج بشبهة،
ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة فيعرضك لإيتاج^(٢) دبك، ويملك على رعتك
بما لاحقيقة له عندك، ويُلحِك أصرار^(٣) قوم لاعلم لك يدخلهم، إلا بما أقدم به عليهم
ساعيا وأظهر لك منهم مُنتصحا . وليكن صاحبُ شرطتك المتولَّى لإنهاء ذلك هو المنصوب
لأولئك، والمستمع لأفأويلهم، والعاحص عن نصائحهم، ثم ليُنْه ذلك إليك على ما يُرْع إليه
منه لتأمره بأمرك فيه، وتَقَع على رأيك من غير أن يطهر ذلك للعاتية : فإن كان صواما مالتك
حيثته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو قرطلة سعى بها كاذب، مالت الساعى
منها أو المظلوم عقوبة، أو بدر من وأليك إليه عقوبة ونكال، لم يقص^(٤) ذلك الخطأ بك
ولم تُنسب إلى تغريط، وحلوت من موضع الدم فيه مُحْصرا إليه ذمك وصواب رأيك .

(١) أوقع دبه بالإثم أسده . (٢) ألحه عرض طلاس : أنكه منه يشنه . (٣) دخل

الرجل (الفتح والكسر) به وبدعه . (٤) لم يقص أى لم يلحق .

وتقدم الى من تولى ذلك الأمر وتعمد عليه فيه ألا يقدم على شيء طارأ فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقا له ، ولا يُعاقب أحدا مُكَلَّبا به ، ولا يُجَلَّى سبيل أحد صاحبا عنه لإحصار^(١) براءته وصحة طريقته ، حتى يقع إليك أمره ، وينهى إليك قصيته على جهة الصدق ، ومتى الحق ، ويقين الخبر ؛ فإن رأيت عليه سبيلا لتحس أو مجازا لعقوبة ، أمرته بتولى ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشاهة لك منه ؛ فكان المتولى للملك ولم يحجر على يدك مكروه رأى ولا غلظة عقوبة . وإن وحدت إلى العفو عنه سبيلا ، أو كان مما قُوف به خيلا ، كنت أنت المتولى للإمام عليه بتخليه سبيلا ، والصفح عنه بإطلاق أمره ؛ توليت أجزالك واستحققت دُخْره ، وأنفقت لسانه بشرك ، وطوّقت قومه حنك ، وأوجبت عليهم حقك ، فقررت بين حصتين ، وأحرزت خطوتين : ثواب الله في الآخرة ، ومحسود الذكرى الدنيا .

ثم إياك أن يصل إليك أحد من جنك وجلسائك وحاصتك ويطايتك بمسألة يكشفها لك ، أو حاحة يَسُدُّكَ بطلبها ، حتى يرميها قبل ذلك إلى كاتك الذى أهدفته لذلك وبصيته له ، فيعرضها عليك مُنْهيا لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها : فإن أردت إسعادها ونجاح ما سأل منها ، أذنت له فى طلبها ، باسطا له كفك ، مُقبلا عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سالك ، ومُسْمِحة رأى وبسطة ذرع ، وطيب نفس . وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ، وثقل عليك إجابته إليها وإسعادها بها ، أمرت كاتك فصمحه عنها ، ومعه من مواجعتك بها ؛ غفقت عليك فى ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم يشرحك تخمهم الرد ، وينالك سوء القالة فى المع ، ومثل على كاتك فى ذلك لائمة أنت منها برىء الساحة .

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيما طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل ، فلا يصلق إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو مكلفك

(١) أى لوصوح براءته ، هى حديث على . فاصحرك لذلك ، أى كن من أمره على أمر واضح .

(٢) صمحه عنها ، رده عنها .

به، وقدّر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك، فأصدرت رأيك في حوائجه، وأحلّت فكرك في أمره، وأخترت معترفا على إرادتك في حوابه، وأصدت مصدور رويّتك في مَرَحُوع مسألته قبل دخوله عليك، وعليه وصول حاله إليك، فرفعت عك مؤوّه البديهة، وأرخيت عن هسك خِصاى الرّويّة، وأقدمت على ردّ حوابه بعد النظر وإحالة الفكر به . فإن دخل إليك أحدٌ منهم فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك، دفعته عك ذهبا جميلا، ومعتّه جوانك معا وديعا، ثم أمرت حاجبك بإطهار الجعوة له والعلطة طيه، ومنعه من الوصول إليك، فإن صطّك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب، صارفا عك مؤوّتها، ومسّلا عليك مُستصعها .

أحدرت تصبيح رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والقصب واعتوارهما إياك، فلا يزديّك إمرأط عجب تستجك روائعه، ويستهيوك مَطْرُهُ، ولا تسدّرت مك ذلك خطأ وتزق خِصّة لمكروه إن حلّ لك، أو حادث إن طرأ عليك . وليكن لك من هسك طهرى ملعا تتهزّبه من آفات الردى، وتستقيصه في مهمّ نازل، وتتعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتجت إلى مادة من عقلك، ورويّة من فكرك، أو أبساط من سيطتك، كان أنخبارك إلى طهرىك مُزداذا مما أحببت الأمتياح مسه والامتيار، وإن استدبرت من أمورك بوايدُر حهل أو مصى زلل أو معاندُه حقّ أو غطلُ تديير، كان ما أحتجت إليه من رأيك عدرا لك عند نفسك، وطهرىا قويا على ردّ ما كرهت، وتحفيقا لمؤونة الباخين عليك في القالة وأنتشار الذكر، وحفصا من طُوب الآفات عليك، وأستعلاها على أحلافك .

وأسع أهل طاننتك وحاصّة حديمك من استلّعام أعراض الساس عندك بالغبية، والتفزيب اليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، أو النجيمة اليك بشيء من أحوالهم

(١) في صح الأعى . « وتستصد في يوم النازل » . وفي رسائل الهاء . « وتستجده في مهم نازل » .

وأخترنا من البارتيين ما ياسب الهام (٢) كما في صح الأعى والمحتاج ورسائل الهاء، ولعله

وإن استدرت ... إلخ .

المستتره عك، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه التصحيح ومذهب الشفقة : فإن ذلك أبلغ لك سبوا الى مآلة الشرف ، وأعوذُ لك على محمود الذكر ، وأطلق ليمان الفضل في جراحة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبر .

وأملك نفسك عن الانسلاط في الصحك والأيها ، وعن القطوب بإظهار الغضب ونفخه . فإن ذلك صغف عن ملك سؤرة الجهل ، ونعروخ من آتجال آسم الفصل . واينك صحكك تنمنا أو كثيرا في أحايين ذلك وأوقاته ، وعد كل رافع مستحيف مطرب ، وقطوكم أطرافا في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجله الى السطوة ، ولا إسراع الى الطيرة ، دون أن تكتمها روية الحلم ، وتملك عليها بإدبه الجهل .

إذا كنت في مجلس مملتك ، وحيث حصور العاقبة علسك ، وإياك والزمى بطرك الى خاص من قوادك ، أودى أثره عسك من حشمك . وليكن طورك مقسوما في الجميع ، وإراعتك سمك دا الحديث بدمية هادئة ، ووقار حسن ، وحصور فهم مجتمع ، وقلة تصجر بالحدث . ثم لا يبرح وجهك الى مص حرسك وقوادك متوحها بنظر ركين ، وتمقيد محص . وإن وجه اليك أحد منهم نظره محذفا ، أو رماك بصره ملما ، فاحصص عنه أطرافا جميلا مآداع وسكون . وإياك وانتسرع في الإطراء ، والحقه في نصريف المطر ، والإلحاح حل من قصد اليك في محاطته إياك رامقا بنظره .

واعلم ان تصفحك وجوه حلساتك وتمقيدك محاليس قوادك من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، ودكاء العظمة ، وآيباء النس . فتقيد ذلك عاريا بمن حصرك وعاب عك ، عاليا بمواصيحهم من مجلسك ، ثم أمدبهم عن ذلك سائلا لهم عن أشغالهم التي ممتهم من حصور مجلسك ، وعاقبتهم بالتحلف عك .

إن كان أحد من حشمك وأعوانك يتق من غيب صمير ، وتعريف منه لين طاعة ، وتشراف منه على محبة رأى ، وتأممه على مشورتك ، وإياك والإقبال طه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظره عند طوارق ذلك ، وأن ثريه أو أحدا من أهل مجلسك أن

لك حاجة إليه مُوحِشة ، أو أن ليس لك عني في التدبير ، أو أنك لا تقضي دونه رأيا ،
إشراكا منك له في رويتك ، وإدخلا منك له في مشورتك ، وأصطارا منك الى رأيه
في الأمر يثرونك : فإن ذلك من دخائل العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فإيفها
عن نفسك حائفا لاعتلاقها ذكرك ، وأججها عن رويتك قاطعا لأطاع أولائك عن مثلها
عندك ، أو غلوهم عليها منك .

وأعلم أن للشورة موضع الخلوة وأفراد الطر ، ولكل أمر عاية تحيط بمحدوده ، وتجمع
عالمه . فإيفها تحيّرزا لها ، ورمها طالبا ليلها ، وإياك والقصور عن عايتها أو العجز عن
تركها ، أو التعريط في طلبها . إن شاء الله تعالى .

إياك والإعرام عن حديث ما أمحك ، أو أمري ما أزدعالك بكثرة السؤال ، أو القطع
لحديث من أزدلك بحديثه حتى تقصصه عليه بالخوض في حيره أو المسألة عما ليس مه : فإن
لك عند العامة منسوب الى سوء المههم وقصر الأدب عن تأول محاسن الأمور والمعرفة
بساوئها ، ولكن أضيف لمحدثك وأرضه سمك حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت
معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فمن معرفة بجاحته وبعد علم بطلته ، وإلا كست عند
نفضاء كلامه كالتعجب من حديثه بالتبسم والإعصاء ، فأجرى عنك الجواب ، وقطع عنك
لس العتب .

إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تصحّر ممس حصرك ، وعلبك بالثبوت
سد سوره النصيب ، وحبية الآف ، وملال الصبر . في الأمر نستفعل به والعمل تأمر
إنفاذه ، فإن ذلك مخفف شائن ، وخفة مُردية ، وجهالة يادية . وعلبك بثبوت المنطق ،
وقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والتترك لفصوله والإعرام
لزيادات في منطقك ، والترديد للمظك : من نحو أسمع ، وأفهم عني ، ويا هاه ، وألا ترى ،
وما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل ، الشائسة لذوى الخفا في المنطق ،
لنسوبة اليهم بالي ، المُردية لهم بالذكور . وخصال من معاييب الملوك ، والسوقة عنها غيبة

ظري إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلبا حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على نقلها ،
 فدل نفسه بجوامعها ، فأشها عن بسك بالتحفظ منها ، وأملك عليها أعتيادك إياها معتنيا
 بها ، منها كثرة التسم ، والتبصق ، والتشع ، والثؤماء ، والتمطى ، والجشاء ، وتحريك
 القدم ، وتنقيص الأصابع ،^(١) ولعبث بالوجه والحية أو الشارب أو المحصرة أو ذؤابة السيف ،
 والإيماض بالطر ، أو الإشارة بالظرف إلى مص حذمك بأمر إن أردته ، أو السرار
 بجلسك ، أو الاستعمال في طعمك أو شربك . وليكن طعمك متدنا ، وشربك أفاسا ،
 بحررك مصا . وإياك والتسرع إلى الإيمان فيما صغر أو كثر من الأمور ، والشتيمة بقول :
 ابن الهأه ، أو الفمينة لأحد من حاصتك بتسوينهم مقارفة الفسوق بحيث محصرك
 ودارك وماؤك : فان ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء موقع القول فيه ، ويحمل عليك
 بما فيه ، وبالك شيئه ، ويتشرب عليك سوء البلب به . فأعرف ذلك متوقيا له ، وأحذره
 مجانبنا لسوء عاقبته .

أستكثر من فوائد الخير : فانها تنشر المصدا ، وتهيل العثرة ، وأصير على كظم الغيظ :
 فانه يورث الراحة ، ويؤمّن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخلهم ، وتطعن أحوالهم ،
 وأستثارة دقاتهم ، حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبره ، فتش عديهم ، وتحبر
 كبيرهم ، وتقيم أودعهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدكم : فان ذلك من فعلك بهم
 يورثك العزة ، ويقدمك في الفصل ، ويبقى لك لسان الصدق في العامة ، ويحرز لك ثواب
 الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتحيرة عنك .

فمن بين منازل أهل الفصل في الدين والمحا والرأى والعقل والتدبير والصيت
 في العامة ، وبين منازل أهل القصص في طبقات الفصل وأحواله ، والنجول عند مباهاة
 النسب ، وأنظر بصحبة أنهم تال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على
 التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرف بك . فاعتمد عليهم مذكلا لهم
 في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستمعا منهم ، وإياك وتصديقهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيقاً .

(١) يقال . أقص أصابه . عزت بها وليس في كتب اللغة قص بالتصيف . (٢) السيرة : المجلس .

هذه جوامع خصال قد لحصها لك أمير المؤمنين معسراً، وجمع لك شواذها مؤلفاً، وأهداها إليك مرشداً، فقف عند أوامرها، وتأنّ عن زواجرها، وثبتت في جامعها، وحُدّ وثائق عُرّاها، تَسْلَمُ من معاطب الردى، وتَسْلُ أنفُسَ الخطوط ورفيت الشرف، وأعلى دَرَجَ الذِّكر، وتأثَّلَ سَطَرُ العِزِّ. والله يسأل لك أمير المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، ونتائِعَ المِزِيد، وبلوغَ الأمل، وأن يحمل عاقبة ذلك بك الى عِطَّةِ يُسَوِّعُكُ إِيَّاهَا، وعافية يُحِيلُكَ أَكْثَافَهَا، ونعمة يُلْهِمُكَ شُكْرَهَا : وإيه الموفق للخير، والمعِينُ على الإرشاد، مه تَمَامُ الصالحات، وهو مؤثري الحسات، عده معاتيجُ الخير، ويسده الملك وهو على كل شيء قدير.

فاذا أفصيتَ نحو عدوك، وأعزمتَ على لقائهم، وأحذتَ أهبة قتالهم، فاجعل دِعَامَتَكَ التي تلحاً إليها، ويَقْتَتِكَ التي تأمل البجاة بها، ورُكْنَكَ الذي ترتجى مَالَةَ الطَّعْرِ به وتكتشف به^(٢) لمعالى الحذر، تقوى الله مستشيراً لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته متبعاً لأمره، مجتنباً لِسُخْطِهِ، محتذياً سُنَّتَهُ، والتوقُّ لهاصيه في تعطيل حدوده، أو تعدى شرائعهم، متوكلاً عليه بما صممتَ له، وانقأ بصره فيما توجهت نحوه، متبئاً من الحول والقوة فيما نالك من طَعَصِر وتلفاك من عِزٍّ، راعباً فيما أهاب لك أمير المؤمنين إليه من فصل الجهاد، ورعى بك إليه محمود الصبر فيه عند الله من قتال عدو المسلمين، أكتبهم عليه وأطهره عداوته لهم، وأفدحه يُفْلًا لعاقبتهم، وأحده بريقهم، وأعلاه عليهم نبأ، وأظهره عليهم فسفاً وبهوراً، وأشدّه على قِيَتِهِم الذى أصاره الله لهم وقتحه عليهم مؤونةً^(٥) وكلاً. والله المستعان عليهم، والمستنصر على جماعتهم، عليه يتوكل أمير المؤمنين، وإياه يستصريح عليهم، وإليه يفوض أمره، وكفى بالله ولياً وناصرًا ومُعِيَا، وهو القوى العزيز.

ثم حُدّ من مملك من تباعك وجندك بكف مَرَّتِهِمْ، وردّ مشتعل جهلهم، وإحكام صِيَاعِ عملهم، وصمّ مَشِيرَ قَوَائِمِهِمْ، ولم شعث أطرافهم، وتقيدهم عن مروا به من

(١) تأثَّلَ نَسَبُ . (٢) اكتب الكهف دخله . (٣) أهاب بك دعاك .

(٤) من قولهم كلب الدهر على أهله اذا اشتدَّ وألح . (٥) الكل : الغل .

أهل ذِمَّتِكَ ومثلِكَ بحُسن السيرة، وعفافِ الطَّعْمة، ودَعَةِ الوَقَار، وَهَذَى الدَّعَةِ، وَحِمَامِ
المستحجم، محكما ذلك منهم، متفقدا لهم تفقدك إِيَّاه من نفسك. ثم أضحِدْ لعدوك المتسنى
بالإسلام، الخارج من جماعة أهله، المحتل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه، طاعنا
عليهم، راغبا عن سُتْهم، معارفا لشرائعهم، يتغيهم الفوائل، وينصب لهم المكاييد، أَصْرَمَ
حَقْدا عليهم، وأرصد عداوة لهم، وأطلب لفتات قُوسهم من الترك وأُمِّ الشُّرك وطواغى
الملل، يدعو الى المعصية والفرقة، والمُروى من دين الله الى العتسة، عثرنا بهواه للأديان
المتحلة والبدع المنفردة خَسَارا وتحسيرا، وضللا وتضيلا، بغير هدى من الله ولا بيان.
ساء ما كسبت له يده وما الله بظلام للعبيد، وساء ما سولت له حسه الأمانة بالسوء،
والله من ورائه بالمِرصاد: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جَنْدَكَ، وَأَشْكَمْ نَفْسَكَ طاعة الله في عاهدِهِ أعدائه، وأرجُ نصره، وتعجز
موجوده، متقدما في طلب نوايه على جهادهم، معترما في آتباء الوسيلة إليه على لقائهم:
فإن طاعتك إِيَّاه فيهم، ومراقبتك له ورحامك نصره مسهل لك وُجُوهه، وعاصمك من كل
سُبة، ومُسيحك من كل هُوَ، وعايتك من كل صُرعة، ومُقيك من كل كِبُوة، وداري
عك كل شبهة، ومُذهِبُ صك لطمه كل شك، ومُقَوِّبُك بكل أيدٍ ومِكيدة، ومُعَزِّك
في كل مُعْتَرِكٍ قِتال، ومُؤَيِّدُك في كل تَجَمُّعٍ لقاء، وكالكُ عِد كل ضية مُعْشِيَةٍ، وحاطك
من كل شبهة مُرْدية، والله وليُّك ووليُّ أمير المؤمنين فيك، والمستحلف على جسدك
ومن معك .

إِعلم أن الظفرَ ظَفَران: أحدهما — وهو أحمُ منفعة، وأبلغ في حسن الذكر غَالَةً، وأحوطه
سلامة، وأتمه غاية، وأحسُّه في الأمور وأعلاه في الفضل شرفا، وأصحُّه في الروية حرما،
وأسلمه عند العامة مصدرا — ما نبيل بسلامة الخنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيادة
ويُمن البقية، وأستتال طاعة ذوى الصُدوف غير إخطار الجيوش وقنذة بخرمة الحرب،

(١) الأيدُ القوة . (٢) أى مدحمة سوداء، من قرطم أعنى الليل اذا اظلم .

ومبارزة الفرسان في معترك الموت؛ وإن ساعدتك طُلُوقُ الظفر، ونالك مزيدُ السعادة في الشرف، في مخاطرة التلغف مكره المصائب، وعضاضُ السيوف وألم الجراح، وقصاص الحروب ويحاطها بمخاطرة أطلالها^(١). على أنك لا تدري لأي شيء يكون الظفر في البديهة، ومي المعلوب بالدولة، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص. فحاول إصابة أبلغيهما في سلامة جندك ورحمتك، وأشهرهما صيتاً بثبوت ديدرك ورأيك، واجمعهما لألفة وليك وعدوك، وأهونهما على صلاح رحمتك وأهل ملتك، وأقوأهما شكيمة في حرمك، وأبعدهما من وهم عزمك، وأعلقهما بزمام السحابة في آخرتك، وأجرهما نواباً عند ربك.

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعزّ الألفة، أحداً ملحمة عليهم، متقدمين بالإنذار لهم، باسطة أمانتك لمن لجأ إليك منهم، داعياً لهم إليه بأب لبك وألطف حيلك، متعطفاً برأيتك عليهم، مترقياً بهم في دعاتك، مشفقاً عليهم من علة القوابة لهم وإحاطة الهلكة بهم، مصداً رُسُلك إليهم بعد الإنذار: تبعهم إعطاء كل رعية يهش إليها طمئنتهم في موافقة الحق، وبسط كل أمان سألوه لأمنهم ومن مهم ومن تبعهم، موطناً فسك فيما تسط لهم من ذلك على الوفاء بهدك، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك؛ قابلاً توبة بازعهم عن الضلالة، ومراجعة مُسببتهم إلى الطاعة، مُرصداً للفساد إلى ريشة المسلمين وجماعتهم إجابة إلى مادعوته إليه وبصرته إياه من حقتك وطاعتك، هصل المنزلة، وإكرام النوى، وتثريب الجاه. وليظهر من أترك عليه وإحسانك إليه ما يرفع في مثله الصادق عنك، المصير على حلايك ومعصيتك، ويدعو إلى اختلاق جبل الجاه وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً، وأنهي له من العقاب أجلاً، وأحوطه على دينه ومهجته بدماً وعاقبة؛ فإن ذلك مما يستدعي به من الله نصره عليهم، ويعتصده به في تقديمه المحجة إليهم، مُعذراً أو مُنذراً، إن شاء الله.

(١) المطورة : القاطنة . (٢) كذا في صبح الأعشى ويظهر أن السياق يقتضي معمولاً لهذا العمل

أما صبراً أو امتناً طاهراً .

ثم أذكَّ حيوتك على عدوك متعلماً لِمِ أحوالهم التي يتقلبون فيها، ومازِلهم التي هم بها، ومطاميعهم التي قد مدُّوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أَدعى لهم إلى الصلح، وأقوِّدُها لِرِضاهم إلى العافية، وأسهلُها لِاستِنزال طاعتهم، ومن أى الوجوه مأتاهم : أَمِنْ قِلِّ الشَّدَّةِ والمُسافرةِ والمَكِيدَةِ والمُباعدةِ والإرهابِ والإبعادِ، أم التَّريُّبِ والإطاعِ، متنبِّهاً في أمرِك، متحزِّباً في رِويَتِك، مستمِكةً من رأيك، مستشيراً لِبدوي الصبيحة الذين قد حَكَمَهم السَّنُّ، وخَبَطَتهم التجربة، ونَجَّدَهم الحروبُ، مُتَشَرِّباً في حركِ، آخذاً بِالْحَزَمِ في سوء الظنِّ، مُعَدّاً لِلْحَدَرِ، مُحْتَرِماً مِنَ الْغَرَةِ، كَأَنَّكَ في مَسِيرِكِ كُلِّهِ وتَزْوِيلِكِ أَجْمَعِ مُوَاقِفَ لِعَدُوِّكَ رَأْيَ عَيْنٍ تَنْتَظِرُ حِمْلَتَهُمْ، وَتُتَّقِوْفَ كَرَاتِهِمْ، مُعَدّاً أَقْوَى مَكَايِدِكِ، وَأَرْهَبَ عِتَادِكِ، وَأَنْكَأَ حِكْمَكَ، وَأَحَدَ تَسْيِيرِكِ، مَعْقِلاً أَمْرَ عَدُوِّكَ لِأَعْظَمِ مَا مَلَكَ، حَذِراً يَكَادُ يُحِيطُ : تُعِدُّ لَهُ مِنَ الْاِحْتِرَاسِ عَظِيماً، وَمِنْ الْمَكِيدَةِ قَوِيّاً، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَهْتَكَ ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ، وَتَدِيرِ رَأْيِكَ، وَإِصْدَارِ رِوَيْتِكَ، وَالتَّأْهِبِ لِمَا يَحْزُبُكَ، مُصَغِّراً لَهُ بِعَدِ اسْتِشْعَارِ الْحَدَرِ، وَأَصْطِطَارِ الْحَرَمِ، وَإِعْمَالِ الزَّوِيَّةِ، وَإِعْدَادِ الْأَهْبَةِ . فَإِنَّ أَلْفِيَّتَ عَدُوِّكَ كَلِيلُ الْحَدِّ، وَقَمُّ الْحَزَمِ ، يَضْبِصُ الْوَفَرَ،^(١) لَمْ يَضُرَّكَ مَا اعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَأَحْذَنْتَ لَهُ مِنْ حَرَمٍ، وَلَمْ يَزِدْكَ ذَلِكَ إِلَّا بُرْءاً عَلَيْهِ، وَتَسَرُّماً إِلَى لِقَائِهِ . وَإِنَّ أَلْفِيَّتَهُ مُتَوَقِّدُ الْحَرْبِ، مُسْتَكْنِفُ الْجَمْعِ، قَوِيٌّ التَّبَعِ، مُسْتَعْلِي سَوْرَةِ الْجَهْلِ، مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْفِتْنَةِ وَتَبَعِ الْإِطْلِسِ مَنْ يُوقِدُ لَهَبَ الْعَتَةِ مُسْعِراً، وَيَتَقَسَّمُ إِلَى إِقَاءِ أَبْطَالِهَا مُنْسَرِّباً، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزَمِ، وَأَسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ، عِزِّمُوهِنَّ بِالْجِدِّ، وَلَا مَفْرَطٌ فِي الرَّأْيِ، وَلَا مُتَلَهِّفٌ عَلَى إِضَاعَةِ تَدْيِيرِ، وَلَا حَتَّاجٌ إِلَى الْإِعْدَادِ وَعَجَلَةٍ التَّأْهِبِ مِبَادِرَةَ تَكْهَشُكَ، وَحَوْقاً يُخْلِفُكَ . وَمَتَى تَفَتَّرَ بِتَرْقِيقِ الْمُرْقِيقِينَ، وَتَأَخَذَ بِالْهُوَيَا فِي أَمْرِ عَدُوِّكَ لِتَصْغِيرِ الْمُصْغَرِّينَ، يَنْتَشِرُ مَلِكُ رَأْيِكَ، وَيَكُونُ فِيهِ انْتِقَاضُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْيِيرِكَ، وَإِهْمَالُ الْحَزَمِ فِي جَدِّكَ،

(١) كثر الأثر : استبدله .

(٢) يملك (أما، والتاء، التثنية) أى يسكر ويؤثر . (٣) كذا في صح الأثرى . ولعلها

موقوم الحرم أى مقهورة أو لعلها محرفة عن كلمة أخرى معنى الصف أو الفتنة . (٤) ضيىص : قليل .

وتصيح له وهو مُمَكِّي الإسماعيل، رَحْبُ المَطْلَب، قِوَى العِصمة، فسبح المضطرب؛ مع ما يَدْخُلُ رَعِيَتِكَ من الاعتِرار والنفقة عن إحكام أحراسهم، وضبط مراكرهم، لما يرون فيه من استبانة إلى العزة، ورُكُوك إلى الأمن، وتهاونك بالتدبير، فيعود ذلك عليك في انتشار الأطراف، وصياح الأحكام، ودخول الوهن عما لا يستقال محذوره، ولا يدفعه عَوْفه.

احفظ من عيونك وحواشيسك ما تأتوك به من أخبار عدوك. وإياك ومعاقبة أحدٍ منهم على خبر إن أتاك به آتته فيه أو سؤت به ظناً وأتاك غيره بجلاله، أو أن تكذبه فيه فترده عليه، ولعله أن يكون قد عصاك الصيحة وصدقك الخبر وكذلك الأول، أو خرج حاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عد عدوك، وقد أبرموا لك أمراً، وحاولوا لك ميكره وأرادوا منك عيرة فزددوا إليك في الأهنة، ثم اتعص بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم، فأرادوا رأياً، وأحدثوا ميكره، وأطهروا قوة، وصرخوا موعداً، وأموا مسلماً لمدد أناس، أو قوة حدثت لهم، أو بصيرة في صلالة شغلهم، فالأحوال بهم متقلبة في الساعات، وطوارق الحادثات. ولكن ألتسهم جميعاً على الانتصاح، وأرفع لهم بالمطامع، وإتاك لن تستعينهم بمثلها. وعندهم جرالة المتأوب، في غير ما استبانة مسك إلى ترفيقهم أمر عدوك، والاعتراض إلى ما يأتوك به دون أن تعمل رويتك في الأحذ بالحزم، والاستكثار من العدة. وأجعلهم أوتق من تقدر عليه، وآمن من تسكن إلى ناحيته، ليكون ما يُبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن استطعت ذلك، فتقص عليهم برأيك وتديرك ما أبرموا، وتأيتهم من حيث آمنوا، وتأخذ لهم أهة ما عليه أقدموا، وتستيد لهم بمثل ما حذروا.

وَأعلم أن حواشيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك، وربما كانوا لك وطيك: مصححو لك وعشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه. فلا تبذرن منك قرطة عقوبة إلى أحد منهم، ولا تعجل بسوء الظن إلى من آتته على

ذلك؛ واستنزل مصابيحهم بالمِياحة^(١) والمِثْلَة ، وأسقط من أمامهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهم أمك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبج له ، أو عَمِلَتْ على رأيه عمَل الصادر عنه ، أو ردّدته عليه ردّ المكّتب به ، المتهم له ، المستحقّ بما أتاك منه ، ففسدَ ذلك نصيحته ، وتُستدعى غشّه ، وتُعتزّ عداوته . وأحذر أن يُعرفوا في عسرك أو يُنار إليهم بالأصابع . ولكن مفرّطهم على كاتب رسالتك وأمين سرك ، ويكون هو الموحّه لهم ، والمُدخل عليك من أردت مشافهته منهم .

وأعلم أن لعدوك في عسرك حيوتا راصدة ، وحوايس متجسّسة^(٢) ، وأنه لن يقع رأيه^(٣) عن ميكدتك مثل ما تُكايده به ، وسيحتمل لك كآخيلك له ، ويُعدّ لك كاهداك فيما تُراوله منه ، ويُحاولك كحاوليك إياه فيما تُقارعه عنه ، فأحذر أن يُشهر رجلٌ من جواسيسك في عسرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه ، فيعدّ له المراسد ، ويحتمل له الماكيد . فإن طفر به فاطهر عقوبته ، كثر ذلك نجات عيوك ، وخذلهم عن تطلّب الأخبار من معادنها ، واستقصائها من عيونها ، واستعداد اجتنائها من يابيحها ، حتى يصيروا إلى أحدها مما عرّض من غير الثقة ولا الممانينة ، لقطا لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المُرْجفة . وأحذر أن يعرف بعض عيونك مضا : فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، ومُمالئتهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطائهم على كذبك ، وإصفاقتهم^(٤) على خيانتك ، وأن يورط بعضهم بعضا عدوك . فأحكم أمرهم فإنهم رأس ميكدتك ، وقوام تدبيرك ، وعينهم مدار حركك ، وهو أول ظفرك . فاعتمل على حسب ذلك وحيث رحاؤك به ، تسَلْ أملاك من عدوك ، وقوتك على قتاله ، وأخيلك لإصاة غرائنه وأتهاز فرسه ، إن شاء الله .

فإذا أحكت ذلك وتقدّست في إقامته ، واستظهرت بالله وعونه ، قول شرطتك وأمر عسرك أوتق قوادك عدك ، وأظهرهم بصيحة لك ، وأخذهم بصيرة في طاعتك ، وأقوام

(١) المياحة الإطاء .

(٢) في معناه الأمكاد ورسائل اللغاء : « كاسة » . (٣) في رسائل الطاء : « وإن رأيه

في ميكدتك مثل ما تُكايده به » . (٤) إصفاقتهم : اجتماعهم .

شكيمة في أمرك، وأمضاهم صريمة^(١)، وأصدقهم غفاه، وأجراهم غناه، وأكفاهم أمانه، وأصحهم صحيرا، وأرضاهم في العاقبة دينا، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقًا، وأعطاهم على كائنهم راحة، وأحسنهم لهم نظرا، وأشدّهم في دين الله وحقه صلابة. ثم فوض إليهم مَقْوِيَا له، وأبسط من أماله مظهرها عه الرضا، حامداً منه الابتلاء. وليكن عالماً بما ذكر الجنود، بصيرا بتقدم المنازل، محرمًا، ذا رأى وحرم في المكيكة؛ له نباحة في الذكر، وصيت في الولاية؛ معروف البيت، مشهور الحسب. وتقدم إليه في ضبط معسكره، وإذكاء أحراره في آتاء ليله ونهاره؛ ثم حذرته أن يكون منه إندب الجنود في الأيتشار والأصطراب، والتقدم لطلاتك، فُصَابَ لهم غزوة بحتري بها عدوك طيك، ويُسرِعَ إقداما إليك، ويُكسِرَ من إباد جندك ويوهن من قوتهم: فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جندك أو عبيدك مُطِيعٌ لهم فيك، مَقْوٍ لهم على تحمّل أتباعهم طيك وتصنيفهم أمرك، وتوجيههم تديريك. فحذرته ذلك وتقدم إليه فيه، ولا يكون من إفراط في التصديق عليهم، والخصر لهم، ينعهم أزل^(٢)، ويسلمهم ضحك، وتسوء عليهم حاله، وتشتد به المؤونة عليهم، وتجبث له ظنونهم. وليكن موضع إزاله إياهم صاماً لجماحتهم، مستديراً بهم جامعاً لهم؛ ولا يكون مبسطاً منتشرًا متندا، فيشتق ذلك على أصحاب الأحرار، وتكون فيه النهضة للعدو، والعد من المادة إن طرق طارق في بقاء الليل وفتاته. وأوعز إليه في أحراره، وتقدم إليه فيهم كأشدّ التقدم وألح الإيعاز. ومُرّه فليول عليهم رجلا ركباً مجرباً حري. الإقدام، ذاكي الصرامة، حلد الجوارح، بصيراً بمواضع أحراره، غير مُصْاع ولا مشق للناس في التسخي إلى الرأحية والسعة، وتقدم العسكر والتأخر عنه، فإن ذلك مما يضعف الوالى ويؤهبه لاستقامته إلى من ولّاه ذلك وأمه به على جيشه.

وأعلم أن مواضع الأحرار من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث النساء عنهم والرد عليهم، والحفظ لهم، والكلالة لمن بينهم طارقاً، أو أرادهم خائلاً، ومرابطاً المنسل

(١) الصريمة: البرية. (٢) في معناه الأمكار وغيره: «أهذه». وإياد كل شيء: ما يقوى به من حايه ومنه إبادا العسكر وما يمت به ويسرته. (٣) الصوت: كالصيت والصال: الذكر والتهرة. (٤) الأزل: الصيق والشدّة. (٥) المادة: كل مدد تستعين به في حرب أو غيره.

منها والآتي من أرقامهم وأعيدهم، وحفظها من العيون والجواسيس من عدوهم. وأحذر أن تضرب على يديه أو تشكك من الصرامة بمؤامراتك في كل أمر حادث وطارئ إلا في المهم النازل والحدث العام : فإلك إذا فعلت ذلك به ، دعوته إلى نصحك ، وأستوليت على محصول صميره في طاعتك ؛ وأجهت نفسه في ترتيبك ، وأعمل رأيه في بلوغ موافقتك وإعانتك ، وكان يمتك وذاك وقوتك ودعامتك ، وتمزغت أمت لمكيدة عدوك ، صريحاً لنفسك من هم ذلك والعناية به ، ملقياً عنك مؤونة باهظة وكلفة فادحة .

وأعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الأحكام ، ولا يمثل محله أحد من الولاة : لما يجري على يديه من مبالغظ الأحكام ومجاري الحدود . فليكن من توليه القضاء في عسكريك [من ذوى] ^(١) الخير والقناعة والعفاف والترعة والمهم والوقار والعصمة والورع ، والبصر بوجوه القضايا ومواقفها ، قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمه الأمور ، ممن لا يتصعق للولاية ويستعد للثبته ، ويمتري على الحثابة في الحكم ، والمداهمة في القضاء ، عدل الأمانة ، عفيف الطعمة ، حسن الإصناف ، فهم القلب ، ورع الصمير ، متحشع السم ، بادى الوقار ، محتسباً للخير . ثم أجرحه ما يكفيه ويسمه ويصلحه ، وفرقه لما حملته ، وأعنه على ما وليته : فإنك قد عرسته لمملكة الدنيا وتوار الآخرة ، أو شرف الدنيا وحظوة الآجلة ، إن حسنت يته ، وصنفت رويته ، وصحت سريره ، وسلط حكم الله على رعيته ، مطلقاً عنه ، متمذاً قضاء الله في خلقه ، عاملاً بسنته وشرائعه ، آخذاً بمحدوده وفرائضه .

وأعلم أنه من جندك بحيث ولايتك ، الجارية أحكامهم عليهم ، البائدة أقصيته بهم ؛ فأعرف من توليه ذلك وتسنده إليه . ثم تقدم في طلائعك فإنها أول ميكيدتك ، ورأس حرك ، ودعامة أمريك ، فأختب لها من كل قادة ومهاجرة رجالا ذوى نخلة وبأس ، وصرامة وجبرة ، حمة كفاة ، قد صلوا بالحرب وذاقوا محالها ، وشيروا مرار كؤوسها ، وتمزعوا

(١) الزيادة من متناح الأمكار (ص ٢٥٠) وعبره . (٢) الطعمة بالمهم والكسر وده الكسب

الطيب أو الحديث . (٣) في متناح الأمكار وعبره : « بحيث ولايتك وذو الموضع الحادية » الخ .

عُصَصَ دِرَتِيهَا؛ وَزَبَّتْهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا، وَحَلَّتْهُمْ عَلَى أَصْصِ مَرَاحِبِهَا، وَذَلَّتْهُمْ بِتَقَافِ
 أَوْدِهَا . ثُمَّ أَتَتْهُمْ عَلَى عَيْبِكَ، وَأَعْرِصَ كُرَّاعَهُمْ بِنَعْسِكَ، وَتَوَخَّ فِي آتِفَاتِكَ ظُهُورَ الْجَلْدِ،
 وَشَهَامَةَ الْخَلْقِ، وَكَمَالَ الْآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِّهِمْ إِلَّا الْإِمَاتَ مِنَ الْخَيْلِ الْمَهْلُوبَةِ،
 فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ طَلَا، وَأَنْحَى مَهْرًا، وَأَلْبَنَ مَقْطَعًا، وَأَسَدُ فِي الْمُحْزَقِ غَايَةً، وَأَصْبَرُ فِي مَعْرَكِ
 الْأَطَالِ إِقْدَامًا . وَحُذِّمَ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدَّرُوعِ، مَازِيَّةُ الْحَدِيدِ، شَاكَّةُ النَّسِجِ، مُتَقَارِبَةُ
 الْحِلَاقِ، مُتَلَاحِيَةُ الْمَسَامِيرِ وَأَسْوَقُ الْحَدِيدِ، مُمَوَّهَةُ الرِّكَبِ، مُحْكَمَةُ الطَّبْعِ خَفِيفَةُ الصُّوْغِ،
 وَسَوَاعِدُ طَبْعِهَا هِدْيَى، وَصَوْنُهَا فَارِسِيٌّ؛ رَقَائِ الْمَاطِيفِ مَا كَفَّ وَاقِيَةً وَعَمَلِيَّ مُحْكَمٌ .
 وَيُلْبِقِي الْيَيْصَ مُدْعَبَةً وَمَعَزْدَةً، فَارِسِيَّةُ الصُّوْغِ، حَالِصَةُ الْجَوْهَرِ، سَائِغَةُ الْمَلْهَسِ، وَاقِيَةُ
 الْجَنْحِ، مُسْتَدِيرَةُ الطَّبْعِ، مُبْهَمَةُ السَّرْدِ، وَاقِيَةُ الْوِزْنِ كَثْرِيكَ الْعَامِ فِي الصَّعَةِ وَأَسْتِنَادُهُ
 التَّقْيِيبُ، وَأَسْتَوَاءُ الصُّوْغِ، مُعَلَّمُهُ بِأَصَافِ الْحَرِيرِ وَالْوَلَوَانِ الصَّيْغِ؛ فَإِنَّهَا أَهْيَبُ لِعَدُوِّهِمْ،
 وَأَمْتُ لِأَعْصَادِ مَنْ لَقِيَهُمْ، وَالْمَعْلَمُ مَحْنِيٌّ مَحْذُورٌ، لَهُ بَدِيئَةٌ رَادِعَةٌ، وَهِيَّةٌ هَائِلَةٌ؛ مَعَهُمُ
 السَّيُوفُ الْهِنْدِيَّةُ، وَذُكُورُ الْيَيْصِ الْإِمَّاسِيَّةُ؛ رِقَاقُ الشَّفَرَاتِ، مَسُونَةُ الشُّعْدِ، مَشْطَبَةُ
 الصَّرَاطِ . مُتَعَدِّلَةُ الْجَوَاهِرِ، صَائِغَةُ الصَّعَافِ؛ لَمْ يَدْخُلْهَا وَهْنُ الطَّبْعِ، وَلَا عَابَهَا أَمْتُ
 الصُّوْغِ، وَلَا شَانَهَا حِقَّةُ الْوِزْنِ، وَلَا فَدَحَ حَامِلُهَا هَوْرُ التَّقْصِلِ، قَدْ أَشْرَعُوا لَدُنَّ الْقَمَاءِ،
 طُولَ الْهَوَادِي، مُقَوِّمَاتُ الْأَوْدِ، زُرْقُ الْأَسِنَّةِ، مُسْتَوِيَةُ الثَّعَالِبِ، وَمِيصْبُهَا مُتَوَقَّدٌ،
 وَسِنْنُهَا مُتَلَهَّبٌ، مَقَاصِصُ عَقْدِهَا مَسْحُوتَةٌ، وَوُصُومُ أَوْدِهَا مَقُومَةٌ، وَأَجَاسُهَا مُخْتَلِفَةٌ،
 وَكُوعُوبُهَا جَمْعَةٌ، وَعُقْدُهَا حِكْمَةٌ؛ شَطْبَةُ الْأَسَانِ، مُمَوَّهَةُ الْأَطْرَافِ، مُسْتَحِدَّةُ الْجَبَبَاتِ،
 دِقَاقُ الْأَطْرَافِ، لَيْسَ فِيهَا آتِيَاءُ أَوْدٍ، وَلَا أَمْتُ وَصَمٍ، وَلَا بِنَا مَسْقَطُ عَيْبٍ، وَلَا عَنِهَا

(١) المهلوبة الممتدة الملب، وهو شعر الذهب أو الشعر كله . (٢) أى حالصة وحيدة .

(٣) البلق . القاء المحشو . (٤) التريك . بيعة العام حاصة، ومه قوله :

* وتلق بها ييى العام تراثكا *

(٥) سيف شطب : دوشطب وهى طراقة التى فى منه . (٦) الأمت : الوح والاحتلال .

(٧) الثعلب : طرف الرمح الداحل فى حة السنان (٨) فى مفتاح الأفكار وميره : «رغمها مطه»

وسح الصل : الحديدية التى تدخل فى رأس السهم . (٩) المقاصص : السهام المعروحة .

وفوق أمية؛ مُستَغْفِي كُلَّيْنِ الْبَلِّ وَفِي الشُّوْحِ^(١) وَالْبَغْ؛ أَعْرَاسَةُ التَّعْقِيبِ، رُومِيَّةُ النُّصُولِ، مَسْمُومَةُ الصُّنُوعِ، وَلَتَكُنْ بِمَاهِهَا عَلَى خَمْسِ قَبْصَاتِ سِوَى النُّصُولِ، فَإِنَّمَا أُلْبَغُ فِي الْغَايَةِ، وَأَنْفَذُ فِي الدَّرُوعِ، وَأَشْكُ فِي الْحَدِيدِ، سَامِطِينَ^(٢) حَقَائِقَهُمْ عَلَى مَتُونِ خِيُولِهِمْ، مُسْتَحْفِينَ مِنَ الْآكَلَةِ وَالْأَمْتَةِ وَالزَّادِ، [إِلَّا مَا لَا غَنَاءَ بِهِمْ عَنْهُ] .

وأحذر أن يكل مباشرة عرضهم وأتغلبهم إلى أحد من أعوانك وتجاك : فإلك إن وكلته إليهم أصغت مواضع الحرم، وفزطت حيث الرأى، ووقفت دون حزم الروية، ودخل حملك صباغ الزمن، وخلص إليك عيب المحاماة، وباله فساد المداخلة، وطب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة الساميين ولا عدة ولا حصنا يدركون به، ويكتفون بموضعه. والطلائع حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول مكيدتك، وعروة أمرك، وزمام حرك. عليك أعضاؤك بهم، وانتقاؤك إياهم بحيث هم من مهمم حملك، ومكيدة حرك، ثم أقتصب للولاية عليهم رجلا سيد الصوت، مشهور الاسم، طاهر الفصل، نبيه الذكرك؛ له في المدق وقعات معروفات، وأيام طوال وصولات متقدّمات، قد عرفت نكائته، وحذرت شوكته، وهيب صوته، وتكّب لقاؤه؛ أمين السريرة، ناصح الخبيث، قد بلوت منه^(٣) ما يسلكك إلى حاجته : من لين الطاعة، وخالص المودة، ورعاية الصرامة، وظلّوب الشهامة، واستجابع القوة، وحصافة التدبير. ثم تهتم إليه في حسن سياستهم، واستئصال طاعتهم، واجتلاب موداتهم واستعداد صمازهم، وأجر عليهم وعليه أرزاقا تسمهم، وممّة من أطاعهم سوى أرزاقهم في العاقبة، فإن ذلك من القوة لك عليهم، والاستئمانية إلى ما قبلهم .

وأعلم أنهم في أهم الأماكن لك، وأعظمها غناء عنك وعنك، وألحها كتبنا لهاذك، وأشجها غيظا لمدوك : ومن يكن في الثقة، والحد، والبأس، والطاعة، والقوة، والنصيحة والممّة، والتجدة حيث وصف لك أمير المؤمنين وأمرك به، يضرع عنك مؤونة لهم، ويربح

(١) الشوْح : شمر تخطيه النفس . (٢) الريادة عن مفتاح الأمكار (ص ٢٥١) .

(٣) يقال : فلان ناصح الخبيث يراد بذلك فله ومبدعه أى أمين .

من حياك روع الخوف ، وتنجي إلى أمير مبيع ، وطهر قوي ، وأبي حازم ، تأمن به
 بجأت عدوك ، وعيرات بتأتهم ، وطوارق أحداثهم ، ويصير إليك علم أحوالهم ، ومتقدمات
 خيولهم ، فأغصهم رأي عين ، وقوم بما يصلحهم من المآلات والأطاع والأرزاق ، وأجملهم
 ملك بالمنزل الذي هم به من حارز علاقتك ، وحصاية كهوفتك ، وقوة سيارة عسكريك .
 وإراك أن تدحل فيهم أحدا بشفاعة ، أو تحمله على هواة ، أو تقدمه لأثرة ؛ أو أن يكون
 مع أحد منهم بقل نقيل ، أو فصل من الطهر ، أو ثقل فادح ، فتشتد عليهم مؤونة أنفسهم ،
 ويدخلهم كلال السامة فيما يخالجون من أفعالهم ، ويستعلون به عن عدوهم إن دهمهم منه
 رافع ، أو يلقاهم منه طليعة . فتعقد ذلك محكما له ، وتقدم به أحدا بالخزم وإحصائه ؛
 أرشدك الله لإصابة الخط ، ووفقك ليئن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوذه نفعاً
 في العاقل والأجل ، وأكثيه لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ول تراجة عسكريك وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكبهم رجلاً من أهل بيوتات
 الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالحدة ، داساً وتحرية ، لين الطاعة ، قديم البصيرة ،
 مأمون السرية ، له بصيرة بالحق ناعده تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه . وأضئ
 إليه حدة نفر من ثقات جلدك ودوى أسانهم يكونون شرطاً معه ؛ ثم تقدم إليه في إخراج
 المصاف ، وإقامة الأحرار وإدكاء الميول ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ، ومرة
 فليصبح القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كل قائم بإراء مكانه ، وحيث منزله ،
 قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرمح شارعة ، والقرية موضونة ، والرحال راصدة ، ذاكية
 الأحرار ، وحلة الرقع ، حائمة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كل ليلة قائداً
 في أصحابه أو حدة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو آنتين من عسكريك ، متيداً عنك محيطاً
 بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقة التردد ، مفرطة الحذر ، مئدة للزوع ، مناهبة للقتال ، أخذة
 على أطراف المعسكر ونواحيه ، متمزقين في اختلاهم كدوساً كدوساً ؛ يستقبل بعضهم بعضاً

(١) المل معركة : السبية والهبة . (٢) الثقل : متاع المسافر . (٣) الإدهان : المداغة وهو أن يظهر
 الاسان خلاف ما يطن . (٤) الترة : مرصوة ، أى مسوغة حلقين حلقين . (٥) أى كنية كنية .

[في الاختلاف ^(١)] وَيَكْسَع تَالٍ مُنْقَسِمًا فِي الزَّرْد ؛ وَأَجْعَلْ ذَلِكَ بَيْنَ قُوَادِكَ وَأَهْلِ عَسْكَرِكَ نُوْبًا مَعْرُوفَةً ، وَحِصَصًا مَقْرُوضَةً ، لَا تُغَرِّمُنَا مُزْدَلِفًا مَكَ بَمَوْتِهِ ، وَلَا تُفْضَلْ فِيهِ عَلَى أَحَدٍ بِمَوْجِدَةٍ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فَوْضٌ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْدَادِكَ وَقُوَادِ خَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذُ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ، رِيَاضَةٌ مَكَ لَمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَانِهِمْ ، وَالْإِكْتِبَاعُ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ نَهْيِهِمْ ؛ وَتَقَدُّمٌ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْدَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ إِيَّاهَا ، وَالْأَعْمَالُ الَّتِي أَسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةُ وَالْكِرَاعُ الَّتِي كَتَبَتْهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَأَحْذَرُ أَعْتِلَالِ أَحَدٍ مِنْ قُوَادِكَ عَلَيْكَ بِمَا يَحْتَوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جِسْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لِمَطَاعَتِكَ ، وَقَضْمِهِمْ عَنِ الْإِحْلَالِ بِمَرَاكِمِ لَشَى ، مِمَّا وَكَلَوَاهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَقْسَدَةٌ لِلْجِدِّ ، مَقْتَنَةٌ لِلْقُوَادِ عَنِ الْحَدِّ وَالْإِثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّقَنُّمُ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَانِهِمْ قُوَادِهِمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضَّبَاحِ عَلَى أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْثَى . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُوَادِ إِلَّا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عَقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عَقُوبَةً تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ، وَتَتَقِيفُ أَوْدَ ، فَا مَّا عَقُوبَةٌ تَبْلُغُ تَلْفَ الْمُهْمَةِ ، وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قَطْعٍ ، أَوْ إِفْرَاطٌ فِي ضَرْبٍ ، أَوْ أَحَدٌ مَالٍ ، أَوْ عَقُوبَةٌ فِي شَعَرٍ ، فَلَا يَلِيَنَّ ذَلِكَ مِنْ جِسْدِكَ أَحَدٌ عَيْرُكَ ، أَوْ صَاحِبُ شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِدْنِكَ ، وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجَسَدَ لِقُوَادِهِمْ ، وَتَضْيِعَهُمْ لِأَمْرَانِهِمْ ؛ تُوجِبْ لَمْ طَلِيكَ الْحَمَّةَ بِتَضْيِيعٍ - إِنْ كَانَ مِنْهُمْ - لِأَمْرِكَ ، أَوْ حَلَّلَ - إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ - مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزَ - إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ - فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلْتَهُمْ بِهِ أَوْ أَسَدَنَتْهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدْ إِلَى الْإِقْدَامِ طَلِيَهُمُ الْإِلُومَ وَعَصَى الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ جَزَاءً يَصِلُ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَعْرِيطِكَ فِي تَذَلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَمْ ، وَإِصَادِكَ إِيَّاهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمْ

(١) الرِّبَاةُ عَنْ صَاحِبِ الْأَمْكَارِ (ص ٢٥٢) - (٢) أَيْ يَمُدُّهُمْ مِنَ الْحَدِّ الْخ -

فيه يرفئك تقدمًا بليعا، وإيالك أن يدخل حرمك وهن، أو يشوب عزمك إيثار، أو يخلط رأيك صياح، والله يستودع أمير المؤمنين نفسك ودينك .

إذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء محتصر، وكان من عسكريك مقتربا قد شامت طلائعك مقدمات صلاته وحمة فتحه، فتأهب أهلة المايح، وحذ اعتداد الحذر، وكتب^(١) خيولك، وعث جندك . وإيالك والمسير إلا في مقدمة وثيمة وميسرة وساقه ، قد شهبوا الأسلحة، ونشروا السود والأعلام . وعرف جندك مراكرهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذوا أهلة القتال، واستعدوا للقاء، ملتجئين إلى مواضعهم، طارفين مواضعهم في مسيرهم ومسكرهم . وليكن رحلهم وتزلم على راياتهم وأعلامهم وفي مراكرهم، قد عرف كل قائد منهم أصحابه مواضعهم : من الميسرة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها ، غير محلبين بما استنجدوا له ، ولا متهاونين فيما أهيأ بهم إليه ، حتى تكون عساكرك في متيل تصل إليه ، ومسافة تختارها، كأنها عسكر واحد في اجتماعها على العدو، وأحدها بالخزم، ومسيرها على راياتها ، وزرولها في مراكرها ، ومعريقها بمواضعها : إن صلت دابة من مواضعها، عرف أهل العسكر من أي المراكز هي، ومن صاحبها، وفي أي المحل حلوله منها، فرددت إليه، هداية معروفة يسمت صاحب قيادتها، فاق تقدمك في ذلك وإحكامك له طارح عن جندك مؤونة الطلب، وعناية المعرفة، واستغناء الضالة .

ثم أجمع على سافتك أوثق أهل عسكريك في نفسك صرامة وهذا في العامة، وإنصافا من نفسه للرية، وأخذًا بالحق في المعدلة، مستشعرا تقوى الله وطاعته ، أحذا بهديك وأدرك، واقفا عهد أمرك ونيك، معتزما على متاهيك وتزيك، نظيرا لك في الحال، وشيها بك في الشرف، وعديلا في الموضع، ومقاربا في النسب ، ثم اكثف^(٢) معه الجمع، وأيده بالقوة، وقوه بالظهور، وأعنه بالأموال، وأعمده بالسلاح، وشره بالتمطط على ذوي الضعف من جندك ومن أزعفت دابته وأصابته نكدة : من مريض أو رجلة أو آفة^(٣)،

(١) كتب الجيش أو الحبل . حلها كتاب . (٢) في متاح الأفكار غيره : « في الصيت » .

(٣) الرحلة بالمعنى : أن يشكو رحله وقد رحل كعرج أصابه في رحله ما يكره .

من غير أن يأذن لأحد منهم في التمسح عن حركه، أو التحلف بعد ترحله، إلا لليهود سة،
أو لمطروق تأية حائجه . ثم تقدم إليه محذرا، ومُره زاجرا، وأنه مُغلظا في الشدة على من
مر به مصيرفا عن معسكرك من جسدك عبر جوازك، شادا لهم أسرا، وموقرهم حديدا،
ومعاقبهم موجعا، وموحيهم إليك تنهكهم عقوبة، وتجملهم لغيرهم من جسدك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه وانقفا بنصيبته قد بلوت منه أمانة
تُسكك إليه، وصرامة تؤمك مهاتته، وهادئا في أمرك يرنى عك خنائق الخوف
في إصاعته . لم يأن أمير المؤمنين تسأل الجسد عك لودا^(١)، ورَفَصهم مراكرهم، وإحلالهم
بمواصمهم، وتحلفهم عن أعمالهم، آمين تمييز ذلك عليهم، والشدة على من أجترمه منهم،
فاوشك ذلك في وهك، وحذل من قوتك، وقفل من كثرتك .

إجعل حلف ساقك رحلا من وحوه قوادك، جليدا، ماضيا، غفيا، صارما، شهم
الراى، شديد الحذر، شكيم القوة، غير مُداهٍ في عقوبة، ولا ميهين في قوة، في خمسين
فارسا يحشر إليك جسدك، ويُحق بك من تحلف عك بعد الإللاع في عقوبتهم، والتهك
لهم، والتسكيل بهم . وليكن معقوتك في المنزل الذي ترحل عنه، والمنزل الذي تنقوض منه،
مُفْرِطًا في القيص له، والتنبع لمن تحلف عك به، مشتدا في أهل المنزل وسايكه مالتقدم،
موجزا اليهم في إزعاج الجسد من سازلهم، وإخراجهم عن مكائهم، وإبعاد العقوبة الموجعة
والسكال المُبْسِل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لم آوى منهم أحدا
أو ستر موضعه، أو أخفى محله . وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والحاماة
لدى قرابة، والاحتصاص بذلك لذى اثره وهوادة . ولكن فرسانه متعجين في القوة،
معروفين بالحدة، عليهم سوايح الدروع دونها شعار الحشو وجبب الاستعجان، متقلدين
سيوفهم، سامطين^(٣) كائهم، مستعدين لطيج إن بدهم [أو كين إن يظهر لهم^(٤)] . وإياك

(١) لودا : مراوغة أى مستحقين يسترضهم بعض . (٢) القوة : ماحول الدار أو ساحته .

(٣) سامطين : مططين . (٤) الزيادة عن مباح الأحكام وغيره .

أن تخبل منهم في دوابهم إلا فرما قويا أو ردو^(١)ا ونج^(٢)ا : فإن ذلك من أقوى القوة لهم ، وأعون الظهري على عدوهم ، إن شاء الله .

ليكن رحيلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً : لتجف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أن رحيلهم ، يقدّموا فيها يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأغلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويعطمن ذؤو الرأي الى إبان الرحيل . ومتى يكن رحيلك مختلماً ، تظم المؤونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذؤو السعة [والرق] يترحلون بالإرحاف ويتزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذؤو رأي بنوم ولا طمأنينة .

إياك أن تظهر استغلاًلاً ، أو تئادى برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تاهر صاحب تميتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك أخذاً يجتنب فوخته ، بأسلحتهم مدة لأمر إن حصر أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت سكر نهزة ، أو نحت صدك مره . ثم مري الناس بالرحيل وخيلك واقفة ، وأهنتك معدة ، وجئتك واقفة ، حتى إذا استقلت من معسكرك ، وتوجهت من منزلك ، سرتهم على تميتك بسكون ريج ، وهدؤ حملة ، وحسن دعة . فإذا انتهيت الى منزل أردت نزوله أو قمت بالمعسكر به ، فأياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمراقبه ، ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستشيرك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ثم ينهيها اليك على ما صارت اليه : لتعلم كيف احتاله لمسكرك ، وكيف ماؤه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك — إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكايده فيه — قوة تحملك ومدد يأتيه ، فألك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يبعزك ويزعجك عنه صيق مكانه ، وقلة مياهه ، وأقطع مآذيه ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو أحتجت من أموره الى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كست غرماً لعدوك ، ولم تحمد الى الحاربة والإخطار سيلا ، وإن أقت به أقت على مشقة وحصر وفي أزل

(١) ردوا ونجا : كثير المم .

(٢) كما في صح الأعتى (ح ١٠ ص ٢٢٦) ولعل فيه تحريفاً صوابه : قوة تصك ويدد يأتيك .

وَصِيقٍ ، فَأَعْرِفَ ذَلِكَ وَتَقَدَّمْ فِيهِ . فَإِنْ أَرَدْتَ زَوْلاً أَمَرْتَ صَاحِبَ الْخَيْلِ الَّتِي وَكَلْتَ
بِالنَّاسِ فَوَقَفْتَ خَيْلَهُ مَتَّعِيَةً مِنْ مَعْسُوكَ ، وَعُدَّةً لِأَمْرِ إِنْ فَالَكَ ، وَمَقَرَّةً لِيَدِيهِ إِنْ رَأَيْتَكَ ،
فَقَدْ أَسَيْتَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ بَهَاءَ مَدُّوكَ ، وَعَرَفْتَ مَوْقِعَهَا مِنْ حِزْرِكَ ، حَتَّى يَأْخُذَ النَّاسُ
مَازَلَمَ ، وَتَوَصَّعَ الْأَتَقَالُ مَوَاصِعَهَا ، وَيَأْتِيكَ خَيْرُ طَلَامِكَ ، وَيُخْرِجُ دَبَابَتَكَ مِنْ مَعْسُوكَ
دَرْجَاةً وَدَبَابًا يُحِيطِينَ مَعْسُوكَ ، وَعُدَّةً إِنْ أَحْتَجَّتَ إِلَيْهَا . وَلَكِنْ دَبَابَاتُ جَدِّكَ أَهْلَ جَدِّ
وَقُوَّةٍ ، قَائِمًا أَوْ آثِينَ أَوْ ثَلَاثَةً مَاصِحِهِمْ ، فِي كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَوْمٍ تَوْنًا بَيْنَهُمْ . فَإِذَا عَرَبَتِ الشَّمْسُ
وَوَجِبَ^(١) نُورُهَا ، أُنْعِجَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ تَعْيِيَتِكَ أَبْدَالَهُمْ ، صَسًا بِاللَّيْلِ فِي أَقْرَبَ مِنْ مَوَاصِعِ
دَبَابِي النَّهَارِ ، يَتَعَاوَرُ ذَلِكَ قَوَادُكَ جَمِيعًا مَلَاحِمًا لِأَحَدٍ فِيهِ وَلَا إِدْهَانِ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَكُونَ مِثْلُكَ إِلَّا فِي خَنْدَقٍ وَحُصْنٍ تَأْمَنُ بِهِ بَيَّاتَ مَدُّوكَ وَتَسْتَنِيْمُ فِيهِ
إِلَى الْحَزْمِ مِنْ مَكِيدَتِكَ . إِذَا وَصَعْتَ الْأَتَقَالُ وَحَطَّتْ أَيْبَةُ أَهْلِ الْمَعْسُوكِ ، لَمْ يُجَدِّدْ
طُبُّهُ ، وَلَمْ يَرْعَ حِجَابَهُ ، وَلَمْ يُنْصَبْ بَاءً حَتَّى يَفْطَحَ لِكُلِّ قَائِدٍ ذَرْعًا مَلُومًا مِنَ الْأَرْضِ فَقَدَرِ
أَصْحَابَهُ ، فَيَحْمِرُوهُ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يُطِيعُونَهُ بِدَلِّكَ عَمَادِيقِ الْحَسَكِ^(٢) ، طَارِحِينَ لَهَا دُونَ
أَشْتِجَارِ الرَّمَاحِ ، وَنَصَبِ الثَّرَمَةِ ، لَهَا بَابَانِ قَدْ وَكَلْتَ بِجَمْعِهِ كُلِّ نَابٍ مِنْهُمَا رَحْلًا مِنْ قَوَادِكَ
فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَإِذَا فُرِعَ مِنَ الْخَنْدَقِ كَانَ ذَاكَ الرَّحْلَانِ الْقَائِدَانِ بَيْنَ مَعْمَا مِنْ
أَصْحَابِهِمَا أَهْلَ ذَلِكَ الْمَرْكَزِ ، وَمَوْصِعِ تِلْكَ الْخَيْلِ ، وَكَانُوا هُمُ الْبَوَائِيْنِ وَالْأَحْرَاسِ لَذَيْنِكَ
الْمَوْصِعَيْنِ ، قَدْ كَفَّوْهُمَا وَصَطَوْهُمَا وَأَعْمَوْا مِنْ أَعْمَالِ الْمَعْسُوكِ وَمَكْرُوهِهِ عِيْرَهُمَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كَسَتْ فِي خَنْدَقٍ ، أَسَيْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَتَقَاتَيْتَهُمْ ، فَإِنْ
رَامُوا تِلْكَ مَكَتَ ، كَسَتْ قَدْ أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَحْدَثْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ فِي الْإِدَادِ لَهُ ،
وَرَفَقْتَ بِخَوْفِ الْفَتْقِ مَعَهُ ، وَإِنْ تَكِي الْعَايَةُ أَسْتَحَقَّقْتَ حَمْدَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَأَرْتَبَطْتَ شُكْرَهُ
بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ اخْتِلَاكُ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْلَةٍ وَنَصَبٍ وَمُؤْنَةٍ إِعْثَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ

(١) أَي دَهَبَ وَطَبَ . (٢) الْحَسَكُ : أَسْلَاحُ كَالشُّوْكِ تَعْمَلُ مِنَ الْحَدِيدِ تُلْقَى حَوْلَ الْمَعْسُوكِ لِنَشَبِ

فِي رَجُلٍ مِنْ يَدِيهِمَا مِنَ الْخَيْلِ وَالنَّاسِ الطَّارِقِينَ لَهُ ، وَهِيَ الْمَرْوَةُ الْآنَ : « بِالْأَسْلَاحِ النَّاتِكَةِ » .

السلامة غُفٍّ وغير خَطَرٍ العاقبة، إن شاء الله . فإن أَبْتَلَيْتَ بَيَاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَقَكَ رَائِمًا فِي لَيْلِكَ، فَلْيُفْلِكْ حِذْرًا مَشْمُرًا عَنْ سَاقِكَ، حَاسِرًا عَنْ دِرَاعِكَ، مُتَنَزِّيًا لِحَرْبِكَ؛ قَدْ تَقَدَّمْتُ دَوَاجِئَكَ إِلَى مَوَاصِعِهَا عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَبَّابَتُكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرْتُكَ، وَطَلَاتُكَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ، وَجَدْتُكَ عَلَى مَا عَنَّكَ، قَدْ خَطَرْتَ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِكَ، وَتَقَدَّمْتُ إِلَى جَنْدِكَ، إِنْ طَرَفَهُمْ طَارِقٌ أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ، أَلَّا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَاحَا صَوْتَهُ بِالْكَبِيرِ مُفْرَقًا فِي الْإِجْلَابِ، مُعَلِّيًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ الْبَاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا، وَلَمْ يَشْرَعُوا رِمَاحَهُمْ نَاشِينَ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ، وَبِشَقْوِهِمْ بِالْبَلِّ مَكْتَبِينَ بِتَرَسِهِمْ، لَا زِمِينَ لِمَرَكَهُمْ، غَيْرَ مُزِيلِي قَدَمٍ عَنْ مَوْصِعِهَا، وَلَا مُتَعَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِ مَرْكَهُمْ، وَلِيَكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَاوَرُ الْجَسَدِ هَادُونَ، لَتَعْرِفَ مَوْصِعَ عَدُوِّكَ مِنْ مَعْسُوكِ، قُمْتُ أَهْلَ تِلْكَ الْبَاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَهْوَالِكَ وَشَرِّطَتِكَ، وَمَنْ أَخَفَّتْ قُلُوبُكَ دَاخِلَ لَهَا لَشِدَادَتِي بِمَصْرَتِكَ، وَتُدَسُّ إِلَيْهِمُ النَّشَابُ وَالرِّمَاحُ .

وإياك وأن يشبهوا سيفًا يجهالون به، وتقدم إليهم ألا يكون قتالهم في تلك المواضع لمن طرفهم إلا بالرمح مُسْنَدِينَ لَهَا إِلَى صَدُورِهِمْ، وَالنَّشَابَ رَاشِقِينَ بِهِ وَوُجُوهِهِمْ، قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَتْرِسَةِ، وَاسْتَجَبُوا بِالْبَيْصِ، وَأَقْبَوْا عَلَيْهِمْ سَوَابِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابَ الْحَشْوِ . فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى حِمَاةٍ أُخْرَى، كَبَّرَ أَهْلُ تِلْكَ الْبَاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْلُ الْبَاحِيَةِ الْأُولَى، وَبَقِيَّةُ السَّكْرَتِ وَالْبَاحِيَةِ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لَارِمَةً مَرَاكِمَهُ مُنْتَطِقَةً الْمَدَى سَاكِنَةً الرِّيحِ، ثُمَّ عَمِلَتْ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَامْتِدَادِهِمْ بِمِثْلِ صَبِيحِكَ فِي إِحْوَانِهِمْ .

وإياك أن تُغَيِّدَ مَارِئُوكَ، وَادَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مَعْسُوكِ فَاجْجَهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقَدَهَا حَطْبًا جَرَلًا يَمِيزُ بِهِ أَهْلُ السَّكْرَتِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رِوَاظِكَ، فَيَسْكُنُ نَافِرُ قُلُوبِهِمْ، وَيَقْوَى وَاهِي قُوَّتِهِمْ، وَيَسْتَدْ سَخْنُلُ ظُهُورِهِمْ، وَلَا يَرْجُمُونَ بِكَ الظُّنُونَ، وَيَحْصِلُونَ لَكَ آرَاءَ

يَبْعَثُ واحدًا، كان مُعَدًّا لم تَحْجِجْ إلى أَتَقَابِهِمْ في سَاعَتِكَ تِلْكَ، قَطَّعَ البَحْثَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَا يَرْتَهِّقُ . وَإِنْ أَحْتَجَّتْ لِي أَثْنِينِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، وَجَّهْتَ مِنْهُمْ إِرَادَتَكَ أَوْ مَا تَرَى قُوَّتَكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُلُّ بِحْرَانِكَ وَدَوَاوِيكَ رَجُلًا مَاعَهَا أُمَيَّا، دَا وَرَعَ حَاجِرٍ، وَدِيرٍ فَاصِلٍ، وَطَاعَةِ حَالِصِهِ، وَأَمَانَةٍ صَادِقَةٍ، وَأَحْمَلٍ مَعَهُ حِيلًا يَكُونُ مَسِيرَهَا وَمَنْزِلَهَا وَمَرْحَلَهَا مَعَ حِرَانَتِكَ وَحَوْلَهَا . وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي حِفْظِهَا، وَالتَّسَوَّقِ عَلَيْهَا، وَأَتَاهُمُ كُلُّ مَنْ تُسَيِّدُ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْهَا عَلَى إِيصَاعَتِهِ وَالتَّهْلُؤِ بِهِ، وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ دَا مِنْهَا فِي مَسِيرٍ، أَوْ صَامَتُهَا فِي مَنْزِلٍ، أَوْ حَالَطَهَا فِي مَنْهَلٍ . وَلَيْكِنْ عَاقَةُ الْجِدِّ وَالْحَيْشِ - إِلَّا مَنْ اسْتَحْلَصَتْ لِسِيرِ مَعَهَا - مُشْعِبٌ عَنْهَا، عَاجِيزٌ لَهَا فِي الْمَسِيرِ وَالْمَنْزِلِ، فَاهٍ رُبَّمَا كَانَتْ الْجَوْلَةُ وَحَدَّثَتِ الْفَرْعَةَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْفَرَانُ مِمَّنْ يُؤَكِّلُ بِهَا أَهْلُ حِفْظِهَا وَذَبُّ عَنْهَا، وَحِبَابُهَا دُونَهَا، وَقُوَّةٌ عَلَى مَنْ أَرَادَ أَتْيَابَهَا، أَسْرَعَ الْجِدُّ إِلَيْهَا وَتَدَاعَوْا عَمَّوَهَا، حَتَّى يَكَادُ يَتَرَامَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَتْيَابِ الْعُسْكَرِ وَأَصْطِرَابِ الْعَتَةِ، فَإِنْ أَهْلُ الْغَيْثِ وَسُوءُ السَّيْرِ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا هُمُتُّهُمْ الشَّرُّ، فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي حِرَانِكَ وَدَوَاوِيكَ وَسَيُوتِ أَمْوَالِكَ مَطْمَعٌ، أَوْ يَجِدَّ سَبِيلًا إِلَى اغْتِيَالِهَا وَمَرْزَأَتِهَا .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَحْسَنَ مَكِيدَتِكَ أَثَرًا فِي الْعَالَمَةِ، وَأَعَدَّهَا حَيْثُ فِي حَسَنِ الْقَالَةِ، مَا لَبَّتِ الظُّفَرَ فِيهِ بِحَزْمِ الرُّوِيَّةِ، وَحَسَنِ السَّيْرِ، وَلَطْفِ الْحِيلَةِ . فَتَكُنْ رَوِيَّتُكَ فِي ذَلِكَ وَحِرْصُكَ عَلَى إِصَابَتِهِ مَالِجِلٍ لَا يَأْتِي الْقِتَالَ وَأَحْطَارِ الثَّأْبِ؛ وَأَدْسُسُ إِلَى عَدُوِّكَ، وَكَاتِبُ رُؤَسَائِهِمْ وَقَادَتِهِمْ وَعِزِّهِمُ الْمَالَاتِ، وَمَسْمُومِ الْوِلَايَاتِ، وَسَوْعُهُمُ الثَّرَاثِ، وَصَعَّ عَنْهُمْ الْإِحْنَ، وَأَقْطَعَ أَصَاقَهُمْ بِالْمَطَامِعِ، وَأَسْتَدْعِيَهُمُ بِالْمُتَاوَبِ، وَأَمْلَأْ قُلُوبَهُمْ بِالْتَرْهِيْبِ إِنْ أَمَكَّتْكَ مِنْهُمْ الدَّوَايِرُ، وَأَصَارَتِهِمْ إِلَيْكَ الرُّوَايَجِ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الْوُثُوبِ بِصَاحِبِهِمْ أَوْ أَعْتَزَّالِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِالْوُثُوبِ عَلَيْهِ طَاقَةٌ، وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَطْرَحَ إِلَى مَصْعَبِهِمْ كِتَابًا كَأَنَّهَا جَوَابُ كِتَابٍ لَهُمْ إِلَيْكَ، وَتَكْتُبَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ كِتَابًا إِلَيْكَ تَدْعِيهِمْ إِلَيْهِمْ وَتَقْبَلُ بِهَا صَاحِبَهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُغْزِلُهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ الثَّهْمَةِ وَعَمَلِ

الْقَلْبَةُ ، فَلَمْلَمْ يَكِيدَتْكَ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ أَقْرَأَتْ كَلِمَتِهِمْ ، وَتَشْتَبِهَتْ جَمَاعِيهِمْ ، وَاحْنُ قُلُوبِهِمْ ، وَسَوْءُ الظِّلِّ مِنْ وَالِيهِمْ بِهِمْ ، فَيُوحِشُهُمْ مِنْ خَوْفِهِمْ لِمَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِذَا أَقْبَنُوا بِأَتَمَامِهِ إِيَّاهُمْ ، فَإِنْ بَسَطَ يَدَهُ قَتَلْتَهُمْ ، وَأَوَّلَعَ سَيْفَهُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَأَسْرَعَ الْوُتُوبَ بِهِمْ ، أَشْعَرَهُمْ جَمِيعًا الْخُوفَ ، وَشَمِلَهُمُ الرُّعْبُ ، وَدَعَاهُمْ إِلَيْكَ الْحَرْبُ ، فَتَهَاقُوا نَحْوَكَ بِالْمَصِيبَةِ وَأُمُوكَ بِالطَّلَبِ . وَإِنْ كَانَ مَتَانِيًا مَحْتِمِلًا رَجَوْتَ أَنْ يَسْتَمِيلَ إِلَيْكَ بِمَصْنَعِهِ ، وَيَسْتَدْعِي الطَّعْمَ دَوِيَّ الشَّرِّ مِنْهُمْ ، وَتَنَالَ بِذَلِكَ مَا تُحِبُّ مِنْ أَجْبَارِهِمْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

إِذَا تَدَانَى الصَّفَّانِ ، وَتَوَاقَفَ الْجَمْعَانِ ، وَاحْتَصَرَّتْ الْحَرْبُ ، وَغَبَّتْ أَهْمَابُكَ لِقِتَالِ عَدُوِّهِمْ ، فَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلٍ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالتَّوَصَّصْ إِلَيْهِ ، وَمَسْأَلَتُهُ تَوْفِيقَكَ وَإِرْشَادَكَ ، وَأَنْ يَعْزِمَ لَكَ عَلَى الرَّشَدِ الْمُنْجِي ، وَالْعِصْمَةِ الْكَائِلَةِ ، وَالْحَيَاطَةِ الشَّامِلَةِ . وَنُزْهِدْكَ بِالْحَقِّ وَقَلَّةِ التَّلَفِّ عَنِ الْمُصَاوَلَةِ ، وَكَثْرَةِ التَّكْبِيرِ فِي أَهْلِهِمْ وَالتَّسْبِيحِ بِصَوَائِرِهِمْ ، وَلَا يُظْهِرُوا تَكْبِيرًا إِلَّا فِي الْكُرَاتِ وَالتَّحَلَّاتِ ، وَعَدَّ كُلَّ زُلْفَةٍ يَزِدُّلُونَهَا ، فَأَمَّا وَهُمْ وَقُوفٌ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْعُشْلِ وَالْجَبَنِ ، وَلَيْدَ كَرُوا اللَّهَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَسْأَلُوهُ بِصَرِّهِمْ وَإِعْزَازِهِمْ ، وَلْيُكْثِرُوا مِنْ قَوْلٍ : ”لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ“ ، حَسْبُكَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، اللَّهُمَّ أَنْصُرْنَا عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّكَ الْبَاغِي ، وَأَكْثَرِ شُوكَتَهُ الْمُسْتَعِجَّةَ ، وَأَيَّدْنَا بِمَلَائِكَتِكَ الْغَالِيَةِ ، وَأَعِصِمْنَا بِعُيُودِكَ مِنَ الْفُشْلِ وَالْعِجْزِ إِنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

وَلْيَكُنْ فِي مَعْسَرِكَ الْمَكْبُورُونَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَوَاقِعَةِ ، وَقَوْمٌ مُوقِفُونَ بِمُحْصُونِهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَيَحْرُصُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَيَصِفُّونَ لَمْ مَازَلِ الشُّهَدَاءُ وَثَوَائِهِمْ ، وَيَذْكُرُونَهُمْ الْجَنَّةَ وَدَرَجَاتِهَا ، وَنِعْمَ أَهْلُهَا وَسُكَّانُهَا ، وَيَقُولُونَ : أَذْكُرُوا اللَّهَ يَذْكُرْكُمْ ، وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرْكُمْ ، وَالْتَجِئُوا إِلَيْهِ يَمْنَعَكُمْ . وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَمْتُ الْمُبَاشَرَةِ لِعَبِيَّةِ جَنْدِكَ وَوَصِيْعِهِمْ مُوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ ، وَمَعَكَ رَحَالٌ مِنْ نِقَاتِ فِرْسَانِكَ دُورُ سَنٍّ وَتَحْيِيرَةٍ وَتَجَنُّدَةٍ عَلَى التَّعْيَةِ الَّتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفُهَا لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِكَ فَافْعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

آلِكَ اللهُ بِالْعَصْرِ، وَطَلَّكَ عَلَى الْقَوْزِ، وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّشْدِ، وَعَصَمَكَ مِنَ الزَّفْعِ،
وَأَوْجِبَ لِمَنْ أَسْتَشْهَدَ مَعَكَ ثَوَابَ الشَّهَدَاءِ وَمَآزِلَ الْأَصْفِيَاءِ، وَالسَّلَامَ عَلَيْكَ وَرَحْمَةَ اللهِ
وَبَرَكَاتِهِ .

وَكُتِبَ سِتَّةً تِسْعَ وَعِشْرِينَ وَمِائَةً .

٧ - رسالة ثانية لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد الرسالة التي أوصى فيها الكتاب^(١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد، حَفِظَكُمُ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ، وَحَاطَكُمُ وَوَقَّفَكُمُ وَأَرْشَدَكُمُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ
وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ تَعَدِّ الْمُلُوكِ
الْمَكْرُمِينَ أَصْغَا، وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً، وَصَرَّفَهُمْ فِي صُوفِ الصَّاعَاتِ، وَصُرُوبِ
الْمَحَاوِلَاتِ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَانِيهِمْ، وَأَبْوَابِ أَرْوَاقِهِمْ، بِحُطْمِكُمْ مَعَشَرَ الْكُتَّابِ فِي أَشْرَفِ
الْجِهَاتِ، أَهْلِ الْأَدَبِ وَالْمُرُوءَاتِ وَالْعِلْمِ وَالزَّيَّاتِ، نَحْمُ تَعْلِيمَ الْخَلِيفَةِ تَحَاسُّنًا، وَتُسْتَقِيمَ
أُمُورِهَا، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللهُ لِحُلُقِ سُلْطَانَتِهِمْ، وَتَعْمُرَ لِبْدَائِنِهِمْ، لَا يَسْتَقْنِي الْمَلِكُ عَمَّكَ،
وَلَا يُوحَدُ كَافٌ إِلَّا مِنْكُمْ، فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَنْصَارُهُمْ
الَّتِي بِهَا يُنْصَرُونَ، وَالسُّنَنُومُ الَّتِي بِهَا يَطْلُقُونَ، وَأَيْدِيهِمْ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ، فَاثْمَعَكُمْ اللهُ مَا حَصَمَكُمْ
مِنْ قَصَلِ صِاعَتِكُمْ، وَلَا زَرْعَ عَمَّكَ مَا أَصْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ
الصَّاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى أَجْتِنَاعِ جِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَحِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ
مَعَكُمْ . أَيُّهَا الْكُتَّابُ إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ، فَإِنَّ الْكُتَّابَ يَتَحْتَاجُ
فِي نَفْسِهِ، وَيَتَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَتَّقِي بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ، أَنْ يَكُونَ حَلِيمًا فِي مَوْضِعِ
الْحِلْمِ، فَهَيَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، مَقْدَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، مَحَامًا فِي مَوْضِعِ الْإِنْجَامِ، مُؤَثِّرًا

(١) هذه الرسالة من مقدمة ابن خلدون (ص ٢٠٦ طبعة للاق) . (٢) أصغاه . أنه

للعفاف والعذل والإنصاف، كنتموا للأسرار، وفيأ عد الشدائد، علما بما يأتي من الواصل؛
يصح الأمور مواضعها، والطوارى في أماكها، قد نظر في كل من من فون العلم فاحكمه،
وإن لم يحكمه أحد منه بمقدار ما يكتفى به، يعرف بريرة عقله، وحسن أدبه، وفصل
تحرته، ما يرد عليه قبل وروده، وعاقبه ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عذته
وعناده، ويهي لكل وجه هيئته وعادته. تنافسوا يا معشر الكلاب في صوف الآداب،
وتفهموا في الدين، وأبدؤا سلم كتاب الله عز وجل والعرائص، ثم القرية لها ثقاف
الستكم، ثم أجيذوا الخط فانه حلية كنكم، وأزروا الأشعار وأعبروا عربيتها ومعانيها،
وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تنسوا اليه همكم،
ولا تنصّبوا النظر في الحساب، فانه قوام كتاب الحراج، وأزعموا بأنفسكم عن المطامع سنيها
ودنيها، وستصاف الأمور ومحارها، فانه مثله للرقاب، مفسدة للكلاب، وزهوا صاحتكم
عن الدناءة، وأزنتوا بأنفسكم عن السعاية والتجيمة وما فيه أهل الجهالات.

وأيامكم والكثرة والسخف والعظيمة، فانه عداوة مجتلة من غير إحنة، وتعاؤوا في الله
عز وجل في صاحتكم، وتواصوا عليها بالذي هو أليق لأهل العصل والعذل والنبل من
سلمكم، وإن نأ الزمان رجل منكم، فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله، ويثوب اليه
أمره، وإن أقعد أحدًا منكم الكثر عن مكسبه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه؛
وأستظهروا بفضل تحرته، وقديم معرفته، وليكن الرجل منكم على من أصطعته وأستظهر
به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه، فإن عرّصت في الشغل عمدة فلا يصرفها
إلا الى صاحبه، وإن عرّصت مدمة فليجعلها هو من دونه، وليحذر السقطة والزلة والمثل
عند تغير الحال، فإن العيب اليكم معشر الكلاب أسرع منه الى الفراء، وهو لكم أقصد منه
لها، فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه من يتئل له من نفسه، ما يحب له عليه من حقه؛
موجب عليه أن يستبد له من وفائه وشكره، وأحتماله ونصيحته، وكتان سره وتدير أمره،

ما هو جرأُ خلقه ، ويصدق ذلك فعله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرِّحاء ، والثَّشَّة والحُرَّمان والمُواساة والإحسان والسَّراء والعُصَّاء ؛ فعمَّت الشَّيْمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصَّباغة الشَّريفة ، وإذا وليَّ الرجلُ منكم أو صَبَّر إليه من أمرٍ خلق الله وعيَّأ أمرٌ ، فليُرَاقب الله عز وجل وليؤثِّر طاعته ؛ وليكن على الصَّعيف رفيقا ، وللظَّلم مُنصفا ، فإنَّ الخلق عيالُ الله ، وأحبُّهم إليه أرفقُهم بعباله ؛ ثم ليكنَّ العَدْلُ حاكما ، والأشراف مُكرَّما ، وللقِيَمُ مؤفَّرا ، وللإلاد ماحرا ، وللرَّعيَّة مُتألِّما ، وعن أدام متعلِّفا ، وليكن في مجلسه متواصما حلِّيا ، وفي مجلات خراجه واستقبضه حقوقه دقيقا ، وإذا صحَّ أحدكم رجلا فليختر حلائقه ، فإذا عَرَفَ حَسَنًا وقيِّعها أعانه على ما يوافق من الحَسَن ، وأحتال على صَرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة .

وقد علمت أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رَمْوحا لم يهجمها إذا ركبها ، وإن كانت شَوْما آتقها من بين يديها ، وإن حاف منها شُرودا تَوَقَّأها من ماحية رأسها ، وإن كانت حَرُوما قَع برفق هواها في طُرُقها ، فإن استنزت عَطَفها يسيرا ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجرَّهم وداحلهم .

والكاتب لفصل أدبه وشريف صمته ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويباطره ، ويهجم عليه أو يحاف سَطَوَتَه ، أو لى بالرق لصاحبه ومُداراته وتقوم أوداه ، من سائس البهيمة التي لا تُخبر جِوانا ، ولا تُعرف صِواما ، ولا تُفهم خطايا ، إلَّا بقدر ما يُصبرُّها إليه صاحبها الراكب عليها ، إلَّا فارَّقوا رحمكم الله في الطر ، وأنعموا ما أمكنكم فيه من الرُّويَّة والعكر ، تأمَّنوا بإذن الله من محبِّتهمو النُّبوة والاستقلال والجُفوة ، ويصير معكم إلى المواظفة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشَّيقة ، إن شاء الله ، ولا يُجاوِرَنَّ الرجلُ منكم في هيئة مجلسه ، وملبَّسه ومَرَكَبه ، ومَطْعَمه ومَشْرَبه وحَدَمه ، وغير ذلك من فنون أمره قَدْر حقِّه ، فإنكم مع ما فصلكم الله به من شرف صُنْعكم ، حَدَمَةٌ لا تُحْمَلون في خدمتكم على التَّقصير ، وحَفَظَةٌ

لَا تُحْتَمَلُ مِنْكُمْ أَعْمَالُ التَّصَبُّعِ وَالتَّيْدِيرِ، وَاسْتَعْيُوا عَلَى أَعْمَالِكُمْ بِالْقَصْدِ فِي كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ لَكُمْ، وَقَصَصْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَاحْدَرُوا مَنَافِ السَّرَفِ، وَسُوءَ عَاقِبَةِ التَّرَفِ، لِإِنَّمَا يُعْقَبَانِ الْفَقْرَ، وَيُذَلَّلَانِ الرِّقَابَ وَيَقْصَحَانِ أَهْلَهُمَا، وَلَا سِيَّامَا الْكُتَّابَ وَأَرْبَابَ الْآدَابِ . وَلِلْأُمُورِ أَشْبَاهُ وَبَعْضُهَا دَلِيلٌ عَلَى بَعْضٍ، فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مُؤْتَفِ أَعْمَالِكُمْ، بِمَا سَبَقَتْ إِلَيْهِ تَجَرُّبَتُكُمْ، ثُمَّ اسْأَلُوا مِنْ مَسَالِكِ التَّيْدِيرِ أَوْصَحَّهَا حَخَّةً، وَأَصْدَقَهَا حُجَّةً، وَأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً .

وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِلتَّيْدِيرِ آفَةً مُتَلَفَةً، وَهُوَ الْوَصْفُ الشَّاعِلُ لِصَاحِبِهِ، عَنْ إِنْغَازِ عِلْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ، فَلْيَقْصِدِ الرَّحْلَ مِنْكُمْ فِي عَمَلِهِ، قَصْدَ الْكَافِ فِي مَسْطَقِهِ، وَلْيُوحَرْ فِي أَبْتِدَائِهِ وَجَوَابِهِ، وَلْيَأْخُذْ بِجَمَاعِ حُجَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِعَمَلِهِ، وَمَدَقَّةٌ لِلشَّاعِلِ مِنْ إِتْكَارِهِ، وَلْيَصْرَعْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاةِ تَوْفِيقِهِ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْهِيدِهِ، غَفَاةً وَقُومَةً فِي الْفَلْطِ الْمُصَرِّ بَدَنَهُ، وَحَقْلَهُ وَأَدَبَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ ظَنَّ مِنْكُمْ ظَانًّا أَوْ قَالَ قَائِلًا: إِنَّ الَّذِي بَرَزَ مِنْ حِمْلِ صَنْعَتِهِ وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ فَصْلٌ حَيْلَتُهُ وَحُسْنُ تَدْبِيرِهِ، فَقَدْ تَمَرَّضَ مُحْسِنُ ظَنِّهِ أَوْ مَقَالَتِهِ إِلَى أَنْ يَكَلِّهَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ إِلَى صَسِهِ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى عَيْرِ كَافٍ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ عَيْرٌ حَافٍ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَنْصَرَّ بِالْأُمُورِ، وَأَحْمَلُ لِأَعْيَابِ التَّيْدِيرِ، مِنْ مُرَافَقَتِهِ فِي صِبَاغَتِهِ، وَمُصَاحَبَتِهِ فِي خِدْمَتِهِ، فَإِنَّ أَهْلَ الرُّحُلِ عِنْدَ قَوَى الْأَلْبَابِ مَسْرُومِي الْمُنْعَبِ وَرَاءَ طَهْرِهِ، وَرَأَى أَنَّ أَحْمَابَهُ أَعْقَلُ مِنْهُ وَأَحْمَلُ فِي طَرِيقَتِهِ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَرِيقِينَ أَنْ يَعْرِفَ فَصْلَ نِعَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ مِنْ عَيْرِ اعْتِرَارِ رَأْيِهِ، وَلَا تَرْكِيَّةَ لِعَمَلِهِ، وَلَا يُكَاتِرُ عَلَى أَحْيَاةِ أَوْ نَظِيرِهِ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ، وَحَمْدُ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَذَلِكَ مَالِ التَّوَاضُعِ لِعَظَمَتِهِ، وَالتَّذَلُّلِ لِعَزَمَتِهِ، وَالتَّحَلُّثِ بِعَمَلِهِ، وَأَمَّا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ الْمَثَلُ: "مَنْ تَلَزَمَهُ الصَّبِيحَةُ يَلْزَمَهُ الْعَمَلُ" وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَعُرَّةُ كَلَامِهِ، عِدَّ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ، فَلِذَلِكَ جَعَلْتُهُ آخِرَةً وَتَمَّتْ بِهِ . تَوَلَّانا اللَّهُ وَلِيَاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ بِمَا يَتَوَلَّى بِهِ مَنْ سَبَقَ عِلْمُهُ بِإِسْعَادِهِ وَإِزْشَادِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَبِيَدِهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

٨ - رسالة ثالثة لعبد الحميد الكاتب

ومن رسائل عبد الحميد رسالة في الشرع^(١) :

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سُبله ، وإيصاح مقالِه بإظهار فرائضه ، وبعث رسَلَه الى خلقه دلالةً لهم على رُبوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومُعذراً اليهم بإنذاره ووَعيده ، لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن يَدِه ، وَيُحْيَا من حَيَّ عن يَدِه ؛ ثم حتم سِيبه صلى الله عليه وسلم وَحْيَه ، وَفَى به رسَلَه ، وَأَبْتَعَتْه لإحياء دينه الدارس مرتصياً له على حين اطمست الأعلامُ محفئةً ، وتشتت السبل متفرقةً ، وَهَفَّتْ آثارُ الدين دارسةً ، وسَطَعَ رَجَمُ الفتن ، وأَعْلَى قَتَامُ الظُّلْم ، وأسْتَهْدَ الشُّرْكُ ، وأَسْدَفَ الكُفْرُ ، وظَهَرَ أوليَاءُ الشَّيْطَانِ لطموس الأعلام ، ويطغى زعيمُ الباطل بِسُكْنَةِ الحق ، وأسْتَطْرَقَ الحورُ وأسْتَنْجَحَ الصُّدُوفُ عن الحق ، وَأَقْعَزُ سَلْبُ الفتنَةِ ، وأسْتَضْرِمَ لِقَاحُهَا ، وَطَبَّقَتِ الأرضُ طَلْمَةً كُفْرٍ وَغِيَاةً مُسَادً ، فَصَدَعَ مَالِحُ مأمورا ، وأبْلَغَ الرِّسَالَةُ مَعْصوما ، ونَصَحَ الإسلامُ وأَهْلَه ، دَالاً لهم على المَرَأَسَدِ ، وَقَائِداً لهم الى المَهْدِيَةِ ، ومِيراً لهم أعلامُ الحق صاحِبَةِ ، مَرشِداً لهم الى أَسْتَحْتاحِ بابِ الرَّحْمَةِ وإِعْلَاقِ عُرْوَةِ النِّعَةِ ، مُوَسِّحاً لهم سُبُلَ الفَوَايِدِ ، زَاجِراً لهم عن طريقِ الضَّلَالَةِ ، مُحذِّراً لهم المَلِكَةَ ، مُوعِزاً اليهم في التَّقِيْمَةِ ، صَارِماً لهم الحُدُودَ على ما يَتَقَوْنَ من الأمور وَيَحْشَوْنَ ، وما إِلَيْهِ بِسَارِعُونَ وَيَطْلُبُونَ ، صَارِماً بِنَفْسِهِ على الأَدَى والتَّكْذِيبِ ، دَاعِياً لهم بالترعيب والترهيب ، حَرِيصاً عليهم ، متَحَصِّناً على كَافَتِهِمْ ،

(١) هذه الرسالة من تخات « اخبار المظوم والمنثور » لأثر طيغور المصنوع مزار الكتب المصرية تحت رقم (٥٨١ أدب) ومراجعة على نسخة أخرى من مجموعة رقم (١٨٦٠ أدب) .

(٢) وردت هذه الحقة في رسائل اللغاء هكذا « على حين اطمست له الأعلام » زيادة "له" وليس لما محل من السياق طغها من زيادات السامع .

(٣) أسد الكفر أظلم ومع الواح والأرجاء كالليل . (٤) اقطر اشدة .

(٥) العياية ، ما أطل الإنسان من فوق كالسحابة والبرق ومحوها .

(٦) في رسائل اللغاء وإعلان بالون بدل القاف ، وهو محرف .

عزیزاً علیہ عَثَمَ ، رمواً بهم رحیاً ، تقدمه شفقتہ علیہم وعایته برشدہم الی تحرید الطلب الی ربہ فیما فیہ بقاء العمة علیہم ، وسلامة أديانہم ، وتحصیف أصار^(١) الأوزار عنہم ، حتی قبضہ اللہ الیہ - صلی اللہ علیہ وسلم - ماحمًا منتصحا ، أمیاً مأمواً ، قد بلغ الرسالة ، وأدى النصیحة ، وقام بالحق ، وعقل عمودَ الدین ، حتی اعتدل میلہ ، وأذلَّ الشُّرکَ وأهلہ ، وأنجز اللہ لہ وعدہ ، وأراه صدقَ أنبائه^(٢) فی إكمالہ للسالمین دینہ ، واستفادة سنتہ مینہم ، وطهور شرائعہ علیہم . قد أبان لهم موفات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومہبطات الأوزار ، وطلم الشبہات ، وما يدعو الیہ نقصان الأديان ، وتستهويہم بہ الغوايات ، وأوضح لهم أعلام الحق ، ومازَلَّ المرشد ، وطَرَقَ الهدى ، وأبوابَ الحاة ، ومعالقِ العصمة ، حیرَ مَدحِہم لم نصحا ولا مَنعِہم فی إرشادہم غُنا . فكان مما أقدم الیہم فیہ نیہ ، وأعلمہم سوءَ عاقبتہ ، وحذرہم إصرہ ، وأوعز الیہم تاهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكُف علی ہدہ التماثیل من الشُّطرنج والمواصلۃ طلیا ، لما فی ذلک من عظیم الإحتم ، ومُوقِیَ الیُوزر ، مع مَشعلتہا عن طلب المَفاش ، وإصرارہا بالقول ، ومَنعُها من حصور الصلوات فی مَواقبتہا مع جمیع المسلمین .

وقد بلغ أمير المؤمنين أن ماسا ، ممن قبلك من أهل الإسلام ، قد ألهمهم الشيطان بها ، وجمعهم عليها . وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صُحُهم الی مُنْهاہم ، مُلْهِمةً لهم عن الصلوات ، شاعلةً لهم عما أُمِرُوا بہ من القيام بسُنَنِ دینہم ، وأقَرَّضَ علیہم من شرائع أعمالہم ، مع مداعتہم فیہا ، وسوءَ لفظہم علیہا . وإن ذلک من معلہم طاهرٌ فی الأئدية والمجالس ، غیر مُکَرَّ ولا مَعیب ولا مُستفْظَعٌ عند أهل الفقه ، وذوی الورع والأديان والأستاب منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلک وأعظمَہ ، وكرهہ

(١) آمار : جمع إصر وهو الثقل . وفي رسائل البلاء واختيار المطوم والمشور لار طيعور «أواصر» ذل

آمارہ ، وهو محرج . (٢) في رسائل البلاء واختيار المطوم والمشور لار طيعور «أسباب» وهو محرج ،

وأستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس منه من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل ،
 بمصر المسلمين ويجمعهم صُرَاحًا وجهارًا ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، ورَّس لهم وَرْطَةً
 موقفة ، وعزَّهم بمكيمة جميلة ، إرادته لاستهوائهم بالخدع ، واحتياهم بالشبه والمراسد
 الخفية المشككة . وكلُّ مقيم على معصية الله ، صغُرَتْ أو كَبُرَتْ ، مستحلًّا لها مُشيدًا بها ،
 مظهرًا لأرتكابه إياها ، غير حذير من عقاب الله عز وجل عليها ، ولا حائف مكرهاً فيها ،
 ولا راعٍ من حلول سَطْوَتِهِ عليها ، حتى تلحقه الميبة ، فتحتلعه وهو مُبصر عليها ، غير
 تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من أرتكابه إياها ، فكَم من أقام على مَوَاقَات الآثام
 وبكائر الدوب ، حتى مدَّته ومَحْرَم أيامه .

وقد أحبَّ أمير المؤمنين أن يتقدَّم إليهم ، فيما بلغه عنهم ، وأن يُدبرهم ويُوعزَّ إليهم ،
 ويُعلمهم ما في أعاقهم عليها ، وما لهم في قول ذلك من الخطأ ، وعليهم في تركه من الورر ،
 فأَذِنَ بذلك فيهم ، وأَشَدَّه في أسواقهم وجميع أدينتهم ، وأوعز إليهم فيه . وتقدَّم إلى عامل
 شُرطتك في إنهاك العقوبة لم يُرْفَع إليه : من أهل الاعتكاف عليها والإظهار لقلب بها ،
 وإطالة حبسه في ضيق وضنك ، وطَرَج اسمه من ديوان أمير المؤمنين . وأفطمهم عما
 لَحِجُوا به من ذلك . وأَلْتَمَسَ نَشْدَكَ عليهم فيه وإنهاكك بالعقوبة عليه ، ثواب الله
 وجرأه ، وأتباع أمير المؤمنين ورايه . ولا يحدِّث أحد عندك هَوَادَّةً في التقصير في حق الله
 عز وجل ، والتعدي لأحكامه ، فتُحِلَّ بنصك ما يسوءك قاطعةً مَعْبَتَه ، وتُتَمَرَّض به
 لعير الله عز وجل وبكاله . وأكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك ، إن شاء الله
 والسلام .

(١) اجتالم . حوَّل من طريق قصدهم ويحتل أن يكون : واحتالم ، والاحتال : الاصطباد .

(٢) آداه الأمر به : أطله .

رسالة رابعة لعبد الحميد الكاتب

٩ - ومن رسائل عبد الحميد هذه الرسالة التي وصف بها الصيد ^(١) :
 أطال الله لقاء أمير المؤمنين مؤيدا بالمرء، محبوسا بالكرامة؛ ممتعا بالعمة، إنه لم يلق
 أحد من المقتنين، ولا يُسبح متطرف من المتصيدين، إلا دون ما لقانا الله به من
 اليمن والبركة، وممتحا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد، وحسن المقتنص،
 وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد، وعموم القدورة. إلا ما كان من محاولة
 الطلب، وشدة التعب، لافر الصيد، وقائد الطريدة التي أمعاً في الطلب لها، وأعجزنا
 البهر عن اللحاق بها، لتفاوت سبقها، ومقطع هربها، ومتفرق سبلها، ثم آل بنا ذلك إلى
 حسن الظفر، وتواي الأرب، ونهاية الطرب.

وإني أخبر أمير المؤمنين أننا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأتقن الصواري،
 أكرمها أحناسا، وأعظمها أحساما، وأحسنها ألوانا، وأحدها أطرافا، وأطولها أعضاء،
 قد تفتت بحسن الأدب، وعودت شدة الطلب، وسبرت أعلام المواقف، وحبرت المحام،
 مجبولة على ما عودت، ومقصورة على ما أدب. ومعنا من فنان الخيل المخبورة الفراحة،
 من الشهيرة الموصوفة بالنعابة، والجرى والصلابة. فلم نزل أخفض سير، وأتقن طلب،
 وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، قربت منه الأرض، وزهر البقل، وسكن القتائم من مناز
 السابك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرتنا علويات، ثم برزت الشمس طالعة،
 وأكتشفت [من] السحاب مسفرة، قتلات الأشجار، وصحك الوار، وأنجلت الأبصار،
 فلم نر منظرا أحسن حسنا، ولا مرموقا أشبه شكلا، من أبتسام نور الشمس عن أخصرار

(١) هذه الرسالة من كتاب « اختيار المخطوم والمشرد » لأس طيمور .

(٢) في الأصل : " يلى " . (٣) في الأصل : " الغاما " . (٤) كذا في الأصل ولعلها

محيرة عن الحالة . (٥) القدورة القدرة، وفي الأصل : " المقدورة " . (٦) الفراحة .

النشاط في السير . (٧) الشهيرة - الرادى . (٨) في الأصل - حكما " سا " .

(٩) في الأصل " منسطة " .

زهرة الرياض . والخليل ترحّب بنا نشاطا ، وتجتنبنا أعتبا أنبساطا ؛ ثم لم تلبث أن علّنا ضبابه^(١) تقصّر طرف الساطر ، وتُخفي سُبُل السلام ، تنشأ نارة وتكشف أخرى ، ونحن مريض دينة التراب ، أشبه الأطراف ، مُنقِدة العجاج ، مملوءة صيدا من الطباء والشعالب والأرانب ؛ فأدانا المسير إلى غاية دوما مالف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد حاوزناها ونحس على سبيل الطلب ممسوق ، وبكلّ حرة^(٢) جونية متفرّقون ، فرجع بنا العود على الده ، وقد انحلت الضبابه ، وأمتدّ البصر ، وأمكن النظر ، فادا نحن رِعلة^(٣) من ظباء ، وحلقة آرايم يرتعن أنسات ، قد أحاتهنّ الضبابه عن شعصا ، وأذهلهنّ أنيق الرياض عن استماع حسّا ، فلم نفع إلا والضواري لأشعة لمن من بُعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدّت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضواري مقايدها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحصريها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فزوت تحفّ حفيف الريح صد هبوبها ، تُسِفّ الأرض سقا ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة لأظفارها ، قد مزقتها تزيق الريح الجراد ؛ فن صائح بها وبامر ، وهاتيف بها وواقع ، يدعو الكلّ باسمه ، ويفذيه بأبيه وأمه ؛ وراكص تحت مُمرّه ، وحافّي يطله الريح ، وطالع يمه ، وسائح قد عارصه مارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى أمتلأت أيلينا من صوف الصيد ، والله الممع الوهاب .

ثم ملأ يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكته التجارب ، وحبر أعلام المدايب ، الى عدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملثمة بصُوف^(٤) الحمّر ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يذصرهنّ صائد ، ولا أقتنصهنّ قانص ، نخفيق لها طبول ، وصُفر بغير الحنف ، فتار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وزاعت الجوارح خفقات أجحمتها ، ثم أنبرت البزاة

(١) في الأصل : "قصر" . (٢) في الأصل : "ويحي" .

(٣) الأشبه اللقمة الشمر . وفي الأصل «آسه» . (٤) الحرة . أرض ذات هجارة حمرة سود ،

وفي الأصل «حر» . (٥) الحرة : السوداء ، وفي الأصل هكذا : «حويه» . (٦) رعة . حاة

مصرقة . (٧) في الأصل : «هح» . (٨) الحر : الشمر .

لها صائفة، والصقور كاسرة، والشواهيئ صارية، يرفض الطلب لها، ويحفظن الظفر بها،
حتى سئما من الدخ، وأمتلأنا من الصبح، ^(١) كأننا كنيئة ظفرت ببيعتها، وسيرة يصرث على
عذوها، وألحقت صعيقها بقويها، وعلبت عسيتها بمسيتها، لا نملك أنفسنا مراحا،
ولا نستطيع من الجدل بها فرحا، بقية يوما، والله المنعم الوهاب .

ثم صدوا يا أمير المؤمنين الى أرض وُصف لها صيدها بالكثر، ورياضها بالزهوة،
فزّل واصفها عن الطريقة، وأعتمد سا على غير الحقيقة، فأتىها فلم نر صيدا ولا حشبا،
ولا نزهة ولا حسا، بهلنا نسلك منها حروما ووُعورا، وحُدوا وقفرا، حتى قصر بنا اليأس
عن الطلب، وقطع با عن الطمع التَّصَب . مينا نحن كذلك، إذ بدا لنا حاب قد أوفى ^(٢)
باعا على حائل دل على عابة من ورائها حمير وحيش كثيرة، فأتمسأها، فلما تطرأ مشيا وتقرىبا ^(٣)
الى عاماته، توالى نيقه، وكثر شيقه، فالتفت إليه، فمرقن بأعين مآ ما استكثرن شخصه،
وأستولن أمره، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع أنحدن موليآت، وهرين مسبات، فاجهدنا
الركض في طلبهن . منع آثارهن، واستشف ملاء بين أحجار ودكادك ^(٤) وخايد ^(٥)، حتى أشفى
بنا الطلب لها على وادٍ هائل سائل، بحسنيته عابة أشنة قد سقن إليها، وأستحفين فيها،
مطمسها بالخليل نظم الحرور، ثم أوطت عتده فرسا في نصيها ومعرفه أحوالها، والطلبول
حافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان؛ والحمد لله على كل حال .

(١) الصبح العرق .

(٢) في الأصل : "قف" . (٣) الحاب . العليط من حر الوحش . (٤) في الأصل :

"مينا" . (٥) التقريب صرب من العند . (٦) العاة . القطيع من حر الوحش .

(٧) الأحجار جمع حمر وهو التراب المحرق من المهور . (٨) الدكادك . جمع دكك ودكك وهو أرض بها

حطب . (٩) الحاديد . جمع حديد وهو رأس الحبل المشرف ، والذي يثق والسياق "أحاديد" ،

وهي جمع أهدود . الحرة المستطيلة في الأرض .

باب المنظوم

الغزل

ذكرنا في المجلد الأول حالة الغزل في العصر الأموي، وكثرة ما نجد فيه من توافع الحب ولقمانه، وشكايات الحب وأاناته، وزفورات العاشق وعبراته. وبدأ أواعه المتباينة التي قسمناها الى أربعة أقسام :

(١) غزل إباحي : ويصح لنا أن نقصد من صهر بن أبي ربيعة زعياً لهذا النوع الذي يجمع الى وصف المرأة والتشبيب بها، معاني القس والامتناع بالله المادية مما يميزه من الأدب الجاهلي، وما حظوه عليه الكثيرون من خلفاء الاسلام وأئمة. وقد كانت مكة والمدينة مسرحاً لهذا النوع في العصر الأموي. وقد شرحنا سبب ذلك في المجلد الأول فراجعه ثمة.

(ب) غزل عذري : وهو غزل الحب الصادق، والمواطف المتأججة، والعصم المثالة المساة، تلك العصور التي تحد لمتها في الكلف بمن تحب والتعلق بها والشعور بالسعادة في العناء في حبها، حياً يملك عليه لبه ويعذب روحه ويهني حسمه، كغزل جميل زعيم هذا النوع. وليس أدل على صدق حبه مما أثبتناه عن كتاب الأغاني اد حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحائه في ذلك أجل حاجة، فكان من جميل ما كان مما تحده مفصلاً في هذا الباب.

(ج) غزل صناعي : بين هذا وذاك، همم الإجابة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كثير عزة زعيم لهذا النوع الثالث.

(د) غزل قصصي : حلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس الى الغزل والى حياة القصف وما ينبع حياة القصف، فظلموا قصائد نخلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تبعه

القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسوها لهم وأصافوها إلى شعرهم . وزعموا هذا النوع : قيس بن الملوّح وليلاه، وقيس بن دريح ولئلاه .

وإبقاء عما وعدناك به مذكر زعيم كل نوع من هذه الأنواع مع ذكر ترجمته والمختار من شعره .

(١) الغزل الاباحي

عمر بن أبي ربيعة^(١)

« راقِ عمرُسُ أبى ربيعة السَّاسَ وفاءً تُطْرَأُهُ ورَّعَهُمْ سهولة الشعر وشذّه الأسر،
وحُسْن الوصف، ودقّة المعنى، وصواب المصنّدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الرّبع، وإطلاق

(١) هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، أشهر فريش وأرق أصحاب العزل، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب وصواب الله عليه ، وكانت أمه بصرية ، وكان أبوه تاجرا موسرا ، وعاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والحلّاء الثلاثة من بعده ، شرب في يوم وترب ، وقال الشعر صبورا ، وسلك فيه طريق العزل ، ووصف أحوال النساء وتراورهن ومداعسة مصعب بن النضر ، وما يعدد قوله من الكلام ، بما يتفرق الشعراء المفعول من الخوص فيه ، ولذلك لم يحملوا شعره وعدوه من هذيان حلّاء المدينة ، فما زال يخالج الشعر والشعر يقد له ، حتى ملك صاحبه ، وقص على رماحه ، ورّ الشعراء ، وقال رأيته المشهورة على طريقته المستكة وهي التي أولها

أمن آل هم أت عاد فكر * عداة عد أم رانح فمحر

والتي قال فيها حرّ حين سمعها . ما زال هذا القرشي يندى حتى قال الشعر .

ثم استطار شره في التشبّه بالنساء . من يهرجا ومن لا يهرجا ، وتعرض للصفات المتعفات من ساء قوله ومن غيره ، هو قص مسه في ملاء عظيم وصرن يحسن الخروج إلى الخج لأنه كان يتلقاها بمكة ، ويترب حروجهن للطواف والسبي ويصعبهن وهي محرمات . وحملت عليه رحلات فريش لمكاة مسه مبهم وتربق قوله وإفلاحة ، لها تجمادي في أمره وشب نبات السادات والحلّاء ، عصب عليه عمر بن عبد العزيز وهما إلى ذلك : (وهي حورية أمام مدينة مسوق) . ثم رأى ابن أبي ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالثورة والحلّاء هرا في الحر فاحترق السميمة التي كان فيها وأحرق هو أيضا سنة ٥٩٣ هـ وقد اقتنسا قصيدتين عن أبي الفرج الأصمعي وتحد ترجمته مطبوعة في الأغاني ج ١ ص ٦١ — ٢٤٨ (طبعة دار الكتب المصرية) والشعر والشعراء ص ٣٤٨ واس حلّكان (ج ١ ص ٢٧٨) والدميري (ج ١ ص ٢٢٦) والققد الفريد (ج ٣ ص ١٢٢) وله ديوان مطبوع في ليرج سنة ١٨٩٣ وفي مصر سنة ١٣١١ ومه مستغان حلّكان دار الكتب المصرية .

القلب، وحسن العزاء، ومخاطبه النساء، وعة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات المحبة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح العزل، ونهج العِلل. وعطف المساء على العُدال، وحسن التصنع، ونحل المازل، واحتصار الخبر، وصدق الصفاء، إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرأ، وإن تسكى أُنقى، وأقدم عن جبهه، ولم تغتدر بعزه، وأسر اليوم، وعم الطير، وأعد السير، وحير ماء الشبَاب، وسهل وقول، وقاس الهوى فأررى، وعصى وأعلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم بمات الرُّسل وحدّر، وأعل الحث وأسر، ووطن به وأظهر، وألح وأسف، وأبجح اليوم، وجنى الحديث وصرب طهره لبطيه، وأدلّ صمعه، وقيع بالرحاء من الوفاء، وأعل قاتله، وأستكى عادله، ونقص اليوم، وأعلق رهن يني وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله قصيحا.

من سهولة شعره وشدته أسره قوله :

لما توقفا وسلمتُ أشرقَتْ : وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تنقما
تباثنَ العِرفانَ لما رأيتُني * وقُلَّ أمرؤُ باعَ أَكَلٍ وأوصما^(٢)

ومن حُسْنِ وصيحه قوله :

لها من الرِّيمِ عيناها ولَفَتَتْهُ * ونحوهُ السابقُ المُختالِ إِدْ صَهلَا^(٣)

ومن دقة معناه وصوابِ مَصْدَره قوله :

عُومًا تُحْمِي الطَّلَلُ المُحْضِلَا^(٤) * والرَّيحُ مِن أَسْمَاءَ والمِدْرَا^(٥)
بَسَائِجِ البَوَايَا^(٦) لَمْ يَسُدَّهُ : تقادُمُ العهدِ نَأْيُ يُوَهِّلَا

(١) المراد من شدة الأبرها أحكام النسخ ومناة التركيب . (٢) أَكَلٍ . أعياء وأومع أمرع

في السير . (٣) الرِّيمُ . الطي . (٤) عروحا : فها . (٥) المَحوِلُ والمَحوِلُ : الذي أَمَت

عليه أحوال كثيرة صيرته . (٦) البَوَايَا : الصلاة واسم لصحراء أُرْسُ نهاية إذا حرمت من أطال

وادی النحلة الجمايقوى بلادى سدرى نكرى هوارى . (معجم البلدان لياقوت) .

ومن قصيدته للحاجة قوله :

أيها المكيحُ الثريا سبيلاً * عَمَرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هي شامية إذا ما استقلت * وسهيل إذا استقلَّ يَمَإِي

ومن استنطاقه الرع قوله :

سأتلُ الرع بالبلى^(١) وقولا * هَجَتْ شَوْقًا لِي الْعَدَاءَ طَوِيلًا
أبى حتى حلوك إدا أنت محفو * فُ بِهِمْ أَهْلُ أَرَاكَ جَمِيلًا
قال ساروا فامنعوا واستقلوا^(٢) * وبرغمي ولو وجدت سبيلا
سَمُّوْهُمَا وَمَا سَمَّيَا جَوَارًا * وَأَحْسُوا دَمَانَهُ^(٣) وَسُهولًا

قال إسحاق : أنشد حرير هذه الأبيات فقال : إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه .
ومن إعطافه القلب قوله :

قال لي فيها عتيق مقلًا * بعثرت مما يقول الدموعُ
قال لي ودّع سليمي ودّعها * فأجاب القلب : لا أستطيعُ

ومن حسن عزائه قوله :

أالحق إن دار الرباب تباعدت * أو أنت حلل ألق قلبك طائرُ
أفنى قد أفاق الماشقون وفارقوا^(١) ال * هوى واستقرت بالرجال المرائرُ^(٢)
زج العس واستيق الحياء فإما^(٣) * تباعد أو تُدني الرباب المقاديرُ
أيت حبها وأجمل قديم وصالحها * وعشترتها كمثل من لا تماشيرُ

- (١) هي الزيا آسة عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر من عدي بن مسهر بن عبد مناف الأموية . تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري رضي الله عنه ونقلها إلى مصر فقال عمر هذا الشر . (٢) التي — بصم وضع ويا . مثددة — تل قصير أسفل حادة بينها وبين ذات عرق (ياقوت) . (٣) استقلوا . واسلوا السير وسعدوا في الأرتحال . (٤) يقال : دثت الأرض دماناً . سهلت ولدت . (٥) اهت : أقطع . (٦) المراد أن الرجال قد أفاقوا واستحكمت عرائثهم وهو يريد أن يسلم سقوهم . (٧) دح المس ، أي أرحمها وكفها عن هواها .

وهبها كشيء لم يكن أو كزاج * به الدار أو من غيبتها المقابر
 وكالناس علقَت الرِّمات فلا تكن * أحاديث من يندوون من هو حاصر^(١)
 وهذه الأبيات يرويها بعض أهل المحازز لكثير، ويرويها الكوفيون للكثير من معروف
 الأسدي، وذكر بعضها الزبير بن نكر عن أبي عبيدة لكثير في أخباره .
 ومن حسن عزله في محاطة النساء — قال مُصعب الزُّبيري : وقد أجمع أهل بلدا
 ممن له علم بالشعر أن هذه الأبيات أُعزِل ما سَمِعوا — قوله :

تقول عَدَاةَ أَلْقِيَا الرِّمَاتُ أياذا أَقَلَّتْ أَفْوَالُ السَّمَاءِ
 وكَلَّتْ سَوَاقٍ مِنْ عَبْرِهِ * كما أَرْقَصَ طَلْمُ صَعِيفِ السَّلَاكِ
 فَكَلَّتْ لَهَا مَنْ يَطْلُعُ فِي الصَّبِيِّ قى أعداءه يَحْتَبِئُهُ كَدَاكِ
 أَعْرَكَ أَنْ عَصَبَتْ الْمَلَا * مَ فِكَ وَأَبْ هَوَا هَوَاكِ
 وَأَنْ لَا أَرَى لَنَّةَ فِي الْحَيَاةِ * تَقَرُّبُهَا الْعَيْنُ حَتَّى أَوَاكِ
 فَكَانَ مِنَ الدَّنِيِّ لِي عَدَمٌ * مُكَارَمَتِي وَأَتَّاعِي رِصَاكِ
 فَلَيْتَ الَّذِي لَأَمْ فِي حُبِّكَ * وَفِي أَنْ تُرَاوِي بَقْرِيْنَ وَقَاكِ^(٢)
 هُمُومَ الْحَيَاةِ وَأَسْقَامَهَا . وَإِنْ كَانَ حَتْفٌ جَهِيْزٌ هَدَاكِ

ومن عِفَّةٍ مقالِه قولُه :

طَالَ لَيْلِي وَأَحْزَانِي الْيَوْمَ سَقَمٌ * وَأَصَابَتْ مَقَاتِلَ الْقَلْبِ نَعَمٌ
 حُرَّةُ الْوَحْدِ وَالشَّمَائِلِ وَالْحَسُو * هِرْ تَكْلِيمُهَا لِمَنْ نَالَ عُمٌ
 وَحَدِيثٌ بِمَثَلِهِ نُزِّلَ الْعَصُ^(٣) * سَمِ رَحِيمٌ يَشُوبُ ذَلِكَ حِلْمٌ
 هَكَذَا وَصَفُ مَا بَدَأَ لِي مِنْهَا * لَيْسَ لِي بِالَّذِي تَغِيْبُ عِلْمٌ
 إِنْ تُخَوِّدِي أَوْ تُخْلِي مَحْمِدٌ * لَسْتُ يَا نَعَمُ فِيهِمَا مَنْ يَلْمُ

(١) أي من يقيم في السد والحصر . (٢) المراد به قرن المارل، وكثيرا ما يذكره في شعره .

(٣) حبيب . سرج . (٤) النعم : جمع أصعم وهو من الغمام والوعول ما في دواحيه ياص ،
 وهي تضمع مالا من الحمال .

ومن غلة أنتقاله قوله :

أيها القائل غير الصواب * أميك الصبح وأقل عتاي
وأحتبني وأعلم أن سقمي * ونحير لك طول أجتاني
إن قل نصحا من طهر عشي * دائم العمر بيد الدهاب^(١)
ليس في عي بما قلت إني * عالم أفقه رجع الحواب
إما قره عيني هواها * مدح اللوم وكنتي لماي
لا تلبي في الرأب وأنت * عدلت للنفس برد الشراب
هي والله الذي هو رب * صادقا أحلف غير الكتاب
أكرم الأحياء طرا عينا * صد قريب مهم وأجتاب
حاطني ساعة وهي تبكي * ثم عزت حلي في الخطاب
وكنتي في مديرتها لخصوم * لسواها صد حد تباني^(٢)

ومن إشارته الحمدة قوله :

حليل بعض اللوم لا ترحلا به^(٣) * رفيقا حتى تقول على علم
حليل من يدف متأخر كالدي * كلفت به يذمل فؤادا على سقيم^(٤)
حليل ما كانت تصاب مقاتلي * ولا عيرني حتى وقعت على عيم
حليل حتى لف حلي بجادج^(٥) * موق إذا برمي صبود إذا برمي
حليل لو يرق خليل من الهوى * رقيت بما يذني النوار من الضم^(٦)
حليل إن باعدت لاث وإن أل * تباعد فلم أنبل بحرب ولا سلم^(٧)

(١) العمر (تكرم العين) : الحقد والغل . والعمر (فتح العين) : الماء الكثير ، وكلا المعنيين يجمعه البيت

(٢) عدلت ساوت . (٣) أي علمتي صدقتي في الخطاب قال تعالى : (وعرني في الخطاب)

(٤) يريد : حتى عال لكل صم سواها إلى حد هلاك . (٥) يقال : رجل طلاقا لما يكر

والمراد أنه ينقله باسمه إياه . (٦) يذمل : يظلم . قال في اللسان : ويقال : أذمل القوم

أي أطروهم على ما هم . (٧) يعني هذا عن الوقوع في شركها . (٨) الوار : النارة من الطاء .

(٩) لم أنبل : لم أصب ، أو لم أحسر الزم .

ومن ترجيعه الشك في موضع اليقين قوله :

طُرتُ إليها بالْمُحْصَبِ مِنْ مِيٍّ * ولي طُورٌ لولا التحْرِجُ عَارِمٌ^(١)
 فملت . اشمسُ أم مصابيحُ بَيْعِهِ * بدت لك حَلَفَ السَّجِيفِ أم أنب حالمٌ^(٢)
 بعيدةٌ مَهْوَى القُرْطِ إقنا لوفيل * أسوها وإما عبدٌ شمسٍ وهائِمٌ^(٣)
 ومدَّ عليها السَّحَفُ يَوْمَ لِقَيْهَا * على تَحْلِيلِ تَنَاعُهَا والخَوَادِمُ
 فلم استظفها غيرَ أبٍ قد بدا لنا * عشيةً راحت وحُجُها والمعاصِمُ
 معاصِمٌ لم تُضْرِبْ على البَهِيمِ الصُّحَى^(٤) * عصاها ووحدهُ لم تلحه السَّيِّمُ^(٥)
 نُصَارَتَرَى فيه أسارىعُ مائه * صَبِيحٌ تُنَادِيهِ الأَكْفُ السَّوَاعِمُ
 إذا مادعتُ أزهارها ما كُتِفَتْهَا * تَمَاطِلُنَ أو مالتَ هُنَّ المَآكِمُ^(٦)
 طَلَبْتُ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا أَصْبَنَتْهُ * رَغَبَنَ وهنَّ المسلماتُ الطَوَالِمُ^(٧)
 ومن طَلَّاهُ أَهْدَارُهُ قوله :

عَاوَدَ الْقَلْبَ مَعْنًى مَا قَدْ شَهِاهُ * من حبيبٍ أُمَمَى هَوَا مَا هَوَاهُ
 بِالْقَوَى فَكَيْفَ أَصْدُرُ عَنْ * لَا تَرَى الْفَسْ طِبَعَ عَيْشٍ مَوَاهُ
 أُرْسِلْتُ إِذْ رَأْتُ بِعَادَى آلَا * يَقْلُنَ فِي عَجْشِ ابٍ أَنَاهُ^(٨)
 دُونَ أَنْ يَسْمَعَ الْمَقَالَةَ مَا * وَلِيُطْعِمِي فَإِنْ عَدَى رِصَاهُ
 لِأُطِيعَ بِي قَدْتِكَ مَعْنَى عَدُوَا * لِحَدِيثٍ عَلَى هَوَاهُ أَفْئَرَاهُ
 لَا يُطِيعُ بِي مَنْ لَوْ رَأَى وَإِيَا * لَكَ أَسِيرَى صُرُورَةٍ مَا عَاهُ
 مَا صِرَارِي مَعْنَى يَجْعَلِي مَنْ لِي : * مِنْ مُسِيدَةٍ وَلَا مَعِيدَةٍ^(٩)
 وَأَحْتَابِي بَيْتَ الْحَبِيبِ وَمَا خَلَّ .. لَدُنَّ مُنْتَهَى إِلَى مَنْ أَنْ أَرَاهُ

(١) ماد : حاذق . (٢) السحب . السَّر . (٣) كناية عن طول العنق ، وبه مصر في المثل
 السائر (طبعة بولاق ص ٣٨٣) . (٤) البهم جمع بهمة ، وهي الصمير من أولاد الصان والمهر والغفر
 (٥) لم تلحه . لم تبهره . (٦) أسارع الماء طراقة ، والمراد أنه يترقق منه ماء الشاة
 (٧) المآكم جمع مأكمة وهي الصخرة . (٨) المحرّش المعري ، من التحريش وهو الاعراء والامصاد .
 (٩) التري . الحير .

ومن نَهَجِه الْعَلَّالَ قَوْلُهُ :

وَأَيَّةُ ذَلِكَ أَنْ تَسْمَعِي * إِذَا جِئْتُكُمْ نَاشِدًا يَنْشُدُ
فُرْحَنَا سِرَاعًا وَرَاحَ الْهَوَى * دَلِيلًا إِلَيْهَا بِنَا يَقْصِدُ
فَلَمَّا دَبُّوا بِالْحَرَسِ^(١) النَّاسِ * ح وَالصَّوْتِ، وَالْحَيُّ لَمْ يَرْقُدُوا
عِشًّا لَهَا دَاغِيًا نَاشِدًا * وَحَى الْحَيَّ بُغْيَةً مِنْ يَنْشُدُ

ومن فَتَحَه الْفَزَلَ قَوْلُهُ .

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعَشْقِي وَلَمْ تَدْرِ مَا أَهْوَى * فَكُنْ حَمْرًا مِنْ يَاسِ الصَّغَرِ حَلَمَدًا
وَمَنْ عَطَفَهُ الْمَسَاءَ عَلَى الْمُدَّالِ قَوْلُهُ :

لَا تَلْمِئِي عَيْتِقُ حَسَنِ الدِّي بِي * إِنْ نِي يَاعْتِيقُ مَا قَدْ كَفَّي
لَا تَلْمِئِي وَأَنْتِ زَيْنَتَا لِي * أَنْتِ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

ومن حُسِّنَ تَعَجُّمَهُ قَوْلُهُ :

هَجَرْتُ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ عَيْرٍ مَا أَحْتَرَمُ * وَقَطَعْتَ مِنْ ذِي وَدَّكَ الْجَبَلَ فَاغْرَمُ
أَطْلَعْتُ الْوُشَاهَ الْكَاشِعِينَ وَمَنْ يُطْلَعُ * مَقَالَةً وَأَيْشَ يَقْشَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمُ
أَنَا نِي رَسُولُ كُتِّ أَحِبِّ أُمِّهِ * شَهِيقُ طَيْبَا مَاصِعُ كَالَّذِي زَمُ
فَلَمَّا تَنَاقَشَا الْحَدِيثَ وَصَرَحْتَ * سَرَّارُهُ عَنْ بَعْضِ مَا كَانَ قَدْ كَتَمُ
تَبَيَّنَ لِي أَنَّ الْمُحَرَّشَ كَادَبُ^(٢) * فَصَدَى لِكَ الْعُتْبَى عَلَى رَغَمٍ مِنْ رَغَمُ
فَلَا نَ لِمْتُ الْفُحْشَ مَعْدَ الَّذِي مَعَى * وَهَذَا الَّذِي آلَتْ وَأَلَيْتُ مِنْ قَسَمُ
طَلَمْتُ وَلَمْ تُعْتَبْ وَكَانَ رَسُولُهَا * إِلَيْكَ سَرِيعًا بِالرَّصَا لَكَ إِذْ ظَلَمُ

(١) الحرس الصوت . (٢) ن الحديث . إنشائه . (٣) المحرّش : المعري ، يقال :

حرّش من القوم . أفسد بهم .

ومن تبخيله المنازل قوله :

ألم تسأل الأطلالَ والمترنما * يبطن حليات دوارس لققا^(١)
إلى السرح من وادي المغمبس^(٢) بذلت * معالمها وتلا وصغاء زعزعا^(٣)
فيختل أو يُحبرن^(٤) بالعلم مدما * نكأن قوادا^(٥) كان قندما ممعما

ومن اختصاره الخبر قوله :

أيس آل نعيم أنت عايد مُعكر * عداة عيد أم رايح مُهجر
بحاجة نيس لم تَقُل في جوابها * فتبلغ عنرا والمقالة تُعذر
أشارت بمنذراها وقالت لتزيها * أهذا المُقبري الذي كان يذكُر
لئ كان إياه لقد حال مدنا * عن العهد والإنسان قد يتغير

قال الرّيب حذني إسحاق الموصلي قال : قلت لأعرابي : ما معنى قول أن أرى ربيعة :

بحاجة هيس لم تَقُل في جوابها * فتبلغ عنرا والمقالة تُعذر^(٨)

فقال : قام كما جلس .

ومن صديقه الصماء قوله :

كل وصل أسمى لديك لأنتي * غيرها وصلها إليها أدا
كل أنتي وإن دنت لإصالي * أو نأت قهي للرباب الصدا

- (١) حليات (بمعن الحلة المهمة وضح اللام وتشديد الياء) : اسم موضع ذكره الكري وياقوت ولم يبياه ، ولعله موضع قرب مكة قريبة ذكره مع الحمس الوارد في البيت بعده . (٢) السرح : موضع قرب الحمس (تشديد الميم وفتحها كما في ياقوت ، وسطه الكري في محله بكسر الميم وتشديدها) . موضع قرب مكة في طريق الطائف ، مات فيه أبو رغال وقره يرسم لأنه كان دليل أروحة صاحب العيل . (٣) الكاء : الريح التي تكب عن مهاب الرياح . (٤) يقال : ريج رصع ، أي شديدة ، وكذلك رعاوع ورصروع . (٥) يقال : مكأ الحرج : فشره قل أنت يهتم . (٦) المدري والمدرة : حديدة يحك بها الرأس . (٧) أي هي في حاجة من السر لا يحاب عليها إذا سئل عنها ، والإعذار . هي المدر . (٨)

وقوله :

أَحِبُّ لِحُبِّكَ مَنْ لَمْ يَكُنْ • صَبِيحاً لِمَسَى وَلَا صَاحِباً
وَأَبْدُلْ مَالِي لِمَرْصَاتِكُمْ • وَأَعْيَبْ مِنْ حَاءِكُمْ عَاتِباً
وَأَرَعُ فِي وَدِّ مَنْ لَمْ أَكُنْ • إِلَى وَدِّهِ قَلْبَكُمْ رَاعِباً
وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي حَافِي • مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَتْ حَانِباً
لِيَجْمَعْتُ طِبْطِبَهَا^(٢) إِنِّي • أَرَى قُرْبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِباً

ومما قَدَحَ فِيهِ فَأَوْرَى قَوْلُهُ :

طَالَ لَيْلِي وَتَمَازَى^(٣) الْعَاسِرُ^(٤) • وَأَعْتَزَى طَوْلُ مَمٍّ وَوَصَنَ
أَرْسَلْتُ أَسْمَاءَ فِي مَعْتَبَةٍ • عَتَبَتْهَا وَهِيَ أَحْلَى مِنْ شَتَبَ
أَنْ أَنَّى مَهَا رَسُولٌ مُوَهَّباً • وَحَدَّ الْحَيَّ نِيَاماً فَأَنْقَلَبَ
صَرَبَ السَّاتِ فَلَمْ يَنْعُرْ بِهِ • أَحَدٌ يَفْتَحُ مَا إِذَا صَرَبَ
قَالَ : أَبْقَاظُ، وَلَكِنْ حَاحَةٌ • عَرَصَتْ تُكْنِمُ مَا فَاحِصَةٌ
وَلَعَمْرَاؤُا رَدِّي، فَاحْتَبَدْتُ • بَيْنَ حَلْفَةٍ عَدَدِ الْغَضَبِ
يَسْهَدُ الرَّحْمَنُ لَا يَجْمَعُهَا • سَقَفَ بَيْتِ رَحَا مَعْدَرَجَ
قُلْتُ جَلًّا فَأَقْبَلَ مَعْدِرِي • مَا كَذَا يَجْرِي يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ
إِنْ كُنِيَ لَكَ زَهْنٌ بِالرِّصَا • فَأَقْبَلَ يَاهِدُ، قَالَتْ قَدُوحَتْ

قالوا ومن شعره الذي اعتلر فيه فأرأى قَوْلُهُ :

فَأَلْتَقِيَا فَرَحَتْ حِينَ سَلَّمَ • سَتُوكَفَّتْ دِمْعَا مِنْ الْعَيْنِ مَا رَأَى^(٥)
ثُمَّ قَالَتْ عَدَّ الْبَتَابِ رَأَيْتَا • مَسَكَ عَمَّا تَحَلُّدًا وَأَزْوَرَأَ^(٦)

(١) يقال • أعته إذا أعطاه الشيء وأرضاه • (٢) طيبها • ناحيتها ونصيدها • (٣) تمازى

أوقضى في الماء • (٤) الطرب • حقة ترمى الإنسان عدسة الفرح أو الحزن والميم • (٥) الموهن

بحسب وصف الليل • (٦) مار • جرى وسال • (٧) الازورار : الإهراس •

قُلْتُ كَلَّا لِأَنَّهُ أَرُوعَ بِلِجْفٍ * سَا أَمُورًا كَمَا هِيَ أَعْمَارًا^(١)
 بَعْلَمَا الصَّدُودَ لَمَّا حَثَبَا * قَالَةَ السَّاسُ لِلْهَوَى أَسْتَارَا
 لَيْسَ كَالْعَهْدِ إِذْ عَهِدْتُ وَلَكِنْ * أَوْقَدَ السَّاسُ بِالنِّيمَةِ مَارَا
 فَلَذَلِكَ الْإِعْرَاضُ عَلَيْكَ وَمَا آ * ثَرَقَلِي عَلَيْكَ أُخْرَى اخْتَارَا
 مَا أَنَا بِي إِذَا الْوَى قَرَّبَتْكُمْ * فِدْوَتُمْ مَن حَلَّ أَوْ مَن سَارَا
 فَالْيَالِي إِذَا تَأَيَّبَ طِلْوَالُ * وَأَرَاهَا إِذَا قُرْبَتْ قِصَارَا

وَمَنْ تَسْتَكْبِهَ الَّذِي أَتَجَبَّى بِهِ قَوْلُهُ .

لَعَمْرُكَ مَا حَاوَرْتُ عُمْدَانُ طَائِفًا * وَقَصَرَ شَعُوبُ^(٥) أَدْ أَكُونَ بِهِ صَبَا
 وَلَكِنْ حُمِّي أَضْرَعْتِي ثَلَاثَةً * مُحَرَّمَةٌ ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ بِهَا عِبَا^(٨)
 وَحَقِّي لَوْ أَنَّ الْخُلْدَ يَغْرِضُ إِنْ مَسْتُ * إِلَى الْبَابِ يَحُلِي مَا نَقَلْتُ لَهَا إِرْبَا^(٩)
 فَإِنَّكَ لَوْ أَصْرَتَ يَوْمَ سَوْفِيهِ * مُنَانِي وَحَبْنِي الْعَيْسُ دَامِيهِ حَدَا^(١٠)
 وَمَضَرَغٌ إِخْوَانٌ كَانُوا أَنْبَنَهُمْ * أَيْسُ مَكَارِي فَارَقْتُ لَهَا يَخْضَا^(١٢)
 إِذَا لَأَقْشَعَرَّ الْخُلْدُ مَيْكَ صَبَاةً * وَلَا اسْتَفْرَعْتَ عَيْبَاكَ مِنْ عَمْرِي سَكَا

وَمَنْ إِقْدَامِيهِ عَنِ حِزْبِهِ وَلَمْ يَتَدَّرْ بِعَمْرِي قَوْلُهُ :

صَرَمْتُ وَوَأَصَلْتُ حَتَّى عَرِدَ * سَتُ أَيْنَ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبْتُ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرِدَ * سَتُ مَا أَتَوَقَّى وَمَا أَعْمَدُ

(١) لاه بمعنى لله . (٢) العبر (صم المين وصحوا مع سكون الميم ، ولاحين ، وفتح فكسر)

المرحاض الذي لم يجزب الأمور . (٣) أي ليس الأمر كما تصهدين من قبل .

(٤) عمدان قصر يمين ماه « يشرح ر يصب » . (٥) فصر شعوب قصر عال مرتفع باليمن

(٦) أضرضى . أصمضى وأدلى . (٧) محزومة كسطة . تامة ، يريد ثلاثة أحوال كاملة .

(٨) الف من الحى ما تأخذ يوما وتذع يوما . (٩) أي ما حركت له عصا . (١٠) سويقة .

موضع . (١١) حلدا جمع حداء ، وأصل الخلد ما أرتفع من الأرض ، يريد أنه أعبأها السير وهي دامية

متقوسة الطهور هن الال . (١٢) المكاري : جمع مكاء ، وهو طريقه الفة إلا أن في حياجه لقا ، وهو حسن

الصوت في تعريده .

ومن أسيره اليومَ قوله .

نام صحبي ومات بوي أسيرا * أرقب الجَمَ مؤمها أن يغورا

ومن عمه الطيرَ قوله :

فُرْحًا وَقَدْ لِلْفَلَامِ أَقْبَضَ حَاحَةً .. لَأَنْتُمْ أَدْرِكُنَا وَلَا نَنْفِرُ^(٢)

سِرَاعًا نَمُّ الطَّيْرَ إِنْ سَحَتْ لَأَنْتُمْ^(١) . وَإِنْ تَقَفَ الرُّجَانُ لَا تَنْفِرُ^(٢)

تَنْفِرُ مِنْ قَوْلِهِ : غَيْرَ فُلَانٍ ، أَيْ لَيْتَ .

ومن إعداده السيرَ قوله :

قُلْتُ سِيرًا وَلَا تُجِيئَا سُورِي^(٤) * وَخَفِيرٌ هَذَا أَحَبُّ خَفِيرًا^(٥)

وإِذَا مَا مَرَرْتُمَا بِمَعَابِ^(٦) * فَأَقْبَلَا بِهِ التَّوَاءَ وَسِيرًا^(٦)

إِنَّمَا قَصْرُنَا إِذَا حَسَرَ السَّبِي^(٧) : رُحْمًا أَوْ تَسْتَحْدُ بَعِيرًا^(٨)

ومن تخييره ماءَ الشباب قوله :

أَبْرُرُوهَا مِثْلَ الْمَاهِ تَهَادَى * بَيْنَ تَحْمِيسٍ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ

ثُمَّ قَالُوا نَحْبُهَا قُلْتُ تَهَرَّا * عِدَّةَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتَّرَابِ

وهي مَكُونَةٌ تَحْيِرُ مِنْهَا * فِي أَيْدِيهِمُ الْخَلْدِي مَاءُ الشَّابِ

ومن تقويله وتُسبيله قوله :

قَالَتْ عَلَى رِقْبَةٍ يَوْمًا لِحَارَتِهَا * مَا تَأْمُرِينَ فَإِنَّ الْقَلْبَ قَدْ تَبَيَّلَا^(٩)

وَهَلْ لِي الْيَوْمَ مِنْ أُخْتٍ مُوَاحِدَةٍ * مَكَّنْ أَشْكُو إِلَيْهَا مَعْصَ مَا فَعَلَا

(١) لعله يريد . بحرها بالسق ، أو مبرها وعلها ، من قولهم . عم القدر الحوم : مبرها وكاد يستر صوبها .

(٢) التصر : السؤال عن الخبر . (٣) أعد السير وأعد فيه . أسرع . (٤) صري طه الشام .

(٥) حير : هرب بالأردن ملاد الشام . (٦) معان : مدية في طرف مادية الشام خلفاء الحار من واحة

البقاء . (٧) قصرا ، أي قصارا وعلها . (٨) حسر السير بيرا . أحهد وأجها .

(٩) المتول : من أسقمه الهوى وعلها الحب على أمره .

فراجعتها حَصَانٌ عَيْرُ حَاشِيَةٍ * رَجَّحَ قَوْلِي وَلُبٌّ لَمْ يَكُنْ خَطِلًا ^(٣)
 لَا تَذْكُرِي جَبَّهَ حَتَّى أُرَاجِعَهُ . إِنْ سَأَلْتِ كَيْفَ لَمْ أَمُتْ عَجَلًا
 فَأَقْبَى حَيَاكِ فِي مِثْرِي وَكَرِيم * فَلَسْتُ أَوَّلَ أَمْرٍ عُلِّقَتْ رَحْلًا ^(٤)
 وَأَمَّا مَا قَاسَ فِيهِ الْهُوَى فَقَوْلُهُ :

وَقَرَّبَ أَسْبَابَ الْهُوَى لِنَسِيمٍ يَقْبِسُ دِرَاعًا كَلَّمَا قَسْنُ إِصْبَعًا
 وَمِنْ عِصْيَانِهِ وَإِحْلَاثِهِ قَوْلُهُ :

وَأَهْضَمَ الْمَطْيَئَ يَنْتَمِنَ بِالرُّكْدِ * بِ سِرَاعًا نَوَاعِمَ الْأَطْعَامِ ^(٥)
 فَمَصِيدُ الْغَرِيرِ مِنْ قَرَالُوحٍ * شَوْ وَلَهُوَ لَذَّةُ الْفِتْيَانِ ^(٦)
 فِي زَمَانٍ لَوْ كَسَبَ فِيهِ صَحْبِي * غَيْرَ شَكٍّ عَرَفْتُ لِي عِصْيَانِي
 وَتَقَلُّبِي فِي الْعِرَاشِ وَلَا تَذْ * رَيْنَ إِلَّا الطُّنُونَ أَيْنَ مَكَانِي
 وَمِنْ مَخَالَفَتِهِ بِسَمْعِهِ وَطَرَفِهِ قَوْلُهُ :

تَمَيَّنِي وَطَرَفِي حَلِيفَاهَا عَلَى جَسَدِي * فَكَيْفَ أَصْبِرُ سَمْعِي وَعَيْنَ تَصِيرِي
 لَوْ طَاوَعَانِي عَلَى إِلَّا أَكَلَهَا * إِنَّا لَقَصَصْتُ مِنْ أَوْطَارِهَا وَطَرِي
 وَمِنْ إِمْرَانِهِ هَتَّ الرِّسْلِ قَوْلُهُ :

فَبَعَثْتُ كَاتِمَةَ الْحَدِيدِ * بِ رَقِيقَةٍ بِحَوَائِهَا
 وَحَشِيَّةَ إِنْسِيَّةٍ * نَرَاةً مِنْ مَائِهَا
 فَرَقَّتْ مَسْهَلَتِ الْمَعَا * رُصٌّ مِنْ سَبِيلِ قَهَائِهَا
 وَمِنْ تَحْذِيرِهِ قَوْلُهُ :

لَقَدْ أَرْسَلْتُ حَارِيقِي * وَقُلْتُ لَهَا حُنْدِي حَذَرَكَ
 وَقُولِي فِي مُلَا طَفَقَةٍ * لَرَيْبَ نَوَلِي عُثْرَكَ

(١) حصان - حبيبة . (٢) الخطل : العاصد المصطرب . (٣) اقْبَى حَيَاكِ : الزمى .

(٤) نَصَ الْمَطْيَئَ : استعرج أقصى ما عدها من السير . (٥) الْغَرِيرِ الْعَاطِل .

إِنْ دَاوَيْتَ ذَا سَقَمٍ * فَأَحْرَىٰ اللَّهُ مِنْ كَعْرِكَ

مَهَزَّتْ رَأْسَهَا عَجَبًا * وَقَالَتْ مَنْ بَدَأَ أَمْرَكَ

أَهَذَا يَخْرُكُ النَّسَا * نَ، قَدْ حَرَّيْتُ حَرَّكَ

وَقُلْتُ إِذَا قَعَىٰ وَطَرًا * وَأَذْرَكَ حَاحَةَ هَجْرِكَ

ومن إعلانه الحب وإسراجه قوله :

شَكَوْتُ إِلَيْهَا الْحَبَّ أَطْلُ بَعْضَهُ * وَأَخْمَيْتُ مِثْلَهُ فِي الْعَوَادِ عَلِيلًا

ومما أطل فيه وأطهر قوله :

حُكِّمَ يَا آلَ لَيْلَى قَانِي * طَهَرَ الْحَبُّ بِجَسْمِي وَبَطْنِ

لَيْسَ حَبٌّ هَوَىٰ مَا أَحْبَبْتُكُمْ * عِزٌّ أَنْ أَقْتُلَ هَمِي أَوْ أُحَرِّقُ

ومما ألح فيه وأسف قوله :

لَبَّ حَقْلِي كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ مِنْهَا * وَكَثِيرٌ مِنْهَا الْقَلِيلُ الْمُهْتَ

أَوْ حَدِيثٌ عَلَى خَلَاءٍ يُسَلَّى * مَا يُجِشُّ الْعَوَادُ مِنْهَا وَمَا

كَبُرَتْ رَبِّ رَحْمَةً مَكَ يَوْمًا * أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ الْمَحَابِ وَمَا

ومن إنكاحه اليوم قوله :

حَتَّىٰ إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ طَلَامُهُ * وَطَرْتُ عَقْلَهُ كَاثِمٌ أَنْ يَغْفَلَ

وَاسْتَنَجَحَ الْيَوْمَ الدِّينَ نَحْمَاهُمْ * وَسَقَى الْكَرَى تَوَابَهُمْ فَاسْتَقْبَلَا ^(١)

نَحْرَحْتُ تَأَطَّرُ فِي الثِّيَابِ كَانَهَا * أَيْمٌ يَسِيهُ عَلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَا ^(٢)

ومن جبه الحديث قوله :

وَجَوَارِ مُسَاعِمَاتٍ عَلَى اللَّهِ * وَوُسْرَاتٍ مَاطِي الْأَصْفَانِ

صَيْدٌ لِلرَّجَالِ يَرْتَشِقْنَ بِالطَّرِ * فِي حِسَانِ كُحْدَلِ الْغِزْلَانِ ^(٣)

(١) يقال : أغمله اليوم فهو مستغل صبيحة المفعول . (٢) تأطرها أنه تأطر بعدت إحدى تاتيه ومعناه

تنشئ . والأيم : الأضي . ويسى : يمشي . والكتب الأهل . الرمل المبال . (٣) الحذل : جمع

حادل وهي الطية تلعب هي صواحيبها أو أولادها .

قد دَعَانِي وقد دَعَا^١نَ لَلَّهِ * وَتُجِبُونُ مُهِمَّةَ الْأَتْمَحَانِ
فَأَجْتَبَيْتُمَا مِنَ الْحَدِيثِ ثِمَارًا * مَا جَنَى مِثْلَهَا لِعَمْرُكَ حَانِي
ومن صرّيه الحديث طهره لعلّه قوله :

وِي حَلَاةٍ مِنَ الْأَيْبِ وَأَتَيْ * فَبَثْنَا عَلَيْنَا وَأَشْتَبَيْتَا
وَصَرَبْنَا الْحَدِيثَ طَهْرًا لِبَطْنِ * وَأَتَيْنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا أَشْتَبَيْتَا
فَكُنَّا بِدَاكِ عَشْرِ لَيَالٍ * فَمَصَبِيهَا دِيوَسًا وَأَقْتَصَبَيْنَا

ومن إذلاله صعب الحديث قوله :

هَلَا أَفْصَا فِي الْمَوَى نَسْتَبِيهِ * وَعَادَ لَنَا صَعْبُ الْحَدِيثِ ذُلُولًا
شَكُوبُ إِلَيْهَا الْحُبُّ أَظْهَرُ مَصَبِهِ * وَأَخْفَيْتُ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ غُلِيلًا
ومن قناعه بالرحاء من الوفاء قوله :

فَعِدَى مَائِلًا وَإِنْ لَمْ تُبَيِّلِ * إِنَّهُ يَفْعُ الْحُبَّ الرَّحَاءُ

قال الرير : هذا أحسن من قول كثير :

وَلَسْتُ بِرَاصٍ مِنْ حَلِيلٍ سَائِلٍ * قَلِيلٌ وَلَا أَرْضَى لَهُ بِقَلِيلٍ

ومن إعلانه قاتله قوله :

فَبَعَثْتُ جَارِيِي وَقُلْتُ لَهَا أَدْهِي * فَأَشْكِي إِلَيْهَا مَا عَلِمْتَ وَسَائِي
فُقُولِي يَقُولُ تَحْرِيصِي فِي عَاشِي * كَلِّفَ بِكُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ مُنِيمٌ
وَيَقُولُ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ بِأَنْكُمْ * أَصْبَحْتُمْ يَا بَشَرُ أَوْجَهَ ذِي دِمٍ
فُكِّي رَهِيئَتَهُ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلِ * فَأَعْلِي عَلَى قَتْلِ أَبِي عَمَكَ وَأَسْلَمِي
فَنَضْحَاكُتُ عَجَبًا وَقَالَتْ حَقُّهُ * أَلَا يَسْأَلُنَا بِمَا لَمْ تَعْلَمِ

(١) أى مثيرة الأتْمَحَانِ . (٢) أى كفى من المخرج واللام .

(٣) أى أحق إنسان أحد من مدى .

علمي به والله ينفرُ ذنبه * فيما بدا لي ذوهوى متقيماً
طريف يازعه الى الأدنى الهوى * ويئتُ خلة ذى الوصالِ الأقدم^(١)

ومن تميمه اليوم قوله :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم وأطعنتُ - مصابيحُ شُبتْ بالعشاء وأنور
وعابُ قمرٍ كستُ أرجوعيوته * وروحُ رُعبٍ و يومٌ سمر^(٢)
وهضتُ عني اليومَ أقلتُ مشيةً الـ - حجابُ ورُكني حشبة القوم أنور^(٣)

ومن إعلانه رهن مبي وإهداره قتلاه قوله :

هكم من قتيلى ما بئسَ به دمٌ * ومن عليّ رهماً إذا لقه مني^(٤)
ومن مالي عيبه من شيءٍ عيره * اذا راح نحو الجثرة البيض كالدمي^(٥)
وكان بعد هذا كله نصيباً شاعراً مقولاً^(٦) :

ومن شعره المشهور قوله :

أمن آلِ نعيمٍ أنتَ طايءٌ فبيكرُ * عداةٌ عيدٌ أم رائجٌ فهججرُ
لحاجةٍ فليس لم تقبل في جواها * فتبلغُ عُدراً والمقالة تُمذِرُ
أشارتُ بمذراها وقالت لأحتيا * أهدا المعيرى الذى كان يذكرُ^(٧)
فقلتُ نعم لا شك غيرَ لونه * سرى الليل يطوى نصه والتهجُرُ
رأتُ رجلاً أنا إذا الشمسُ عارضتُ * فيضحي وأما بالعيشي فيخصرُ

(١) الطرف من لا يشت على امرأة ولا صاحب . (٢) رتوح من الرواح وهو وقت العشي . والرياح :

جمع راع كالرعاة والراعى والراعى . وروم الرجل تويماً مالة في نام . (٣) الحباب : الحية . وأرور

كأحس . مائل من دوريرور إذا مال . (٤) يقال : أباة القاتل بالقتيل : قتله به ، والمرادها : حكم

من قتل بطل دمه ولا يؤخذ له ثأر . (٥) يقال : علق الرهن في يد المرتهن يطلق طلقاً . لم يقدر

الراهن على احتكاكه في الوقت المشروط . يريد : وكل من قلوب أسيرة لا يقدر أصحابها على احتكاكها .

(٦) الدمى : جمع دمية وهي الصورة المقتسة من الطاح وبحوه . (٧) المقول : الحسن القول المصحب المين .

(٨) صر السرى : إسراره ، وأصله حث الهداة واستخراج أقصى ما عندها من السير .

أحاسف جَوَابَ أَرْضٍ تَهَافُثُ . به طَوَاتُ فَهَوَ أَشْمَتْ أَفْهَرُ
 قَلِيلًا عَلَى ظَهَرِ الْمَطِيَّةِ ظِلُّهُ . يَسُوى مَا قَتَى عَهَ الرِّدَاءِ الْخُبَرُ^(١)
 وَأَعْبَهَا مِنْ عَيْشِهَا طِلُّ عُرْفَةٍ . وَرَيَانُ مُلْتَفِ الْحَدَائِقِ أَخْصَرُ
 وَوَالٍ حَكْفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا . فَلَيْسَتْ لَشَيْءٍ آخَرَ اللَّيْلِ تَسَهَرُ
 وَلَيْلَةُ دَى دَوْرَانَ جَشْمَتْنِي السَّرَى^(٢) . وَقَدْ يَحْتَمُّ الْهَوَلُ الْحُبُّ الْمَعْرُورُ^(٣)

ومن شعره قوله في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندي :

تَشِطُّ غَدَا دَارُ حَيْرَانِنَا . وَلَلدَّارُ بَعْدَ عِدِّ أَسْدُ^(٤)
 إِذَا سَلَكَتْ عَمْرُ ذِي كِنْدَةٍ . مَعَ الرَّكِّ قَصْدُهَا الْفَرَقْدُ^(٥)
 وَحَثَّ الْحُدَاةُ بِهَا صِيرَهَا . سِرَاعًا إِذَا مَا وَنَتْ تُطْرِدُ^(٦)
 هَالِكًا إِمَّا تُمَزَّى الْغَوَادُ . وَإِنَّمَا عَلَى لَأْمِهَا تَحْكُمُ^(٧)
 وَلَيْسَتْ بِسَدِجٍ إِذَا دَارَهَا . نَاتٍ وَالْعَزَاءُ إِذَا أَجْلَدُ
 صَرْمَتْ وَوَاصَلَتْ حَقِي طَلَمُ . تُتْ أَيْنِ الْمَصَادِرُ وَالْمَوْرِدُ
 وَجَرَّبَتْ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى عَرَفُ . مَتُّ مَا أَتَوَقَّى وَمَا أَحْمَدُ
 فَلَمَّا دَتُونَا بِالْجَرَسِ الْبَا^(٨) . جِجْ وَالضُّوْءُ وَالْحَيُّ لَمْ يَرْقُدُوا
 نَائِبًا عَنِ الْحَيِّ حَتَّى إِذَا . تَوَدَّعَ مِنْ نَارِهَا الْمَوْقِدُ^(٩)
 وَبَامُوا مَعْتَنَا لَهَا مَائِدًا . وَفِي الْحَيِّ يَغِيَّةُ مِنْ يَشِدُّ^(١٠)

(١) الخمر : الخمر المحس . (٢) دو دوران — هتج أوله بعد الوارداء مهملته وآخر

نود — : موضع بين قديد والحفة (ياقوت) . (٣) أى كلمتى السير ليلًا .

(٤) تشط تبع . (٥) عمر ذى كندة . موضع وراء واحة بينه وبين مكة مسيرة يومين .

(٦) كذا في ديوانه ، وفي الأغانى « الصبح » . (٧) الفرقد : شحان في السهام من بحوم الدب الأصغر

وهي في الشمال ، ويقال لها : الفرقد بالإيراد ، والفرقدان بالثنية . ولعله يريد أنها تسير به ، لأن العراق التي

تقصده في الشمال الشرقي من مكة . (٨) الحداة : جمع حاد وأصله المعنى للال لتشط في السير ، وقد يراد به

الزاجر والسائق . والبعر : الإبل ، ولا واحد له من لفظه . ووت : صنعت وتطاعت . وتطرد . فساق .

(٩) الجرس : الصوت . (١٠) تودع . سكنت ماره وأطاعت .

أَتَيْتُهَا تَهَادَى عَلَى رِقَبَةٍ ^(١) * من الخوف أحشاؤها تُرْعِدُ ^(٢)
 تَقُولُ وَتُظْهِرُ وَحْدًا سَا ^(٣) * وَوَحْدَى وَإِنْ أَطْهَرْتُ أَوْحَدُ
 لَمَّا شَقَايَ تَلَقُّكُمْ ^(٤) * وَقَدْ كَانَ لِي عَمَّ مَقْعَدُ ^(٥)
 وَكَفَّتْ مَسَاقِي مِنْ عَنِي * عَلَى الْحَدِّ حَالُهَا الْإِمْدُ ^(٦)
 فَإِنَّ الَّتِي تَبِعَتْنَا الْغَدَاةَ * مَعَ الْفَجْرِ قُلِي هَاهُنَا مُقْصَدُ ^(٧)

وَشَبَّ عُمُرِي أَبِي رُبَيْعَةَ بَزِيْبَ بَيْتِ مُوسَى الْجَحِيحِ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

يَا حَلِيلُ مِنْ مَلَامٍ دَعَايَ * وَأَيُّهَا السَّدَاةُ بِالْأَطْعَابِ
 لَا تَلُومُوا فِي آلِ زَيْنَبَ إِنَّ آلَ * قُلْتَ زَهْرُ آلِ زَيْنَبَ عَابِي
 مَا أَرَى مَا يَقْبُ أَنْ أَذْكُرَ الْمَوَ * قَفَ مِنْهَا مَا خَيْبَ إِلَّا شُعَابِي ^(١)
 لَمْ تَدْعَ لِلنِّسَاءِ عَيْدِي حَظًّا * عَبْرَ مَا قُلْتُ مَا زِلْتُ بِلِسَانِي
 هِيَ أَهْلُ الصَّمَاءِ وَالْوُدِّ مَنِي * وَإِلَيْهَا الْمَوَى فَلَا تُعْذِلَانِي
 حِينَ قَالَتْ لِأَحْتَبُهَا وَلَا أُعْرَى * مِنْ قَطْرَيْنِ مُؤَلَّدٍ : حَدَّثَانِي ^(٢)
 كَيْفَ لِي الْيَوْمَ أَنْ أَرَى عُمَرَ الْمُرِّ * يَسْلُ سِرًّا فِي الْقَوْلِ أَنْ يَلْقَانِي
 قَالَتَا : بَقِيَ رَسُولًا إِلَيْهِ * وَبُيْتُ الْحَدِيثَ بِالْعِكْتَانِ
 إِنَّ قَلْبِي بِعَدِّ الدِّيِّ يَأْتُ مَهَا * كَالْمَعْنَى عَنِ سَائِرِ النَّسَوَابِ ^(٣)

- (١) تهادى : تمشى في تمايل وسكون . (٢) الرقة : الجمع والفرق . (٣) الوجد : الشغف والشوق الشديد . (٤) المراد : قد كان لي عنى عن حكم . (٥) الإمداد : حمر للكمال وأحوده بأصهار . (٦) أقصده : رماه بهم مقته . (٧) الحيف : ما أرتفع عن محرى السيل وأخضر عن طلط الحبل . قال أبو سيدة : وحيف مكة موضع فيها حد منى ، سمي بذلك لأعذاره عن الطلط وأرتفاعه عن السيل . (٨) القطيع : الخدم والأتباع والخشم ، والمولد من الصيد والإماء : من ولد من العرب ونشأ مع أولادهم . (٩) كذا في الأغاني . وفي ديوانه " كالعنى " أى المأسور المحبوس عن عهده .

وكان سبب ذكره لما أن ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوماً فأطراها ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها ، فقال فيها الشعر وشبب بها ، فبلغ ذلك ابن أبي عتيق ، فلامه فيه وقال له : أتطلق الشعر في أمة عمي ؟ فقال عمر :

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي * إن بي يا عتيق ما قد كعماني
لا تلمني وأنت زيتها لي * أنت مثل الشيطان للإنسان
إن بي داحلاً من الحت قد أد * لي عظامي مكوته وبرأي
لو عيبك يا عتيق نظرنا * ليلة السفع قوت العباب
إدبدا الكشح والوشاح من الله * وفصل فيه من المرجان^(١)
وقل قلبي النساء سواها * سدا ما كان مفرماً بالنواقي
لم تدع للنساء عدى نصياً * صير ما قلت مازحاً لساني

وأنشد ابن أبي عتيق قول عمر :

من لسقم يكتم الساس ما به * لزينب تجوى صدره والوساوس^(٢)
أقول لمن يبيئ السماء متى تجي * بزينب تذكرك بعص ما أنت لايس^(٣)
واك إن لم تشف من سقيي بها * فإني من طب الأطباء آيس^(٤)
ولست بناس ليلة الدار مجلس * لريت حتى يملؤا الرأس رايس^(٥)
حلاء بدت قراؤه وتكشمت * دحته وعب من هو حارس^(٦)
وما نلت منها محرماً غير أسا * كلالا من الثوب المورد لايس^(٧)
يحيين قضي الهوى غير مأمم * وإن رعت م الكايعين المعاطس^(٨)

(١) الكشح . ما بين الهبة — وهي رأس الورك الذي يشرف على الحاصرة — إلى الإبط . والوشاح :

شبه فلادة يسح من أديم عريص يرمع بالحوا . تشبه المرأة بين عاتقها .

(٢) هذا البيت دخل عليه الحرم وهو حذف اللام من صول . (٣) الراس : الدامن في الرمس وهو القتر .

(٤) الموزد . الذي صنع على رن الورد .

قال : فقال أربُّ أبي عتيق : أينما يسحرُّ ابنُ أبي ربيعة ؟ فأبى محرمٌ عني ! ثم أتى عمرُ فقال له : يا عمرُ ، ألم تُخبرني أنك ما أتيتَ حراماً قط ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرني من قولك :

كَلَامًا مِنَ التَّوْبِ الْمُرْدِ لَا بُسْ *

ما معناه * قال : والله لأخبرك : نحرحتُ أريد المسجدة ونحرجتُ زينبُ تريده ، فالتفتينا فاتعدنا لبعض الشعاب ، فلما توسطنا الشعب أخذتنا السماء ، فكريهتُ أن يرى بثيابها بللُ المطر ، فيقال لها : ألا استترتِ بمقائف المسعد إن كنتِ فيه ! فأمرتُ غلمانِي فسترونا بكساء نرَّ كان على ، فذلك حين أقول :

كَلَامًا مِنَ آثَابِ الْمَطَارِفِ لَا بُسْ *

فقال له : أسُ أبي عتيق : يا عامرُ ! هذا البيت يحتاج إلى حاصة ! .

ومن جيد شعره قوله في زينب بنت موسى :

يَا مَنْ لَقِيتُ مُتَمِّمَ كَلِيفٍ * يَهْدِي بِحُودِ مَرِيضَةِ النَّظَرِ^(١)
تَمْشِي الْهُوَيَا إِذَا مَشَتْ فُضْلاً * وَهِيَ كَيْتِلُ الْمُسْلُوجِ فِي الشَّجَرِ^(٢)
مَا زَالَ طَرَفِي يَحَارُ إِذْ بَرَزَتْ * حَتَّى رَأَيْتُ التَّقْصَانَ فِي بَصِيرِي
أَصْبَرْتُهَا لَيْلَةً وَنَسَوْتُهَا * يَتَشَبَّهُ مِنَ الْمَقَامِ وَالْمَجَرِ
مَا إِنْ طَعِمَتْهَا وَلَا طَعِمَتْ * حَتَّى آتَقَيْنَا لَيْلًا عَلَى قَدَرِ^(٣)
يَضَا حِسَامًا نَحْرًا إِذَا قُطِفَ^(٤) * يَتَشَبَّهُ هَوْنًا كَشْبَةِ الْبَقْرِ
قَدْ فُزْنَ بِالْحُسِّ وَالْجَمَالِ مَعًا * وَفُزْنَ رَيْلًا بِاللُّلِّ وَالْفَقْرِ^(٥)

(١) الحدود . العتاة الحسة الحق الشاة مالم تصرصعا ، والصف : المرأة بين الخدعة والمسة .

(٢) الفصل صبيح . المحنة التي تحصل من دليها . ويرى : « قطعاً » والمراد به تقارب الخطو .

(٣) المسلوج : البص التي الأصغر . (٤) على قدر : على غير موعد . والوجه فيه أن التقاءهما كأنه

مقدر في الأول لا علم له ولا سعى إليه كاقبل :

حاء الخلالة أو كات له فدرا * صكنا أتى ربه موسى على قدر

(٥) جمع قلوب وهي الطيعة في السير . (٦) الرسل بالكسر : الرق والتؤدة . والهمز : شدة الاسعفاء .

يُصْنَعُ يَوْمًا لَهَا إِذَا نَطَقَتْ • كَيْفَا يُسَرِّقَهَا عَلَى الْبَشَرِ
 قَالَتْ لَسَرِيبَ لَهَا تُحَلِّثُهَا • لَتُفْسِدَنَّ الطَّوَالَ فِي عُمْرِ
 قَوْمِي تَصَدَّى لَهُ لِيَعْرِفَا • ثُمَّ أَعْمَزِيهِ يَا أُخْتُ فِي خَفَرِ
 قَالَتْ لَهَا قَدْ عَمَزْتُهُ فَأَبَى • ثُمَّ أَسْبَطَرْتُ^(١) تَسْعَى عَلَى أَثَرِي
 مِنْ يُسْقَ بَعْدَ الْمَامِ رِيْقَتَهَا • يُسْقَ بِمَسْكٍ وَارِدٍ خَيْرِ^(٢)

وقوله فيها أيضا :

أَلَيْمَ بَزِيبَ إِنْ الْبَيْتِ قَدْ أَفْدَا^(٣) • قَلَّ التَّوَاءُ لَيْنَ كَانَ الرَّحِيلُ غَدَا
 قَدْ حَلَفْتُ لَيْلَةَ الصَّوْرَيْنِ جَاهِدَةً • وَمَا عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا الْخُلْفُ عَتِيدَا
 لِأَخْتِهَا وَلَا أُخْرَى مِنْ مَنَاصِبِهَا^(٤) • لَقَدْ وَجَدْتُ بِهِ فَوْقَ الَّذِي وَحَدَا^(٥)
 لَوْ جَمَعَ السَّاسُ ثُمَّ اخْتِيرَ صَفْوُهُمْ • شَخْصًا مِنَ النَّاسِ لَمْ أُعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

ومن شعر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تشوقه إلى مكة بعد أن خرج منها إلى اليمن قوله :

هِيَمَاتٌ مِنْ أَمَةِ الْوَهَابِ مَنَزَلًا • إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ الْبَحْرِ مِنْ عَدَنٍ^(٦)
 وَأَحْتَلَّ أَهْلُكَ أَجْيَادًا وَلَيْسَ لَنَا • إِلَّا التَّدَكُّرُ أَوْ حِفْظُ مِنَ الْحَزَنِ
 لَوْ أَنَّهَا أَصْرَتْ بِالْحَرَجِ عَبْرَتَهُ • مِنْ أَنْ يُقَرَّدَ قُرْبَى عَلَى فَنَنِ
 إِذَا رَأَتْ غَيْرَ مَا ظَلَّتْ صَاحِبَهَا • وَأَيَقُنْتُ أَنْ تُخْلَى لَيْسَ مِنْ وَطَنِ
 مَا أَتُسَّ لَا أَتُسَّ يَوْمَ الْخَلِيفِ مَوْفَقَهَا^(٧) • وَمَوْقِفِي وَكَلَانَا ثُمَّ دَوْشَعَيْنِ
 وَقَوْلَنَا لِلثُّرَيَّا وَهِيَ بَاكِئَةٌ • وَالْدَمْعُ مِنْهَا عَلَى الْخَلْدَيْنِ ذَوْسُفَنِ^(٨)

(١) اسطرت : أسرعت • (٢) الحصر • البارد • (٣) أهد كصرح : عمل وأسرع •

(٤) الصوراب : موضع بالمدينة بالقيح ، وقد ذكره ياقوت وأستشهد بالبيت • (٥) المصنف كمر
 ومقعد : الخادم ، والأخي ماله ، جمه ماصف •

(٦) سيف البحر : ساحله • (٧) أحياد : موضع مكة ، سمي بذلك لأن تما لهما قدم مكة وسط

حبله فيه سمي بذلك ، وهما موضعان : أحياد الكبير وأحياد الصغير • (٨) الخيف : موضع بين يده

سمي مسد الخيف • (٩) دوسس : دو طراقي •

ماقه قول له في غير معبئة * ماذا أردت بطول المكث في اليم
إن كنت حاولت دنيا أو طعرت بها * ما أخذت ترك الخ من ثمن
وقال أيضا :

حليل ما بأل المطايا كأنما * نزاها على الأدبار بالقوم تكس^(١)
وقد قطعت أعاقيهن صباة * ما نسا مما يلا قين شخص
وقد أتعب الحادي سرائن وأتقى * بين ما يالو عول مفص^(٢)
يزدن بها قرا فيزداد شوقنا * إذا زاد طول العهد والبعد يقص
ومن شعره قوله :

جرى اصح بالوذ بيني وبينها * فقرني يوم الحصاب إلى قتي^(٣)
طارت بمذ من فزادي وقارنت * قريتها جبل الصفاء إلى جبل
فلما توافقا عرفت الذي بها * كمثل الذي في حدوك العل والنيل
فلئن لما هذا عشاء وأهلا * قريب الما تسمى مراكب البغل
فقلت ما شئت قل لما أنزل * فلا أرض خير من وقوف على رخل
محوم دراري تكس صوة^(٤) * من الدر وامت غير هوچ ولا غل^(٥)
فلمت واستأنست حيفة أن يرى * عدو مقامي أو يرى كاشغ فلي
فقلت وأزحت جانب السرايما * معي حكيم غير ذي رقية أهلي
فقلت لما ما بي لم من رقيب * ولكن سرى ليس يحمله مثلي
فلما أقصرنا دونن حديثنا * ومن طيبات بحاجة ذي الشكلي
عرف الذي تهوى فلن أنذي لما * طلف ساعة في يدي ليل وفي سهلي

(١) تكس . ترجع وقول وتحم . (٢) مفص : مشر حاذ في السير . (٣) الحصاب
كالنصب . موضع رمى الحمار . (٤) دراري : جموعة من الصوف وثقت لسرودة الشعر . (٥) هوج :
جمع هوجاء . وهي المتصلة في السير كأن بها هوجا وحفا .

فَقَالَتْ فَلَا تَلْبِثَنَّ قُلْنَ تَحْمَدُنِي * أَيْنَاكِ، وَأَنْسَبِينَ أَسِيَّاتٍ مَهَا الرَّمْلِ
فَقَصَ وَقَدْ أَهْمَمَنَ ذَا اللَّبِّ أَمَّا * أَتَيْنَ الَّذِي بَاتَيْنَ مِنْ ذَاكَ مِنْ أَهْلِ

وقد كان عمر حين أسَّ حلف ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رقعة، فأنصرف عمر
إلى منزله يحدث نفسه، فجعلت حارية له تكلمه فلا يرد عليها جوابا، فقالت له : إن لك
لأمرأ، وأراك تريد أن تقول شعرا، فقال :

تَقُولُ وَلِيَدِي لِمَا رَأَيْتِي * طَرِمْتُ وَكُنْتُ قَدْ أَنْصَرْتُ حَيًّا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا * وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءَ دَفِينَا
وَكُنْتُ زَعَمْتُ أَنَّكَ ذُو عَزَاء * إِذَا مَا شِلْتَ فَارَقْتَ الْقَسِيرَا
بَرِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ * مَشَاكَ أَمْ لَقِيتَ لَهَا حَدِيثًا^(١)
فَقُلْتُ شَكَا إِلَيَّ أَحْ عَجَبٌ * كَبِصَ زَمَانِي إِذْ تَعَلَّيَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بَهْد * مَدَّكَ مَضَى مَا كُنَّا نَسِيَا
وَدُو الشُّوقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى * مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِيَا
وَكَمْ مِنْ خُلَّةٍ أَمْرَضَتْ حَنَّا * لَغِيرِ قَلِي وَكُنْتُ مَهَا ضَيْبَا
أَرَدْتُ مَادَهَا فَصَدَدْتُ حَنَّا * وَلَوْ جُنَّ الْمَوَادُّ بِهَا جَوْنَا
فَمِ دَعَا تَسْعَةً مِنْ رَقِيقَةٍ فَأَعْتَقَهُمْ كُلَّ بَيْتٍ وَاحِدًا .

وله :

يَقُولُونَ : إِنِّي لَسْتُ أَصْدُقُكَ الْهَوَى * وَإِنِّي لَا أَرَاكَ حِينَ أَعِيبُ
وَمَا بَالُ طَرَفِي عَفَّ عَمَّا تَسَاقَطْتُ * لَهُ أَعْيُنٌ مِنْ مَعْشَرٍ وَقُلُوبُ
عَشِيَّةٍ لَا يَسْتَنْكِفُ الْقَوْمُ أَنْ يَرَوْا * سَقَاهُ أَمْرِي مِنْ يَحَالِ لَيْبُ

(١) الحدين : الصديق الذي يصادك فيكون منك في كل أمر طاهر ومطل، ومنه حدث الحارثية محدثها،
وكان العرب في الحاطية لا يمتنعون من حدث الحارثية طاء الاسلام بهدمه - وفي اليريد العريز : (اليوم أحل
لكم الطيات) الى قوله . (والخصاص من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أجهضوا أحدهم محصبين يرمسواهم
ولا تنحدي أحدان) الآية . (٢) الحلة : الحيلة .

ولا فتنة من ناسك أو ممت^(١) له * عين الصا كنى القيام لموب
تريح يرجعوا أن تحط ذنوبه * فآب وقد زيدت عليه ذنوب
وما أنسك أسلبي ولكن للهوى * على العين متى والمؤاد رقيب
وله :

ألم تسأل المتزل المتفيرا * بياناً فيكمم أو يحيرا
ذكرت به بعض ما قد شجأك * وحق لذى الشجو أن يذكرا
ميت الحبين قد ظاهرا^(٢) * كساء وردن أن يظفرا
ومضى الثلاث به مؤمرا * نرجن إلى زائر زورا
إلى مجلس من وراء القبا * ب سهل الرنى طيب أخفرا^(٣)
عقل عن الليل حتى بدت * تبشير من واهع أسفرا
فقمس يعقبن آثارا * ماكبة الحزن أن تحفرا^(٤)
مها تار شيعنا جؤدرا^(٥) * أسبلا مقلده أخورا
وئن وثقن لو أنف النها * رمده له الليل فاستأفرا
قنينا به بعض أنجبنا * وكان الحديث به أحذرا

وله :

أى رسم دار دمئك المترفق^(٦) * سافها ! وما استنطاق ما ليس ينطق !
بحيث ألقى "جمع" وأقصى "تخصير"^(٧) * ممالئه كادت على العهد تخليق
ذكرت به ما قدمه من زماننا * وذكرك رسم الدار بما يسوق

(١) أومت له : سارقه الطر .

(٢) يقال : طاهر جب الثوب إذا لمس أحدهما على الآخر . (٣) أهر : دى رمل أهر .

(٤) يقال : طهر الأثر فحرا : اتهمه وتبعه . (٥) الخوذ (هم أظه رسم الدال وصحا) : ولد البقرة .

والزرب : القطيع من هرة الوحش وقيل من الطاء ، ولا واحده من لفظه . (٦) المخذ : موضع القفلة

ويراد به الجيد . (٧) تفرق الجمع : سال . (٨) جمع ، هي المردفة . (٩) عصر : موضع

بين من والمردفة .

بِأَيِّ مَنْ دَعِيَ إِذَ الْحَيُّ جَبْرَةً * وَإِذْ هُوَ مَاهُولٌ الْخَبِيلَةُ مُؤْتَقٌ
مَقَامًا لَا عَدَ الْإِثَاءَ وَجَلَسَا * بِهِ لَمْ يُكْذَرْهُ عَلَيْهِ مُمْسِقٌ^(١)
وَيَمْتَنِي قَنَاءَ بِالْكَسَاءِ تَكْنُثًا * بِهِ تَحْتَ عَيْنٍ^(٢) بِرُفْهَآ يَتَأَلَّقُ
يَسْلُ أَعَالَى التَّوْبِ قَطْرٌ وَتَحْتَهُ * شُعَاعٌ بَدَأَ يُسْنِي الْعِيُونَ وَيُسْرِقُ
فَأَحْسَنُ شَيْءٍ بَدَأَ أَوَّلَ لَيْلِنَا * وَآخِرُهُ حُرْنٌ إِذَا تَتَفَرَّقُ

وروى أن ليل كانت جالسة في المسجد الحرام، فرأت عمر بن أبي ربيعة توجهت
إليه مولى لها بغاءها به، فقالت له : يَا بَنَ أَبِي رَبِيعَةَ، حَتَّى مَتَى لَا تَزَالُ سَادِرًا فِي حَرَمِ اللَّهِ^(٣)
تُسَبِّبُ بِالنِّسَاءِ وَتُشِيدُ بِذِكْرِهِنَّ ! أَمَا تَخَافُ اللَّهَ ! قَالَ : دَهْنِي مِنْ دَاكِ وَأَسْمِي مَا قُلْتُ ،
قَالَتْ : وَمَا قُلْتُ ؟ فَأَشَدُّهَا الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةَ، فَقَالَتْ لَهُ الْقَوْلَ الَّذِي تَقَدَّمَ أَنَّهَا أَحَاتَهُ بِهِ .
قَالَ : وَقَالَ لَهَا : أَسْمِي أَيْضًا مَا قُلْتُ فِيكَ، ثُمَّ أَنْشَدَهَا قَوْلَهُ :

أَمِنْ الرِّسْمِ وَأَطْلَالِ الدَّمَنِ * عَادِلِي وَجَدِي وَطَاوَدْتُ الْحَزَنَ
إِنْ حَيَّ آلَ لَيْلٍ قَاتِلِ * ظَهَرَ الْحُثُّ بِجَمْسِي وَبَطْنُ
يَا أُمَا الْحَارِثِ قَلْبِي طَائِرٌ * فَأَتَمِّرُ أَمْرَ رَشِيدٍ مُؤْتَمِرٍ
إِتْمِنَ لِلْقَلْبِ وَصَلًا عِدهَا * إِنْ خَيْرَ الْوَصْلِ مَا لَيْسَ يَمِينُ^(٤)
حَلَقَ الْقَلْبُ، وَقَدْ كَانَ صَحَا، * مِنْ بَنِي بَكْرِ غَزَا قَدْ شَدَّ^(٥)
أَحْوَرُ الْمُقْلَةِ كَالْبَدْرِ، إِذَا * قُلْدُ الدَّرِّ قَلْبِي مُمْتَحَنُ^(٦)
لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمْ * فَيَرَأَى أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أَجَبْتُ
حَقَّقْتُ لِلْقَلْبِ مَنَى فِتْنَةً * هَكَذَا يُحَلِّقُ مَعْرُوضُ الْفِتَنِ

(١) موزون : غائق ومائع . (٢) العين : السحاب .

(٣) السادر : الذي لا يتم ولا يزال ما صنع .

(٤) كذا في الديوان ، ومساء ما ليس يقطع ، ومعه قوله تعالى : (وَإِنْ لَكَ لَأَحْمَدٌ عَرِمُونَ) .

(٥) شدد : شب وترعرع . (٦) مختصر : واقع في محنة .

وفيها يقول :

إِنَّ لَيْلِي وَقَدْ بَلَغَتْ الْمَشِيئَا * لَمْ تَدْعُ لِلنَّسَاءِ عَمْدِي نَصِيْبَا
هَارِجٌ يَنْتَهَى لِأَنْفِي عَنْهَا * قَوْلُ ذِي الْعَيْبِ إِنْ أَرَادَ حَيَوَا

وله في المَؤَار وقد شغلت قلبه :

عَلَيْكَ الْمَؤَارُ فَنُؤَادُهُ جَهْلًا * وَصَبًا فَلَمْ تَتْرَكْ لَهُ عَقْلًا
وَتَقَرَّصْتَ لِي فِي الْمَسِيرِ يَا * أَمْسَى الْعَوَادُ يَرَى لَهَا مِثْلًا
مَا صَحَّةٌ مِنْ وَحْشٍ دِي تَقِيرُ^(١) * تَعْدُو نَسْقُطُ صَرِيْمَةٌ طِفْلًا^(٢)
بِأَلَدٍ مِنْهَا إِذَا تَقُولُ لَهَا * وَأَرَدْتُ كَشَفَ قِيَاعِهَا مَهْلًا
دَعْنَا فَإِنَّكَ لَا مُكَارَمَةَ * تَحْزِي وَلَسْتُ وَوَاصِلٍ حَبْلًا
وَعَلَيْكَ مَنْ تَبَلَّ الْعَوَادَ وَإِنْ * أَمْسَى لِقَلْبِكَ ذِكْرُهُ شُفْلًا
فَاجْتَبِئَا إِنِ الْمَحَبَّ مَكْلُوفٌ^(٣) * فَدَعِيَ الْعَنَابَ وَأَحْدَثَ بَدَلًا

اجتمع نسوة من أهل المدينة من أهل الشرف فتذاكرن عمر بن أبي ربيعة وشعره وطرفه وحسن حديثه فتشوقن إليه وتمنيته ، فقالت سَكْبَةُ بنت الحُسَيْن عليهما السلام : أنا لكن به ، فأرسلت إليه رسولاً وواعدته الصَّوْرَيْنِ ، ومثت له الليلة والوقت وواعدت صواحباتها ، فوافقه عمر بن راحله ، فجلسن حتى أصاب الفجر وحان أنصرفهن ، فقال لهن : والله إنني لمحتاج إلى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة في مسجده ولكن لا أحيط بزيارتهن شيئاً ، ثم أنصرف إلى مكة وقال :

(١) دوقر . موضع . (٢) مقط الصريمة . منهاها . والصريمة . الزمعة المنصرفة من الزمالات الشجر . (٣) مكاف : لمع الحب ، يقال : كلف مائتي كلفاً ، أي لمع به هو كلف ومكلف ، والأبيات من الكامل الأحد ، وهو ما حذف من عروضه وصره الوند المخبوع «على» من «متاعل» . وقد جاء عروض هذا البيت تاماً على خلاف بقية الأبيات ، وطاهر أن حذف الوند في اصطلاح علماء العروض ملة ، والعلقة إذا لحقت عروض أو صرف لم استعمالها في سائر الأبيات ولو قال : * فأحتبنا إلى نكم كلف * خلعت القصيدة من هذا العيب .

قالت سَكِينَةُ والدموعُ دَوَارِفُ * منها على الخدين والجلدَابِ^(١)
 ليت المَيْسِرِيُّ الذي لم أجْزِهِ * فيما أطال تصبُّدى وِطْلَابِي
 كانت تردُّ لنا المُنَى أيامَا * إذ لا مُلَامٌ على هوى وتَصَابِي
 حُبْرْتُ ما قالتُ فَبْتُ كَأَنَّمَا * رُبِّي الحَشَا بَواقِدِ النَّشَابِ^(٢)
 أَسْكِنَ ما ماءُ العَرَايِ وطَبِئُهُ * مِنِّي على ظمإٍ وَقَدِ شَرَابِ
 مَالِدٌ مَكٍ وَإِن مَآيِتٍ وَقَلْبَا * تَرعى السَّاءَ أَمَانَةَ النُّيَابِ

وقال فيها :

أَحْبُ لِحَسَكٍ مِنْ لَمْ يَكُنْ * صَغِيًّا لِنَفْسِي وَلَا صَاحِبًا
 وَأَبْدُلُ نَفْسِي لِمُرْصَاتِكُمْ * وَأُعْتَبُ مِنْ حَاءِكُمْ عَانِيَا^(٣)
 وَأَرَعُ فِي وَدٍّ مِنْ لَمْ أَكُنْ * إِلَى وَدِّهِ قَبْلَكُمْ رَاغِيَا
 وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ فِي حَانِبِ * مِنْ الْأَرْضِ وَأَعْتَلَّتْ جَانِبَا
 لَيَمُنْتُ طِبْتَهَا ، إِنْ سَنَى * أَرَى قَرَبَهَا الْعَجَبَ الْعَاجِبَا
 هَذَا ظِلِّيُّ مِنْ طِبَاءِ الْأَرَا * لَكَ تَهَرُّو دَمِيثُ الرُّبِّي عَاشِبَا^(٤)
 أَحَسَّ مِنْهَا عِدَاةَ النَّفِيمِ * وَقَدْ أَبَدْتُ الْخَلْدَ وَالْحَاحَا
 عِدَاةَ تَقُولُ عَلَى رِقَّةِ * لَخَادِمَهَا : يَا أَحْيِي الرَّاكِبَا^(٥)
 فَقَالَتْ لَهَا : فِيمَ هَذَا الْكَلَامُ * وَأَبَدْتُ لَهَا عَابِسًا قَاطِبَا^(٦)
 فَقَالَتْ كَرِيمٌ أَتَى رَاثِرًا * يُمَرُّ بِكُمْ هَكَذَا جَانِبَا
 شَرِيفٌ أَتَى رَسَا رَاثِرًا * فَأَسْكُرُهُ رَجَعْتَهُ حَائِبَا^(٧)

(١) الجلذاب - القميص أدهو الحار، وهو ما تعلق به المرأة رأسها . (٢) الشاب - اللب .

(٣) أحب : أزال سب التفت ، فاحمرة لللب . والمعى أعد . (٤) قراء بقروه : تهمه .

(٥) دميت الربي : سهلها ولجها . (٦) العديم كأكبر - موضع بين مكة والمدينة . (٧) الخادم :

واحد الخدم علاما كان أو حارية . (٨) قاطبا من القطوب - وهو ترقى ما بين البيتين من العروس .

وقال في حاريتة بنوم :

صرمت حبلك الغوم وصدنت * عك في غير رية أسماء
والقواني اذا رأيتك كهلًا * كان فبين عن هواك أتواء
حذًا أيت يا موم وأسما * ؤ ويصع يكنا وخلاء
ولقد قلت ليلة الجزل لما * أخضلت ريطقى على السماء^(١)
ليت شعري وهل يردن ليت * هل لهذا عد الرباب جراء
كل وصل أمتى لدى لأنى * صيرها وصلها إليها أداء
كل خلق وإن دما لوصال * أو ماى فهو للرباب الفداء
فيمدى نائلا وإب لم تنلى * إنما ينعج الحب الرجاء

وكان يهوى حميدة حارية ابن تفاعلة، وفيها يقول :

حمل القلب من حميدة تفعلا * إن فى ذاك للفؤاد لشغلا
إن فعلت الذى سألت فقولى * حمد حيرا وأتبعى القول فعلا
وصلىنى وأشهد الله أنى * لست أضنى سواك ماعشت وصلا

وفيها يقول :

ياقل هل لك عن حميدة زاهر * أم أنت مذكر الحياء فصاهر
فالقلب من دكرى حميدة موحع * والدمع متعذر وعظمى فائر
قد كنت أحسب أنى قل الذى * فعلت على ما عد حمدة قادر
حتى بدالى من حميدة خلقى * بين وكنت من الفراق أحاذر

(١) الجزل . موضع قرب مكة . وأحصل . مل . والريطة : ملادة كلها مسح واحد وقطعة

وله في هـد :

أَرَبْتُ إِلَى هِنْدٍ وَتَرَيْنِ مَرَّةً * لَهَا إِذَا تَوَاقَعَا بَرَّعَ الْمُقْطَعُ
لِتَعْرِجَ يَوْمَ أَوْ لَتَعْرِسَ لَيْلَةً * عَلَيَا يَجْمَعُ الشَّمْلُ قَبْلَ التَّصَدُّعِ
فَقُلْنِ لَهَا لَوْلَا أَرْقَاتُ مَحَابَةِ * لَأَحْلَفْنَا عُنَّا وَلَمْ تَتَوَرَّعِ
فَقَالَتْ فَتَاهُ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهَا * مُقَمَّلَةٌ فِي مَقَرٍّ لَمْ تُدْرِعِ
لَهْنٍ - وَمَا شَاوَرْنَاهَا - لَيْسَ مَا أَرَى * بِحُسْنِ جَرَاءٍ لِلْجَبِيبِ الْمَوْدِعِ
فَقُلْنِ لَهَا لَا شَيْءَ قَرْنُكَ فَافْتَحِي * لَهَا بَابَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ تَسْمَعِ

- (١) يقال : أرب تكذا : كلفه ، وأرب الى كذا : احتاج اليه . ولعل المراد : دعاني الشوق اليه .
(٢) التعريس : قيل هو ردول القوم في السر آخر الليل يستريحون قليلا ثم يرحلون مع الصباح . وقيل : هو الردول
أول الليل . وقيل : الردول في أى وقت كان من ليل أو نهار . والمراد هنا : لإقامة يوم أو لإقامة ليلة .
(٣) لم تدع : لم تفس الفرع ، يقال : دزمت الصبية اذا ألفت الدرع ، والدرع : حة مشقوقة المقدم .
(٤) قال الأصمى : يقال أشبه الله وأشب الله قربه معنى واحد (وهو الدعاء له بأن يشبه ويكبر) ، والقرن
زيادة في الكلام .هـ . والقرن : الصعيرة . والمراد الصعب من حديثها كما يقال في هذا المقام : فأنك الله .
(٥) الامة : الوجه والطريق ، قال نعيم بن مقل :

في عامر ما تأمر من شاعر * تخير مائات الكتاب هائيا

أى تخير هائيا من وجوه الكتاب ، كما صرحه صاحب اللسان . والامة معان أخرى لا بأس من إيرادها وهي : التخييل
والوجه - كما قال الخاسط في «كتاب الحيوان» ح ٢ ص ٤٥ : «طيس الهيك من مائة الكلب لأنه إن سارده قتله
قتلا ذريهما» وقال أيضا في ح ٧ ص ٤٣ . «وقد أيقنا أنها ليسا من مائة» . وقال في كتاب الحلاء ص ٥٥ ،
١٤٣ : «أنت من دى الامة .. وأما سائر حديث هذا الرجل فهو من هذه الامة» . ومثل ذلك في فتح الطيب
ح ١ ص ٥٥٩ طبع لندن ، ح ١ ص ٣٩٨ طبع بولاق سنة ١٢٧٩ هـ قول القاضي محمد بن شير الأندلسي :

إمسا أرى بقدرى أرى * لست من مائة أهل البلد

وإذا قال الناس «من مائة» فماده من الوجه الذى أريد به ويصلح لى .

والشرط - ومنه ما في «تاج العروس» . هذا مائة أى شرطه .

والاية - ويستعمل ذلك في الحساب والحدود . وفي «شعاع العليل» أهم يقولون لقب حيال الطل بامة
فيقولون : بامات حيال الطل ، وعلى ذلك قول أس إياس الموزج المصرى : فكأوا مثل بامات حيال الطل شتى . يحى .
وشى . يروج (بدائع الزهورى وقائع الدهور ح ١ ص ٣٤٧) .

ويحوزان يسمى كل فصل من أصول التخييل المسماة الآن أصول الرواية . (أطروحات التاج للمحيط ص ٣٨

وله :

لَبِتْ هَذَا أَتَجَرَّتْنَا مَا تَعِدُ • وَشَقَّتْ أَنْفَسَنَا مِمَّا نَحِدُ^(١)
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً • إِنَّمَا الْعَاجِرُ مَنْ لَا يَسْتَبْدُ
وَلَقَدْ قَالَتْ بِلْجَارَاتِهَا • ذَاتَ يَوْمٍ وَتَعَرَّتْ تَعَرِدُ^(٢)
أَكَّا يَنْعَتِي تُبْصِرَتِي • عَمَّرَكُنَّ اللَّهُ أَمْ لَا يَقْتَصِدُ
قَتَامُنُ^(٣) وَقَدْ قُلَى لَهَا • حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مِنْ تَوَدُّ
حَسَدًا حُمْلَةً مِنْ أَجْلِهَا • وَقَدِيمًا كَانَ فِي الْبَاسِ الْحَسَدُ

وله :

يَا مَنْ لِقَلْبٍ ذَنِيفٍ مُقَرَّمٍ • هَامٌ إِلَى هِنْدٍ وَلَمْ يَطْلُمِ
هَامٌ إِلَى رِيمٍ هَيْصِمٍ الْحَتَّى • عَذِبَ الثَّأْيَا طَيْبِ الْمُهْمِمْ
لَمْ أَحْسِبِ الشَّمْسَ لَيْلِي بَدَتْ • قَبْلَ لَدَى لَحْمٍ وَلَا دَى دَمِ^(٤)

(١) وحده به يحسد وحدا : أحده حاسداً، ووحده عليه يوحد وحدا حرد . (٢) تنرد .
تعتسل بالماء البارد . (٣) كذا في الكامل للرد طبع ليبرح ص ٩٤ • وهي رواية جيدة . والتهاب كالأهاف
والمهافة صحت فيه مور كصحت المستزى . وفي الأغانى والديوان : « فصاحك » . وقد رها الزرابة الأولى
لأنها توكدي تمام المعنى المراد . (٤) هَامُ تَعَدَى الْهَاءَ وَقَدْ صَحَّتْ هَا مَعْنَى صَا وَلِهَذَا تَعَدَتْ هَا إِلَى
(٥) كذا في الأغانى ، وفي ديوانه « رثم » بالهمز . والرثم : الطلى الأبيض الخالص البياض ، وقيل وله الطلى ،
يهر ولا يهر . (٦) كذا في الأغانى ، وفي هذا البيت والذي قبله في ديوانه
كالتنمس بالأسعد إذ أشرقت • في يوم دحى نارد مقسم

يريد بالأسعد هاهنا سعد الحوم ، وهي عشرة : أربعة منها في ربح الحدى والفلو يرلها القمر وهي سعد الدراع وسعد
طلع وسعد الأضحية وسعد السعد وهو كوكب مفرد ير . وأما السبعة التي ليست من المارول فسعد فاشرة وسعد الملك
وسعد الباهم وسعد الحمام وسعد الرابع وسعد مطر . وكل سعد من هذه السبعة كوكبان بين كل كوكبين في رأى العين قدر
دراع وهي متساقطة . وأما سعد الأضحية فتلاثة أعجم كأنها أنافى ورايح تحت واحد منها . أطراف المرقص والمقاصد
البحرية في شرح شواهد شرح الألفية للإمام البيه المطبوع بها مش الحرارة ح ١ ص ٨ • في الكلام على البيت
إذا دران مسك يوماً لقيه • أوتل أدانهاك علواً بأسعد

وقال في اللسان في مادة « سعد » حد أن ذكر هذه السعد . فأحسن ما تكون الشمس والقمر والحوم في أيامها
لأنك لا ترى فيها مرة ، وقد ذكرها الناجية الهياقي فقال :

قامت ترائى بى صحنى كنه • كالشمس يوم طلوعها بالأسعد

وقد ضبط خطأ في اللسان فتح العين . وقال :

بعضاً كالشمس وامت يوم أسعدا • لم تنرد أهلاً ولم تهنش على حار

قالت ألا إنا ذومسلة * يصرفك الأدنى عن الأقدم
قلت لها بل أنت معتلة * في الوصل ياهدلكي قصيري

يساعمر بن أبي ربيعة يطوف بالبيت إذ رأى عائشة بنت طلحة بن عبيد الله ،
وكانت من أجل أهل دهرها ، وهي تريد الركن تستلمه ، فبهت لما رآها ورأته ، وعلمت
أها قد وقعت في نفسه ، سمعت إليه بشارية لها وقالت : قولي له : أتني الله ولا تقل هجراً ،
فإن هذا مقام لا يذيه مما رأت ، فقال للشارية : أقرئها السلام وقولي لها : ابن عمك
لا يقول إلا حبراً ، وقال فيها :

لعائشة آية التيمى عدى * حى والقلب لا يرتى جماعا
يدكرى آية التيمى طوى * يرود بروصية سهل راعا
فقلت له وكاد يرأع قلبي * فلم أرقط كالיום أشداها
سوى خميس إسافك مستبى * وأن شواك لم يئس شواها
وأناك عاطل عار وليست * هارية ولا عطل يداه
وأناك غير أفرع ^(١) وهى تدلى * على المتين أنعم قد كساها
ولو قعدت ولم تكلف نود * سوى ما قد كلفت به كفاها
أطل إذا أكلها كاتى * أكلم حبة غلت رقاها
تيبت إلى هذا اليوم تبرى * وقد أمسيت لا أخشى سراها

وله :

أنى وأزل ما كملت بمجها * عجب وهل والحب من متعجب
نعت النساء فقلت لست بمبصر * شها لها أبدا ولا بمقرب

(١) الحسن : دقة الساقين . (٢) الشوى : الأطراف . (٣) الأرمع : طويل شعر الرأس .

(٤) الأعم : الأسود ، يريد به الشعر .

مَكَثَنَ حِينَئِذٍ قُلَّ تَوَحَّهَتْ * فَفَجَّ ، مَوْعِدُهُا لِقَاءُ الْأَخْشَبِ^(١)
 أَقْبَلْتُ أَنْظُرَ مَا زَعَمَنَ وَقُلَّنَ لِي * وَالْقَلْبُ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكْذَّبٍ
 فَلَقِيْنَهَا تَمَثَّيْتُ بِهَا بِفَلَائِهَا * تَرَى الْجَمَارَ عَشِيَّةً فِي مَوْكِبٍ
 عَرَّاءَ يُعْنِيهِ الْبَاطِرِينَ بِبَاصِهَا * حَوْرَاءَ فِي قُلُوبِهَا عَيْشٍ مُعْجِبٍ^(٢)
 إِنَّ الَّتِي مِنْ أَرْضِهَا وَسَمَائِهَا * جُلِبَتْ لِحَيْسِكَ لَيْتَهَا لَمْ تُجَلَبْ

وكان عمر بن أبي ربيعة يهوى كَثَمَ بنتَ سَعْدِ الْمُخَزُومِيَّةِ ، فأرسل إليها رسولا فعصرتها وحلقها وأحلقها ألا تُعَادَ ، ثم أعادها ثانية فعملت بها مثل ذلك ، فتحامها رسُلُهُ ، فابتاع أُمَّةٌ سَوْدَاءَ لَطِيفَةً رَقِيقَةً وَأَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ فَأَحْسَنَ إِلَيْهَا وَكَسَاهَا وَأَسْبَا وَعَرَّفَهَا حَرَّهُ وَقَالَ لَهَا : إِنْ أَوْصَلْتُ لِي رُقْمَةً إِلَى كَثَمَ فَرَأَتْهَا فَاتَتْ حُرَّةً وَلَكَ مَمْلُوكَةٌ مَا بَقِيَتْ ، فَقَالَتْ : أَكْتُبُ لِي مَكْتُبَةً وَأَكْتُفِ حَاحَكَ فِي آخِرِهَا ، فَعَمِلَ ذَلِكَ ، فَأَحْضَتْهَا وَمَصَّتْ بِهَا إِلَى بَابِ كَثَمَ فَاسْتَاذَنْتْ فَخَرَجَتْ إِلَيْهَا أُمَّةٌ لَهَا فَسَأَلَتْهَا عَنْ أَمْرِهَا ، فَقَالَتْ : مَكْتُبَةٌ لِبَعْضِ أَهْلِ مَوْلَانِكَ جِئْتُ أَسْتَعِينُهَا فِي مَكَاتِنِي ، وَحَادَتْهَا وَاشْدَتْهَا حَتَّى مَلَأَتْ قَلْبَهَا ، فَدَخَلْتُ إِلَى كَثَمَ وَقَالَتْ : إِنْ بِالْبَابِ مَكْتُبَةٌ لَمْ أَرَقُطْ أَجَمَلْ مِنْهَا وَلَا أَكَلْ وَلَا آدَبَ ، فَقَالَتْ : ائْتِنِي لَهَا ، فَدَخَلْتُ ، فَقَالَتْ : مَنْ كَاتِبَتِكَ ؟ قَالَتْ : عَمْرُؤُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْفَاسِقُ ! فَافَرَّقْنِي مَكَاتِنِي ، فَكُنْتُ يَدَهَا لِتَأْخُذَهَا فَقَالَتْ لَهَا : لِي عَلَيْكَ عَهْدُ اللَّهِ أَنْ تَقْرَبِيهَا ، إِنْ كَانَ مِنْكَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا أُحِبُّهُ وَإِلَّا لَمْ يَلْعَنَنِي مِنْكَ مَكْرُوهٌ ، فَعَاذَتْهَا وَصِطَّتْ وَأَعْطَتْهَا الْكَتَّابَ ، وَإِذَا أَوَّلُهُ :

مِنْ عَاشِقِي صَبَّ بُسْرُ الْهُوَى . قَدْ شَمَّهِ الْوَجْدُ إِلَى كَثَمَ
 وَأَتَيْكَ عَيْنِي فَدَعَانِي الْهُوَى * إِلَيْكَ الْخَيْرُ وَلَمْ أَعْلَمْ

(١) الأخشب : مفرد الأخشين وهما حلال مكة أحدهما أوقيس والآخر قبيعان ، ويقال : هما أوقيس والحل الأحمر الشرف هناك ، وقد تمرد هذه الشبية فيقال لكل واحد منهما : الأخشب ، قال ساعدة بن جؤية .

ومقامهس إذا حسس عارم * صيق ألف وصدهن الأخشب

(٢) في علواء عيش : في أهره وأرمده . (٣) المكاتبه : أن يكتب الرجل عبده على مال يرد إليه إليه منها (مقطعا) وإذا أذاه صار حرا ، وسيت كلك لأنه يكتب على هه لمولاه منه ، ومولاه يكتب له عليه عهده .

قَتَلْنَا ، يَا حَبْذَا أَنْتُمْ - وَ مِيرَ مَا جُرِّمَ وَلَا مَاتُمْ
وَأَقْبَهُ قَدْ أُنْزِلَ وَ وَحِيهِ * مُيَسَّا فِي آيَةِ الْمُحْكَمِ
مَنْ يَقْتُلِ النَّفْسَ كَمَا ظَالِمًا - وَلَمْ يَقْدَحْهَا نَفْسَهُ يَظْلِمُ
وَأَنْتَ تَأْرِي قَتْلَاقَ دَمِي * ثُمَّ أَجْبِلِيهِ نِعْمَةً تُنْعِمِي
وَحَكْمِي عَدْلًا يَكُنْ بَيْنَنَا * أَوْ أَيْتَ فِيهَا بَيْنَنَا فَاحْكِي
وَجَالِسِي مَجْلِسًا وَاحِدًا * مِنْ عَيْرِ مَا عَارٍ وَلَا مَحْرَمِ
وَحَبْرِي مَا الَّذِي عَدَمَ * مَاقِهِ وَ قَتْلِ أَمْرِي مُسْلَمِ

فلما قرأت الشرع قالت لها : إنه خداع ملق وليس لما شكاه أصل ، قالت : بامولاتي ،
ما عليك من امتعانه ؟ قالت : قد أذنت له وما زال حتى ظفر بغيرته ! فقول له : إذا كان
المساء فليجلس في موضع كذا وكذا حتى ياتي به رسول ، فأصرفت الجارية فأخبرته فذهب لها ،
فلما جاءه رسولها مضى معه حتى دخل إليها وقد تيات أبل هيئة ، وزينت نفسها وجلسها
وجلست له من وراء ستر ، فسلم وجلس ، فركته حتى سكن ثم قالت له : أخبرني صك
يا فاسق ! ألسنت القائل :

هَلَّا أَرْعَوَيْتَ قَرْنِي صَبَا * صَدْيَانِ لَمْ تَدْعِي لَهُ قَلْبَا
جَسَمَ الزَّيَارَةِ فِي مَوَدَّتِكُمْ * وَأَرَادَ إِلَّا تَرْهِي دَنْبَا
وَرَجَا مُصَالَحَةً فَكَانَ لَكُمْ * سَلَمًا وَكَيْتَ تَرْبِنَهُ حَرْبَا
يَا أَيُّهَا الْمُصْنِفِي مَوَدَّتِهِ * مَنْ لَا يَرَاكَ مُسَامِيًا خُطْبَا^(١)
لَا تَجْمَلُنْ أَحَدًا عَلَيْكَ إِذَا * أَحْبَبْتَهُ وَهَوَيْتَهُ رَمَا
وَصِلِ الْحَيِيبَ إِذَا شُغِفْتَ بِهِ * وَأَطْوِ الزَّيَارَةَ دُونَهُ غِيَا
فَلَذَّاكَ أَحْسَنُ مِنْ مُوَاطَبَةٍ * لَهْسَتْ تَرْبُذُكَ عِنْدَهُ قُرْبَا
لَا لِي يَمْلِكُ عِنْدَ دَعْوَتِهِ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَلَمَّا لَهْيَا^(٢)

(١) الخطب : الخطب . (٢) وهاه : كلمة رعيد ، وحركه لضرورة الشرع وقد روى البيت في ديوانه :

لَا لِي يَمْلِكُ ثُمَّ تَدْعُو مَاسِمَهُ * فَيَقُولُ هَاهُ وَطَلَمَّا لِي

ورأى عمرُ بُبَاةَ بنتِ عبد الله بن العباس أمراءَ الوليد بن حُصَيْن بن أبي سفيان تَطْلُوف
 باليت فرأى أحسنَ خلقِ الله ، فكاد عقلُه يذهبُ ، فسال عنها فأخبر بنسبها ، فنسب بها
 وقال فيها :

وَدَّعُ بُبَاةَ قَبْلَ أَنْ تَهْرُلَا * وَأَسْأَلَ فَإِنَّ قُلُلَهُ أَنْ تَسْأَلَا
 إِلْتِ صَغِيرُكَ سَاعَةً وَتَأْتِيَا * فَلَمَّ مَا بَجَلَتْ هُ أَنْ يُسْأَلَا
 قَالَ أَتَمَّرَ مَا شَتَّ صِرْخَالِي * فَمَا هَوَيْتَ إِنَّمَا لَنْ تَسْمَلَا
 كَسْنَا نُنَالِي حِينَ تَقْصِي حَاجَةً * مَا مَاتَ أَوْ ظَلَّ الْمِطَى مُعْقَلَا
 حَتَّى إِذَا مَا اللَّيْلُ جَنَّ مَلَامُهُ * وَرَقَّتْ عَمَلَةٌ كَأَنَّهَا أَنْ يَهْمَلَا
 نَرَجَتْ تَأْطُرُ فِي الثَّيَابِ كَأَنَّمَا * أَيْمُ^(١) يُسَيِّبُ عَلَى كَيْتِي أَمِيلَا
 رَجَبْتُ حِينَ رَأَتْهَا حَبَسْتُ * لَصَحْبِي لَمَّا رَأَيْتِي مُقْبِلَا
 وَجَلَّ الْقِنَاعُ مَحَابَةَ مَشْهُورَةً * عَرَاءُ تَمْنِي الطَّرْفَ أَنْ يَتَأَمَّلَا
 فَلَبِثْتُ أَرْقِيهَا بِمَا لَوْ عَاقِلُ^(٢) * يَرْقُ بِهِ مَا أَسْطَاعَ إِلَّا يَهْرَلَا

وَجَحَّتْ رَمْلَةً بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلْفِ الْخَزَاعِيَةِ فَقَالَ فِيهَا :

أَصْبَحَ الْقَلْبُ فِي الْحَبَالِ رَهِيًا * مُقْصِدًا يَوْمَ فَارَقَ الظَّاعِيَا
 عَجَلْتُ حُمَةً الْمِرَاقِ طَلِيًا * بَرَحِيلٍ وَلَمْ نَحْفُ أَبْ تَبَهَا
 لَمْ يَرْضَنِ إِلَّا الْعَنَاءُ وَالْأَلَا * دَمْعُهَا فِي الرِّدَاءِ تَعَا سَيَا
 وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ مَكَّةَ سِرًّا * قَبْلَ وَشِكٍ مِنْ بَيْنِكُمْ بُولِيَا
 أَنْتِ أَهْوَى الصَّادِ قُرْمًا وَدَلًّا * لَوْ يُثِيلِبُ عَاشِقًا مَحْزُونَا
 فَادِ الطَّرْفَ يَوْمَ مَرَّ إِلَى الْحِيَا * مِنْ جِهَارًا وَلَمْ يَحْفُ أَنْ يَحْيَا

(١) الفلال كمراب وسحاب : القليل . (٢) اتمر ما شئت : اصل ما شئت إما لا معنى لك أمرا .

(٣) تأطر : محدودة إحدى تأطيه ، أى تلى . (٤) الأيم : الحية . (٥) يقال : عقل الرجل

يقطع عقله . انتع في الحل ، وه سعى الرجل عاقلا على حد التسمية بالصفة ، ومنه المثل : « إما هو كارج

الأروى قليلا ما يرى » . والأروى : جمع أروية وهى تيرس الجبل البرية

فادا سعة نراعى نماعا * ومها بهج المساطريعا
 قلت من أتم قصدت وقالت * أميد^(١) سؤالك العالميا
 قلت والله ذى الحلالة لما أن تلت المواد أن تصدقيا
 أى من تجمع المواسم قولى . وأبنى لى ولا تحكيبيا
 نحن من ساكنى العراق وكما * قله قاطين مكة حيا
 قد صدقناك إذ سألت من أن * ست عسى أن يحمر شأن شؤنا
 وزرى أنتا عرفناك بالعد * يت ظنن وما قتلنا يقيا
 مسواد الثيبين ونعت * قد رآه لاطير مستيبا
 وقال فى الثريا وقد صرته .

من رسول إلى الثريا فإنى * صفت ذرعا بهجرها والكتاب
 سلتنى محامه المسك عقى * فسألوا ماذا أحل اعتصامى
 وهى مكنونة تحير منها * فى أديم الخدين ماء الشاب
 أبرزوها مثل المهاء نهادى * بين خميس كواعب أتراب
 ثم قالوا نحبها قلت بهرا * عدد القطر والحصى والزراب
 أزهدت أم وهل إذ دعيتها * مهضى^(٢) ، ما لقائلى من متاب
 حين قالت لما أجبى فقالت * من دعائى قالت أبو الخطاب
 فاستعابت عد الدعا كما لى * رجال يرحون حسن الثواب

(١) قال فى اللسان مادة مدد أنه أنورد هذا الشطر : « معاه أقسم أت سؤالك على الناس واحدا واحدا حتى نعمهم » . من الداد وهو أن يذ المال القوم فيقسم بينهم ، وأقدم المال والطاء . مره بهم ، والمراد لماذا تسألنا ! ألك حق السؤال على جميع الناس ! . أو معاه : « أأت ملزم سؤالك الناس ، من قولهم : مالك مه بى » ، والمراد : أأت ملزما الإحاطة عن سؤالك ! إذ لا نحيك . (٢) محامه المسك ، يريد بذلك وصفها طيب ريحها وأنه كالسك . (٣) نهادى ، يريد يندى مصبا مصا في مشيئا (الكامل للبرد طبع ليرح من ٣٧٩) . (٤) فى الكامل للبرد طبع ليرح من ٣٧٩ . أرهدت : أطلقت وأدعت قال الله عز وجل : (فدسه فإذا هو راقق) اه . يريد : أدعت أم وهل عسى إذ دعت الثريا لوصول طم نحبها .

ومن شعره :

كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ لَدَى كَتَبَ مُوَلَّهٌ يَجِدُ
 كَيْفَ وَأَكَيْفَ الْعَبِيدُ : ^(١) بِنَ الْحَسَرَاتِ مَعْدِدُ
 يُورِقُهُ لَيْبُ الشُّو ^(٢) فِي بَيْنِ السَّحْرِ وَالْكَدِ
 فَبَيْنِكَ قَلْبَهُ بِيَدِ وَتَمَحُّ عَيْنَهُ بِيَدِ

لما تزوج سُبَيْلُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الثُّرَا ونقلها الى الشام، بلغ عمرَ بَنِ أَبِي رُبَيْعَةَ الْخُبَرِ، فأبى للنزول الذي كانت الثريا تنزله، فوحدها قد رحلت منه يومئذ، فخرج في أثرها فلحقها على مَرَحَلَتَيْنِ، وكانت قبل ذلك مُهَاجِرَتَهُ لِأَمْرِ أُخْرَتِهِ عَلَيْهِ، فلما أدركهم زَلٌّ من فوسه ودفعه الى علامه ومشي مُتَنَكِّراً حتى مَرَّ بِالْحَيْمَةِ، فعرّفه الثريا وأثنت حركته ومشيته، فقالت لحاصتها : كُتِبَ، فسألت عليه وسأته عن حاله وعاتقه على ما بلغ الثريا عنه، فاعتذر وبكى، فكبت الثريا، فقالت ليس هذا وقت العتاب مع وشك الرجل، فحادثها الى وقت طلوع الفجر ثم ودّعها وبكاً طويلاً، وقام فرك فرسه ووقف يطرأ اليهم وهم يرحلون^(٥)، ثم أتبعهم بصره حتى عابوا، وأشأ يقول :

يَا صَاحِبِي قَبْلَ تَسْتَحِيرِ الطَّلَا .. عَنِ حَالٍ مَنْ حَلَّهَ بِالْأُمْسِ مَا فَعَلَا
 فَقَالَ لِي الرَّعْثُ لِمَا أَبَ وَقَفْتُ بِهِ .. ^(٦) إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَ النَّيْنِ فَاحْتَمَلَا^(٧)
 وَخَادَعْتُكَ الْبُؤَى حَتَّى رَأَيْتَهُمْ * ^(٨) فِي الْفَقْرِ يَحْتَثُّ حَادِي فَيُضِلُّهُمْ رَحِيلاً

(١) يقال : وكفمت العين : سالت دموعها . (٢) السحر الرقة .

(٣) أى مرقتها من الحرة . (٤) لحاصتها لمريتها . (٥) يرحلون يشدون على الممهم الرجال . (٦) أحد البز . اعتره . (٧) احتمل . ارتحل . (٨) البؤى : العراق والعد . ويحتث : يسوق . وزحلا : راحا صوته في حذاء الإبل لتسرع في السير، وأصل الرجل الحلبة وروى الصوت وحسن به التطريب، وأشد سبويه في وصف حار وحش :

له رجل كأنه صوت حاد * إذا طلب الوسيقة أو زعيم

وذكره في باب ما يحتمل الشعر من استباحة الضرورة، وهي ما حذف الوار الحية لحركة الماء في قوله : كاه . والوسيقة : أثناء التي يصدها ويجمعها ، من وسقت النى : جمعت .

لما وقفنا نحسبهم وقد صرخت هوائف البين وأستوت بهم أصلاً^(١)
صنت يماًداً وقالت لاتي معها ، مائه لوميه في ميس الذي فصلاً
وحديثه بما حدثت وأسبغى * ماذا يقول ولا تنبى به جدلاً^(٢)
حتى يرى أنت ما قال الوشاء له ، فينا لديه إلبا كله فُصلاً
وعريه به كالفرزل وأحفطى في ميس معتبه أن تميمي الرحلاً
فإن عهدي به والله يحفظه ، وإن أتى الذنب من يكره العدلاً
لو عندنا أغتیب أو نيك قيصته ، ما أب مفتاه من عندنا حيدلاً
قلت أسبغى فلقد ألغيت في لطف^(٣) وليس يحى على دى اللب من هزلاً
هذا أرادت به تحلاً لأعبرها ، وقد أرى أنها لن تدم العلال
ما سئى القلب إلا من تقلبه ، ولا الواد فؤاداً مبرأناً عقلاً^(٤)
أما الحديث الذي قالت أثبت به ، ما عبات به إد حانى حولا
ما إن أطمئت بها بالغيب قد طمئت ، مقالة الكاشع الواشي إذا تحلاً
إني لأرجعه فيها بسخطه * وقد يرى أنه قد غرنى زلالا
وهي قصيدة طويلة مذكورة في شعره .

(١) في ديوانه

لما وقفنا نحسبهم وقد شحطت * عامة البين فاستوت بهم أصلاً
وشحطت عامة البين : ارتحلوا ورجعهم البين ، وى اللسان مادة هم وشال ، يقال تقوم إذا ارتحلوا من منزلهم
أو تفرقوا : قد حمت عامتهم وشالت عامتهم ، والأصل : جمع أصيل وهو العشي وقيل هو مجرد ، أشد طلب :
وتعمدت هو لذلك ولم أرل * بدلا بهارى كله حتى الأصل
بقوله : بدلا بهارى ، يدل على أن الأصل هاهنا واحد . (٢) لا تنبى به جدلاً . لا تسمى ومحادثة .
(٣) القلب لسة في القلب . (٤) قال في اللسان . والتؤود . التوقد ، والوواد : القلب لتؤوده
وتوقده . وقال في القاموس وشرحه : والتؤود . التحرق والتوقد ، ومه الوواد قلب ، لأن عقل الوواد للعلومات
نتيجة اشتغاله وتوقده وتحركه وحركته بها حتى يهضبا ، ويمير الصحيح من العاصد والحق من الباطل .

وله :

هل تعرف الدار والأطلال والدما . زِدْتُ المِوَادَّ على عِلَاتِهِ حَرَمًا
 دَارُ لَأَسْمَاءَ قَدْ كَانَتْ تَحُلُّ بِهَا . وَأَمْتُ إِذْ ذَاكَ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ وَطَنًا
 لَمْ يَحِبِّ الْقَلْبُ شَيْئًا يَنْشَلُ حُكْمُ . وَلَمْ يَرَّ الْعَيْنُ شَيْئًا يَعْدُكُمْ حَسَا
 مَا أَبَى أُمَامِي أَدَامَ أَفْهَ قُرْنَكُمْ . مِنْ كَانَ شَطَطُ مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوْ طَعْمَا
 وَإِنْ تَأْتَيْتُمْ أَصَابَ الْقَلْبَ نَائِيكُمْ . وَإِنْ دَنْتُ دَارَكُمْ كُنْتُمْ لَنَا سَكَنًا
 إِنْ تَحَلَّى لَا يُسَلِّ الْقَلْبُ مُحَلِّكُمْ . وَإِنْ تُحَوِّدِي فَقَدْ عَيَّنِي زَمَانًا
 أَمْسَى المِوَادُّ نَكَمَ بِأَهْدُ مَرْمَهَا . وَأَبَتْ كُنْتُ الهَوَى وَالْمَهْمَ وَالْوَسَا
 إِذْ تَسْتَبِيكَ مَحْصُولٍ عَوَارِصِهِ . وَمُقَلَّتِي حُؤُودِي لَمْ يَعُدْ أَنْ شَدَمَا

وقال :

أَعْبَدُهُ مَا يَنْتَبِ مَوَدَّتِكَ الْقَلْبُ . وَلَا هُوَ يُسْلِيهِ رَحَاهُ وَلَا كَرْبُ
 وَلَا قَوْلُ وَائِشٍ كَانَتْ دَى عِدَاوَةٍ . وَلَا تُعْدُ دَارِي إِنْ نَأَيْتُ وَلَا قُرْبُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ نَعْمَى لَدَيْكَ أَصَابَهَا . وَلَعَكَّ حَسَا مَا يُقَارِبُهُ حُبُّ
 فَإِنْ فَتَسَلِّي بِأَعْبَدَ تَوْبَةً نَائِبُ . يَنْتُ ثُمَّ لَا يُوحِدُ لَهُ أَمْدًا دَنْتُ
 أَدِلُّ لَكُمْ بِأَعْبَدَ فِيمَا هَوَيْتُمْ . وَإِنِّي إِذَا مَا رَامَنِي غَيْرُكُمْ صَغْتُ
 وَأَعْدَلُ هَسَى فِي الهَوَى فَتَعَوُّفِي . وَيَأْصِرُنِي قَلْبٌ بِكُمْ كَلَّفَ صَبُّ
 وَفِي الصَّرْعِ لَمْ يُوَاتِيكَ رَاحَةٌ . وَلَكِنَّهُ لَا صَبْرَ عَدَى وَلَا لُبُّ
 وَعَبْدُهُ بِيَهَاءِ الْمَخَارِ طِفْلَةٌ . مُنْعَمَةٌ تُضَيِّى الْحَلِيمَ وَمَا تَصْبُو
 قَطُوفُ مِنَ الْحُورِ الْأَوَانِسِ الصَّحَى . مَتَى تَمِشُ قَيْسَ الْبَاغِ مِنْ بَيْرِهَاتَرُو
 فَلَسْتُ بِسَائِسٍ يَوْمَ قَالَتْ لِأَرْبَعِ . نَوَائِمَ غُرٍّ كَلَّهَتْ لَهَا زَرْبُ
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي فِيمَ كَانَ صُنُودُهُ . أَطْلَقَ أُخْرَى ! أَمْ عَلَى بِهِ عَضْبُ

وقال :

إِنْ طَيْفَ الْخَيْالِ حِينَ الْمَا هَاجَ لِي ذُكْرَةٌ وَاحَدَتْ مَهَا
جَلَدِي الْوَهْلَ يَأْسُكَيْنَ وَجُودِي لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْتَ يَرُدُّوهُمَا لَمْ فَتَرَمَا
وَلَقَدْ قُلْتُ مُخْفِيًا لَغْرِيصِ هَلْ تَرَى ذَلِكَ الْغَزَالَ الْأَحْمَا
هَلْ تَرَى فَوْقَهُ مِنَ الدَّاسِ شَخَصًا أَحْسَنَ الْيَوْمِ صُورَهُ وَأَحْمَا
إِنْ تُبْسِلِي أَعِشْ بِبَحْرِ وَإِنْ لَمْ تَنْدُلِي الْوَدَّ مَتَى لَمْ عَمَا

وله أيضا :

أَيَا مَنْ كَلَبَ لِي نَعْرًا وَتَمَعَا وَكَيْفَ الصَّبْرُ عَنْ نَعْرِي وَتَمَعِي
وَعَمَّنْ حِينَ تَذْكُرُهُ فُؤَادِي يَمِصُّ كَمَا يَمِصُّ الْعَرَبُ دَمْعِي
يَقُولُ الْعَادِلُونَ نَأَتْ قَدَعَهَا * وَدَلَّكَ حِينَ تَهْيَايَ وَوَلَبِي
أَأَجْمُرُهَا فَأَقْعُدَ لَا أَرَاهَا * وَأَقْطَعُهَا وَمَا هَمَّتْ بِقَطْعِي
وَأَضِرُّمُ حَالَهَا لِمَقَالٍ وَاشِ * وَأَلْجَعُهَا وَمَا هَمَّتْ مَعْجِي
وَأَقِصْ لَوْ حَلَوْتُ بِبَحْرِ هِنْدِ * لَصَاقَ بِبَحْرِهَا فِي السُّومِ دَرْعِي

وهو القائل .

مَا كُنْتُ أَشْعُرُ إِلَّا مُدَّ عَرَفَتُكُمْ أَنْ الْمَصَاحِعَ نَمِيَتْ تُبِيْتُ الْإِبْرَا
لَقَدْ شَفِيتُ وَكَلَّ الْحَيْنَ لِي سَبَا * أَنْ عُلِقَ الْقَلْبُ قَلْبًا يُشْبِهُ الْمَخْرَا
قَدْ كُنْتُ قَلْبِي فَأَعْيَايَ وَاحِدَةٍ * وَقَالَ لِي لَا تَلْنِي وَأَدْعِ الْقَدْرَا
إِنَّا نَكْرَهُ الْعُرْفَ يَحْمَرُّونَ غَيْرَكُمْ * وَلَسْتُ أَحْسِنُ إِلَّا لَنَحْوِكَ النُّظْرَا
قَالُوا صَوْتُ لَمْ أَكْذِبْ مَقَالَتَهُمْ وَلَيْسَ يَنْشَى الْعَصَا إِنْ وَالِهِ كِبْرَا

وقال أيضا :

الآلِيتُ قُبْرِي يَوْمَ تُقْصَى مَيْقَى • بَتْلَكَ الَّتِي مِنْ بَيْنِ عَيْتِكَ وَالْمِيعِ
وَلَيْتَ طَهُوْرِي كَانَ رِيْقِكَ كُلَّهُ • وَلَيْتَ حَوْطِي مِنْ مُشَائِكَ وَالْدَمِ
الْآلِيتُ أُمَ الْعَصَلِ كَانَتْ قَرِيْنِي • هُنَا أَوْ هُنَا فِي جَنَّةٍ أَوْ جَهَنَّمِ

طهر عُرْسُ أَبِي رُبَيْعَةَ فِي الطَّوْفِ إِلَى امْرَأَةٍ شَرِيحَةٍ رَأَى أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ صُورَةً،
مَدَّ يَدَهُ عَلَيْهِا وَكَلَّمَهَا فَلَمْ تُجِبْهُ، فَقَالَ فِيهَا :

الرِّيحُ نَسَحَ أَذْيَالًا وَنَشَرَهَا يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِّنْ نَّسَعِ الرِّيحِ
كَيْبًا تَجْرُسُ^(١) ذِيْلًا تَطْرَحُهَا • عَلَى الَّتِي دُونَهَا مُنْفَرِدَةٌ سَوْحٌ^(٢)
أَنْتِ بَقَرِيكُمْ أَمْ كَيْفَ لِي بِكُمْ • هَيْبَاتُ ذَلِكَ مَا أَمْسَتْ لَهَا رَوْحُ
فَلَيْتَ صِنْفَ الدِّيِّ الَّتِي يَكُونُ بِهَا • لَيْتَ صِنْفَ الدِّيِّ الَّتِي تَبَارِيحُ^(٣)
إِحْدَى بُيُوتَاتِ عَمِّي دُونَ مَنْزِلِهَا • أَرْضٌ قِيَمَاتِهَا الْقِيَصُومُ^(٤) وَالشَّيْخُ

فَلَمَّا شَعُرَهُ بِخَزَعَتْ مَدَّ، فَقِيلَ لَهَا : ادْكِرِيهِ لِرَوْحِكَ، فَإِنَّهُ سَيُكْرِ عَلَيْهُ قَوْلُهُ، فَقَالَتْ :
كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَشْكُوهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ. ثُمَّ قَالَتْ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ تَوَهُّائِي ظَالِمًا فَاخْلَعْهُ طَعَامًا
لِلرِّيحِ، فَصَرَبَ الدَّهْرُ مِنْ صَرَبِهِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَدَا يَوْمًا عَلَى فَرْسٍ فَهَبَّتْ رِيحٌ فَفَرَلْ فَاسْتَرَتْ
بَسَامَةً، فَصَصَمَتِ الرِّيحُ خَدَّيْهِ حُصْنًا مِنْهَا، فَدَعَى وَوَرِمَ بِهِ وَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ .

(١) هذا أحد الوجهين في الفعل الواقع صد كيا . الريح على أن ما كافتها من العبل، والصب على أن
ما رائدة وك ما كافتها فيها صد كيا . وقد روي الوجهين .

إذا أنت لم تنفع فصر فاعا . يرحم الله كيا يصر ويصع

(٢) معرفة، يريد بها العلة المهدية . (٣) سوح . جمع ساحة وهي الفصاء . (٤) تباريح
الشوق : توهجه، قال السيد محمد مرتضى : قال شيخنا وهو من الجوع التي لا مفرد لها وقيل : مفردة تباريح
وأستعمله المحدثون وليس شت . (٥) قال في اللسان : القيصوم : ما طال من العشب، ثم قال :
والقيصوم من سات السبل قال أبو حنيفة . القيصوم من الدكر ومن الأمر وهو طيب الرائحة من رياحين البر
وورده هذب وله نورة صفراء وهي تهص على ساق وتطول .

(ب) الغزل العذريّ

جميل^(١)

قال نُصَيْبُ مولى عبد العزيز بن مروان: قَدِمْتُ المَدِينَةَ فَمَسَّأْتُ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِهَا بالشعر،
فَقِيلَ لِي: الْوَلِيدُ بْنُ سَعِيدٍ الْأَنْصَصِيُّ، فَوَحَّدْتَهُ بِشَيْءٍ سَلَعُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ
وَعَدَدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَزْهَرَ، فَأَمَّا بِالْجُلُوسِ إِذَا طَلَعَ عَلَيَا رَجُلٌ طَوِيلٌ مِنْ الْمُكَيِّينَ يَقُودُ رَاحِلَةً

(١) هو جميل بن عبد الله بن ممر بن عذرة، وكان شاعرا صليبا مقفما حائما للشعر والرواية. اشتهر بحبه
شبية أسفه، ولذلك عرف بجميل شبية، وكأما يقفان في وادي القرى، وكان أول عهدهما وهي صيرة. ومن
أوائل طبعه فيها قوله:

وأقول ما قادم الحرة يسا * بوادي يهيم يا شيب ساب

وقلت لها قولاً لانت مثله * لكل كلام يا شيب حواب

ولم يحسن يراها حتى صارت شابة، فأحد يعلم القصائد فيها حتى اشتهر أمره. وأتفق مرة أن توبة من الحميز
صاحب ليل مر به عذرة فمأته شبية فحطت نظر إليه وجميل حاضرتا البيرة في قلب جميل، فقال لتوبة:
من أنت؟ قال: أنا توبة من الحميز، قال: هل لك في الصراع؟ قال: ذلك إليك، فأعطته شبية ملاءة حراء
فأتردها، ثم صار به صرعه جميل. ثم قال: هل لك في الصال؟ قال: مم، فاحمله فحمله جميل. ثم قال:
هل لك في الساق؟ قال: مم. فساهه فسقه جميل. فقال له توبة: يا هذا، إنما تحمل ذلك ربيع الخالصة،
ولكن احط ما الوادي، فحط، فصرعه توبة فحمله وسقه.

وكان عند شبية مثل ما عند جميل، ولما رأت ما فعله بها رادت شعاعه، ولكنهما لم يكونا يهتمان إلا جلسة
على موعد. ولم يكن جميل يخلو من الرقاء، لكنهم لم يستطيعوا دمية ربة. وأحاده منها كثيرة لا يسعها هذا
المقام. ولم يزل يجتمع بها سرا عن أهلها، فألحوا بالشكوى منه إلى العامل، فهدى إلى اليمن حتى عزل العامل. وانحج
أهل شبية الشام، فحمل جميل الهم، فصرده وشكوه إلى عشيرته، فصره أهله وهددوه، فاقطع عنها، وأحبرا
لها إلى مصر، وعاملها عبد البر بن مروان، فأحسن ومادته، وممر من هلك ومات. وكان طويل القامة
عريض بين المكبي جميل الحلقة حسن الثرة، توفي سنة ٨٢٢ هـ.

ولجميل ديوان شعر كبير كان مشهورا في أيام أس حلكان ولم تقف على حده، ولكن منه أشعارا بمجموعة في كتاب
منه نسخة خطية في مكتبة برلين.

أظهر الكلام على جميل في الأبيات ح ٧ ص ٧٧ وح ١ ص ٨٠ وابن حلكان ح ١ ص ١١٥ وجرارة
الأدب ح ١ ص ١٩١ والشعر والشعراء ص ٢٦٠

عليها ربة حسنة، فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أذهر : يا أما حَبْرَة، هذا جميل فادعه لعله يُشَدُّنا، فصاح به عبد الرحمن : هَيَّا جَمِيلُ، فَأَثَمْتُ فقال : من هذا ؟ فقال : أما عبد الرحمن بن أذهر، فقال : قد علمت أنه لا يَحْتَرَى عَلَى- إِلَّا مَثَلَك، فَأَتَاهُ، فقال له : أَنشدنا، فَأَنشدهم :

وَمَحَى مَتْنًا يَوْمَ أَوَّلِ نَسَامَا * وَيَوْمَ أَقَى وَالْأَسَنَةَ تَرَعَفُ^(١)
يُمِيتُ الْعَوَانِ الْبَيْضُ طَلَّ لَوَائِثَا * إِذَا مَا أَتَانَا الصَّارِحُ الْمُتَلَهَّفُ
نَسِيرُ أَمَامِ الْبَاسِ وَالْبَاسُ حَلَمًا * وَإِنْ نَحْنُ أَوْدَانَا إِلَى الْبَاسِ وَقَفُوا
فَأَيُّ مَعْدَنَ كَابٍ فِي رِمَاحِهِ * كَمَا قَدْ أَفَانَا وَالْمَعَانِرُ يُصَفُّ^(٢)
وَكَمَا إِذَا مَا مَعَشَرٌ نَصَبُوا لَنَا * وَمَرَّتْ حَوَارِي طَبْرِهْمُ وَتَعَبُوا^(٣)
وَصَعَمَا لَمْ صَاعَ الْقِصَاصِ رَهِيَةً * عَمَّا سَوْفَ يُوفِيهَا إِذَا الْبَاسُ طَفَعُوا^(٤)
إِذَا اسْتَقَى الْأَنْفُومُ مَجْدًا وَحَدَّثَا * لَنَا مَعْرَفًا مَعْدٍ وَلِلْبَاسِ مَعْرَفُ^(٥)
ثم قال له : أَنشدنا هَزَجًا، قال : وما المرح ؟ لعله القصير ! قال : نعم، فَأَنشدته :

رَسْمٌ دَارٍ وَقَفْتُ فِي طَلَلِهِ * يَكْدُتُ أَقْصَى الْحَيَاةِ مِنْ حَلَلِهِ^(٦)
مُوحِشًا مَا تَرَى بِهِ أَحَدًا * نَسَجَ الرِّيحُ تَرْبَ مَعْتَدِلِهِ
وَصَرِيحًا مِنْ التَّمَامِ تَرَقَّى * عَازِزَاتُ الْمَدَبِ فِي أَسَلِهِ
بَيْنَ عِلْيَاءٍ رَائِثِشِ فُلَى * وَالْعِيمِ الَّذِي إِلَى حَلَلِهِ
وَاقْفَا فِي دِيَارِ أُمِّ حُسَيْرٍ * مِنْ صَحَى يَوْمِهِ إِلَى أَصْلِهِ
بِأَحْلِيلِ لَيْلِ أُمِّ حُسَيْرٍ * حِينَ يَدُوثُ الصَّحْبِ مِنْ عِلَلِهِ^(٧)
رَوْصَةً دَاثَ حَنُوءٍ وَنُغْرَامَى * حَادٍ فِيهَا الرِّبْعُ مِنْ سَلَلِهِ^(٨)
بَيْنَمَا نَحْنُ بِالْأَرَاكِ مَعَا * إِذْ بَدَأَ رَاكِبٌ عَلَى بَحْمَلِهِ

(١) ترفع : تخطو دما . (٢) تبعوا : من البياضة، وهي زحار الطير والاعتزاز بأسمائها ومساقطها وأصواتها، فينشد أو يفتنهم . (٣) الصلح : قصر الكيل . (٤) من أحله . (٥) الطل : جمع علة، وهي ما يتوارى فيه أو شمار تحت الثوب . (٦) السل : المطر .

فَنَاطَرْتُ ثُمَّ قُلْتُ لَهَا * أَكْرِمِهِ حُبِّي فِي نُزُلِهِ
فَطَلَبًا بِعَمِيَّةٍ وَأَتَكْنَا * وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةِ
قَدْ أَصَوْنُ الْحَدِيثَ دُونَ أَحْج * لَا أَخَافُ الْأَذَاهُ مِنْ قِبَلِهِ
غَيْرَ نَفِيسٍ لَهُ وَلَا مَلِيحٍ * غَيْرَ أَنِّي أَتَمَعْتُ مِنْ وَحَلِهِ
وَحَلِيلٌ صَابِتٌ مَرْتَصِبًا ، وَحَلِيلٌ فَارِقْتُ مِنْ مَلَلِهِ

ثم افتاد راحته موليا، فقال ابن الأزهري . هذا أشعر أهل الإسلام، فقال ابن حسان :
عم والله وأشعر أهل الجاهلية، والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسبه، فقال عبد الرحمن
ابن الأزهري : صدقت .

قال محمد بن سَلَام : كَانَ لكَثِيرٍ فِي السَّيْبِ حَطٌّ وَافِرٌ ، وَجَمِيلٌ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ وَعَلَى
أَحْمَابِ السَّيْبِ فِي السَّيْبِ ، وَكَانَ جَمِيلٌ صَادِقُ الصَّبَابَةِ وَالْعَشْقِ ، وَلَمْ يَكُنْ كَثِيرًا مَعَاشِقَ
وَلَكِنَّهُ كَانَ يَقُولُ ، وَكَانَ الْبَاسُ يَسْتَحْسِنُونَ بَيْتَ كَثِيرٍ فِي النَّسَبِ ، وَهُوَ :

أُرِيدُ لِأَنِّي دَكَّرَهَا مَكَامًا * تَمَثَّلُ لِي لَيْسَ بِكُلِّ سَبِيلِ
وَرَأَيْتُ مِنْ يَمُصُّ عَلَيْهِ بَيْتَ جَمِيلِ :

حَلِيلِي فِيمَا عَشْتَاهُ هَلْ رَأَيْتَهَا : قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلَ

قِيلَ إِنَّ بَنِيَّةً وَاعِدَتْ جَمِيلًا أَنْ يَلْتَقِيَا فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ ، فَأَتَى لَوْعِدَهَا ، وَجَاءَ أَعْرَابِي
يَسْتَصِيفُ الْقَوْمَ ، فَأَنْزَلُوهُ وَقَرَّوْهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ رَأَيْتُ فِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي ثَلَاثَةً مَرْتَعَزِينَ
مَتَوَارِسِينَ فِي الشَّجَرِ وَأَنَا حَائِثٌ عَلَيْكُمْ أَنْ يَسْلُبُوا مَعْصِيَتَكُمْ ، فَمَرُّوْا أَنَّهُ جَمِيلٌ وَصَاحِبَاهُ ،
خَرَسُوا بَنِيَّةً وَمَعَهَا مِنَ الْوَدَاعِ بَوْعُهُ ، فَلَمَّا أَصْفَرَ لَهُ الصَّبِيحُ انْصَرَفَ كَثِيرًا سِيَّ الْغُلَّهَا
وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، بِجَمَلٍ نَسَاءَ الْحَيِّ يَقْرَعُنَهُ بِذَلِكَ وَيَقُلْنَ لَهُ : أَمَا حَصَلَتْ مِنْهَا عَلَى الْبَاطِلِ
وَالْكَذِبِ وَالْفُتُورِ ، وَغَيْرُهَا أَوْلَى بِوَصْلِكَ مِنْهَا ، كَمَا أَنَّ عَيْرَكَ يَحْكُمُ بِهَا ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

فأجبتها بالمولد بعد ستر * حتى بُيِّنَتْ عىِ وإصالكِ شاعلى
 أُبَيِّنُ إلكِ قد مَلَكْتَ ^(١) فأصيحى * وخُذِ بِحُطِّكَ من كَرِيمِ واصل
 طرَبَ عارِصِهِ عليا وصلها * بالحدِّ تحلِطه نقول المارل
 لو كان فى صدرى كَقَدْرِ قَلَامَةٍ * فضلاً وصلِّكِ أو أنثكِ رسائلى
 ويقل إلكِ قد رصبتَ بياطل * مها مهل لكِ فى اجتاب الباطل
 لِيُرْلَ عكِ هواى ثم يَصِلْتِى * وادا هَوَيْتُ ها هواى بزائل
 صادت هَوادى ما تُبَيِّنُ حالكم * يومِ المَحْضُونِ وأخطائكِ جبالى
 مَتَيْتِى قَلَوَيْتِ ما مَتَيْتِى * وجعلتِ حائل ما وعدتِ كآحل
 وتناقلتِ لما رأتِ كَلَمِى ها * أَحَبُّ إلى ذاكِ من متناقل
 وأطعتِ فى عوادلاً بهجرتي * وعَصَيْتُ بِكِ وقد جَهَدَنْ عوادلى
 حاولتى لأبُتِّ حَلَّ وصلكم * متى ولستُ وإن جَهَدَنْ بفاصل
 فرددتُهنَّ وقد سَعَيْتُ بهجركم * لما سَعَيْتُ لَهُ بِأَفْوَقِ ماصِل ^(٢)
 يَعْصَصُ من عَيْطٍ على أَمَامَلا * ووددتُ لو يَعْصَصُنَّ حُمَّ جَادِلِ
 ويقن إلكِ يا بُيِّنَ عَجَلَةً * نفسى فدائلكِ من ضيبي باحل

وقال جميل فى وعد شبيه بالطلاق وتأخرها قصيدة أولها :

يا صاح عىِ عص الملامة أَقْصِر * لِمِ المُنَى لِلْعاءِ أَمْ المِسْوَِرِ
 ومها :

وكأَنَّ طارِقها على طَلَّ الكَرَى * والنجمُ ومها قد دنا لتَعَوِرِ
 يَسْتَأْفُ ^(٣) رِيحَ مُدَامِهِ معجونة * بدكتِ مَسِكٍ أو يَحْيِي العسِيرِ

(١) أصحى . أحسن المعنى . (٢) الأفوق . السهم الذى كمرهقه ، وهو مشق رأس السهم حيث

يقع الرز . واصل . لا صل فيه . (٣) يستأف . يشتم .

ومنها :

إِنِّي لَأَحْفَظُ عَيْتَكُمْ وَيُسِّرُنِي * اذْذَكِّرِينَ بِصَالِحٍ أَنْ تَذَكَّرِي
وَيَكُونُ يَوْمٌ لَا أَرَى لَكَ مُرْسَلًا * أَوْ تَلْقَى بِهِ عَلَى كَأَنَّهُ
يَا لَيْتَنِي أَلْقَى الْمَيِّتَةَ مِتَّةً * إِنْ كَانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقَدَّرِ
أَوْ اسْتَطِيعَ تَجَلُّدًا عَنْ ذِكْرِكُمْ * فَيُعِيقُ بَعْضُ صَبَابِي وَتَعَكُّرِي

وفيه يقول :

لَوْ قَدْ تُخِّنُ كَمَا أُجِنُ مِنَ الْهَوَى * لَعَذَرْتَ أَوْ لَطَمْتَ إِنْ لَمْ تَعِذِرِي
وَأَقِ مَا لِلْقَلْبِ مِنْ عِلْمٍ بِهَا * عِزُّ الطُّبُونِ وَعِزُّ قَوْلِ الْغَضَبِ
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَمَزْتُكَ طَائِعًا * حَدَّثْتُ لِعَمْرِكَ رَائِعًا أَنْ تُهَجِّرِي
فَلْتَكِينِي الْبَايَاتُ وَإِلَّا أُخْ * يَوْمًا سَرَّكَ مُعَلِّيًا لَمْ أُعْذِرِ
يَهْوَاكَ مَا عَشْتُ الْعَوَاذُ فَإِنْ أَمْتُ * بَنَعَ صَدَائِي صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبَرِ
إِنِّي إِلَيْكَ بِمَا وَعَدْتِ لَأَنْظُرُ * نَفَرْتُ الْمَقِيرَ إِلَى الْعَنَى الْمُكْثَرِ
يَعْدُ الدِّيُونَ وَلَيْسَ يُجْزَى مَوْعِدًا * هَذَا الْفَرِيمُ لِيَ وَلَيْسَ بِمُعِيرِ
مَا أَمْتُ وَالْوَعْدُ الَّذِي تَعِدِينِي * إِلَّا كِبَرِي سَحَابَةً لَمْ تُمَطَّرِ
قَلْبِي بِصَحْتٍ لَهُ فَرَدْتُ نَصِيحَتِي * فَسَقَى هَجْرَتِيهِ فَهُوَ تَعَكُّرِي

وقال في إخلالها إِيَّاهُ هذا الموعد :

أَلَا لَيْتَ رِيْعَانَ الشَّبَابِ جَدِيدُ * وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُنَيْنِ يَمُودُ
فَتَقْنِي كَمَا كَانَا مَكُونًا وَأَنْتُمْ * قَرِيبٌ وَادِ مَا تَذْكُرِينَ زَهِيدُ
وَمَا أَنْسَ مِلْأَشْيَاءٍ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا * وَقَدْ قَرَبْتُ نِصْوِي أَمْرًا رِيدُ
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى * أَتَيْتُكَ فَاعْذِرْنِي فَدَتُكَ جَدُودُ
حَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرُ * وَدَمَعِي بِمَا قُلْتُ الْفِدَاةَ شَهِيدُ

ألا قد أرى والله أن ربّ عبّره * إذا الدار شطّط بيننا ستريد
 إذا قلت ما بي يا شَيْسَةً قاتلي * من الحبّ قالت ثابتٌ ويزيد
 وإن قلت رُدّي بعضَ عقلٍ أعشّه * مع الناس قالت ذاك منك بعيد
 فلا أنا مردودٌ مما حثّ طالبا * ولا حُبّها فيما يَبْدُ يَبْدُ
 جرتك الجوازي يا بين ملامّة * إذا ما حليلٌ بأنّ وهو حيد
 وقلتُ لها بئني وبيسك فاعلمي * من الله ميثاقٌ له وعهود
 وقد كارب حُبّكم طريقاً وتالفاً * وما الحبُّ إلا طارِفٌ وتلبس
 وإن عروض الوصل بيني وبينها * وإن سَهْلته لمانى لَصعود
 فأفيتُ عيشي باستطاري واهما * وأبليتُ ذاك الدهرَ وهو جديد
 طبت وثاةُ الناس بيني وبينها * يدوف لم سُمّا طاعلمُ سُود^(٢)
 وليت لم في كل مُتَمَتّى وشارقي * تصاعفُ أكبالٌ لم وقود
 ويحسب سوانٌ من الجهل أني * إذا جثتُ إياهن كستُ أريد
 فأقيم طرفي بينهما فيستوي * وفي الصدر بؤثٌ بينهن بعيد
 ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً * بوادي القُرى إني إذا لسعيد^(٣)
 وهل أهيطنُ أرضاً تطلُّ رباحها * لها بالثايا القوايات ويُبد^(٤)
 وهل ألقين سَعْدِي من الدهر مرةً * وما رثت من حل الصفاء جديد
 وقد تلتقي الأهواءُ من بعد يأسه * وقد تُطلبُ الحاحاتُ وهي بعيد
 وهل أزرَحُن حرقاً علاه شِمْلَةٌ * بحرقِ ثباريها سَوَاهُم قُود^(٥)
 على طهر مرهوبٍ كأنّ شوزّه * إذا جاز هلاكُ الطريق رُقود

(١) المروض الطريق في مرض الحول في مصبق . يريد الطريق إلى وصلها . (٢) يدوف :

يحلط . وطاعلم . جمع طلعتم وهو من في لسانه عجمة ، وأراد ما لاطمها : الخوايل . (٣) القوايات :

الحاليات . (٤) الويد : الصوت العالي الشديد . (٥) الحرف : اللاقة الصامرة الصلبة . والعلاة :

المشرقة الصلبة . والثملة : المريضة . والحرق : الأرض الواسعة . والساومة : اللاقة الصامرة .

سَهْنِي مَعِي جُؤْدَرٍ وَسَطَ دَرَبٍ * وَصَدِرَ كَمَاثُورُ اللَّجِينِ وَجِيدٌ ^(١)
 تَرِفٌ كَمَا زَاغَتْ إِلَى سِلَاحَاتِهَا * مُنَاهِبَةٌ طَلَا الْوِشَاحَ مَبُودٌ ^(٢)
 إِذَا حَتَّتْهَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ زَاثِرًا * تَقَرَّضَ مَقْوُضُ الْيَدَيْنِ صَدُودٌ
 يَصُدُّ وَيُغْنِي عَنْ هَوَايَ وَيَحْنِي . دُؤُومًا عَلَيْهَا إِنَّهُ لَقَسُودٌ
 فَأَصِيرُهَا حَوْفًا كَأَنِّي مُجَانِبٌ * وَيَمُكِّلُ عَا مَرَّةً مَعُودٌ
 فَمَنْ يُنْعَطِّ وَيُالدِيَا قَرِيبًا كَثَلُهَا * فَدَلِكُ وَاعِيشِ الْحَيَاةَ رَشِيدٌ
 يَمُوتُ الْمَسُودُ مَتَى إِذَا مَا لَقِيَتْهَا * وَيَمَيَّا إِذَا مَارَقَتْهَا فَيَعُودُ
 يَقُولُونَ حَايِدًا يَا جَبِلُ مَرْزُوقٌ * وَأَيُّ حِمَادٍ عِبْرَهُ أَرِيدُ
 لِكُلِّ حَدِيثٍ يَنْهَنُ بِشَاةٍ * وَكُلُّ قَتِيلٍ يَبْهَرُ شَيْدٌ
 وَمَنْ كَانَ فِي حَيٍّ بُنْيَةً يَمْتَرِي . فَبَرْقَاءُ دِي صَالٍ عَلَى شَيْدٍ
 أَلَمْ تَعْلَمْ يَا أُمُّ دِي الْوَدَّعَ أُنَى * أَصَاحَكُ دَكَرَاكُمُ أَيْتَ صَلُودٌ

عنث أمة لثينة الى أبيها وأحبا وقالت لها: إن حميلا عدها الليلة، فأتياها مشتملين
 على سيعين، فرأياه جالسا منها محمرا يمدحها ويشكو لها بشه، ثم قال لها: يا شينة، أرايت وذى
 إياك وشقى لك ألا تجزيه ^(١) . قالت: بماذا؟ قال: بما يكون من المتحامين، فقالت له:
 يا جليل، أهدا تبغى! والله لقد كست عدى بعيدا منه، ولئن طودت تعريضا بريه لا رأيت
 وجهي أبدا! فصحك وقال: والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عدك فيه، ولو علمت
 أنك تجيبينى لعلمت أنك تجيبين غيري، ولو رأيت منك مساعدة لصبرتك بسى هذا
 ما استمسك في يدي، ولو أطاعتني هسى لهجرتك هجرة الأبد، أو ما سمعت قولي:

وَإِنِّي لَأَرَى مِنْ بُنْيَةٍ فَالَّذِي * لَوْ أَنْصَرَهُ الْوَائِي لَقَسَرْتُ بَلَايُهُ
 بَلَا وَمَالَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْمُنَى * وَالْأَمَلِ الْمَرْحُوقِ قَدْ حَابَ آمَلُهُ
 وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلِ وَبِالْحَوْلِ يَقْصِي * أَوْانْخِرْ لَا تَنْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

(١) الماثور: الحوان من رهام أروسة أودع . (٢) في البيت إقرا، وهو اختلاف حركة الروي

مارع والدر . (٣) زاف . مجهر . (٤) أى ماحية .

فقال أوهها لأخيها : قم بنا ، ها ينبي لنا بعد اليوم أن ننع هذا الرجل من لقائنا
فانصرفا وتركاهما .

ومن قول جميل :

إن المازل هيَّجت أطراي * وأستججت آياتها بجوابي
قفرا تلوح بذي المئين كأنها * أنصاء رسيم أو سطور كتاب
لما وقعت بها القلوص تادرت * مني الدموع لفرة الأحباب
وذكرت عصرا يا بنية شاقى * وذكرت أيامي وشرح شبابي

لما ندر أهل بنية دم جميل وأهدره لهم السلطان صاقت الدنيا بجميل ، فكان يصفه
بالليل على قوز رمل ينتمس الريح من نحو حى بنية ويقول :

أيا ريح الشمال أما ترينى * أهيم وأحى يدي الحويل
هي لي نسمة من ريح نثي * ومنى الملبوب الى جميل
وقول يا بنية حب نفسي * قليلك أو أفل من القليل

ومن قوله :

يقيك جميل كل سوء أما له * لديك حديث أو اليك رسول
وقد قلت في حى لكم وصباي * محاسن شعرد كرهن يطول
فان لم يكن قولي رسالك فعلى * هبوب الصبا ياشن كيف أقول
فما غاب من عيني خيالك لحظة * ولا زال عنها والخيال يزول

ومنه :

حليلى تحوّا اليوم حتى تُسلّا * على عذبة الأنساب طيبة النثر
ألبّاها ثم اشفعا لي وسلّا * عليها سقاها الله من سائح القطر

إذا ما دنتُ زدتُ اشتياقا وإن نأتُ * حرعتُ لأى الدار منها وللمعد
أبى القلب إلا حُبَّ بقية لم يرد * سواها وحتَّ القلب شدة لا يحمدي
وفيها يقول :

سلى الركبَ هل غما لمفناك مرة * صُورَ المطامَ وهي مُوقرةٌ تحمدي^(١)
وهل فاضتِ العينُ الشروقُ بمائها * مِن أحلكِ حنى أحصلَ من دعمها ردى
وإنى لأستحري لكِ الطبرَ حاهدا * لتجري ثمَّي من لقاك أو سغد
وإنى لأستكى إذا الركبُ غرَّ دوا * بذكراك أن يجياك الركبُ إذ يحدي
فهل تحزبى أم عميرو وودها * فاك الذى أحى بها فوق ما أبدى
وكلَّ عتٍّ لم يرد فوق عهد * وقد ردتها فى الحتِّ مى على العهد
ومن قوله فيها :

لها فى سواد القلب حُ وسعة * هى الموتُ أو كادت على الموت تُشرِفُ
وما دكرتكِ العنَّسُ يا بشَّ مره * من الدهر إلا كادت العنَّسُ تلف
والا اعترى زفرةٌ واستكانةٌ * وحاد لها تحلُّ من العين يذرف
وما استطرفتِ عسى حديثا حلَّة * أسرُّ به إلا حديثك أطرف
وأقول هذه القصيدة :

أمنَ منزلٍ قفرٍ نعتتُ رسومَه * شمَّالٌ تُعاده وبكاءُ حَرْحَفٍ^(٢)
فأصبحَ قفرا بعد ما كان أهلا * وبجملِ المني تشنُّ به وُصَيْفٍ
ظَلَيْتُ ومُسْتَرٌّ من الدمعِ هاملُ * من العين لما نعتتُ فالدار نرف
أُمتصفتى جملَ قَمِيلٍ بيلنا * إذا حكمتُ والحاكم المدلُّ يُصِف
تَلفَّتْها والجسمُ منى مصعجُ * فما زال يئسُ حُبَّ جملٍ وأصعُفُ

(١) موقرة : محملة الوقر وهو الحمل . وحدي العريحيدي أسرع ورح قوائمه .

(٢) الحرف : الريح الباردة الشديدة الهبوب .

الى اليوم حتى سُئِلَ حَمِيٌّ وَشَفَّيَ * وَأَبْكُتُ مِنْ نَعْسِ الَّذِي كُتِبَ أَعْرَفُ
 قَسَاةً مِنَ الْمُرَانِ مَا هُوَ حَقُّهَا ^(١) * وَمَا نَحْنُ مِنْهَا تَقَا يَتَقَصَّفُ ^(٢)
 لَهَا مُقَلَّتَا رَيْمٍ وَجِبْدٌ جَدَايَةٍ ^(٣) * وَكَشَّحُ كَطَيِّ السَّابِرَةِ أَهْيَفُ
 وَلَسْتُ بِبَاسٍ أَهْلَهَا حِينَ أَقْبَلُوا * وَجَالُوا عَلَيَا مَالِ السُّيُوفِ وَطَوَّنُوا
 وَقَالُوا جَمِيلٌ مَاتَ فِي الْحَيِّ عِندَهَا * وَقَدْ حَارَدُوا أَسْيَافَهُمْ ثُمَّ وَقَفُوا
 وَفِي الْبَيْتِ لَيْثُ الْعَابِ لَوْلَا مَخَافَةُ * عَلَى نَفْسِ حَمِيلٍ وَالْإِلَهِ لِأَرْعَعُوا
 فَمَمْنْتُ وَقَدْ كَادَتْ مَرَارًا تَطْلُمْتُ * إِلَى حَرْبِهِمْ ضَمِيَّ وَفِي الْكَفِّ مُرْهَفُ
 وَمَا سَرَّقِي عَيْرُ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ * وَمَنِي وَقَدْ حَامُوا إِلَيَّ وَأَوْجَعُوا
 فَمَكْمُ مُرْغَبٍ أَمْرًا أُتْبِيعُ لَهُ الرَّدَى * وَمَنْ حَائِفٌ لَمْ يَنْقِصْهُ التَّخَوُّفُ
 وَمِنْهَا :

أَنْ هَمَمْتُ وَرَقَاءُ طَلَّتْ سَفَاهَةً * تُكَيِّ عَلَى حَمِيلٍ لُورِقَاءُ تَهْتَفُ
 فَلَوْ كَانَتْ لِي الْقَصْرُ بِإَصْبَاحِ طَاقَةٍ * صَرَمْتُ وَلَكِنِّي عَنِ الْعَصْرِ أَعْصَفُ
 قِيلَ : إِنْ مَرَّوَانُ طَلَبَ إِلَى حَمِيلٍ أَنْ يَنْزِلَ فَيَرْجِعَ بِهِ ، وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَمْدَحَهُ ، فَعَرِلَ
 جَمِيلٌ فَقَالَ .

أَمَا جَمِيلُ فِي السَّامِ الْأَعْظَمِ : الْعَارِجُ النَّاسِ الْأَعَزَّ الْأَكْرَمِ
 أَحْيَى ذِمَّتَارِي وَوَجَدْتُ أَقْرَمِي ^(١) * كَالْوَا عَلَى عَارِبٍ طَلُودٍ حَصْرَمِ ^(٢)
 * أَجِبَا عَلَى النَّاسِ فَلَمْ يُهْتَمَّ *

فَقَالَ : عَدَّ عَنْ هَذَا ، فَقَالَ جَمِيلُ :

لَهْفًا عَلَى الْبَيْتِ الْمَعْدَى لَهْفًا * مِنْ مَعْدٍ مَا كَانَ قَدْ اسْتَكْفَا
 وَلَوْ دَعَا اللَّهَ وَمَدَّ الْعَصَا * لَرَجَعَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ رَجْفًا

(١) الحقو : الحصر . (٢) يتقصف : يتجمل ويتقطع منه من مصر . (٣) الهداية :

المرآة . والباري : ثوب من أحوال الثياب منسوب إلى سائر على غير قياس . (٤) يرحبه : يفتده

أرجوزة . (٥) أنرم : جمع قرم (المنج) وهو السيد العظيم . (٦) حصرم : عظيم .

وطلب ذلك إليه الوليد فقال :

أنا جميلٌ في السَّامِ من مَعْدُ * في الذروة العليا والركن الأشدُّ
والبيت من سعد بن زيد والعددُ * ما يحنى الأعداءُ مَيَّ ، ولقد
أخبرني بالشَّتمِ لساي ومَرَدُ * أفودُ من شئتُ وصعبُ لم أَقْدُ
فقال له الوليد : اركبْ لاحمك الله ! وما مدح جميل أحدا قط .

ومن قول جميل في مُرَاجِرَةِ جَوَّاسِ بْنِ قُطَيْبَةَ ، وكان ذلك بوادي القُرَى .

يا أُمَ عبدِ المَلِكِ آمِيرِ مِني * فَبَيَّنِي صِرْمِي أَوْ صِلِينِي
أُنْكِ وما يُدْرِيكَ ما يُسْكِينِي * أَبْكِ حِذَارَ ابْنِ تُفَارِقِينِي
وتعْملُ أَسَدَ مَنِي دُونِي * إِنْ بِي عَمَّكَ أَوْ صَدُونِي
أَنْ يَقطَعُوا رَأْسِي إِذَا لَقُونِي * وَيَقْتُلُونِي ثُمَّ لَا يَدُونِي ^(١)
كَلَّا وَرَبَّ الْبَيْتِ لَوْ لَقُونِي * شَفَعًا وَوَرَثًا لَتَوَاكَلُونِي ^(٢)
قَدْ عَلِمَ الْأَعْدَاءُ أَنَّ دُونِي * صِرْبًا كَأَيِّزِ الْخَاصِ الْجُونِ ^(٣)
أَلَا أَسْتَ الْقِسْمَ إِذَا سُوِي * نَلَى وَمَا مَرَّ عَلَى دِينِ
وَسَابِحَاتِ بِلَوَى الْمُحْشُونِ * قَدْ جَزَعُونِي ثُمَّ جَزَعُونِي
حَتَّى إِذَا شَاوُوا وَشَدَّيُونِي * أَخْرَاهُمُ اللَّهُ وَلَا يَحْزُونِي
أَشْبَاهَ أَصْبَارٍ عَلَى مَعِينِ * أَحَسَّنَ حَسَنَ أَسَدِ حَرُونِ
مَنْ يَضْرِبُنَ مِنَ الْيَقِيرِ * أَنَا جَمِيلٌ فَتَمَرُّونِي
وَمَا تَقَعَّتْ فَتَمَكُّرُونِي * وَمَا أُعْنِيكُمْ لَتَسَالُونِي

(١) يدعى : من الدية وهي ما يعطى لوليِّ القَتِيلِ من المالِ هذه العس . (٢) تواكلونى . تزكونى .

(٣) أوردت الباقية سولها . رمت به دعة دعة . ومه الطعة تورع بالهم أى ترى به كذلك .

أُمِّي إِلَى عَادِيَّةٍ طَحُون * يَنْشَقُّ عَنْهَا السَّبِيلُ ذُو الشُّوْنِ
عَمْرُؤُفُ^(١) رُحَّ السَّيْنِ * ذُو حَدَبٍ إِذَا يَرَى جُمُونِ^(٢)
* تَحْلِلُ أَحْقَادُ الرِّجَالِ دُونِي *

ومن قوله يمدح أخواله من جُذَام :

حُدَامُ سِيُوفِ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْطِن * إِذَا أَرِزْتُ^(٣) يَوْمَ اللِّقَاءِ أَرَامُ
هُمْ مُمِعُوا مَا بَيْنَ مِصْرَ عَدَى الْقُرَى * إِلَى الشَّامِ مِنْ حِلٍّ بِهِ وَحَرَامُ
نَصْرِي يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَاتِهِ * وَطَعْنِي كَيْزَاعِ الْخِضَاصِ تَوَامُ
إِذَا قَصُرْتُ يَوْمًا أَكُفُّ قَبِيلَةٍ * عَنْ الْمَجْدِ نَالَتْهُ أَكُفُّ جُدَامِ

اجتمع جميل وعمرس أبي ربيعة بالأطح، فأنشده جميل قصيدته :

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأَشُونُ أَنْ صَرَمْتَ حَنِي * بُثْنَةً أَوْ أَبْنَتْ لَنَا جَانِبَ الْخُلِ
يَقُولُونَ مَهْلًا يَا جَبِيلَ وَإِنِّي * لَأُقْسِمُ مَا بِي عِ بَثْنَةٍ مِنْ مَهْلِ
أَحَلَّنَا قَبْلَ الْيَوْمِ كَانَ أَوَانُهُ * أَمْ أَخْشَى فَقَبْلَ الْيَوْمِ أُودِنْتُ بِالْقَتْلِ
لَقَدْ أَنْكَحُوا حَرْبِي نُبَيْتًا طَلِيئَةً * لَطِيئَةً طَى الْبَطْنِ ذَاتَ شَوَى جَرَلِ
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا سَاعِيًا بِجِيْمَةٍ * لَا تَحْرُمُ يَعْمِدُ نَكْفٍ وَلَا رَجَلِ
إِذَا مَا تَرَجَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بَنِيَّةً بِالْكُحْلِ
كَلَانَا بَنَى أَوْ كَادَ بَيْنِي صَبَابَةٌ * إِلَى الْفِيهِ وَأَسْتَمَجَلَتْ عَبْرَةً قَبْلِ
هَلْوِ تَرَكْتُ عَقْلِي مَعِيَ مَا طَلَسْتُهَا * وَلَكِنْ طَلَّابِيهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي
فَيَا وَخْ نَفْسِي حَسْبَ نَفْسِي الَّذِي بَهَا * وَيَا وَخْ أَهْلِي مَا أُصِيبُ بِهِ أَهْلِي
وَقَالَتْ لَا تَرَابَ لَهَا لَا زَعَاف * قِصَارُ وَلَا كُسُ الثَّنَايَا وَلَا تُعْلِلِ^(٤)

(١) يرف يحملها تسرع . (٢) ذو حدب ذو موح . (٣) أريز : هوى . (٤) أريز : هوى .

(٤) أريز : اشتدت . (٥) الكس : محركة : قصر الأسنان أو صعرها أو لصوقها بسوختها .

نقلت سه ولله هي فعلا : تراكت أسانها .

اذا حَمَيْتُ شَمْسَ الْهَارِ أَتَقِيهَا * نَاكِسَةِ الدِّسَاجِ وَالْخَزْدَى الْخَمَلِ
 تَدَاعَيْنِ فَأَسْتَجِمنَ مَشْيَا بَدَى الْعَصَى * دَيْبِ الْقَطَا الْكَذْرَى فِي الدَّمْتِ الْبَهْلِ
 اِنْدَا أَرْتَعْنَ أَوْ فَرَزَعْنَ فَنَ حَوَالَهَا * قِيَامَ سَاتِ الْمَاءِ (١) فِي حَانِبِ الصَّحْلِ (٢)
 أَيْدُكَ لَا أَلْقَى ثُنَيْنَةً مَرَّةً * مِنْ الدَّهْرِ إِلَّا حَانِئًا أَوْ عَلَى رِجْلِ
 حَبْلِي فَيَا عَشْتًا هَلْ رَأَيْتَا * قَتِيلًا نَكَى مِنْ حَبِّ قَاتِلِهِ قَبْلَ
 أَيْدِيٍّ مَعَ الْمُهْلَاكِ صَبَقًا لِأَهْلُهَا * وَأَهْلِي قَرِيبِ مُوسِعُونَ دَوُو فَصَلِ
 أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي حِيلَ دُونَهُ * يَا أُمَّتَ مِنْ بَيْتِي وَأَهْلِكَ مِنْ أَهْلِي
 ثَلَاثُهُ أَيْبَاءُ نَفِيتُ أَحَبَّهُ * وَيَتَانِ لَيْسَا مِنْ هَوَايَ وَلَا شَكْلِي

وقال في هجرته إياها بنينة :

أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّعَّ الْقَوَاءَ يَسْطِقُ * وَهَلْ تُخَيِّرُكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمَلِقِ (٣)
 وَقَعْتُهَا حَتَّى تَحُلَّتْ عِمَائِي * وَمَلَّ الْوَقُوفَ الْأَرْحَى (٤) الْمُسَوِّقِ
 تَعَزَّوْا وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَرِيمَةٌ * لَعَلَّكَ مِنْ رِقِّي لَبَنَةً تُنْتَقِ
 لَعَمْرُكَ إِنْ الْعِبَادَ لَشَانِقِي * وَسَعَى عَادِ الْبَيْتِ وَالْبَايَ أَشَوَقِ
 لَعَلَّكَ عَزُوزٌ وَمُنْدٍ صَابِئٌ * وَمُظْهَرُ شَكْوَى مِنْ أَنْاسٍ تَفَزَّقُوا
 وَبِيضٍ غَيْرِ يَرَاتِ ثُنَيْنِي خُصُورَهَا * إِذَا فَنَ أَعْجَارٌ ثَقَالٌ وَأَسْوَاقُ
 عَزَائِرُ لَمْ يَلْقَيْنِ رُؤْسَ مَعِيشَةٍ * يُحَيِّنُ بَهْرَتِ السَّاطِرِ الْمُسَوِّقِ
 وَظَلَمْتُ مَنْ وَجَدَ إِلَيْهِنَّ مَعْدَمًا * سَرَيْتُ وَأَحْشَانِي مِنَ الْخُوفِ تَحْقُقِ
 مَعِيَ صَادِقٌ قَدْ أَحَاصَ الْقَيْنُ صَفْلَهُ * لَهُ حِينَ أُعْشِيهِ الصَّرِيَّةَ رَوِّقِ
 فَلَوْلَا أَحْتَابِي صِقْنِ دَرْعًا بَزَائِرِ * بِهِ مِنْ صَابَاتِ الْبَيْتِ أَوْلَقِ (٥)

(١) سَاتِ الْمَاءِ : مَا يَأْتِي الْمَاءَ مِنَ السَّكِّ وَالطَّيْرِ وَالصَّاعِدِ (أَطْرَافِ الْمَصَافِ وَالْمَصَافِ إِلَيْهِ) .

(٢) الصَّحْلُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ عَلَى الْأَرْضِ لَا عَمَقَ لَهُ . (٣) الْهَلَاكُ : الصَّالِكُ . (٤) السَّاقِ :

الْقَاعُ الصَّغِيرُ . (٥) الْأَرْحَى : الْعَمَلُ الْعَبِيدُ نَسَبُهُ إِلَى أَرْحٍ وَهِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ هَمْدَانَ تَسَبُّ

إِلَيْهَا الْعَائِدَةُ الْأَرْحَى . وَالْمُسَوِّقُ : الْمَخْسُ الْمَرِيضُ . (٦) أَوْلَقِ : حَوَّنِ .

تَسُوكَ مُضْبَانِ الْأَرَاكِ مُفْلَعًا * يُسَمِّعُ فِيهِ الْفَارِسِيُّ الْمُرْقُوقَ
 أَشْنَةَ لِلْوَصْلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا * بَصَا مِثْلَ مَا يَنْصَوِّ الْخِصَابُ فَيَحَاقُ
 أَشْنَةَ مَا تَبَايَبَ إِلَّا كَأَنِّي * بِجِجَمِ الثَّرْيَا مَا نَأَيْتَ مُعَلَّقُ
 قَالَ الرَّشِيدُ لِإِسْحَاقَ الْمُوَصِّلِ : أَتَشْدُو أَحْسَنَ مَا يُحِبُّ فِي عَنَابٍ مُحِبٍّ وَهُوَ طَالِمٌ
 مَتَعْتَبٌ ، فَأَنْشَدَهُ قَوْلَ جَمِيلٍ :

رَدِ الْمَاءَ مَا حَدَّثَ بَعْفُودَنَائِهِ * وَدَمَهُ إِذَا خِصَّتْ طَرِيقُ مَشَارِهِ^(١)
 أَعَابُ مَنْ يَحُلُّو لَدَى عَنَابِهِ * وَأَتْرُكُ مَنْ لَا أَشْتَهِي وَأَحَابِهِ
 وَمَنْ لَدَى الدُّنْيَا وَإِنْ كَتَمْتَ طَالِمًا * عَاثُكَ مَظْلُومًا وَأَتَّ تَعَابِيهِ
 وَمِنْ قَوْلِهِ فِي زِيَارَةِ لَهُ :

زُورًا بَهِيَّةً فَالْحَبِيبُ مَزُورُ * إِنِ الزِّيَارَةُ لِلْحَبِيبِ يَسِيرُ
 إِنِ التَّرَحُّلُ أَنْ تَلَيْسَ أَمْرًا * وَأَعَاثُهَا قَدَرٌ أَحْمَ مَكُورُ
 إِلَى عَشْبَةٍ رُحْتُ وَهِيَ حَرِينَةٌ * تَشْكُو إِلَى صَابَةِ لَعَسُورُ
 وَتَقُولُ بِنْتُ عَدَى مَدِينَتِكَ لَبْلَةٌ * أَشْكُو إِلَيْكَ فَإِنْ دَاكَ يَسِيرُ
 غَرَاءُ مِسَامٍ كَأَنَّ حَدِيثَهَا * دُرٌّ تَحْتَدِرُ نَظْمُهُ مَشْتَوِرُ
 مَحْطُوطَةُ الْمُتَبَيَّنِ مُصَمَّرَةُ الْحَشَى * رِيًّا الرُّوَادِفِ حَلَقُهَا تَمَكُورُ^(٢)
 لَا حُسْبِيَا حُسْنُ وَلَا كَدَالَهَا * دَلٌّ وَلَا كُفُوفَارَهَا تَوْفِيرُ
 إِنِ السَّانَ مَذْكُورًا لَوْ كَلَّ * وَالْقَلْبُ صَادٍ وَالْخَوَاطِرُ صُورُ
 وَلَئِنْ حَرَيْتِ الْوَدَّ مَتَى مِثْلَهُ * إِنِّي بِذَلِكَ يَا سَيِّدَ جَدِيرُ
 وَصَلَّهُ فِيهَا أَبُو بِنِ عَمَّه رَوْقٌ ، فَقَالَ :

لَقَدْ لَأَمَنِي فِيهَا أَحُّ ذَوْ قَرَابَةٍ * حَبِيبٌ إِلَيْهِ فِي مَلَامَتِهِ رُشْدِي
 وَقَالَ أَفْنَى حَتَّى مَتَى أَنْتَ هَائِمٌ * بَيْتُهُ فِيهَا قَدْ تُعِيدُ وَقَدْ تُشْدِي

(١) الطَّرِيقُ الْمَاءُ الَّذِي حَوْصَهُ الْأَمْلُ وَقِيلَتْ بِهِ وَصَرَتْ .

(٢) مَحْطُوطَةُ الْحَبِيبِ مَعْدُونَتُهَا . وَالْمَكُورَةُ : الْمَطْوِيَّةُ الْحَقِي .

فقلتُ له فيها قصي الله ما ترى * على وهل فيما قصي الله من رَدَّ
 فإن يك رُشدًا حبها أو عوَاية * بعد حثُّه، ما كان مني على عهد
 لقد بَلَغَ ميثاقُ من الله بيننا * وليس لمن لم يُوفِّ الله من عهد
 فلا وأبها الحَبِيرُ ما خُتِ عَهْدُها * ولا لي عِلْمٌ بالذي فعلتُ بعدى
 وما رادها الواثُون إلا كرامة * على وما زالت مَوَدَّتُها عدى
 أرى الناس أمثالَ أختٍ لحالمٍ * كحالي أم أحبَّتْ من بينهم وحدي
 وهل هكنا يَلْقَى المحبون مثل ما * لَقِيتُها أم لم يجد أحدٌ وحدي

وقال فيها :

حليلٌ عوَّحا اليومَ حتى تُسَلِّما * على عدبة الأنبياء طيبة البشر
 إلينا ما ثم أشفعنا لي وسلِّما * عليها سقاها الله من سائح القطر
 ونوحا مذكرى صدقة وأنظرا * أترتاح يوما أم تهش إلى ذكرى
 فإن بك لم تقطع قُوى الودِّ بيننا * ولم تنس ما أسلفتُ في سالف الدهر
 فكيف يُرى منها آشتياقٌ ولوعةٌ * بيتي وعزُّي من مدامها يجرى
 وإن بك قد سالت عن العهد معدنا * وأصعنت إلى القول المؤنب والمزرى
 وسوف يُرى منها صُدودٌ ولم تكن * - بنفسى - من أهل النجاة والمدر
 أعوذُ بك اللهم أن تشحطَ النوى * بثمة في أدنى حياي ولا حشري
 ويجاوز إذا ما مِتُّ بني وبينها * فيا حندا موتي إذا حاورتُ قري
 عِدْمَتِكَ من حبٍّ أمانك راحةً * وما بك حتى من تَوَانٍ ولا قَرٍ
 ألا أيها الحبُّ المبرِّح هل ترى * أحا كَلْبٍ يُغري بحبِّ كما أُعبري
 أجنلك لا يتلى وقد بَلَ الهوى * ولا ينتهى حتى شينة للزحر

(١) هكذا وردت «مكيب» ولعلها سوف ليستقيم بها السياق .

ومن قوله فيها :

فَإِنِّي تَسْلُ عَكَ النَّفْسَ الْخَطْلَةَ الَّتِي * تُطِيلُ نَحْوِي بِهَا وَوَعْدِي
فَقَدْ طَالَمَا مِنْ عَيْرِ شَكْوَى قَبِيحَةٍ * رَضِيًا بِحُكْمِكَ غَيْرَ مُسَدِّدِ

ومنه :

شَيْئَ سَلِيلِي مَعْصَى مَالِي إِيَّامَا * بَيْنَ عَدِ الْمَالِ كُلِّ بِحِيلِ
إِنِّي وَتَعَكُّرَارَ الرِّيَاةِ مَحْكَم * لَيْتَ مَدَى هَمِّ شَيْئٍ طَوِيلِ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ تَقُولِينَ مَدَامَا * إِذَا نَحْنُ أَزْمَعَا عَدَا لِرَحِيلِ
أَلَا لَيْتَ أَيَّامَا مَضَيْنَ رَوَاجِعُ * وَلَيْتَ الْوَيْ قَدْ سَاعَدَتْ بِحِيلِ

ومنه :

أَتَحْسَبُ أَنْ طَرِثُ لِمَبُوتِ سَادِ * حَذَا بُرْلًا يَبْرُنُ يَطْلِي وَادِ
فَلَا تَحْسَبْ إِنْ هَلَاكَ أَمْسِي * لَشَقَّةٍ فِي السَّوَادِ مِنَ الْعَوَادِ

ومنه :

حَلِيلٌ عَوْحًا بِالْحَلَّةِ مِنْ جُمْلِ * وَأَثَرِيهَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالْخَلِيلِ
قِفْ بِمَخَانٍ قَدْ عَا رَسَمَهَا إِلِي * تُعَاقِبُهَا الْأَيَّامُ بِالزَّيْجِ وَالْوَيْلِ
مَلُودَرَجِ الْفُلِّ الصِّفَارُ بِحِلْدَا * لِأَتَدَبَّ أَعْلَى جِلْدَا مَدْرَجُ الْفُلِ
وَأَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ حَيْدًا وَمُقَلَّةً * تُسَنَّ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِ الْفُطْلِ^(١)

ومن قوله :

أَمِيكَ سَمَرِي يَا ثَنَ طَيْفِ تَأَوَّمَا * هُدُّوْا فَهَاجَ الْقَلْبَ شَوْقًا وَأَنْصَبَا
عَسَيْتُ لَهُ أَنْ زَارَنِي الْيَوْمَ مَصْجَعِي * وَلَوْ زَارَنِي مُسْتَقِظًا كَانَتْ أَعْجَبَا

لما قدم جميل من الشام بلغ بثينة خبره ، فرأسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها إليه ووجدتها به ، وطلبها لليلة في لقائه ، وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحلتها

(١) الفل : الرمح الدام من كل شيء .

طويلاً وأخبرها خبره بعدها ، وقد كان أهلها رَصَدوها ، فلما فَقدوها تَبِعَها أبوها وأحواها
حتى هجا عليهما ، فوثبَ جميلٌ فَأَتَمَّحَى سَيْفَهُ وشَدَّ عليهما ، فَأَتَقْيَاهُ بالحرب ، وماشِدَّتُهُ بِشِيَةِ
اللهِ إِلَّا أَنْصَرَفَ ، وقالت له : إنْ أَقَمْتَ فصحتي ، ولعلَّ الحَيَّ يَلْحَقُوكَ ، فأبى وقال :
أنا مقيمٌ وأمضي أنتِ وليصنعوا ما أَحَبُّوا ، فلم تزل تَتَأَشَّدُ حتى أَنْصَرَفَ وقال في ذلك ،
وقد هجرته وأقطعَ التلاقي بينهما مَدَّةَ :

هـى الدرُّ حُسْنًا والنساءُ كواكبٌ * وَشَتَانُ ما بين الكواكبِ والدرِ
لقد قُصِّلَتْ حَسَنًا على الناسِ مثل ما * على ألفِ شَهرٍ قُصِّلَتْ ليلَةُ القَدَرِ

وقال :

لقد خِفْتُ أن يَنفَتَنِى الموتُ عَنَوَةً * وفى النفسِ حَاجَاتُ اليك كَمَا هِيَا
وإني تُتَبِّئِنِي الحَفِظَةُ كَلَمًا * لِقَيْتِكَ يَوْمَا أبِ أَبْتُكَ ما يَيا
ألم تَمْلَى بِإِعْدَبَةِ الرِّبِيِّ أَنِّى * أَظَلَّ إِذَا لم أُسْقَ رِيْقَكَ صَادِيَا

ورحل الى مصر فادركته بها منتهى ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صَدَعَ النَّبِيُّ وما كُنْى بِجَمِيلٍ * وَتَوَى بِمِصْرَ ثَوَاءَ عِيرِ قُفُولِ
ولقد أَجَرَ الذَّيْلُ فى وادى القُرَى * نَشْوَانَ مِن مَزَارِعِ وَنَحْبِلِ
قَوْمِي بِشِيَةِ فَأَنْدُبِي بِسَوِيلِ * وَأَبْنَى حَلِيْلِكَ دُونَ كُلِّ حَلِيلِ

ولما أُثْبِتَتْ بِهِمُةٌ قَوْلَ جَمِيلٍ قالت :

وإن سُلُوِي عَنِ جَمِيلٍ لِسَاعَةً * مِنَ النَّهْرِ ما حانتِ وَلا حانَ حِيها
سَواءُ عَلِيَا يا جَمِيلُ بنَ مَعْمَرٍ * إِذَا مَتَّ بِأَسَاءِ الحَيَاةِ وَلِيها

وقال :

رَحَلَ الخَلِيْلُطُ جِمالَهُم بِسُودٍ * وَحَدَا على أَثَرِ البَخِيلَةِ حادى
ما إن شَعَرْتُ وَلا سَمِعْتُ بِيَتْنِهِم * حَتَّى سَمِعْتُ بِهِ الغَرَابَ ينادى

لَمَّا رَأَيْتُ الْبَيْتَ قُلْتُ لِصَاحِبِي * صَدَعْتَ مُصَدَّعَةَ الْقُلُوبِ فَوَادِي
 نَانُوا وَعُودَرِ فِي الدِّيارِ مَسْمُومٌ * كَلَّفَ مَذْكَرَكَ يَا بُنَيَّةَ صَادِي

وقال أيضا :

حَلِيلِي هَلْ فِي نَظْرَةِ مَعْدِ تَوْبَةٍ * أَدَاوِي بِهَا قَلْبِي عَلَى جُحُورٍ
 إِلَى رُجْحِ الْأَكْمَالِ هَيْبَ حُصُورِهَا * عَذَابِ النَّسَايَا رِيْهْنُ طُهُورٍ
 تَدَكَّرْتُ مِنْ أَحْسَنَتْ قُرَى اللَّهِ دُونَهُ * وَهَضْبُ لَيْثِيَا وَالْهَضَابُ وَعُورٍ
 قَطَلْتُ لَيْسِيكَ الْجُوحَيْنِ عَبْرَهُ * يُهَيِّجُهَا بَرْجُ الْمَوَى قَمُورٍ
 عَلَى أُنْبَى مَا لَبَّقَ مِنْ تَحْوِ أَرْضِهَا * إِذَا قَصُرَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ يَصِيرُ
 وَإِلَى إِذَا مَا الرِّجْ يُومًا تَسَمَّتْ * شَامِيَّةٌ عَادَ الْعِطَامُ قُتُورُ
 أَلَا يَا عَرَابَ الْبَيْتِ لَوْ أَنَّكَ شَاحَتْ * وَأَنْتَ بَرَوَاتِ الْفِرَاقِ جَدِيرُ
 فَإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ فَاصْبَحْتُ * هُمُومُكَ شَتَّى وَالْجَسَاحُ كَسِيرُ
 وَدُرْتُ مَاعِدَاءَ حَيْكِكَ فِيهِمْ * كَمَا قَدْ تَرَأَى مَالِحِيْبَ أَدُورُ
 وَكَيْفَ مَاعِدَاءَ كَأَنَّ عِيُونَهُمْ * إِذَا حَاطَ ابْتِئَانِي بُنْيَةَ عُورِ
 فَوَيْ فَإِنْ أَنْصَحْتَ مَالِحِبَ عَالِمَا * عَلَى مَا سَيَّبِي مِنْ قَدَى لَحِيرِ

وله أيضا :

فَلَوْ أَرْسَلْتُ يَوْمًا شَيْئَةً تَتَغَيَّرُ * يَمْنَى وَلَوْ عَزَزْتُ عَلَى يَمْنَى
 لِأَعْطَيْتُهَا مَا حَاءَ سَتْنِي رَسُولُهَا * وَقُلْتُ لَهَا مَعْدِ الْبَهِيمِ سَلِيلِي
 سَلِيلِي مَالِي يَا بُنَيَّةَ فَاِئْمَا * يُبَيِّنُ عِنْدَ الْمَالِ كُلِّ ضَمِينِ
 فَمَا لَكَ لَمَّا حَبَرَ النَّاسُ أُنْبَى * أَسَأْتُ ظَهَرَ الْغَيْبِ لَمْ تَسَلِيلِي
 فَأُنْبَى عُنْدُهَا أَوْ أَجَىءَ بِشَاهِدِ * مِنَ النَّاسِ عَذْلٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونِي
 وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَزْتُ عَلَى فَاِئْمَالِ * لَهَا بَعْدَ صَرْمٍ يَا بُنَيَّةَ سَلِيلِي

وَبُنْتُ قَوْمًا مِّكَ قَدْ تَدْرُو دَمِي * فَلَيْتَ الرِّحَالِ الْمُؤَصِّدِينَ لَقُوفِي
إِذَا مَا رَأَوْنِي مُقْبِلًا عَ حَيَاتِي * يَقُولُونَ مَنْ هَذَا وَقَدْ عَرَفُونِي

وله أيضا :

تَنَادَى آلُ بَنِيهِ بِالرَّوَّاحِ * وَقَدْ تَرَكُوا فُؤَادَكَ عَرَضًا
فِيَالِكَ مَنَظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ * تَحْتَانِي حِينَ أَمَعَنَ فِي الْعِيَابِ
وِيَالِكَ حُلَّةً طَفِرَتْ بِعَقْلِي * كَمَا طَفِرَ الْمُقَامِرُ بِالْقِدَاحِ
أُرِيدُ صِلَاحَهَا وَتَرِيدُ قَتْلِي * فَشَقَى سِرِّي قَتْلِي وَالصِّلَاحِ
لَعَمْرُائِيكَ لَا يُحْيِي عَهْدِي * تَكْهَنُكَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالسَّامِ
وَلَوْ أُرْسِلْتُ تَسْتَهْدِينِ هَمِي * أَنَاكَ بِهَا رَسُولُكَ فِي سَرَّاحِ

وله أيضا :

هَانَ يَكُ جُحَانِي بِأَرْضِ سَوَاكِمِ * هَانَ فُؤَادِي عِنْدِكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ
إِذَا قُلْتُ هَذَا حِينَ أَسْلُو وَأَحْتَرِي * عَلَى صِرْمِهَا ظَلَّتْ لَهَا الْقُفْسُ تَشْفَعُ
وإِذْ رُمْتُ هَمِي كَيْفَ آتَى لَصْرْمِهَا * وَرُمْتُ صَدُودًا ظَلَّتْ الْعَيْنُ تَدْمَعُ

وله أيضا :

أَلَمْ تَعْلَمْ يَا عِنْدَةَ الْمَاءِ أُنِي * أَطَّلْتُ إِذَا لَمْ أَسْقَ مَاءِيكَ صَادِيَا
وَمَا زِلْتُ بِي يَأْتُرُ حَتَّى لَوْ آمَى * مِنَ الْوَحْدِ أَسْتَسْكِي الْجَمَامَ بَكِي لِيَا
وَبَدْتُ عَلَى حُبِّ الْحَيَاءِ لَوْ أَنَا * يُزَادُ لَهَا فِي عَمَرِهَا مِنْ حَيَاتِيَا

وله أيضا :

وَقُلْتُ لَهَا أَعْتَظَّتْ بَعِزْدَنِي * وَشَرُّ النَّاسِ ذُو أَلْعُلِّ الْبَعِجِلِ
فَقَالَتْنِي إِلَى حَكَمٍ مِنْ أَهْلِي * وَأَهْلِكَ لَا يَحِيفُ وَلَا يَمِيلُ
فَقَالَتْ أَبْتَنِي حَكَمًا مِنْ أَهْلِي .. وَلَا يَذْرَى بِنَا آلُ وَاثِي الْخَوَلِ
فَوَلَّيْنَا الْحُكُومَةَ ذَا مُجْجُوفٍ * أَحَا دُنْيَا لَهُ طَرُفٌ مَكِيلِ

قفلاً ما قصبت به رصيا * وأنت بما قصبت به كفيل
 قصائدك ممد فاحكم طيبا * بما تهوى ورايك لا يميل
 فقلت له قُلتُ خير جُرم * وعيبُ الظلم مَرْتَعَةٌ وَيَسِيلُ
 قَسْلُ هَذِي متى قُصِيَ دُيونى * وهل يقصيك ذو العَلَلِ المَطُولِ
 فقالت إن ذاك كَيْبٌ وُطِّلُ * وسَرٌّ من خُصومته طَوِيلُ
 أَقْلُهُ ومالٍ من سَلاح * وما بى لو أَقَاتِلُهُ حَوِيلُ^(١)
 ولم أَحُدْ له مالا فَيُلْقَى * له دَيْنٌ عَلَى كَمَا يَقُولُ
 وعند أميرٍ حُكْمٌ وعدل * ورأى بعد ذلكُ أَصِيلُ
 فقال أميرًا هاتوا شهودا * فقلت شَهِيدًا الملكَ الجليلُ
 فقال يَمِينًا ومذاك أَقْصَى * وكلُّ قصائده حَسٌّ جَمِيلُ
 فَبَتُّ حَلَقَةً ما لى لِسِها * قَيرَ أَدْعِيهِ ولا قَتِيلُ
 فقلتُ لها وقد طَلَبَ التَّمَرِى * أما يَقْصِي لى يا بَشَّ سُوْلُ
 فقالت ثم زَجَّتْ حاجِبِها * أَطَلَّتْ وَلَسَتْ فى شَىءٍ يُعْطِيلُ
 فلا يَحْدِثُكَ الأَعْدَاءُ عدى * تَشْكَلْنِي وإِيَّاكَ التَّكْوِلُ

وله أيضا :

حَلَفْتُ يَمِينًا يا بُنَيْتُهُ صادقًا * إن كُنتُ فيها كاذبًا فَعَمِيْتُ
 إذا كان جِلْدٌ عَبرَ جِلْدِكَ مَسْنَى * وما شَرَرِى دُونَ الشَّعَارِ شَرِيْتُ^(٢)
 ولو أن راقى الموتَ يَرِنِ حَازِئِ * بِمَنْطِقِها فى النَّاظِقِينَ حَيِّتُ

وقال أيضا :

فقد لَانَ أَيَّامُ الصَّبَا ثُمَّ لم يَكَدْ * مِن الدَّمْرِ شَىءٌ بَعْدَهُنَّ يَلِينُ
 ظُلمَانٌ ما فى قُرْبَيْهِ لَذَى هَوَى * من الباسِ إِلا شِقْوَةٌ وَقُوفُ

(١) الحويل . القوة والخلق والقدرة على التصرف . (٢) يقال : شَرى حده : خرج عليه الشرى ،

وهو نود صغار حمر حكاكة مكررة تحدث دمة واحدة عالا وتشتد لئلا لعار حاز يشور في البدن دمة .

وواكلته والمسم ثم تركته * وى القلب من وخذ بهن رهين
 قوا حصرنا إن حبل بينى وبينها * ويا حين تسمى كيف فىك تيجين
 قشيب روعات العراق مفارق * وأشزن نفسى فوق حيث تكون
 شهدت بانى لم تغير مودنى * وأنى بكم حتى المات صين
 وأن فؤادى لا يلى الى هوى * سواك وإن قالوا بلى سليل
 وإنى لأستعنى وما بى حسنة * لعل لقاءى المسام يكون
 ولما علوت الأبتين تشوقت * قلوب الى وادى القرى وميون
 كأن دموع العين يوم تحملت * بثينة يسقىها الرشا ميعين
 ورحن وقد دعى صدى لبانة * لثمة سرى المؤاد كين
 كسر الثرى لم يسل الناس أنه * توى فى قرار الأرض وهو دفين
 فإن دام هذا الصرم منك فإني * لأعبر هارى الجانين رهين
 لكما يقول الناس مات ولم أهن * عليك ولم تنبت منك قرون

(ج) الغزل الصناعي

كثير^(١)

قال أبو الفرج قال محمد بن عبد الميز: ما قصد القصيدة ولا نعت الملوكة مثل كثير.
وقال إبراهيم بن سعد: إني لأروى لكثير ثلاثين قصيدة لو رُفِي بها محوُّ لأفاق، وكان
بعض أصحاب الحديث يأتونه، وهو خيث النفس، فيسألونه عن شعر كثير فتطيب نفسه
ويعدّتهم. وقال عبد الله بن أبي عبيدة: من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لا مئة فلم يجمع
شعره. وكان أن أبي عبيدة يملئ شعره ثلاثين ديواناً. وسئل مُصَنَّب: مَنْ أشعر الناس؟
فقال: كثير بن أبي جُمعة، وقال: هو أشعر من حرب والعزدي والرأعي وعائتهم، يعني الشعراء.
ولم يدرك أحد في مدح الملوكة ما أدرك كثير. وقال محمد بن سلام: كان كثير شاعر أهل
المخاز، وهو شاعر محل ولكنه مقوَّض حفظه بالعراق. وقال يونس الجحوي: كثير أشعر

(١) هو كثير بن عبد الرحمن من حواجة، ويعرف بكثير عزة، مئة إلى مئتين التي كان يشبها. وكان يدخل
على عبد الملك ويشده، وكان راصباً شديد النصب لآل أبي طالب، وكان عبد الملك يعرف ذلك به فلا يكرهه،
فإذا أراد أن يصدقه شيء، حلفه على. وكان له صديق اسمه حديق الأسدي، شديد التشيع مثله، وطلع من حواجة حديق
هذا أنه وقف مرة في الموسم والناس مردحون وقال: «أيا الناس، إنكم على غير حق، قد تركتم بيت دينكم والحق
لم وهم الأئمة» فوثب عليه الناس، صر يوه ورموه حتى قتلوه، ودم حديق شربوا، فقال إذاك كثير يرثيه.

أصادرة حجاج كعب ومالك * حل كل على صامر الطر بحق

مؤنسة ميا شاء عسر * لأهر من أولاد مرة عرق

والقصيدة طويلة. أما مشوقه عزة فهي بنت محمد بن قاض من صخرة، وكانت من أحسن النساء وأدهن
وأعقلهن. ويقال إنه لم ير لها وجهاً إلا أنه استبها فله لما ذكر له عنها. وعنه بعض أهلها فقالوا: «قد شبرت
هيك وشبرت صاحبنا ما كعب هيك» فقال: «إني لا أدكرها ما تذكرون»

وأحق حروجهم إلى مصر في عام الخلا، فتحهم على راحته فحروهم فأبى إلا أن يلحقهم، فمرص له مصعب
في مصر الطريق وقصوا عليه وحلوه في جيفة حمار ورجلها عليه فزعه صديقه حديق فأطلقه وألحقه سلاطه. وكان
كثير دميلاً قليلاً أحرقه بشر عظيم الهامة قبيحاً. وأكثر أشارته في عزة هذه. توفي سنة ٥١٠ هـ. وأحاروه كثيرة
محمداً في الأمان (ح ١١ ص ٤٦) و(ح ٨ ص ٢٧) و(ح ٧ ص ٧٨) والشعر والشعراء (ص ٣١٦) و(ص
ح ١ ص ٤٣٣) والقدح الجديد (ح ١ ص ١١٥ و ٢٠٣) وحواجة الأدب (ح ٢ ص ٣٨١) وله ديوان
شرحه أبو عبد الله الرضدي من نسخة حلية في الاسكوريال.

أهل الإسلام، وكان أبى أبى حفصة يسجبه مذهبه و المديح جدا، ويقول: كان يستقصي المديح، وكان فيه مع جودة شعره حُكْلٌ وعُجْب. وقال المسور بن عبد الملك: ما خُفِرَ مَنْ يروى شعر كثيرٌ وجميل ألا تكون عنده معنيتان مطربتان .

وكان قصيرا، قال الوقاصي : رأيتُ كثيرا يطوف البيت، فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذب . وكان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول : طأطأ وأسك لا يُصه السقف . وقال كثير : في أي شيء أعطى هؤلاء الأخوص عشرة آلاف دينار ؟ قالوا : في قوله فيهم :

وما كان مالى طارفاً من تخارية * وما كان ميراثا من المال مُثَلَدَا
ولكن عطايا من إمام مبارك * ملأ الأرض معروفا وجودا وسودا
فقال كثير : إنه لصريح قبحه الله ! ألا قال كما قلت :

دع عك سألني إدفات مَطلُها * وأد كر حليلك من سى الحكيم
ما أعطيانى ولا سألتهما * ألا وإني لحاجرى كرمى
إني متى لا يكن بواهما * عدى بما قد صلت أحشمت
مُدى الرضا عهما ومصرف * عن بصص ما لو صلت لم ألم
لا أنزr البائل الخليل إذا * ما أعتل نذر الطؤود لم ترم

وطلب من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أرضا له يقال لها : غُرب، وقتم بين يدي طلبه تلك الأبيات :

جرتك الجوازي عن صديقك نصره * وأدامك ربى في الرقيق المقرب
إليك لا يُعطى عليك طلامة * عدو ولا تئى عن المقرب
وانك ما تمنع إنيك ما بع * بحق وما أعطيت لم تتعقب

فقال له : أترعب عرما ؟ قال : هم يا أمير المؤمنين، قال : أكتبوها له ، ففعلوا .

(١) يقول . لا ألح عليه بالمسألة ، يقال : ررته أنزره إذا ألحت عليه . والطؤود : العاطة على أولاد ميرها . ولم ترم . لم تزام .

وُسِّيتَ كَثِيرٌ لَكثَرَةِ نَسِيهِ مَرَّةَ الصَّمْرِيةِ إليها، وعُرفَ بها قَبِيلٌ : كثيرَ عِزَّةٍ، وهى عِزَّةُ أبنَةِ حِيدِ بْنِ وَقَاصٍ. وكانَ أبتداءَ عِشْقِهِ إِيَّاهَا أَنَّهُ مَرَّةً بِسُوءٍ مِنْ بَنَى صَخْرَةٍ وَمَعَهُ جَلَبٌ عَنَمٌ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عِزَّةٌ وهى صَعِيْرَةٌ، قَالَتْ : يَقُلْنَ لَكَ السُّوءُ : بِمَا كَبَشْنَا مِنْ هَذِهِ النَّمَمِ وَأَنْسَلْنَا بِئِمَّهُ إِلَى أَنْ تَرْجِعَ، فَأَعْطَاهَا كَبِشًا، وَأَعَمَّتْهُ، فَلَمَّا رَجَعَ حَامَتُهُ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ بِدِرَاهِمِهِ، فَقَالَ : وَأَيْنَ الصَّبِيَّةِ الَّتِي أَحَدْتُ مِنِّي الْكَبِشَ ؟ قَالَتْ : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَهَذِهِ دِرَاهِمُكَ ؟ قَالَ : لَا أَخَذْتُ دِرَاهِمِي إِلَّا مِنْ دَمْعَتِ الْكَبِشِ إِلَيْهَا، وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

قَعَى كُلُّ ذِي دِينٍ هَوًى عَرِيْمَةً . وَعِزَّةٌ مَمْلُوءٌ مُعْنَى غَرِيْمُهَا
مَكَانَ أَوَّلِ لِقَائِهِ إِيَّاهَا . ثُمَّ قَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظْرَةً وَهِيَ عَاطِيَةٌ * عَلَى حِينٍ أَنْ شَبَّتْ وَبَانَ نُهْودُهَا
وَقَدْ دَرَعُوهَا وَهِيَ دَاتٌ مُؤَصِّدٌ * مَحُوبٌ وَلَمَّا يَلْبَسِ الدَّرْعَ رِيْدُهَا
مِنْ الْخَيْمَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَ حَالِيْسُهَا * إِذَا مَا أَقْبَصْتَ أَحَدُوْنَهُ لَوْ تَبَسَّيْهَا
نَظَرْتُ إِلَيْهَا طَلْرَةً مَا يَسْرَى * بِهَا حُمْرُ أَنْفَامِ الْبِلَادِ وَسُودُهَا
وَكُنْتُ إِذَا مَا حَفَّتْ سَعْدَى أَرْضَهَا * أَرَى الْأَرْضَ تُطَوِّىلِي وَيَدْنُو بِمِيدَهَا
ثُمَّ أَحْبَبْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ عِزَّةً أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا .

قالَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ الْأَسْلَمِيِّ : دَخَلَتْ عِزَّةٌ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَقَدْ عَجَّزَتْ ؛ فَقَالَ لَهَا : أَيْتِ عِزَّةٌ كَثِيرَةٌ ؟ فَقَالَتْ : أَمَا عِزَّةُ بِنْتِ حَمِيدٍ ؟ قَالَ : أَنْتِ الَّتِي يَقُولُ لَكَ كَثِيرٌ : لَعِزَّةٌ مَأْرُومَةٌ تَبُوحُ كَأَنَّهُهَا * إِذَا مَا رَمَقْتَاهَا مِنَ الْبَعْدِ كَوَكَبُ

فَمَا الَّذِي أَعْجَبَهُ مِنْكَ ؟ قَالَتْ : كَلَّا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقَدْ كُنْتُ فِي عَهْدِهِ أَحْسَنَ مِنَ الْبَارِ وَالْبَيْلَةِ الْقَرَّةِ . وَيُرَوَّى أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ : أَعْجَبَنِي مَا أَعْجَبَ الْمُسْلِمِينَ مِنْكَ حِينَ صَبَرْتُكَ حَلِيفَةً، وَكَانَتْ لَهُ سِسُّ سُودَاءٍ يَجْعَلُهَا، فَصَحَّكَ حَتَّى بَدَتْ، فَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ أَنْ أَبْدِيَهُ ؛ فَقَالَ لَهَا : هَلْ تَرَوِينَ قَوْلَهُ :

(١) مؤد . ألسى الأصد (بالهم) وهى قيس صعيد يس تحت أثوب . والمجرب : القميص ذو الجلب .

والرند (سرو ولا هجر) : الترب . (٢) توج : محمد .

وقد زَعَمْتُ أنى تَغَيَّرَ سَدْحَا * ومن ذا الذى يا عَزْرَ لا يَتَمَيَّرُ
تَمَيَّرَ جَسْمى وَالْخَلِيقَةُ كَالْتِ * عَهْدَتِ ولم يُحْمَرْ سِرْكُ عُمَرُ

قالت : لا أروى هذا، ولكنى أروى قوله :

كأنى أنا دى صحرة حين أَعْرَضْتُ * من العُصْم لو تَمَنَّى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفْوَحًا ما تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * من مَلَّ منها ذلك الوَصْلُ مَلْتُ

فاصر بها، فأدخلت على عاتِكة بنت يزيد، فقالت لها : أرايت قول كثير :
قصى كل دى دى موقى عريمه * وعزرة تمطول ممتى عريمها
ما هذا الذى ذكره ؟ قالت : قُبْلَةٌ وعدته إياها، قالت : أنجزها وعلى إثمها .

ومما قال فيها :

حليل هذا رَسَمُ عَزْرَةٍ فَاعْقِلَا * قَلُوصِيكَما ثم أَيْكَا حيث حَلْتُ
وما كنتُ أدرى قبل عَزْرِهِ ما الْبِكا * ولا مُوجِعَاتِ القلبِ حتى قَوَّلْتُ
فقد حَلَفْتُ جَهْدًا بما نَحَرْتُ له * قَرِيضُ عِدَاةِ الْمَأْزِمِينَ ^(١) وَصَلْتُ
أُنَادِيكَ ما تَحَّجَّجُ الْحَجِيجُ وَكَبَرْتُ * هَيْمًا عَزَالِ رُقْعَةً وَأَهَلْتُ ^(٢)
وكانت لَقَطْعُ الجبلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا * كَنَازِدَةٍ نَدْرًا وَفَتْ فَاحَلْتُ
فقلت لها يا عَزْرَ كل مصيبة * اذا وُطِئَتْ يوما لها العُصْمُ ذَلْتُ
ولم يَلْقُ إنسانٌ من الحبِّ مَبِيعَةً * تَمُّمٌ ولا عَمَاءُ إِلَّا تَجَلَّتْ
كأنى أنا دى صحرة حين أَعْرَضْتُ * من العُصْم لو تَمَنَّى بها العُصْمُ زَلْتُ
صَفْوَحًا ^(٣) ما تَلْقَاكَ إِلَّا بِحِيلَةٍ * من مَلَّ منها ذلك الوَصْلُ مَلْتُ
أباحثِ حِمَى لم يَرَعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا * وحَلْتُ يَلَاعا لم تَكُنْ قَبْلُ حُلْتُ

(١) المأزبان : بين مرة والمردفة . (٢) هيماء عزال : هيماء حيث يزل الناس فيها

ال الأصح . وأناديك : أجالسك ، مأخوذ من التدى والادى حريا وهما المجلس .

(٣) الصروح . المرة .

فَلَيْتَ قُلُوصِي عَدَّ عَزَّةً قُبَيْدَتِ * بجمل ضعيف عَزُّ منها فَضَلَّتِ
وَعُوْدِرَ فِي الْحَيِّ الْمُقْبِيْنَ رَحْلُهَا * وَكَانَ لَهَا بَايَعُ سِوَايَ قُبَيْدَتِ^(١)
وَكَيْتَ كَدَى رَحْلَيْنِ رَحْلٍ مَحْبِيحَةٍ * وَرَحْلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانُ فَشَلَّتِ
وَكُنْتُ كَذَاتِ الظَّلْغِ لَهَا مَحَامَلَتِ * عَلَى طَلْعِهَا مَعْدُ الْعِتَارِ اسْتَقَلَّتِ
أُرِيدُ الشَّوَاءَ عِندَهَا وَأَطْنَهَا * إِذَا مَا أَطْلَعْنَا عِندَهَا الْمُنْكَتَ مَلَّتِ
هِيَ أَنْصَفَتْ، أَمَّا النِّسَاءُ فَمَقَصَّتِ * إِلَيَّ وَأَنَا بِالْأَسْوَالِ فَصَبَّتِ
يُكَلِّفُهَا الْعَمِيرَانُ شَقِيَّ وَمَا هِيَ * هَوَانِي وَلَعَكِي لِيكَ اسْتَنْدَاتِ
هَيْبَتَا مَرِيئَاتٍ عِيْرَاءَ مُخَامِرٍ * لَعَزَهُ مِنْ أَعْرَاصِهَا مَا اسْتَحَلَّتِ
مِوَاقِفِهِ مَا قَارَنْتُ إِلَّا تَنَاعَدْتُ * نُهُرْمَ وَلَا أَكْثَرْتُ إِلَّا أَقَلَّتِ
إِنْ تَكُنِ الْعَنِيَّ^(٢) فَاهْلًا وَمَرْحَا * وَحَقَّتْ لَهَا الْعَنِي لَدَيْنَا وَقَلَّتِ
وَإِنْ تَكُنِ الْإِثْرَى^(٣) إِيَّابَ وَرَاءِهَا * مَتَادِحُ^(٤) لَوْ سَارَتْ بِهَا الْعَيْسُ كَلَّتِ
حَلِيلِي إِنْ الْحَاجِيَّةَ طَلَعْتُ^(٥) * قُلُوصِيكَ وَنَاقِي قَدْ أَكَاثِ
فَلَا يَتَعَدُّنْ وَضُلُّ لَمِزَةٍ أَصَحَّتِ * مَعَاقِبِي أَسَاءَهُ قَدْ تَوَاتَتْ
أَسِيْنِي بَسَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةٍ * لَدَيْهَا وَلَا مَقْلَبَةٍ إِنْ تَهَلَّتِ
وَلَكِنْ أَيْبَلِي وَأَذْكَرِي مِنْ مَوْدَةٍ * لَأُخْلَعَنَّ كَانَتْ لَدَيْكُمْ فَطُلَّتِ^(٦)
فَإِنِّي وَإِنْ صَدَقْتُ لَمُنِّي وَصَادَقْتُ * عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْهَا أَزَلَّتِ^(٧)
هِيَ أَمَا بِالْدَاعِي لَمِزَةٍ بِالْحَوِي * وَلَا شَايْتُ إِنْ نَعَلْتُ عَزَّةً زَلَّتِ
فَلَا يَحْسِبُ الْوَاشُونَ أَنَّ صَابِغِي * بَعِزَّةً كَانَتْ غَمْرَةً فَجَلَّتِ
فَاصْصَحْتُ قَدْ أَتَلَّكَ مِنْ دَيْفِهَا^(٨) * كَمَا أَذِيَهَتْ هَيْمَاءُ ثُمَّ اسْتَبَلَّتِ

(١) لَيْتَ : دَهَتْ . (٢) الْعَنِي : الْإِثْرَى ، يُقَالُ : مَا تَمَى فَلَا مَأْنِيَّةَ إِذَا رَحَتْ عَمَامَتِكَ طِبْعُ ،

وَالْعَنِي الْأَمُّ وَالْإِثْرَى الْمَصْدَرُ (٣) الْمَادِحُ : الْمَازِزُ . (٤) الطَّلَحُ : الْمَيِّ الَّذِي يَقُطُّ مِنَ الْأَشْيَاءِ .

(٥) طَلَّتْ : هَدَرَتْ . (٦) أَرَلْتُ : أَصْطَلَمْتُ . (٧) يُقَالُ : ذَلَّ مِنْ مَرَضِهِ وَأَمَلَّ وَاسْتَبَلَّ إِذَا

رَأَى وَالْهَيْاءُ : الَّتِي أَصَابَهَا دَاءُ الْهَيْامِ ، وَهُوَ دَاءٌ يَصِيبُ الْإِبِلَ مِنْ مَاءٍ تَتْرَهُ مُسْتَقْعًا فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ لِاتْرَحَى .

مواثقه ثم الله ما حَلَّ قَلْبُهَا * ولا بعدا من حُلَّةٍ حيث حَلَّت
وما مَرَّ من يومٍ على كيومها * وإن عَظُمَتْ أَيَّامُ أُخْرَى وَحَلَّت
وأخضت بأعلى شاهقي من فؤاده * فلا القلبُ يَسْلَها ولا العينُ مَلَّت
فياغما للقلب كيف أمَّراه^(١) * وللنفس لما وُطِنَتْ كيف ذَلَّت
وإلى وتَيَّامِي مَعْرَةَ بعد ما * تَحَلَّت مما بيننا وتَحَلَّت
لكالمُرَّيحي طِلَّ النَمامة كلها * تَوَّأ منها لِلْقِيلِ أَصْغَمَلَّت
كأنى ولماها مَحْابَةِ مُجِحل * رَجَّاهَا فلما حَاوَزَتْهُ أَصْهَلَّت
فإن سأل الوائسون فيم هَجَرَتْها * فقل نفسُ حُرٍّ سَلِيتَ فَسَلَّت
قال ابنُ سلام : كان كثير مدحيا ولم يكن عاشقا، وكان جميل صادق الصباية والعشق.
وأخبرته عِزَّة دات مرة فوحدت علامة ذلك، وكانت مستقبلة فأسعرت، فأطس ولم ينطق^(٢)
وبُيَّت، فلما مصت ألسنا يقول :

ألا ليتني قبل الذي قلت شِيتَ لي * من السم خَصْصا ض بماء الدِّراخ^(٣)
فمت ولم تعلم على خيائنة * وكَم طالِب للريح ليس براجم
أبوؤ بذني ، إني قد ظلمتُها * وإلى يباقي سرها غير بائع
ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

وَلَيْتَ لَمْ تَنْسَئْ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ * بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ عُحْرِم
وَقَلَّتْ فَصَدَّقْتَ الَّذِي قُلْتَ بِالْدي * مَلَّتْ فَاغْصَى راصِبًا كُلَّ مُسْلِم
ألا إنما يكفي الفتى حد زَيْفِهِ * من الأود الباقى نَقَافُ المَقُومِ
لَقَدْ لَيْسَتْ لَيْسَ المُلُوكُ بِيَابِها * تَرَأَى لَكَ الدُّنْيَا يَكْفُ وَيَمْعَم
وَتُومِصُ أحيانا بعي مرصصة * وتَنِيمُ عن مثل الجُبان المُنْظَمِ

(١) أمراه : اصطباره ، يقال . رلت به مصبة فوجد عروفا ، أى صورا .

(٢) أطس . انكسر و ر د . (٣) الدراخ : دويبة حراء مغطاة أسود تطير ، وهي من السوم

القائمة ، والدراخ حمه . هذا أسود لا خورة فيه تهاه الإبل الحر .

فأعرضت عنها مُشَمِّرًا كأنما * سَقَتِكَ مَدُونًا من سِجَامٍ وَعَلِمَ
وقد كَتَمْتَ من أحبالها في مُنَمَّع * ومن بحرِها في مُزِيدِ الْجُودِ مُفَعَّم
وما زِلْتَ سَلَاقًا إلى كل عَايِدٍ * صَعِدْتَ بها أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمَقْدَمِ
فلما أَتَاكَ الْمَلِكُ عَفَّوًا ولم يكن * لَطَالِبَ دُنْيَا عَدُوٍّ من تَكَلُّمٍ
تَرَكْتَ الَّذِي يَقْنَى وَإِنْ كَانَ مُوقِنًا * وَأَثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَنَّمٍ
فأصْرَدْتَ بِالْعَالِي وَشَمَّرْتَ لِلدِّي * أَمَامَكَ فِي يَوْمٍ من الهَوْلِ مَظْلَمِ
ومالكَ أَنْ كُنْتَ الْخَلِيفَةَ مَاعً * سَوَى اللَّهِ مِنْ مَالٍ رَعِيبٍ وَلَا دَمِ
سَمَا لَكَ هَمٌّ فِي الْفُؤَادِ مُؤَرِّقٌ * صَعِدْتَ بِهِ أَعْلَى الْمَالِ يُسَلِّمُ
فأبَيْنَ شَرَّ الْأَرْضِ وَالْعَرَبِ كُلِّهَا * مَادِي يَادِي مِنْ فَصِيحٍ وَأَعِجَمِ
يَقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ طَلَعَتِي * أَخَذَ لِدِسَارٍ وَأَخَذَ لِدَرَمِ
وَلَا بَسِيطَ كَفٍّ لَأَمْرِيءٍ طَالَمَ لَهُ * وَلَا السَّيْكَ مِنْهُ طَالَمَا مَلَّ نَحْمِ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ الْمَسْلُومُونَ تَقَسَّمُوا * لَكَ الشُّطْرُ مِنْ أَعْمَارِهِمْ حَيْرٌ نَدَمِ
مِشَتْ بِهِ مَا حَتَّ اللَّهُ رَاكِبًا * مُقَدِّمُطِيفٌ بِالْمَقَامِ وَزَمَرِ
فَارْتَفَحَ بِهَا مِنْ صَفْقَةِ لِبَايَعٍ * وَأَعْظَمَ بِهَا أَعْظَمَ بِهَا ثُمَّ أَعْظَمِ
ومن نسيبه مَرْزُومًا أُنْجِرَتْ إِلَى مِصْرَ :

لَمَرَّةً مِنْ أَيَّامِ دِي الْفَصْحِ شَافِي * يَصَاحِي قَرَارَ الرُّوسِيِّينَ رُسُومِ
هِيَ الدَّارُ وَحَشَا حَيْرَ أَنْ قَدْ يَحْتَلُّهَا * وَيَقْنَى بِهَا شَخْصٌ عَلَى حَكِيمِ
فَأَيَّسُومُ الدَّارِ لَوْ كُنْتَ عَالِمًا * وَلَا بِالْإِتْلَاعِ الْمُقْوِيَّاتِ أَهْمِ^(٣)
سَالَتْ حَكِيمًا أَيْنَ شَطَّتْ بِهَا التَّوَى * نَحْبَرِي مَا لَا أَحَبَّ حَكِيمِ^(٤)
أَحْدُوا وَأَمَّا آلُ عِرَّةٍ عُثُونَةٌ * مَبَاوَا وَأَمَّا وَاسِطُ فَقِيمِ
لَعَمْرِي لَنْ كَانَ الْفُؤَادُ مِنْ الْهَوَى * سَقَى سَقَمًا إِلَى إِذَا لَسَقِيمِ

(١) مدح . مخلوط ، داف الدوا . والعصران يدوه . حظه . (٢) مدح . مسرع .

(٣) أغوت الدار . حلت من ساكنها . (٤) هو أو السائف من حكيمة .

ومنها :

ولستُ بِرَأْيٍ عَحو مَصْرَ حَبَابَةٍ * وَإِنْ تُسَدَّتْ إِلَّا قَعْدَتُ أَشِيمِ
 قَدْ بَقَعْدُ الْكُفْسِ الَّذِي عَسَ الْهَوَى * عَزُّوفاً وَيَصْجُو الْمَرْءُ وَهُوَ كَرِيمِ
 وَقَالَ حَلِيلِي مَا لَهَا إِذَا لَقِيَتْهَا * عِدَاةَ السَّامِيَا عَلَيْكَ وَجُومِ^(١)
 فَكُنْتُ لَهُ إِنْ الْمَوْتَهُ بَيْنَا * عَلَى غَيْرِ حُشِّ وَالصَّمَاءِ قَدِيمِ
 وَإِنْ وَإِنْ أَعْرَصْتُ عَنْهَا تَجَلَّدَا * عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمَقِيمِ
 وَإِنْ زَمَانًا فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَا * وَيَدْعُوكُمْ فِي صَرْفِهِ لَمَشُومِ
 أَفَى الْحَقِّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ سَالِمِ * صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكَ سَقِيمِ
 وَأَنْ بِحَسْبِي مَكَدَاءٌ مُخَاصِرَا * وَجَسْمُكَ مَوْجُورٌ عَلَيْكَ سَلِيمِ
 لَعَمْرُكَ مَا أَصْبَعْتَنِي فِي مَوَدَّتِي * وَلَعَكِي يَاعَزَّ عَكَ حَلِيمِ
 إِمَّا تَرَبَّى الْيَوْمَ أَبَدِي حَلَادَةٍ * إِلَى لَعَمْرِي نَحْتُ دَاكِ كَلِيمِ
 وَلَسْتُ أَسَاةَ الصَّمْرِى مَكَدًا سَالِمِ * دُوبَ الْعَدَى إِلَى إِذَا لَطُومِ
 وَإِنْ لَدُو وَجِدَ إِذَا عَادَ وَصَلُهَا * وَإِنْ عَلَى رَبِّي إِذَا لَكْرِيمِ

ومن سيبه بها :

لَعَمْرَ أَطْلَالُ ابْتِأَسَ تَكَلَّمَا * تَبِيجُ مَغَانِيهَا الْعَوَادَ الْمُكَلَّمَا
 وَكَمْتُ إِذَا مَا حَثْتُ أَجَلَّتْ مَجْلِسِي * وَأَغْلَهَرَنِي مَنِي هَيْةً لَا تَجْهَمَا
 يُحَاذِرُنِي مَنِي عَايَةَ قَدْ عَرَفْنَاهَا * قَدِيمًا هَا يَضْمَعُنْ إِلَّا تَبْشَمَا

ومنه :

خَلِيلِي عَوَجًا مَنكَ سَاعَةً مَعِي * عَلَى الرَّتَعِ قَفْصَ سَاعَةٍ وَوَدَّعِ
 وَلَا تُعْجِلَانِي أَنْ أَلِمَ يَلْمَنِي * لَعَمْرَ لَا حَتَّى لِي بِبِسَاءٍ بَلَقَعِ
 وَقَوْلَا قَلْبِي قَدْ سَلَا رَاجِعَ الْهَوَى * وَالْعَيْنِ أَذْرِي مِنْ دُمُوطِكَ أَوْدَعِي
 فَلَا عَيْشَ إِلَّا مَثَلُ عَيْشِ مَعِي لَنَا * مَصِيفًا أَقْنَا فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَرْجِعِ

(١) وَجَم : سَكَتَ عَلَى عَيْط .

ومنه :

يليل وحارات الليل كأنها * نَاحُ الفلا تُخَدِّي بين الأناعرُ
أَسْقِطُ يَعْنِي مَا كَان مِثْلَا * وَشَاخَرَنِي يَعْنِي فَيْكَ الشَّوَابِرُ
إِذَا قِيلَ هَذَا بَيْتٌ عَزَّةٌ قَادِي * إِلَيْهِ الْهَوَى وَأَسْتَعْجِلُنِي الْبَوَادِرُ
أَصْدَوِي مِثْلَ الْجَمُونِ لَكِي يَرَى * رُؤَاةُ الْحَمَا أَيْ لَيْتَكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَفَلَى مَعَكَ يَعْنِي أَنِي * إِذَا بَيْتٌ بَاعَ الصَّبْرَ لِي عَكَ تَاجِرُ

ومنه :

وما زلتُ من ليلٍ لَنْدُنْ طَرَّ شَارِي * إِلَى الْيَوْمِ أَحْيَى حَبَا وَأُدَاجِرُ
وَأَحْمَلُ فِي لَيْلٍ صَفَاتِنَ مَعْتَرِ * وَتُحْمَلُ فِي لَيْلٍ عَلَى الصَّفَاغِرِ

ومنه :

وَإِنِّي لَأُرَى قَوْمَهَا مِنْ حِلَالِهَا * وَإِنِّي لَأُطَهِّرُ وَإِذَا نَصَحْتُ لَمْ جَهْدِي
وَلَوْ حَارُوا قَوْمِي لَكُنْتُ لِقَوْمَهَا * صَدِيقًا وَلَمْ أَحْمَلْ عَلَى حَرْبِهَا حَقْدِي

ومنه :

هَلَا سَأَلْتَ مَعَالِمَ الْأَطْلَالِ * بِالْجُرْعِ مِنْ حُرُصٍ^(١) وَهَنْ نَوَالِ
سَقِيًّا لَعَمْرَةَ حُلَّةٍ سَقِيًّا لَهَا * إِذْ عَنِ الْمَهْصَاتِ مِنْ أَمَلَالِ^(٢)
إِذَا لَا تَكَلَّمَا وَكَانَ كَلَامُهَا * نَفْلًا قَوْمِلَهُ مِنَ الْأَنْفَالِ

ومنه :

أَلَا حَيًّا لَيْلٍ أَجَدَّ رَجِيلِي * وَأَدَبَ أَصْحَابِي عَدَا بَقُولِ^(٣)
تَبَيَّنَتْ لَهُ لَيْلٍ لُتْنِيهِ عَقْلُهُ * وَشَاقَّتْكَ أُمُّ الصَّلْتِ بَعْدَ دُهُولِ
أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا مَكَانَهَا * تَمَثَّلُ لِي لَيْلٍ بِكُلِّ سَبِيلِ
إِذَا دُرِكْتَ لَيْلٍ تَمَثَّلْتُكَ عَبْرَةً * تَعَلَّ بِهَا الْقِيَابَ بَعْدَ دُهُولِ

(١) حرص : واد من وادي قناة ، من المدينة على ميلين .

(٢) أراد ملأ ، وهو مملوء على طريق المدينة من مكة . (٣) تقول . رجوع .

وكم من حليل قال لى هل سألتها * فقلت له ليلى أصرت حليل
 وأتعدت نيلًا وأوشكه قلى^(١) * وإن سئلت عرقًا فشرّ مسؤل
 حلفت رب الرافعات الى مئى^(٢) * حلال الملا يمدد كل حديل
 تراها رفاقا ينهنّ تمأوت^(٣) * ويمدّدن بالإلهلال كل أصيل^(٤)
 توافقن بالتحاح من طن نخلة * ومن عزّويز والحيت خبت طليل^(٥)
 بكل حرام خاشع متوحه * الى الله يدعوه بكلّ قيل
 على كلّ مدّعين الرواح مبيده^(٦) * ونغشية ألا تبيد هزيل
 شوايد قد أرتجى دوى أجنة^(٧) * وهوّج تنارى فى الأزقة حول
 يمين امرئ مستغليظ من أليّة^(٨) * ليكذب قىلا قد ألح يقيل
 لقد كذب الواشون ما بحث عدم * طيلى ولا أرسلتهم رسول^(٩)
 إن حائل الواشون عى بكذبة * فروها ولم يأتوا لها يحويل^(١٠)
 فلا تحلى ياليل أن تهيمى * سمح أئى الواشون أم يحبول
 إن طبت نسا بالعطاء فأجرى * وحير العطا ياليل كل جريل
 وإلا وإجمال إلى وإسى * أحت من الأحلاق كل حميل
 وإن تدلى لى منك يوما موته * فقدما تحذت القرص عد بئول
 وإب تبغلى ياليل عى وإسى * توكلّى عسى بكلّ بجيل
 ولست براض من حليل بائيل * قليل ولا راض له قليل

(١) أوشكه أسره . والقل . الحصر . (٢) الرافعات الامل ، والملا الغصاء ، والحديل

رمام محدول أى مصمور . (٣) الأصيل : العشوة . (٤) توافقن : تبارى ، وطن نخلة .

مستان بن طامر ، وعزور . ثوبة البهجة . والحبت ، الملعن من الأرض وطليل . موصع .

(٥) القيل : الطريق . (٦) المدّعين : المدلة . وسيدة : قد عاودت السر . (٧) الشوايد .

اشتملات الأدماء ، وأرتجى . أظنى أرحامهم على أولادهم . والحول . جمع حائل وهى التى لا تفلح .

(٨) الأليّة : الجير . (٩) فروها من المربة ، يقال مرى مبرى . والحويل . المحاولة

(١٠) الجبول : الدواهي .

وليس حليل مألول ولا الذى * اذا عث عنه ماخى بجليل
ولكن حليل من يديم وصاله * ويمحط سرى عند كل دجيل^(١)
ولم أر من لى بوالا أعدده * ألا ربما طالبت غير ميل
يلومك فى ليل وعقلك عددا * رجال لم تنف لهم مقول
يقولون ودع عك لى ولا تنم * فاطمة الأقرب ذات حليل
ما نعت نصي بما أمروا به * ولا نعت من أقوالهم قتيل^(٢)
تذكرت أزمانا لمزة كللها * حين يليط ناعم وقبول^(٣)
وكنت اذا لاقيته كفى * محالطه على سلاى شمول
تأطرت حتى قلت لسن وآرحا * رجاء الأمانى أن يلقن مقيل^(٤)
فأبدى لي من بينهن تمهما * وأحلن ظنى إذ طبت وقيل
قلأيا يلاي ما قصص لئامه * من الدار وأستقلل سد طويل^(٥)
فلما رأى وأستبق البين صاحى * دعا دعوة يا حتر بن سلول
فقلت وأسررت الندامة لبتى * وكنت أمرا أغتش كل عدول
سلكت سبل الرامحات عشية * محارم نضع أو سلكن سبل^(٦)
فأشعلت فسا ما لوى قبل أن أرى * عوادى ناي بيننا وشمول^(٧)
يدمت على ما فاتى يوم بنم * يا حترنا ألا يرين عويل
كان دموع العين وإهية الكل^(٨) * وعث ما غرّب يوم ذاك يحيل

(١) الدجيل : الذى يتسب الى قوم وليس مهم . (٢) أى ما رويت . (٣) الأثراب :

الأقرب . والبط : القون وهو الجلد أيضا . (٤) تأطرن : تلتن ، وأصل التأطرن : الصلف .

(٥) الاى : البط . والاماة : الجاحة .

(٦) المحارم : جمع محرم وهو مقطع أم الحبل . وضع : حل أسود بن الصمراء . وضع : (٧) العوادى :

الصوارب . (٨) الكل : جمع كبة وهى الزقة تكون فى أصل حمرة المراد . والمرب : الدنو النطمة .

تَكْمَمَهَا نَحْرُكَ تَوَاكَلْنَ حَزَّهَا • فَاَتَجَلَّتْهُ وَالتَّسِيرُ عَيْرُ بَجِيلٍ ^(١)
 أَقْبَى لَانِ الْقَوْرَ يَعْنِي مَعَكُمْ • أَلَى إِذَا مَا بَنَتْ عَيْرُ بَجِيلٍ
 كَفَى حَرًّا لِلْعَيْنِ أَدْرَدَ طَرَفَهَا • لَمَزَهُ عَيْرُ أَذْنَتْ بِرَجِيلٍ
 وَقَالُوا بَأْتِ فَاحْتَرَمَ الصَّبْرَ وَالْبُكََا • قُلْتَ الْكَأْ أَشْفَى إِذَا لِفَإِيلٍ
 تَوَلَّيْتُ عَزُونَا وَقُلْتَ لِمَصَاحِي • أَفَانَلَيْ لَيْلِي مَعِيرُ قَبِيلٍ
 لَمَزَةً إِذْ يَجْتَلِّ بِالْحَيِّفِ أَهْلُهَا • فَأَوْحَشَ مِمَّا الْخَيْفُ عَدَّ حُلُولٍ
 وَبَدَّلَ مِنْهَا عَدَّ طَوِيلَ إِقَامَةٍ • تَبَثُّ نَكَبَاءُ الْعَيْنِ جَفُولٍ ^(٢)
 لَقَدْ أَكْثَرَ الْوَاشُونَ فِيَا وَمَعَكُمْ • وَهَالِ سَا الْوَاشُونَ كُلَّ مَيْسِلٍ
 وَمَا زَلْتُ مِنْ لَيْلٍ لَدُنَّ طَرَّ شَارِي ^(٣) • إِلَى الْيَوْمِ كَلْتَقَعِي كُلَّ سَبِيلٍ
 وَلَهُ :

إِذَا مَا أَرَادَ الْعُرُو لَمْ تَقِي هَمَّهُ • حَصَانٌ عَلَيْهَا تَطْمُ دُرِّيْهَا
 نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ • نَكْتُ مَسَكِي مِمَّا نَحَاها قَطِئِنَهَا ^(١)
 وَلَمْ يَنْبَغِ يَوْمَ الصَّابَةِ بَثُّهَا • عِدَاةٌ أَتَسَهَّلَتْ بِالْدمُوعِ شَوْوِنَهَا
 وَلَكِنْ مَعَى ذُو مِرٍّ مُتَبَثُّ • يُسَبِّحُ حَقٌّ وَاصِحٌ مُسْتَبِئَهَا
 وَلَهُ فِي مَدْحِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ .

أَحَاطَتْ يَدَاهُ بِالْخِلَافَةِ عَدَّ مَا • أَرَادَ رَحَالُ آخِرُونَ اغْتِيَالَهَا
 هَا أَسْلَمُوها صَوَّةً عَنِ مَوَدَّةٍ • وَلَكِنْ يَحْدُ الْمَشْرِقُ اسْتَفْأَلَهَا
 وَكَتَبَ إِذَا مَاتَكَ يَوْمًا مُلْكُهُ • نَلَّتْ لَهَا أَمَا الْوَلِيدُ نِيَالَهَا ^(١)
 سَمَوْتَ فَأَدْرَكْتَ الصَّلَاةَ وَإِنَّمَا • يُلْقِي عَالِيَاتِ الْعُلَا مِنْ سَمَا لَهَا
 وَصَلَتْ فَهَاتِ كُلَّكَ الْمَحْدَكَةَ • وَلَمْ تَلْعُ الْأَيْدِي السَّوَامِيَّ هَامَا
 وَلَهُ :

(١) حرق جمع حرقاء، وهي التي لا تحبس العمل . وأصله أرسده . والحبل العبط . يريد أهن
 أعطى الإنسان رادقن البه . (٢) الكاء، الریح، أي تهب من مهي ريحين . والجفول، التي تذهب التراب
 (٣) طرود الشارب، أي نجاته . (٤) القطعي، أي الخدم . (٥) نلت، أي أمدته .

وله أيضا :

أَهاجَكَ رَقٌّ أَمَرَ اللَّيْلُ وَاصِبٌ • تَصَمُّهُ قَرْنُ الْجَبَا مَالَسَارُبُ
 نَحْرٌ وَيَسْتَأْنِي نَسَاخًا كَانَهُ • بَيْقَةُ حَدِيدٍ حَنْجَلُ الصَّوْتِ جَالِبُ
 تَأَلَّقَ وَأَتَحَمَّوْنِي وَخَسِمَ مَارِئًا • أَحْمُ الدَّرَى ذُو هَيْبَتٍ مُتَرَاكِبُ
 إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَرْزَمُ^(٢) حَانَتْ • بَلَا هَرَقِي مَسَهُ وَأَوْمَسَ حَانَتْ
 كَمَا أَوْمَسَتْ بِالْعَيْنِ ثُمَّ تَسَمَّتْ^(٣) • حَرِيعٌ بَذَا مَبَا حَيْثُ وَحَاجِبُ
 يَجُّ السَّدَى لَا يَذْكُرُ السَّيْرَ أَهْلُهُ • وَلَا يَرْجِعُ الْمَاشِي بِهِ وَهُوَ حَادِبُ

وله أيضا :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا تَسْبِقُ عَلَيْكُمْ • إِذَا عَالَهُ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ غَائِلُهُ
 وَيُخْفِي لَكُمْ حُجًّا شَدِيدًا وَرَهْمَةً • وَلِلنَّاسِ أَشْغَالٌ وَحُجُكٌ شَاعِلُهُ
 وَحُكٌّ يُبْنِي مِنَ الشَّيْءِ فِي يَدِي • وَيُلْهِئُنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَزَاوِلُهُ
 كَكِرِيمٍ يُبَيِّتُ السَّرَّ حَتَّى كَانَ • إِذَا اسْتَبَحُّوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ
 يَوْذَابُ يُبْسِي سَقِيًّا لَهَا • إِذَا تَمَعَتْ عَنْهُ بِشَكْوَى رُؤُسُهُ
 وَبِرَّاحٍ لِمَعْرُوفٍ فِي طَلَبِ الْعِلَا • يُتَحَمَدُ يَوْمًا عَدْلًا لَيْلِ شِمَائِلُهُ
 فَلَوْ كُنْتُ فِي كَبْلٍ وَبُخْتُ نَلْوَعِي^(٤) • إِلَيْهِ لَأَنْتَ رَحْمَةً لِي سَلَامِلُهُ

وله أيضا :

أَقُولُ لِمَاءِ الْعَيْنِ أَهْمٌ لَعَلَّهُ • بِمَا لَا يُرَى مِنْ غَائِبِ الْوَحْدِ يَنْهَدُ
 فَلَمْ أَدْرِ أَنَّ الْعَيْنَ قَبْلَ فِرَاقِهَا • عِدَاةُ الشَّبَابِ مِنْ لَاحِجِ الْوَجْدِ تَجْمَدُ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ الْعَيْنِ ضَلَّتْ بِمِائِهَا • عَلَى وَلَا مِثْلِي عَلَى النِّعَمِ يُحْسَدُ

(١) الشَّاس : السحاب المرتفع يهبطه برق مصر . (٢) أَرْزَمَ : صَوَّتَ . (٣) المرق :

شدة صوت الرعد . (٤) نَوَجَ : امرأة حسنة . (٥) كَلَّ : لحد شديد .

وله أيضا :

تَسْمَعُ الرَّدَّ فِي الْخَيْلَةِ مِنْهَا . مِثْلَ هَزَمَ الْقُرُومَ فِي الْأَشْوَالِ ^(١)
 وَتَرَى الْبَرْقَ عَارِضًا مُسْتَطِيلًا . مَرَحَ الْبُلْبُلِ حُلْبَ وَ الْأَحْلَالَ ^(٢)
 أَوْ مَصَابِيحَ وَاهِبٍ فِي يَهَاجِ مَسْمُورِيَّتِ سَاعِطَاتِ الدُّهَالِ
 وله أيضا :

مِاعِزٌ إِنْ وَايَسَ وَتَنَى بِي صَدِّكُمْ . فَلَا تُكْرِمِيهِ أَنْ تَقُولِي لَهُ أَهْلًا
 كَمَا لَوْ وَتَنَى وَايَسَ بَعْرُهُ عَسَدًا . لَقَلْنَا تَزَّجَحَ لَا قَرِيْبًا وَلَا سَهْلًا

(١) القُروم : الصَّحُور التي أَصَبَتْ مِنَ الْحُلِّ عَلَيْهَا وَتَرَكْتَ لِلْمَعَةِ .

(٢) الْأَشْوَال . الْإِبِل التي مَضَى عَلَى حَمْلِهَا أَوْ وَصَحَهَا سَحَابٌ أَشْبَهَ فَارْتَمَعَ صَرَعَهَا وَحَفَّ لَهَا .

(د) الغزل القصصي

١ - أخبار قيس بن الملقح (المجنون)

قال الأصفهاني عن محدثيه عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بني عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئا ؟ قال : أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى تروى أشعار المجانين ! لهم لكثير ! قلت : ليس هؤلاء أعني ، إنما أعني مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق ، فقال : هيها ! بو عامر أعلف أجبادا من ذلك ، إنما يكون هذا في هذه اليمنية الصعاف فلوها ، السحيفة عقولها ، الصلعة رمومها ، فأما زار فلا .

وقال الرياشي سمعت الأصمعي يقول : رحلت ما عيرفا في الديار فقلت إلا بالاسم : مجنون بني عامر ، وابن القريّة^(١) ، وإنما وصعها الرواة .

وقال المدائني : المجنون المشهور بالشعر عند الناس صاحب ليلى قيس بن معاذ من بني عامر ، ثم من بني عقيل ، أحد بني ثيمر بن عامر بن عقيل ، قال : ومنهم رجل آخر يقال له : مهدي بن الملقح من بني حنثة بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة .

وقال ابن الكلبي : حدثت أن حديث المجنون وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى أسة عم له ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يروونها الناس للمجنون ونسبها إليه .

(١) هو قيس بن الملقح ، ويقال - كما معاذ بن مراحم من بني عامر بن صعصعة ، ويعرف بمجنون ليلى ، نسبة إلى الليل التي كان ينشقها وهو مشهور ، ولكن مصر أهل القدر على الشريرون أن قصه موصوعة ، وصعها رجل من بني أمية كان يحب أسة عم له ويكره أن يظهر ما بينه وبينها ، فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التي يطلعها الناس للمجنون ، وقد راد الناس فيه مدح . ويؤيد ذلك أن كثيرا مما نسب إليه من الأشعار رويت لغيره ، فصنع إذا من قيل الشعر التمثيل (دراهم) الذي يراد به تمثيل مصر المصائل . وهي تمثل العشق مع الصنف ، وأول لها أصلا قبلها وراد به الرواة كما صعدوا قصة عترة التي تمثل الشجاعة والعشق ، وعلى كل حال فإن من الأشعار المنسوبة إلى المجنون طائفة تمثل شاعر المجنون كما هي على طبعها . وأحار المجنون في الأغانى (ح ١ ص ١٦٧) والنشر والشعر (ص ٣٥٥) ومراة الأدب (ح ٢ ص ١٧٠) . (٢) الصلعة : صر الرأس . (٣) هو أهراب ابن زيد بن قيس والقريّة أنه قتله الهياج لانهاه بالليل لأن الأشعث .

وعن حماد بن طالوت بن عَاد : أنه سأل الأصمعيَّ عنه، فقال : لم يكن محموتا، بل كانت به لوثَةٌ أحدثها المشقُّ فيه، كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى، وأسمه قيسُ ابن مُعَاذ .

ودكر عمرو بن أبى عمرو الشَّيباني عن أبيه أنَّ اسمه قيسُ بن مُعَاذ .
ودكر شُعَيْبُ بن السَّكَن عن يونسَ العُحَويِّ أنَّ اسمه قيسُ بن الملوَّح، قال أبو عمرو الشَّيباني : وحدثني رجل من أهل اليمن أنه رآه ولقبه وسأله عن اسمه ونسبه، فذكر أنه قيسُ بن الملوَّح .

^(١) ودكر هشام بن محمد الكلبيُّ أنه قيسُ بن الملوَّح، وحدث أن أمه مات قبل احتلاطه، فعصرَ على قبره فآتته وقال في ذلك :

عصرتُ على قبر الملوَّح ماقى * بذى السَّرح لما أن جمعا الأثارتُ
وقلتُ لها كوني قَبيراً إني * عداً راحلٌ أمشي ولألميس راكُ
فلا يُبعدنك الله يابِسَ مُراحِم * فكلُّ بكأس الموت لاشكَّ شاربُ

وقال الأصمعيُّ : سألتُ أمراءياً من بني عامر بن صعصعة عن المحبون العامريِّ فقال : عن أبيهم تسألني ؟ فقد كان فيما جماعة رُمُوا بالحدود، فمضى أبيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي كان يُشَبَّب بلبلى، فقال : كلُّهم كان يُشَبَّب بلبلى، قلت : فأنشدني لعصم، فأنشدني لمُزَاحِم بن الحارث المحنون :

ألا أيُّها القلبُ الذي تجَّ هائمًا * لبلى وليدًا لم تُقطِّع تماثمة
أفنى قد أفاق العاشقون وقد أنى * لك اليوم أن تلقى طيباً تلاميَّة
أجذكَ لا تُسيك لبلى مُلِمة * تلم ولا عهدٌ يطولُ تقادُمة

(١) يقال احتلط عقله إذا تضرع ومسد . (٢) دوالسرح . واد مارس حد .
(٣) عقيراء، أى معقورة، وأصل العقر : قطع القوائم ثم أطلق على الحر . قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قعر الموى أى يحرقونها ويقولون إن صاحب القتر كان يعقر لاصباة أيام حياته فكانه بمنزل صبيحه بعد وفاته . وأما إطلاق العقر على الحر لأسم كانوا إذا أرادوا بحر الحر عقروه ثلاثاً بشرده عند الضرر اه من اللسان مادة عقر . (٤) أى : حاد وقرى .

قلت : فأنشدني لغيره منهم ، فأنشدني لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالاً لا عبتُ لئلي وقادني إلى اللهو قلبٌ لحسان تبوعُ
وطال أمراءُ الشوقِ عني كلباً * زفتُ دُموعاً تستجدُ دُموعُ
فقد طال إمساكي على الكيد التي * بها من هوى لئلي العداة صدوعُ

قلتُ : فأنشدني لغير هذين ممن ذكرت ، فأنشدني لمهدي بن الملوخ :

لو آت لك الدنيا وما عدلت به * سواها ويل لي ما بينك وبينها
لكت إلى ليل فقيرا وإنما * يعود إليها ود فيك حينها

قلتُ له : فأنشدني لمن بقي من هؤلاء ، فقال : حسبك ! فوافقه إق في واحد من هؤلاء
لمن يؤزُّ بعقلاكم اليوم .

وقال الجاحظ : ما ترك الناس شعرا مجهول القائل قيل في لئلي إلا نسوه إلى المجنون ،
ولا شعرا هذه سبيله قيل في لئلي إلا نسوه إلى قيس بن ذريح .

قال أبو الفرج : وأما أذكر ما وقع إلى من أخاره جملاً مستحسنة ، مُترفاً من العُهد
فيها ، فإن أكثر أشعاره المذكورة في أخاره يبسُّها معصُ الرواة إلى غيره وبسُّها من
حكيت عنه إليه ، وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعي ومتبع للعيوب .

أخبرني بحبره في شفعه بليل جماعة من الرواة ، ونسحت ما لم أسمع من الروايات
وجمعت ذلك في سياقة خبره ما أُنسق ولم يختلف ، فاذا اختلفت نسبتُ كل رواية
إلى راويها .

فمن أخبرني بحبره أحمد بن عبد العزيز الجوهري وحبيب بن نصر المهلبي ، قالوا :
حدثنا عمر بن شبة عن رجاله وإبراهيم بن أيوب عن ابن قتيبة ، ونسخت أخباره من
رواية خالد بن كلثوم وأبي عمرو الشيباني وابن دأب وهشام بن محمد الكلبي وإسحاق بن
الحصان وعمرهم من الرواة .

(١) الامتراء : الاستعداد . (٢) جنبها سماء وصلها لأه من أسماء الأضداد ، يطلق على الرسل والعراق .

قال أبو عمرو الشيباني وأبو عبيدة : كان المجنون يهوى ليلي بنت مهدي بن سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحارث بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وتكنى أم مالك ، وهما حينئذ صبيان ، فعلى كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشي أهلها ، فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه ، قال : وبدل على ذلك قوله :

تعلقت ليلي وهي ذات دؤابة^(١) * ولم يتد للأتراب من تنبها حمم
صغيرين زعى البهم ياليت أنا * إلى اليوم لم تكبر ولم تكبر البهم

وقال أبو الكلي : كان سبب عشق المجنون ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك ، فز بأمرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعدنها جماعة نسوة يتخذن ، فبين ليلي ، فأعجبته جماله وكأله ، فدعونه إلى الدرويل والحديث ، فزول وجعل يتحدث وأمر عبدا له كان معه فقهر لمن ناقته ، وظل يتحدث بقية يومه ، فيها هو كذلك ، إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له : "منازل" يسوق معرى له ، فلما رأيته أقبل عليه وترك المجنون ، فعصب وخرج من عندهن وأنسا يقول :

أأعير من جراً كريمة فاقى * ووصلني مفروش يوصل مزاريل
إذا حاء فقص الحلي ولم أكن * إذا جئت أرى صوتك الخلايل
مى ما آتضلت^(٢) بالسهم نصبت^(٣) * وإن ربح رشقا عددا فهو باصلي

قال : فلما أصبح ليس حلتته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرياً لمن ، فالتى ليلي قاعدة بضياء بنتها وقد علق حبه قلبها وهويته ، وعدنها جويزات يتخذن معها ، فوقف بين وسلم ، فدعونه إلى التزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يسعه عك منازل ولا غيره ؟ فقال :

(١) الدؤابة : شرب الناصية .

(٢) أى من أهل ، يقال . صلت ذلك من حراك أى من أهلك وما أشبه على هذا .

أمر حراً أى أسد صتم * ولو شتم لكان لكم حوار

(٣) أى تراميا بالسهم ، وصلته : طعنه . (٤) الرشق . رى أهل الصال ما معهم من السهام

إلى لعمري ، فزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ، فأرادت أن تعلم ، هل لها عده مثل ما له عدها ، جعلت تُمرص عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره ، وقد كان على قلبه مثل حبا إياه وشغفه واستلحها ، فيها هي تُحدثه ، إذ أقبل فتى من الحى دحته وسارته سرارا طويلا ، ثم قالت له . انصرف ، وطرقت إلى وجه المحبون قد تغير وأنتقع لونه وشق عليه صلها ، فأنشأت تقول :

كلانا مُطهرُ اللاس مفضا * وكل عده صاحبه مكي
تُبلغ العيون بما أردنا * وى القليل ثم هوى دفين

فلما سمع البيت شق شقة شديدة وأعنى عليه ، فكث على ذلك ساعة ، وصحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن ح كل واحد منهما فى قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ .

وعن أبى الميثم العقيل قال . لما شير أمر المحبون ولى وتناشد اللاس شعره فيها ، حطبا وبذل لها حمسين مائة حمراء ، وحطبا وردن محمد العقيل وبذل لها عشرا من الإبل ورابعيا ، فقال أهلها . نحن غيروها يسكا ، هي اختارت تزوجته ، ودخلوا إليها فقالوا : والله لئن لم تختارى ورذا لثمتن بك ، فقال المحبون :

ألا يا بِل إن مُلكت فينا * حيارك فانظري لى انليار
ولا تَسْبِدْلى مئى دتيا * ولا برما إذا حث القنار^(١)
يهرول فى الصمير إذا رآه * وتُصجزه مُلأت كجار
فنل تأيم مه يكاح * ومثل تموي مه أفقار

فاختارت ورذا فزوجته على كرهها .

وقال :

أيا وئج من أمسى تحلس عقله^(٢) * فاصح مدعوها به كل منذهب
حليا من الخلال إلا معدرا^(٣) * يضاحكى من كان يسوى تجني

(١) الرم . الثعلب . (٢) القنار . ربح الهم المشوى . (٣) تحلس : سلب .

(٤) هو المقصر الذى لا عدله ولكنه يتكلف العذر ، ومنه قوله تعالى . (وحاء المدبرون من الأهراب يؤدون لهم) .

إذا ذُكِرْتَ لِي عَقَلْتُ وَرَاجَعْتُ * روائع عقل من هوى مُنْشَمِّ
 وقالوا صحيح ما به طيف جنة * ولا ألم إلا ما ستر الكذب
 وشاهد وحدي دمع عني وحبا * برى ألم عن أحواء عظمي ومكي
 نحت لي أن يلج بك الهوى . وهيات كال الحث قبل التجب
 ألا إنما عذرت يا أم مالك * صدأ أيمانك ذهب به الريح ينهب
 سلم أر لي مد مؤقف ساعة * بخيف مني ترمي دمار الحصب
 ويؤدى الحصى منها إذا قدمت به . من البعد أطراف البان المنصب
 فأصبحت من ليل الغداة كاطر * مع الصبح في أعقاب نجم مغرب

قال أبو الفرج : أنشدني الأخفش عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب
 للجواب :

سواء ثم الله إلى لئان * أفكر ما دهي إليها وأعنت
 ووالله ما أدري علام قتلني * وأي أمور فيك ياليل أركب
 أقطع حبيل الوصل بالموت دونه * أم أنشرب رقا مكم ليس يشرب
 أم أهزح حتى لا أرى لي مجاورا * أم أصنع ماذا أم أوج فأطع
 فأيها ياليل ما ترتصيه * فإني لمظلم وإني لمعيب

وقال :

عرضت على قلبي العزاء فقال لي * من الآن فإياك لا أعزك من صبر
 إذا بان من تهوى وأصبح نائيا * فلا شيء أجدي من حلوك في القبر

(١) الروائع . جمع رائحة ، أي مرثاة . (٢) الأحباء : جمع حو وهو كل شيء . فيه أوجه كعلم
 الجراح (العلم الذي ينت طه الجراح) والهي والصلح . (٣) الصدأ : الجسد من الآدمي بعد موته ،
 ويطلق على الرجل الميت المحب ، كما أنه يطلق على الصوت الذي يسمعه المصوت عقب صاحبه راجعا إليه من
 نحو الجبل والسا . المرمع .

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى * فهبج أطراب الفؤاد وما يدري
دعا ماسم ليل غيرها فكأنما * أطار بليل طائرا كان في صدرى
دعا ماسم ليل صلل الله سعيه * وليلى بارض عه مازجة فعر

وقال :

أيا حلى ممان باقه حليا * سبيل الصبا يخلص إلى تسيما
أخذ بردها أو تشف منى حرارة * على ككيد لم يبق إلا صميمها^(١)
فأق الصبا ربح إذا ما تنسمت * على نفس محزون تجلت همومها

وقال :

أيا حركات الحى جبت تحملوا * يدى سلم لا جادكن ربيع^(٢)
وحياتك اللان ممرح اللوى * يلين إلى لم تبلهن رؤسوع^(٣)
ندمت على ما كان منى ندامة * كما سدم المغبوت حين ينع^(٤)
فقدت من نفس شعاع فإنى * نهيتك عن هذا وأنت جميع^(٥)
فقرت لغير القريب وأشرقت * إليك شأيا ما لهن طلوع^(٦)

وله :

يا صاحبي المأى بمردة * قد مر حين عليها أئما حين^(٧)
إنى أرى رحمت الحب تغلنى * وكان فى نثنها ما كان يكفني^(٨)
لا خير فى الحب ليست فيه قارعة * كأت صاحبها فى نزع موتون^(٩)

-
- (١) الأطراب جمع طرب وهو حجة تذى الشخص من شدة الفرح أو الحزن . (٢) صميمها : أصلها .
(٣) المرحات جمع حرة وهى البعوضة ، وسميت بذلك لصيقها ، وقيل . الشجر الملتص ، وهى أيضا الشجرة
تكون بين الأشجار لا تفصل إليها الآفة وهى ما رعى من المال . (٤) دوسم : موضع بالخمار .
(٥) يقال : هس شعاع إذا انشرا رأيا لم نعه لأمر حرم . (٦) الحجج : صلة المتصرف .
(٧) أشرقت : ظهرت وأرتمت . (٨) الثأيا : جمع ثية وهى الطريقة فى الحب ، وقيل : هى القبة ،
وقيل . هى الطريق المال فيه ، يريد أن الوصول إلى ليل صمت لا يستطيعه . (٩) الموتون : المصروب على
الوتين ، وهو عرق معق يماط القلب .

إِنْ قَالَ عُدَّاهُ مَهْلًا فَلَانَ لَهُمْ : قَالَ الْمَوَى عِرْهُدَا الْقَوْلِ بَعِينِي
أَلْتِي مِنَ الْيَاسِ تَارَاتٍ فَتَقُتْنِي * وَلِلرَّحَاءِ بَشَاشَاتٌ فَتُحْيِي

وله :

أَسْتَقْبِلِي نَفْعَ الصَّمَامِ شَانِي * بَرْدِ شَايَا أُمِّ حَسَّانَ شَانِي
كَأَنَّ عَلَى أَنْبِيَائِهَا انْخِرَ شَحْمَا^(١) . بِمَاءِ الدِّيِّ مِنْ أَنْعَرِ اللَّيْلِ طَاقِي^(٢)
وَمَا شِمْتُهُ إِلَّا بَعِينِي تَعْرَسَا * كَمَا شِمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ يَارِقُ

وروى الأصمعي له قوله .

أَحَدْتُ حَاسَ كُلِّ مَا * صَدَّتْ حَاسُهُ بِحُسْنِهِ
كَأَدِ النَّزَالِ يَكُونُهَا * لَوْلَا الشَّوَى وَتُسَوِّزُ قَرْنَهُ

قال : وهو القائل :

وَلَمْ أَرِ لَيْلَى مَدَّ مَوْقِفِ سَاعِهِ * بِجَيْفِ مَيِّ رِيحِ حِمَارِ الْمُحْصَبِ
وَيُيَدِّي أَلْهَى مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ * مِنَ السُّبُرِ أَطْرَافَ السَّائِ الْمُحْصَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى النَّدَاةَ كَخَاطِرِ * مَعَ الصَّبْحِ وَاعْقَابِ نَحْمِ مُغْرَبِ
أَلَا إِنَّمَا عَادَرْتُ يَا أُمُّ مَا لَكَ * صَدَى أَيَّمَا تَدْفُ بِهِ الرِّيحُ يَنْهَبِ

وقال :

يَقُولُ أُنَاسٌ عَلَّ مَحْنَوٍ حَامِي * يَرُومُ سُكُوكَا قُلْتُ أُنَى لِمَا يَبَا
وَقَدْ لَامَنِي فِي حُبِّ لَيْلَى أَقَارِي * أَمَى وَأَبْسُ عَمَى وَأَبْسُ حَالِي وَحَالِيَا
يَقُولُونَ لَيْلَى أَهْلُ بَيْتِ عَدَاوِهِ * بَعْسَى لَيْلَى مِنْ عَدُوِّ وَمَالِيَا
وَلَوْ كَانَ فِي لَيْلَى شَدَا مِنْ خُصُومَةٍ * لَلَّوَيْتُ أَصَاقَ الْمَلَاوِيَا^(٣)

(١) شحما : مزحما . (٢) العائق : الكراقي لم تنس عن أهلها ، والطاهر أنها ليست مرادة

هنا وإن كلمة «عائق» معزاة من «ساق» وهو الساق في البوق أى المشى .

(٣) الملاوى : جمع ملوى وهو مصدر ملى من لوى بمعنى حلب .

وقال :

ألا ما ليلَى لا تُرى عد مَصْجِي * ليل ولا يحْرى بِذَلِكَ طائرُ
 سَلَّ إنَّ عَجمَ الطيرِ تحْرى إذا حَرَّتْ * ليلَى ولكن لبس للطير زاجرُ
 أزالَتْ عن المهد الذى كان بينا * بِذِي الأَثَلِ أم قد عيرَتْها المقادِرُ
 موافقهِ ما فى القرب لى مِكَ راحهُ . ولا البعد يُسَلِّني ولا أَمَّا صابرُ
 ووالله ما أدري ما بَئِذِ جِلَّةٍ ، وأى مَرَامٍ أو خِطابٍ ^(١) أحاطِرُ
 وتأنى إنَّ الدهرَ فى ذاتِ بيِّنا * على لها فى كلِّ حايٍ لجائرُ
 ملوكيتٍ إدا أرمتِ هَجرى تركيتي * جميع ^(٢) القوى والعقلُ مَيَّ وافرُ
 ولكنَّ أيايَ يحْقِلُ عَبرَةٍ * وبالرَّحمِ أيا مَ جَماها التَّحاورُ
 وقد أصبح الودُّ الذى كان يسا * أمايَّ مِيسٍ والمؤسِّلُ حائرُ
 لعمري لقد رَقَّتْ ^(٣) يَأْمَ مالِكٍ * جاني وساقني إليك المقادِرُ

وقال :

يا لَلرَّحالِ لِمَ باتَ يَفرُّوى * مُسْتَطَرِفٍ وقديم كان يَعبى
 على عَريمٍ مَلِيٍّ عَريدى عُدُمٍ * يَأبَى مِمَطِّلِي دَنيى وَيَلوِي ^(٤)
 لا يَدُكُرُ البَعضُ مِن دَنيى فَيُنْكَرُهُ * ولا يُحَدِّثُنِي أنْ سَوفَ يَقْصِبُنِي
 وما كَثُرَتِ شُكْرُ لو يُوافِقُنِي * ولا مُنَى كَما هُذِلَ إذ يُبْغِي ^(٥)

(١) الخطار . مصدر من حاطر بمعنى راح .

(٢) جميع . مجتمع . (٣) الحقل . المرة . ويطلق على الموضع البكر الذى لم يروح فيه قط .

وعبرة : موضع بين الصرة ومكة . وألزم موضع على ستة أميال من رُمالة ، ورُمالة : جبل معروف طريق مكة من الكوفة . (٤) رقت : كدرت ، والتزنيق كما يطلق على التكدير يطلق على صدّه الذى هو التهمة .

(٥) مل . ما لم أر أى ثقة هى . قال صاحب اللسان : وقد أروع فيه الناس ترك الحمر وقشيد اليا .

(٦) عدم أى همر ومنه عدم هم اليأس وسكون الحال . قال صاحب اللسان : اذا ضمت أَوَّلُهُ حَفَّتْ فقلت :

العدم وادأ حفت أَوَّلُهُ فقلت فقلت . عدم . (٧) يلوى : يطلو ، يقال . لواء ديه ويديه . مطله .

أَطْلَعْتُهُ وَعَصَيْتُ السَّاسَ كُلَّهُمْ * فِي أَمْرِهِ ثُمَّ يَأْتِي فَهُوَ يَعْصِفُنِي
حَيْرِي لِمَ يَتَنَبَّأُ حَيْرِي وَيَأْمُلُهُ * مِنْ دُونِ شَرِّهِ وَشَرِّ غَيْرِ مَا مَوْنٍ
وَمَا أَشَارِكُ فِي رَأْيِي أَحَا صَعِيفٌ ^(١) * وَلَا أَقُولُ أُنْصِي مَنْ لَا يُؤَاتِينِي ^(٢)
وله :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَزُودُهُ * وَإِنْ حَلَّ شَخْصٌ إِلَى حَيْثُ
هَجَرْتُكَ إِشْمَاقًا وَزُرْتُكَ حَامَا * وَفِيكَ عَلَى الدَّهْرِ مَكَرٌ رَقِيبٌ
سَاسْتَعِثُ الْإِيَّامَ فِيكَ لَعَلَّهَا * بِيَوْمِ سُورِي فِي الزَّمَانِ تَوُفُّ
وَلَعَّ الْمَجُودُ أَنْ أَهْلَ لَيْلٍ يَرِيدُونَ فَقَلَّهَا إِلَى التَّقْفِي - فَقَالَ :
كَأَنَّ الْقَلْبَ لَيْلَةً قَبْلَ يَعْدَى * بَلِيلَى الْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاجُ
قَطَاهُ عَزَّهَا شَرُّكَ فَاثَتْ * تُحَادِدُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ

مَا بَقِيَ لَيْلٍ إِلَى التَّقْفِي - قَالَ :

طَرِبْتُ وَشَاقَتَكَ الْجُمُودُ الدَّوَامُ * عَدَاةُ دَعَا الْبَيْنِ أَسْفَعُ ^(٤) نَارُ
شَخَا فَأَهْ نَسَا بِالْعِرَاقِ كَأَنَّهُ * حَرِيبٌ ^(٧) سَلِيبٌ نَازِحُ الدَّارِ حَازِعُ
فَقُلْتُ أَلَا قَدْ بَيْنَ الْأَمْرِ فَانْصِرَفَ ^(٥) * فَقَدْ رَاعَا بِالْبَيْنِ قَبْلَكَ رَائِعُ
سُقِيتَ سُمُومًا مِنْ عَرَابٍ فَرَأَى * تَنَبَّأْتُ مَا خَبَّرْتَ مَدَّ أَنْتَ وَاقِعُ

(١) الصَّعِيفُ هَكَذَا التَّحْرِيكُ . لَسَ فِي الصَّعِيفِ الْمَصْنَعِ وَالْكُودُ . وَيَسْتَعْمَلُ فِي صَعْفِ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ ،
وَأَشَدُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمْرَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ . وَيَسْتَعْمَلُ فِي صَعْفِ الْجِسْمِ وَأَشَدُّ عَلَيْهِ :
وَمَنْ يَتَّقِ حَيْرًا يَمُوتُ الدَّهْرَ حُلْمُهُ * عَلَى صَعْفٍ مِنْ حَالِهِ وَحُورٍ

(٢) يَوَاتِينِي : يَسَاعِدُنِي .

(٣) الْجُمُودُ فِي الْأَصْلِ : الْمَوَادِحُ وَاحِدُهَا جَمْلٌ ثُمَّ اتَّسَعَ مَعَهَا وَصَارَتْ تَسْمَعُ فِي الْإِبِلِ الَّتِي عَلَيْهَا الْمَوَادِحُ .
وَالدَّوَامُ : الْمُدَّةُ فِي السَّرِّ . (٤) كَذَا فِي أَطْبَاقِ النَّسَخِ وَتَرْجِيهِ الْأَسَوَاتِ . وَفِي ب ، ص ،
« أَجْم » وَالْأَسْمَعُ وَالْأَجْمُ مَعَهَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْأَسْوَدُ . وَالنَّارِجُ : الْمَرْجُ . وَالْمَرَادُ الْأَسْمَعُ النَّارِجُ « الْعَرَابُ » .
(٥) شَخَا فَا هَيْشُوهُ رِيَشَاهُ . فَهْ . (٦) صَا . صَا حَا وَتَصَوُّتَا . (٧) الْحَرِيبُ مِنْ
سَلَبِ حَرِيثَةٍ وَهِيَ مَالُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَمْرُهُ . (٨) بَيْنَ بِمَعْنَى تَبَيْنَ ، وَمِمَّا مِثْلُ « قَدْ بَيْنَ الصَّحْبَ لَدَى مَبِينِ » .

ألم تَرَ أَنِّي لَا يُحِبُّ أَلْوَمُهُ ۖ وَلَا سِدِيلٌ مَسْدُمُ أَنَا قَانِعٌ
 أَلَمْ تَرِدَارَ الْحَيَّ فِي رَوْبِي الصَّحَى ۖ عَيْثُ أَنْحَسْتُ لِلْمَهْضَبَيْنِ الْأَجَارِعُ
 وَقَدْ يَتَنَاءَى الْإِلْفُ مِنْ بَعْدِ أَلْفَةٍ ۖ وَيَصْدَعُ مَا بَيْنَ الْخَلِيطَيْنِ صَادِعُ
 وَكَمْ مِنْ هَوَى أَوْ جَبْرٍ قَدْ أَلْفَتُهُمْ ۖ زَمَانًا فَلَمْ يَمَعُهُمُ الْبَيْنُ مَا نَعُ
 كَأَنِّي عِدَاءُ الْبَيْنِ مَيِّتٌ جَوِيَّةٌ ۖ أَحْوَطُ مَا سُنْتُ طَلِبُهُ الْمَشَارِعُ
 تَحْلُسُ مِنْ أَوْشَالٍ مَاءٍ صُبَاةٍ ۖ فَلَا الثَّرْبُ مَسْدُولٌ وَلَا هُوَ نَاقِعُ
 وَبَيْضٌ تَقَلَّى بِالْعَبِيرِ كَأَنَّهَا ۖ بِعَاجِ الْمَلَأِ جِيَّتْ طَلِبُهَا الْبَرَاغُ
 تَحْتَلَّى مِنْ وَادِي الْأَرَاكِ فَأَوْصَتْ ۖ لَهْنٌ مَاطِرَافِ الْعَيُوبِ الْمَدَامُغُ
 هَا يَمَسُّ رَمْعَ الدَّارِ حَتَّى تَشَابَهَتْ ۖ هَاجَتَهَا وَالْحَوْرُ مِنْهَا الْخَوَاضِعُ
 وَحَى حَمْلُ الْحَوْرِ مِنْ كُلِّ حَابٍ ۖ وَحَاصَتْ مَسْدُولُ الرُّقْمِ مِنْهَا الْأَكَارِعُ

(١) المصنعتان . متى حصنة وهي الزاوية أو الحبل المسط على الأرض أو الحبل المخلوق من صحرة واحدة ، والأحارح : جمع أرحح ، والأرحح كالخرما . الأرض ذات الحروة تشاكل الرمل أو الرملة السهلة المستوية أو القطعة من الرمل لا تلتفت شيئا (أطراف الناس في ماذق هصب ورحح) . (٢) الهوى بمعنى

المهوى وهو المحبوب ، ومنه قول الشاعر

هَوَايَ مَعَ الرِّكَبِ الْيَتَامَى مُصِيدٌ ۖ حَيْثُ وَخُنَايَ بِمَكْنَةٍ مُوقِفٌ

(٣) الحسوة : مصاء أطلس سهل بين أرضين . (٤) تحلس الشيء : انتهه وأخذه جلسة .

(٥) الأوشال جمع وشل وهو الماء القليل . والصاغة : قبة الماء تنق في الأمان والسقاء . (٦) هو

من وقع بمعنى روى . (٧) الملا . الصحراء . (٨) أى قطعت . (٩) هو واد قرب مكة .

(١٠) مصاء ما ربح . يقال ما دام المكان أى ما ربحه . (١١) الهجائر . الابل البيضاء الكريمة

واحدتها هجاء . والحور جمع حور هنج الحميم وهو الأسود المشرب بحمرة ، ويطلق على الأسود البعدي

وعلى الأبيض فهو من أسماء الأعداد . (١٢) الخواصع الابل وإما يقال لها خواصع لأنها تنحصر

أصاغها حين يحدّها السير ، قال جرير .

وَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْمَلَى حَوَاصِعُ ۖ وَكَاهَنَ قَفَا قَلَاةٍ مَحَلٍ

(١٣) الحور جمع حوراء وهي البيضاء أو من في عنها حور وهو شدة سواد الخفة في شدة بياضها .

(١٤) السدول جمع سدبل وهو ما يحل به المودح من الثياب . (١٥) الأكراع : جمع أكرع

والأكرع جمع كراع ، أو الأكراع كما يقول سيويه جمع كراع على غير قياس . والكراع من الإنسان : مادن

الركبة إلى الكعب ، ومن الهامة فواعها مطلقا .

فلما استوت تحت الخلدور وقد جرى * غير ومسك بالعرايب رادع^(١)
 أشرق بأن حثوا الحال قد بدا * من الصيف يوم لاف الحمر مائع^(٢)
 فلما لحقنا بالخول تباشرت * لنا مقصرا^(٣) عاب عما المطامع
 يعرض بالذل الملبع وإب يرد * حاهن مشعوف هت موانع
 فملت لأصحابي ودمعي مسبل * وقد صدع الشمل المشتت صادع
 ألبى ماواب الخدور تمزجت * لعني أم قرء من الشمس طالع
 وروى أن أما المجنون حج به ليدعو الله عز وجل في الموقف أن يعاينه، فسار ومعه أس
 عمه رباد بن كعب بن مزيح، فترجمامة تدعو على أئكة موقف يكي، فقال له زياد:
 أى شئ هذا ما يبيحك أيضا * سرنا بلحق الرقة، فقال :

ألب هتفت يوما واد حمامة * بكيت ولم يعينك بالحلل عاذر
 دعت ساق حرمد ما علت الصبحى * مهاج لك الأحران أن ماح طائر^(٤)
 ثمنى الصبحى والصبحى و مرجمحة^(٥) * يتألف الأعلى تحتها الماء حائر^(٦)
 كأن لم يكن بالقل أو طلي أئكة^(٧) * أو الخزع من تول الأشاء حاصر^(٨)

(١) المراد الماردع هو المردوع به الحسد أو الثوب وهو الصير والمسك . وأصل الردع الطلع والطيب
 والزعفران، يقال : قيس رادع ومردوع أى فيه أثر الطيب والزعفران ، وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما
 « لم يه عن شئ من الأدوية الا عن المعرفة التى تردع الخلد » أى تمنع صحتها عليه . (٢) المائع
 الطويل . (٣) مقصرات . جمع مقصرة أى داخله فى القصر وهو العنى ، يقال : أئجه قصرا
 أى عشا ، وأقصرا أى دخلوا فى قصر العنى ، كما تقول أمسيا من المساء من أمصرت الحارة اذا لظت عصر شائها ،
 أو من أمصرت أى دخلت فى العصر (أطروالسان العرب مادة قصر) .
 (٤) تدعو . قصرت ونوح . (٥) ساق حر : أصله صوت القهارى و يطلق على الذكر من
 القهارى نسبة له باسم صوته وهو المراد هنا (أطروالسان مائق سوق حر) . (٦) المرجمحة الهزئة
 المتأيلة . (٧) حائر : متردد . (٨) الميل : اسم لعدة مواضع والطاهر أن المراد هنا واد
 لى حدة وهم قوم الهون . (٩) الأئكة : البصة الملتصقة الأشجار ولم يحدى الكتب التى أيدىها
 « أئكة » ولا « طلي أئكة » اسما لموضع حاص كما هو المناسب للسياق . (١٠) الخرع . مطبق الرادى
 ولله هنا اسم لموضع حاص وقد يكون خرع من حار وهو واد الجمامة . (١١) الأشاءة . موضع باليمامة
 به خيل . ولعل كلمة « تول » محزنة من « تال » والتال : صائر النعل واحدة تالة .

يقول زيادٌ إذا رأى الحَيَّ هَجَرُوا^(١) * أَرَى الحَيَّ قد ساروا فهل أنتَ سائرٌ
وإني وإنْ عَالَّ التَّقَادُّمُ حاجتي مُلِمٌّ على أوطابٍ لَيْسَ فَايَظُرُ^(٢)

كان المجهولُ وُلِيَّ وهما صَبِيَّانِ يَرْعِيَانِ عِما لأهلها عند جبلٍ في بلادهما يقال له^(٣)
التوَادُ، فلما ذهب عقله وتوحَّشَ، كان يَمْنَى إلى ذلك الجبلِ فيقيمُ به، فإذا تَذَكَّرَ أيامَ
كان يُطِيفُ هو وُلِيَّ به حَرِيعَ جَرَا شَدِيدَا وأستوحشَ فهام على وجهه حتى يَأْتِيَ نَوَاحِي
الشَّامِ، فإذا ثَابَ إليه عقله رأى لَمَدَا لا يعرفه فيقول للناس الذين يلقاهم : أبى أنتم، أين
التوَادُ من أرضِ بى عامر ؟ يقال له : وأين أنت من أرضِ بى عامر ! أنت بالشَّامِ
عليك بهم كذا قَائِمٌ، فيمضى على وجهه نحو ذلك اللحم حتى يقع بأرضِ إِيْمَنٍ، فبى بلادا
يُنْكِرُها وقوما لا يعرفهم فيسألهم عن التوَادِ وأرضِ بى عامر، فيقولون : وأين أنت من
أرضِ بى عامر ! عليك بهم كذا وكذا، فلا يزال كذلك حتى يقع على التوَادِ، فإذا رآه
قال في ذلك :

وَأَحْهَشْتُ لِلتَّوَادِ حينَ رَأَيْتُهُ * وَكَبَّرَ لِلرَّحْرِ حينَ رَأَيْتِي^(٤)
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ العَيْنِ لما عَرَفْتُهُ * وَبَادَى مَاعِلَى صَوْتِهِ فِدْمَايِ
فَقُلْتُ لَهُ قد كَانَ حَوْلَكَ حَيْرَةٌ * وَعَهْدِي مَذَاكَ الصَّرْمِ مَدَ زَمَانِ
فَقَالَ مَصَّوًّا وَأَسْتَوْدَعُونِي مِلَادَهُمْ * وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ
وَإِنِّي لَأُبْكِي اليَوْمَ مِنْ حَدَرِي عَدَا * فِرَاقَكَ وَالْحَيَابِ مُحْتَمَانِ
بِحَالَا وَتَهْنَأَا وَوَلَا وَدِمَّةً * وَبِحَالَا وَتَسْعَامَا إِلَى هَمَلَابِ^(٥)
^(٦)

(١) هَجَرُوا : ساروا وقت الهجرة . (٢) عَالَّ : عَالَ . (٣) التوَادُ (بالدال

المهملة) وهو المواضع لما في معجم ما استعجم للسكري إذا قال في صفة . هو متعج أو له راء معجمة واحدة ودال
مهملة وأشد عليه : * وأحشت للتوَادِ حينَ رأيته * البيت .

وصبغة بافرت بالدال المعجمة فقال في معجمه « توَادُ » فالفتح ثم السكون والدال موحدة وآخره ذال معجمة :
حل محمد . (٤) أحشت : تهيت للكاء . (٥) يقال : هنت البهاء تهتن هتاء وتنهت أي صنت .
(٦) يقال : سمحت السحاة مطرها تسحيا وتسحاما إذا صهت . (٧) الهملان . فيص العين بالدموع .

وكان المحبون يسير مع أصحابه فسمع صائحا يصيح : يا ليلي في ليلة ظلماء أو توهم ذلك ، فقال لبعض من معه : أما تسمع هذا الصوت ؟ فقال - ما سمعت شيئا ، قال .
لى ، والله هاتف يهتف بليلى ، ثم أنشأ يقول :

أقول لأدنى صاحبي كَلِمَةً ، أُسِرْتُ من الأفعى أجبُ ذا الماديا
إذا سِرْتُ في الأرض المضاء رأيتني * أصابعُ رحرٍ أن يميلَ جباليا
يميا إذا كانت يميا وإن تكن * شمالا يارعي الهوى عن شماليا

خطب ليلي صاحبة المحبون جماعة من قومها فكبرهم ، فخطبها رجل من ثقيف مؤسّر فرصته ، وكان جميلا فتروّحها ونرح بها ، فقال المحبون في ذلك :

ألا إن ليلي كَلِمَةٍ أصحّت * تقطعُ إلا من تغف حالمًا
قد حبسوها محبّس النيد وأبتنى - بها الرمح أقوامٌ نُسّاحتٌ مالمًا
حائل هل من حيلة تعلّمناها * يُدنى لنا تكليم ليلي أحتيالها
إن أنما لم تعلّمناها فلسنا * مأول باج حاجة لا ينالها
كأن مع الرك الذين اعتدوا بها * عمامة صيف زعزعتها شمالها
نظرتُ مُفصّي سبل جوشن إذ علّوا * تحبُّ أطراف الخارم الما^(١)
بشافية الأحران هيج شوقها * مُحامعة الألويا ثم زيالها
إذا ألتفتت من حلقها وهي تتلى ، بها العيس حلى عبّرة العين حالمًا

(١) الرجل ما يوضع على العير لركوب ثم يهر به من العير .

(٢) المبيعة في الأصل ، الشاة أو الالة يسلطها صاحبها رجلا يشر لها ثم يردّها اذا انقطع المهر ، ثم كثرت استعمالها في كل موهوب . (٣) يقال أجمت ماله . استأمله وأصدّه ، وماله مسحوت وبسحت أى مذهب . وأجمت نخارته . حثت وحرمت ، ولم يحد في كتب اللغة « تساحت » على وزن تعامل من هذه المادة

(٤) لم يحد في بلاد العرب ما يسمى جوشن الا حلا في عرق حلب . (٥) المخارم (بالراء المهملة)

جمع محرم وهو الطريق في الحل أو الزمل .

وَأَحْسِسُ عَلَيْكَ الْعَسَّ وَالْمَسَّ صَنَةً * يَذْكُرُكَ وَأَتَمَّتْكَ إِلَيْكَ قَرِيبُ
مَخَافَهُ أَنْ تَسْئَلَ الْوُشَاهُ بَطْنِيَّةً * وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ
فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي - وَأَنْبِ أَحْرَمِيَّتِهِ * وَكَيْتَ أَعَزُّ النَّاسِ - عَلَيْكَ تَطْيَبُ
مَلُوشَتِ لَمْ أَهْضُبْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَزَلْ * لَكَ الدَّهْرُ مَتًى مَا حَيْثُ نَصِيبُ
أَمَّا وَالَّذِي تَسْلُو السَّرَائِرَ كُلَّهَا * وَيَعْلَمُ مَا تُنْشِدِي بِهِ وَتَقْبِيبُ
لَقَدْ كَيْتَ مَنْ تَصْطَفِي الْعَسَّ حُلَّةً * لَهَا دُونَ حُلَانِ الصَّمَاءِ مَحْوُوبُ

٢ - قيس بن ذريح^(١)

من شعر قيس .

يَقُولُونَ لَنُفَى خَنَّةٌ كَتَّ قَلْبُهَا * بِحَيْرٍ فَلَا تَدَمُّ عَلَيْهَا وَطَلَّقِ
مَطَاوِعُ أَعْدَائِي وَعَاصِبْتُ نَاصِحِي * وَأَقْدَرْتُ عَيْنَ الشَّامِتِ الْمُتَعَلِّقِ
وَيَذْتُ وَبَيْتَ اللَّهِ أَنِّي عَصَبِيَّتُهُمْ * وَحُمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلِّ مُوَبِقِ
وَكَلَّمْتُ خَوْضَ الْحَرِّ وَالْحَرُورَ رَاحُ * أَيْبْتُ عَلَى أَشْحَاحِ مَوْحِ مَغْرَقِ

(١) هو قيس بن ذريح الكنانى من لبث بن بكر كان يهمل قومه طاهراً المدينة . من لبث من حاجته بحيام
فى كعب بن حراة مرأى لى بنت الحباب الكعبية ، وكانت حاة حيلة ، ضلقتها ، ضلها من أيب فنه إياها لمكانه من
الزيرة ، وكان يريد أن يرحمه من مات عمومه حتى يحيط تراثه فى أهله ، طارداً قيس وقسمت منه وذهب ،
فاستنعم بأخيه من الرضاع ، الحسين بن علي ، فوجد ما أحب وترزحها ومكأزما ولم يبقا ، وشمل قيسا حب لى
عن مواساة أمه فاضطمت على روحه وصمت بها عند أيب متحدة عدم الولد سلبا ترقى به الى شرها ، ضلقت اليه أوه
أن يطلقها فأى ، فما زال به بالوعد والوعيد حتى أحابه الى طلبة ، وكان فى ذلك القصاص الأخير على ما لقيس من حفظ
وعقل فى هذه الحياة ولم يصنع ترويه غيرها ، وطارت منه شاعرا وذهب على وجهه ينتم أفعار لى ويرجع حده
فى آثارها ، رقى طول حياته يساقط من همه على شعره عير طاقى شقا . مذه وإهدار دمه حتى لطم العس الأخير .
وأحار قيس كشيرة فى الأمان (ح ٨ ص ١١٢) والشعر والشعراء (ص ٣٩٩) وله ديوان مشروح ، ومنه نسخة
فى مكتبة الاسكود بال وبعرها فى رلى .

كأنى أرى الناس المحبين بعدها * غصارة ماء الخطل المتعلق
شكر عبي بعدها كل منظر * ويكره سمي بعدها كل منظر

ونخرج قيس في يديه من قومه واعتل على أبيه بالصيد ، فأتى بلاد لنى ، فجعل يتوقع
أن يراها أو يرى من يرسل إليها ، فأشتعل الفتيان بالصيد ، فلما قصوا وطرحهم منه رجعوا إليه
وهو واقف ، فقالوا له : قد عرفنا ما أردت بإخراجنا معك وأما لم تُرد الصيد وإنما أردت
لقاء لنى وقد تعدد عليك ، فانصرف الآن ، هال :

وما حائثُ حُمى يوماً وليلة * على الماء ينشيان العيص حَوَانِي
عَوَانِي لَا يَصْدُرْنَ عَنْهُ لَوْحِهِ * وَلَا هُنَّ مِنْ بَرْدِ الْخِيَاضِ دَوَانِي
يَرْنُ حَبَابُ الْمَاءِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ * هُنَّ لِأَصْوَاتِ السُّقَاةِ رَوَانِي
مُحَمَّدٌ مَيَّ حُرٍّ شَوْقٍ وَلَوْعِهِ * عَلَيْكَ وَلَعَنَ السَّدُوقُ عِدَانِي
حَلِيلَ إِي مَيِّتٍ أَوْ مَكَلَمٍ * لُفِّي سَرِي فَأَمِصْ بِذَرَانِي
أَلَّ حَاقِي وَحَدِي وَبَارَتْ حَاجِي * قَضَيْتُ عَلَى هَوْلٍ وَخَوْفٍ حَانِي
هَائِي أَحَقُّ السَّائِسِ أَلَّا تُحَاوِرَا * وَطَرِحَا مِنْ لَوْيَسَاءِ شِفَانِي
وَمِنْ قَادِنِي لَوْتُ حَتَّى إِذَا صَعْتُ * مُشَارِبُهُ السَّمِّ الدُّخَانِي سَقَانِي
فَأَقَامُوا مَعَهُ حَتَّى لَمِيهَا .

لما أَلَحَّ دَرِيحٌ عَلَى أَسِهِ قَيْسٌ فِي طَلَاقِ لَسَانِي فَأَيُّ ذَلِكَ قَيْسٌ ، طَرَحَ ذَرِيحَ هَسِهِ
فِي الرَّمْصَاءِ وَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَرُدُّ هَذَا الْمَوْصِعَ حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يُحْلِيَهَا ، بَغَاءَهُ قَوْمَهُ مِنْ كُلِّ
نَاحِيَةٍ فَعَظَّمُوا عَلَيْهِ الْأَمْرَ وَدَخَرُوهُ بِاللَّهِ وَقَالُوا : أَتَفْعَلُ هَذَا مَائِكَ وَأَمَّا ! إِنْ مَاتَ شَيْخُكَ
عَلَى هَذِهِ الْحَالِ كَيْتَ مُعِيَا عَلَيْهِ وَشَرِيكَ فِي قَتْلِهِ ، فَهَارِقُ لَنِي عَلَى رَغْمِ أَنَّهُ وَقَلَّةُ صَبْرِهِ
وَبُكَاءِهِ مَعَهُ حَتَّى يَكُنِيَ لَهَا مِنْ حَضْرَمَاتِهَا ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَفُونُ لِحْلِي فِي عَيْرِ حُرْمٍ * أَلَا يَبْنِي بِنَفْسِي أَنْتِ ، بِنِي
وَوَاللَّهِ الْعَظِيمِ لَتَزْعُ نَفْسِي * وَقَطَعُ الرِّجْلَ مِنِّي وَالْجَبِينِ

أحبُّ إلىَّ يا بُنَيَّ مِرَاقًا * فَبَكَى لِلْفِرَاقِ وَأَسْعَدِي
ظَلَمَتِكَ بِالطَّلَاقِ سِرْ جُرْمٍ * فَقد أَذْهَبَتْ آخِرَتِي وَدِينِي

قال : فلما سمعت ذلك لبني نكت بكاء شديداً ، وأنشأت تقول :

رَحَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ بَلَدِي وَأَهْلِي * بِهَا زَانِي جِزَاءَ الْخَاشِيَا
مَنْ رَأَى فَلَا يَفْتَرِ عَدِي * بِجُلُودِ الْقَوْلِ أَوْ يَتَلَوَّ الدُّبَا

فلما أفضت عنتها وأرادت الشحوص إلى أهلها أُتيت براحة لُتَحْمَلَ عليها ، فلما رأى ذلك قيسٌ داخله أمر عظيم وأشدت لهفه ، وأنشأ يقول :

بانتُ لُبْنَى فانتَ الْيَوْمَ مَنُوءُ * وَإِنَّكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْحَزْمِ مَحُوءُ
فَأَصْبَحْتُ عَكَ لُبْنَى الْيَوْمَ مَارِحَةً * وَدُلُّ لُبْنَى - لَهَا الْخِيَارُ - مَعُوءُ
هَلْ تَرَجَحْتُ نَوَى لُبْنَى مَاقِسِيَةِ * كَمَا عَهَدْتُ لِبَالِي الْعَشَقُ مَقُوءُ
وَقَدْ أَرَانِي بِلُبْنَى حَقٌّ مَضِيحٌ * وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعٌ وَالْجِلْبُ مَوْصُولُ
فَصَرْتُ مِنْ حَبْلِي حِينَ أَذْكَرَهَا * الْقَلْبُ مَرَّتَيْنِ وَالْعَقْلُ مَدْحُولُ
أَصْبَحْتُ مِنْ حَبْلِي بَلْ تَدْتَكَرَهَا * فِي كُرْبَةٍ فَعَوَّادِي الْيَوْمَ مَشْعُولُ
وَالْجِسْمُ مَسْقَى مَهْلُوكٌ لَهْرَقَتَهَا * يَتَرِيهِ طَوْلُ سَقَايِمٍ هُوَ مَنَحُولُ
كَأَنِّي يَوْمَ وَلَّتْ مَا تَكَلَّمَنِي * أَحْوَهُيَّامٍ مَصَابُ الْقَلْبِ مَسْلُولُ
أَسْتَدْعِ اللَّهَ لَنِي أَدْفُنْ رَقَنِي * فِي غَيْرِ طَوِيْعٍ وَأَمْرٍ الشَّيْخِ مَفْعُولُ

ثم ارتحلت لبني ، فجعل قيس يقبل موضع رحليها من الأرض وحول إختائها ، فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعذل واللوم ، فقال دَرِيْعٌ لما رأى حاله تلك : قَدْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ يَا بُنَيَّ ، فقال له قيس : قَدْ كُنْتُ أَجْبِرُكَ أَنْيَ مَجْنُونٍ بِهَا فَلَمْ تَرْضَ إِلَّا بِقَتْلِي ، فإِنَّ اللَّهَ حَسْبُكَ وَحَسْبُ أُنَى . وأقبل قومه يعدُّونه في تقبيل التراب ، فأنشأ يقول :

مَا حُبِّي لِطَيْبِ تَرَابِ أَرْضٍ * وَلَكِنْ حَتِّ مِنْ وَطْنِي التُّرَابِ
هَذَا فَعَلَ شَيْئِيًّا جَمِيعًا * أَرَادَا لِي الْبَيْتَ وَالْعَذَابَا

وله قصيدة طويلة في تطليقه لبني يقول فيها :

فَوَاكَيْدِي وَعَاوَدِي رُدَّاعِي * وَكَانَ رَأْفُ لَنِي كَالْجَدَّاعِ^(٢)
تَكْتَفِي الْوُشَاةُ فَاذْعَبُونِي * فَيَا لَلْوِشَاةِ الْمُطَاعِ
فَأَصْبَحْتُ الْغَدَاةَ الْيَوْمُ نَعْمِي * عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ مَسْتَطَاعِ
كَفَبُونِي بِعَصٍّ عَلَى يَدِي * تَيَّيْنَتْ بَعْدَ الْبِيَاعِ
بِدَارِ مِصْبِغَةِ تَرْكُكُ بُنْي * كَذَلِكَ الْحَيْنُ يُهْدَى لِلصَّاعِ
وَقَدْ عَشَا نَلَّذَ الْعَيْشَ حَيًّا * لَوْ أَنَّ الدَّمَرَ لِلْإِنْسَانِ وَاعِي
وَلَكِنْ الْجَمِيعَ إِلَى اقْتِرَاقِ * وَأَسَابِ الْخُتُوفِ لَهَا دَوَاعِي

واجتمع إليه نسوة فأظنَّ الخلوَّسَ عنده وحادثته وهو سايه عنهنَّ، ثم نادى : يا لبني،
فقل له : ما لك ويحك ؟ فقال : حَدِثْ رَجُلٌ « ويقال : إن دعاء الإنسان باسم أحبَّ
الناس إليه يُذهبَ حَذَرَ الرجل، ماديتها لذلك . وقال :

إِذَا حَدِثْتُ رَجُلًا تَذَكَّرْتُ مِنْهَا * مَا دَيْتُ لُبْنِي بِأَحْمِيهَا وَدَعَوْتُ
دَعَوْتُ الَّتِي لَوْ أَنَّ نَفْسِي تُطْلَعُ * لِفَارِقَتِهَا مِنْ حَبِّهَا وَقَعِيتُ
بَرَّتْ نَبْلَهَا لِلصَّبْدِ لُبْنِي وَرَيْسَتْ * وَرَيْسَتْ أُخْرَى مِثْلَهَا وَبَرَّتْ
فَلَمَّا رَمَتْنِي أَقْصَدْتَنِي بِسَهْمِهَا * وَأَحْطَأَتْهَا بِالسَّهْمِ حِينَ رَمَيْتُ
وَفَارَقْتُ لُبْنِي صَلَّةً فَكَأَنِّي * قَرُبْتُ إِلَى الْمَيُوقِ^(٣) ثُمَّ هَوَيْتُ
فِيَالَيْتَ أَنِّي مِتُّ قَبْلَ فِرَاقِهَا * وَهَلْ تَرَجِسُ فَوْتَ الْقَصْبَةِ لَيْتُ
وَمَعَرْتُ وَشِيعِي كَالَّذِي عَزَّتْ بِهِ * عُدَاةُ الْوَعَى بَيْنَ الْعُدَاةِ كُنَيْتُ
فَقَامْتُ وَلَمْ تَضُرْهُنَّ إِلَّا سَوِيَّةً * وَفَارِسُهَا تَحْتَ السَّابِكِ مَيْتُ
فَإِنْ بِكَ تَهْيِيءُ لِبُنْيِ نَحْوَايَةٍ * فَهَذَا يَدْرِجُ سَاحِلَ الْخَبَابِ غَوَيْتُ

(١) الرداع . الكس ، وهو رجوع المرض . (٢) الجداع الموت (٣) هو نجم أحمر مضيء

في طرف الهرة الأيمن ينزل أثرها لا يتقدمها .

فلا أت ما أقلت في رأيتك * ولا أأنا لنى والحياء حوبت
موطنى لملكى منك عسا لى * كلك بى قد يا دريغ قصدت

ومرص قيس، فسأل أبوه فتيات الحى أن يعذنه ويحاشه أو يعلق مصنن . ففعل
ذلك، ودخل اليه طبيب ليداويه والفتيات معه، فلما احتمص عده حمل بجاشه وأطلق
السؤال عن سبب عله، فقال :

تعلق روى روحها قل حلقيا * ومن بعد ما كنا يطانا وى المهيد
مراد كما ردا فاصح نايبا * وليس اذا متا تمصير العهد
ولككه ماى على كل حادث * وزائرا فى طلمة القبر والمحد

فقال له الطبيب : إن مما يسليك عنها أن تتذكر ما فيها من المساوى والمعاب ،
فإن النفس تنبو حينئذ وتسلو ويحف ما بها .

فلما طال على قيس ما به أشار قومه على أنه أن يزوجه أمراه جميلة فعله تسلوها
عن لنى ، فدعاه الى ذلك فآماه وقال :

لقد حجت ألا تقع المس بعدها * بشىء من الدنيا وإن كان مقعا
وأزجر صبا المس اذ حيل دونها * وتأتى اليها المس إلا تطلعا

ولما تزوجت لنى آخرأتى موضع خائها فزل عن راحته وحمل بتمك موصمها^(١)
ومتزع حنه على ترابها ويكى آخر نكاه ثم قال .

الى الله أشكو فقد لبني كما شكا * الى الله فقد والدين ينيم
ينيم جفاه الأقربون جسمه * محيل وعهد والدين قديم
بكت دأهم من مايم فتهلت * دموى فأتى الجازعين ألوم
أستعريكي من الشوى والهوى * أم آخر يكي شجوه ويهم
تهيفنى من حث لبني علائق * وأصاف حث موطن عظيم

(١) يتمك : يتزعج والقراب .

ومن ينعلق حبُّ لُنى فؤاده * يمتُّ أو يعيش ما عاش وهو كلمُّ
 وإني وإن أحممتُ عك عخلدا * على المهد فيما سما لمقيم
 وإن زما ما شئتَ الشمل بيننا * وبينكم فيه العدا لمشوم
 أو الحق هذا أن قلبك فارغ * صحيحٌ وقلبي هو لك سقيم

وقال في رحيل لُنى عن وطنها وانتقالها الى روحها بالمدينة وهو مقيم في حبيها :
 مات لُنى فهاج القلب من ما * وكأني ما وعدتُ مطلا وليانا^(١)
 وأحلفنك متى قد كنت تأملها * فأصبح القلب بعد الدين حيرانا
 الله يدرى وما يدرى به أحد : ماذا أحمم من ذكرائك أحيانا
 يا أكل الساس من قرني الى قديم * وأحسن الناس ذا ثوب وعُرِيانا
 نعم الصبيح بيد اليوم نحليه * اليك ممتكنا نوما ويقظانا
 لا بارك الله فيمن كان يحسبك * إلا على المهد حتى كان ما كانا
 حتى استفتت أجبز^(٢) ، أناكحت . فت للشوق أدري الدمع تهنانا
 إن تصرى الحبل أو نعى مفارقة * فالدمع يحدث للإنسان ألوانا
 وما أرى مثلكم في الناس من تثير : فقد رأيتُ به حيا ونسوانا

وشكا أبو لُنى لمعاوية تعرض قيس لأخته بعد طلاقها ، فكتب معاوية الى الأُمير
 يُهدر دمه إن ألم بها ، وأن يشتد ذلك ، فكتب مروان في ذلك الى صاحب الماء الذي
 يرله أبو لُنى كَنّا وكيدا ، ووجهت لُنى رسولا الى قيس تُعلمه ما جرى وتُخبره ، وبلغ أمه
 الخبر ، فعاتبته وتهمته ، وقال له : امشي بك الأمر الى أن يهدر السلطان دمك ، فقال :
 فان يجبوها أو يتحل دون وصلها * مقالة واش أو وعيدُ أمير
 فلن ممعوا عيني من دائم البكا * ولن يذهبوا ما قد أجرت صميري
 الى الله أشكو ما ألاق من الهوى . ومن حرق تفتادني وزمير

(١) الجان : التي والمطل ، قال أبو الهيثم لم يمت من المصادر على صلات إلا لجان .

ومن حُرِّقَ للحبِّ في باطن الحشى * ولبلى طويل الحزن غير قصير
 سابكى على نفسى عيني عزيزة * نكاه حرين في الوثاق أسير
 وكما جميعاً قل أن يظهر الهوى * ناعم حالى عبطية وسرور
 وما يريح الواشون حتى مدت لهم * طول الهوى مقلوبة لظهور
 لقد كتبت حسب النفس لودام وصلنا * ولعكنا الدنيا متاع غرور
 وقال في إهدار معاوية دمه إن هو رارها :

إن تك لئنى قد أتى دون قربها * حجاب مبع ما إليه سبيل
 فإن سيم الخو يجمع بيننا * ونصير قرن الشمس حين تزول
 وأرواحنا بالليل والحقى تلتقى * وسلم أياً بالهار قيل
 وتجمعا الأرض القرار وفوقنا * سماء نرى فيها النجوم تجول
 إلى أن يعود الدهر ساءاً وتنقصى * تراث ساءها عندها ودحول^(١)

ولما أنصرف الناس من الحج مرض قيس مرضاً شديداً فلم يأته رسولها عائداً، فقال :

ألئنى لقد حلت عليك مصيبتى * مداة عيد إذ حل ما أتوقع
 ثمبئنى نيتاً وتلوينى قيل * فمضى شوقاً كل يوم تقطع
 وقبلك قط لا يلين لما يرى * هوا كيدى قد طال هذا التصرع
 ألومك في شأني وأنت ملجمة * لعمري وأجنى للحب وأقطع
 أخبرت أنى بك ميت حسرى * وما فاض من عينيك للوحده مدمع
 ولكن لعمري قد نكيتك جاهدا * وإن كان دأى كله منك أجمع
 صيحة جاء العائذات يمدنى * فظلت على العائذات تفتح
 فقائلة جئت إليه وقد قضى * وقائلة لا مل تركناه يترع
 ما عشت عينك من ذاك صبرة * وعنى على ما بى بذكراك تسمع
 إذا أنت لم تبكى على جازة * لديك فلا تبكى غدا حين أرفع

ومن شعره قوله :

أتبكي على لُنى وأنت تركتها * وكنت عليها بالملأ أنت أفدري^(١)
فإن تكن الدنيا بلُنى تقلت * على فللدنيا بطوبى وأطهر
انقد كان بها للأُمّية موصع * وللکف مُرتادٌ وللعين مطر
ولهاثم العطشان رى ريقها * وللريح المختال نحرٌ ومُسکر
كأنى لها أرجوحة بين أحيل * اذا دُكرة منها على القلب تحطُر

وقوله :

لقد عذبتنى يا حب لبنى * فقع إنا بموت أوحياه
فإن الموت أروح من حياه * تدوم على التاعُد والشتات
وقال الأقربون تعز عنها * فقلت لهم اذا حانت وقاتي

وقالت له لنى : أنشدنى ما قلت فى علك، فأنشدها قوله :

أعالج من نفسى بقايا حُشاشية * على رَمَقٍ والعائدات تمود
فإن دُرُكْتُ لبنى هَشَّتْ لذكرها * كما هَشَّ للشذى الدرور وليد
أجيب بلنى من دعائى تحلدا * وى زفرت بجمل وتعود
تُعيد الى رُوحى الحياه وإنى * بنفسى لو عابتنى لأجود

وفيها يقول :

ألا ليت أياماً مضين تعود * فإن عُدَّ يوماً إنى لسعيد
سقى دار لبنى حيث حلت وخيمت * من الأرض مُنهلُ الغمام رعيد
على كل حال إن دنت أو تباعدت * فإن تدن منى فالدق مزيد
فلا إلياس يُسلبنى ولا القرب ناهي * ولبى مُروع ما تكاد تجود
كأنى من لبنى سليم مسهد * يظل على أيدى الرجال يمد
ومنى لُينى فى الفؤاد بسهمها * وسهم لُينى للفؤاد صبيد

سلا كل ذي شئو علمت مكانه * وقلبي للسنى ما حيث ودود
وقائله قد مات أو هو ميت * وللنفس مى أن تعيص رصيد

وعانتته على روجه، خلف أنه لم ينظر إليها ملء عينه، ثم قال :

ولقد أردت الصبر عك عاقبي * علق قلبي من هوالك قديم
يبقى على حدّ الزمان ورثه * وعلى حفائك إنه لكريم
فصرمته وخصخت وهو مدانه * شتأب بين مصحح وسقيم
وأرثته زمتا صاد بحلمه * إن المحب عن الحبيب حليم

لم يزل معها يحتملها ويشكو إليها حتى أمتى . فاصرفت ووعدته الرجوع إليه من عد
لم ترجع، وشاع خبره، فلم ترسل إليه رسولا، فكتب هذين البيتين .

بمضى من قلبي له الدهر ذاكر * ومن هو عني معرض القلب صار
ومن حبه يزداد عدوى حدة * وحبي لديه محلق العهد دائر

وقال اس أى عتيق لقيس يوما : أنشدنى أحرما قلتى لنى، فأنشده :

وأنى لأهوى اليوم فى صبر حبه * لعل لقاء فى الميام يكون
نمذنى الأحلام أنى أراكم * فبالت أحلام الميام يقين
شهدت ماى لم أحل عن وقته * وأنى بكم لو تعلمين صين
وأن فؤادى لا يلبس إلى هوى * سواك وإب قالوا بلى سيلين

وقال عبد الملك بن عبد العزيز : أنشدت أبا السائب المخزومى قول قيس :

أجيك أصافا من الحت لم أحذ * لها مثلا فى سائر الناس يوصف
فمنهن حب للحبيب ورحمة * بمصرفى منه بما يتكلف
ومنهن ألا يمرض الدهر ذكرها * على القلب إلا كادت النفس تتلف
وحب بدا بالجسم واللون طاهر * وحب لادى نفسى من الروح أطف

وقصيدة قيس العينية من جيد شعره وهى :

عَفَا سِرْفٌ مِنْ أَهْلِهِ فُسْرَاوُعُ * جَنَّبَا أَرِيكَ فَالتَّلَاعُ الدَّوَاعُ^(٢)
 فَنَيْقَةُ فَالْأَخْيَافُ أَخْيَافُ طَبِيَّةٍ * هَا مِنْ لَبْنِي تَحَرَّفُ وَصَرَاعُ^(٣)
 لَسِلَ لُبْنَى أَبِ يُمِّمْ لِقَاؤَهَا * بَعْضُ السَّلَادِ إِنْ مَا حَمَّ وَقَعُ^(٤)
 بِجَزَعٍ مِنَ الْوَادَى حَلَاءُ أُنَيْسُهُ * عَفَا وَقَطَعْتُهُ الْعَبُوبُ الْخَوَادِعُ^(٥)
 وَلَمَّا بَدَا مِنْهَا الْفِرَاقُ كَمَا بَدَا * ظَهَرَ الصَّعَا الصَّلْدُ الشَّقُوقُ الشَّوَارِعُ^(٦)
 تَمَثَّتَ أَنْ تَلْقَى لِبْهَازَكَ ، وَالْمُنَى * تُعَاصِيكَ أَحْيَانًا وَحَيًّا تُطَاوِعُ^(٧)
 وَمَا مِنْ حَبِيبٍ وَامِيٍّ لَحِييَةٍ * وَلَا ذَى هَوًى إِلَّا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
 وَطَارَ عَرَابُ الْبَيْتِ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا^(٨) * يَسِيرُ كَمَا شَقَّ الْأَدِيمُ الصَّوَاعُ^(٩)
 أَلَا يَاعْرَابَ الْبَيْتِ قَدْ طَرَبْتَ بِالْهَدَى * أَحَازِرُ مِنْ لَبْنِي فَهَلْ أَنْتَ وَقَعُ
 وَإِنْكَ لَوْ أَبْلَعْتَهَا يَمِيزُكَ اسْلَبِي * طَوْتُ حَرًّا وَأَرْفَعُ مِنْهَا الْمَدَامِعُ^(١٠)
 أَنْبَكِي عَلَى لَبْنِي وَأَنْتِ تَرْكَبْتَهَا * وَهَكَتَ كَاتِبٌ عَيْبَهُ وَهُوَ طَائِعُ
 فَلَا تَبْكِيْنَ فِي إِثْرِنِي نَدَامَةً * إِذَا نَزَفْتَهُ مِنْ يَدِكَ النِّوَازِعُ
 فَلَيْسَ لِأَسْمٍ حَاولِ اللهُ جَمْعَهُ * مُشِتٌ^(١١) وَلَا مَا فَسَّرَقَ اللهُ جَامِعُ
 كَأَنَّكَ لَمْ تَقْنَنَهُ إِذَا لَمْ تُلَاقِهَا * وَإِنْ تَلَقَّهَا فَالْقَلْبُ رَاضٍ وَقَاعُ

- (١) وردت هذه القصيدة برمتها في تلخاف الأمل لأبي علي الفصالح (ح ٢ ص ٣١٤ - ٣١٨ طبعة دار الكتب المصرية) . (٢) سرف وسراوع وأريك : مواضع . والتلاع واحذتها ثمة وهى مسيل ما ارتفع من الأرض الى طين الوادى . والفواع جمع دابة وهى التى تجمع الماء . (٣) أخياف طية : موضع . والحرف : المنزل الذى يقام فيه فى الحريف . والمراج : جمع مربع وهو الموضع الذى يقام فيه فى الربيع . (٤) حم : قدر . (٥) حرج الوادى : مسطحة . وعفا : درس . والخوادع واحدتها حادة وهى التى لا تنام ، يقال : حدثت عيه محمد بن داود تم ، وأنيامهم بعد ما حدثت العين . (٦) الصعا : الصخر . والصلد : الصلب الذى إذا أصابه شئ صلد أى سوت . والشوايع : جمع شاة وهى الطاهرة . (٧) أى تمرقت الجماعة . (٨) ارضى : سأل ولا يكون إلا سبلا مع محزوق . (٩) مشت : معرق . (١٠) مشت : معرق . (١١) مشت : معرق .

فياقُظُ حَتَرِي، إِذَا شَطْتُ^(١) الْوَى * طُنِّي وَصَدَّتْ عَكَ، مَا أَنْتَ صَامِعُ
 أَنْصَرُ لِلَّذِينَ الْمِثْتُ مَعَ الْحَوَى * أَمْ أَنْتَ أَمْرُؤُ نَائِي الْحَيَاءِ بِلَازِعُ
 هَا أَمْ إِنْ أَنْتَ لُبْنِي هَاجِجُ * إِذَا مَا اسْتَقَلْتُ وَالنَّيَامُ الْمُضَاجِعُ
 وَكَيْفَ يَأْمُ الْمَرْءُ مُسْتَشِيرَ الْجَوَى * صَحِجَ الْأَسَى فِيهِ نِكَاسُ رَوَادِعِ^(٢)
 وَلَا حَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تُؤَاتِهَا * لُبْنِي وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا الشَّمْلَ جَامِعُ
 أَلَيْسَتْ لِبْنِي تَحْتَ سَقْفٍ يُكْنِهَا * وَلِيَايَ هَذَا إِنْ أَنْتَ لِي نَافِعُ
 وَيَلَيْسَا اللَّيْلُ الْبَهْمُ إِذَا دَجَا^(٣) * وَنُصْرُ ضَوْءِ الصَّحْجِ وَالْعَجْرُ سَاطِعُ
 تَطَلَّ تَحْتَ رَجُلِيهَا بِسَاطِئِ وَبَعْضِهِ * أَطَاهُ بِرَجُلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَاعِ^(٤)
 وَأَفْرَحُ إِنْ تُنْسَى بِمَجِيرٍ وَإِنْ يَكُنْ * مَا الْخَدْتُ الْعَادِي تَرْغِي الرِّوَائِحُ
 كَأَنْكَ يَدْعُ لَمْ تَرَالِئُ قُلُوبَهَا * وَلَمْ يَطْلِفْكَ الدَّهْرُ فِيمَنْ يَطَالِعُ
 فَقَدْ كُنْتُ أَبْيَى وَالْوَى مَطْمَئِنَّةُ * بِنَا وَبِكُمْ مِنْ عِلْمٍ مَا الْبَيْنُ صَامِعُ
 وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْبَيْضِ وَحُبُّكُمْ * عَلَى كِبْدِي مِنْهُ كُلُّوْهُ صَوَادِعُ
 وَأَعْمَلُ لِلْإِشْفَاقِ حَتَّى يَشْفِي * مَخَافَةُ شَحِيطِ الدَّارِ وَالشَّمْلِ حَامِعُ
 وَأَعِمِدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي مِنْ وَرَائِكُمْ * لِيَرْجِعَنِي يَوْمًا عَلَيْكَ الرَّوَاكِعُ
 يَا قَلْبُ صَبْرًا وَأَعْتَرَا^(٥) مَا تَرَى * وَيَا حُبَّهَا قَمَّ بِالَّذِي أَنْتَ وَاقِعُ
 لَعَمْرِي لَمَنْ أَمْسَى وَأَنْتَ صَحِيحُهُ * مِنْ النَّاسِ مَا اخْتَبِرْتُ عَلَيْهِ الْمُضَاجِعُ
 أَلَا تَلَكُ لُسْنِي قَدْ تَرَانِي مَزَارُهَا * وَلِلْبَيْنِ عَمُّ مَا يَزَالُ يَسَازِعُ
 إِذَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا الْجَوَى فَكَفَى بِهِ * حَوَى حُرْقِي قَدْ صُمِّمَتْهَا الْأَضَالِعُ
 أَنَاثَةُ لِبْنِي وَلَمْ تَقْطَعْ الْمَدَى * وَوَصِلَ وَلَا صَرِمَ فَيَأْسَ طَامِعُ

(١) شطت صعدت . (٢) المستعمر : الذي ليس للشعار وهو الثوب الذي على الحسد . والحوى :

الحوى الباطن . والأسى : الحزن . ونكاس : جمع نكس بالصم . وروادع : جمع رادة وهي التي تردده عن الحركة

والتصرف . (٣) دجا : ألس طلبه كل شيء . (٤) الساط : ما سط من العرش .

(٥) ترمي . ترمي . (٦) اعترف : دل واثقاد .

يَطْلُ نَهَارَ الْوَالِهِينَ نَهَارُهُ * وَتَهْدِيهِ^(١) فِي الْبَائِسِينَ الْمَصَاحِعُ
 سِوَايَ فَلْيَلِي مِنْ نَهَارِي وَإِنَّمَا * تُقَسِّمُ بَيْنَ الْمَالِكِينَ الْمَصَارِعُ
 وَلَوْلَا رَحْمَةُ الْقَلْبِ أَنْ تَمِطَ الْوَيْ * لَمَا حَمَلْتَهُ بَيْنَهُ الْأَضَالِعُ
 لَهُ وَجَعَتْ إِيَّائِي كَأَنَّمَا * شَقَائِقِي بَرِّقَ فِي السَّحَابِ لَوَامِعُ
 نَهَارِي نَهَارُ الْبَاسِ حَتَّى إِذَا دَحَا * لِي اللَّيْلُ هَزَنَتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
 أَقْصَى نَهَارِي بِالْخَبِيثِ وَالْمُنَى * وَيَعْنِي بِاللَّيْلِ وَالْمَهْمُ حَامِعُ
 وَقَدْ نَشَأْتُ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةً * كَمَا نَشَأْتُ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
 أَبِي اللَّهِ أَبِ يَلْقَى الرِّشَادَ مِنْي * أَلَّا كُلُّ أَمْرٍ حُمٌ لَا يَدُ وَاقِعُ
 هُمَا بَرَحًا يَ مُعْيَوَيْنِ كَلَامُهُمَا * هُوَادٌ وَعَيْنٌ مَاقَهَا^(٢) الدَّهْرُ دَامِعُ
 إِذَا عَنِ أَنْفَعِدَا الْبُكَاءَ عَشِيَّةً * هُوَعْدًا قَرْنٌ مِنَ الشَّمْسِ طَالِعُ
 وَلِلْجِبِّ آيَاتٌ تَبَيَّنَ بِالصَّبِيِّ * تُحَوِّبُ وَتَعْرِى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشْجَاعُ^(٣)
 وَمَا كُلُّ مَا مَتَكَ فُغْسَكَ حَالِيًا * تَلَاقَى وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
 تَدَاعَتْ لَهُ الْأَحْرَانُ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ * لَحْنٌ كَمَا حَنَ الطُّوَارُ السَّوَابِعُ^(٤)
 وَجَانِبَ قُرْبِ الْبَاسِ يَحْلُوهُمْ * وَعَاوَدَهُ فِيهَا هَيْأَمٌ مُرَاجِعُ
 أَرَاكَ اجْتَنَبْتَ الْحَيَّ مِنْ عَيْرِ نَفْصِي * وَلَوْ شِئْتَ لَمْ تَجْعَلْ إِلَيْكَ الْأَصَابِعُ
 كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ مَا لَمْ تَكُنْ بِهَا * وَإِنْ كَانَ مِثْلُهَا الْخَلْقُ قَفَرٌ مَلَاهِقُ
 إِلَّا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعٌ * وَهَلْ بَرَّحْتُ مِنْ وَشَكِّ بَيْدِكَ نَامِعُ
 أَحَالَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * وَدَامَتْ وَلَمْ تُقْلِعْ عَلَى الْعَوَاجِعِ
 مَنْ كَانَ مَحْزُومًا عَدَا لِهَرَاقِمَا * فَلَا تَرَى فُلَيْبِي لِمَا هُوَ وَاقِعُ

(١) تَهْدِي . فَسَكِهِ . (٢) وَجَعَات . حَقَقَات . (٣) الْمَاقَى مِنَ الْعَيْنِ . الْحَاسِبُ الَّذِي يَلِ
 الْأَهْمُ . (٤) الْأَشْجَاعُ عُرُوقُ طَاهِرِ الْكَفِّ . (٥) الطُّوَارُ : حِمٌّ طَوَّعَ وَهِيَ الَّتِي عَطَمَتْ عَلَى
 وَلَدِ عَيْرِهَا . وَالسَّوَابِعُ : حِمٌّ سَاجِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَمُدُّ حَيْثُهَا عَلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ .

الشعر السياسي

أوصحنا لك في المجلد الأول ما لاستعمال الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية وأستحداث العرّات وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وبينا ميزه استعمال الشعر في الأعراس السياسية في عصر الدولة الأموية، وذكرنا عنه أمثلة تبيّن ما وصل إليه هذا النوع الطريف، ووعداك بذكر قصيدة النعمان بن بشير في هذا الباب. وهما هي دي :

النعمان بن بشير^(١)

قال أبو الفرج الأصفهاني :

لما كثرت المجاهيل بين عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاخشا، كتب معاوية^(٢) إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يحلّد كلّ واحد منهما مائة سوط، وكان أبو حسان صديقاً لسعيد وما مدح أحداً غيره قط، فكره أن يصرّبه أو يضرب أس عمه، فأمسك عنهما؛ ثم ولي من أن، فلما قديم أحد أبو حسان فصرّبه مائة سوط ولم يصرّب أحاه، فكتب أس حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام، وكان كثيراً أنيراً^(٣) ميكياً ضد معاوية، قال

(١) هو النعمان بن بشير بن سعد الأضاري، من المروءة أهل يثرب، لكه ساير معاوية، فكان معه في واقعة صفين، ولم يكن مع معاوية في تلك الواقعة من الأضار سواء. وقد احتدبه سباعته ودعائه وكان يراعى حاشه، وكثيراً ما سمع توسطه للأضار عسده. وعاش النعمان المذكور إلى خلافة مروان بن الحكم، وكان يتولى حصص، فلما أصبت الخلافة إلى مروان دعا إلى أس الرية وحالف على مروان مد قتل الصحاك، فلم يحبه أهل حصص إلى ذلك، فهرب منهم هضوه وأدركوه وقلوه. وكان على مسابرة بني أمية شديد التصب للأضار، ولذلك عد ما لم قصيدة الأحطل في الظعن عليهم رد عليه. والنعمان بن بشير من الرقيقين في الشعر حلطاً عن سلف فان حده وأماه وعنه وأولاده وأحفاده كلهم شعراء. وهو أول مولود ولد في الاسلام من الأضار، وآخر من ولي الكوفة لمعاوية من بني سعيان. وله ديوان مطبوع في الهند. توفي سنة ٥٩٥ هـ. وترى أحمار النعمان بن بشير في الأغاني (ح ١٤ ص ١١٩) وأمال القنالي (ح ٣ ص ٨) والقد الفرزدق (ح ٣ ص ١١٢ طبع مصر سنة ١٣٠٥ هـ) وفي سيرة ابن هشام وابن حنبل وابن الأثير ومصرها. (٢) أنيراً: مكرماً.

لَيْتَ شِعْرِي أَتَيْتُكَ أَمَّا بِالشَّاءِ • مَحَلِّسِي أَمَّا رَاقِدٌ مُعْتَمِلٌ
 أَيْةٌ مَا يَكُنْ فَقَدْ يَرْجِعُ الْفَا • ثُبُّ يَوْمًا وَيُوقَطُ الْوَسَانُ
 إِنِّ عَمْرًا وَعَامِرًا أَوْيَا • وَحَرَامًا قَدَمًا عَلَى الْعَهْدِ كَانُوا
 أَمَّهُمْ مَا يَمُوكَ أَمَّا قَلَّةُ الْكُتَّابِ أَمَّا أَنْتَ عَاتِبُ عَصَانِ
 أَمَّا جَعَاهُ أَمَّا أَعُوذُكَ الْقَرَّاطِي • أَمَّا أَمْرِي بِهِ عَلَيْكَ هَوَانِ
 يَوْمَ أُتَيْتَ أَنْ سَاقِي وَصَّتْ • وَأَتَيْتُكُمْ بِدَلِكِ الرُّكَّانِ
 ثُمَّ قَالُوا إِنِّ ابْنُ عَمِّكَ فِي مَلَكُوتِ أُمُورٍ أَتَى بِهَا الْخَدَّانِ
 فَسَيِّتِ الْأَرْحَامَ وَالْوُدَّ وَالصُّحُوبَةَ مِمَّا أَنْتَ بِهِ الْأَرْحَامِ
 إِنَّمَا الرِّيحُ فَاعْلَمِي قَاءً • أَوْ كَعَصِ الْعِيدَانِ لَوْلَا السَّنَانِ

قال أبو العرج الأصماني :

دخل النعمان بن بشير على معاوية لما هاجم الأخطل الأنصار ، فلما مثل بين يديه
 أنشأ يقول :

مُعَاوِيَ إِلَّا تُعْطِيَ الْحَقَّ تَعْتَرِفُ • لِحَى الْأَزْدِ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعَائِمُ
 أَتَيْتُمَا عَبْدُ الْأَرَّاقِمِ صَلَّةً • وَمَاذَا الَّذِي تُجَدِّي طَلِيكَ الْأَرَّاقِمِ
 مَا لِي تَأْرُدُونُ قَطْعَ لِسَانِهِ • فَدُونِكَ مَنْ يُرْضِيهِ عَكَ الدَّرَّاقِمِ
 وَرَاجِعُ رُويْدَا لَا تُسَمُّا دَنِيَّةً • لَعَلَّكَ فِي عَيْتِ الْحَوَادِثِ مَادِمِ
 مَتَى تَلْقَى مَا عُصْبَةُ تَرْزُحِيَّةً • أَوْ الْأَوْسَ يَوْمًا تَعْتَرِيكَ الْحَارِمِ
 وَتَلْقَاكَ خَيْلٌ كَالْقَطَا مُسْتَطِيرَةٌ • شَمَّاطِيْطُ^(٢) أَرْسَلَتْ عَلَيْهَا الشُّكَاثِمِ^(٣)
 يُسَوِّمُهَا الْعَمْرَانُ • عَمْرُوبِ عَامِرِ • وَعِجْرَانُ حَتَّى تُسْتَسَاحَ الْحَارِمِ
 وَيَدُومُ الْخُودُ الْمَزِيْزَةُ جُمَّلُهَا • وَتَبِيصُ مِنْ هَوْلِ السُّيُوفِ الْمَقَادِمِ
 قَطَلَتْ شَعْبَ الصَّدْعِ مَدَّ الْبَتَامَةِ • قَفْصِيْرِيَّةً فَالْآنَ وَالْأَمْرُ سَالِمِ

(١) الأرقام - حتى بن تلب - (٢) شماطيط - معرقة - (٣) الشكاثم جمع

شليمية وهي الحديدة المعترسة في فم العرس -

وَالْأَفْئِدَةُ لَأَمَّةٌ نَبِيَّةٌ * تَوَارِثُ آثَانِي وَأَبْيُصُ صَارِم
 وَأَسْمَرُ خَطِيٌّ كَأَنَّ كُؤُوبَهُ * نَوَى الْقَسْبَ فِيهَا لَهْدِي خُتَارِم
 فَإِنْ كَسَتْ لَمْ تَشْهَدْ بِبَدْرِ وَبِقَعَةٍ * أَذَلَّتْ قُرَيْشًا وَالْأَسُوفُ رَوَاغِم
 فَسَائِلُ بِيَا حَيٍّ لَوْيَ بْنَ عَالِبٍ * وَأَنْتَ مَا يَخْفَى مِنَ الْأَمْرِ عَالِم
 أَلَمْ تَقْدِرْ يَوْمَ بَدْرٍ سَيُوفًا * وَلَيْلِكَ عَمَّا نَابَ قَوْمَكَ قَاتِم
 صَرْنَاثُكُمْ حَتَّى تَمَرَّقَ جَمْعُكُمْ * وَطَارَتْ أَكُفُّكُمْ وَجَمَاعُكُمْ
 وَعَادَتْ عَلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَرَائِشُ * وَأَنْتَ عَلَى حَوِيفٍ عَلَيْكَ التَّمَائِم
 وَعَصَّتْ قُرَيْشٌ بِالْأَمَلِ بِفَقْصَةٍ * وَمِنْ قَتْلٍ مَا عَصَتْ عَلَيْكَ الْأَدَامُ
 فَكَاثِلًا فِي كُلِّ أَمْرٍ تَكِيدُهُ * مَكَانَ الشَّعَا وَالْأَمْرِ بِهِ تَهَامُكُمْ
 هَا إِنْ رَمَى رَايِمٌ فَأَوْهَى صَعَاتِنَا * وَلَا صَامِنًا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ صَائِم
 وَإِنِّي لِأُعْصِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ * سَتَرَقَ بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامُ
 أَصَابِعُ فِيهَا عَدَنُ فَنَمَسَ وَإِنِّي * لِنُتْلِكَ التِّي فِي الْعَسْرِ مِنْ أُنْكَامِ
 هَا أَنْتَ وَالْأَمْرُ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ * وَلَكِنْ وَلَّى الْحَقُّ وَالْأَمْرُ هَاشِم
 إِلَيْهِمْ يَصِيرُ الْأَمْرُ عَدَّ شَتَاتِهِ * فَمَنْ لَكَ بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَا زِم
 بِهِمْ شَرَعَ اللَّهُ الْهَدَى فَأَهْتَدَى بِهِمْ * وَمِنْهُمْ لَهُ هَادٍ إِمَامٌ وَحَاتِمُ

فلما لفت القصيده معاوية أمر بدفع الأخطل اليه ليقطع لسانه، فاستجار يزيد
 ابن معاوية، فسمعه منه، وأرصى النعمان حتى كف عنه .

وقال عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه : لما صر مروان بن الحكم عبد الرحمن
 أب حسان الحداد ، ولم يصير أياه حين تهاجبا وتقادفا ، كتب عبد الرحمن الى النعمان
 ابن بشير يشكو اليه ، فدخل الى معاوية ، وأنشأ يقول :

يَا بَنَ أَبِي سُقْيَانَ مَا مِثْلُكَ * حَارَ عَلَيْهِ مَلِكٌ أَوْ أَمِير
 أَذْكَرُ بَأْ مُقَدَّمِ أَفْرَاسِيَا * بِالْخِنْوِ إِذَا أَنْتَ الْبَا قَصِيرُ

واذكر غداة الباعدي الذي * آثركم بالأمر فيها بشير
 فاحذر عليهم مثل بذير وقد * مرّ بكم يومٌ بسدرٍ عمير
 إن ابن حسان له نائر * فأعطه الحق نصيح الصدور
 ومثل أيامٍ لا شئت * ملكا لكم أمرك فيها صغير
 أما ترى الأزد وأشياعها * مجول خردًا كإطيات تزيير
 يصول حولي منهم معشر * إن صلت صالوا وهم لي نصير
 يأي لنا الضيم فلا يقتل * عزّ مبعٍ وعديدٌ كثير
 وعنصر في عز حثومية * عادية تنقل عنها الصبور

مُلْحَقُهُ الْكِتَابِ الثَّانِي

باب المشور

شرحنا لك في المجلد الأول ما كانت عليه الكتابة في عصر العباسيين من حُودَة اللفظ ،
ومتانة الأسلوب ، وجلاء المعنى ، ووضوح القصد وساطته . ووعداك بذكر طُرُق
من رسائل القوم في ذلك العصر الراعي الراعي ، وإليك ما وعدناك به :

١ — مُشَاوَرَةُ المهديّ لأهل بيته في حرب نُرَاسان

قال أبو عبد ربه في العقد العريد :

هذا ما تراخى فيه المهديّ ووزرائه وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب نُرَاسان أيام
تَحَامَلَتْ عليهم المِالُ وأعمتْ، حَمَلَتْهم الدَّالَّةُ وما تقدّم لهم من المكاة على أن يَكْتُمُوا بَيْعَتَهُمْ ،
ونقصوا موثقتهم ، وطردوا المِالَ ، وآلَتُوا بِمَا عليهم من الخراج ؛ وحمل المهديّ ما يُحِبُّ من
مصلحتهم ويكره من عنتهم على أن أقال عقرتهم ، وأعتمر رأتهم ، وأحتمل دالتهم ، تَطَوَّلُوا بالفصل
وَأَتَسَّاعَا بالعصو ، وأخذوا بالحقّة وريقها بالسياسة ، ولذلك لم يزل مُدَّ حَمْلُهُ اللهُ أَعْبَاءَ الخِلافةِ وقَلْدَهُ
أُمُورَ الرعيّة ريفيًّا بِمَدَارِ سُلْطَانِهِ ، بصيرا بأهل زمانه ، ماسطًا لِلْعَيْلَةِ في رِيعَتِهِ ، تسكى الى كَفَمِهِ
وتَأَنَسَ بِمَعْوِهِ وتَنَبَّقَ بِجِلْبَاهِهِ ، فإذا وقعت الأَقْبِصِيَّةُ اللارمَةُ والحقوقُ الواجبةُ ، فليس عنده

هَوَادَة وَلَا إِعْصَاء وَلَا مُدَاهَنَة ، أَثَرَة لِحَقِّ وَقِيَامَا بِالْعَدْلِ وَأَحَدًا بِالْحَزْمِ ، فِدَاعَا أَهْلَ خِرَاسَانَ
الْأَغْثَارُ عَلَيْهِمُ وَالنِّقْمَةُ مَعَهُوهُ أَنْ كَسَرُوا الْخِرَاجَ وَطَرَدُوا الْعَهْلَ وَسَأَلُوا مَا لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
ثُمَّ حَلَطُوا أَحْتِجَاحًا بِاعْتِدَارٍ ، وَخُصُومَةً بِإِقْرَارٍ ، وَتَنْصِلًا بِاعْتِلَالٍ ، فَلَمَّا أَنْتَهَى ذَلِكَ إِلَى الْمَهْدِيِّ
خَرَجَ إِلَى مَجْلِسِ حَلَالَتِهِ وَبَسَّطَ إِلَى نَهْرٍ مِنْ لِحْمَتِهِ وَوُزْرَانِهِ ، فَأَعْلَمَهُمُ الْحَالُ وَأَسْنَصَحَهُمُ
لِلرَّعِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمَوَالِي بِالْإِسْتِدَاءِ ، وَقَالَ لِلْعَاسِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَيَّ عَمٍّ تَقَعُّ قَوْلُنَا وَكَيْ حَكْمًا
بَيْنَنَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى وَلَدَيْهِ مُوسَى وَهَارُونَ ، فَأَحْصَرَهُمَا الْأَمْرَ وَشَارَكَهُمَا فِي الرَّأْيِ ، وَأَمَرَ
مُحَمَّدُ بْنُ أَلَيْثٍ بِمُحَمَّدٍ مَرَا جَعْتَهُمْ ، وَإِثْنَاتِ مَقَالَتِهِمْ فِي كِتَابٍ .

فَقَالَ سَلَامٌ صَاحِبُ الْمَغَالِمِ :^(٣)

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، إِنَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَايَةً ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ صِصَاعَةً ، أَسْتَفْرَعَتْ رَأْيَهُمْ ، وَأَسْتَفْرَقَتْ
أَشْعَالَهُمْ ، وَأَسْتَعْمَدَتْ أَعْمَارَهُمْ ، وَدَهَوُهَا وَدَهَبَتْ بِهِمْ ، وَغَيْرُهَا بِهَا وَعُفِرَتْ بِهِمْ ، وَلِهَذَا
الْأُمُورُ الَّتِي جَعَلْنَا فِيهَا عَايَةً ، وَطَلَبْتَ مَعُونَتَنَا عَلَيْهَا أَقْوَامٌ مِنْ أَسْبَاءِ الْحَرْبِ وَسَاسَةِ الْأُمُورِ
وَقَادَةِ الْجُودِ وَفُرْسَانِ الْمَزَاهِرِ وَإِخْوَانِ التَّحَارِبِ ، وَأَطَالِ الْوَقَائِعِ ، الَّذِينَ رَغَّبْتَهُمْ بِمَحَالِمِهَا ،
وَقَيَّانَهُمْ بِطَلَامُهَا ، وَعَصَبْتَهُمْ شِدَائِدُهَا ، وَقَرَّمْتَهُمْ نَوَاجِدُهَا ، فَلَوْعَدْتَهُمَا مَا قِيلَ لَهُمْ ، وَكَشَمْتَهُ
مَا عَدَّهُمْ ، لَوَحَدَتْ نَظَائِرُ تَوْيْدِ أَمْرِكَ ، وَتَحَارَبَتْ تَوَافِقُ بَطْرُوكَ ، وَأَحَادِيثُ تَقْوَى قَلْسِكَ ،
فَأَمَّا مَعْنَى مَعَايِرِ عَمَلِكَ ، وَأَصْحَابِ دَوَاوِينِكَ ، لِحَسْنِ بِنَا وَكَثِيرِ مَا أَنْ تَقُومُ بِثِقَلِ مَا حَمَلْنَا
مِنْ عَمَلِكَ ، وَأَسْتَوْدَعْتَنَا مِنْ أَمَانَتِكَ ، وَشَفَقْنَا بِكَ مِنْ إِمْعَاءِ عَدْلِكَ ، وَإِهَادِ حُكْمِكَ ،
وإِظْهَارِ حَقِّكَ .

فَأَحَابَهُ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ فِي كُلِّ قَوْمٍ حِكْمَةً ، وَلِكُلِّ زَمَانٍ سِيَاسَةً ، وَفِي كُلِّ حَالٍ تَدْبِيرًا
يَسْطَلُ الْآخِرُ الْأَوَّلَ ، وَمَعْنَى أَعْلَمُ زِمَانَنَا وَتَدْبِيرُ سُلْطَانَنَا .

(١) كَسَرُوا الْخِرَاجَ أَيَّ كَعَمُوا عَنْ أَدَائِهِ (٢) هُوَ ابْنُ أَلَيْثٍ بَنِي صُرَّسَ سِيَارَ . وَكَانَ أَرْسَلَ
الْمَهْدِيُّ أَمَامَهُ ابْنُ الْبَيْتِ لِمُحَارَبَةِ الْقُصْعِ طَمَّ يَتَكَلَّمُ بِهِ . وَكَانَ أَسْرَهُ مُحَمَّدٌ هَذَا مِنْ كِتَابِ الْمَهْدِيِّ وَلَمْ تَعْرِفْ سَنَةَ وَفَاتِهِ .
(٣) هُوَ سَلَامٌ بَنِي الْأَرَشِ ، أَسْتَعْمَلَهُ الْمُتَصَوِّفُ ثُمَّ تَوَلَّى الْقُوَّاتِ فِي أَيَّامِ الْمَهْدِيِّ . (٤) الْمَزَاهِرُ :
مَعْرِيكَ اللَّيَالِي وَالْحُرُوبِ فِي النَّاسِ .

قال : نعم أيها المهديّ، أنت مُتَّبِعُ الرَّأْيِ، وَثَبِيحُ الْمُقَدَّةِ، قَوِيَّ الْمُنَّةِ^(١)، دَلِيعُ الْعِطَّةِ، مَعْصُومُ النَّبِيَّةِ، مَحْضُورُ الرُّوِيَّةِ، مُؤَيَّدُ الدَّيَّةِ، مَوْقِيَّ الْعَزِيمَةِ، مُعَانٌ بِالطَّرَفِ، مُهْدِيٌّ إِلَى الْخَيْرِ، إِنْ هَمَمْتَ فِي عَزْمِكَ مَوَاقِعَ الظَّنِّ، وَإِنْ أَحْتَمَعْتَ صَدْعَ مَعْلِكَ مُلْتَبِسَ الشَّكِّ، فَاعْزِمِ يَدَ اللَّهِ إِلَى الصَّوَابِ قَلْبَكَ، وَقُلْ يُنْطَلِقُ اللَّهُ مَالِحِقَ لِسَانِكَ، فَإِنَّ حَنُودَكَ جَمَّةٌ، وَنَرَاتِكُ عَامِرَةٌ، وَهَسْكَ نَجِيَّةٌ، وَأَمْرُكَ مُؤَدٍّ .

فَأَحَابُهُ الْمُهْدِيّ : إِنْ الْمَشَاوِرَةَ وَالْمَسَاطِرَةَ بِنَا رَحِمَهُ، وَمِفْتَاحًا بَرَكَةً، لَا يَهْلِكُ عَلَيْهِمَا رَأْيٌ، وَلَا يَتَعَبَلُ^(٢) مَعَهُمَا حَرَمٌ، فَاشِيرُوا بِرَأْيِكُمْ، وَقُولُوا بِمَا يَحْصُرُكُمْ، فَإِنِّي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَتَوْفِيقُ اللَّهِ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .

قال الربيع :

أَيُّهَا الْمُهْدِيّ، إِنْ تَصَارِيفُ وَجْهِهِ الرَّأْيِ كَثِيرَةٌ، وَإِنْ الْإِشَارَةُ بِبَعْضِ مَعَارِيضِ^(٣) الْقَوْلِ يَسِيرَةٌ، وَلَكِنْ خِرَاسَانُ أَرْضٍ بَعِيدَةِ الْمَسَافَةِ، مُتَرَاكِجَةُ الشُّقَّةِ، مُتَمَاوِيَةٌ السَّبِيلِ، فَإِذَا أَرْتَأَيْتَ مِنْ مُحْكَمِ التَّدْيِيرِ، وَمُبَرِّمِ التَّقْدِيرِ، وَلُبَّابِ الصَّوَابِ، رَأْيًا قَدْ أَحْكَمَهُ نَظْرُكَ، وَقَلْبُهُ تَدْيِيرُكَ، فَلَيْسَ وَرَاءَهُ مَذْهَبٌ طَاعِنٌ، وَلَا دُونَهُ مَقْلَقٌ لِمَصُومَةٍ عَائِلٍ، ثُمَّ أَجَبَتْ الْبُرْدُ بِهِ، وَأَطْلُوثُ الرِّسْلِ عَلَيْهِ، كَانَ بِالْخَرَى أَلَّا يَصِلَ إِلَيْهِمْ مُحْكَمُهُ إِلَّا وَقَدْ حَدَثَ مِنْهُمْ مَا يَنْقُصُهُ، فَمَا أَيْسَرَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْكَ الرِّسْلَ، وَتَرُدَّ عَلَيْكَ الْكُتُبَ مَحْفَاقِي أَحَارِهِمْ، وَشَوَارِدِ آثَارِهِمْ، وَمَصَادِرِ أُمُورِهِمْ، فَتُحَدِّثَ رَأْيَا عَيْرِهِ وَتَتَدَيَّعَ تَدْيِيرًا سِوَاهُ، وَقَدْ أَهْرَجْتَ الْحِلَاقَ، وَتَحَلَّلْتَ الْمُقَدَّ، وَأَسْتَرْنِي الْحِقَابُ^(٤)، وَأَمْتَدَّ الزَّمَانُ، ثُمَّ لَعَلَّنَا مَوْقِعَ الْآخِرَةِ تَقْصِيرُ الْأَوَّلِ، وَلَكِنْ الرَّأْيُ لَكَ أَيُّهَا الْمُهْدِيّ - وَفَقَّكَ اللَّهُ - أَنْ تُصَرِّفَ إِحَالَةَ الظَّرْفِ، وَتَقْلِبَ الْعِكْرَ، فَيَا جَمْعَتَنَا لَهُ، وَأَسْتَشْرِقْنَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيرِ لِحَرْبِهِمْ، وَالْحَيْلِ فِي أَمْرِهِمْ، إِلَى الطَّلَبِ لِرَحِيلِ دِي دِيرِ

(١) المنة - القوة . (٢) لا يتعبل لا يصعب . (٣) معاريس الكلام ما عرّض يد

ولم يصرح وهي التورية بالثبوت عن الشيء . (٤) الحقاب - شيء يتخذه المرأة تعلق به معاليق الحبل تشده

على وسطها .

فاصل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متبهما في أثره عليك، ولا ظليلاً على دُخْلَةٍ مكروهة، ولا مسوماً الى بعده محذورة، فيَقْدَحُ في مُلْكِكَ، وَيُرْصُ الأُمُورَ لِعَيْرِكَ، ثم تُسَيِّدُ اليه أُمُورَهُمْ، وتَفُوضُ اليه حَرْبَهُمْ، وأَمْرَهُ في عَهْدِكَ ووصيتك إياه لروم أمرك مآلَرمه الحرم، وحلاف نبيك اذا حاله الرأي عند استعالة الأمور، وأشتداد الأحوال التي سَقَصُ أمر الفائب عنها، ويثبُتُ رأى الشاهد لها، فإنه اذا فعل ذلك فَوَاتِ أَمْرَهُمْ من قريب، وسَقَطَ عنه ما يأتى من بعيد، تمت الحيلةُ وقَوِيَتِ المَكِيدَةُ، وَبَقِيَ العملُ وأَحْدَ الظَرْ، إن شاء الله .

قال الفصل بن العباس

أيها المهدي، إن وَلِيَ الأُمُورِ وسائل الحروب ربما تحي حدوده، وجرى أمواله في غير ما صَبِقَ أَمْرُ حَرْبِهِ، ولا صَعَطَ حال أصططرته، فيَقْعُدُ عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها عَدِيماً منها فاقدًا لها، لا يَثِقُ بَقُوته، ولا يَصُولُ بُعْده، ولا يَهْرَعُ الى نَفْعِهِ، فالرأى لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تُعْفِيَ حرائك من الإغراق للاموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغريير القتال، ولا تُسْرِعَ للأقوم في الإحالة الى ما يطلبون، والمطاء لما يسألون، فيَعْسُدُ عليك أَدْبُهُمْ، وتُخْرِى من رعيّتك غيرهم، ولكن أَخْزُهُمْ بالحيلة، وقائلهم بالمكيدة، وصارِعهم باللبن، وخاتِلهم بالرفق، وأَبْرِقْ لهم بالقول، وأَرْعِدْ نحوهم بالفعل، وأَبْسُثِ العُوثُ، وَحَدِّ الحدود، وَكُتِبَ الكُتَابُ، وَأَعْقِدِ الأَلْوِيَةَ، وَأَبْصِبِ الزايات، وأطهر أُنْك مَوْحَهُ اليهم الحيوش مع أْحَقِّ قَوادك عليهم، وأسَوِّهِمْ أَثَرًا مِهْمًا، ثم أَدْنُسِ الرُّسُلَ، وَأَبْنُثِ الكُتُبَ، وَصَنِّعْ مَعْصَهُمْ على طَمَعٍ من وعدك، وبعصاً على خوف

(١) طيبا : متبهما . دخلت مكروهة : أى بة سيئة . (٢) ربه أى الله .

(٣) أرقى وأرعد معاً . تَدَوُّعُهُ . (٤) العث : الحةش .

من وعيدك، وأوقد بذلك وأشاعه نيران الحاسد بهم، وأغرس أشجار التنافس بينهم، حتى مَلَأَ القلوب من الوحشة، وتطوى الصدور على الغمضة، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبة، فإن مرام الطفر الفيلة، والقتال الحيلة، والمناصبة الكتب، والمكايذة الرسل، والمقارعة الكلام اللطيف المدخل في العلوب، القوى الموقوع من العوس، المعقود بالجبج، الموصول بالحيل، المبنى على اللين الذي يستميل القلوب، ويستترى العقول والآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي الموانئ، أنهض من القتال طلمات السيوف وأسنة الرماح، كما أن الوالى الذى يسترل طاعة رعيه بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايده، أحكم عملاً وألطف مظهراً وأحسن سياسة من الذى لا يبال ذلك إلا بالقتال، والإتلاف للأموال والتفجير والخطار^(١).

وليعلم المهدي أنه إن وحده لقتالهم رحلاً لم يسر لقتالهم إلا بجمود كثيفة، تخرج عن حال شديدة، وتقسيم على أسفار صيقه، وأموال متوقفة، وقواد عَشَشَه، لب أنتمهم استغفدوا ماله، وإن استصعبهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأى قد أسفر زوره، وأرق صوره، وتمثل صوابه للعيون، ومجد حقه في القلوب، ولكن فوق كل دى علم عليم، ثم نظر الى آسه على فقال: ما تقول^(٢) .
قال على:

أيها المهدي، إن أهل حراسان لم يحلوا على طاعتك، ولم يصيبوا من دوك أحداً يقدح في تغيير ملكك، ويرثس الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصعب والحال أدق، لأن الله مع حقه الذى لا يخذله، وعده موعده الذى لا يخلعه، ولكنهم قوم من رعيك، وطائفة من شيعتك الذين حملك الله عليهم وإلياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً، طلبوا حقاً، وسألوا إصباحاً، فإن أحسنت الى دعوتهم ونفست عنهم^(٣).

(١) الخطار. الاشراف على ملكة.

(٢) هست بهم مرحت بهم.

قبل أن يتلاحم منهم حال، أو يحدث من عدم فتق، أطلت أمر الرب، وأطفاث نائرة^(١) الحرب، ووقرت حرائن المال، وطرحت نغزير القتال، وحمل الناس تحمل ذلك على طبيعة جودك، وبهجة حملك، وإشباح حليقتك^(٢)، ومعدلة بطرك، فأمت أن تسب إلى صغف، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرّة، وإن معتهم ما ظلموا ولم يُجيبهم إلى ما سألوا، أعتدت لك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطأ، فما أرت المهدى أن يعيد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مدعين لطاعته، لا يجرحون أنفسهم عن قدرته، ولا يُرثونها من عبوديته، يملكهم أنفسهم ويحلح بسه عنهم، ويقف على الحيل معهم، ثم يحازيهم السوء في حد المازعة ومصار المحاطرة، أريد المهدى - وفقه الله - الأموال؟ فلمرى لا يالها ولا يطر بها إلا بإفاق أكثر منها، مما يطلب منهم وأصعاف ما يدعى قبلهم، ولو لما حملت إليه، أو وصعت بجرائعها بين يديه، ثم تجأى لهم عنها وطال عليهم بها، لكان مما إليه ينسب وبه يُعرف من الجود الذي طبعه الله عليه، وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه؛ فإن قال المهدى: هذا رأى مستقيم سيدي في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالها، وتحامل ولاتيا، أما الجود الذين تقصوا مواثيق اليهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد العتة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم، يعلم المهدى أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرين في الأصفاد؛ ثم أوسع لحقن دماهم عفو، وإقالة عثرتهم صفعة، واستقام لما هم فيه من حربه، أو لمن ملازمتهم من عدوه، لما كان بدعا من رأيه، ولا مستكرا من نظره، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عموما، وأشدّها وقعا، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاطمه عفو،

(١) نائرة الحرب . ما اشتعل واتقد منها .

(٢) الإشباح . مصدر أضحح الوالى . إذا أحسن العفو .

(٣) الخريطة : وعاء من آدم وغيره .

(٤) الارواح . مصدر أرحم القوم إذا حاصوا في أحار الفتى على أد يرقوا في الناس الاضطراب من ميراث

ولا يَتَكَأَّمُهُ صَمَحٌ ، وإن عظم الذنب وحل الخطب ، فالرأى للمهدى — وفقه الله تعالى — أن يَحُلَّ عُقْدَةُ الْغِيْظِ بِالرَّجَاءِ لِحَسَنِ ثَوَابِ اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ ، وأن يدكر أَوَّلَى حَالَاتِهِمْ وَضِيعَةَ عِيَالِهِمْ ، يَرَأِيَهُمْ وَتَوْسَعًا لَهُمْ ؛ فإِذَا لَمَّ إِحْوَانُ دَوْلَتِهِ ، وَأَرْكَانُ دَعْوَتِهِ ، وَأَسَاسُ حَقِّهِ الدِّينِ عَزَّتِهِمْ بِصَوْلٍ ، وَبِحَقَّتِهِمْ يَقُولُ ؛ وَإِنَّمَا مَثَلُهُمْ هِيََا دَخَلُوا فِيهِ مِنْ مَسَاحِلِهِ ، وَتَعَرَّصُوا لَهُ مِنْ مَعَاصِيهِ ، وَأَطْلَقُوا فِيهِ عَنْ إِحَابَتِهِ ، وَمَثَلُهُ فِي قَلَّةِ مَا عَيَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِهِ بِهِمْ ، أَوْ ثِقَلٍ مِنْ حَالِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَعَيَّرَ مِنْ سَمْعَتِهِ بِهِمْ ، كَثَلَتْ رَجُلَيْنِ أَحَوَيْنِ مُتَاصِرَيْنِ مَتَازِرَيْنِ ، أَصَابَ أَحَدَهُمَا حَسْلٌ عَارِضٌ ، وَلَقُوْهُ حَادِثٌ ، فَهَمَّ إِلَى أَحْيِهِ بِالْأَدَى ، وَتَحَامَلَ عَلَيْهِ بِالْمَكْرُوهِ ، لَمْ يَرْتَدِّ أَخُوهُ إِلَّا رَقَّةً لَهُ وَلُطْفًا بِهِ ، وَاحْتِيَالًا لِمُدَاوَاهِ مَرَضِهِ وَمَرَاجَعَةِ حَالِهِ ، عَطَفًا عَلَيْهِ وَبِرًّا بِهِ وَمَرْحَمَةً لَهُ .

فقال المهدى : أما على فقد كوى تَمَتَّ اللَّيْلُ ، وَهَضَّ الْقُلُوبَ فِي أَهْلِ نَحْرَاسَانَ ، وَلِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَفْتَرٍّ ، ثُمَّ قَالَ : مَا تَرَى يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟ يَعْنِي مُوسَى أَبَاهُ .

فقال موسى :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ ، لَا تَتَسَكَّنْ إِلَى حَلَاوَةِ مَا يَحْرَى مِنَ الْقَوْلِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ ، وَأَنْتَ تَرَى الدَّمَاءَ تَسِيلَ مِنْ حَلَلِ فَعَالِهِمْ ، الْحَالُ مِنَ الْقَوْمِ يَنَادِي بِمُضْمَرَةٍ شَرٍّ ، وَحَقِيَّةٍ حَقْدٍ ، قَدْ حَصَلُوا الْمَعَاذِيرَ عَلَيْهِا سِتْرًا ، وَاتَّخَذُوا الْعِلْلَ مِنْ دُونِهَا حِجَابًا ، رَحَاهُ أَنْ يُدَاغِفُوا الْأَيَّامَ بِالْأَحْيَاءِ ، وَالْأُمُورَ بِالْأَطْوِيلِ ، فَيَكْبُرُوا حَيْلَ الْمَهْدِيِّ بِهِمْ ، وَيُضَوُّوا جُودَهُ عَنْهُمْ حَتَّى يَتَلَاخَمَ أَمْرُهُمْ ، وَيَتَلَاخَقَ مَا ذُنُوبُهُمْ ، وَتَسْتَعْمِلَ حُرْمَتُهُمْ ، وَتَسْتَمِرَّ الْأُمُورُ بِهِمْ ؛ وَالْمَهْدِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي حَالِ عِيَرِهِ وَلِبَاسِ أَمْسِيَةٍ ، قَدْ قَرَّبَهَا وَأَمْسَ بِهَا وَسَكَنَ إِلَيْهَا ، وَلَوْلَا مَا أَجْتَمَعَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَبَرِدَتْ عَلَيْهِ جُلُودُهُمْ مِنَ الْمُنَاصَبَةِ بِالْقَتَالِ ، وَالْإِصْحَارِ لِلْقِرَاعِ عَنْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ ، أَوْ شَيْطَانِ فُسَادٍ ، لَرَهَبُوا عَوَاقِبَ أَخْبَارِ الْوَلَاةِ ، وَبَعَثَ سَكُونُ الْأُمُورِ ، فَلْيَشُدُّ الْمَهْدِيُّ — وفقه الله —

أزده لم ويكتب كتابه نحوهم ، وليصح الأمر على أشد ما يحضره فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم إلا كانت ذربة إلى مصادم ، وقوة على معصيتهم ، ودأية إلى عودتهم ، وسبباً لمعاد من بحضرتة من الجلود ، ومن سابه من الوفود ، الذين إن أقروهم وتلك العادة ، وأخراهم على ذلك الأرب ، ولم يترجى قتي حادثٍ وحلاف حاصر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدربة ، لم يصل إلى ذلك إلا بالمعقوبة المفرطة ، والمؤونة الشديدة ، والرأى للمهدى وقته الله — ألا يقبل عثرتهم ، ولا يقبل معديرتهم ، حتى تظلم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرجهم^(١) القتل ، ويخديقهم الموت ، ويحيط بهم الساء ، ويطين عليهم الدل ، وإن فعل المهدى بهم ذلك ، كان مقطعة لكل عادة مؤنة فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شرهم ، وأحتمال المهدى مؤونة عزوتهم هذه يصعصع عرواتهم كثيرة ، ونفقات عظيمة .

قال المهدى : قد قال القوم فأحكم يا أما الفصل .

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدى :

أما الموالى فأحدثوا شرور الرأى ، وسلكوا جئات الصواب ، وتعدوا أمورا قصر بظفرهم عنها أنه لم تات تحاربهم عليها .

وأما الفصل فأشار بالأموال ألا تنفق ، والجسود ألا تفرق ، وبالأبلى القوم ما طلبوا ، ولا يئذل لهم ما سالوا ، وجاء بأمرين ذلك استصغاراً لأمرهم وأستهانة بجرهم ، وإنما يبيح جسيات الأمور صفارها .

وأما عليّ فأشار بالّين وإصراط الرّق، وإذا جرد الوالى لمن عظم أمره وسفه حقه،
 الّين بحثاً والخير محصّاً، لم يحيطلها بشدة تعطف القلوب عن إيسه، ولا يشرّ يحبسهم إلى
 حيره، فقد ملكهم الخلق لمؤدّهم^(١) ووسّع لهم الفرحة لثني أعاقهم، وإن أحابوا دعوته وقبّلوا
 إيسه من غير خوف أصطهرهم ولا شدّه، فتروا في رموسهم يستدعون بها البلاء إلى أعسهم،
 ويستصرخون بها رأى المهديّ ميم، وإن لم يقبّلوا دعوته ويُسرعوا لإحابتها بالّين المحصّ
 والخير الصّراح، فذلك ما عليه الظنّ هم والرأى ميم، وما قد يُشبهه أن يكون من مثلهم،
 لأن الله تعالى خلق الحمة وجعل فيها من العيم المقيم والمُلك الكبير ما لا يحطّر على قلب
 بشر ولا تتركه العكز ولا تملكه مس، ثم دعا الناس إليها ورعّبهم فيها، فلو لا أنه خلق مارا
 جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجحمة، لما أحابوا ولا قبّلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعصبوا^(٢) نسدة لا لّين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه، وإذا
 أصمّر الوالى لمن فارق طاعته، وحالف جماعته، الخوف مُعدّاً، والشرّ محرّداً، ليس معهم
 طمع ولا لّين يندبهم، أشتتت الأمور بهم، وأقطعت الحال ميم إلى أحد أمرين : إما أن
 تدخلهم الحية من النسدة، والأفقه من النّلة، والأفتماض من القهر، فيدعوم ذلك إلى
 التمدادى في الخلاف، والاستبسال في القتال، والاستسلام للوت، وإما أن يسفادوا بالكروه،
 ويُدبّوا بالقهر على نصّبه لازمة، وعداوة باقية، ثورت الثّاق وتُعيق الشّقاق، فإذا
 أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدره، أو قويّت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأعطط
 وأشدّ مما كان .

(١) عظم الأمر . اردراه . وسفه حقه . امتهه وحسه .

(٢) المدرج عدار .

(٣) اللروة . الوثوب إلى الشرّ .

(٤) صعب النّش . : لواء وشده .

وقال في قول الفصل :

أيها المهديّ، أكنّى دليل، وأوصح برهان، وأبين حيران، قد أجمع رأيهُ وحرم نظره
على الإرشاد بعتة الحيوش إليهم، وتوجيه النُوت نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق،
وإحاثهم إلى ما سألوه من العدل .

قال المهديّ . ذلك رأي .

قال هارون :

ما حُلِطْتُ الشدةَ أيها المهديّ باللي، وأستظم أمر الدنيا بالدين، فصارت الشدةَ أمرَ
عظامٍ لما تكره، وعاد اللي أهدى قائد إلى ما يُحبّ، ولكن أرى غير ذلك .^(١)

قال المهديّ :

أقد قلتَ قولاً بديعاً ، حالتَ فيه أهل بيتك جميعاً، والمرءُ مؤتمنٌ بما قال، وطئين^(٢)
بما أذعن حتى يأتي سببه عادلة، وحمه طاهره، فأخرج عما قلتَ .

قال هارون :

أيها المهديّ، إن الحرب حُدِثه، والأعاصم قومٌ مكره، وربما اعتدلت الحائل بهم،
وأنفق الأهواء منهم . فكان ما طأ ما يُسرود على طاهر ما يُعلنون ، وربما أفرقت
الحالان، وحالف القلب اللسان ، فأنطوى القلب على تحجوبة بطن ، وأسستَ بمدحولة
لا تُقلّ، والطبيب الرقيق عطله، البصير بأمره، العالم بمقدم يده وموضع ميسمه، لا يتعمّل^(٣)
بالدواء ، حتى يقع على معرفه الدواء ، فالرأيُ للمهديّ - وفقه الله - أن يفتر ما طأ أمرهم
قر المسية، ويخصّ طاهر حاملهم بحصّ السماء بمتاعه الكتب، ومظاهره الرسل، وموالاه^(٤)

(١) العظام ها - القطع والاستئصال .

(٢) طين بما ادعى منهم دعواه

(٣) الميسم . المكواة يوسم بها الخيول .

(٤) قر الدابة . فتحها واكتشف عن أسابها يطر ما سنها . والمنس من المرات ما دخل في التامة .

العيون ، حتى تُهتِك حجبُ عيونهم ، وتُكشَف أعْيُطُةُ أمورهم ، فإنْ أُنْهَرَتْ الحال ، وأُفْضِيَتِ الأمور به الى تغيير حال أو داعِيَةٍ ضَلال ، أَشْتَمَلَتِ الأهواءُ عليه ، وأَقَادَ الرّحال اليه ، وأَمْتَدَّتِ الأعْصاقُ نحوه بذيّ يمتّعدوه ، وإِثْمٌ يَسْتَحِلُّونه ، عَصَبَتَهُمْ بِشَدَّةٍ لا يَبِينُ فيها ، ورماهم بِمَقْبُوبَةٍ لا عَفْوَ معها ، وإنْ أَفْزَجَتْ العيون ، وأَهْضَمَتِ السُّتُور ، وَرُفِعَتِ الحُجُب ، والحالُ فيهم مَرِيعة ، والأُمُورُ فيهم مَعْتَدِلَةٌ في أرْزاقٍ يَطْلُبُونَهَا ، وأَعْمَالٌ يُكْرِهُونَهَا ، وَطُلَامَاتٌ يَدْعُونَهَا ، وَحَقُوقٌ يَسْأَلُونَهَا ، بِمَآئَةٍ سَابِقَتِهِمْ ، وَدَالَّةٍ مُنْأَمَحَتِهِمْ . فالرأى للمهدى — وَقَعَهُ اللهُ — أَنْ يَتَسَعَ لِمِ بِمَا طَلَبُوا ، وَيَتَجَبَّأَ لِمِ عَمَّا كَرِهُوا ، وَيَشْتَفِ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا ، وَيَرْتَقِ مِنْ قَتْلِهِمْ مَا قَطَعُوا ، وَيَوْتِي عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْيَا ، وَبِدَاوَى بِذَلِكَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، وَفَسَادَ أُمُورِهِمْ ، فإِذَا المهدى وَأَمْتَدَّتْ ، وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّبِ الرِّفِيقِ ، وَالْوَالِدِ الشَّمِيقِ ، وَالرَّاعِيِ الْمُجْتَزِبِ الذِّى يَحْتَالُ لِمُرَاصِ عَمِهِ ، وَصَوَّالٌ رَعِيَتَهُ ، حَتَّى يُبْرِئَ الْمُرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا وَيَرُدَّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أَسْرِ جَمَاعَتِهَا ، ثُمَّ إِنْ حَرَّاسَانِ بِحَاصِيهِ الدِّينِ لِمِ دَالَّةٌ مُجْمُولَةٌ ، وَمَانَةٌ مُقْبُولَةٌ ، وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ، لَأَسْمِ أَيْدِي دَوْلَتِهِ ، وَسُيُوفِ دَعْوَتِهِ ، وَأَنْصَارِ حَقِّهِ ، وَأَهْوَانِ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ المهدى الْأَصْطِعْمَانُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الْمُؤَاخَذَةُ لِمِ ، وَلَا التَّوَعِيرُ بِهِمْ ، وَلَا الْمَكَافَأَةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَهُ حَسَمَ الْأُمُورَ صَعِيمَةً قَبْلَ أَنْ تَقْوَى ، وَمَحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ صَبِيلَةٌ قَسَلُ أَنْ تَنْفُطَ ، أَحْرَمُ فِي الرَّأْيِ ، وَأَحْمَقُ فِي التَّنْذِيرِ مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَانِ بِهَا ، حَتَّى يَلْتَمَّ قَلِيلُهَا كَثِيرُهَا ، وَيَجْتَمِعَ أَطْرَافُهَا إِلَى جُمُودِهَا .

قال المهدى : مَا زَالَ هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَ الْحَيَا حَتَّى خَرَجَ خُرُوجَ الْقِنْدَحِ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَسْلَ أَنْسَلَالَ السِّيفِ فَمَا آدَعَى ، فَدَعُوا مَا سَقَى مُوسَى فِيهِ أَنَّهُ هُوَ الرَّأْيُ ، وَتَقَى بَعْدَهُ هَارُونُ ، وَلَكِنْ مِنْ لَأَعِيَةِ الْخَلِيلِ وَسِيَاةِ الْحَرْبِ وَقَادَةِ السَّاسِ إِنْ أَمِنَ بِهِمُ الْمَلْجَأُ ، وَأَمْرُطُ بِهِمُ الدَّالَّةُ * .

(١) المائة . الحرمة والوسيلة

(٢) التوعير بهم . التشديد عليهم

قال صالح :

لسانبلع أيها المهدي- بدوام الحث وطول الفكر أدنى فائدة رأيك، ومعض الحقائق نظرك؛ وليس يتقصص عك من بيونات العرب ورجال العلم ذوي فاضل، ورأى كامل، وتدبير قوى، تقلده حرك، وتستودعه حرك، مم يحتمل الأمانة العظيمة، ويصطلح بالأعلاء الثقيلة، وأن محمد الله ميمون^(١) البقية، مبارك العزيمة، محبور التجارب، محمود المواقف، مصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولا يقف بطرك على أحد توليه أمرك. وتسد إليه نورك، إلا أراك الله ما تحت، وجمع لك منه ما يريد .

قال المهدي - إلى لأرجو ذلك لعديم طاده الله فيه، وحسن معونته عليه، ولكن أحب الموافقة على الرأي، والأعتار للشاورة في الأمر المهم .

قال محمد بن الليث :

أهل حراسان أيها المهدي، قوم ذوو عزة ومعة، وشياطين حدة، رروع الحية فيهم ناسه، وملايس الأفة عليهم طاهره، فالروية عنهم عاربة، والمحلة فيهم حاصره، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوئهم عدلهم، لأنهم بين سافلة لا يعدو متلغ عقولهم منظر عيوبهم، وبين رؤساء لا يلحسون إلا نشة، ولا يطمئون إلا بالتر، وإن وثى المهدي عليهم وصيحا لم تنقد له العطاء، وإن وثى أمرهم شريهاً تحامل على الصعفاء، وإن أحر المهدي أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصبب لنفسه من حشمه ومواليه، أو وثى عمه أو بى أبيه، باصحا يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا ثقة تلزمهم، ولا حية تدلهم، ولا مصيبة تعمرهم، تنقص الأيام بهم، وتراحت الحلال أمرهم، فدحل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن حذا، ولا يستصلحه وإن جاهد،

(١) ميمون البقية : أى مارك المس يحج فيما يحاول . ومحور التطارب - حيرها .

(٢) العارب . العاتب .

(٣) العدل - اسم مصار من العدل بمعنى الزوم ومنه المثل "سقى السيف العدل" يصر لما قد فات .

إلا صد دهر طويل وشركير، وليس المهدي - وقفه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قارعا صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما . ولا عُدل في ذلك بهما :

أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لا تُزعزع، وبهمة لا يُبقي، ونازل لا يُفزع صوت الجمل، بقي المرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد آنصبت الدنيا عن قدره، وسماعو الآخرة بهمته، بفعل الغرض الأقصى لبعده نصاً، والغرض الأدنى لقدمه مؤثماً؛ فليس يقبل عملاً، ولا يتعدى أملاً، وهو رأس ممالك، وأصبح بنى أليك؛ رحل قد عدى لطيف كرامتك، وسنت في طل دولتك، ونسأ على قوائم أدبك، إن قلده أسرم، وحمته ثقلهم، وأسدت إليه ثمرهم، كان قفلاً فتحه أمرك، وباباً ألقه نيك؛ بفعل العدل عليه وعليم أميراً، والإنصاف بيه وبينهم حاكماً، وإذا حكم النصقة وسلك المعدلة، فأعطاهم ما لم وأحد منهم ما عليهم، عرس في الدى لك بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعة رابحة العروى، ناسقة العروى، مقاتلة في حواشي عوامهم، محكة من قلوب حواصمهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه؛ وهذا أحدهما .

والآخر عود من عيشتك، وبعثة من أرومتك، في السن كهل الحلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف، يجرّد فيهم سيقه، ويسطّ عليهم خيره قدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي، فسقطه - أعزك الله - عليهم، ووجهه بالجوش اليهم، ولا تمك صرامة سبه، وحدائة مولده، إن الحلم والثقة مع الحدائة، خير من الشك والجهل مع الكهولة؛ وإما أحداثكم أهل البيت فيما طعمكم الله عليه، وأختصكم به من مكارم الأخلاق، وعامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأهن؛ كعراج عتاق الطير المحكة لأحد الصيد لا تدريب، والعارفة

(١) صرامة سبه : شاه وحدائة سبه .

(٢) عتاق الطير : كرام الطير .

لوحوه ألّمع فلا تأديب ؛ فالعلم والمزيم والحزم والحدود والثبوة والرفق ثابت في صدوركم ،
مزروع في قلوبكم . مستحکم لكم ، متكاملٌ عندكم . طائعٌ لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبد الله .

إقواء أهل بيتك أيها المهديّ في الحلم على ما ذكر . وأهل خراسان في حال عزٍّ على
ما وُصف ، ولكن إن ولّى المهديّ عليهم رحلاً ليس بقديم الذكر في الجود ، ولا بنبيه
الصّوت في الحروب ، ولا بطويل التعرّبة للأُمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة
في الأعداء ، دخل ذلك أمران عطيان وخَطَرات مهولان ، أحدهما . أن الأعداء يفتنّزونها
مه ويحتقرونها فيه ، ويحتزّون بها عليه في النهوض به والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل
الاختار لأمره ، والتكشّف لحاله والعلم بطاعه . والأمر الآخر : أن الحوّد التي يقود
والجيوش التي يَسُوس إذا لم تحثّروا مه الناس والمعدّة ، ولم يعرفوه بالصّيت والهيبة ،
أكسرت شعاعثهم ، وماتت نعتهم ، واستأثرت طاعتهم الى حين اختارهم ، ووقع
معرفتهم ، وربما وقع الوار قبل الاختار ، وباب المهديّ - وفقه الله - رجلٌ مهيب
نبيه حيّك صيِّتٌ ، له نسب رالك وصوتٌ عالٍ ، قد قاد الجيوش وساس الحروب ، وتألف
أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالميّة ، ووثقوا به كل الثقة ، ولولاه المهديّ أمرهم ،
لكفاه الله شرهم .

قال المهديّ : حانت قصد الرّمية ، وأبئت إلا عصبية ، إذ رأى الحدث من أهل
بيتنا ، كراى عشرة حلماء من عينا ، ولكن أين تركتم ولّى المهديّ .

قالوا :

لم يمنعا من ذكره إلا كونه شبيه جَدّه ، ونسيجَ وَحدّه ؛ ومن التّين وأهله ، بحيث يقصر
القول عن أدّى فضله ، ولكن وحدنا الله عزّ وجلّ تحبّ عن حلقه ، وسترن دون عبادّه
علمٌ ما يختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجرى عليه المقادير ، من حوادث الأمور ورّيب المنون

المُتَقَرِّمَةِ لِنُحُومِ الْقُرُونِ وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ ، فَكَّرَها شُسُوعُهُ ^(١) عَنْ حَمَلَةِ الْمَلِكِ وَدَارِ السُّلْطَانِ وَمَقَرِّ
الإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَمَوَاصِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخُرَائِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُودِ وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ
الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْعًا لِدَارِ الْمَلِكِ وَمِصْنَدَةِ لِقُلُوبِ النَّاسِ وَمَتَابَةِ لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ وَتُؤَارِ الْفِتَنِ ،
وَدَوَاعِي الدِّعْ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ وَأَبْهَاءِ الْمَوْتِ . وَقُلْنَا : إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدِيُّ وَلِيَّ عَهْدِهِ حَدَّثَتْ
فِي جَبُوشِهِ وَجُودِهِ مَا قَدْ حَدَّثَ بِمَجْدِ الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدِيُّ أَنْ يُعْقِبَهُمْ
ضَمِيرُهُ إِلَّا أَنْ يَنْهَدَ إِلَيْهِمْ بَعْضَهُ ؛ وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَعَسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ ،
وَأَسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عَوْضٌ لَا يُسْتَعْنَى عَنْهُ ، أَوْ يُحْدِثَ أَمْرٌ لَا يَدُّ مِنْهُ ،
صَارَ مَا سَدَّهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ هَوْلًا وَأَجَلٌ حَطَرًا لَهُ تَبَأًا وَهُ مُتَّصِلًا .

قال المهدي :

الْحَطَبُ أَبَسَرُمَا تَدْمُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى عَيْرٍ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ؛ بَحْسَ أَهْلِ الْبَيْتِ
تَحْرِيرِي مِنْ أَسَابِ الْقَضَايَا وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقِ مِنَ الْعِلْمِ وَمَعْنُومٍ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ
أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَنَبَأَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ ، وَقَدْ تَنَاضَى ذَلِكَ مَا جَمَعَهُ الْبِنَاءُ وَتَكَامَلَ بِحَدَائِرِهِ
عَدَمًا ، فَهُ نَذِيرٌ وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ . إِنَّهُ لَا يَدُّ لَوْلَى عَهْدِي وَلَوْلَى عَهْدِ عَقِي عَدِي أَنْ يَقُودَ
إِلَى خِرَاسَانَ الْبُحُوثِ ، وَيَتَوَسَّعَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُيَسِّلُ فِيهِمْ حِيلَهُ ؛ ثُمَّ يَمْرُجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَيِّقًا
عَلَيْهِمْ ، يَرِيدُ أَلَّا يَدَّعَ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِ الْفِتَنِ وَدَوَاعِي الدِّعْ وَفِرْسَانَ الضَّلَالِ ، إِلَّا تَوَطَّأَهُ
حِزْرُ الْقَتْلِ ، وَالْبَسَهِ قِنَاعُ الْقَهْرِ ، وَقَلْبُهُ طُوقُ الدَّلِّ ؛ وَلَا أَحَدًا مِنَ الَّذِينَ عَمِلُوا فِي قَصَصِ
حَسَّاحِ الْفِتْنَةِ ، وَإِخْمَادِ نَارِ الدِّمَةِ ، وَفُتْرَةِ وَلَاهِ الْحَقِّ ، إِلَّا أَجْرَى عَلَيْهِمْ دِيمَ فَضْلِهِ ، وَحَدَاوِلَ
نَهْلِهِ ؛ فَإِذَا خَرَجَ مُزْمِعًا بِهِ تُجْمَعًا عَلَيْهِ ، لَمْ يَسِرْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَأْتِيَهُ أَنْ قَدْ عَمِلَتْ حِيلُهُ ،
وَكَدَحَتْ كُنْهَهُ وَقَدَّزَتْ مَكَايِدَهُ ؛ فَهَدَأَتْ مَا فِرَّةُ الْقُلُوبِ ، وَوَقَّعَتْ طَائِرَةَ الْأَهْوَاءِ ، وَأَحْتَمَعَ

(١) شُوعُهُ : ابْتِدَاءُهُ .

(٢) سَمَتْ وَدَأَبَتْ حَتَّى أَزَتْ .

(٣) وَقَّعَتْ طَائِرَةَ الْأَهْوَاءِ : نَحَدَّ صَحِيًّا وَمَكَّنَ رَوْحَهَا .

عليه المختلِفون بالرِضا ، فيميل نظراً لهم ، ورأى بهم ، وتعطفوا عليهم ، الى عدو قد أخاف سبيلهم ، وقطع طريقهم ، ومع مُجَاهِدِهِم بِنْتَ الله الحرام ، وسَلَبَ ثَمَارَهُم رِزْقَ الله الحلال .

وأما الآخَرُ فإنه يُوَحِّدُ اليهم ، ثم تُعْتَقَدُ لَهُ المَحَنَةُ عليهم ، بإعطاء ما يطلبون ، وبذل ما يسألون ، فإِذَا سَمِعَتْ العِرْقُ بَقْرَانَهَا لَهُ ، وَجَّعَ أَهْلُ الوَاحِي بِأَعْنَاقِهِمْ نَحْوَهُ ، فَأَصَفَتْ إِلَيْهِ الْأَفْئِدَةُ ، وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْكَلِمَةُ ، وَقَدِمَتْ عَلَيْهِ الْوَفُودُ قَصْدَ لِأَوَّلِ مَاجِيَةٍ نَحَعَتْ طَاعَتَهَا وَأَلْقَتْ بَازِيَّتَهَا ، فَالْبَسَهَا حَاحَ بَعْمَتِهِ ، وَأَزَلَّهَا طَلُّ كِرَامَتِهِ ، وَخَصَّصَهَا بِعِلْمِ حِبَابَتِهِ ، ثُمَّ عَمَّ الحِمَامَةُ بِالْمُعْتَدِلَةِ ، وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِم بِالرَّحْمَةِ ، فَلَا تَنَقَّى فِيهِمْ مَاجِيَةً دَابِيَةً وَلَا فِرْقَةً قَاصِيَةً ، إِلَّا دَحَلَتْ عَلَيْهَا بَرَكَتُهُ ، وَوَصَلَتْ إِلَيْهَا مَسْعُودُهُ ، فَأَضَى فَقِيرَهَا ، وَحَبَرَ كَسِيرَهَا ، وَرَضَعَ وَضِيعَهَا ، وَزَادَ رَمِيْعَهَا مَاحِلًا مَاجِيَتَيْنِ ، مَاجِيَةً يَغْلِبُ عَلَيْهَا الشَّقَاءُ ، وَتَسْتَمِيلُهُم الْأَهْوَاءُ ، فَتَسْتَحِفُّ مَدْعُوْتَهُ ، وَتُعْلَى عَنِ إِحَابَتِهِ ، وَتُنْتَاقِلُ عَنْ حَقِّهِ ، فَتَكُونُ آخِرَ مَنْ سَعَتْ وَأَهْلًا مِنْ يُوَحِّدُهُ ، فَيَضْطَلُّ عَلَيْهَا مُوَجِّدُهُ وَيَتَجَى لَهَا عِلَّةٌ ، لَا يَلْتَمُسُ أَنْ يَمِيزَهُ حَقُّ يَلْزِمُهُمْ وَأَمْرٌ يَحِبُّ عَلَيْهِمْ ، فَتَسْتَلِجُهُمُ الْجَبُوشُ ، وَتَأْكُلُهُمُ السُّيُوفُ ، وَتَسْتَحِزُّ بِهِمُ الْقَتْلُ ، وَيَحِيطُ بِهِمُ الْأَسْرُ ، وَيُغْنِيهِمُ التَّنْبِيعُ ، حَتَّى يَحْرَبُ الْبِلَادُ ، وَيُؤْتِمُّ الْأَوْلَادُ ، وَمَاجِيَةً لَا يَسْطُرُ لَهَا أَمَانًا ، وَلَا يَقْبَلُ لَهَا عَهْدًا وَلَا يَحْصِلُ لَهَا ذِمَّةٌ ، لِأَنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ فَتَحَ بَابَ الْفُرْقَةِ ، وَتَنْتَزِعُ حِلَابَ الْفِتْنَةِ ، وَرَضَ فِي شَقِّ الْعَصَا ، وَلَكِنَّهُ يَقْتُلُ أَعْلَامَهُمْ ، وَيَأْسِرُ قَوَادِمَهُمْ ، وَيَطْلُبُ هُرَابَهُمْ فِي بُلْجِ الْبَحَارِ ، وَقُلْلُ الْجُمَالِ ، وَتَحْمِلُ الْأَوْدِيَةَ ، وَطُحُونُ الْأَرْضِ ، تَقْتِيلًا وَتَغْلِيلًا وَتَسْكِيلًا ، حَتَّى يَدْعُ الدِّيَارُ خِرَابًا ، وَالنِّسَاءُ أَيَامِي ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَكُونُ لَهُ فِي كُتُبِنَا وَقْتُ ، وَلَا نَصَحَحَ مِنْهُ غَيْرُ مَا قُلْنَا تَفْسِيرًا .

وأما موسى وَلِيَّ عَهْدِي فهَذَا أَوَانُ تَوَجُّهِهِ إِلَى خِرَاسَانَ ، وَحُلُولِهِ بِمُحْرَجَانَ ، وَمَا قَصَى اللهُ لَهُ مِنَ الشُّحُوصِ إِلَيْهَا ، وَالْمَقَامِ فِيهَا ، خَيْرٌ لِلْسَّامِيْنَ مَقَّةً ، وَلَهُ بِإِذْنِ اللهِ مَاقَةٌ مِنَ الْمَقَامِ ، حَيْثُ يُعَمَّرُ فِي بُلْجِ بَحُورِنَا ، وَمَدَافِعِ سَيُولِنَا ، وَمَحَامِعِ أَمْوَاجِنَا ، فَيَتَصَاغَرُ عَظِيمُ فَضْلِهِ ،

وَيَتَدَابُّ^(١) مَشْرِقَ نَوْرِهِ ، وَيَتَقَلَّلُ كَثِيرَ مَا هُوَ كَاثِرٌ مِنْهُ ، هُنَّ يَصْحَبُهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَيُخْتَارُ لَهُ مِنَ النَّاسِ .

قال محمد بن الليث :

أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ : إِنَّ وَلِيَّ عَهْدِكَ أَصْبَحَ لِأَتَمِّكَ وَأَهْلٍ مَتَّكَ عَالِمًا ، قَدْ تَنَنَّتْ نَحْوَهُ أَعْنَاقُهَا ، وَمَدَّتْ سِمَتَهُ أَبْصَارُهَا ، وَقَدْ كَانَ لِقَرَبِ دَارِهِ مَسْكٌ ، وَحِلَّ جَوَارِهِ لَكَ ، عُطِّلَ الْحَالُ عُقْلُ الْأَمْرِ وَاسِعَ الْمُنْدَرُ ، فَأَمَّا إِذَا أَخْرَدَ سَفْسَهُ وَحَلَا بِنَظَرِهِ وَصَارَ إِلَى تَنْدِيرِهِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْعَامَةِ أَنْ تَتَقَدَّ مَخَارِجُ رَأْيِهِ ، وَتُسْتَقْبَلُ لِمَوَاقِعِ آثَارِهِ ، وَتَسْأَلَ عَنْ حَوَادِثِ أَحْوَالِهِ فِي رِيَّةٍ وَمَرَحَتِهِ وَإِسْطَاطِهِ وَمَعْدَلَتِهِ وَتَنْدِيرِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَوَرَرَانِهِ وَأَحْمَالِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ مَا يَسْبِقُ الْيَهْمَ أَغْلَبَ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِمْ وَأَمْلَكَ الْأُمُورِ بِهِمْ^(٢) وَالرَّهْمَا لِقُلُوبِهِمْ ، وَأَشَدَّهَا أَسْمَالَةً لِرَأْيِهِمْ وَعَطْلًا لِأَهْوَائِهِمْ ، فَلَا يَتَأَمَّلُ الْمَهْدِيُّ - وَقَعَهُ اللَّهُ - بَاطِرًا لَهُ مِمَّا يَقْوَى عُقْدُ مَمْلَكَتِهِ ، وَيُسَدُّ أَرْكَانَ وَلَايَتِهِ ، وَيَسْتَجْمِعُ رِضَا أَمْتِهِ هُوَ أَزْيَرُ لِحَالِهِ وَأَظْهَرُ لِحَالِهِ ، وَأَفْصَلُ مَقَرَّةٍ لِأَمْرِهِ ، وَأَحَلُّ مَوْقِعًا فِي قُلُوبِ رَعِيَّتِهِ ، وَأَحَدٌ حَالًا فِي نَفُوسِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ، وَلَا أَدْفَعُ مَعَ ذَلِكَ مَسْتَجَاعَ الْأَهْوَاءِ لَهُ ، وَأَلَمَّ فِي أَسْتَعْطَافِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، مِنْ مَرَحِمَةٍ تَطْهَرُ مِنْ ضَعْفِهِ ، وَمَعْدَلَةٍ تَنْتَشِرُ عَنْ أَثَرِهِ وَعَجْبِهِ تَخِيرُ وَأَهْلُهُ ، وَأَنْ يَخْزَارَ الْمَهْدِيُّ - وَقَعَهُ اللَّهُ - مِنْ خِيَارِ أَهْلِ كُلِّ لَدُنَةٍ ، وَفُقَهَاءِ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَقْوَامًا تَسْكُنُ الْيَهْمَ الْعَامَةَ إِذَا ذُكِرُوا ، وَتَأْسُ الرِّعْيَةُ بِهِمْ إِذَا وُصِفُوا ، ثُمَّ تُسَهِّلُ لَهُمْ عِمَارَةَ سُئْلِ الْإِحْسَانِ وَقَتَّعَ بَابَ الْمَعْرُوفِ ، كَمَا قَدْ كَانَ يُتَبَّعُ لَهُ وَسُهِّلَ عَلَيْهِ .

قال المهدى : صدقت ونصحت ، ثم بحث في أبيه موسى فقال :

أَيُّ بَيْتٍ ، إِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ لِسِمَتِ^(٣) وَحَوْه الْعَامَةِ نُصًّا ، وَلِمَتْنَى^(٤) أَعْطَافِ الرِّعْيَةِ عَايَةً ، فَحَسْبُكَ شَامِلَةٌ ، وَإِسَاءَتُكَ نَائِيَةٌ ، وَأَمْرُكَ ظَاهِرٌ ، فَطَيْلِكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، فَاحْتَمَلْ

(١) يتدأب: يبحث . (٢) تتقد مخارج رايه : أي تحصر عن حووه رايه وتديره . (٣) أمك الأمور : أسطها . (٤) السمت : المذهب والقصد . (٥) الأعطاف : جمع عطف وهو الجفاف .

يُخْطِئُ النَّاسَ فِيهِمَا ، وَلَا تَطْلُبُ رِصَالَهُمَا بِحِلَّتَيْهِمَا ؛ إِنْ أَفْعَى وَحَلَّ كَافِيكَ مَنْ أَمْسَحَطَهُ
 عَلَيْكَ إِيثَارُكَ رِصَالَهُ ، وَلَيْسَ نَكَافِيكَ مَنْ يُسَحِطُهُ عَلَيْكَ إِيثَارُكَ رِضَاً مَنْ سِوَاهُ . ثُمَّ أَعْلَمَ
 أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي كُلِّ رَمَانٍ قَتْرَهُ مِنْ رُسُلِهِ ، وَبَقَايَا مِنْ صَفْوَةِ خَلْقِهِ وَخَبَايَا لِنُصْرَةِ حَقِّهِ ، يَحْدُدُ
 حِلَّ الْإِسْلَامِ بِدُعَاوِهِمْ ، وَيُسَيِّدُ أَرْكَانَ الدِّينِ بِصِرَتِهِمْ ، وَيَتَخَذُ لِأَوْلِيَاءِ دِينِهِ أَنْصَارًا ، وَعَلَى
 إِقَامَةِ صِلَةِ أَهْوَانِهِ . يَسْتَدُونَ الْحَلْلَ وَيَقِيمُونَ الْمَيْلَ ، وَيَدْفَعُونَ عَنِ الْأَرْضِ الْفُسَادَ ؛ وَإِنْ
 أَهْلُ خِرَاسَانٍ أَصْحَحُوا أَيْدِي دَوْلَتِنَا ، وَسَيُوفُ دَهْوَتِنَا الَّذِينَ نَسْتَدْفِعُ الْمَكَارَهَ بِطَاعَتِهِمْ ،
 وَتُسْتَصْرِفُ نَزُولُ الْمَطَالِمِ مِمَّا صَحَّتْهُمْ ، وَتُدَافِعُ رَيْبَ الزَّمَانِ بِعِزَائِهِمْ ، وَتُرَاحِمُ رُكْنَ الْقَهْرِ
 سِوَاهُ ؛ هُمْ عِمَادُ الْأَرْضِ إِذَا أُرْجِحَتْ كُنْفُهَا ^(١) ، وَخَوْفُ الْأَعْدَاءِ إِذَا رَزَتْ صَفْحَتُهَا ،
 وَحَصُونُ الرِّعَاةِ إِذَا نَصَابِقَتْ الْحَالَ بِهَا ، قَدْ مَضَتْ لَهُمْ وَقَائِعُ صَادِقَاتٍ ، وَمَوَاطِنُ صَالِحَاتٍ ؛
 أَتَحَدَّثُ بَرَاءَنَ الْعَيْنِ ، وَقَسَمْتُ دَوَائِي الْبَدْعِ ، وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَوَارِيں وَلَمْ يَعْكُوكَا كَذَلِكَ
 مَا حَرَّوْا مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي طَلِّ دَهْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِمَجْبَلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ
 بِهَا دَلَّتْهُمْ وَرَفَعَ بِهَا صَعَتَهُمْ ، وَحَلَّطَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ
 سِدِّ لِيَّاسِ الدَّلِّ ، وَقِنَاعِ الْحَوِى ، وَإِطَائِى الْبَلَاءِ وَمُخَافَةَ الْأَمْنِ ، وَحَمْدَ النَّاسِ وَالصَّرِّ ؛
 فِظَاهِرُ عَلَيْهِمْ لِيَّاسُ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلُهُمْ فِي حَدَائِقِ مَمْنَعِكَ ، ثُمَّ أَهْرِفُ لَهُمْ حَقَّ طَاعَتِهِمْ ،
 وَوَسِيلَةَ دَائِلَتِهِمْ ، وَمَائِدَةَ سَائِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَا صَحَّتْهُمْ ، بِالْإِحْسَانِ الْيَهْمِ ، وَالتَّوَسُّعِ عَلَيْهِمْ ،
 وَالْإِثَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِقَالَةَ لِيُسْبِيهِمْ .

أَيُّ هُيْ . ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَاقِبَةُ فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا بِالْإِنْصَافِ
 لَهَا ؛ وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَتِّكَ ، وَتَوَقَّعْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عَمَالَ الْمُدْرُ وَوَلَاةَ الْمُخْتَجِ
 مُقَدِّمَةً بَيْنَ عَمَلِكَ ، وَصَفَّةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاصِيَّ كُلِّ بَلَدٍ ، وَجِيَارَ أَهْلِ كُلِّ
 مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لِأَهْلِهِمْ رَجُلًا تَوَلَّيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَحْمِلَ الْعَدْلَ حَاسِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ فَإِنْ
 أَحْسَنَ مُجِدَّتْ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرَتْ . هُوَلَاءُ عَمَالُ الْمُدْرِ وَوَلَاةُ الْمُخْتَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ

(١) الكنف : جمع كف وهو الجلاب . وأرجحت : دلت .

ما في ذلك اذا أنتشر في الآفاق ، وسبق الى الاجتماع ، من أنفقاد أليسة المُرْحَفِين ، وَكَبَتْ قلوب الحاسدين ، وإطفاء نيران الحروب . وسلامة عواقب الأمور ، ولا يَتِمَكَّنُ في ظِلِّ كرامتك نازلا ، ويَعْرَأُ حبلك متعلِّقا رَحْلان : أحدهما كَرِيْمَةٌ^(١) من كرائم رَحالات العرب ، وأعلام بيوتات الشرف ؛ له أدبٌ فاضل ، وحلم راجح ، ودين صحيح . والآخِر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدحول ، يصير بتقليب الكلام وتصريف الرأي وأنحاء العرب ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب وتصاريف الخطوب . يصح آداما نافعة وآثارا ماقية ، من محاسنك وتحسين أمرك وتَحْلِيَة ذكرك ؛ فتستشيرُهُ في حرك ، وتُدْخِلُهُ في أمرِك ؛ فَرَجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوى الى محلتى ، ويرى في خُصْرِهِ جِئان ، ولا تَدْعُ أن تختار لك من فقهاء البُلدان ، وخيار الأمصار ، أقواما يكونون جواهرتك ومُتَمَارِك ، وأهل مُشاوَرَتِكَ فيما تُؤَرِد ، وأصحاب مآطرتك فيما تُصَدِر . فيسر على رَكَّة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلا يَهْدِي الى الصواب قلَّك ، وهاديا يُنْطِق بالحير لسانك . وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد .

(١) الكريمة . صاحب الكرم . وكرائم الرجال . أحابر رجال العرب وأحاسمهم . (٢) غير معمور

غير مطعون . وغير مدحول . لا يداخله صاد .

٢ - رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي كتبها للرشيد

الى قُسطنطين ملك الروم

من عبد الله هارون أمير المؤمنين الى قسطنطين عظيم الروم: سلامٌ على من أتبع الهدى .
 فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه
 المحدثين معظمتهم ، وأحتجب دون المخلوقين معزته ، فليست الأبصار بمذكّرة له ، ولا
 الأوهام بواقعة عليه ، أمراداً عن الأشياء أن يُشبهها ، وتعالى أن يشبهه شيء منها ، وهو
 الواحد القهار ، الذي أرتفع عن مآلح صفات القائلين ، ومبادئ لغات الممالين ، وفكر
 الملائكة المقربين ، فليس كشيء شيء ، وله كل شيء ، وهو على كل شيء قدير .

أما بعد ، فإن الله حلّ شأوه وتاركت أسماؤه ، قال لبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل
 من آيات الوحي إليه . ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَادِثُهُمْ بِأَلْفِ
 هِي أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ ﴾ . فرأى
 أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل عمله ، أن يكون الى سبيل ربه داعياً ، ورسوله
 صلى الله عليه وسلم متأسياً ، ولقوله : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ
 إِنَّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ موافقاً . وكنت من كتب الله المنزلة ، وآياته المعسرة ، وحلقه الكثير
 بحيث رحا أمير المؤمنين أسماؤك لموعظته ، وانتفاطك لمخادليه انتفاع بشير كثير وحلق
 عظيم قد فوت مأوزارهم مع وزيرك ، وأحتملت من آثامهم الى إثمك ، فأحب أن يدعوك
 ومن رحا أن يتنفع بدعوته معك ، الى كلبه سواء بيننا وبينكم ألا نعد إلا الله ولا نُشرك به
 شيئاً ولا يُعبد سوا سبأ أرباباً من دون الله ؛ فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ،
 أو تركتموه رهادة فيه ، فأتشهدوا بأننا مسلمون . وأستمعوا ما أمير المؤمنين واصل لكم ،
 وحثج به إن شاء الله عليكم ، فلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم أتبعوا أحسن ما تسمعون .
 ولا قوة إلا بالله .

قالت الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه وأقتصص على عاده : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أَوَّلُ الْأَلْبَابِ ﴾ . إن الله تارك أسمه ومعالى حده ، وصرف فيما أرل من آياته ، وشرح من بيناته ، الأتم الماصية ، والقروب الخالية ، والملل المتعقة ، الدين يحلوا مع الله الهة أخرى لا برهان لهم بها ، ولا حجة لهم فيها ، فقال : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِمَّا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ الْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا حَيْرًا لَكُمْ إِمَّا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكفى بِاللَّهِ وَكِيلًا لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

قالت العرب الذين يصدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة بأنهم آية ما عهدت أن الله إليه واحد ، فانزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ، وتؤم بها القلوب ، وتعرفها الألباب ، فلا يستطيع لها ردا ، ولا تطيق لها تحمدا ، دكر فيها اتصال حلقه وأتاق صُعبه ، ليوقن الحاهلون من العرب ، والصائلون من أهل الكتاب ، أن الله السماء والأرض ، وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له ، عاقل لا شيء معه ، فقال : ﴿ إِنْ فِي حَقِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِلَابِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْعُلُوكِ الَّتِي تَحْمُرِي فِي الْبَحْرِ مِمَّا يَبْعَثُ الْبَاسِ ﴾ . فصكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل ، وما أوصح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من معكر يطر فيها ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض ، إلا رأى من اتصال بعض ذلك بعض ، مثل ما رأى في تدبيره نفسه ، وعرف من اتصال حلقه ، مما بين ذوائب شؤون رأسه الى أطراف أنامل قدمه . وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة ، على أن الذي خلقه وصعبه إليه واحد لا إله معه ، ولا من شيء ابتدعه ، ولا على مثال صعبه . قد ترون بعبودكم وتعلمون عقولكم ، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض ، وحملها موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يديها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلا

مَالَتْ، لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِ . وَجَعَلَ ذَلِكَ النَّبْتَ الَّذِي جَعَلَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَمَعَاشًا لِأَعْمَالِكُمْ، مُتَصِلًا بِالمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ، لِمَعَاشٍ مُقْسُومٍ؛ فَلَيْسَ يَجْمَعُ النَّبْتُ إِلَّا بِهِ وَلَا يَجِيءُ إِلَّا بِهِ . وَجَعَلَ السَّحَابَ الَّذِي يَسْطُرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ مُتَصِلًا بِالرَّيْحِ الْمُسَحَّرِ فِي حَوْضِ السَّمَاءِ يُثِيرُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ، وَتُسَوِّقُهُ وَأَتَمُّ تَنْظُرُونَ؛ كَمَا قَالَ عَمْرُو بْنُ لُحَيْشٍ: (وَأَنَّ اللَّهَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا مَصْقُوعًا إِلَى يَدَيْ مَيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) وَوَصَلَ الرِّيحُ الَّتِي يَصْرِفُهَا فِي حَوْضِ السَّمَاءِ بِمَا يُؤَثَّرُ فِي حَلْقِ الْمَوَاءِ مِنَ الْأُرْمَةِ الَّتِي لَا تَنْبُتُ إِلَّا فِيهَا، وَلَا يَزُولُ عَنْهُ بَرْدٌ إِلَّا بِزَوَالِهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطُلَّ رَأْسُهَا كَمَا لَحَزَّ الْمُيْتُ، أَوْ مَاتَ الْبَرْدُ الْقَاتِلُ . وَوَصَلَ الْأُزْمَةُ الَّتِي جَعَلَهَا مُتَصَرِّفَةٌ مَتَلَوَّةٌ بِمَسِيرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ الدَّائِسَيْنِ لَكُمْ الْخُتْلَيْنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَلَيْكُمْ . وَجَعَلَ مَسِيرَهُمَا الَّذِي لَا تَعْرِفُونَ عَدَدَ السَّيْرِ إِلَّا بِهِ . وَلَا مَوَاقِعَ الْحِسَابِ إِلَّا مِنْ قِبَلِهِ، مُتَصِلًا بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ الَّذِي فِيهِ يَنْبَحُ . وَبِهِ يَأْفَلَانُ، وَوَصَلَ مَسِيرَ الْفَلَكَ بِالسَّمَاءِ لِلطَّائِرِ سِوَاهُ . فَهَذَا خَلَقَ اللَّهُ عَمْرُوجًا، مَا فِيهِ سَائِرٌ وَلَا تَزَائُلُ وَلَا تَفَاوُتُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ) . وَلَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ مَعَهُ ظَهِيرٌ عَلَيْهِ، يُؤَيِّنُكَ مِنْهُ مَا يُرْسِلُ، وَيُرْسِلُ مِنْهُ مَا يَمْسِكُ، أَوْ يُؤْخَرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَنْ وَقْتِ زَمَانِهِ، أَوْ يَعْمَلُهُ قُلُوبٌ نَحْوُ إِيَّاهِ، لَتَفَاوَتَ الْخَلْقُ، وَلَتَبَايَسَ الصُّعْبُ، وَلَتَصَدَّتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَلَتَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: وَكَذَّبَ الْمُبْطِلِينَ . (لَزُلْزِلَ أُنْيُسًا لَهُمُ الْخَلْقُ وَانْهَمُّ لَكَادُونَ مَا أُنْخَدِعُ اللَّهُ مِنْ قَلْبٍ وَلَا مَآ كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّكَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا مَغْمُومٌ عَلَى بَعْضِ سُحْرَانِ اللَّهِ عَمَّا يَصْهَوْنَ) .

وَالْمَحَبُّ: كَيْفَ يَصِفُ مَخْلُوقَ رَبِّهِ، أَوْ يَجْعَلُ مَعَهُ إِلَهًا غَيْرَهُ، وَهُوَ يَرَى فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ صَعَمَةً ظَاهِرَةً، وَحِكْمَةً خَالِفَةً، وَبَالِغًا مُتَفَقًّا، وَتَدْبِيرًا مُتَصِلًا، مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَقُومُ مَعَهُ إِلَّا بِبَعْضِ مُتَحَلِّينَ بَيْنَ يَدَيْهِ، مَائِلًا مُصَبِّحِيهِ، بِيَدَيْهِ إِلَى صَانِعِهِ، وَيُلْهِ عَلَى خَالِفِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَيَهْدِيهِ إِلَى رُبُوبِيَّتِهِ، (تَعَالَى اللَّهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ أَبَشِرْهُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُحْشَدُونَ . حَقًّا مَا كَرَّرَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ
بربهم الصَّالُونَ عَنِ أَفْسِهِمْ ، فِي حَلْقِ اللَّهِ الطَّرِ ، وَلَا رَجَعُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
الْمَكْرُ . وَلَوْ أَعْمَلُوا فِكْرَهُمْ وَأَجْهَدُوا بَطَرَهُمْ ، فَمَا تَسْمَعُ آدَانَهُمْ وَتَرَى أَصْأَارَهُمْ ، مِنْ
حَوَادِثِ حَالَاتِ الْخَلْقِ ، وَعَجَائِبِ طَبَقَاتِ الصَّعْ ، لَوَحِدُوا فِي أَقْرَبِ مَا يَرُونَ بِأَعْيُنِهِمْ :
مِنَ التَّأْلِيفِ لِتَرْكِيبِ حَلْقِهِمْ ، وَالْإِثْرِ فِي التَّدْبِيرِ بَصْنَعِهِمْ ، مَا يَدْلُمُ عَلَى تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ ،
وَيَقِفُ بِهِمْ عَلَى أَهْرَادِهِ بِخَلْقِهِمْ ، فَانْهَمِ يَرُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ بِأَعْيُنِهِمْ وَيَعْدُونَ بِقُلُوبِهِمْ ، أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ
صَنْعَةً بَعْدَ صَنْعَةٍ ، وَمَخْلُوقَةٌ عَنْ طَبَقَةٍ ، وَمَقُولَةٌ حَالًا إِلَى حَالٍ : سُلَالَةٌ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ
نُطْعَةٌ مِنْ مَاءٍ مَيْهِينَ ، ثُمَّ حَلَقَةٌ ، ثُمَّ مُصْنَعَةٌ ، ثُمَّ عَقْلٌ ، كَسَاءَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَبَخَّ فِيهِ رُوحًا ،
وَإِذَا هُوَ حُلُقٌ آخَرُ ، فَتَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ، الَّذِي خَلَقَ فِي قَرَارِ مَكِينٍ ، مِنْ مَاءٍ قَلِيلٍ
صَعِيفٍ دَلِيلٍ ، خَلَقًا صَوْرَهُ بِخَفِيفِطٍ ، وَقَدَّرَهُ بِتَرْكِيبٍ ، وَأَلْفَهُ بِأَحْرَاءٍ مُتَعَفِّةٍ ، وَأَعْصَاءٍ
مُتَصَلَّةٍ ، مِنْ قَدَرٍ إِلَى سَاقِ إِلَى نَعْدٍ إِلَى مَا وَفَّقَ ذَلِكَ : مِنْ مَقَاصِلِ مَا يُعْلَى أَوْ عَجَائِبِ
مَا يُنْظَرُ ، لِيَعْلَمَ الْجَاهِلُونَ وَيُوقِنَ الْجَاهِدُونَ ، أَنَّ الَّذِي صَنَعَ ذَلِكَ وَحَلَقَهُ وَدَبَّرَهُ وَقَدَّرَهُ
وَهَيَّأَ طَاهِرَهُ وَبَاطَنَهُ إِلَهُ وَاحِدٌ لِاشْرِيكَ مَعَهُ . فَلَا يَذْهَبُ دُكْرُ هَذَا صَمْعًا عَنْكُمْ ، وَلَا تَسْقُطُ
حِكْمَتُهُ جَهْلًا بِهِ عَلَيْكُمْ ، وَمَكْرًا فِي آيَاتِ الرِّسَالِ وَبَيِّنَاتِ الدُّرِّ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَكْرًا لِلْمُصْرِينَ ،
وَنَصْرًا لِلْمُتَعَبِّينَ ، وَذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصِفٌ لَكُمْ ، وَمُقْتَضٍ مِنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، مَا بِهِ شَهَادَاتُ
وَاصِحَاتٍ ، وَعَلَامَاتُ بَيِّنَاتٍ ، وَمُسْتَدَيُّ بَذَرِ آيَاتٍ سَبَّحَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا أَنْزَلَ اللَّهُ
مِنْهَا فِي الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ مَا أَحَدٌ يَقْرَعُ آيَاتِ الْبَيِّنَةِ قَلْبَهُ ، وَيَحْصِي بَيِّنَاتِ الْهُدَى عَقْلَهُ ، إِلَّا
قَادَتْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَجِدُ إِلَى انْكَارِ مَا حَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ سَبِيلًا .
فَارْتَدَّتْ أَنْ تَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَبَقِيٍّ وَنَقِيٍّ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقِّهِ ،
وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَأَحْصِرْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَهَمَّكَ . وَأَلْقِ إِلَى مَا هُوَ وَاصِفٌ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَمْعَكَ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ لِنَفْسِهِ ، وَأَخْتَارَ لَهُ رُسُلًا مِنْ خَلْقِهِ ،
وَأَبْتَعَتْ كُلُّ رِسُولٍ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ، لِيَبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، وَيَعْلَمَهُمْ مَا يَتَّجِهُونَ : مِنْ تَوْحِيدِ

الرب وشرائع الحق ((ثَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ مَعَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)).
 فلم تزل رسلُ الله قائمةً بأمره ، متواليةً على حقه ، في مَوَاصِي الدُّهُور ، وَخَوَالِي القُرُون ،
 وطلقاتِ الرِّمَان . يَصْدُقُ أَتْرَعُهُمْ بِنُورُهُ أَوْلَمُ ، وَيَصْدُقُ أَوْلَمُ قَوْلُ أَتْرَعِهِمْ ، وَمَقَانِجُ دَعْوَتِهِمْ
 واحدةٌ لا تختلف ، وَجَمَائِعُ مِلَّتِهِمْ مُلْتَمِةٌ لَا تَفْتَرِقُ ، حَتَّى تَنَاهَتْ الْوَلَايَةُ وَالْوَرَاثَةُ إِلَى بَنِي
 عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهَا وَبَشَرَهَا ، إِلَى السَّيِّدِ الْأُمِّيِّ الَّذِي اخْتَبَهُ اللَّهُ لَوَحْيِهِ ، وَأَخْتَارَهُ سَلَمَهُ ؛
 فَلَمْ يَزَلْ يَنْقُلُهُ بِالْأَنْبَاءِ الْأَحْيَارِ ، وَالْأَهْمَاتِ الطَّوَاهِرِ ، أُمَّةً قَائِمَةً ، وَقَرَابًا فَقَرَابًا ، حَتَّى اسْتَحْرَجَهُ
 اللَّهُ فِي حِيرِ أَوَانٍ ، وَأَفْصَلَ زَمَانٍ ، مِنْ أُمَّتَيْ مُحَمَّدٍ ^(١) وَأَرْوَمَاتِ الرِّيَّةِ أَصْلًا ، وَأَعْلَى دَوَائِبِ نَبْعَاتِ
 الْعَرَبِ قَرَعًا ، وَأَطْلَبَ مَنَاتِ أَحْيَاصِ قُرَيْشٍ مَقَرَسًا ، وَأَرْفَعَ دَرَى عَدِ بْنِ هَاشِمٍ سَمَكًا :
 مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَبْرُهَا عَدَّ اللَّهُ وَحْلَهُ نَفْسًا ، عَلَى حِينِ أَوْحَشَتِ الْأَرْضُ مِنْ أَهْلِ
 الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، وَأَمْتَلَتْ الْأَفَاقُ مِنْ عِدَّةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَشْتَعَلَتِ الْبِدْعُ وَالِدِينِ ،
 وَأَطْفَقَتِ الظُّلُمُ عَلَى النَّاسِ أَحْمَصِينَ ، وَصَارَ الْحَقُّ رَشْمًا عَافِيًا ، حَلَقًا نَافِيًا ، مِيتًا وَسَطَ أَمْوَاتِ ،
 مَا لَمْ يَحْسُوسْ لِلْهَدْيِ صَوْتًا يَسْمَعُونَهُ ، وَلَا لِلدِّينِ أَثَرًا يَشْعُرُونَهُ . فَلَمْ يَزَلْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 قَائِمًا بِأَمْرِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْهِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُحَذِّرُهُمْ عَقُوبَاتِ
 الشِّرْكِ ، وَيُحَادِّثُهُمْ بِسُورِ الْبَرَهَانِ ، وَآيَاتِ الْقُرْآنِ ، وَعَلَامَاتِ الْإِسْلَامِ ، صَابِرًا عَلَى الْأَذَى ،
 مُحْتَمِلًا لِلْكُرْهُ ، قَدْ أَلْهَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ مَطْهُرٌ دِينُهُ ، وَمُعِزٌّ تَمَكِّيهِ ، وَعَاصِمٌ مُسْتَحْلِفُهُ
 فِي الْأَرْضِ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ رَيْبٌ ، وَلَا يَلْوِيهِ هَيْبٌ ، وَلَا يَقْبِيهِ أَذَى ؛ حَتَّى إِذَا قَهَرَتِ الْيَبَابُ
 أَلْبَابَهُمْ ، وَبَهَرَتِ الْآيَاتُ أَهْصَارَهُمْ ، وَحَصَمَ بُورُ الْحَقِّ حُجَّتَهُمْ ، فَلَمْ تَمْنَحِ الْقُلُوبُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ
 مَدْوَبَ صِدْقِهِ ، وَلَمْ يَحْدِ الْعُقُولُ سَبِيلًا إِلَى دَمِجِ حَقِّهِ . وَهَمَّ عَلَى ذَلِكَ مَكْدُونُونَ بِأَقْوَامِهِمْ ،
 وَحَاحِدُونَ بِأَقْوَالِهِمْ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَلِيمُ بِمَا يُسْرُونَ ، الْخَاطِرُ عَمَّا يُعْلِنُونَ : ((فَانْتَهُمُ
 لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَمْحَدُونَ)) فَيَا وَعْدَاوَةَ ، وَحَسَدًا وَبِلْخَاحَةَ ، اقْتَرَضَ

(١) مُحَمَّدٌ . جمع محمد ، وهو الأصل . (٢) أَرْوَمَاتُ : جمع أرومة ، وهي الأصل .

(٣) مَنَاتُ . أصول كريمة . (٤) أَحْيَاصُ قُرَيْشٍ : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر ، وهم . العاص

وَأَبُو الْعَاصِ وَالْعِيسَى وَأَبُو الْعِيسَى وَالْعَوَيْسُ . (٥) فِي الْأَصْلِ . "فَلَا" .

الله عليه قاتلهم ، وأمره أن يجرّد السيف لهم ، وهم في عصاة يسيّرة ، وعدة قليلة ، مستضعفين مستذلّين ، يخافون أن يخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم ، وتستحمّلهم^(٢) الحروب ، فأوامهم في كنفه ، وأيديهم بنصره ، وأنذرهم عقدة من الرعب ، ومشقة من الحق ، وجنود من الملائكة ، حتى هزّم كثيرا من المشركين بقلّتهم ، وظبّ قوّة الجنود بضعفهم ، إنجازا لوعده ، وتصديقا لقوله : (وَإِن جُذُتْ لَهُمُ الْغَالِيُونَ) فَأَحْسِ الظَّرَّ وَقَبِّ الْفَكْرِ في حالات النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي قائما لله ، لتجد لمذاهب فكره وتصاريف نظرك ، مضطربا واسما ، ومتمندا ناهما ، وشعوا باجّة ، كلّها حير يدعوك الى نفسه ، وبيان يكشف لك عن تحضيه . وأحير أمير المؤمنين ما كنت قاتلا لو لم تكن البعثة للنبي — صل الله عليه وسلم — بلفظك ، ولم تكن الأنباء بأموره تهزرت قبلك ، ثم قامت المحمّة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : إنه نعم بين ظهراني مثل هذه الضلالات المستاصلة ، والجماعات المستاسدة ، التي ذكر أمير المؤمنين : من قبائل العرب ، وجاهليّة الأمم ، وصناديد الملوك ، ناجم قد صبّ لها وغرى بها ، يجهل أعلامها ، ويكفر أسلافها ، ويفرق ألقافها ، ويلعن آباءها ، ويضلّ أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويحمر بكلمة الإخلاص الى من تراعى عنها ، حتى سميت العرب ، وأنفت السحرم ، وعصبت الملوك ، وهو على حال فدائه الحق ودماثة اليه ، وحيدا فريدا ، لا يحفل بهم عصبا ، ولا يرهب عتقا ، يقول الله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به وتقع الآراء عليه ، إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويمتدح مما يقول ، وقد دعا الخلق الى نفسه ، وأذن الله لقومه في قتله ، طيست الأيام : أاذة ولا الحسأل بثابتة له إلا ريقا تستلجمه أسبا بهم ، وينهض به حلماؤهم ، غضبا لربهم ، وأذعة لدينهم ، وحمة لأصنامهم ، وحسدا من عند أنفسهم . وإما صادق

(١) أصله تداعى لخلفه إحدى تايه ، ومما يحتمون عليهم ويتألون بالدعوة .

(٢) تستحملهم : تلقى عليهم حملها رماها . (٣) المستاسدة : القوية . (٤) تستلجمه .

تعلق به وتتشب .

نصير بموضع قدمه ومَرَمَى نَبْلَهُ ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزّه ، وجعله
 في حِرْزِهِ ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلية مع محبة الله إليه ، ولا الهيبة
 بداحلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمادون لها فيه . ثم إن آيتكم ^(١) يا أهل الكتاب
 لو قيل لكم : إن الرجل الذي يدعى العِصْمة ويتحل المَنَصَّة ، قد نجحت الأمور به على
 ما قال ، وسَلِمَتِ الحالُ له فيما آذَى ، حتى نَصَبَ لملوك العرب ، وجماعات الأمم ،
 يقاتل عن طأوسه من حالفه ، ومن تاهه من عاده ، جانا مشمرًا ، محتسبًا واثقًا بموجود
 الله وبصره ، لا تأخذُه لومة لائم في ربه ، ولا يوحد لَدَيْهِ عَمِيْزَةٌ ^(٢) في دينه ، ولا يلفته حَذْلان
 حاذِل عن حقّه ، حتى أعرَّ الله دِيْنَهُ ، وأظهر تمكيته ، وأقادت الأهواء له ، واجتمعت
 الفِرَقُ عليه ، ألم يكن ذلك يزيد حقه يقينًا عندكم ، ودعوته ثبوتًا فيكم ، حتى تقول الجماعة
 من حُلمائكم وأهل الحُكْم من دوى آرائكم : ما كان الرجل ، اذ كان وحيدًا فريدا قليلًا
 صعيقا دليلًا معروفا بالعقل منسوبا الى العِصْل ، ليحتجَّ أن يقول : إن الله عز وجل
 أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه أن يعصمه من العرب جميعا ويمعه من الأمم طُرًا ،
 حتى يبلغ رسالات ربه ، ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجا في دينه ، إلّا وهو
 على ثقة من أمره ، ويقين من حاله .

سبحان الله ! يا أهل الكتاب ما آتَيْتُ حقَّ النبي صلى الله عليه وسلم لمن طلبه ، وأَسْهَلَهُ
 لمن قَصَدَهُ . وأَسْتَعْمِلُوا في طلبه أَلْبَابَكُمْ ، وَارْغَبُوا ... أَبْصَارَكُمْ ، تَنْظُرُوا بِعَوْنِ اللَّهِ إِلَيْهِ ،
 وَتَقْبَلُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ إِنْ عِلَامَاتِ نَبُوْتِهِ وَأَيَاتِ رِسَالَتِهِ ، ظَاهِرَةٌ لَاتُخْفَى عَلَى مَنْ
 طَلَبَهَا ، حَسَّةٌ لَا يُخْفَى عِدُّهَا ، مِنْهَا خَوَاصُّ تَعْرِفِهَا الْعَرَبُ ، وَعَوَامُّ لَا تَدْفَعُهَا الْأُمَمُ ، فَمَا
 الْخَوَاصُّ الْمَعْرُوفَةُ لِنَبِيٍّ ، الْمَعْلُومَةُ عَسَدْنَا ، الَّتِي أَحَدَثَهَا الْأَنْبَاءُ عَنِ الْآبَاءِ ، وَقِيلَهَا الْأَتْبَاعُ عَنِ
 الْأَسْلَافِ ، فَأُمُورٌ قَدْ كَثُرَتْ الْبَيِّنَاتُ فِيهَا ، وَتَدَاوَلَتِ الشَّهَادَاتُ طَلَبَهَا ، وَثَبَتَ الْجَمْعُ بِهَا ،
 وَتَرَاحَتِ الْأَيَّامُ بِبَعْضِهَا ، حَتَّى رَأَيْاهُ عَيَّانًا ، وَقِيلَنَاهُ إِهْقَانًا ، فَهِيَ أَظْهَرُ فَيَا مَنْ الشَّمْسُ ،

(١) كما في الأصل . (٢) عمارات العرب . أحياؤها الطيبة . (٣) حميرة : مطس .

(٤) يابس في الأصل بمقدار كلفة .

وأين لدينا من النهار؛ ولكن غيبت الأزمان عنكم أمرها، ولم يقبل الآباء اليكم علمها، وما لا يُذكر إلا بالسمع موضوعُ الحجة عن العقل، فليس أمير المؤمنين مُحتاجٌ لكم، ولا قاصد اليكم من قبلها. وأما الآياتُ العوامة والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين، الفاطمة تُجج المبطلين، التي لا تترك عقول الأمم وجوت حَقَّها، ولا تدفع أبواب الأعداء صفة أمرها، فسبوا لها أمير المؤمنين مسالك أسماكم، ويُعيد بها حجة الله في أعناقكم، من وجوه جمّة وأبواب كثيرة، إن شاء الله. منها أنه لم تزل الشياطين، فيما حلا من قَرأت الرسل وتدرّات النذر، تصعدُ إلى سماء الدنيا، وتُنصت للأهل فتسترق السمع وتحتفظ العلم، وتنزل به إلى كلِّ أَهْلِكِ أُنيم، يَنُتُونُ أكاديبهم على واضح صدقهِ، ويُفَقِّونَ أُمَاطِلَهُمْ بحسب حَقِّهِ، حُلُطاً للباطل فيه، وسوبها للعاد عليه. فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل آيات القرآن إليه، حُرِسَتِ السماءُ من الجحوم، ورُميت الشياطين بالشُّبُه، وأقطعت الأباطيل، وأصمحت الأكاذيب، وحلَّس الوحي، وبطلت الكُفَّاه، وصَلَّتِ السُّعَار، وكذبت الأحلام، وبغيت الشياطين، فكانت آية بيّنة، وعلامة واضحة، وحجة بالغة، تبهّر قرائح العقول، وتحرّق نُحُح العيوب، فلا يقوم مع صيانتها طُلُمة، ولا يثبت عند مُحْكَمها شُبُهة، ولا يُقيم معها في عهد صلى الله عليه وسلم شك، لا من أحبابه حاصّة ولا ممن حاء بعده عامة. وإما جعلها الله عز وجل آية نافية في العايرين، وحِرَاسَة ثابتة من الشياطين، لأن الله جل وعلا جعل فيها صلى الله عليه وسلم آخر الدين؛ فليس باحثاً بعده نبيّاً يكذب أفاويل الكُفَّمة، ويقطع أحاديث الحجة.

وستقول، فيما يذهب إليه الظنّ ويقع عليه الرأي، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملكك: هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بيّنة قائمة، مستطيلة لأمرها، مستعينة بنفسها، لا تحتاج إلى ما قبلها، ولا يتشكل على ما بعدها، إن أقرت العقول بما تقول، أو قامت البيئة على ما تدعى، بل، ثم تقول: وأنت لك بالبيئة، ولستأ تفرّ بكالك، ولا تؤمن برسولك،

ولا قَبَل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه، وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه؛ فأرجع اليكم إن قُتِم ذلك، وإن وُحِدَانِ القصة قل طَلَبَ البينات.

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما يُنَازَعُك ويُحَاجُّك فيه حاكماً غير عقلك، ولا قاصياً سوى نفسك، ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسامك، لما حلت التفهم لمسائله من بالك، وركبت حدودها في جوابك، عادلاً بالقيسط، قاصياً بالحق، قائلاً بالصدق ولو على هسك، ناظراً بالآثرة لديك؛ فلقد وفق الله لك آية، وأهدى اليك بينة، لا تستطيع دفعها تحجبها عن عقلك، ولا يحجبها لنورها دون نصرتك، فلا تدفع الآية بقولك، والبيعة لمسالك، تحمداً مقلع وصول المحجج اليك، ^(١) ويد تغلق أبواب الفهم عنك، فإن اللسان لك مداوُل حيث شئت، ومقاد تُصرفه فيما هويت، ولكن أنصب نفسك للفهم وأنت شهيد، وأريد الحق وقسوله فيما تريد. فإذا تصورت البيات مجسده في قلبك، وتبينت المحجج ممثلة لنظرك، قد أضاء صوابها لك وقرع حقائق قلبك، فاحمل القول بها شعاراً للسان به متصلاً. وأفهم المسئلة فهماك الله الحق، وحسبك الجهد، ما تقول أنت ومن قبلك في رحل كان يتياً ضعيفاً أحياناً ساهياً لاهياً طائلاً خاملاً، لم يتل كتاباً، ولم يتعلم خطاً، ولم يك في تحفة علم، ولا إرث ملك، ولا تمدن أدب، ولا بيت نبوة، فتراقبت الأيام به، واتصلت الخال بأمره، حتى نرج إلى العرب عامة والقبائل كافة، وحيدا طريداً شريداً، محسوداً مجهولاً، محقواً مريباً بالمقوق لآلهم، مقدحواً بالكذب على أصابعهم، مسوباً إلى الحجر لأديابهم، وهم يُجْعَلُونَ على دعوة العصبية، وحجة الجاهلية، مُتَعَادُونَ مُتَاغُونَ، مغلفة أهواؤهم، متفرقة أملاؤهم، يتسافكون الدماء، ويتساقون النساء، ويستحلون الحرم، لا تمنعهم ألفة، ولا تعصمهم دعوة، [ولا] ينجزم برز، فألف قلوبها، وجمع شيعتها، حتى تاصرت القلوب، وتواصلت النفوس، وتوافدت الأيدي، ثم اجتمعت الكلمة، واتفقت الافئدة، حتى صار عاية الملقى رحالم، ونهاية المُتَجَمِّع

أسفارهم ، وصاروا له حِزْماً متعصبين ، وحنذاً مُطِيعين ، فلا دُنْيَا فُسطَها لهم ، ولا أُمُوالٍ أفاضها بينهم ، ولا سُلطانٍ له عليهم ، ولا مُلكٍ سَأَفَ لآمانه فيهم ، ولا نِباهَةٍ كَانتَ له بين ظُهُرائِهِمْ .
أقول إنه [ما] قال ذلك كُلُّهُ إلَّا نَوْحِي عَظِيمٌ ، وَتَهْزِيلُ كَرِيمٌ ، وَحِكْمَةٌ مَالِغَةٌ إِنْ كانَ قُلْتُ ذلك فَقد أَقْرَرتُ أَنَّ هَذا صِلَ اللهُ عليه وسلم رَسولَهُ ، وَتَرَكْتُ ما كَنتُ أَهْوُلُ إِنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ وَلَمْ يُلْغِهِ إلَّا بِعَقلٍ سَديدٍ ، وَظَرٍّ عَبدٍ ، وَرِفقٍ لَطيفٍ ، وَرَأى وَثيقٍ ، اسْتَقى بِهِ عَقولَ الرِحالِ ، وَاسْتَقَالَ مَليه أَفئدَةُ العِوامِ . فَإِنْ قُلْتُ ذلكَ فَإِنا سائِلُكم بِالهِكمَ الَّذي تَمدُّونَ ، وَدَيبِكمَ الَّذي تَنعَلونَ ، لَمَّا صَدَقْتُمْ أَنفُسَكم وَتَجَنَّبْتُمُ الهِوى عَنْكم : أَتُؤْمِنُ قُلُوبُكمَ ، وَتُفَسِّرُ عَقولُكمَ ، وَيَحتمِلُ نَظَرُكمَ ، أَنَّ هَذا صِلَ اللهُ عليه وسلم الَّذي وَصَفْتُمُوهُ بِكُلِّ العَقلِ ، وَسانِ المَضِلِّ ، وَرِفقِ التَّدييرِ ، كانَ يَقولُ لِرِجالِ العَرَبِ ، وَجِماهِاتِ الأُمَمِ ، [و] دُعاهُ قَريشَ : إِنْ مَنَ آياتُ نَبوِيِّ ، وَدِلالاتُ رِسالَتِي ، وَعلاماتُ زَمانِي ، أَنَّ الشَّياطِينَ تُزَيِّمُ بِجُحُومِ السَّماءِ ، وَلَمْ تَكُنْ تُزَيِّمُ بِها فِيا سَلا ، ثُمَّ يَعمَلُ ذلكَ كَما يُقَرَأُ ، وَقَرَأَنا يُنْثَلُ ، وَهُوَ كاذِبٌ فِيا سَلا ، وَمُطِيلٌ فِيا أَدْعى ، إِسْطِلالاً تَدِيرُكَ عِيونُ الباطِرِ ، وَكُنا يَظْهَرُ لِجَميعِ العالَمينَ ! سَبحانَ اللهُ ! أَرَأَيْتُمْ أَنَّ لَو كانَ فِيا قالَ مِنَ الكاذِبينَ ، وَعَلَى ما أَدْعى مِنَ الآئِمينَ ، ثُمَّ حَاولَ إِعادَةَ القُلُوبِ ، وَإِثْقالَ الصُّدُورِ ، وإِظهارَ العُيُوسِ ، وَتَهْزِيلَ الجُحُوعِ ، أَكانَ يَزِيدُ عَلى ذلكَ !

فِيا أَهلَ الكُتابِ لا يَجهَلُكمُ الإِثْمُ لَئِنَّكمَ عَلى اللَعبِ تَوحِيدَكمَ ! فَلَمَّعَ اللهُ لَئِنَّ تَدَارَكْتُمْ أَنفُسَكمَ وَنَاصَحْتُمْ نَظَرُكمَ لَمَّا نَسِيتُمْ أَنَّ هَذا صِلَ اللهُ عليه وسلم لَو حَاولَ الكَذِبَ أَو رَامَ الإِثْمَ ، لَمَّا كانَ يَتَرَكُ جَميعَ الأَرْضِ ، وَما يَنبَغِي عَنِ مَعْصِ الخَلقِ وَيَظْهَرُ لِمَعْصِ ، وَيَقْصِدُ لِسَماءِ المُتَصلَةِ بِالصَّعرِ ، البازِرةِ لِلظُفْرِ ، الَّتِي لا تَحمِي عَلى بَشرٍ ، وَلا تَقيبُ عَنِ أَحَدٍ ، فَيَدْعِي فِيا كَذا ظاهِراً ، وَإِثْماً مارِزاً مَكشُوفاً ، لا يَبقى صَغيرٌ ولا كَبيرٌ ولا ذَكَرٌ ولا أنْثى ، إلَّا عَرَفَ أَنَّ هَذا زُورٌ ، وَكَدِبٌ وَعَرُورٌ ، وَلا سَبيماً إِذا كانَ يُنْثَلُ ذلكَ إلَى أَقْوامٍ أَكْثَرُهمُ أَعرابٌ ، لَيسَ بَينَهمُ وَبينَ السَّماءِ حِجابٌ ، إِنما يُرَاعُونَ الكِواكِبَ وَيتَفقَدُونَ النِجومَ ، فابْعُدْ عَهْدَ أَتَحرِمُ بِها تَفَقُّدُها وَلَظَهرُها إِلَيا ، ساعَةً أَوْ ساعَتَينِ ، أَو لَيلَةً أَو لَيلَتَينِ .

لَعَمْرَاقِهِ لَوْ عَثَرَتِ الْعَرَبُ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى كَذِبٍ لَكَانَ أَوَّلُ مَنْ يُؤْتِيهِ بِهِ وَيُحَادِلُهُ فِيهِ أَعْدَاؤُهُ مِنْ قُرَيْشٍ عَامَةً ، وَحُسَّادُهُ مِنْ حَبِيرَتِهِ خَاصَّةً ، وَنَظَرَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ دِينِيَّةً الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَعِيرُونَهُ لِكُلِّ طَرِيقٍ ، وَيَقْعُدُونَ لَهُ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ ، وَيَتَسَاءَلُونَ مِنْ أَمْرِهِ عَنْ كُلِّ دَيِّ حَادِثٍ ، وَيَتَلَقَّوْنَ بِالْحُرُوفِ الْمُشْكِلَةِ ، وَالْآيَاتِ الْمُشْتَبِهَةِ ، جَدَلًا وَخُصُومَةً بِهَا ، وَطَعْمًا وَإِلْهَانًا وَمَازَعَةً فِيهَا ، حَتَّى لَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِفَعْلِهِمْ ، وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) وَمَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَقُولَ ذَلِكَ وَلَا لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ عَلَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا عَنِ حُصُومَةٍ شَدِيدَةٍ ، وَمَازَعَةٍ بَلِغَةٍ ، وَمُعَادَلَةٍ مَعْرُوفَةٍ ، فَأَحْسِبِ الطَّرْفَ لِنَفْسِكَ ، وَلَا تَتَلَكَّ شَفَقَةً عَلَى مُلْكِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّ الْعَجُومَ شَيْءٌ كَانَتِ الْعَرَبُ تَرَاهُ عَيُوبَهَا وَتَعْرِفُهَا بِقُلُوبِهَا ، هَذَا كَانَ مَعْدُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ عَارِفٌ بِهَا عَيْرَ جَاهِلٍ لَهَا ، لِيَقُولَ فِيهَا إِلَّا حَقًّا ، وَيَتَحَلَّ فِيهَا إِلَّا صَدَقًا ، لَقَدْ ثَبَتَ مَرْوَعُ كَلَامِكَ فِيهَا عَلَى أَسَسٍ ، وَوَصَلَتْ آخِرُ قَوْلِكَ لَهُ مَأْوَلُهُ ، ثَبُوتًا عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَقِيدِهِ ، وَلَزُومًا لِمَا قَرَأْتَ مِنْ ظَوْرِهِ ، وَلَكِنَّكَ لَا تَعْمَدُ مَعَ الْإِقْرَارِ بِذَلِكَ نَدًّا مِنَ التَّصْدِيقِ بِرِسَالَتِهِ ، وَلَا مَذْهَبًا عَنِ الْإِيمَانِ بِبَيِّنَتِهِ .

وَلَئِنْ زَعَمْتَ أَنَّهُ أَدْعَى أَمْرَ الْعَجُومِ كَمَا وَأَنصَلَهَا بِاطِّلا ، عَارِفًا كَانَ بِهَا أَمْ حَاضِلًا ، لَقَدْ نَسَبْتَهُ مِنَ الْخَطَا الَّذِي لَا يَنْعَمُ عَنْ نَصَرِهِ إِلَى مَا يَحْطِئُ فِيهِ بَشَرٌ ، فَأَكْذَبْتَ نَفْسَكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنِ التَّالِيفُ لِقُلُوبِ الْعَرَبِ وَالْجَمْعُ لُشَيْتِ الْقَبَائِلِ ، إِلَّا بِرَأْيِ سَدِيدٍ ، وَعَقْلِي أَصِيلٍ ، وَرَفْقِي مَالِحٍ ، إِلَى أَحَدِ أُمَرَاءٍ لَا تَعْدُ لِكَلَامِكَ وَجْهًا تَنْهَبُ إِلَيْهِ عَيْرَهُمَا ، وَلَا تَحِيلًا تَصْعَقُ عَلَيْهِ سَوَاهُمَا : إِمَّا أَنْ تَقُولَ : إِنَّهُ أَلْفُ قُلُوبِ الْعَرَبِ ، وَفَرْقُ جُمُوعِ الْأُمَمِ بِتَرْبِيلِ الْوَحْيِ ، فَتُؤْمِنُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ : فَعَلَّ ذَلِكَ بِجَهْلٍ ، وَهَذَا قَوْلٌ لَا يَقْبَلُ . كَيْفَ يَصِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الْجَاهِلِينَ بِهِ الْمَكْذِبِينَ لَهُ بِغَبَاوِهِ ، أَوْ يَرْمُونَهُ بِجَهَالَةٍ ، وَهُمْ يَحُوزُونَ بِهِ حُدُودَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيَرْفَعُونَهُ فَوْقَ أُمُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَيَتَخَفَتُونَ بِهِ مَرَاتِبَ الْحُكَمَاءِ ، وَمَسَازِلِ النَّاسِ

تكثيراً لعلمه ، وتسديداً لعقله ، وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدى الأنسُ إليه ؛ حتى لقد تحلوه فعلَ الربِّ الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمّة : من ذلك أنه اذا قالت القايا من أمتنا : كان عهد صلي الله عليه وسلم يُجبرنا بالغيوب قبل ظهورها ، ويصِفُ الأمور قبل حلُولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك الى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضاعوا ذلك علماً إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع العجوم ، وأبصرهم بمنازل البروج ، وأنظروهم في دقائق الحساب . كيف ولم يكن المحراز دارَ نجوم ولا عِلَّ حساب ولا معدن أدب ! بل كيف والمجسم يقيس ويعطن ، ويشك فيما يدعى ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك أنه اذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبيا صلي الله عليه وسلم [علما] باطن أخبار البين ، وخفي قصص القرون الأولى ، قالوا : كان أحيا السَّيس قلوباً ، وأوسعهم سراً ، وأسرهم أخداً ، يتبع ذلك ويحبه ، وقد رواه وعلمه . سبحان الله ! أولا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متعاضد الحالات ، متقل الطبقات ، وأنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً ، إلا وله درحات في علمه ، وتارات في أخذه ، ومبارك في تعليمه ، تارة تليذ ، وتارة مقارب ، وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عد قومه ، ظاهر لجيرته ، مستفيض في عشيرته ، لا يحتمل أمره ، ولا يخفى ذكره ، ولا يُنسى عد مواضع الحاجة إليه ، وتارات الاحتجاج به عليه . ولو كان ذلك معروفاً فيهم ، أو موجوداً لديهم ، أو ظاهراً عندهم ، لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد لئتُ فيكم عُمرًا من قلبي ، لا أعلو قرآنا ، ولا أدعي وحيا ، أفلا تعقلون !

وأيّ الله ! لو كانوا يعقلون أو ينظرون ، لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لم من المخالفين ، وعليهم من الطاعين ، يذكر قصاصهم قولهم ، ومما يب أمرهم ، ومخايزي أسلافهم ، وعواثر أديانهم ، وأنه لو كان معلمه نصرانياً لدماه الى النصرانية ، أو يهودياً

لدعاه إلى اليهودية ، أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسية . ولو لم يحسن له معلّم لمّا وقع على الحقيقة هدايةً من تلقاء نفسه ومعرفةً بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لمّا دعاه إلى عبادة الرمح ، ولا أمره بهجر الأوثان ، وكسر الأصنام ، وصلة الأرحام ، والإصلاح في الأرض ؛ كيف [و] كان الشيطان يصّد الناس عن سبيله ، ويُرْهِم في ديبه ، وينهاهم عن طاعته ، ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مَسَاخِطه ، ويمثلهم على معاصيه ! إنه إذا رَحِمَ بهم ، فاطرُّهم ، شفيقٌ عليهم ، كأنه هو المبعوث اليهم ، كلا ! ما كان ليُقدِّمهم من حَبَائِله ، ويُخَلِّصهم من مَصَائِدِه ، ويُخْرِجهم من ولايته وطاعته وسلطانته وخُدْمته وقتته وحربه ، إلى غير ذلك من أمره . وما كان لينهى العرب أن يقتلوا أنفسهم ، ويتناوخوا حُرْمهم ، ويُؤدُّوا دَرِيَّتَهم ، ولا يقول لهم : لم تعبدون نَحِيَّةَ الحجارة التي جعلها الله لكم عارا ، وتَدْرُونَ عبادةَ الرَّبِّ الذي خلقكم أطوارا ! هيات ! لقد ذهبت بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم ، فقلتم قولاً تُكْرَهُه العقول ، وتدفعه القلوب ، وتسوِّحش منه النعوس . أَلَا تَسْمَعُونَ إلى قول الله عز وجل : ﴿ قَهْلَ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْحَامَكُمْ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَفْضَلُ مِمَّا أَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ ها كان الشيطان ليرصى للعرب باللعنة والسَّكَمِ والعمى والصمم ، فأثني الله ولا تنك من الحاحدين .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أئنا عُد — صلى الله عليه وسلم — بكلام لم تسمع الآذان بمثله . ولم تقع القلوب على لُغته ، له رَوْقُ حَبَابِ الماء ، وريجُ يَلْوٍ ولا يُعلَّ وعجائب لا تُنَبِّى ولا تُنْفَى ، وجيلَةٌ لا تتغير ، [قالوا] : كان عُد — صلى الله عليه وسلم — أبلغهم قولاً ، وأحسنهم وصفاً . فيا مسحان الله ! ألا يعلمون أن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقرت الأعداءُ من بفصله ، ولا تجرّزت القبائل طُرّاً عن مثله ، وهو يبايديهم في التكلُّب ويتحدّاهم في الوحى ، بصوت ربيع ، ونداء صبيح ، فيقول : هاتُوا سورةً مِنْ مِثْلِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وهم فرسان الكلام ، وإخوان البلاء ، وأبناء الخطب ، وأهل عداوة له ونى

عليه ، قسّم حصر الأصار ، وتثقل الأسماع ، وتنفّذ الألسن ، وتحرّس الخطباء ، وتمجّز البلغاء ، وتبحّر الشعراء ، وتستسلم الكُتّاب . ثم لقد قايسَت البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ، بين ما بأيدينا من كلام النبي — صلى الله عليه وسلم — وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس يشبه له ولا مداد ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك أنه إذا قال المسلمون : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يرى ما بيني أسلافنا وصُلح آبائنا من العجايب العظام ، والآيات الكبار ، ما هو حديدٌ عندنا ، بين قِلما فلم يَفُفْ أثره ، ولم يَدْرُسْ حبره ، ولم يتفادَمْ عهدُه : من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرحمت ، ومن نحو غير تظلم ، وذئب تكلم ، وأشياء لذلك كثيرة ، ونفاثر له غيبة ، قالوا : كان محمد — صلى الله عليه وسلم — كاهنا حاذقا ، وساحرا ماهرا ، يُشَبَّه بالخيال ، ويأخذ بالأصار . كيف والجوع الكثيرة تصدُر من الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة ، شاعا رواء ، أ يكون ذلك والسحر سواء ! والأحد بالعيون لا يجرى في البطون ! ولو كانوا ينظرون لدينهم ويصفون من أصهم ، لعلموا أن أمر الساحر يدور على إهلاك وعُرور ، وأن لمحمد — صلى الله عليه وسلم — آثارا قائمة ، ومافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يُلَفَن مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب ، وعلامت الرسل ، ولَمَتِ الشبهة ، وسقطت المحجة ، وكَدَتِ السؤة ، ولَبَطَل ما كان ^(١) [يفعله] عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمة والأبرص وإحيائه الموتى . فلا يكون التقليد للرحال مبلغ علمك ، ولا القول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك [أنه] إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتأ : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — أميا لا يحسن الكتاب وحافظا لا يسي القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البليغ ، قالوا : كان أخط الناس يدا ، وأذكاهم حفظا ، كان يكتب بالنهار ، ويدرس بالليل .

ولعمرك الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولا أكتسبت الدراسة عليه ، ولما كان يطبق سترها على أهله ، ولا يحجبها دون قومه . وكيف تؤمن القلوب وتقرّ العقول أن رجلا كبيرا حمل علما كثيرا وحججا جماء : من آيات متشابهة ، وسور متوالية ، وهو صاحب أسعار مترامية ، وأخو حرب دائمة ، لا يبطن لفظه ، ولا يسقط حفظه ! لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرّك به لسانه ، وصين له سمعه وقرآنه ، فقال عز وجل : ﴿ سَقِرْتُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ فلم يكن يسقط واو ولا ألها ، ولا ينسى كلمة ولا حرفا . ما أبين هذا وأعجبه ! وأعجب منه المكره .

وأما قولهم في الخط وإثارتهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أميا ليثبت حجته ، وبصدق مقالته ، ولئلا يسكت المطبلون في أمره ، ويقولون : تعلمه من غيره ، فإنه قد قال ذلك طائفة من مآفة العرب وطوائف من كفره العجم ، فطقت [به] الأعداء من حيرته ، والحسدة من عشيرته ، الذين ملغوا [ما ملغوا] من مجادلة حقه ، وعاصمة ربه ، كفاه لمن قرب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم تكن العرب واقعة عليه ، ولا الأمم مهتدية إليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم حبره ، وحفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجا ، ومن سواهم مكتنبا . وقالوا : لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد ، لما خفى عما (٥) ولسقط عليا . وحقا لو كان محمد صلى الله عليه وسلم يختلف إلى أحد صغيرا ، أو يتعلم من بشر كبير ، لعرف ذلك أثره المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من حيرته نصرة ، ولا من معه من أهل بيته ذرية ، الدين عليهم يورد ومن قبلهم يصدر ، ولكان شائعا عند حشم معلمه وجيرة موصعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين طهراتهم . ولو كانوا بذلك عاقلين ، أوفيه من أمره شائبا ، ثم لنهم وتقرّر قبلهم أنه يقول : إن الله عز وجل أوحى إليه ، فيما أنزل من الكتاب عليه : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُ بِمِثْلِكَ إِذَا لَأَرْثَاتَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ خلاصه منهم من كفر ،

(١) في الأصل : « مزاحية » . (٢) في الأصل : « ... ولا يسقط حقه ولولا أن ... الخ » .

(٣) زيادة يعلها الكلام . (٤) في الأصل : « إلا أنهم ... » . (٥) في الأصل « ولا سقط » .

ولكفر به منهم من آمن . ثم يدعى ذلك قرآنا ، ويحتله وحيا ، أما كان يهَبُ أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتعلَّلَ حُجَّتَهُ ، وتقفُضَ دعوته ، وتسقط نبوته ، ويتفرَّ أصحابه الذين لم يقصروا معه في المجاهدة أهنهم ، ويدلُّوا عند الشدائد مُهْجهم ، ويُنفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مُتَّصِينَ لأهل الشرق والمغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مُستضعفون عائلون جائعون ، لا طُلأَ لدنيا ولا طَمَعًا في مال ، إلا لما تَعَقَّبُوا من قوله ، وعَرَفُوا من صدقه . ولولا أنه أحدهم ووعدهم أن يفلت كسرى ويقصر لهم ، فصَدَّقُوا بقوله ، وآمنوا بوعده ، حتى قَوِيَت البصائر ، وصَرُمَت العزائم ، وقويت البيات ، فَنَشِطَت النفوس ، وَتَجَبَّت القلوب ، وحلت الأبدان ، لَمَّا وَقَعَ لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وَهْلُ^(٢) إليه . فكُنْ مَنْ ذَلِكَ على يقين لا يحلِّجه شك ، ومعرفة لا يحلِّطها ريب ، إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من قَمَالٍ محمود ، ولا مقالٍ معروف ، ولا خالق كريم ، ولا أدب فاضل ، إلا وقد أَدَبَ الله عز وجل به محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزله في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ، ويحصى على المحامد ، ويعمل بالمحاسن التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعني ، ولا مَعْلَقٌ لمحبة قائل ، ولا مَفْزَعٌ لبصيرة عائب ، ولا موضعٌ لخصومة بشر ، في وعد أو عهد ، أو حَلٍّ أو عقد ، أو مقال أو فِعال ، أو غير ذلك من الأمور — قالوا : أمور حَمَلَتْ عليها هِسَّة ، ودعاه إليها عقله ، وصبر عليها ، لِمَا أَتَمَلَّ ورجا فيها . سبحان الله ! وما أَتَمَلَّ بها وأرجى منها ؟ إن قالوا : الدنيا ، فلقد أكذبهم إدارته عنها ، حيث أمكنته القدرة منها ، وأعرته الحال عليها . وإن قالوا : حبُّ الأثرة ، فقد جعل نفسه للسلبيين أُسوة : في سبأهم وقصاصهم ، وحدودهم وحقوقهم ، وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : المُلْكُ ، فقد كان أشدَّ الناس لربه تواضعا ، وأعظمهم في جنبه تصاغرا ، ما إن أكل متكأ قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفَرْع لها التاديم عليها ، فقال :

”اللهم إني عبدك ورسولك“ . وإن قالوا : النعم ، من كان أيس منه معاشاً ، وأخشن ريشاً ، وأغلظ ماكلًا ! وكيف يدوق العيش أو يجسد لذيق النعم ، من حرم السكر والخمر ، وهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صاعماً ، وأطول ليله قائماً ! إن قالوا : طلب الصوت ورعب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت وألتباس الحمد لما صبر مفاصب قومه ، وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد المعجم ، وأستهزاء قريش^(١) ، يرمونه بالعقوق ، ويقذفونه بالجنون ، ويبتهنونه بالسحر ، وليس يدري ما يهجم به الأمر .

أم يقولون طلب تائب الملك لقومه ، وأراد توطئة الولاية لأقاربه فكيف يطلب لقومه ما قد زهد به لنفسه ! أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطاهم الذل ثم القتل . لعمري أنه لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوى رحمه ، لو كد لهم عقدًا لا يخل ، ولا ثم لهم أمرًا لا يققص ، ولا نل لهم في عفوان أمره ملكًا لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح أبدًا فيهم ، امتثالاً لصيحتكم وأحداً على مثالكم ، مع أقاويل جمة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا إن عبداً صلى الله عليه وسلم علّب العرب وقهرهم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكتب .

فإن قام إن عبداً صلى الله عليه وسلم كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هفت العلماء وزلت الحكماء وأخطأت القلوب ، فقد يعلم أمير المؤمنين — وأنتم بذلك من العالمين — أن خطأ قلوب العلماء تخطأ دائرة الرضا ، ليست العلماء بخطئة إلا المرة والثنتين ، كما لا تخطئ الرضا إلا الحبة والحنتين . ومثل الذي نسبتم إلى النبي صلى الله عليه وسلم من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصىه أحد ، ولا يبلغه عدد . وأمير المؤمنين وأصف صفة لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين هبوا عبداً صلى الله عليه وسلم كان

(١) الصوت : الذكر الخس كالصيت . (٢) كذا وردت هذه الحقة في الأصل وهي مصطرفة .

(٣) في الأصل : ”ولا يوح ...“ .

في أمر النجوم من المخطئين، فكيف أخطأت العرب وهفت الأمم في ترك محادثته ورفض منازحته، وكيف لم تقل العلماء من إقامه والحكام من حكمهم، توبيخاً منهم له، وتعييراً لم آمن معه : هذا أمر من أوصح الأكاذيب وأطل الأباطيل، فلا يثبت مع قولهم إيماناً، ولا يُقيم على شرحهم إنسان . فإن قلت : فلمل ذلك قد كان، ولكنه درج على طول الأزمان، فكيف إذا صدقت العرب بنبوته، ولم تكفر القبايل برسائه، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدقٌ كان قبله، وما طلاً لا يتعمم معه حقٌ حلت بعده . وإن قلت : أحلهم بالقهر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف، ها مأل القليل من المسلمين الذين قهرهم الكثير من المشركين، ما ملهم أسوا وصدقوا، وصبروا وصابروا، وجدوا وحاهدوا، كيف لم تنكسر عزائمهم، وتبين مصائرهم، ويرجعوا إلى دينهم، ويهروا عن توحيدهم ! كلا ! لو كان الأمر على ما تقول، لأرفض القوم عن الرسول، ولكان صلى الله عليه وسلم أول مقتول أو محلول . فأحس النظر فيما تنهت الأهواء برأيك إليه من آيات الهي صلى الله عليه وسلم . وإن تحمت الدعوى بكم، فقايل : قد مالت به الأهواء في الباطل، فقال : إنه إلا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بيد الحكماء منها ذكرًا في كتبها، جعلت المقص من الكواكب بين الأعرام، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام، ولا ما هذا الاحتلاق يلط به الجاهل للعساق . ما أن وضعت الحكماء ذلك في الكتب، إلا لبالي ملئت السماء من النهب . والله لو آذعتم غير ذلك فكان حقاً، وكانت الغالة منكم صدقا لما كابت الدعوى بأقضية آية الجوم حجة، ولا مدحلة على أحدٍ منها شبهة، لأن رميا يقع قوط السنين من الكواكب، لا يُنظر رجماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن الجوم آية دامغة، وحجة بالغة، ودلالة قاهرة، وعلامة ماهرة، وأمارة طاهرة، وشهادة قاطعة، وبينة عادلة، وداعية قائمة، تُبطل أطانين المشركين، وتردع أقاويل المناقذين، لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعظم أمرها، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها، رهبةً

(١) كذا في الأصل . (٢) في هذا الموضع اضطراب . (٣) في الأصل "دافعة ..."

لما هصه احياء العرب ، ومعرفةً بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب به إليك أمير المؤمنين من أمر الجوم واحتج [به] عليك من ذكر الرجوم ، موقفاً لظن أو متعلماً بظن أو مغمزاً لقول ، لاصبوه اذا بالمجادلة ، وكأشفه المنازعة ، وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له رداً ، ولا يطبق له مجداً ، ولكها آية ملأت الأقطار كثرةً ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول ، وولمّعت القلوب ، وملأت العوس جرحاً ووجعا ، وفرغاً شغلهم عن الأولاد ، وأذهلهم عن السداد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً ، وأحدث لها رصداً ، وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب ، بقوم نوح وعاد ونمود ، وأشباههم من مؤلّى تلك الجود ، الذين كانوا أشدّ بطشاً ، وأكثر جحماً ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وأرسلت أفضمهم متائن عقيدم . وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم ، وأجمعوا به الخروج الى قرااتهم ، قام فيهم رجل منهم ذوسن وعقل فقال :

يامعشر العرب ، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ، ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى ، فإن كانت الجوم التي حدث الرمي بها والجوم التي أحلّتم الأموال لها ، هي لبروج الشمس والقمر ومسالي الحيوان والشجر ، فهي جوائح الاستئصال ، المتلفة الأهيس والأموال ، وإن كانت الجوم التي حدث التذف بها ، إنما هي نجوم خلقت اليوم ، فليست المعرفة واقعية على مبتدأها ، ولا الأبصار لاحقة متهاها ، فامسكوا المقد^(٢) عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كاليان ، وصارت المقالة منه كوفي الآذان ، أنباك أمير المؤمنين أن أوعية العقه من المسلمين ، الذين حلكوا اليأس سنن الدين ، هم

(١) كذا في الأصل . (٢) القند : جمع عقدة وهي الصيغة أو المقارن التي اقتناه صاحب .

أَدْوَا ذَلِكَ الْيَسَاءَ، وَأَقْوَهُ نَعْرًا^(١) .. عَلَيْهَا، هَا إِنْ يَتَّفَكَ مِنْهُمْ مَمْتَحِرٌ يَقُولُ . أَوَا الَّذِي حَسَّ عَلَى الْعَرَبِ الْأَمْوَالَ وَالْعَقْدَ، هَا إِنْ يَدْفَعُ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ مِنَّا أَحَدٌ . هِيَاهُ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تُقَرُّعُ عِنْدَ الْعَارِ ، إِلَّا تَطَوَّلَ هُوَ أَيْنُ فِيهَا مِنْ صَوْرِ الْهَارِ . فَاهَهُمْ مَا كَتَبَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْيَكِ ، وَلَا يَكُنِ التَّعَلُّ فِيهَا بِالشُّبُهَاتِ أَوْثَقَ مَا لَدَيْكَ ، فَإِنَّهُ قَلَّ حُجَّةٌ إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهَا شَبَهَةٌ تَحْتَمِلُ لِلْعَقُولِ ، وَتَعْرِضُ لِلْقُلُوبِ ، وَتَجْعَلُ فِي الْعَبْدِ ، فَلَا يَثْبِتُ مَعَ تَحْيُلِهَا ، وَلَا يُقِيمُ لِمُعْرِضِهَا بَشَرٌ إِلَّا مِنْ وَزَنِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ يَمِيزَانِ عَادِلٌ ، لَا يَمِيلُ إِلَى تَفْسِيرِطٍ ، وَلَا يَحْطُ فِي تَقْصِيرٍ . وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَقُولَ مُوَازِينَ لِلْأُمُورِ ، فَرَوُوا مَا سَمِعْتُمْ مِنْ حَبِيجِ كَلَامِ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا تَعَوُّونَ بِهِ الشَّبَهَةَ عَنِ الْحَقِّ ، وَلَا تُمِيلُوا لِلْسَّانِ ، فَتَحَسَّرُوا الْمِيرَانَ . وَسَيَعْلَلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِمَا جَاءَ عَنَّا دَكَرَ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِ الْجُجُومِ وَالرُّجُومِ وَالشُّبُهَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَالرَّوَاةِ وَالْكِتَابِ ، فَالْطَّعْمُ الْطَرَفِي صَحِيحٌ مَعَايِهِ ، وَنَحْوُ الْهَوَى عَنْ شَبَهٍ مَا وَقَعَتْ فِيهِ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مَعْصَابِينَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاطِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكَوَاكِبِ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَآرِدٍ ﴾ . وَإِنْ شَطَبَ عَنِ الْحَقِّ شَاطِبٌ ، أَوْ دَهَبَ إِلَى الْبَاطِلِ ذَاهِبٌ ، لَا يَعْرِفُ مَدَاهَبَ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وَلَا وَجُوهَ مَعَانِي الْكِتَابِ ، وَلَا تَفْسِيرَ آيِ الْقُرْآنِ ، فَقَالَ : إِنَّمَا جُمِلَتْ الْكَوَاكِبُ وَالْمَصَابِيحُ حَقًّا مِنْ أَفْهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدينِ .

فَإِنْ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ مَا فِيهِ بَيَانٌ مِمَّا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ الَّتِي لَا يَبْنِي عَلَيْهَا ، وَيَكْتُبُ مَقَاتِلَهُ الَّتِي لَا شُكَّ فِيهَا ، فَقَالَتِ الْجَنُّ — جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلَهَا وَحْيًا — وَبِهِ مِمَّا صَدَقَ : ﴿ وَأَنَا لَسَمَاءٌ فَوْحَدَنَاهَا مُلْكٌ حَرَمًا شَدِيدًا وَثَنًا ﴾ . أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهَا كَانَتْ الْجَنُّ لَمَسَتْ السَّمَاءَ فَلَمْ تَجِدْهَا مُلْكٌ حَرَمًا شَدِيدًا وَثَنًا ، وَقَعَدَتْ الشَّيَاطِينُ مِمَّا مَقَاعِدُ لِلْسَّمْعِ

(١) يَأْسُ بِالْأَصْلِ بِمَقْدَارِ كَلِمَةٍ . (٢) فِي الْأَصْلِ « مِنْ شَبَهَةِ إِنَّمَا أَخْ » .

فلم نجد شهباً ولا رصداً، أو لا يسمعون إلى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه وينبئه له من قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَتَوَلَّى الشَّيَاطِينُ تَتَوَلَّىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَفْزَعٍ أُنِيمُ بِقُوْنِ السَّمْعِ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ مع قول الجن أيام حُرست السماء ورُميت الشياطين : ﴿ وَأَنَا لَا نَذَرِي أَشْرَ أُرِيدُ مِمَّنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فاذا أعملتم في ذلك فكركم ، وقلتم فيه نظركم ، فكنتم على رهان يقين ، ونور مستبين ، من استطاعة الجن للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستمراق ، وإمكان السماء للقيود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومُنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وأمنت السماء أن يصعد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَوَلَّىٰ بِهِ الشَّيَاطِينُ وَمَا يَبْغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ أُنِيمُ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ . قَالَتِ الْجِنُّ : ﴿ وَأَنَا كُنَّا قَعْدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَكَيْفَ يَسْتَمِيعُ الْآنَ يَحْدُ لَهُ شَهَابٌ رَصْدًا ﴾ إن في قولهم الآن لأعظم نور وبيان . وأين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، إخبار الله عز وجل حين جعلت الكواكب حِفْظًا من كل شيطان مارد ، أنهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُسْفَهُونَ مِنْ كُلِّ مَفْزَعٍ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ مع إخباره في الحال الأولى أنهم يسمعون ويقعدون ويفزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان ، فكان لهذا من الحافظين ، وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بمجوعها ، وتذاعت القادة من صناديد الكفر باتباعها حذرًا على غير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام ، فكانت العير والغير طائفتين : طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رخيصة ورجال قليلة وفرصة ممكنة ، أخرج الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما ، فكريه المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله عز وجل أن يقطع دابر الكافرين ، ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراعت الفتنان ، وتناوشت القرمان ، وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل :

(سَيَسْأَلُكُمْ الْجَنَّةُ وَيُؤَلِّقُ الدُّبُرَ) قبض النبي صلى الله عليه وسلم قبضة [من تراب] حثاها في وجوههم ، فلم يناء دون ماخرهم وعبونهم ، فاصروا منهزمين ملا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب ، ما يُثَمُّ آية أعظم حجة وأصح بينة وأقهر ظبئة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لاهضت الخوع من المسلمين كفارا بها . أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نكير المشركين ، التي نعمت الأمور عليها ، وتاهت الحال بهم اليها . أم قبضة من تراب يسير ، ما ملأ الماخر من عدد كثير .

فلن قلم : إن هذه آيات بينات ، وعلامات وصحات ، ولكل [لا] بقدر لكم بها ولا فمن بقولكم فيها .

أنتؤمنون أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع ما نسبتموه من الفضل اليه ، كان يختلقها كذا من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها حيا من عند ربه ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كدبه ، ويرقص تبته . وإن ترجم أن أصحابه كانوا كثيرا أقوياء ، يساطا جلداء ، فكان على معرفه بقوتهم ويقين من طبتهم ؛ فقد قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ يُبَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ مَدًّا مَا تَنِي كَاثِمًا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَرْجُونَ ﴾ . ولم يكن الرسول ولا غيره ليُخبر أصحابه من أمورهم بما يجهلون من أعينهم ، ثم يدعي ذلك تعريلا من ربه . هذا لا تقبله الآراء ، ولا تحقر به الحكاه ، ولا يحذه النظر .

أم تقولون : إنما أراد محمد صلى الله عليه وسلم بشارته لهم وإخباره ما أخبرهم من هزيمة الله صلواتهم ، أن ينسج جبنهم ويقوى صممهم ، فكيف اذا لم يبق لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم ، وصعف المسلمين وقتهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ، وأن محال الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ، ويقطع حجة ، ويكون له ما بعده ! وكيف اذا لم ينسب الأمر الى نفسه ويحجى الخبر عن ربه ، ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره . ولكنه أثبت في كتاب

(١) في الأصل « ويرى أن أصحابه .. » والكلام عليه غير واضح . (٢) هكذا في الأصل .

مسطور، ورق مشور . يصلُّ لمعراقه يدلُّ على النبوة التي كان بها واتقا، ويهدى الى الوحي الذي كان اليه سائكا .

وإن عَرَضَ لَطَرْكَ، أو وقع في حَلَدِكَ، أن الله عز وجل حوَّد محمدًا صلى الله عليه وسلم الفَلَّةَ وأحراه على المَنَّةِ ، فكان يجرى على عَادَةٍ قد عَرَفَهَا ، ويسلُّك حَادَّةً قد خَرَهَا ؛ فلقد كانت الهزيمة في أوَّلِ وَقْعَةٍ أوقعتها الله ، ثم لقد دالت الحربُ فيا مُدَّ^(١) سَحَالًا فيا بينه وبينهم : تَارَةً عليه لهم ، وأخرى له عليهم . فاصْحَوْا الله عز وجل في نَعَطِكُمْ ، وقلِّبُوا فيا يقول أمير المؤمنين فكرم . فلعنَّ الله ما كان الهي صلى الله عليه وسلم يقول للملوك المشركين : إن الله هَزَمَكُمْ بِرَبِّيَّةٍ من راب وهو يعلم أنه عدده من الكاديين . فأحصر كتابي هذا فهَمَكْ ، وأصِرْ له وإن حَصَمَكْ ، فإن هذه آية عظيمة ، وحجة طيبة ، وبينة عجيبة ، في عِلَّةِ العرب .

وأعجب من هذه والطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في عِلَّةِ العجم . وأسْتَعِجْ : أَمَرَ الله نَبِيَّه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول للمؤمنين - وكأوا كما قال الله عز وجل قليلا مستضعفين - : إن قاتل العرب ستَحَزَبَ عليكم ، وإن الله سيبزِمُهُم لَكُمْ ، وحيًا أنزله في الكتاب ، فقال : ﴿ جُئِدُ مَا هَالِكٌ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴾ ، فكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الخسوف وخندق القهر ونذل الحصر ، سوادهم الأحم وحلُّهم الأعظم حُفَاهُ عُرَاةُ عَالَةٍ ، إخوان دير ، وأصحاب وَبَرٍ ، لا قُوَّةَ بِهِمْ ، ولا مَنَّةَ لَهُمْ ، ولا أَسْلَحَةَ عَدُوِّهِمْ ، ولا عِلَّةَ مَعَهُمْ ، قد أحْدَقَتِ العربُ بِعَسْكَرِهِمْ وأحاطتِ القبائلُ بِجَنْدِهِمْ ، وسالت الأحرابُ تصديقًا لحَمِّ الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدَامَهُمْ وتُهْرِيقَ دِمَاعَهُمْ ؛ فكان المؤمنون كما وصف الله عز وجل من سوء الحال ، وضيق المال ، وشدة الْكِفَاطِ^(٢) ، فإن الله قد وصف لهم حالهم ، وأذكرهم فعلهم ؛ ولم يكن الهي صلى الله عليه وسلم ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليزكرهم من أمره ما لا يعرفون ؛ حِدَارًا أن تنكسر

(١) في الأصل . "فيما مد..." . (٢) الكِفَاطُ . التيب والشدة .

عنائهم وتغير بصائرهم ، فنهزم أعدائهم وتموت بحمدتهم ، وتختلف كلمتهم ؛ فقال الله عز وجل : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ هَوْكُمٍ وَمِنْ أَنْفَلٍ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَطَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَايِرُ وَتَطْمَئِنُّ بِاللَّهِ الطُّغَمَاءُ . هَذَا لِكِ ابْتِلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَزُلْزَلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : ﴿ يَأْهَلُ يَقْرَبْ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَأَرْجِعُوا ﴾ وقالت طائفة أخرى : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة ، فأذن لنا . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . فبإيهاهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بغرقهم في الحال ، وتقسيمهم بالفتح ، وأحنيهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيما ينهئهم به من علم الغيوب ، وينبئهم به من أمر الفُتوح : " إن الله سيصرِّكم على جمع الروم ويغلب لكم جود فارس فينهزم لكم حدودهم ويؤرتكم قصورهم ويستحلفكم في الأرض من بعدهم ويدلِّكم من صد حوقم أمنا " . وعدنا صدقه الكتاب ، وإشارة على بها الوحى ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ مَدَدٍ خِيفِهِمْ أَمَّا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ . فقال أقوام وأما آرتابوا حين تصابقت الحال ، وتزلزلت الأقدام ، وطارت القلوب ، ودارت العيون ، وأشراف الموت : مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا عُرُورًا أَبْعَدْنَا هَزِيمَةَ جُوعِ الْأَحْرَابِ ، وَتَفَعَ قُصُورِ الشَّامِ ، وَعَلَّةَ جُودِ كَسْرَى ، وَقَدْ سَالَتِ الْقَسَائِلُ عَلَيَا مِنْ كُلِّ حَاسٍ ، وَأَحْدَقَ الْمَوْتُ بَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، ففينا في مَسْعَةٍ مِنْ الْجُوعِ ، وَتَجَهَّدَ مِنْ الْخُوفِ ، وَصَلَّيْكَ مِنَ الْحَالِ ، مَقْهُورِينَ مَقْمُوعِينَ . وقالت الحاصة من المؤمنين حين عاينوا الجوع من المشركين ، ودكروا ما حبرهم الله من تحزيبهم عليهم ومسيرهم اليهم : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . فبينا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مصابق تلك الحال ، وشدة ذلك الخصال ، وعموم تلك البلايا الباهظة ، والأمور العادحة ، التى قد أخذ بأهاهم عظمها ، وطلع

محمودهم كربها ، راضين الى الله عز وجل أيديهم ، يقبلون في السماء أعينهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجملوع العظيمة والأحزاب المقتدرة ، ريحاً من الأرض وحوداً من السماء ، فقطعت الأبنية ، وطيرت الأمتعة ، وسفت التراب في العيون ، وقذفت الرعب في القلوب ، فولوا مذبرين ، ونرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد . أمر صديق الله فيه قوله ، وأنجز به وعده ، وهزم الأحراب وحده ، ودكر المؤمنين سمته فيهم ، وعرفهم منته بهم ، فقال : ﴿ أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تزوها وكان الله مآباً لآلئكم نصيراً إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأنصار ولفيت القلوب الحارث وتقلون بالله الفتونا ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْلِهِمْ لَمْ يَأْتُوا حِيراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ﴾ . ما كان الله عز وجل ليقص على المسلمين في أنفسهم ، إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا أن هذا ما لا يكره عقلك ولا يدغمه طورك ، لما حادتك بالكذب ، ولا مازعتك بالتريل . وإني لأترك من آيات النبي صلى الله عليه وسلم وعلاوات الوحي ، ما هو أعظم من هذا وأيسر وأجل وأوضح . ولكي ليس لي أن أحاك من آيات القرآن ، إلا بما عليه شاهد من برهان ، ومحرر من بيان . لا يستطيع عقلك رداً له ولا قلبك بجهلاً له . وكيف ينسب لسانك أو يحرث قلبك أن يقول : إن هذا صلى الله عليه وسلم أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون ! لا ! ما يسوع لك ولا يميل لك ، ولا يقبل منك أن هذا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه ، وتتقل أحواله ، وتتقص أموره ! لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بعقل ولا ينسب إلى عقل ، لما كان سائلاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من رجع عن الناس قدره ، ويعصل عليهم عقله ! وتحرأك لم ترى الدنيا أحداً صنع [ما صنع] وطلع ما بلغ ! فإيتنا آية فيما اقص عليك أمير المؤمنين أعظم أو بنية اعجب : أما كان يتل على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحراب بمحود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين

كثيرة ، أم ما كان يُتَّادَى به القرآن من الهزيمة لم يَستطع به الوحي من الفتح عليهم ،
 أم قول النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ” إِنْ أَفْعَزَ وَجَلَّ يُؤْمِنُ حَوْفَكُمْ وَيُعَزِّزُ صَرْحَكُمْ
 عَلَى الْأَمْرِ “ وهو على تلك الحال ثم تَحَمَّتْ الْأُمُورُ عَلَى مَا قَالَ ، أم عسكران مطافقان وحيشان
 متقابلان ، باتت الريح تحوس أحدهما حتى انهزموا ، وبات الآخرون منها في طافية وعقلة
 حتى أصبحوا ؟ فاحسن الطرقي أمرك ، والتثبت في دينك إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وأعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات ، على نوبة عهد صلى الله عليه وسلم وحقه ،
 وأن ليس يتقوَّل شيئاً من تلقاء نفسه ، أنه قال في عُصْوَانِ أَمْرِهِ : ” إِنْ أَفْعَزَ وَجَلَّ
 سَبْطُهُمْ دِيْبِي عَلَى الدَّيْرِ كُلِّهِ “ وجاء مع ذلك بأثره عن ربه ، في كتابٍ معطوط وتنزيل
 معفوظ . فإِذَا أَمْرُهُ لَكَ أَدْلُّ ، أو أَيْهَمَا عِنْدَكَ أَعْجَب ، إذ كنت بنوته مصدقاً ، ولرسالته
 محققاً : الخبر الذي أحبره ، أم العمل الذي صدَّقه ؟ لئن بطرت عقلك وقلت في نفسك :
 كَيْفَ تَرَقَّيْتُ إِلَى هَذَا نَبِيٍّ وَأَرْتَمَعْتُ بِحَوْضِهِ هَيْهَتَهُ ، أَمْ كَيْفَ أَمْتَدْتُ إِلَيْهِ لِيُطِنِّي وَيُقَوِّمَ عَلَيَّ
 رُبُوبِيَّتَهُ ؟ بل كيف دَعَا إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ ، وشجَّعَهُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ ، ودخل فيه طَمَعُهُ ، وطاوعه فيه
 لِسَانُهُ ، وهو يذكر حدود كسرى ، وجموع الروم ، وملوك البرك ، وملوك الشرك ، وقُيُُُولَ
 الْيَمَنِ ، وصاديد الأئمِّ ؟ إِنْ هَذَا لَعَجَبٌ ، ولا سيما إذا لم يكن في إِرْثِ مُلْكٍ قَاهِرٍ ، ولا كَيْفَ
 عَزَّ غَالِبٍ ، ولا مَعِيْدٍ عِلْمٍ سَالِفٍ .

ولئن أعدت الطر وكررت ، فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدَّقَ مَلَأُهُ قَوْلَهُ ،
 حتى عَلَبَ الشَّرْقَ والغربَ ! إِنْ هَذَا الْعَجَبُ ! وأعجب من هذا أمرُ يَدْلِكُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ،
 ويهدبك إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِلَيْهِ : لَوْ قُلْتَ لِأَهْلِ مَمْلَكَتِكَ وَمِنْ قِلَّتِكَ مِنْ أَمْتِكَ : هَلْ نَعْمُكُمْ أَوْ تَقْزُرُ
 قِلَّتَكُمْ ، أَمْ كَانَ فِي الدَّهْرِ الْأَوَّلِ ، والمعمر الخالقي ، أحد مثل عهد - صلى الله عليه وسلم -
 بدأتِ الْأُمُورُ بِهِ مِثْلَ حَالِهِ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالصُّمْفِ وَالذَّلَّةِ وَالْقِلَّةِ ، وَصَدَرَتْ الْحُلُومُ بِهِ كَعَمَالِهِ
 فِي الْفَلَّةِ وَالْمُدْمَةِ ، والقهر والظهور ، وصير ذلك ؟ فقالوا لا .

(١) في الأصل « أما كان » . (٢) تحوس أحدهما تمناه وتنيه . وفي الأصل
 « تحوس ... » بالنون المعجمة وهو تحرج . (٣) في الأصل : « ماى أمر ذلك » .

ثم أت لا تؤمن بمقالاته، ولا تحتر برسالته، إلما لببك، وضاً بملكك، وطعماً في قليل من الدنيا قد معاه الله اليك، ورغة في ضبابة عيش غير باقية في يدك، فهذا تحب . وأعجب من هذا أمر يقفك أمير المؤمنين على بورحقه، ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره : أصبحت العرب طراً والأئم جميعاً في عهد صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا رابع لهم ولا تحرج للحق من بينهم : رجل مصدق به من المؤمنين، ورجل مكذب به من الكافرين، ورجل شاك فيه من المذاهب .

فأما الشاك فلما قيل له : أنحرت نفسك من الحق، وأبرأتها من الصواب، وأقررت عليها ماخطأ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب، ولست على واحد منهما، اعترل عنها .

وأما المكذب فلما قيل له : أت مسكر والمسكر ليس بمذبح، ومن لم يدع لم يلزمه بنية ولا يسأل عن حجة، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك، لو سئل هذا المدعى عن بيئته وكشيف محنته، فقبل له : من أين عرفت قلبك، وأيهت مسك إيقاناً لا يحالجه شك، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا يازعها شبهة، أن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس برسول، لما درى ما يقول، لأنه لا يستطيع أن يقول على الرسل، ولا أن يتكذب على الكتب، فيقول : قد أحر الله فيها أنه لا يسمت نبياً، ولا ينزل وحياً في كتاب مسطور، بعد التوراة والإنجيل والربور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخاير كتبههم، أن الله تارك وتعالى ينزل كتاباً حديداً أو كلاماً حديثاً، بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان، ولم ينزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم فقبل له . أما أنت فقد أذيت، والمدعى يسأل عن الجهة ويقبل منه الثقة، فما بينك ومن يشهد لك ؟ قال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا، ولا بد أن يكون مع مصتنا ؟ قالوا بلى ! قال : فآية بينة أحق وأعدل، وأي شهود أذكى وأفصل من شهادتكم بسقوط صاحبي وثبوت

الحق من مدهما في يَدَيَّ^١ قالوا : إن الأمرَ لكّا تقول ، ولكن البينة أشقى للصدور ، فأقام بيّنة من الكتاب ، وشهوداً من الوحى ، وآيات سوى ذلك عظيماً ، وبيّنات عوامّ ، من كلام لا يقدر عليه الخلق ، وصديق لا يكون إلا من قبل الرب ، شهيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم ، وكتبَ به فى صدر كتابه هذا اليكم ، مما قد تشهد له قلوب الأمم ، ويزجّه صالّ العرب .

فلما أقام بيّته ، وثبت حجته ، وجب حقه ، وقضى به له ، قيل له : وكيف توسعت الأمور عليك ، وضاعت المقالة لك ، أن تقول : إن الله لا يبعث نبيا بعد محمد — صلى الله عليه وسلم — ولا وحيا يزل غير القرآن ، فأطلت الكتب المحدثّة ، وأكذبت الوثيقة ، ولم تترك وحيا غير القرآن ، ولم يحز للصارى أن تقول : لا نبى بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب حلف الإنجيل ، وعن ذلك من أواخر الكتب ما قلنا كل متنبئ بعد نبيا كذاب ، فشاعت وحازت الحقّة ، ووضح العذر . وأما الصارى فيحدثون فى أواخر كتبهم ، وأقاويل رسلهم ، أن الله عز وجل ، يبعث نبيا حديثا ، ويزل كتابا حديدا ، فليس لهم أن يكذبوا نبيا — صلى الله عليه وسلم — ولا أن يرقوا كتابا .

فهؤلاء الثلاثة . أما الشاك فسقط ، وأما المنكر ففعل ، وأما المصنق فثبت شوتا ليس فيه مدخل شبهة ، ولا موضع لجة ، ولا معلق لمازعة . وذلك أن المكر لوجوب حقه ، والشاك فى ثبوت صدقه ، لا يجد بدا من أن يُنحى المصدق عن الخلق ، ويميل الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين برهم ، الشاكين فى شتم ، فأحسن النظر فى معانيه ينكشف لك عما فيه ، إن شاء الله .

ومن آيين آياته وأدلّ علاماته — صلى الله عليه وسلم — ووسع له فيما صدر اليه : أنه لما أحبرت النصرارى واليهود أنهم لم يجدوا محمداً — صلى الله عليه وسلم — فى التوراة والانجيل موصوفاً مكتوباً ، تجمعت العلماء منهم ، وتدارست الكتب فى بينهم ، فلما نظروا

(١) فى هذه الجملة محوص لم يوفق الى كشف سنه وان كان المراد بها واحدا .

إلى اسمه وطأته بنفته ، وكأوا يعرفونه كما يعرفون آبائهم . ويستفتحون بذكره على من سواهم ، [كفرت] طائفة حسداً من عد انفسها ، ويحدثا من مد ما تين لها ، وآمنت طائفة ، تصديقاً بكتباها ، وخوفاً من ربها .

فلعمرك الله لو [لا] أن الدين آموا بحقه وصدقوا بأمره ، رأوا صفته عياناً ، وقيلوا بته إيقاناً ، لما فارقوا أديانهم ، ولا حادوا إخوانهم ، حتى وقعوم على اسمه ونسبه ، وصفته وعلامته ، وهم علماء بني إسرائيل ، وحمله الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب ، فقال عز وجل . ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ . ولعمرك الله إنها آية عظيمة ، وحجة بليغة ، ذكرها الله في كتابه ، وحملها على العرب من بنيانه ، فقال لهم : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْآذَانِ حُجَّةً وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا رَبَّاً إِنْ كَانِ وَعَدَ رَبُّنَا لِمَعْمُولاً ﴾ . يقولون : وعدنا أن يرسل رسولا ، فقد أرسله ، وحقق قوله ، وصدق وعده . واحتج النبي صلى الله عليه وسلم بذلك وذكره . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليُجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن يقول للنصارى واليهود ، فيما ذكر الله من صدق الموعود : إنه في التوراة والإنجيل مكتوب موجود ، إلا وهو من ذلك على حق يقين ، وبور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والإنجيل بكذب ، ويقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في متابى كتبهم ، ونمى على أفواه رسلهم ، فلم يحدوا حرمه يقينا ، ولا وصفه مستقيا ، أنهم سيُدبرون عنه إدارا ، تزداد به العرب غفارا ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواء من حبره ، فكيف لم يحط إذا في كتبهم حروا حبره ، ولم يخالف منها شيئا سواه ، سبحانه الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم ، فأتهم إن تنكروا ما يقولون لكم ، مما ليس لدى لب أن يادن له أن يؤمن به ، ولا أن يبدي إليه

(١١) سمعه ، يقولون : إن أنبياء الله ورسله ، المبعوثين بالرحمة الى خلقه ، لطفنت النوة منهم ، ووقعت الأخبار المتتلة عليهم ، على صفائر الأمور ، وغوامض الخطوب ، فسار الناس عليها ، وأشاروا لهم الى طلبها ، هي مكررة في مثنى كتبهم ، وبطون مصهم ، وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله الشأ العظيم ، والأمر الكبير ، والدكر الحكيم ، الذي ملك آفاق الأرضين ، واستفاض على جميع العالمين ، لم يذكره غير يأمرون به ، ولا بشر يقيمون عنه ؛ كلا ! ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصّف تبارك وتعالى نفسه ، إنه لأرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين .

ولئن رحمت الى نفسك ، لتقولن في نفسك : لعمرك لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس ، وأمتد أمتداد النهار فلح مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحرونها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به ، وتبأت الرسل عليه ، ودعت النذر اليه ، تربينا له وترعينا فيه ، وأمرنا به . ولو كان صلاحه وجهالة وعمايه ، لتقدموا في التحذير منه ، والترهيد فيه ، والتنبيط عنه ، فیدعو ذلك الى أن تنظروا الى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فأيُّ الله لئن طلعت لتحدن ، ولئن آتت لتتوقن . وما الصواب بمسوح ، ولا الخير في طور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تحده ، ولكنها كانت تكتمه تحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم الى أشباهه ، حسداً من عد أنفسهم وغيّاً صد ما تبين لهم . ثم لقد آتتكم بهم وحرّيتهم معهم وأخذتم عنهم ، بلا حجة لكم ، ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالأداء والانتفاع للاستار . فأتيت الله في نفسك ، وأنتهم الرجال على دينك ، ولا تحمّل النظر الى عيرك من دوى الشك في القلوب ، والعسح في . وأنتهم في التعطيل ، الذين لهملهم يعرض لأرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ، ويقرّع لكم من جميع الوحي شيء يريد

(١) حكاه في الأصل . (٢) في الأصل «أد بطروا...» بـاء الغيبة . (٣) كذا في الأصل .

وظاهر أن كلمة صد «في» سقطت من النسخ سبوا .

في المصاحف بعد التي صلى الله عليه وسلم . وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوى ،
وذلك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة ، وشعوب وقبائل متفرقة ،
ليس يدعهم الى ماشهدوا دين^(١) ، ولا يحلهم على ما اتفقوا عليه دينا ، لا يستقيم له أن يؤمن
بما لم تذكره حوارجه وتُحيط به حواسه ؛ لإسقاطه حجة الإجماع وإطالة شهادة العوام .
وأتفأق المختلس دلالة واضحة . فهو سائلكم عن المحجة في الإنجيل واليه على التوراه ، شكّا
في الرب وتكدياً بالرسل ، فما كنت قائلة له أو يُحجيه به في كتابكم ، فأحجّه بمثله في كتابنا وإن
كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا مؤلفة ولا مرتققة ولا واحدة ، تعتدل حالاهما ،
ويتفق أمرهما ، من كانكم ما لم تنزل به الملائكة وحيا كالقرآن ، ولم يشاهه المسيح به
أصحابه باللسان ، إنما كان معلّا أثنت من بعده ، ولم يكن الفعال موصوعا بعده . وليس^(٢)
يكتب أمير المؤمنين بهذا اليكم شكّا فيه ، ولا يورده طليكم صرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كُتبت الله عمر وجل معموظه ، وأن تُحمّنه محرونة ، لا يُزاد
فيها على تقادم عهد ، ولا يُتقص منها على تقارب دهر ، وأن ذلك ثبت في الإنجيل من
بعد صبيى عليه السلام ، وأنه قال لمن أجمع اليه من الحواريين : ”الوحى أكلّمكم ،
والأمثال أصرت لكم“ . فأمثاله المصروبة كلام ، وكلامه الرائع وحى . ولكن ما مأل الشك
يُنقى عن كتابكم ، بحجة الاحتجاج عليه عندكم ، وهو على ما وصّف أمير المؤمنين لكم ،
وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة ديه ، إما ما قرأ من عهد ومعاينة وحيه
وأحتجاج على حفظه ، هذا حكم مختلف .

فقبل للدير يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي^(٣)
تعرفون ووعوها بطبقات الرجال الذين يهتمون .

إن قالوا : أننا طبقات الرجال الثابنين ، وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك
ما لا يسوع الأقاويل فيه ، ولا تدحل الشبهة عليه ، لا انتشار القرآن وأمداد الزمان ،

(١) في الأصل . ”لا يستقيم له أن يؤمن له بما“ . ريادة ”له“ . وهي ثقة في موصعها طلعها
ريدت من الناصح . (٢) في هذا الموضع اضطراب في الكلمات ، والمراد واضح . (٣) كذا في الأصل .

وكثرة الحملة لآياته فيهم، والحققة للسانه منهم، ولكن الدين الذي نزل به القرآن، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم. وكيف يوقع تهمة أو دخول شبهة، على أقوام [لبث] البى صلى الله عليه وسلم عشرين حجة فهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم، حتى يحملوه في صدورهم، وحيطوه في قلوبهم، وكرروا آذانهم مسموعا، وأمرت على أبصارهم مكتوبا، وحرى على ألسنتهم متلوا. وجمعه كثير منهم معموطا، ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم، حتى أدوه اليا، وأوهوا به عدما، من مواضع متعاطاة، وأصناف وأحناس متبايه، على كلمة واحدة ! .

إن قالوا : اتفقت الرجال على الريادة فيه وأمكت الحال من الحمل عليه، فليعلموا أن المؤمنين المخاضين ليسوا في الريادة متهمين، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين . وكيف يقدر القليل من المنافقين على محالفة الجمع من المؤمنين، بعد ما حَفِظَتْهُ قلوبهم، ووعته أسماعهم، ثم تُنَكَّمُ القدرة لهم وتُسْتَرِ الريادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق، ولا يطيقه مُشْرِك ولا فاسق . وأيم الله أن لو قَدَرَتِ اليهود على الريادة في الإنجيل، لأفسدوا كتابكم وضيروا دينكم، ولو جعل الله المنافقين على الريادة في كتابه قادرين، لبَدَّلُوا ديننا وضيروا حالنا . ولو كانوا لذلك مُقَرِّنين وعلى ذلك مقتدرين، لكان الذي كَتَبَ به أمير المؤمنين اليكم، وأورده من حجج الله عليكم، أولى ما تلقون، ورأس ما تقرعون. فلا تُقَيِّمُوا إلى ما قاله [المصل] سمعك، ولا تُصَيِّبِ الدهر^(١) إليه دهك، فإنه أتمد الشك في كتابنا ذريعة إلى الإحلال بكتابك، وسُلَّمًا إلى الشك في دينك وعلَّة في الطعن على ملكك، ولكن قل يا أولي الشيطان : أتى وقع لك إيمان بآل من ولد فلان ؟ أنقول . شهدت الحيرة، واجتمعت العشيبة، وآتقى المختلقون، فذهب الشك، وزال الريب، ووقع الإيقان، من غير الميان^(٢) صدقت . فما بال الشك فيما اجتمعت العاطة على القول به، وآتقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبيانات الرسل ! وإن ذهب هذا عن أمره، وباعده

(١) في الأصل "في ديه ... " . (٢) كذا بالأصل .

عن شبهه ، فتؤم أنه من طعة خلق ، ومن رَجِمَ نَجْرَج ، فإن مجدوا بي ألا يؤمن بما لا يرى ، قل : أرايت لو كنت سميماً أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء ، أو بحر أو سح ، أو أرض أو حبل ، أو شبه ذلك مما لم يدركه البياض ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم ، فقل . فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فأتيت الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك ، لا تذهبهم إلى السار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من آيات الوحي ، وأدلى علامات النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور من بدى ربه . والله أظهر مما أرل من الكتاب أموراً كان يحسبها صلى الله عليه وسلم مستورة ، فقال تأدياً له ، وإحاراً لمن آمن من بعده : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنعَمَ عَلَيْهِ أَمْسِكَ عَلَيْكَ رَوْحَكَ وَأَتَّبِعِ اللَّهَ وَتُحْيِي فِي مَسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُحْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقال . ﴿ مَسَّ وَتَوَلَّى أَنَّهُ حَامَهُ الْآخِمْ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَدْكُرُ مَنَظَرَهُ الدُّنْيَا أَمَّا مَنِ اسْتَمَعِيَ فَأَنَّهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكِي وَأَمَّا مَنْ حَامَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَحْشَى فَأَنَّهُ عَنَهُ تَلْهَى كُلًّا لَهَا تَذَكَّرُهُ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا أَن تَشْبَنَّاكَ لَقَدْ كُنْتَ تَرْكِي إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا بُصِيرًا . ﴾ وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها ، وأيسست النعوس بها : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مَّعَدَ الْبَدَى حَامَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يَصِيحُ ﴾ . وكانت القلة التي صرته الله إليها وأمره بها عظيمة على الماسقين والهمة بخلاف الكافرين ، كثيرة^(١) إلا على الدين هدى الله من المؤمنين ، وإسهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان واختلفت الجهتان ، كلت الطاعة فيهما واحده لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها . وكيف تختلف الطاعة من رجل يتبع بأمر الله عز وجل ثم هدم بوحى الله .

(١) كذا في الأصل (٢) في الأصل . "لم آمن من بعده إذ يقول " وظاهر أن كلمة

" إذ يقول " غير مفيدة ها . طلعها ريدت مهوا من الناح . (٣) في الأصل " كثيرة ... " .

فإن قلت : إن الله حوّله من أفضل القلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل
التي والخير السرّ : قبله سلط الله عليها الكافرين ولم يمنحها من الظالمين ، وقبله تمنحها محنود
من صده ، وعصمتها بعير ما حوّل من حقه ولا حرمه بذعها أحد من فيها ؛ فأرسل طيراً
أمايل تزي الأعداء محاربه من مجيل ، لمعلمهم كعصيف ما كول . فإن قل : هذا خبر
سكروه ، وقول لا يعرفه ، فبأي حديث مدّ هذا تؤمن ، وتشهد لله عز وجل أنه من قبيله ،
وأتم تعلمون أنه أنزل الله عز وجل سورة العيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمدا صلى الله عليه وسلم خبرهم بما عابوه وأدركوا حلاه ، قل :
إله أراد أن يرفقهم به ويوحشهم منه ، وأحب أن يرموه بالكذب ، ويقدموه بالحق ،
ويصمونه بالحن ، ويطنون به الظنون . كلا ! ما كان نبي ولا نبي ليحاهد أقواما بخلاف
ما رأت أنصارهم وشاهدت آثؤهم ، فيخبرهم بخلاف ما شهدوا ، وتكذيب ما عاينوا . فلا
تكون في هذا من المتريين ، ولا مامر العيل من المكذّبين .

فلمعمر الله لو كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم ما تلحد أنت وقومك إليه
لما قام معه رحلان ولا اختلف فيه سيمان . وإن فيما صغ الله عز وجل بالعيل
وأتباعه ، دلالة على صلة الله وأنبائه . فأتق الله ! فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي
صلى الله عليه وسلم وكشّف الأعطية لك عن الثور آيات الوحي . فإن مالت الأهواء
بك ، وعلت الأسافعة عليك ، وحصرك الرؤساء الذين يحلون مع الله ألفة أخرى بلا حجة
صدم ، ولا سلطان أتاها فقل : أبؤى عما آحتمت عليه النصراية ودهست إليه بهم
المعاني من تشقيق الكلام وتعريف الكتب : أحروف تتسهنونها ، أم أمة تعرفونها ؟
فإن قالوا : إنهم خير لفية يتكلمون ، فهم إذا قوم يلعون . وإن قالوا : إنهم يتكلمون
بلغة معروفة ومعاني معلومة ، فقل : أحبروني عن قولكم : أب وآن ، هما ما تعترف
العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا ، ليس ذلك بالذي

تذهب أوهام العباد إليه ، ولا بالذى تقع الحقائق فى الآء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل فى التوراء لإسرائيل - "كزى" لا يبنى ولادته الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : "أنتم إحقى" لا يبنى أحوه الدس . فذلك قول لا يحدون معه بدأ من أن يسبوا عيسى عليه السلام عداء . وإن قالوا : بل هو ما تجرى به ألس العباد ، ويقع فى قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأوة المعلومه ، طيعبروا متى كان الأب والدا ، والأبن مولودا : أقبل الولادة أم بعدها ؟ إن قالوا : قلها ، رجعوا عن القول الأول بثبت الأوة . إلا أن ذلك ليس بالشئ الذى تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذى يقع فى قلوب الأمام .

ولا بد اذا سقطت الولادة المعروفة وظلت الأوة الموجودة ، أن يقولوا : إن الأب والأبن آسمان طقا على غير معنى ، وتساى أصيما الى غير حق ، فيقزون أن عيسى عليه السلام حلق مثلهم ، وأنهم يتكلمون ميرلغه أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الأبن مولودا والأب والدا بعد الولادة ، فقد أقروا بأن الأب حدث مخلوق وعد مررب ، لقولهم إنه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خلق . وقل لمن يقول الزور العظيم ، ويقف بالإمك المين : أليس الأب أما على حياله ولم يزل ، والأبن أبأ تحل ، وروح القدس كذلك ؟ إن قالوا . نعم ، فقد أقروا بأنهم ثلاثة متباية ، وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم . لهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا : الأب والأبن وروح القدس واحد ، ولكن مصه أب ومصه ابن ومصه روح القدس ، فقد دخلوا فى التحديد الذى هو عيب عندهم ، وقالوا فى التبويض بما هو كمر قبلهم . وإن قالوا : ليس مضمأ ، ولا مجزأ ، ولا محدودا ، ولا ثلاثة متبايين ، فإذا هم قوم يلعبون : يقولون : الأب أب ، والأبن أب ، والوالد مولود ، والمولود والد ، والكبير صغير ، والصغير كبير ، والقليل كثير ، والكثير قليل . وهذا من أين المحال وأخلف المقال . وليس من المطلق مالا يوحد فى لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم . وإنما

أرسل الله عز وجل كل نبي لسان قومه لينبئهم ، فُضِّلَ الله الطالمين . ولولا ذلك لَمَا
فَهِمَتِ الْأُمَمُ مَذَاهِبَ أَقَاوِيلِ الرسل ولا معانيَ أَحَادِيثِ الْكُتُبِ . فلا تُطِيعُ الَّذِينَ يَلْبِسُونَ
بِأَنفُسِهِمْ ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِسِيرِ لَفْتِهِمْ ، وَيَقُولُونَ . الثَّلَاثَةُ وَاحِدٌ ، وَالوَاحِدُ ثَلَاثَةٌ ؛ وَهَذَا عَمَالٌ
فِي تَجَارِي الْمَقَالِ ، وَمَعَانِي الْعِمَالِ .

لعمرك الله لئن أَتَيْتَ عَقُولَ الْأَسَاقِفَةِ عَلَى دَيْسِكَ ، وَأَهْتَمَمْتَ بِالْظُرْفِ تَوْحِيدِكَ ،
لَتَعْلَمَنَّ أَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَكُونُ ثَلَاثَةً وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ لَا تَكُونُ وَاحِدًا ، إِلَّا عَلَى وَجْهِ مَالِهِ ثَانٍ يَقُولُ
بِهِ ، وَلَا مَهْ تَحْرُجُ تَسْتَرِجُ إِلَيْهِ . فَالَّذِي عَوَّهَ سَمْعَكَ ، وَأَصْبَحْتَ إِلَيْهِ هَمَّكَ ؛ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَاصِبُهُ لَكَ ، وَلَيْسَ وَاقِعًا إِلَّا عَلَى الْمَخْلُوقِينَ ، وَلَا لَارِمًا عِوَا الْمُحْدُودِينَ ، وَلَا دَاخِلًا عَلَى رَبِّ
الْعَالَمِينَ : وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ أَصْلُهُ وَاحِدًا وَأَجْرَاؤُهُ كَثِيرَةً ، مِنْ عِوَا الْإِنْسَانِ ، وَهُوَ أَصْلُ
يَجْمَعُهُ اسْمٌ ، وَلَهُ أَجْرَاءُ تَلَرِّمُهَا أَسْمَاءٌ ؛ فَلَيْسَ الْجُزْءُ الْأَصْلُ ، وَلَا الْأَصْلُ الْجُزْءُ ، وَلَكِنِ الْجُزْءُ
بَعْضُ الْأَصْلِ . فَإِذَا أَرَدْتَ الْجُزْءَ ، قُلْتَ يَدُ الْإِنْسَانِ وَتَمَعُ الْإِنْسَانِ . وَلَوْلَا أَنَّهُ مُحْدُودٌ مَخْلُوقٌ
عِزًّا مُبْتَعَصٌ لَمَا جَازَ هَذَا الْقَوْلُ فِيهِ وَلَا دَخَلَ هَذَا الْمَثَلُ طَبْعُهُ ؛ وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ : الْأَصْلُ
وَاحِدٌ ، وَهِيَ شَمْسٌ ، وَالْأَجْرَاءُ كَثِيرَةٌ وَهِيَ عَيْنُ الشَّمْسِ وَصَوُّ الشَّمْسِ وَشُعَاعُ الشَّمْسِ وَدَقِيقَاتُهَا
وَعَلِيظَاتُهَا وَحُرُورُهَا وَأَعْلَاهَا وَأَسْفَلُهَا وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ .

فَلَمَّا قُلْتَ : سَمَّيْتُ كُلَّ جُزْءٍ مِنَ الْأَجْرَاءِ عَلَى حِيَالِهِ إِنْسَانًا ، وَكُلَّ جُزْءٍ مِنَ الشَّمْسِ دُونَ
أَصْلِهِ شَمْسًا ، وَنَسَبْتَ كُلَّ الْأَصْلِ إِلَى بَعْضِ أَجْرَائِهِ ، وَتَرَكْتَ أَنْ تَنْسِبَ الْأَصْلَ فَاعِلًا إِلَى بَعْضِ
الْأَجْرَاءِ ، كَمَا تَقُولُ : بَسَطَ الْإِنْسَانُ يَدَهُ ، وَمَتْنَى رِجْلَهُ ، وَنَظَرَ عَيْنَهُ ، ثُمَّ صَرَبَتْ ذَلِكَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ مَثَلًا وَجَعَلَتْ اللَّهُ لَهُ قِيَاسًا ، فَقُلْتَ : الْأَصْلُ وَاحِدٌ ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْأَجْرَاءُ
كَثِيرَةٌ وَهِيَ أَبُ وَأَبْنُ وَرُوحُ الْقُدُّوسِ ، وَكُلُّ جُزْءٍ مِنْهَا إِلَهُ عَلَى حِيَالِهِ وَرَبٌّ دُونَ عِيَرِهِ ، لَمْ يَجِدْ
بُدًّا أَنْ تُلْحَقَ الْيَدُ وَالْعَيْنُ وَالْمَسَّ بِالْأَبِ وَالْأَبْنِ وَرُوحُ الْقُدُّوسِ ، فَكَثُرَ أَلْفَنُكَ ، وَتَحَدَّدَ
رَتَبُكَ ، وَتَرَكْتَ قَوْلَكَ : إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ مُحْدُودًا وَلَا مُجْزَأً وَلَا مُبْتَعَصًا ؛ إِلَّا أَنْ يَكُونَ إِنَّمَا تَرِيدُ مَذَاهِبَ
الْأَسْمَاءِ تَقُولُ : الْمَعْنَى وَاحِدٌ ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْأَسْمَاءُ أَبُ وَأَبْنُ وَرُوحُ الْقُدُّوسِ .

إن سكنت تقول هذا وكنت إما تعبد أسماء، إما تحدد بدا من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على جبالها ، حتى تقول باسم أرحمى ، وبثاني أفسر لى . فاتقوا الله يا أهل الكتاب ، فإن الله عز وجل ليس باب ولا آبر ولا أسم ، ولكن له الأسماء الحسنى فأدعوه بها ، وذروا الذين يُبحدون في أسمائه سيجزَوْنَ ما كانوا يعملون .

فإن أشارت الأساقفة إلى بعض الإنسان مألود والرحل وأشباه ذلك وقالوا ليس إنساناً ، فقل لا ، ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسان بكلمة . وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالما ، فقل لا ، ولكنه مصها ، ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتسير أيديكم إليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواءً وسماءً لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت الإجابة لمسالك هذه الأودية ، لبطلت الجميع الداحضة وانقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قِلك من أساقف أمتك وتبماسة أهل بيتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرعونه أن يكون عبداً : على أى شيء وقع اسمُ المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كليهما ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح لله دون غيره ، فقد أقرروا بأن إلههم يأكل ويشرب ، ويمشي ويركب ، لأسم يحدون ذلك من فعل عيسى مهباً قِلكم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسمُ المسيح على الجسد مبنه ، فكان الجسد هو المسيح أداً دون صيره ، والمسيح أداً مخلوق عندهم ، والإله إنساناً أداً مثلهم ، فلم يمسدوا المخلوق ويدعون من خلقه ورآه . وإن قالوا : وقع الاسم على الروح والجسد جميعاً ، فلم يحدوا محرجاً ولا بداً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الاسم عليهما ، من أن يُصيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح انطاقة قد ماتت قِلكم ، وذلك لما يحدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قِلكم . وسل من قِلك من الأب والأبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ، فإن قالوا : الأب أعظم والأبن أصغر ، فقد جعلوهما متباينين . وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الأبن ،

ولا الآبَن بأصغر من الأب، فقد قُصَّ حينئذ جوابهم، وأُكذِّب المسيح عليه السلام كلامهم، حيث يقول: ^(١) «لو كنتم تحبوننى لفرحتم حيثُ أذهب الى اِلهى وإن اِلهى أعظم منى» فلم يقل أعظم منى - إلا وهو مقرر أنه أصغر منه . وسلهم عن قول المسيح: ^(٢) «أنا أذهب الى اِلهى وإلهم»، فقل: مَنْ هذا الإله الذى ذهب عيسى اليه صلى الله عليه وسلم: إله فى السماء متباين منه منقطع عنه؟ هما اذا اشأن متباينان، أم إله كان به متصلاً وكذا جميعاً واحداً؟ فكيف اذا يجوز له أن يقول اذا أذهبُ اليه! إلا أن يقولوا: إن بعصه ذهب الى بعض! وهذا مما لا يجوز عددهم فى صفه الرت عز وجل .

وسئل مَنْ قَبَلَك . أخرج المسيح من طعن أنه مريم بكاله حتى كان الطعن منه فارغاً وكان هو منه بكاله حارحاً . فإن قالوا: نعم . فقد أنكسر قولهم: إن الله بكل مكان . وإن قالوا: لم يجرح المسيح ولم يحل الطعن، فقد كذبوا اذا فى قولهم: إنه قد نرج، وأقروا أنه قد وُلِدَ . تعالى الله عما يصفون، وقرة عما يشركون . وسلهم لِمَ هَبَطَ عيسى الى طعن مريم، وتحمس بالملم والدم؟ فإن قالوا: لِيَحَقِّقَ الحطايا من الأرض ويربط الشيطان من الخلق، فقل: كيف اذا لم يربطه عن نفسه؟ وكيف حلامه من اليهود بصله! ولم سُلِّطَ على أهل دينه يُتَّبَعُونَ فى كل شِئٍ ويُقْتَلُونَ بكل واد!

وقل للذين يقولون: إن الخالق فى كل مكان من السماء والأرض وعبر ذلك: أيهما أعظم: المحيطُ المشتَمِلُ، أم المُحَاطُ المشتَمَلُ عليه كما يقولون؟ تعالى الله عما يشركون . فإن قالوا: إنما ألتحم بعصه دون بعض، فقد حدوا وعتصوا وعتصوا وآستقصوا، وإنا قالوا لمن يحدوا بدأ من أن يقولوا: إن بعض المسيح الذى حملوه ربه، وهو إله عددهم، مَيِّت بعصه جيعاً، وإن بعصه حى طيب، لأنهم زعموا أنه ألتحم بمجد حى فيه

(١) الوارد فى إنجيل يوحنا (صلى ١٤ آية ٢٨ ح ٣ ص ١٨٦ من الكتاب المقدس مطبعة بيروت سنة ١٨٨٢ م)

«لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون بأى ما من الى الأب لأن الأب هو أعلم منى» .

(٢) الوارد فى إنجيل يوحنا (صلى ٢٠ آية ١٧ ح ٣ ص ١٩٦ من الكتاب المقدس) «بى صاعد الى

أبى وأبكم وإلهى وإلهم» . (٣) كذا بالأصل .

رُوح، فلا بدّ إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الأجسام الحية من الخوف والفرح والطمش وأشياء ذلك، وهو عديم كمر عظيم وإلهٌ مبين . فأتفق عقوبة الله ربك، ولا تمشي مُكبّاً على وجهك، ولكن أطلب وأتمس وأعت، فقد قال ميسى عليه السلام في الإنجيل :
 «مَنْ سَأَلَ أُعْطِيَ وَمَنْ طَلَبَ وَحَدَّ وَمَنْ اسْتَمْتَعَ فَتَبَّحَ لَهُ» .

اجتمع العلماء والمصراة [الدين] عندك، والأساقفة والزهاد الدين قبلك، فقل : لأى شئ، تسبتم المسيح إلهاً وجماعته رؤساءً وعهد الله سماه في الكتاب ابناً، وقد تجذونه قال :
 «إلى أذهب إلى أبى وأبيكم وإلهكم أيضاً» . وهذا كلامٌ يحتمل وجهين أحدهما أولى به، وقولٌ لا يحتمل إلا وجهاً وهو الرُؤية . أم كيف تظنون إلى كلامه : «أذهب إلى أبى وأبيكم» . فتبريدوها في نفسه وقد قالها فيه وفى غيره !

فاتفق الله وكى من القائمين بالحق، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد صرّب لك أمثالا حجةً، وصرف اليك مسائل كثيرة، وبين لك من آيات النبى صلى الله عليه وسلم وعلامات الوحي قليلاً من كثير، وانحاض من تفسير، لا تمتنع العقول من التصديق به، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيدكر لك أمير المؤمنين من علامات النبى صلى الله عليه وسلم في التوراه والإنجيل، ما يكفى به، إن شاء الله، وبالسسر منه، لأن كتب الله عز وجل معهولة، ومُجمّبة محروسة، لا يزداد فيها ولا ينقص منها . وإذا وجدت فيها كلمة بذلك على حق وتهديدك إلى رشد، فليست واحداً أخرى تصدك عنه وتشككك فيه، إذا تلى ذلك بالحق ووضع على الصدق . ولكي صلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام، وتحريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العفصة والتوفيق .

(١) الزادى في إحيال متى (صل ٥ آية ٤٢ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من سألك فأعطه . ومن أراد أن يقتصر منك فلا تمنعه» . والزادى في إحيال لوقا (صل ١١ آية ١٠ ح ٣ من الكتاب المقدس) . «من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له»

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عدكم وبيته في الإنجيل لكم ، إذ قال
لِخَوَارِثِينَ^(١) : ”أنا أنهبُ وسياتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما
يقول كما يُقال له ، وهو يشهد على وأتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة ،
وكل شيء أعد الله لكم يحرككم به “ . وترجمة البارقليط : أحمد . هذا ما لا شك
ولا مريبة فيه ، وهو الذي يُجبر بما وعد الله المؤمنين وصالحى الخواريث في القرآن ، ولستم
تحدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا^(٢) الى عيسى عليه السلام : ”قيل لى : اقم بطارا ما ترى بحبرى“^(٣) قال :
أرى راكبين سيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه : سقطت مابل وأصامها المحوثة^(٤) “ .
ولسا علم نيا ركب بعد موسى صلى الله عليه وسلم بعيرا إلا محمدا صلى الله عليه وسلم كثيرا .
ومن ذلك قول داود عليه السلام : ”اللهم ابعث جاعل السنة كى يعلم الناس أنهم
بشر“ يقول : كى يتبين الناس أب عيسى عليه السلام إنسان . ولسا علم بيا وضع
سنة تُنسب اليه إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . أما عيسى فإنه نصب سنة موسى عليه
السلام .

ومن ذلك قول حَبَقُوقَ^(٦) النبيء في زمان دانيال : ”حاء الله من السماء والقديس من^(٧)
حبال فاران ، وأمتلات السماء من تعبد أحمد وتقديسه ، ومسح الأرض بيمينه ، وملك
رقاب الأمم “ . وقال أيضا : ”نهى لوره الأرض ، ولحمل خيله في البحر“ . فالى من^(٨)

(١) راجع إميل يوحنا (صل ١٤ آية ٢٦ وصل ١٥ آية ٢٦ وصل ١٦ آية ١٣ ح ٣ ص ١٨٨ من
الكتاب المقدس) .

(٢) راجع سورة أشعيا (صل ٢١ آية ٩ ح ٢ ص ٣٤٨ من الكتاب المقدس) . (٣) كما بالأصل ،
ولم يوفق الى تصحيحه . (٤) في الأصل : «البحرة» وقد استأسا واثات ما أنشاء الكتاب المقدس

(٥) راجع سفر الزمابر (صل ٩ آية ٢١ ح ٢ ص ٥٢ من الكتاب المقدس) . (٦) راجع سورة

حَبَقُوقَ (صل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) . (٧) في الأصل ”من السماء “ .

(٨) راجع نبوة حَقُوقَ (صل ٣ آية ١٥ ح ٢ ص ٧٠٩ من الكتاب المقدس) .

يقو هذا القول، وإلى أين يُلْتَحَبُ بهذا المعنى؟ ثلثُ ذُيُتَ به إلى غير الذي [تجمل] ^(١) حيلُهُ في الحر، وبدأ من حال فاران أمره، رَعَلَتْ على الأرض ومسحها، ومَلَكَ رفات الأمم كلها، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في الزُّور ^(٢): ”صَدَّقُوا وَسَّحُوا الرَّبَّ نَسِيحًا حَدِيثًا سَّحُوا الَّذِي هَلَّلَهُ الصَّالِحُونَ . ليعرَّخ إسرائيل محالقه ويتوب صبيون من أهل أن الله اصطفى له أمته، وأعطاه النصر وسدّد الصالحين بالكرامه، نسَّحوه على مصاحمهم، ويكفرون الله بأصوابِ عاليه، بأيديهم سيوفُ داتُ شَفَرَتَيْنِ، لينتم الله من الأمم الذين لا يصدوه، ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأنشأهم بالأغلال“. فأتى أمة يكفرون الله بأصوابِ وأدان الصلوات الدائمة وعلى كل شَرَفٍ وعد كل حرب، وأتى أمة كانت سيوفها داتُ شَفَرَتَيْنِ إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم!

ومن ذلك قول أشعيا ^(٣): ”سَّحُوا الرَّبَّ تَسِيحًا حَدِيثًا، ويسخه من آفاق الأرض ^(٤) مرج يكون في هي فيار“. وبو فيار قريش أهل فاران الذي زل فيه القرآن . وأتى أمة ^(٥) تسبح من آفاق الأرض إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم . عدى أكدي .

ومن ذلك قول أشعيا ^(٦): ”عدى الذي وحب به حبي الذي بشرت به نفسي أبيض عليه رُوحى، يوصي الأمم بالوصايا، لا يصحك ولا يُسمع صوته في الأسواق، ويهتج العيون النور . ويُسمع الآذان الصم، ويُنحي القلوب الملف، وما أعطيه لا أعطى غيره، أحمد ^(٧) يحمد الله حمدًا حديثًا، تهليله يأتي من أقصى الأرض، يحوز الماء نشده أمواجه، ويهرج وكورها، ساكنها يحمدون الله على كل شَرَفٍ، ويكبرونه على كل رابية“ .

(١) زيادة يدل عليها ما غلبها . (٢) في الأصل ”ومسحها“ . (٣) راجع سفر الزماني (صل ١٤٩ آية ١ — ٩ ح ٢ ص ١٥٧ من الكتاب المقدس) . (٤) في الأصل ”هلكه الصالحون..“ (٥) راجع سورة أشعيا (صل ٤٢ آية ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٦) كما في الأصل، ولعله محرف من ”هرج“ . والهجوع . الحاجة من الناس . (٧) كما بالأصل، ولم يدركا تين الكلبيين ولا ذكرهما معي . (٨) راجع سورة أشعيا (صل ٤٢ آية ١ — ١٠ ح ٢ ص ٣٧٦ من الكتاب المقدس) . (٩) كما بالأصل .

ومن ذلك قول داود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين ^(١) . يقول الله عز وجل
 لمحمد في الزور : " انصبت رحمي على شمتيك من أجل ذلك ماركتك الدهر ^(٢) ، تقلد
 السيف على الأثم ، أيها الجمار على الأثم بالقتل والأسر والسبائك هباك وحمدك أحمد طلب
 البر منك كلمة الحق ودلت لك الأشياء سيفك بحسمه يمينك وسالك مسمومة وتسقط
 عند الأثم " . فأي نبي كان على الأثم حاراً ولم يمد الله قتالاً إلا سبنا صلى الله عليه وسلم .
 ومن ذلك في آخر التوراة ^(٤) . " جاء الله تبارك وتعالى من سيئاء وأشرف من سامير
 واستدان واستعلن من جبال قَارَان ، وجاء عن يمينه ربوات القديسين " . وتفسير هذا
 أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه
 السلام في جبل سامير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال
 قَارَان وهي بلاد مكة . وأنتم تحذون ذلك في كتبكم مكرراً وتبرهنونه جميعاً بلعنكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام «سَأُقِيمُ لَهُمْ مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ أَجْعَلْ
 كَلَامِي عَلَى فَمِهِمْ وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا أَمَرُهُ بِهِ» . فمن إخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل !
 أما تعلم أن لو كان الله عز وجل يعني أحداً منهم لقال لهم : أُقِيمْ لَكُمْ نَبِيًّا مِنْكُمْ !

إن قلتم إنما قال من إخوانكم ، وهو يريد من أنفسكم ، فهَبْ أمير المؤمنين قِيلَ هذا
 الخُلُفَءُ مِنْكُمْ وَوَسَّعَ فِي هَذَا الْمَحَالِّ لَكُمْ ، فكيف تصنعون قول الله عز وجل في التوراة .
 "مثلُ موسى في بني إسرائيل لا يقوم" فهل يحذون من هذا محرراً ، ومن الإيمان أن المعنى
 وقع على محمد صلى الله عليه وسلم بدأ .

- (١) راجع سفر المزامير (ص ٤٤ « وفي حصص السج ٤٥ » آية ٣ — ٨ ح ٢ ص ٧٩ من الكتاب المقدس) .
 (٢) في الأصل « في حمة وأربعين مرموا » . (٣) في الأصل « من أجل ذلك ماركل الدهر » . واستما في تصحيحها الكتاب المقدس الذي وردت فيه الجملة هكذا . « وقد استكنت العمة على شمتيك بذلك تبارك الله إلى الأبد » . أما الباقي فلم يوفق إلى تصحيحه فأشناه كما وردت بالأصل .
 (٤) راجع سفر تثنيا (ص ٣٣ آية ٢ ح ١ ص ٤٤٣ من الكتاب المقدس) .
 (٥) راجع سفر تثنيا (ص ١٨ آية ١٥ ح ١ ص ٣١٨ من الكتاب المقدس) .

ألا تسمع قول الله عز وجل : " أَحْصِلْ كَلَامِي عَلَى مَهْ كَيْ يُنْفَى بِهِ ، أَمْيُّ لَا يَفْهَمُ لَا يَكْتُبُ " .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حَوَارِيَّهٖ أَنْ يَقُولُوا فِي صَلَوَاتِهِمْ : « يَا أَمَانَا الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقْدَسُ أَسْمَاكَ » . كيف صار عيسى دونهم أباً ، وصار له دونهم أم ، وهم يقولون : أَمَانَا ! أم كيف لم يُحْمَلْ سَلْيَانُ بْنُ دَاوُدَ إلهاً وقد قال الله عز وجل لداود : « يُؤَلِّدُ لَكَ عَلَامٌ مَتَى لِي وَأُسَمِّيَ لَهُ » ! ولم لا يعملون إِسْرَائِيلَ إلهاً وقد قال الله عز وجل له : « أَتَ بَرَكِي » ! لم لا يُسَمُّوْنَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَّةً وَالْحَوَارِيَّيْنَ حَاصَةً [إلهة] ، وقد قال المسيح للحواريين : أَنُمُ حَتَّى . وقد قال في الإِنْجِيل : « أُعْطِ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِي سُلْطَانًا يُدْعَى لَهُ » . وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ لَهُمْ لِلْمَسِيحِ إِحْوَاهُ أَفَلَا تَحْمِلُهُمْ كُلُّهُمُ إلهة ! وكيف يقولون : إِنْ عِيسَى ابْنُ اللَّهِ ، وَهُوَ يَقُولُ مُوَاصِعَ حَقَّةً وَأَمَّا كَيْ كَثِيرَةً إِنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ ! فكيف يكون ابْنُ الْإِنْسَانِ ابْنُ اللَّهِ ؟ ومتى بَانَ ذَلِكَ ؟ ائِنْ قَالُوا : إِنْ عِيسَى لَمْ يَزَلْ ابْنُ الْإِنْسَانِ ، لَعَدَّ حَمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِنْسَانًا قَدِيمًا حَمَلُوا اللَّهَ إِنْسَانًا حَدِيثًا ، وَحَمَلُوا الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ لَمْ يَزَلْ ، وَابْنُ الْإِنْسَانِ فِيمَا حَدَّثَ . وَهَذِهِ وَرُ مَتَاقِصَةٌ ، وَحُجُجٌ دَاحِصَةٌ ، وَأَقَاوِيلُ فَاحِشَةٌ .

إِنْ قَالُوا : إِنَّمَا بَعَدَ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ رُجِعَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَلْيَعْبُدُوا الْمَلَائِكَةَ مِنْهُمْ فِي السَّمَاءِ قُلُوبًا ، إِنْ دَرَيْسَ فَقَدْ رَفَعَهُ اللَّهُ وَبَعَثَهُ . وَإِنْ كَانُوا يَصُدُّونَ الْمَسِيحَ لِأَنَّهُ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ دَكْرٍ ، قَادِمٌ حَوَّاءَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى ، وَلَمْ يَقَعْ مِنْ عَمِّ الرَّحِمِ وَصِيقِ الْعَطَنِ وَحَالِ الصَّبَا [وَقَدْ] فِيهِ الْمَسِيحُ .

وَإِنْ قَالُوا : إِنَّمَا بَعَدَ عِيسَى لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى ، فَهِيَ أَحْيَا حَرْقِيلَ أَكْثَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ سَعِّ تَلْمِيزِ الْيَاسِ أَعْبَى ، لِأَنَّهُ أَحْيَا الْمَوْتَى مَدْمَعِينَ مِنَ السَّيْبِ . وَإِنْ طَلَبْتُمْ ذَلِكَ سَيْرَ الْمُلُوكِ عِنْدَ قِصَّةِ الْبَيْعِ أَصْبَحْتُمُوهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) رَاحَ إِبْرَاهِيمُ (صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) آيَةَ ٦ آيَةَ ٩ ص ٣ ص ١٠ مِنَ الْكِتَابِ الْقُدْسِ . (٢) فِي الْأَمَلِ : « وَصَارَ هَذَا » . (٣) لَمْ يَحْدِثْ فِي الْإِنْجِيلِ . (٤) حَرْقِيلُ بْنُ مَرْثِيٍّ قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا أَحْيَا اللَّهَ . الْقَوْمُ الْعَرَبِيُّ حَرَّوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ الْوَلَدُ حَدَرُ الْمَوْتِ ، نَاحِيَا اللَّهُ تَعَالَى بِمَدْمَعِهِ مَوْتَهُ . وَهُوَ مَا بَشَّرَ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ أَنَا إِلَهُكُمْ حَرَّوْا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ الْوَلَدُ حَدَرُ الْمَوْتِ) الْآيَةُ .

وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أرا والعماث التي أرى ،
صحات موسى أعجب وآياته أعظم . أس ما ذكرت لك من [عماث] عيسى من عماث
موسى : من انقلاب الحجرة ، وسلوك الجيش معه ! أم أس ذلك من حجب بصره فيتفجر
عيون المساء ، ويمحله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير هذه من الآيات من حبس
يُوشَعَ الشمس ثلاث ساعات^(١) وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره
وقصاته . فاتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم
يقُل ، فإنكم لا تحمدونه قال لكم في شيء من كنتم : اعدوني فإنى ربكم . تعالى الله عما يقول
الظالمون ، ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن يصح لك ، في أولى داريك مك وأهم شائك لك ،
هداك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتخرج من النار . وإن قلت
خطأك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للسلمين ، وعليك ما عليهم . وإن رددت
صبيحة أمير المؤمنين فيما فيه الخط في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين يصح لك فيما فيه الصلاح
في عائلتك : من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحزم بها ساءكم ، ويعملها قواماً
لمناشكم ، وصلاًحاً للدادكم ، وتوفيراً لأموالكم ، وأماناً لجانكم ، وسعة ليرتكم ، وبركة على
نقراكم ، ورضى لأهل الحاجة والعاقبة والمسكنة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم ، وعموم العافية لإياكم ،
وأستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا
روى قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك العدية التي كان الله أجرى صحتها لكم على بدء ،
ودفع بركتها عليكم من قبله ، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على
حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون أن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم ،

(١) إشارة إلى قصة يوشع بن نون في موسى عليها السلام واستيقاظه الشمس ، فقد روى أن يوشع قاتل
الخابرين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للهروب حاف أن تعيب قبل مراحه ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه ،
مدنا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى مرع من قتالهم . (٢) السرب : الطريقه .

وصنف من أصنافكم، تلك الفدية، أموراً عطيمة البركة، واسعة المنفعة، في أمور غير واحدة :

منها : أن قادة حودكم وساسة حركم، كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدها، فراعاً لمخاربه أعدائكم ومناصبه من ماؤكم، بين أن يستمحمهم في ملاهم ويبرلوا عليهم في ديارهم، ولا يرهون تعقب بشران ساروا في أروهم، ولا يتخفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفيص ودعه، وأمني وسعة، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والجمال، وهم اليوم يرقون الجيوش من كل شعب ويخوفون الخوف في كل وقت، لا يهدأ لهم حاش، ولا يسكن لهم قرع، ولا ينام لهم ليل، ولا مأس فيهم حال، قد قطعت الموم دارهم، وأصمرت المحافو جوبهم، وأستأصلت الحود أموالهم .

ومها : أن أهل الحراثة وإخوان العماره، في بلادك وأطراف أركك، كانوا سراعاً إلى عمارة أروهم وإصلاح ماتحت أيديهم، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به، ولا لقاء لدينهم إلا معه، قد أسوا الجيوش ومعرتها، والحود وادرتها، وأنشروا للعماره، وأشكروا في الزراعة، طارقوا رموس الجمال وإلقام العياص، وراحوا في أوساط أوطانهم وطلال محالهم، يشققون الأنهار، ويعرسون الأنهار، ويهجررون العيون، حتى تمت الأموال، وأحصرت الحال، وأحصت الجلباب، وأصحبوا اليوم عن الزراعة ممسكين، ولغيره تاركين، وبغيرها مشغلين في إصلاح آلات الحرب، وإحراز العيال في الحصون، ورم القلاع للبلاء، وتحريش الحصون للبلاء، قد آتقلوا عن مابث البر وكرائم الأرض، ومحارى المياه، إلى أوشال الجمال، وأشجار العياص، وطلون الأودية، فليس يملعون من عمارة ملاهم، ولزوم أوطانهم، [و] من تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يملعون، ولا يتالون من خفض العيش وطيب الأمس ولذة الدعة، قريباً مما كانوا يتالون .

ومنها : أن إخوان التحارات ، وأصحاب الأموال وأهل الظُّلُم والحمار ، كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا ، فيسْقُوب^(١) تحاراتهم ويُفْلون بصائمهم ، فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان . وكانت الباعة من تحار المسكين وعيهرم من الدمين ، يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المفعة ، حتى نالت الرءاء في جبالها وأماها ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فصلا عن غيرهن .

ومنها : أنك ومن قبلك من دوى العبادة والزهاده والتأله والمسك والبيات ، كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب ، وسلامة من أوزار الحص على قتال الخوف ، قد تحوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور الى أمركم بها ، من نحو قوله : ” من لطم حنك الأيمن فامكنه من الأيسر ، ومن آتزع قميصك فاعطيه كساءك ، ومن لطمك فاعصر له ، ومن شتمك فأعيرض عنه “ .

ومنها : أن من باقاصى ملادك ونواحي حوزتك ، قد داقوا تلك الأيام من لذة الخمص ، ودعة الحال ، وحلاوة الأمن ، ورعاية الميش ، وسعة العافية من سياء أزواحهم ، وهيض أولادهم ، وحطم معاشهم ، وأسر رحا لهم ، وصيمة فقرهم وعصهم ، وإفساد شجرهم وثمارهم ، وإحلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأى يعرفه ، ولا طئ يلمه ، ولا طمع يقاربه ، ولا أمل يذهب اليه . وما قد عرفت الخاصة من بطارتكم ، والعامه من أهل ملككم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفتيتكم عليهم ، وأثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملكهم ، ومنفعة سياستكم أمرهم ، ما قد ازدادوا لكم به محبة ، وفي فائتكم رغبة ، ولأمركم طاعة ، وعلى ملككم شفقة ، وفيما ناكم بصيحة مع ما قد أرددتم بذلك من الهية في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم ، حتى أقروا لكم بقوة عزائم العقول ، وفصل سياسة الأمور ، وصحة تدبير الملك ، وصدق البية ، ولطف الحيلة التي

(١) في الأصل . ” من ملادم ... “ . (٢) كذا في الأصل . (٣) راجع إميل من

(صل ٥ آية ٣٩ ج ٣ ص ٩ من الكتاب المقدس) .

جعلوا نسبة عملكم بها ، وحمل رأيكم فيها ، على أنكم بطرتم لضعفائكم حتى قُوتوا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقراءكم حتى سدوا وجوههم وهربوا المسلمين من أيام الحروب وأورار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولأعدائكم الأعدى وحيروكم الأثربى ، حتى كنتم من فراغكم لهم ، واشتالكم من أمركم بها ما أوطأ تنوء لحر بحر القتل ، وذلل الأسر وعلية القهر ، والإذعان والاستسلام . وإما كفيتموهم بالصلح ، واستوتقتم منهم بالرهن .

فاذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في العديّة ، فاعلموا أن أمثاله وأصعافه مقيم معكم في الجربة ، فلا يكون لك رأيٌ صيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين المحب من أمركم ، وأطال تغليب العكّة في معصكم ، فظن أن إحراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب ، وصولات الجود وأكل الحدود ، وتوقع الخلاء والساء والقتل ، والأسر والحصر ، شيئا احتدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم .

إلا إن أعجب عذرهم وأقطعهم كان صد أمير المؤمنين إذ بلغه جراتكم على الله عز وجل في نقص عهده ، واستحقاقكم محقه في خفر دمه ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأتمتعتموه أن موافق اليهود ويدور الأيمان الذي وصبه الله عز وجل حرّما بين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عاده ، لتسكني إليه نفوسهم ، وتطمئن به قلوبهم ، وليتعاملوا به فيما بينهم ، ويقموا به من دنياهم وديهم ، ها من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم ، تبيح حتى الله عز وجل ، لهاوا به وجرأة عليه ، إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذابا من السماء . وقد رحا أمير المؤمنين أن يجرى الله نعمته منكم بأيدي المسلمين ، صد إذ كان أعقده عهدكم ، وأخذ ميثاقكم بالإيمان المغلظة ، واليهود المؤكدة ، التي قد اعتقدوا في رقابكم ، وحملها على ظهوركم ، فاشهدتم الله بها على أنفسكم ، وتسامع بها من حولكم ، وحكم بها طارقتكم وأساقفتكم . فلا الله أنهيتم ، ولا من الناس استحيتم ، نكثاً للعهد ، وبغضا للمسلمين ،

وحقراً بالأمانة، وإراحة للعلمى . فتوقموا العقوبة، وانتظروا العيب، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزعج أمير المؤمنين وعزم عليه ، وقذف الله في قلبه : من الإرادة والنية والرضا في إعطاء الجيوش بلادكم ، واستثناء المقاتلة أرضكم ، والتعريض لكم من كل شغل ، والإيثار للجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأتم طائون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية عن يدي وأنتم صاعرون . فكروا على عدة من الجزية ، ويقين من الاتجاع الذى لا طاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم بإذن الله عليه ، فان جود أمير المؤمنين فارغة كثيرة ، ونرائسه عاصرة وافره ، ونفسه سحبة بالإففاق ، وبده مطلقة بالدل ، والمسلمون سباط اليكم ، مقلون عليكم ، قد عودهم الله في لقاءكم عادة يرجون انتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم ملاء من أمثلها ، إن شاء الله .

وكتب أمير المؤمنين نذره بين يدي حدوده ، ومقدمه إن شاء الله من حيوشه ، إلا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترجمهم ، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الحلاء والساء والقتل والأسر والقهر ، وفساوه من قلوبكم ، وأثرة لأفئسكم ، وأعتصاما بمحواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء الفقراء المساكين الذين لا تمحوهم قوة ، ولا تدعون عنهم بحيلة ، ولا تراقون في الرحمة لهم والتعطف عليهم ، أدب المسح إياكم ، وقوله في الكتاب لكم : ” طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصعباء الله وبور بى آدم “ .

وأيام الله لو يعلم من قبلك من المساكين والراعيين والفقراء والضعفاء والعلمة بأيديهم ، ما لهم عند أمير المؤمنين لتحذروا عليه وأقبلوا اليه ، من إيوائهم ، وإراهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسایل المياه السائجة ، والعنل عليهم بما لا تبلغه أنت ولا تقار به ، رفقا بهم ونظرا لهم وإحسانا اليهم ، مع تحليته إياهم وأديانهم ، لا يكبرهم على خلافها ولا يحرمهم على

غيرها ، لأحتاروا قرب أمير المؤمنين على قرك ، وجواره على جوارك ، ولأهدوا أنفسهم^(١) وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالهم ، مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فائق الله وأقل ما عيرض عليك من الخزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكك . ومحس على رساء أن الله لا يؤخر ذلك منكم ويدهسه عنكم ، إلا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ، ولأهل الورثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حية ولا نقيصة ولا عار ، والذين يؤمن لكم بما يعقدون ، ويتعنون معلهم ما يقولون .

ثم أمير المؤمنين محاسة لما جعل الله عليه رأيه وفيه ظره من البر والرحمة والإسقاط والوفاء بالعقود والمعهود والشروط ، بطراً لئيبه وحوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة ، وأتفاق الأفئدة ، والبصائح في السر والعلانية ، وما عوّده الله من نصب له بمجادبة ورماء بمكيدة ، وعراء بحيلة : من النصر العزيز، والفتح القريب، والظفر الممين . فأملئ من الخزية ما شئت ، وسم منها ماهويت . وأعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم . وإنه إنما كان قول المهدي^(٢) — رحمه الله — الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه ، ولم يكن من رغبة فيها ، ولا حاجة إليها ، ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطى في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان رأى أمير المؤمنين يومئذ فيكم . فاما اليوم اد استئناف له عندكم وقصصكم وبكتكم واستخفافكم بديكم وجرأتكم على ربكم ، طيس بين أمير المؤمنين وبينكم . إلا الاسلام أو الحرب الخيلية ، ان شاء الله . ولا حول نأمر المؤمنين ولا قوة إلا بالله ؛ عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين . والسلام على من أتبع الهدى .

(١) في الأصل . " ولأبتدوا ... " . (٢) كما في الأصل ومعه راجح ولعل أصل الحقة " ولا يمنعك اشتغال بما فيه ... الخ " منقطع هذا أمره سبها من التبع . (٣) كما في الأصل .

٣ - رسالة يحيى بن زياد في تفریط الرشيد

أما بعد، إني أسأل الله لأمر المؤمنين في طر أموره، أحسن ما عوده في سألها من السلامة التي حرصه بها من المكاره، والعز الذي قهر له به الأعداء، والبصر الذي مكّن له في البلاد، والهدى الذي وهب له به المحبة، والرفق الذي أدّله به الحلب، والاستصلاح الذي آتت له به الرعية، حتى يكون بما أعطاه من ذلك، وما هو مستقبل به منه، أجد حلفائه في الخير ذكراً، وأبقاهم في العدل أثراً، وأطولهم في العمر مئة، وأحسنهم في المقادير مقلداً.

ثم نحمد الله الذي جعل نعمته على أمير المؤمنين شواهد من على منزله من مكانه عنده، لا يحتاج معها إلى شهادات الثنين، ولا صفات المقرطين، ثم حمل ذكر نعمته على أمير المؤمنين ومناجعتها والمجاهدة لمن كادها فريضة أوجبها على العباد، ومحنة أمتحنهم بها، وفرقنا ميز به بينهم، من أصبح من رعيته أكثر شغله أن يستعمل لسانه في صغته، ويذكر محاسنه وفصائله، ووجوب حقه وطاعته، فقد أصبح أثراً أولى الأمور وأحسنها ممجبة في دياره ودينه، ومن بدل ذلك عن قدرة عليه، ودقعه بعد معرفة، فلم يدعه إلا عن حذر لا حاق به، أو يدعه أسماؤه، كانت حجة الله لأمر المؤمنين عليه هي الكافية لمؤنته. وقد كان علماء الناس وجهاً لهم يسوون في عام المعرفة فحصل أمير المؤمنين، فأما الخاص فلا حصل الفصل فيه فصلهم، غير أنه مهما كان من ذلك فقد أصحوا وهم فيه على منازل ثلاث: حاسد يحسد نصره عن مواقع الصواب أن يراه، والعمي أن يشكرها. والحق أن يؤدبه، وكانت معرفته عليه وآلا، وحسنه إلى الصبره قائداً. أو ذو هوى قاده الهوى إلى البدعة وأخرجته الصلالة من الجماعة، فهو عرصة لسوء الأدب أو سيف السكال، لم يوحش الله أحداً بفقدته، ولم يعز أحدًا بموالاته. وموفق معصوم استنفذه [فه]

مؤالاة أمير المؤمنين من عل الحسد وبدع الآراء وجبله على صحبة الهوى ، فهو إن نظّر فبحينه ينظر ، وإن قال بلسانه يقول ، لا يأمن حتى يعلم أن أمير المؤمنين قد استوطأ مهاد الخفض ، ولا يزال له طبيعة رأيي توي على خطه حرم وعامص فطة ، تفعل الى لطيف منفعة و [تكون] سهم مكيدة محو عروة ، قد علم أن يوم أمير المؤمنين يومه ، وأن عده غده ، فهو وإن تمرّض لأداء الحق في نصيحته بنظر لمسه نظر من لا يأمل السلامة إلا بسلامته ، ولا البقاء إلا ببقائه . وقد رجوت بالقرابة التي جعلها الله لي به ، والواجب الذي عرفت من حقه ، والعظيم الذي حملته من معرويه ، ألا يكون أحد ينظر اليه عين الإشفاق أقوم ما جعله الله أهله مني ، وإن أبليج الذي أردت ببتوفيق الله ، وإن أقصر من مثل ما حاولت قصر المجتهد .

فاؤل ما أنا ذا كره من فصله : أن الله قدم له الصبح في سابق علمه ، فجعل تحتد حير المحامد عصراً ، ثم اختار له أباً فأما لا يبق له من أب الى أب إلا قل معه وإليه فضيلة العصر الذي هو منه حتى صيره صد فصائل آياته الى أفصل بدنة ، فكان حير حليف من حير سليف ، وأفصل ولد من أفصل أئمة ، وأوصى إمام من أئمة ، ثم اختار له مكارم الأخلاق ، وألبسه جمال الصورة ، فلا علم نحن ولا آماؤنا حليلة أحد في حلمه من ذلك ، ولا في هيئته من تجبر ، ولا في شدته من عفف ، ولا في لينه من وعن ، ولا في أناته من عفة ، ولا في اقتصاده من بخل ، ولا في بخله من إضاعة ، ولا أرق وجهاً عند لقاء ، ولا أحسن بشراً عند تحية ، ولا أعزّز دمعاً عند موعظه ، ولا أليق قياداً عند تذكيره بالله منه .

(٢) ثم أوصت اليه الخلافة وفي المال ما فيه من القلة ، وفي الناس ما فهم من الإحراج ، فما دفع عن مال يعلبه عن قلة ، ولا قطع عادة توسعة على رعيته ، ثم استدر الخلف برقه ، فكلما دز له منه شغب فوقه طائفة من جسده حتى سقام بعد التفويق رياء ، وبعد النهل

(١) في الأصل "عورة" . (٢) الإحراج . الصيق وفي الأصل . "الاستخراج" .
(٣) الشجب (بالهم) : مارجح من تحت يد الخال عد كل عمرة وعصرة فصرع . (٤) عوته الشيء : أعطاه إياه قليلاً قليلاً .

عللاً؛ ثم ساس رعيته بالإن السياسة فعفا عن مذهبها ولو شاء لعاقب، وآمن خائفتها ولو طلب لأدرك، ودفع بالحسنة السيئة ولو كآماً لقدّر، فما ربح صُنع الله له يقصّ جموع الصلابة ملاقات، ويُعزّله الضرر لا مكثرة، حتى فرغ بشغله من كان لا يفرغ من الوزراء، وبام بسره من كان لا ينام من العامة، وأطمأنت مما آتته^(١) للأسماع دار من كان لا ينال الخفص من الجود حتى استوطئوا مركب الأمن فكلهم صيب بمبارقته. أما ذو الية فركب إلى النقص. وأما من لا يبذل فعل ما كان يؤحده به من الاستكراه. وأما الخسر من الحد والرّاع فغلبت طيهم عادة الهوى، حتى لو رأياه يحذره الأمر فما يحذره الأمر عاء عده ولا نشاطاً ولا حداً إن وكله إلى قوته، وقواه بماله.

فلما رأى ما رأى من تحايل العاقبة، وتواكل الجود، وزور الهوى، ومحو الخلف، واستكلاب العمل على الحيانة، وجرأة الرعية على مع الحق، ومال العراق بكثير من الناس عن القصد، فحزنت الأهواء، وانتعرت يراؤ العصبية، وحاشت صدور الحسد وأشياهم بالأمان، وطبوا أن لا شدة معه، وأن عموه لا تكبر بعده، وأمير المؤمنين يرمقهم عين بصيرة، وأدب مصيعة، وقلب يقطان، وقد وقر الحيل أن يحف لأول وادر السعفاء، فهو ينتظر المذبر أن يقل، والمائد أن يعتدل، والمخلوب على رأيه أن يتدكر فيصير، شمر في أثرهم تسمير من قدم الرؤية قس المصلحة، والمعوقل العقوبة، والتثبت قس الإقدام، فانخذ روابط ألتجها على الجسد والنشاط، ليست لهم سواي تدعوهم إلى الإدلال، وتسمو بهم إلى كثير لم ينالوه، إنما همهم أن يتعاضلوا في السعدة، ويستوجوا بالصاء، ثم ترقهم على خواص حدمه، فإذا أراد أن يناول بهم فرصة ممكنة، أو صدوا عا^(٢)، أو راتق قتي قبل الساعة، يعمس يديه إلى أيهم أراده، فيعد لأمره ولم يتركه فيه متير، ولم يرح به بوقع، ولم يخصص فيه عاقبة، ولم يطلع منه على مكيدة، فلم يعلم أننا رأينا جداً

(١) في الأصل «عآ آته» . (٢) في الأصل «إن وكله إلى قوته ولا نشاطاً ولا حداً وقواه

بماله» . (٣) عا ط . دخل .

أسرع نهضةً إذا مَرَّوا ، وأحسن إجابةً إذا دُعُوا ، وأفضل غناءً إذا استكفُوا مِنْ جُنْدِهِ .
ثم قصَّده سمسه حتى مثل يرب الواحى الى اهتمامها له فسأنا في البيضة ، وأنقاصاً من
الأطراف ، فأتى ناحية الشام فوطئها وطأة جمع الله بها لهم شتات العرقه ، وأحمد بها بينهم
مار الفتنة .

وأما الجزيرة فإنه ألقاها وهي كالبحر الخيل ، فاستأصل الله به منها شأفة الداء ، وأطفأ به
عسا نوادر السهواء ، وحرَّ أمير المؤمنين من معرله الذي هو به منزلاً جمع من بسطته
في الموضع ، ورفاهيته في المعاش ، أنه حاملٌ للحدود ، جامعٌ للرافق ، فاشتر أمره أمراً آمراً ،
حتى إذا استدير له منها مبرم ، استقبل بعده حسام متقص ، وإذا أشخ من ثوره ثمراً
لم يرص حتى يستع من حصون أعدائه حصصاً ، وإذا فعي الله عنه حجة ، وصل خطوه
مها عزراً ، ثم رأيا ما عزم الله به عليه من ترك الصوائف مراقباً للذى كان من عموط
أهل الشام لما كانوا فيه من العمة ، فلم تشكك في أنه توفيق من الله له وأفق تحطاً
عليهم حتى استباحوا الحرم ، ونسافكوا الدماء ، وقصوا ما بينهم من مبرم حبل الإسلام .

ومن ذلك أن أرمينية كانت فيها جودٌ تخرح عليهم أطلع تحمل اليها ، بسد أعتابهم
بإخراجهم الأموال من كور الشام ، فلما رأى ذلك فعل كذا وكذا ، فلم يتوكل على الله في أمره
هوكله الى نفسه ، ولم يكنف به في حفظ طرف أوقاصية نفير إلا كفاه مؤوسه ، وعلم أن
ما يحل من أصعاف العافية من عوارص الليل ، إنما هو تقدير من الله لا يتمتع بعذر ،
ولا يستطيع دفعه بحيلة . يصبب به أقواماً بالبلايا والتمحيص ، ويقسم فيه لأقوام الأجر
والجهاد والسعادة ، فرأى أب في عاجل ما يرفع عن أهل أرمينية من صرر مؤوتهم
ونمطهم ممأ للربعة ، وإحمالاً للقي . ورقفاً بالعامة مع اقتصاده في الأبواب على أكتاف
حجبتها ، وى سائر أرمينية على المفايلة من أهلها ، ولم يزل مد أراه الله ذلك ، يكنفه مؤونة
ذاك الثغر ، ويكف عنه وائقه ، حتى كأنه في هدوء الأحداث عنه ، وسكون الأفتلة من

رَوَعَاتِهِ مَضْرُومٍ مِنَ الْأَمْصَارِ ، وَاسِطُ الْحَلَّةِ مَأْمُونُ النَّازَةِ . فَلَمَّا آغْنَمَ خَاقَانُ مَا آغْنَمَ ، وَاتَهَزَّ
الْفُرْصَةُ مُبَادِرًا ، لِمَا قَدْ أَقْبَنَ مِنْ مَعَالِجَةِ الْمُؤْمِسِ إِيَّاهُ ، فَكَانَتْ حِينَ بَلَّغَهُ ذَلِكَ مِنْ إِعْطَامِهِ
إِيَّاهُ بِسَبَبِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْصَبَ فِيهِ مِنْ بَذْنِهِ ، وَأَشْهَرَ فِيهِ مِنْ لَيْلِهِ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ مِنْ مَهَارِهِ ، لَمْ يَعْلَمْ
الَّذِي يَكُونُ مِنْ أَشْتَاهِهِ فِي الْأَرْمِيَةِ الْمَاصِيَةِ قَسْلَهُ ، وَأَنَّهُ بِذَلِكَ لِحْدُ عَالَمٍ ، غَيْرَ أَنَّ حَيْثَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَشَفَقَتَهُ عَلَيْهِ وَأَمْتَاعَهُ مِنْ أَنْ يُتَنَاقَلَ شَيْءٌ مِنْ أَطْرَافِهِ ، قَدْ زَادَ ذَلِكَ عِنْدَهُ قَدْرًا
فِي الْعِظَمِ ، وَتَعَاقُفًا فِي الْخَطْبِ ، حَتَّى أَكَلَ الْعَمْتُ مَا كَثَرَ الْعِدَدُ ، وَأَكَلِ الْعُدَّةُ ، وَأَسْتَقْبَلَ
أَهْلُ الْكُورِ وَالْأَمْصَارِ ، وَدَبَّ لَهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ مَنْ لَمْ يَتْرِكْ مَعَهُ نَهَاجًا فِي التَّحْيِيرِ ، وَكَانَ
قَدْ صَرَفَ بَالَهُ إِلَى هَذِهِ الثَّقَرَيْنِ مِنَ الْخُرُورِ وَالرُّومِ ، وَإِلَى هَذِهِ السَّدُورَيْنِ الْحَارِيَيْنِ لَهُ مِنَ
الْمَارِيقَةِ الْمُتَعَصِّصَةِ .

فَلَمَّا بَلَغَ اللَّهُ فِي إِحْكَامِ أَمْرِهِمَا مَا بَلَغَ ، لَمْ يَسْتَعِنِ عَنِ إِعَادَةِ الظُّلْمِ فِي أَمْرِ غَيْرِهِمَا مِنْ
نَوَاحِيهِ لِيَسْتَبْرَأَ بِهِ ، وَإِرَادَتِهِ فِي أَقْوَامٍ يُدَافِعُ ظُلُومَهُمْ بِهِ فِي أُخْرَى ، وَعَلِمَ غَيْرُهُمَا أَنَّ مَا تَمِيلُ
مَنْ بِمَدِيَسَةِ السَّلَامِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْأَرَاغِ نَتِيجَةُ مَكْرُوهَةٍ ، فَشَحَصَ عَمَّا لَتَحْقِيقِ ذَلِكَ مُؤَثِّرًا
لِأَبْعَضِ وَطَنِيهِ عَلَى أَحَبِّهِمَا وَأَخْشَنَ عَيْنَيْهِ عَلَى أَلَيْهِمَا ، فَلَمَّا ظَهَرَتْ لَهُ الْعَوْرَةُ أَقْدَمَ إِقْدَامًا
ذِي الْحَمَةِ ، فَلَمْ يَرْمِثْهَا نَارًا خَتَتْ ، وَبِحِمَاةٍ أَفْشَعَتْ ، لَمْ يَسْفِكْ بِهَا دَمَ أَمْرِيٍّ مُسْلِمٍ صَدْرًا ،
وَلَمْ يَنْتَهِكْ فِيهَا حُرْمَةَ مُحَرَّمٍ إِحَادَةً .

وَذَلِكَ أَنَّهُ بَسَطَ يَدَهُ بَسْطًا مِنْ يُرِيدُ الْأَسْتِصْلَاحَ لَا مِنْ يُرِيدُ الْأَنْتِقَامَ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الظَّالِمُ
أَنْ رَجَعَ عَنْ ظُلْمِهِ ، وَالْبَاطِلُ أَنْ صَمَتَ عَنْ بَذْنِهِ ، وَالْبَاكِتُ أَنْ رَجَعَ إِلَى قَصْدِهِ ، وَأَزْدَادُ
الْبِرِّ عَلَى الْبِرَاءَةِ فَرَحًا ، وَالسَّالِمُ بِالسَّلَامَةِ أَغْنَابًا ، وَلَمْ تَزَمْ مِثْلَهُ مِمَّا أَفْصَى اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ
حِلَافَتِهِ ، وَحَمَلَهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ، أَمَا لَيْلُهُ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ فِيهَا وَأَسْتِصْنَاتِهِ إِيَّاهُ عَلَيْهَا فَسَاهِرُ ،
وَأَمَا تَهَارُهُ فِي حَلْبِ قَيْثِهَا وَإِحْكَامِ أُمُورِهَا قَتِيبُ ، وَأَمَا صَلَاقَتُهُ عَلَى فِقْرَاتِهَا وَأَهْلِ الْحَاجَةِ
بِغَارِيئِهِ ، وَأَمَا تَخْلُسُهُ مِنْ قَهْقَانِهَا وَصُلَحَاتِهَا فَنَاقُصُ ، وَأَمَا عِلْقَلَتُهُ عَلَى طَالِمِهَا مَتِينَةٍ ، وَأَمَا
أَفْضَالُهُ لِمَظْلُومِهَا قَبْسُوطَةٌ ، وَلَئِنْ كَانَتْ الْحَقُّ أَلَزَمَ أَقْوَامًا اسْتَوْجَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأُمُورِهِمْ ،

إنا لنعلم أن ما ترك أكثر، وأنه لولا ما خفف من الوطء على أقوام لحل الواحد منهم مثل الذى حمله للجميع ، ولكنه رضى بالعمو، ونحاً نفساً عن الاستقصاء، فأوجب أن يسطر يداً بعلطة ويتبعها أخرى يليى؛ فكان من ذلك نظره فى هذه النقايا التى هى فى المسلمين ومأل الله ، غير أن الله جعله قيمة فيه ، وى أحده وصرفه وى وحوه ، فلما رأى ضراوة الحال بها ومصائبهم كوثها ، وأن قد صارت كاللثة اللازمة لا يدعها عفيفهم تورثها ، ولا شريفهم تنزهها ، أحب مع توفيره للمسلمين فيهم ، أن تحدث لهم أدياً يقطع به عنهم أهل الضراوة ، ويعرف به ذوو الاستحفاف بالأمانة ، والأمر للثمة ؛ أن عليهم من تحقده وأديه عينا ترمى ، ويذا تقيض ، ولو أنه حين هم بأحد تلك القاما حل على المؤبر فقد يسهاره ، وأحد المصير طاعته ، كان قد أنصف ، كلاً ! ولكنه أحب أن يستقى قوة ، ولا يبلغ من الكثير جهداً ، وأقصر بهم على العشر من ذلك ، كرمًا فى القدره حين رأى موضع الرقى ، ونحاق عن العلة حين عرف مكان القدر ، فإى نعمة أعظم ، وإى بلاء أحسن من هذه النقايا كانت فى أيديهم جُماماً ، فلما أطلع ظلمها ، وأخذ ما أخذ ، وترك ما ترك ، محلاً مع ما جعل الله فى ذلك من [كلمات] المقصر من الحال المؤذية التى لم تكن تعدوا أفواههم ، فليس منهم أحد إلا وكان معه له واعط إلا يكبر شيئاً من الخراج قضيباً ، أو يأخذ عولاً أو ينفقه إسرافاً ، أو يتركه إرهاباً .

فلما نزع من علاج الداء الخوف وأسأصله ، ومن التى المتفرق بجمعه ، ومن الأمور الممطرة فاحتكها ، استخلف على القيام بذلك من يحويه عقله عن حذر ، ولا إضاعة عن حفظ ، ولا لين عن تشدد ، ولا يستعمل الأ كف عن تقضى ما أبرم ، ولا مزاوله ما أحكم ، ولا تقع ما أفلق ، ولا إغلاق ما فتح ، فلان حيرة أبويه ، ومخ بيضته ، وجوهر أرومته ، الفات سبقا ، اللين عدواً ، الراجع عرقاً ، المنفجر بجرماً ، المحمود أمراً ، القائل فصلاً ،

(١) الصراوة : الهج بالنى . والإمراء به . (٢) فى الأصل : «لم» والسياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وضعت هذه الكلمة لأنها تنحى والسياق ، ومكانها فى الأصل يابس . (٤) البلول : الطعام أو الشراب

الذى يدخل فى الجوف .

الحاكم عدلاً، ثم أنصرف بما آفاده الله من الأجر إلى جَنَاحِهِ الذي كان مَدَّهُ على من خَلَفَ من الأهل والأموال والزوايا والجنود، فلان سلبه صُلْبُهُ، وثَمَرَةُ قَلْبِهِ، المُتَحَنِّكُ مع قَتَاءِ سِتِّهِ عَقْلاً، والمأمون مع شِدَّةِ شَكِيمَتِهِ حَمَلاً، والمحصد مع لينه وتعطفه أَمْراً، الشبيه بأمير المؤمنين إن تَلَقَّ نُطْقاً، وإن نَظَرَ لُحْطاً، وإن سَئَلَ جُوداً، وإن اِهْتَصَرَ عُدُوداً، وإن سَاسَ رِيقاً، وإن غَضِبَ حَمَلاً، وإن وَصَفَ عِلْماً، وإن كَلَّمَ قَهْماً، وإن قَدَّرَ حَقَّاً، وإن لَقِيَ بِشْراً، وإن نَازَعَ قُبْحاً، وإن قَارَعَ ظُلْماً، فكان عَدْلُهُ به، رِعايَةُ الْحُرْمَةِ، وَحَرَمًا في المَكِيدَةِ، وَحَلْبًا لِلْفِتَنِ، وَحِياطَةً لِلْغَائِبِ، ومباشرةً للشاهد، هذا قليلٌ من كثير. ثمَا جَعَلَكَ اللهُ أَهْلَهُ، وَإِنَّمَا أَقْتَصَرْتُ عَلَيْهِ لِأَنِّي رَأَيْتُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْخُلَطَاءِ تَرْكُوهُ، وَأَن مَّا سَمِعْتُ مِنَ الْكُتُبِ الْمَقْرُوءَةِ لَمْ تَنْظُمُهُ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَمِلَ بِهِ فِي رَعِيَّتِهِ حِجَّةً وَاضِحَةً، وَعِذْرًا مَعْرُوفًا، إِنْ قَامَ بِهِ مِنْكُمْ فِي خَاصَّةٍ حَسُّ مَوْقِعِهِ، وَإِنْ قُرِئَ بِهِ تَحَابُّ فِي عَاقَةِ، فَوَيْتَ بِهِ حِجَّتَهُ.

والْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ وَذَرِيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ هَذِهِ النِّعَمِ، وَالْمَخْصُوصِينَ بِهَذِهِ الْعِصَائِلِ، وَنَسَّاهُ أَنْ يُبَيِّنَهُ وَإِيَّاهُمْ لِلَّذِينَ سَدَّ بِهِمْ حُورَتَهُ، وَالْحَقُّ الَّذِي أَقْرَبَهُمْ جَادَّتَهُ، وَالْعَدْلُ الَّذِي أَوْضَحَ بِهِمْ أَعْلَامَهُ، حَتَّى يَكُونُوا وَرَثَةَ هَذِهِ الْأُمَةِ وَحُلَافَاءَهَا فِي عَابِرِ الدَّهْرِ، وَبَاقِيَاتِ الْأَيَّامِ؛ مُسْتَقْلِينَ بِالْعَدْلِ، مُوَفِّقِينَ لِلسَّدَادِ، مَعْصُومِينَ مِنَ الشُّبُهَاتِ، مُسْتَوْحِينَ مَعَ فَضَائِلِ الدُّنْيَا لِأَفْضَلِ كَرَامَاتِ الْمَعَادِ. ^(١) وَالسَّلَامُ.

(١) هذه الرسالة ورسالة أبي الزبير محمد بن أبي الليث السائفة من كتاب اختيار المطبوع والمنثور لابن طيمور.

كتب الرشيد

١ - كتاب عهد البيعة^(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين في صحة من عقله ، وحوار من أمره ، طائفاً بمرئيه ، إن أمير المؤمنين ولاني العهد من بعده ، وصير البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً ، وولي عبد الله بن هارون أمير المؤمنين العهد والخلافة ، وجميع أمور المسلمين بعدى ، برضا مني وسلم ، طائفاً بمرئيه . ولله خراسان وثغورها ، وكورها وحربها ، وجندتها وحراحتها ، وطرازها وبريدها ، وبيوت أموالها وصداقاتها ، وعشرها وعشورها ، وجميع أعمالها في حياته وبعده ، وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، برضا مني وطيب نفس ، أن لأخى عبد الله بن هارون على الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين : من العهد والولاية والخلافة ، وأمور المسلمين جميعاً بعدى ، وتسليم ذلك له وما حيل له من ولاية خراسان وأعمالها كلها ، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطعة ، أو جعل له من عقده أو صبيحة من صياحه ، أو ابتاع من الصياع والعقد ، وما أعطاه في حياته وممته من مال ، أو حلي أو جوهر ، أو متاع أو كنسوة ، أو منبر أو دواب ، أو قليل أو كثير ، فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، موقراً عليه مسلماً له . وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً ، فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت ، وأفضت الخلافة الى محمد بن محمد ، فعل محمد إنعاد ما أمره به هارون أمير المؤمنين ، في توليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ، ومن ضم إليه من أهل بيت أمير المؤمنين بقرامسين^(٢) ، وأن يمتحن عبد الله بن أمير المؤمنين الى خراسان والرعي ، والكور

(١) هذا العهد ورد في تاريخ يعقوب (ح ٢ ص ٥٠٢ طبع ليد) ووجه عبارات تحالف ما أنشأها

عن الطبري . (٢) قرماسين : موضع بين الزبيدية ومكة .

التي سماها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وعيره ،
من سلطان أمير المؤمنين ، وجميع من صم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لذن الرى .
الى أقصى عمل نراسان ، ليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عه قائدا ولا مقودا
ولا رجلا واحدا ممن صم إليه من أصحابه الذين صمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحول
عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولّاه إياها هارون أمير المؤمنين : من ثور نراسان
وأعمالها كلها ، ما بين عمل الرى مما على همدان الى أقصى نراسان ، وثورها وبلادها ،
وما هو منسوب إليها ولا يخصه إليه ؛ ولا يفرق أحدا من أصحابه وقواده عه ، ولا يؤتى
عليه أحدا ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله وولّاه أموره ^(١) بتدرا ولا عاسا ولا عاملا ،
ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير صررا ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله
برأيه وتديره ، ولا يعرض لأحد ممن صم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحّابته ، وقصّاته
وعمله ، وكتابه وقواده ، وخدمته ومواليه وجده ، بما يلتمس إدخال الصرر والمكروه عليهم
في أنفسهم ، ولا قرّباتهم ولا مواليتهم ، ولا أحد يتنسل منهم . ولا في دمايتهم ولا في أولادهم ،
ولا في صبياعهم ودورهم ، ورياعهم وأمتهم ، ورفيقهم ودوابهم ، شيئا من ذلك صغيرا
ولا كبيرا ؛ ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه ، وبتحريض له في ذلك ، وإدخاله
فيه لأحد من ولد آدم ، ولا يحكم في أمرهم ، ولا أحد من قصّاته ومن عماله ، ومن كان
بسبب منه ، فير حكم عبد الله أس أمير المؤمنين ورأيه ورأى قصّاته ، وإن نزح إليه أحد
ممن صم أمير المؤمنين الى عبد الله ابن أمير المؤمنين ، من أهل بنت أمير المؤمنين وصحّابته ،
وقواده وعماله وكتابه وخدمته ، ومواليه وجده ، ورفص آسمه ومكّته ومكانته مع عبد الله
ابن أمير المؤمنين ، عاصيا له ، أو عالما عليه ، فعلى محمد ابن أمير المؤمنين رده الى عبد الله
أس أمير المؤمنين ، يصقر له وقاء ^(٢) ، حتى يُقعد فيه رأيه وأمره ، فإن أراد محمد أس أمير المؤمنين
حلّ عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية المهدي من بعده ، أو عزّل عبد الله أس أمير المؤمنين

عن ولاية خراسان ، ونعورها وأعمالها ، والدى من حد عملها مما بلى همدان ، والكُور التي سماها أمير المؤمنين في كتابه هذا ، أو صَرَفَ أحد من قواده الذين صتمهم أمير المؤمنين إليه ، ممن قديم قرماتين ، أو أن يتقصه قليلا أو كثيرا ، مما جعله أمير المؤمنين له ، بوجه من الوجوه ، أو بحيلة من الحيل ، صَعُرَتْ أو كَبُرَتْ ، فَلَعِبَ الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو الْمُقْتَدَم على محمد بن أمير المؤمنين ، وهو ولي الأمر من بعد أمير المؤمنين ، والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون ، من أهل خراسان وأهل المطاء ، وجميع المسلمين وجميع الأجداد والأمصار لعبد الله بن أمير المؤمنين والقيام معه ، والمجاهدة لمن خالفه ، والنصر له والذئب عنه ، ما كانت الحياه في أمانهم ، وليس لأحد منهم جميعا من كانوا أو حيث كانوا أن يحالوه ولا يعصيه ، ولا يخرج من طاعته ، ولا يطيع محمد بن أمير المؤمنين في حلق عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، وصَرَفَ المهدي عنه من بعده إلى غيره ، أو توقصه شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، في حياته وصحته ، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام ، وفي هذا الكتاب ، وعبد الله بن أمير المؤمنين المصدق في قوله ، وأتم في حل من البيعة التي في أضافكم لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، إن نقص شيئا مما جعله له أمير المؤمنين هارون ، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله بن أمير المؤمنين هارون ، ويُسَلِّمَ له الخلافة ، وليس لمحمد بن أمير المؤمنين هارون ، ولا لعبد الله بن أمير المؤمنين ، أن يحلما القاسم بن أمير المؤمنين هارون ، ولا يقدموا عليه أحدا من أولادهما وقراباتهم ، ولا غيرهم من جميع البرية ؛ فإذا أمضت الخلافة إلى عبد الله بن أمير المؤمنين ، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من المهدي للقاسم بعده ، أو صَرَفَ ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته ، وتقديم من أراد أن يقدم قبله ، وتفسير القاسم بن أمير المؤمنين بعد من يقدم قبله ، يحكم في ذلك بما أحب ورأى ، فعليكم تمسك المسلمين إلتاذا ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا ، وشرط عليهم وأمر به ؛ وعليكم السمع والطاعة لأمر المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله بن أمير المؤمنين ؛

وعهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذم المسلمين ، واليهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقرين والنبیین والمرسلين ، ووثقها في أعتاق المؤمنين والمسلمين ، لتَفَنُّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، ولمحمد وعبد الله والقاسم بنَي أمير المؤمنين بما سَمِيَ ، وكتب في كتابه هذا واشترط عليكم ، وأقرتم به على أنفسكم ، فإن أتم بذلتم من ذلك شيئاً ، أو عيتم أو نكحتم ، أو حالتم ما أمركم به أمير المؤمنين ، واشترط عليكم في كتابه هذا ، فَبَرَّثُ منكم ذمة الله ، وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وذم المؤمنين والمسلمين ، وكل مال هو اليوم لكل رجل منكم ، أو يَسْتَعِيدُهُ إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين ، وعلى كل رجل منكم المثنى إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجة ، نذراً واجباً ، لا يقبل الله منه إلا الوفاء بذلك ، وكل مملوك لأحد منكم ، أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة حر ، وكل امرأة له فهي طالق ثلاثاً التة ، طلاق الحرج لا مثنوية فيها ، والله عليكم بذلك كميلٌ وراعي ، وكفى بالله حسيباً .

٢ — نسخة الشرط الذي كتب عبد الله بن أمير المؤمنين

بخط يده في الكعبة

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين ، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين ، في تحية من عقله ، وجوار من أمره ، وصدق نية فيما كتب في كتابه هذا ، ومعرفة بما فيه من الفصل والصلاح له ولأهل بيته وحاميه المسلمين .

إن أمير المؤمنين هارون ولأى المهدي والخلافه ، وجميع أمور المسلمين في سلطانه ، بعد أخى محمد بن هارون ، ولأى في حياته تُنَوَّرُ خراسان وتُكْرَمُها وجميع أعمالها ، وتشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عَقَدَ لى من الخلافه ، وولاية أمور العباد والبلاد بعده ، وولاية خراسان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لى في شيء مما أُنْفَضَ أمير المؤمنين ، وأبتاع لى من الضياع والعقد والرّباع ، وأبتعت منه من ذلك ، وما أعطانى أمير المؤمنين من الأموال ، والجواهر واليكساء ، والمتاع والدواب ، والرقيق وغير ذلك ، ولا يعرض لى ولا لأحد من

عَمَّالِي وَتُكَلِّي سَبَبِ مَحَاسَةِ، وَلَا يَتَّبِعْ لِي فِي ذَلِكَ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَبَدًا، وَلَا يُدْخِلْ عَلَيَّ وَلَا عَلَيْهِمْ، وَلَا عَلَيَّ مِنْ كَالٍ مَعِي، وَمَنْ أَسْتَعِثْتُ بِهِ مِنْ حَمِيقِ النَّاسِ مَكْرُوهًا فِي هَسٍّ وَلَا دَرَمٍ وَلَا شَعِيرٍ وَلَا بَشِيرٍ وَلَا مَالٍ، وَلَا صَغِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ وَلَا كَبِيرٍ، فَأُجَابُهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَقْرَبُهُ، وَكَتَبْتُ لَهُ كِتَابًا أَتَكَدُّ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَرَضِي بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ، وَقِيلَ لَهُ وَعَرَفَ صَدَقَ بَيْتُهُ فِيهِ، فَشَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلْتُ لَهُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَسْمَعَ لِمُحَمَّدٍ، وَأَطِيعَ وَلَا أُغْصِبِهِ، وَأَنْصَحَهُ وَلَا أَحْسَبُهُ، وَأَوْقِي بَيْتَهُ وَوَلَايَتَهُ، وَلَا أَعْدُو وَلَا أُنْكُثُ، وَأُعَدُّ كُتُبَهُ وَأُمُورَهُ، وَأُحْسِنُ مُؤَاوَزَتَهُ وَجِهَادَ عَدُوِّهِ فِي مَا حَقَّي. مَا وَفَّقَ لِي بِمَا شَرَطْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِي، وَسَمَّيْتُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَضِي بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمْ يَبْقِ بَشِيرٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي شَرَطْتُهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِي عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْتَاجَ مُحَمَّدُ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى جُنْدٍ، وَكَتَبَ إِلَيَّ بِأَمْرِي بِإِشْخَاصِهِ إِلَيْهِ، أَوْ إِلَى مَا حَقَّي مِنَ التَّوَاحِي، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَائِهِ حَالَهُ، أَوْ أَرَادَ تَقْصُ شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ أَوْ سُلْطَانِي الَّذِي أَسْتَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَوَلَّيْنَا لِإِيَّاهُ، فَعَلَّ أَنْ أُنْقِذَ أَمْرَهُ، وَلَا أَحَالَهُ وَلَا أَقْصُرُ شَيْءًا كَتَبْتُ بِهِ إِلَيْكَ، وَإِنْ أَرَادَ مُحَمَّدُ أَنْ يُوَلِّيَ رَجُلًا مِنْ وَلَدِهِ الْمَهْدِ وَالْخِلَافَةِ مِنْ عَدُوٍّ، فَدَلَّكَ لَهُ مَا وَفَّقَ لِي بِمَا جَعَلْتُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيَّ، وَأَشْرَطْتُ لِي عَلَيْهِ، وَشَرَطْتُ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرِي، وَعَلَى إِعَادَةِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءُ لَهُ بِهِ لَا أَقْصُصُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أُغَيِّرُهُ وَلَا أُنْزِلُهُ وَلَا أَقْدِمُ قَدًّا أَحَدًا مِنْ وَلَدِي وَلَا قَرِيبًا وَلَا صَبِيًّا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونُ أَحَدًا مِنْ وَلَدِهِ الْمَهْدِ مِنْ بَعْدِي، فَيُلْزِمَنِي وَمُحَمَّدًا الْوَفَاءَ لَهُ، وَجَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُحَمَّدَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا شَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَّقَ لِي مُحَمَّدٌ بِمَجْعٍ مَا اشْتَرَطْتُ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمُسَمَّاةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ لِي، وَعَلَى عَهْدِ اللَّهِ وَمِيثَاقِهِ، وَذِمَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِي، وَذِمَّةِ آثَانِي وَذِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشَدُّ مَا أَحَدُ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ مِنْ حَلْفِهِ أَجْمَعِينَ، مِنْ عَهْدِهِ وَمَوَاقِفِهِ، وَالْإِيمَانُ الْمُؤَكَّدَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا، وَنَهَى عَنْ تَقْصِصِهَا وَتَبْدِيلِهَا، فَإِنْ أَنَا تَقَضَّيْتُ شَيْئًا بِمَا شَرَطْتُ

وسميت في كتابي هذا، أو غيرت أو بدلت أو نكثت أو عدلت، هربت من الله عز وجل، ومن ولايته ودينه، ومجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقيت الله يوم القيامة كافرا مشركا؛ وكل امرأة هي لي اليوم، أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثا البتة، طلاق الحرج، وكل مملوك هو لي اليوم، أو أملكه إلى ثلاثين سنة، أحرار لوجه الله؛ وعلى المنشئ إلى بيت الله الحرام الذي بمكة ثلاثين حجة، ندرا واجبا على في عني، حافيا راجلا لا يقبل الله مني إلا الوفاء بذلك، وكل مال لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمر المؤمنين، وشرطت في كتابي هذا لازم لي، لا أضمير غيره، ولا أنوى غيره . وشهد سليمان بن أمير المؤمنين، وفلان وفلان . وكُتِبَ في ذي الحجة سنة ست وثمانين ومائة .

٣ — نسخة كتاب الرشيد إلى العمال

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله ولي أمير المؤمنين وولي ما ولّاه، والحافظ لما أسترعاه، وأكرم به من حالته وسلطانه، والصانع له فيما قدم وأخر من أموره، والمنعم عليه بالصر والتأييد في مشارق الأرض ومغاربها، والكاظم والحافظ والكاوي من جميع خلقه، وهو الم محمود على جميع آلائه، المستول تمام حسن ما أمسى من قضائه لأمر المؤمنين وعادته الجميلة عنده، وإلهام ما يرصى به ويؤوح له عليه أحسن المزيّد من فضله، وقد كان من نعمة الله عز وجل عد أمير المؤمنين وعدك وعد عوام المسلمين ما تولى الله من محمد وعبد الله أبني أمير المؤمنين من تليعه بهما أحسن ما أملت الأمة ومدّت إليه أحافها، وقذف الله لها في قلوب العامة من المحبة والمودة والسكون اليهما والتفه بهما ليماد ديهم وقوام أمورهم وجمع ألفتهم وصلاح دفتهم ودفع المحدث والمكروه من الشتات والفرقة عنهم حتى ألقوا اليهما أزمته، وأعطوهما بيعتهم، وصعقات أيمانهم بالعهود والمواثيق ووركيد الإيمان المغلظة عليهم؛ أراد الله فلم يكن له مرد، وأمنه فلم يقدر أحد من العباد على قصه ولا إزالته، ولا صرف له عن محبته ومشيلته، وما سبق في علمه منه؛ وأمر المؤمنين يرجو تمام النعمة

عليه وطلبهما في ذلك، وعلى الأمة كافة لاعاقب لأمر الله ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولم يزل أمير المؤمنين مد اجتمعت الأمة على عقد العهد لمحمد ابن أمير المؤمنين من بعد أمير المؤمنين، ولعبد الله ابن أمير المؤمنين من بعد محمد ابن أمير المؤمنين بعمل فكره ورأيه ونظره ورويته، فيما فيه الصلاح لها ولجميع الرعية، والجمع للكلمة، والألم للشمات، والدفع للشتات والعرفه، والحسم لكيد أعداء النعم من أهل الكفر والعمى، والعسل والشفاف، والقطع لآمالهم من كل فرصة يرجون إدراكها وأنهازها، منها بانتقاص حقهما، ويستتير الله أمير المؤمنين في ذلك ويسأله العزيمة له على ما فيه الخير لها، ولجميع الأمة والقوة في أمر الله وحقه وأنتلاف أهوائها، وصلاح ذات بينهما، وتحصينهما من كيد أعداء النعم، ورد حسدكم ومكرهم وتعينهم وسعيهم بالعناد بينهما، فحرم الله لأمر المؤمنين على الشخصين بهما الى بيت الله وأحد البيعه منهما لأمر المؤمنين بالسَّمع والطاعة والإسعاد لأمره، واكتتاب الشرط على كل واحد منهما لأمر المؤمنين ولها مائة المواثيق والعهود، وأعطى الإيمان والتوكيد، والأخذ لكل واحد منهما على صاحبه بما اتفقت به أمير المؤمنين اجتماع ألفتها وموتنتها وتواصلها ومؤازرتها ومكافئتها على حسن الطر لأمرهما، ولرعية أمير المؤمنين التي استرعاها، والجماعة لدين الله عز وجل وكتابه وسُنن نبيه صلى الله عليه وسلم، والجهاد لعدو المسلمين من كانوا وحيث كانوا وقطع طمع كل عدو مطهر للعداوة وميسر لها، وكل مافق ومارق، وأهل الأهواء الصالة المصالة من فرقة تكيد بكيد توقعه بينهما، وتدحس^(١) يدحس به لها، وما يلتمس أعداء الله وأعداء النعم وأعداء ديسه من الصرب بين الأمة والسعي بالعناد في الأرض، والدعاء الى البدع والصلالة، نظراً من أمير المؤمنين لدينه ورجيته، وأمه نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما صحه الله ولجميع المسلمين، ودعاً عن سلطان الله الذي قدره وتوحد فيه للذي حملة لإياه، والاجتهاد في كل ما فيه قربة الى الله، وما ينال به رضوانه والوسيلة عنده .

فلما قَدِمَ مَكَّةَ أظهرَ لمحمد وعبد الله رأيه في ذلك وما نَظَرَ فيه لها، فَبَيَّلَا كُلَّ مادامها اليه من التوكيد على أنصهما بقوله، وَكَتَبَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي طَلَبِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمُخْطُوطٍ أَيْدِيهِمَا بِمَحْصَرٍ مِنْ شَهِدِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَوَّادِهِ، وَصَحَابَتِهِ وَقُصَّائِهِ، وَحُجَّةِ الْكُتُبَةِ وَشَهَادَاتِهِمْ عَلَيْهِمَا، كَتَابَيْنِ اسْتَوْدَعَهُمَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْحَبَّيَّةَ، وَأَمْرَ بِتَعْلِيْقِهِمَا فِي دَاخِلِ الْكُتُبَةِ؛ فَلَمَّا فَرَّخَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي دَاخِلِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَبَطْنِ الْكُتُبَةِ، أَمَرَ قُصَّائِهِ الَّذِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِمَا وَحَضَرُوا كِتَابَهُمَا أَنْ يُبْلِغُوا جَمِيعَ مَنْ حَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَاجِّ وَالْمُعَامَرِ وَوَفُودِ الْأَمْصَارِ، مَا شَهِدُوا عَلَيْهِ مِنْ شَرْطِهِمَا وَكِتَابِهِمَا وَقِرَاءَةِ ذَلِكَ طَيْبِهِمْ، لِيُقَهِّمُوهُ وَيَعُوَّهُ وَيَعْرِفُوهُ وَيَحْفَظُوهُ وَيُؤَدُّوهُ إِلَى إِخْوَانِهِمْ وَأَهْلِ مِلْدَاهِمِ وَأَمْصَارِهِمْ، فَعَمَلُوا ذَلِكَ، وَقُرِئَ طَيْبُهُمُ الشَّرْطَانِ جَمِيعًا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَأَنْصَرَفُوا وَقَدْ اشْتَبَرَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ، وَأَنْتَبَهُوا الشَّهَادَةَ عَلَيْهِ، وَعَرَفُوا نَظَرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِنَايَتَهُ بِصِلَاحِهِمْ، وَحَقَّنَ دِمَائِهِمْ وَلَمْ شَعْنَهُمْ، وَإِطْعَمَهُ بِجَمْرِهِ أَعْدَاءُ اللَّهِ وَأَعْدَاءُ دِينِهِ وَكِتَابِهِ وَجَمَاعَةُ الْمُسْلِمِينَ عَنْهُمْ، وَأَظْهَرُوا الدُّعَاءَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالشُّكْرَ لِمَا كَانَ مِنْهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ نَسَخَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذِيكَ الشَّرْطَيْنِ اللَّذَيْنِ كَتَبَهُمَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبَاهُ مُحَمَّدٌ وَصَدَّ اللَّهُ فِي بَطْنِ الْكُتُبَةِ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ هَذَا؛ فَاحْمَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَا صَحَّ لِمُحَمَّدٍ وَعَبْدِ اللَّهِ وَلِيَّيْ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ حَمْدًا كَثِيرًا، وَأَشْكِرُهُ بِبِلَانِهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَدَ وَلِيَّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ وَعِنْدَكَ وَعِدَ حِمَاةَ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا؛ وَأَقْرَأَ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَعِيْنَهُمْ لِيَأَيَّاهُ، وَقُمَّ بِهِ بِهِمْ وَأَمْنَتُهُ فِي الدِّيْوَانِ قَبْلَكَ، وَقَبْلَ قَوَّادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرِعْبَتِهِ قَبْلَكَ، وَأَكْتُبُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا يَكُونُ فِي ذَلِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَحَسْبَا اللَّهُ وَبِعَمِّ الْوَيْلِ، وَبِهِ الْحَوَلُ وَالْقُوَّةُ وَالطَّلَوُ . كَتَبَهُ إِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ يَوْمَ السَّبْتِ لِسَعِ لَيْلِ ثَقِيْنٍ مِنَ الْمُحْزَمِ سِتَّةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .

باب المنظوم

صوّرا لك بالمجلد الأول حالة الشعر في صدر الدولة العباسية وذكرنا لك جملة صالحة من شعراء ذلك العصر ووعداك بذكر مختارات من شعرهم، وإليك ما وعدناك به .

١ - بَسَّارُ بْنُ بُرْدِ الْعُقَيْلِيِّ^(١)

سأله المهدي لما دخل عليه فقال له . **فِيمَنْ تُنْتَدِ بِبَسَّارٍ** فقال : **أَنَا النَّسَائُ وَالرِّئَاسَةُ**
فَرَبَّيَّانِ ، وأما الأصل **فَصَجِيئِي** ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :
وَنَنْتُ قَوْمًا بِهِمْ حِجَّةٌ يَقُولُونَ مَنْ دَا وَكُنْتُ الْعَلَمُ
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلُ حَاجِدًا لِيَعْرِفَنِي أَمَا أَنْفُ الْعَكْرَمِ

(١) هو أبو معاذ بن بشار المرحوم من ردة أشعر محصري الدولة ، ورأس الشعراء المحدثين ، ومجهد طريق الاختراع ، والديع للتصنيف ، وأحد العلماء المكفوفين . وأصله من فارس طعارسدان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ووقع ملك أوييه لدى عقيل بن كعب ، شاعرا منهم وترى في مزارعهم ، واحتلف إلى الأعراب العارفين بالصرة حتى حرج بأبيه ومناه في الفصاحة والشعر . وكان أكله محدود الوجوه ، فبجح المظهر ، مقرط الطول ، صمم الحنة ، متوقد الله كاد ، صادق الحس ، لطيف الدواية ، شديد المهور والاستحفاف بالناس ، كثير الاستهتار بالدين ، قليل المالاة للواقع فيه ، متبها بالزبدقة شعوبيا ، متصفا على العرب ، شديد التبرم بالناس ، هاشا لأعراسهم ، لا يسلم من لسانه حليقة ولا سوفة ، وكان من سعادة الرجل من أهل الصرة ألا يعرف بشارا ولا بشار يعرفه ، فانه إن لم يصبه في عرصة أصابه في ماله . وقد بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، وما طلع الحلم إلا وهو محشئ بمعزة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر وقد تده على أن بشارا هو رأس المحدثين وأسقطهم إلى معاطلة الديع ، وطرق أبواب المجهود والحلافة والبرق الزيق الحصري والمضاء المقدع .

وأما أول من جمع بين شعره بين حروال العرب ورفقة المحدثين ، وفق على المعاني الدقيقة ، والأحيلة الطليقة ، حتى عد شعره رزعا بين الشعر القديم والحديث ، ومخارا يبر عليه الشعر من مراح الدواية إلى مقاصير الحصاراة . وقد طرق كل باب من أبواب الشعر التي عرمت قلبه وأرنى عليها ، وطب عليه المعطاء والتشبيب بالنساء والحروج به عن الخلد المألوف عند أهل دمه ، حتى أنكره عليه العلماء والمتوعدون لما رأوا من سوء أثره في شأن الصرة . وقد سباه المهدي عن التشبيب ، فكان اذا مالت له هسه يذكره ما يشاء ويقول : إن الحليقة معه من كذا وكذا وأما له مطلع .

وممن ذلك حصن قصائد مدح بها الحليقة ، لم يرد على أن حرره الجائزة ، ونحسه على ذلك وزيره يعقوب بن داود ، وكان متورطا فيها مما ، فكان ذلك إلى ريدته سبيلته . توفي سنة ١٦٧ هـ وقد نيب على التسمين . ونجد ترجمته في الأغانى (ج ٣ ص ١٩ وح ٦ ص ٧) وابن حلكان (ج ١ ص ٨٨) والشعر والشعراء (ص ٤٧٦) والمهرست (ص ١٥٩) .

نَمَتْ فِي الْكَرَامِ بَنَى عَامِي * فَرُوْعِي وَأَصْلِي قُرَيْشُ السَّجَمِ
فَإِنِّي لِأَغْنَى مَقَامِ الْفَتَى * وَأُصْهِبُ الْفَتَاهُ مَا تَعْتَصِمُ

وكان أودُ لامة حاضراً ، فقال : كَلَّا ! لَوْجَهْكَ أَفْخَ مِنْ ذَلِكَ ، وَحَمَى مَعَ وَجْهِكَ ،
فَقَالَ بَشَارُ : كَلَّا ! وَاقِهِ مَا رَأَيْتُ رَحْلاً أَصْدَقَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَكْدَبَ عَلَى جُلُوسِهِ مِنْكَ ، وَاقِهِ
إِنِّي لَطَوِيلُ الْقَامَةِ ، عَظِيمُ الْهَامَةِ ، تَأَمُّ الْأُلُوحِ ، أَتَجَبُّ الْخَلْدَيْنِ ، وَلَرَبِّ مُسْتَرْخِي الْمَزُورِينَ
لِلْعَيْنِ فِيهِ مُرَادٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : مِنْ أَىِّ الْعِصَمِ أَصْلُكَ ؟ قَالَ : مِنْ أَكْثَرِهَا
وَالْعُرْسَانِ وَأَشَدَّهَا عَلَى الْأَقْرَادِ ، أَهْلُ طَحَارِيسْتَانَ ؛ فَقَالَ مَعْصُ الْقَوْمِ : أَوْلَيْتَكَ الصُّغْدَ ،
فَقَالَ : لَا ! الصُّغْدَ تَحَارَ ؛ فَلَمْ يَرُدِّدْ ذَلِكَ الْمَهْدِيُّ .

وكان بشار كثير التلون في ولاته ، شديد التشيع والتعصب للعجم ، مرةً يقول يفتخر
بولائه في قيس :

أَمِيتُ دَاصِرَةَ الْعُحْشَاءِ إِنِّي * أَرَى قَيْسًا تُشْتِ وَلَا تُضَارُ
كَأَنَّ النَّاسَ حِينَ تَفِيئُ عَنْهُمْ * نَبَاتُ الْأَرْضِ أَخْطَاءُ الْقِطَارِ
وَقَدْ كَانَتْ يَتَدَمَّرُ خَيْلُ قَيْسٍ * فَكَلْبٌ لَتَدْمُرُ فِيهَا دِمَارُ
بِحَيٍّ مِنْ بَنِي عَيْلَانَ شُويسٍ * يَسِيرُ الْمَوْتُ حَيْثُ يُقَالُ سَارُوا
وَمَا نَقِصَاهُمْ إِلَّا صَدَرْنَا * يَرَى مِنْهُمْ وَهْمَ حِرَارِ

ومرة يتبعا من ولاء العرب فيقول :

أَصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الْجَلَالِ وَبَعْضُهُمْ * مَوْلَى الْعَرَبِ بِحُدِّ بَعْضِكَ فَانْفِرْ
مَوْلَاكَ أَوْ كَرَّمَ مِنْ تَمِيمٍ كُلُّهَا * أَهْلُ النِّعَالِ وَمِنْ قُرَيْشِ الْمَشْعَرِ
فَارْجِعْ إِلَى مَوْلَاكَ غَيْرَ مُدَافِعٍ * سَبْحَانَ مَوْلَاكَ الْأَجَلِّ الْأَكْبَرِ
وَقَالَ يفتخر بولاء بني عُقَيْل :

إِنِّي مِنْ بَنِي عُقَيْلِ بْنِ كَثِيبٍ * مَوْضِعُ السِّيفِ مِنْ كُلِّ الْأَعْيَانِ

وَوُلِدَ بَشَارُ أَعْمَى، فَمَا نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا قَطُّ، وَكَانَ يُشَبِّهُ الْأَشْيَاءَ بِمَعْصَا بَعْضٍ فِي شَعْرِهِ،
فَيَأْتِي بِمَا لَا يَقْدِرُ الْبَصَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، فَقِيلَ لَهُ يَوْمًا وَقَدْ أَتَشَدُّ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ مُثَارَ الْقَتْعِ مَوَى رَعُوسًا * وَأَسْيَافُنَا لِبَلُّ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

مَا قَالَ أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّشْبِيهِ، مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَلَمْ تَرَ الدُّنْيَا قَطُّ وَلَا شَيْئًا فِيهَا ؟
فَقَالَ : إِنْ عَدِمَ الْبَصَرُ يَقْوَى دَكَاةُ الْقَلْبِ وَيَقْطَعُ عَنْهُ الشَّغْلُ بِمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ،
فَيَتَوَقَّرُ حُسَّهُ وَتَذَكُّرُ قَرِيبَتُهُ، ثُمَّ أَتَشَدُّمُ قَوْلُهُ :

عَجِيتُ حَبِيبًا وَالِدَكَاءَ مِنَ الْعَمَى * بَحِثْتُ عَجِيبَ الظَّنِّ لِلْعِلْمِ مَوْتًا
وَعَاقَضُ ضِيَاءَ الْمَيِّتِ لِلْعِلْمِ رَامِدًا * بِقَلْبٍ إِذَا مَا صَبَّحَ النَّاسُ حَصَلًا
وَشَعْرٌ كَوَرِّ الرُّوْضِ لَاءَمْتُ بَيْنَهُ * بِقَوْلٍ إِذَا مَا أُحْرِنَ الشَّعْرُ أَشْهَلًا

وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ تَبَرُّمًا بِالنَّاسِ . وَكَانَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي ذَهَبَ بِيَصْرِي .
فَقِيلَ لَهُ : وَلَمْ يَأْبَا مَعَاذُ ؟ قَالَ : لَعَلَّا أَرَى مَا أَنْفَضَ .

قَالَ الْأَعْمَى : بَشَارُ حَاتِمَةِ الشَّعْرَاءِ، وَاقِهِ لَوْلَا أَنْ أَيَّامَهُ تَأَخَّرَتْ لَفَضَّلْتُهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ .
وَقِيلَ لِأَبِي عُيَيْدَةَ : أَسَرَّوَانِ أَشْعَرُ أَمْ بَشَارُ ؟ فَقَالَ : حَكَمَ بَشَارٌ لِنَفْسِهِ بِالْأَسْتِظْهَارِ،
لِأَنَّهُ قَالَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَلْفَ بَيْتٍ جَبِيذٍ، وَلَا يَكُونُ عَدْدُ الْجَبِيذِ مِنْ شَعْرِ شَعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ هَذَا الْعَدَدَ، وَمَا أَحْسَبُهُمْ بَرَّزُوا فِي مِثْلِهَا، وَمَرْوَانُ أَمْدَحُ لِلْوَكَ .

وَسَأَلَ الْأَعْمَى عَنْ بَشَارٍ وَمَرْوَانَ أَيُّهُمَا أَشْعَرُ ؟ فَقَالَ : بَشَارُ؛ فَسُئِلَ عَنِ السَّبَبِ لِذَلِكَ؛
فَقَالَ : لِأَنَّ مَرْوَانَ سَلَكَ طَرِيقًا كَثُرَ مِنْ يَسْلُكِهِ، فَلَمْ يَلْتَقِ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ وَبَشَّرَكَ فِيهِ مِنْ كَانَ
فِي عَصَرِهِ، وَبَشَارُ سَلَكَ طَرِيقًا لَمْ يُسَلِّكْ وَأَحْسَنَ فِيهِ وَتَفَرَّدَ بِهِ، وَهُوَ أَكْثَرُ تَصَرُّفًا وَفَنُونَ
شَعْرًا، وَأَغْزَرُ وَأَوْسَعُ يَدِيًّا، وَمَرْوَانُ لَمْ يَقْبَازْ مَذْهَبَ الْأَوَائِلِ .

وَقِيلَ لِبَشَارٍ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ شَعْرَاءِ الْعَرَبِ شَعْرٌ إِلَّا وَقَدْ قَالَ فِيهِ شَيْئًا أَسْتَنْكَرْتَهُ الْعَرَبُ
مِنَ الْفَاضِلِينَ وَشُكَّ فِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَعْرِكَ مَا يُسَلِّكُ فِيهِ؛ قَالَ : وَمِنْ أَيْنَ يَأْتِيَنِ الْخَطَأُ ؟
وَوُلِدْتُ هَاهُنَا، وَنَشَأْتُ فِي مُجُورِ ثَمَانِينَ شَيْخًا مِنْ فُصَّاهِ بَنِي عَقِيلٍ مَا فِيهِمْ أَحَدٌ يَعْرِفُ كَلِمَةً

من الخطأ، وإن دخلتُ الى سائهم ففسادهم أفصح منهم، وأبغضتُ فأبديتُ^(١) الى أن أدركتُ،
 من أين يأتي الخطأ ؟ .

كان جرير بن المنذر السدوسي يفاخر شارا، فقال فيه بشار :

أمثل بي مُصِرِّ وأئِلْ * قَدْتُكَ من فانيَ ما أَحْسَنُ
 أوى اليوم هذا أبا منذر * خيرا رأيتُ وخيرا يُكَنَّى
 رأيتُكَ والحرَّ في مثلها * كعاجِةٍ عير ما تَطْهَرُ

كان بشار يهوى امرأة من أهل البصرة، فراسلها يسألها زيارته، فوعده بذلك ثم
 أحلفته، وجعل ينتظرها ليلته حتى أصبح، فلما لم تأت فأسل إليها ليعاتبها فأعترت بمرض
 أصابها، فكتب إليها بهذه الأبيات :

يا ليلتي تردأد مُفَكِّرا * من حُبِّ من أحببتُ يَكْرا
 حوراء ابِ نظرتُ اليكِ * لك سَقَتُك مالم ينسَ نَحْرا
 وكأنتِ رَجَعِ حَدِيثُها * قِطْعُ الرِياضِ كُيْسِ زَهْرا
 وكأنتِ تحتَ لسانِها * هاروتُ يَنْفُثُ فيه نَحْرا
 وتحالُّ ما جُمِعَتْ عَلي * ثيابُها ذَهَبٌ وعِطْرا
 وكأنَّها نَرْدُ الشِّرا * بَصَفاً وصادَفَ مَكِ عِطْرا
 جَنِيَّةٌ إِنْ لَيْسَ بِهِنَّ * أوِ بِنِ ذاكِ أحلَّ أَمْرا
 وكماكَ أنى لم أَحِطْ * بِشَكاةٍ من أحببتُ حُبرا
 لا مِقالَةَ زائِرٍ * تَرْتُّ لى الأَحْرابِ ثَرا
 متخَضِّعا تحتَ الهوى * عَشْرا ونَحْتِ الموتِ عَشْرا

وكان إسحاق الموصلي لا يمتد بشار ويقول : هو كثير التخليط في تثره، وأشعاره مختلفة
 لا يشبه بعضها بعضا، أليس هو القائل :

(١) أدبت أى أنجحت الى البادية .

إِنَّمَا عَظُمْتُ سُلَيْمَى حُبِّي * قَصَبُ السَّكْرِ لَا عَظُمَ الْجَلِّ

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا نَصَلًا * ظَلَّ الْمِسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصْلِ

لو قال : كلُّ شيءٍ حَبْدٌ ثم أضيف إليه هذا لَرَفَعَهُ . وكان يُقَدِّمُ عليه مردانَ ويقول : هو أشدُّ استواءَ شعره ، وكلامه ومدهه أشبه بكلام العرب ومداهما ، وكان لا يعدُّ أبانؤاس البتَّة ولا يرى فيه حيرا .

قال الجاحظ . كان بشار خطيبا صاحب مشور ومزدوج وفتح ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتعنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجهاسه وضروبه . وقال الشعر في حياة حرير وتعزُّض له ، وحكى أنه قال : هجوتُ حريراً فأعرض عني ، ولو هاجاني لكنتُ أشعر الناس ، وكأب يدين بالجمعة ، ويكفر جميع الأئمة ، ويصوب رأى إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكر مثل ذلك في شعره فقال :

الأَرْضُ مُظْلِمَةٌ وَالنَّارُ مُشْرِقَةٌ * وَالنَّارُ مَعْبُودَةٌ مُدَّكَانَتِ النَّارُ

وقال بعضُ الرواة لأبي عمرو : مَنْ أبداع الناس بيتاً؟ قال الذي يقول :

لَمْ يَطْلُ لَيْسَى وَلَكِنْ لَمْ أَمَّ * وَهَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِّ

وَإِذَا قُلْتُ لَهَا جُودَى لَنَا * نَحْنُ نَحْتِ بِالصَّنَمِ عَنْ لَا وَنَمَّ

رَوْحِي يَا عَبْدَ عَنِّي وَأَعْلَى * أُنَى يَا عَبْدَ مَنْ لَمْ وَدَمَّ

إِنْ فِي بُرْدِي جَسْمًا نَاحِلًا * لَوْ تَوَكَّأْتُ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمَّ

وهذه الأبيات لبشار .

قال : من أمدح الناس؟ قال الذي يقول :

لَمَسْتُ بِكَتْفِي حَكْفَهُ أَبْتَنَى الْبَنَى * وَلَمْ أَذِرْ أَنْ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدَى

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَعَادَ دَوُو الْغَنَى * أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَاتْلَعْتُ مَا عِنْدِي

وهذه الأبيات لبشار .

ودخل بشار على إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فأشده قصيدة يهجو فيها المصور
ويشير عليه برأى يستعمله في أمره، فلما قُتل إبراهيم خاف بشار، فقلّب الكُنية وأظهر أنه
كان قاطنًا في أوى مُسلم، وحذف منها أبياتا، وأولها :

أبا جعفرٍ ما طولُ عيشٍ بدائم * ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالم
قلّب هذا البيت فقال : أما مسلم :

على الملك الجبار يفتيح الردى * ويضرعه في المأزق التلاحيم
كانك لم تسمع بقتل مُتّوح * عظيمٍ ولم تسمع فتنك الأعاجيم
تتم كسرى رهطه بسيوفهم * وأمسى أبو الباس أحلامَ قائم

يعني الوليد بن يزيد

وقد كان لا يمتحن أقلاب مكيدِه * عليه ولا جرى الثوموس الأثام
مُقيًا على اللدات حتى بت له * وجوهُ المسايا حاسراتِ العَلام
وقد تردّ الأيامُ غُمرًا وربما * وردتْ كُلوها بإديات الشكّام
ومرواؤن قد دارت على رأسه الرُحا * وكان لما أجمتْ تزرَ الجرام
فأصحتْ بجري سادِرا في طريقهم * ولا تنقُ أشباه تلك القَمام
تحدّثتْ للإسلام نغفو سبيلَه * وتُغري مَطاهِ^(١) ليوث الصرام
فما زلتَ حتى استصر الدّينُ أهله * عليك فنادوا بالسيف الصّوارم
فرمّ وزرًا يُحييك يا بنَ سلامه * فلتَ يسّاج من مَصيغٍ وصامم

حمل موضع "يا بن سلامة" "يا بن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لما الله قوما رأسوك طيهم * وما زلتَ مرموسا حيث المَطاعم
أقول لِسَلامٍ عليه جلالُه * عدا أريجًا عاشقًا للكارم
من العاطمين الدّعاة إلى الهدى * جهارا ومن يهديك مثلُ أبى قَاطم

هذا البيت حذفه بشار من الأبيات :

سراجُ لمين المتصيّ، وتارة * يكون طلاما للعدو المزاحم
إذا طلع الرأي المشورة فاستعين رأى يصبح أو يصحبه حازم
ولا تحمل الشورى عليك عَصَاضة^(١) * فإن الخواص قوة للقوادم^(٢)
وما حيركف أسك العلل أحتها * وما حير مسيف لم يؤيد بقائم
وحلّ المؤينا للضعيف ولا تكن * تؤوما وإل الحزم ليس بنائم
وحارب إذا لم تمعط إلا ظلامة * شأ الحرب حير من قول المظالم^(٣)
وأذنب على القربى المقرّب منه * ولا تشهد الشورى أمراً غير كائيم
إليك لا تستطردّ الهمة بالنهى * ولا تسلح العلبا سير المكارم
إذا كنت فردا هرك القوم مقلدا * وإن كنت أدى لم تمر بالمعزائم
وما قرع الأقوام مثل مُشيع^(٤) * أريب ولا جلى القمى مثل عالم

قال أبو عبيده : ميمية بشار هذه أحب إلى من ميمية جرير وافرزدق . وقال الأصمعي
ليشار : يا أما معاد ، إن الناس يعجبون من أبياتك في المشورة ، فقال له : يا أما سعيد ، إن
المشاورة بين صواب يعور بخرته ، أو خطأ يُشارك في مكروهه ، فقال له : أنت في قولك هذا
أشعر منك في شعرك .

موفق ابن ليشار بخرع عليه ، فقبل له : أجز قدّمته ، وفوط آتربته ، ودثر أحرزته ،
فقال : ولدت دقته ، وتكلّ تحلته ، وعين وعذته فانتطرتة ، والله لن لم أجزع للنقص
لا أفرح للزيادة . وقال يريشه :

(١) العصامة : المفضة . (٢) الخواص : الرشايات الصغيرات التي في حياح الطائر إذا صمها حميت ،
واحدها حافية من القوادم . (٣) المل بالمع : الحديدية التي تجمع بين يد الأسير وعقه وتسمى الحذاء .
(٤) الشا بالفتح جمع شاة وهي من كل شيء حده . (٥) المشيع : الشجاع .

أَحَارَتْنَا لَا يَجْزِي وَأَيْبَى * أَنَانِي مِنَ الْمَوْتِ الْمُطْلَقِ يَصْبِي
 بُحَى عَلَى رَغْمِي وَتُحْطَى رُزْنُهُ * وَبُدِّلَ أَجْمَارًا وَجَالَ قَلْبُ
 وَكَانَ كَرْنِجَانِ الْعُرُوسِ تَحَالُهُ * دَوَى مَعْدَ إِشْرَاقِ يَسْرٍ وَطِيبِ
 أَصْبَهْتُ بِهِ فِي حَيْنِ أَوْزَقِ عَصَاهُ * وَأَلْقَى عَلَى الْهَمِّ كَقَلِّ قَرِيبِ
 عَمِيتُ لِإِسْرَاعِ الْمَيَّةِ نَحْوَهُ * وَمَا كَانَ لَوْ مُلِئَتْهُ مَجِيبِ

قبل لبشار : إنك لتجىء بالشئ المحعين المتفاوت، قال : وما ذاك ؟ قيل : بينما نقول
 شعرا يُبِيرُ البقع ويُخْلَعُ به القلوب مثل قولك .

إِذَا مَا غَضِبَهَا غَضَبَةً مُصْرِيةً * هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ تُمِطَّرُ الدَّمَآ
 إِذَا مَا أَعْرَبَهَا سَيِّدَا مِنْ قِيَلَةٍ * ذُرَى مَبْرُصَلَى عَلَيْنَا وَسَلَمَا
 تقول :

رَبَابَةٌ رَتَةُ الْيَتِّ * تَصُبُّ الْحَمْلَ فِي الرِّتِ
 لَهَا عَشْرَ دَجَاحَاتٍ * وَدِيكَ حَسُّ الصَّوْتِ

فقال : لكل واحد، فالقول الأول جد، وهذا قلته في ربابة جاري، وأما لا أكل البيص من
 السوق، وربابة لها عشر دجاحات وديك، فهي تجمع لى البيص، فهذا عندها أحسن من
 « قَعَابِيكَ » عندك . وسألت حارية مغنية لبعض ولده سليمان بن علي ، وكانت محبة بارعة
 الظرف، أن يدكرها في قصيدة ولا يذكر فيها اسمها ولا اسم سيدها ويكتب بها إليها، فأعترف
 وكتب إليها :

وَدَايَ دَلَّ كَالْبَدْرِ صَوْرَتُهَا * بَاتَتْ تَفْنَى عَمِيدَ الْقَلْبِ سَكْرَانَا
 « إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ * قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُخَيِّنْ قَتْلَانَا »
 فَقُلْتُ أَحْسَنْتِ يَا سُوْلَى وَيَا أَمْلَى * فَأَنِيْمِيْنِي جَزَاكَ اللهُ إِحْسَامَا
 « يَا حَبْدَا حَبْلُ الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ * وَحَبْدَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ مَنْ كَامَا »
 قَالَتْ مَهْلًا فَذَتِكَ الْقَفْسُ أَحْسَنُ مِنْ * هَذَا لِمَنْ كَانَ صَبَّ الْقَلْبِ حَيْرَانَا

« يا قوم أَدْرِى لَبِصَ الحَى عَاشِقَةً » والأَذُنُ تَمَشُّ قَبْلَ العَيْنِ أَحْيَا »
 فَلَئِنْ أَحْبَبْتَ أَنْتَ الشَّمْسُ طَالِمَةً * أَصْرَمْتَ فِي القَلْبِ والأَحْشَاءِ نِيرَانَا
 فَاسْمِعِي صَوْتًا مُطَرِّبًا هَزَاجًا * يَزِيدُ صَبَابًا عَمَّا فِيكَ أَشْجَانَا
 يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُفَاعًا مَفْلَعَةً * أَوْ كُنْتُ مِنْ قُصْبِ الرِّيحَانِ رِيحَانَا
 حَتَّى إِذَا وَحَدَثَ رِيحِي فَأَعْجَبَهَا * وَبِحَنٍّ وَ حَلْوَةٍ مِثْلُ إِسْمَانَا
 هَزَكْتُ عُودَهَا ثُمَّ أَشْتُ طَرَا * تَشْدُو بِهِ ثُمَّ لَا تُحْيِيهِ كِنَانَا
 « أَصَحُّ أَطْوَعَ حَلَقِي اللهُ كُلَّهُمْ » لَا أَكْثَرَ الخَلْقِ لِي فِي الحُبِّ عِضْيَانَا
 فَلَئِنْ أَطْرَبْتَنِي بِأَرَيْنَ عِلْسًا * فَهَاتِ لِمَنْكَ بِالإِحْسَانِ أَوْلَانَا
 لَوْ كُنْتُ أَهْلُ أَنْ الحُبَّ يَقْتُلِي * أَعَدَدْتُ لِي قَبْلَ أَنْ أَلْقَاكَ أَكْهَانَا
 مَنَنْتُ الشَّرْبَ صَوْتًا مَوْقًا رَمَلًا * يُذَكِّي السُّرُورَ وَيُفِيكِي العَيْنِ أَلْوَانَا
 « لَا يَقْتُلِ اللهُ مَنْ دَامَتْ مَوَدَّتُهُ » وَاللهُ يَقْتُلُ أَهْلَ المَدَرِ أَحْيَا »

كَانَ الرُّوَّارُ يُسَمُّونَ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ إِلَى أَيَّامِ حَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ السُّؤَالَ ، فَقَالَ حَالِدٌ : هَذَا
 وَاللهُ أَسَمَ اسْتَنْقِلَهُ لَطْلَابُ الحُبِّ ، وَأَرْفَعُ قَدْرَ الكَرَمِ عَنْ أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَمْتَالُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 لِأَنَّهُمْ فِيهِمُ الأَشْرَافُ والأَحْرَارُ وَأَبَاءُ النِّعَمِ ، وَمِنْ لَمَلِهِ حَيْرٌ تَمَنَّى يَقْصِدُ وَأَفْصَلُ أَدَاءً ، وَلَكِنَّمَا
 سَمَّيَهُمُ الزُّوَّارَ ، فَقَالَ بَشَّارٌ يَمْدَحُهُ بِذَلِكَ :

حَدَا حَالِدٌ فِي مَعْلِهِ حَدْوَ بَرْمَكٍ * قَحَدٌ لَهُ مُسْتَطَرَفٌ وَأَصِيلُ
 وَكَانَ دَوُوُ الآمَالِ يُدْعَوْنَ قَبْلَهُ * لَطْفٌ عَلَى الإِعْدَامِ فِيهِ دَلِيلُ
 يُسَمُّونَ بِالسُّؤَالِ فِي كُلِّ مَوْطِي * وَإِنْ كَانَ فِيهِمْ بَابُهُ وَحَلِيلُ
 سَمَّاهُمُ الزُّوَّارَ سَنَرَا عَلَيْهِمْ * فَاسْتَأْزَرَهُ فِي المَهْتَدِينَ سُدُولُ

وَقَالَ بَشَّارٌ هَذَا الشَّرُّ فِي مَجْلِسِ حَالِدٍ فِي السَّاعَةِ الَّتِي تَكَلَّمَ حَالِدٌ بِهِدَا فِي أَمْرِ الزُّوَّارِ ،
 فَأَعْطَاهُ لِكُلِّ بَيْتٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ .

دخل بشار على عُقْبَةَ بن سَلَمٍ فأنشده بعض مدائحه فيه ، وعده عُقْبَةُ بن رُوْبَةَ ينشده رَجْرًا يمدحه به ، فسمعه بشار وحصل يستحسن ما قاله الى أن فرغ ، ثم أقبل على بشار فقال : هذا طراز لا تُحْسِنُهُ أنت ما أبا مُعَاذٍ ، فقال بشار : أليّ يقال هذا ! أما والله أَرْجُمُكَ ومن أباك وحدك ، فقال له : عُقْبَةُ أما وأبي فَتَحًا للناس ماب العريب وماب الرَجْر ، وإني نلّيقُ أن أسْأله عليهم ؛ فقال بشار : أرحمهم رَحِمَكَ اللهُ ، ولما كان من عِدٍ مدا على عقة أب سَلَمٍ وعده عقة بن رُوْبَةَ ، فأنشده أَرْجُوْزته التي مدحه فيها :

يا قَلَّلَ الحَيُّ بذات الصنْدِ * بالله حَبْرٌ كَيْفَ كَتَبَ بَعْدِي
أَوْحَشْتُ مِنْ دَعْدٍ وَتَرْبٍ دَعْدٍ * سَقِيًّا لَأَسْمَاءَ ابْنَةَ الْأَشَدِّ
قَامَتْ تَرَامِي إِذْ رَأَيْتُ وَحْدِي * كَالشَّمْسِ تَحْتَ الرِّجِّ الْمَقْدِّ^(١)
صَدْتُ بِحَدِّ وَحَلْتُ مِنْ حَدِّ * ثُمَّ اتَّخَذْتُ كَالْفَسِّ الْمُرْتَدِّ
عَهْدِي بِهَا سَقِيًّا لَهُ مِنْ عَهْدٍ * تُخْلِفُ وَعْدًا وَتَنْفِي بِوَعْدِ
فَمِنْ مَنْ جَهْدِ الْهَوَى فِي جَهْدٍ * وَزَاهِرٍ مِنْ سَيْطٍ وَحَمْدِ
أَهْدَى لَهُ الدَّهْرُ وَلَمْ يَسْتَهْدِ * أَوَافَ نَوْرِ الْحَبْرِ الْمُجَدِّ
يَلْقَى الصَّحَى رِيحَانَهُ بِسَعْدٍ * بُدِّلْتُ مِنْ ذَاكَ نَكِيًّا لَا يُجَدِّ
وَاقٍ حَقًّا مِنْ سَعَى بِحَدِّ * مَا ضَرَّ أَهْلَ الْوُكِّ صَعْفُ الْجَدِّ
الْحُرِّيْلِيُّ وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ * وَلَيْسَ لِلْحِفِّ مِثْلُ الرَّدِّ
وَالنَّصْفُ يَكْمِيكَ مِنَ التَّمَدِّي * وَصَاحِبِ كَالشَّمْلِ الْمُجَدِّ
حَمَلْتُهُ فِي رَقْعَةٍ مِنْ جِلْدِي * أَرَقْتُ مِنْهُ مِثْلَ يَوْمِ الْوَرْدِ
حَتَّى مَعَى عَيْرَ قَبِيدِ الْعَقْدِ * وَمَا دَرَى مَا رَعَى مِنْ زُهْدِ
إِسْلَمَ وَحْيِيَتْ أَبَا الْمُلْدِ * مِفْتَاحُ بَابِ الْحَدَثِ الْمُنْسَدِ
مُشْتَرَكِ النَّيْلِ وَرِيَّ الرَّتْدِ * أَعْرَ لَسَانَ ثِيَابِ الْحَمْدِ

ما كان منى لك غير الود * ثم شاء مثل ربح الورد
 نَسَجْتُهُ فِى مُحْكَمَاتِ اللَّد * فالس طرازى غير مُسْتَرَد
 لله أيامك فِى مَعَد * وفى بَيِّ حَقْطَانِ عَيْر مَعَد
 يوماً بَدَى طِطْحَةً عَد الْحَد ^(١) * ومثله أودعت أرض المهد
 بِالْمُرْهَقَاتِ وَالْحَدِيدِ السَّرْد * وَالْمُقَرَّمَاتِ ^(٢) الْمَعِينَاتِ الْجُرْد
 إِذَا الْحَيَا اسْتَكْدَى بِهَا لَا تُكْدَى * تَطْعَمُ أَمْرًا وَأُمُورًا تُسْدَى
 وَأَنْ حَكِيمٌ إِنْ أَفَاكَ يَرْدَى * أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُ صَوْتَ الرَّمَد
 حَيْثَهُ تَصْمِيهِ الْمَعْد * فَهَنَدَ مِثْلَ الْحُلِّ الْمُنْهَد
 كُلِّ أَمْرٍ رَفْعٌ بِمَا يُؤْدَى * وَرَبُّ دَى تَابِجٌ كَرِيمُ الْجَد
 كَالْكَسْرِى وَكَأَلُ بُرْد * أَنْكَ حَافٍ عَنِ سَبِيلِ الْقَصْد
 * فَصَلَّتْهُ عَنِ مَالِهِ وَالْوَلَد *

طُرب عَقْبُهُ سَلم وَأَجْرَلِ صَلَّتْهُ ، وَقَامَ عَقْبُهُ بِنِ رُؤْيَا نَفْرَحَ عَنِ الْمَجْلِسِ يَجْرِى وَهَرَبَ
 مِنْ تَحْتِ لَيْلَتِهِ هَلْ يَمُدُّ إِلَيْهِ .

قال الحافظ : فانظر الى سوء أدب عتبة بن ربيعة وقد أبجل بشار محصوره وعشرته ،
 فقال له بهذه المقابلة القبيحة ، وكان أبوه أعلم خلق الله به ، لأنه قال له وقد فأنره بشعره :
 أنت يائى دهبان الشعر ، إذا مِتَّ ماتَ شعرك مَعَكَ ، فلم يُوحِدْ من يرويه مَعَكَ ، فكان
 كما قال له ، ما يُعرف له يَتُّ واحد ولا خَبْرٌ غير هذا الخبر القبيح الإخبار عنه ، الدال على
 سُخْفِهِ وَمَقْطُوطِهِ وَسُوءِ أَدَبِهِ .

وقال بشار بن هوى له كانت بالبصرة ، ثم خرجت مع زوجها الى عُمان :
 هوى صاحى ربح الشمال إذا جَرَّتْ * وَأَشْفَى لِقَلْبِي أَنْ تَهَبَ جَسُوبُ
 وما دالك إلا أنها حين تنهى * تَأْخَى وَفِيهَا مِنْ عَيْبَةٍ طِيبُ

(١) طحمة : موضع عند الساح و عند إمرة فى طريق لصرة الى مكة ، ومنه يوم طحمة لنى يرمى على قانوس
 ابن المدبر من ماء الساء . (٢) المقررات : الخيل التى يقرب من سطها ويطلبها لكرامتها .

عَذِيرِي مِنَ الْعُدَالِ إِذْ يَمِيدُونِي * سَفَاهًا وَمَا فِي الْمَازِلِينَ لِيَب
يَقُولُونَ لَوْ عَزَيْتَ قَلْبَكَ لَأَرْعَوِي * فَعَلْتُ وَهَلْ لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبُ
إِذَا نَفَلَتْ الْقُلُوبُ الْحُلُوسُ إِنِّي * مُكِبُّ كَأَنِّي فِي الْجَمِيعِ عَرِيبُ
حَاءُ أَوْ الشَّمَقَمَقَى إِلَى بَشَارٍ يَسْكُو إِلَيْهِ الضَّيْقَ وَيَحْلِفُ لَهُ أَنَّهُ مَا عِنْدَهُ شَيْءٌ ، فَقَالَ لَهُ
بَشَارُ : وَأَنْتَ مَا عَدَى مَا يَنْبِيكَ ، وَلَكِنْ قُمْ مَعِيَ إِلَى عُقْبَةَ بْنِ سَلَمٍ ، فَنَاقِمُ مَعَهُ ، فَذَكَرَ لَهُ
أَنَا الشَّمَقَمَقَى وَقَالَ : هُوَ شَاعِرٌ وَلَهُ شُكْرٌ وَشَاءَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ دَرَاهِمٍ ، فَقَالَ لَهُ بَشَارُ :

يَا وَاحِدَ الْعَرِيبِ الْهَدَى * أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ يَطِيرُ

لَوْ كَانَتْ مِثْلُكَ آخِرًا * مَا كَانَ فِي الدُّنْيَا فَهِيرُ

فَأَمَرَ لِبَشَارٍ بِأَلْفِي دَرَاهِمٍ ، فَقَالَ أَوْ الشَّمَقَمَقَى : نَفَعْتَنَا وَمَعْنَاكَ يَا أَمَا مَعَاذُ ، بِفَعَلِ
بَشَارٍ يَضْحَكُ .

دَحَلُ يَزِيدُ بْنُ مَسْصُورٍ الْحَمِيرِيِّ عَلَى الْمَهْدِيِّ وَبَشَارٍ بِيَدِهِ يُنْشِدُهُ قَصِيدَةً أَمْتَدَحُهُ
بِهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ، وَكَانَتْ فِيهِ عَمَلَةٌ ، فَقَالَ : يَا شَيْخُ ، مَا صَنَعْتَكَ ؟ فَقَالَ .
أَتَقَبُّ اللَّوْلُو ، فَضَحِكَ الْمَهْدِيُّ ، ثُمَّ قَالَ لِبَشَارٍ : أَعْرَبْتُ وَيْلَكَ ! أَلْتَنَادَرُ عَلَى خَالِي ؟
فَقَالَ لَهُ : وَمَا أَصْعَبُ هـ * بَرَى شَيْخًا أَعْمَى يُنْشِدُ الْخَلِيفَةَ شِعْرًا وَيَسْأَلُهُ عَنْ صَاحَتِهِ .

وَقَفَّ عَلَى بَشَارٍ مَصَّ الْجُبَانِ ، وَهُوَ يَنْشِدُ شِعْرًا ، فَقَالَ لَهُ : أَسْتَرْشِعُكَ هَذَا كَمَا تَسْتَرْ
عَوْرَتَكَ ، فَصَبَقَ بَشَارٌ سَلِيحَهُ وَغَضِبَ ثُمَّ قَالَ لَهُ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ وَيْلَكَ ! قَالَ : أَنَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ -
رَحْلٌ مِنْ بَاهِلَةَ ، وَأَخُوَالِي سَلُولُ ، وَأَصْهَارِي عُكْلُ ، وَأَسْمَى كَلْبُ ، وَمَوْلَدِي مُأَصَّخُ ،
وَمَتْرَلِي نَظْفَرُ لَلَالِ ، فَضَحِكَ بَشَارُ ، ثُمَّ قَالَ : أَذْهَبُ وَيْلَكَ ! فَأَنْتَ عَتِيقُ لَوْمِكَ ، قَدْ عَلِمَ اللَّهُ
أَنَّكَ أَسْتَرْتَنِي بِمَحْصُونٍ مِنْ حَدِيدٍ .

مَرَّ بَشَارٌ بِرَجُلٍ قَدْ رَمَحَتْهُ بَنْطَلَةٌ وَهُوَ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا ، فَقَالَ لَهُ : بَشَارُ أَسْتَرِدُّهُ يَزِيدُكَ .
وَمَرَّ بِهِ قَوْمٌ يَجْمَلُونَ جَنَازَةً وَهُمْ يُسْرِعُونَ الْمَشَى بِهَا ، فَقَالَ : مَا لَمْ مَسْرِعِينَ * أَتَرَاهُمْ سَرَقُوهُ
فَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يُلْحَقُوا فَيُؤْخَذَ مِنْهُمْ .

رفع علامٌ بشار إليه في حساب نفقته حلاءَ مرآةٍ عشرة دراهم، فصاح به بشار وقال :
والله ما في الدنيا أعجب من حلاء مرآة أعمى عشرة دراهم، والله لو صِدِّتْ عَيْنُ الشمس
حتى يبقى العالمُ في ظلمة ما ملئت أجرة من يملؤها عشرة دراهم .

قال قُدامةُ بن نُوح : كان بشارٌ يحشو شعره إذا أعوزته القافية والمعنى بالاشياء التي
لا حقيقة لها، من ذلك أنه أتشد يوما شعرا له فقال فيه : « عني للغريص يا بن قبان »
ف قيل له : من أب قبان هذا ؟ لسا معرفه من معني البصرة، قال : وما عليكم منه ؟ ألكم قيله
دين فطالوه به ، أو نأرتريدون أن تُدركوه ، أو كُفِّلت لكم به ، فاذا عاب طالبتُموني
بإحضاره ، قالوا : ليس بيننا وبينه شيء من هذا ، وإنما أردنا أن نعرفه ، فقال : هو رجل
يعتلى ولا يبرح من بيتي ، فقالوا له : إلى متى ؟ فقال : مد يوم وليلة إلى أن يموت . وذكر
أبصا في هذه القصيدة « البردان » ف قيل له : يا أبا معاذ ، أين البردان هذا ؟ لسا نعرفه
بالصرة ، فقال : هو بُيت في بيتي تسميته بالبردان ، أمليكم من تسميتي داري وبيتها شيء
فتسألوني عنه ؟ .

قالت امرأة لبشار : أي رجل أنت لو كنت أسود الخبية والرأس ، قال : أما علمت
أن يبيض الثراء أشبر من سود العريان ؟ قالت له : أما قولك حس في السمع ، ومن لك
أن يحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع ؟ فكان بشار يقول : ما أحمقني قط غير
هذه المرأة .

دعاه رجل إلى منزله فاكل وشرب ، ولما أراد الانصراف قامت حارية للرجل وأخذت
بيده ، فلما صار بالصحن أوما إليها ليقبلها ، فأرسلت يدها من يده ، فجعل يحول والفرصة
وحرج مولى الجارية فقال : مالك يا أبا معاذ ؟ فقال : أذنتُ ذنبا ولا أبرح أو أقول شعرا ،
فقال :

أُتوبُ إليك من السيئات * وأستغفرُ الله من فُتلي
تأولتُ ما لم أُرِدْ تيسله * على جهلٍ أُمرى وفي سكرتي

وواقه والله ما حقه • لِمَئِدٍ وَلَا كَانِ مِنْ هِمَّتِي
وإِلَّا قِتُّ إِذَا ضَالِمَا • وَعَدْبِي اللَّهُ فِي مَيْتِي
مَنْ نَالَ خَيْرًا عَلَى قُبْلَةٍ • فَلَا مَارِكَ اللَّهُ فِي قُلْتِي

لما كثر استهتار نساء الصرة وشبانها بشعر بشار، وقال سوار بن عبد الله ومالك بن دينار: ما شيء أدعى لأهل هذه المديسة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى، وما زالوا يعطانه وكان واصل بن عطاء يقول: إن من أصدق حائل الشيطان وأعوها لكلمات هذا الأعمى الملعن، فلما كثر ذلك وأنهى خبره إلى المهدي نهاه عن ذكر النساء وقول التشيب، وكان المهدي من أشد الناس غيره، فقال في ذلك:

يَا مَظْلَرًا حَسَا رَأَيْتُهُ • فِي وَجْهِهِ جَارِيَةٌ قَدَيْتُهُ
عَثْتُ إِلَى تَسْوَمِي • ثَوْبَ الشَّابِ وَقَدْ طَوَيْتُهُ
وَأَقْبَهُ رَبِّ مُحَمَّدٍ • مَا إِنْ عَدَرْتُ وَلَا نَوَيْتُهُ
أَمْسَكْتُ عَلَيْكَ وَرَبِّمَا • عَرَضَ اللَّأْلُ مَا أَبْتَيْتُهُ
إِنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ أَبَى • وَإِذَا أَبِي شَيْفًا أَبَيْتُهُ
وَمُحَمَّدُ بْنُ رَحِيمٍ السَّ • نَ بَكَى عَلَى مَا مَكَيْتُهُ
وَيُسْوَفِي يَنْتُ الْحَمْدُ • بَ إِذَا أَذْكَرْتُ وَأَبَى يَنْتُهُ
قَامَ الْخَلِيفَةُ دُونَهُ • فَصَبَرْتُ هَهُ وَمَا قَلْبِي تَهُ
وَنَهَائِي الْمَلِكُ الْهَمَا • مُمْ عَنِ النِّسَاءِ وَمَا عَصِيْتُهُ
لَا بَلَّ وَفَيْتُ فَلَمْ أُصِغْ • عَهْدًا وَلَا رَأْيَا رَأَيْتُهُ
وَأَنَا الْمُطَّلَّ عَلَى الْعِدَا • وَإِذَا غَلَا الْحَمْدُ أَشْرَيْتُهُ
أُصْنِي الْخَلِيلَ إِذَا دَا • وَإِذَا نَأَى عَنِّي مَأَيْتُهُ
وَأَمِيلُ فِي أَنْسِ النَّدِيدِ • مُمْ مِنَ الْحَيَاءِ وَمَا أَشْتَيْتُهُ
وكان الخليل بن أحمد ينشد هذه الأبيات ويستحسنها ويعجب بها.

وكان لبشار حسنة ثَمَاء، مات منهم أربعة وثقى واحد يقال له : البراء، فركب في زورق
يُرِيدُ عبور دجلة المَوْرَاءَ فَمَرَى، فكان بشار يقول : ما حير في الدنيا بعد الأصدقاء، ثم رثى
أصدقاءه بقوله :

يا بن موسى ماذا يقول الإمام * في فِثاة بالقلب منها أوامُ
تُت من حنأ أو قُر الكأ * من ويهمو على فؤادى الميام
لم يكن بينها وبينى إلا * كُتِبُ العاشقين والأحلام
يا بن موسى آسفنى ودع عك سلى * أب سلى حى وفى احتشام
رب كاس كالسبيل تعلد * تُبها والعيون عفى نيام
حُبست للشراء فى بيت راس * عَقَّتْ عَالِيساً عليها إلتام
نَفَحَتْ فُحَّةً قَهَزَتْ ندى * بنسى وأنشَقَ عنها الرُكَّام
وكأرب المألول منها إذا را * ح شَجَّ فى لسانه رِسام^(٢)
صَلَمَتْهُ الشُّمُولُ حَتَّى بَعِيد * ه أنكَسارُ وفى المفاصل غَام
وهو ناقى الأطراف حَيْثُ بِهِ الكأ * سُ ومات أوصالُهُ والكلام
وفى يَسْرُتُ الكُدَامَةُ مَالَا * ل ويمشى يروم ما لا يُرام
أَهَلَّتْ كَأْسُهُ الدَّمانيرَ حَتَّى * دَعَبَ العَيْنُ وَأَسْتَمَرَ السُّوَام
تَرْكَنَهُ الصَّبَاءُ يَرُومِينَ * نام إنسانُها وليست تَام
جُنَّ من شَرِّةٍ تُعَلِّى مَآخِرِي * وبكى حين سار فيه الكُدام
كان لى صاحبا فأودى به الدهر * سُرُ وفارقته طيه السلام
فَتَى السُّسْ بِمَدِّ هُلكَ نَدَامَا * يَ وَقُوعَا لم يشعروا ما الكلام
تَحْزُورُ الأَيْسَارَ لَا كَيْدٌ فِيهِ * لَ يَبَاجِ وَلَا عَلَيْهَا سَام^(٤)

(١) بيت راس : قرية بالشام من قرى حلب يسب إليها الحمر .
ورم حار يمرض الحناب الذى بين الكبد والأعضاء ثم يتصل الى الدماغ .
كرسى . (٤) الأيسار : جمع يسر، وهو اللاعب بالقنداح .
(٢) البرسام : غلة يذرى فيها وهو .
(٣) حيث بالإدغام لغة فى حى .

يَا مَوْسَى فَقَدْ جَاءَ عَلَى الْعِيدِ * سَ قَدَّاهُ وَفِي الْفُؤَادِ مَسَامِ
 كَيْفَ يَصْفُو لِي الْعَيْمُ وَحِيدًا * وَالْأَحْلَاءُ فِي الْمَقَابِرِ هَامِ
 نَفْسَتَهُمْ عَلَى أُمِّ الْمَسَايَا * فَأَمَانَتُهُمْ بَعْثُ فَمَا مَوَا
 لَا يَبْعِثُ أَنْجَبًا عِنِّي عَلَيْهِمْ * إِنَّمَا عَايَةُ الْحَرِيرِ السَّحَامُ
 وَقَالَ فِي نَهْيِ الْخَلِيفَةِ إِيَّاهُ عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ .

وَأَقْبَلْ لَوْلَا رِصْدُ الْخَلِيفَةِ مَا * أَعْطَيْتُ صَبِيًّا عَلَى فِ تَحْنِ
 وَرَبَّمَا حَيْرَ لَبْنِ آدَمَ وَالدَّ * كُرْهُ وَشَقَّ الْهَوَى عَلَى الْبَدَنِ
 فَاشْرَبْ عَلَى أَنْبَتِ الزَّمَانِ هَا * تَلَقَّى رَمَانًا صَمًّا مِنَ الْأَبْرِ
 اللَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ مَوَاصِلِهِ * وَالْمَرْءُ يُعْصِي عَيْنًا عَلَى الْكُنْ
 قَدْ عِشْتُ بَيْنَ الرِّيحَانِ وَالزَّوَارِ * هَرَى وَطَلَّ عَلَيَّ حَسْبِ
 وَقَدْ مَلَأْتُ الْبِلَادَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ * وَرَى إِلَى الْقَبِيرَانِ فَالْمِ
 يَسْفَرُوا تُصَلِّ لِهَ الْمَوَاتِقِ وَالشَّ * يَبُ صَلَاةُ الْغَوَاةِ لِلْوَثْرِ
 ثُمَّ نَهَانِي الْمَهْدَى فَأَصْرَفْتُ * مَسَى صَلَاحُ الْمَوْفِقِ لِلْقُرْنِ
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِكَ لَهُ * لَيْسَ سَائِي شَيْءٌ عَلَى الزَّمَنِ

وَأَنشُدُ الْمَهْدَى قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلَهَا :

تَحَالَّتْ عَنِّي مَهْرٌ وَعَنِّي حَارَقٌ مَهْرٌ * وَوَدَّعْتُ مَعًا السَّلَامَ وَالْبَشَرَ
 وَقَالَتْ سُلَيْمَى فَيْكَ عَا حَلَاةٌ * عَمَلْتُ دَائِي وَالزَّيَارَةَ عَنْ عَهْرِ
 أَنَا فِي الْهَوَى مَالِي أَرَاكَ جَفَوْتَنَا * وَقَدْ كَسَتْ تَقَفُّونَا عَلَى الْعُسْرِ وَالْبُسْرِ
 تَنَاقَلَتْ إِلَّا عَنِّي أَسْتَفِيدُهَا * وَزَوْرَةُ أَمْلَاكِ أَشَدَّ هَا أَزْرَى
 وَأَخْرَجَنِي مِنْ وَزْرِ نَحْسِينَ حَمَّةٌ * فَنِّي هَاشِمِيٌّ يَفْشِيحُ مِنَ الْيُوزْرِ

(١) هَسْتُمْ . حَسْتُمْ . (٢) الكس واحدًا كمة وهي حرب وجره تنق في العبي من رعد يساء علاحه .

(٣) العصر : فية الزيادة ، يقال : ما تأتينا الا عن عمر أي بعد قلة زيادة وطول عهد .

دَفَنْتُ الهوى حَيًّا فَلَسْتُ بِزَائِرٍ * سَلِمَى وَلَا صَفْوَاءَ مَا قَرَّرَ الْقُمْرَى
وَمُضْغَرَّةً مَالِزَعْمَرَانَ حُلُودُهَا * إِذَا أَجْتَلَيْتُ مِثْلَ الْمَفْرُطَةِ الصُّمْرِ
مَرَّتْ تَقَالِ الرَّدْفِ هَبَّتْ تَلُومَى * وَلَوْ شَهِدْتُ قَبْرِى لَصَلَّتْ عَلَى قَبْرِى
تَرَكْتُ لِمَهْدَى الْأَمَامِ وَصَالَهَا * وَرَاعَيْتُ عَهْدًا بَيْنَنَا لَيْسَ مَانَحْنَرُ
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * لَقُلْتُ فَاهَا أَوْ لَكَانَ بِهَا طُغْرَى
لِعَمْرِى لَقَدْ أَوْقَرْتُ نَفْسَى خَطِيئَةً * مَا أَنَا مَالِزُ الدَّادِ وَقُفْرًا عَلَى وَقْرِ
تَسَلَّى عَنِ الْأَحْبَابِ صَرَامُ حُلَةٍ * وَوَصَالَ أَنْثَى مَا يُقِيمُ عَلَى أَمْرِ
وَرَكَّاضِ أَمْرَاسِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى * حَرَّتْ حِجْمًا ثُمَّ اسْتَفْزَتْ فَلَا تَعْمُرَى
فَأَصْبَحَ مَا يُرْكَبُنْ إِلَّا إِلَى الْوَعَى * وَأَصْبَحْتُ لَا يُزْرَى عَلَى وَلَا أُرْدَى
هَذَا وَإِىَ قَدْ شَرَعْتُ مَعَ الثَّقَى * وَمَاتَتْ هَمُومَى الطَّارِقَاتِ فَاتَسْرَى

ثم قال يصف السفينة :

وعدراء لا تجرى بلعم ولا دم * قليلة شكوى الأَيْنِ مُلْجَمَةُ الدُّبُرِ
إِذَا طَعَمَتْ فِيهَا الْفُلُولُ تَشَخَّصَتْ * هُرْسَانُهَا لَا فِى وَعُوثٍ وَلَا وَغْرِ
وَإِنْ قَصَدْتُ رَلْتُ عَلَى مُتَصَبٍ * ذَلِيلُ الْقَوَى لَا شَيْءَ يَغْفِرُى كَمَا تَعْمُرَى
تَلَايَعُ تَيَّارُ الْحَوَرِ وَرَبْمَا * رَأَيْتَ نَفُوسَ الْقَوْمِ مِنْ جَرِيهَا تَعْمُرَى
إِلَى مَلِكٍ مِنْ هَاشِمٍ فِى نُبُوءَةٍ * وَمِنْ حِمَيْرٍ إِلَى الْمَلِكِ وَالْعَدَدِ الدُّثُرِ^(١)
مِنَ الْمُشْتَرَيْنِ الْحَمْدُ تَنْدَى مِنَ التَّدَى * يَدَاهُ وَيَنْتَدَى طَارِصَاهُ مِنَ الْعِطْرِ
فَالزَّمْتُ حَبْلَى حَلٍّ مِى لَا يُنْقَسُ * عُمَاةُ النَّدَى مِنْ حَيْثُ يَدْرِى وَلَا يَدْرِى
بِى لَكَ عِبَادُ اللَّهِ يَتَّ حِلَافَةً * نَزَلَتْ بِهَا بَيْنَ الْفَرَاقِدِ وَالنَّسْرِ
وَعِنْدَكَ عَهْدٌ مِى وَصَاةٍ مُحَمَّدٌ * فَرَحَّتْ بِهِ الْأَمْلَاقُ مِنْ وَلَدِ النَّصْرِ

(١) كان قد قال : نِهَايَ الْحَوَرِ، صَاحَ ذَلِكَ سَبِيرُهُ، لَحْظُهُ تَيَّارُ الْحَوَرِ .

(٢) الدُّثُرُ . الْكَثِيرُ .

ولما أنشد الوليد بن يزيد قول بشار :

أيها الساقيات صبا شرابي * وأسقياني من ريق بيماء^(١) رودي
 إن داني الظأ وإن دواني * شربة من رصا تغير برودي
 ولما مضحك كثر الأفاحي * وحديث كالوشى وشي البرودي
 نزلت في السواد من حبة القل * وب وناث زيادة المستريد
 ثم قالت نلقاك عد لياب * والليالي يئلين كل حديد
 عندها الصرع عن لقائي وعدى * زهرات ياكلن قلب الحديد

طرب الوليد وقال : من لي بمنج كأسه هذه من ريق سلمى ، فيروى طمى ، وتطفا عتي ،
 ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه ، وقال : إن فاتنا ذلك وهذا .

مدح بشار خالد بن برمك فقال فيه :

لممرى لقد أجدى على أبى رمك * وما كل من كان العنى عنده يئدى
 حلبت شعري راحتيه فدرنا * سماحا كما دز السحاب مع الرعد
 إذا جتته للحد أشرق وجهه * اليك وأعطاك العكرامة بالحد
 له نسم في القوم لا يستنهبها * حراة ويكل التاجر المدة بالمد
 مبيد وينلا سبيل زوائه * إذا ما غدا أو راح كالجمر والمدة
 أحال إن الحمد يبق لأهله * حمالا ولا تبق الكور على الكد
 فاعظم وكل من عارة مسترده * ولا نبقيها لب العواري للرد

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم ، وكان قبل ذلك يعطيه في كل وفاة خمسة آلاف درهم ،
 وأمر خالد أن يكتب هذان البيتان في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه ، وقال أبه يحيى
 ابن خالد : آخر ما أوصاني به أبي العمل بهدين البيت .

وكان إسحاق الموصلي يطمح على شعر بشّار ويصع منه، ويذكر أن كلامه مختلف لا يشبه بعضه بعضا، فقيل له : أقول هذا لمن يقول :

إذا كنت في كل الأمور مُعَاتِبًا * صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعيش واحدا أوصل أحاك وإيه * مُقَارِفٌ ذيب مره * ومُجَانِبُهُ
إذا أنت لم تقرب مرارا على القُدَى * ظَلِمْتَ وأى الناس تصومو مشاربه

وهي من عُمر قصائده، مدح بها عمر بن هُبيرة، ومها قوله :

يحاف المسايا إن ترحلت صاحبي * كأن المسايا في المقام تُتَاسِبُه
فقلت له إن العراق مُقَامُه * ويخيم إذا هتت عليك جَنَاتُه
لألقى بي عيلا إن فعالمهم * تريد على كل الفعال مراتبه
أولاك الأتى شقوا العى سيوفهم * عن العى حتى أصر الحق طالبه
وحينس بجمع الليل يزحف الحصى * والشوك والخطى حُمرا تغالبه
عدونا له والشمس في حذر أمتها * طالما والطلل لم يخر ذائبه
نصرب يذوق الموت من داق طعمه * وتذكر من نجي العرار مَنَالِه
كأن مَنَار البقع فوق رموسا * وأسيافا ليل تهاوى كواكبُه
بعنا لهم موت العجاة إننا * بو الموت حقاؤا علبا سَبَابُه^(١)
فراحوا فريق في الإسار ومثله * فليل ومثل لآد بالبحر هاربُه
ومنها :

إذا الملك الجبار صرَّ خدَّه * مشينا إليه بالسيوف نغائبه
رويدا تصاهل العراى حيادنا * كأك بالصحاك قد قام مَادِبُه
وسام لمروان ومن دونه الشحا * وهول كلج البحر جاشت غواربه

(١) مقاروف دب محالطه ومرتكبه من قاروف الخليفة إذا حالطها . (٢) القدي . ما يسقط

في الشراب من دباب أو غيره . (٣) السبائ جمع سبية، وهي شقة من الشكك دقيقة يريد بها الألوية .

أَحَلَّتْ بِهِ أُمُّ الْمَنَابَا بَنَاتَهَا * بِأَسْبَافِنَا إِنَّا رَدَّيْ مَن نَحَارِبُهُ
وَكَا إِذَا دَبَّ الْعَدُوُّ لِسُخْطَا * وَرَاقِبَا فِي طَاهِرٍ لَا زَاقِبُهُ
رَكِبَا لَهُ جَهْرًا كُلُّ مُتَّقِفٍ * وَأَبْيَسُ تَسْتَسْقِي الدَّمَاءَ مَصَارِبُهُ
وَمِنْهَا :

فَلَمَّا تَوَلَّى الْحَيَّ وَأَحْضَرَ الثَّرَى * لَعَلَّ الصَّبِيفَ مِنْ تَجْمِيمٍ تَوْقَدُ لَاهِبُهُ
وَمَاطَرَتِ مَصَافِيرُ الثَّقَاتِي وَأَكْتَسَى * مِنْ الْآلِ أَمْثَالُ الْمَجَسَّرَةِ نَاصِبُهُ
عَدَّتْ عَانَةٌ تُشْكُو أَمْصَارَهَا الصُّدَى * إِلَى الْجُنَابِ إِلَّا أَهَا لَا تَحَاطِبُهُ
وَمِنْ حَسَنٍ شَمْرُهُ :

لَوْ كُنتَ تَلْقَيْنَ مَا تَلَقَى قَسَمْتُ لَنَا * يَوْمًا نَعِيشُ بِهِ مَعَكُمْ وَنُشْجُ
لَا حَيْرَ فِي الْمَشْرِ إِنْ كَا كَذَا أَبَدًا * مَا فِي التَّلَاقِ وَلَا فِي قُبْلَةِ حَرْجٍ
مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَطْفُرْ بِحَاجَتِهِ * وَطَارَ بِالطَّيَّاتِ الْمَايَكُ الْإِهْجِ
أَشْكُو إِلَى اللَّهِ هُمَا مَا يَهَارِقِي * وَشُرْعًا فِي فَوَادِي الدَّهْرِ تَعْتَلِجُ
وَقَالَ يَهْجُو صَيْدَ اللَّهِ بْنِ قُرْعَةَ :

حَلِيلٌ مِنْ كُفَيْبٍ أَعِينَا أَحَاكَا * عَلَى دَهْرِهِ إِنْ الْكَرِيمَ مُعِينُ
كَأَنَّ صَيْدَ اللَّهِ لَمْ يَلْقَ مَا أَحَدًا * مَحَافَةً أَنْ يَرْجُو نَدَاهُ حَرِيرُ
وَلَا تَجْزَلَا بِحُلِّ ابْنِ قُرْعَةَ إِيَّاهُ * وَلَمْ يَذَرْ أَنْ الْمَكْرَمَاتُ تَكُونُ
فَقُلْ لِأَبِي يَمِي مَتَى تُدْرِكُ الْعَلَا * وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ
إِذَا جِئْتَهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ * فَلَمْ تَلْقَهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَيْفَ
وَقَدْ عَلَى حَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ فَأَنْشَدَهُ :

أَحَالِدُ لَمْ أَخِطِ إِلَيْكَ بِدَقَّةٍ * سِوَى أَنْفِي عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ^(٢)
أَخَالِدُ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْحَمْدِ حَاجَتِي * فَأَيُّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ

(١) العانة : القطعة من الحبر . والحجاب : ذكرها ، ومعنى شكواها الصدى بأصهارها أو اللطش قد تبين وأحداها
صارت ، وهذا من أحسن ما وصفت به الحمار والأثر . (٢) أي لم اطلب معروفك موسلا اليك مهد أو قرعة .

فَإِنْ تُعْطَى أَفْرَعُ عَلَيْكَ مَدَائِحِي * وَإِنْ تَأْبَى لَمْ يُضْرَبْ عَلَى سِدَادٍ
رَكَى عَلَى حَرْفٍ وَقَلَى مَشِيعَ * وَمَالَى أَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِلَادِ
أَدَا أَعْكُرَى سَلْدَةً أَوْ بَكْرُهَا * نَرَجَتْ مَعَ الْبَازَى عَلَى سَوَادِ

فدحا خالد أرمه آلاف ديارى أرمه أكياس، موصع واحدا عن يمينه، وواحدا عن شماله،
وآخرين يديه، وأخر حلقه، وقال : يا أبا معاذ، هل استقل العباد؟ فلمس الأكياس ثم قال :
استقل والله أيها الأمير .

قال أنا س عد الحميد : زل في ظاهر العمرة قوم من أعراب قيس بن خيلان ،
وكان معهم بيان وفصاحة، فكان يبشرونهم ويشدهم أشعاره التي يمدح بها قيسا، فيحلونه
لذلك ويعظمونه، وكان نساؤهم يحلس معه ويتحدثن اليه ويشدهن أشعاره في الغزل،
وكت كثيرا ما أتى في ذلك الموصع فأسمع منه ومنهم، فأتيتهم يوما فاذا هم ارتحلوا، فبحثتُ
الى بشار فقلت : يا أبا معاذ : أعلمت أن القوم قد ارتحلوا؟ قال : لا، فقلت : فاعلم، قال :
قد علمت لا أعلمت، ومصيت، فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس يشدون :

دعا هراق من تهوى أناؤ * ففاض الدمع وأحرق الجفانؤ
كأن شرارة وقعت بقلبي * لها في مقتلى ودمى أسيتان
إذا أنسنت أو نسنت عليها * رياح الصيف هاج لها دحان

علمت أنها لبشار، فأتيتها فقلت : يا أبا معاذ، ما دعي اليك؟ قال : دنب عراب الين،
فقلت : هل ذكرتى سير هذا؟ قال : لا، فقلت : أنشدك الله ألا تزيد، فقال : كمص
لشأنك فقد تركك .

مدح بشار المهدي فلم يطمع شيئا، فقيل له : لم يستجد شعرك، فقال : والله لقد
قلت فيه شعرا لو قيل في الدهر لم يحش صرؤه على أحد، ولكننا نكذب في القول فيكذب
في الأمل .

مدح بشار سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان مقبياً بحزان ونوح اليه ، فأنشده قوله فيه :

مَأْتِكَ عَلَى طُولِ التَّجَاوُرِ زَيْنُ * وما شعرت أن التوى سوف تَسْمَبُ
يرى الناس ما تلقى بزيب إدامات * عجيباً وما تُخْفِي بزيب أغح
وقائلة لي حين حدّ رحلي * وأجفان عيها تجود وتسكب
أغاد إلى حران في عبر شبيعة * وذلك شأؤ عن هواها مُغْرَبُ
فلت لها كففتي طلب العنى * وليس وراء ابن الخليفة مذهب
سيكني قتي من سعيه حدّ سيفه * وكم كورٍ علاقي ووجنه ذليل^(٢)
إذا استوصرت دار عليه رعى بها * بات الصوى منها ركوباً ومضعب
فمعدى إلى يوم أرتحت ومائل * زورك والرحال من جاء يصير
لعلك أن تستيقنى أن زورتي * سليمان من سير الهواجر تُعْقِبُ
أغرّ هشام القاء إذا آتني * نمته بدور ليس بين كوكب
وما قصدت يوماً حليلين حيله * فتصرف إلا عن دماء تصب

موصله سليمان بحمسة آلاف درهم ، وكان ببخل ، فلم يرصها وأنصرف عنه مضباً ، فقال :

إن أمس مقص البدين عن البدى * وعن العدو محبس الشيطان
فلقد أروح على اللثام مسلطاً * تلج المقبل مئتم الندام
في ظل عيش عشيرة محودة * تئدى يدي ويحاف قرط لاس
أزمان حتى الشاب مطاوع * وإذ الأمير على من حران
ريم بأخوية العراق إذا بدا * برقت عليه أكلة المرجان
ما حل بيده مقتيك من القدى * ويوشك رؤيتها من الحملان
فلقبر من تهوى وأنت منهم * أشقى لداك من بى مروان

(١) اللقاي : الرجل العظيم . (٢) وحاء دطب أى مائة شديدة سرعة .

قدم بشار على المهديّ الرضاة فدخل عليه في البستان، فأنشده مديحا فيه تشييب حسن، فنهاه عن التشييب لغيره شديدة كانت فيه، فأنشده مديحا يقول فيه :

كأنما حُتُّه أبشُرُهُ * ولم أجد راعبا ومُحتَلِّبا

يزرّ المبر الأشمَ بَطَقِي * وأقواله إذا خطا

نُتِمَ مَلَاهُ في السَّيِّدِ كما * يُنَمِّمُ ماءُ الرِّيحَانِ مُتَبَا

قال : وقد طلب منه أن يُشده شيئا من عزله :

وقائل هات شَوْقًا فقلتُ له * أأنا أنتَ يا عمرو بن سَمْعَانَ

أما سَمِعْتَ بما قد شاع في مُصِرِّ * ووالِ الحَلِيفَيْنِ من نَكْرِ وَحَقَّانِ

قال الخليفة لا تَنْسَبْ بيجارية * إياك إياك أن تَنْسُقَ بمصيان

وقال له المهديّ : قل في الحب شعرا ولا تَطُلْ، وأَجْمَلِ الحُبَّ قاصيا بين المحبين

لا تُنَمِّ أَحدا، فقال :

أَجْمَلِ الحُبَّ بين حَيٍّ وبيي * قاصِيا إني به اليوم راص

فاجتمعا فقلت يا حُبِّ نفسي * إن عيني قليلةُ الإعراض

أنتَ عَذِبتني وأَمَلتَ حُسمى * فأرحمَ اليومَ دائمَ الأمراض

قال لي لا يَحِلُّ حُكِّي عليها * أنتَ أُولَى بالسَّقمِ والإعراض

قلتُ لما أحابى بهواها * تَجَمَّلَ الجَوُورُ في الهوى كل قاض

سمعت إليه المهديّ : حكّت عليا وواقفا ذلك، فأمر له بألف دينار .

وقال بشار في عشق السَّمْعِ :

يا قومُ أدنى لِمِصِّ الحى عاشقُهُ * والأذنُ تَمشُقُ قَبْلَ العينِ أحبا

قالوا بَنَ لا تَرَى تَهْدِي قَلْتُ لِمَ * الأذنُ كالعينِ تُوفِي القَلْبَ ما كانا

هل من دواءٍ لِمَشغُوفٍ بيجارية * يَلْقَى بَلْقَانِها رَوْحًا وريحانا

وقال في مثل ذلك :

قالت عُقَيْلُ بن كعب إذ تلقىها * قلبي فاصحى به من حتماً أترُّ
أنى ولم ترها تهدي فقلتُ لم * إن المئذَى يرى مالا يرى البصرُ
أصبحتُ كالخاتم الحيران مجتناً * لم يقضِ ورداً ولا يُرجى له صدرُ

وقال :

يزهقُننى في حثِّ عَدةٍ مَعَشَرُ * قلوبهم فيها عَالمَةٌ قلبي
قلتُ دعوا قلبي وما أختار وأرتعى * فبالقلب لا بالعين يُصردُّو الحثَّ
فما تنصر العيان في موضع الهوى * ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسُّ إلا كلُّ حس دعا العبا * وألف بين العشق والعاشق الصبَّ

وقال :

يا قلب مالى أراك لا تَقِرُّ * إياك أعمى وعدك الخبرُ
أدعت بعد الألى مصواً حرقاً * ما صاع ما أستودعوك إذ نكروا

وقال :

إب سُلَيْمى والله يكلوها * كالسُّكَّرِ يزداد على السُّكَّرِ
بَلَّمتُ منها شكلاً فاعننى * والسَّمْعُ يكميك عَيْبَةَ الصَّعَرِ

وقال وقد مدح المهديَّ حمومه :

حليلي إن العُسرَ سوف يُفِيقُ * وإن يَسَاراً في عَدِ تَخْلِيْقِ
وما كسْتُ إلا كالزَّمان إذا صحا * صُفُوتُ وإن ماق الزَّمان أُمُوقِ^(١)
أدماء لا أسطيع في قسلة الثرا * خُرُوزاً ووَشياً والقليل عَمِيقِ
خدى من يدى ما قل إن زماننا * شُمُوسٌ ومعروفُ الرجال رقيقِ
لقد كسْتُ لأرعى نادى معيشةٍ * ولا يَسْتَكى بجلاً على رقيقِ

(١) ماق : حق في عادة .

حليّ - إن المال ليس بسامع * إذا لم يَسْلُ منه أحٌ وصديق
 وكسُ إذا صاقت على - محمّلة^(١) * تيمّنتُ أخرى ما على - تصديق
 وما حاب بين الله والناس عامِل - له في التقي أو في المحامد سُوى
 ولا صاق فصلُ الله عن متمقِف * ولكن أخلاق الرجال تَصيق

هما نَسَار يعقوب بن داود وزير المهديّ - فقال :

بي أميّة هُبُوا طال بومُكم * إن الحليّة يعقوب بن دَاوُد^(٢)
 صاعَتْ حلاصُكم يا قوم فالتسوا * حليّة الله بين السّاي والعُود

فاتهمه عبد المهديّ بالزندقة وقال : إنّه قد هجا المهديّ ، فأمر ، ففُضِرَت بالسّياط حتى مات .

(١) المحلّة : منزل القوم . (٢) أصله من الموال ، وقد استوزره الحليّة المهديّ وسلبه الأمور كلها وأشعل هو نالهر .

٢ - حمادُ بَعْرَد^(١)

«ولو آتَى أحبُّهُ أنْ أُنْخَصَّ حماداً لوصفتهُ قل كل شئ بحجة الطبع، وسوء الخلق،
وحب الانتقام، والإسراع إليه، ثم بالصراحة في القول، والملازمة بينه وبين العمل،
ويكره النفاق والانصراف عنه، لا يعنيه أرى الناس عنه أم يحطوا عليه، ثم بحجة اللسان
ومصيبه وإقداعه وكلفه بفاحش القول وبجته عن أسوئه وأقبحه، ثم بالسحرية من الناس
وأردرائهم، لا على أنه يتخذ ذلك فلسفةً وأصلاً من أصول الحياة كالوليد ومطيع وأبى نؤاس،
بل على أنه يتخذ ذلك وسيلةً من وسائل الشعراء يختص بها كلُّها صاغت عليه المداهب
وأحدثت عليه، أو دعت إلى ذلك حاسة. لم يكن حمادٌ يحفل بما يحفل به الناس من الوفاء
والانصراف عن التناقض، وإنما كان صديقاً مُخلصاً حتى تبدوله حاجة أو توسع له فرصة
أو تضطره ضروره؛ فإذا صدأته قد استحالَت إلى عداه، وإذا هو ليس أقل صدقاً
وإخلاصاً في العداه منه في الموده والحب: فقد مدح يحيى بن رباد وأحمد صديقاً ومال
جوازته، ثم كان الخلاف بينهما. وصادقٌ بساراً وصافاً، ثم احتصم فلم يعرفوا بالخصومة
رحمة ولا ريقاً. وصاقٍ مطيعاً وأحبه ومدحه وأكثر في الشاء عليه، ثم اختصم في أمراء
مرة وفي عليم مرة أخرى، فتهام وأقذع في ههنا. وكان على هذا كله يؤثر شعره
وصروراته على البر بالناس في معاملتهم: هما ذات يوم رجلا يقال له حُشَيْشٌ وجعل اسمه
قافية لهذا الشعر وأراد أن يبالغ في ذمِّه فشبهه بحش، وكان بحش هذا رجلاً من أهل البصرة

(١) هو حماد بن يحيى بن عمرو مولى عمار بن مصصة - شأ في الكوفة ثم واسط - وعاصر الدواين، لكنه سعى في الدولة العباسية بعد أن تادم الوليد بن يزيد الأموي. وجاءه بعدد أيام المهدي ومعه مطيع بن إلياس ويحيى بن رباد، وكلهم من المهديين في دهم. وحماد من الشعراء المهديين، وكان ماحظاً رجا حليماً نبهاً في دية حرميا بالريدة. وأدرك شار بن رذولة مع أجاج فاحشة، ولم يكن يهاب كبيراً ولا صغيراً، عالماً كان أو حليقة. توفي سنة ١٦٦ هـ. وبعد ترجمته في الأغانى (ج ١٣ ص ٧٣) وابن حنكلا (ج ١ ص ١٦٥) والشعر والشعراء (ص ٤٩٠) والمهرست (ص ٩١). (٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وإدعاً لا يعرف حماداً ولا يعرفه حمادٌ، فلما قرأ الرجلُ هذا الشعرَ جَرعَ له وسافراً من البصرة حتى بلغ الكوفةَ فعاتبَ حماداً، فقال له حمادُ صاحكاً معتذراً: لا بأس عليك فإن هذا من آثارِ القافية ولنا أعود إليه .

وكان السببُ في مُهاجاةِ حمادٍ وبشار أن حماداً كان نديماً لِإِيفع بن عُقبة، فسأله بشارُ تَعْيِزَ حاجةٍ له من نافع فأبطل عنها، فقال بشارُ فيه :

مَوَاعِيدُ حَمَادٍ سَمَاءٌ مَحِيلَةٌ * تَكْشِفُ عِزِّي وَلَكِنْ سَتَبْرِقُ

إِذَا جِئْتَهُ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى عَيْدٍ * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ مَا لَيْسَ يَصْدُقُ

وَيُؤَيِّدُ نَافِعَ عَنِّي حَقًّا وَإِنِّي * لِأَطْرُقُ أَحْيَانًا وَذُو اللَّبِّ يَطْرُقُ

وَلِلْمَقْرِي قَوْمٌ فَلَوْ كَسْتُ مَهْمٌ * دُعِيتُ وَلَكِنْ دُوِيَّ اللَّابِثُ مُغْلِقُ

وَمَا زِلْتُ أَسْتَانِيكَ حَتَّى حَسَرْتُ * بَوَعْدِ بَكَارِي الْآلِ يَحْفَى وَيَحْمَقُ

فَغَضِبَ حَمَادٌ وَأَنْشَدَ نَافِعًا الشَّعْرَ مَعَ بَشَارَا، فقال بشارُ :

أَمَا عَمْرٍو مَا يَطْلُبُكَ حَاجَةٌ * وَلَا فِي الَّذِي مَسِينًا ثُمَّ أَهْمَعِرَا

وَعَدْتُ فَلَمْ تَصْدُقْ وَقُلْتَ عَدَا عَدَا * كَمَا وَعَدَ الْكَوْنُ شَرًّا مُؤْتَعِرَا

فكان ذلك سببَ التهاجي بين بشار وحماد . وكان بشارُ يرى حماداً بالزندقة ، وفي ذلك يقول :

إِبْنُ نَهْيٍ رَأْسٌ عَلَى تَقِيلٍ * وَأَحْتِمَالُ الرُّمُوسِ خَطْبٌ جَلِيلُ

أُدْعُ عِبْرِي إِلَى عِبَادَةِ الْإِنْتِي * مِنْ فَنَائِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ

يَا بْنَ نَهْيٍ بَرِئْتُ مِنْكَ إِلَى اللَّهِ جِهَارًا وَذَلِكَ مِنْ قَلِيلِ

فأشاع حمادُ هذه الأبيات لبشار، وجعل فيها مكان : « فَنَائِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » « فَنَائِي مِنْ وَاحِدٍ مَشْغُولُ » ليصبح عليه الزندقة والكفر بالله تعالى . فما زالت الأبياتُ تدورُ في الناس حتى انتهت إلى بشار، فأضطرب منها وجزع وقال : أشاط ابنُ الفاعلةِ يدي، والله ما قلتُ إلا « فَنَائِي بَوَاحِدٍ مَشْغُولُ » فغيرها حتى شهرت في الناس .

كان رجلٌ من أهل البصرة يدخل بين حماد وبشار على أخاقٍ منهما ويرعياً بأن ينقل
إلى كل واحد منهما وعه الشعر؛ ففعل يوماً إلى بشار فقال له : إيه يا فلان ، ما قال آس
الفاعلة ؟ فأنشده :

إن تاه بشارٌ عليكم فقد . أمكنتُ بشاراً من التيه
فقال بشار : ماى شئٌ ويحك ؟ فقال :

وذاك إذ سميتُه باسمه * ولم يكن حراً تُسميه
قال : سميتُ عينه ، فبأى شئٍ كنتُ أُحرف ! إيه ، فقال :

فصار إسماءً يدكرى له * ما يتنى من بعد دكره !
فقال : ما صغ شيئاً ، إيه ويحك ! فقال :

لم ألقُ بشاراً ولكنى * هوتُ نفسى بهجائيه
فقال : على هذا المعنى دار وحوله حام . وتأم الأبيات :

لم آت شيئاً قط فيما مضى . ولستُ فيما عشتُ آتية
أسوأ لى الناس أخلوثه : من خطأ أخطائه فيه
فأصح اليوم لى لى له * أعظم شأناً من مواليه

وقال بشارُ راوية حماد : ما هجأت به اليوم حماد ؟ فأنشده :

ألا من مبلغ عني الـ * ندى والدّه نُردُّ

فقال : صدق أن الفاعلة ما يكون ؟ فقال :

إذا ما نُسبَ الناس * فلا قُل ولا عُدُّ

فقال : كذب ، أين هذه الرصات من عُقيل ! ما يكون ؟ فقال :

وأعمى قُلطباتٌ^(١) ما * على قاذفه حدُّ

فقال : كذب ، بل عليه ثمانون حَلَّةً ، هيه ، فقال :

وَأَعْمَى يُنْسِيهِ الْفِرْدُ * إِذَا مَا عَمِيَ الْفِرْدُ

فقال : والله ما أخطأ حين شَبَّهَنِي بِفِرْدٍ ، حَسْبُكَ حَسْبُكَ ! ثم صَمَقَ بِيَدَيْهِ وَقَالَ .
مَا حِيلَنِي ! يَرَانِي فُشِّبَنِي وَلَا أَرَاهُ فَأُشَبِّه . وَتَمَامُ الْأَبْيَات :

دَنِيٌّ لَمْ يَرْجُحْ يَوْمًا * إِلَى تَجْدٍ وَلَمْ يَقْدُ

وَلَمْ يَخْصُرْ مَعَ الْخُصَا * رِي خَيْرٍ وَلَمْ يَيْدُ

وَلَمْ يُخَشَّ لَهُ دَمٌ * وَلَمْ يُرْجَ لَهُ حَمْدُ

جَرَى بِالنَّخَسِ مُدْكَانٌ * وَلَمْ يُخَيَّرْ لَهُ سَعْدُ

هُوَ الْكَلْبُ إِذَا مَاتَ * فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ قَدُّ

وقال علي بن مهدي : أجمع علماء البصرة أنه ليس في هجاء حماد بن محمد لبشار إلا أرسون
بيتاً معدودة ، ولبشار فيه من المعاء أكثر من ألف بيت جيد . وكل واحد منهما هو الذي
هتَكَ صاحبه بالزندقة وأطهرها عليه ، وكأما مجتمعان عليها ، فسقط حماد وهتك بفضل بلاغة
بشار وجودة معانيه ، وتبقى بشار على حاله لم يسقط ، حتى عُرف مدحبه والزندقة فقتل به .

ومن أخطأ ما هجا به حماد بشاراً :

سَهَّارُهُ أَحَبُّ مِنْ لَيْلِهِ * وَيَوْمُهُ أَحَبُّ مِنْ أَمْسِهِ

وَلَيْسَ بِالْمُقْلِعِ عَنْ غَيْبِهِ * حَتَّى يُوَارَى فِي تَرَى رَمْسِهِ

كان حماد صديقاً لبحي بن زياد ، فأنظر بحى تورعاً وقرأةً وزُوماً عما كان فيه وهجر
حماداً وأشباهه ، فكان إذا ذُكرَ عنده ثَلَبَهُ وَذَكَرَ تَهْتَكُهُ وَجُؤَنَهُ ؛ فَلَمَّ ذَلِكَ حَمَادًا فَكَتَبَ إِلَيْهِ :

هَلْ تَذْكُرْتُ دَلِيلِي إِلَيْكَ * عَلَى الْمَصْمُورَةِ الْقَلَاصِ

أَيَّامَ تُعْطِيَنِي وَتَأْ * حُدْمِ ابْنِ أَبِي الرَّصَاصِ

إِنْ كَانَ تُسْكِكُ لَا يَتِي * ثُمَّ مُنِيرُ شَمْسِي وَأَنْتَقَاصِي

أَوْ كَمَتَ لَسْتَ بِفَيْرِدَا * لَكَ تَتَالِ مَتَرَلَةُ الْخَلَّاصِ

فعلبك فاشتمُ آيساً * كل الأمان من الفصاص
واقعد وطم بى ما بدا * لك فى الأدنى والأقص
ططالاً زكيتي * وأنا المقيم على المعاصي
أيام أنت اذا ذكر * ت متاصل عنى متاصي^(١)
وأنا وأنت على أرتكا * بالمؤفات من الحراس
ويناً مواطر ما بنا * فى البر أهلة العراس

فاتصل هذا الشعر ببجي س زياد ، فسب حمادا الى الرندقة ورماء بالخروج عن الإسلام ،
فقال حماد فيه :

لا مؤمن يُعرف إيمانه * وليس يحى بالحق الكافر
مافق طاهره باسك * محالف الباطل للظاهر

كان حماد صديقاً لحريث س أبى الصلت الثقفى ، وكان يعبه بالبحل ، وفيه يقول :

حريث أبو الفضل ذو خيرة * بما يصلح المجد العاسده
تخوف ثمة أصياه * موودهم أكلة واحدة

ومن قوله :

الا قل لبد الله إتك واحد * ومثلك فى هذا الزمان كثير
قطعت إحافى طالبا وهزنى * وليس أنى من فى الإحاء يحور
أديم لأهل الود ودى وإنى * لمن رام مجرى طالبا لمجور
ولو أن معى رابى لقطعت * وإنى يقطع الرائب جدير
فلا تحسبن متحى لك الود حالما * لىز ولا أنى إليك فقير
ودونك حظى مك لست أريده * طوال الليالى ما أقام تير^(٢)

(١) ماص : مدافع ، من قولم ماصاه ماصاة : أهد كل ماصية ماصه . (٢) تير : اسم حل .

كان حماد صديقا لحفص بن أبي بردة ، وكان حفص أعمش أظن أعصب مُبْعِ
الوجه ، فاجتمعوا يوماً على شراب وجعلوا يتناشدون ويتحدثون ، فأخذ حفص يقطع على
مُرْقَش ويعيب شعره ويلجحه ، فقال له حماد :

لقد كان في عينك ما حصّ شاعِلٌ * وأيف كَيْلِ العودِ عما نَتَّعِ
نَبَّعُ لَحَا في كلام مُرْقَشٍ . ووجهك سَنَى على الحسن أجمع
فأدناك إقواءً وأثك مُكَمَّا . وعيناك إيطاءً فانت المرقعُ

ومن قوله :

إني أحبك فاعلي * إن لم تكني تَعْلِيَا
حبا أقل قليله كجميع حب العالميا

وأشيد نشار قول حماد عجرد :

أني كُف عن لومي فأنت لا تدري * ما فعل الحب المترح في صدى
أني أنت تلحاني وقلبك فارغ . وقلبي مشغول الجوالح بالعكر
دواني وداني عدى من لورأبته . قلت عينه لا تقصرت عن زحري
فأقسم لو أصححت في لومه الهوى * لا تقصرت من لومي وأطبت وعذري
ولكن كلاً منك أنك فاصح . وأنت لا تدري بأنك لا تدري

مطرب بشار ثم قال : ويلكم أحسن والله ! من هذا * قالوا : حماد عجرد . قال : أوه وكشونى
والله قبيّة يومى لهم طويل ، والله لا أطعم قبيّة يومى طعاماً ، ولأصومن عما بما يقول
السّطي مثل هذا .

قال محمد بن الفضل السّلولي : بقيت حماد عجرد بواسطة وهو يمضى وأنا راك ، فقلت
له : أنطلق بنا الى المنزل ، فإني الساعة فارغ لتحدث ، وحسنت عليه الدابة ، فقطع شغل
عرص لي لم أقدر على تركه ، فصهت وأسيته ، فلما بلغت المنزل خفت شره فكتمت اليه :

أَبَا عُمَرَ أَغْفِرُهَا هُدَيْتَ فَإِنِّي * قَدْ أَذْنَنْتُ ذَنْبًا حِطُّنَا غَيْرَ عَامِدٍ
فَلَا تُحَدِّثْ فِيهِ عَلَيَّ فَإِنِّي * أَقْرِ بِاجْرَائِي وَلَسْتُ بِعَائِدٍ
وَقَبْلَهُ لَمْ أَتَقَدِّدْكَ نَفْسِي فَإِنِّي * أَرَى رِجْمَةً أَدْ كُتَّ لَسْتُ وَاحِدٍ
وَعُدْ مِنْكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * فَإِنَّكَ دُونَ فَصِيلٍ طَرِيفٍ وَتَالِدٍ
فَأُحَابِيهِ عَنِ الْآيَاتِ :

مُحَمَّدُ يَا أبا الْفَضْلِ إِذَا الْخَامِدِ * وَيَا بَهْجَةَ الْبَادِي وَزَيْنَ الْمَشَاهِدِ
وَحَقِّكَ مَا أَذْنَنْتَ مَدَّ عِرْفَانِي : عَلَى حِطْلَا يَوْمًا وَلَا عَمْدٍ عَامِدِ
وَلَوْ كَانَتْ مَا أَلْقَيْتِي مُتَسَرِّمًا * إِلَيْكَ بِهِ يَوْمًا تَسْرِعَ وَاحِدِ
وَلَوْ كَانَتْ ذُو فَضْلٍ يُسَمِّي لِعَصْلِهِ * بِعِيرِ اسْمِهِ سُمِّيَتْ أُمُّ الْقَلَائِدِ
مِنْهَا رَقْعَتُهُ فِي يَدِي وَأَمَا أَقْرَأُهَا إِذَا جَاءَنِي رَسُولُهُ رَقْعَهُ فِيهَا :

قَدْ غَفَرْنَا الذَّنْبَ يَا بَا أَل * فَخَصِّلِ وَالذَّنْبَ عَظِيمُ
وَمِيسِي أَنْتَ يَا بَا أَل * فَخَصِّلِ فِي دَاكِ مُلِيمُ
حِينَ تَحْشَى عَلَى الذَّنْبِ * بِ كَمَا يُحْتَشَى اللَّئِيمُ
لَيْسَ لِي إِنْ كَانَ مَا حِجْدُ * مَتَّ مِنَ الْأَمْرِ حَرِيمُ
أَنَا وَاقِفِهِ وَلَا أَدُ * حَرَّ لَانْطِيطِ كَقُطُومِ
وَبِأَصْحَابِي وَلَا رِي * سَةَ بَرٍّ وَرَحِيمِ
وَبِمَا يُرْضِيهِمْ عَدَّ * سِي وَيُرْضِيَنِي عَلِيمِ

كَانَ عُثْمَانُ بْنُ شَيْبَةَ مُبْعَلًا وَكَانَ حَمَادٌ يَهْجُوهُ ، بَجَاءَ رَجُلٍ كَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ إِلَى حَمَادٍ

فَقَالَ لَهُ :

أَعِنِّي مِنْ غَاثِكَ بِهَيْتِ شِعْرِ * عَلَى قَهْرِي لِعُثْمَانَ بْنِ شَيْبَةَ

فَقَالَ :

وَإِنَّكَ إِنْ رَضِيتَ بِهِ حَالِي * مَلَأْتَ يَدِيكَ مِنْ فَقْرٍ وَخَيْبَةٍ

فقال له الرجل : جزاك الله حياء فقد عرفني من أخلاقه ما قطعني عن مدحه وصنت
وحيى عنه .

لما مات محمد بن أبي العباس طلب محمد بن سليمان حماد عمود لما كان يقوله في أخيه
زينب من الشعر ، فعلم أنه لا مقام له معه بالصره ، فاستحار بقبر أبيه سليمان بن علي
وقال فيه :

مِنْ مَقَرٍّ بِالذَّنْبِ لَمْ يُوجِبِ الدَّ • هُ عَلَيْهِ سَيِّئٌ إِقْرَارَا
لَيْسَ إِلَّا نَفْضَلُ حَلْمِكَ يَدَ • تَدَّ سَلَاءً وَمَا بَعْدَ اعْتَرَارَا
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ أَحْمَدُ لَا أَحَدَ • حُلَّ إِلَّا إِلَيْكَ مَسْكُ الْفِرَارَا
عَيْرَ أَتَى حَمَلْتُ قَبْرِ أَبِي آيُو • بَ لِي مِنْ حَوَادِثِ الدَّهْرِ جَارَا
وَحَرِيٌّ مِنْ اسْتَحَارَ بِذَلِكَ الـ • قَدِيرٌ أَنْ يَأْمَنَ الرَّدَى وَالْعِتَارَا
لَمْ أَحْدِلْ مِنْ الْعِمَادِ مُجِيرَا • فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا
لَسْتُ أَعْتَاضُ مَكَ فِي مَقْبَرَةِ الْمَرْثَةِ حَقَّاتٍ كُلُّهَا أَوْ رِزَارَا
فَمَا الْيَوْمَ جَارُ مِنْ لَيْسَ فِي الْأَر • ضِ مُخِيرٌ أَعَزُّ مِنْهُ جَوَارَا
يَا ابْنَ بَيْتِ النَّبِيِّ يَا خَيْرَ مَنْ حَقَّ • مَتَّ إِلَيْهِ الْقَوَارُ الْاَسْكَوَارَا
إِنْ أَكْبَى مَذْنِبًا فَانْتَ أَبْنُ مِنْ كَا • نَ لِمَنْ كَانَ مَدِينًا عَقَارَا
فَاعْفُ حَتَّى فَقَدْ قَدَّرْتَ وَحِيرَا • عَفُو مَا قَلْتُ : كُنْ ، فَكَانَ اقْتِدَارَا
لَوْ يُطِيلُ الْأَعْمَارَ جَارُ لَمْزُ • كَانَتْ حَارِي يُطَوِّلُ الْأَعْمَارَا

فقال : والله لأبلى قبر أبي من دمه ، فهرب حماد إلى بغداد ، فعاد بمغفر بن المنصور
فأجاره ، وقال : لا أرضى أو تهجو محمد بن سليمان ، فقال يهجو :

قُلْ لَوْجَهُ الْخَلْقِ ذِي الْعَارِإِي • سَوْفَ أَهْدِي لَزَيْنَبَ الْأَشْمَارَا
قَدْ لَعَمْرِي فَرَرْتُ مِنْ شِدَّةِ الْخَو • فِي وَأَنْكَرْتُ صَاحِبِي نَهَارَا
وَضَلْتُ الْقُبُورَ تَمْنَعُ جَارَا • فَاسْتَجَرْتُ التُّرَابَ وَالْأَحْمَارَا

كَتُّ عَدِ اسْتِجَارِي أَبِي آدَ • حُوبِ أَخِي صَلَالَةَ وَحَسَارَا
 لَمْ يُجِيرْنِي وَلَمْ أَجِدْ فِيهِ حَقًّا • أَضْرَمَ اللَّهُ ذَلِكَ الْقَبْرَ آرَا
 فَبَلَغَ هَاجُوهُ عَمْدَ بَنِي سُلَيْمَانَ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يُعَلِّقُنِي أَبَدًا ، وَإِنَّمَا يَزِدُّهُ حَتْمًا بِلِسَانِهِ ! وَلَا وَاللَّهِ
 لَا أَغْفُو عَنْهُ وَلَا أَتَفَاعَلُ أَبَدًا .

ومن قوله :

إِنَّ الْكَرِيمَ لَيُحْنِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ • حَتَّى تَرَاهُ عَيَّاً وَهُوَ تَجْهَدُ
 وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلٌّ • زُرْقُ الْعَيْنِ عَلَيْهَا أَوْحُهُ سُودُ
 إِذَا تَكْرَمْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَلِيلَ وَلَمْ • تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
 أَزِيْقُ بِحَمِيرٍ تُرَبِّحُ لِلْوَالِ مَا • تُرَبِّحُ الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
 بُثَّ السَّوَالُ وَلَا تَمْنَحْ قِلْتَهُ • فَكُلُّ مَا سَدَّ مَقْرَاهُ عَمُودُ

وقال أيضا :

كَمْ مِنْ أَحْجَ لَكَ لَسْتَ تُسْكِرُهُ • مَا دَمْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فِي بُسْرِ
 مُتَصَنِّعٍ لَكَ فِي مَوَدَّتِهِ • يَلْقَاكَ بِالْتَّرَجِيبِ وَالْبُشْرِ
 يُطْغَى الْوَفَاءُ وَذَا الْوَمَاءُ وَيَذُ • حَتَّى الْقَدْرُ مَجْتَبِداً وَذَا الْقُدْرُ
 فَإِذَا عَدَا ، وَالْقَدْرُ ذُو عَيْرٍ ، • دَهْرٌ عَلَيْكَ عَدَا مَعَ الدَّهْرِ
 فَارْقُصْ بِإِحْجَالِ مَوَدَّةٍ مَنْ • يَقْلِي الْمَقْلُ وَيَعْشَقُ الْمُتَرَى
 وَعَلَيْكَ مَنْ حَالَاهُ وَاحِدُهُ • فِي الْعُسْرِ إِمَّا كُنْتَ وَالْبُسْرِ
 لَا تَحْلِطْنَهُمْ ضَيْرُهُمْ • مَنْ يَحْلِطُ الْعِيقَانَ بِالْصُفْرِ !

وهو القائل في عمْد بن طلحة :

زُرْتُ أَمْرَأً فِي بَيْتِهِ مَرَّةً • لَهُ حَيَاءٌ وَلَهُ حَيْدُ
 يَكْرَهُ أَنْ يُنْجِمَ إِخْوَانَهُ • إِنْ أَذَى الشُّعْمَةَ عَذُورُ
 وَيَسْتَهْجِي أَنْ يُؤْجِرُوا عَدَهُ • بِالصَّوْمِ وَالصَّائِمُ مَا جُورُ
 يَا بَنِي أَبِي شُهْدَةَ أَنْتَ أَمْرُؤُ • بِصَحَّةِ الْأَبْدَانِ مَسْرُورُ

وهو القائل في محمد بن أبي العباس السفاح :

أرجوك بعد أي العباس إدما * يا أكرم الناس أعرافا وأغصانا
لوتخ حود على قسوم عصارته * لمج عودك فيا منك والبانا

قيل : إن حمادا مضى الى الأهواز ، فأقام هناك مستترا ، وطلع محمدا خبره فأرسل مولى له الى الأهواز ، فلم يزل يطلبه حتى طهر به فقتله عيلة . وقيل : إنه خرج من الأهواز يريد البصرة ، فمر بشيراز في طريقه ، فمرص بها ، فأصطغر الى المقام بسبب عتبه ، فأشدد مرصه فأت هالك ودفع على تلعة . وكان بشار بلغه أن حمادا طلي ، ثم نبى اليه قبل موته ، فقال بشار :

لو عاش حماد لقوا به * لكته صار الى النار

فبلغ هذا اليك حمادا قبل أن يموت وهو في السبي ، فقال يرد عليه :

يئت بشارا نعانى ولا * سموت برأى الخالق البارى
يا ليتنى ميت ولم أجه * ثم ولو صرت الى النار
وأى نحرى هو آخرى من أن * يقال لى يأس بشار^(٢)

علما قتل المهدي بشارا بالطيحه أتفق أن حبل الى منزله ميتا ، فدفع مع حماد على تلك التلعة ، فتر بها أبو هشام الباهلي الشاعر المصري الذي كان يهاج بشارا ، فوقف على قبريهما فقال :

قد تبع الأعمى فما عجزد * فأصبعا جارين في دار
قالت بقاء الأرض لا مرحبا * فزرب حماد وبشار
تحاورا تعد تائبهما * ما أبغض الجار الى الجار
صارا جميعا في يدى مالك * في البار والكافر في النار

٣ - مروان بن أبي حفصة^(١)

« لم يكن مروان متصرفاً في مئون الشعر، ولعله لم يمتد منها فناً أو مئياً، فلما عرف له عزلاً إلا هذا العزل الذي تعود الشعراء أن يبدؤوا به مدائحهم، ولما عرف له هجاء إلا هذا الحق من الهجاء الذي يصطر إليه الشعراء السياسيون حين يذامعون عن مذهبهم ويهاجمون خصومهم. على أن موقف مروان كان في هذا دقيقاً جداً، فهو لم يكن ينصر على العباس على بني أمية فيبلغ منهم ما يريد، ويهجوم في حرية، وإنما كان السيف هو الذي أنتصر للعباسيين من بني أمية، وكان العباسيون في حاجة إلى من يصبرهم على العلويين وأتباعهم من بني هاشم، ولم يكن هجاء العلويين يسيراً! كان الذين ياباه في ذلك الوقت، وكانت كرامة الخلافة العباسية نفسها تأباه أيضاً، فالعلويون من بني هاشم وهما هم هجاء للعباسيين، ومن هنا سلك مروان وأمثاله من الشعراء السياسيين الذين ناصلوا عن حقوق العباسيين مسلك الدفاع والمناظرة الشريفة البريئة من الشتم والقذف، فكان دفاعهم أبلغ، وكانت مناظراتهم أحسن وقماً من هجاء أولئك الشتاميين المسرفين في الشتم، ثم لا نعرف

(١) هو من الشعراء الموال أصل حده من بني اسطر، وكان علامة اشتراء عثمان بن عفان ووجه مروان بن الحكم، وأقام مدبّر بالخيمة، وقد احتلوا في حقيقة اسمه. شب مروان على كره الشيعة لأنه من موال بني أمية وقد حارب معهم، وكان شجاعاً مجزاً، فلما سح في الشعر قدم بهداً ومدح المهدي ثم الرشيد، وكان يتقرب إليه بهجاء العلويين، وهو من الصحول المقتسمين، أول من شهره ونزه به من رائدة الحواد المشهور بقصيدة وية مدحه بها، مطلعها .

من رائدة الذي ويدت به * شرفاً على شرف مو شيان

ولكنه اشتهر على الخصوص بفضيلة لامية مدح بها مما مطلعها

سوط يوم القاء كاهم * أسود لم في طلي حان أشل

فأحاره عليها بمالك كثير، فكانت كلها رادة من عطاء راده مروان مدحا. تولى سنة ١٨١ هـ. ونجد أحاده في الأغاني (ج ٩ ص ٣٦) وإن حكاك (ج ٢ ص ١٣٠) والشعر والشعراء (ص ٤٨١) ودراسة الأدب (ج ١ ص ٤٤٧) والمهرست لأبي الديلم (ص ١٦٠).

(٢) من بحوث صديق الله كنز طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

لمروان مجونا ولا عبثا، فلم يكن كما قلنا ماجنا ولا عابثا وإنما كان بجيلا، والبجل والمبث شيطان لا يتفقان، ومن ضنَّ على نفسه ما لم وطَّيات الطعام لم يستبح لنفسه نهرا ولا ما تستبجه الخمر . ثم لا يعرف لمروان نفرا وما تحسب أنه فاجر أو مال إلى الفخر، فقد كان رجلا عمليا يعنيه أن يظفر بالمكانة والثروة وكان يضنُّ بوقته وجهده على الفخر الذي لا يفيد . لم يرض إذن إلا لفئتين أثين : المدح والرثاء، وهو في المدح أشعر منه في الرثاء وهذا طبقي، فهو راعبٌ حين يمدح، يطلب المال ويحرص على أن يظفر به، فمقولُّ أن يُجيد وأن يبلغ من الإحادة حقًا عطيا، أما في الرثاء فهو لا يرض ولا يطلب مالا وإنما يفي بهد ويشكر صديقه . ومقولُّ أن موقفه هذا لا يدمسه إلى الإحادة إلا أن يكون حساسا دقيق الشعور راقٍ النفس، ولم يكن مروان من هذا كله في شيء، وإنما كان كما قلتُ لك رجلا عمليا يريد المال . هل أنت رثاء لمن ليس بالردى وكذلك رثاءه للهدى، وهل نستطيع أن نمدَّ رثاءه للهدى رثاء! هو مدح لأنه عزاء لخليفة الحديد، فيه ذكر لخليفة الراحل، والثناء على وارثه، وفيه المثوبة والعطاء . فهو إلى المدح أقرب منه إلى الرثاء .

أما مدح مروان من آيات المدح العربي، ونحن لا نحفظ منه إلا متممات قليلة ولكنها تكفي لحكم أن مروان كان قد اتقن المدح وبرع فيه ، بل نحسب أنه برز في هذا الفن على غيره من المعاصرين ، ولكن مدح مروان ينقسم إلى قسمين متمايزين : أحدهما المدح بالمعنى الشائع المعروف، وهو موجه لمن بن زائدة، فهو يفتن في وصف من بالجلود والكرم والشجاعة والحب، ثم يفتن في مدح بني شيبان الذين يتنمى إليهم معن، وهو لا يخرج في مدحه هذا عن سمة الشعراء من قبله، ولكنه جيد المعاني متقاهها، حسن الألفاظ صافيها .

وأما القسم الثاني فهو هذا المدح السياسي الذي كان يُشده الخلفاء من بني العباس، وهو مدح إن شئت ولكنه يمتاز عن المدح المعروف بما فيه من هذا المضال السياسي

الذى كان يحتاج الى مهارة ومطعة ودقة وخفة ، والذى كان يصطر صاحبه الى أن يقهر العلويين دون أن يؤذيهم ، والى أن يصغر العاصيين دون أن يزدري خصومهم ، وقد بلغ مروان من ذلك ما أراد ، فقد أعضب العلويين لا لأنه آذاهم أو هاجم فيما تعتقد ، بل لأنه كان خصما قويا عيدا ماهرا في الحصار .

ثم هناك شيان لابد من الإشارة اليهما ليكمل رأينا في مروان، ولنستطيع أن نحكم على شعره حكما معلا إن صح هذا التعبير .

الأول : أن مروان لم يكن عراقيا ولم يرص الإقامة في العراق ولم يُطل عشرة العراقيين من أهل الحُبُون والسنّت ، وإنما كان من أهل البصرة أقام فيها لا يترجها إلا واهدا على أمير أو وزير أو حليفة، فإذ أنشد قصيدته وظفر بجائزته عاد الى البصرة وأقام فيها عامه ثم استأنف الرحلة . ولهذا أثره في شعر مروان ، فهو أقرب الى شعر الحاهليين والإسلاميين منه الى شعر المُحدثين من شعراء الحصاره العاصيه ، تقرأه تجد عليه هذه المسحة التي تحلو أو تكاد تحلو من الدُعاة والخفة ، وتمتاز بشيء من الجلال والرصانة ، يُمثل البادية تمثيلا صحيحا ، ولهذا أثره من وجهة أخرى ، فقد رعى علماء اللغة جميعا عن مروان وأحبوه من هذه الناحية ، وما أشك أننا في أنهم كانوا يودون لو استطاعوا إثارة على بشار وأبي نُوَاس ، لأنه كان أقرب منهما الى الأسلوب البدوي القديم ، ولكي أتى لهم ذلك ! وقد سلط الله عليهم لسان بشار وأبي نواس فاضطروا الى أن يحاؤوا هذين الشاعرين ويقتقوها ، وأجمعوا أو كادوا يُجمعون على تقديم بشار وإثارة على مروان . ومع ذلك فليس الى المقارنة سبيل بين الشاعرين اذا اتخذنا وجهة البحث والنقد ، هذه الوجهة التي كان يُعنى بها علماء اللغة وهي وجهة المثانة والرصانة في اللفظ والأسلوب ، لا يُقاس الى مروان في هذا أحد من شعراء العراق ، أما اذا اتخذنا وجهة أخرى للنقد ، اذا اتخذنا اختلاف الفنون التي طرّقها الشاعر ، وقرب المأخذ ، والدور من أذهان الناس والقدرة على تمثيل حياتهم ، فليس مروان يقاس الى بشار ولا الى أبي نُوَاس . نوع خاص ، على أن من علماء اللغة من استطاع أن يكون شاعرا شرها في قبه لا يحاف

ولا يهاب فصدَّق نفسه وصنَّق الناس، وآثر مروان على غيره من الشعراء المعاصرين، وهذا العالم اللغوي هو ابن الأعرابي الذي حتم الشعر بمروان وأبى أن يدون لأحد من المخدَّين معه، والذي كان يشد مع الإعجاب الشديد هذه الأبيات الحيدة من شعر مروان، وهي:

بَسُو مَطَرِ يَوْمِ الْقِيَامِ كَأَنَّهُمْ / أَسْوَدُهَا فِي طَلْحِ خَفَّانٍ أَشْبَلُ
مَهْمُ يَمْسُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانَمَا / لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاءِ مَنَزِلُ
مَلَأْنِي فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ / كَأَوْلَمِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
مَهْمُ الْقَوْمِ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا / أَحَاوُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَاوُوا وَأَجَزَلُوا
وَلَا يَسْتَطِيعُ الْعَاظِلُونَ مَعَالِمَ / وَإِنْ أَحْسَوْا فِي النَّاسِ وَأَجْلُوا

وكان ابن الأعرابي يقول: لو أن ممّا أعطى مروان كل ما يملك هذه الأبيات لمّا بلغ حقه.

الثاني: أنّ مروان لم يكن سريعا في الشعر ولا متعجلا ولا مسترسلا مع الطبع وإنما كان بطيئا متمهلا. كان يحمّد الشعر لأنه كان يُحمّده. كان يسلك هذه الطريقة التي يزعم الرواة أنّ زهيراً كان يسلكها في هذه القصائد التي يُسمونها الحَوَلَات، كان يُنفق أشهراً في إنشاء القصيدة وأشهر في إصلاحها وأشهر في عرضها حتى إذا استقام له هذا كله أنشد قصيدته لمُدودحه حليفة كان أو وريراً أو أميراً، طيس عجيباً مع هذه الأناة أن يحلّ شعره مما يُستنكر وأن يبرأ من الصعف والوحشية معا. ولقد يُحمّدنا الرواة بطائفة من أخبار مروان مع اللغويين والشعراء الذين كان يعرض عليهم شعره قبل أن يُنشد الخلفاء. ولستُ أشير إلا إلى سيرته مع بشار فلما معناه. كان مروان يعرض القصيدة على بشار ويسأله رأيه فيها فلا يجيبه بشار بأنها جيّدة أو أنها رديئة، بل يُقدّر له قيمة القصيدة مائلاً، فيقول: سيعطونك عليها كذا وكذا.. وقد صدق بشار مرتين فأظهره مروان العجب من ذلك، فقال بشار: ألم أقل لك إني أعلم الغيب! ولم يكن يعلم الغيب،

وإنما كان يفهم مروان ويفهم الخلفاء ويفهم الميول السياسية التي كان من شأنها أن تُحزَل
حظُّ مروان من العطاء .

كان مروان متناقضا ولكنه تافُصُّ مفهوم، كان شديد الحرص على الإجابة، فكان
يشك في شعره، ويستشير فيه الشعراء والنُحاة، ولكنه كان مع ذلك مُعجبا بنفسه لا يقدِّم
عليها أحدا بعد هؤلاء الشعراء الثلاثة : الأخطل والمرزوق وجري . وأسمع رأيه فيهم
وفي نفسه ، فقد عقَّده شعرا ليثبت كما يقول :

ذَهَبَ الْفَرَزْدَقُ بِالْعَنَارِ وَإِنَّمَا * حُلُو الْقَرِيضِ وَرُءُ الْيَحْيَى
وَلَقَدْ هَمَّا فَا مَعْصُ أَخْطَلُ تَغْلِبَ - وَحَوَى اللَّهُمَّ بَيَانَهُ الْمَشْهُورُ
كُلُّ الثَّلَاثَةِ قَدْ أَجَادَ مَدْحَهُ * وَهَجَاوَهُ قَدْ سَارَ كُلُّ مَسِيرِ
وَلَقَدْ جَرَيْتُ فُتْتُ عَيْرَ مَهْلَلٍ - يَجْرَاءُ لَا قَرِيفَ وَلَا مَبْهُورِ
إِنِّي لَأَفْ أَنْ أَحْتَرِمِدْحَهُ * أَبْدَأُ لَفِيرِ حَلِيفَةِ وَوَزِيرِ
مَا صَرَفْتِي حَسَدُ الثَّامِ وَلَمْ يَزَلْ * دُو الْفَصْلِ بِحُسْدِهِ ذُو الْتَقْصِيرِ

أما رأى مروان في القديع، كان يُنشد الشعر لأمرئ القيس ويقول : هو أشعرُ
الناس، ثم ينشد شعر الأعشى ويقول : هو أشعر الناس، ثم ينشد شعر زهير ويقول : هو
أشعر الناس، حتى إذا أنشد لطائفة كثيرة من الشعراء، فرأهم حياء أشعر الناس ، قال
صاحكا : الناس أشعر الناس ! ولست أعرف رأيا كهذا الرأي يمثل الشك في نقد الناقدين
المعاصرين والسخرية بهذا القديع .

وننتقل من ذاك الوصف الرائع الى ذكر نبذة صالحة من أخباره وأشعاره .

دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي بعد وفاة معن ، فأنشده مديحا فيه ، فقال
له المهدي : ألسنتُ القائل :

أَفَنَّا بِالْهَيْمَةِ بَسَدَ مَعْنٍ * مُقَامَا لَا تُرِيدُ بِهِ زَوَالَا
وَقَلْنَا أَيْنَ تَزَلُّ بَعْدَ مَعْنٍ * وَقَدْ دَهَبَ النُّوَالُ فَلَا نُوَالَا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب والنا* لاشيء لك عده . فلما كان من
العام المقبل تطّف حتى دخل مع الشعراء، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء كل عام
مرة، فقتل بين يديه، وأنشد — بعد رابع أو خامس من الشعراء — :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ حَتَّى حَيَلَمَا * بِصَبَاءٍ تَحْلِيْطُ بِالْجَمَالِ دَلَالَمَا
قَالَتْ فَوَإِنَّكَ فَاسْتَفَادَ وَمِثْلُهَا * قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَالَمَا
فَكَأَنَّمَا طَرَقَتْ سَمْعَةَ رَوْصَةٍ * تَحْتَتْ بِهَا دِيمُ الرِّبْعِ طِلَالَمَا
بَاتَتْ نَسَائِلُ فِي الْمَنَامِ مُعَرَّسًا * بِالْيَدِ أَشْعَثَ لَا يَمَلُّ سَوَالَمَا
وَيَ حَيَّةٍ هَمَّوْا عِرَارًا مَدَامَا * سَمَّوْا مُرَاعِشَةَ السُّرَى وَمِطَالَمَا
فَكَأَنَّ حَشَوَ ثِيَابِهِمْ هَدِيَّةٌ * حَلَّتْ وَأَعْطَتْ الْقِيُونَ صِقَالَمَا
وَصَعَوْا الْخِلْدَ وَلَدَى سَوَاهِمِ جُجَحٍ * تَشْكُو كَلُومَ صِفَاحِهَا وَكَلَالَمَا
طَلَبَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاصِلَتْ * حُدَّ السُّرَى بِفُتُوْهَا أَصَالَمَا
زَعَمْتَ الْبَيْتَ صَوَادِيًا فَتَقَادَعَتْ * تَطْوِي الصَّلَاةَ حُرُونَهَا وَرَمَالَمَا
يَتَمَنَّي حَاجِيَةً يَنْزُرُ مِرَاحُهَا * مَدَّ الْحَوْلَ تَلِيْلَهَا ^(١) وَقَذَالَمَا
هُوَ حَاءٌ تَدِيرُ الرُّبَا وَتُسْقِيهَا * شَقَّ الشَّمْسُ إِذَا تَرَاغَ حِلَالَمَا
تَجِبُو إِذَا دَعَا الْقَطِيعُ كَمَا نَحَتْ ^(٢) * تَحْرَاءُ ^(٣) مَادَرَتْ الظَّلَامَ رِثَالَمَا ^(٤)
كَالْقَوْسِ سَاهِمَةٌ أَنْتَكَ وَقَدَّرْتِي * كَالْبُرْجِ تَمَلَأُ رَحْلَهَا وَجِبَالَمَا
ومنها .

أَحِبَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ * سُنَنِ النَّبِيِّ حَرَامُهَا وَحِلَالَمَا
مَلِكٌ تَقْتَرِعُ نَسَبَةً مِنْ هَاشِمٍ * مَدَّ الْإِلَهَ عَلَى الْأُمَامِ ظِلَالَمَا
جَبَلٌ لَأَمْسُهُ تَلُوذُ بَرَكْنِهِ * رَأَى جِبَالَ عُنُقِهَا فَازَالَمَا

(١) التليل : التلحيط . (٢) تحو : تسرع . (٣) انحروا : العامة . (٤) الرثال : مزاج

العامة واحدها رآل .

لم يَنْشَأْهَا مِمَّا يَخَافُ عَظِيمَةً * إِلَّا أَحَالَ لَهَا الْأُمُورَ مُجَالَفًا
 حَتَّى يُفْرِحَهَا أَعْرُ مَهْذَبٌ * أَلْقَى أَبَاهُ مُفَرِّجًا أَمَثَلًا
 نَفَثَ عَلَى زَلَلِ الْحَوَادِثِ رَاكِبٌ * مِنْ صَرَفِهِمْ لِكُلِّ حَالٍ حَالًا
 كَلَّمَا يَدِيكَ جَعَلْتَ فَصَلَ نَوَالِمَا * لِلسَّامِينَ وَالْعَدُوِّ وَبَالِمَا
 وَقَسَتْ مَوَاقِعَهَا سَمُوكَ أَعْسُ * أَذْهَبَتْ بَعْدَ مَخَافَةٍ أَوْحَالِمَا
 وَنَصَبَتْ هَسَكَ حَيْرَتِمْ دُونَهَا * وَحَطَّتْ مَالِكٌ وَاقِيًا أُمُومَالِمَا
 هَلْ تَعْلَمُونَ حَلِيفَةً مِنْ قَلْبِهِ * أَجْرَى لِنَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا
 طَلَعَ الدُّرُوبَ مُشْمَرًا عَنِ سَاقِهِ * بِالْحَيْلِ مُنْصَلِّيًا يُخَذُّ سَالِمًا
 قُوْدٌ تَرِيحٌ إِلَى أَعْرَ لَوْحِهِ * وَرُيُوعٌ أَمَامَهَا وَجِلَالِمَا
 قَصُرَتْ حَائِلُهُ عَلَيْهِ فَقَلَصَتْ * وَلَقَدْ مَحَقَّتْ قَيْبَهَا فَاطِمَالِمَا
 حَتَّى إِذَا وَرَدَتْ أَوَائِلُ حَيْلِهِ * حَيَّحَانَتْ عَلَى السُّدُورِ طَالِمَا^(١)
 أَحْمَى بِلَادَ الْمُسْلِمِينَ طَلِبُهُمْ * وَأَمَّا سَهْلٌ مَلَادِمٌ وَجَالِمَا
 أَدْمَتْ دَوَارَ حَيْلِهِ وَشَكِيمَهَا * عَارِثُهَا^(٢) وَأَلْحَقَتْ أَطَالِمَا
 لَمْ يَبْقَ مَعْدُ مَعَارِهَا وَطَرَادَهَا * إِلَّا مَحَازِرُهَا^(٣) وَإِلَّا آلِمَا
 رَفَعَ الْخَلِيفَةُ بَاطِرِيَّ وَرَاشِي * بِبَيْدِ مَارَكَةٍ شَكَرْتُ نَوَالِمَا
 وَحُسَيْدَتْ حَتَّى قِيلَ أَصْبَحَ بَاعِيَا * فِي الْمَشْيِ مُتَوَرِّفٌ شَيْءٌ مُخْتَالِمَا
 وَلَقَدْ حَلَدَتْ لِي أُلُوعٌ وَمِنْ عَصِي * سَلَا وَرِثَتْ عَنِ النَّهْيِ مَثَالِمَا

فزحف المهدي من صدر مُصَلَّاهُ حَتَّى صَارَ عَلَى الْإِسَاطِ إِعْجَابًا بِمَا سَمِعَ ، ثُمَّ قَالَ :
 كَمْ هِيَ ؟ قَالَ : مِائَةُ بَيْتٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَكَانَتْ أَوَّلُ مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُعْطِيَهَا
 شَاعِرٌ فِي أَيَّامِ بِي الْعَبَّاسِ ، وَهَكَذَا فَعَلَ مَعَهُ الرَّشِيدُ لَمَّا أَتَشَدَّ قَصِيدَتُهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

لَعَمْرُكَ مَا أَنَسَى عِدَاةَ الْمُحْصَبِ * إِشَارَةَ سَلَمَى مَالِبَانَ الْمُخْضَبِ

وَقَدْ صَدَرَ الْمُخَاحُ إِلَّا أَقْلَهُمْ * مَصَادَرُ شَيْءٍ مَوْجِبًا مَعْدُ مَوْكِ

(١) الرمال : القلوع من الحبل واحدها رملة . (٢) الحائر : الاسماع .

قال مروان : دخلتُ على المهدي في قصر السلام ، فلما سلّمت عليه وذلك يقب
تخطه على يعقوب بن داود ، قلت : يا أمير المؤمنين ، إن يعقوب رجل رافضى ، وإنه
سمعى أقول في الوراثة :

أنى يكونُ وليس داك نكاثى * لى الساتِ وراثتهُ الأصم
مدلك الذى حمله على عداوتى ، ثم أشدته .

كانت أمير المؤمنين محمدا . لرأى بالساس للباس والد
فقال له المهدي : والله ما أعطيك إلا من صلب مالى ، فاعيدنى ، وأمرنى بثلاثين ألف درهم
وكسائى جبة ومطرما ، وورس لى على أهل بيته ومواليه ثلاثين ألفا أخرى .

لما قديم مئى من إيس دخل عليه مروان والمجلس عاص أهله ، فأخذ يعضدق الباب
وأشأ يقول :

أرى القلب أسمى بالأوايس مولما * وإن كان من عهد الصا قد تمتما
ويقول فيها :

ولما سرى الهم الغريب قريته * قرى من ازال الشك عه وأزما
عمرت ففعلت الرحيل ولم أكن * كدى لومة لا يطلع الهم مطالما
فأمت ركابى أرض مئى ولم تزل - الى أرض مئى حيثما كان نژما
نحاث لولا أنها تحشرت لى : أت عزة من جهلها أن توزما
كسوما رحال الميس^(١) مها عواربا * تدارك فيها^(٢) التى صيفا ومررها
ها طقت صعاء حتى تواصمت * ذراها وزال الجهل عنها وأقلما

الى أن قال :

وما الميت اذ عم البلاد صوبه * على اللاس من معروف مئى بأوسما
تدارك مئى قبة الذين بعدما * خشيما على أوتادها أن تترما

(١) الميس شجر عظيم تقدمه الرجال . (٢) الى الشم .

أقام على النسر الخوف وهانم * تُساق سِماما بالأسنة مُثَقَا
مُقام آمرئ يابى سوى الخطة التي * تكون لدى عبّ الأحاديث أهما
وما أجمم الأعداء حِكْ حَيَّة * عليك وليكن لم يروا فيك مَطْمَا
رأوا مُجْدِرًا قد حَرَّوه وعابوا * لدى عِيَلِه منهم جَمْرًا ومَضْرَمَا
وليس بثاييه انا شد أن يرى * لدى نَحْرِه زُرْقُ الأَسنة شُرْمَا
له راحتان العيْثُ والحُتْفُ فيهما * أبى الله إلا أنْ تُصْرَا وتَنْفَعَا
لقد دَوَّج الأعداء مَعْنُ فاصحوا * وأسمعهم لا يدفع النُّلْ مَدْفَعَا
نَيْبُ مَاجِبٍ وسَيْدُ سَادَةٍ * تُدْرِى المجد من قَرَعَى زَارٍ تَفْرَعَا
لبانت خِصَالُ الخَيْرِ فيه وَأَكَلَتْ * وما كَلَّتْ نَحْسًا سِوَه وأَرْبَعَا
لقد أَصْحَتْ في كل شَرِّ ومَغْرِب * بسِجَكِ أَعَاقُ المُرِيْبِينَ خُصْمَا
وِطَلَتْ حُدُودُ الحَصْرِيِّينَ وَطَاءَ * لما هُذِرْكَ مِنْهُمْ قَصَصْمَا
فأَقْعَوْا على الأَذْدَابِ إقْعَاءَ تَعَثِيرِ * يرون لروم السِّلْمِ أُنْقَى وأَوْدَمَا
فلو مُدَّتْ الأَيْدِي إلى الحرب كُلِّهَا * لكَفَوْا وَمَاتُوا إلى الحرب أَصْبَمَا

فقال له مَنْ . احتكم ، قال عشرة آلاف درهم ، فقال مَنْ : رَجِمَا عَلَيْكَ تَسْمِينَ أَلْفَا ،
قال . أَقْلَى ، قال : لا أَقَالَ الله من يُقِيلُكَ .

لما مات المهديّ وقَدَّتْ العرب على موسى الهادي يُهَيِّئُوهُ بِالْحِلَافَةِ وَيُعَزُّوْنَهُ عَنْ
المهديّ ، فدخل مروان فأحد بعصا دَنَى الْبَابَ وَقَالَ :

لقد أَصْحَتْ تَحْتَالُ فِي كُلِّ بَلَدٍ * قَبْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَابِرُ

ولو لم تُسَكَّنِي أَبَاهُ فِي مَكَالِهِ * لِمَا بَرَحْتُ تَبْكِي عَلَيْهِ الْمَابِرُ

مرض عمرو بن سَعْدَةَ فدخل عليه مروان وقد أَلَمَ مِنْ مَرَضِهِ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

مَحَّجَّ الْجِسْمِ يَا عُمُرُو * لَكَ التَّمَحُّيْصُ وَالْأَجْرُ

وَقَدْ عَلِمَا الْخَدَّ * لِدُ الْوَلِيَّةِ وَالشُّكْرِ

فَقَدْ كَانَ شَكَا شَوْقًا إِلَيْكَ التَّهْيِ وَالْأَمْرِ

قال موسى بن يحيى : أوصلا الى مروان بن أبى حفصة فى وقت من الأوقات سبعين ألف درهم، وجمع اليها مالا حتى تمت مائة ألف وخمسين ألف درهم وأودعها يزيد بن مزيد، فيها عن عبد يحيى بن خالد إدخل يزيد بن مزيد، وكانت فيه دُعاة، فقال : يا أبا على، أودعنى مروان خمسين ومائة ألف درهم، وهو يشتري الخبز من البقال، فنصب يحيى ثم قال : على عمروان، فأتى به، فقال له : قد أحبنى أبو خالد بما أودعته من المال وما تتناعه من البقال، والله لئأى من أثر البخل عليك أصر من العقر لو كان بك . ويروى أنه قال له : والله لتحل أسوأ طليق أثرا من العقر لو صرت إليه فلا بخل . وقال عمر بن شبة قال مروان : ما فرحتُ شئ قط فرحى بمائة ألف وهبها لى أمير المؤمنين المهدي، فوزنتها فزادت درهما، فاشترت به لحما . وقال جهم بن حلف : أتينا البجامة صرنا على مروان بن أبى حفصة فأطعمنا تمرا وأرسل علامه فأسس وسكرحه ليشتري زيتا، فلما جاء مالزيت قال لعلامه : حتنى، قال : من فأس ! كيف أخوك ؟ قال : أحدثت الفأس لفسك وأستوهت الزيت . وقال التوزي : مر مروان بن أبى حفصة فى بعض سفراته وهو يريد مثنى امرأة من العرب، فأضاقت، فقال : لله على إن وهب لى الأمير مائة ألف أن أهب لك درهمي فأعطاه ستين ألف درهم، فأعطاه أرملة دواق . وقال أبو دغامة : اشترى مروان لحما بصف درهم فلما وضعه فى القدر وكاد ينصج دعاه صديق له، فردّه على القصاب بنقصان دائق، فشكاه القصاب وجعل ينادى هذا لحم مروان، وطق أنه يأنف لذلك، فبلغ الرشيد ذلك فقال . ويلك ! ما هذا ؟ فقال أكره الإسراف .

دخل مروان على موسى الهادى فأشده قوله فيه .

تَشَابَهَ يَوْمًا مَاسَهُ وَنَوَالِهِ . مَا أَحَدٌ يَدْرِى لَأَيِّهَا الْعَصْلُ

فقال له الهادى : أيا أحب اليك ؟ أثلثون ألفا معبلة، أم مائة ألف تدون فى الدواوين ؟ فقال له . يا أمير المؤمنين، أنت تحبس ما هو خير من هذا، ولكحك أنسيته، أفأذن لى أن أدركك ؟ قال : هم، قال : تُعْجِلْ لى الثلاثين ألفا وتدون المائة ألف فى الدواوين، فصحك وقال : مل يُعْجِلان جيمًا، حُمِلَ اليه المال أجمع .

قال محمد التوفل : أحْتَاز مروان برجل من بَاهِلَة من أهل اليمامة ، وهو يُشَدُّ قوماً كان جالساً إليهم شعراً مدح به مروان بن محمد ، وأنه قُتِلَ قبل أن يُقْبَاهَ وَيُشَدَّهُ إِيَّاهُ ، أوله :
مروانُ يابِ محمدَ أنتَ الذي * زِيدَتْ به شرفاً بسو مروانِ

فأعجبته القصيدة ، فأمهل الباهلَ حتى قام من مجلسه ، ثم أتاه في منزله فقال له : إني سمعت قصيدتك وأعجبني ، ومروان قد مضى ومضى أهلُه ، وفاتك ما قَدَّرَتْ عِده . أنذِيعُنِي القصيدة حتى أتعلمها ، فإنه خير لك من أن تبقى عليك وأنت فقير ؟ قال : نعم ، قال : بكم ؟ قال : بثلاثمائة درهم ، قال : قد آتيتُها ، فأعطاه الدراهم وحلقه بالطلاق ثلاثاً وبالأيمان المُخْرِجَةِ ألاَّ يتحلَّها أبداً ، ولا يَسَّسَها إلى هسه ولا يُشَدَّها ، وأصرف بها إلى منزله فغيرَ منها أرباعاً وزاد فيها وحملها في مَنَ ، وقال في ذلك البيت :

مَعْنُ بن زائدة الذي زِيدَتْ به * شرفاً على شرفِ بوشَينِ

ووجد بها إلى معن حتى أئزى وأتسعت حاله ، فكان معن أول من رجع ذكره وتوه به . وله فيه مدائحٌ بعد ذلك شريفة ومراث حسنة . قال مروان : كان المنصور قد طلب معن بن زائدة طلباً شديداً وجعل فيه مالا ، لخدمته معن ما لم ين أنه أصطَرَّ لشدة الطلب إلى أن قام في الشمس حتى لَوَحَتْ وجهه ، وحَفَفَ عارضيه ولحيته ، وليس جُبَّة صوف عليفة ، وبرك جملًا من الجمال الثقالَ يصحى إلى البادية فيقيم بها ، وكان قد أوى إلى حرب يزيد ابن عمر بن هُبَيْرَة ملاء حسناً عاظ المنصور وَحَدَّ في طلبه ، قال معن : فلما خرجتُ من باب حرب تبغى أسوداً متقلِّداً سيفاً حتى إذا غُيْتُ عن الحرس قصص على حِطَّام جملٍ فأناخه وقبص على ، فقلت له : مالك ؟ قال : أنت طَلِيَّة أمير المؤمنين ، قلت : ومن أنا حتى يَطْلُبُنِي أمير المؤمنين ؟ قال : معن ابن زائدة ، قلت : يا هذا ، آتَى الله ، وأيس أنا من معن ؟ قال : دع هذا عك ، فأما والله أعرف بك منك ، فقلت له : إن كانت القصة كما تقول ، فهذا جوهر حملته معي يَفِي بأصعاف ما بذله المنصور لمن حابه في ، نخذه ولا تسمك دمي ، قال : هاته ، فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة وقال : صدقت في قيمته ، ولستُ قابله حتى أسألك

عن شيء ، وإن صدقتني أطلقك ، قلت : قل ، قال : إن الناس قد وصّفوك بالحدود فأحرنى ، هل وهبتَ قطُّ مالك كله ؟ قلت : لا ، قال : فنصفه ؟ قلت : لا ، قال : فثلثه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييتُ ، فقلت : أظن أنى قد صلت هذا ، فقال : ما أراك فعلته ، أنا والله راحل وورق من أبى جعفر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته آلاف الدنانير وقد وهبته لك ، وهنتك لمسك وبلودك المأثور منك بين الناس ، ولتعلم أنى الدنيا أحوَدَ منك فلا تسجك مسك ، ولتُحقّرَ بعد هذا كلَّ شيء ، تفعله ولا تتوقف عن مكربة ، ثم رمى بالعقد في بحرى وحلّ حطام العير وأصرف ، فقلت : يا هذا ، قد والله فضحتنى وأفسدك دى أهون على مما فعلت ، لقد ما ذهبتك إليك وإلى عى عه ، فصحك وقال : أردت أن تكذبى فى مقامى هذا ، والله لا أحده ولا أحد بمحرووف ثما أبدا وهى ، هو الله لقد طلنته بعد أن أبيت وبذلت لمن شاء به ما شاء ، فما عرفت له حبرا وكأن الأرض ابتلعتة . وكان سبب رضا المنصور عن معى أنه لم يرل مستبرا حتى كان يوم^(١) الهاشمية ، فلما وثب القوم على المنصور وكادوا يقتلونه ، وثب معى وهو ملتئم فأتى سببه وأتاه فأملى بلاء حسنا ووثب القوم معه حتى نجوا وهم يحاربونه بعد . ثم جاء والمنصور راكب على بعة ولحماها بيد الربيع فقال له . تنع إلى أحق بالتمام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه عاه ، فقال له المنصور : صدق فادفعه إليه ، فأحده ولم يزل يقاتل حتى أنكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ؟ فله أولك^١ قال : أنا طليتك يا أمير المؤمنين معى بن زائدة ، قال : قد أتمك الله على نفسك ومالك ومثلك يصططع ، ثم أحده معه وحلج عليه وحباه وزيه ، ثم دعا به يوما فقال له : إنى قد أتملتك لأمر فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ، قال : قد ولّيتك اليمن فأبسط السيف فيهم حتى ينقص حلف ربيعة واليمن ، وأبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين ؟ هؤلاء اليمن وتوجه إليها فبسط السيف فيهم حتى

(١) مدينة ساما السماع الكوفة وذلك أنه لما ولّ انطلاقة رل قصر آس هيرة واستقم سامه وحمله مدينة رسماها الهاشمية ، فكان الناس يسوسها إلى ان هيرة على البادة ، فقال : ما أرى ذكر آس هيرة يسقط عنها ، مرضها وى حياها مدينة ساماها الهاشمية ورها .

أسرف. قال مروان: وقدم من عقب ذلك فدخل على المنصور، فقال له صد كلام طويل :
قد بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكأئك عسده ورأيه فيك لقصص عليك ؛ قال :
وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك :

معُ بُو زائمة الذي زيدت به . شرقاً على شرف بنو شيبان

إن عُد أيام الصال فإنما * يوما يوم ندى ويوم طعان

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أعطيت ما بلفك لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله :

ما زلت يوم المشيمة معلماً * بالسيف دون طليعة الرحمن

فمعت حوزته وكنت وفاءه * من وقع كل مهتد ويسان

فأستعيا المنصور وقال : إنما أعطيت ما أعطيت لهذا القول ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛
والله لولا محافة الشئعة لأمكتته من معاتيج بيوت الأموال وأبجته إياها ؛ فقال له المنصور :
فقد دَرَكَ من أعراقى ! ما أهون عليك ما يمر على الرجال وأهل الحزم !

وأحتم هذه الترحمة بموت مروان يقصه قائله . روى صاحب الألفاظ عن رجل
يقال له صالح بن عطية الأنصمي أنه قال :

لما قال مروان :

أنى يكون وليس ذاك بكثير . لبي السات ورائه الأعمام

لزمته وعاهدت الله أن أعتله فأقتله أنى وقت أمكنى، وما زلت لأطعمه وأرؤه، وأكتب
أشعاره حتى خُصصت به فأنس بى جدا، وعرفت ذلك بو حفصة جميعا فأنسوا بى،
ولم أزل أطلب غيرة حتى مريض من حمى أصابته، فلم أزل أظهر له الجزع عليه والألزمة
والألفه حتى حلا لى البيت يوما، فوثقت عليه فأخذت بحلقه فما فارقه حتى مات، فخرجت
وتركته فخرج إليه أهله بعد ساعة فوجدوه ميتا وأرجمت الصبيحة، فصرت وتباكيت
وأظهرت الجزع عليه حتى دفن وما فطن لما فعلت أحد ولا ألتهمى به .

٤ - أبو دَلَامَة^(١)

كَانَ أَوَّلُ مَا حُصِّلَ مِنْ شَعْرِهِ وَأُسْبِتَ الْجَوَائِزُ لَهُ بِهِ ، قَصَبَهُ مَدَحَ بِهَا أَمَّا جَعْفَرُ الْمَصْصُورُ
وَذَكَرَ قَتْلَهُ أَمَّا مُسْلِمٌ يَقُولُ فِيهَا :

أَمَّا مُسْلِمٌ حَزَنَتْنِي الْقَتْلَ فَأَتَحَى * عَلَيْكَ بِمَا حَوَّضْتَنِي الْأَسَدَ الْوَرْدَ

أَمَّا مُسْلِمٌ مَا عَرَفَهُ نَعْمَةً * عَلَى عَدُوِّهِ حَتَّى يُعَيِّرَهَا الْعَدُوَّ

أَشْدَّهَا الْمَصْصُورَ وَتَحَمَّلَ مِنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهُ : أَحْكَمْ ، فَطَلَبَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمًا ،

فَأَمَرَ لَهُ بِهَا ، فَلَمَّا حَلَا قَالَ لَهُ : إِيهَ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ تَعَدَّيْتَهَا لَقَتَلْتِكَ .

أَمَرَ أَبُو جَعْفَرٍ أَصْحَابَهُ لِيُبْسَ السَّوَادَ وَقَلَانِسَ طُولًا يُدْعَمَ مَبِيدَانِ مِنْ دَاخِلِهَا ، وَأَنْ يُعْلَقُوا
السُّيُوفَ فِي الْمَنَاطِقِ وَيَكْتُمُوا عَلَى طُهُورِهِمْ : ﴿ قَسَّيْكُمْ فَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ :

وَكَمَا رَحِمَنِي مِنْ إِمَامٍ رِيَادَةً * خَذَّ طُوبَى زَادَهُ فِي الْقَلَانِسِ

تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَسْبَا * دَانًا يَسُودُ حُلَّتْ بِالرَّأْسِ

وَدَخَلَ إِلَى الْمَصْصُورِ مَرَّةً فَأَشْدَّهُ .

إِنْ الْخَلِيطُ أَحَدَ الْبَيْتِ فَاتَّسَعُوا * وَزَوْدُوكَ حَمَالًا ، لِيَتَمَّ صَحْوَا

وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ كَلَدَتْ لِيَنِيهِمْ * يَوْمَ الْفِرَاقِ حَصَاةُ الْقَلْبِ تَصْدِيعِ

نَحِيتُ مِنْ صَبْتِي يَوْمًا وَأَمِّيهِمْ * أُمُّ الدَّلَامَةِ لَمَّا هَاجَهَا الْجَحْرُ

(١) هوريد بن الحور ، روى أن دلامة سأل إلى ابنه دلامة ، وهو كوفي المنشأ أسود اللون مولد لبني أسد ،

وكان أبوه عبد الرحمن منهم فأعتقه . أدرك أم دلامة أواخر الدولة الأموية ، ولكنه مع الدولة العباسية ، وأقطع
إلى أبي العباس السفاح والمصنوع والمهدي ، وكانوا يفتدونه ويصلونه ويستطيرون بحامه ووادعه ، وفيه دعاية
وطرف ، لا يخلو حديثه من فكاهة أو ملحة ، وكان مع ذلك مصلودا في حملة التبيين بالبردة وصادا الذين ،
وكان يثر الحمر ولا يحرص صلاة ولا هروما . توفي سنة ١٦١ هـ . وأحاراه في الأغانى (ج ٩ ص ١٢٠) وابن
حلطان طبع بلاق (ج ١ ص ٢٦٧) والشعر والشعراء (ص ٤٨٧) والدميري (ج ١ ص ١٣٢) والمستطرف
(ج ٢ ص ٤٣) . (٢) في الشعر والشعراء . "أما محرم" . (٣) في الطبري ج ٢ ص ٣٧١ طبع أوروبا
"فراد الامام المصطفى" .

لا مارك الله فيها من مُبَيَّة : هَبَّتْ تُلُومٌ عِيَالِي عَدَّ مَا هَمَّعُوا
 وَنَحْنُ مُشْتَبِهُوا الْأَلْوَانِ أَوْحُهَا * سُودٌ قِيَاحٌ وَى أَسْمَانًا شَعَّ
 إِذَا تَشَكَّتْ إِلَى الْجُوعِ قَلْتُ لَهَا = مَا هَاجَ حَوْعَكَ إِلَّا الرِّىُّ وَالشَّعَّ
 لَا وَالَّذَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَصَى * لَكَ الْخِلَافَةُ وَ أَسَاسُهَا الرِّفْعُ
 مَا زِلْتُ أُحْلِصُهَا كَسَى فَنَا كَلَّهُ دُونِي وَدُونَ عِيَالِي ثُمَّ تَصْطَلِجُ
 شَوْهَاءُ مَشَاةً وَى بَطْنَهَا تَحَرُّ^(١) وَى الْمَعَاصِلِ مِنْ أَوْصَالِهَا قَدَعُ
 دَعَكَرْتُهَا بِكَلْبِ اللَّهِ حُرْمَتَا * وَلَمْ تَكُنْ نِكَاحَ اللَّهِ تَضَعُ
 فَأَتَرَفُظْتُ^(٢) ثُمَّ قَالَتْ وَهَى مُعَصَّةٌ - أَلَيْتَ تَتَلَوَّكَاتَ اللَّهِ يَا لَكُوعِ
 أَخْرَجْتُ نَسِجَ لِسَا مَالًا وَمَرْزَعَةً - كَمَا لِلْجِيرَاسِ مَالٌ وَمُزْدَرَعُ
 وَأَحْدَعُ حَلِيقَتَا عَا بِمَسَالَةٍ : إِبْرَ الْخَلِيعَةِ لِلسُّؤَالِ يَتَحَدَّعُ
 فَصَحَّحَ أَبُو حَمْرٍ وَكَتَبَ لَهُ بَصِيحُهُ .

كَانَ وَقَعَا بَيْنَ يَدَيِ السَّقَاحِ فَقَالَ لَهُ : سَلَى حَاجَتَكَ ، قَالَ : كَلْبُ أَصِيدَ بِهِ ، قَالَ :
 أَعْطَوْهُ إِيَّاهُ ، قَالَ . وَدَابَّةٌ أَتَصِيدُ عَلَيْهَا ، قَالَ : أَعْطَوْهُ دَابَّةً ، قَالَ : وَغَلَامٌ يَصِيدُ بِالْكَلْبِ
 وَيَقُودُهُ ، قَالَ : أَعْطَوْهُ غَلَامًا ، قَالَ : وَحَارِبَةٌ تَصْلُجُ لِسَا الصَّيْدِ وَتُطْعِمُنَا مِنْهُ . قَالَ :
 أَعْطَوْهُ حَارِبَةً ، قَالَ : هَؤُلَاءِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَيْدُكَ ، فَلَا نَدَّ لِمَنْ دَارِي سَكُونَهَا ، قَالَ :
 أَعْطَوْهُمْ دَارًا تَحْمِيهِمْ ، قَالَ : مَا لَمْ تَكُنْ لَمْ صَبِيحُهُ مِنْ أَيْنَ يَمِيشُونَ * قَالَ : قَدْ أَعْطَيْتَكَ مِائَةَ
 بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ ، وَمِائَةَ بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ ، قَالَ . وَمَا الْغَامِرَةُ * قَالَ مَا لَا نَبَاتَ فِيهِ ، فَقَالَ : قَدْ
 أَفْطَلَمْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَسْبَانَةُ أَلْفِ بَرِيْبٍ عَامِرَةٍ مِنْ قِيَايِ سَى أَسَدٍ ، فَصَبَحَكَ وَقَالَ :
 اجْعَلُوهُ عَامِرَةً ، قَالَ : فَادَّنْ لِي أَنْ أَقْبَلَ بِدُكَ ، قَالَ : أَمَا هَذِهِ قَدَعُهَا ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ
 عِيَالِي شَيْئًا أَقْبَلَ صَرَرًا عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، قَالَ الْبَاحِظُ : فَانْظُرْ إِلَى حِدْقِهِ الْمَسَالَةِ وَلُطْفِهِ فِيهَا ، ابْتَدَأَ

(١) الحُرُ خُرُوجُ السَّرَّةِ وَتَتَوَطَّعُهَا وَتَطْلُهَا أَصْلُهَا . وَالْقَدَعُ . أَحْوَاحٌ وَى الرِّسْعِ مِنْ الْيَدِ أَوِ الرَّجْلِ حَتَّى يَقْلُبَ
 الْكَفَّ وَالْقَدَمَ إِلَى إِبْسَاسِهَا . (٢) أَيْ صَبَّتْ .

بكلب فسَمَّل القصة به وجعل يأتي بما يليه على ترتيب وفكاهة حتى نال ما لو سأله بديهة لما وصل اليه .

قال علي بن سَلَام : كنت أسقى أما دلامة والسَّندى إذ خرجت بنت لأبي دلامة، فقال فيها أبو دلامة :

فما وَلَدَتْكِ مريمُ أم عيسى * ولا رَأَاكِ لقهاث الحكيم
أحرَّ يا أبا عطاء، فقال :

ولكني قد تصمكت أم سوء * إلى ثلثها وأنت لئيم
فصيحك لذلك، ثم غدا أبو دلامة إلى المنصور فألقاه في الرَّحمة يُصليح فيها شيئا يريد، فأخبره بقصة ابنته وأنشد البيت، ثم أبدع فأنشده بعدهما .

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم لَقِيلَ أقعدوا يا آل عباس
ثم أرتقوا في شُماع الشمس كلِّكم * إلى السماء فاتم أطهرُ الساس
وقدموا القاسم المنصور رأسكم فالعين والأنف والأذنان في الراس
فاستحسنها وقال : ماى شيء تحب أن أعينك على قُبْحِ أبنتك هذه * فأنرج خريطة كان
قد حاطها من الليل، فقال : تملأنى هذه دراهم، فقلتُ فوسمت أرملة آلاف درهم .
لما توفى أبو الماس السقاح دخل أبو دلامة على المنصور والناس حده يعرونه، فأنشأ أبو دلامة يقول :

أسيبت بالأنبار يا ابنَ محمد * لم نستطع من عُقرها نحو يلا
ونبى عليك وويل أهل كلهم * ويلا وعولا في الحياة طويلا
فتبيكين لك النساء بعبرة * وليه كمين لك الرجال عويلا
مات الندى إذ ميت يا ابنَ محمد * بهلته لك في التراب عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم * فوجدتُ اسمع من سألتُ بجيلا
أليسقوني أنثرتُ بعدك للتي * تدعُ العزيزَ من الرجال ذليلا
فلأجلنَّ يمين حتى برّة * بالله ما أعطيتُ بعدك سُولا

فأبكى الناس قوله، فنصب المنصور عصا شديدا وقال: لئن سمعتك تُشيد هذه القصيدة لأقطع لسانك، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أنا العاص أمير المؤمنين كان لي مكربا، وهو الذي جاء بي من الدؤب كما جاء الله بإحوة يوسف إليه قتل كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَزِرَ وَزْرِهُنَّ يَوْمَ يَكْفُرُ اللَّهُ لَكُمُ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فُسرَى عن المنصور وقال: قد أقتلك يا أبا دلامة، فسل حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين، قد كان أبو العاص أمر لي عشرة آلاف درهم ونحسين ثوبا وهو مريض، ولم أقصها. فقال المنصور: ومن يعرف هذا؟ فقال: هؤلاء، وأشار إلى جماعة من حصر، فوثب سليمان بن خالد وأبو الجهم فقالا: صدق أبو دلامة نحن نعلم ذلك، فقال المنصور لأبي أيوب الخارن وهو مبيط: يا سليمان، اذهبها إليه وسيه إلى هذا الطاغية «يعني عبد الله بن علي» وقد كان خرج ساحية الشام وأطهر الخلاف، فوثب أبو دلامة فقال: يا أمير المؤمنين إني أعيدك بالله أن أخرج معهم، فوالله إني لمشتوم، فقال المنصور: أمص، فإن يمضي يَلْبَسْ شُومَكَ فَأُخْرِجْ، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أحب لك أن تجزب ذلك مني على مثل هذا السكر، إني لا أدرى أيهما يَلْبَسْ، أَمُومٌ أم شُومٌ، إلا أرى بنعسي أُوْتِنِي وَأَعْرَفَ وَأَطُولَ تَحْمِيرَةٍ، قال: دعني من هذا فإني من الخروج بُدٌّ، فقال: إني أضدك الآن، شهدت والله تسعة عشر عسكريا كلها هُيرت وكُت سبها، فإن شئت الآن على نصيره أن يكون عسكريا العشرين فاضل، فاستغرت أبو جعفر صحتا وأمره أن يتخلف مع عيسى بن موسى بالكوفة.

قال أبو دلامة: إني بي المنصور أو المهدي أو ما سكران، خلف ليُخرجني ويقتلني، فخرجني مع رَوح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة، فلما التقى الحمائم قلت لِرَوح: أما والله لو أن تحتي فرسك ومعى سلاحك لأثرت في عدوك اليوم أثرا ترتصيه، فصحك وقال: والله العظيم لأدفعن ذلك إليك ولأحدثك الوفاء بشرطك، وزل عن فرسه وربع سلاحه ودمعهما إلى ودعا نفيهما فاستبدل بهما، فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع قلت له: أيها الأمير هذا مقام العائذ بك، وقد قلت أباينا فاسمعهما، قال: هات، فاقشدته:

إني أستعجرك أن أقدم والوعى * تَطْلُعِي وتَسْأَلِي وحِرَابُ^(١)
 فهَبِ السُّيُوفَ رَأْيُهَا مشهورة * فَرَكْتُهَا ومَصِيبُ فِي المِزَابِ
 ماذا تقول لِمَا يَجِيء وما يُرَى * من واردات الموت في النُشَابِ

فقال دَعَّ عك هذا وسَتَعَلَّمْ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للبارزة : فقال : انخرج
 اليه يا أمدلامة، فقلت : أُنشدك الله أيها الأمير في دمي، قال : والله لتخرجن، فقلت :
 أيها الأمير فإنه أوَّل يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا وأما والله جاع ما شِيعَت
 مَعِي جَارِسَةٌ من الجوع، فُرِّئِي بَنِيَّ أَكَلَهُ ثم أخرج، فأمر لي برعفين ودجاجة، فأخذتُ
 ذلك وبرزتُ عن الصف، فلما رَأَى الشَّارِي أَقْبَلَ نحوِي وعليه قَوْو قد أصابه المطر فأَبْتَل
 وَأَصَابَتْهُ الشمس فأَمْعَلَ وعِيَاهَ تَقْدَان، فأمرع إلى، فقلت له . على رِسْلِكَ يا هذا، كما أنت،
 موقف، فقلت : أُنقتل من لا يقاتلك ؟ قال : لا، قلت : أُنقتل رجلا على دينك ؟ قال :
 لا، قلت : أُنقتل ذلك قل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا، فاذهب عني
 إلى لمة الله، قلت : لا أفعل أو تسمع مني، قال : قُلْ، قلت : هل كانت بيننا قَطُّ عداوةٌ
 أَوْ تَرَّةٌ أَوْ تَعْرِيفِي بِحَالِ مُخِيفُكَ عَلَى أَوْ تَعْلَمُ بِي وَبَيْنَ أَهْلِكَ وَتَرَا، قال : لا والله، قلت :
 ولا أأنا والله أصمرك إلا حبل الرأي، وإني لأهواك وأنتحل مدحك، وأدب دينك، وأريد
 السوء لمن أَرَادَهُ لك، قال . يا هذا حراك الله حيرا فاصبر، قلت : إن مني راداً أحب
 أن أَكُلَهُ مَعَكَ وأحب مواكلك لتأكد المودة بيننا ويرى أهلُ العسكر هَوَانَهُمْ طيما، قال :
 فأقبل، فتقدمت إليه حتى احتللت أعناق دوابنا، وجمعا أَرْحَلْنَا على معارفها والاس قد غلبوا
 صَحِيحًا، فلما استوفينا ودَّعَيْ، ثم قلت له : إن هذا الجاهل إن أَقَمْتُ على طلب المبارزة
 ندبى اليك تُشْعِينِي وتعب هسك، وإن رأيتَ آلا تَهْزُ اليوم فأقبل، قال : قد فعلت،
 ثم أنصرف وأنصرفت فقلت لروح : أما أنا فقد كَفَيْتُكَ قِرْنِي، فقل لغيري أن يكفيك قرنه
 كما كفيتك، فأمسك، ونخرج آخر يدعو إلى البراز، فقال لي : اخرج إليه، فقلت :

(١) الحراب بمعنى الحاربة وفي الأما « صراب » . (٢) هكذا الأصل ولعلها : العمل، من
 قولهم أقمط يده : تجمت .

إني أسود برّوح أن يقدّمني إلى البراز ففحزني يـ هو أسد
 إن البراز إلى الأحرار أعلمه * مما يعزق بين الروح والحسد
 قد حالفتك المايا إن سمّدت لها * وأصحت لجميع الخلق بالرصد
 إن المهلك حب الموت أورتكم * وما وريث اختيار الموت عن أحد
 لو أن لي مهنحة أخرى لحذت بها * لكها خلقت فردا فلم أحد
 فصحك وأعماي .

قال أبو أيوب المورياني لأبي حمزة وكان يشأ أبا دلامة : إن أبا دلامة مُعْتَكِفٌ على
 الخمر، فما يَحْصُرُ صَلَاةً ولا مَسْحَدًا وقد أَسَدَ فَيَانِ السُّكْرِ، فلو أمرته بالصلاة ملك لأجرت
 فيه وفي غيره من فَيَانِ عسرك قطعهم، فلما دخل عليه أبو دلامة قال له : ما هذا المُجُورُ
 الذي يَلْعَنُ عك * فقال : يا أمير المؤمنين ما أنا والمُجُورُ وقد شارفتُ مآبَ قَبْرِي ! ، قال .
 دَعَى من أَسْتَكَاثِكَ وَتَصَرَّعِكَ ، وإياك أن تموتك الظهر والعصرى مسحدي ، فلي فانتاك
 لأحسن أدبك ولأطيل حبسك ، موقع في شرور لم المسحدي أياها ، ثم كتب قصصه ودهنها
 إلى المهدي فأوصلها إلى أبيه وكان فيها :

ألم تعلم أن الخليفة لَزْنِي^(١) * بمسجده والقصر، مالى وللقصر
 أصلى به الأولى جيمًا وعصرها * هو على من الأولى وويل من العصر
 أصليهما مأكوه في غير مسحدي * مالى في الأولى ولا العصر من آخر
 لقد كان في قومي مساجد جمة * ولم ينشرح يوما لنشائها صدرى
 يكلف من سد ما شئت حطة * يحفظ بها حتى الثقيل من الوزر
 وما صرّه واقعه يعرف ذنبه * لو أن دواب العالمين على طهرى
 فقال : صدق ، ما نصرتني ذلك، واقعه لا يصلّي هذا أدا، فدعوه يعمل ما يشاء .

(١) له مثنوي أرمه إياه .

وقال الميّم في حثّه : قد أعياك من هذا الحال، ولكن على ألا تدع القيام معنا في ليالي شهر رمضان فقد أطّل، فقال . أفعل، قال : فإنك إن تأخرت لشرب الخمر صلت ذلك والله لن فعلت لأحدتك، فقال أبو دلامة : اللية في شهر أخفّ منها في طول الدهر، سمعاً وطاعة، فلما حصر شهر رمضان لرم المسعد، وكان المهديّ يبعث إليه في كل ليلة حرسياً يحى به، فسق ذلك عليه وفزع إلى الخيتران وإلى أبي عبيد الله وكلّ من ملوّد بالمهديّ ليشعروا له في الإعفاء من القيام، فلم يحبهم، فقال له أبو عبيد الله : الدالّ على الخير كفاعله، فكيف شكرك؟ قال : أتم شكر، قال . عليك ربيعة فإنه لا يحالها، قال : صدقت، ثم رفع إليها رقعة يقول فيها :

ألمّا ربيعة آتى * كنت عبداً لأبيها
فصلى رحمه الله * به وأوصى في إليها
وأراها تسيّتي * مثل بسياح أخيها
حاء شهر الصوم يمشى * مشية ما أشتها
قائداً لي ليلة القد * ركائتي أبتها
تنطح القبلة شهرا * جبهتي لا تأملها
ولقد عشت زمانا * في قيات وحيا
في ليال من شتاء * كنت شيخاً أصطلبها
قاعداً أوقد ناراً * لهابب أشويها
وصبوح وعبّو * في غلاب أحسها
ما أبالي ليلة القد * ر ولا تُسمعيها
فاطلي لي قرحاً من * مها وأجرى لك فيها

فلما قرأ الرقعة صمكت وأرسلت إليه : أصطبر حتى نمضي ليلة القدر، فكتب إليها : إنى لم أسألك أن تكلمني في إعماي عاماً قايلاً، وإذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر، وكتب تحتها أبياتا :

حاشى الملك فى نفس قد أحتضرت قامت قيامتها بين المصلين
 ما ليلة القدر من همى وأطلها * إلى أحاف المايا قبل عشرينا
 ياليلة القدر قد كسرت أرحلنا . ياليلة القدر حقا ما نُمينا
 لا نارك الله فى خير أؤتله . فى ليلة بعد ما هيا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة صحت ونزلت الى المهدي فتعنت له اليه وأشدنه الأبيات ،
 فصحك حتى استلقى ودعا به وريلة معه فى المجلة ، فدخل ، فأخرج رأسه اليه وقال : قد
 شفعنا ريلة فيك وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم ، فقال : أما شعاعة سيدنى فى حى أعفينى
 فأعماها الله من البار ، وأما السبعة الآلاف ما أعنى ما علمته إما أن نتمها ثلاثة آلاف
 فتصير عشرة أو نقصى منها ألعب فتصير خمسة آلاف ، إلى لا أحسن حساب السعة ،
 فقال . قد جعلتها خمسة ، فقال : أعيدك بالله أن نختار أدنى الحالين وأنت أس ، حيث
 به المهدي ساعة ، ثم تكلمت فيه ريلة ، فأتها له عشرة آلاف درهم .

شرب أبو دلالة فى بعض الحمامات سيكر وأنصرف وهو يميل ، فليقه العسس ، فأحدوه
 وقالوا له : من أنت ، وما دينك ؟ فقال .

دينى على دين بي الناس ما ختم الطيب على القرباس
 انى أصطعحت أربعا بالكاس ، فقد أدار شربها براسى
 * فهل ما قلت لكم من باس *

فأحدوه ومضوا وحرقوا ثيابه وسأحه^(١) ، وأنى به أبو جعفر ، وكان يؤتى بكل من أحدوه
 العسس ، فحبسه مع الدحاح فى بيت ، فلما أفاق جعل يادى علامه مرة وحاريتة مرة .
 فلم يُجبه أحد ، وبما هو فى ذلك إذ سمع صوت الدحاح وزقاء الدبوك ، فلما أكثر قال له
 السحار . ما شاك ؟ قال ويك من أنت ؟ وأيس أما ؟ قال فى الحبس وأما فلان

السحان، قال : من حبسني ؟ قال : أمير المؤمنين، قال : ومن ترقى طيلسانني ؟ قال :
الحرس، فطلب منه أن يأتيه بدواة وقرطاس، ففعل، فكتب الى أبي جعفر :
أمير المؤمنين هذتك ههنا . علام حبستني ونرقت ساجي
أمن صغراء صامية المِراج * كأن شجاعها لَهَبُ السراج
وقد طُحيت سار الله حتى * لقد صارت من النطف الصّاح
تَهَشُّ لها القلوبُ وتشتبهها * اذا برزت تَرَقُّقُ في الرّجاج
أُقاد الى السجون ضد جُرم * كأنّ بعض عمال الخراج
ولو معهم حُبست لكان سهلاً * ولكنّي حُبست مع الدّجاج

فدعا به وقال : أين حُبست يا أمة دلالة ؟ قال : مع الدّجاج، قال : فما كنت تصنع ؟
قال : أقفوق معهم حتى أصبحتُ، فصحك وحلّ سبيله وأمر له بمخاضة، فلما خرج قال له
الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين، أما سمعت قوله : وقد طُحيت بار الله، يعني
الشمس ؟ فأمر برده، ثم قال : يا حيث، شربت الخمر ؟ قال : لا، قال : أظلم نخل : طُحيت
سار الله تعني الشمس ؟ قال : لا والله ما عيّتُ إلا نار الله المؤقّدة التي تَطْلُعُ على فؤاد
الربيع، فصحك وقال : خذها يا ربيع ولا تُعاود .

صام الناس في سنة شديدة الحرّ على عهد المهديّ، وكان أمة دلالة يتَحَزُّ حائرة أمر
له المهديّ بها، فكتب إليه أمة دلالة رقعة يشكو فيها أذى الحرّ والصّوم، وهي :
أدعوك بالرحم الى قد جمعت * في القرب بين قريتنا والأقصد
إلا سمعت وأنت أكرم من منى * من مُنْشِدٍ يرحو جرّاء المنشد
حاء الصّيام فصمته متعبنا * أرجو رجاء الصائم المتعبّد
ولقيتُ من أمر الصّيام وحرّه * أصرين قيساً بالعذاب المؤصّد
وتجبدتُ حتى جَبَنِي مشجوجة * مما يَنَاطُحني الحصا في المسجد
فأمن بتسريعي بمطّلك مالدی * أسلفتني من البلاء المرصّد

فلما قرأ المهدي رُفَعَتْه غصب وقال : أَيْ قَرَابَةِ بَنِي وَبَيْكَ * قال : رَحِمُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ،
أُنْسِيَهُمَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! فَصَحَّكَ وقال : لَا وَاللَّهِ مَا نَسِيَهُمَا ، وَأَمْرٌ سَتَجِيلُ مَا أَحَارَهُ بِهِ
وَزَادَ فِيهِ ، وَأَشْدَهُ أَيْضًا فِي دَمِ الصَّوْمِ :

هَلْ فِي السَّلَادِ لِرِزْقِ اللَّهِ مُفْتَرَشٌ * أَمْ لَا هِيَ جِلْدُهُ مِنْ خُشْبَةِ بَرَشٍ^(١)
أَصْحَى الصَّبَامُ مُبَيَّعًا وَسَطَ عَرَصَتِنَا * لَيْبُ الصَّبَامِ بِأَرْضِ دُونِهَا حَرَشٌ
إِنْ صَحْتُ أَوْحَمَى سَطَنِي وَأَقْلَقَنِي * يَسُورُ الْجَوَانِحُ مَسَّ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ
وَأِنْ حَرَجْتُ بَلِيلَ مَحْوِ مَسْحَدِهِمْ * أَصْرَنِي نَصْرٌ قَدْ حَانَ الْعَمَشِ

دخل أبو دلامة على سعيد بن دعلج مولى بني تميم فقال :

إِذَا حَثَّ الْأَمِيرُ فَقُلْ سَلَامٌ * عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللَّهُ الرَّحِيمِ
وَأَمَّا بَعْدُ ذَاكَ فَعَلَى عَرِيمٍ * مِنْ الْأَعْرَابِ قُبْحٌ مِنْ عَرِيمِ
عَرِيمٍ لَا زِمٌ بِمَاءِ بَنِي * لَزُومِ الْكَلْبِ أَحْمَاءَ الرِّقَمِ
لَهُ مَائَةٌ عَلَى وَنِصْفُ أُخْرَى * وَنِصْفُ النِّصْفِ فِي صَكِّ قَدِيمِ
دِرَاهِمٌ مَا انْتَعَمْتُ بِهَا وَلَكِنْ * وَصَلْتُ بِهَا شَبُوحَ بَنِي تَمِيمِ
أَتَوْنِي بِالْمَشِيرَةِ يَسْأَلُونِي * وَلَمْ أَلِكْ فِي الْعَشِيرَةِ مَالَتَمِ

فأمر له بمائتين وخمسة وسبعين درهما وقال : مَا أَسَاءَ مَنْ أَصَفَ ، وَقَدْ كَفَانَتْكَ عَنْ
قَوْمِكَ وَزِدَتْكَ مَائَةٌ .

دخل أبو دلامة على المهدي فأنشده قصيدته في غلته المشهورة :

أَتَانِي ، بِمِلَّةٍ يَسْتَأْمِنُنِي ، * عَرِيقٌ فِي الْخَسَارَةِ وَالْعَلَلِ
فَقَالَ تَيْمِمَهَا قُلْتُ أَرْتَبِطُهَا * بِجُحُكِكَ إِنْ بَيَّحَ عَيْرُ طَالِ
فَأَقْبَلَ صَاحِكًا نَحْوِي سُرُورًا * وَقَالَ أَرَاكَ سَتَمًا دَا حَمَالِ
هَلَمْ إِلَى يَحْلُو بِي حِدَامًا * وَمَا يَدْرِي الشَّقَى لِمَنْ يُحَالِ

(١) البرش : قطيع من الخلد .

فقلتُ لأرسين، فقال أَحْسِنُ * إِلَى فُلَانٍ مِثْلَكَ ذُو جِبَالٍ
فَأَتْرُكُ حِمْلَهُ مِثْلَ لُحْيِ * بِمَا فِيهِ يَصْبِرُ مِنَ الْخَمَالِ

فقال المهدي : لقد أَقَلْتُ من ملاء عَظِيمٍ ، قال . والله يا أمير المؤمنين لقد مكثت شهرا
أتوقع صاحبها أن يردّها ، ثم أَشَدَّه :

فأبدلتني بها يا رَبَّ طَرَفًا * يَكُونُ حِمْلًا مَرَكَّبِيهِ جَمَالِ

فقال لصاحب دوابه : حَيَّرَهُ من الإصطبل بين مركبين ، قال : يا أمير المؤمنين إن كان
الاحتيارُ لي وقعتُ في شَرٍّ من الغلّة ، ولكن مُرِّه أن يختار لي ، فاحتار له .

حاصم رحل أبا دلامة في داره فارتعنا الى عافية القاصي ، فأنشأ أبو دلامة يقول :

لقد خاصمتني دُهاةُ الرجال ، وخاصمتُها سَنةً وأفيه
وما أدحضَ الله لي حجةً * ولا خيبَ الله لي قافية
ومن حفت من جورهِ في القضاء * طست أحافك يا عافية

فقال له عافية : والله لأشكوّنك الى أمير المؤمنين ، ولأعلمته أنك هجوتني ، قال : إذا
يَمُرُّكَ ، قال : ولمّه . قال : لأملك لا تعرف المدح من المِجاء ، فبلغ ذلك المصور فصاحت
وأمر لأبي دلامة بجائزة .

دخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن محمد وعيسى بن موسى والعباس
ابن محمد ومحمد بن محمد بن إبراهيم الإمام وجماعة من بني هاشم فقال له : أما اعطى الله عهدا
لئن لم تنهج واحدا مني في البيت لأقطع لسامك ، فطرأ اليه القوم ، فكلما نظر الى واحد منهم
غمره بأن عليه رصاء ، قال أبو دلامة : فعلت أئى قد وقعت وأنها عزيمة من عزماته لا بد
منها ، فلم أر أحدا أحق بالمِجاء مني ، ولا أدعى الى السلامة من هجاء نفسي ، فقلت :

ألا أبلغُ لديك أبا دلامه * فليس من الأكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قسدا * ويخزيها إذا نزع العمامه

جَمَعَتْ دَمَامَةً وَجَمَعَتْ لَوْمًا * كَذَلِكَ اللُّؤْمُ تَمْنَعُهُ الدَّمَامَةُ
وَإِنْ تِلْكَ قَدْ أَصَبَتْ نَعِيمَ دُنَا * فَلَا حَرْحَ فَقَدْ دَبَّتِ الْقِيَامَةُ
فَصَحَّكَ الْقَوْمُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَحَارُهُ .

حرج المهديّ وعليّ بن سليمان الى الصيد، فَسَحَّ لَهَا قَطِيعٌ مِنَ الطَّاءِ، فَأَرْسَلَتْ
الْكَلَابَ وَأَحْرَيْتِ الْخَيْلَ، فَرَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيًا سَنَمَ فَصْرَعَهُ، وَرَمَى عَلِيٌّ سَ سُلَيْمَانَ، فَأَصَابَ
بَعْضُ الْكَلَابِ قَتْلَهُ، فَقَالَ أَبُو دَلَامَةَ :

قَدْ رَمَى الْمَهْدِيُّ طَبِيًا * شَكَتَ بِالسَّهْمِ فَوَادَهُ
وَعَلَى سَ سُلَيْمَانَ * نَ رَمَى كُلَّمَا فَصَادَهُ
مَهْدِيًّا لَهَا كَلَّ أَمْرِي بِأَكْلِ زَادِهِ

فَضَحَّكَ الْمَهْدِيُّ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ مِنْ سَرْحِهِ وَقَالَ . صَدَقَ وَاللَّهِ أَبُو دَلَامَةَ، وَأَمْرُهُ بِجَائِزِهِ
سَيِّئَةٌ، فَلَقَّبَ عَلِيٌّ بِسُلَيْمَانَ صَانِدَ الْكَلْبِ، وَعَلَّقَى بِهِ .

أَشَدُّ أَبُو دَلَامَةَ الْمَصُورَ يَوْمًا :

هَاتِيكَ وَالذِّي عَمُوزُ هِمَّةٌ ^(١) * مِثْلَ الْبَلِيَّةِ دِرْعُهَا فِي الْمَشْجَبِ ^(٢)
مَهْرُولَةٌ الْخَيْتِ مِنْ يَهَا يُقْل * أَنْصَرْتُ غُولًا أَوْ حِيَالِ الْقَطْرِبِ ^(٣)
مَا إِنْ تَرَكْتُ لَهَا وَلَا لَأَيِّ لَهَا * مَالًا يُؤْمَلُ عَيْرَ نَكْرِ أَحْرَبِ
وَدَحَانِحًا تَمْسَا يَرْخُ الْيَسْمُ * لَمَّا يَبْضُ وَعَيْرَ غَنَرٍ مُفْسَرٍ ^(٤)
كَتَبُوا إِلَى صَحِيحَةٍ مَطْلُوعَةٍ * جَعَلُوا طَبِيَّةَ كَالْمَقْرِبِ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عَدِيكََا كَمَا * هَكَكَتْهَا عَنْ مِثْلِ رِيحِ الْحَوَرِ
وَأَدَا شَبِيهِ بِالْأَمَاعِي رُقُشَتْ * يُؤَدِّدُنِي تَلْمِظٌ وَتَشْوِبِ
يَشْكُونُ أَدَا الْجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ * لَرَبًّا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالِ لُرَبِّ

(١) همة : همة . (٢) المشجب : حشبات مونيئة مصوبة توضع عليها الثياب وتنتشر .

(٣) القطرب : ذكر الفيل . (٤) المغرب : الأبيض من كل شيء .

لا يسألوك غير طَلَّ تَحَايَةٍ * تَشَاهُمٌ مِنْ سَبِيلِكَ الْمُتَحَطِّ
يا باذِلَ الحِيرَاتِ يَا بَنَ بَذُولِهَا * وَأَنَّ الْكَرَامَ وَكُلَّ قَرِيمٍ مُنْجِبِ
أَنْتُمْ سِوَ الْعَاسِ يُعْلَمُ أَنْكُمْ * قَدَمًا هَوَارِثُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسُ خَيْلِ اللَّهِ وَهِيَ مُعِيرَةٌ * يَخْرُجْنَ مِنْ حَلَالِ الْقُبَارِ الْأَكْهَبِ

فأمر له بدار يسكنها وكسوة ودراهم، وكانت النار قريبة من قصره، فأمر أن تزداد في قصره بعد ذلك لحاجة دخته إليها، فدخل عليه أبو دلامة فأشده قوله :

يَا بَنَ عَمِ السَّبِيِّ دَهْوَةَ شَيْخٍ * قَدْ دَا هَنْدُمُ دَارِهِ وَدَمَارُهُ
هُوَ كَالْمَا حَصَّ الْقِيَّ اعْتَادَهَا الْعَلْدُ * قِيَّ فَحَزَنْتُ وَمَا يَقِرُّ قِرَارُهُ
إِنْ تُحْزِرُ عُسْرَةً بِكَفَيْكَ يَوْمًا * بِكَفَيْكَ عُسْرُهُ وَيَسَارُهُ
أَوْ تَدْعُهُ فَلَسَّوَارٍ وَأَيُّ * وَلَمَّا دَا وَأَنْتَ حَيَّ تَوَارُهُ
هَلْ يَخَافُ الْمَلَاكُ شَاعِرَ قَوْمٍ * قُلْتُمْ فِي مَدِيحِهِمْ أَشْعَارُهُ
لَكُمْ الْأَرْضُ كُلُّهَا فَامِيرُوا * شَيْخَكُمْ مَا أَحْتَوَى عَلَيْهِ حِدَارُهُ
فَكَأَنَّ قَدَمِيَّ وَخَلْفَ فَيْكٍ * مَا أَمْرْتُمْ وَأَقَرَّتْ مِنْهُ دَارُهُ
فَاسْتَعْرِ الْمَصُورُ وَأَمْرُ تَعْوِيصِهِ دَارًا حَيْرًا مِنْهَا وَوَصْلُهُ .

دخل على المهدي يومًا وعنده مُحْرِزٌ وَمُقَاتِلٌ أَنَا ذُوَالِ بَعَاتَانِهِ عَلَى تَقْرِيسِهِ أَمَا دِلَامَةُ وَيَسِيْبَانِهِ عِنْدَهُ فَقَالَ .

أَلَا أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ هَلْ أَنْتَ تُخْبِرِي * وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْمَلِ فَهَلْ أَنْتَ سَائِلِي
أَلَمْ تَرْحَمْ الْمُقَاتِلِينَ مِنْ لِحْيَتَيْهِمَا * وَكُلْتَاهُمَا فِي طَوْلِهَا عَيْرَ طَائِلِي
وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَعْمَلِ فَهَلْ أَنْتَ مُكْرِئِي * بِحَقِّهِمَا مِنْ مُحْرِزٍ وَمُقَاتِلِي
فَإِنْ يَأْذَنُ الْمَهْدِيُّ لِي فِيهِمَا أَقُولُ * مَقَالًا كَوَقْعِ السِّيفِ بَيْنَ الْمُقَاتِلِ
وَالْأَلَا تَدْعُنِي وَالْمَهْمُومُ تَوْبُو * وَقَلْبِي مِنَ الْمَلْجَيْنِ جَمُّ الْبَلَالِ

فقال : أو أحد لك منهما عشرة آلاف درهم يتديان بهما أعراضهما منك ، قال :
ذلك الى أمير المؤمنين ، فأحدها له مهما وأمسك عنهما .

دخل على أم عبيده حاصصة موسى وهارون ، فدفع اليها رُقعة قد كتبتها الى الخيبران فيها

أبلغني سيدتي مآل * به يا أم عبيده
أنها أرشدها الى * لو إن كانت رشيدة
وصدني قبل أن تح * رجع للحج وليده
فتأيت وارسل * مت عشرين قصيده
كلما أحقق أخله * مت لها أخرى حديده
ليس في بقي لثمي * مد فراشي من قصيده
عير عجماء عجموز * ساقها مثل القديده
وجهما أفتح من حو * مت طري في عصيده
ما حياة مع أنثى * مثل عرسى سعيدة

فلما قرئت عليها الأبيات صهكت واستعادتها منه لقوله : « حوت طري في عصيدة »
وحملت تصحك ووهت له حارية .

دخل يوما على المهديّ لحادثه ساعة وهو يصحك وقال له : هل بقي أحد من أهل لم
يصلك ؟ قال : إن أمنتني أجزتك وإن أعيتني فهو أحبُّ إليّ ، قال : بل تُحبري وأنت
آمن ، قال : كلهم قد وصلني إلا حاتم بن العباس ، قال : ومن هو ؟ قال : عمك العباس
ابن محمد ، فالتفت الى خادم على رأسه وقال : حاتم عقه ، فلما دنا منه صاح به أبو دلامة :
تصح يا عد السوء لا تُنحيث مولاك وتُنكيثه عهدَه وأمانته ، صهك المهديّ وأمر الخادم
فتنحى عنه ، ثم قال لأبي دلامة : ويلك ! والله عمي أحمل الناس ، فقال أبو دلامة : بل
هو أحمى الناس ، فقال له المهديّ : والله لو ميت ما أعطاك شيئا ، قال : فإن أما أبتسه

فأحارنى " قال لك بكل درهم تأخذه منه ثلاثة دراهم ، فاصرف أو دلامة فخير للمباس قصيدة ، ثم عدّها بها عليه وأشدّه :

قِفْ بالديار وأنى النهر لم تَقِفْ * على المازل بين الظهير والجف
وما وقوفك في أطلال مَـرِلة " لولا الذى استدرجَتْ من قلبك الكيف
ان كنت أصحت مشعوا بساكنها * فلا وربك لا تُشعيك من شَفَف
دَعْدا وقُلْ في الذى قد فار من مُصر * بالمكْرُمات وعزّ غير مُقْتَرَف
هدى رسالة شيخ من بى أسد * يُرِدى السلام الى العاس والصحف
تَحْطَلها من حواري المهر كاتبة * قد طالما ضَرَبَتْ في اللام والألف
وطالما اختلعت صَبفا وشاتِبة * الى مُعلَمها باللوح والكَتِف^(١)
حتى اذا نَهَدَ التَّدْبَارَ وأنتلا * منها وخيفت على الإسرار والقرف
صَبَدت ثلاث سِينٍ ما تَرى أحدا * كما يصون تَجَارِدُوه الصَّف
فبينما الشيخ يهوى نحو علسه * مُأدرا لعملة الصبح بالسَّف^(٢)
حانت له نَحْةٌ منها فاهرها * مُطَلَّةٌ بين يَحْفِيها من العُرف
نَحَرَ والله ما يدرى عَدَاتِيذ * أَنْتَرْمُكِيْشَما أم حير مكشف
وجاءه الساس أحواحا بِمائهم * لِيَقْبِلُوا الرجل المَفْشِي بالطف
ووسوسوا قُرآن في مسامعه * لحافه الحنُّ والإنسان لم يَحْف
شيئا ولكه من حب حارية " أَمْسَى وأصبح موقفا على التَّف
قالوا لك الويل ما أصررت قلت لهم * تطلعت من أعالي القصر ذى الشرف
فقلت أيُّكم واقه يأجره * يُعِين قوته فيما على صَعَف
فقام شيخ بَـيْوت من رجالهم * قد طالما خدع الأقوام بالخلف
فانتاعها لى نائى دِرْهم فأتى * بها الى فالتقاها على كَيْفِي

(١) الكتب : عام حريص يكون في أصل كتف المجرى كما هو يكون به قلة القراطيس .

(٢) السد : الصور وأقال الصبح .

فَبَيْنَ دَاكْ كَمَا إِذْ حَاءَ صَاحِبُهَا • بَيْنِي الدَّرَاهِمَ بِالْمِيزَانِ دَى الْكِفِّفِ
وَذِكْرُ حَقِّ عَلَى زَيْدٍ وَصَاحِبِهِ • وَالْحَقُّ فِي طَرَفٍ وَالطَّيِّبُ فِي طَرَفٍ
وَبَيْنَ ذَلِكَ شُهُودٌ لَا يَصْرَمُ أَكُنْتُ مُعْتَرِفاً أَمْ غَيْرَ مُعْتَرِفٍ
فَإِنْ يَكُنْ مَعَكَ شَيْءٌ فَهُوَ حَقُّهُمْ * أَوْ لَا فَإِنِ مَدْمُوعٌ إِلَى التَّلَفِّفِ

فضحك العباس وقال : ويحك ! أصادقُ أُنْتِ * قال : نعم والله ، قال : يا غلام أَدعِ
إِلَيْهِ أَلْتَنَى دَرَاهِمَ ثَمَنُهَا ، فَأَحَدُهَا ثُمَّ دَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَأَحْبَرَهُ الْقِصَّةَ وَمَا أَحْتَالَ لَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ
الْمَهْدِيُّ سِتَّةَ آلَافٍ دَرَاهِمَ ، وَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ : كَيْفَ لَا يَصْرَمُ ذَلِكَ * قال : لِأَنِّي مُعْدِمٌ
لَا شَيْءَ عِنْدِي .

دَخَلَ عَلَى إِسْحَاقَ الْأَزْرَقِ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ إِسْحَاقُ قَدْ مَرِضَ مَرَضاً شَدِيداً ثُمَّ تَعَاوَى مِنْهُ
وَأَمَّا قَدْ ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ ضَعِيفاً وَعِنْدَ إِسْحَاقَ طَبِيبٌ يَصِفُ لَهُ أَدْوِيَةً تُقَوِّى بَدَنَهُ ، فَقَالَ
أَبُو دَلَامَةَ لِلطَّبِيبِ : أَنْصِفْ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ لِرَجُلٍ أَصْعَبَ الْمَرَضِ * مَا أَرَدْتُ وَاللَّهِ إِلَّا قَتْلَهُ .
ثُمَّ أَتَتْهُ إِلَى إِسْحَاقَ فَقَالَ : اسْمَعْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مَنَى ، قَالَ : هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا أَمَا دَلَامَةَ ،
فَأَنشَأَ يَقُولُ :

تَخَّ عَنْكَ الطَّبِيبُ وَأَسْمَعُ لَيْتَنِي * إِنِّي نَاصِحٌ مِنَ الصَّاحِ
فَوَيْجَارِبَ قَدْ ثَقَلْتُ وَالصَّعْدَ • سَةِ دَهْرًا وَوِ السَّقَامِ الْمُنَاحَ
عَادَ هَذَا الْجَبَّارَ كُلِّ صَاحٍ • مِنْ مُتُونِ الْفَتِيَةِ السَّاحِ
فَإِذَا مَا عَطِشْتُ فَاشْرَبْ ثَلَاثًا • مِنْ عَتِيقٍ فِي الشَّمِّ كَالثَّفَاحِ
ثُمَّ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَأَعْكُفْ عَلَى ذَا * وَعَلَى ذَا مُعْظَمِ الْأَقْدَاحِ
تُقَوِّى ذَا الضَّعْفِ مَعَكَ وَتَأْتِي * عَنِ لَيْالٍ أَمَحَّ هَدَى الصَّاحِ

فَصَحَّكَ إِسْحَاقُ وَعَوَّادَهُ وَأَمَرَ لِأَبِي دَلَامَةَ بِخَمْسِمِائَةِ دَرَاهِمَ ، وَكَانَ الطَّبِيبُ نَصْرَانِيًّا
فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّكَ بِإِرْكَلٍ «يُرِيدُ بِإِرْكَلٍ» وَقَالَ الطَّبِيبُ : أَقْبَلْ مَنَى أَصَاحِبِكَ اللَّهُ

ولا تسألني عن شيء قدامه، فقال أبو دلامة : أما وقد أخذت أجرة صفتقي وقصيت الحق في نصيح صديقي فاصت له الآن أنت ما أحببت .

دخل على المهديّ وبين يديه سامة الوصيف واقفا، فقال : إني أهديت اليك يا أمير المؤمنين مَهْرًا ليس لأحد مثله ، فإن رأيتَ أن تُسَرِّقني بقبوله ، فأمر بإدخاله إليه ، نخرج وأدخل إليه دابته التي كانت تحته ، فاذا رِقْدُونُ محطَّمٌ أعْغُفْ هَرِمَ ، فقال له المهديّ : أئى شيء هذا ؟ ألم تزعم أنه مَهْرٌ ؟ قال له : أوليس هذا سامة الوصيف بين يديك قائما ، تسميه الوصيف وله ثمانون سه ، وهو عندك وصيف ؟ فاذا كان سامة وصيفا فهذا مَهْرٌ ، جعل سامة يُسْتَمَعُ والمهديّ يصحك ، ثم قال المهديّ لسامة : ويلك ! إن لهذه من أحوات ، وإن أتى بها في حِمْلٍ قَصَحَكَ ، فقال أبو دلامة : والله لأفضيحنه يا أمير المؤمنين ، فليس من مَوَالِكَ أحد إلا وقد وصلني ميرُهُ ، فاني ما شربت له الماء قط ، قال : فقد حكمت عليه أن يشتري نفسه منك بألف درهم حتى يتخلص من يدك ، قال : قد فعلت كل الآ ما عاود ، فقال له : ما ترى ؟ قال : أفضل ، فلولا أتى ما أخذت منه شيئا قط ما فعلت معه مثل هذه ، لصي سامة فعملها إليه .

• — أبان بن عبد الحميد اللاحق^(١)

ذكرنا في المجلد الأول أن أبان كان صديقاً للبرامكة متصلاً بهم أشد اتصال، يستشيرونه ويتمدون عليه في تدبير أمورهم، جلتها وهزلها، صعبها وهينها. وكانوا قد اتخذوه أديهم الرسمي، وبالغوا في ذلك حتى جعلوا إليه امتحان الشعراء وتقدر ما يستحقون من الجوائز والصلوات. فنضب الشعراء لذلك، وكان أشدّهم غصاً أبو واس الذي كان يكره البرامكة كرها شديداً، وكانت بينه وبين أمان مهاجاةً ذكرها صاحب الأغاني.

وكان أبان صديقاً للمدّل بن عيّان، وكانا مع صداقتهما يتعابثان بالمعاء، ويهجوو المدّل بالكفر ويسبّه إلى الشؤم. ويهجوو أمان ويسبّه إلى العساء الذي تُهَجَّى به عبد القيس وبالقصّر، وكان المدّل قصيراً. فسمى في الإصلاح بينهما أبو عُمَيْيَةِ المهلبيّ، فقال له أخوه عبد الله وهو أسنّ منه: يا أُنْى إن في هذين شراً كثيراً ولا بد من أن يُجرّحا، فعدّهما ليكون شرهما بينهما وآلا فزّاه على الناس.

ومن قوله يهجو أمان الصبير:

إذا قامت بوايك * وقد هتكن أستارك
أُيْتِنِ على قبرٍ * لك أم يلعن أحجارك
وما ترك في الدنيا * إذا زرتَ عدّا مارك
ترى في سقر المثنوى * وإليس عدّا حارك
بل ترك بايك * ودينك وأوتارك
ونعسان بات اللب * بل قد أليس أطمارك
تصالي الله ما أقب * ح إذ وليت أدبارك

(١) تحدّ ترجمه في الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٩. وقد ذكرناه لما ساء ذكرنا عذراً عليه من مطبوعه لكتاب كلية رومنة. وقد أصابها ما لم نذكره في ترجمته هناك.

خرج أمان من البصرة طالبا للاتصال بالبرامكة ، وكان الفضل بن يحيى فائبا فقصده ، فأقام ببابه مدة مديدة لا يصل إليه ، فتوسل إلى من وصل له شعرا إليه ، وقال له :

يا عزيزَ اللدى ويا جوهراً الجو * هير من آل هاشم بالبطاح
إث ظننى ، وليس يُخلف ظننى * لك فى حاجتى سبيل الحاج
إن من دونها لمصت ما ي * أنت من دون قفله مفتاح
تافت المرس يا خليل السجاج * نحو بحر الندى تجارى الرياح
ثم فكرت كيف لى وأستحرت الله * عد الإساء والإصباح
وأمتدحت الأمير أصلحه الله * شعر مشهر الأوضاح

فقال : هات مديحك ، فأعطاه شعرا فى هذا الوزن وقافيته ، ترى فيه أن الرجل مُعجَب بنفسه ، مدلل معلمه وأدبه ، تياه لا حد لثبته وعزوره :

أما من نية الأمير وكنز * من كوز الأمير ذو أرباج
كاتب حاسب خطيب أديب * ناصح زائر على النصاح
شاعر مُفلق أخف من الرید * شة مما يكون عد الجناح

وهى طويلة ذكرناها فى المجلد الأول .

وكان أمان شديد الحرص على المسال يُصَحِّى فى سبيله بأشياء كثيرة ، منها العقيدة والرأى . وكان يحسد مروان بن أبى حفصة لمكانته من الرشيد ولظفروه بالصلوات الضحمة والحوازر السنية ، فقد انتهى الأمر بنى العباس مع مروان بن أبى حفصة إلى أن كانوا يمحونه بالبيت ألف درهم ، فعاط ذلك أمان وأراد أن يصيب من أموال الرشيد ما كان يصيب مروان ، فعاتب أمان البرامكة على تركهم لإصالحه للرشيد وإصالح مديحه إليه ، فقالوا له : ما تريد من ذلك ؟ فقال : أريد أن أحظى منه بمثل ما يحظى به مروان بن أبى حفصة ، فقالوا : إنَّ لذلك مدها فى هباء آل أبى طالب ودمهم ، به يتخطى وعليه يُعطى ، فاسلكه حتى تعمل ، قال : لا أستحل ذلك ، قالوا : فما تصنع ، لا يجيئ طلب الدنيا إلا بما لا يحل ! فقال أمان :

نَسَدْتُ بِحَقِّ اللَّهِ مَنْ كَانَ مُسْلِمًا * أَعْمُ مَا قَدْ قُتِلَهُ الْمُجَمَّ وَالْمَرْبُ
 أَعْمُ رَسُولِ اللَّهِ أَقْرَبُ زُلْفَةً * لَدَيْهِ أَمْ أَبْنُ الْعَمِّ فِي رُبَّةِ النَّسَبِ
 وَأَيُّهَا أَوْلَى بِهِ وَبِهِدِهِ * وَمَنْ ذَا لَهُ حَقُّ التَّرَاثِ بِمَا وَجَبَتْ
 فَإِنْ كَانَ عَاسٌ أَحَقُّ بِتِلْكَكُمْ * وَكَانَ عَلَى سِدِّ دَاكِ عَلَى سَبْتِ
 فَابْنَاءُ عَبَاسٍ هُمْ يَرْتُونَهُ * كَمَا الْعَمُّ لِأَنَّ الْعَمَّ فِي الْإِرْثِ قَدْ جَحَتْ
 وَهِيَ طَوِيلَةٌ .

قال الفضل : مَا يَرُدُّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ شَيْءٌ أَتَحَبُّ مِنْ أَيْبَاتِكَ . فَرَكِبَ وَأَنْشَدَهَا
 الرِّشِيدَ ، فَأَمَرَ لِأَبَانٍ عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ اتَّصَلَ مَدْحُهُ لِلرِّشِيدِ بِعَدِّ ذَلِكَ وَخُصَّ بِهِ .
 وَكَانَ أَبَانٌ نَجَّاءَ قَبِيحِ اللِّسَانِ ، وَكَانَ مَعَ هَذَا شَرِيرًا قَاسِيًا يُؤْثِرُ الشَّرَّ وَيَحْدُ بِهِ لَذَّةً .
 وَقَدْ رَوَى لَهُ أَبُو الْمَرْجِ قِصَّةَ مُثَلِّ تَصْبِيهِ مِنَ الْقِسْوَةِ وَحَتَّ الشَّرِّ ، كَمَا أَنَّهَا تَعْطِيَا صُورَهُ
 مِنْ شَعْرِهِ وَمِنْ الْحَيَاءِ فِي عَصَرِهِ . قَالُوا : كَانَ يُقِيمُ بِالْقُرْبِ مِنْ أَبَانٍ رَحُلٌ تَقْفِيُ يَقَالُ لَهُ : مُحَمَّدُ
 ابْنُ حَالِدٍ ، وَكَانَ عَدُوًّا لِأَبَانٍ ، فَتَرَوَّحَ مُحَمَّدٌ هَذَا تَقْفِيَةً مَعْرُوفَةً هِيَ عِمَارَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْوَهَّابِ ،
 وَكَانَتْ عِمَارَةُ عَيْنِيَّةَ مَوْجُودَةَ الثَّرْوَةِ ، فَانْغَاطَ أَبَانٌ لَهَا الزَّوَاجَ ، وَقَالَ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ الَّتِي
 بَلَغَتْ عِمَارَةَ فَأَفْسَدَتْ زَوَاجَهَا :

لَمَّا رَأَيْتُ الْبِرَّ وَالشَّارَةَ : وَالْعَرْشَ قَدْ صَافَتْ بِهِ الْحَارَةَ
 وَاللُّوزَ وَالشُّكَّرَ بَرَمَى بِهِ * مِنْ مَوْقِ دِي الدَّارُودِيِّ الدَّارَةَ
 وَأَحْضَرُوا الْمُكَلِّهِينَ لَمْ يَتْرَكُوا * طَبْلًا وَلَا صَاحِبَ زِمَارَةَ
 قُلْتُ : لِمَا قِيلَ : الْأَعْوَبَةُ * مُحَمَّدٌ زَوْجَ عِمَارَةَ
 مَا دَا رَأَتْ فِيهِ وَمَا دَا رَحَتْ * وَهِيَ مِنَ السَّوَانِ مُحْتَارَةَ
 أَسْوَدَ كَالسَّقُودِ يَنْسَى لَدَى السُّورِ طَلْعَ غَرَاكُ قَبَارَةَ^(١)
 يُحْمَرَى عَلَى أَوْلَادِهِ حَسَّةً * أَرَعَمَهُ كَالرِّبَشِ طَيَارَةَ

وأهله في الأرض من خوفه * إن أفرطوا في الأكل سيارة
ويحك جرى واعصبي داه * فهذه أختك فرارة
إذا عا بالليل فاستيقظي + ثم أطمري إنك طعارة
فصعدت مائلة سُلّا * تخاف أن تصعده الفارة
«سرور» عرثها فلا أطلحت * فإنها الغناء غزارة
لونت ما أعدت من ريقها * إن لها ففنة صحارة

فلما لفت هذه القصيدة عمارة حرّيت، لحريم من جهتها مالا عظيما. والثلاثة الأبيات الأخيرة إلى أولها .. فصعدت مائلة سلما * رادعا في القصيدة مد أن حرّيت .

جلس أمان ليلة في قوم فتلك أمان عبيدة فقال : يقدح في الأنساب ولا نسب له . فلع ذلك أمان عبيدة فقال في مجلسه . لقد أضل السلطان كل شيء حين أضل أخذ الجزية من أمان اللاحق ، وهو وأهله يهود ، وهذه مازلم فيها أسفار التوراة وليس فيها مصحف ، وأوصح الدلالة على يهوديتهم أن أكثرهم يدعى حصط التوراة ولا يحفظ من القرآن ما يصلى به . فلع ذلك أمان فقال :

لا تبيّن عن صديقي حديثا * وأسئد من تسرر التمام
وأحيس الصوت إن طقت بليلا * وألصقت بالنهار قبل الكلام

قال عيسى بن اسماعيل : كما في مجلس أبي زيد الأصباري قد كروا أمان من عبد الحميد ، فقالوا : كان كافرا ، فنصب أبو زيد وقال . كان جاري فما فقدت قراءته في ليلة قط .



وكان أبان يهوى الشعراء في شيء يحسب أنه هو الذي سق إليه ، فقد استكر في الأدب العربي ما لم يتعامله أحد من قبله ، وهو فن الشعر التعليمي ، طرّق فيه فنونا مختلفة من العلم والحكمة والدين . وقد تحدّث أبو الفرج أنه نظم للبرامكة كتاب «كليلة ودمنة» ليسهل عليهم

حفظه ، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار ، وأعطاه العفصل بن يحيى خمسة آلاف واكتفى جعفر بأن يكون راويته . وروى أبو العرج أبياتا أربعة من هذا النظم ، وقد عثرنا على قطعة من كتاب معطوط يوجد في دار الكتب المصرية تحت رقم (٥٩٤) تاريخ ، وهو كتاب «الأوراق» للصولي . وفي هذا الكتاب قطعة صالحة من نظم أبيان لكليلة ودمنة ، ورأينا أن ننبتها هنا ، لأن المطبوعة صاعت ولم يبق منها إلا الأبيات الأربعة التي رواها أبو العرج . وهذا هي دي :

هَذَا كِتَابٌ كَيْبٌ وَجَمَّةٌ * وَهُوَ الَّذِي يُدْعَى كَلِيلَهُ دِمْنَةً
 فِيهِ دَلَالَاتٌ فِيهِ رُشْدٌ * وَهُوَ كِتَابٌ وَضَعَتْهُ الْمُنْدُ
 فَوَصَفُوا آدَابَ كُلِّ مَالِمٍ * حِكَايَةً عَنِ أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
 فَالْحِكْمَةُ يَعْرِفُونَ فَضْلَهُ * وَالسَّحَابُ يَشْتَوُونَ هَزْلَهُ
 وَهُوَ عَلَى ذَاكَ يَسِيرُ الْخَفِيطُ * لَدُّهُ عَلَى اللِّسَانِ عِنْدَ اللَّعِيطِ
 يَا نَفْسُ لَا تَشَارِكِي الْجَهْلَالَ * فِي حَتٍّ مَذْمُومٍ كَأَنَّ قَدْ زَالَا
 يَا نَفْسُ لَا تَسْقَى وَلَا تَعْنَى * فِي طَلَبِ الدُّنْيَا وَلَا تَعْنَى
 مَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ إِلَّا نَيْدَمٌ * إِذَا تَوَلَّى ذَاكَ عَنْهُ وَسَيْدَمٌ^(١)
 دُنْيَاكَ بِالْأَحْبَابِ وَالْإِخْوَانِ * كَثِيرَةُ الْآلَامِ وَالْأَحْرَابِ
 وَهِيَ وَإِنْ نِيلَ بِهَا السُّرُورُ * آفَاتُهَا وَعَمَلُهَا كَثِيرُ
 يَا نَفْسُ لَا يَحْمِلُكَ حَتٌّ أَهْثٌ * وَلَا أَذَانِيكَ عَلَى أَنْ تَهْلِكِي
 فِي جَمْعٍ مَا يَرْصِيهِمْ فُلَانُهُ * يَصْرِبُ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ الدُّخَانِ^(٢)
 يَنَالُ قَوْمَ عَرَقِهَا وَتَحْتَرِقُ * رَأَى بِهِ يَرْصِي أَخُو الرَّاى الْحَقُّ
 وَجَدْتُ ذَا النَّسِكِ الَّذِي قَدْ فَكَّرَا * فَزَادَهُ تَفَكُّرُهُ تَوَقُّرَا
 وَقُلْتُ لِمَا رِصَى أَهْتَامُهُ * وَتَمَّ مِنْ سُرُورِهِ تَمَامُهُ

(١) دم ورج - (٢) الدخنة : يحوي دخنه الثياب أو البيت وفي الأصل «الدخنة» الحميم وهو تحريف .

وترك الدنيا لمن يشقّ بها * ومن يقاسى الكدّ من أعباها
 فندمنا من الشرور * ونال أقصى عاية السرور
 ثم بحث عن كلّ فإنّ مسه * فلقى السعد وعاب محسه
 وأبصر الثواب في القيامة * فامن الحسرة والندامة
 ومثل الدنيا كبرق الخليل * من يندرمه بسقي يكذب
 وهو قاسا مثل يوم اللّيم * تحرجه أضغاث حلم الحالم
 حتى اذا استيقظ صارها * ما كان في النوم به ألما
 فكيف بالصبر على أيام * عما قليل هنّ لأتصرام
 وكيف والدنيا ملاء كلّها * لا يأمن الآفات فيها أهلها
 أشهد أن الله فردّ واحد * أفتراؤا نكر داك جاحد
 ليس له كفوا ولا نيا أحد * لم يلد الله ولا له ولد
 وإنى بما عملت مرتين * ما كان منه من قبيح وحسن

من باب الأسد والثور

وإن من كلب دى العيس * يرعى من الأربع بالأخس
 كبثل الكلب الشقى السائس * يهرج العلم العتيق الياس
 وإن أهل الفصل لا يرصيه * شيء اذا ما كالب لا يعنيه
 كالأسد الذى يصيد الأرنب * ثم الى العير المجدهرما
 يرسل الأرنب من أطفاره * ويتبع العير على أذاره
 والكلب من رفته ترصيه * بلقمة تقذفها في فيه
 فمن يمشى ما عاش غير حامل * له سرور دائم ونائل
 فهو وإن كالب قصير العمر * أطول عمرا من حليف فقير
 ومن يمشى في وحشة وضيق * وقلة المعروف في الصديق

(١) في الأصل "ثم للعير" والعير: الحمار.

فهو وإن عُمَرَ طَوَّلَ دَمِيرِهِ * ليس بْمَنْبُوطٍ طَوَّلَ عَمِيرِهِ
 وقيل أيضا إنه قد يثنى * للرحل الفاضل فيما يتغنى
الْأُورَى إلا مع الأملاك ^(١) * أو يُعَدُّ الله مع النَّسَاكِ
 كالفيل لا يصلح إلا مَرَكَا * لمك أو راعيا مسيا
 قال له السَّجُّ لمد سمعت * وكَلَّ ما تَوَلَّى قَدْ هَمَّتْ
 لكنى لستُ أَظُنُّ ما تَطُنُّ * ^(٢) ثَوْرٌ عَشْرٌ سَلَى طُنَى حَسَنَ
 قال له دَمَهُ مِنْ ثَمَّ أَتَى * وهده مَنْ حَالُهُ هِيَ التَّى
 رَمَتْهُ حَتَّى تَعْدَى طَوْرَهُ * وكان هذا لك مه شكره
 وتلك أحلاق اللثيم الفاجر * الكافر المفسور غير الشاكر
 ما أب يزال ماصعا هَما * حتى يرى من حاله آرتها
 بعدها يسمو الى ما فوقها * الى التَّى لا تستطيع أَوْقَهَا ^(٣)
 وربما كان هلاكُ الشجر * في حُسْنِ النُّصْ وطيِّبِ الثَّمَرِ
 وذنْبُ الطاووس فهو زِينُهُ * كذلك أحياء وبيه حَيُّهُ
 وبادل الصبح لمن لم يشكره * كطاريح في سَخٍّ ما يَدُرُّهُ
 لا حير للمقل في دى المَطَرِ * إن هو لم يَحْتَدِ عند المحَبَّةِ
 وليس في الصديق ذى الصفاء * حيرٌ إذا لم يك ذا وفاء
الرحلُ العاقلُ مِنْ لا تُسْكِرُهُ * كَأْسٌ سَمٌّ وَأَقْبَدَارٌ يُطِيرُهُ ^(٤)
 فالجبلُ الثابتُ في أصوله * لا تَهْدِرُ الرِّيحُ على تحويله
 والناقصُ العقلُ الذى لا رأى له * يطغى إذا ما مال أدنى منزله
 مثلُ الحشيشِ أَيْما رِيحٍ حَرَّتْ * مالت به فأقبلت وأدبرت
 الأهل والإخوان والأعوان * عند ذوى الأموال حيث كانوا

(١) الأملاك : الملوك . (٢) كذا في الأصل ولعله « بل الطل الحسن » .

(٣) أوقها . قتلها . (٤) في الأصل هكذا « طره » .

والمال هادى الزأى والمرؤة • وهو على كل الأمور قسوة
 والمال فيه المز والجمال • والدل حيث لا يكون المال
 وربما دعا الفقير قهره • الى التى يحط فيها أمره
 فيحمر الدين كما كان خير • دنياه والخسران ما لا يجير
 وليس من شىء يكون منحا • لذي الفنى إلا يكون رحا
 على الفقير ويكون دما • كذلك يدعى وبه يسمى
 فإن يكن تجدا يقولوا أهوج^(١) • كذلك عد الحرب لا يرح
 وهو إذا كان جوادا سيدا • تسمى للفقير مضيقا مضيدا
 أويك ذا حليم يقل صعيث • أويك بساما يقل صعيث
 الرجل المائل فيما يسدى • مفتط بكسبه للحميد
 لأنه باع قليلا فانيا • وأعاص من ذلك كثيرا باقيا
 فأعط الساس الكثير مائلة • ومدرك الجع لديه سائلة
 فلا تغلف داعنى غنيا • حتى يكون ماحدا سريا
 وأطم بأن الملك المشورا • ذا العقل فيما بابه المؤازرا
 فإنه يعصد بالتأييد • ينفى به عن كثرة الجود
 والحارم التاع أمر الحزمة • الصطاء صير أهل التهمة
 يزداد حرا بهم ورشدا • زيادة البحر إذا ما مدنا
 بما يصب فيه من أنهاره • حتى يبيح الموج من تياره
 والموت من مات كريما صابرا • خير من العيش ذليلا صاهرا

ولم يقل لما الصولى في كتابه إلا هذه القطعة . ويعد أبان في هذا ناظرا لكتاب
 معروف ، ولكنه قد تجاوز نظم الكتب المعروفة الى تأليف كتب منظومة ، فنظم قصيدة
 طويلة في الصوم والركاة ، روى منها الصولى طارفا .

(١) الموح الحق . وى الأصل : « ملوح » اللام وهو تعريف .

فقل لأبائكم بعد أن نظم كليله ودمة : ألا تعمل شعرا في الرهد * صمّل قصيدة
مزدوحه في الصيام والزكاة . وترجتها :

”قصيدة الصيام والزكاة * قلّ أمان من هم الرواة“

وها هي دى القصيدة :

هذا كتاب الصوم وهو جامع * لكلّ ما قامت به الشرائع
من ذلك المترّل في القرآن * فصلا على من كان ذا بيان
ومنه ما جاء عن النبي * من عهده المتّبع المرسى
صلّى الإله وعليه سلّا * كما هدّى الله به وطنا
وبعضه على اختلاف الباس * من أثر ما يص ومن قياس
والجامع الذي إليه صاروا * رأى أبي يوسف مما اختاروا
قال أبو يوسف أمانا المقرّض * فومضان صومه اذا عارض
والصوم في تقاره الأيمان * من حيث ما يجري على اللسان
ومعه الخ وفي الظهار^(١) * الصوم لا يدفع الإنكار
وخطا القتل وخلق المحرم * رأسه فيه الصيام فأهم
فومضان شهره معروف * وصومه مقرّض موصوف^(٢)
والصوم في الظهار ان لم يقدر * مطاهر يوما على عذر
والقتل ان لم يك عمدا قتله * فإنّ ذلك في الصيام مثله
شهران في العدة كاملا * متصلا لا مفراقا
والحنث في رواية مقولة * ثلاثه أيامها موصولة
ومثلها في عنة الأيام * للحريم الحائض في الإحرام
ثلاثه يصومها إن حلّقا * لا بأس إن ناسها أو فرقها

(١) الظهار مصدر طاهر الرجل من امرأته اذا قال لها : أنت عليّ كظهر أمي ، فكى بالظاهر العن نادا .

(٢) في الأصل : ”مطوف“ .

والصوم في المنعة ان لم يحيد * هديا وكان الصيام يفتدي
صيام أيام مؤقتات * ثلاثة في الحج مفروضات
ومد ما يرجع صوم سبعة * عشرة كاملة في المنعة
أما الثلاثة التي في الحج * فكان من أدركت من حجاج
أو غيره من يرى أن يرويه * يقول يوما قبل يوم التروية
ويومها وصوم يوم عرفة * مؤلفات الصوم لا مختلفة
قالوا وإن أحب أن يفرقا * فذاك ما ليس عليه ضيقا
إن كان ذاك الصوم مهعدما * يكون في عمرته قد أحرم
ولو أراد الصوم في شواي * من بعد أن يوجب ما هلال
عمرته لكان ذاك عجزيا * فذاك يفتي من أتى مستفتيا
وهي طويلة حذا

ونحسب أن مكانه من البرامكة هو الذي حمله على احتراع هذا الفن، فقد كان مكانه
مهم مكان المؤدب لصبيانهم وشبابهم، وكان من الحق عليه أن يسهل لهم العلم تسجيلا .
وليس من شك في أن هذه الأموال التي أصابها من البرامكة حينما نظم كلية ودسة قد
أطعمته، فظم القصائد الأخرى ليصيب مثل ما أصاب .

أخبار حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان ومختار من شعره

قال أبو بكر الصولي: حدثني محمد بن زياد قال: كانت في عهد الصمد بن المعتز عريضة
إذا سكر، فعريد يوما في مجلس فيه حمدان بن أبان بن عبد الحميد بن أبان. وكان أيدا^(١) فقال
لهم: كلوه إلى وحدي، وأحده وكنتمه وحمله في بيت وأعلق بابه، وقال: إذا أصبحتم
فأطلقوه، وأنصرف، فبلغه أن عد الصمد حلف ليهوته سة، فقال حمدان يهوه:

قل لعبد الصمد الأح * حق لا تنصب عليه
وعلى أملك فاعضب * وأكوها في المنى كيه
أملك العلاء جاء * حتى يسلى ورقية
وهي ساقط ليلة فا * طمة أخرى إليه
ففضبا فيهم الحق * وقلنا السوية

وقد ذكر الصولي في كتابه الأوراق ما اختاره من قصيده حمدان بن أمان بن عبد الحميد
ابن أبان في وصف الحب وأهله وهي طويلة، قال :

ما مأل أهل الأدب * ما وأهل الكتب
قد وصموا الآدانا * وأتعبوا الكتانا
لكل فنٍ دفتُر * سقط عثر
مُرقّت أجاسا * وعلّوها الناسا
بالحيل الرقيقه * والعطن الدقيقه
فارشدوا الضلّالا * وعلّوا الجهّالا
سوى المحبّين فلم ^(١) * يرقّوا لهم حقّ الدّم
في علم ما قد جهلوا * وما به قد أنشأوا
قد ظفقت رهونهم * وأستمريت عيونهم
وحالفوا الشّادا * وحالفوا الرّقادا
فليلهم طويل * وومهم قليل
أبدانهم عيلة * متعة عليه
نفوسهم حريّة * مشغوفة رزيّة
ظاهرة عمومهم * باطلة كلومهم

(١) في الأصل : "هم".

ماصية عيوهم * قريحة حفوئهم
 إن طلموا لم يظلموا . وإن شكوا لم يرحموا
 أحابهم في لعب * وفي دوام الطرب
 صافية ألوانهم * صاحكة أسانهم
 قد سكوا القصورا * وقاروا الشرورا
 تفرغوا للهخير * وللسوى والغدير
 عاشق يهواهم * ناهه ما أقسامهم
 وعدهم وعيد * إقرارهم محود
 نسي لأهل العشي * أهل الصبا والرق
 ليس لهم وسيلة * ولا وحوه حيلة
 رأيت لما حذلوا . وفي هواهم وحلوا
 أن أريد المغفلا * الجاهل المغفلا
 إلى الطريق الواح * عند السلاء العادج
 وأبتدى كتاما * للوصيف ما ما
 يا أيها الناس قموا . وصيقي وأتقموا
 ففي صغاتي عجب * وفي صغاتي أدب
 قصيدتي مقومة * العاظم منظمه
 فيها هوى العشاق * ومنية المشتاق
 وصفت أهل العشي * ولم أيل عن حق
 فاسمع مقالا صادقا * يا من بيت عاشقا
 للحب خلتان * هما التان
 الصبر والرق مما * يوما إذا ما أحمعا

في عاشقي مهجور * مساعد مفرور
 قفى قريبا وطرا * وبلغاه الوطرا
 ما الحسن والإحسان * والملك والسلطان
 يعدل وصل الإلف * وكسره الطريف
 ما حس في العين * أحسن من الفين
 يوما اذا ما ألقيا * في مجلس فاشميا
 مداومين النظر * قد أيا كل حذر
 ياداران الخلوة * ويظهران الصبوة
 مساعدت أتمقا * باقا ولم يسترقا
 هوامها غزوت * سرهما مدفوت
 مداريت أصحا * للناس لم ينصحا
 من حرب الحعرف * ما بين ملك وأسف
 لن يبلغ الصب المني * إلا صبر وعما
 إن الهوى ضرور * وأمره عجب
 وأهله أطوار * فيه لم أوطار
 للعاقيل الشريف * والأحمق السحيف
 منهم مرزوق * محب مشوق
 على اضطراب الخلق * منه وسوء الخلق
 تقي له الأوطار * وتعمل الأشعار
 مقرت ما يقصى * مطاوع ما يقصى
 ومنهم محروم * محارف مشوم

على حالٍ هيئتُه • وحسبه وبهجته
 ومنهم من مُتَدَا • ينال عيشاً رَغَدَا
 من غير سعى وطلتْ • وعير كَدٍ وتصب
 قَدْ ذاك الأسعدُ • والبختُ منه أجودُ
 إذ فاز باللداتِ • ودرك الحاجاتِ
 ومنهم من يتع • في حبه ويدأبُ
 أسقمه طولُ الهوى • وشقه وحدُ الهوى
 فذاك صَبٌّ قد شقي • يؤمى له ما دأبَ لقي
 ومنهم الصيرُ • العاقلُ الحريرُ
 يحتمل المجرانا • ويحمل الأحرانا
 فلا يزال متلًى • حتى يبال أملاً
 ومنهم العيْدُ • الجاهلُ البليدُ
 يُحِبُّ التصجيرُ • والجهل والتكبرُ
 يلقي الحبَّ ما هنا • فلا يزال ساكناً
 ومنهم من يهوى • بالغيب يأتى عموا
 فيزرعُ الغُوما • مستعجباً مُوما
 فذاك حبُّ العيبِ • ليس به من عيبِ
 من دونه محابُّ • ودونه أبوابُ
 فاللذاتُ لَبْتُ • وليس منه مُكْتُ
 حتى يرى مقهوراً • في حبه محسوراً
 ومنهم جَارُ • في حبه أزورارُ
 يُرَى إذا ما عَشِقَا • ورهنه قد علقا

يَلْتَرَمُ الْمَجَاحِنَ * فليس يُبْدِي الْحَاجَةَ
 فِذَاكَ حُبُّ الْقَوْتِ * وفيه كَرُبُ الْمَوْتِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ لِلطَّرْ * يَهْوَى وَلَمْ يَتَدَّ الْبَصَرُ
 إِذَا رَأَى حِلَّةَ * دَاوَى بِهِ عَلَيْهِ
 يَكْتُمُ مَا بِقَاسِي * مِنْ أَعْيُنِ الْجُلَاسِ
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْتَصَرَ * عَلَى الْحَدِيثِ وَالنَّظَرِ
 غَايَتُهُ السَّلَامُ * وَالْحَطُّ وَالْكَلَامُ
 مَدَافِعُ مَنْ جَبَّ * يَكْتُمُ وَجَدَ قَلْبِهِ
 يَنْفِي الْهَوَى وَيَكْرَهُ * وَالتَّجَرُّ يُسْتَرُّهُ
 فِذَاكَ حُبُّ الْعَاقِلِ * حُبُّ أَدِيبٍ كَامِلٍ
 وَمَعْصُهُمْ لَا يُقِيمُهُ * إِلَّا عَمُودٌ يَدْعُهُ
 قَدْ طَلَّتِ الْحَرَامَا * وَأَتَمَّسَ الْأَنَامَا
 فِذَاكَ حُبُّ النَّهْمِ * الْمَاجِنِ الْغَنَمِ
 حَقٌّ لَهُ الْحَرَامُ * وَالْمَعُ وَالْحَذَلَا
 وَمَعْصُهُمْ مَدَاقٍ * مَعَانَتْ مَلَأُ
 مُسْتَعْمِلٌ لِلْكَذِبِ * مُحَرَّفٌ فِي الْكُتُبِ
 فِذَاكَ حُبُّ الزُّورِ * يَلْسَعُ كَالزُّورِ
 وَمَعْصُهُمْ عَمِيدُ * عَايَةُ مَا يَرِيدُ
 خَلُوةٌ مِنْ يَهْوَاهُ * فِي مَشْهَدٍ يَلْقَاهُ
 لَفْظَتُهُ مُسَارَقَهُ * مَيِّتُهُ مُعَاقَبُهُ
 مَحْكَامٌ لِحُبِّهِ * فِي مُعْدِهِ وَقُرْبِهِ
 فِذَاكَ حُبُّ يُكَبِّدُ * نِيرَانُهُ لَا تَمُحُّدُ

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَفِ * الْحَتَّ حِينَ يُشَعَفُ
 إِذَا الْحَبِيبُ صَدَّأ * وَلَمْ يُكَلِّهِ وَدَّأ
 تَاهَ عَلَيْهِ وَحَزَقُ^(١) * وَصَدَّعَهُ وَحِمَقُ

وقال في آخرها :

قَدِ تَمَّ مَنَى وَصَفُ * وَلَمْ يَحْفَ الرِّصْفُ
 وَأَقْلَضَتِ الْقَصِيدَةُ * مَحَبَّةً حَمِيدَةً
 وَالْمَحْدُ لِلرَّحِمَنِ * ذِي الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ
 وَالذَّمُّ لِلشَّيْطَانِ * ذِي الْعَرَمِ وَالطُّغْيَانِ^(٢)

(١) حرق من عليه وبخل .

(٢) العرم : الشدة والشراسة . وفي الأصل « العرم » .

٦ - منصور المسمري^(١)

كان ذا حيلة سياسية ، فأدرك أن الرشيد يسره أن يُمدح بنى الإمامة عن عليّ والعلس عليه ، لما كان يراه من تهديم مروان بن أبي حفصة بسبب ذلك ، فسلك مذهبه ونحا نحوه — والشعراء يومئذ انما يطلبون الكسب — لكنه لم يصريح بالهجاء والسب كما فعل مروان ، ومن قوله فيه قصيدة مطلعها :

أمير المؤمنين اليك حُضُنَا • غمار المَسْؤُول من بَلَد شَطِير
بِخُوص كالأهْلَة حافِقَات • تَلِين على السُّرى وعلى المَجِير
حَمَلْن اليك أحمالاً ثَقَالَا • ومثَل الصَّحرة النَّزْ الشَّيْر
مقدَّ وَقَف المَدِيح بِمُتَّهَاه • وغَايَتِه وصار الى المَصِير
الى من لا تُشِير الى رسولٍ • اذا دُكِرَ النَّدَى كَفَّ المَشِير

ودكر في القصيدة يحيى بن عبد الله بن حسن فقال :

يدلُّ من رقاب بنى عليّ • ومن لُوس بالْمَنِّ المَصْمِير
مستَ حَلَّى ابن عبد الله يَحْيَى • وكان من الخُوف على شَعِير

(١) هو منصور بن الرزقان بن سلة النمرى الراسي ، من النمرين فاسط ، ثم من ربيعة بن زرار . شاعر من شعراء الدولة العباسية . من أهل الجزيرة ، وهو تلميذ كثيرون من عمرو الثاني وداويده ، هه أحد ، ومن عمه استن ، وعمه تشه . وصحه الثاني للفصل بن يحيى بن حله وقطره عده حتى استقدمه من الجزيرة واستصحه ، ثم وصله بالرشيد وحرت مد ذلك بينه وبين الثاني وحشة حتى تهاورا وتناقضا وسعى كل واحد منهما في هلاك صاحبه ، وكان النمرى قد مدح الفصل قصيدة وهو مقيم بالجزيرة ، فأوصلها الثاني اليه واستمره له وماله استصحا به ، فأذن له في القدوم ، فخطب عده ، وعرف مدح الرشيد في الشعر وزادته أن يصل مدحه إياه بنى الإمامة عن ولد علي بن أبي طالب عليهم السلام والعلس عليهم وعلم شعراء في ذلك بما كان يلعبه من تقديم مروان بن أبي حفصة وتخصيله إياه على الشعراء في الحواري ، فسلك مدح مروان في ذلك ونحا نحوه ، ولم يصريح بالهجاء والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق ، لأنه كان يتشيع ، وكان مروان شديد العدواة لآل أبي طالب وكان يعاقب من بنة فورية يقصد بها طلب الدنيا فلا يتي ولا يدور . ونجد أحاده في الأغانى (ج ١٢ ص ١٦ وح ١٧ ص ٣٢ و ١٤١) .

ولقد تلخص الى شيء ليس عليه فيه شيء وهو قوله :

فإن شكروا فقد أنعمت بهم * وإلا فالندامة للكمور
وإن قالوا بسوءت حق * وردوا ما ياسب للذكور
وما لبني بنات من ثراث - مع الأعمام في ورق الزور

ومنها :

بى حسن ورهط بى حسين * عليكم بالسداد من الأمور
فقد ذُقم قراع بى أبيكم * عداة الزوع بالبيض الذكور
أحب شفوكم من كل ورز * وممؤكم الى كيف وغير
وحادوكم على طما شديد * مُسقيتم من نوالهم العرير
ما كان العقوق لهم جراً * معلهم وأدى للثور
وامك حين تُبليهم أداة * وإن ظلموا لمزور الصير

فقال له : صدقت وإلا فلي - وعل - وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وأنشد الرشيد يوماً قصيدته التي أولها :

ما تنقصي حسرة مني ولا جرع * اذا ذكرت شباباً ليس يجمع
ما ن الشباب وما انتى بلدته * صرور دهر وأيام لما جدع
ما كنت أوى شبابي كنه عرته * حتى أقصى فاذا الدنيا له تبع

فقال الرشيد : أحس ! والله لا يتهنى أحد بعيش حتى يحطّر في رداء الشباب .

ومن قوله فيما يمدح الرشيد :

أى أمرى مات من هارون في مخط * فليس بالصلوات الجنب يتبع
إن المكارم والمعروف أودية * أحلك الله منها حيث تجتمع

اذا رَفَعْتَ أَمْرًا فَاللهُ يَرْفَعُهُ * وَمَنْ وَصَمَتْ مِنَ الْأَقْوَامِ مُنْضَعُ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَطَالُ مُعْلَمَةٌ * يَوْمَ الْوَعَى وَالْمَسَايَا صَابَهَا فَرْعُ

ومن قوله يمدح الرشيد :

يَا مَنَزِلَ الْحَيِّ ذَا الْمَعَانِي * إِيْمٌ صَسَا حَا عَلَى بِلَاكَا
هَارُونَ يَا حَيْرَ مَنْ يُرَجَّى * لَمْ يُطِيعِ اللَّهَ مَنْ عَصَا كَا
فِي حَيْرِ دِينٍ وَحَيْرِ دُنْيَا * مِنْ أَنْبَى اللَّهِ وَأَتْقَا كَا

وناهيك بقصيدته التي رثت السيِّفَ عن ربيعة بصيهيين بعد أن جرده فيها الرشيد
وهي التي يقول فيها :

وَقَدْ عَلِمَ الْعُدُونُ وَالْجَوْرُ وَالْحَمَا * نَأْيَ عِيَاظِ لِسِ مُرَايِلُ
وَلَوْ عَمِلُوا فِيمَا أَمَرَكُ لَمْ يَكُنْ * يَنْتَالُ بَرِيًّا بِالْأَذَى مُتَنَاولُ
لَا مَكَأَ أَرْحَامٌ وَفَعَلَتْ طَاعَةٌ * وَأَسَا إِذَا أَصْطَكَ الْقَمَا وَالْقَابِلُ
وَمَا يَحْفَظُ الْإِحْسَانَ مِثْلَكَ حَافِظُ * وَلَا يَصِلُ الْأَرْحَامَ مِثْلَكَ وَاصِلُ
حَمْلَاكَ فَاغْنَا مَعَادًا وَمَعَزَا * لَنَا حِينَ عَصَيْنَا الْخَطُوبَ الْحَلَالُ
لَأَنْتَ إِذَا عَادَتْ بِرُوحِكَ عُودُ * تَطَامَسَ حُوفٌ وَأَسْتَعَزَّتْ مَلَابِلُ

اجتمع جماعة من الشعراء ببيّداد وفيهم مصبور النخري، وكانوا على تئيد، فأبى مصبور
أن يشرب معهم، فقالوا له : إنما تعاف الشراب لأنك رافض، وتسمع وتُصغي إلى
العباء، وليس تركك البَيْد من ورع، فقال :

حَلَا بَيْنَ بَدْمَانِي مَوْصَعُ تَجَلُّسِي * وَلَمْ يَبِ عُدَى لِلْوِصَالِ نَصِيبُ
وَرُدَّتْ عَلَى السَّاقِ تَهْيِضُ وَرَبْمَا * رَدَدْتُ عَلَيْهِ الْكَأْسَ وَهُوَ سَلِيبُ
وَأَيُّ أَمْرِي لَا يَسْتَهْتَشُ إِذَا جَرْتُ * عَلَيْهِ سَأَلُ كُفْهِنِ حَصِيبُ

قال النخعي : كنت واقفا على جسر بغداد أبا وعيد الله بن هشام ، وقد وخطني الشيب يومئذ ، وعبد الله شاك حديث السن ، فانا أبا مقصية طريقه قد وقفت ، بفعلت أظن اليها وهي تنظر الى عيد الله ثم انصرفت ، وقلت بها :

لما رأيت سَوَامَ الشَّيبِ مَنشُراً * في لَمَني وعيدَ الله لم يَشِبْ
سَلَّيتُ سَهْمينَ من عَيْدِكَ مَنضِلًا * على سَبِيهِ دى الأذْيَالِ والطُّرُبِ
كذا النخعي رى منهن قاصدة . الى العروغ مُعْرَاةً عى الخشب
لا أيت أصبحت تعقد بينا أرباً^(١) * ولا وعيشك ما أصححت من أربى
إحدى وحسين قد أصبحت حذتها * تحول بينى وبين اللهو واللعب
لا تحسبني وإن أعصيت من نصري * عَفَلْتُ عَيْكَ ولا عى شاك العَجَبِ
عصب الرشيد على مصور النخعي لما أنشد قصيدته في مدح العلويين وأولها :
شَاءَ من الناس رَاتِعٌ هَامِلٌ * يَسْلُوْنَ العُوسَ بالبَاطِلِ
وبها يقول :

أَلَا مَسَاعِيرٌ يَنْصَبُونَ لَهَا * بِسَلَّةِ الْبَيْصِ وَالْقَا الذَّائِلِ
فغضب من ذلك عصباً شديداً وقال للعصل بن الربيع : أحضره الساعة ، فبعث العصل
في ذلك ، فوحده قد تَوَقَّى ، فأمر نبيه ليحرقه ، فلم يزل العصل يُطْلَفُ له حتى كَفَّ عنه .
والبك قصيدته في مدح العلويين تقلا عى الشعر والشعراء لابن قتيبة ، لأن صاحب
الأغانى أغفلها ولم يذكر منها إلا البيت الساقين :

شَاءَ من الناس رَاتِعٌ هَامِلٌ * يُعَلِّلُونَ العُوسَ بالبَاطِلِ
تُحْتَلِ ذُرِّيَّةُ آلِ النُّحَى وَيَرُ * جَوْنَ جَانِ الخُلُودِ للِقَاتِلِ
وَيْلَكَ بِأَقَاتِلِ الحُسَيْنِ لَقَدْ * قُوَّتَ بِجَهْلٍ يَنْوُءُ بِالْأَمَلِ

(١) كما في الأصل ولله : * لا أت أصبحت يعقد بينا أرب * فكيف العمل يعقد للضرورة وتسكين
العمل في الضرورة وارد منه قول امرئ القيس .
اليوم أشرب غير مستحق * أنما من الله ولا ماعل
(٢) في الشعر والشعراء "صاليت" .

أَيَّ جَبَاهِ حَبَوْتُ أَحَدَى ■ حَفَرْتِهِ مِنْ حَرَارَةِ النَّاصِلِ
 بَأَى وَجْهَ تَلَقَّى النَّبَى وَقَدْ ■ دَخَلَتْ فِي قَلْبِهِ مَعَ الدَّاهِلِ
 هَلُمَّ فَاطْلُبْ غَدًا شِعَاعَتَهُ ■ أَوْ لَا فَرِّدْ حَوْضَهُ مَعَ النَّاهِلِ
 مَا الشَّكُّ عَدَى وَحَالُ قَاتِلِهِ ■ لَكِنِّى أَشْكُ فِي الْخَائِلِ
 مَعَى فِدَاءِ الْحَسَنِ حِينَ عَدَا ■ إِلَى الْمَنَايَا عُذُو لَا قَائِلِ
 ذَلِكَ يَوْمُ أُنْعَى بِشَفَرَتِهِ ■ عَلَى سَنَامِ الْإِسْلَامِ وَالْكَاهِلِ
 حَتَّى مَسَى أَيْتَ تَسْجِينَ الْآلَا ■ تَزِيلُ مَالِقُومَ يَقْمَةُ الْعَاجِلِ
 لَا يَجْعَلُ اللَّهُ إِنْ لَجَلَتْ وَمَا ■ رَبُّكَ عَمَّا يَرِيدُ مَالِغِلِ
 وَعَاذِلِ أَيْ أَحَبَّ نَسَى ■ أَحَدًا قَاتِرَبَ فِي قِيمِ الْعَاذِلِ
 قَدْ ذُقْتُ مَا دِينُكُمْ عَلَيْهِ مَا ■ وَصَلْتُ مِنْ دِينِكُمْ إِلَى طَائِلِ
 دِينُكُمْ جَعَوَةُ النَّبَى وَمَا الـ ■ جَاءَى لَأَلِ النَّبَى كَالْوَاوِلِ
 مَظْلُومَةُ وَالسَّبَى وَالنَّهْأ ■ يَذِيرُ أَرْجَاءَ مُقْلَةٍ حَائِلِ
 أَلَا مَصَالِيْتُ يَفْضُبُونَ لَهَا ■ نَسْلَةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَّا الذَّائِلِ

وقال أيضا .

آلِ النَّبَى وَمَنْ يُجِبُّهُمْ ■ يَتَطَامَنُونَ مَخَافَةَ الْقَتْلِ
 آمِنُوا الصَّبَارَى وَالْيَهُودَ وَهُمْ ■ مِنْ أَمَةِ التَّوْحِيدِ فِي أَرْزِلِ^(١)
 وَأَتَمِّدُ الرِّشِيدَ هَذَا مَعْدُومُهُ قَتَالِ : لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَتَبَّشَهُ ثُمَّ أَحْرِقُهُ .

ومن جيد شعره قوله فى الرشيد :

يَا زَائِرُنَا مِنْ آلِ نَبِيَّامِ ■ حَيَّاكَمَ اللَّهُ بِالسَّلَامِ
 يُحْزِنُنِي أَنْ أَطْفَأَ بَابِي ■ وَلَمْ تَتَّأَلَّ بِسُورِ الْعِكْلَامِ

(١) الأزل : الصبي والشدة .

لم تَطْرُقَانِي وَبِي حَرَاكُ * إِلَى حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ
 هَمَّاتٌ لِلْهُمِّ وَالْتِمَاسُ * وَلِلْمَوَانِ وَلِلْإِدَامِ
 أَقْصَرَ جَهْلِي وَثَابَ يَحْلِي * وَنَهَتْ الشَّبَّ عَنْ عُرَايِ^(١)
 عَمْرُ أَيْهَا لَقَدْ تَوَلَّتْ * سَالَةَ الْحَدِّ مِنْ عِذَائِي^(٢)
 قَدْ حَقَّ وَتَرَبُّ حَقِّ * لَيْلَةَ أَعْيَاهَا مَرَامِي
 أَذْثَتَانِي طُغُولَ تَهْمِي * وَعَمْرَتَانِي مَعَ السُّوَامِ
 وَأَطْلَسَتَانِي عَلَى مَلَامِ * وَالشَّبَّ شَرُّ مِنَ الْمَلَامِ
 نُورَكَ هَارُوبٌ مِنْ إِمَامِ * سُلَاطَةَ اللَّهِ ذِي الْعِصَامِ
 لَهُ إِلَى دِي الْحَلَالِ قُرْقُ * لَيْسَتْ لَعْدَلٍ وَلَا إِمَامِ
 يَنْسَى عَلَى أُمَّةٍ تَمْنَى * أَوْ لَوْ تَحْيَاهُ مِنَ الْإِمَامِ
 لَوْ اسْتَطَاعَتْ لِقَاسَمَتَهُ * أَعْمَارَهَا فِئْمَةَ الشَّهَامِ
 يَا حَيْرَ مَاضٍ وَحَيْرَ بَاقِ * مَدَّ الْبَيْسِ فِي الْأَنَامِ
 مَا اسْتَوْدَعَ الدِّينُ مِنْ إِمَامِ * حَامَى عَلَيْهِ كَمَا تُحَامِي
 يُؤْنَسُ مِنْ رَأْيِهِ رَأَى * أَصْلَقَ مِنْ سَلَةِ الْحُسَامِ

وقال :

أَعْجَبْتُ كَيْفَ لِحَاحَةِ * طَلَبْتُ إِلَى صَمِّ الصُّحُورِ
 اللَّهُ دَرُّ عُدَايِكُمْ * كَيْفَ انْتَبَهَ إِلَى الْفُرُورِ
 أَنْ اللَّيَالِي صَمْتِي * وَوَسْمَتِي سِمَةَ الْكِبَرِ
 أَطْلَعَانِ نُورَ شَيْئَتِي * وَفَرَشَتْنِي كَفَّ النَّيُّورِ
 وَلَقَدْ تَبَيَّتُ أَنَا مِلِي * يَحْنِينُ رُقَانِ النَّحُورِ

٧ - السيد الحميري^(١)

« لم يكن السيد الحميري من أئصار الحسن والحسين، أو معارة أجمع لم يكن من أنصار ولد الحسن والحسين، وإنما كان من الكينانية الذين كانوا ينصرون الآن الثالث من أبناء علي: محمد بن حوالة الحمية؛ والذين كانوا يديسون أنه لم يمت وإنما تعيب عن الناس واحتجب عنهم حياءً وسبعوداً فيملاً الأرض عدلاً كما ملئت حوراً، فلم يكن على السيد الحميري بأس أن يمدح به العباس ويتقرب بهم مادام صاحبه محمد بن الحمية لم يعد من عينه بعد. ثم نستطيع أن نميز هذا الشاعر بمصلة لم رها في شاعر من الدين تحمداً عنهم، وهي أنه كان ضخماً ضعيف العقل شديد الإيمان بالخرافات والأوهام، ويظهر أن هذه النحلة جاءت من مذهبه بعبه في الرحمة، فقد أسرف في هذا المذهب كما أسرف في مدح العلويين والإيمان بهم حتى وصمهم من الخير والكرامة بما يقل وما لا يقل، فكان كل خير يمكن أن ينسب إلى العلويين، رصيه العقل أم لم يرصه، وكان كل شر يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين، رصيه العقل أم لم يرصه، وكان يكفي أن يسمع رجلاً من أهل القصص ورواة الأساطير يروي كرامة من الكرامات يضيئها إلى أحد العلويين حتى يظلم فيها قصيده طويلة جيدة، ويتخذ هذه القصيدة وسيلة إلى دم السلف والى عليه.

(١) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن معزم الحميري والسيد لقبه وبكى أما هاشم، كان شاعراً متقدماً مقطوعاً، يقال إن أكثر الناس شراً في الحاشية والاسلام ثلاثة: شار وأبو العاتية والسيد، فانه لا يعلم أن أحداً قدر على تحصيل شراً أحد منهم أجمع، وإنما مات ذكره وهو الناس شراً لما كان يحرط به من سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه في شعره ويستعمله في قذعهم والطعن عليهم فتوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس تحموا وترقا، وله طراز من الشعر وصفه قفا يلحق فيه أو يقارب، ولا يعرف له من الشعر كثير، وليس يحلو من مدح بن هاشم أو دم مريم من هو عده عد لم. - نوى سنة ١٧٣ هـ. وتحد ترجمته وأخباره في الأغاني (ج ٧ ص ٢) ونبوات الوفيات (ج ١ ص ١٩).

(٢) من بحوث صديق الدكتور طه حسين أستاذ الآداب العربية بالجامعة المصرية.

وخصلة أخرى تقربه من الزنادقة الذين عاصروه ولكنها تحصل الصلة بينه وبينهم صعبة واهية في الوقت نفسه .

وهي أنه كان يستبيح صروباً من اللهو والمنكر، ويسرف في شرب الخمر وغير ذلك من ألوان القبح، لا لأنه كان يتحداً الدين أو يزويه بل لأنه كان يدلّ على صاحب الدين، كان يحث النبي صلى الله عليه وسلم وآله ويمتحنهم مودته ونصره، ويعتقد أنهم سيعرفون له ذلك ويشجعون له في دعوته وآثامه ليأخذهم من يديه من مدح العلويين ونصرهم على خصومهم، وكان سواهاتهم وسوءه على خاصة يطعمونه في ذلك ويعتبرون له به، وإذا ذكر لهم أنه يلهو ويشرب الخمر قالوا : وأى ذنب يعظم على الله أن يعصه رجل من أنصار أهل البيت ! بل قال أحدهم : إن من أحب آل علي لم تر له قدماً إلا شئت له أخرى ؛ وعلى هذا كان السيد الميرزا يلهو آمناً في دينه ودنياه . يعتمد في دينه على العلويين . ويعتمد في دنياه على العباسيين ، يقدّر أن العلويين يشجعون له عند الله . ويعلم أن العباسيين يتقنون شره ويؤثرون مدحه على محبته ، وكان من مفاصيره من يذكره ذلك ويمتقنه كل الوقت، ويصبر للسيد عداءً وحقدًا لا يعللها عداءً ولا حقدًا ؛ ومن هؤلاء سوار بن عبد الله الصبري قاضي النصرة للصور ، فقد كان العداء بينه وبين السيد شديداً ، وكان قد أجمع ألا يقبل للسيد شهادة ، وكان قد سعى بالسيد عند المنصور غير مرة ؛ وكان السيد قد هجاه فأسرف في هجائه ، فشكا ذلك إلى المنصور فهجاه المنصور عنه وأمره أن يذهب إلى القاضي فيعتذر إليه ، وأبي القاضي أن يقبل معذرتي ، فاستأنف السيد المصطفى وألح فيه . ويقال إن سواراً أخذ شهوداً يشهدون على السيد بالسرقة ليقطع يده ، فعلم السيد ذلك فجزع وفرع إلى المنصور ، فعزل المنصور سواراً من القضاء للسيد أو عليه ، ولم يلبث سوار أن مات فصبه السيد بعداته وبغضه وهجائه .

قال أبو جعفر الأعرج : كان السيد أسمر تامّ القامة ، أشنب ذا وفرة ، حسن الألفاظ جميل الخطاب ، إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل في المجلس نصيبه من حديثه ؛

وقال المرزوق . إن ههنا رجلين لو أخذوا معي الناس لما تكلم معهما في شيء : السيد الحميري وعمران بن حطان السدوسي ، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول في مذهبه ، وقال الأصمعي لما أنشد شيئا من شعره : ما أسلكه لطريق المحول لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ما قدمت عليه أحدا من طبقته ، وكان أبو عبيدة يقول : أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار .

وكان السيد يذهب مذهب الكيسانية ويقول بإمامة محمد بن الحنفية ، وله في ذلك شعر كثير .

وقف السيد على بشار وهو يشد الشعر ، فأقبل عليه وقال .

أبها المادح العاد يُعطى * إن لله ما أبدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم * وأرجع مع المتزل العواد
لأنقل في الجواد ما ليس فيه * وتسمى البخیل باسم الجواد

قال بشار : من هداه فعرّفه ، فقال . لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بني هاشم لشغلنا ، ولو شاركنا في مذهبنا لتبنا .

ومن قول السيد :

أتعرف رثما بالثوبين قد دثر * عفته أهاصبت السحاب والمطر
وجرت به الأذيال ریحاح حلفة * صا ودور بالسيات والبكر
مازل قد كانت تكون مجوها * هصيم الحنن ربا الشوى يجرها النظر
قلوب الخلق حصانة تحترق * كان عباها ساء دارة القمر
رمتني بعيد مد قريب بها الوى * مات ولما أقص من عدة الوطر
ولما رايت خشيّة السنين موبجا * أكفكف مي أدما يصبها دوز
أشارت بأطراف إلى وقصها * كنظم جمان خات السلك فانتز
وقد كنت مما أحدث البين حادرا . فلم يبق عنى مه خوفا والحدز

لما استقام الأمر لني العباس قام السيد إلى أبي العباس السفاح حين نزل عن المبر فقال :

دُونَكُمْوْهَا يَا بِي هَاشِم * جَدُّدُوا مِنْ عَهْدِهَا الدَّارَسَا
دُونَكُمْوْهَا لَا عَلَا كَهَبُ مَنْ * كَاتَ عَلَيْكُمْ مُلْكُهَا نَافِيسَا
دُونَكُمْوْهَا فَالْبَسُوا تَاحَهَا * لَا تَعْلَمُوا مِنْكُمْ لَهُ لَاسَا
لَوْ حَيَّرَ الْمَسْبَرُ قُرْسَانَهُ * مَا اخْتَارَ إِلَّا مِنْكُمْ فَارَسَا
قَدْ سَاسَهَا قَلْبُكُمْ سَاسَةً * لَمْ يَتْرَكُوا رَظًّا وَلَا يَابَسَا
وَلَسْتُ مِنْ أَنْ تَمْلِكُوهَا إِلَى * مَهْطَ عَيْسَى فِيكُمْ آيَسَا

وهت هذه الأبيات إلى المهدي يسأله ألا يعطى آل بكر وعمر من مال الدولة :

قُلْ لَأَبِي حَاسٍ يَمِيَّ مُحَمَّد * لَا تُعْطِيَنَّ بَنِي عَدِيَّ دَرَهْمَا
إِحْرِمْ بَنِي تَيْمٍ بَنَ مَرْءَةٍ لِمَنْهُمْ * شَرَّ الْبَرِيَّةِ آخِرًا وَمُقَدِّمًا
إِنْ تَعْطَاهُمْ لَنْ يَشْكُرُوا لَكَ عَمَّة * وَيَكَاثُوكَ إِنْ تُدِّمَ وَتُشْتَمَّا
وَإِنْ أَنْتَمْتُمْ أَوْ اسْتَمَلْتُمْ * حَاوُوكَ وَأَتَّخِذُوا تَرَاكُ مَعَمَّا
وَلَنْ مَعَتَهُمْ لَقَدْ مَدَّوْكُمْ * بِالْمَسْعِ إِذْ مَلَكُوا وَكَانُوا أَظْلَمَّا
مَعَمُّوا تَرَكَتْ عَمْدَ أَعْمَامِهِ * وَبَيْنِهِ وَأَنْتَ عَدِيلَةُ مَرْيَمَا
وَتَأْمُرُوا مَنْ عَيْرَ أَنْ يُسْتَعْلَفُوا * وَكَيْ بَمَا فَعَلُوا هَذَاكَ مَاثِمَا
لَمْ يَشْكُرُوا لِمُحَمَّدٍ إِحْسَامَهُ * أَفِيَشْكُرُونَ لِمَنْ لَمْ يَنْهَ أَنْتَمَا
وَاللَّهُ مَنْ عَلَيْهِمْ مُحَمَّد * وَهَدَاهُمْ وَكَسَا الْجُودَ وَأَطَمَا
ثُمَّ أَنْبَرُوا لَوْصِيهِ وَوَلِيِّهِ * بِالْمَكْرَاتِ بِجَرَّعِهِ الْعَلَمَا

أشد السيد جعفر بن محمد هذه الأبيات يذكر فيها قبر الحسين :

أَمْرٌ زَلَّ عَلَى جَدَّتِ الْحَسِي * بِنِ قُضْلٍ لِأَعْظَمِيهِ الزَكِيَّةُ
أَعْظَمًا لَا زَيْتٍ مِنْ * وَطَفَاءَ سَاكِةٍ رَوِيَّةُ
وَإِذَا مَرَّرْتَ قَبْرَهُ * فَاطْلُ بِهْ وَقِفْ الْمُطِيبَةُ

وَأَبِيكَ الْمُطَهَّرَ لَطُ * جَهْرًا وَمُطَهَّرَةَ الْبَقِيَّةِ
كَبْكَا مُعْوَلَةً أَتَتْ * يَوْمًا لَوَاحِدَهَا الْمِيَّةِ

فانحدرت دموعُ حمير على حذيه وأرتفع الصراخُ والكاءُ من داره حتى أمره بالإمساك
فأمسك .

ومن قول السيد في إمامة ابن الحنفية

أَلَا يَا أَيُّهَا الْجَدِيدُ الْمَعْنَى * لَمَّا مَا مَحْنُ وَتَحَكَّ وَالْعَنَاءُ
أَتَّصِرُ مَا تَهْوُلُ وَأَنْتَ كَهْلُ * تَرَكَ طَبِيعَ مَنْ وَرَجَّ رِدَاءُ
أَلَا إِنَّ الْأَنْعَمَ مِنْ قُرَيْشٍ * وَلَأَنَّ الْحَقَّ أَرْبَعَةُ سَوَاءُ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْتِهِ ^(١) * هُمْ أَسْبَاطُهُ وَالْأَوْصِيَاءُ
فَأَنَّى فِي وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ * يَكُونُ الشُّكُّ مَاءً وَالْمِرَاءُ
بِهِمْ أَوْصَاءُهُمْ وَدَعَا إِلَيْهِ * جَمِيعَ الْخَلْقِ لَوْ تُسْمِعَ الدُّعَاءُ
فَيَسْطُ يَسْطُ إِيْمَانٍ وَحِلْمٍ * وَسِطُّ عَيْتِهِ كَرَمَلَاءُ
سَقَى حَدَثًا نَصَبَهُ مِلْكُ ^(٢) * حَتَفُ الرِّعْدِ مُرْتَجِرُ رَوَاءُ
تَظَلُّ مُطَلَّةٌ مَهَا عَرَالٍ * عَلَيْهِ وَتَقْتَدِي أُخْرَى مِلَاءُ
وَسِطُّ لَا يَدْوِي الْمَوْتُ حَتَّى * يَقُودَ الْخَيْلُ يَقْدُمُهَا اللِّوَاءُ
مَنْ الْبَيْتِ الْمُحِبِّ فِي سُرَاةٍ * ثُرَاةٍ لَفَ يَبْهَمُ الْإِحَاءُ
عَصَائْتُ لِمَنْ رَدَوْنَ أَعْرَاحِلَ * بِمَكَّةَ قَائِمٌ لَمْ انْتَهَاءُ

وَأُنشد العنتي قصيدته اللامية التي أولها .

هَلْ حَدَّ مَنْ أَحْبَبَتْ تَوَيْلُ * أَمْ لَا فَإِنَّ اللُّومَ تَصْلِيلُ
أَمْ فِي الْحَتَّى مِنْكَ حَوَى بِاطِلُ * لَيْسَ تُنَاوِيهِ الْأَمَاطِيلُ

(١) هم الحسن والحسين ومحمد . (٢) العرلاء . مص الماء من الراوية وبحرفها ، ويقال . أزلت

الياه عراليا إشارة الى شدة وقوع المطر على التشبيه بهوله من أهواء المرادات .

عَلِقَتْ يَامَعْرُورُ حَذَاةً * بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْمِيلُ
رِيًّا رَدَّاحَ السُّومِ تُحْصَاةً * كَانَتْهَا أَدْمَاءُ عُطْبُولُ
يُسْفِيكَ مِمَّا حِينَ تَحْلُوهَا * صَمٌّ إِلَى الْعَرِّ وَتَقْيِيلُ
وَذَوْقُ رَيْبِي طَيِّبٌ طَعْمُهُ * كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَمْلُولُ
وِ نَسْوَةٍ مِثْلَ الْمَهَا تُحَرِّدُ * تَضِيْقُ عَنْهُنَّ الْخِلَافِيلُ

يقول فيها :

أُقِيمَ مَالُهُ وَالْأَلْسُنُ * وَالْمَرْءُ عَمَّا قَالَ مَسْئُولُ
إِنْ عَلَى بَرٍّ أَوْ طَالِبٍ * عَلَى التَّقَى وَالْبَرِّ مَحْمُولُ

قال : أحسنَ والله ما شاء ، هذا والله الشعرُ الذي يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ بِلَا حِجَابٍ .

فيل للسيد : مالك لا تستعمل في شعرك من العريب ما تُسأل عنه كما يعمل الشعراء ؟
قال : لأنَّ أقول شعرا قريبا من القلوب يَلْذَنُ مَنْ سَمِعَهُ ، حَيْرٌ مِنْ أَنْ أَقُولَ شَيْئًا مُعَقَّدًا
تَفْضِلُ بِهِ الْأَوْهَامَ .

تقدّم السيد إلى سَوار القاضى ليُشهدَ عِدهُ ، فلم يَرْضَ بِهِ ، فقام مُقْصَبًا مِنْ مَجْلِسِهِ ،
وكتب رُقْعَةً يَقُولُ فِيهَا :

يَا أَمِينَ اللَّهِ يَامُنْصُورُ يَا حَيْرَ الْوَلَاةِ
إِنَّ سَوَّارَ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ شَرِّ الْقَضَاةِ
تَعَلَّى جَمَلِي * لَكُمْ غَيْرُ مُوَاتٍ
حَدُّهُ سَارِقُ عَتَرٍ * بِحُرَّةٍ مِنْ بَقَرَاتٍ
لِرَسُولِ اللَّهِ وَالْقَا * ذِيهِ الْمُنْكَرَاتِ
وَأَبْنُ مَنْ كَانَ يُنَادِي * مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
بَاهِنَاءُ أَخْرَجَ الْبِنَا * إِنَّا أَهْلُ هَنَاتٍ
مَدَحْنَا الْمَدْحَ وَمَنْ نَرَى * مِ يَصْبُ بِالزُّبُرَاتِ
مَا تُكْفِيهِهِ لَا كِفَاءُ اللَّهُ شَرُّ الطَّارِقَاتِ

قيل : فلما قرأها سوار وثب من مجلسه وقصد أبا جعفر المصور، وهو يومئذ نازل بالجسر، فبعقه السيد إليه فأنشده :

قل للإمام الذي يُنجي بطاعته * يوم القيامة من مجبوحة النار
لا تستعين وجرارك الله صالحاً * يا حير من دت في حكم بسوار
لا تستعين بنبيث الرأي ذي صائف * جم العيوب عظيم الكبر جبار
يُضحي المصوم لديه من تحبزه * لا يرفعون إليه لحظ أعمار
تيها وكبرا ولولا ما رقت له * من ضمه كان عين الجائع العارى

ودخل سوار، فلما رآه المصور تنسم وقال : أما بلعك خبر إياس بن معاوية حيث قبل شهادة الرزدق واستراد في اليهود ؟ ها أحوك لتعرض للسيد ولسانه ! ثم أمر السيد بمصاحته .

دخل السيد على المهدي لما باج لأبيه موسى وهارون، فأنشأ يقول :

ما بال مجرى دمعك الساجم * أم قدى مات بها لازم
أم من هوى أنت له ساهر * صابة من قلبك المهائم
آليت لا أمدح ذا نائل * من معشر غير بني هاشم
أوليئهم عندى يد المصطفى * ذى الفضل والمن أبى القاسم
فأنها بيضاء محودة * جزاؤها الشكر على العالم
جزاؤها حفظ أذى جعفر * خليفة الرحمن والقائم
وطاعة المهدي ثم أبه * موسى على ذى الإربة الحازم
وللرشيد الرايع المرتضى * مقتضى من حقه اللازم
ملكهم محسون معدودة * رغم أنف الحاسد الزاعم
ليس طيبا ما بقوا غيرهم * في هذه الأئمة من حاكم
حتى يردوها إلى هابط * عليه عيسى منهم ناجم

ومن شعر السيد :

ما جرت حَفَرُهُ عَلَى الْقَلْبِ مَنَى * وَبِكَ إِلَّا اسْتَرْتُ عَنْ أَحِبَّائِي
مِنْ دُمُوعِ نَحْرِي مَا كُنْتُ وَحْدِي * حَالِيَا أَسْعَدْتُ دُمُوعِي اتِّعَالِي
إِنْ جَبَّ لِيَاكِ قَدْ سَلَّ حَسَمِي * وَرَمَانِي مَالِ شَيْبٍ قَبْلَ الشَّبَابِ
لَوْ مَتَحَتِ أَلْفَا شَيْءُ يَكُ صَا * هَانَمَ الْقَلْبُ قَدْ تَوَى فِي التُّرَابِ

وبما قاله في الحبس :

قِفْ بِالْأَدْيَارِ وَحَيْثُ يَأْتَرُجُ * وَأَسْأَلُ وَكَيْفَ يُجِيبُ مَنْ لَا يَسْمَعُ
إِنِّ الدِّيَارَ حَلَّتْ وَلَيْسَ بِحَوْثَا * إِلَّا الصَّوَاغُ وَالْجَمَامُ الْوُقْعُ
وَلَقَدْ تَكُونُ بِهَا أَوَّاسٌ كَالْأُمِّي * حُمْلٌ وَعَرَّةٌ وَالزَّيْبُ وَبَرَّوْعُ
حَوْرٌ بَوَاهِمُ لَا تُرَى فِي مِثْلَهَا * أَمَّا لَمْ مِنْ الصَّبَاةِ أَرْجُ
فَعَرِيْبٌ عَدَّ تَأْلِيْفٌ وَنَجْمٌ * وَالْدَهْرُ صَاحٍ مُتَقَتُّ مَا يَجْمَعُ
فَاسَلَمَ إِلَيْكَ قَدْ زَلَّتْ عَنِّي * عَدَّ الْأَمِيرُ تَقَرَّرَ فِيهِ وَتَجْمَعُ
تُوَقَّى هَوَاكَ إِذَا طَلَقْتَ حَاحِي * بِهِ وَتَشْمَعُ عَدَّهُ قَشْعُ
قُلْ لِلْأَمِيرِ إِذَا طَلَعَتْ مَحَلَّةُ * مِمَّ وَلَمْ يَكُ عَدَّهُ مَنْ يَسْمَعُ
هَبْ لِي الَّذِي أَحْبَبْتُهُ وَاحِدٌ * وَبِهِ إِنَّكَ حَاصِدٌ مَا تَزْرَعُ
يَخْصُصُ آلُ مُحَمَّدٍ بِحُفَّةٍ * فِي الصَّدْرِ قَدْ طُوِيَتْ عَلَيْهَا الْأَصْلَعُ

وقال يهجو امرأة واريث مؤسيرا من حلاته ، وكانت تعبد زوجها على إسمائه

أَقُولُ بِأَلَيْتَ لَيْلِي فِي يَدَيْ حَقِي * مِنَ الْعِدَاوَةِ مِنْ أَعْدَى أَطْدِيهَا
يَلْبُوبُهَا هَوَى رَعِي ثُمَّ يُعْلِمُهَا ^(١) * فِي هَوَى قَدَّهْدَى يَوْمَهَا مِيهَا
أَوْ لَيْتَهَا فِي عِمَارِ الْبَحْرِ قَدْ عَصَفَتْ * فِيهِ الرِّيحُ مَهَاجَتْ مِنْ أَوَانِيهَا ^(٢)

(١) الرمي أمه يتقدم الجدل منه ويعود ورومان . والحبل الطويل ودهدى المهر فتدهدى ، أى دحرجه

فتدحرج . (٢) الأراوى : أمواج البحر مردحا أدى .

أُولَيْتَهَا قَدَدَتْ يَوْمًا إِلَى مَرِيضِي * قَدْ شُدَّ مِنْهُ إِلَى هَادِيهِ هَادِيهَا
 حَتَّى يُرَى لِحْجَاهَا مِنْ حُصْرِهِ زَيْمًا^(١) * وَقَدْ أَتَى الْقَوْمَ بَعْدَ الْمَوْتِ نَاعِيهَا
 فَنَ بَكَاهَا فَلَا جَفَّتْ مَدَامُهُ * لَا أَمَحْنُ أَفْهَ إِلَّا عَيْنَ بَاكِهَا

وقيل : إِنَّ آنَرَ قَصِيدَةً لَهُ هِيَ قَوْلُهُ :

أَشَاقَكَ الْمَازِلُ مَعْدَ هَيْدِ * وَتَرْتِيهَا وَذَاتِ الدَّلِّ دَمْدِ
 مَازِلُ أَقْرَبَتْ مِنْهُنَّ مَحْتِ * مَعَالِيَهُنَّ مِنْ سَبِيلِ وَرَعْدِ
 وَرِيحِ حَرْجِفٍ تَسْتُرُ فِيهَا * بِسَافِي التَّرْبِيبِ تُلْعِمُ مَا تُسْدِي
 أَلَمْ يَلْنُفَكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْبِي * مَقَالُ مُحَمَّدٍ فِيهَا يُؤَدِّي
 إِلَى ذِي عَلَيْهِ الْمَهَادَى عَلَى * وَخَوْلَةٌ حَادِمٌ فِي الْبَيْتِ تَزْدِي
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ خَوْلَةَ سَوْفَ تَأْتِي * بَوَارِي الرُّبْدِ صَافِي الْخَلِيمِ تَجْدِي
 يَهْوِزُ بِكُنْثَى وَأَسْمَى لَأَتِي * نَحْلُهُمَا هُوَ الْمَهْدَى بَعْدِي
 يُفِيْتُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقُولُوا * تَصَمْتُهُ بِطَلْبَةِ بَطْنِ لَحْدِ
 سَيْنَ وَأَشْهَرًا وَيُرَى بِرَصَوِي * بِشَيْبِ بَيْنِ أَنْمَارٍ وَأُسْدِ
 مَقِيمٌ بَيْنَ آرَامٍ وَعَيْنِ * وَحَقَّافُ تَرْوُحٍ خِلَالِ رُبْدِ
 تُرَاحِيهَا السَّبَاحُ وَلَيْسَ مِنْهَا * مُلَاقِبُهُنَّ مُفَقَّرًا بِجَدِّ
 أَمِينَ بِهِ الرُّدَى فَرَتَسَ طَوْرًا * فَلَا حَوْفَ لَدَى مَرَّعِي وَوَرْدِ
 حَلَفْتُ بِرَبِّ مَكَّةَ وَالْمُصَلِّ * وَبَيْتِ طَاهِرِ الْأَرْكَانِ قَرْدِ
 يَطُوفُ بِهِ الْحَجَّيجُ وَكُلُّ عَامِ * يَحْمِلُ لَدَيْهِ وَقَدْ مَعْدَ وَفْدِ
 لَقَدْ كَانَ أَبُ خَوْلَةَ غَيْرَ شَكِّ * صَفَاءَ وَلَا تَنِي وَخُلُوصَ وَدِي
 مَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ فِيهَا * أَمِيرُ وَمَا أَبُوحَ بِهِ وَأَبْدِي
 سَوَى دِي الْوَحْيِ أَحَدًا أَوْ عَلِيَّ * وَلَا أَرْكِي وَأَطْلُبُ مِنْهُ عُنْدِي

(١) الرِّيمُ الْمُخْرَقُ مِنَ الْهَمِّ . (٢) الْخِلْعَانُ . صَعَارُ الْعَامِ .

وَمَنْ ذَا بَارٍ حَوْلَهُ إِذْ رَمَتْنِي * أَمِمْهَافِ الْمَنِيَّةُ حِينَ وَفَدَى
 يُذَيِّبُ عَمَّكَ وَيَسُدُّ مِمَّا * تَسْلُمُ مِنْ حَصُونِكُمْ كَسَدَى
 وَمَالِي أَنْ أَمْرٌ * وَلَكِنْ * أَقْوَمُ أَنْ يُؤْخِرَ يَوْمُ فَقْدِي
 فَأُدرِكَ دَوْلَةً لَكَ لَسْتُ بِهَا * مَحْبَارٍ تُوَصِّفُ مَا تَعْدَى
 عَلَى قَوْمٍ مَقَّوْا فِيكُمْ عَلِيًّا * لَتُعْدَى مَعَكُمْ يَاحِيْرُ مُعَدَى
 لَتَعْمَلْ بِأَعْلِيهِمْ حَيْثُ كَانُوا * تَوْرِي مِنْ هَامَةِ أَوْ تَعْبُدَى
 إِذَا مَا سِرْتُ مِنْ مَلِيٍّ حَرَامٍ * إِلَى مَنْ مَالِدِيَّةٍ مِنْ مَعَدَى
 وَمَادَا عَزُّهُمْ وَالْخَيْرُ مَعَهُمْ * أَشَوْسَ أَعْصَلَ الْأَيَّامِ وَرَدَى
 وَأَنْتَ لَمَنْ بَنَى وَمَدَا وَأَذْكَى * عَلَيْكَ الْحَرْبَ وَأَسْتَرْدَاكَ مُرَدَى

٨ - سلم بن عمرو الخمار^(١)

كان مقطعا الى البرامكة والى الفضل بن يحيى حصوصا من بينهم ، وبه يقول
أبو العتاهية :

إِذَا الْفَضْلُ لَسَلِمَ وَحْدَهُ * لَيْسَ فِيهِ لِسْوَى سَلَمٍ دَرَكٌ

وكان هذا أحد الأسباب الى فساد ما بينه وبين أبي العتاهية . ولسلم يقول أبو العتاهية
وقد سجَّ مع عُبَّة :

وَأَقْبَهُ وَاقْبَهُ مَا أَمَالَى مَتَى * مَا مَتُّ يَأْسَلُمُ عَدَا السَّيْرِ
أَلَيْسَ قَدْ طُفْتُ حَيْثُ طَافْتُ وَقَدْ * لَمْتُ الَّذِي قُلْتُ مِنَ الْحَمْرِ

وله يقول أبو العتاهية وقد حُبِسَ ابراهيمُ الموصلي :

سَلَمٌ يَأْسَلُمُ لَيْسَ دُونَكَ سِرٌّ * حُبِسَ الْمَوْصِلِيُّ فَالْعَيْشُ مُرٌّ
مَا اسْتَطَابَ اللَّذَاتِ ، مَذْكَنُ الْمَطِّ * بَقِيَ رَأْسُ اللَّذَاتِ وَاقْبَهُ ، حُرٌّ
تَرَكَ الْمَوْصِلِيُّ مَنْ حَلَقَ الْإِلَّ * لَهُ جَمِيعًا وَعَيْشُهُمْ مُقَشِّرٌ

(١) هو سلم (ويقال سالم) بن عمرو أحد موالى أبي بكر الصديق ، نشأ في النصرة ، وكان شاعرا مطبوعا متصربا
في مود الشعر ، وكان مظاهرا بالخلاعة والسوق والمجون ، ورواد شاعرية ونمرسا بالشرع بل يدنوا له لأنه كان راوياً
وتلميذا ، أحده واضرف من بحر وسبح على موالاه ، وكثيرا ما كان يأخذ أقواله فيسلحها ويحميها كما مسح
هذا البيت

من راقب الناس لم يطر عيافته * وفار بالطيأت العاتكة الهيج

لحمه

من راقب الناس مات عفا * وفار بالدة الحبور

يلج فيه شارا مصب وأهم ألا يدخل طيه ولا يحمده مادام حيا ، فاستنفع اليه بكل صديق حتى رمى روحه
وقته فحسرة كانت يده . وكان صديقا لاراهيم الموصلي المشهور ولأبي العتاهية . وكان يمدح البرامكة
وخصوصا الفضل بن يحيى . توفي سنة ١٨٦ هـ . ونجد ترجمته في الأمان ح ٢١ ص ١١٠ وار حلكاف

لما قال بشار قصيدته الميمية في عمر بن العلاء وهي التي يقول فيها :
 اذا نبهتك صمات الأمور * فنبه لها عمرا ثم تم
 فقي لا يبيت على يمنة^(١) * ولا يشرب الماء إلا بدم

صت بها مع سلم الى عمر بن العلاء، فوافاه، فأنشده إياها، فأمر لبشار بمائة ألف درهم، فقال له سلم : ان حادمتك - يعني عسه - قد قال في طريقه فيك قصيدة، قال : فإليك لهاك ! قال : تسمع ثم تحكم، قال : هات، فأنشده :

قد هزنى الداء ما لي دواء * بما ألقى من حسان النساء
 قلب صحيح كت أسطوبه * أصح من سلمى بداء حياء
 أناسها يسك وى طريقها * يحجروما لي غيرها من دواء
 وعدتي وعدا فأوفي به * هل تصلح الخمر إلا بماء

ويقول فيها :

كم كثرية قد مسني صرها * ناديت فيها عمر بن العلاء
 فأمر له عشرة آلاف درهم، فكانت أول عناية سيدة وصلت اليه .

ومن قوله يرثي بأقونة بنت المهدي :

أودى بأقونة ريب الزمان * مؤنسة المهدي والخيزران
 لم تطلو الأرض على مثلها * مولودة حسن لها والدادان
 فأقون يا بنت إمام المهدي * أصبحت من زينة أهل الحان
 بكت لك الأرض وسكانها * في كل أنفي بين لائس وحان

دخل سلم على الفضل بن يحيى في يوم يروز والهدايا بين يديه، فأنشد :

أمن رح نسائه * وقد أقوت منازل
 قلبي من هوى الأطلا * يا حب ما يزائله

رَوَيْدُكُمْ عَنِ الْمَشْعُو * بِ إِنْ الْحَتَّ قَاتِلُهُ
 لَلْأَيْلُ صَدْرِهِ تَسْرِى * وَقَدْ نَامَتْ عَوَازِلُهُ
 أَحَقُّ السَّائِسِ بِالْتَفْضِيهِ * لَمْ مِنْ تُرْحَى فَوَاصِلُهُ
 رَأَيْتُ مَكَارِمَ الْأَحْلَا * قِ مَا صَحَّتْ حَمَائِلُهُ
 فَلَسْتُ أَرَى قَتَى وَ النَّا * سَ إِلَّا الْعَصْلُ فَاصِلُهُ
 يَقُولُ لِسَانُهُ حَيْرًا * تَصْعَلُهُ أَمَامِلُهُ
 وَمَنْهَا يَرْجَحُ مِنْ حَيْرٍ * وَإِنْ الْعَصْلُ فَاعِلُهُ

وكان ابراهيم الموصلى وابنه إسحاق حاضرين، فقال لإبراهيم كيف ترى وتسمع قال .
 احسن مرئى وسموع ، وصل الأمير أكثر منه ، فقال . حدوا جميع ما أهدى الى اليوم
 فاقتسموه بينكم أطلاقاً إلا ذلك الثمنال ، إلى أريد أن أهديه اليوم الى دنانير ، ثم قال .
 لا واقه ما هكنا تعمل الأحرار ، يقوم ويندع اليهم ثم يهديه ، فقوم بالنى ديار ، حملها
 الى القوم من بيت ماله واقسموا جميع الهدايا بينهم .

كان المهدي يعطى مروان وسلمنا الحاسر عطيه واحده ، فكان سلم يأتى باب المهدي
 على البرذون القاريه ، قيمته عشرة آلاف درهم بئرج ولحام مصصين . ولأسه الحر
 والوثى وما أشبه ذلك من الثياب العاليه الأثمان ، ورائحه المسك والطيب والعاليه مروج
 منه ، ويغنى مروان س أى حفصه عليه فروكل وقيص كرايس وعمامة كرايس وخفاكل
 وكساء غليظ ، وهو مئتن الرائحه ، وكان لا يأكل اللحم حتى يقرم اليه بخل ، فإدا قرم أرسل
 علامه واشترى له رأساً فأكله ، فقال له قائل : أراك لا تأكل إلا الرأس ، قال نعم أعرف
 سعره فآمن حياته العلام ولا اشتري لحمًا يطبخه فإكل منه ، والرأس آكل منه ألوانا : آكل
 من عيينه لوناً ومن علفصته لوناً ومن دماغه لوناً .

(١) نصير . (٢) الكرايس : جمع كرامس وهو القطر . (٣) أى حمارو كثير الصوف .
 طيله . (٤) الطسة . أصل الساد .

كان سلم قد بُلي بالكيماء، فكان يذهب بكل شيء له باطلاً، فلما أراد الله عز وجل أن يصنع له عَرف أن باب الشام صاحب كيماء عجيباً، وأنه لا يصل إليه أحد إلا ليلاً، فسال صه، فذُلوهُ عليه . قال : فدخلت إليه الى موضع معور^(١)، فدفقت الباب فخرج إلى، فقال : من أنت ما فاك الله؟ فقلت : رجل معجب بهذا العلم؛ قال : فلا تشهرني فإني رجل مستور إنما أعمل القوت، قلت : إني لا أشتريك إنما أقتبس منك، قال : فاكتم ذلك، وبين يديه كوز شبيه صغير^(٢) فقال لي : اقلع عُرْوته، فقلعته، فقال : اسبكها في البوتقة^(٣)، فسبكته، فأنخرج شيئاً من تحت مصلاه فقال : دُرّه عليه، فعملت، فقال : أعرسه، فافرسته، فقال : دعه معك، فاذا أصبحت فأنخرج فيه وعُد إلى . فأرحته الى باب الشام فبعت المتال أحد وعشرين درهماً ورجعت إليه فأحبرته، فقال : اطلب الآن ما شئت؛ قلت : تُفيدني؟ قال : بحسنة درهم على ألا تُعلمه أحداً، فأعطيته وكتب لي صفة فانتحيتها فاذا هي باطلة، فعدت إليه، فقبل لي . قد تحوّل وإذا عُرْو الكوز الشبه من ذهب مركبة عليه، والكوز شبه، ولذلك كان يدخل إليه من يطله ليلاً ليحى عليه، فانصرفت وطلت أن الله عز وجل أراد في حيرا وأن هذا كله باطل .

قال أبو المستهل : دخلت يوماً على سلم واذا بين يديه قراطيس فيها أشعار يرى ببعضها أم جعفر، وبعضها جارية غير مسماة، وبعضها أقواماً لم يموتوا، وأم جعفر يومئذ باقية؛ فقلت له : ويحك ما هذا؟ فقال : تحدثت الحوادث فيطالوننا بأن تقول فيها ويستعملوننا ولا يجهل بنا أن تقول خير الجيد، فبعد لم هذا قبل كونه، فمضى حدث حادث أظهرنا ما قلناه فيه قديماً على أنه قيل في الوقت .

دخل سلم على الرشيد فأنشده : * سَيِّ الأَحَبَّةَ بِالسَّلام * فقال الرشيد : حيّاهم الله بِالسَّلام؛ فقال سلم : * أَهْلِي وَدَارِجِ أُمِّ مَقَام * فقال الرشيد : حيّاهم الله على أَى ذلك كان، فأنشده :

لَمْ يَتَّقِ مِنْكَ وَمِنْهُمْ * غَيْرَ الْجُلُودِ عَلَى الْعِظَامِ

(١) معور : مخوف . (٢) الشبه : النحاس الأضر . (٣) البوتقة : الوعاء الذي يذيب فيه الصانع .

فقال له الرشيد : بَلِّ مَكَ، وأمر بإحراجه ، وتطيُّرْ منه ومن قوله ، فلم يسمَعْ منه باقى الشعر ولا أتابه بشيء .

استوهب اصحابُ الموصل من الرشيد تركَة سَلَمَ ، وكان قد مات عن عير وارث ، فوهبها له قبل أن يسلمها صاحبُ الموارث ، فحصل منها على خمسين ألف دينار ، وروى أنه رُفِعَ الى الرشيد أرب سَلَمًا قد تَوَقَّى وحلَّفَ مما أحده مه حاصَة ومن زُبَيْدَة ألف ألف وخمسمائة ألف درهم سوى ما حلَّفه من عقارٍ وضيَرِه مما اعتَقَدَه قَدِيمًا ، فقبَّضه الرشيدُ وتظَلَّمَ اليه مَوَالِيه من آل أبي بَكْر الصَّدِّيقِ رضوان الله عليه ؛ فقال : هذا حادى ونذى ، والذي حلَّفه من مالى فأنا أحقُّ به ، فلم يُعْطِهِمْ إلا شَيْثًا يسيرًا من قديم أملاكه .

٩ - رِبِيعَةُ الرَّقِيِّ^(١)

كان مُقْطَعًا عن الحضارة ، بعيدًا عن مجالسة الخلفاء ، فأنجل ذِكْرُهُ بسبب ذلك ؛ لكنهم كانوا يستقيمونه اليهم . وأوّل من فعل ذلك المَهْدِيُّ ، فدحه ونال جَوَائِزَهُ ، وكان آن المَعْتَرِي ربيعة أشعرَ عَزَلًا من أبي نُؤاس ، لأنّ في عَزَلِ أبي نُؤاس برَدًا كثيرًا ، وعَزَلُ هذا سليمٌ مند سَهْل ، ولذلك فإن شهرته ملّفت إلى ملاط الخليفة . وكان يمدح غير الخلفاء ويألّ جوائِزهم ويؤد إلى بلده ، وإن قصر أحدٌ في إعطائه هَمَاه ، وله في ذلك حديثٌ مع العاص بن محمد بن علي من أمراء بني العاص .

ومى قوله يمدح يزيد بن حاتم المَهْلِيُّ ويجوز يزيد بن أسيد السُلَمِي :

حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرِي مَشْوِيَةً * يَمِينُ أَمْرِي آلِيهَا غَيْرَ أَمِّ
لَتَشْتَانِ مَا بَيْنَ الْيَرِيدَيْنِ فِي الدُّنَى * يَزِيدُ مُسْلِمٌ وَالْأَعْمَرُ ابْنُ حَاتِمٍ
يَزِيدُ مُسْلِمٌ سَالِمُ الْمَالِ ، وَالْفَتَى - أَحُو الْأَزْدِ لِلْأَمْوَالِ غَيْرُ مُسَالِمٍ
فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيّ - إِتْلَافُ مَالِهِ * وَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيّ - جَمْعُ الدَّرَاهِمِ
مَلَا يَحْسَبُ التَّمَتُّمُ أَنِّي هَجَوْتُهُ * وَلَكِنِّي فَصَلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

قال رجلٌ لربيعه : يا أبا أسامة ، ما حَمَلَكَ عَلَى أَنْ هَجَوْتَ رَجُلًا مِنْ قَوْمِكَ وَفَصَلْتَ عَلَيْهِ رَحْلًا مِنَ الْأَزْدِ ؟ فقال : أَخْبِرْكَ ، أَمَلْتُ فَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا دَارِي ، فَرَهْنْتُهَا عَلَى خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَرَحَلْتُ إِلَيْهِ إِلَى أَرْمِينِيَّةٍ ، فَأَطْلَعَنِي بِمَكَانِي وَمَدَحَنِي ، وَأَقْبَتُ عَنْده حَوْلًا ، فَوَهَبَتْ لِي

(١) هو أبو أسامة ربيعة بن ثابت بن موالٍ سليم ، وبكى أما شبابة ، وكان يرل الزرة ، وها مولده ومشوّه ، فأغصمه المهدي إليه ، فدحه صدقة قصائد وأثابه عليها ثوابًا كبيرًا ، وهو من المكثرين المهديين ، وكان صريحا واثما أحمل ذكره وأسقطه عن طفته عدده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء ومع ذلك فما عدم مصلًا مقدما له . وتحد أحاده في الأناجى (ح ١٥ ص ٣٨) ونزارة الأدب للضدادى (ح ٣ ص ٥٥) .

(٢) أى لا استثناء فيها .

(٣) هو يزيد بن أسيد (صم المهره) من بيت بن سليم ، وأحو الأزد هو يزيد بن حاتم بن ربيعة بن المهلب .

خمسمائة درهم، فحملتُ وصرتُ بها الى منزلي، فلم يبقَ معي كبير شيء، فزلتُ في دار يركاء، فقلتُ : لو أتيتُ يزيدَ بنَ حاتم، ثم قلتُ : هذا ابن عتي فعل بي هذا الفعل فكيف بغيره ! ثم حملتُ نفسي على أن أتياه، فأعلم بمكاني، فركبني أسهرا حتى صبحرتُ، فأكرمتُ نفسي من الجمالين . وكنتُ بيتاً في رُقعة فالتقيته في دهليزه، والبيتُ :

أَرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لَهُ رَاجِعًا * بِحُجَى حُبِّي مِنْ يَزِيدَ بْنِ حَاتِمٍ

فوقعت الرُقعة في يد حاجبه، فأوصلها اليه من غير علمي ولا أمرى، فبعث حنفي، فلما دخلتُ عليه قال : هيه أُنشدني ما قلت، فسمعتُ، فقال : والله لئن شِدْتُ، فأُنشدته، فقال : والله لا ترجع كذلك، ثم قال : أُنزِعُوا حُفَيَّه، فَنَزِعَا عَشَاهُمَا دَنَائِرَ وَأَمْرًا لِي بِعِلْمَانٍ وَجَوَارٍ وَكُمَى، ألا ترى لي أن أمدح هذا وأهجو ذاك ؟ قلتُ : بلى والله، وسارِ شعري حتى بلغ المهدى، فكان سبب دخولي إليه .

قيل لأبي زَيْد النَّحْوِيُّ : إن الأصمعي قال : لا يقال شَتَانٌ ما بينهما، وإنما يقال : شَتَانٌ ما هما، وأُنشد قول الأعشى : شَتَانٌ ما يَوْمِي عَلَى كُورِهَا . فقال : كَذَبَ الْأَصْمَعِيُّ، يقال : شَتَانٌ ما هما وشَتَانٌ ما بينهما، وأُنشد لربيعة الرقي : « لَشَتَانٌ مَا بَيْنَ الْبَرِيدَيْنِ » وفي استنهاد مثل أبي زيد على دَفْعِ قول مثل الأصمعي بشعر ربيعة كَفَايَةُ لَهُ في تمصيله . أمتدح ربيعة العباس بن محمد بن علي بقصيدة لم يُسبق إليها حسناً، وهي طويلة، يقول فيها :

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ * قُلْ «لَا» وَأَنْتَ تُحَلِّدُ مَا قَالَهَا

مَا إِنْ أَعُدَّ مِنَ الْمَكَارِمِ خَصْلَةٌ * إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ حَالَهَا

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَسَايَرُوا فِي بِلَدِهِ * كَالْوَاكِوَاكِبِهَا وَكَتَ هَلَالَهَا

إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَرَلْ مَعْصُولَةً * حَتَّى حَلَّتْ بِرَاحَتِكَ عِقَالَهَا

فبعثتُ اليه بدينارين، وكان يُقَدَّرُ فيه ألفين، فلما نظر الى الدينارين كاد يُبْحَنَ عِقَالًا وقال للرسول : حُذْ هَذَيْنِ الدِّينَارَيْنِ فَهُمَا لَكَ عَلَى أَنْ تَرُدَّ الرُّقْعَةَ إِلَيَّ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي الْعَبَّاسُ، ففعل الرسول ذلك، فأخذها ربيعة وأمر من كتب في ظهرها :

مدحتك مدحة السيف المحل * لتجري في الكرام كما جريت
 ههنا مدحة دهمت ضياعاً * كدبت عليك فيها وأقريت
 فانت المرء ليس له وفاء * كافي إن مدحتك قد زينت

ثم دفعها الى الرسول وقال : صعدني الى الموضع الذي أخذتها منه ، فردها الرسول ، فلما كان من الغد أحدها العباس فنظر فيها ، فلما قرأ الأبيات عصب وقام من وقته فركب إلى الرشيد ، وكان أثيراً عنده يُجمله ويقدمه ، وكان قد هم أن يحط به إليه آتته ، فرأى الكراهة في وجهه ، فقال : ما شأنك ؟ فقال : هاني ربيعه الرق ، فأحصر ، فقال له الرشيد : تهجو عني وأثر الخليلي عدي ؟ لقد هممت أن أصرب عققك ، فقال : والله يا أمير المؤمنين لقد مدحتني قصيدة ما قال مثلها أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء ، ولقد مالعت فيثناء وأكثر في الوصف ، وإن رأيت أمير المؤمنين أن يأمره بإحصارها ! فلما سمع الرشيد ذلك منه سكن غصبه وأحس أن ينظر الى القصيدة ، فأمر العباس بإحصار الرقعة ، فتلأ على العباس ، فقال له الرشيد : سألتك بحق أمير المؤمنين ألا أمرت بإحصارها ، فلم العباس أنه قد أخطأ وقيل ، فأمر بإحصارها ، فأحصرت ، فأخذها الرشيد وإذا فيها القصيدة فيها ، فاستحسها واستحداها وأغضب بها وقال : والله ما قال أحد من الشعراء في أحد من الخلفاء مثلها ، لقد صدق ربيعة وبر ، ثم قال للعباس : يم آتته عليها ؟ فسكت العباس وتغير لونه وجرح ريقه ، فقال ربيعة : آتاني عليها يا أمير المؤمنين بدياري ، فتوهم الرشيد أنه قال ذلك من الموحدة على العباس ، فقال : بحياتي يا رقي نك أمانك ؟ قال : وحياتك يا أمير المؤمنين ما آتاني عليها إلا بدياري ، فغضب الرشيد غضباً شديداً ونظر في وجه العباس وقال : سوءة لك ! أي حال قدمت بك عن إتابته ؟ الأموال ؟ فوافقه لقد مؤثك جهدي ، أم انقطع المادية عنك ؟ فوافقه ما أقطعت ، أم أصلك ؟ فهو الأصل لا يُدانيه شيء ، أم نفسك ملئت ذلك بك حتى فصحت آمانك وأحدأك وفصحتني

وَمَسَكَ ٥ فَكَسَّرَ الْبَاسُ رَأْسَهُ وَلَمْ يَبْقَ ، فَقَالَ الرَّشِيدُ : يَا عَلَامُ ، أُعْطِ رِبْعَةَ ثَلَاثِينَ أَلْبَ دَرَاهِمَ وَحِلْمَةً وَأَحْمِلْهُ عَلَى غَنَلَةٍ ، فَلَمَّا حُمِلَ الْمَالُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَلِيسَ الْحَامِلَةِ قَالَ : بِحَيَاتِي يَارِقَ لَا تَذْكُرْهُ فِي شِعْرِكَ لَا تَعْرِضُنَا وَلَا تَصْرِحُنَا ، وَقَرَّرَ الرَّشِيدُ عَمَّا كَانَ هَمُّهُ بِهِ أَنْ تَرْفُوحَ إِلَيْهِ ، وَظَهَرَ لَهُ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَفَاءٌ كَثِيرٌ وَأَطْرَاحَ لَهُ .

قال أبو بشر : كُنْتُ حَاضِرًا رِبْعَةَ الرِّقَى يَوْمًا وَحَاضَتْهُ أَمْرَأَةٌ قَالَتْ : تَقُولُ لَكَ مَلَانَةٌ إِنْ بَنَتْ مَوْلَايَ مَحْمُومَةً فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ لَهَا عَوْدَةً فَأَفْصِلْ^(١) ، فَقَالَ أَكُنْتُ لَهَا أَمَا نِشْرُ هَذِهِ الْعَوْدَةِ :

يَقُولُوا يَقُولُوا نَاسِمُ الْهَلَى الَّذِي • لَا يَعْزِضُ السُّقْمَ لِمَنْ قَدْ شَقِيَ
أَعْيِدُ مَوْلَانِي وَمَوْلَاتَهَا وَأَبْنَاهَا بِعَوْدَةِ الْمُصْطَفَى
مَنْ شَرًّا مَا يَعْزِضُ مِنْ عِلَّةٍ • فِي الصَّبْحِ وَاللَّيْلِ إِذَا أَسْدَمَا

فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَبَا ثَابِتَ ، لَسْتُ أَحْسِنُ أَنْ أَكُنْتُ يَقُولُوا يَقُولُوا ، فَكَيْفَ أَكْتُبُهَا ٥ قَالَ أَنْتَضِعَ الْمِسْدَادُ مِنْ رَأْسِ الْقَلَمِ فِي مَوْصِعَيْنِ حَتَّى يَكُونَ كَالْقَعْتِ^(٢) ، وَأَدْخَعَ الْعَوْدَةَ إِلَيْهَا فَمِنْهَا نَاعَةٌ ، فَعَمَلْتُ وَدَعَمْتُهَا إِلَيْهَا ، فَلَمْ تَلَسْتُ أَنْ حَامَتِ الْجَارِيَةُ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ صَحَّكَ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَاجِبُونَ مَا فَعَلْتَ بِنَا ! كَيْدًا مَنَصِّحَ مَا صَعَتَ ! قَالَ • هَا أَصْبَحَ ! أَشَاعَرُ أَمَا أَمْ صَاحِبَ تَعَاوَيْدَ ! •

وَأَتَمَّقَ لِلزُّقَى أَيْضًا مِثْلَ ذَلِكَ مَعَ مَعْنَى سَازِنَدَةٍ ، وَقَدْ لَقِيَهُ فِي بَعْضِ قَدَمَاتِهِ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَدَحَاهُ ، فَلَمْ يَنْهَشْ لَهُ ، فَهَجَّاهُ بِقَصِيدَةٍ مَطْلُوعِهَا :

مَعْنُ يَا مَعْنُ يَا بَابَ زَائِدَةِ الْكَلْبِ الَّذِي فِي الدَّرَاعِ لَا فِي النَّارِ
لَا تَهْتَاجِرُ إِذَا نَحَرْتَ بَابَا • إِنَّ وَأَنْخَرْتَ بَعْمَكَ الْحَوْفَزَانَ^(٣)

(١) العودة • الرِّقَةُ : يَقِيهَا الْإِنْسَانُ مِنْ مَرِّهِ أَوْ حَرِّهِ أَوْ مَرَصٍ • (٢) القَعْتُ الصَّاقُ الْيَسِيرُ بَعْدَهُ الزَّاقُ فِي الْعُقْدَةِ عِنْدَ الرِّقَةِ •

(٣) الحَوْفَزَانُ هُوَ الْحَارِثُ فِي شَرِيكِ الثَّيْبَانِ ، سَمِيَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْسُ مِنْ عَاصِمِ الثَّيْبِ حَرَّهُ بِالرَّجْلِ حِينَ حَافَ أَنْ يَهْوِيَهُ ، وَقَدْ هَرَّ ذَلِكَ سَوَارِسُ حَانَ الْمُقَرَّى فَقَالَ
وَمِنْ حَرِّمَا الْحَوْفَزَانِ بَلْمَةً • سَقَتْهُمَا مِنْ دَمِ الْحَوْفِ أَشْكَالًا

ومن غزله أبياتٌ يُعنى بها، وهى :

وَرَزَمُ أَنَّى قَدْ تَبَدَّلَتْ خُلَّةٌ^(١) * سِوَاهَا وَهَذَا الْبَاطِلُ الْمُنْقَوِلُ
لَمَّا أَقْبَهُ مِنْ مَاعِ الصَّدِيقِ غَيْرِهِ * فَقَالَتْ نَعَمْ حَاشَاكَ إِنْ تَكُ تَفْعَلُ
سَتَصْغِرُ إِنْسَانًا إِذَا مَا صَرَمْتَنِي * بِحَبِّكَ فَانْظُرْ مَدَى مَنْ تَتَلَّ

(١) الحلة الخلية .

١٠ - السرقاقي^(١)

كان سهّل الشعر مطبوعاً ، وكان مُنْقَطِعاً إلى آل بَرَمَك ، مُسْتَفْتِياً بهم عن سواهم ،
وكانوا يَصُولُون به على الشعراء ، ويُرَوِّون أولادهم أشعاره ، ويدُونونها القليل والكثير منها ،
تَمَصُّباً له ، وحَفَظاً لخدمته ، وتَوْبِياً باسمه ، وتَحَرِيكاً لِنشاطه ، حَفِظَ ذلك لهم . فلما نُبِكُوا
صار إليهم في حَسَبِهِمْ ، فأقام معهم مئةَ أيامهم يُنْشِدُهُمْ وُسْابِرَهُمْ حتى ماتوا ، ثم رَقَاهُمْ
فأكثَر من رثائهم ، فمن ذلك قوله في جعفر :

كَمْ هَاتِفٍ بِكَ مِنْ بَاكِ وَبَاكِه * يَا طَيْبَ الصَّبَفِ إِذْ تُدْعَى وَلِلْجَارِ
إِنْ يُعْتَمِ الْقَطْرُ كَسَتْ الْمَرْنَ بَارِقُهُ * تَلْعُ الدَّانِيرُ لَا مَا خَيْلَ السَّارِي

وقوله :

لَعَمْرُكَ مَا مَالُوتَ عَارٌ عَلَى الْفَتَى * إِذَا لَمْ تُصْنَهْ فِي الْحَيَاةِ الْمَعَارِ^(٢)
وَمَا أَحَدٌ حَيٌّ وَإِنْ كَانَ سَالِياً * نَأْسَلُ مَا عَيْتَهُ الْمَقَابِرُ
وَمَنْ كَانَ جِئاً يُحْدِثُ الدَّهْرُ حَازِغاً * فَلَا تَدَّ يَوْمًا أَنْ يَرَى وَهُوَ صَارِ
وَلَيْسَ لَذَى عَيْشٍ عَنِ الْمَوْتِ مُقَصِّرٌ * وَلَيْسَ عَلَى الْأَيَّامِ وَالنَّهْرِ غَايِرِ
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ حَدِيدٍ إِلَى السَّلَى * وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا إِلَى اللَّهِ صَائِرِ
فَلَا يُبْعِدُنَا اللَّهُ عَنِّي جَعْفَرَا * يَرُوحِي وَلَوْ دَارَتْ عَلَى الدَّوَابِرِ
فَالَيْتُ لَا أَنْتُكَ أَبْجِكَ مَا دَعَتْ * عَلَى قَنْبٍ وَرَقَاهُ أَوْ طَارَ طَائِرِ

ومن ذلك قوله لما صُلب الفضل بن يحيى وأجتاز به الرقائذ : وهو مصلوب على

الجلدع ، فوقف يبكي ثم قال :

(١) هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش ، وهو من أهل البصرة . توفي سنة ٥٢٠ هـ . وتجد ترجمته

في الأغاني (ج ١٥ ص ٣٥) وروايات الوفيات (ج ٢ ص ١٢٥) والشعر والتعريف (ص ٥١٥) .

(٢) المعابر : المعايير .

أما والله لولا خَوْفُ وائش * وعَيْنُ الخليفة لا تَسَامُ
لَطَفْنَا حولِ حَذَمِكَ وَأَسْتَلَمَا * كما للسايس ما حَمَرَأْسُ عِلَامُ
وما أَهْرَتْ قَبْلَكَ يَابْنَ يَحْيَى * حُصَامًا حَتَفَهُ السَيْفُ الحُسَامُ
على اللَّدَاتِ والدِّيا جَمِيعَا * ودولةِ آلِ بَرَمَكِ السَّلَامُ

مكتب أهل الأخبار بذلك إلى الرشيد، فأحصره فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال :
يا أمير المؤمنين كان إلى مُحْسِنًا ، فلما رأيته على الحال التي هو عليها حرّكني إحسانه فما ملكْتُ
نفسى حتى قلتُ الذى قلتُه ، قال : ولم كان يُحرى عليك ؟ قال : ألف دينارى كل سنة ،
قال : إنا قد أصغماها لك .

ومن قوله يَصِفُ حَارِيَّةَ :

صَعَاتُ حُسْنِ أَوْزَانِ القَلْبِ لَوَعَةٌ * تَصَرُّمُ وِ أَحْشَاءِ قَلْبِ مُتِمٌّ
تُمَثِّلُهَا فِى أَمْنِي فَأَتَقْنَى * عليها طَرَفُ النَّاطِرِ الْمُتَقَسِّمِ
يُجَلِّلُنِي حُبِّي لَهَا فَوْقَ طَائِفَى * من الشوق دَأْبَ الحائِزِ الْمُتَقَسِّمِ

١١ - أبو العتاهية^(١)

قال أحمد بن زهير : سمعت مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ،
فقلت له : ماى شئ أستحق ذلك عندك ؟ فقال بقوله :

تعلقتُ بآمالٍ • طوالِ أىَّ آمالٍ
وأقلتُ على الدنيا • مُلعا أىَّ إقبالٍ
أيا هذا تجهزاً • عِراقاً لأهلٍ والمال
فلا تدم من الموت • على حال من الحال

ثم قال مصعب : هذا كلام سهل حق لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقتربه
الجاهل . وكان الأصمعي يستحسن قوله .

(١) هو أبو إسحاق إسماعيل بن العباس بن سويد ، أطلع أهل زمانه شعرا وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً ،
وأسرعهم بديهة وأرتجالاً ، وأوّل من صح للشعراء مات الوعط والزهد في الدنيا والهي عن الاعتزاز بها ، وأكثر
من الحكمة .

ولد بين القريسة ١٣٠ هـ وشأ بالكوفة في عمل أهلها . وكانوا مائة حرار ، إلا أنه وبأهمسه عن عمله وقال
الشعرى صاه وانترح لمعه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه «لوشئت أن أحمل كلامي كله شعرا لعلت»
طاع صبه وسلك طريق علماء الكوفة . ثم قدم بغداد وندح المهدي وتعرف بمص حدم فصر الخلافة
وحواربه فشق منى فتاة تدعى عنة ، ولما يش بها لما عبا بمص النش . ودرس كثيراً من مذهب المتكلمين
والشيعة والخبرية والزهاد فكان يسلك كل مذهب منها مدة ثم ينقل عنه إلى الآخر حتى احتار له من كل ذلك
عقيدة معقدة أصعب به إلى العادة والزهد في الدنيا قولاً ومباشرة على إبطال منه في حب المال وجمع له
والجمل به على الأهل والولد والخدم .

ولم يأت عصر الرشيد حتى أصرب من البرل وقصر قوله على الزهد في الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ، وهو في حلال
ذلك يمدح الخليفة وملك الدولة ويأخذ حوائزهم ، ثم عرض له حال امتنع منها من قول الشعر اللة حتى حسه الرشيد
لعدم تلجه ما اقترحه عليه من القول به ثم أطلقه بعد أن أحاط بطلبه ، وعاد إلى قول الشعر على عادته فيه وترك الغزل
والهجاء ، وعن على ذلك مدة الرشيد والأميين وأكثر أيام المأمون . توفي سنة ٢١١ هـ

وله ديوان مطبوع في بيروت سنة ١٨٨٧ وتحدد أسماؤه في الأغاني ج ٣ ص ١٢٦ وح ٦ ص ١٨٦
وح ٨ ص ٢٤ وأن ظلكان ج ١ ص ٧١ وطبقات الشعراء ص ٤٩٧ والجهري ص ١٦٠ .

أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنِّي مَا * حَيْكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ * سَاعَةً بَجَّكَ فُؤُوهُ

وَأَنْشُدْ لَهُ سَلَّمَ الْخَافِرَ :

سَكَنُ بَيْتِي لَهُ سَكْنٌ * مَا يَهْدِي يُؤْذِنُ الرَّمْ
نَحْصِي دَارَ يَحْرُمًا * يَبْلَاهَا بِاطْقِ لَيْسَ
دَارُ سُوءٍ لَمْ يَلْمُ قَرْحٌ * لِأَمْرِي فِيهَا وَلَا حَرَنَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَهْشَا * كُلُّهَا بِالمَوْتِ مُرْتَهَنَ
كُلَّ هَسٍ عِنْدَ مَيْتَتِهَا * حَطَّهَا مِنْ مَالِهَا الْكَفَنَ
إِنْ مَالُ الْمَرْءِ لَيْسَ لَهُ * مِثْلُهُ إِلَّا ذِكْرُهُ الْحَسَنَ

وقال صد الله بن عبد العزيز العُمري : أشعرُ الناس أبو العتاهية حيث يقول :

مَا حَصَرَ مِنْ حَمَلِ التُّرَابِ مِهَادَهُ * أَلَّا يَنَامَ عَلَى الْحَرِيرِ إِذَا قَبِعَ

وقيل لأبي العتاهية : كيف تقول الشعر ؟ قال : ما أردتُه قط إلا مثلي ، فأقول
ما أريد وأترك ما لا أريد . وكان يقول : لو شئتُ أن أجعل كلامي شعرا كله لفعلتُ .

حُمُّ الرِّشِيدِ فَصَارَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ بَرْقَةً فِيهَا :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ كَيْفَ أَنْتَ لَمْ * مَا تَوَا إِذَا مَا أَيْتَ أَجْمَعُهُمْ
حَلِيقَةُ اللَّهِ أَنْتَ تَرْتَحُّ بِالْأَسَا * إِسْ إِذَا مَا وَزِنْتَ أَنْتَ وَهْمُ
قَدْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ وَهْكَ يُدْ * نَحْنُ إِذَا مَا رَأَوْهُ مُعْصِدُهُمْ

فَأَنْشَدَهَا الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الرِّشِيدَ ، فَأَمَرَ بِإِحْصَارِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ ، هَذَا زَالِ يُسَامِرُهُ وَيُحَدِّثُهُ
إِلَى أَنْ يَبْرِي ، وَوَصَلَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ السَّبَبِ مَالٌ جَلِيلٌ . وَقَدْ حَدَّثَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ بِهَذَا
الْحَدِيثِ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ بِالْمَجْلِسِ : مَا هَذَا الشَّعْرُ بِمُسْتَحَقٍّ لِمَا قُلْتَ ؟ قَالَ : وَلَمْ ؟ قَالَ :
لَأَنَّهُ ضَعِيفٌ ، فَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ ، وَكَانَ أَحَدَ النَّاسِ ، الضَّعِيفُ وَاللَّهُ عَقْلُكَ لَا شِعْرَ

أبي العتاهية، ألابي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر! فواقه ما رأيتُ شاعرا قط أطلع
ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا صرنا من السحر، ثم أنشد له :

قطعتُ منك حائل الآمال : وحططتُ عن ظهر المعلى رحا
ويستُ أن أبقى لشيء نلتُ ثم : ما فيك يا دنيا وأب يبق لي
فوجدتُ برد اليأس بين حوانجبي * وأرحتُ من حلٍّ ومن ترحال
يأبها البطر الذي هو من عدي : في قبره متمزق الأوصال
حذفتُ المنى عنه المتعمر والهدى * وأرى مُسالك طويلا الأذيال
جبلُ اس آدم في الأمور كثيرة * والموتُ يقطع جيلة المحتال
مال أراك لحز وجهك مخلقا * أحلفتُ يا دنيا وجُوه رجال
قيستُ السؤال فكان أعظم قيمة * من كل عار فيه جرتُ بسؤال
لإذا ابتليتُ ببدل وجهك ما تلا : فاسأله للتكريم المفضل
وإذا خشيتُ تعذرا في بلده * فاشدد يدك بساجل الترحال
وأصبر على غير الزمان وإنما * فرجُ الشدائد مثل حلِّ عقال

ثم قال للرجل : هل تعرف أحدا يُحسن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال له الرجل :
يا أبا عبد الله، جعلني الله فداك، إني لم أزد عليك ما قلت، ولعكس الزهد مذهبُ
أبي العتاهية، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد؛ فقال : أما ليس الذي يقول والمديح :

وهارونُ ما مأزُن يَسْفِي من الصدى * إذا ما الصدى بالرقى عصتُ حابره
وأوسطُ بيت في قريش لبيته * وأقولُ عز في قريش وآخره
وزحفُ له تحكي البروق سيوفه * وتحكي الرعود القاصفات حوافره
إذا حيتُ شمس النهار تفصاحكتُ * إلى الشمس فيه يعضه ومغافره
إذا نيكب الإسلام يوما بكبة * فهارونُ من بين البرية نازه
ومن ذافنوت الموت والموتُ مدرك * كنا لم يفتُ هارونُ ضدُّ ينافره

تعلّص الرجل من شرّ أبى الأعرابي أن قال له . القول كما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه .

قال ثُمّامة بن أنس أشدّ أبو العتاهيه .

إذا المرء لم يُعَيِّقْ من المال فسَهْ * تملكه المأل الذي هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أبا مُعَيِّقُ * وليس لي المأل الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادِرْ به الذى * يَحِقُّ وإلا استهلكته مَهالِكُه

فقلت له : من أين قصبت بهذا ؟ فقال . من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما لك من مالك ما أكلت فأفقت أو لبست فألغت أو تصدقت فأمضيت " . فقلت له : أتؤمن . بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال : نعم ، قلت : لم تحبس صدك سماعاً وعشرين بدّره في دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تركي ولا تقسمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال : يا أبا معن ، والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس ، فقلت : ويم تزد حال من أفقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشتري القمح إلا من عبد إلى عيده ؟ فترك جواب كلامي كله ، ثم قال لي . والله لقد اشتريت في يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال هذا القول أضحكى حتى أذهلى عن جوابه ومُعَانَتَه ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للإسلام .

زار مرة عمرو بن مسعدة فحجب عنه ، فلم يزل يمشي ، فاستطاع عمرو ، فكتب إليه :

كسّلتى الياش عنك لما أَرَّ * قع طروقك إليك من كسّيل
إني إذا لم يكن أحي ثِقَّةُ * قطعتُ منه حبال الأمل

وكتب إليه مرة أخرى :

مألك قد حلت عن إخالك وآس * تنذات يا عمرو شبيمةً تكدّه
إني إذا البلب تاه حاجبه * لم يك عندي في هجره يظره^(١)

لستم رُحُونُ الحساب ولا * يوم تكوُب السماء مُنْقَطِرُهُ
لكى لدينا كالظَلِّ بِهَجَّتْهَا * سَرِيعةِ الإِقْصَاءِ مُنْشِرُهُ
قد كان وجهى لديك مَعْرِفَةً * فاليسوم أضى حَرًّا من النِّكْرَةِ

جلس المهديّ للشعراء يوما فأدِن لهم ، وفهم بشار وأُتِجِع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار
ويعطيه ، وكان في القوم غير هذين أبو العاتية ، قال أشجع : فلما سمع بشار كلام أبا العاتية
قال : يا أحاسنم ، أهذا ذلك الكوفي الملقَّب ؟ قلت . نعم ، قال : لا جرى الله حبرا من
جمعا معه ، ثم قال له المهديّ : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يُستشد أيضا قلنا ؟ فقلتُ :
قد ترى ، فأنشد .

ألا ما اسبَدَتِي ما لها * أدلّا ما خِمل إذ لافا
وإلا يَقيمَ تَحْتُ وما * حنّت سقى الله أطلافا
ألا إن حاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحسُّ سِرْبالها
مَشَتْ بين حُورٍ قِصارِ الخطا . مُجاذِبِ في المشى أكفالا
وقد أُنْعِمَ الله نَفسِي بها * وأتعب باللَّوم عُدالها

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أحاسنم ! ما أدري من أي أمرية أعجب ، أم صعف ، شعره
أم من تشبيهه بحارية الخليفة وهو يسمع ذلك بأذنه ؟ حتى أتى على قوله :

أنته الخِلافة مُقَادَةٌ * إليه تُخَرَّر أدبالها
لم تَك تَصْلُحُ إلّا له * ولم يك يصلح إلّا لها
ولو رامها أَحَدٌ عِيره * لَزُلْزِلَت الأرض زِلْزالها
ولو لم يُطْعَمُ بات الفلوب * لَمَّا قِيلَ الله أَعْمالها
وإن الخليفة من بُغِيضٍ "لَا" * إليه لِيُيَعِّصُ مَنْ قالها

فقال بشار لأشجع وقد أهرت طرأ : ويحك يا أحاسنم ، أترى الخليفة لم يَطْرَعن فراشه
طرأ لما يأتي به هذا الكون !

ولما آتته منصور بن عمار بالزينة، لأنه لا يذكر في شعره الجثة والدار وإنما يذكر الموت، قال فيه :

يا وأعطَ الناس قد أصحَّتْ مِنْهُمَا * إذ عِبَتْ مِنْهُمُ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا
كالمَلِيسِ التَّوْبَ مِنْ عُرَى وَعَوَزُهُ * للنَّاسِ مَادِيَةٌ مَا لَنْ يُوَارِيَهَا
فَاعْظُمُ الْإِثْمَ مَعَ الشَّرْكِ مَعَهُ * فِي كُلِّ هَسٍّ عَمَّا هَا عَنْ مَسَاوِيهَا
عِرْفَانَهَا بِبُوبِ النَّاسِ تُصِرُّهَا * مِنْهُمْ وَلَا تُصِرُّ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا

وقيل له : زعم الناس أنك زنديق، فقال : والله ما ديتي إلا التوحيد ، فقبل له قل شيئاً يخلصك به عك، فقال :

أَلَا إِنَّا كُلُّنَا مَائِدٌ * وَأَيُّ بَنَى آدَمَ حَالِدٌ
وَبَدْوُهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ * وَكُلُّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَسْمَعِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَتَحَدَّثُ الْوَاحِدُ
وَيُكَلِّ شَيْءٌ لَهُ آيَةٌ * تَكُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وسمع الجاحظ مرة من يشد أربجوزة أى العاتية التى سماها «ذوات الأمثال» حتى أتى على قوله :

يَا لَشَبَابِ الْمَرْحِ النَّصَابِي . رَوَائِحُ الْجَسَدِ فِي الشَّبَابِ

فقال للنشد : قِفْ ، ثم قال : أطروا الى قوله : «روائح الجسد في الشباب» فإن له معنى كعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير، وحير المعاني ما كان القلب الى قوله أسرع من اللسان الى وصفه . وهذه الأربوزة من بدائع أبى العاتية، ويقال : إن فيها أربعة آلاف مثل، منها قوله :

حَسْبُكَ مَا تَتَنَبَّهُ الْقُوْتُ * مَا أَكْثَرَ الْقُوْتَ لِمَنْ يَمُوتُ
الْفَقْرُ فِيمَا جَاوَزَ الْكَفَا * مَنْ آتَى اللَّهَ رَجَاً وَحَافَا
مِ الْمَقَادِيرِ فَلَهُنَّ أَوْ قَدَرٌ * إِنْ كُنْتُ أَخْطَاْتُ مَا أَخْطَا الْقَدَرُ

لكل ما يؤدى وإب قل ألم * ما أطول الليل على من لم يتم
 ما انتفع المرء بمثل عقله * وغير ذنر المرء حس فله
 إب الساد صبه الصلاح * ورب جد حره المزاج
 من جعل التمام عيّا هلكا * مئلك الشر كآيه لكّا
 إب الشات والقراع والحده * مفسدة للره أى مفسده
 بعيك عن كل بيع تركه * يرتب الراى الأصل شكه
 ما عيش من آفته هاقه * نقص عيشا كله مآوه
 يارت من احطط بجهده * قد سرا الله غير حده
 ما تطلع الشمس ولا تبت * إلا لأمر شأنه عجب
 لكل شئ مقدد وحومر * وأوسط وأصغر واكبر
 من لك بالخص وكل ممترخ * وساوس فى الصدر مه تمليج
 وكل شئ لاحق بجومره * أصغره متصل ما كره
 ما زالت الديا لسا دار أدى * ممزوجة الصفو بالوان القدى
 الخير والشر بها أزواج * لدا نتاج ولدا نتاج
 من لك بالخص وليس خص * يثبت بعض ويطيب بعض
 لكل إسان طيعتان * خير وشر وهما ضدان
 لك لو تستنشق الشجيا * وجندة أتن شئ ريحا
 والخير والشر اذا ما عدا * بينهما نور بيد جدا
 عجت حتى عمى السكوت * صرت كاتى حائر مبهوت
 كذا قعى الله فكيف أصح * الصنت إن صاق الكلام أوسع

ومن قول أبي العاتية في الوحدة والتبؤ بالناس :

بَرِمْتُ بالناس وأحلافهم * فَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالْوَحْدَةِ

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لِعَمْرَى وَمَا * أَقْلَهُمْ فِي حَاصِلِ الْعَيْدَةِ

قال الأصمعي : شعر أبي العاتية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى .

كان أبو العاتية لا يهراق الرشيد في سفر ولا حضرا إلا في طريق الحج ، وكان يُجرى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعاون ، فلما قديم الرشيد الرقة ليس أبو العاتية الصوف وتزهّد ، وترك حضور المادامة والقول في الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه لحبس ، فكتب إليه من وقته :

أَنَا الْيَوْمَ لِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَشْهُرُ * يَرُوحُ عَلَى أَلَمٍ مَعَكُمْ وَيَبْكُ

تَذَكَّرَ أَمِينَ اللَّهِ حَقِّي وَحُرْمَتِي * وَمَا كُنْتُ تُؤَلِّبُنِي كَذَلِكَ يَذْكُرُ

لِيَالِي قُدِّي مَكَ بِالْقُرْبِ مَجْلِسِي * وَوَجْهُكَ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَةِ يَقْطُرُ

فَنَ لِي مَالِيسٍ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً * إِلَى بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

فلما قرأ الرشيد الأبيات قال : قولوا له : لا بأس عليك ، فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنْ عَيْنِي النَّعَاسُ * وَهَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يُؤَاسُوا

أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ حَيْرُ أَمِينٍ * عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِيَأْسُ

نُفَاسٌ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ * وَأَنْتَ هُوَ نَسُوسٌ كَمَا تُفَاسُ

كَأَنَّ الْخَلْقَ رَكَّبَ فِيهِ رُوحَهُ * لَهُ جَسَدٌ وَأَنْتَ طَيْبُهُ رَأْسُ

أَمِينَ اللَّهِ إِنْ الْحَبْسَ بَاسُ * وَقَدْ أُرْسِلْتَ : لَيْسَ عَلَيْكَ بَاسُ

وكتب إليه أيضا في الحبس .

وَكَلَّفَنِي مَا حُلَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ * وَقُلْتُ سَابَنِي مَا تُرِيدُ وَمَا تَهْوَى

فَلَوْ كَانَ لِي قَلْبَانُ كَلَّفْتُ وَاحِدًا * هَوَاكَ وَكَلَّفْتُ الْخَلْقَ لِمَا يَهْوَى

فامر باطلاقة .

كان الهادي واجدا على أبي التاهية ملازمته أحاه هارون في حلافة المهدي، فلما ولي موسى الخلافة قال أبو التاهية يمدحه :

يَصْطَرِبُ الْخُوفَ وَالرَّهَاءَ إِذَا * حَرَّكَ مُوسَى الْقَضِيَّةَ أَوْ فَكَّرَ
مَا أَتَيْنَ الْفَصْلَ فِي مَنِيٍّ وَمَا * أَوْرَدَ مِنْ رَأْيِهِ وَمَا أَصْدَرَ
فَكَمْ تَرَى عَنَّا عِنْدَكَ مِنْ * مَعْتَرٍ قَوْمٍ وَقَدْ مِنْ مَعْتَرٍ
يُنْجَرُ مِنْ مَنِّهِ الْقَضِيَّةُ وَلَوْ * يَمْسُهُ عَيْرُهُ لَمَّا أَثْمَرُ
مَنْ يَمِثِلُ مُوسَى وَمِثْلُ اللَّهِ الـ * مَهْدِيٍّ أَوْ حَتَّى أَيْ حَقِّقِ

فرصى عه . فلما دخل عليه أنشدته .

لَهْنِي عَلَى الرِّمَسِ الْقَصِيرِ * بَيْنَ الْحَوْرَيْنِ وَالسَّيْدِ
إِذَا مَحَى فِي عُرْفِ الْحِمَا * نِ سَوْمٍ فِي بَحْرِ السَّرُودِ
فِي قَبْرِهِ مَلَكُوعَا * نَ الدَّهْرِ أَمْثَالُ الصُّقُورِ
مَا مِنْهُمْ إِلَّا الْحَسُ * رُ عَلَى الْحَوَى صِيرَ الْحَصُورِ
يَتَمَاوَرُونَ مُدَامَةً * صَبَاءٍ مِنْ حَلَبِ الْعَصِيرِ
عِدْرَاءَ رِبَاهَا شُمَا * عُ الشَّمْسِ فِي حَرِّ الْمَهِيرِ
لَمْ تَلِدْ مِنْ فَارٍ وَلَمْ * يَلْقَ بِهَا وَصْرُ الْقُدُورِ
وَمَقْرَطِي يَمْشِي أَمَا * مِ الْقَوْمِ كَالرَّشَا الْغَرِيرِ
بِزُحَاةٍ تَسْتَحْرِجُ الـ * سُرَّ الدِّفْنِ مِنَ الْقَصِيرِ
زَهْرَاءَ مِثْلِ الْكُوكِ الـ * رَتَى فِي كَفِّ الْمُدِيرِ
تَدْعُ الْكَرِيمَ وَلَيْسَ يَدُ * رَى مَا قَيْلٌ مِنْ دِيرِ
وَمُحْصَرَاتٍ زُرْتَنَا * عَدَّ الْمَدَقِ مِنَ الْخُدُورِ
رِيًّا رَوَادِهِنَ يَلُ * جَسْنَ الْخَوَاتِمِ فِي الْخَصُورِ
غُرَّ الْوُجُوهِ مُجَبَّأ * تَقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ حُورِ

مُتَمَتِّعَاتٍ فِي الْعَمَلِ * بِمِثْلِ مَضْمَنَاتِ الْعَبِيرِ
يَرْفُلْنَ فِي حُلِّ الْمَخَالِقِ * سِنَ وَالْجَبَادِ وَالْحَرِيرِ
مَا إِنْ يَرَى الشَّمْسُ إِلَّا الْقُرْطَ مِنْ حُلِّ السُّتُورِ
وَالِي أَمِيرِ اللَّهِ مَهْ * رَبُّبًا مِنَ الدَّهْرِ الثُّمُورِ
وَالِيهِ أَتَمَّتْ الْمَطَالِقُ * يَا مَارُوحَ وَبِالْمَكُورِ
صُغَرَ الْحُدُودُ كَأَنَّمَا * جُمُحُنْ أَجْمَعَةَ السُّورِ
مُسْتَرِيلَاتٍ مَالِطِلَا * مِثْلَ عَلَى السُّهُولَةِ وَالْوُجُورِ
حَتَّى وَصَلَتْ بِهَا إِلَى * رَبِّ الْمَدَائِنِ وَالْقُصُورِ
مَا زَالِ قَبْلَ عِطَامِهِ * فِي سِنِّ مُكْتَبِلِ كَبِيرِ

استشده المأمون أحسن ما قال في الموت فأنشده .

أَنَسَاكَ تَحِيَّاتُكَ الْغَمَامَا * فَطَلَبْتَ فِي الدُّنْيَا الثَّيَابَا
أَوْفَقْتَ مَا لِدُنْيَا وَاد * بَتَ تَرَى جَمَاعَتَهَا شَتَا
وَعَزَمْتَ مَدَكَ عَلَى الْحَيَا * قَ وَطُولَهَا عَزَمَ مَا بَتَا
يَا مَنْ رَأَى أَبَوَيْهِ فِي * حَسِّ قَدْ رَأَى كَلَامَا
هَلْ مِثْلُهَا لَكَ عِبْرَةٌ * أَمْ حَلَّتْ أَتْلُكَ أَنْعَلَا
وَمَنْ الدِّيُّ طَلَبَ التَّعَدُّ * بَتَ مِنْ مِيتَةِ فَقَا
كُلُّ نَصَبٍ مَدَى * لَمْ أَوْ تَبَيَّنْهُ بَيَا

دخل أبو العتاهية على المأمون فأنشده :

مَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَهَا * إِذَا أُلَاعَ اللَّهُ مَنْ مَالَهَا
مَنْ لَمْ يُؤَاسِ النَّاسَ مِنْ فَصْلَهَا * عَرَّضَ لِلْإِدْبَارِ إِقْبَالَهَا

فقال له المأمون : ما أجدو البيت الأول ، فأما الثاني فما صنعت فيه شيئا ، الدنيا تدبر عن
وَأَسَى مِنْهَا أَوْصَتْ بِهَا ، وَإِنَّمَا تُوجِبُ السَّمَاحَةَ بِهَا الْأَجْرَ وَالْعَيْنُ بِهَا الْوِزْرُ ، فقال : صدقت

يا أمير المؤمنين، أهل الفصل أولى بالفصل وأهل القص أولى بالقص، فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كَمْ عَاقِلٍ أَوْدَى بِهِ الْمَوْتُ * لَمْ يَأْخُذِ الْأُخْبَةَ لِلْمَوْتِ
مَنْ لَمْ تَزَلْ مَعْتَهُ قَبْلَهُ * زَالَ عَنِ النِّعَةِ الْمَوْتُ

فقال له : أحسنت، طيبت المعنى، وأمر له بعشرين ألف درهم :

كان أبو العتاهية يُمَجِّعُ كُلَّ سَهٍّ، فإِذَا قَدِمَ أَهْدَى إِلَى الْمَأْمُونِ بُرْدًا وَمُطَرَفًا وَصَلَا سَوْدَاءَ وَمَسَاوِيكَ أَرَاكَ، فَبِعَتْ إِلَيْهِ عَشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَأَهْدَى مَرَّةً لَهُ كَمَا كَانَ يَهْدِي كُلَّ سَهٍّ إِذَا قَدِمَ، فَلَمْ يَكُنْ وَلَا يَبْتَاعُ إِلَيْهِ بِالْوُطَيْفَةِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

جَبْرَوِي أَدْنَى مِنْ صَرْبِ السَّهِّ * حُنْدًا يَبْعَا وَصُورًا حَسَنًا
أُحْدِثْ لَكُنِي لَمْ أَرَهَا * مِثْلَ مَا كُنْتُ أَرَى كُلَّ سَهٍّ

فأمر المأمون بحمل العشرين الألف وقال أعملناه حتى ذكرنا .

أنشد المأمون بَيْتَ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ يَحَاظِلُ سَلْمًا الْخَاسِرَ :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلْمُ بْنُ عَمْرٍو * أَذَلَّ الْحَرْصُ أَحَاقَ الرِّحَالِ

فقال المأمون : إن الحرص مُقْسِدٌ لِلدِّينِ وَالْمَرْوَةِ ، والله ما عرفت من رجلٍ قَطُّ حَرْصًا وَلَا شَرًّا وَوَحْدَتْ فِيهِ مُصْطَلَمًا، فَلَمَّ ذَلِكَ سَلْمًا فَقَالَ : وَيْلٌ عَلَى الْجَرَّارِ الزَّيْدِيِّ جَمَعَ الْأَمْوَالَ وَكَتَبَهَا وَعَا الدُّورَى بَيْتَهُ ثُمَّ تَرَدَّدَتْ مَرَامَةٌ وَهَاقًا، فَأُحْدِثْ بِي إِذَا تَصَدَّقْتُ لِلطَّلَبِ .

كان الرشيْدُ يَمَّا يَجْعِدُهُ عِمَاءُ الْمَلَاحِينَ فِي الرِّلَالَاتِ إِذَا رَكِبَهَا، وَكَانَ يَتَأَدَّى بِسَادِ كَلَامِهِمْ وَلِحْنِهِمْ، فَقَالَ : قُولُوا لِمَنْ مَعَا مِنَ الشُّعْرَاءِ : يَعْمَلُوا لِهَؤُلَاءِ شُعْرًا يَمُونُ فِيهِ، فَقِيلَ : لَيْسَ أَحَدٌ أَقْدَرُ عَلَى هَذَا مِنْ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ وَهُوَ فِي الْحِلْسِ، فَوُجِّهْ إِلَيْهِ الرِّشِيدُ : قُلْ شُعْرًا حَتَّى أَسْمَعَهُ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِإِطْلَاقِهِ، فَغَافَلَ ذَلِكَ وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا هَوَاجَ شُعْرًا يُحْزَنُ وَلَا يُسْتَرْبَهُ، فَعَمِلَ شُعْرًا وَدَفَعَهُ إِلَى مَنْ حَفِظَهُ مِنَ الْمَلَاحِينَ، فَلَمَّا رَكِبَ الْحَرَاةَ سَمِعَهُ وَهُوَ :

حَانَكَ الطُّرُفُ الطُّمُوحُ * أَيَا الْقَلْبُ ابْتِمُوحُ
 لدواعي الخير والشَّرِّ دُؤُوسٌ وَنُزُوحُ
 هل لمطلوبٍ بدني * توبَةً مَهْ تَصُوحُ
 كيف إصلاحُ قلوبٍ * إِنَّمَا مِنْ قُفُوحُ
 أحسن الله بها * إِنَّا الْخَطَايَا لَا تَعُوحُ
 فإذا المستورُ مِنَّا * بَيْنَ تَوْبَتِهِ فَصُوحُ
 كم رأينا من عزيزٍ * طُويَّتْ عَنْهُ الْكُشُوحُ
 صَاحَ مَهْ رَجُلٍ * صَاحُ الدَّهْرِ الصُّدُوحُ
 موتٌ بعض الناس في الأُرْ * ضَ عَلَى قُومٍ قُفُوحُ
 سيمير المرء يوما * جَنَدًا مَا فِيهِ رُوحُ
 بين عَيَّ كُلِّ حَيٍّ * عَلَّمَ الْمَوْتَ يَلُوحُ
 حَكْمًا فِي غَمَلَةٍ وَالْ * مَوْتُ يَفْدُو وَيُرُوحُ
 لَيْسَ الدِّبَا مِنَ الدَّرِّ * يَا عَجُوقُ وَمَصْبُوحُ
 رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ * مِنْ عَلِيمِ الْمُسُوحُ
 كُلُّ نَطَاجٍ مِنَ الدَّهْرِ * مَرَلَهُ يَوْمًا نَفْطُوحُ
 نَحَّ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَهْ * كَيْسَ إِنْ كَتَّ تَسُوحُ
 تَقُوتُ وَإِنْ عَمَّ * مَرَّتْ مَا عُمِّرُ رُوحُ

فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي ويَتَحَبَّبُ ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعا
 في وقت المَوْعِظَةِ ، واشتدَّ عَنَافًا في وقت الغضب والغِلظة ، فلما رأى الفضل بن الربيع
 كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا .

لما عقد الرشيد العهد لنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمعتز ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عَنْ الرِّزْقِ الْهَيْلِ قَمُودِي * إِلَى ذِي زُخُوفٍ جَمَّةٍ وَجُنُودِ
 وَرَاجٍ يَرَامِي اللَّيْلَ فِي حِفْظِ أَمْنَةٍ * يَدَافِعُ عَنْهَا الشَّرَّعِيرَ رَقُودِ

فالوَيْةَ جبريلُ يَقدِّمُ أهلها * وراياتِ نَصْرِ حوله وبُود
 تَحافى عَنِ الدُّنيا وأيقنَ أَسَها * مُعارِفُهُ لَيْستَ بدارِ خُلُود
 وَشَدَّ عُمرى الإسلامِ مَهْ بَنتِيَّةِ * ثلاثةَ أَمَلِكِ وَلَالةِ عُهود
 هُمُ خَيْرُ أَوْلادِ لَهم حَيْرُ وَالِدِ * لَهُ خَيْرُ آماءَ مَصَتْ وَجُدود
 بِؤالمُصطفى هارونَ حَوْلَ سِرِّهِ * نَفيرُ قِيامِ حَولَهُ وَقُعود
 تَقَلَّبَ الحَاظُ المَهَابَةِ بَينَهُم * عِيونَ ظَباءَ فى قُلُوبِ أَسُود
 جُدودِهِم شَمْسُ اتَتْ فى أَهْلَةٍ * تَبَدَّتْ لِرَأاهِ فى عَمُومِ سُعود
 فوصله الرشيْدُ بِصلةٍ ما وصلَ مِثلُها شاعراً قَطْ .

١٢ - مُسْلِمُ^(١) بن الوليد

أحد الشعراء المفلّحين واللغاة المبدعين

قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما سألته من قليل المعطاء، ويُنفقه على ملأته مع إخوانه من حُلّاء الشعراء، ثم أقطع إلى يزيد بن يزيد الشَّيْبَانِي قائد الرشيد، ثم اتصل بالخليفة هارون الرشيد وعُذ من شعرائه، ومدحه ومدح البرامكة وحسّ رأيهم فيه . ولما أصبح الحَلّ والعقد بيد ذى الرياستين العصيل بن سهل وزير المأمون في أوّل خلافته قرّبه وأدناه . لأنه كان من حاصته قبل وزارته، ولوّاه أعمالاً يُجرّحان اكتسب منها ألف ألف درهم ثم لزم منزله إلى أن أنفقها في اللذات، وعاد إلى الفصل فقلّده الصباغ بأصهبان ما اكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما قُتِل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً إلى أن مات محرّحاً .

ومسلم أول من تكلف الديع في شعره وأستكثر منه في قوله، وسقّه بشار إلى ذلك إلا أنه لم يبلغ شأواً مسلم فيه . وقد عدّ العلماء هذا التصنع والتكلف إصداً للشعر، إذ قد تبعه في ذلك الشعراء مثل الجعفي وأبي تمام وابن المعتز وغيرهم .

(١) هو مسلم بن الوليد مولى الأصهار يلتصق صريح النواي، شاعر متقدم من شعراء الدولة العباسية، مشوّه ومولده الكوفة . وهو ما دعوا أول من قال الشعر المعروف بالديع، وهو لقب هذا الجنس الديع والطيّف، وتبعه فيه جماعة، وأشهرهم فيه أرتعم الطائي، ما حصل شعره كله مدها واحداً فيه، ومسلم كان متصفاً بتصرّفات شعره . قال محمد بن يزيد : كان مسلم شاعراً حسن الخط . جيد القول في الشراب، وكثير من الرواة يقرّبه إلى ابن عباس في هذا المعنى، وهو أول من عقد هذه المعاني الطريفة واستخرجها . وقال القاسم بن مهزيب : أول من أصد الشعر مسلم بن الوليد، ما هذا الذي سماه الناس الديع ثم جاء الطائي بعده فحسن فيه . توفي محرّحاً سنة ٨٢٠ هـ وله ديوان مطبوع في لندن سنة ١٨٧٥ م . وتجد أحباراً في الأغاني (ج ١٣ ص ٩) والشعر والشعراء (ص ٥٢٨) والمقدّم المريد (ج ١ ص ١٤٢) .

وقد مزج مسلم كلام البدويين بكلام الحضريين ، فصممه المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله حزالة الدويين ، ورقة الحصريين .

لقي مسلم أبا نؤاس فقال له : ما أعرف لك بيتا إلا فيه سقط ، قال له : فما تحفظ من ذلك ؟ قال : قل أنت ما شئت حتى أريك سقطك فيه ، فأنشد .

دَكَرَ الصُّبُوحَ بِسُحْرَةِ فَارَتَا حَا * وَأَمَلَهُ دِيكَ الصَّبَاحِ صَبَا حَا

فقال له مسلم : لِمَ أمَلَهُ وهو الذي أدكره وبه أرتاح ؟ فقال أبو نؤاس . فأنشدني شيئا من شعرك ليس فيه حَلَلٌ ، فأنشده مسلم .

عَاصَى الشَّاتِ فَرَّاحٍ عَيْرِ مُعَنَّدٌ * وَأَقَامَ يَبِ عَزِيمَةٍ وَمَحَلُّدٌ

فقال له أبو نؤاس : قد جعلته رائجا مقيا في حالة واحدة وبيت واحد ، قَسَّاغِبَا وَقَسَّأَا سَاعَةً ، وَكَلَا الْبَيْتَيْنِ صَحِيحَ الْمَعْنَى .

اجتمع أصحاب المأمون عنده يوما ، فأفاصوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له مضمهم : أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم بن الوليد ؟ قال : حيث يقول ماذا ؟ قال : حيث يقول وقد رقي رحلا :

أَرَادُوا يُحْفَوا قَبْرَهُ عَنْ عَدْوِهِ * فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

وحيث مدح رحلا بالشجاعة فقال :

يَعُودُ مَالِئُ إِدْ صَنِ الْجَوَادِ بِهَا * وَالْجَوْدُ مَالِئُ أَقْصَى عَايَةِ الْجَوْدِ

وهما رحلا فبج الوحه والأخلاق فقال :

قَحَّحَتْ مَآظِرُهُ لِحَبِّ حَبْرَتِهِ * حَسَنَتْ مَآظِرُهُ لِقُبْحِ الْخَبْرَةِ

وتعَارَل فقال :

هَوَى بِحَدِّ وَحْيٍ يَلْبُ * أَنْتَ لَقِيَّ بَيْنَهُمَا مَعْنَى

فقال المأمون : هذا أشعر من خضتم اليوم في ذكره .

قال يزيد بن مَرْزَد : أرسل إلى الرشيد يوما في وقت لا يرسل فيه إلى مثل ، فأتته
لأنسا سلاحي مستعدا لأمر إن أراده مني ، فلما رأى صمك إلى ثم قال : يا يزيد ، خبرني
من الذي يقول فيك .

تراه في الأمن في دِرْع مُصَاعِمِهِ * لا يَأْمُسُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ
صَاحِبِ الصَّيْلِ طَمُوحَ الْعَيْنِ هَمَّتُهُ * فَكَ الْعُكَّةِ وَأَسْرُ الْعَاثِكِ الْخَطَلِ
فقال : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال سَوَّءٌ لَكَ مِنْ سَيِّدِ قَوْمٍ يُدَّخِرُ بِمِثْلِ هَذَا
الشَّعْرِ وَلَا يَعْرِفُ قَائِلَهُ ، وَقَدْ مَلَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِرَواهُ وَوَصَلَ قَائِلُهُ ، وَهُوَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ !
فانصرف فِدَعَوْتُ بِهِ وَوَصَلْتُهُ وَوَلَيْتُهُ .

وروي أنه دخل على الرشيد فقال له : يا يزيد ، من الذي يقول فيك :
لَا يَتَّقِي الطَّيْبُ حَدْبَهُ وَمَقْرِقَهُ * وَلَا تُنَمَّسَحُ عَيْبُهُ مِنَ الْكُحْلِ
إِذَا أَنْتَصَى سَيْفَهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ * مَسَالِكُ الْمَوْتِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْقُلُوبِ
وإن خَلَّتْ بِجَسَدِيَتِ الْعَيْنِ فِكْرُهُ . حَتَّى الرَّجَاءُ وَمَاتِ الْخَوْفُ مِنْ وَجَلِ
كَالْبَيْتِ إِنْ هَمَّتْهُ الْمَوْتُ رَاحَتُهُ : لَا يَسْتَرْجِعُ إِلَى الْأَيَّامِ وَالْأَيَّامُ
فقال : لا أعرف قائله يا أمير المؤمنين ، فقال له هارون : أيقال فيك مثل هذا الشعر
ولا تعرف قائله ؟ فخرج من عنده فحجلا ، فلما صار إلى منزله دعا حاحبه فقال له : من
بالباب من الشعراء ؟ قال : مسلم بن الوليد ، قال : وكيف تحته عني ، فلم تعلمني بمكانه !
فقال : أحبرته أنك مُصَبِّقٌ ، وأنه ليس في يديك شيء يعطيه إياه ، وسأله الإمام والمقام
أياما إلى أن تنسح ، فذكر ذلك وقال : أدخله ، فادخله إليه ، فأنشده قوله فيه :

أُجْرِرْتُ^(١) حَلَّ خَلِيجٍ فِي الصَّبَا عَزِلَ * وَتَمَرَّتْ مِنْهُمُ الْعُدَالُ فِي عَدْلِي
هَاجَ الْكَلَامُ عَلَى الْعَيْنِ الطَّمُوحِ هَوَى * مُفَرَّقٌ مِنْ تَوْدِيْعٍ وَتَحْتَمَلِ
كَيْفَ السُّلُو لِقَلْبٍ رَاحَ تَحْتَبَلَا * يَهْدِي صَاحِبِ قَلْبٍ غَيْرَ تَحْتَمَلِ

(١) أحررت فلان راسه تركته وشأه ، والخلج : الذي خلج مداره في الصبا . (٢) الطموح :
المرتعة في الطرقات الأحياء . ومفرق . مقسم .

عَاصِي العِصْرَاءَ عِدَاءَ الْبَيْنِ مُنْهَمِلٌ * من الممّوع جرى في إثر منْهَمِلِ
لولا مُدَارَاةُ دِمَاحِ الْعَيْنِ لَا تَنَكَّشَتْ * مَتَى سِرَائِرُ لَمْ تَظْهَرْ وَلَمْ تُخْلَعْ^(١)
أَمَا كَيْ الْبَيْنِ أَنْ أُرَقِيَ مَأْثُمُهُ * حَتَّى رَمَى بِلُحْطِ الْأَعْيُنِ النُّجْلَ
مِمَّا حَتَّى لِي وَإِنْ كَانَتْ مَتَى صَدَقَتْ * صَسَاءُ حُلُسِ التَّسْلِيمِ مَالْفَقْلِ
مَاذَا عَلَى الدَّهْرِ لَوْ لَانَتْ عَرِيكَتُهُ * وَرَدَّ فِي الرَّأْسِ مَتَى سَكْرَةُ الْفَزَلِ
حُرْمُ الْحَوَادِثِ عِنْدِي أَمَا احْتَلَسَتْ * مَتَى بَاتَ غِدَاءُ الْعَكْرَمِ وَالْكِلَالِ^(٢)
وَرُبَّ يَوْمٍ مِنَ اللَّذَاتِ مُخْتَصَرٌ * قَعَرْتُهُ لِمَاءِ الرَّاحِ وَانْخَلَّصَ
وَلَيْلَةً حَلَسْتُ لِلْعَيْنِ مِنْ سَيْبِهِ * هَتَكَتُ مِهَا الصَّبَا عَنْ بَيْصَةِ الْجَحَلِ
قَدْ كَانَ دَهْرِي وَمَا لِي الْيَوْمَ مِنْ كِبَرٍ * شَرَبَ الْمَدَامَ وَعَزَفَ الْقَيْسَةَ الْعُطْلِ
إِذَا شَكُوتُ إِلَيْهَا الْحُفَّ خَقَرَهَا * شَكَاوَى فَاحْتَرَّ حَدَاها مِنَ انْجَحَلِ
كَمْ قَدْ قَطَعْتُ وَعَيْنُ الدَّهْرِ رَاقِدَةٌ * أَيَّامَهُ مَالِصًا وَاللَّهُوَ وَالْحَدَلِ
وَطَيْبُ الْمَرْجِ أَصْلَانِي مَوْدَتِهِ * كَأَفَانَتِهِ مَدِجٌ فِيهِ مُتَحَلِّ^(٣)
وَلَدِيهِ لِمَطَاا الرِّكْبِ مُنْضِيهِ^(٤) * أَضْيَبُهَا وَجِيفَ الْأَيْتَقِ الدُّلَلِ
فِيمَ الْمُقَامِ وَهَذَا الْجَمِّ مُقَرِّصًا^(٥) * دَنَا النَّعَاءُ وَحَانَ السَّيْرُ فَارْتَحَلِ
يَا مَائِلَ الرَّأْسِ إِنْ اللَّيْثُ مُقَرَّرٌ * مِيلَ الْحَاجِمِ وَالْأَعْيَا فَاغْتَدِلِ
حَدَارٍ مِنْ أَسَدٍ صِرَاطِيهِ طَلِيلِ * لَا يُؤْلِغُ السَّيْفُ إِلَّا مِهْمَةً الْبَطْلِ
لَوْلَا يُزِيدُ لَأَمْهَى الْمَلِكُ مُطَرَّدًا^(٦) * أَوْ مَائِلَ السَّمَكِ أَوْ مُسْتَرْتَفِ الطُّوَلِ
سَلَّ الْخُلَيْفَةُ سَيْمًا مِنْ تَحَى مَطَرٍ * أَقَامَ قَائِمُهُ مِنْ كَانَ دَا مَيْلِ
كَمْ صَائِلٍ فِي دَرَا تَهْمِيدِ مَمْلَكَةٍ * لَوْلَا يُزِيدُ بَعَى شَيْثَانٍ لَمْ يَصَلِ

(١) أى لم تخرى . (٢) يريد الدهر والحوارى . (٣) مختصر، أى حصرت اللذات . والخلل .
جمع حلة وهى الصدقة . (٤) حفرها ، أى ولد عليها الحفر وهو شدة الحياة . (٥) أى مختار .
(٦) منصبة . منعة . والوجيف : صرب من السير . والعدل الصامرات . (٧) يريد بالجم
التريا . ومقرضا . منصا . (٨) مطردا ، أى محذولا . وصرب السمك والطول مثلا .

باب الإمام الذى يفتّر عه اذا * ما أفتّرت الحرب عن أنيابها العُصَل
 من كان يَحْتَمِل قَرِبا عد موقفه * فإن قِرْنَ يزيد غير مُحْتَمِل
 سَدَ الثُغور يزيدُ عد ما أنفَرَجَت * قائم السيف لا نالِخَلَّ والجِلل
 كم قد أداق حِمَامَ الموت من تَلَل * حامى الحقيقة لا يُؤْتَى من الوَهَل
 أعرُ أبِصُ بُغْيَى البِصِّ أبِصُ لا * يرعى لمولاه يومَ الرُّوعِ والعَسَل
 يَفْتَشِ الوعى وشَهَابُ الموتِ وِيدَه * يرى الفوارسَ والأبطالَ والشُعَل
 يَفْتَرُ عد أفتّار الحرب منيماً * اذا تَعَيَّرَ وجه الفارسِ الطفل
 مُوفٍ على مُهَجٍ واليومُ دو رَجَح * كأنه أحلُّ يَسى الى أمل
 ينال بالرفق ما يَغَيِّبُ الرجالُ به * كاللوت مستعجلاً يأتى على مَهَل
 لا يُلْقِحُ الحربَ إلّا رَيْثَ يَنْتَحِمُها * من هالك وأسير غير مُحْتَمِل
 إن شِمْ نارُقه حالت حلائقه * بين العطية والإساک والعِلل
 يُغْيِى المايا المايا ثم يَفْرِجُها * عن العوس مُطَلَّاتِ حلِ المَهَل^(١)
 لا يَرَحِلُ الناسُ إلّا نَحْوَ نَحْرَتِه * كالكبتِ يَضْحى اليه مُتَقَى السَّل^(٢)
 يَقْرِى المية أرواحَ الكُجَاهِ كما * يَقْرِى الضبوفَ نُحُومَ الكُجُومِ والبَزَل^(٣)
 يكسو السيوفَ دماءَ الباكثين * ويصعل المامَ تيجانَ القَبَّ الدُّبَل
 يغدو تغدو المايا وِ أَسِنَّه * شِوارِعاً تَحْتَدِى الناسَ بالأَجَل
 إذا طَفَّتْ فَنَّةٌ من عِطَ طائِها * حَمَى لها الموتَ بين البِصِّ والأَسَل
 قد عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وَفَقَّنَها * فَهَنَ يَنْقَمُه فى كُلِّ مُرْتَمَل
 تراه فى الأمنِ وِ دِرْعِ مُصَاعَفَةٍ * لا يَأْمُنُ البعيرُ أنْ يُدْعَى على عَمَل
 ضافى الصان طموحَ الدينِ هَمَّتْ * فَكَ المَناءُ وأَسْرُ الفاتكِ الخَطَل^(٤)
 لا يَحْتَقِ الطَّيْبُ خَدْيَه ومَعْرِقَه * ولا يَمسحُ عينيه من الكُحُل

(١) الحبل : الضقدان . (٢) يضى البيت الحرام . (٣) الكوم . الطام الأسة واحدا كوما .

والرل : جم نازل وهو ماله نمة أعرام . (٤) جمع طان وهو الأسير والخلل : دو الخلل وهو الخطأ .

إذا آتَظْفَى سَبْقَهُ كَانَتْ مَسَالِكُهُ * مَسَالِكُ الْمَوْتِ فِي الْأُذْدَانِ وَالْقُلَلِ
 وَإِنْ خَلَّتْ بِمَحْدِثِ الْمَسِّ وَكُرَّتْ * حَتَّى الرِّهَاءِ وَمَاتِ الْخَوْفُ مِنْ وَجَلِ
 كَالَيْثِ إِنْ هِجَّتْهَ قَالِمُوتِ رَاحَتِهِ * لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى الْأَيَّامِ وَالْأُيُومِ
 إِنْ الْحَوَادِثُ لَمَّا رُمِنَ هَضْبَتُهُ ^(١) * أَزْمَعُ عَنْ حَارِ شَيْئَانِ بِمُتَقَلِّ
 فَالذَّمُّ يَبْطِئُ أَوْلَاهُ أَوْاحِرَهُ * أَدَلِمَ يَكُنْ كَانَتْ فِي أَعْصَارِهِ الْأَوَّلِ
 إِذَا الشَّرِيبُكِي لَمْ يَفْخَرْ عَلَى أَحَدٍ * تَكَلَّمَ الْفَحْرُ عَنْهُ عَيْرُ مُتَحَلِّ
 لَا تُكْذِبَنَّ وَإِنَّ الْحِلْمَ مَعْدِنُهُ * وَرِائَتُهُ فِي بَنَى شَيْئَانِ لَمْ تَزَلْ
 سَلَوُ السُّبُوفِ فَافْشَوْا مِنْ يَحَارِ بِهَمِّ * خَطَا بِهَا عَيْرٌ مَا تُكَلِّمُ وَلَا تُكَلِّ
 الرَّائِدِيُّونَ قَوْمٌ فِي رِمَاحِهِمْ * حَوْفُ الْخَيْفِ وَأَمْسُ الْخُفَافِ الْوَجِلِ
 كَبِيرُهُمْ لَا تَقُومُ الرَّاسِيَاتُ لَهُ * جَلَبَا وَطَعْلُهُمْ وَهَدَى مُكْتَبِلِ
 إِسْلَمَ يَزِيدُهَا فِي الدِّينِ مِنْ أَوْدٍ * إِذَا سَلِمَتْ وَمَا فِي الْمَلِكِ مِنْ خَالِ
 أَتَمَّتْ سُوَى بَنَى الْإِسْلَامَ فَطَادَتْ ^(٢) * يَوْمَ الْخَلِيجِ وَقَدْ قَامَتْ عَلَى زَلَلِ
 لَوْلَا دِفَاعُكَ نَاسَ الرُّومِ إِذْ بَعَكَرَتْ * عَنْ صِفَةِ الدِّينِ لَمْ تَأْمَسْ مِنَ الشَّكْلِ
 وَيُؤَسِّفُ الْبَرَمَ قَدْ صَبَحَتْ عَصَاهُ * مَسْكِرُ يَلْفِظُ الْأَقْدَارَ دَى زَجَلِ
 عَافِيَتُهُ يَوْمَ عَبَّرَ الْهَرْمُ مَهْلَتَهُ * وَكَانَ مَحْتَجِرًا فِي الْحَرْبِ بِالْمَهْلِ
 وَالْمَارِقُ أَنْ طَرِيفٌ قَدْ دَلَقَتْ لَهُ ^(٣) * مَسْكِرُ لِلْيَا مُسْبِلُ هَيْطَلِ
 لَمَّا رَأَاكَ مُجَدًّا فِي مَيْتِهِ * وَأَنْ دَقَمَكَ لَا يُسْتَطَاعُ بِالْحَيْلِ
 شَامَ السَّرَّالِ فَابْرَقَ اللَّقَاءَ لَهُ * مَقْدَمُ الْخَطْوِ بِهَا عَيْرُ مُتَكِلِ
 مَا تَوَا وَأَنْتَ غَلِيلٌ فِي صُدُورِهِمْ * وَكَانَ سَيْفُكَ يَسْتَشْفِي مِنَ الْفَلَلِ

- (١) هذا مثل، يريد لما رامت الحوادث من استعاره . (٢) مئة إلى شريك، وهو أحد أحواد يزيد .
 (٣) هكذا في الأصل . وعدا أن الكلمة محرفة عن (اضلعت) أي شئت . وهي وراثة اصل من وطئ .
 وكانت ارتطفت ثم قلت ما الاتصال تاء وأدم المثل في المثل . (٤) غرة الدين . حاشية الاسلام .
 (٥) أحد الخوارج على الرشيد . (٦) عاصه : فاحاه على غرة . (٧) هو الوليد بن طريف الشامي .

لو أن غير شريك أطاف به * فاز الوليدُ قدح الباصل^(١) الخِصَل
وقلت بالدين يوم الرّس^(٢) فأخذت * منه قوائم قد أوقّت على مِيل
ما كان جمعهم لما لقيتهم * إلا كمثل مأم ربيع مُخِصَل
ثابوا ولو لم يتوبوا من دنوسهم * لآت حبشك بالأمرى ومالّ نقل
كم آمن لك مائى الدار مُتّمع * أرحته من حصون الملك والحول
يا بى لك الدّم فى يوميك إن دكرنا * عَصَبُ حُسَامٍ وهرض غير مُتَدَل
وما رقيق عزاء من بيوتهم * لا ينكّلون ولا يؤثرون من نكّل
خَلَمَت أجسادهم والطير ما كَفَتْ * فيها وأفقتهم هاما مع الفقل
فانقرها لك فى شيان من مثل * كذاك ما إسى شيان من مثل
كم مشهد لك لا تُحصى ماثره * قَسَمَت به كرزق الإس والنقل
له من هاشم فى أرضه حل * وأنت وأسك رُحما ذلك الحل
قد أعظموك ما تُدعى لهينة * إلا لمُضلة تَسْتُر^(٣) بالمِصَل
يا ربّ معكreme أصحت واحدها * أحيّت صايد رأموها فلم تُسل
تَسَاوَل الناس بالدينيا وزُحرها * وأس من بلك المعروف فى شغل
أقسمت ما دُت من جنودك طالبها * ولا دعت أعترام الحدة والمزل
يا بى لسالك منع الجود سائلة * ها يُحلج بين الجود والنقل
صَدَقَتْ طَلَقى وصَدَقَتْ الظنون به * وحطّ حولك عقد الرّجل عن جملى
فقال له يزيد : قد أمرنا لك بخسين ألف درهم فاقصها وأعذر ، فخرج الحاجب فقال
لمسلم : قد أمرنى أن أرهن ضيعة من ضياعه على مائة ألف درهم : نحسون ألفا منها لك
وحسون ألفا لغفته ، فأعطاه إياها . وكتب صاحب الخبر بذلك الى الرشيد ، فأمر ليزيد
بماتى ألف درهم وقال : اقض الخمسين ألفا التى أخذها الشاعر وزده مظلها ، وحُدّ

(١) الباصل : العيب . والحصل مثله . (٢) الرّس : وادى أذربيجان . (٣) تستر البصل :
تأج السر . والمصلحة : الدابة .

مائة ألف لعقتك، فاقك صبيته وأعطى مسلماً خمسين ألفاً أخرى . ولما أنشدته :
« لا يعقب الطيب » البيت . قال بلاريته : حرم طيباً مسلم الطيب .

كان داود بن يزيد بن حاتم المهلبي يجلس للشعراء في السه مجلساً واحداً، فيقصدهونه
لذلك اليوم ويُشدونه، توجه إليه مسلم راويته قصيدته التي أولها . « لا تدعُ بي الشوق »
فقدم عليه يوم حلوسه للشعراء ولحقه عقب حروجهم عنه ، فتقدم إلى الحاجب وحسّر
لثامه عن وجهه، ثم قال له : أستاذ لي على الأمير، قال : ومن أنت ؟ قال : شاعر ،
قال : قد أنصرم وقتك وأنصرف الشعراء وهو على القيام، فقال له . ويحك ! إني قد وعدتُ
على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدبٌ يفهم به ما يسمع، فقال :
هاتِ حتى أسمع، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه؛ فأنشده بعض القصيدة، فسمع
شيئاً يقصر عنه الوصف، فدخل على داود فقال له : قدِم على الأمير شاعرٌ شعر ما قيل
فيك مثله، فقال . أدخل فأنشده، فلما مثل بين يديه سلم وقال : قدمت على الأمير
— أعزّه الله — بمدح يسمعه فيعلم تقدّمى على غيري ممّن أمتدحه ، فقال . هات ، فلما
أفتتح القصيدة وقال . « لا تدعُ بي الشوق » استوى حالها وأطرق حتى أتى الرجل على
آخر الشعر، ثم رجع رأسه إليه فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الأمير؛ قال : في كم
قلته يا فتى ؟ قال : في أربعة أشهر أبداً الله، قال : لو قلته في ثمانية أشهر لكنت محسباً،
وقد اسمتك، بلجوده شعرك وحول ذكرك، فان كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة
أشهر في مثله، وأمرت بالإحراء عليك ، فان جئنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مائة ألف
درهم وإلا حرمتك، فقال : أو الإقالة أعزّ الله الأمير، قال : قد أفلتت ، قال : الشعر
لمسلم بن الوليد وأنا راويته والواحد عليك بشعره؛ فقال : أنا آبر حاتم، إنك لما أفتحت
شعره فقلت : « لا تدعُ بي الشوق إني غير معمود » سمعت كلام مسلم يتأدبني، فأجبت مداه
وأستويت حالها؛ ثم قال : يا علام، أعطه عشرة آلاف درهم ، وأجل الساعة إلى مسلم
مائة ألف درهم . وهذه هي القصيدة :

لا تَدْعُ بِي الشَّوْقُ إِنِّي عِيرٌ مَعْمُودٌ . نَهَى النَّهْيَ عَنِ هَوَى الْهَيْفِ الرَّطَائِدِ (١)
 لَوْ شِئْتُ لَأَشِئْتُ رَاجِعَتُ الصَّبَا وَمَشْتُ * فِي الْمَيُوتِ وَفَاتَنِ يَحْمِلُودُ (٢)
 سَلْ لَيْلَةَ الْخَيْفِ هَلْ أَصَبْتُ آخِرَهَا * بِالزَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ الْخُرْدِ الْغَيْدِ
 تَجَبَّحْتُهَا بُلْعَابَ الْمُزْنِ فَاغْتَرَلْتُ (٣) * تَسْحَبِينَ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ
 كِلَا الْحَدِيدَيْنِ قَدْ أُطْلِمْتُ حَزَنَهُ (٤) - لَوَّالِ حَى إِلَى عُمَيْرٍ وَتَخْلِيدِ
 أَهْلًا بَوَاسِطَةً لِلشَّيْبِ وَاحِدِهِ * وَإِن تَرَأَيْتُ بِشَحْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ
 لَا أَجْمَعُ الْحِلْمَ وَالصَّبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ * هَمْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنِ مَاءِ الْعَاقِيدِ
 لَمْ يَنْتَهِي قَدْ عَنْهَا وَلَا كَرَّ * لَكِنْ صَحَوْتُ وَصُنِي عِيرٌ مَحْفُودِ
 أَوْوَى بِي الْحِلْمُ وَأَقْنَادُ اللَّهِى طَلَقَا * شَاوَى وَصِعْتُ الصَّبَا مِنْ عِيرِ تَمِيدِ
 إِذَا تَجَمَّعَتْ بِي إِلِمَاتٌ مِنْ سِلْدِ * دَارَعَتْ أَرْضًا وَلَمْ أَحِصِلْ بِتَجْمِيدِ
 لَا تَطْلُبْنِي الْمُنَى عَنْ حَنْدٍ مُطْلَبِ * وَلَا أَحْوَلُ لَشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ
 وَتَجَمَّعِلِ كَأَطْرَادِ السِّيفِ مُتَحَيِّزِ * عَنِ الْأَدْلَاءِ مَسْجُورِ الصَّبَاخِيدِ
 تَمْشِي الرِّيَّاحُ بِهِ حَسْرَى مُوَلَّغَةً * حَزَنَى تَلَوْدَ أَطْرَافِ الْجَلَامِيدِ
 مُوقِفِ الْمَتْنِ لَا تَمْعَى السَّبِيلُ بِهِ * إِلَّا التَّحَلُّلَ رَيْثًا مَعْدَ تَجْمِيدِ
 قَرِيبُهُ الْوَحْدَ مِنْ حَطَّارِهِ سُرُجِ (٥) - تَقْرَى الْعِلَاءَ بِإِرْقَالٍ وَتَوَخَّيْدِ
 إِلَيْكَ مَادَرْتُ إِسْفَارَ الصَّاحِ بِهَا * مِنْ حُجْحٍ لَيْلِ رَحِيْبِ الْبَاعِ مَمْدُودِ
 وَبِلَدِهِ ذَاتَ عَوْلِ لَا سَبِيلَ هَا * إِلَّا الظُّلُوفُ وَالْأَمْرَحُ السَّيْدِ
 كَأَنَّ أَعْلَامَهَا وَالْأَلَّ يَرْكَبُهَا . مُنْذُ تَوَافَى بِهَا تَنْدَرُ إِلَى عِيدِ

(١) لا تدعى بى الشوق، أى لا تدعى مشتاقا . وسأله دعل عن معنى ذلك فقال : لا تدعى صريح العواى طست
 كذلك، وكان لهذا القبح كارهها . ومعمود : طاشق . والهييف : الصامرات المحصور . (٢) أى ذهبت
 بجهدى . (٣) اغترلت . احتللت ، ويريد بالسحب : ما ول الماء من الجمر أسرع فيه الماء لعله ،
 وما ول منها القناع على حاله لم يحله الماء . معد . (٤) الحرة العيم .
 (٥) العهد الروم . والمحصور . الواهن . (٦) أى لا تدعى الى صبا . (٧) الخطارة : الناقة
 تحرك دنها . والسرج : الحديقة .

كَتَفْتُ أَهْوَالَهَا عِيَا مُؤَرَّقَةً • اليك لولاك لم تُكَمَّلْ بِتَمِيدٍ
 حَتَّى أَتَاكَ فِي الْآمَالِ مُطْلِمًا • لئِيسَ عَدُكَ فِي سِرْبَالِ عَسُودٍ
 مِنْ عَدَا مَا أَلْقَيْتَ الْأُمَامَ لِي عَرَصًا • مُلْقَى رَهِينٍ لِحَدِّ السِّيفِ مَصْفُودٍ^(١)
 وَسَاوَرَتْنِي بَسَاتُ الدَّهْرِ فَأَمْتَحَنَتْ • رَنْقِي بِمُحَلَّةٍ شَهَاءَ جَارُودٍ^(٢)
 إِلَى بَنِي حَاتِمٍ أَدَّى رُكَايَنَا • حَوْضُ الدَّيْ وَسَرَى الْمَهْرِيَّةِ الْقُسُودِ
 تَطْلُوِي الْبَهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ عَمَّطَهَا • مَاتَ تَحْمُطُ هَامَاتِ الْقَرَادِدِ
 مِثْلَ السَّمَاءِ يَبِيدَاتِ اللَّيْلِ إِذَا • أَلْقَى الْمَحْبِرُ يَدَايَ كُلَّ مَبْعُودِ
 حَلَّتْ رِيْدَاوَدَ فَاثَاخَتْ وَأَغْلَقَهَا • حَذَوُ الْعَالِ عَلَى أَيْرٍ وَتَحْرِيدِ^(٣)
 أَعْطَى فَاغْنَى الْمُسَى أَدْنَى عَطِيَّتِهِ • وَارْهَقَ الْوَعْدَ نَحْمًا عِبْرَ مَكُودِ
 وَاقَهُ أَطْعَامًا نَارَ الْحَرْبِ إِذْ سِيرَتْ • شَرْقًا بِمُوقِدِهَا فِي الْمَرْبِ دَاوِدِ
 لَمْ يَأْتِ أَمْرًا وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى حَدَثٍ • إِلَّا أَعْيَنَ تَوْبِيقٍ وَتَسْدِيدِ
 مُوَحَّدُ الرَّأْيِ تَنْشَقُّ الطُّونُ لَهُ • عَنِ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مَهَا وَمَعْقُودِ
 ثَمَنِي الْأُمُورُ لَهُ مِنْ عَمَوَاجُوهَا • وَإِنْ سَلَكَ سَبِيلًا عِبْرَ مَوْرُودِ
 إِذَا أَمَاحَتْ يَمَى قُومٍ عَقُوبَتُهُ • حَادَى لَهُ الْعَمُوقُ قَوْمًا بِالْمُرَاصِيدِ
 كَاللَّيْلِ مِثْلُهُ اللَّيْتُ الْهَمُورُ إِذَا • عَنَى الْحَدِيدُ غِيَاءَ عِبْرَ تَحْرِيدِ
 يَلْقَى الْمَيِّتَةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا • كَالثَّلِيلِ يَقْدِفُ جُلُودًا بِجُلُودِ
 إِنْ قَصَرَ الرِّيحُ لَمْ يَمِشْ الْخَطَا عَدَا • أَوْ عَرَدَ السِّيفُ لَمْ يَهْمُ تَحْرِيدِ
 إِذَا رَعَى تَلْدَا دَايَ مَنَاهِلِهِ • وَإِنْ يُنَبِّ عَلَى تَحْطِيطِ وَتَبْعِدِ
 جَرَى فَادْرَكَ لَمْ يُعَفِّ مِمَّهَّتِهِ • وَأَسْتَوْدَعُ الْبَهْرَ أَمَاسَ الْمَجَاوِيدِ^(٤)

(١) الرهين : الأسير . والمصمود الموثق بالحديد . (٢) المحلة : السلة الخدعة . والجارود :

المحردة من السات . (٣) محملها . سالها . والقراديد . جمع قرد ، وهو المرمع من الخيل

(٤) السام . طائر يشبه القطا . والصعود . شقة الحر . (٥) التحريد من الحرد ، وهو داء يصيب الإبل

في قوائمها . والأير . الثوب . (٦) البهر هو ما يسترى الإنسان عند المدح من الله وتنازع النفس .

آل المهلب قوم لا يزال لهم - رِق الصريح ^(١) وأسلاب المداود
 مظفرون يُصيب الحرب أعضهم * اذا العرار تملق ^(٢) بالهايد
 تحل ما حيب لم يعدم بلادهم * فنى يربى لقيص أو لتوكيد
 قوم اذا هداة شامت ^(٣) سيوفهم * وإنما عُقل الكوم المقاحيد
 مصى فداؤك يا داود اذ علققت * أيدي الردى بواصي الضمر القود
 داويت من دائها كزمان وانتصفت * لك المون لأقوام عاهيد
 ملائها فزما أحل معاقلها * من كل أبلغ ساعى الطرف صيد
 لما نزلت على أدنى بلادهم * ألقى إليك الأفاصي المقاليد
 لتستهم بيد المعصو متصيل * بها الردى بين تلييب وتشديد
 أتيتهم من وراء الأمن مُعلما * بالجيل تزدى ما طال ما حيد
 وطارف إثر من طار العرار به * خوف يعارصه في كل أهدود
 فاتوا الردى وظلمات الموت تنشدهم * وأنت نصب المسابا عير مفسود
 ولو تلت دباب ^(٤) لها رويث * مه ولكن شأها عذو مزمود
 أحرزه أجل ما كاد يُحرره - فتر يطوى على أحشاء مقود ^(٥)
 ورأس يهران قد رصكت قُتته * لذما كماه مكان الآيت والجد
 قد كان في معزل حتى منت له * أم الميتة في أباها الصيد
 أحن أم أسنته الفاصحات الى * حد من السيف من يعلى به يود
 ألحقته صاحبه فاستتر بهم * صرث يعرق صبات ^(٦) القاحيد

(١) رِق الصريح، أى استعاد الحر . والمداريد . الانحداد واحد مدرد . (٢) الهايد الجاء .

جمع محياد . (٣) الهداة . العرة . (٤) الألعج : المتكر .

(٥) شأها : سبقها . ومرمود : مرهوب . (٦) الممتود . الذى أميت فزاده . (٧) الصات :

أوصال الرأس . والقاحيد : جمع قعودة وهى العلم الباقى في مؤخر الرأس بين القفا وأعلى الرأس .

أَعْدَرُ مَنْ قَرَمَ حَرْبَ صَدَرَتْ لَهَا * يَوْمَ الْحَصِينِ شِمَارٌ عَيْرٌ مَحْجُودٌ
يَوْمَ أَمْتَصَبَتْ بِحِصْنَانِ طَوَائِفُهَا ^(٢) * عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَثْرًا وَمَحْفُودٌ
نَاهَضَتْهُمْ دَائِدُ الْإِسْلَامِ تَقَرَّعُهُمْ * عَهْ ثَلَاثَ وَتَشَى الْمَوَاحِيدُ
تَحْدُودُ الْمَسِ إِدَاةَ الْقَسِ بِهَا * وَالْجُودُ بِالْمَسِ أَقْصَى عَايَةِ الْحُودِ
تَكَ الْآرَارِي إِدَاةَ الدَّلِيلِ بِهَا * لَمْ تُجْطِهَا الْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُدَ
كَانَ الْحَصِينُ رُبَّيْ أَبَ يَمُورُ بِهَا * حَتَّى أَحْدَتَ عَلَيْهِ بِالْأَحَادِيدِ
مَا رَالَ يَسُفُ الْمُنَى وَتَبْطِطُهَا * حَتَّى أَسْتَقِلَّ بِهِ عَوْدٌ عَلَى عَوْدِ
وَصَعْتَهُ حَتَّ تَرْتَابُ الزُّمَاحُ بِهِ * وَتَحْسُدُ الطَّيْرَ مَهْ أَصْعُ الْيَدِ
سَدُو الصَّوَارِي قَتَرِيهِ مَعْطَا * نَسْتَشِي الْحَوَّ أَهَاسًا تَنْصَبِيدِ
يَتَمُّ أَهَاسُهُ طَوْرًا وَمَوْقِعُهُ * يَلْسَ فِي عَاقِبِي مَهْ وَتَحْسِيدِ
فَكَانَ فَارِطٌ قَوْمِ حَانَ مَكْرُهُمْ ^(٥) * بَارِصَ رَادَاتِ شَقَى فِي الْمَوَارِيدِ
يَوْمَ حُرَاشَةِ إِدَاةِ شَيْبَانَ مُوَحَّفُهُ * يَحْوُونَ مَكَّ يَلُومُهُ مَقْدُودِ
زَاخَفْتُهُ نَارَ سُفْيَانٍ فَكَانَ لَهُ * شَاءَ يَوْمَ يَطْهَرُ الْعَيْبَ مَشْهُودِ
عَمَّا قَلِيلًا وَوَأَى زَحْرُوعَانَهُ * يَوْمَهُ طَبَرٌ مَحْوِيٍّ وَمَسْمُودِ
وَلَّى وَقَدْ حَرَقَتْ مَهَ الْقَا حُرْمًا * حَى الْمَغَافَةِ مَيْتًا عَيْرَ مَوْدُودِ
زَالَتْ حُنَاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُعْتَدِلِ * دَائِي الْكُيُوبِ بَعِيدَ الصُّدْرِ أُمْلُودِ ^(٦)
إِذَا السُّيُوفُ أَصَاتَهُ تَقَطَّعَ فِي * سُرَادِيٍّ نَحْوَامِي الْخَبْلِ مِمْدُودِ
هَدَى عَمَّا تَحْتَهُ مِنْ جِلَاقِهِ * حُنَاشَةَ الزُّكُصِ مِنْ حَرْدَاءِ قَيْدُودِ ^(٧)
حَلَّ اللَّوَاءِ وَحَالَ الْحَدَرِ عَائِدُهُ * هَادٍ مَالِخَدَرُ تَرْبُ الْكَكَافِ الرُّودِ

(١) أَعْدَرُ حَاءٌ مَا يَطْرُقُهُ (٢) أَيُ أَعْرَتْ طَوَائِفُهَا (٣) تَرْتَابٌ . أَيُ نَسْتَشِي .

(٤) الْأَدْيَاءُ جَمْعُ . وَهُوَ الضَّلَّ أَحْرَارًا . وَالْحَسْدُ الْهَمُّ (٥) مَوْجَعَةٌ مَهْ يَمَّةٌ

(٦) أُمْلُودُ أَمْلَسُ (٧) الْحَرْدَاءُ قَصِيرَةُ الشَّعْرِ وَالْمِيدُودُ الْهَاقَةُ الطَّوِيلَةُ الطَّهَرُ .

وإن يكن شَبَّها حراً وقد تَحَدَّت * فائِثاً حيث لا هَبْد ولا هَبْد ^(١)
 كَلَّ مَثَلَتْ به في مثل خُطْبَتِهِ * قَتَلَا وَاصْحَتَهُ في غير مَلْعُود
 عَافُوا رِضَاكَ مَعَاقِفَهُمْ مَقْوِيهِمْ ^(٢) * عَنِ الْحَيَاءِ مَا يَاهِم لِمَوْعُود
 وَأَنْتَ بِالسَّدَادِ هَاجَ الصَّرِيحُهَا * وَأَسْتَعِدْتُ حَرْبَهَا كِبَدَ الْمَكَايِدِ
 وَأَسْتَعِزُّ الْقَوْمَ كَأَسَا مِنْ دِمَائِهِمْ * وَأَحْدَقَ الْمَوْتَ بِالْكَرَارِ وَالْجِيدِ
 رَدَدْتَ أَهْمَالَهَا الْقَصْوَى بِحَيْثِهِ ^(٣) * وَشِمْتَ بِالْبَيْصِ عَوْرَاتِ الْمَرَاصِيدِ
 كُنْتَ الْمَهْلِكُ حَتَّى شَكَّ عَالِمُهُمْ * ثُمَّ انْهَرَدَتْ وَلَمْ تُسَقِّ بِتَوِيدِ
 لَمْ يَقْبَلِ السَّلْمُ إِلَّا بَعْدَ مَقْدَرِهِ * وَلَا تَأَلَّفَتْ إِلَّا بَعْدَ تَبِيدِ
 حَتَّى أَجَابُوكَ مِنْ مَسَائِيهِ حَيْدِر * رَاجٍ وَمُنْتَظِرٍ حَتْفًا وَمُتَشَوِّدِ
 أَهْدَى إِلَيْكَ عَلَى الشَّعَاءِ أَلْفَهُمْ * مَوْتُ هَمَزٍ فِي شَقَى عِبَادِيدِ
 وَوَيْدِيكَ نَحَايَا مِنْ سَرَاتِهِمْ * هُمْ لَدَيْكَ عَلَى وَعْدٍ وَتَوَعِيدِ
 إِنْ تَفُتَّ عَنْهُمْ فَأَهْلُ الْعَوَاتِ وَإِنْ * تُخَمِّصُ الْعِقَابَ فَأَمْرٌ عَيْرُ مَرْدُودِ
 إِسْمِعْ لَدَيْكَ قَدْ هَبَّتْ مَلْعَمَةٌ * وَقَدَّتْ مِنْهَا أَرْوَاحُ الصَّنَادِيدِ
 أَفْدِيفَ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَنْحُكُهَا * وَيَسْعَ مَهَا حَمْدُكَ بِمَجْدُودِ
 يَمْحَى بِمِزْمِكَ أَوْ يَحْزَى بِشَاوُكَ أَوْ * يَفْرَى بِحَمْدِكَ كُلُّ عَيْرِ عُدُودِ
 لَا يَصْدَمُكَ حَمَى الْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ * أَهْمَتْ قُلَّتَهُ مِنْ هَدِّ تَأْوِيدِ
 كَعِيتَ فِي الْمُلْكِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ * عَلَى صَيَاعٍ وَلَمْ يَحْزَرْ لِمَقْشُودِ
 أُعْطِيَتْهُمْ مِنْكَ نَفْسًا لَا كِفَاءَ لَهُ * وَأَيُّوكَ بَرَكَنَ عَيْرُ مَهْدُودِ
 لَمْ يَبِيعْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا هَدَّ لَيْلَتِهِ * إِلَّا أَتَبَعَتْ لَهُ مَالِبَاسُ وَالْجُودِ
 أَجْرَى لَكَ اللَّهُ أَبَامَ الْحَيَاءِ عَلَى * فَعَلِيَ حَيْدٍ وَجَدَّ غَرْمُكَ مَكُودِ

(١) كَلَّانَ يَحْرُسُهُمَا الْإِلَ . (٢) مَقْوِيَهُمْ، أَيْ هَاتِهِمْ . (٣) الْأَمَالِ . جَمْعُ هَمَلٍ، وَهِيَ

لا يفقد الدين خيلا أن قائدها ، يُتهدد في كل ثمر غير معهود
 محلات إذا آت عاتمها * ومقدمات على نصر وتأيد
 هناك أنك مَعْدَى كُلِّ مَتَمِس * حُودا وأك ماوى كل مطرود
 تستأف الحمدى دهر أوائله . موسومه فعال مك محمود
 إذا عزمت على أمر بطشت به . وإب ألت قَيْلا غير تصربد
 عودت بسك عادات حلقت لها * صدق الحديث وإنجاز المواعيد

دخل الوليد على العصل بن سهل ليشره شعراء فقال له : أيها الكهل ، إني أجلك
 من الشعر هل حاجتك ، قال . بل تستم اليد عدى ما سمع ، فأنشده :

دُموعها من جدار الدن تسك * وقلبها معرم من حرها يح
 حَذَّ الرِّجْلُ به عنها هارقهها لبسه اللهو واللذات والطرب
 يهوى المسير إلى مَرَو ويحرمه فراقها فهو ذو هسيب يرتقب

فقال له العصل . إني لأحلك عن الشعر ، قال : فأعنى بما أحببت من عملك ، فولاه
 البريدَ بِجُرْحَانِ^(١) .

لها مسلم قريشا ونفر بالأنصار شعر بمثل لك حاجبه من واحة النصبية بين القائل
 وهو يعتبر ، إلى حد ما ، من الشعر السياسى ، فقال .

قل لمن تاه إدباً عن جهلا ليس نالته يهجر الأحرار
 تناهسوا وأقصروا فلقدا حا * رت عن القصد مكم الأنصار
 أبكم حاط داجوار مَزْ . قبل أب تحتويه ما الدار
 أودحاً أن يصوت قوما يوتر * لم تنزل تنطيم الأوتار
 لم يكن ذاك فيكم فدعوا القعد * ر بما لا يسوع فيه أفتار
 ونزارا ففاحروا تفصلوهم * ودعوا من له عيب رار

(١) بلدة عطية كانت بالقرب من محر قروين إلى الجنوب الشرقى من

فما عَزَمَ مَكُّ الذِّلِّ والدع * سُرَّ عليكم رَيْبُهُ كَزَار
 حَافِرُوا دَوْلَةَ الرِّمَانِ عليكم * إِنَّهُ مِنْ أَهْلِهِ أَطْوَار
 فَتَرَدُّوا وَمِنْ لَحَالَةِ الْأَوْد * لِي وَلِلْأَوْحَادِ الْأَذَلِّ الصَّغَار
 فَأَخَّرْنَا لَهَا سَطْلَهَا الصَّحْر * رَقْرِيشٍ وَنَعْرَهَا مُسْتَعَار
 دَكَّرْتُ عَزَّهَا وَمَا كَانَ فِيهَا * قَسَلٌ أَنْ تَسْتَحِينَا مُسْتَعَار
 إِنَّمَا كَانَتْ عَزَّهَا فِي حَالِ * تَرْقِيهَا كَمَا تَرَقَّى السُّيُورَار
 أَهْلُهَا الْفَاخِرُونَ بِالْعِزِّ وَالْعَد * زُلْفُومٍ مِثْلِهِمُ الْوَعَار
 أَحْمَرُوا مِنَ الْأَعْرَ الْأَمْد * صُورُحِي أَعْلَى أُمِّ الْأَنْصَار
 وَلِذَا الْعِزُّ قَسَلٌ عَرَّ قَرِيْن * وَقَرِيْنٌ تِلْكَ الدَّهْوَرُ تَحَار

ما يرى له أبى قريبيجه فقال :

أَلَا أَمَثَلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُسْلِمٍ * وَأَقْلَقِي بِهِ الْأَحْشَاءَ مِنْ كُلِّ مُجَرِّمٍ
 وَلَا تَرَحُّنِي عَنْ قَتْلِهِ مَسْتَنَابَةً * مَا هُوَ عَنِ شِمِّ السَّيِّئِ الْمُحَرَّمِ
 وَلَا عَنِ مُسَاوَاةٍ لَهُ وَلِقَوْمِهِ * قَرِينَا مُضَادٌّ لِمَا دِ وَجُرْئِهِمْ
 وَيَحْرُ الْأَنْصَارُ حَمَلًا عَلَى الدِّي * بَصْرِهِ هَارُوا بِحِطِّ وَمَقَمِّ
 وَتَمَسَّوْا بِهِ الْأَنْصَارُ لَا عَرَّ قَائِلٍ * أَرَادَ قَرِينَا بِالْمَقَامِ الْمُدْتَمِ
 وَمِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ أَزَى مِنْ آتَمِي * إِلَى نَسَبِ زَاكِ وَبِحَدِّ مَقْتَمِ
 وَمَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ قُلُوبًا آخِضًا بِهَا * بِبَصْرِ قَرِيْنٍ فِي الْحَمَلِ الْمُعْظَمِ
 وَلَا مَالًا يُعْلَوْنَ أَقْدَارَ قَوْمِهِمْ * صُدَاءُ وَخَوْلَانٍ وَلَحْمٍ وَسِلَاقِهِمْ
 وَلَكِنَّهُمْ بِاللَّهِ عَادُوا وَصَرِيْهِمْ * قَرِيْنًا وَمَنْ يَسْتَعِصِمُ اللَّهَ يَعْصِمِ
 فَعَزَّوْا وَقَدْ كَانُوا وَهَّابُونَ فِيهِمْ * مِنْ الذِّلِّ فِي مَابِ مِنَ الْعِزِّ مَتَمِّ
 يَسُومُهُمُ الْقِطُوفُ مَا لَا يُسَامِهِ : كَرِيمٍ وَمَنْ لَا يُشْكِرُ الطَّلْمَ يُظْلَمُ
 وَإِنْ قَرَبْنَا مَا نَأْتُرُ فَضَّلْتُ * عَلَى الْخَلْقِ طَرَا مِنْ فَصِيحٍ وَأَعْمِ

ما مال هذا البلج صل صلاه * يذ اليهم كف احتم اغتم
 نساى قريشا مسلم وهم هم * مولى يمانى وبيت مهتم
 اذا قام فيه غيرهم لم يعكر لهم * مقام به من لؤم مئى ومدتم
 جاسيس^(١) اشاه القروذ ابوانهم * ياعوب ما ابنيوا جميعا بدرهم
 وما مسلم من هؤلاء ولا ألى * واكنه من تسل علج ملكم
 تولى زمانا غيرهم تمت ادعى * اليهم فلم يكرم ولما يكرم
 فإن يك منهم فالتصير ولهمهم * مواليه لا من ندعى بالترهم
 وإن تدع الانصار مولى أئمتهم * نقاية تنكره الحلد بالتم
 عقالا لهم فى إفكهم واذناتهم * لأفلف مقوش الدراع مؤتم
 فلا تدعوه وآتوا به تسلموا * يقيكوه من مقال ومأثم
 وإلا فعصوا الطرف وآتطروا الردى * اذا احتلفت بكم صوارد أسهمى
 ولم تحمدوا عبا يحتم يحكم * اذا أطلعت من كل فتح ومعلم
 واسم سوادك من أنتم له * ولسم هاساء السام المقدم
 ولا يلى الرأس الربيع محله * فيسمو بكم مولى مسام ويتسمى
 فكيف رصنم أب بسامى بلكم * سنكم الرث القصير المهتم
 ساحط من سامى الى تطاولا * عليه وأكوى منتهام بميسى
 أئندل بت يفرى حكمة * قوتها قويس فى المكاب المحترم
 قريش خار الله والله خصمهم * بذلك فاقم أبها الملح وأزعم
 ومن تدعى به الولاء مؤثر * اذا قيل للحارى الى المحمد أقدم
 وكان مسلم قال قصيدته وقريش وكنمها، فوقعت إلى اس قنر وأحابه عبا، فاستعمل
 عليه وهتكه وأغرى به السلطان، فلم يكن عد مسلم فى هذا جواب أكثر من الاستفاء منها

ونسبتها الى ابن قبر والاذماء عليه أنه ألصقها به ونسبها اليه ليرصه السلطان وخافه، فقال
ينبغي من هذه القصيدة :

دعوت أمير المؤمنين ولم تكس * هلاك ولكن من يحف يحشم
وانك اذ سمعوا الخليفة ناصرا * لكألترق في السماء بسلم
كذلك الصدى تدعوه من حيث لا ترى * واب تنوقه تمت في التوهم
جموت قريشا حامدا ونحلتني * رؤيدك يظهر ما تحول فيعلم
اذا كان مثل في قبيل فإنه * عل ابن لوى قصرة غيرتهم
سيكشفك التعديل عما قد قى * به فأنر طارفا أو تقدم
فإن قريشا لا يعادر ودعا * ولا يستمال عهدا بالترحم
معى سلف مهم وصل يعقبهم * لا سلف في الأول المتقدم
حروا حريتنا سابقين بسبقهم * كما أتبت كف نواشر معضم
واب الذي يسعى ليقطع بيننا * كدئس البروع في محر أرقم
أضلك فرغ الأبدان طريقها * فأصبحت من عبيانها في تهم
وحانتك عد الجرى لما أتبتها * تمم حاولت الملا بالتقضم
فأصبحت ترميني سهمى وثقى * بدى يبدى أصليت نارك فاضرم

ثم تجاه ابن قبر بقصيده أولا :

قل لعبد النصير مسلم الوء * بد الذي الكيم ينخ النصاب
إخس يا كلب اذ نحت فإى * لست من يحب نبح الكلاب
أأرعى ومصبي مصب الم * وبتى في ذروة الأحساب
أن أخط الرمع من تمك بتي * بمهاجاة أوشب الاوشاب
من اذا سبل من أبوه بدا مذ * ه حياه يحبه رجع الحساب

وإذا قيل حين يُقِيل من أد * ست ومن تتعزیه و الأنساب
 قلت هاجی آبرِ قبر قسمر بد * ست مذکری نخرألدی النساب
 وهي قصيدة طويلة فلم يحده عنها مسلم شيء فقال فيه أن قبر أيضا :
 لست أنفیک إن سواى نعا کا * عن أیسک الذی له منما کا
 ولماذا أنفیک یا بن الولید * من أب إن ذکرته أنراکا
 ولو أنى طلبت الأم منه * لم أحده إن لم تكن أنت ذاکا
 لو سواہ أولک کان جمعا * إذا الس طاوروا أباکا
 حاک دهرأ بعیر حنق لبُرید * وتُحسوک الأشعار أنت کذاکا

ثم هجاه بشعر أقدح فيه، فثنى إليه قوم من مشايخ الأنصار واستعاوا عشيجه من قُزاة
 نيم ودوى الفصل والعلم، فمشوا معهم إليه، فقالوا: ألا تستحي من أن تهجو من لا يهيك!
 أنبدأت الرجل فأحاك، ثم عدت فكففت، وتجاوزت ذلك إلى ذكر أعراض الأنصار التي
 كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهيجها ويدت عنها ويصونها ليعر حال أحلت ذلك منهم،
 فما زالوا به يعطونه ويقولون له كل قول حتى أمسك عن المناقصة لمسلم فانقطعت .

ولمسلم بن الوليد :

وإني وإسماعيل يوم وداعه * لكالعمد يوم الرُوع فارقه الصل
 أما والحالات المُنزات بينا * وسائل أقتها المودة والوصل
 لما خست عهدا من إحاء ولا نأى * مذكرك نأى عن صميرى ولا شغل
 وإنى و مالى وأهلى كأنى * لنأيك لا مال لى ولا أهل
 يدكرينيك الدين والفصل والجبا * وقيل الحسا وألحم وألحم والجهل
 فالعالم عن مدمومها متبرها * وألقاك و محمودها ولك الفصل
 وأحمد من أحلافك الجهل إبه * بعيرصك لا بالمال حاشا لك الجهل
 أمسيجما مَرُوا بأهال يهمة * دَعِ الثقل وأحمل حاجة ما لها ثقل

نَاءَ كَعْرِفِ الْعِطِبِ يُهْدَى لِأَهْلِهِ * وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا بَنَى حَالَهُ أَهْلُ
 فَإِنْ أَخْشَى قَوْمًا مَدَّ أَوْ أَزْوَارَهُمْ * فَكَالْوَحْشِ يَسْتَنْدِيهِ لِلْقَصْرِ الْمُحَلِّ
 وَلَهُ يَرْثِي يَزِيدُ بْنُ مَرْزُوقٍ :

أَحَقُّ إِنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ * تَأْتَلُ أَيُّهَا السَّاعِي الْمُشِيدُ
 أَتَدْرِي مَنْ بَيَّتَ فَكَيْفَ فَاهَتْ * بِهِ شَفَاكَ كَانَ بِهِ الصَّمِيدُ
 أَحَابِي الْمَهْدِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى * هِيَ لِلْأَرْضِ وَيَحْكُ لَا تَمِيدُ
 تَأْمَلُ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ * دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
 وَهَلْ شِئْتَ سَيُوفُ بَنِي زَارٍ * وَهَلْ وَصَّيْتَ عَنْ الْحِيلِ الْبُودُ
 وَهَلْ تَسْقَى اللَّادَةَ عِشَارَ مُزْنٍ * يَدْرَتُهَا وَهَلْ يَحْمَرُّ عُودُ
 أَمَا هُكِّدْتَ لِمَصْرَعِهِ زَارٍ * عَلَى وَخَوْضِ الْمَجْدِ الْمَشِيدُ
 وَحَلَّ صَرِيحُهُ إِذْ حَلَّ بِهِ * طَرِيفُ الْمَهْدِ وَالْحَسْبُ التَّلِيدُ
 أَمَا وَاللَّهِ مَا تَمَعَكَ حِينِي * طَلَبْتُكَ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجُودُ
 فَإِنْ تَجَمَّدَ دَمُوعٌ لَيْتِمَ قَوْمٍ * فَلَيْسَ لِدَمْعِي حَسْبُ جَمُودُ
 أَتَعُدُّ يَزِيدُ تَحْتَرِبُ الْبَوَاكِي * دَمُوعًا أَوْ نُصَابًا لَهَا حُدُودُ
 لَيْسَ لَكَ قَبْلَهُ الْإِسْلَامُ لَهَا * وَهِيَ أَطْنَأُهَا وَهِيَ الْعُمُودُ
 وَيَيْكُ شَاعِرٌ لَمْ يَبْقِ دَهْرٌ * لَهُ نَسَبًا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
 مَنْ يَدْعُو الْإِمَامَ لِكُلِّ حَطَبٍ * يَبُوبُ وَكُلُّ مُعْضَلَةٍ تَفُودُ
 وَمَنْ يَحْيَى الْحَمِيسَ إِذَا تَعَا * بِحِيلَةٍ هِيَ الطَّلُ الْجَمِيدُ
 فَإِنْ تَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلِّ حَتَّى * فَرَسٌ لِلْيَمَةِ أَوْ طَرِيدُ
 أَلَمْ تَجِبْ لَهُ أَبَ الْمَسَايَا * فَتَكُنْ بِهِ وَهَنْ لَهَا حُنُودُ
 لَقَدْ مَرَى رَيْعَةً أَنْ يَوْمًا * طَلَبَهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَمُودُ

١٣ - العباس بن الأحنف^(١)

قال إبراهيم بن العباس يصفه : كان والله ممن اذا تكلم لم يثبت سامعه أن يسكت ، وكان فصيحاً حليلاً طريفاً اللسان ، لو شئت أن تقول كلامه كله شعر لقلت .

وقال صالح بن عبد الوهاب : كان العباس من عرب حُرَّاسان ومنشؤه ببغداد ، ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال قد ترى له الشيء العارح حدّا حتى تلحقه بالمحسين .

وقال الحافظ : لولا أن العباس بن الأحنف أهدق الدس وأشعرهم ، وأوسعهم كلاماً وحاطراً ، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يحاوره ، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف ، وما علم شاعراً لرم قماً واحداً لرويه فأحسن فيه وأكثر .

أنشد الحرمازي للعباس بن الأحنف

لا حَرَى الله دمعَ عيني حيراً * وحَرَى الله كلَّ حيرٍ لساني

تم دمي طيس مكنم شيئاً ورأيت الناسَ ذا كتمان

كنتُ مثلَ الكلابِ أحفاه طلي * فاستندأوا عليه بالعنوان

ثم قال : هذا والله طرازٌ يطلُّ الشعراءُ مثله فلا يقدرُون عليه .

(١) كان العباس شاعراً عرلاً ، ملوفاً من شعراء الدولة العباسية ، وله مذهب حسن ، وله بياحة شعره وريق ، ولما يسه عدوية ولطف ، ولم يكن يجاوز العزل إلى مدح ولا هجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المرد في كتاب الروضة على طرائفه وأطرب في وصفه ، وقال : رأيت جماعة من الزواة للشعر يقدمونه ، قال وكان العباس من الطراف ولم يكن من الخلفاء ، وكان عرلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان طاهر الحجة ملوكاً المذهب شديد التطرف . وذلك بين في شعره ، وكان قصده العزل وشعره النسيب ، وكان - لمّا مقررلاً عرلاً - عريراً المكر واسع الكلام كثير التصرف في المعزل وحده ، ولم يكن هجاء ولا مداحاً . وله ديوان طبع مع ديوان ابن مفرح بالأسنة سنة ١٢٩٨ هـ وبعد أعياده وأشعاره في الأغاني (ج ٨ ص ١٥) وابن حليكان (ج ١ ص ٣٤٦) والششم والشعراء (ص ٥٢٥) .

وكان أبو الهذيل العلاف يُنِصِّه ويلمعه لقوله :

إذا أردتُ سلُّوا كان مَصْرَمٌ * قلبي وما أنا من قلبي بمْتَصِرٍ
فاكثروا أو أقلُّوا من إساءتكم * فكلُّ ذلك محمولٌ على القَدْرِ

فكان أبو الهذيل يلّمه ويقول : يَعْقِدُ الكُفْرَ والفُجُورَ في شعره ، فقال العاصم — وقال محمد بن يحيى . وأطل أنه يهجو به أنا الهذيل وما سمعتُ للعاصم هجاء غيره — :
يا مَنْ يَكْذِبُ أخبارَ الرسولِ لقد * أخطأتِ في كلِّ ما تأتي وما تَدْرُ
كَدَّتْ مَالِقَدْرُ الحارِى عليك فقد * أذاك مني بما لا تَشْتَهِي القَدْرُ

قيل للأصمعي : ما أحسنُ ما تحفظُ للحَدِيثين * قال : قولُ العاصم بن الأحنف :
لو كنتِ عاتيةً لسكنَ رَوْعِي . أَمَلِي رِضَاكَ وَزُرْتُ عَيْرَ مِرَاقِبِ
لكن مَلَّتِ فلم تكن لي حِيلَةً * صَدَّ المَلُولُ حِلافاً صَدَّ العائِبِ
ومما أُنشده له ابراهيم بن العاصم :

قالت طَلُومٌ تَبِيَّةُ الطَّلِمِ * مالى رأيتُكَ ماحِلَ الجِسمِ
يا مَنْ رَمَى قَلْبِي فَأَقْصَدَهُ * أنتَ العَلِيمُ بمَوْضِعِ السِّمِ

ولشعره الغزليّ وقَعَ في النفس ، فانهم كانوا يَفْضُون كثيرًا منه كقوله :
لو كنتِ عاتيةً لسكنَ رَوْعِي * أَمَلِ رِصَاكَ وَزُرْتُ غَيْرَ مِرَاقِبِ
لكن مَلَّتِ فلم تكن لي حِيلَةً * صَدَّ المَلُولِ حِلافاً صَدَّ العائِبِ
وأنشده الأصمعي :

أناذِرونَ لَصَبٌ في زيارتكم * فعندكم شَهَوَاتُ السَّمْعِ والبَصَرِ
لا يُبْصِرُ السَّوءَ إن طال الجُلُوسُ به * عَفَّ الضَمِيرُ ولكن فاسقَ النَظَرِ

فقال : ما زال هذا القبيّ يَدْخُلُ يَدَهُ في رِجَاهِ فلا يُخْرِجُ شيئًا حتى أدخلها فانخرج هذا ، ومن أدمن طلبَ شيءٍ ظفرَ بِيَعْضِهِ .

وقال سَعِيد بن جُبَيْد : ما أعرف أحسنَ من شعر العباس في إحماء أمره حيث يقول :

أُرِيدُكَ بالسَّلام فَأَتَقِيمُ * فَأَعِيدُ بالسَّلام اني سَوَاكِ
وَأكْثَرُ فِيهِمْ صَحْكِ لِيَحْنَى * فَيَسَى صَاحَكَ وَالْقَلْبُ نَاكِ

ومما تَمَثَّلَ به الْوَائِقُ في شَرْكَانَ بَيْتِهِ وَبَيْنَ بَعْضِ حَوَارِيهِ :

عَدَلٌ مِنْ اللَّهِ أَبْكَانِي وَأَصْحَكُمَا * فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَدَلٌ كُلُّ مَا صَمَا
الْيَوْمَ أَبْكِي عَلَى قَلْبِي وَأَنْدُبُهُ * قَلْبُ أَلْحَ عَلَيْهِ الْحُبُّ فَاصْطَدَا

ومما تَمَثَّلَ به أَيْضًا في مِثْلِ ذَلِكَ :

أَمَا تَحْسِنِي أَرَى الْعَاشِقِينَ * بَلَى ثُمَّ لَسْتُ أَرَى لِي بَطِيرًا
لَمَلَّ الَّذِي يَبْدِيهِ الْأُمُورُ * سَيَجْعَلُ في الْكُرْهِ حَيْرًا كَثِيرًا

وقال الرُّبَيْرُ : إِبْنُ الْأَحْمَفِ أَشْعَرُ النَّاسِ في قَوْلِهِ :

تَعْتَلُّ مَالِشَعْلَ عَا مَا تَكَلَّمَا * الشَّخْلُ لِلْقَلْبِ لَيْسَ الشَّعْلُ لِلدِّبِ

ويقول : لا أعلم شئنا من أمور الدنيا حيرها وشَرَّها إِلَّا وَهُوَ يَصْلُحُ أَنْ يَمَثَلَ فِيهِ هَذَا النِّصْفُ الْأَخِيرُ .

وقال إِسْحَاقُ : لَعْدُ ظُرْفِ ابْنِ الْأَحْمَفِ في قَوْلِهِ — يَصِفُ طَوْلَ عَهْدِهِ بِالْيَوْمِ —

فَمَا حَبْرَانِي أَيْهَا الرِّحْلَانِ * عَنِ السَّوْمِ إِنْ الْمَحْرَعَةَ هَبَانِي
وَكَيْفَ يَكُونُ النَّوْمُ أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ * صِفَا السَّوْمَ لِي إِنْ كُنْتُ تَصْهَانِ
عَلَى قَلْبِهِ إِعْجَابُهُ يَمَثَلُ هَذِهِ الْأَشْعَارُ .

قال أحمد بن إبراهيم : رأيت سَلَمَةَ بنَ عَاصِمٍ وَمَعَهُ شَعْرُ الْعَبَّاسِ بنِ الْأَحْمَفِ ، وَقَلَّتْ

مِثْلُكَ أَعَزَّكَ اللَّهُ يَجْعَلُ هَذَا ! فَقَالَ : أَلَا أَحْمِلُ شَعْرًا مِنْ يَقُولِ :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ طَعْمِي نَكَمَ * وَالْحَزْمُ سُوءُ الطَّلِ بِالْيَاسِ
يُقَالُ لِي الشَّوْقُ فَأَتِيكُمْ * وَالْقَلْبُ مَمْلُوءٌ مِنَ الْيَاسِ

وقال أحمد بن إبراهيم: أنا في أعرابي فصيح طريف، جعلت أكتب عنه أشياء حسناً،
ثم قال: أشدني لأصحابكم الحصريين، فأسدته للعاس بن الأحف:
دكرتك بالتفاح لما شيمته * وبالراح لما قامت أوجه الشرب
تدكرت بالتفاح منك سؤالا * وبالراح طمأ من مقبلك العذب
فقال: هذا عندك وأنت تكتب عني! لا أنشدك حراً بعد هذا.

وقال عبد الله بن العباس بن المصل: ما أعرف في العراق أحسن من قول ابن الأحف:
سحان رب العلا ما كان أغفلني * عما رمتني به الأيام والزمن
من لم يذق ورقة الأحباب ثم يرى * آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزن
قال حسين بن الصمك: لواء العاس قول ماقاله في بيتين في أبيات لعبد، وهو قوله:
لعمرك ما يستريح الحب حتى يسوح بأسراره
فقد يكتم المرء أسراره * فتظهر من مص أشعاره
ثم قال: أما قوله في هذا المعنى الذي لم يتقدم فيه أحد فهو:

الحب أملك للعواد بهيره * من أن يرى للسرى فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه * لم يند إلا والفتى مغلوب

وقال أبو العتاهية: ما حسدت أحدا إلا العاس بن الأحف في قوله:
إذا امتع القريب لم تله * على قرب فذاك هو البعيد

وقال الكندي: العاس بن الأحف مليح طريف حكيم جرئ في شعره، وكان قليلا
ما يرصني الشعر، فكان يشده كثيرا:

ألا تفحسون كما أعجب * حبيب يسى ولا يمتب
وأبني رصاء على شطه * فإني حلّ ويستصمب
فأليت حظي إذا ما أسأ * ت أنك ترضى ولا تفضب

وكان إبراهيم الموصلي مشعوقا بشعر العباس فيغني في كثير من شعره، مما غني فيه :
وقد ملكت ماء الشباب كأنها * قصيب من الریحان ریان أخصر
مهم كتموني سيرهم حين أزمعوا * وقالوا اتعدنا للرواح وهكروا
ومنه :

تمنى رجال ما أحووا وإنما * نمت أن أشكو اليك وتسمعا
أرى كل معشوقين يرى وعيرها * قد استعدا طول الهوى ويمتعا
ومنه :

يكت عني لأصواع . من الحزن وأوجاع
ولمى كل يوم عسكركم يحفظي بي الساعي
أعيش الدهر إن عشت * قلب منك مُرتاج
وإن حل بي البعد * سيتعاني لك الساعي

وقال الواثق بلسانه . أريد أن أصع لحنا في شعر معاه أد الإنسان كائنا من كان
لا يقدر على الاحتراس من عنقه، فهل تعرفون في هذا شيئا فأتشدوه صروما من الأشعار،
فقال : ما جئتم بشيء مثل قول العباس بن الأحف :

قلبي الى ما صرني داعي . مكثرت أسفاي وأوجاعي
كيف احتراي من عدوي ادا * كلب عدوي بين أصلاي
أسلني للهب أشياي * لما سعى في عددا الساعي
لقبا أبقي على كل ذا . يؤشك أب يتعاني الباي
ومما غني فيه من شعره :

أبي الدين إذا قوري مودتهم حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا

وقال إبراهيم بن العباس : ما رأيت كلاما محدثا أجزل في رقه ، ولا أصعب في سهولة ،
ولا أبلغ في إيجاز ، من قول العباس بن الأحف :
تعالى نجد دارس العهد بينا * كلاما على طول الحفاء ملوم

وأشد إبراهيم بن العباس للأحف

إن قال لم يفعل وإن سئل لم * يتسأل وإن عتب لم يعتب
صت عصباني ولو قال لي * لا تشرب البارد لم أشرب
إليك أشكورت ما حل بي * من صد هذا المذنب المغضب

ثم قال . هذا والله الكلام الحسن المعنى ، السهل المودد ، القريب المتناول ، المليح
اللفظ ، العذب المستمع .

ومما غنى فيه من شعره .

ما من من أهدى لى الأرقا مستريحاً سامي قلقا
لو بيت الساس كلهم * بشأدى بيص الحدقا
كان لى قلب أعيش به * فاصطلح بالحب فاحترقا
أنا لم أرزق مودتكم . إنما للعبد ما رزقا

وقال ابن المعتز . لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس بن الأحنف :

قد سحب الساس أذيال الطنوس سا * وفرق الساس ميا قومهم فرقا
مكادك قد رمى بالحب عبركم * وصادق ليس يذرى أنه صدقا

ومما تمثل به الفضل بن الربيع فى أمر كان بينه وبين إحدى جواريه :

تمحل عظيم الدن من تحبه * وإن كنت مظلوماً فقل أنا ظالم
فإلك إلا تعير الدن فى الهوى . يعارقك من تهوى وأهلك راغم

أشد محمد الموصلى قصيدته التى يقول فيها :

كل شيء أقوى عليه ولكن * ليس لى بالفراق منك يدان

فجعل يستحسنه ويردده ، فقال له عبد الله بن ربيعة الرقي : أنت الفداء لمن ابتدأ هذا

المعنى فأحسن فيه حيث يقول — وهو العباس بن الأحنف — :

سلبتني من السرور ثياباً * وكسّني من المموم ثياباً
كلما أغلقت من الوصل باباً - فمحت لي الى المنيّة مآلاً
عدّيني بكل شيء سوى الصدق ما دقت كالصدود عدائاً

قال الرّياشي - وقد ذكر عنه الماسّ بن الأحف - : والله لو لم يقل من الشعر
إلا هذين البيتين لكفياً .

أحرمكم مما أقول وقد * نال به الماشقون من عَشَقُوا
صرت كأي دُبالةٍ صُبت * تُعيء للباس وهي تحترقُ

ألف الرشيد العباس بن الأحف ، فلما خرج الى خراسان طال مقامه بها ، ثم خرج الى
أرمينية والعباس معه ، فاشتاق الى بغداد ، فعارصه في طريقه ، فأنشده .

قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا * ثم القُفُولُ نقد جئنا خراساناً
ما أقدر الله أن يذِي على شَطحٍ * سكان دجلة من سكان حِمْيَراً
معي الذي كنت أرجوه وأملُهُ * أما الذي كنت أخشاه فقد كما
عين الزمان أصابنا فلا نظرتُ * وعدت صُوف المجر ألوانا

فقال له الرشيد : قد اشتقت يا عباس ، وأذنت لك حاصة ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

وقال مُصَنَّب الزُّبَيْري : العباس بن الأحف وعمر بن أبي ربيعة ما ابتدلا شعرهما
في رغبة ولا رهبة ، ولكن فيما أحبّاه ، فلزما فماً واحداً لو لزمه غيرهما ممن يكثران ثمارهما
لضمف فيه .

١٤ - ابن مناذر^(١)

كان يَحْوِي حَوْصَ عِدَى رَيْدٍ فِي سِفْرِهِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ وَيَهْتَمُّهُ، وَقَدْ مَدَحَ آلَ بَرْمَكٍ وَغَيْرَهُمْ . وَلَمَّا نَكَبَتْ الْبَرَامِكَةُ وَأَلَّتْ الْوِزَارَةَ إِلَى عَدُوِّهِمُ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ أَصْبَحَ شَعْرَاءُ الْبَرَامِكَةُ فِي حَطَرٍ، فَأَرَادَ أَسَى مُبَادِيرُ أَنْ يَتَقَرَّبَ إِلَى الرَّشِيدِ طَلَبًا لِلرِّزْقِ، فَأَخْتَمَ دَهَابَهُ إِلَى الْخَلِّ وَتَعَذَّرَ إِلَيْهِ يَوْمَ التَّوْبَةِ مَقْصِدُهُ، فَلَاحَ الْبَشْرُ فِي وَجْهِ الرَّشِيدِ، فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ لِلرَّشِيدِ هَذَا شَاعِرُ الْبَرَامِكَةِ ' فَهَبَسَ الرَّشِيدُ، فَقَالَ الْعَصْلُ : خُزْهُ أَنْ يُشِيدَكَ قَوْلُهُ فِيهِمْ . أَنَا مَا سِوَ الْأُمْلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ، فَأَمْرُهُ، فَأَعْتَدَرُ، فَأُلْحَ عَلَيْهِ، فَأَشْدُهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ الَّتِي يُطَارِي بِهَا الْبَرَامِكَةُ :

أَنَا مَا بَنُو الْأُمْلَاكِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ : فَيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَطَرٍ
إِذَا وَرَدُوا بِطَعَامٍ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ : بَحْجِي وَالْفَضْلُ بْنُ نَحْيٍ وَجَمْعُ
مَقْطُومٍ مَعْدَادٌ وَيَحْتَلُّوْا الدُّخَى * عَمَّكَ مَا حَجَّوْا ثَلَاثَةَ أَكْفَرٍ
وَمَا صَلَحَتْ إِلَّا لِحُدُودِ أَكْثَمُهُمْ وَأَرْحَلُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مَيْتَرٍ
إِذَا رَاصَ بِحِجْيِ الْأَمْرِ دَلَّتْ صِبَاغُهُ * وَحَسْنُكَ مِنْ رَاجٍ لَهُ وَمُدَبَّرٍ
تَرَى النَّاسَ إِحْلَالًا لَهُ وَكَأْتَهُمْ * عَرَايِقِي مَاءَ تَحْتَ نَازِ مُصَرِّمِرٍ^(٢)

وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا أَتَعَ ذَلِكَ قَوْلُهُ . « كَانُوا أَوْلِيَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا مَدَحْتَهُمْ » فَأَمَرَ الرَّشِيدُ أَنْ يُلْطَمَ، لِلطَّمُودِ، وَأَمَرَ أَنْ يُسْحَبَ، فَسَحَبُوهُ وَخَرَجَ لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، فَلَقِيَهُ

(١) هو محمد بن ماذن، مولد في بروج، ويكنى أبا حمزة. تاجر صبيح، مقدم في العلم والفقه وإمام فيها. حتى أحد عنه أكار أهلها. وكان في أول أمره يتعدى ثم عدل عن ذلك، فهاج الناس وتبكت وحلج وقذف أغراض أهل البصرة حتى هي عنها إلى الحجاز، فمات هناك سنة ١٩٨ هـ. وقد أجبته في الأمان (ح ١٧ ص ٩) والنشر والنشر. (ص ٥٥٣) . (٢) الرائيق: جمع عروق، وهو طائر مائي أسود وقيل أبيض يشبه الكوكب. (٣) مصرصر: صائح مثقفة.

أبو واس فدفع اليه صُرَّةً فيها ثلثائة دينار ، وقال له : استعن بهذه وأعدني . ولم يعد
أبن منذر يرى خيراً بعد البرامكة .

قال الحسن بن علي كذا عند باب سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ وقد هَرَبَ ما وعنده الحسن بن علي
التَّحْتِاحَ ورجلٌ من أصحاب الرشيد ، غفلا بهم وليس مأذَنُ لنا ، فجاء أبنُ منذرٍ فقرب من
الباب ثم رفع صوته فقال :

يَعْمُرُو وَالزُّهْرَى وَالسَّافِ الْأُلَى . بهم تَتَتَّ رِحْلَاكَ عَسَدِ الْمَقَادِمِ
جَعَلَتْ طَوَالَ الدَّهْرِ يَوْمًا لَصَالِحٍ * وَيَوْمًا لَصَبَاحٍ وَيَوْمًا لِحَاسِمٍ
وَلِلْحَسَنِ التَّحْتِاحِ يَوْمًا وَدَوَاهِمِ * حَصَصْتَ حَسِبًا دُونَ أَهْلِ الْمَوَاسِمِ
طَرْتُ وَطَالَ الْفِكْرُ مَيْكَ هَلْ أَحْجُذُ * رَحَاكَ جَرَّتْ إِلَّا لِأَخِيهِ الدَّرَاهِمِ

فخرج سميان وفي يده عصا وصاح : خذوا العاسق ، فهرب أبن منذر منه وأذن لنا فدخلنا .
كان الرشيد قد وصل أبن منذر مراتٍ صلاتٍ سنية ، فلما مات الرشيد رثاه بقوله :
مَنْ كَانَ يَتَكَبَّرُ لِلْعُلَا * مَلِكًا وَلِلْهَيْمِ الشَّرِيفِ
فَلْيَكِ هَارُوتَ الْحَلِي . غَفَةً لِلْهَيْمَةِ لَخْلِيفِهِ

قال علي بن محمد البوقلي : رأيت أبن منذر في الخ تسه ثمان وتسعين ومائة وهو قد كُفَّ
بصره تقوده جُورِيَّةٌ حرة وهو واقف يشتري ماء قربة ، فرأيتُه وسمع الثوب والبدن ، فلما
صيرنا الى البصرة أنقنا وفاته في تلك الأيام .

كان يحيى بن زياد يُرعى بالزندقة ، وكان من أطرف الناس وأنظفهم ، فكان يقال :
أطرف من الزنديقي ، وكان الحارثي ، واسمه محمد بن زياد ، يُظهر الزندقة تظاهرًا ، فقال فيه
أبن منذر :

يَا أَبْنِ زِيَادٍ يَا أَبَا جَعْفَرٍ * أَظْهَرْتَ دِيبًا غَيْرَ مَا تُخْفِي
مُرْتَدُّكَ الظَّاهِرَ بِاللَّفْظِ فِي * بَاطِنِ إِسْلَامٍ فَتَى عَفٍ
لَسْتُ زِنْدِيقِي وَلَكِنِّي * أُرِدْتُ أَنْ تُؤَسِّمَ بِالظُّرْفِ

ومن قوله يرى سميان بن حبيبة :

يُحْنِي مِنَ الْحِكْمَةِ نُوَارَهَا * مَا تَشْبِي الْأَنْفُسَ الْوَارَا
يَا وَاحِدَ الْأُمَمَةِ فِي عِلْمِهِ * لَقِيتَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ غُفْرَانَا
رَاحُوا بِسَعْيَانِ عَلَى عَشَةِ * وَالْعِلْمِ مَكْشُورِ أَكْفَانَا
إِنْ الدِّيَّ حُودِرَ الْمُتَحَنَّى * هَذَا مِنَ الْإِسْلَامِ أَرْكَانَا
لَا يُبْعِدُكَ اللَّهُ مِنْ مَيِّتٍ * وَرَثَا عِلْمًا وَأَحْزَانَا

حطب أبو أمية امرأة من تميم فودعها، وتصدى للقاضي أن يضمه مالا من أموال
اليتامى فلم يحمه الى ذلك ولم يبق به، فقال فيه أس مادر :

أَبَا أُمَيَّةَ لَا تَعْصَبْ عَلَيَّهَا * جَرَاءُ مَا كَانَ بَيْنَا الْفَصَبُ
إِنْ كَانَ رَدَكَ قَوْمٌ عَنْ قَاتِهِمْ * هِيَ كَثِيرٌ مِنَ الْخَطَابِ قَدْ رَجَبُوا
قَالُوا عَلَيْكَ دِيُونٌ مَا تَقُومُ بِهَا * فِي كُلِّ عَامٍ بِهَا تُسْتَعْدْتُ الْكُتُبُ
وَقَدْ تَقَعَّمُ مِنْ نَحْسِ عَائِيهَا * مَعَ أَنَّهُ ذُو عِيَالٍ بَعْدُ مَا أَلْتَمَعُوا
وَفِي الَّتِي فَعَلَ الْقَاضِي فَلَا تَحْدُنْ * فَلَيْسَ فِي تِلْكَ لِي ذَنْبٌ وَلَا ذَنْبُ
أَرَدْتَ أَمْوَالَ إِيْسَامٍ تُصَمِّمُهَا * وَمَا يُصَمُّ إِلَّا مَنْ لَهُ نَسَبُ

قال له جعفر بن يحيى قُلْ فِي وَفَى الرِّشِيدُ شِمْرًا تَصِفُ فِيهِ الْأَلْفُ بَيْدًا، فقال :
قَدْ تَقَطَّعَ الرِّجْمُ الْقَرِيبُ وَتُكْفَرُ اللَّهُ * حَمَى وَلَا كَتَقَارِبُ الْقَائِمِينَ
يُدْنِي الْهَوَى هَذَا وَيُدْنِي دَا الْهَوَى * طَاذَا هُمَا نَفْسٌ تُرَى نَفْسَيْنِ

١٥ - صالح بن عبد القدوس^(١)

كان منهما بالزندقة، فبلغ إلى المهدي خبر زندقته، فبعث إليه يستقيمه من دمشق، وكان قد رحل إليها وهو شيخ طاعن في السن، فلما جاء بغداد ومثل بين يدي المهدي قال له المهدي: ألت القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ترى رَمَسه

قال: بل يا أمير المؤمنين! قال: وأنت لا تترك أخلاقك حتى تموت، فأمر به، فقتل وصُلب على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ. وأكثر شعره في الحكيم الفلسفية.

ومن أحسن أقواله القصيدة التي منها ذلك البيت، وهو يقول فيها:

لا يُلْعُ الأعداء من جاهل * ما يُلْعُ الجاهل من نفسه

والشيخ لا يترك أخلاقه * حتى يوارى في ترى رَمَسه

إذا أَرَعَوَى عاد إلى جهله * كدى الصأ عاد إلى نكسه

وإن من أدبته في الصبأ * كالعود يُسقى الماء في عرسه

حتى تراه موقفاً باصراً * بعد الذي أنصرت من ينسه

وقوله:

لا يُجِيبُكَ من يصون ثيابه * حذر الثبار وعرضه مبدول

ولربما أفقر الفتي فرأيتَه * دَنَسَ الثياب وعرضه مفسول

(١) هو صالح بن عبد القدوس بن عبد الله بن عبد القدوس، من حكاة الشعراء، منهم المازندقة، قوی الحجة،

له منزلة سامية عند أهل مذهبه. نشأ في الصرة، وكان يقص على الناس ويطلعهم. توفي سنة ١٦٧ هـ. ونجد

أكثر أخباره في حرات الرويات (ح ١ ص ١٩١) والقمي (ج ١ ص ٢٦).

وكان فيه ميل الى العزلة والانعطاع عن الناس شأن الفلاسفة، ومن ذلك قوله :

أَنِسْتُ مُحَمَّدًا وَلَزِمْتُ بَيْتِي * فَتَمَّ الْعَزْلَى وَتَمَّ السُّرُورُ
وَأَدْبَتِي الرَّمَابُ طَلَبَتْ أَتَى * هُجِرْتُ فَلَا أَزَارُ وَلَا أَزُورُ
وَلَسْتُ قَائِلٌ مَا دُمْتُ حَيًّا * أَقَامَ الْحُسَدُ أَمْ تَزَلُ الْأُمِيرُ

وهو القائل :

إذا لم تستطع شيئاً فدمعه * وحاوِزه الى ما تَسْتَطِيعُ

وله قصيدة حكيمة أخلاقية بديعة، وهي التي يقول فيها :

الْمَرْءُ يَجْمَعُ وَالرَّمَابُ يُهْرَقُ * وَيُظَلُّ بِرَقْعٍ وَالْخَطُوبُ تُمَزَّقُ
وَلَأَبْ يُبَادِي عَاقِلًا خَيْرُهُ * مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَهْمَقُ
فَارْمَا سَفْسَكَ أَنْ تَصَادِقَ أَهْمَقًا * إِنْ الصَّدِيقُ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ
وَزِي الْكَلَامِ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا * يُبْدِي عَقُولَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمُنْطَلِقُ
وَمَنْ الرِّجَالُ إِذَا أَتَوْتَ أَحْلَاقَهُمْ * مِنْ يُسْئِرُ إِذَا أُسْئِرَ مِطْرَقُ
حَتَّى يَحْتَلَّ بِكُلِّ وَادٍ قُلُوبُهُ * فَيَرَى وَيَعْرِفُ مَا يَقُولُ يَنْطَلِقُ
لَا أَلَيْسَ نَارِيَا فِي عَرَبِيَّةٍ * إِنْ الْغَرِيبُ بِكُلِّ سَهْمٍ يُرْشَقُ

وله منها :

مَا النَّاسُ إِلَّا عُمَلَابٌ وَعُمَلٌ * قَدْ مَاتَ مِنْ عَطِيشٍ وَآخَرُ يَنْعَرِقُ
وَالنَّاسُ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ وَإِنَّمَا * بِالْجَدِّ يُرْزَقُ مِنْهُمْ مَنْ يُرْزَقُ
لَوْ يُرْزَقُونَ النَّاسُ حَسَبَ عَقُولِهِمْ * أَلَيْسَ أَكْثَرُ مَنْ تَرَى يَتَصَدَّقُ
لِكَيْ فَضَّلَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمْ * هَذَا عَلَيْهِ مُوسَى وَمُضَبِّقُ
وَإِذَا الْجَاهِزَةُ وَالْعُرُوسُ تَلَاقِيَا * وَرَأَيْتَ دَمْعَ نَوَاحٍ يَتَرَقَّرِقُ
سَكَتَ الَّذِي يَبِيعُ الْعُرُوسَ مُبَهَّجًا * وَرَأَيْتَ مَنْ يَبِيعُ الْجَاهِزَةَ يَنْطَلِقُ
بَقِيَ الدِّينَ إِذَا يَقُولُوا يَكْذِبُوا * وَمَتَى الَّذِينَ إِذَا يَقُولُوا يَصْدُقُوا

وله من قصيدته المعروفة بالزبيبة :

وَأَبْدَأْ عَدُوَّكَ بِالنَّحْبَةِ وَتَحْكُنْ * مَهْ زَمَانِكَ خَائِفًا تَتَرَقَّبُ
وَأَحْذَرُهُ إِنْ لَاقَيْتَهُ مَتَمِّمًا * فَالْيَاسُ يَنْدُو نَاهُ إِذَا يَعْصَبُ
إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ * فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغَيَّبُ
وَإِذَا الصَّدِيقُ لَقِيْتَهُ مُتَمَلِّقًا * فَهُوَ الْعَدُوُّ وَحَقُّهُ يُحْمَلُ
لَا خَيْرَ فِي وُدِّ أَمْرِي مُتَمَلِّقِي * حُلُوِّ اللِّسَانِ وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّى
يَلْقَاكَ بِخَيْفٍ أَنَّهُ مَكٌّ وَأَتَى * وَإِذَا تَوَارَى عَيْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حَلَاوَةً * وَيُرْوِعُ مَسْكَكَ كَمَا يُرْوِعُ الثَّمَلُ
وَصِلِ الْكَرَامَ وَإِنْ رَمَوْكَ بِمُخَفٍّ * فَالْمَصْنَعُ عَنْهُمْ وَالتَّحَاوُزُ أَصُوبُ
وَأَحْزَنُ قَرِيْبِكَ وَاصْطِطِ بِهِ تَهَانَةً * إِنْ الْقَرِيْبَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
إِنْ الْغَنَى مِنَ الرَّحَالِ مُكْرَمٌ * وَتَرَاهُ يُرَبِّحِي مَا لَدَيْهِ وَيُرِفُّ
وَيُبْشِّرُ بِالزَّحْبِ عَدُوَّ قُدُومِهِ * وَبُقَامُ عَدُوِّهِ سَلَامُهُ وَيُقَرَّبُ
وَالْفَقْرُ شَيْنٌ لِلرَّحَالِ فَإِنَّهُ * حَقًّا يَهُونُ بِهِ الشَّرِيفُ الْإِنْسَبُ
وَأَخْفِضْ جَوَاحِرَكَ لِلْأَغَارِبِ كُلِّهِمْ * بِتَدْلِيلٍ وَأَسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَدَسُوا
وَدَعْ الْكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِبًا * إِنْ الْكَذُوبُ يَشِينُ حُرًّا يَصْحَبُ
وَرَيْنَ الْكَلَامِ إِذَا تَطَقَّتْ وَلَا تَكُنْ * ثَرْنًا رَدًّا فِي كُلِّ مَا تَحْطُبُ
وَأَحْمَقُ لِسَانِكَ وَأَحْزَنُ مِنْ لَعْنَةٍ * فَالْمَرْءُ يَنْسَلِمُ بِاللِّسَانِ وَيَنْطَبُ
وَالسُّرُّ فَاكُنْهُمْ وَلَا تَتَلَقَّ بِهِ * إِنْ الزُّرْحَانَةَ كَسَرَهَا لَا يُشْفَى
وَكَمَاكَ سَرَّ الْمَرْءُ إِنْ لَمْ يَطْلُوهُ * نَشْرَتُهُ أَيْسَرُ تَرْيَدٍ وَتَكْذِيبُ
لَا تَحْرِصَنَّ عَلَى الْخَرَصِ لَيْسَ بِزَائِدٍ * فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقَى الْحَرِيصُ وَيُتَمِّعُ

وَأَرَحَ الْأَمَانَةَ وَالْخِيَانَةَ فَاجْتَنِبْ ■ وَأَعْدِلْ وَلَا تَغْلَمْ يَطْلُبُ لَكَ مَكْسَبٌ
وإذا أصابك نكمة فاصبر لها ■ مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُكَبِّ
وإذا دُمِيتَ مِنَ الزَّمانِ يَريسيه * أَوْ مالِكَ الْأَمْرِ الْأَشَقُّ الْأَضْعَفُ
فاضرعْ لرك إنه أدنى لمن ■ يدعوه من جبل الوريد وأقرب
وأحذر مصاحبة اللئيم فإنه * يُعِدِّي كَمَا يُعِدِّي الصَّحِيحُ الْأَخْرَبُ
وأحذر من المظلوم سَنَمًا صَانِبًا ■ وَأَعْلَمْ أَنَّ دُعَاءَهُ لَا يُجَبُّ
ولقد نصحتك إن قِلْتَ نصيحتي ، وَالنَّصِيحَ أَعْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوهَبُ

١٦ - سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ^(١)

كان شاعراً مطبوعاً ومات في أيام المأمون، وأكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمدح، وكان مشغولاً بالغلمان والشراب، ثم تأسك وتاب وفتح راجلاً على قدميه ومات على توبة وإقلاع ومذهب جميل، ومات وأبو العتاهية حي وكان صديقه فرتاه .

أخبر علي بن سليمان الأعمش عن محمد بن مزيد قال : حدثت عن مصي أصحاب أبي العتاهية قال : جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده، فسأره في شيء، فبكى أبو العتاهية، فقلنا له : ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فألكاك ؟ فقال - وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعرا - :

قال لي مات سعيد بن وهب ، رجم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أنكيت عيبي • يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال : فعجبنا من طبعه ، وإنه يحدث فكان حديثه شعرا موزونا .

وكان سعيد بن وهب الشاعر البصري مولى بني سامة قد تآب وترهد وترك قول الشعر، وكان له عشرة من البنين وعشر من البنات، فكان إذا وحد شيئا من شعره نحره وأحرقه ، وكان أمراً صديق، كثير الصلاة، يزكي في كل سنة عن جميع ما عده، حتى إنه ليزكي عن قصبة كانت على أمراته .

وكان سعيد بن وهب يتعشق غلاما يتشطر يقال له سعيد، فبلغه أنه توعد أن يجرحه، فقال فيه :

(١) هو سعيد بن وهب أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي بن همر، مولده ومنشؤه بالعصرة ثم صار إلى بغداد فأقام بها . وكانت الكوفة صناعة، فصرف مع البرامكة فامطنوه وقدمه عدم . وتعد أحاره في الأغانى (ح ٢١ ص ١٠٤) .

مَنْ عَدِيرِي مِنْ تَيْمٍ • مَنْ عَدِيرِي مِنْ سَعِيدٍ
أَنَا مَالِمْ أَجَاهُ • وَيَحَايَ بِالْحَدِيدِ

ونظر سعيد بن وهب إلى قوم من كتّاب السلطان في أحوال جميلة، فأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا لَهُ شَارَةٌ • مَحْضٌ مِنْ نَطَّارَةِ الدُّنْيَا
زَمَقُهَا مِنْ كَتَبِ حَمْرَةٍ • كَأَنَّا لَقَطُّ بِلَا مَقْنَى
يَلُوحُّهَا السُّسُّ وَأَيَّامُهَا • تَتَحَفُّ فِي الْأَرْدَلِ وَالْأَذَنَى

وحدث حماد بن إسحاق عن أبيه قال : كان سعيد بن وهب لي صديقاً، وكان له ابن يركب أبا الخطّاب من أكسس الصبيان، وأحسنهم وجهاً وأدباً، فكان لا يكاد يفارقه في كلّ حال، لشدة شغفه به ورقته عليه، مات وله عشر سنين، فخرج عليه جزماً شديداً وأقطع عن لذاته، فدخلت إليه يوماً لأعاته على ذلك وأستعطفه، حين رأى ذلك في وجهي فاصت دموعه، ثم أتعب حتى رحمته، وأشدني :

عَيْنِ حُودَى عَلَى أَبِي الْخَطَّابِ • إِذَا تَوَلَّى عَصَا مِمَّا الشَّابِ
لَمْ يُقَارَبْ دَسًّا وَلَمْ يَبْلُغِ الْحَدَّ • مَتَّ مَزْنِي مَطْلَعِ الْأَنْوَابِ
فَقَدَّرْتَهُ عَيْبِي إِذَا مَا سَمِعِي أَنَّهُ • رَأَاهُ مِنْ حِمَاةِ الْأَثَرَابِ
إِنْ عَدَا مُوَحِّشًا لِدَارِي فَقَدِ احْصَا • سَحَابُ أَنْسِ الثَّرَى وَرَبِّ التَّرَابِ
أَحْمَدُ اللَّهِ يَا حَبِيبِي مَا لِي • مَكَ رَاجِحٌ مِنْهُ عَطَمَ التَّوَابِ

ثم ناشدني ألا إذا كرهتني بما حدثت إليه، فقصت ولم أحاطه بحرف .

دخل سعيد بن وهب على الفضل بن يحيى في يوم قد جلس فيه الشعراء، فجلسوا يشربونه ويأمرهم بالحوادث حتى لم يبق منهم أحد، فالتفت إلى سعيد بن وهب كالمستنطق؛ فقال له : أيها الوزير، إنني ما كنت أستعجلت لهذه الحال، ولا تقممت لها عدى مُقَمِّمَةً فأعيرتها،

ولكن قد حصرني بيتان أرجو أن يوبا عن قصيدة؛ فقال : هاتهما، فرب قليل أبلغ من الكثير؛ فقال سعيد :

مَدَحَ الْفَضْلُ نَفْسَهُ بِأَمَّالِي * فَسَلَا عَن مَدِيحَتَا الْمَقَالِ
أَمْرُوْنِي بِمَدْحِهِ قُلْتُ كَلَّا * كَدَّرَ الْفَضْلُ مِنْ مَدِيحِ الرِّجَالِ

قال : فطرب الفصل وقال له : أحسنت والله وأحدثت، ولئن قل القول ونُزِر، لقد أتسع المعى وكُتِر، ثم أمر له بمثل ما أعطاه كلٌّ من أشده مديحا يومئذ، وقال : لا حير فيما يحى مد بيتك، وقام من المجلس، ونرح الباس يومئذ بالبيتين لا يتناشدون سواهما .

وحثت الحرثمي قال . كان الفصل بن يحيى يامس أخاه جعفرا ويافسه جعفر، وكان أنس بن أبي شيح حاضبا بجعفر، يادمه ويأس به في حلواته، وكان سعيد بن وهب بهذه المنزلة للفصل، فدخلت يوما إلى جعفر ودخل إليه سعيد بن وهب فحدثه وأنشده وتادrole، وحكى عن المتأدريين وأتى بكل ما يسر ويُطرب ويُضحك، وجعفر ينظر إليه لا يزيد على ذلك، فلما نرح سعيد من صده تجاهلت عليه وقلت له : من هذا الرجل الكثير الهديان ؟ قال : أو ما تعرفه ؟ قلت : لا، قال : هذا سعيد بن وهب صديق أحمى ألى العباس وحُطابه وعشيقه، قلت : وأى شئ رأى فيه ؟ قال : لا شئ والله إلا القدر والرّد والعنائة، ثم دخلتُ مد ذلك إلى الفصل، ودخل أنس بن أبي شيح حدثت وبترو حكى عن المُصحكين وأتى بكل طريفه، فكانت قصة الفصل معه قصة جعفر مع سعيد، فقلت له مد أن نرح من حصرته : من هذا المبرم ؟ قال : أو لا تعرفه ؟ قلت : لا، قال : هذا أنس بن أبي شيح صديق أحمى الفصل وعشيقه وحاصته، قلت : وأى شئ أعجبه فيه ؟ قال : لأدري والله إلا القدر والرّد وسوء الإختيار؛ قال : وأما والله أصرّف بسعيد وأنس من الباس جميعا، ولكنى تجاهلتُ طليهما وساعتهما على هواهما .

وحثت عمرو بن بانه قال : كان في حوارى رجل من البرامكة، وكانت له جارية شاعرة ظريفة يقال لها حسناء، يدخل إليها الشعراء ويسألونها عن المعاني، فتأتى بكل

مُسْتَحْسِنٍ مِنَ الْجَوَابِ ، فَدَخَلَ إِلَيْهَا سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ يَوْمًا وَحَلَسَ إِلَيْهَا لِحَادِثِهَا طَوِيلًا
ثُمَّ قَالَ لَهَا مَعْدُ ذَلِكَ :

حَاجِيَّتُكَ يَا حَسَنًا * فِي حِينٍ مِنَ الشَّرِّ
وَفِيهَا طُكُوْلُهُ شَرٌّ * وَقَدْ يُوفَى عَلَى الشَّرِّ
لَهُ فِي رَأْسِهِ شَقٌّ * طُكُوْفُ اللَّدَى يَجْرَى
إِذَا مَا جَفَّ لَمْ يَجْرِ * لَدَى رَّ وَلَا يَجْرِ
وَإِنْ لُلَّ أَتَى مَالَهُ * حَبِّ الْعَاجِبِ وَالسَّحَرِ
أَجِيبِي لَمْ أَرِدْ مُثَنَّا * وَرَبَّ الشَّفْعِ وَالْوَزْرِ
وَلَكِنْ صُنْتُ أَيْثَانًا * لَهَا حَظٌّ مِنَ الزُّجْرِ

قال : مصعب مولاها وتغير لونه وقال : أتمنحش على حاربي تحاطبها بالحنى ؟ فقالت
له : حَقُّصٌ طَلِيكُ ، فَمَا ذَهَبَ إِلَى مَا طَلَبْتَ وَإِنَّمَا يَتَّبِعِي الْقَلَمُ ، فَمُرِّي عَمَّ ، وصحكت سعيد
وقال : هِيَ أَعْلَمُ مِنْكَ بِمَا سَمِعَتْ .

١٧ - الحسن بن وهب

حدث ميمون بن هارون : قال : كما عهد الحسن بن وهب فقال لِيَأْن : عَفَى :
 أَنَاذِنُونِي لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ * هَمْدُكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
 لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ * عَفَى الصَّمِيرَ وَلَكِنْ فَاسَقَى النِّظَرَ
 قَالَ فَضَحِكْتُ ، ثُمَّ قَالَتْ : فَأَيَّ حَيْرَانَةٍ إِنْ كَانَ كَذَا أَوْ أَيْ مَعْنَى * نَحْمِلُ الْحَسَنَ مِنْ
 بَادِرَتِهَا عَلَيْهِ ، وَنَحْمِلُهَا مِنْ حِدَّةِ جَوَابِهَا وَطُغْيَانِهَا .

وحدث محمد بن عيسى قال : جاء عدا الله بن العباس بن المصعب بن الربيع إلى الحسن
 ابن وهب ، وعنده بيان جارية محمد بن حماد ، وهي نائمة سكرى وهو يمسك عندها ، فقال له :
 مَالِكٌ ؟ قَالَ : قَدْ كَسَتْ نَائِمًا بِلَهَائِي فَأَبَيْتَنِي وَقَالَتْ : احْلِسْ حَتَّى تَشْرَبَ بِحُلُسْتُ ،
 فَوَاللَّهِ مَا عَنَّتْ عَشْرَةَ أَصْوَاتٍ حَتَّى نَامَتْ ، وَمَا شَرِبْتُ إِلَّا قَلِيلًا ، فَهَذَرْتُ قَوْلَ أَشْعَرِ
 النَّاسِ وَأُظَرَفُهُمُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْفَفِ :

أَبِي الَّذِينَ أَذْأَقُونِي مَوَدَّتَهُمْ * حَتَّى إِذَا أَقْطَرُونِي لِلْهَوَى رَقْدُوا
 فَأَنَا أُنْكِي وَأُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ .

وحدث محمد بن موسى بن حماد قال : دعا الحسن بن وهب إبراهيم بن العباس فقال
 لَهُ : ارْكَبْ وَأَجِيْعْ عَشِيًّا فَلَا تَنْتَظِرْنِي بِالْعُدَاةِ ، فَأَطَاعَ عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعَ الْحَسَنُ فِي شَرِّهِ فَسَكِرَ
 وَنَامَ ، وَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ فَرَأَاهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، فَعَدَا بِدَوَاةٍ وَكَتَبَ :

رُحْنَا إِلَيْكَ وَقَدْ رَاحَتْ بِكَ الرَّاحُ * وَأَسْرَعَتْ فِيكَ أَوْتَارُ وَأَفْرَاحُ

وحدث أيضا محمد بن موسى قال : نظر إبراهيم بن العباس الحسن بن وهب وهو
 مخمور فقال له :

هَيْبَاكَ قَدْ حَكَمًا مَيِّدٌ * تَكْ كَيْفَ كُنْتَ وَكَيْفَ كَانَا
 وَلَرُبَّ عَيْنٍ قَدْ أَرَتْ * لَكَ مَيِّتَ صَاحِبَهَا عِيَانَا

فأجابه الحسن بن وهب بشعرين يتنا وطاله بمثلها ، فكف إليه أربعة أبيات وطاله
أربعين يتنا . وأبيات إبراهيم :

أبا على حيرُ قولك ما * حصلت أنعمه ومُختصره
ما عدنا في البيع من عبي * لستقل واحد عشره
أما أهل ذلك غيرُ محتشم * أرضى القديم وأفتنى أثره
ها عى وفيك أربعة * والأرءون لديك مستظه

وقال عبيد الله بن سليمان : لعمري ما في الكتاب أشعر من أبي إسحاق وأبي علي
(بني عمه الحسن بن وهب) .

حدث علي بن يحيى قال : قلت لإسحاق بن إبراهيم الموصلي ، وقد جرى ذكر أحمد بن
يحيى المكي ، : يا أبا محمد ، لو كان أبو جعفر أحمد بن يحيى المكي مملوكا كم كان يساوى ؟
فقال : أحبك عن ذلك ، اصرفت ليلة من دار الوائق ، فاجترت بدار الحسن بن وهب
فدخلت إليه ، فإذا أحمد عده ، فلما قام لصلاة العشاء الآخرة قال لي الحسن بن وهب :
وكم يساوى أحمد لو كان مملوكا ؟ قلت : يساوى عشرين ألف دينار . قال : ثم رجع ففتى
صوتاه فقال لي الحسن بن وهب : يا أبا محمد ، أصغفها . قال : ثم تفتى صوتا آخر ،
فقلت للحسن : يا أبا علي أضغفها ، ثم أردت الانصراف فقلت لأحمد غني :

لولا الحياة وأد السير من حُلقي * إذا قصدت إليك الدهر لم أقيم
أليس عدك سكرٌ لقي جعلت * ما أبيض من قادمات الرأس كالحمم

فغناه أحمد بن يحيى المكي فأحس فيه كل الإحسان ، فلما قُتُّ للانصراف قلت
لحسن : يا أبا علي ، أصغف الجميع ، فقال له أحمد : ما هذا الذي أسمعك تقولاه ولست
أدرى ما معناه ؟ قال نحى ييمك ونشريك منذ الليلة وأنت لا تدري .

وحدث محمد بن موسى قال : كان أبو تمام يتشقى ظلاما تحريراً للحسن بن وهب ،
وكان الحسن يتشقى ظلاما روميا لأبي تمام ، فرآه أبو تمام يوما يعبث بظلامه ، فقال له :

واقفه لئن أعقت^(١) الى الروم لتركصن الى الخزر، فقال له الحسن: لو شئت حَكَمْنَا واحتكمت، فقال له أبو تمام: أما أشبهك بدلود عليه السلام وأشبه نفسي بخصمه؛ فقال الحسن: لو كان هذا مطوماً يحفناه، فإنا وهو متورُّ فلا، لأنه عارض لا حقيقة له؛ فقال أبو تمام:

أما على نصرف الدهر والعير * والمحادث والأيام فاحير^(٢)
أذكرتني أمر داود وكنت متى * مصرف القلب في الأهواء والفكر
أعذك الشمس لم يحط المعب بها * وأنت مضطرب الأحشاء للقمير
إن أنت لم تترك السير الحثيث الى * جابر الروم أعقبا الى الخزر
إن القطوب له متى محل هوى * محل من محل السمع والبصر
ورب أمتع مه حائبا وحي * أمسى وتكته متى على خطر
حدثت فيه حدود العزم فأنكشفت * عنه حيايته عن بجرة هدير
سحان من سخته كل حارحة * ما يك من طمحان العين بالنظر
أنت المقيم ما تفد راحله * وفعله أبدا منه على سفر

وحدث وهب بن سعيد قال: جاء دِصِيل الى الحسن بن وهب في حاجة بعد موت أبي تمام، فقال له رجل في المجلس: يا أبا علي، أنت الذي تظعن على من يقول: شهدت لقد أوفت مغانيكم عدى * وتحت كما تحت وشائع من برْد وأنجدتم من بعد إتهام دارم * فإدمع أنجدني على ساكني نجد فصاح دِصِيل: أحسن والله! وحمل يردد:

* فإدمع أنجدني على ساكني نجد *

ثم قال: رحمه الله، لو كان ترك لي شيئا من شعره لقلت: إنه أشعر الناس.

(١) أعقت: أسرع. (٢) وردت هذه الأبيات في الأعاني رفعا بعض أخطاء تحمل بالأدب،

فأنتهاها كما وردت في ديوان أبي تمام.

وحدث أحمد بن عبيد الله بن ماص قال : قلت لدعبل وقد عرض على قصيدة له
يمدح بها الحسن بن وهب أولها :

أطدلي ليس الهوى من هوانيا *

فقلت له : ويحك أقول فيه هذا بعد قولك :

أبى محل الحى يا حادى * حبر سقاك الرايح العادى

وبعد قولك :

قالت سلامة أبى المأل قلت لها . المال ويحك لاقى الحمد فاصطعبا

وبعد قولك :

على أيماننا يجرى الددى * وعلى أسيافنا تجرى المهبج

واقه إني أراك لو أنشدته إياها لأمر لك بصقع ، فقال : صدقت واقه ، ولقد بهنتى
وحدرتى ، ثم مزقها .

وحدث محمد بن موسى قال : أنشدنى الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك أبياتا
يرثي بها سكرانة أم أبيه عمر ، وحمل الحسن يتعجب من جودتها ويقول :

يقول لى الخلائ لو زرت قدرها فقلت وهل غير الضواد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قدرها . ولم أبلغ الس التي معها الصبر

وحدث محمد بن يزيد قال : دامت الأمطار بـ «سرم رأى» ، فتأخر الحسن بن وهب
عن محمد بن عبد الملك الزيات ، وهو يومئذ وزير والحسن يكتب له ، فاستبطاه محمد ،
فكتب اليه الحسن يقول :

أوحب المذرى ترانى اللقاء * ما توالى من هذه الأنواء
لست أدري ماذا أقول وأشكو * من سماء تفوقنى عن سماء
غير أنى أدعو على تلك بالثك * لى وأدعو لهذه بالبقاء
فسلام الإله أهديه غصبا * لك منى ياسيد الوزراء

وحدث محمد بن موسى قال : اعتل الحسن بن وهب فأنزع عن محمد بن عبد الملك
أياماً كثيرة ، فلم يأت به رسوله ، ولا تعرف حبه ، فكتب إليه الحسن قوله :

أيُّها الوزيرُ أيُّدكَ الله * ه وأبقاك لي قهاً طويلاً
أجيبلاً تراه يا أكرمنا * س لكما أراه أيضاً جيبلاً
إني قد ألفتَ صفراً عيبلاً * ما تَرَى مُرسِلاً إلى رسولا
إن يكن موحى التعميدى الص * حة ماً على مك طويلاً
هو أولى ياسيد الناس برأ * واقفاداً لمن يكون طيبلاً
فلماذا تركتني عرساً الط * س من الحاسدين جيبلاً خيبلاً
الدين * فاعلمت سوى الشك * ير قريباً ليني ودجيبلاً
أم ملال * ما علمت لك للعا * ح مثل على الزمان ملولاً
قد أتى الله بالشفاء ما أم * ير مما أنكرت إلا قليلاً
وأكلت التراج وهو عداء * أعلت على عليه أؤلوا
بعد ما كنت قد حملت من الع * دة عبثاً على الطباع ثقبلاً
ولعل قديمتُ قبلك آتية * لك عدا إن وجدت فيهِ سببلاً

فأجابه محمد بن عبد الملك :

دع الله عك فائبة الدهر * ر وحاشاك أن تكون عيبلاً
أشهد الله ما علمت وما ذا * لك من العذر حائراً مقبولاً
ولعمري أن لو علمت فلازم * نك حولا لكان عندى قليلاً
إني أرتجى وإن لم يكن ما * كان مما قمت إلا حيبلاً
أن أكون الذى إذا أصمر الإخ * ملاص لم يتمس عليه كفيلاً
ثم لا ينزل المودة حتى * يعمل الجهد دونها مبدولاً
فاذا قال كان ما قال إذ كا * ن بعيداً من طبعه أن يقولاً

فاجعلنى لى الى التعلق بالعد * رسيلا ان لم اجد لى سيلا

فقد بما ما حاد بالصفح والمعد * ووما سابع الخليل الخليل

وكتب محمد بن عبد الملك الى الحسن بن وهب وقد تأخر عنه :

قالوا جفاك فلا عهد ولا خبر * ما ذا تراه دهاه قلت ايلول

شهر تجد حبال الوصل فيه ها * عقد من الوصل الا وهو مخلول

وكان محمد قد ندبه لان يحرق في امر مهم فاحابه الحسن فقال :

انى بجول امرى اعليت رتته * لحظه منك تعظيم وتجميل

وانت عده في نيل همتيه * وانت في كل ما يهواه مامول

ما طالى عك ايلول سلته * وطيبه ولعم الشعر ايلول

الليل لا قصر فيه ولا طول * والجو صاب وطهر الكاين مرحول

والعود مستطق عن كل معجبه * يصحى بها كل قلب وهو متبول

لكي توقع وشك البين عن بلد * تحله فيكاه المين مخلول

ما لي اذا شمرت بي عك مبتكرا * دهم البغال او الموج المراسيل

الا رعا ياتك الاتي يسود بها * حد الحوادث حتى وهو مقلول

وكان الحسن بن وهب يسير محمدا على مسناة^(١)، فعدل عن المساة لثلا يصيق لمحمد

الطريق، فعلن محمد انه اشفق على نفسه من المساة، فعدل عنها ولم يساعده على طريقه،

وظن بنفسه ان يصيبها ما يصيبه، فقال له محمد :

فد راياك اذ تركت المساة * وحاديقتي يسار الطريق

ولعمري ما ذاك منك وقد جد بك الحد من حال الشفيق

فقال له الحسن :

ان يكن خوفي الختوف اراني * ان ترائي مشبها بالمتقوي

فلقد جارت الظنون على المش * غف والظن موكع بالشفيق

عَدَّ السَّيِّدَ الْأَحْلَ وَقَدْ سَا * رَ عَلَى الْخُوفِ مِنْ يَمِينِ الطَّرِيقِ
فَأَحْدَثَ الشَّمَالُ بُقْيَا عَلَى السَّيِّدِ إِذْ هَالَتْ سُلُوكَ الْمِضْيِقِ
إِنْ عَسَى هَوْدَةً لَكَ حَازَتْ * مَا حَوَى عَاشِقٌ مِنَ الْمَعشُوقِ
طَلُودٌ عِزٌّ خُصِصَتْ مِنْهُ يَرُّ * صَارَ قَدْرِي بِهِ مَعَ الْعَيْشِوقِ
وَبِنَفْسِي وَإِخْوَتِي وَأَبِي السَّبْرِ * وَنِعْمِي وَأُسْرَتِي وَصَدِيقِي
مَنْ إِذَا مَا رَوَّعْتُ أَمَّنَ رَوْعِي * وَإِذَا مَا شَرِقْتُ سَوَّعَ رَيْقِي

وحدث المبرد قال : استسقى الحسن بن وهب من محمد بن عبد الملك نبيذا ببلد الروم

وهو مع المعتصم ، فسأه وكتب إليه :

لَمْ تَلَقْ مِثْلِي صَاحِبًا * أَنْدَى يَدًا وَأَعَمَّ حُودًا
يَسْقِي السَّيِّمَ قَفَرِهِ * لَمْ يَسْقِ فِيهَا الْمَاءُ حُودًا
صَمْرَاءَ صَافِيَةً كَأَنَّ * نَكْأَمَهَا دُرًّا تَصِيدَا
وَأَجُودٌ حِينَ أَجُودَ لَا * حَصْرًا مِثْلَكَ وَلَا يَلِيدَا
وَإِذَا اسْتَقَلَّ بِشَكْرَهَا * أَوْجِبْتُ بِالشُّكْرِ الْمَزِيدَا
خُذْهَا إِلَيْكَ كَأَنَّمَا * كُنَيْتُ رُحَاجَتَهَا عَقُودَا
وَأَحْمِلْ مِثْلَكَ بَأَن تَقُو * مَ بِشَكْرَهَا أَبَدًا عَهْدَا

ومن جيد شعره قوله :

أَبِي كَرِهْتُ الْبَارِمَا أَوْقَدْتُ * صَرَفْتُ مَا مَعَالِكَ فِي إِسَادَهَا
هِيَ ضَرَّةٌ لَكَ مَاتِمَاعُ ضَيَائِهَا * وَبِخَسِّ صَوْرَتِهَا لَدَى إِقَادَهَا
وَأَرَى صَدِيقَ صَدِيقِكَ بِالْقُلُوبِ صَدِيقَهَا * بِسَائِلِهَا وَأَرَادِكْهَا وَعَرَادَهَا
شَرِّكَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِهَا * وَصِيَائِهَا وَصِلَاحِهَا وَفَسَادَهَا

ومات الحسن بن وهب فرثاه أخوه سليمان بن وهب :

مَعَى مَذْمُوعِ عِزِّ الْمَعَالَى وَأَصْبَحَتْ * لِأَلِي الْجَبَا وَالْقَبُوبِ لَيْسَ لَهَا نَظْمُ
وَأَضْحَى نَيْحُ الْعَمَكْرِ بَعْدَ فِرَاقِهِ * إِذَا هُمْ بِالْإِفْصَاحِ مَتَنَظَّمُ

وكتب الحسن بن وهب يشكر :

مَنْ شَكَرَكَ عَلَى دَرَجَةٍ رَحِمْتَهُ إِلَيْهَا ، أَوْ ثَرْوَةٍ أَقْدَرْتَهُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ شُكْرِي لَكَ عَلَى مُهِجَةٍ
أَحْيَيْتَهَا ، وَحُشَّاشَةٍ أَقْيَيْتَهَا ، وَرَمَقِي أَمْسَكْتَ بِهِ ، وَفَتَّ يَيْنَ التَّلَفِّ وَيْنَهُ ؛ فَلكُلِّ نِعْمَةٍ مِنْ
عَمِّ الدُّنْيَا حَدٌّ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، وَمَدَى يُوقِفُ عِنْدَهُ ، وَعَايَةٌ مِنَ الشُّكْرِ يَسْمُو إِلَيْهَا الطَّرْفُ ، خِلا
هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي فَاقَتْ الْوَصْفَ ، وَأَطَالَتِ الشُّكْرَ وَتَجَاوَزَتْ قُدْرَهُ ، وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ ظَايَةٍ ؛
رَدَدْتَ عَمَّا كَيْدَ الْعَدُوِّ ، وَأَرَعَمْتَ أَفْءَ الْحَسُودِ ، فَحَنَّنْتَ لَنَا بِكَ إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ ، وَكَفَيْتَ
كَرِيمٌ ، فَكَيْفَ يَشْكُرُ الشَّاكِرُ ، وَأَيْنَ يَبْلُغُ جُهْدُهُ الْمُجْتَهِدُ ؟ - .

١٨ - أشجع السلي^(١)

كان متصلا بالرامكة وله فيهم أشعار كثيرة، منها قوله في يحيى بن خالد وكان قد غاب:

قد غاب يحيى فما أرى أحدا * يأتس إلا بذكره الحسين
أوحشت الأرض حين فارقتها * من الأيادي العظام والميزن
لولا رحاء الإياب لأصدعت * قلوبا معه من الحزين

وقال أيضا:

رأيت بُقاة الخير في كل وجهة * لقيت يحيى مستكين خضعا
فإن يمين من في الرقبين مؤملا * لأوبة يحيى نحوها متطلعا
فما وحه يحيى وحده غاب عنهم * ولكن يحيى غاب بالخير أجمعا

وقال به أيضا:

إذا غاب يحيى عن بلاد تميث * وثشرق إن يحتلها قطيب
وإن فعال الخير في كل بلدة * إذا لم يكن يحيى بها ليريب

وقال به حين احتل:

لقد قرعت شكاة أبي علي * قلوب ممانير كانت صحاحا
فإن يدفع لآ الرحمن عه * صروف الدهر والأجل المتاحا

(١) هو أشجع بن عمرو بن وهب الشريد بن مطرود السلي، وكان يكنى أبا الوليد، شاعر إسلامي عاصي، نشأ بالبصرة، وقال الشعر وأحاده حتى عد من المحول، وكان الشعر يروى في ربيعة وإيهم، ولم يكن لقيس شاعر، لما نحم أشجع وقال الشعر اضرحت به قيس. وأقطع إلى الرامكة ومدحهم وأخصص بجعر فأصعاده مدحه، فأعجب به جعفر ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضا وأمدّه بالمال فأثرى وحسنت حاله في أيامه، وتقدم عدده، وله فيه المدايح المختارة، والقصائد السائرة. ومحمد أشعطاره وأحاره في الأغانى (ح ١٧ ص ٣٠) والشعر والشعراء. (ص ٥٦٢).

فقد أمسى صلاح أبي علي * لأهل الأرض كلهم صلاحاً
إذا ما الموت أخطاه فلتنا * نبأ الموت حيث عدا وراحاً

وهو القائل ،

ليس للحاجات إلا * من له وجهٌ وقاحٌ
ولسانٌ طرمدارٌ * وغدوٌ ورواحٌ
إن أكن أظالمًا * جنةً عنى فالقاحُ
فعلّ الجهدُ فيها * وعلى الله الجاحُ

ويستجاد له في مدح الرشيد .

وصلت يدك السيف يوم تقطعت * أيدى الرجال ورأت الأقدامُ
وعلى عذوك يا ابن عم محمد * رصداً صوء الصبح والإظلامُ
إذا تبهر رُقعته وإذا غما * سلت عليه سيوفك الأحلامُ

ويُستجاد له أيضاً قوله :

غداً يمتزق أهلُ المهوى * ويكثر ملكٌ ومسترجُ
وتختلف الأرض بالطاعين * وجوهاً تُسد ولا تُجمَعُ
وتغنى الطلولُ وبنى المهوى * ويصنع ذو الشوق ما يصنعُ
وانت تُبكي وهم جيرةٌ * فكيف يكون إذا ودعوا
أطعم في العيش مد الفراق * فبئس لعمرك ما تطمعُ

وفيما يقول في جعفر بن يحيى :

ببيته مثلُ تدبيره * في هبته فهو مستجيمُ
إذا هم بالأمر لم يته * هجوعٌ ولا شادنٌ أقرعُ
في كفه للنفي مطلبٌ * وللسر في صدره موضعُ

وكم قائل إذ رأى بهجتي . وما في فُضُوبِ النقي أصحُ
فدا في ظلالِ ندى جعفري . يحترىبات النقي أنصحُ
وما حلقه لأمرئٍ مطعُ . ولا دونه لأمرئٍ مقنعُ

وهو القائل في محمد بن منصور بن زياد يرثيه :

أنى قى الجود إلى الجود . ما مثل من أنى بوجود
أنى قى أصبح معروفا . منشرا في البيض والسود
أنى قى مع الترى بعده . بقية الماء من السود
قد نل الدهر به ثلثة . حابها ليس بمسود
أنى قى كان ومعروفه . يملأ ما بين درى اليد
فاصحا بمد تسميها . قد حما في طن ملحود
الآن نخشى عثرات الندى . وعدوة البخل على الجود

ويستحاد له قوله في إبراهيم بن عثمان بن نيك وكان صاحب شرط الرشيد وكان
جارا جوسا :

في سيف إبراهيم خوف واقع . بدوى التفاق وفيه أمن المسلم
وبيت بكلاء والعيون هواجع . مال المصيع ومهجة المستسلم
جعل الخطام أنف كل مخالف . حتى استقام له الذي لم يحطم
لا يصلح السلطان إلا شدة . تفتى البرى فضل ديب المجرم
ومن الولاء مقم لا يتقى . والسيف تقطر شفراته من الدم
منعت مهابتك الغوس حديثها . بالأمر تكفه وإن لم تعيلم

وقال لأخيه :

أبت غفلات قلبك أن تزوما . وكأس لا تزالها صبوحا
كانك لا ترى حسا جميلا . بعيرك يا أنى إلا قبيحا

ويُستجاد له قوله في الرشيد :

لا زلت تنشر أعيادًا وتطويها * تمحي بها لك أيام وتثنيها
مستقبلًا جنة الدنيا وبهجتها * أيامها لك نظم في ليلها
العيد والعيد والأيام بينهما * موصولة لك لا تنفي وتثنيها
وليتك النصر والأيام مقبلة * إليك بالفتح معقودًا وواصيا

وباستحاد له قوله يمدح اسماعيل بن صبيح :

له نظر لا يغمص الأمر دونه * تكاد سُورُ الغيب عنه تمزق

وهو القائل :

وما ترك المُدَّاح فيك مقالة * ولا قال إلا دون ما فيك قائل

وقال أيضا :

معى ابن سعيد حين لم يبق مشرق * ولا مفرب إلا له فيه مادح^(١)
وما كنت أدري ما فواضل كعه * على الناس حتى غيبتة الصماخ^(٢)
فأصبح في الحيد من الأرض ميتا * وكانت به حيا تضيق الصماخ^(٣)
سأليك ما فاصتدموعي وإن تنقص * فحسبك متى ما تُخبر الجواخ^(٤)
فأما من رزء وإن حل حازع * ولا بسرور بعد موتك فارخ
كان لم يمت حتى يسواك ولم يغم * على أحد إلا عليك النساخ
لئن حسنت فيك المراتي وذكرها * لقد حسنت من قبل فيك المدائح

(١) الصماخ : أحاد عراض تطل بها القصور . (٢) الصماخ : جمع صمخ : وهي الأرض

الحرشاء المستوية الواسعة ذات حصى صغار . (٣) الجواخ الصلوع .

١٩ - علي بن الجهم^(١)

كان علي بن الجهم قد هاجم بنحو شعور، فسبّه عد المتوكل فحسبه المتوكل . فقال علي بن الجهم في حسبه عدة قصائد كتب بها الى المتوكل، فأطلقه بعد سنة ثم فناه بعد ذلك الى نخراسان . فقال أول ما حُسِّس قصيدة كتب بها الى أخيه، أولها قوله :

تَوَكَّلْنَا عَلَى رَبِّ السَّمَاءِ * وَسَلَّمْنَا لِأَسَاسِ الْقَصَاءِ
وَوَطَّنَا عَلَى عَيْرِ آلِيَالِي * ضَوْئًا سَاعَتْ بَعْدَ الْإِبَاءِ
وَأَنْبِيَةَ الْمُلُوكِ مَحَمَّاتٌ * وَبَابُ اللَّهِ مَبْدُولُ الْفِنَاءِ
هِيَ الْأَيَّامُ تَحْكُمُنَا وَتَأْسُو * وَتَأْتِي بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ
وَمَا يُنْصِدِي الثَّرَاءُ عَلَى غَنَى * إِذَا مَا كَانَ مَحْظُورَ الْخَطَاءِ
حَلَبْنَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وَزَمَرْتِ * بِنَا عَقَبَ الشَّدَائِدِ وَالرَّحَاءِ
وَجَرَبْنَا وَجَرِبَ أَوْلُونَا * فَلَا نَشِيءُ أَحَدًا مِنْ أَلْوَانِ
وَلَمْ تَدْعِ الْحَيَاءَ لِمَنْ ضَرَّ * وَبَعْضُ الصَّرِّ يَنْهَبُ بِالْحَيَاءِ
وَلَمْ نَحْزَنْ عَلَى دُنْيَا تَوَلَّتْ * وَلَمْ تُسَقِّ إِلَى حَسَنِ الْعِزَاءِ
تَوَقَّ النَّاسَ يَا نَّ أَبَى وَأَمَى * فَهُمْ تَسْعُ الْخَفَاةُ وَالرَّحَاءِ

(١) هو عوفي قرشي شاعر صحيح مطبوع، وقد حص المتوكل حتى صار من جلسائه ثم أبغبه لأنه كان كثير السعاية اليه سدماه فكان اذا حلا به عرفه أنهم يسيرون ويطلقونه، فكشف الخليفة عن ذلك فلا يحده حقيقة، فعاد الى نخراسان بعد أن حسبه مدقة . وكان مدحه في الشعر مذهب مروان بن أبي حفصة في هاء آل أبي طالب ودمهم والإعراء بهم وهاء الشبهة كقولهم :

ورأيت قول شعيب وضوى * إمام، حاب ذلك من إمام

إمام من له عشرون ألفا * من الأتراك مشرفة السهام

وله أقوال في العزل والعتاب وفي الوصف، توفي سنة ٢٤٩ هـ . ويحد أخاؤه في الأمان (ج ٩ ص ١٠٤)

وان حلكان (ج ١ ص ٤٩٧) .

ولا يفرّك من وعد إحاء * لأمر ما غدا حسن الإحاء
 ألم تر مظهرين على عتبا * وهم بالأمس إخوان الصماء
 فلما أن يُلْت عَدُوا وراحوا * على أشد أساب البلاء
 أت أخطارهم أن يصروني * بميا أو بجاه أو ثراء
 وخافوا أن يقال لهم خذتم * صدقاً فادّعوا قدّم الجفاء
 تطافرت الروافض والنصارى * وأهل الإعتزال على هتاف
 وعابوني وما ذهب إليهم سوى علمي بأولاد الزناء
 بحيثشوع يشهد لاس عمرو * وعزّون لهارون أكرأى
 وما أبلّغناه بنت أبي سبيير * محذماء آلسان على الخفاء
 إذا ما عدّ مطلقكم رجالاً * ها فصل الرجال على النساء
 عليكم لمة الله ابتداء * وعوداً في الصباح وفي المساء
 إذا مُنِمَّ للباس قالوا * أولئك شرّ من تحت السماء
 أما المتوكل سوى رأياً * وما بالواقية من خفاء
 وما حبس الخليفة لي سائر * وليس بمؤيسى مه الثاني

كان سبب حبس المتوكل على بن الجهم أن جماعة من الجلّساء سَعَوْا به إليه وقالوا له :
 إنه يمحش الخدم ويفزعهم ، وإنه كثير العطن عليك والعيب لك والإضرار على أخلاقك ،
 ولم يزلوا به يؤغرون صدره عليه حتى حبسه ، ثم أبلغوه عنه أنه هجاه ، فنجاه إلى خراسان
 وكتب بأن يُصلّب إذا ردها يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى الشاذليّاخ حبسه طاهر بن
 عبد الله بن طاهر بها ، ثم أخرج فُصِّلب يوماً إلى الليل مجزداً ثم أزل ، فقال في ذلك :

لم يتّصوا بالشاذليّاخ عشبة الإثمين مسبوقة ولا مجهولا
 نصّبوا بحمد الله ملء قلوبهم * شرباً وملء صدورهم تجميلاً
 ما أزداد إلا رفعة سَكُولة * وأزدادت الأعداء عنه نُكُولة

هل كان إلا الليث فارق غِيْلَه * فرأيتَه في محل محمولا
 لا يَأْمَنُ الأعداءُ من سَدَاتِه * شَدَا يَفْضَلُ هَامَهُمْ تَفْصِيلا
 ما عابه أَنْ بَزَعَه لبأسه * فالسيفُ أهولُ ما يُرى مسلولا
 إِنْ يُتَنَدَّلُ فالبدْرُ لا يُزْرَى به * ان كان ليلةَ نَمَةٍ مبغولا
 أو يَسْلُبُوهُ المالُ يُحْزِنُ هَدَاهُ * ضيفا ألمَ وطارقا ونزولا
 أو يحبسوه فليس يُحْبَسَ سائرُ * من شعره يدعُ العزيرَ ذليلا
 إِنْ المصائبُ ما تعلت دِينَه * يَمُّ وإن صَعُبَتْ عليه قليلا
 واللهُ ليس معاهل عن أمره * وكفى بربك ماصرا ووصيلا
 ولَقَعْلَمَنْ إذا القلوبُ تَكشَفَتْ * عنها الأَكِنَّةُ من أضل سبيلا

وكتب المتوكل الى طاهر بن عبد الله بإطلاق علي بن الجهم، فلما أطلقه قال :

أطاهرُ إني ص خُرَّاسَانُ راحِلُ * وَمُسْتَحْبَرٌ عنها ها أنا قائل
 أأصدقُ أم اكثي عن الصدق أَيْمًا * تَحْبِيرُتُ أَذَنَه اليك المحامل
 وسارت به الرِجْلَانُ وأصطمقت به * أَكُفُّ قِيَانٍ وَأَجَنَّتْهُ القبائل
 وإني صالي الحمد والذم عالمُ * بما هبما نامى الرمية ناضل
 وحقا أقولُ الصدقُ إني لمائلُ * اليك وإن لم يَحْطَ بالود مائلُ
 ألا حرمة تُزْعَى ألا عقدُ ذَمَةٍ * بلأبِ ألا فَمِلُّ لِقَوْلِ شَأْ كُلُّ
 ألا متصفٌ إِنْ لم يَجِدْ متفضلا * علينا ألا قايض من الناس عادلُ
 فلا تَقْطَعَنَّ غِيظًا على أنا مَلَا * فقبلَكَ ما عَصَتْ على الأاملُ
 أطاهرُ إِنْ تُحْسِنُ فإني عَمْسُ * إليك وَإِنْ تَجَسَّلُ فإني باخلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيرا، فإني لا أقبل بك إلا ما تحب، فوصله وحمله

وقال علي بن الجهم للتوكل :

عفا الله عنك ! ألا حرمة * تجود بعفوك أن أعتدا
 لن حل ذنب ولم أعتد * لأنك أجل وأعلى بدا
 ألم تر صدًا مدًا طوره * ومولى عفا ورشيدًا هدى
 ومفيد أمي تلافيته * فعاد فأصلح ما أفسدا
 أفلنى أفاك من لم يزل * فيك وبصرف عنك الردى

وأحسن شعر قاله في الحبس قصيدته التي أولها :

قالوا حُيِّنَتْ قُلْتُ ليس بصاري * حتى وأنى مُهَيِّد لا يُقَمِّدُ
 أو ما رأيت الليث يَأْلَفُ غِيْلَه * كِبَرًا وأوباش السباع تَرَدُّ
 والشمس لولا أنها عَجُوبَةٌ * عن ناظرِكَ لَمَّا أَصَاءَ الْفَرْقُدُ
 والبدر يُدِيرُكَ السَّرَّارَ تَجَلِي * أَيَّامُهُ وَكَانَهُ مُتَجَدِّدُ
 والغيثُ يَحْصُرُهُ الْعَامُ فَا يَرَى * إِلَّا وَرَيْقَهُ يَرَاعُ وَيَرْعُدُ
 والزاعِمَةُ لَا يُقِيمُ كَعُوبَهَا * إِلَّا التَّحَاوُ وَجَدُوهُ تَوَقُّدُ
 والسَّارُ فِي أَحْجَارِهَا عَجُوبَةٌ * لَا تُصْطَلَّى إِنْ لَمْ تُثْرَا الْأَزْنُدُ
 والحبس ما لم تَقْشِهْ لَدُنِّيَّة * شعاعُ نَمِ الْمَسْتَرْقُ الْمُتَوَقُّدُ
 بيت يَحْتَدُّ لِلْكَرِيمِ كَرَامَةٌ * وَيُزَارُ فِيهِ وَلَا يَزُورُ وَيُتَمَدُّ
 لو لم يكن في الحبس إلا أنه * لَا يَسْتَدْلِكُ بِالْجَهَابِ الْأَعْدُ
 كم من عليل قد تَحَطَّاهُ الرَّدَى * فَتَحَا وَمَاتَ طَيْبُهُ وَالْمَوَدُّ
 يا أَحْمَدُ بْنَ أَبِي دُوَادٍ إِنَّمَا * تُدْعَى لِكُلِّ عَظِيمَةٍ يَا أَحْمَدُ
 أبلغ أمير المؤمنين ودونه * خَوْضُ الرَّدَى وَخَاوِفُ لَا تَنْقُدُ
 أتم بنو عم النبي محمد * أَوْلَى بِمَا شَرَعَ النَّبِيُّ مُحَمَّدُ
 ما كان من كرم فاتم أهله * كَرُمَتْ مِفَارِسُكُمْ وَطَابَ الْفَيْدُ

أَمِنَ السَّوِيَّةَ يَابْنَ عَمَّ مَحْد • خَصَمُ قُرْبِهِ وَآخِرُ تَيْمِد
 إِنْ الذِّبْنَ سَعَوْا إِلَيْكَ بِبَاطِل • حَسَادُ نَعْمَتِكَ الَّتِي لَا تُجْعَدُ
 شَهَدُوا وَبَيْنَا عَهُمْ فَتَحَكُّوا • فَيَا، وَلَيْسَ كِفَائِي مِنْ يَشْهَدُ
 لَوْ يَجْمَعُ الْخُصَمَاءَ عِنْدَكَ مَجْلِسُ • يَوْمَا لَبَانَ لَكَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
 فَبَأَى جُرْمُ أَصْبَحْتَ أَعْرَاضُنَا • تَهَا قَسَمَهَا اللّٰهُمُّ الْأَوْغَدُ

خرج على بن الجهم إلى الشام في قافلة فخرجت عليهم الأعراب و خُصاف، فهرب من
 كان في القافلة من المُقَاتِلَةِ وَبَتَّ عَلَى بْنِ الْجَهْمِ، فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا وَتَابَ النَّاسُ إِلَيْهِ
 فَلَدَّهِمْ وَلَمْ يَحْظُوا بِبَنِيهِ • فَقَالَ فِي ذَلِكَ :

صَبَرْتُ وَمِثْلُ صَبْرِهِ لَيْسَ يُنْكَرُ • وَلَيْسَ عَلَى تَرْكِ التَّخَمِّ يُعْذَرُ
 غَرِيرَةٌ حَزَّ لَا أَخْلَافُ تَكْلِفُ • إِذَا خَامَ فِي يَوْمِ الْوَعَى الْمُتَصَبِّرُ^(٢)
 وَلَمَّا رَأَيْتَ الْمَوْتَ تَهْفُو بِنَوْدِهِ • وَبَاتَ عِلَامَاتُ لَهُ لَيْسَ تَحْكُرُ
 وَأَقْبَلَتِ الْأَعْرَابُ مِنْ كُلِّ حَايِبِ • وَتَارَ عَجَاجُ أَسْوَدَ اللَّوْنِ أَكْثَرُ
 بِكُلِّ مُشِيحٍ مَسْتَمِيتٍ مَشْتَرِ • يَحْوِلُ بِهِ طَرَفُ أَقْبُ مُشْتَرِ^(٣)
 بَارِضُ خُصَافٍ حِينَ لَمْ يَكْ دَاهِعُ • وَلَا مَاعُ إِلَّا الصَّبِيحُ الْمَذْكُرُ
 فَقَالَ فِي عَيْنِي عَظِيمَ جَمْعِهِمْ • عَزِيمَةُ قَلْبٍ فِيهِ مَا جَلَّ يَصْفُرُ
 بِمَعْتَرِكٍ فِيهِ الْمَايَا حَوَاسِرُ • وَارِثُ الْوَعَى الْمُشْرِفَةِ تُسْعَرُ
 فَاصْلَتْ وَجْهِي عَنْ طُبَاتِ سِيَوْفِهِمْ • وَلَا أَنْهَزْتُ عَنْهُمْ وَالْقَنَا تُنْكَرُ
 وَلَمْ أَكْ فِي حَزِّ الْكَرِيمَةِ مُجْبَا • إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَرْبِ لِلْوَرْدِ مَصْدَرُ
 إِذَا سَاعَدَ الطَّرْفُ الْفَتَى وَجَّاهُ • وَأَسْمَرُ خَطِيٍّ وَأَيْمُسُ مِبْنَرُ
 فَنَازَكَ وَإِنْ كَانَ الْعُكْرَمُ بِنَفْسِهِ • إِذَا أَصْطَلَتِ الْأَطَالُ فِي التَّقَعِّ عَسْكَرُ

(١) بركة بين الناس وحل • (٢) خام : تكسر وجي •

(٣) المشيح : المانع لما وراء ظهره • والألف من الخيل : الفتح الحصر الصامر الطن •

مَنْهُمْ مَنْ أَنْ يَنْتَلُوا قُلَامَةً - وَكُنْتُ شَجَاهِمُ وَالْأَيْسَنَةُ تَقْطُرُ
وَتَكُ مَحْبَابَاتَا قَدِيمًا وَحَادَثًا * بِهَا يُعْرِفُ الْمَاضِي وَعَزَّ الْمَوْثَرُ
أَبْتُ لِي قُرُومٌ أَنْجَبَتْنِي أَنْ أَرَى * وَإِنْ حَلَّ خَطْتُ حَاشَعًا أَنْتَضَجِرَ
أُولَئِكَ آلُ اللَّهِ فَهَرُبْ مِنْ مَالِكٍ * بِهِمْ يُخْبِرُ الْعَظُمُ الْكَبِيرُ وَيُخَسِّرُ
هَمُّ الْمَنْكِبِ الْعَالِي عَلَى كُلِّ مَنْكِبٍ * سَيُؤْفِقُهُمْ تَمَنِّي وَتَمَنِّي وَتُمْقِرُ
كَانَ عَلَى بَنِي الْجَهْمِ يَعاشرُ جَمَاعَةً مِنْ قِتْيَانِ بَغْدَادَ لَمَّا أُطْلِقَ مِنْ حَبْسِهِ وَرُدُّهُ مِنَ الْبَغْيِ،
وَكَانُوا يَتَقَاتَبُونَ بِبَغْدَادَ وَيَلْمُونَ مَقْرَلَ مَقْرَلٍ مِنَ الْكَرْحِ بِقَالَ لَهُ الْمَفْضَلُ، فَقَالَ فِيهِ عَلَى سِرِّ الْجَهْمِ:

زَلْنَا بِبَابِ الْكَرْحِ أَطْيَبَ مَنْزِلٍ * عَلَى مُخِيسَاتٍ مِنْ قِيَانِ الْمَفْضَلِ
فِيْلَا بَنَ سُرْنَجٍ وَالْفَرِيضِ وَمَعْدٍ * بِدَالِغٍ فِي أَسْمَاعِهِ لَمْ تَبْدَلِ
أَوَانِسَ مَا لِلضَّيْفِ مِنْهُنَّ حَشَمَةٌ * وَلَا دَهْنَ بِالْجَلِيلِ الْمَجْلِ
سَرًّا إِذَا مَا الضَّيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ * وَيَنْقُصُ عِدهُ وَهُوَ غَيْرُ مُقْبَلِ
وَيُكْثِرُ مِنْ ذَمِّ الْوَقَارِ وَأَهْلِهِ * إِذَا الصَّيْفُ لَمْ يَأْتِ وَلَمْ يَقْبَلِ
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدِي الْمَرِيضَةَ غَيْرَهُ * إِذَا نَالَ حَطًّا مِنْ تَلَوِّسٍ وَهُوَ أَكَلِ
وَيُطْرَقُ إِطْرَاقُ الشَّحَاحِ مَهَابَةً * لِيُطْلِقَ طَرْفَ السَّاطِرِ الْمُنَاطِلِ
أَشْرِيئِدَ وَأَعْمَزَ بِطَرْفٍ وَلَا تَخَفْ * رَقِيًّا إِذَا مَا كَتَّ عَيْرَ مُعَلِّ
وَأَمْرِضْ عَنِ الْمَصْحَابِ وَالْمُحْجِ بِمَثَلِهِ * فَإِنْ نَحَدَ الْمَصْبَاحُ فَادْنُ وَقَبَّلِ
وَسَلِّ عَيْرَ مَمْنُوعٍ وَقُلِّ عَيْرَ مَسْكِي * وَتَمَّ فَيْرَ مَدْعُورٍ وَتَمَّ عَيْرَ مُعْجَلِ
لَكَ الْيَتُّ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً * وَكَتَّ مَلِيًّا بِالْبَيْدِ الْمَعْلِ
فَبَادِرْ بِأَيَّامِ الشَّابِّ فَإِنَّهَا * تَقْصَى وَتَمَنِّي وَالْقَوَايِدُ تَجْعَلِ
وَدَعْ عَنْكَ قَوْلَ النَّاسِ أَتْلَفَ مَالَهُ * فَلَا تَنْفَضِ مَدْرَأَ غَيْرِ مُقْبَلِ
هَلْ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ طَلَحَتْ بَنَّا * أَوَانِئُهَا فِي يَوْمٍ لَمْ يَمُجَلِ
سَقَى اللَّهُ بَابَ الْكَرْحِ مِنْ مُنْتَرِي * إِلَى قَصْرِ وَضَاحِ فِدْرَكَ زَلَزَلِ

مَسَاحِبُ أَذْيَالِ الْيَقِيَانِ وَمَشْرِحُ الْـ * حَسَانٍ وَمَثْوَى كُلِّ خَرَقٍ مُعْتَلِّ
 لَوْ أَنَّ أَمْرًا الْقَدِيسَ بِنَ حَجَرٍ يَحْتَلُّهَا * لَا تُقَصِّرُ عَنْ ذِكْرِ الشُّؤْلِ وَحَوَلِ
 إِذَا لَرَأَى أَنَّ يَمْنَحُ الْوَدَّ شَدَانَا * مُقَصِّرُ أَذْيَالِ الْقَنَا فِيرَ مُسْجِلِ
 إِذَا اللَّيْلُ أَدْنَى مُضْجِي مِنْهُ لَمْ أَقُلْ * «عَفَرَتْ بِعَيْرِي يَا أَمْرًا الْقَدِيسَ فَأَنْزِلِ»
 دخل على بن الجهم يوما على عبد الله بن طاهر في عداة من عدوات الربيع وفي السماء
 ضيم رقيق، والطريقى قليلا ويسكن قليلا، وقد كان عبد الله عزم على الصبح ففاصته
 حَظِيَّةٌ لَهُ، فتغص عليه عزمه وقَرَّ، فحَدَّثَ على بن الجهم بالخبر وقيل له : قل في هذا المعنى
 لعله ينشط للصبح، فدخل عليه فأنشده :

أَمَّا تَرَى الْيَوْمَ مَا أَحْلَى شِمَائِلَهُ * تَحْمُوْ وَعِمْ وَأَبْرَاقُ وَإِرْعَادُ
 كَأَنَّهُ أَتَ يَامِنَ لَا شَيْءَ لَهُ * وَصَلُّ وَهَجْرٌ وَتَرْبٍ وَإِعَادُ
 فَاصِّكِرِ الْأَرَاخِ وَأَشْرِبَهَا مُعْتَقَهُ * لَمْ يَدْنِرْ مِثْلَهَا كِصْرَى وَلَا عَادُ
 وَأَشْرَبَ عَلَى الرُّوضِ إِذَا لَحَتْ زَخَائِرُهُ * زَهْرٌ وَوَدٌّ وَأَوْرَاقُ وَأَوْرَادُ
 كَأَنَّمَا يَوْمُنَا فَمَلُّ الْحَيِّبِ بِنَا * بَلْلٌ وَبُخْلٌ وَإِعَادُ وَمِعَادُ
 وَلَيْسَ يَدْعُبُ عَنَى كُلِّ فَمَلِكُكُمْ * عَنَى وَرُشْدٌ وَإِصْلَاحٌ وَإِفْسَادُ
 فاستحسن الأبيات وأمر له بثلاثة دينار وحمله وحل عليه .

لما أطلق عبد الله بن طاهر على بن الجهم من الحبس أقام معه بالشاذيأح مدة، فخرجوا
 يوما الى الصيد . وافترق لهم مَرَجٌ كثير الطير والوحش وكانت أيام الزعفران، فاصطادوا
 صيدا كثيرا حسا، وأقاموا يشربون على الزعفران، فقال على بن الجهم يصف ذلك :
 وَطَلْتَنَا رِيَاضَ الزَّعْفَرَانِ وَأَمْسَكْتُ * طِينَا الْبُرَاةِ الْيَضُّ حَمَرَ الدَّرَاجِ^(١)
 وَلَمْ تَحْمِهَا الْأَدْعَالُ مِنَّا وَإِنَّمَا * أَجْمَا حَمَاهَا بِالْكَلَابِ الْبَسَوَاجِ
 بِمَسْتَرِوْحَاتٍ سَابِحَاتٍ طَلُونَهَا * عَلَى الْأَرْضِ أُمْتَالِ السَّهَامِ الْزَوَاجِ^(٢)

(١) واحده دَرَج (صم المال وتشديد الراء) وهو طائر مل حلقه انطا إلا أنه الحلف .

(٢) الزالم من السهام : الذى يمشى على وجه الأرض ثم يرمى .

ومستشرقات بالهواذى كأنها • وما عَقِفَتْ منها رؤوس الصَّوارج
ومن دالعات السُّنَّ مَكَانها • لِيَلْحَى من رجال حاضعين كَوَاصِح
فَلَيْتَنا بها العِيْطَان قَلِيًّا كأنها • أَنَامِلُ إحدى الغانيات الحَوارج
فَقُلْ لِبُغَاةِ الصَّيْدِ هل من مُعَايِرِ • بصيدٍ وهل من واصلٍ أو مخارج
قَرَنًا بُزَاةً بالصَّوَرِ وَحَوْمَتِ • شواهِدُنَا من بعد صيد الرواحِ
لَمَّا فُلِحَ أَنْ أبى دُوادَ شَمِتَ به على بن الحُجَمِ وأطهر ذلك له وقال فيه :

لَمْ يَبْقَ مَكَمٌ سِوَى خَيَالِكَ لَامِعًا • فوق الفِراشِ مَهْمَدًا بِوَسَادِ
فَرِحْتَ بِمَصْرَعِ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا • مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُوقِنًا بِمَعَادِ
كَمْ مَجْلَسٌ لَّهِ قَدْ عَطَلَتْهُ • كَيْ لَا يُحَدِّثَ فِيهِ بِالْإِسْنَادِ
وَلَكُمْ مَصَابِيحٌ لَمَّا أَطْعَمَتْهَا • حَتَّى نَزُولَ عَنِ الطَّرِيقِ الْهَادِي
وَلَكُمْ كَرِيمَةٌ مَعْشِرِ أَرْمَلِنَا • وَحَدَّثَتْ أَوْقَعَتْ فِي الْأَفْيَادِ
إِنْ الْأَسَارَى فِي السَّحُونِ تَفْرَجُوا • لَمَّا أَنْتَكَ مَوَاصِبُ الْعَوَادِ
وَعَدَا لِمَصْرَعِ الطُّيُوبِ فَلَمْ يَجِدْ • شَيْئًا لَدُنْكَ حَبْلَةً أَلْمَرَادِ
فَدَقَّ الْمَوَانِ مَعْمَلًا وَمُوجَلًا • وَاللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْمُرْصَادِ
لَا زَالَ فَالْجُلُكُ الَّذِي بِكَ دَائِبًا • وَخُفَّتْ قَبْلَ أَلْمُوتِ بِالْأَوْلَادِ

ومن جيد شعره قوله :

يَطْلُقُ الْهَوَىَّ بِحَوَى هُوَ الْحَقُّ • وَمَلِكُنِي طِينَتُكَ الرُّقْ
رِقًّا بِقَلْبِي يَا مَعْدَبَهُ • رِقًّا وَلَيْسَ لِفَالَمِ رَفْقُ
وَإِذَا رَأَيْتُكَ لَا تُكَلِّئُنِي • ضَاقَتْ عَلَى الْأَرْضِ وَالْأَفْقُ

وله أيضا :

يَا رَحْمَةً لِّغَرِيبٍ بِالْبَلَدِ النَّاسِ • زَجَّ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَبَا
فَارَقَّ أَحِبَّاءَهُ فَمَا أَتَمَعُوا • بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا أَتَمَعُوا

٢٠ - علي بن جبلة^(١)

قال المأمون يوما لبعض جلسائه : أقيم علي من حصر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة
الأمي في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها ، فقال له بعض الجلساء : قد أقم أمير المؤمنين
ولا بد من إيراد قسمه ، وما أحفظها ولكنها مكتوبة عندي ، قال : فم يفتني بها ، فعسى
وأناها بها وأنشده إياها ، وهي :

ذادِ رَدَّ النَّيَّ عَنْ صَدْرِهِ ، وَأَرْعَوَى وَاللَّهُوْ مِنْ وَطَرِهِ
وَأَبَتْ إِلَّا الْبِكَاءَ لَهُ * مَحَبَّاتُ الشَّبَابِ وَشِعْرُهُ
نَدِيحُ أَنْ الشَّبَابَ مَعَى * لَمْ أَلْقَهُ مَدَى أَثَرِهِ
وَأَقْصَتْ أَيَّامُهُ سَلَمًا * لَمْ أَجِدْ حَوْلًا عَلَى عِيَرِهِ
حَمَرْتُ عَنْ بِنَاشَتِهِ * وَذَوَى الْمَحْمُودُ مِنْ قَمَرِهِ
وَدِيمُ أَهْدَرْتُ مِنْ رَشَا * لَمْ يُرِدْ عَقْلًا عَلَى هَدَرِهِ
فَأَتَتْ دُونَ الْعُصْبَا هَنَةً * قُلْتُ فُؤُوقِي عَلَى وَتَرِهِ
حَارَاتًا لَيْسَ الشَّبَابُ لِمَنْ * رَاحَ تَحِيًّا عَلَى كِبَرِهِ
نَهَبْتُ أَشْيَاءُ كُنْتُ لَهَا * صَارَهَا حَلِيًّا إِلَى صُورِهِ^(٢)

(١) هو علي بن حلة الأمازي والذكوك لقبه ، وهو من الموالي أساء الشيعة الحراسمية من أهل بغداد ، ولد
في الحرية بها وشأ فيها ، وكان صريحا ضد ولادته مثل بشار بن برد ، وهو شاعر مطبوع عذب القسط حله ، لطيف
المعاني ، مداح حسن التصرف ، وقد استشهد شعره في مدح أبي دلف الصعل وأبي عاتق حيد بن عبد الحميد الطوسي ،
وراد في تمجيدهما وتمجيد أبي دلف خاصة حتى يصل ربيعة على مصر ، فاستاء المأمون من ذلك وبلغه أبيات فأنها
الذكوك في أبي دلف بها :

كل من في الأرض من عرب * جى ياديه إلى حمرة
مسير مسك معكمة * يكتسبها يوم معنصره

توفي سنة ٢١٣ هـ . وتجد أكثر أحاده في الأمازي (ح ١٨ ص ١٠٠) وإن حكاك طبع ولان (ح ١
ص ٤٩٥) والشعر والشعر (ص ٥٥٠) (٢) صارها : أمالها .

دَعَّ جَدًّا حَقَّانَ أَوْ مُصِيرَ * وَ يَمَانِيهِ وَفِي مُصِيرِهِ
وَامْتِنَحَ مِنْ وَاإِلَّيْ رَجَلًا * مُصِيرُ الْآفَاقِ فِي عَصِيرِهِ
الْمَايَا فِي مَنَاقِيهِ * وَالْمَطَايَا فِي ذَرَا حُجَيْرِهِ
مَلِكٌ تَدْنَى أَمَلُهُ * كَابِتْلَاجُ السُّوءِ عَنِ مَطَرِهِ
مُسْتَهْلٌ عَنْ مَوَاهِهِ * كَابِتْلَامُ الرُّوضِ عَنْ زَهْرِهِ
جُلُّ عَزَّتْ مَنَاصِكِهِ * أَيْتُ عَذَنَاتٍ فِي مُنِيرِهِ
إِنَّمَا الدُّنْيَا أَوْ دُلْفٍ * بَيْنَ مَبْدَأٍ وَخُصْرِهِ
إِذَا وَلَّى أَوْ دُلْفٍ * وَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ
لَسْتُ أَدْرِي مَا أَقُولُ لَهُ * غَيْرَ أَنَّ الْأَرْضَ فِي خَفَرِهِ
يَادُوهُ الْأَرْضُ إِنْ فَسَدَتْ * وَبَدِيلُ الْيُسْرِ مِنْ عُسْرِهِ
كُلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ * بَيْنَ مَادِيهِ إِلَى حَصَرِهِ
مُسْتَعِيرٌ مَكَ مَكْرَمَةٍ * يَكْتَسِبُهَا يَوْمَ مُفْتَحَرِهِ

وَمِثْلُهَا يَقُولُ :

وَزُحُوفٍ فِي صَوَامِلِهِ * كَصِيَاغِ الْحَشْرِ فِي أَنْسَرِهِ
قُدَّتْهُ وَالْمَوْتُ مَكْتَمٌ * وَ مَدَاصِكُهُ وَمُسْتَجِيرُهُ
فَرَمَتْ حَقَوِيهِ مَهْ يَدٌ * طَلَوْتُ الْمُنْشُورَ مِنْ نَطَرِهِ
زَرَمَهُ وَانْجَبِلَ عَابِسُهُ * لَعْمَلِ الْبُؤْسَى عَلَى حُقَرِهِ
حَارَجَاتٍ تَحْتَ رَايَتِهَا * تَكْرُوجُ الطَّيْرِ مِنْ وَكْرِهِ
وَعَلَى الْعَمَلَانِ نَجَّتْ بِهِ * عَوْنُهُ نَادَتْهُ عَنْ صَدْرِهِ
عَمَطَ النِّهَالُ صَفْوَتَهَا * فَرَدَدَتْ الصَّعْوُ فِي كَدَرِهِ
وَلَقَرَقُورٌ أَدْرَتْ رَحًا * لَمْ تَكُنْ تَرْتَدُّ فِي فِكْرِهِ

قَدْ تَأْتَيْتَ الْقَاءَ لَهُ . فَأَيُّ الْمُحْتَمُومِ مَنْ قَدَّرَهُ
وَطَعَنِي حَتَّى رَمَعَتْ لَهُ خُطَّةُ شِيعَاءَ مَنْ ذِكْرِهِ
فَنَصَبَ الْمَأْمُونِ وَأَغْتَاطَ ، وَقَالَ : لَسْتُ لِأَبِي إِنْ لَمْ أَقْطَعْ لِسَانَهُ أَوْ أَسْعِكَ دَمَهُ .

وَكَانَ يَمْدَحُ حُمَيْدَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ ، فَلَمَّا سَمِعَ حَمِيدٌ هَذَا فِي أَبِي دَلَفَ قَالَ أَيْ شَيْءٍ
نَقَيْتَ لَنَا مِنْ هَذَا مِنْ مَدْحِكَ ؟ فَقَالَ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا حُمَيْدٌ * وَأَيَادِيهِ الْجِسَامُ
فَإِذَا وَلَّى حُمَيْدٌ * عَلَى الدُّنْيَا السَّلَامُ

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدَ :

دِحْلَةُ تَسْقَى وَأَوْعَامُ * تُطْعِمُ مَنْ تَسْقَى مِنَ النَّاسِ
وَالنَّاسُ حَسْمٌ وَإِمَامُ الْهَدَى * رَأْسُ وَأَبُ الْعَيْنِ فِي الرَّأْسِ

وَقَالَ لِلْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ :

أَعْطَيْتَنِي يَا وَلِيَّ الْحَقِّ مَسَدَةً * عَطِيَّةَ كَأَفَاتٍ مَدَحِي وَلَمْ تَرَى
مَا شِئْتُ بِرَقِّكَ حَتَّى يَلْتُ رَقِيهِ * كَأَنَّمَا كُنْتُ بِالْجَنْدِيِّ تُبَادِرُنِي

وَهُوَ الْقَائِلُ فِي حَمِيدَ :

إِلَى أَكْرَمِ خَطَايَا * وَصَلْنَا السُّهْبَ بِالسُّهْبِ
إِلَى مَجْمَعِ الْبَيْلِ * وَوُلِقَى أَرْحَلِ الرُّكْبِ
حُمَيْدٌ مَقْرَعُ الْأَمَةِ * لَةِ فِي الشَّرِّ وَفِي الْعَرَبِ
كَأَنَّ النَّاسَ جَسْمٌ وَهْ * وَهُوَ مَوْصَعُ الْقَلْبِ
إِذَا سَأَلْتُ أَرْضَاءَ * يَبْتَغِي أَمَّةَ السُّرْبِ
وَإِنْ حَارَبَهَا حَلَّتْ * بِهَا رَاجِيَةُ السَّقْفِ
إِذَا لَاقَى رَجِيْلَ الْمَوْتِ * تِ بِالشُّطْبَةِ وَالشُّطْبِ
وَبِالْمَذْيَةِ الْخَصْرِ * وَبِالْمَذْيَةِ الْقُصْبِ

عدا مجتمع القلب * له جُدُّ من الرُّبِ
 يَنْهَوِزَ الذى وَالَى * وَيَاوُسى أُمى الدنب
 أيا ذا الجود فاسلِّمَ ما * برث حُفَّتْ الى حُفِ
 فأت العيثُ فى السِّلْمِ . وأت الموتُ فى الحرب
 وأت الجامعُ الصار . فى بين المد والقرب
 بك الله تلافى السا * س مد العثر والنكِب
 وردَّ البيضُ والبيض * الى الأعماد والحُف
 بإقدامك فى الحرب / وإطعامك فى اللُزْب
 فكم أتمت من خوف * وكم أشعت من شُب
 وكم أصلحت من خطب * وكم أتمت من خطب
 وما يُمَهِّرها إلا * دِرَاكُ العُصِّ والصرب
 تاهت لك خطاؤُ . الى الغاية والحسب
 هعاتت شَرَفَ الأحيا * قُوَّتَ الراسِ للعَجِب^(١)

وما أسرف فيه فكفر أو قارب الكفر قوله فى أبى دلف :

أت الذى تُزِيلُ الأيامَ منزلاً / وتَقْلُ النهرَ من حالٍ الى حال
 وما مَدَدْتَ مَدَى ظَرْفٍ الى أحدٍ * إلا قصيت أرزاق وآجال
 تَزُورُ صَحْطًا تَمْسِي اليَيسُ راصيةً * وتستهلُّ جبكى أوجهُ المال

وقال فيها :

كأت خيلك فى أنباء عمرتها * أرسلال قطيرتهاى فوق إرسال
 يخرجن من عمرات الموت ساميةً * نثر الأنامل من ذى القِرة الصالى

وقال أيضا :

جلاء مشيب تزل * وأئس شباب رعل
طوى صاحباً صاحباً * كذاك اختلاف الدول
أعذلق أقصرى * كفلك المشيب العذل
بدا بدلاً بالشا * ليت الشباب البذل
جلال ولكه * تحاماه حور المقل

وقد كان حميد ركب يوم عيد في حيش عظيم لم ير مثله ، فقال على بن جبلة يصف ذلك :

غدا مأمير المؤمنين ويمنه ، أبو عاتم قدو الندى والسحاب
وصاقت لحاح الأرض عن كل موكب * أحاط به مستعياً للواكب
كان سمنو النقع والبيض فوقهم * سماوة ليل قرئت بالكواكب
فكان لأهل العيد عيد سكرم * وكان حميد عيدهم بالمواف
ولولا حميد لم تبلغ عن الندى * يمين ولم يدرك غنى كسب كاسب
ولو ملك الدنيا لما كان سائل * ولا أعتام فيها صاحب فضل صاحب
له محكمة تستغرق المال بالندى * على عتبة تشجي القنا والتراب
دعبت بأيام العلاء فإردا بها * وصرت عن مسعك شأو المطالب
ومذلت ميل الأرض حتى تعذت * فلم يأ منها حانب فوق حانب
لفت أمدى الحزيم أمد قطرها * كأك منها شاهد كل عاث

شخص على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر إلى حراسان ، وقد مدحه فأجرل صلته ، واستأذنه في الرجوع مسأله أن يقيم ، وكان بره يتصل عده ، فلما طال مقامه أشتاق إلى أهله فدخل إليه فأنسده :

راعه الشيب إذ تزل * وكفاه من العذل
وأقضت مدة الصا * واقصى اللهو والعزل

قد لعمري دَمَّتْهُ بِحَصَابٍ مَا أَدْمَلُ
 فَايَكِ لِلشَّيْبِ إِذْ بَدَأَ لَا عَلَى الرَّنَحِ وَالطَّلَلِ
 وَصَلَّ اللَّهُ لِلْأَيِّ بِرِعْرِي الْمَلِكِ فَاتَّصِلْ
 مَلِكُ عَزْمِهِ الرِّمَا نَبْ وَأَصْلُهُ الدُّوَلِ
 صَكَّرُوهُ نَعْدَهُ نَصْرُ الْعَارِ الْمَثَلِ
 وَأَلِ طَلَّ عَرَهُ يَلْعَا الْخَلَّافُ الْوَحْلِ
 كُلِّ حَلَقٍ سِوَى الْإِمَا مِ لِإِعَامَةِ حَوَلِ
 لَيْتَهُ حِينَ حَادَلَى مَالِغَى حَادٍ مَالِقَلِ

فصحك وقال . أَبْنَتْ إِلَّا أَنْ تُوحِشَا، وَأَحْرَلِ صَلَّتَهُ وَأَدْنِ لَهُ .

دخل على بر حبله الْعَكَّوكُ عَلَى تَحْمِيدِ الطُّوسِيَّ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَأَنْشَدَهُ :

حَمَلُ اللَّهِ مَذْحَلَ الصُّومِ هَوْرًا تَحْمِيدٌ وَمُنْعَةٌ فِي الْعَاءِ
 هُوَ شَهْرُ الرَّيِّعِ لِلْقُرَاءِ وَفِرَاقُ الدُّنْيَا وَالصَّبَاءِ
 وَأَمَّا الصَّامُ الْمَلِيْلُ لِمَنْ مَا قَرَّمَا مُطِطَّرًا طُولُ الْعَاءِ
 وَكَأَنِّي أَرَى الدَّامِيَّ عَلَى الْحَسِّ نَفٌ يَرْحُونَ صَحْبَهُمُ الْمَاءِ
 قَدْ طَلَوِي مُعْصِمُ زِيَارَةِ مَعْصِ وَاسْتَعَاثُوا مَصَاحِقًا بِالْعَاءِ

وفيها يقول :

تَحْمِيدُ - وَأَيْنَ مَثَلُ حَمِيدٍ - تَحَسَّرَتْ طَلِيٌّ عَلَى الْأَحْيَاءِ
 حَوْدُهُ أَطْهَرَ السَّاحَةِ فِي الْأَرَضِ وَأَعْنَى الْمُفْقَى عَنِ الْإِهْوَاءِ
 مَلِكٌ يَأْمُلُ الْعِبَادُ تَنَاهٍ مَثَلٌ مَا يَأْمُلُونَ قَطَرَ السَّمَاءِ
 صَاعَهُ اللَّهُ مُطْعِمَ النَّاسِ فِي الْأَرَضِ صَوَاعُ السَّحَابِ لِلْإِسْقَاءِ

فَأَمَرَ لَهُ بِحَسَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، وَقَالَ : اسْتَعِمْ يَهْدِي عَلَى نَفَقَةِ صَوْمِكَ ؛ ثُمَّ دَخَلَ إِلَيْهِ ثَانِي

سُؤَالَ فَأَنْشَدَهُ :

عَلَّانِي بَصَفُو مَا فِي الدَّنَازِ ، وَأَتْرَكَ مَا يَقُولُهُ الْعَادِلَانِ
 وَأَسِيقًا فَاجَعَ الْمَيَّةَ الْعَلِيدِ ، يَشِي فِكْلٌ عَلَى الْحَسِيدِينَ فَانِي
 عَلَّانِي بِشَرِّهِ تُدْهِمُ الْمَدَّ ، ثُمَّ وَتَشِي طَوَارِقَ الْأَحْرَانِ
 وَالْقِيَا فِي مَسَامِعِ سَدِّهَا الْعَصْرِ ، مُرُقَى الْمَوْصِلِ أَوْ دَحْلَانِ
 قَدْ أَتَانَا شَوَالٌ فَاقْتُلِ الْعَبْدِ ، شُئْ وَأَعْدِي قَسْرًا عَلَى رَمَصَانِ
 نِيَمَ حَوْثُ الْعَمَقِ عَلَى ثَوْبِ الدَّهْرِ ، يَرْسُمُحُ الْقِيَادِ وَالْيَمِيدَانِ
 وَكُؤُوسٌ تَحْرِي بِمَاءِ كَرُومِ ، وَمَعْلَى الْكُؤُوسِ أَيْدِي الْقِيَانِ
 مِنْ حُقَارٍ يُنْمِتُ كُلَّ احْتِشَامِ ، وَتَشْرُ السَّدْمَانُ بِالْإِدْمَانِ
 وَكَأَنَّ الْمِرْزَاجَ يَقْدَحُ مَهَا ، شَرًّا فِي سَبَابِكِ الْعِيقَانِ
 فَاشْرَبِ الرِّاحَ وَأَعِصْ مَنْ لَامَ مَهَا ، إِيهَا يَنْعَمُ عُنْدَهُ الْعَتِيَانِ
 وَأَحْبَبِ الدَّهْرَ بَارْتَحَالٍ وَجِلٍّ ، لَا تَخَفْ مَا يَحْمِزُهُ الْحَادِثَانِ
 حَسْبُ مَسْطَهَرٍ عَلَى الدَّهْرِ رَكَا ، نَجْمِدُ رِقْمًا مِنَ الْحَدِثَانِ
 مَلِكٌ يَقْتَنِي الْمَكَارِمَ كَعَرَا ، وَتَرَاهُ مِنْ أَكْرَمِ الْعَتِيَانِ
 حُلِقَتْ رَاحَتَاهُ لِلْخُودِ وَالسَّاءِ ، يَسِي وَأَمْوَالُهُ لَشُكْرِ النَّاسِ
 مَلِكُهُ عَلَى السَّادِ مَعْدٌ ، وَأَقْرَبَتْ لَهُ سَوَاقِطَانِ
 أَرِيحِي الدَّاءَ جَبِلُ الْخِيَا ، يَذُوهُ وَالسَّاحُ مَعْتَقِدَانِ
 وَحِهِه مُشْرِقٌ إِلَى مُعْتَبِرِهِ ، وَيَذَاهُ الْعَبِيثُ سَهْرَانِ
 حَمَلُ الدَّهْرِ يَسِي يَوْمِيهِ قَسْمِي ، يَسِي مُعْرِفُ حَرْبٍ وَحَرْبِ طَعَانِ
 فَاذَا سَارَ بِالْخَيْسِ لِحَرْبٍ ، كَلَّى عَنْ نَصِّ بِهِ الْخَافِقَانِ
 وَإِذَا مَا هَزَرَتْهُ لِسَوَالٍ ، صَاوَى رَحْبَ صَدْرِهِ الْأُفْقَانِ
 غِيْثٌ جَدِيدٌ إِذَا أَقَامَ رَيْعٌ ، يَتَفَشَّى بِالسُّنْبِ كُلِّ مَكَانِ
 يَا أَبَا ظَاهِمٍ قَبِيَتْ عَلَى الدَّهْرِ ، يَرْوَحُ خُلَّتْ مَا جَرَى الْمَصْرَانِ

ما بُبَالِي إِذَا عَدَّتْكَ الْمَايَا * مَنْ أَصَابَتْ بِكَ كَلْبِي وَجَرَانِ
 قَدْ جُعِلَ إِلَيْكَ مَثَ الْمَطَايَا . هَرَمًا مِنْ زَمَانِ الْخَوَانِ
 وَحُلَا الْحَاكِاتِ مَوَى عِيَالِي * صَامَاتِ حَوَائِجِ الرِّجَالِ
 لَيْسَ حُودٌ وَرَاءَ جُودِكَ يُبَالِي * بَلْ لَا يَمْتَنِي لِفَيْدِكَ عَالِي

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كآب للصوم تحققت وحققا، وهذه للمطر
 فقد ردتنا وزدناك .

ولما مات حميد الطوسي رثاه قصيدته العينية المشهورة التي تُقَدَّم من نادر الشعر
 وبديعه، وهي :

أَلَدَّهِم تَبْكِي أُم عَلَى الدَّهْرِ تَحْزَعُ وَهِيَ صَاحِبُ الْأَيَّامِ إِلَّا مُقْعَعُ
 وَلَوْ سَهَّلْتَ عَلَيَّ الْأَمَى كَانَ فِي الْأَمَى عِزَاءُ مَعْرِ لَلْبِيبِ وَمَقْعَعُ
 تَعَرَّ بِمَا عَزَّيْتَ عَيْرَكَ إِيَّاهَا يَسْأَلُ الْمَايَا حَائِمَاتٍ وَوُقْعُ
 أَتَيْتَ بِيَوْمٍ فِي حُمَيْدٍ لَوْ أَنَّهُ أَصَابَ عُرُوشَ الدَّهْرِ طَلَّتْ تَقْعُضُ
 وَأَذْبَتَا مَا أَذَبَ السَّاسَ قَلْبَا وَابْكِي لَمْ يَبْقِ لِلصَّبْرِ مَوْصِعُ
 أَلَمْ تَرِ لِلْأَيَّامِ كَيْفَ تَصَرَّعَتْ بِهِ ، وَهِيَ كَأَنَّهَا مُدَاذُ وَتُدْعُ
 وَكَيْفَ التَّقَى مَثْوَى مِنَ الْأَرْضِ صَبَقُ عَلَى حَلِيلٍ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مُنْعُ
 وَلَمَّا انْقَضَتْ أَيَّامُهُ انْقَضَتْ الْمَلَأُ وَأَمَحَى بِهِ أَنْفَ السَّيِّدِ وَهُوَ أَجْدُ
 وَرَاحَ عَدُوُّ الدَّيْرِ حَذَلَانٍ يَتَحَيَّ أَمَانِي كَانَتْ فِي حَشَاءٍ تَقْطَعُ
 وَكَانَ حُمَيْدٌ مَقِيلًا رَكَعَتْ بِهِ قَوَاعِدُ مَا كَانَتْ عَلَى الصِّمِّ تَرْكُ
 وَكَتَبْتُ أَرَاهُ كَالرَّزَايَا رُزْتُهَا وَلَمْ أَدْرِ أَبْ أَلْخَلَقَ تَبْكِيهِ أَجْمَعُ
 حَيَّامٌ رَمَاهُ مِنْ مَوَاضِعِ أَمْنِهِ حَيَّامٌ ، كَذَلِكَ الْخَطْبُ بِالْخَطْبِ يُقَدِّعُ
 وَلَيْسَ نَفَرُوا أَنْ تُصِيبَ مَيَّةٌ حَيَّيْ أَحْتَبَاهَا أَوْ أَنْ يَنْقَلِ الْمُسْعُ
 لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِيهَا الْمَنَايَا شَارَهَا وَحَلَّتْ بِخَطْبٍ وَهِيَ لَيْسَ يُرْفَعُ

تَعَاهٍ مُجْمَعًا لِلرَّايَا إِذَا صَدَتْ * تَدَادَ بِأَطْرَافِ الرِّيحِ وَتُوزَعُ
وَلَأَرْهَقَ الْمَكْرُوبِ ضَاقَتْ أَمْرُهُ * هَلْ يَدْرِى حَوَامَتَهَا كَيْفَ يَصْعُ
وَالْيَبِضُ حَقَّتْهَا الْعَوَلُ وَلَمْ يَدْعُ * لَهَا غَيْرُهُ دَاعَى الصَّاحِ الْمَفْرَعُ
كَأَنَّ حَيْدًا لَمْ يَقْدَحِيْشْ عَكْرِ * إِلَى عَسْكَرِ أَشْيَاعِهِ لَا تَرْوَعُ
وَلَمْ يَبْعَثِ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالصَّحَى * مِرَاحًا وَلَمْ يَرْجِعْ بِهَا وَهَى ظَلْعُ
رَوَاحٍ يَحْلُنُ النَّهَابَ وَلَمْ تَكُ * كَلَامُهُ إِلَّا عَلَى النَّهْبِ تَرْجِعُ
هَوَى حَبْلُ الدِّيَا الْمَبِيعُ وَعَيْثُهَا * حَرِيعُ وَحَامِيهَا الْعَكْمُ الْمَشِيعُ
وَسَيْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَنَعُهُ * وَمِفْتَاحُ بَابِ الْحَطَبِ وَالْخَطَبُ أَظْلَعُ
فَاقَمَهُ مِنْ مُلْكِهِ وَرِنَاعِهِ * وَبَاتِلَهُ قَعْرٌ مِنَ الْأَرْضِ يَلْقَعُ
عَلَى أَى شَيْءٍ تَشْتَكِي النَّصْ سَدَهُ * إِلَى شَمُوهِ أَوْ يَذْنُرُ الدَّمَغَ مَدَمَعُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ حَالًا صَيَاوُهَا * طَبِيعُهُ وَاصِحَى لَوْهَا وَهُوَ أَسْفَعُ
وَأَوْحَشَتِ الدُّنْيَا وَأَوْدَى بِهَاوُهَا * وَأَحْدَبَتْ مَرَعَاهَا الدِّي كَانَ يَمْرُغُ
وَقَدْ كَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ مَطْمَئِنَّةً * فَقَدْ جَلَّتْ أَوْتَادُهَا تَنْقَلَعُ
بَكَى فَقَدَهُ رُوحُ الْحَيَاةِ كَمَا بَكَى * نَدَاهُ السَّدَى وَأَبْنُ السَّبِيلِ الْمُدْفَعُ
وَفَارَقَتِ الْبَيْضُ الْخَلْدُورَ وَأَبْرَزَتْ * عَوَاطِلَ حَسْرَتِي سَدَهُ لَا تَقَعُ
وَأَيُّظُ أَجْفَانًا وَكَانَ لَهَا الْكَرَى * وَبَامَتْ عَيُونُهُ لَمْ تَكُنْ قَبْلَ تَهَجُّعُ
وَلَعَنَهُ مَقْدَارُ يَوْمِ نَوَى بِهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِ مِ نِهَالٍ وَمَشْرَعُ
وَقَدْ رَأَى أَنَّهُ الْمَلَا بِعَمْدٍ * وَالْأَصْلَ يَتَمَى فَوْقَهُ التَّمْشَرَعُ
أَغْرَى، عَلَى أَسْيَافِهِ وَيَمَاحِهِ * تَقَسَّمَ أَهَالُ الْخَمِيسِ وَتُحْمَعُ
حَوَى عَنْ أَبِيهِ بَذَلَ رَاحَتِهِ الدِّي * وَطَمَنَ الْكُلَى وَالزَّاعِبَةُ شَرَعُ

(ملحة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٣٧/٣١٥٠)

عصر المأمون

بقلم

الدكتور

أحمد فرید زفاعی

المفتش بوزارة الداخلية

المجلد الثالث

(حقوق الطبع محفوظة المؤلف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٤٦ - ١٩٢٧ م

فهرست

المجلد الثالث من عصر المأمون

ملحق الكتاب الثالث - عصر الأمين والمأمون

باب المشور :

١	صمصص كتب الأمين والمأمون - مص كتاب الأمين الى المأمون
٢	مص كتاب الأمين الى أخيه صالح
٥	القول بحق القرآن (ما كتبه المأمون الى ولاته)
١٧	عهد طاهر بن الحسين
٢٦	رسالة اويس (ما كتبه المأمون الى أهل حراسان)
٣٨	ما كتبه السيدة ربيعة الى المأمون - ما كتبه المأمون اليها
٣٩	رسالة أحمد بن يوسف

رسائل سهل بن هارون :

٤٨	وصفه وتاريخ حياته - ما حكاه الخاطب عنه
٤٩	ما حكاه دحل الخزازي الشاعر عنه
٥٠	كتبه وطريقته في التأليف
٥٢	من كلام له في كتابه ثلثة وعشرة
٥٣	ما كتبه الى صديق له أبل من صف - رسالته في الحل
٥٧	شيء من شعره

رسائل عمرو بن مسعدة :

٥٩	وصفه وتاريخ حياته
٦١	من كلام له - ما كتبه الى الحسن بن سهل - ما كتبه الى المأمون
٦٢	مع حاكمه

صفحة

٦٤	ما كتبه الى بعض الرؤساء
٦٥	شيء من شعره
٦٦	حكاية له
٧٠	ما قاله أو محمد عبد الله بن أيوب التيجي فيه

رسائل الجاحظ :

٧٢	وصفه وتاريخ حياته — رسالته الى بني أمية
٨٠	ما كتبه الى بعض إخوانه في دم الزمان
٨٢	وصفه قريش وفي حاشم
٨٣	ما كتبه في الاعتذار — ما كتبه في الاستطاب
٨٤	ما كتبه في دم الحسد — دفاعه عن مؤلفاته
٩٢	ما كتبه في أحد البريء مذنب المذنب
٩٨	ما كتبه في أقسام البيان
١٠١	ما كتبه في مدح الكتب
١١٥	ما كتبه في التزيين في اصطلاح الكتب

ماب الرسائل :

١٢٨	المصول المتبعة في الرسائل المختارة في كل فن — كتب رجل الى صديق له
١٣١	فصل لسعيد بن جريد
	فصل في مدينة — فصل في شناعة — فصل لرجل تميمي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٣	فصل في الصبح لأبي علي — فصل لأحمد بن يوسف
١٣٤	فصل لعفان بن شبة — فصل في الوديع — فصل في الصبح — حواب في فتح
١٣٥	فصل في الصبح عن الحفاء — فصل في الاعتذار
١٣٦	الى المأمون من عامل — فصل لأن الكلي
١٣٧	فصل لاراهيم بن اسماعيل بن داود
١٣٨	فصل لعمر بن مسعدة
١٣٨	فصل لعيسى بن واضح الى الفصل بن ربيع — فصل لحبل بن يزيد
١٣٩	وله في الخطر — وله الى بعض إخوانه
١٤٠	فصل لأن أمير كاتب الحيران — فصل لأن الكلي — فصل لعلي بن عبيدة الى ابن الكلي
١٤١	فصل لعروة — فصل لسعيد بن عبد الملك

- سمعة
١٤٢ فصل لعل س يريد الى بص احواه — وله الى بص احواه أيضا
١٤٤ فصل في شكر... .. .
١٤٥ فصل في صفة الحمد
ما كتبه حمير س محمد الأشعث الى رجل لم يكتبه — ما كتبه الفصل س يحيى الى رجل
بشاوره في أمر حدث — ما كتبه أحمد س يوسف الى امحاق س ابراهيم الموصلي — توسل
ما كتبه طاهر س الحسين الى الفصل س سهل — ما كتبه محمد س الخهم — ما كتبه
محمد بن مسر — ما كتبه اس وهب في الاعتذار

التعابيد :

- ١٤٨ التعبيد الأول — التعبيد الثاني
صدر تعبيد معد — صدر تعبيد آخر — تعبيد مختار لكاتب حريمه س حارم في فتح
الصارية — تعبيد لأحد س يوسف الى الولاية من الخليفة
١٤٩ محمد لبراهيم س العباس في فتح اسماعيل س اصحاق — التعبيد الثاني — تعبيد له متدا
مقام بين يدى الخليفة
١٥٠ تعبيد ثان — تعبيد ثالث
١٥١ محمد في فتح لاس العباس
١٥٣ وله في فتح اس الحبش لما طهره
١٥٣ وله صدر خطاب الخبيس في محمد الله ومحمده
١٥٤ محمد لأحمد س يوسف في صدر رسالة الخبيس التي كانت تقرأ بحراسان
١٥٥ محمد لساس في مقام له بين يدى المأمون — محمد لعبد الجيد في أى البلاء المحروى
١٥٦ محمد في فتح الى أمير لقائمة — صدر محمد لسان س عبد الجيد في حطة موحدة — محمد
لعبد الجيد في فتح
١٥٧ محمد ثالث
١٥٨ محمد لأس س أن شيع — محمد لعبد الجيد في فتح يعظم فيه أمر الاسلام
١٥٩ محمد لعبد الجيد أيضا
١٦٠ محمد لقائمة — محمد ليد س علي — تعبيد في الاسلام
١٦١ محمد لأنى عيد الله
١٦٢ صدر رسالة في الخبيس لبراهيم س المهدي
١٦٣ محمد في الاسلام وما اعتن به على أهله
١٦٤ محمد في البهادر وما بهت به الى صل الله عليه وسلم... .. .
١٦٥

صفحة	
١٦٨	تمجيد في فتح لسعيد بن حميد
١٦٩	تمجيد لان المقمع
١٧١	تمجيد لسان بن عبد الحميد — تمجيد لأحد بن يوسف في فتح السد ..
١٧٢	تمجيد لأنى عيد الله — تمجيد لسعيد بن حميد ..
١٧٣	ما يقترطه الخليفة ..
١٧٧	تمجيد لأنى عيد الله ..
١٨٠	ما يكسبه في المحالين وقت الحريجة ..
١٨١	ما يكسبه في صفة الخالين ..
١٨٤	ما يكسبه في النعاة — ما يكسبه في مدح تواد الحيوش وصفة الأولياء في أحوالهم ...
١٨٧	وصف الأولياء في الكتب ..
١٨٨	ما يقترطه أمير المؤمنين في أواخر الكتب — سعيد بن حميد ..
	التحاميد في أواخر الكتب :

١٨٨	تمجيد لسعيد بن صر — تمجيد لاراهيم بن الصاس — تمجيد لأنى عيد الله ..
١٩٢	الدهاء لأمر المؤمنين في أواخر الكتب ..
	مختار ما كتب من باب التهناني في كل فن :

	تهنئة خليفة طغر — ما كتبه اراهيم بن المهدي الى المنصور به محروجه عن أرض الروم
١٩٣	مدح صبح عمورية ..
١٩٤	ما كتبه أحد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر به طغر — تهنئة خليفة صبح ..
١٩٥	تهنئة ولاية — تهنئة لسعيد بن حميد الى بعض أحواله ..
١٩٧	ما كتبه محمد بن مكرم الى أحد بن دينار ..
١٩٨	تهنئة برك عامل من عمله ..
١٩٩	ما كتبه محمد بن مكرم الى اراهيم بن المدر ..
٢٠٠	تهنئة ترويح وباء أهل ..
٢٠١	تهنئة بولود كتبها الصاس بن الحسن الطائي الى المؤمن ..
٢٠٤	ما كتبه اس المقمع الى صديق له ولدت له حارية ..
٢٠٥	تهنئة لمحمد بن مكرم الى صراني أسلم ..

باب المنظوم :

٢٠٦	أورواس ..
٢٤٩	القصائد ..

فهرس المجلد الثالث

(ز)

صفحة	
٢٥٥	دعبل ...
٢٦٥	حسين بن الصحاك
٢٧٨	محمد بن عبد الملك الريات
٢٨٣	ابن التواب ..
٢٨٦	الحسري
٢٩٥	عبد الله بن طاهر ..
٢٩٨	ما قبل في عهد الأمين وراثته ..
٣٠٣	عهد يحيى بن أكنم ..
٣٠٥	وصف نورة بغداد وخرجها ..

مُلْحَقٌ الكتاب الثالث

باب المنشور

(١) نصوص كتب الأمين والمأمون

١ - نص كتاب الأمين الى المأمون؛ وهو الكتاب الذي أشرنا اليه في الجزء الأول .
إذا ورد عليك كتاب أخيك - أعاده الله من - فقدك - عند حلول ما لا مرد له
ولا مدفع، مما قد أحلف وتسامح الإثم الخالية، والقرون الماضية، بما عزاك الله به .
وأعلم أن الله جل ثناؤه، قد اختار لأمير المؤمنين أفضل الدارين، وأجرل الحظين،
فقبضه الله طاهراً زاكياً، قد شكر سعيه، وغفر ذنبه، إن شاء الله . فقم في أمرك قيام
ذي الحزم والعزم، والتأخير لأخيه ونفسه، وسلطانه وعامة المسلمين . وإياك أن يطلب
عليك الجزع، فإنه يخطئ الأجر، ويقترب الوزر، وصلوات الله على أمير المؤمنين حياً وميتاً،
وإنا لله وإنا إليه راجعون . وحذ البيعة على من قبلك، من قوادك وجندك، وخاصتك
وعاتمتك، لأخيك ثم لنفسك، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين، على الشريطة التي جعلها لك
أمير المؤمنين : من نسحها له وإثباتها، فإنك مُقلد من ذاك، ما قللك الله وحليفته .
وأعلم من قبلك رأيي في صلاحهم، وسد خلتهم، والتوسعة عليهم؛ من أنكرته عند
بيعته، أو آتممته على طاعته، فابعث إلى برأسه مع خبره . وإياك وإقائته، فإن البار أولى

به . وأكثب إلى عمال ثغورك ، وأمرأه أجادك ، بما طرقت من المصيبة أمير المؤمنين ؛ وأعلمهم أن الله لم يرص الدنيا له ثوابا ، حتى قصبه إلى روجه وراحته وحنه ، معنوطا محمودا ، قائدا لجميع حلقاته إلى الجحيم إن شاء الله . ومزهم أن يأخذوا البيعة على أجادهم ، وخواصهم وعواتهم ، على مثل ما أمرتك به ، من أحضاها على من قبلك ؛ وأوعز إليهم في صسط ثغورهم ، والقوة على عدوهم ، إلى متعقد حالاتهم ، ولأتم شعثهم ، وموسع عليهم ، ولا آين في تقوية أحادي وأصاري . ولكن كنتك إليهم كشتا عامة لتقرأ عليهم ، فإذ ذلك ما يسكنهم ، ويسط أمهم . وأعمل بما أمر به لمن حصرتك ، أو نأى عك من أجادك على حسب ما ترى وتُشاهد . فإن أحاك بعرف حسن اختيارك ، وصحة رأيك ، وتعد طورك ، وهو يستحفظ الله لك ، ويسأله أن يشدك عصده ، ويجمع لك أمره ، إنه لطيف لما يشاء . وكتب بكر بن المعتز يدي وإملائي في شوال سنة ١٩٢ هـ

٢ — وهذا كتاب محمد الأمين إلى أخيه صالح .

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا ورد عليك كتابي هذا ، عد وقوع ما قد سبق في علم الله ، وهدي من قضائه ، في حلقاته وأوليائه ، وحررت به سنته في الأنبياء والمرسلين ، والملائكة المقربين ، فقال : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . فاحمدوا الله على ما صار إليه أمير المؤمنين ، من عظيم ثوابه ومرافقة أنبيائه ، صلوات الله عليهم ، إنا إليه راجعون ، وإياه نسأل أن يُحسن الخلافة على أمته بيه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان لهم عصمة وكهما ، وهم رهوا رحيا .

فشمت في أمرك ، وإيالك أن تلقى بيدك ، فإن أحاك قد أختارك لما أستنصك له ، وهو متعقد مواقع قهداك ، فحق طسه ، ونسأل الله التوفيق . وحذ البيعة على من قبلك ، من ولد أمير المؤمنين ، وأهل بيته ومواليه وحاصسته وعامته لمحمد أمير المؤمنين ، ثم لعبد الله ابن أمير المؤمنين ، ثم للقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريطة التي جعلها

أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — من فسحها على القاسم أو إشتاتها . فإن السعادة واليمن في الأخذ مهده والمضي على ما هه .

وأعلم من قِلك من الخاصة والعامة رأي في استصلاحهم ، ورد مظالمهم ، وتفقد حالاتهم ، وأداء أراقهم ، وأعطياتهم عليهم . فإن شغب شاعب ، أو نعر ناعر ، فاسط به سلوة تجعله نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للتصين . وأصم إلى الميمون ابن الميمون الفضيل — الربيع ولد أمير المؤمنين وحده وأهله ، ومُره بالمسير معهم فيمن معه ، وجده وراطلته ، وصير إلى عبد الله بن مالك أمر العسكر وأحداثه ، فإنه ثقة على ما يلى ، قول عبد العاتنه ، وأصم إليه جميع جد الشرط ، من الرواط وغيرهم ، إلى من معه من جده . ومُره بالحد واليقظ ، وتقديم الحزم في أمره كله ، ليلة ونهاره . فإن أهل العداوة والعاو لهذا السلطان يتيمون مثل حلول هذه المصيبة ، وأقر حاتم بن هرثمة على ما هو عليه ، ومُره بحراسة ما يحفظ به قصور أمير المؤمنين ، فإنه من لا يعرف إلا بالطاعة ، ولا يديس إلا بها ، بمعاقد من الله ، مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء ، ومُره انلدم بإحصار رواطهم ، من بسد بهم وأجنادهم مواضع انخل من عسكرك ، فاتهم حد من حدودك ، وصبر مُقمتك إلى أسد بن يزيد من مزيد ، وسأقتك إلى يحيى بن مُعاد ، فيمن معه من الجود ، ومُرها عما وبنتك في كل ليلة .

وألزم الطريق الأعظم ، ولا تَمُدُون المراحل ، فإن ذلك أرقق لك ، ومُره أسد بن يزيد ، أن يختير رجلا من أهل بيته أو قواده ، فيصير إلى مقدمته ، ثم يصير أمامه ، لتبته المنازل ، أو بعض الطريق ، فإن لم يتحصرك في عسكرك بعض من سميت ، فاحترلواصعهم من يتيق طاعته ، ونصيحته وهيبته ، عد العوام ، فإن ذلك لى يؤوزك ، من قوادك وأنصارك ، إن شاء الله .

ولمالك أن تُنفذ رأيا ، أو تُبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وبقية آمالك ، الفضيل بن الربيع ، وأقرر جميع الخدم على ما في أيديهم من الأموال والسلاح والخراش وغير ذلك ؛

ولا تُخْرِجَ أَحَدًا مِنْهُمْ، مِنْ صَمْنٍ مَا بَلَغَ، إِلَى أَنْ تَقْدَمَ عَلَيَّ . وَقَدْ أُصِيبَتْ بَكْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ
بِمَا سَيَّلَعَكَ، وَأَعْمَلَ فِي ذَلِكَ قَدْرَ مَا تَمَاهَدَ وَرَى . وَإِنْ أَمَرْتَ لِأَهْلِ الْعَسْكَرِ بِعَطَاءٍ
أَوْ رَقٍّ فَلْيَكِ الْعَصَلُ بِنِ الرَّبِيعِ الْمُتَوَلَّى لِإِعْطَائِهِمْ، عَلَى دَوَاوِينَ يَتَّقِدُهَا لِنَفْسِهِ، بِمَحْصَرٍ
مِنْ أَصْحَابِ الدَّوَاوِينَ، فَإِنَّ الْعَصَلَ بِنِ الرَّبِيعِ لَمْ يَزَلْ مِثْلَ ذَلِكَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ . وَأَنْفِذْ
إِلَى عَدَدِ وَصُولِ كَتَايَ هَذَا إِلَيْكَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ صَبِيحٍ، وَبَكْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ، عَلَى مَرَكَبَيْهِمَا
مِنَ الْبَرِيدِ، وَلَا يَكُونُ لَكَ عُزْرَةٌ وَلَا مُهْلَةٌ، بِمَوْصِلِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، حَتَّى تُؤَوِّجَهُ إِلَى
بَعْسِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْخِزَانِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . أَخُوكَ يَسْتَدْعِي اللَّهَ عَنْكَ، وَيَسْأَلُهُ لَكَ
حَسَنَ التَّائِيدِ رَحْمَتَهُ . وَكُتِبَ بَكْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ بِي يَدَيَّ وَإِمْلَأْنِي فِي شَوَّالِ سَنَةِ ١٩٢ هـ .

ثم هم الذين حادوا بالباطل ، ودعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مُنطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وصرخوا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السنة الكاذب ، والتحشع لغير الله ، والتعسف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ، ومواطنتهم على سيئ آرائهم ، تزيئاً بذلك عنهم ، وبصفاً للرياسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى ما ظنهم ، واتحدوا دون الله وليحة إلى صلاتهم ، فقلبت بركبتهم لهم شهادتهم ، ونعدت أحكام الكتاب بهم ، على دحل دينهم ، وقيل أديهم ، وفساد نيانهم وبقينهم ؛ وكان ذلك عايتهم التي إليها حروا ، وإياها طلبوا في مناسبتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله ، وأعمى أبصارهم ، ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ . ورأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأئمة ، ورموس الضلالة ، المتقوصون من التوحيد حفظاً ، والمختسوسون من الإيمان صهيماً ، وأوعية الجهالة وأعلام الكذب ، ولسان إبليس اللاطق في أوليائه ، والهاطل على أعدائه ، من أهل دين الله ، وأحق من يؤمهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإحلاص التوحيد ، ومن عي عن رشده وحظه ، من أهل الإيمان باق وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله ، والقصد في شهادته ، أعمى وأصل سبيلاً ، ولعمري أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخص الباطل في شهادته من كذب على الله ووجهه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وأن أولاهم يرد شهادته ، في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضورك من القصاة ، وأقرا عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، فأبدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن وإحداثيه ؛ وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا وائقي

فإِله الله، واستحفظه من أمور رعيته بئس لا يوثق بدينه، وحلوص بوحيدة وبقية،
فإذا أقرؤا بذلك، واهتوا أمير المؤمنين فيه، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة، فمُرهم بنص
من يحضرهم من اليهود على الناس، ومسألهم عن علمهم في القرآن، ورك إثبات شهادة
من لم يُقرأته مخلوق مُحدث ولم يره، والامتناع من توقيعها عده، واكتب إلى أمير المؤمنين
بما يأتيك، عن قصاص أهل عمالك في مسألهم، والأمر لهم بمثل ذلك، ثم أشرِف عليهم،
وعمد آثارهم، حتى لا تُفقد أحكام الله، إلا بشهادة أهل البصائر في الدين، والإخلاص
للتوحيد، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك إن شاء الله . وكتب في شهر
ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ .

وكتب المأمون، إلى إسحاق بن إبراهيم، في إشخاص سبعة نفر، منهم : محمد بن سعد
كاتب الواقدي، وأبو مسلم مستمل يزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وروهرس خرب
أبو حنيفة، وإسماعيل بن داود، وإسماعيل بن أبي مسعود، وأحمد بن الدُّورقي،
فأثخصوا إليه، فامتنعهم، وسألهم عن خلق القرآن، فأحاطوا جميعاً أن القرآن مخلوق،
فأثخصهم إلى مدينة السلام، وأحصرهم إسحاق بن إبراهيم داره، فشهَر أمرهم وقولهم
بحصره المقهاء، والمتأجج من أهل الحديث، فأقرؤا بمثل ما أحاطوا به المأمون على سبيلهم،
وكان ما فعل إسحاق بن إبراهيم من ذلك بأمر المأمون .

وكتب المأمون بعد ذلك إلى إسحاق بن إبراهيم :

أما بعد، فإن من حق الله على خلقه في أرضه، وأمانته على عبادِهِ الذين أرتصاهم
لإقامة دِينِهِ، وحملهم رِعاية خلقِهِ، وإمضاء حُكْمِهِ وَسُنَّةِهِ، والالتزام بَعْدِهِ في بَرِيَّتِهِ، أن
يَهْدُوا لَهُ أَهْلَهُمْ، وَيَنْصَحُوا لَهُ فِيمَا آسَدَ عَلَيْهِمْ وَقَلَدَهُمْ، وَتَذَلُّوا عَلَيْهِ — تبارك اسمه —
وتعالى — بفضل العلم الذي أودعهم، والمعرفة التي جعلها فيهم، ويَهْدُوا إِلَيْهِ مَنْ زاع
عنه، ويردوا مَنْ أدبر عن أمرِهِ، وَيَنْهَوْا لِرِعايَاهُمْ تَمَّتْ مَخَاتِمُهُ، وَيَقْعُومَ عَلَى حُدُودِ
إِيمَانِهِمْ، وسبيل فوزِهِمْ وعصمتِهِمْ، وَيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ مُغْطِيَاتِ أُمُورِهِمْ، ومشتبهاتها

عليهم، بما يدفعون الرب عنهم، ويعود بالصياة والندبة على كافتهم، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتصيرهم، إذ كان حامعا لصون مصاعهم، ومستظا لحظوظ عاجلتهم وأحلتهم، ويتذكروا أن الله مُرْصِدٌ من مساآلتهم عما حُمِلُوهُ، ومحارآتهم بما أسلفوه، وقَدَمُوا عَلَيْهِ، وما توفىقُ أمير المؤمنين، إلا بالله وحده، وحسبه الله وكفى به. ومما يثبه أمير المؤمنين برؤيته، وطالعه بذكره، فتبين عظيم خطره، وحليل ما يرجع في الدين من وكفه وصرره ما يبال المسلمون بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماما لهم، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم ناطقا لهم، وأشباهه على كثير منهم، حتى حسَّ عدهم، ورتَّ في عقولهم، ألا يكون مخلوقا، فتمزصوا بذلك لدفع خلق الله، الذي نادى به عن خلقه، وتمرد عجلاته من استداع الأشياء كأما يحكمه، وإنشائها بقدرة، والتقدم عليها بأوليته، التي لا تُسَلَّعُ أولاها، ولا يدرك مداها، وكان كل شيء دونه، خلقا من خلقه، وحدثا هو المُحْدِثُ له. وإن كان القرآن باطقا به، ودالا عليه، وقاطعا للاختلاف فيه، وصاهوا به قول الصارى، في أدعائهم في عيسى بن مريم أنه ليس بمخلوق، إذ كان كلمة الله، والله عز وجل يقول ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، وتاويل ذلك: إما خلقناه، كما قال حل حلاله ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا رُوحَهَا لِيُنْشِكَ إِلَيْنَا﴾. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾. فسوى عز وجل، بين القرآن، وبين هذه الخلائق، التي ذكرها في شبيه الصعفة، وأحبر أنه جاعله وحده، فقال: ﴿ذَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لُوحٍ مَحْفُوظٍ﴾. فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن، ولا يحاط إلا بمخلوق، وقال لمبه صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَمُجِّلَ بِهِ﴾. وقال: ﴿يَا أَيُّهُمْ مِنْ دَخِرَ مِنْ رَبِّهِمْ مُخْذِتٌ﴾. وقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾. وأحبر عن قوم ذمهم بكنهم، أهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشِيرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم أكتبهم على لسان رسوله، فقال لرسوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي حَاءَ بِهِ مُوسَى﴾. فسمى الله تعالى القرآن قرآنا وذكرا، وإيمانا ونورا وهدى ومباركا وعربيا

وقصصا ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ۚ .
 وقال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَحْتَمَعْتَ الْإِنْسَ وَالْحَيُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ .
 وقال : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ۚ . وقال : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
 وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ . جعل له أوْلا وآخرا ، ودل عليه ، أنه محدود مخلوق ، وقد عظم هؤلاء
 الجهلة بقولهم في القرآن ، التلم في دنهم ، والخرح في أماسهم ، وسهلوا السبيل لعدو
 الإسلام ، وأعتروا بالتدليل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفتوا ، ووضعوا على الله وعمله
 بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به ، والإشاه أولى بحلقه ، وليس رى أمير المؤمنين ،
 لم قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يُحَلَّ
 أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صديق في قول ولا حكاية ، ولا توليه
 لشيء من أمر الرعية ، وإن طهر قصد بعضهم ، وعُرف بالسداد مُستدْفِهم ، فإن الفروع
 مردوده الى أصولها ، ومجولة في الحمد والدم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر ديه ، الذي
 أمره الله به ، من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأصل
 سبيلا .

فاقرأ على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسماعيل القاضي كتاب أمير المؤمنين ، بما
 كتب به إليك ، واصصهما عن علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين
 على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإحلامه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يُقَرَّ
 بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدم الهمما في امتحان من يحضر
 مجالسهما ، بالشهادات على الحقوق ، ونصهم عن قولهم في القرآن ، قس لم يقل منهم إنه
 مخلوق ، أطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عمافه بالقصد والسداد في أمره ،
 وأفضل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافا يزيد الله به ذا البصيرة
 في بصيرته ، ويميع المرتاب من إعمال ديه ، وأكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك
 في ذلك إن شاء الله .

ثم لسطر ما حصل بعد ذلك مما يرويه لنا الطبري قال :

فأحضر إسحاق بن إبراهيم لذلك جماعة من العلماء والحكام والمحدثين ، وأحضر
أما حسان الرمادي ، وديسر الوليد الكندي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والفصل بن عام ،
والديال بن الهيثم ، ويحماده ، والقواريري ، وأحمد بن حنبل ، وقتيبة ، وسعدويه الواسطي ،
وعلى بن الجعد ، وإسحاق بن أبي إسرائيل ، وأبن الحرث ، وابن عيسى الأكبر ، ويحيى
ابن عبد الرحمن العمرني ، وشيعا آخر من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة وأما نصر
التمار وأما معمّر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، ومحمد بن يوح المصروب ، وابن
الفرحان ، وجماعة منهم النصر بن شميل ، واس على بن عاصم ، وأبو القوام البراز ، وابن
شجاع ، وعبد الرحمن بن إسحاق ، فأدخلوا جميعا على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا
مرتين ، حتى فهموه ، ثم قال إسمير الوليد . ما هول في القرآن ؟ فقال . قد عرفت
مقاتلي لأمر المؤمنين عمر مرّة ، قال . فقد نحدث من كتاب أمر المؤمنين ما قد ترى ، فقال :
أقول القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال . الله خالق كل شيء ،
قال : ما القرآن شيء ؟ قال . هو شيء ، قال . فخلق ؟ قال . ليس بخالق ، قال : ليس
أسألك عن هذا ، أخلق هو ؟ قال . ما أحسن عمر ما قلت لك ، وقد استعهدت
أمر المؤمنين ألا أتكلّم فيه ، وليس عدي عمر ما قلت لك ، فأحد إسحاق بن إبراهيم رقعة
كانت بين يديه ، فقرأها عليه ، ووقف عليها ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحدا فردا
لم يكن قلبه شيء ، ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا
وجه من الوجوه ، قال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب :
أكتب ما قال .

ثم قال لعلّ بن أبي مقاتل : ما تقول يا علي ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمر المؤمنين
في هذا غير مرّة ، وما عدي مرّة ما سمع ، فامتحه بالرقعة ، فافتر بما فيها ، ثم قال : القرآن
مخلق ؟ قال : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، قال : هو كلام الله وإن
أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا ، فقال للكاتب : أكتب مقالته .

ثم قال للذيال نحواً من مقالته لعلّ بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك . ثم قال لأبي حسان الزيّادي : ما عندك ؟ قال : سأل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ، ووقفه عليها فأنقز بما فيها . ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر ، فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله والله حائق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إماماً وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يُقيم حججاً وصلواتاً ، ويُؤدّي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ، ونرى إمامته إمامة ، وإن أمرنا اتّممنا ، وإن نهانا أنتهينا ، وإن دعانا أجابنا ، قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه مقالة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ولا يأمر بها الناس ، ولا يدعوهم إليها ، وإن أخبرني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرتني به ، فإنك الثقة المأمون عليه ، فيما ألتعنى عنه من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال : ما أمرني أن ألتك شيئا ، قال علي بن أبي مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها ، قال له أبو حسان : ما عدى إلا السمع والطاعة ، فمرني آتِمِرْ ، قال ما أمرني أن آمرك ، وإنما أمرني أن أمتحك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل ، فقال له : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : المخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد طيبها ، فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى إلى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وأمسك عن لا يُشَبَّه شيءٌ من خلقه ، في معنى من المعاني ، ولا وجه من الوجوه ، فاعترض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال — أصلحك الله — : إنه يقول : سمع من أذن ، بصير من عيني ، فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى قوله سمع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : هما مماء ؟ قال : لا أدري هو كما وصف نفسه ، ثم دعا بهم رجلاً رجلاً كلهم يقول : القرآن كلام الله ، إلّا هؤلاء المر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُلَيَّة الأكر ، وابن البكاء ، وعبد الممن بن إدريس

اس بنت وَهْب بن مُسَّة ، وَالْمُطَفَّر بن مُرَحَّحَا ، وَرَحْلَا صَرِيرًا لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِقَّةِ ، وَلَا يُعْرَفُ بَشَيْءٍ مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ دُتِسَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ ، وَرَحْلَا مِنْ وَلَدِ عُمَرَ بْنِ الْحَطَّابِ قَاصِي الرِّقَّةِ ، وَأَبْنُ الْأَحْمَرِ ، فَأَمَّا ابْنُ السَّكَاةِ الْأَكْبَرُ فَإِنَّهُ قَالَ : الْقُرْآنُ جَعُولٌ لِعَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : (إِنَّمَا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، وَالْقُرْآنُ مُحَدَّثٌ لِقَوْلِهِ . نَوَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ دِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ) قَالَ لَهُ إِسْحَاقُ : فَالْجَعُولُ مَحْلُوقٌ قَالَ : سَمِ ، قَالَ : فَالْقُرْآنُ مَحْلُوقٌ قَالَ : لَا أَقُولُ مَحْلُوقٌ وَلَكِنَّهُ جَعُولٌ . فَكُتِبَ مَقَالُهُ ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ أَمْتَحَانِ الْقَوْمِ وَكُتِبَ مَقَالَتُهُمْ أَعْتَرَضَ ابْنُ السَّكَاةِ الْأَصْغَرَ فَقَالَ — أَصْلَحَكَ اللَّهُ — : إِنْ هَدَيْتَ الْقَاصِيَيْنِ أُمَّهُ ، فَلَوْ أَمَرْتَهُمَا فَأَعَادَا الْكَلَامَ ! قَالَ لَهُ إِسْحَاقُ : هُمَا مَنْ يَقُومُ بِصَحَّةِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ ، قَالَ : فَلَوْ أَمَرْتَهُمَا أَنْ تُسَمِعَا مَقَالَهُمَا لِيُحْكِيَ ذَلِكَ عَنْهُمَا ! قَالَ لَهُ إِسْحَاقُ : إِنْ شَهِدْتَ عَدَمَهُمَا بِشَهَادَةٍ فَسَتَعْلَمُ مَقَالَتَهُمَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَكُتِبَ مَقَالَةُ الْقَوْمِ رَحْلَا وَرَحْلَا وَوُجِّهَتْ إِلَى الْمَأْمُونِ ، فَكُتِبَ الْعَوْمُ سَعَةً أَيَّامٍ ثُمَّ دَعَا بِهِمْ . وَقَدْ وَرَدَ كِتَابُ الْمَأْمُونِ . حَوَابُ كِتَابِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ فِي أَمْرِهِمْ . وَهَآكَ هُوَ مَا نَحْمَلُهُ حَتَامًا لِكُلِّنَا .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَمَامُكَ حَوَابُ كِتَابِهِ ، كَانَ إِلَيْكَ فِيمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مُتَصَنِّعُهُ أَهْلُ الْقَلْعَةِ ، وَمَا جَسُوا رَأْسَهُ فَمَا لَيْسُوا لَهُ بِأَهْلٍ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ ، مِنْ الْقَوْلِ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَمَرَكَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنْ أَمْتَحَانِهِمْ ، وَتَكْشِيفِ أَحْوَالِهِمْ ، وَإِحْلَالِهِمْ بِحَالِهِمْ . يَذْكُرُ إِحْصَارَكَ جَعْفَرَ بْنَ عَيْسَى ، وَعَدَّ الرَّحْمَنُ بْنُ إِسْحَاقَ ، عَدَّ وَرُودَ كِتَابِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مَعَ مَنْ أَخْصَرْتَ مَنْ كَانَ يَنْسَبُ إِلَى الْعِقَّةِ ، وَيُعْرَفُ بِالْحُلُوسِ لِلْحَدِيثِ ، وَتَنَصَّبَ بَعْدَهُ لِلْفَتْوَا بِمَدَنَةِ السَّلَامِ ، وَقَرَأَتْكَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَسَائِلَكَ إِيَّاهُمْ عَنْ أَعْتَادِهِمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَالِدَّلَالَةِ لَهُمْ عَلَى حُطِّهِمْ ، وَإِطْلَاقِهِمْ عَلَى مَنَ السَّنِيَةِ ، وَأَحْتِلَافِهِمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَمَرَكَ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهِمْ إِنَّهُ مَحْلُوقٌ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ الْحَدِيثِ وَالْفَتْوَى ، فِي السِّرِّ وَالْعِلَانِيَةِ ، وَتَهَدَّكَ إِلَى السَّنِيدِ ، وَعَاسَ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا

تقدّمت به فيهم الى القاصّين بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين، من امتحان من يَحْصُرُ
بجالسهما من الشهود، وثّ الكتب الى القضاء في الواحي من عملك بالقدوم عليك،
لِتَحْمِلَهُمْ وَتَمْتَحِنَهُمْ على ما حده أمير المؤمنين، وتثبّتك في آخر الكتاب أسماء من حصر
ومقالاتهم، وفهم أمير المؤمنين ما اقتضت، وأمير المؤمنين محمد الله كثيرا كما هو أهله،
ويسأله أن يصلي على عبده ورسوله عجل صلى الله عليه وسلم، ويرغب الى الله في التوفيق
لطاقته، وحسن المعونة، على صالح بيته رحمه.

وقد تدبّر أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سألت عن القرآن، وما رجّع
اليك فيه كل أمرئ مهم، وما شرحت من مقالهم، فأما ما قال المعرور شرس الوليد
في نهى التشبيه، وما أسك عنه من أن القرآن مخلوق، وأدعى من تركه الكلام في ذلك
وأستعاده أمير المؤمنين، فقد كتب بشر في ذلك وكفر، وقال الزور والمكر، ولم يكن
بحري بين أمير المؤمنين وبنته في ذلك، ولا في غيره، عهد ولا نظر أكثر من إحارته
أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق، فادّعى به إليك،
وأعلمه ما أعلمك به أمير المؤمنين من ذلك، وانصحه عن قوله في القرآن، واستنّبه منه،
فإن أمير المؤمنين يرى أن تستنّب من قال بمقاتته إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك
المحص عند أمير المؤمنين، فإن تاب منها فاشهر أمره، وأمسك عنه، وإن أصرّ على شركه،
ودفع أن يكون القرآن مخلوقا بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه، وأعتني أمير المؤمنين
برأسه، إن شاء الله، وكذلك إبراهيم بن المهدي فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا، وإنه كان
يقول بقوله، وقد بلغت أمير المؤمنين عه واللعن، فإن قال إن القرآن مخلوق، فاشهر أمره
وأكشفه، وإلا فاضرب عنقه، وأعتني أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألت القائل لأمر المؤمنين إنك تحل وتحرّم
والمكلم له بمثل ما كتبت به، مما لم يذهب عنه ذكره؛ وأما الذبّال بن الهيثم، فأعلمه أنه
كان في الطعام الذي كان يسيّره في الأبار، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين

أبى العباس ما يشغله، وأنه لو كان ممتنفا آثار سلفه، وسالكا مساجدهم، ومُتخذيا سبيلهم، لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه؛ وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبى العوام، وقوله إنه لا يُحسِن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبيٌّ في عقله، لا في سده، جاهل، وأنه إن كان لا يُحسِن الجواب في القرآن فسيُحسِنه، إذا أحذه التأديب، ثم إن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله.

وأما أحمد بن حنبل، وما تكتب عنه، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عَرَفَ حقوى تلك المقالة، وسبيلَه فيها، وأستدل على جهله، وأفته بها، وأما الفصل بن غانم، فأعلمه أنه لم يتحقق على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما أكتسب من الأموال في أقل من سنة، وما شتر بيده وبين المظنَّب بن عبد الله في ذلك، فإنه من كان شأنه شأنه، وكانت رغبته في الديار والدرهم رغبته، فليس بمُستكرأَن يبيع إيمانه طمعا فيها، وإينارا لما حلَّ معهما، وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال، والخائف له فيما حاله فيه، فما الذي حال به عن ذلك، ونقله إلى غيره؛ وأما الريّاني، فأعلمه أنه كان مُتَحِلًّا لأوَّلِ دَعْيٍ كان في الإسلام حُوفٍ فيه حكمُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان حذيرا أن يسلك مسلكه فانكر أبو حسان أن يكون موثى لريّاد، أو يكون موثى لأحد من الناس، — وذكر أنه إنما نُسِبَ إلى ريّاد لأمر من الأمور — وأما المعروف بأبى نصير التمار، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بحساسة متجربة؛ وأما الفصل بن الفرّحان، فأعلمه أنه حاول بالقول الذي قاله في القرآن أحدَ الودائع التي أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره، ترصا بمن استودعه، وطمعا في الاستكثار لما صار في يده، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده، وتطاول الأيام به، فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لا جراك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا، وإيمانك إياه، وهو معتقدٌ للشرك، منسلخ من التوحيد.

وأما محمد بن حاتم، وابن بوح، والمعروف بأبى مَعْمَر، فأعلمهم أنهم مشاغل بأكل الربا، عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله وبجدهم،

إلا لإربابهم، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم، لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركا، وصاروا للصارى مثلا، وأما أحمد بن شجاع، فأعلمه أنك صاحبُه بالأمس، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحلّه من مال عليّ بن هشام، وأنه من الدينار والدرهم دينه، وأما سعدويه الواسطيّ فقل له: قحّ الله رجلا بلغ به التصعّب للحديث، والتريّ به، والحرص على طلب الرياسة فيه، أن يتميّ وقت المحبة فيقول بالتمزب بها: متى يُمتحن فيحطس للحديث؛ وأما المعروف بسجّاده، وإكّاره أن يكون سميع ممن كان يحالس من أهل الحديث، وأهل العمه، الهول بأن القرآن مخلوق، فأعلمه أنه في شعله بإعداد السوى، وحكّه لإصلاح سجّاده، وبالودائع التي دفعها إليه على بن يحيى وعيره ما أدله عن التوحيد وألهاه، ثم سلّه عما كان يوسف بن أيّ يوسف، ومحمد بن الحسن، يقولانه إن كان شاهدهما وحالهما، وأما العوار يرى فيها تكشف من أحواله، وقوله الرّشا والمصاعبات ما أمان عن مذهبه، وسوء طريفته، وتحمّقه عقلاه ودينه، وقد أبهى إلى أمير المؤمنين أنه يتولّى لمعمر بن عيسى الحسينيّ مسائله، فتقدّم إلى جمعهم بن عيسى في رصه، وترك الثّمة به، والاكتمامه إليه.

وأما يحيى بن عبد الرحمن العمريّ، فإن كان من ولد عمر بن الخطاب فحوايه معروف، وأما محمد بن الحسن بن عليّ بن عاصم فإنه لو كان مقتديا بهم معنى من سلّقه لم يتحلّ النّحلة التي حكيّت عنه، وإنه سدّ صنىّ يحتاج إلى تعلّم، وقد كان أمير المؤمنين وجه إليّك المعروف بأبي مُسهر، بعد أن نصّه أمير المؤمنين عن محبته في القرآن، فحمّهم عنها، وبلّج فيها، حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف، فأقرّ دميما، فانصصه عن إقراره، فإن كان مقيا عليه فأشهره ذلك وأظهره إن شاء الله، ومن لم يرجع عن شركه ممن سميتَ لأمير المؤمنين في كتابك، وذكره أمير المؤمنين لك، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا، ولم يقل إن القرآن مخلوق، بعد بشرى الوليد، وإبراهيم بن المهدي، فأعلمهم أجمعين، مؤتقين

الى عسكر أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم ، حتى يؤتوهم الى
عسكر أمير المؤمنين ، ويُسلّتهم الى من يُؤمّر بسليمهم اليه ، ليُنصّبهم أمير المؤمنين ، فإن لم
يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعا على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله ، وقد أنفذ
أمير المؤمنين كتابه هذا في خريطة بُندارية ، ولم ينظر به اجتماع الكتب الخرائطية مُعجلا
به ، فقرأ الى الله عز وجل بما أصدر من الحكم ، ورجاء ما أعتمد ، وإدراك ما أمل ،
من جزيل ثواب الله عليه ، فأبعد لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعغل إجابة أمير المؤمنين
بما يكون ملك في خريطة سُدارية معدة عن سائر الخرائط ، لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه
إن شاء الله . وكتب سنة ٣١٨ هـ .

(ج) عهد طاهر بن الحسين

قال ابن طيفور : ولما عهد طاهر بن الحسين الى عبدالله أبه هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى طع المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، وقال : ما أبق أبو الطيب شيئا من الدين والدنيا ، والتدبير والرأى ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيعة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة الا وقد أحكمه ، وأوصى به ، وتقدم فيه . وأمر أن يكتبَ بذلك الى جميع العمال في بواحي الأعمال . ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لما قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية أثرها ذكره على ما فيه من طول رغبة من لا يخلو كتابنا من هذا الأثر العظيم القيمة والخطير ، وهما أنه :

« عليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ومزايلة خطه ، وحفظ رعيته ، وألزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف عليه ، ومستول عنه ، والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله ويحييك يوم القيامة من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن اليك ، وأوحى عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عواده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده فيهم ، والذب عنهم ، والدفع عن حريمهم وبفضنهم ، والحقق لدمائهم ، والأمر لسبيلهم ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك ، وموقفك عليه ، ومساءلك عنه ، وميثيق عليه بما قدمت وأخرت ، فمرع لذلك فكرك وعقلك وبصرك ورويتك ، ولا يذهلك عنه دهل ، ولا يشعلك عنه شغل ، فإنه رأس أمرك وملأك شألك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك ، وليكن أول ما تلزم به نفسك وتُسب إليه هالك ، المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك في مواقيتها على سقتها وإسباغ الوضوء لها وأقتراح ذكر الله فيها ، وترتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ، وتصدق فيها لربك نيتك ، وأحضر عليها جماعة من معك وتحت يدك ، وآداب عليها فإنها كما

قال الله تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ثم أتبع ذلك الأحمد بسن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمثارة على حلاته، وأقتفاء آثار السلف الصالح من بعده، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستحارة الله وتقواه، ولزوم ما أنزل الله في كتابه، من أمره ونهيه، وحلاله وحرامه، وإتمام ما حامت به الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قم فيه بما يحق لله عليك، ولا تمل على العدل فيما أحببت أو كرهت، لغريب من الناس أو بعيد، وآثر الفقه وأهله، والدين وحلته وكتاب الله والعاملين به، فإن أفضل ما تری به المرء الفقه في دين الله، والطلب له والحث عليه، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله، فإنه الدليل على الخير كله، والفائدة له، والأمر به، والسامع من المعاصي والموقوفات كلها، وبها مع توفيق الله تزداد العبادة معرفة بالله، عز وجل، وإحلالا له وتذكرا للدرجات العلى في المعاد، مع ما في طهوره للناس من التوفيق لأمرك والهيبة لسلطانك، والأنس به والثقة بعدك. وعليك بالاعتصام في الأمور كلها فليس شيء أیین معاً ولا أحصر أمساً ولا أجمع فصلاً من القصد، والقصد داعية إلى الرشده، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق مقياد إلى السعادة، وقيام الدين والنسب المادية بالاعتصام، فأثره في دنياك كلها، ولا تقصر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة، والسنة المعروفة ومعالم الرشده، فلا عاة للاستكثار من البر والسعي له، إذا كان يطلب به وجهه الله ومرصاته، ومراعاة أوليائه، في دار كرامته.

وأعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العري، ويحصن من الدوب وأك لن تحوط نفسك ومن يليك، ولا تستصليح أمورك، فأفصل منه، فاته، وأهتد به تم أمورك، وتزد مقتدرتك، وتصلح حاصتك وعانتك، وأحسن الظن بالله عز وجل، تستقم لك رعيتك، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها، تستدم به العمة عليك، ولا تبص أحدًا من الناس، فيما توليه من عملك، قبل تكشف أمره بالتهمة، فإن إيقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم مأثم، وأجعل من شامك، حسن الظن بأصحابك، وأطرد عنك سوء الظن بهم، وأرخصه عنهم، يعلك ذلك على أصطباعهم ورياستهم، ولا يخذل عدو الله الشيطان في أمرك مغمزاً،

فإنه انما يكتفى بالقليل من وَهَبِكَ مِدْحَلُ عَلَيْكَ مِنَ النِّعَمِ ، في سوء الظن ، ما يُعْصَ طِيكَ
لِلدَّائِةِ عَيْشِكَ ، وأعلم أنك تعد بحس الظن ، قُوَّةَ وَرَاحَةٍ ، وَتَكْتَفِي بِهِ مَا أَحْبَبْتَ كِبَايَتِهِ مِنْ
أُمُورِكَ ، وتدعو به النَّاسَ إِلَى مَحْتِكَ ، وَالِاسْتِفَامَةِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا لَكَ . وَلَا يَمْلِكُ حَسَنُ الظَّنِّ
بِأَصْحَابِكَ ، وَالرَّأْفَةُ بِرَعِيَّتِكَ ، أَلَّا تَسْتَعْمَلَ الْمَسْئِلَةَ وَالْبَحْثَ عَنْ أُمُورِكَ وَالْمُبَاشَرَةَ لِأُمُورِ
الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْحَيَاطَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفَ فِيمَا يُقِيمُهَا وَيُصْلِحُهَا ، بَلْ لِيَتَكُنِ الْمُبَاشَرَةُ لِأُمُورِ الْأَوْلِيَاءِ ،
وَالْحَيَاطَةُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالطَّرْفُ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَحُلُّ مَوْوَائِهِمْ ، آثَرَعَدُكَ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ
أَقْوَمُ لِلدِّينِ ، وَأَحْيَا لِلنَّسْلِ ، وَأَحْيَا لِبَيْتِكَ فِي جَمِيعِ هَذَا ، وَتَعَزُّدُ تَقْوِيمِ هَيْسِكَ ، تَفَزُّدَ مِنْ
يَعْلَمُ أَنَّهُ مُسْتَوَلٌّ عَمَّا صَبَحَ ، وَجَزَى مَا أَحْسَنَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَمَلَ الدِّينَ حِرْزًا وَعِزًّا ، وَرَفَعَ مِنْ
أَتَمَّهُ وَعِزَّزَهُ ، فَاسْلُكْ مِنْ تَسْوِسِهِ وَتَرْعَاهُ ، سَبْعَ الدِّينِ ، وَطَرِيقَةَ الْهُدَى ، وَأَقِمْ حُدُودَ اللَّهِ
فِي أَصْحَابِ الْحَرَامِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ ، وَمَا اسْتَحَقُّوه ، وَلَا تُعْطِلْ ذَلِكَ وَلَا تَهَاجِرْ بِهِ ، وَلَا
تُؤَثِّرَ عَقُوبَةَ أَهْلِ الْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي تَعْرِيطِكَ فِي ذَلِكَ ، لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْكَ حَسَنَ طَبْعِكَ ،
وَاغْزَمْ عَلَى أَمْرِكَ فِي ذَلِكَ نَالِسَ الْمَعْرُوفِ ، وَحَانِبَ الشُّبْهِ وَالْبِدْعَاتِ ، يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ ،
وَتَقُمْ لَكَ مَرْوَةُكَ ، وَإِذَا عَاهَدْتَ عَهْدًا قَبْلَ بِهِ ، وَإِذَا وَعَدْتَ الْخَيْرَ فَأَبِيعْهُ ، وَأَقْبَلِ الْحَسَنَةَ ،
وَأَدْفَعْهَا ، وَأَعْيِضْ عَنْ عَيْبِ كُلِّ دِينٍ عَيْبَ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، وَأَشَدُّ لِسَانِكَ عَنْ قَوْلِ الْكُذْبِ
وَالزُّورِ ، وَأَبِصْ أَهْلَهُ ، وَأَقْصِ أَهْلَ النِّيمَةِ ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَسَادِ أَمْرِكَ فِي عَاجِلِ الْأُمُورِ
وَأَجْلُهَا ، تَقْرِيبُ الْكُذُوبِ ، وَالْحِرَاةُ عَلَى الْكُذْبِ ، لِأَنَّ الْكُذْبَ رَأْسُ الْمَآثِمِ ، وَالزُّورَ
وَالنِّيمَةَ حَامَتُمَا ، لِأَنَّ النِّيمَةَ لَا يَسْلُمُ صَاحِبُهَا ، وَقَاتِلُهَا لَا يَسْلُمُ لَهُ صَاحِبُهَا وَلَا يَسْتَقِيمُ لِمَطْعِمِهَا
أَمْرٌ ، وَأَيْحَ أَهْلُ الصِّدْقِ وَالصَّلَاحِ ، وَأَعْنِ الْأَشْرَافَ بِالْحَقِّ ، وَوَاوِلِ الضَّعِيفَاءَ ، وَصِلِ
الرُّحَمَاءَ ، وَابْتَغِ بِذَلِكَ وَحَةَ اللَّهِ ، وَعِزَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَتَمِّسْ فِيهِ ثَوَابَهُ وَالْدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَاجْتَنِبِ
سُوءَ الْأَهْوَاءِ وَالْجُورَ ، وَأَصْرِفْ عَنْهَا رَأْيَكَ ، وَأَطْهِرْ مِنْ ذَلِكَ لِرَعِيَّتِكَ ، وَأَيِّم بِالْعَدْلِ
سِيَاسَتَهُمْ ، وَقِمْ بِالْحَقِّ فِيهِمْ ، وَالمَعْرِفَةِ إِلَى تَنْهِي نَكَ إِلَى سَبِيلِ الْهُدَى ، وَأَمْلِكْ هَيْسَكَ عَدِ
الْفَصَبِ ، وَآخِرَ الْوَقَارِ وَالْحَلَمِ ، وَإِلَيْكَ وَالْجِدَّةَ وَالطَّيِّشَ وَالْعُرُورَ فَمَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ ، وَإِلَيْكَ أَنْ

تقول . إني مُسلَّطٌ أهل ما أشاء فان ذلك سريعٌ فيك إلى تقصُّ الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، وأحليصُ لله وحده البية فيه ، واليقين به ، وأعلم أن الملك لله ، يعطيه من يشاء ، ويرعه من يشاء ولن تجدَ تعييراً للعمة ، وحلولَ القِمة ، إلى أحدٍ أسرعَ منه ، إلى حملة البعة ، من أصحاب السلطان ، والمبسوطِ لهم في الدولة ، إذا كهروا سم الله وإحسانه وأستطالوا بما آتاهم الله من فضله ، ودع عنك شره هسك ، ولكن دُخارَكَ وكسوزَكَ التي تَدُحرو وتَكْتَرُ ، العرِّ والتقوى ، والمعدلة ، وأستصلاحَ الرعية وعمارَ بلادهم ، والتعقُّدَ لأُمُورهم ، والحفظَ لدمائهم ، والإحسانَ للهِوهم ، وأعلم أن الأموال إذا كَثُرَتْ ودُخِرَتْ في الخزائن ، لا تُثْمَرُ ، وإذا كَانَتْ في إصلاحِ الرعية ، وإعطاءِ حقوقهم ، وكفِّ المؤونة عنهم ، مَتَّ وَرَبَّتْ ، وصَلَحَتْ به العامة ، وتَزَيَّنَتْ به الولاء ، وطاب به الرمان ، وأَعْتَقَدَ به العرِّ والمعمعة ، فليكن كُثْرُ خزانِكَ تمزيقَ الأموال في عمارَةِ الإسلام وأهلِهِ ، ووفرَ منه على أوليائه أمير المؤمنين قِلَكَ حقوقهم ، وأوفِ رعيَّتِكَ من ذلك حِصَصَهم ، وتمهِّدْ بما يصلحُ أُمُورَهم ومعايشَهم ، فإنك إذا فعلتَ ذلك قَوَّتِ العمة عليك ، وأستوحِشَتِ المزيد من الله ، وكسَتْ بذلك على جباية خراجِكَ ، وجمَعَ أُمُوال رعيَّتِكَ وعملك أَفْضَرَ ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانِكَ أَسْلَسَ لطاعتِكَ ، وأطِيبَ هِسا ، كُلُّ ما أَرَدْتَ ، فاحمَدَ هَسَكَ ، فيما حَدَّثْتُكَ في هَذَا البابِ ، وَلَقَدْ عَظُمَ حَسْبُكَ فِيهِ ، فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ ، مَا أَتَقَيُّ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ، وَأَعْرِفُ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ ، وَأَتَنَبَّهُ عَلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُسَيِّكَ الدُّنْيَا وَعِرْوَرُهَا هَوْلَ الْآخِرَةِ ، فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَانْهَاطُوا بِوَجْهِ التَّعْرِيطِ وَالتَّغْرِيطِ الْبَوَارَ ، وَلِيَكُنْ عَمَلُكَ اللَّهُ ، وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَأَرْجُ الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَطْلَعَكَ لَدَيْكَ فَصْلَهُ ، فَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ ، وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ ، يَزِدْكَ اللَّهُ حَيْرًا وَإِحْسَانًا . فَإِنَّ اللَّهَ يَنْشِيبُ قَدْرَ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ وَسِيرَةَ الْمُحْسِنِينَ ، وَقَصَاءَ الْحَقِّ فِيمَا حُلَّ مِنَ النِّعَمِ ، وَالْأَسَى مِنَ الْعَافِيَةِ وَالْكَرَامَةِ ، وَلَا تَحْتَقِرَنَّ دُنْيَا ، وَلَا تَمْلَأَنَّ حَاسِدًا ، وَلَا تَرْجَمَنَّ مُجْرِمًا ، وَلَا تَصِفَنَّ كُفُورًا ، وَلَا تَتَاهَنَنَّ عَدُوًّا ، وَلَا تَصْنُقَنَّ نَمَامًا ، وَلَا تَأْمَنَنَّ غَدَارًا ، وَلَا تَوَالِيَنَّ فَاسِقًا ، وَلَا تَتَّبِعَنَّ غَاوِيًّا ، وَلَا تَعْبُدَنَّ

مُرائياً ، ولا تحقر إنساناً ، ولا تردّد سائلاً فقيراً ، ولا تحجب ماطلاً ، ولا تلاحظ مصحكاً ، ولا تُخلف وعداً ، ولا تنهض لغراً ، ولا تظهر غصّاً ، ولا تأتين بدعاً ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركن سَمَهاً ، ولا تُعْرِطن في طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عياناً ، ولا تُفيمص عن الظالم ربه منه ، أو عافّةً ، ولا تطعن ثواب الآخرة في الدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وحد عن أهل التجارب ودوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدخِلن في مشورتك أهل الدقة والعلل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن صرهم أكثر من معيبتهم ، وليس شيء أسرع ساداً لما استقلت في أمر رعيتك من الشُّع ، وأعلم أنك إذا كنت حريصاً ، كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يَسْتَقِم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الحور عليهم ، ويدوم صمّاً أوليائك لك ، بالإفصال عنهم ، وحسن العطية لهم ، فأخف الشُّع ، وأعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه ، وإن العاصي بمنزلة جَرى ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ فسهّل طريق الخود بالحق ، وأحمل المسلمين كلهم من بيتك حفظاً وصيباً ، وأيقن أن الخود من أفضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك حُلُقاً ، وأرض به عملاً ومذهباً ، وتفقد أمور الخد في دراويهم ، ومكانتهم ، وأدر عليهم أرائقهم ، ووسّع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك ، حلوصاً وانسراحاً ، وحسب ذى سلطان من السعادة ، أن يكون على حده ورعيته ، رحمة في عدله وجبيلته وإضافه وعاسته ، وشعفته ويزه وتوسّعت ، فزایل مكره إحدى اليئتين ، باستشعار تكملة الباب الآخر ولزوم العمل به تلقى أن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً .

وأعلم أن القضاء من الله ، فالمكان الذى ليس مثله شيء من الأمور ، لأنه ميزان الله الذى تعين عليه الأحوال في الأرض ، وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصالح الرعية ، وتوَسَّ السبل ، ويتصمف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحس الميشة ، ويؤد حق

الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتحوى السنن والشرائع، وصل تجارتها
يبتغز الحق والعدل في القضاء . وأشدت في أمر الله وتورع عن الطغف وأمص لإقامة
الحدود، وأقلل المعلة، وأبعد من الصحر والفاق، وأقع القيسم، ولتسكن ريثك،
ويقر حذك، واستمع بحرنتك، وأنبه في صمكت، وأسد في مطلقك، وأنصف الخصم،
وقيف عند الشبهة، وألع في المحه، ولا يأحدك في أحد من رعيك تحاه ولا تحامله،
ولا لوم لائم، وثنت وثان، وراقب وأظر، وتدر وتمكر، وأعتبر وتواصع لرك، وأراف
بجميع الرعية، وسأط الحق على نفسك، ولا تيسر عن الى سبك دم، فان الدماء من الله بمكان
عظيم انتهاكها سير حقها، وأطر هذا الحراح الذي استقامت عليه الرعية، وجعله الله
للإسلام عزاً وريعة، ولأهله سعة ومنعة، ولعدوه وعدوم كتنا وعيظا، ولأهل الكمر
من معادتهم دلاً وصغاراً، فورعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية، والعُوم فيه،
ولا تدعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، وعن عني لعماء، ولا عن كاتب لك، ولا أحد
من خاصتك، فلا تأخذن منه، فوق الاحتمال له، ولا تكلف أمراً فيه شغلط، وأحل
الباس كلهم على مر الحق، فان ذلك أجمع لأئمتهم، وأزم لرضى العامة، واعلم أنك جعلت
بولاتك حازناً وحافظاً، وراعياً، وأما سبي أهل عملك رعيك، لألك راعيهم، وقيمهم،
تأخذ منهم ما أعطوك، من عفوم ومقدرهم، وشغفه في قوام أمرهم وصلاهم،
وتقويم أودهم، فاستعمل عليهم في كور عملك، دوى الرأى والتدبر والتحرية والخبرة
بالمعل، والعلم بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم في الرزق، فان ذلك من الحقوق اللازمة
لك فيما تقلدت، وأسيد اليك، ولا يشعلك عه شاعل، ولا يصير فك عه صارف، فانك
مضى آثرته، وقمت فيه بالواحب، استدعيت به زياده النعمة من ريك، وحسن الأحدثنة
في عملك، واستحدرت به المحبة من رعيك، وأعت على الصلاح، فدرت الخيرات
ببلدك، وقشت العمارة بناحيتك، وطهر الحصص في كورك، وكثر خراحك، وتوقرت
أموالك، وقويت بذلك على ارتباط حسدك، وإرساء العامة، بإفاحه العطاء فيهم من

فسك ، وكنت محمود السيامة ، مرمى العدل في ذلك عد عدوك ، وكنت في أمورك كلها ، داعل وقوة ، وآلة وعنة ، فنافس وهذا ، ولا تقدم عليه شيئا ، محمد معة أمرك ، ان شاء الله ، وأجعل في كل كوره من عملك أميا ، يجرى أحار عمالك ، ويكتب اليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى تأكل مع كل عامل في عمله ، معاني لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، وإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورحوت فيه حسن الدفاع ، والصبح والضح فأمسه ، والاحتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم ، ثم خذ فيه عذته ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره ، قد واثق على ما يهوى ، فقواه على ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، وقص عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استناره ريك ، في جميع أمورك ، وأقرع من عمل يومك ، ولا تؤخره لفدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغير أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي آتت ، وأعلم أن اليوم اذا مضى ذهب مما فيه ، واذا آتت عمله أجمع عليك أمر يومين ، فشعلك ذلك حتى تعرض عنه ، فاذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت هسك وبذلك ، وأحكمت أمور سلطائك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم آستيقن صفاء طويتهم ، وتهذيب موقتهم لك ، ومطاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستحلصهم ، وأحسن اليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤوتهم وأصلح حالهم ، حتى لا يحدوا لخلتهم مساء ، وأورد هسك للنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أحى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيك ، ومزهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك ، لتطرفها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى الأساء ويتأمامهم وأراملهم ، وأحمل لهم أرزاقا من بيت المال أقصداء بأمر المؤمنين أعزه الله في العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ، وبرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأمرءاء من بيت المال ، وقدم حمة

القرآن منهم، والحافظين لأكثره، في الحراية على صبرهم، وأصب لمصرى المسامحة دورا
تؤويهم، وقواما يرقون بهم، وأطباء يعالجون أسقامهم، وأسمعهم شهواتهم، ما لم يؤذ ذلك
إلى سرف في بيت المال، وأعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم، وأفصل أمانيتهم لم يرضهم
ذلك، ولم تطب أنفسهم، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم، طمعا في نيل الزيادة، وفضل
الرفق منهم، وربما يرم المتصفح لأموار الناس لكثرة ما يرد عليه، ويشغل فكره ودهده، ومنها
ما يناله به مؤونة ومشقة، وليس من يرد في العدل ويعرف محاسن أموره في العاقل
وفصل ثواب الآجل، كالذى يستقل ما يقتر به إلى الله، ويلتمس رحمة به، وأكثر الإذن
لناس عليك، وأبرز لهم وحكهم، وسكن لهم أحراسك، وأخفص لهم جاحك، وأظهر لهم
شرك، ولئن لم في المسألة والمطلق، وأعطى عليهم حدودك وفصلك، وإذا أعطيت فأعط
سباحة وطيب نفس، وأتمس الصديعة والأحر، غير مكدر ولا مآت، فإن العطية على ذلك
تجارة مريحة إن شاء الله، وأعتبر بما ترى من أمور الدنيا، ومن معنى من قلقك، من أهل
السلطان والرياسة، في القرون الخالية والأهم البائدة، ثم أعطهم في أحوالك كلها بأمر الله،
والوقوف عند محنته، والعمل شريعته وسنته وإقامة دينه وكفائه، وأجنب ما فارق ذلك
وخالفه، ودعا إلى تحط الله، وأعرف ما تجمع عمالك من الأموال، ويُنفقون منها،
ولا تجمع حراما، ولا تنفق إسرافا، وأكثر محالسة العلماء، ومشاورتهم ومحالطتهم، وليكن
هواك اتباع السنن وإقامتها، وإيثار مكارم الأمور ومعالها، وليكن أكرم دُحلاك وحاصتك
عليك من إذا رأى عيا فيك لم تمعه هيبك من إنهاء ذلك اليك، في سر، وإعلامك
ما فيه من النقص، فإن أولئك أنصح أوليائك ومُظاهريك، وأنظر عمالك الذين بحضرتك،
وتكلمك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتا يدخل عليك فيه يكتبه ومؤامراته
وما عنده من حوائج عمالك وأمر كورك ورعيك، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك
سمعتك ونصرك، وفهمك وعقلك، وكرّر النظر إليه والتدبر له، ما كان موافقا لمعزمه والحق
فامضه وأسبحر الله فيه، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى التبت فيه والمسألة عنه،

ولا تمنن على رعيتك ولا على عيرهم بمعروف تأتيه اليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا
 الوفاء والاستقامة والعهود في أمور أمير المؤمنين ، ولا تصنع المعروف إلا على ذلك ،
 وتفهم كتابي إليك ، وأكثر الطرية ، والعمل به ، وأستمع بالله على جميع أمورك وأستحره ،
 فإن الله مع الصالح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأفضل رغبتك ، ما كان لله رصاً ،
 ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاً ، وأنا أسأل الله أن يحسن
 عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلامك ، وأن يرزقك عليك فضله ورحمته ، تمام فضله عليك ،
 وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأستأمرهم ذكراً وأمرأ ، وأن
 يهلك صدوك ومن تأواك ونهى عليك ، ويرزقك من رعبتك المايعة ، ويحجز الشيطان
 عنك ووساوسه ، حتى يستعمل أمرك بالعز والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

(د) رسالة الخميس

من عند الله الإمام المأمون أمير المؤمنين، الى المنايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وعيرهم من أهل الإسلام . سلام عليكم ، فإن أمر المؤمنين يتحد اليكم الله الذي لا إله إلا هو، ورساله أن يصل على عهد عهده ورسوله .

أما بعد، فالحمد لله القادر القاهر، النابت الوارث، دى العيز والسلطان، والور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم المثل والطول على أهلها، قل استحقاقهم لمثوته، المحافظة على شرائع طاعته، الذى حمل ما أودع عاده من نعمته، دليلا هاديا لهم الى معرفته، بما أفاضهم من الألباب، التى يهتمون بها فصل الخطاب، حتى اقتنوا علم موارد الاختيار، وثقوا مصادر الاعتبار، وحكوا على ما طس بما طهر، وعلى ما عاب بما حصر، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته، ومتقى صنعته، وحاجة مترايل خلقه ومتواصله، الى القوم بما يلتمه ويصلحه، على أن له مارثا أنشاء وأبداه، ويتبر بعضه لبعض . فكان من أقرب وجودهم، ما يباشرون به من أمهم فى تصرف أحوالهم، وقون انتقالهم، وما يظهرون عليه من الحرعى التاتى لما تكاملت به قواهم، وتمت به أدوائهم، مع أثر تدبير الله عز وجل وتقديره فيهم، حتى صاروا الى الخلفة المحكمة، والدورة المعجبه، ليس لهم فى شىء منها تعلقف يتدونه، ولا مقصد يتمدونه من أمهم، فإنه قال تعالى ذكره: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ رَبُّكَ أَلَمْ يَكْرِمْ أَلَدَى خَلَقَكَ فَمَا عَدَلَكَ فِى أَى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّكَ) . ثم ما يتفكرون فيه من خلق السموات، وما يجرى فيها من الشمس والقمر والنجوم مسحرات، على مسير لا يتثبت العالم إلا به من تصاريف الأزمنة التى بها صلاح الحرث والنسل، وإحياء الأرض، وإفراح السات والأشجار، وتجاوز الليل والنهار، وصر الأيام والشهور والسنين، التى تُنحصى بها الأوقات، ثم ما يوحد من دلائل التركيب وطققات السقف المروع، والمهاد الموصوع، باختلاف أجزائه وألثامها، ونحو الأنهار، وإرساء

الجبال . ومن البيان الشاهد ما أخبر الله عز وجل به من إنشائه الخلق ، وحدوثه
 بعد أن لم يكن متوقفاً في السماء ، وشأنه إلى أحله في البقاء ، ثم تحاره مُتَقَصِّياً إلى عاية السماء .
 ولو لم يكن له مُفْتَسِحٌ عدد ولا مُتَقَطَعٌ أمد ، ما أَرْدَادَ بشيء ، ولا تَحَيَّفه نقصان ، ولا
 تفاوت على الأزمان ، لأق ما لا حد له ولا نهاية ، غير ممكن الاحتمال للنقص والريادة .
 ثم ما يوجد عليه مفعلة من ثبات بعضه لبعض ، وقوام كل شيء منه بما يستره ، وبه
 استمداده إلى متى تغادره ، كما أحتج الله عز وجل على خلقه ، فقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ
 أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ
 ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وكل ما تقدم من الأحكام من آيات الله عز وجل ودلالاته
 في سمواته التي بطن ، وأطباق الأرض التي دحا ، وآثار صمعه فيما برأ وذرا ، ثابت في قطر
 العقول ، حتى يُسَحَّرَ أولى الريح ما يذبلون على أنفسهم من الشبهة بما يجعلون له من
 الأصداد والانداد . حل عما يُشركون . ولولا بوحده بالتدبير ، عن كل مُعِينٍ وطهير ،
 لكان الشركاء حُدرًا أن تختلف بهم إرادتهم فيما يخلقون ، ولم يكن الحلف في إشاته وإزالته
 ليلغو من أحد وجهه ، وأيما كان فيه المعجز والنقص مما أتاه ورأه . حل البديع خالق
 الخلق ومالك الأمر عن ذلك وتعالى علواً كبيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ
 وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا تَنَبَّأَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمْ يَلْمِزْهُمْ عَلَى بَعْضِ سُوءَانِ اللَّهِ
 عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ . ثم من عظيم عمة الله عز وجل على خلقه اقتضاه إياهم ، وأنه يُستدغم
 ويُتلم على مافعهم ، ويُحبهم مصارهم ، ويهديهم لما فيه صلاحهم ، ويُرعهم في المحافظة
 على التمسك بدين الله عز وجل ، الذي حمله عَصمة لم حاراً بينهم .

ولولا ما تقدم به من تلافيمهم واستدراكهم بهصل رحمته ، لاجتاحهم التلغ ، لقصور
 معرفتهم عن التأني لأقواتهم ومعايشهم ، ولم يكونوا ليقْتَصِرُوا على حطوطهم وأقسامهم عما بوا
 عليه من الجمع والرغبة ، وتها الكوايبن معصم على بعض ، وعدوان قوتهم على صعيهم ، ولكنه
 بعد تعريفه إياهم مُلك قدرته وحلاله عزته ، بعث إليهم أنبياء ورسله مُبَشِّرِينَ ومُذَكِّرِينَ ،

بِالآيَاتِ الَّتِي لَا تُلَاحَظُ أَيْدِيَ الْمَخْلُوقِينَ ، فَرَّصُوا بِمَا قُصِطَ بِهِمْ ، وَارْتَدَعُوا عَنِ التَّبَاعِي وَالظَّالِمِ ،
لَمَّا وَعَدُوا مِنَ الثَّوَابِ الْحَسِيمِ وَخَوْفُوا مِنَ الْعِقَابِ الْأَلِيمِ ، وَلَمْ يَكُونُوا يُطِيعُوا أَمْرًا
لَا أَمْرًا وَلَا نَهْيًا لِسَائِهِ ، إِلَّا بِحُجَّةٍ يَنْبَغِيهَا الْحَقُّ عَلَى مَنْ حَالَهُ مِنَ الْمُطِيعِينَ ، وَتَحْوِيلُ
يَتَّقُونَ بِهِ مُقَارَفَةً مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَحَاءٍ تَجْتَنِّهِمْ لَهُ مَوْزُونَةٌ مَا تُعَدُّوهُ بِهِ . فَاتَّعَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ بِأَيِّهِمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ -
كَمَا أَقْنَصَ فِي وَجْهِهِ الْمَدْرَلُ - وَكَرَّمَ وَلَدَهُ وَفَضَّلَهُمْ ، فَقَالَ حُلُّ وَعَرُ . ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْأَخْضَرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .
وَجَعَلَ مَا فَطَّرَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَطْفِ عَلَى ذُرَارِيهِمْ وَأَسَائِهِمْ سَبَبًا لَمَّا أَرَادَ مِنْ نِقَاتِهِمْ وَتَسْلِيهِمْ ،
وَمَا اخْتَصَمَهُ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَهْمِ حَقَّةً عَلَيْهِمْ ، لِيَتَّعِنَ طَاعَتَهُمْ ، وَيَتْلُوهُمْ أَهْمًا أَحْسَنُ
عَمَلًا . وَلَمْ تَزَلْ رِسَالَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى حَقِّهِ تَقْرَى بِالنُّورِ السَّاطِعِ ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعِ ،
لَا يَحْتَدُونَ لَمَّا يُورِدُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحَقِّ الْقَاهِرِ مَرَدًا وَلَا مَدْفَعًا ، لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَخَافُوهُمْ فَلَئِنَّ أَلْبَابَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا وَكَانَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . فَلَمْ يَحْدِ الْمَكْدُونُ مَسَاغًا إِلَى دَعَا مَا أَقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنَ لَازِمِ الْحَقَّةِ ،
إِلَّا الْمَعَانِدَةَ وَالْمُجَاهِدَةَ . وَكَانَ أَبْدَاءُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، يُعْتَشُونَ فِي أَعْصَارِ الْحَقِّ ،
تُذَرُّ لَلْأَمِّ ، حَتَّى خَتَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالنَّبِيِّ الْأَخْمِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَهَتَّةً وَرَدَا
وَحِيدًا لَا عَاضِدَ لَهُ وَلَا رَاعِدَ ، إِلَى قَوْمٍ يَمْسُدُونَ أَصْلَابًا مُنْجَا ، وَجِهَارَهُ صَمًّا ، فَكُنْتُ بِهِ
الْقَوْمُ الَّذِينَ يُبْعَثُ فِيهِمْ أَوَّلُ مَا دَعَاهُمْ ، وَرَامَهُ مَلُوكُ أَقْطَارِ السَّلَاحِ تَوْجِيهِ الْأَحَادِ ،
وَمُرَافِقَةِ الْقُوَّةِ وَالْمَتَادِ وَفِي الْعَوَائِلِ ، وَنَصَبِ الْحَائِلِ ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ
بِمَا أَمَرَهُ بِهِ ، إِذْ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ . ثُمَّ حَاضِدُ بَنِي أَطَاعَهُ مَنْ عَصَاهُ ، وَبَيْنَ أَتْبَعَهُ مَنْ خَالَفَهُ ، حَتَّى
أَمَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ ، وَأَكْمَلَ لِعِبَادِهِ دِينَهُمُ الَّذِي أَرْتَضَى لَهُمْ . فَلَمَّا اخْتَارَ اللَّهُ لَهُ
مَا لَدَيْهِ ، وَاخْتَصَمَهُ بِمَا عِنْدَهُ : مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، وَالْجَزَاءِ الْكَرِيمِ ، بَعْدَ اسْتِقَامَةِ الدِّينِ

ودخول الناس فيه أوجاجاً، صلعه، إذ ختم به الأنبياء، بالبررة الجباء من أذانيه ونحوه ، لإقامه الشرائع المُفترضة، وإعداد حكم الله المنزل، واقتناء السنة الماثورة وحفظها له في قرابته وبجبي دعوته، وإتمام لما أوجب له من الفصيلة، وقريب الوسيلة، وانجازا لما وعده من إظهار ما بعثه به ، من دينه الذي أصطفاه وأرتصاه . وكان اختيار أولى الفصل من ثمنه وعصيته لإرث خلافته، ومن عظيم الزلف التي رغب الى الله فيها ألباؤه، وبما اقتضى في منزل وحيه، وأخص تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما أصره به من مسألة أمته تصير مودته في القربى جرأه من تبعه على الرسالة، وهداه من الصلاة، فكانت فصيلتهم عزيزة من الله عز وجل ، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألزمه تأديته الى حلقه وألزمهم أدامه ، فقال عز وجل : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . ودل بما أصر به وأطهره من تطهيره إياهم وإذعابه الرجس عنهم، على أصطفاه لهم، فقال تعالى . ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وكان مما أوجب لهم به حق الوراثه في محكم تنزيله قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ نَحْسُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ . ثم قرن طاعتهم بطاعته ، فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . وأحلهم من الناهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم وربع به ذكرهم ، لما أحب من البسين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم، فإنه يقول عز وجل . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُكَفِّرَ عَنْكُمُ السَّيِّئَاتِ وَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ لَكُمْ عُقْبَةٌ ﴾ . ولو كان الأئمة المقلدون أمر عاده حاملة أنسابهم، متقطعة أسابهم، غير محصوين فصيلة يرونهم بها دون غيرهم، لم تعد طليقتهم عقد الخلافة لهم، وأن تكون من المفترصات على كافة الأمة ، أو على بعض دون بعض، فإن كان لأهل الشرق والعرب من دوى القص والكل أن يختاروا لأنفسهم، فليس في احتجاج آرائهم مع محققهم واحتلامهم طمع آخر أيام الدهر . وإن كان الى خاصة دون عامة ، فستحتاج العامة من طلب معرفة تلك الحال الى مثل ما احتاجوا اليه في أئمتهم، إذ لم يكن أهل الأرياب والطلب من أعلام الآفاق ليتواطأوا على اتفاق ،

لعماد آحالم قَلَّ بلوعهم عايةَ الاحتِهادِ في الفحص والتكشيف، وحاجتهم الى اختبار
البلدان، وتمحيص أوْلَى الصائل بالانتحان، وما هو حاق عليهم من الشبه في اختيارهم،
والاختلاف فيمن عَصَوْا أن تحسوه ويُقدّموه، حتى تهالك الرعية بتطالها بينها، ويَطْرُق
مَنْ يليها من الأمم إياها، إذ لا داند عها ولا مُحامى. وإذا أُرمت الأممُ الحاجةُ إلى
نَصْب الحكام لإقامه الدين، وتقسيط الحقوق من المسلمين، ومجاهدة عدوهم من
المشركين، لم يكن لهم في الإمام عليهم تحارُّ إلى التخلص من حقه إليهم، ولا ريب
صد المعرفة برأيه الله ورحمته، ولطعه وحكمه، في دفعه عن عاده ما لم يجعل في حيلتهم له
وُسْعًا، ولا في حيلتهم له تَرَكًا، وكمايته إياهم ما يُعجزهم من البحث والتقيب عن ولاية
أمرهم، بنصبه إياهم، وما رفعهم إليه من الدرجة إلى أعلاها وأسأها، إذ وصل نسبهم
برسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقرض مودتهم على حلقه، ولم يشينهم جهلهم للعرض الذي
لزمهم له، ولم يحب عليهم فرض في معرفة من سواهم. ولم يزل سياق أئمة الهدى مطَّردًا،
وطائهم مُتصلا، يتلقاه كَارِضٌ كابر، ويؤذيه أول إلى آخر، حتى تسامى إلى أمير
المؤمنين، وهو حالٌّ دار دعويه، وبين أسواره من أهل خراسان، فظفر به حيرهم، وصرفوا
ما تصرفتم به أحوالهم، وطهر لهم من بيان مُحْتة على من نازعه في الأمر، وشاهدوا من
إملاعه في المدر، وأستطهاره بالثاني والصبر، ما أراح عنهم الشبهة وكشط الخيرة، حتى
استرالوا نهوضه محقه، وحاموا الرجع على أديابهم فيما أعطوه من صفة أيمانهم، وهو
ماض على عادته، مستديم للوادة، متلوم على المراجعة، بالغ عاية ما في وسعه من الرخصة
في دفع الولاية التي هتة بها الرعية، حتى صاب عليه في ديه ترك القيام بما أنهضه الله به
من ثقلها وقلده من حملها، وحاف المخلوع فأسعت بالثرة والغيرة، فتناول أولياء الحق ماغيا
طاعيا، لما أراد الله من تأييدهم عليه بالبيان والحقبة التي يحب لها قلبه، ويقت بها
في عضده، ويقبل الله ما شرفكم به من الصبر والعلة فيه التي جعلها الله للتقين. فاجتمع

لكم معشر أهل خراسان في دولة أمير المؤمنين ثلاث حلال أحصاكم الله بمصليتها، وسنيّ مراتبها، دون ثلاث شملتكم وغيركم .

أما الأولى من اللواتي أحصاكم الله بهنّ، فما تقدّم لأسلامكم من نُصرة أهل بيت النبيّ، والقائمين بمراتبه من أماء أمير المؤمنين .

وأما الثانية، فما آثركم الله به من نُصرته في دعوته الثانية .

وأما الثالثة، فما تقدّمتم به من صحة صمازكم، وعصم مُصاحتكم .

وأما الثلاث اللواتي هنّ لكم ولعيركم :

فمنّ ما أكّد الله لأمر المؤمنين في أعالي المساميين : من العهد الذي أحد إضره، وألهمهم الوفاء به والتسكّ بوثائق عصمته، عند محاولة المخلوع ماحول من الإعلان بالردة، وألتمس من تسديل معالم الدين وتفعيه آثاره، فلم يُلَفّ الرعية سُدى مهملين، لا جامع لأضرهم، ولا صامّ لضرهم .

ومنهنّ ما أفادكم الله وإياهم من العير، عند حلول العير من غدر وحرّ، تدكّرة لأولى الهوى، وحمّة الفسة على من أدبر وتولّى، لينتدى متحير ويتيط مُزدجر، ﴿ وَلِيُحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيُخَيِّقَ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومنهنّ أجتاع أهل الفصل من المساميين . ممن لم يكن له نصّر ولا أزر في الدعوة الأولى على المشايعة في الدعوة الثانية، فأصبح دُعاة أمير المؤمنين من أهل الحرمين والمُضَرّين ومدينة السلام والمشرق والمغرب من عار أو أنجد من التمسكين بذمهم المُؤفّين بسدورهم، من إخوانكم، وإن كان الله قد قدّمكم في الأمرين جميعا تنفوق حالكم على غيركم، يمتدّون من معاصدكم ومكاهنكم بما جعله الله عز وجل ألفة لكم وموتد بينكم، يبيد بها ما كان الشيطان يبرع به بين أهل التناعد في الأنساب، والتناي في الأوطان من إيقاع العداوة والبغضاء، والاطواء على الأحقاد والذمن، وطلب تهديم الإحسان، وصار أهل السمو إلى الدرجة العليا والاعتصام بالعرّوة الوثقى من أولياء أمير المؤمنين وشيعته، مشرحة صدورهم بمكاهنهم، مُبسطة أيديهم بمعاوئهم على حقّه،

متسعة أمالهم في إذكاء ناره على عنقه والإثخان في بلاده وأفتاح مجمع حصونه، بما جمعهم الله عليه من الألفة، ورجع عنهم من الحمية والمصيبة، راجعين عودتهم إلى أحسن مامضى عليه سلفهم، في عهد نبيه صلى الله عليه وسلم، من سلامة الصدور، وصلاح ذات الدين، واجتماع القوى على مجاهدة من شاقهم، قد أفرد الله عنهم نفرة التعارب والتجاذب، وجعل ما كان يسمى به معصم من الإعداد لبعض، زيادة في ريجهم، وحدًا في شوكتهم، لا تتلافهم في دولة أمير المؤمنين المجدودة المؤيدة بصدق الصائرا، وهماذ البصائر. وإلى الله يرضى أمير المؤمنين في إعانتة على صالح نيتة، وتعليقه منتهى سؤاله وعاية همته، في اعزاز ديه وإدلال من صد عن سبيله، إنه سميع قريب.

ومن أقوى الأسباب إلى استدعاء الشكر على العمة تذكر ما كانت عليه الحال قلها، فاستديروا الإفاصة فيما رفع الله من حساستكم وأعلى من أقداركم، سفرة أهل بيت نبيكم صلى الله عليه وسلم، وما ألاككم الله في الدعوى الأولى تما لا يؤدي حقه إلا بعون الله وتوفيقه، فإنه ارتاح لهم لطفه وتوفيقه، فأنالهم رعايت الأقسام وسني الخطوات، ورجع درجهم ودرج خلوفهم وأعقابهم من بعدهم، مدادهم مستضعفون يخافون أن يخطفهم الناس، مذكعون يقهر صدمهم واستنثاره عليهم، ثم لم يلبثوا أن صاروا إلى الحال التي يرونهم بها من البطالة والبهجة، إلا أنهم أحدها بحقها، وكانت في أيدي الطلبة من أهل بيت اللمة وأتباعهم بحده الباطل ونحة الابتلاء، (وَلْيَعْلَمْ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْمَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) . وليس أحد منكم بحارج من الحية بما أليس من العمة، وإن كنتم أهلها الآخذين لها بحقها، بل الذي يلزمكم استدانتها والقيام بحفظها، على حسب ما أولاكم الله منها، فربما كان الذي يقب أهلها من العفلة والاعتثار ويُلهم بها من جبورها وسرورها، أعظم إثما وحوبا مما يخاف على أهل البطالة والصبر من ضعف العزم وقلة الصبر، لما يستولي عليهم من استكانة اللثة، والاعتثار بالتقصير، والفرع إلى ربههم في تنفيس كُرهم، فإنه

تبارك وتعالى قد وصف أهل الطبقتين فقال : ﴿ وَإِنَّا أَتَمَمَّا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوْدُعَايَ عَرِيصٍ ﴾ . فلاحظكم اذا أنصح الله سعيكم وأظهركم بطلانكم ، الى حياطة ما أودعكم الله من مسه وراسه ما آتاكم من فصله ، بالشكر المترى لازيد . فتمهدوا معشر شيعة أمير المؤمنين أسكم بتدكر ما سهّل الله لكم من الحزونة ، ودّل لكم من الصعوبة ، وحكم لكم به من النصر ، على مُراق الملة ومُخالى أهلى القيلة ، وأماحكم من ديارهم وأموالهم ، فأصحتهم بمنّ الله عليكم ثمة الدين ، وأصار الأئمة الراشدين ، وحصون كافة المسلمين ، بعد ما أجنث الله بكم قرون اللعان ، وأباد بكم صابدة الصلاة ، وشرّد من لم تستحمله سيوفكم ، وأصرع اليكم من أدعس وأستسلم ، وقد استشرّفكم معشر شيعة أمير المؤمنين أهل الشان ، ولاحظوكم بأعين الحسد والمناصه ، فبين ذلك بُجهر مُعالمٌ ، ومُستبصر مداهن ، وداحلٌ في عدادكم ، وواحدٌ في سوادكم ، يرى أمته من ظهوركم ، قطعته عليكم في دولتكم بريسة التمويه وحُدع التشبيه ، أيسر عليه كُلفة وأعظم فيكم حرجاً ونكايه ، فوقوا هذه الطبقة أشد التوقى ، فإن أكثر من يلجأ الى استباحه الحيلة ، من عجز عن المباداة والإسحار ، وعد ظهور الحازم وطلته يَحْتَرِز من لطيف الخدع وحى الاستدراج .

وأحذروا معشر شيعة أمير المؤمنين من أسقراء الطراءه ، والركون الى راحة الدعة ما قد رأيتم والله عاد على أهله ، وأورثتهم عواقبه طول الدم والحسرة ، فإنكم قد كنتم في حال المراقبة لعدوكم ، والحواف لبائقتهم متيقظين متحفظين لما كان يرومكم به من حنّله وجبله ، ثم أنصيتم الى الخلق وقد جهدكم السعى ومسكم القصب ، وسيلقى الشيطان في أمانيتكم أن قد اكتنيتم بسالف ما قاسيتم ، ويحد من ضَعْف العزائم مُعينا داعيا الى اعتنام الخفص ، والإحلال الى الأرض ، ما لم تعتصموا بما عايتم من الاعتصار ، وتَمْتَلُوا مواهى الآثار فيمن سلف من القرون الخالية ، وما أفضت به اليه العزة من زوال السم ووقوع الغير ، فإن جميع ما خولكم الله وأفادكم مُرَتَبٌ بما ألزمكم من حياطته واستنائه ، فقد وجت عليكم المُنّة بما حصّكم الله

عليه ، وعظمت عليكم المنة بما هداكم الله ، وأراكم من آياته ومثلاته فيمن خلا قبلكم ما فيه أبلغ الإعذار والإنذار لكم . ومن أجمع له اقتناء صواب من تقلبه الى ما يبعث من حسه ، فكانه قد اختبر بالتحريه ، مع استغذاه بما يستعيد ، وسيزيد ما يفتح له ورايه ، وأيقنوا أنكم لن تصلوا الى من سواكم ، من هو أعسر طاعة عليكم وأعذر بمعصيتكم ، حتى تبدوا باستصلاح أنفسكم ، وأنه لن يرجى لكم العوذ على مجاهدته عندكم حتى تقفوا على مجاهدته أهوائكم ، وإن على كل امرئ رية من أمره ، وعطاء من غبه ، لا يكشفه إلا صحة المعرفة ، والإذعان بالصحة ، فهالك يؤمن عليه الجهل والمعاده ، وإذا أمنت هاتان الحلتان أنشدت بإذن الله تلم الآفات ، وتوق المكاره . وإنه لا تحاف الصلال على من آهتدى ، ولا أعماد الحور على من آتصف من هوى .

وليكن أول ما نتعهدون به أنفسكم ، وتشارون عليه من صالح أدبكم تأنص الحق بيسكم ، بتقديم أهل المصائل والآثار المحمودة منكم وتضجيم أمركم ، فقد علمتم أن منكم المبرز القاتب الذى لا يدرك شأوه ولا يورى ملاؤه ، حين كشف الإبلاء صائر القلوب وحلا مشتهات العلون ، فصرح بالمحاربة بعد التقدم فى المحنة ، وفاء بمؤكده العهد وركوبا منه لهائل الخطر ، غير هائب مع محبة الحق ما برق لديه الباكس الخلوع ورعد ، ولا مستوحش فيما تمرد به الى من تولى وأدبر ، حتى أتى الغاية التى أحرى اليها فى الله عز وجل وفى خليفته ، ثم لرؤسائكم من أهل المشايمة والمكافئة والنصرة والحفظ الجزيل والامر المبين ، نوابههم واجب وحقهم لازم ، ثم منكم من يحفظ لسله وأوله من الآباء الذين يحفظون ولايتهم ، فإن الله عز وجل يقول فى ذكر اليتيمين : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ الآية . وقال على لسان يعقوب لابنه يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ يَحْتَبِكَ رَبُّكَ وَيُصَلِّكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ الآية . وأمير المؤمنين برى توريث الحكمة والذمام سنة عليه فى أحلافه التى يرعاها ويحافظ عليها ، كما أنه يرى ورائه التركة فريضة واجبة ، فيخلف السلف الصالح عنده من المزية والفضل ما يتلون به أهل الشأن بأنفسهم ، ثم

يتلوه من أقدى [هم] وأهدى بهديهم . والسابق المتقدم من أعتد بلاء هسه الى نلاء سلفه ، ثم يتمه بعد الملى بنفسه ، ثم تلوهما المتوسل بآمانه ، ثم الصاعد به هواه ورأيه ، طلبة فطفلة ، فليقتصر كل أمرئ منكم على المرتبة التي أحله بها سعيه ، وليسلك الى الأزدباد فيها بالريادة من هسه ، فإن من التتوى العظيمة على أهل الدؤل ما يزع به الشيطان بهم ، ويكثر عندهم ما يكون منه ، فيوافق من الخيف للأنفس ما يحسد به مساعا الى ما يروم من إيقاع الشعواء منهم ، وتبليت الإحس في صدورهم ، بعد التآزر والتناصر . ومتى يجمع المرء لمزية من وقفه ، واعتباط من دونه كمي مارك . ولتخلص نيأتكم . ونسلم صمائركم ، حتى تمحصوا شكر ما أوليه إخوانكم ، وتمتدوا ما ملهم شاملا لكم ، وتحنوا بطريقه من اقتصر بأمنيته على حاصته ، وتمتت فيما أوتربه أهل الفصل دوه . وكفى عظة فيها نهاكم الله عنه من ذلك ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَحْمِلُوا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية . ولا يلتمس أحد مودته عن سوء يبه بحس مداراة في طاهر ، فإن الله مقلد كل امرئ ريقة عمله ومطوقه طوق سريره . ولا يبدرن بها يلزمه لإمامه ، فإنه إنما يندر في حفظه ويخص قسمه ، ويخص نفسه . ثم لا يقتصر على استصلاحها حتى يتناول من كانت مته عليه من أقربيه وحسويه ، فإن يسير ما هو معان من تأديتهم لا ينشأ أن يتجاوز أدنى المراتب الى أقاصها ، وقريبها الى مشاهيها ، حتى يستفيض شاملا علما ، بعد أن بدا محلا خاصا .

واعلموا أن أمير المؤمنين متفقد من تنقيصكم وتقويمكم على صالح الأدب ومحمود السيرة ، ما لا يتفقد به من سواكم ، فإنه إن كان يجب على نفسه استصلاح الرعية وحملهم على ما فيه رشدهم وقوامهم ، لما يلزمه من فصل العاية بالأخص والأولى فالأولى ، فإن في أخلاكم من التقديم في التأديب والتمهد ، وحوها من الصبر : منها : أنكم أولى بحس الطاعة وسرعة الإجابة ، للطف علكم وقرب مكانكم عند أمير المؤمنين .

ومنها : أنكم يأنس بكم المؤمنون ويقتدي بكم الناصرون ، حتى قصرتم وأخلطتم ، أفننى
أثركم من نصبتهم له أعلاما ، ثم لم يكن لكم أن تزروا عليه ، ولا أن تأخذوا فوق يده ، بل كان
يقينا أن يكون يسومكم الرضا بمثل ما سيمتموه ، ثم تحرى هذه المادة والطبقات ، حتى يطرد
السياق ، الى أن يستفيض الفساد في حشو الساس وعامتهم ، فلا تُعنى قوة ولا حزم ولا
شدة ، إلا العجز والاصاعة ، ثم يجد الأعداء مساعا الى الطعن والعيب ، فلا يملكون أن
يرهبوكم ويستولوا عليكم المشل ، وإن الأيدى إنما تُنسط بعباذ العزائم ، والعزائم إنما تُنفذ
بشأت المحنة ، والمحنة إنما تهت إذا كانت عن الحق . وإذا أصبح أول هذه الرسوم ، التي
رسم لكم أمير المؤمنين ، تيمته تواليه وشتمته لواحقه ، ووجد المدو الملاحظ مكان العورة ،
مطمعا في إهمال ما كان يحدله من الفتنة ، ويتوقع به من ماهرة الفرصة ، وليكن ما يُفرضون
فيه وتعدوه طهيرا على طاعي إن طعن في دولتكم ، ما ألهم الله أمير المؤمنين : من شمول
رحمته بالعدل ، وفرش الأمر في مصمراتها ومثقلها ، ورفع به عنهم من سير الجود ، وبسط
به يده من إثابة أهل البلاء ، وضد الحرائم لأولى الزلل ، والإملاخ في دعاء من حاند وشافق
الى التوبة والإنابة ، وإقالة العثرة مد القدرة ، والحقن لمباح الدماء ، فلم تملوه صبر محملا ،
ولا هتك لأحد من أظلمه الله به سيرا ، ولا وقفه على عودة . ثم تولى الله أمير المؤمنين ،
في حروبه شرقا وغربا ، التي أغناه الله عن الإطباب في وصف صنع الله لكم فيها ،
لاستفاضة أحبارها في دعامتكم ، مع ما أحب من مطالعته إياكم ببالغ أدبه وشافق
عطفه ، أن يفتك من الإسهاب ، في غير ما محمد له ورأى من تهريج أسماعكم وأذهانكم ،
لوعى ما التمس أن تقوه من تبصيركم حقلكم ، وتبهيكم على رشدكم . وحسب أمير المؤمنين
في نفسه وفيكم الله ، وكفى به ميثا .

وإن أمير المؤمنين مع ما تقدم به اليكم لعل نعمة من جياطة الله حلائه التي جعلها
عزا لدينه وقواما لخلقه ، وأنه ليس بها ممن أدبر عن حقها آتسلا بل من خلج
ربقتها وأضاع حظها منها ، جلب الخلة والحاجة وخسران الدنيا والآخرة . وإنما أتي

الْمُقَصَّرُونَ فِي إِعْظَامِ حَقِّهَا مِنْ صَعْفِ الرُّوْيَةِ عَنْ بُلُوغِ مَا تُقْضَى بِهِمْ إِلَيْهِ مَصَادِرُ الْعَوَاقِبِ ، وَتُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ رَوَاجِعُ مَا قَدَّمُوا ، فَلَا يَكُونُونَ سَمْلَهُمْ غَيْرَ مُتَعَاوِزِينَ بِهِمْ مِنْهُمْ ، وَفِيهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ إِلَى مَا يَمْنَعُهُ .^(١)

وَأَسْتَدْبِعُوا مَعْشَرَ الْمَسَالِمِينَ سَاحَ الْعِمَّةِ مُحَمَّدٌ مَوْلِيَهَا وَالْمُتَطَوِّلُ بِهَا . وَقَدْ تَرَوْنَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ قَلْبُهَا وَمَا آلَتْ إِلَيْهِ حَالُ مَنْ سُلِبَهَا ، ثُمَّ يُعْقِبُ النَّدَامَةُ حِينَ لَا مُسْتَعْتَبٌ وَلَا نَظَرَةٌ بِمَكْنِ فِيهَا اسْتِفَالَةُ الْفَارَاطِ بِتَقْصِيرٍ وَلَا هَفْوَةٍ زَالٍ . وَتَقْوَا مِنْ رِيَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٍ أَثَارَكُمْ ، وَمَا مَعَى مِنْ بَلَاءٍ كُلِّ أَمْرٍ مَعَكُمْ ، بِمَا تَعْلَمُثُونَ إِلَيْهِ وَتَتَوَقَّعُونَ عَادَتَهُ ، مَا سَنَى مَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ آمَالَكُمْ وَتَسْمُو إِلَيْهِ هَمَمَكُمْ ، إِلَى مَا يَنْدَحِرُ اللَّهُ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِدَاهُ ، وَاعْتَصَمَ بِتَقْوَاهُ ، وَجَاهَدَ عَنْ حَقِّهِ ، وَأَيَا بِأَمْرِ عَهْدِهِ مِنْ جَرِيلِ ثَوَانِهِ وَكَرِيمِ مَا بِهِ ، إِلَى الدَّارِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ : وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا .

أَحَبُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَعَهَّدَ بِمَعْطَايِهِ تَهْنِئَكُمْ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَتُثْبِتَ مِنْ بَصَائِرِكُمْ ، وَتَقْطَعَ مِنْ طَمَعِ الشَّيْطَانِ وَحَرِيهِ فِيكُمْ ، لِيَا يَحِبَّ عَلَيْهِ مِنْ إِرْشَادِكُمْ . وَبِرَحْوٍ مِنْ تَأْدِيَةِ حَقِّ اللَّهِ عَنْزٍ وَجَلَّ فِيكُمْ ، وَلِيَا يَرَى مِنْ أَنْصَالِكُمْ بِحُلَّةِ ، وَمَا يَسْمُلُهُ مِنَ الصَّنِيعِ فِيمَا وَلَاكُمْ اللَّهُ بِهِ ، وَتَوَلَّاهُ لَكُمْ .

وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي دَلَّ عَلَى الدَّعَاءِ تَطَوُّلًا ، وَتَكْتُمَلُ الْإِلَاحَاتُ حَتْمًا ، فَقَالَ عَنْزٌ وَحَلَّ : (اذْعُوبِي أَسْتَجِيبُ لَكُمْ) ، أَنْ يَجْمَعَ عَلَى رِصَاةِ أَلْفَتِكُمْ ، وَأَنْ يَصِلَ عَلَى الطَّاعَةِ حَبْلَكُمْ ، وَأَنْ يُتِمَّعَكُمْ بِأَحْسَنِ مَا أَوْدَعَكُمْ مِنْ مَسْهِ ، وَبِوَرَعِكُمْ عَلَيْهَا مِنْ شُكْرِ ، مَا يُوَاصِلُ لَكُمْ مَزِيدَهُ ، وَأَنْ يَكْفِيَكُمْ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ، وَحَسَدَ الْبَاقِينَ ، وَيَحْفَظَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ بِأَفْضَلِ مَا حَفِظَ بِهِ أَمَامَ هُدَى فِي أَوْلِيَائِهِ وَشِبَعَتِهِ ، وَيَجْعَلَ عَنْزَ ثَقَلٍ مَا حَمَلَهُ مَعَكُمْ . وَبِإِلَهِ يَسْتَعِينُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، عَلَى مَا يَسُوءُ مِنْ جَرَائِكُمْ بِالْحَسَنِ ، وَحَلِّكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُنْتَلَى ، وَبِهِ رِصَى نَاصِرًا وَوَلِيًّا ، وَكُنْ بِإِلَهِ وَلِيًّا وَكُنْ بِإِلَهِ نَصِيرًا . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وللأُمون — لما كتبت إليه السيدة رُبَيْدَة مد مَقْتَل ولدها الأُميين خطابًا
الآتي تستعطفه :

كُلُّ ذَنْبٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ عَظُمَ صَغِيرٌ فِي حَبِّ عَفْوِكَ . وَكُلُّ زَلٍّ وَإِنْ جَلَّ
حَقِيرٌ عَدَّ صَفْحَكَ . وَذَلِكَ الَّذِي عَوَّدَكَ اللَّهُ ، فَأَطَالَ مَدَّتَكَ ، وَتَمَّ مَعْمَتَكَ ، وَأَدَامَ لَكَ الْخَيْرَ ،
وَرَفَعَ لَكَ الشَّرَّ .

هذه رُقْعَةُ الْوَالِدِ الَّتِي رَجَّوْكَ فِي الْحَيَاةِ لِنَوَائِبِ الدَّهْرِ ، وَفِي الْمَمَاتِ لِمَجْلِيلِ الدَّكْرِ . فَإِنْ
رَأَيْتَ أَنْ رَحِمَ صَعْمَى . وَأَسْتَكَاثَى ، وَقَلَّةَ حَيْلَى ، وَأَنْ تَصِلَ رَجْمَى ، وَتَحْتَسِبَ فِيهَا جَمْلَكَ
اللَّهُ لَهُ طَالَمَا فِيهِ رَاعَا فَاعْمَلْ ، وَدُكِّرْ مَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ شَيْعِي إِلَيْكَ .
فَكَتَبَ إِلَيْهَا الْمَأْمُونُ .

وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ مَا أَقَامَهُ ، أَحَاطَ اللَّهُ وَتَوَلَّاهُ بِالرَّعَايَةِ ، وَوَقَفْتُ عَلَيْهَا وَسَاءَتِي — شَهِدَ
اللَّهُ — جَمِيعُ مَا أَوْصَحَّتْ فِيهَا ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ رَامِدَةً ، وَالْأَحْكَامَ حَارَةً ، وَالْأُمُورَ مُتَصَرِّفَةً ،
وَالْمَخْلُوقِينَ فِي قَبْضَتِهَا ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى دِفَاعِهَا ، وَالْأَلْبَاءُ كُلُّهَا إِلَى شَتَاتٍ ، وَكُلٌّ حَتَّى إِلَى مَمَاتٍ ،
وَالْعَبْرُ وَالنَّعْيُ حَتْفُ الْإِنْسَانِ ، وَالْمَكْرُورُ رَاحِعٌ إِلَى صَاحِبِهِ . وَقَدْ أَمَرْتُ بِرَدِّ جَمِيعِ مَا أُحْدِثَ
لَكَ ، وَلَمْ تَمْنَعْنِي مِمَّنْ مَضَى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ إِلَّا وَحْدَهُ . وَأَنَا مَعْدُ ذَلِكَ لَكَ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا
تُخَارِسُ ، وَالسَّلَامُ .

(٥) أحمد بن يوسف^(١)

رسالة ممتعة لأحمد بن يوسف ذكرها ابن طيفور في اختيار المظلوم والمثبور وهي :

أما بعد فالحمد لله القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به حبرا، وأنفسه حكما وعلما، وألف بين مختلفه ومُتَعَفِّه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدير مشيئته ومُتَدَعِه، وأنه أحد صمد، لا يضد له ولا يد، إذ قدر له حاجته ثم شدها بلاعها الى الغاية الى جعلها، فقال حل وعز ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا حَرَائِهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرِ مَعْلُومٍ﴾، وحكى عن نبيّه موسى عليه السلام، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَقَّهُ ثُمَّ هَدَى﴾، وقال الله تعالى ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلْنَاهُ قَصِيصًا﴾ ثم لم يكلف السامع من شكره كفاء نعمته، بل رضى منهم باليسر، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم إياه عائدة عليهم بحريل الخط في دينهم ودنياهم. إياه عن عادتهم، وأنشاع قدرته ما تطول عليهم. مُتَتَبِعًا وَحَانًا، وَاِدَاتًا وَعَائِدًا.

والحمد لله الذي أصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم. نبيا لرسالته. وأتممه على وجهه، وأنزل عليه كتابه العزيز، الذي لا يأسه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه. تنزيل من حكيم حميد، فأذى الى حلقه الرسالة. وأستقدهم من الصلالة، وصَدَّعَ بأمر ربه وحاهد في سبيله. ووضح لأمته حتى أتاه اليقين من ربه. بعد استناره الحق، وطهور الحق، فصلى الله عليه بشيرا ونديرا، وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا قد تلاهى من الملئكة، وجمع الأئمة بعد الفُرقة، وأوضح الهدى بعد الدُّروس. ومعلم الرشد بعد الطُّموس، وكان المأمومين رحما.

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين. والأئمة الراشدين. الهادى التقي، الطاهر الزكى، الإمام المأمون أمير المؤمنين، أعز الله نصره، صدق ثلثتهم، ورأت صدعهم وقلده خلافتهم، وجعله لكافة المسلمين عيانا ورحمة، وجعل ما أتممه من العدل والإحسان

(١) راجع ما كتبه مع في الفصل العاشر من الكتاب الثالث في المهد الأول

اليهم، مئة عليه ورحمة دترها له، دون الخلفاء قبله، فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة من تقدمه، ومسح الرعية من عطفه ونظره، ما لا يحل عنهم أو به ولا يؤدي عنهم شكره، إلا هو لا شريك له، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته، على صلة ربح رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي هي ربحه وقربته، وأختياره لولاية عهده الأمير الرضى على س موسى، حفظه الله، حين أحمد سيرته، ورضى محته، وعرف استقلاله، بما قلده في هديه، ودينه ووفائه، بما أكد الله به عليه، من عهد أمير المؤمنين أيده الله، في أعتيابه من ازده وأسائه مما شفع رأيه، وأفقد تدبيره، حين هم لاستصلاح ما استرقاه الله، من أمور عبادته، لما أنتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته، الأبرار الرياستين رحمه الله، فالتحذه مكاتبا ظهيرا ووزيرا دون من سواه، فاتبع مناح أمير المؤمنين أيده الله، وسار بسيرته، شرقا وغربا، وغورا ونجدا، مؤفيا بمهده، قائما بدعوته، مقتنيا لآثره وسنته، بحسب الله به الأدواء، وقمع به الأعداء، من حنة الأمم، وطواعيت الشرك، وأباد على يده، أهل الشقاق والنفاق، في كل أفتى وطرف، بحذ أمير المؤمنين أعزاه الله، وركعة ساسته ودولته، ونجح سنى من قام بنصرة من قام بحقه، وأبار رهايه، حتى توفاه الله عز وجل، حين بلغ قمته وغايته، وحسب أحله، وأقطعت مدته، سعيدا حميدا، شهيدا فقيدا، عبد إمامه أكرمه الله، وعد الحاصة والعاقبة، وكان من إجلال أمير المؤمنين، الحادث الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهدته وجماعته. ورتحه عليه عدد ذكره، وحفظه في ثمنته، وأهل حرمة، وحيث كان يبعد الله على طاعته وعبادته، ما أتم به معناته، عدما وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلا، وموقعه من جماعتكم متمكنا، يقصمكم ما قبضه، وبسطكم ما بسطه من لومة المصيبة، وحسن العفى، وقد علمتم معشر أهل الحما والنهى، والطاعة لله عز وجل وحليفته. ودوى النفاء والبلاء في دعوته من أهل خراسان وغيرهم ممن حصر من آمنح الله قلبه بوفاء العهد والاستبصار في حق أمير المؤمنين أبقاء الله، والمجاهدة دونه، والصبر على مواطن الصدى والألواء، واللبث عن البيضة والحريم،

والمتحملين للنَّصَب، والمصابين التي أَلَحَّتْ، حتى كَان لم تكن، وبقي أحرها على الله عز وجل، ومحمود ذكرها شامعا في الناس، إِنْ نِمَّ الله، قد جَلَّتْ وَلَطُفَتْ، وَحَصَّتْ وَعَمَّتْ، وَطَلَّتْ وَتَمَّتْ، ودامت، حتى قَصَرَا عن موارينها، والإحاطة بأدائها، فإذا لم يكن لها معشر إخواننا سبَّبُ إلى مكافأة ثلاثة بالعمل، فمن حُدِّرَا أن يحمد في القول، وَطُطِبَ في الوصف إِنْ شاء الله حَلَّ وعزَّ، فقد حصل ذكر النَّمِّ من أسباب الشكر، وقد حثد لنا أمير المؤمنين أيده الله من الحياة والكرامة، وجريل الحليطة، وسَيِّ الرنة التي قُرئ بها عليكم كتابه ما يستغرق جَهْدًا، وبسفر فرج وسُما، فزعب إلى الله عز وجل، وَلِيَّ الرعبة، ومُؤَيَّ السُّؤْلِ وَالطَّلِيَّة، في إعانتنا على تأدية ما وَحَّ له، فيما منحنا من هوائه ونَحْلِه، ثم نسترفدكم ونستعيصكم على شكره، وإمدادنا بما يُلَفِّته طاقته في السَّعي له فقد آدَنَّا نَقْلُ ما حملنا، ونَقْل ما طوقنا، وعطمت فاقنا إلى استئصال القوي من الأئس والحامه، والخاصة والعامة، في جَراء ما حَلَّ أمير المؤمنين فيها من سُنَّه، وشملها من تالذ أياديه وطايفها، وقديمها وحديثها، وكيف يُوحِد إلى موازاه أمير المؤمنين سبيل سدل حَهد، أو بلوع حَشْد، فأما نَقْدِي سُدَّاه، ونَشْوَ سورِه في ديننا، وليس نَحْزُبا عن أن نعزِّي حقَه، بواضح عما مؤونة الدُّووب في التحزِّي لتأديته، فإن الله عز وجل، قد أحر هبائل الشكر ومواقه، وجمله من أسمائه، (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)، وقد قال تعالى: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَايِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْسَمْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا). وقال تعالى: (إِنْ تَقْرَئُوا اللَّهَ قَرَضًا حَسًّا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ). ولولا أن الله عز وجل رَضِيه لنفسه، لأحلامه عن التسمية إذ كان أكثر ما نستعمله، وصره في مكافأة من مَنْ وَطَّلُول، ثم نَحْي ذكر فصله في العباد، فإن الله تبارك وتعالى أفتح أول ما عَمَّ حلقه بالحمد، وحمله بذه بخامه، وحامة دعوة أهل جتته، فقال عز وجل، (وَأَحِرْ دَعْوَاهُمْ أَنْ أَتَمَّ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، وخلق الله السموات والأرض، ومن برأ ودرا في الحياة لِيَلْبُو عَادَه بشكره، وأَمَّ الحله في الآخرة لمن شكره، والنار لمن كفره، وقال الله تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عِدَائِي لِشَدِيدٌ ، وقال الله تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرِّكُمْ وَأَنْتُمْ إِذْ لَمْ تَأْتُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، بحمل القوى واقعة ، والشكر مرجواً ليدل على ارتفاع رتبته ، وعلو درجته عده ، وقال ليجيه موسى عليه السلام : (إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ رِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي أَخُذُ مَا آيَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فلم يكلفه الا أحد ما أعطاه ، والشكر على ما آتاه ، وأحبر سترته في الصاد ، فقال تعالى : (وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ، فاية نعمه أحل قدراً ، وأسنى أصراً ، معشر الشيعة من نعمه أمير المؤمنين ، أيده الله ، عبد الأمير ذي الرياستين ، ومراسيه التي رتبته بها ، فإنه أعطاه رياسه الحرب ، ورياسه التدبير ، وعقد له على رأسهما علماً في رواية دعونه ، وقلده سيمهما وحتمه بحام الخلافة ، وحاتم الدولة ، وحمل صلاته من صاحب حره ، وصاحب شرطته ، ومسره بين أمير المؤمنين وبينهما ، أمامه وحلفه ، وصنّره الحلوس على الكرسي محصرته ، في صدر كل مجلس جلس . الا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلافة ، وقدمه في دخول دار الأمير راجعاً الى أقصى مكال بنهي إليه أحد من بني هاشم ، لأنه مهم ، وأعظمهم عآء عنهم ، سماء صاحب دعونه وسيمه على عدوه و نابه الذي يدخل اليه منه ، وولاه حيزه في أقطار الأرض ، ومقدمته محصره ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفرده في عهده ، الى ما أنقده من أمره ، في جميع سلطانه ومملكه ، من مشارق الأرض ومعاربها ، وأس باقى الوصف على ما فصله به ، وقدمه وشرهه على الناس كافة ، ولكنا نخطئ بذكره ، ثم نكل السامعين الى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبطلها الصعة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتمكينه ، ومناشره لجهازه ، الى حمرة يده ، وقاسى من النقص ، ورحاء الحزن ، وإذراء العثرة ، وإراقة الدمه ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يجمع من القول والدعاء في صلاته عليه ، من الحكم ، وحفظ أهل الحرمه ، به رعاية له بهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقر حاضته ، وقواده وعماله . وكأبه على مرآتهم ، وحيد بمجده ، وقم بدقه ، وحدد لجنده ، وتل كريتته ، نظراً وعطفاً ، فلم يبق عليه في إحياء ذكره ، وبلوغ كل ما يحبه في حياته غايةً الا أتى من وراثتها

وأمر بقراءة نُقُوحه ، كما كانت تُقرأ على عهدہ ، وأضاف كل ما حَدَّث من بعده الى ما تقدم من سعيه ، وأحبر أنه كان سبته ، والمتَّح به ، وولى محمد بن الحسن حلاقته ، ونصبه مَنصبه ، وأقامه مقامه الى أن جتد العهد لى ، فاستحلفته على ما ولى محضرته ، ثم تتابع كتب أمير المؤمنين ، أكرمه الله بعد مصابب الأمير دى أكرامتين ، بما لا يقارب التفضيل ، والإطلاق والتعويض الذى كنتم سمعتم به وبلغكم ، فلم يكن يرى ورامه بجاراة ، ولا فوقه مَصْعدا ، حتى جتد لنا من كرامته ، ما قد قرئ عليكم فى كتابه ، فبلغ لنا ما لم تكن المهم تبلغه ، والأمانى يُحيط به ، لولا ما محبا الله عز وجل من الترقى فى الفضل ، الى ما تُحصِر من دونه الأنصار ، وتقطع دونه الآمال ، وإنما اقتصصناه ودكرنا ما أبلا وأسطع عندنا من بلائه بدعائنا الى الله عز وجل ، والى طاعته بالعدل والإحسان الى رعيته والطرف بالصبر ، والأخذ بالفضل ، والأمر بالمعروف ، وصلة المروءة الوفاء بالعهد ، والشكر للئن ، ورعاية الأخلاق الحمودة ، وإحفاء أهلها ، وإقامة سوقها ، حتى تنافسوها وتنافسوا فيها ، وصارت هى الذرائع اليه ، والوسائل عنده ، فلو تأمل متأمل أهل الرقة ، والأثره لديه ، لوحد الأخص فالأخص ، والأصل قدرا عنده هو الأفضل دينا ومروءة ، فلو لم يكن فى الحظوة عنده إلا إيجابها لصاحبها محبة المحبة ، والزاهة عن كل ظنة . لكان منها أعظم العطف ، وأعدل الشهادة والدلالة ، وسفص عليكم بما أحزنناكم عنه مالا سبيل الى تحننه وإنكاره ، بوصح معاملة وسائره ، أو ليس المجاهد عن دين الله ، والهامى عن سعة المسلمين ، والمواقي لأغلط عدوهم شوكة ، وأخوفهم عداوة ، والمُنَجح فى ملادم ، عن كان لا يرام ، ولا يُحاول لاستصمابه وشئنه مقاساته ، حتى ادعى جيمويه العبودية له ، ثم أباح حريمه حين تمزق عليه ، حتى بلغ السبى الى ولده ، وحاربوا به . وسلبت حيوله ، حتى توصلت الى قُنته ، ومنتهى عزه ، أو ليس مُسكن التهج بالمشرق ، حتى حبت البران فيه ، وأدعى رؤساؤها وقادتها . أو ليس غازى بلاد بابل حين طمى أمرها ، وبذل ، ونكث وقصص . حتى أجتبت أرومته ، وأباح حريمه ، وأراح المسلمين من معونه ، أو ليس ساد الثغور ، ومُحص

عَوْرَاسِهَا ، وَالْمُبَايَرَةَ لِنَدِيرِهَا ، وَالْمُسْعَدَةَ لِمُكَايَدَةِ الْمُتَمَحِّحِ فِيمَنْ أَرَادَهَا ، وَقَالَ الْعُصَاةُ ، مِنْ رِقِّ
 الْإِسَارِ ، وَبَايَرَ الرَّحْمَةَ عَلَى قِرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَصُفْعَاتِهِمْ وَأَهْلِ الْمَسْكَةِ ، وَاخْتَلَفَ مِنْهُمْ ، وَقَامِمِ
 الصَّدَقَاتِ فِي أَهْلِهَا ، وَعَامِرِ الْمَوْسَمِ وَمَحْصَتِهِ مِنَ الْآفَاتِ حَيَاظَةَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي تَجَمُّعِهِمْ ،
 وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَهَلْ أَقْرَبَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُئِمَّةِ مَا أَقْرَبَ لَهُ فِي الْمَلِكِ وَالْدِّينِ وَالْعِزِّ ،
 وَالتَّوَاصِعِ وَالسَّعَةِ ، وَالنَّدْلِ وَالْمَدْرَةِ ، وَالْعَوِّ وَالْعُلْفَةِ ، وَاللَّيَالِ فِي مَوَاصِعِهَا ، وَالنُّسْكِ مَعَ
 الْهَمَّةِ ، وَالسُّطُورِ مَعَ الْإِقَالَةِ ، وَهَلْ تَرَكَ مَعَشَرَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِخْوَانِ فِي الدِّينِ عَايَةً لَمْ تَسْمُ سِوَا إِلَى
 شَرَفِهَا ، وَعَلَى مَرَاتِبِهَا ، وَمُسْتَزَادِ الْخَطِّ فِي عَاحِلٍ وَأَحْلٍ ، لَمْ يَلْمِصْهُا وَتَحَارَّلَا حَاضِ مَكْرَمَتِهِ ،
 وَمُدَّحَرِ عَاقِبَتِهِ . أَرْشَدَا إِلَى الدِّينِ ، وَسَلَّكَ بِمَا سُلِّ الْجَمَّةُ ، حَارَّلَا الْمَلِكُ ، فَلَمْ يَبْقَ وَرَاءَ
 مَا مَلَكَهَا عَايَةً ، وَوَرَدَ بِمَا الْخُرُوبَ وَسَاسَهَا لَهَا ، فَلَمْ يَدَّعِ عَايَةً لِلتَّعْلِيمِ وَالذِّكْرِيَّةِ ، سُلِّطَ عَلَيْهَا
 سُلْطَانُ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُ فَلَمْ يَدَّعِ عَايَةً فِي التَّمَلُّدِ وَالْعَقَّةِ ، فَكَمَّ عَلَيْهَا الْعَصَائِلُ ، ثُمَّ فَصَّلْنَا بَيْنَهَا ،
 عَلَبَ لَهَا الْأُئِمَّةُ ، ثُمَّ حَوَّلَاهَا . عَلَيْهَا طَرَائِقُ الشَّرَفِ ، ثُمَّ شَرَّفَهَا بِهَا . أَحْتَرَبَا عَلَى الْأَسْمَاءِ فَكَفَّاهَا
 مَوْؤُودَةَ التَّمَاسِخِ ، وَأَعَايَا بِمَا عَدَّهُ فِيهَا ، أَحَدٌ عَلَى أَيْدِيهَا الْخَيْرَ لِلرَّعِيَّةِ ، فَوَهَبْنَا شُكْرَهَا ، وَصَدَّقَ
 مَقَالَتَنَا عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، وَأَتَقَدَّ أَمْرًا فِي التَّدِيرِ .

فِيهَا أَنَبَا الْإِمَامَ الْمَصْصُورَ الْمَهْدِيَّ الرَّشِيدَ حُرَّتَ فَصَائِلِ الْآيَاتِ ، وَاهْتَدَيْتَ بِهَدْيِ
 الْأَنْبِيَاءِ ، أَشْكُرُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَأَنْتَ الْقَائِمُ بِهِ الدَّاعِي لَهُ ، وَالْبَاصِرُ لِحَقِّهِ ، أَمْ نَشْكُرُكَ
 عَلَى الْأَهْمَارِ ، فَأَنْتَ الْمُفْتِيحُ لِمَتَعَهَا عَنَّا ، وَالْمُتَطَوِّلُ عَلَى أَهْلِهَا بِالرَّحْمَةِ ، وَالْمُعْطِفُ عَلَيْهِمْ
 بِحَسَنِ الْفَائِدَةِ بَعْدَ مَا هَيَّجَتْ مِنْكَ سَوْرَةُ الْعَصَبِ ، فَاطْفَأْتَ نَارَهَا ، وَأَحْمَدَتِ لَهَبَهَا ،
 وَعُدَّتْ عَلَى مَنْ سَبَّهَ ، وَأَصَاعَ حَقَّهَ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْمُسَاعَدَةِ ، فَأَنْتَ الَّذِي أَسْتَشِيهُ عَلَى
 التَّقْوَى ، وَعَمَّرْتَهَا بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَطَهَّرْتَ الْمَذَابَ وَرَكَبْتَهَا ، تَسْلُوْهَا صَائِمًا ، وَتَطِيقُ عَلَيْهَا
 صَادِقًا ، وَيَدْعُو إِلَى الرَّشَدِ عَلَيْهَا مَاصِحًا ، وَنَحْمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تَنْدَاهَا مَحْسَا ، وَتَتَلَوْنَ قَوَارِعَهُ ،
 مَا تَصْبِيحُ لَهُ الْأَسْمَاعُ وَتَلِينَ لَهُ الْقُلُوبُ ، أَمْ نَشْكُرُكَ عَلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالرَّكْنِ وَالْمَقَامِ ،
 وَالْخَمْرِ وَزَمْزَمَ ، وَتَشَاعَرَ الْحَجَّ ، وَأَنْتَ ذَبَبْتَ عَنْهَا ، وَأَعَدَّتْ لَهَا عَهْدَهَا ، فِي مَبْعَثِ نَبِيِّهَا ،

صلى الله عليه وسلم ، فامتتَ الزاع إليها ، من كلِّ غِـعْـمِيقٍ ، والحاليين بها من الركوع
والسجود ، أمْ نشركَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما حطمت فيه من عِزِّهِ ،
بعموك عن محرمهم ، ومصاعنك ثواب محسبهم ، وإحيائك من أمرهم ، ما كان قد أدرس
وأطمس ، بعد اللقاء بلى الله صلى الله عليه وسلم ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك ،
ودوى رحمه ورحمك ، ماصيغ الناس . ووصَّلتَ منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل ،
قد قرصَ صِلَةَ الأرحام . وكان أطوعَ خلق الله عز وجل فيما قرصَ عليه . أمْ نشركَ
عن العوام . فقد أُلستَ المسلمين ثوبَ الأُمس ، وأذقتهم طعم السَّعة والرِّفاهة ، وعدلتَ
بينهم بالإبصار ، وتولَّيتَ دونهم النَّصب ، وآثرتهم الراحة . أمْ نشركَ عن الملوك والقواد
والأجناد ، فأنبى الذى رمتَ مارهم ، ووفرتَ عددهم ، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء
أسعد ولا أخطى منهم في سلطانك ، بما بذلتَ لهم من المَعاون ، ووليهم من الثَّغور
والأمصار ، وأدررتَ عليهم من الأرزاق والخواص ، أمْ نشركَ عن الأحكام والسُّنن ، فأنتَ
الذى أنهجتَ سبيلها ، فأوحيتَ قرصها ، ونامستَ في أهلها ، أمْ نشركَ عن الأعداء فأنتَ
الذى بدأتهم بالمُحْنة ، ودعوتهم إلى اليُتة والإمابة ، ثم شيتَ معقبا بالعور ، وسشتهم بعد
البؤس ، وآنتهم من الوحشة ، أمْ نشركَ على مكارم الأخلاق ، وأنتَ الذى ننتَ وطأتها ،
ونفيتَ عنها أصدادها ، ولو تَلَقَّتْ بالعصل ، لطلقتَ شركك ، في إزالتك إياها عن اللثام ،
وإخطائك من أعترى إليها . أمْ نشركَ عن الثَّغور ، فأنتَ الذى تَمَّتْها ، وحصنتَ عوراتها ،
أمْ نشركَ عن السلف ، فأنتَ الذى أشدَّتْ بفعالهم ، وحَفَظْتَهُمْ في أبنائهم ، أمْ نشركَ عن
رُؤس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن القصيب الذى تخفَّص به ، حتى جعلتهما ريتك ،
وسموتَ بهما في أعيادك ، عد حَشْدُكَ ، على الطُّهر والزكاة ، والسك والتَّقوى ، أمْ نشركَ
عن المسلمين في رِعايتك إياهم ، وما تُرغيمهم من جَبَابِكَ ، وتنفى عنهم من الآفات ، وتَمَلَّ
عنهم من جبايرة الكفر ، وتَمَحَّصَ من جيوش الشُّرك والتَّنكُّث ، وتمنع من الحُصُون
المُسْتَضْمَّة ، وتسهل من الطُّرق الوعرة ، أمْ نشركَ عن تواضعك لله عز وجل ولِعِصَالِحِ

المسلمين طلبا للرفعة عند الله . أم شكرك عن الدين وقد جعلت السلطان عدا وقائدا وسفّدا . وكان مأمورا لجعلته آمرا . وآله للعوه جعلت القوة له آله . فإمّا أتصل شكره بشكر الله عز وجل . وحمده بحمده الله تعالى وطاعته ، بطاعه الله فهو الله لك شرف المازل ، ورقاك درج الفصائل . وحراك الله عما وعن عبرا . مما شكر من مطلق أو صامت ، جريل الثواب ورمع الدرخاب . وأمسك ما أملك وأمع الأثم ما آتاهم منك . والحمد لله ذي الرجات ، ومتم الصالحات . شكرا لرب العالمين . فإنه مَلَع طاقنا ، ومُنَهى حَهدنا ، وبه نستعين على بادية فرائضه . أنه لا يعنى على ذلك الا هو . أحبُّ أن نُسكرك اليكم أمر المؤمنين أيده الله . اد ورد على من أسامه وافصاله . مالا ألهه بالفعل . ولد يكون ما اقتصصا عليكم . داعيا لكم الى أن نسكروه عنا . وعن أنفسكم . وعن الإسلام والمسلمين ، ورجوت بما وقفا الله له ، فيما شرحنا وأومحنا . من الدلالة والبيان أن يكون محتمعا يتنفع به من حصرا . ومن عسى أن يؤدى اليه الحرّاء . أو حدث بعدنا ، وصنت بهذه المكرمة الزائمه ، والمائره البارعة ، التي أدخرها الله لأمر المؤمنين . أعزّ الله نصره ، وأفوره بها . دون الأثم والخلفاء . أن تمر بالأسماع صمعا ، وتختار على القلوب سهوا ، حتى تؤكّد بالشواهد والبرهان ، ليقى ذُرّها ونعمها والخُلوّ والأعقاب ، ونحن نسال الله عز وجل الذى جمع بأمر المؤمنين — مد الله في عمره — أفقتنا ، وعلى طاعته أهواءنا وصهارنا ، وأمالنا من الفسطة في دولته وسلطانته ، ما لم تنهيه شيعه إمام ، ولا أنصار خليفة ، أن يتمّ نور أمير المؤمنين ، ويعل كنهه ، ويتمتع ببقائه . حتى يلقه سؤله وهمته في الاستكثار من البرّ وأدحار الأجر ، واستيجاب الحمد والشكر . وأن لمْ به الشّعث ، وبرأب به الصّدع ، ويصلح على يديه الفساد ويرتق به فتور هذه الأمة . ويثخن سياسته ونكاته في عدوها ، ويتابع الفتوح ولُبنانهم حتى نؤيه من تُحج السعى ، ورعائب الحظ في الدنيا ، ما يُجزل عليه ثوابه في الآخرة ، وأرشد بحبائه واصعبائه . الذين يقول لهم ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ تَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُجِيبُ الْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ .

ومن توقيعاته **تَقْلًا ع** كتاب الصُولي .

وقع الى عامل طالم « الحق طريق واعم لمن طله تهديده محته ولا تخاف عثرته
وَتُؤْمَنُ فِي السَّرِّ مَغْنَةً فَلَا تَسْتَقِلَّنْ مِنْهُ وَلَا تَعْدِلْنَ عَنْهُ بِالْعُتَىٰ وَمُنَاصِحِكَ فَلَا تُخَوِّحِي
إِلَىٰ مُعَاوَدَتِكَ فَهَلَسَ عَدِ التَّقْدِيمَةِ إِلَيْكَ إِلَّا سَطْوَهُ الْإِنْكَارُ عَلَيْكَ » .

ووقع في عناية بإنسان الى بعض العَمَالِ « أما معلان تاتم العناية وله شديد الرعاية وكنت
أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَا أَرَعْتَهُ طَرَفَكَ مِنْ أَمْرِهِ وَكُنْ أَيْ مُسْتَوْدَعًا تَمْنَعُ مِنْ حَطَائِي فَلَا تَعْدُنِي
بِعَاسَتِكَ إِلَىٰ عَيْرِهِ وَلَا تَمْنَحْنِي مَعْقِدَكَ سِوَاهُ حَتَّىٰ يَبِيلَهُ إِرَادَتُهُ وَيَتَحَاوِزَهُ أُمِّيَّتُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .
وفي كتاب آن طيعور من توقيعات أحمد بن يوسف الشَّيْءُ الْكَثِيرُ فَارْجِعْ إِلَيْهِ
إِنْ شِئْتَ .

(و) رسائل سهل بن هارون^(١)

من كلامه :

حكى الجاحظ قال : — لقي رجل سهل بن هارون فقال : هب لي ما لا صرَّ به عليك ؛ فقال : وما هو يا أحمى ، قال . درهم ، قال : لقد هَوَّنتَ الدرهم وهو طائع الله في أرصه

(١) هو من أساء العرس وكان من رحلات الملاحة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون ، وقد وضع كتاباً سماه كتاب طليعة ودمية وسماه « ثلثة وعصرة » . وكان قيم بيت الحكمة (مدير دار الكتب) في عهد المأمون . ولد سهل بن هارون في مدينة ميسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دستهبان كورة بين الأهوار وبواسط والبصرة ، في أواخر نصف الأول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من سبه إلا أنه سهل بن هرون بن راهبون (راهبون) وكسبه أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو حوري المولد ، عراقى المنشأ ، تحول إلى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذ ذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، أو كما قيل فيها « قبة الإسلام » وحرارة البر « حوت من العلم الإنسان أصوله ومروجه ، ومن الفاعين على تيممه مصافحه وملهه ، صدى روحه طاب مجالسها ومجامعها ، واستأرق قلبه ما اقتسه من نور معارفها وتخرج بلبانها ، ولا شك أنهم كانوا طليقة عالية حياء ، في كل مطلب من مطالب الآداب . وقيل أن سهل بن هارون كان شيعياً ، وشيعة العراق في ربه كانوا على الإطلاق معتزلة ، ولم يؤثره أنه تنقص أحداً من الصحابة الكرام ، بل عرف بالاعتدال مع الأموات ، إعتداله مع الأحياء ، وما أثره أنه حاص عمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ، وأتبعوه بأنه كان مع الشيعة الذين يصرون شأن البر ، ولا يرون لهم على العمى صلا ، وإذا سمعت هذه التهمة من الصعب ألوهي بين مذهب من يقول بالشيوعية ومن يقول بالشيعة ، حل ألقى الذي صر به بعد قرون .

وصفه الجاحظ فقال : « كان سهل سهلاً في همه ، عشيق الروح ، حسن الشارة ، ميذاً من العدامة (الغنى) متدل القائمة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ، قل الحرية ، ورقة الدهن ، قل المحاطة ، وبذقة المذهب ، قل الانتحان ، وبالسل ، قل التكشف (الظهور) » . وكان الجاحظ مازحه وثاقبه . وقيل لفراني ولعله إبراهيم بن دكران كاتب الهادي ووريره . يذك ويحسن سهل بن هارون صداقة فأنت لنا كي صرف . قال « هو كالنير ، وأذن العلم ، واسع العلم ، إن حدث لم يكد ، وإن مودع لم يصب ، كالنير أين وقع ، هب ، وكالشمس حيث أثلت ، أحييت ، وكالارض ماحلتها حلت ، وكالما ظهور للشمس ، ويقع ليله من آخر إليه ، وكالغوا الذي تحطف به الحياة بالنسيم ، وكالنا التي يمشي بها المرقور ، وكالبا ، التي قد حست بأصاف الور » . ١٠١ . صورتان حيلتان في وصف سهل صوّهما مصوّران مبدعان عاشا قربه ، وهما يظفقه وخلفه .

وأتهموا سهل بن هارون بالحل وأوردوا له قصصاً وروايد ، وربما كان اتهامه بالحل ما لعله فيه زاد به التهمة والبادرة ١٠١ . من محاضرة للاستاد الباحث السيد محمد كرمعل ألقاها بالجميع العلوي المرفى بدمشق ونشرها بمطبع المحمدي والمقتطف .

لا يعصى ، وهو عُشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذى هوئنته ، وهل يبوت الأموال إلا درهم على درهم ! فانصرف الرجل ، ولولا أنهراجه لم يسكت .

وحكى دُجَيْل الخَزَاعِي الشاعر قال : أفما يوما عد سهل بن هارون ، وأطنا الحديث حتى أصرت به الجوع ، فدعا معدائه فَأَتَى بَصَحْهَ فيها مَرَقٌ تحتك ديك هَيرم ، فأحد كسرة وتعتقد ما فى الصخرة فلم يحسد رأس الديك فسقى مطرقا ، ثم قال للغلام : أين الرأس قال : رميت به ، قال : ولم ؟ قال : لم أطمك تأكله ، قال : ولم طمنت ذلك ! فواقه إني لأمقت من يرى برحله فكيف رأسه ! ولو لم أكره ما صمعت إلا للطيرة والعال لكرهته ، أما علمت أب الرأس رئيس يتعامل به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذى يُبَيِّرُك به ، وعينه التى يصرب بصفاتها المثل فيقال : شرأت كمن الديك ، ودماغه عجب لوجع الكُليّة ، ولم أر عظما قط أهش تحت الأساس منه ، وإن كان طع من نُبِّلِكَ ألك لا تأكله ، معدا من يأكله ، أو ما علمت أنه حير من طرف الجحاح ومن رأس العُقى ! أنظر أين رميته ، فقال : والله ما أدري ، قال : أنا والله أدري ! إنك رميت به ، والله فى بطيك ، والله حسيبك .

ومن مؤلفاته كتابُ البهلاء .

ولما صنف سهل كتابه فى البخل أهداه الى الحسن بن سهل وأسماعله ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما دمه الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم بساد معاك صلاح لعطك ، قد جعلنا ثواب مدحك فيه قول قولك ، فما تعطيك شيئا .

وأنهم سهل بن هارون بالبخل وأورد له فى ذلك قصص ووادروعه الجاحظ من "مُتَعَاظِلِ البهلاء وأتخاء العلماء" قال : ما علمت أن أحدا جرد فى البخل كتابا إلا سهل بن هارون ، وأبا عبد الرحمن الثورى ، والبخل فى المرس غالب فى الجملة ، علية الكرم على

طبائع العرب ، فاقصى ذلك التعريط الذى رآه سهل فى تسدير العرب ، أن يئلى لقومه بأرائه المعرطة فى الاقتصاد والإسك . وما شُهد قط تعريطُ آلا وإلى جانبه إفراط .

كتبه وطريقته فى التأليف :

كان سهل بن هارون مُقطع العرس فى صوف العلم والآداب ، وباهيك معاليم كبير كالجاحظ كان يؤلف الكتاب الكثير المعانى ، الحس النظم ، فيسسه الى نفسه فلا يرى الأسماع تُصيحى اليه ، ولا القلوب تتمُّ نحوه ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل منه فائدة ، فيحله عند الله بن المقفع ، أو سهل بن هارون ، فيقبل الناس عليها ، ويسارعون الى نسخها .

ويقال إن طريقه سهل فى كتابه طريقه أمير المؤمنين على بن أبى طالب لا يكتف لکلامه ، فلا يُشاهد فيه الباقد أثر التمثل ، بل لا يكتف بهر إرسال النفس على صحتها ، فهو وأبن المقفع والجاحظ على عِراير واحد .

وقيل إن سهلا كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوس . وكان كلامه نعمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رثيا بعد أن ملكك عليك مشاعرك ، لا تجعل بالأصباح إلا إذا جاءت عفو الخاطر ، شأن لعل الصديق الأول . وكان قول السعروا أكثر شعره مما أملاه قلبه ، فى عرض من أعراس المجتمع . وعده الجاحظ من الخطاء والسعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الجار المجلدة ، والسير الحسن المولدة ، والأخبار المدونة . ولقبه مرة الكاتب ، ولعل لقب الكاتب فى شرفه أكبر من عالم . وذكره أبى النديم فى البلاد وقال إنه شاعر مُقل ، وعده فى الشعراء الكتاب . وقال إنه كان ممن يعمل الأتمار والحرفات على أنيسه الناس والطير والبهائم هو وعد الله بن المقفع وعلى بن داود كاتب ربيده . وشعره خمسون ورقة . أما الدهشة هى تأليهه ، فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (أسابوس) فى اتحاد الإخوان ، كتاب أسد بن أسد ، كتاب تحفة العقل ، كتاب تدير الملك والسياسة ، كتاب الى عيسى بن أبان

في القضاء، كتاب الفرس، كتاب الفزاليين، كتاب ندود وودود ولئود، كتاب الرياض، كتاب ثعلبة وعمرء، (و في رواية ثعلبة وعفره) على مثال كتاب كَلِيلَة وَدِيمَة، قلّده في أبوابه وأمثاله .

وقال المسعودي : يزيد عليه أى على كَلِيلَة وَدِيمَة في حسن تعلّمه وقد صنّفه لأُمون .
ومن تأليفه : كتاب الهزلية والمحرومى ، كتاب الوامق والعدراء الى غير ذلك من المصنّفات التي لم تُبقِ الأيام وبالأأسف على واحد منها فيما علمنا .

دخل سهلٌ على الرشيد وهو يُصاحك المأمون، فقال : اللهم زِدْهُ من الخيرات، وأبسط له من البركات، حتى يكون في كلّ يوم من أيامه مُرَبِّياً على أمسه، مُقْصِراً عن عَدِه، فقال الرشيد . يا سهلُ، مَنْ رَوَى من الشعر أحسنه وأرصفه ، ومن الحديث أفصحه وأوصله، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القولُ ؟ فقال سهل : يا أمير المؤمنين، ما طُست أن أحداً تقدّمنى الى هذا المعنى، قال بل أعنى همدان حيث يقول :

رَأَيْتُكَ أَمِيسَ حَيْرَ بَى لَوْى * وَأَنْتَ الْيَوْمَ حَيْرٌ مَكَ أَمِيسَ

وَأَنْتَ عَدَا تَزِيدَ الْحَيْرَ صَعَمًا / كَذَاكَ تَزِيدَ سَادَةَ عَبْدَ شَمْسٍ

وقد شهّد مقتل الرامكة في سنة ١٨٧ هـ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال : إِنَّ تَجَاعَى الحُطْبِ ، وَتَحَرَى العَرِيصِ عِيَالٌ على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى، ولو كان كلامٌ بَتَّصُورُ دُرّاً ، وَيُجِلُّهُ المَنَاطِقُ السَّيْرَى جَوْهَرًا ، لكان كلامهما، وأُتِنَتْنِ من لفظهما، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في دينيته وتوقيماته في كُنْهه، فَتَمِيسَ عَيْبِ، وبجاهلين آميين، ولقد عُمِرَتْ معهم، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يروُن أن البلاغة لم تُستكمل الا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهم، ولا آفادت الا لهم، وأنهم مَحْصُ الأمام، ولِبَاب الكِرَام، ومُلُح الأيام، عَشَقُ مطرٍ، وجوده محبّر، وَجَرَالَةُ مَنَاطِقَ، وسهولة لفظ، وزهادة نفس، وأكتمال خصال، حتى لو طارت الدنيا بقليل أيامهم، والمناوير

من حصّالهم، كثير أيام من سواهم من لئذ آدم أيهم الى التبع في الصور، وأتعات أهل القصور، حاشا أنبياء الله المكرمين، وأهل وحيه المرسلين، لما هات إلابهم، ولا عولت في الفجر إلا عليهم، ولقد كانوا مع هذب أخلاقهم، وكرم أعرافهم، وسعة آفاقهم، ورفق ميثاقهم، ومعسول مذاقهم، وبهاء إشراقهم، وقاوة أعراصهم، وهذب أعراصهم، وأكتمال حلال الخير فيهم، الى ملء الأرض مثلهم في حب محاسن المأمون كالتعنه (التعلة) في البحر، والحدلة في المهمة الفقر.

قيل : وهذا الكلام على ما فيه من حقيقة في ساد سمايا البرامكة والرشيد والمأمون لم يحتم بالصفة الحقه، ومال به سهل الى المصاحه، وحرّجه على نحو ماله القرس، في الإطراد والملاقى لولى الأمر.

وروى بعض الرواه أن المأمون كان استقل سهل بن هارون، وقد دخل عليه يوما والناس على مراتهم، فتكلم للمأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب، فلما قرع من كلامه أقبل سهل بن هارون على الخنع هال مالكم سمعون ولا سمون، وشاهدون ولا تفقهون، وهمون ولا تسمعون، ونسمعون ولا تسمعون، والله إنه ليقول ويعمل في اليوم القصير ما فعل سمرقند في الدهر الطويل، عرّكم كجمكم، وعجمكم كسيدكم، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يسر بالداء. فرجع المأمون فيه الى الرأي الأول، وعرف أنه الرجل كل الرجل، فقرّبه وأدامه على النحو الذي كان عليه في عهد والده.

ومن كلام له في كتابه ثعلبة وعمره :

”اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدّما هل الذي يحودون به من تفصيلكم، فإنّ تقديم الباطلة مع الإبطاء في الفريضة شاهد على وهن العقيدة، وتقصير الروية، ومُصّرٌ بالتدبير، ومحلٌ بالاختيار، وليس في مع محمد به عوض من فساد المروعة، ولروم القبيصة“.

وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :
 عَدُوُّ بِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَسُوهُ ٢ مَنُوعٌ إِذَا مَا مَنَعُهُ كَانَ أَهْرَمًا
 مُدَلِّلٌ نَفْسٍ قَدْ أَبَتْ عَيْرَ أَنْ تَرَى * مَكَارِهِ مَا تَأْتِي مِنَ الْعَيْشِ مَعْنَا
 وكتب الى صديق له أنل من صعب :

” بلغني خبر الفتره في الماسما وأحسارها ، والشكاه في حلولها وأرتحالها ، فكاد يشغل
 القلن بأوله عى السكون لآخره ، وينقل الحيره في آسدهائه ، عى المسرة في آتهائه ، وكان
 تغيرى في الحالين بقدرهما آرتياغاً للأولى ، وآرتياحاً للآخري “ .



وكتب الى الحل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وحملكم من أهله . قال الأحف بن قيس :
 يا معشبر بن نعيم ، لا تُسرِعوا الى الفتنه فإن أسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من العرار .
 وقد كانوا يقولون : اذا أردت أن ترى العيوب بحمّه تأمل عيائاً فإنه إما يعيب الناس
 بفصل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن يعيب ما ليس يعيب . وقبيح أن تنهى
 مُرشدًا وأن تُغري بمُشفي . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإصلاح فاسدكم ،
 وإبقاء السعة عليكم . وما أخطأنا سبيل حُسْنِ البية فيما بيننا وبينكم . وقد تعلّمون
 أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأهسا قلدكم ، وشُهِرنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول
 في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَحَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
 إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ فما كان أحقاً
 مسكم في حرمتنا بكم أن ترتعوا حقّ قصديا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ،
 فلا العذر المسووط بلفتم ولا بواجب الحرمة فتم . ولو كان ذكر العيوب يُرادُ به نحرُ رأيا
 في أنفسنا من ذلك شغلا .

عَبْتُمُونِي قَوْلِي خُلَادِي : أَجِيدِي الْعَمِينَ فَهُوَ أَطْلَبُ لَطْعَمِهِ وَأَزِيدُ فِي رِيْعِهِ ^(١) . وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمْلِكُوا الْعَمِينَ فَإِنَّهُ أَحَدُ الرَّعِينِ ^(٢) .

وَعَبْتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ عَلَى مَا فِيهِ شَيْءٌ تَمَيَّنَ مِنْ فَائِكِهِ رَطْلِيَّةٌ بَقِيَّةٌ وَمِنْ رَطْلَةٍ غَرِيْبَةٍ عَلَى عَبْدِ سَيْمٍ وَصَبَى حَنِيعٌ وَأُمِّي لَكَهَاءٌ وَزَوْجَةٌ مُصِيبَةٍ ^(٣) .

وَعَبْتُمُونِي بِالْحَتَمِ وَقَدْ خَتَمَ مَعْصُ الْأَيْمَةِ عَلَى مِرْزُودِ سَوِيْقٍ ^(٤) وَعَلَى كَيْسِ فَارِعَ . وَقَالَ : طِبِيَّةٌ خَبِرَ مِنْ طَبِيَّةٍ ، فَاسْكُتُمْ عَنْ خَتَمٍ عَلَى لَاشِيءٍ وَعِثْمٌ مِنْ خَتَمٍ عَلَى شَيْءٍ .

وَعَبْتُمُونِي أَنْ فُلْتُ لِلْفَلَاحِ : إِذَا زِدَتْ فِي الْمَرْقِ مَرْدٌ فِي الْإِسْصَاحِ لِيَجْتَمَعَ مَعَ التَّأْدِيمِ بِالْقَلَمِ طِبُّ الْمَرْقِ .

وَعَبْتُمُونِي بِمُخَصَّفِ النَّعْلِ وَبِتَصْدِيرِ الْقَمِيصِ وَحِينَ زَعَمْتُ أَنَّ الْمُخَصُّوفَةَ مِنَ النَّعْلِ أُنْقِىَ وَأَقْوَى وَأَشَدُّ نَالَشَةً وَأَنَّ التَّرْقِيْعَ مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّعْرِيطَ مِنَ التَّصْبِيْعِ . وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيُرْقِعُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : لَوْ أَهْدَى إِلَى ذِرَاعٍ لَقَبِلْتُ ، وَلَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاجٍ لَأَجَبْتُ . وَقَالَتِ الْحَكَمَاءُ : لَا حَدِيدَ لِمَنْ لَمْ يَلْبَسِ الْخَلْقَ . وَبَعَثَ زِيَادُ بْنُ جُلَاجٍ يَرْتَادُ لَهُ مُحَدَّثًا وَأَشْطَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عَاقِلًا فَأَتَاهُ بِهِ مُوَافِقًا فَقَالَ لَهُ : أَكُنْتُ بِهِ دَا مَعْرِفَةٍ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي يَوْمٍ قَانَطَ يَلْبَسُ حَلَقًا وَيَلْبَسُ النَّاسُ حَدِيدًا ، فَتَمَرَّسْتُ فِيهِ الْعَقْلَ وَالْأَدَبَ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْخَلْقَ فِي مَوْضِعِهِ مِثْلُ الْجَنِيدِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَسَمًا بِهِ مَوْضِعًا كَمَا جَعَلَ لِكُلِّ زَمَانٍ رَجَالًا وَلِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا . وَقَدْ أَحْبَبَا اللَّهُ بِالسَّيِّئِ وَأَمَاتَ بِالْإِدْوَاءِ وَأَخْصَسَ بِالْمَاءِ . وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْإِسْلَاحَ أَحَدُ الْكَاسِيْنَ كَمَا زَعَمُوا أَنَّ قِلَّةَ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِيْنَ . وَقَدْ خَبَرَ الْأَحْمَفُ بْنُ قَيْسٍ يَدْعُو عَزْرَ وَأَمْرَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ

(١) الرِّيعُ : الماءُ والريادة . (٢) إِمْلِكُ السَّيِّئَ : إِمَامُ عَمِهِ . (٣) الْكَمَاءُ : الْخَمَاءُ .

(٤) الْمِرْدُ : وَهَاءُ الزَّادِ . وَالسَّوِيْقُ : طَعَامٌ يَتَّخَذُ مِنَ الْحَبَّةِ أَوْ الشَّعِيرِ . (٥) عَمَّ الْعَمَلُ : خَرَزَهَا .

(٦) تَصْدِيرُ الْقَمِيصِ : أَنْ يَجْعَلَ لَصَدْرِهِ بَطَانَةً .

يَفْرَكَ النَّعْلَ . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من أكل بَيْصَةً فقد أكل دَبَاجَةً .
وليس سالم بن عبد الله حِلْدُ أَمْحِيَةٍ . وقال رجل لعص الحكاء : أريد أن أهدى إليك
دَحَاحَةً . فقال : إن كان لابد فاجعلها بَيُوضًا .

وعبتمونى حين قلتُ : من لم يعرف مواضع السَّرَفِ فى الموجود الرخيص لم يصرف
مواضع الاقتصاد فى المُنْتَجِ الغالى . ولعدُّ أُنَيْتُ مَاءَ اللُوصِءِ على ملح الكِمْيَاةِ وَأَشَدُّ من
الكِمْيَاةِ ، فلما صرت الى تفريق أجزائه على الأعضاء الى التوفير عليها من وَضِيعَةِ الْمَاءِ^(١)
وحدثُ فى الأعضاء فَصْلاً عَنِ الْمَاءِ ، فعلمتُ أن لو كُنْتُ سَلَكْتُ الاقتصادَ فى أوائله
لخرج آخرُه على كِفاية أوْلهِ . ولكان نصيبُ الأوَّلِ كصيب الآخرِ ، فعبتمونى بذلك وشعتم
على ؛ وقد قال الحسن ودَكَرَ السَّرَفَ : أما إنه ليَكُونُ فى الماءِ والكَلَالِ فلم يَرْضَ بذكر
الماءِ حتى أردفه الكَلَالَ .

وعبتمونى أن قلتُ : لا يَفْتَرِّقُ أَحَدُكُمْ بطول عمره وتَقْوِيَسَ ظَهْرِهِ وَرِقَّةَ عَظْمِهِ وَوَهْنِ
قُوَّتِهِ وَأَن يَرى نحوه أَكْثَرَ دُرِّيَّتِهِ ، فيدعوه ذلك الى إخراج ماله من يده وتحويله الى مِلْكِ
غيره والى تحكيم السَّرَفِ فيه وتسليط الشهوات عليه ، فلمله يكون مُعْمِراً وهو لا يدري ،
ومعدوداً له فى السنِّ وهو لا يَشْعُرُ ، ولعله أن يُرَوِّى الولدَ على اليأسِ ويَتَحَدَّثُ عليه من آفات
الدهرِ ما لا يَحْطُرُ على نال ولا يُدْرِكُه عملٌ ، فيستزده ممن لا يرده ويُظْهِرُ الشكوى الى من
لا يرحمه أَضْعَفَ ما كان عليه الطَّلَبُ وأقبح ما كان به أن يَطْلُبَ ، فعبتمونى بذلك ،
وقد قال عمرو بن العاص : ” اَعْمَلْ لَدُنْيَاكَ كَأَمَلِكَ تَمِيشَ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ
تَمُوتُ غَدًا “ .

وعبتمونى بأب قلتُ . ما أن السَّرَفَ والتدبير الى مال الموارِيثِ وأموال الملوك وأت
الحفظ لِمَالِ المَكْتَسَبِ والغنى المحتلِبِ والى من لا يُعَرِّضُ فيه بذهاب الدين وأهتصام
العرضِ ونَصَبِ البدنِ واهتمام القلبِ أَمْرُغُ ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دَحْلَهُ

ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل . ومن لم يعرف للغي قدره فقد أودن بالفقر وطاب نفسا بالذل .

وعثمونى بأن قلت : إن كَسْب الحلال يصمى الإهاى فى الحلال . وإن الخبيث يَنزَع الى الخبيث ، وإن الطيب يدعو الى الطيب ، وإن الإساءة فى الهوى يحجب دون الهدى ، فعبتم على هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرتبديرا قط إلا والى جنبه حق مُصِيج . وقد قال الحسن . إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله فاظنوا بماذا يُفِيقه فإن الحديث إما يُتَقى والسرف . وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر منى لكم وأنتم فى دار الآفات ، والجوانح غير مأمونات : فإن أحاطت بآل أحدكم آفة لم يرجع إلا الى نفسه . فاحذروا الثَمِّ باختلاف الأمكنة فإن الليّة لا تجرى فى الجميع إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى التَّسَد والأمة والشاة والمير : فَرَّقُوا بين المسايا . وقال أس سِيرِين لعص السَّحَرِيَّين كيف تَصْصَعُونَ أموالكم ؟ قالوا : هَوَّجْهَا فى الشُّرِّ فإن عَطِبَ بعضُ سَلَمِ بعض . ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أهوالنا فى البحر . قال أس سِيرِين : ” نَحْسَهَا خَرْقَاءَ وَهِيَ صَّاعٌ ” .

وعثمونى بأن قلت لكم عد إشتاقى عليكم : إن للغنى لَسْكَرًا وللإل لَمَرَّةً^(٢) من لم يحفظ العى من سكره فقد أصاعه ، ومن لم يربط المال لحوف الفقر فقد أهمله .

فعثمونى بذلك وقد قال ردى حَلَّه ليس أحد أقصر عقلا من عى أمين الفقر ، وُسْكَرُ الغنى أكثر من سكر الخمر . وقد قال الشاعر فى يحيى بن خالد بن برمك :
وَهُوَ بُ تِلَادِ الْمَالِ فِيمَا يَبُوبُهُ : مُسَوِّعٌ إِذَا مَا مَتَّعَهُ كَانَ أَحْرَمًا

وعثمونى حين رعثمى أنى أقدم المال على العلم ، لأن المال به يُعَاد العلم وبه تقوم النفس قبل أن تُعَرِّف فصل العلم ، فهو أصل والأصل أحق بالتصصيل من الفرع ، فقلتم .

(١) هذا مثل يصرب لى تظن به الظفة وهو على خط . (٢) البرقة : الثرة أو الرتبة .

كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأعياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : وما مال العلماء يأتون أبواب الأعياء أكثر ما يأتى الأعياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفصل المال وجهل الأعياء بمحق العلم . فقلت : حالهما هي القاصية بينهما . وكيف يستوى شيء حاحه العامة اليه وشيء يقتنى فيه معصم عن معص .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأعياء بالتحاد القم والمقرء بالتحاد الدحاح . وقال أبو بكر رضى الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يقيمون فقه الأيام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلى يقول لولده : إذا بسط الله لك الرزق فابسط وإذا قص فاقص .

وعبتموني حين قلت : فضل الفنى على القوت إنما هو كمفصل الالة تكون في البيت إذا أحتيج إليها استعملت وإن استغني عنها كانت عدة . وقد قال الحصين بن المدر : ويدت أن لى مثل أحد تها لا أسمع منه شيء . قيل له : فما كنت تضع به ؟ قال . لكثرة من كان يمدمنى عليه لأن المال معدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب المعنى ولو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك ودل في قلب عدوك لكان الخط فيه حسيما والعمع فيه عظيما .

ولسا بدع سيرة الأبناء وتعلم الخلفاء وتادست الحكماء لأصحاب اللهو ؛ ولستم على تزدون ولا رأي تهمدون ، هدموا الطر قبل العرم وأذكروا مالكم قبل أن تذكروا مالكم . والسلام عليكم .

وسهل هو القائل :

تقسمي همار قد كسفا بالى * وقد تركا قلبي محلة ليل
 همار أدريا قمى ولم تدرى عبرى * رهيه حد دات سبط وحلال
 ولا قهوة لم يبق منها سوى الذى * على أن تحاكي النور في رأس ذيل

تَحُلُّ مِنْهَا حُرْمُهَا وَمَا سَكَنَتْ * لَهَا نَفْسٌ مَعْدُومٌ عَلَى الزَّمَنِ انْقِلَابِ
 وَلَكِنَّا أَنْبَى سَعِيدٍ تَحِيَّهِ * عَلَى حَدِيثِ تَبَيَّنِي لَهُ عَيْنُ أَمْثَالِ
 فِرَاقُ حَلِيلٍ لَا يَقُومُ بِهِ الْأَمَى * وَخَلَّةُ حُرٍّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِ
 فَوَاحِشْرَقِ حَقِّ مَتَى الْفَلْهُ مُوَحَّجٌ * لِقَرِّ حَلِيلٍ أَوْ تَعَدُّرِ إِفْضَالِ
 وَمَا الْعَصْلُ إِلَّا أَنْ تَحُودَ بِمَائِلٍ * وَإِلَّا لِقَاءُ الْخِلِّ ذِي الْحُلُقِ الْعَالِي

وهو القائل :

إِذَا أَسْرُوْهُ صَاقَ عَنِّي لَمْ يَصُقْ حُلُقِي * مِنْ أَنْ يَرَانِي عَيًّا عِثَ مَا لَيْسَ
 لَا أَطْلُبُ الْمَالَ كِي أُغْنِيَ بِقَصَلَتِهِ * مَا كَانَ مَطْلَبُهُ فَقْرًا مِّنَ الْبَاسِ

(ز) عمرو بن مسعدة ^(١)

كان كاتباً بليفاً، جَرَلَ العارة وحيزها، سديد المقاصد، فصله شائع، ونُسْله ذائع، أشهر من أن يُنْبَه عليه، أو يُدَلَّ بالوصف إليه؛ قد ولى للأمون الأعمال الجليلة، وألحق ببنوي المواليب البليلة. وسماه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً، وهو قوله:

لقد أسعد الله الوزير بن مسعدة * وبُثَّ له في الساس شكرٌ ومحمد

(١) هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول بن صول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكاتب ملك وأخوه عمرو بن حرحان ونحسا بعد التركة وقتها بالفرس .

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال ظهرت كفايته وولائه، وبالبلاعة توصل إلى الخليفة عبد أحد أمراء فلائق في رسالته، قال أحد بن يوسف الكاتب: دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويصعد فيه ويصوب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إلى وقال: يا أحد أراك معكراً بما تراه مني، قلت نعم، فقال إن في هذا الكتاب كلاماً طريحاً سمعت الرشيد يقول في البلاعة، رجم أن البلاعة إنما هي التناهد عن الاطالة، والتقرب من معنى النية، والدلالة بالقليل من العطف، على الكثير من المعنى، وما كنت أقوم أن أحداً يقدر على ذلك. وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة ألياً، فكيفه فاداً فيه . « تكافى إلى أمير المؤمنين، ومن قبل من قواده، ورؤساء أحماده، في الاضياد والطاعة، على أحسن ما تكون طاعة أحد تأخرت أزرافهم، وأضياد كفاة تراحت أعطيائهم، فاحتلت لذلك أحوالهم، والثالث معه أمورهم ». فلما قرأه قال: إن استحساني إليك يعني أن أمرت لحد قلبه فأعطيائهم لمدة أشهر، وأنا على محاربة الكاتب عما يستحقه من حل محله في صاعته . وفي رواية أن المأمون أمر لعمروس مسعدة بزرق ثمانية أشهر وأنه قال لأحد بن يوسف: لله در عمرو ما ألهه! ألا ترى إلى إدماحه المسألة في الأحبار، وإصاهاه سلطاناً من الآثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكيته أو الفصل أيضاً أحرار الوحة، وكان المأمون يسميه الزمى لياض وجهه وكان يحبب وتوفى بأدنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم يصر مشأه ومولده وأسايدته وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إحوة أدنة أحسن أحوهم — وكان كاتباً أيضاً — تربيتهم كل الإحسان حتى حانت من أحدهم هذه البلاعة النادرة التي كان من أثرها أن أصبح شاعر المأمون، وكان هو أبو عاد ثالث بن يحيى يكنى بن يديه ويحصلون معه ويمازحانه . ولكن يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونهم يجب أن يطوى على صفات طالية يرميها في الأفران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة: كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي مرع إليه كتابه ورقة يستردوه في روايتهم فرى بها إلى وقال: أجب عنها مكتنت: « قليل دائم خير من كثير مقطع » صر بیده على طهری وقال: =

فهو كما كتبت الحسن رُسهل الى محمد بن سَمَاعَةَ القاصي وقد احتاج الى رحلي يُوَلِّيهِ
مَعَصُ الأَعمال فقال . إنه يريد رحلا حاملا لخصال الخير، ذا عِفَّةٍ ونزاهة طِعمة، قد هدَّته
الأَداب، وأحكته الثعالب، ليس ظلي في رأيه، ولا يطمعون في حَسْبِهِ إن أُوْتِمِسَ على
الأَسرار قام بها، وإن قُلِدَ مُهِمًّا من الأمور أجزأ فيه، له سُنُّ مع أدب ولسان، تُعَقِّدُهُ
الرَّزَاة، وَيَسْكُنُهُ الحلم، قد فُرس دكاه وِفْطَةً، وعص على قارحه من الكمال، تكفيه
المُحْطَةُ، وتُرْشِدُهُ السكينة، قد أصر خدمة الملوك وأحكماها، وقام في أمور عُمد فيها، له
أَمَانَةُ الوزراء، وصَوْلَةُ الأُمراء، وتواضع العلماء، وفهمُ الفقهاء، وحوابُ الحكماء، لا يَبِيعُ
بصِيبِ يومه محرمان عده، يكاد يَسْتَرِقُّ قلوبَ الرِّحال بِمِلاوة لسانه، وحُسنِ بيانه، دلائلُ
المُضِلِّ عليه لائحةٌ، وأماراتُ العلم له شاهدةٌ، مُصْطَلِماً بما استهنض، مُسْتَقِلًّا بما حل .

= أرى دور في ذلك . وقد شهد لعمر بن مسعدة باللاة أعيان البان في عصره وبهم الفصل ر سهل فقال فيه .
إنه ألع الناس، ومن بلاعته أن كل أحد اذا سمع كلامه طرأ به يكتب مثله فاذا راعه بعد طيه . وهذا كما قيل لأحد
العلماء ما حد باللاة قال التي اذا سمعها الحاهل طرأ به يقدو على مثليها، فاذا راعها استصمت عليه .
ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص وأورد مسألة في التاليف، وعده أس البديع في الشعراء النخاء
ولم يذكر إلا أنه ولأخيه محاشع حميس ورقة من الشعر وهي من الصانع أيضا . والغالب أن مهام الدولة
لم تترك له وقتا يصرفه في درس خاص، أو وضع نخب أو رسالة وما تفتقه العلماء والأدباء من كلامه،
فهو مما صدر عنه بالمنااسات، ورواه له المحضون به، وما أعلم المفقود منه . والمطلوب أن لو كانت حمت
له رسالته على إبحارها لكان بها ديوان كبير، لأن من صرف أحوالا طويلة وهو قاص على براعه يبالغ بها
الموضوعات السياسية والادارية في ذلك المتمع السليم لا شك أنه محتج له صمحات كثيرة مهما كان مقلدا
معروفا بالانحار . من محاصرة الأستاذ الباحث محمد كرد علي شرها مجلة المجمع العلمي العربي . وفي عمرو بن
مسعدة قال محمد البديق وقد احتل :

قالوا أو الفصل معتل غفلت لهم * هسي الهداء له من كل محذور

يا ليت غفسي غير أنف له * أحر الطيل وإني غير مأحور

وتحدثت حمتي في صمم الأدباء لياقوت (ج ٦ ص ٨٨) وأبو حلكان (ج ١ ص ٥٥٥) والواقي بالوفيات
لصمدي (ج ٥ ص ٥٠٢) قسم ثالث من الأصل المتورع في المخطوط بدار الكتب المصرية) .

(١) في الأساس : ومن المجاز طلاب طب الطعمة وحيث الطعمة (بالكسر) وهي الجهة التي بها يرتق
(يوزن الحرفة) . (٢) أجزأني كذا : كفاي . (٣) فرعن دكاه، وِفْطَةً، أي جرب واختبر
فيها . (٤) وعص على قارحه، تخاية من بلوه درجة الكمال .

ومن كلام عمرو بن مسعدة :

أعظم الناس أجراً ، وأنبهم دكراً ، من لم يرخص بموت العدل في دولته ، وطهور المحبة في سلطانه ، وإيصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه ، وبعد وفاته واقراصه .

وقال . الخطّ صورُ الكُتُبِ تُردُّ اليها أرواحُها .

وقال . الخطّ صورةٌ صليّةٌ لها معانٍ حليلة ، وربما صاق عن العيون ، وقد ملأ احتطار السون .

وقال لا تستصح من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائده عليه ، ومن كانت عايته الاحتياال على مالك وإطرامك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا ردىء العيب ، سريعاً الى الدم .

وكتب الى الحسن بن مهمل :

أما بعد ، فإنك متى اذا عرّس سقى ، وادا أسس سقى ، ليستم تشييد أسسه ، ويحتفي ثمار عرّسه ، وناولك عدى قد شارف الدروس ، وعرسك مشف على اليوس ، فتدارك بهاء ما أسست ، وسقى ما عرّست إن شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه :

أما بعد ، فوصل كالى اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُذِبروني عن سالم وأديرهم * وحلده بين العس والأف سالم

أى يحل منى هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشع له بالزياده في مدرسته وجعل كتابه

مريضاً :

أما بعد ، فقد استشفع بى فلان يا أمير المؤمنين لتطورك على ، في إلحاقه سطرانه من

الخاصة فيما يبرقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يحلنى في مراتب المستشعمين ، وفي ابتدائه بلك تعدى طاعته والسلام .

فكتب اليه المأمون : "قد عرفنا توطئتَكَ له ، وتمريضَكَ لنفسك ، وأجبتاك اليهما ، ووافقاك عليهما" . وقوله : "إن أمير المؤمنين لم يعمل في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه ذلك تعدى طاعته" : من الكلام السري الذي يل على مبلع أدب عمرو ومُعيد غوره في السياسة ووقوفه على رُوح عصره ونفسية الخلفاء .

فَدِمَ رَحْلَ من أبناء دَهَاقِينَ قريش ، على المأمون لِعِدَّة سلفت مِسه ، فطال على الرحل اسطارُ خروح أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوَصَّلْ مني رُقعةً الى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك على نعمتان . فكتب : "إن رأى أمير المؤمنين أن يَكُ أسَرَّ عبيده من رِقعة المَطل بقضاء حاجته ، أو يَأْذَنَ له بالانصراف الى بلده فعل إن شاء الله" .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمروا فجعل يعجب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتُها ما أمير المؤمنين ؟ قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فصلُ استحساننا كلامه ، وبخاترة مائة ألف درهم ، صِلَّةً عن دناءه المَطل . وتماجية الإفعال .

وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه باللاعة وقدره أهلها حتى قدَّروا ، دَع ما هنالك من عيس ما أحبت إلا الجود والعطاء .

ومن حِكَم عمرو بن مسعدة :

الصودية صودية الإحاء . لا عبودية الرق . الوء أعطف من الرِّحم . إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرءاء ، وعُدَّة للبلاء . مثل الإخوان مثل النار ، قليلها متاع ، وكثيرها نوار . النفس بالصدق ، آنس منها بالعشيق ، وعزل المودة ، أرق من عزل الصباية . من حقوق المودة ، عفو الإخوان ، والإغضاء عن نقصير إن كان . ذكر رجل رجلا فقال : حسبك أنه حلق كما تستهي إخوانه . المودة قرابة

(١) الدهاقين : الرعاء . أرباب الأملاك بالسواد ، وأحدهم دهقاق (بكر الدال مزوب) .

مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما أو فضل أحدهما . أسرع الأشياء
 انقطاع موده الأشرار . المحروم من حريم صالحى الإحوان . لقاء الخليل شعاء الفيلس .
 قلة الرأية ، أمان من اللالة . إخوان السوء كشجر النار يحرق معصه عصا . علامه الصديق
 اذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ، ولا يتندى بالكاب . لا يسدك الطن على صديق
 قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأئس ، أثمرت مودته
 ندما . اذا قدمت الحزمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من
 باطل الحمد . ما أكثر من يُعاتب لطلب علة ، ويبقى الأود ما بقى العتاب . كُون الحقد
 فى العُود ككُون النار فى الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمن
 عدوك وإن كان مقهورا ، واحذر وإن كان معقودا ، وإن حذ السيف فيه وإن كان معمودا
 لا نعرض لعدوك فى دولته ، وإنما اذا زالت كفتك مؤونته . نصيح الصديق تأديب ، ونصح
 العدو تأيب .

روى الشيخ قال : أحبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوما وقد حرج من
 باب البُسان بمداد فصاح به رجل نصيرى يا أمير المؤمنين إني تزوجت امرأة من
 آل رباد وإن أما الرازى فزنى بيها وقال : هى امرأه من قريش ؟ قال : فأمر عمرو بن
 مسعدة فكسب الى أبى الرازى .

إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وحلّك إياها إذ كان من قريش . ففى
 محاكمتك اليك العرب ؟ لا أتم لك فى أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يابى الحياء بأن تلصق
 بها من ليس منها ؟ نخل بين الرجل وامرأته ، طش كان زياد من قريش ، إنه لأبى سُميَّة
 نبي عاهره ، لا يمتحر ، بقرابتها ولا يتطاول بولادتها . ولئن كان أبى عبيد ، لقد باء بأمر
 عظيم ، ادأدى الى غير أبيه ، لخط تَعَجُّله ، ومُلْك قهره .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرحل به عناية الى بعض النُبال فى قضاء
 حقه ، وأن يتنصر كتابه ما أمكنه ، حتى يكون ما يكتب به فى سطر واحد ، لا زيادة عليه .
 فكسب عمرو :

كاتبى اليك كتابً واتي بمن كتب اليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة
والعناية حامله .

وكتب الى بعض الرؤساء ، وقد تزوجت أمه مساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس
نسل بها ، وذهب عنه ما كان يحده . وقيل : إن هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهى :

الحمد لله الذى كشف عا ستر الحيرة ، وهذانا لستر الموره . وجَدَعَ بما شَرَعَ من
الحلال أُنْفَ العيرة ، ومَعَ مَن عَصَلَ الأمهات ، كما مَعَ من وأد البات ، استنزالا للعوس
الأبنة ، عى الحجة حجة الجاهلية ، ثم عَرَّصَ لجريل الأجر ، مَن استسلم لواقع قصائده ،
وعَوَّضَ حليل الدحر مَن صر على نازل بلائه ، وهَاكَ الذى نرح للثقوى صدرك ، ووسع
فى السلى صبرك ، وألمحك من التسليم لمسيئته ، والرَّصا بقصيته ، ما وفقك له من قضاء
الواحد فى أحد أَوْنِك ، ومَن عَطَمَ حقّه عليك ، وجعل الله تعالى حُدّه ما تحوَّعته من
أُنْفَ ، وكفلمته من أُنْفَ ، معدودا فيما يُعْطَمُ به أجرك ، ويميزل عليه دُخْرُك ، وقَرَنَ
بالخاصر من امتصاصك فعلها ، المُتَطَرِّفَ من ارتصاصك بدفنها ، فتستوى بها المصيبة ، وتُسَكِّلُ
عها المثوبة ، فوصل الله لسيدى ما استشعره من الصبر على عُرسها ، بما يكتسبه من الصبر
على سبها ، وعوضه من أيسره فرشها ، أعواد بعثها ، وجعل تعالى حُدّه ما يُنْجَمُ به عليه بعدها
من نعمة ، مَعْرَى من قمة ، وما يوليه بعد قبصها من مِنَحِه ، مُبْرَأً من عَجْدِه ، فأحكام
الله تعالى حُدّه ، وتقدست أسمائه ، جاريه على غير مُراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لمباده
المؤمنين ما هو خير لهم فى العاجلة ، وأبقى لهم فى الآجلة ، احتار الله لك فى قبصها اليه ،
وهدومها عليه ، ما هو أنفع لها ، وأولى بها ، وجعل القبر ، كُفْؤاً لها والسلام .

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الذى ناظر بشر بن عياث المريسي بمصرة أمير المؤمنين
فى مسألة خلق القرآن :

جاءنى خليفة عمرو بن مسعدة ومعه جمْعٌ من الرُسلان والزُجالة لِحْمَانِي مُكْرَماً على دابته
حتى صار الى باب أمير المؤمنين فأوقفنى حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل بغلس فى مُجرته

التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صيرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : أنت مقيم على ما كنت عليه أو قد رحمت عنه ؟ فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازدادت بتوفيق الله تعالى إياي بصيرة و أمري ؛ فقال لي عمرو بن مسعدة : أيها الرجل ، قد حملت نفسك على أمر عظيم ، و لفت العاية و مكروها ، و تعزمت لما لا قيام لك به و مخالفة أمير المؤمنين ، و ادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك ، وليس ورامك بعد المحنة عليك إلا السيف ، فانظر لنفسك و ادر أمرك ، قل أن تقع المناطرة و تظهر عليك المحنة ، فلا تنفك الدامة ولا يقل منك معدرة ولا تقال لك عثرة ، قد رحمتك و أشفقت عليك مما هو أزل بك ، و أما أستقبل لك أمير المؤمنين و أسأله الصصح عس جرمك ، و عظيم ما كان منك اذا أظهرت الرجوع عه و الندم على ما كان ، و آخذ لك الأمان منه و الجائزة ، فان كاتب لك طلامة أرلتها عك و ادكأت لك حاجة قصبتها لك ، فاما جلست رحمة لك مما هو أزل لك بعد ساعة إن أقتت على ما أنت عليه و رجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

شعره :

نقلنا أمثلة قليلة من ثمر عمرو بن مسعدة ، أما شعره فقليل جدا . ذكر المترجون له أنه كان له فرس أدهم أحر ، لم يكن لأحد مثله فراحة و حسا . بلغ المأمون حره ، و لمع عمرو ابن مسعدة ذلك . يخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه تحمة ، فوجه به إليه هدية و كتب معه :

يا إماما لا يُدَا . نبيه اذا عد إمام
فصل الناس كما يف . فصل تقصا ما تمام
قد تشا يحواد * مثله ليس يرأ
فرس يزهي به لا * حسن سرج و لحام
دونه الخليل كما مث * ملك في الفصل الأمام

وَجْهَهُ صُبْحٌ وَلَكِنْ سَاثِرَ الْجَسْمِ ظِلَامٌ
وَالَّذِي يَصْلُحُ لَلْو * لَيْ عَلَى الْمَسِدِ حَرَامٌ

وعمره هو القائل :

وَمُسْتَعِيبٌ لِلْهَجْرِ وَالْوَصْلِ أَعْدْتُ * أَكَاثِمُهُ حُتَّى قَيْنَائِي وَأَقْرَبْتُ
إِذَا جَدْتُ مَنِي بِالرَّصَا حَادٍ بِالْجَلَا * وَيَزْعُمُ أَنَّ مُذْنِبٌ وَهُوَ أَذْنِبُ
تَعَلَّمْتُ أَلْوَانَ الرِّصَا خَوْفَ غَيْرِهِ * وَعَلِمَهُ حُتَّى لَهُ كَيْفَ يَنْقُصُ
وَلِي غَيْرُ وَحْدِهِ قَدْ عَرَفْتُ طَرِيقَهُ * وَلَكِنْ مَلَأَ قَلْبِي إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ

ووقع مرة في طهر رُقعة لرحل :

أَعِزَّزْتُ عَلَى نَامِي أَنْتَ طَالِبُهُ * لَمْ يُمْكِنِ التُّخُّعُ فِيهِ وَأَقْصَى أَمْدُهُ

ولعمرو س مسعدة حكايات منها ما حكاها القاضي التنوخي في كتاب الفرج مد الشدة :
قال عمرو بن مسعدة : كنت مع المأمون عند قدومه من بلاد الروم حتى إذا نزلت الرُقعة
قال : يا عمرو، ما ترى الرَّجِيحِي قد احتوى على الأَهْوَارِ، وهي سلة الخيل وجميع المال قِلَّة
وطمع فيها، وكُنْتُ متصلةً بجمالها، وهو يتعلل وترى بى النوائر ؟ فقلت : أما أكره
أمير المؤمنين هذا، وأفند من يصطره إلى تحمل ما عليه، فقال : ما يقضى هذا، فقلت :
فيا امرأ أمير المؤمنين بأمره، فقال : ما نرج إليه بنفسك حتى تُصَفِّدَ بالحديد، فتحمله إلى
بغداد وتقص على جميع ما في يده من أموالها، وتنتظرى أعمالها وترتب لها عمالاً، فقلت :
السمع والطاعة، فلما كان في غد دخلت عليه فقال : ما فعلتَ فيما أمرتك به ؟ قلت :
أنا على ذلك، قال : أتريد أن تمجى في غد مودعا ؟ قلت : السمع والطاعة، فلما كان
في غد جئته مودعا، فقال : أريد أن تحلف لى أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً،
فاضطربت من ذلك إلى أن حصنى وأستخفى إلا أقيم فيها أكثر من ثلاثة أيام، فخرجتُ

حتى قدمت بغداد ، فلم أقم بها إلا ثلاثة أيام وأتحدثت في زلالي أريد الصرة وحمل لي في الزلالي خيش واستكثرت من الطنج لشدة الحر .

فلما صرتُ بين جُرْحان^(١) وحلُ سمعتُ صوتاً من الشاطئ يصيح : يا ملاح ، وقعتُ
تحت الزلالي وإذا بشيخ كبير السن جالس حاسر الرأس حافي القدمين حلق العيص ، قلت
للعلام : أجنه ، فأحابه ، فقال : يا علام ، أما شيخ كبير السن على هذه الصورة التي ترى ،
وقد أحرقتني الشمس وكادت تلتفني ، وأريد حل ، فأحملوني معكم فان الله يحبس أحر
صاحبكم ، قال : مشتبه الملاح وأنتهه ، فأدركتني رقة عليه وقلت : حذوه معاً ، فتقدما
الشط ويحما به وحملاه ، فلما صار معاً في الزلالي وأتحدثنا نتقدم فدفعتُ إليه قبضا
وميدبا وعسل وجهه واسراع وكأنه كان ميتا وعاد الى الدنيا فحصر وقت الغذاء وتقدمت
وقلتُ للعلام . هاتيه يا كل معاً ، بجاء وقعد على الطعام ، فأكل أكل أديب لطيف غير
أن الجوع أثر فيه ، فلما رُفعتُ المائدة أردت أن يقوم ويغسل يده ناحية كما تفعل العامة
في محال الخاصه فلم يفعل ، فسلتُ يدي وتدمت أن آمر بقيامه ، فقلت : قدموا له
الطشت فغسل يده ، وأردتُ بعدها أن يقوم لأمام فلم يفعل ، فقلت : يا شيخ ، أرى شيء
صانعك ؟ قال : حائك أصلحك الله ، فقلت في نفسي : هذه الحياكة علمته سوء الأدب ،
فتناومتُ عليه ومددتُ رجلي فقال : قد سألني عن صاعتي وأنت أعزك الله ما صانعك ؟
فأكبرتُ ذلك وقلت : أنا حيتُ على مسمى هذه الجماية ولا بد من احتمالها ، أترأه الأحق
لا يرى زلالي وغلاني ومعنى وأن مثلي لا يقال له هذا ! فقلت : كاتب ، فقال : كاتب
كامل أم كاتب ناقص فإن الكتاب خمسة ، فأبهم أنت ؟ فورد على قول المالك موردا
عظيما وسمعتُ كلاما أكرته وكنت متكئا بجلست ، ثم قلت : فصل الخمسة قال :

بم ، كاتبٌ نرجح يحتاج أن يكون عالما بالشروط والطسوت والحساب والمساحة
والبنوق والفتسوق والرتوق . وكاتبٌ أحكام يحتاج أن يكون عالما بالحلال والحرام

(١) في العقد الفريد : « بين دبره قل ودبر الماقول » .

والاحتجاج والإجماع والأصول والفروع . وكانت مَعُونَةُ يحتاج أن يكون عالماً بالتقصص والحدود والجراحات والمواثبات والسياسات . وكانت حَيْشُ يحتاج أن يكون عالماً بِجُلَى الرجال وَشَيَاتِ الدوابِّ ومُدَارَاةِ الأولياء وشيئا من العلم بالنسب والحساب . وكانت رسائل يحتاج أن يكون عالماً بالصدور والمصول والإطالة والإيجاز وحُسْنِ البلاغة والخط ، قال .

فقلت : إني كاتب رسائل ، قال : فأسألك عن مصعبا ، قلت : قل ، فقال لي :

أصلحك الله ، لو أن رجلا من إخوانك تروخ أتمك فأردت أن تكتبه مهتبا فكيف كنت تكتبه ؟ فكرتُ في الحال فلم يحطريبالى شيء ، فقلتُ : ما أرى للتهنته وحها ، قال : فكيف تكتب إليه تعريه فكركت فلم يحطرسالى شيء ، فقلت : اعفى ، قال : قد فعلت ، ولكك لست بكتاب رسائل ، قلت : أما كاتب نَراج ، قال : لا بأس ، لو أن أمير المؤمنين ولّك ناحية وأمرك فيها بالعدل والإصاف وتقصى حاحه السلطان ميتظلم اليك بعضهم من مساحيك وأحصرتهم للنظر بينهم وبين رعيتك ، خلف المسأح بالله العظيم لقد أنصعوا وما ظلموا ، وحلفت الرعية بالله إهم لقد جاروا وظلموا ، وقالت الرعية : قف معا على ما مسحوه وأظهر من الصادق من الكاذب ، نخرحت لتقف عليه ، وقفوا على راح شكُّه قاتل قنا ، كيف كنت تمسحه ؟ قلت : كنت أحد طوله على أنفراحه وعصره ثم أصبره في مثله ، قال : إن شكل قاتل قنا أن يكون زاويتاه محدودتين وفي تحديده تقويس ، قلت : فأخذ الوَسَطَ فأصبره في الرَض ، قال : إذا يئني عليك العمود ، فأسكتني ، فقلت . ولستُ كاتب نراج ، قال : وإذا ما أنت ؟ قلت : أما كاتب قاض ، قال : أرايت لو أن رجلا توفي وحلف امرأتين حاملتين إحداهما حرة والأخرى سريّة ، فولدت السريّة علما والحرة حارية ، صدّدت الحرة الى ولد السريّة فأحدثته ، وتركّت بدله الحارية فاخصما في ذلك ، فكيف الحكم بينهما ؟ قلتُ : لا أدري ، قال : فلست بكتاب قاض ، قلتُ .

فأنا كاتب جيش ، فقال : لا بأس ، أرايت لو أن رجلين جاءا اليك لتعطيهما وكل واحد منهما اسمه وأسم أبيه كاسم الآخر إلا أن أحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق

الشفة السفلى * كيف كستَ محلّهما، قال : قلتُ : فلانُ الأفلع وفلان الأعم، قال : إنَّ رزقهما مختلفان وكلّ واحد منهما يحيى * فى دعوة الآخر، قلتُ : لا أدرى، قال : فلستَ بكتّاب حَيثُ، قلتُ : أنا كاتِبُ مَعُونَةٍ، قال : لا تسأل، لو أنّ رحلين رُفعا اليك قد بُعِثَ أحدهما الآخرُ شَجَّةً مُوصَّحَةً^(١)، وشُح الآخرُ شَجَّةً مأمونة، كيف كستَ بمحصل بينهما * قلت : لا أدرى، قال : لستَ إذا كاتِبُ مَعُونَةٍ، اطلب لمسك أيها الرجل شغلا غير هذا، قال : فصُعُرْتُ الى مَسى ومَظَنى، فقلت : قد سألْتُ عى هذه الأمور ويحوز ألا يكون عندك حواها كما لم يكن عدى، وإن كست عالما بالحواب فقل، فقال .

عم، أما الذى تَرُوجُ أملك فتكتب اليه : أما بعد، فإن الأمور تحرى من عند الله بغير حجة عاده ولا اختيارهم، بل هو تعالى يختار لهم ما أحبّ، وقد بلغنى تزويج الوالدة حار الله لك فى قصصها، وإن القصور أكرم الأرواح وأستر العيوب والسلام .

وأما براحُ قاتل قنا فتمسح العمود حتى إذا صار عدداً فى يدك صرته فى مثله ومثل ثلثه فما خرج فهو المساحة .

وأما البخاريةُ والعلامُ فيوزنُ لبْنُ الاثنين، فأيهما كان أخفَ فالبخارية له .

وأما الجديان المتصقا الأسمين، فإن كان الشق فى الشمة العليا قيل فلان الأعم، وإذا كان فى الشمة السفلى قلتُ فلان الأطح .

وأما صاحبُ الشجتين طصاحب الموصحة ثلثُ الدِّبَةِ، ولصاحب المأمونة نصف الدية، فلما أحاب هذه المسائل صَحَّتْ منه وامتنعَتْه أشياء كثيرة غيرها فوحدته ما هرا فى جميعها حداقاً بليفاً، فقلتُ : ألسْتَ رَعِمْتَ أملك حائك، فقال : أنا أصلحك الله حائك كلام ولستُ بحائك نسّاحه، وأنشأ يقول :

ما مَرَّ رُؤْسٌ ولا نَمِيمٌ * إلا ولى مِهما بصيْتُ

فَذَقْتُ حُلُومًا ودَقْتُ مَرًّا * كذاك عَيْشُ الفقى صُرُوبُ

وائبُ الدهر أدبَتى * وإعما يُوعَطُ الأديبُ

قلت : ها الذى بك من سوء الحال ؟ قال : أما رجلٌ كاتبٌ دامت عُطْلَتِي ، وكَثُرَتْ
عَيْلَتِي ، وتواصلتْ غِنَى ، وَقَلَّتْ حِجَّتِي ، فَحَرَحْتُ أَطْلُبُ تَصَرُّفاً يَقْطِيعُ عَلَى الطَّرِيقِ فَصَرْتُ
كَمَا تَرَى ، فَشَبَّتْ عَلَى وَجْهِى ، فَلَمَّا لَاحَ لِي الرَّالَى اسْتَعْنْتُ بِكَ ، قُلْتُ : فَإِنِ قَدْ خَرَجْتُ
إِلَى مُتَصَرِّفٍ حَلِيلٍ أَحْتَاكِ بِهِ إِلَى حِمَايَةِ مِثْلِكَ ، وَقَدْ أَمَرْتُ لَكَ بِجِلْمَةِ حَسَنَةٍ تَصْلُحُ لِمِثْلِكَ
وَنَحْسَةِ آلَافٍ دَرْهَمٍ تُصْلِحُ بِهَا أَمْرَكَ ، وَتُعِيدُ مِنْهَا إِلَى عِيَالِكَ ، وَتُقَوِّى نَفْسَكَ بِبَاقِيهَا ،
وَتَصِيرُ مَعَى إِلَى عَمَلٍ فَأُولَئِكَ أَحَلُّهُ ، فَقَالَ : أَحْسَنَ اللَّهُ حِرَامَكَ إِذَا عُدْتُ بِمِثْلِ أَسْرَكَ ،
وَلَا أَقُومُ مَقَامَ مُعَدِّ الْبَيْتِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمْرٌ بِتَقْيِصِهِ مَا رَسَمْتُ لَهُ قَبْصَهُ ، وَانْخَلَدُ إِلَى
الْأَهْوَارِ مَعَى ، لِحِلَّتِهِ الْمَاطِرَ لِلرَّحْمَى وَالْمَحَاسِنَ لَهُ مُحْصَرَى ، وَالْمُسْتَحْرَجَ لِمَا طَلَبَهُ ، فَقَامَ
بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ وَعَطَمْتُ حَالَهُ مَعَى ، وَعَادَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى أَحْسَنَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي :

أَعْيَى عَلَى بَارِقٍ نَاصِبٍ * حَمِيٌّ كَوَحِيٍّ بِالْحَاجِبِ
كَأَنَّ نَاقَتَهُ فِي السَّمَاءِ * بِذَا كَاتِبٍ أَوْ بِذَا حَاسِبِ
فَرَوَى مَازَلْ تَذْكَارُهَا * يُبَيِّجُ مِنْ شَوْقِكَ الْغَالِبِ
عَرَبٌ بِمِثْرٍ لِأَوْطَانِهِ * وَيَنْكِي عَلَى عَصْرِهِ الدَّاهِبِ
كَمَا كَأَنَّ أَوْ الْفَصْلَ عَمْرُو الدَّيْ * مَطَالِمَةَ الْأَمَلِ الْكَادِبِ
وَصَدَقَ الرَّجَاءُ وَحُسْنُ الْوَفَاءِ * لِعَمْرُو بْنِ مَسْعَدَةَ الْكَاتِبِ
عَرِيضُ الْعِمَاءِ طَوِيلُ الْبَيَا * فِي الْعِرِّ وَالشَّرَفِ النَّاقِبِ
بِالْمَلِكِ طَوْدٌ لَهُ يَنْشُهُ * وَأَهْلُ الْحِلَافَةِ مِنْ عَالِ
هُوَ الْمَرْجِيُّ لَصُرُوفِ الزَّمَانِ * وَمُعْتَصِمُ الزَّارِعِ الرَّاهِبِ
جَوَادٌ بِمَا مَلَكَتْ كَفُّهُ * عَلَى الصَّبْفِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ
بِأَدَمِ الرُّكَّابِ وَوَشَى النِّبَا * بِبِطْنِ الطَّرْفِ وَالطُّفْلِ الْكَامِبِ
وَمُلَّهُ لِحَسَامِ الْأُمُورِ * وَزَجْوَهُ لِلْحَلِيلِ الْكَارِبِ

حَصِيهُ الْجَنَابِ مَطِيرُ السَّحَابِ * نَشِيعَتُهُ لَيْثٌ الْجَانِبِ
 يُرَوِّى الْقَنَا مِنْ عَمُورِ الْعِدَا * وَيُزِقُّ وَ الْجُودَ كَاللَّاعِبِ
 إِلَيْكَ تَذَنَّتْ أَكْوَارُهَا * حَرَّاجِيٌّ وَ مَهْمِهِ لَاحِ
 كَأَنْتَ نَعَامًا تَبَارَى بِهَا * سَوَائِلُ مِنْ بَرْدِ عَاصِبِ
 يَرِدُّ نَدَى كَفِّكَ الْمُزْنَمَى . وَيَقْصِبُ مِنْ حَقِّكَ الْوَاحِ
 وَفَّهَ مَا أَنْتَ مِنْ حَابِرِ * بِسَجَلٍ لِقُورِمٍ وَمِنْ حَارِبِ
 فَتَسْقَى الْعِدَا بِكَؤُوسِ الرَّدَى * وَتَسْقِيْ مُسْئَلَةَ الطَّالِبِ
 وَكَمْ رَاعٍ نَلَّاهُ بِالْمَطَا * وَكَمْ يَلَتْ بِالْمَطْلَفِ مِنْ هَارِبِ
 وَتِلْكَ الْحَلَائِقُ أُعْطِيَتْهَا * وَفَضْلٌ مِنَ الْمَاعِ الْوَاجِبِ
 كَسَبَتْ الثَّنَاءَ وَكَسَتْ الشَّامَا * أَوْفَضْلُ مَكْنَسِهِ الْكَاسِ
 يَقْبُكُ بِحُلُو سَتُورِ الدُّبَى * وَطُكَّ يُخْرِ الْمَائِ

رسائل الجاحظ

رسائله في بني أمية

قال أبو عثان عمرو بن بجر الجاحظ ^(١) : أطال الله فسادك ، وأتمم نعمته عليك ، وكرامته لك . أعلم أرشد الله أمرك ، أن هذه الأمة قد صارت بعد إسلامها ، والخروج من جاهليتها ، الى طبقات مُتَعَوِّثَةٍ ، ومنازلٍ مُتَغَلِّبَةٍ : فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما ، وستُّ سنين من خلافة عثمان رضى الله عنه ، كانوا على التوحيد الصحيح ، والإخلاص المحض ، مع الأئمة واحتجاج الكلمة على الكذاب والسفة ، وليس هالك عمل قبيح ، ولا بذعة فاحشة ، ولا تزغ يد من طاعة ، ولا حسدٌ ولا عِلٌّ ولا تَأَوُّلٌ ، حتى كان الذى كان : من قتل عثمان ، رضى الله عنه ، وما أثبتك منه ، ومن خبَطَهم إياه بالسلاح ، وتبع طسه بالحِراب ، وفَرَى أوداجه بالمشاقص ، وشَنَح

(١) هو إمام الأدب أبو عثان عمرو الجاحظ بن بجر من محبوبي الكنان الصيرى صاحب التصانيف النفيسة والرسائل الممددة . وقد تقدّم الكلام عليه في المجلد الأول من هذا الكتاب (ص ٤٢١) .

ولد حوالي سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة وشأ بها شاول كل من ومارس كل علم عرف في زمانه مما وضع في الاسلام أوفى من الأمم الأوائل فأصبح له مشاركة في دلم كل ما يقع عليه الحس أو يحيط بالمال هورادية . متكلم . فيلسوف . كاتب . مصنف . مترجم . شاعر . مؤرخ . عالم بالحيوان والنبات والمواد . وصاف لأحوال الناس وروحه ما يشبه واصطراهم وأحلامهم وحيلهم إلا أنه عطف عليه أمران الكلام على طريقة المترلة فهو بذلك إمام الطائفة الجاحظية من المترلة والأدب المبروح والفلسفة والمكاهة هو أوّل من ألّف الكتب الحسامية لصوره ككتّاب البيان والتبيين وكتّاب الحيوان وغيرها .

وكان غاية في الذكاء ودقة الحس وحسن الفراسة إلى دماة فاشية ، وقلة اعتداد بما يأخذ به الناس انهم ويتخلطون من الرسوم والمادات وأوضاع الصبغة المدهية وعدم مبالاة ونفوح المتوحّش به . وكان سمعا جوادا كثير المواساة لإحوايه وكان على دماة حلقه وتناقص حلقه حميف الروح ، فكما المجلس ، غاية في الطرف وطيب المكاهة وحلاوة الكلام وهو على الحلة أحد أذداد العالم وأحد هجج الناس الرنى . توفي سنة ٢٥٥ هـ بعد اذ عذرة الحيران . وتحد ترجمته في معجم الأذداد لياقوت (ح ٦ ص ٥٦ — ٨٠) وأبى خلدن (ح ١ ص ٥٥٣) .

(٢) في الأصل : « الملخص » .

هامته بالعمد، مع كفه عن البسط، ونهيه عن الامتناع، مع تعريفه لم قتل ذلك : من
 كم وجه يجوز قتل من شهيد الشهادة، وصلى القسلة، وأكل الديبحة، ومع صرب نسائه
 بحصرتة، وإلحاق الرجال على حرمة، مع اتقاء نائلة بنت الفرافصة عنه بيدها، حتى أطوا^(١)
 أصبعين من أصابعها، وقد كشفت عن قباها، ورضعت عن ذيلها ليكون ذلك رادما لهم،
 وكاسرا من عثرهم، مع وطنهم في أصلاعه بعد موته، وإلقائهم على المردة لجسده مجزأ
 بعد محبه، وهي الحزرة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم كفنا لسانه وأياماه وعقائله،
 بعد السبت والتعطيش والحصر الشديد، والمخ من القوت، مع احتجاحه عليهم وإلحاحه لهم،
 ومع احتجاعتهم على أن دم العاسق حرام، كدم المؤمن، إلا من ارتد بعد إسلام، أوزى
 بعد إحصان، أو قتل مؤمنا على عمد، أو رحل عدا على اللبس بسمعه فكان في أمثاعتهم
 منه عطه، ومع احتجاعتهم على ألا يقتل من هذه الأمة، ولا يُجهر منها على جريح،
 ثم مع ذلك كله دُمروا^(٢) عليه وعلى أرواحه وحريمه وهو حالس في محرابه ومصحفه يلوح
 في سحره، لن يرى أن مؤمنا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .

لأجرم لقد احتلوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت نائره، ولا يكفل
 طالبه، وكيف يصبح الله دم وآية، والمستقم له، وما سمعنا بدم عد دم يجبي بن زكريا عليهما
 السلام، علا غليانه، وقُتل ساحته، وأدرك طائفته، وطلع كل محبته، كدمه رحمة الله
 عليه .

ولقد كان لهم في أحده، وفي إمامته للباس، والاقتصاص منه، وفي بيع ما طهر من
 رباعه، وحدائقه، وسائر أمواله، وفي حبسه بما بقي عليه، وفي طهره حتى لا يُحس،
 بذكروه، ما يُعجب من قتله إن كان قد ركب كل ما قد فوه به، وأدعوه عليه، وهذا كله
 بحصرة حيلة المهاجرين والسلف المقدمين، والأنصار والتابعين .

(١) قال في شرح الداموس . كل ما في الحرب من هذا الاسم «مراصة» هو ضم الهاء الافرصة أما نائلة
 فهو بالفتح لا ميم . (٢) أطوا : قتلوا . (٣) حص مصهم مصا عليه متبدين .

ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة، ومراتب متباينة : من قاتل ومن شاذ على عصبه، ومن حاذل عن نصرته، والعاجز ناصر بإرادته، ومطيع بحس نيته، وإتباع الشك ما فيه، وفي حادله، ومن أراد عزله والاستبدال به؛ فأما قاتله، والمعين على دمه، والمريد لذلك منه، فصَلَّ لا شَكَّ فيهم، ومُرَّاق لا امتراء في حكمهم، على أن هذا لم يَسُدَّ منهم المجرور. إِمَّا على سوء ما وُيِّل، وإِثْمًا على تعمد للشقاء، ثم ما رالت الهن متصلة، والحروب مرادفة، كحرب الحل، وكوقائع صقي، وكيوم التَّهْرَوَان، وقبل ذلك يوم الرُّوْقَة^(١)، وفيه أسراب خُيِّف، وقُتِل حَيْكَم بن حَلَّة، إلى أن قَتَلَ أَشْقَاهَا على بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسعد الله بالشهادة، وأوحى لقاتله النار واللعمه، إلى أن كان من أعرال الحس عليه السلام الحروب وتخليته الأمور، عند انتثار أحمائه، وما رأى من الحل في عسكره، وما عَرَف من احتلالهم على أسيه، وكثرة تلويهم عليه، فصدَّها استوى معاوية على الملك، واستند على يقية الشورى، وعلى جماعه المسلمين، من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سَمَّوه عام الجماعة، وما كان عام حماه، بل كان عام فُرْقِه وقَهْرِهِ وَحَبْرِيَّةِ وَعَلِيَّةِ، والعام الذي نَحَوَّلَ فيه الإمامه مُلْكًا كَثْرِيًّا، والخلافة عَصْبًا قَيْصَرِيًّا، ولم يَسُدَّ ذلك أجمع الصلَّك والعسَق. ثم مارالت معاصيه من حسن ماحكيئا، وعلى منابر مارتنا، حتى رَدَّ قَصِيَّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ردا مكشوبا، وبجَدَّ حَكَمَ مُحَمَّدًا طَاهِرًا، في ولد العِرَاش وما يَحِبُّ للعَايِر، مع اجتماع الأمة أن تُسَمِّيَه لم يكن لأبي سميان فِرَاشًا، وأنه إِمَّا كَانَ بها عَاهِرًا. نَخْرَجُ بِذَلِكَ مِنْ حُكْمِ الصَّحَابِ إِلَى حُكْمِ الْكُفَرَاءِ، وليس قَتْلُ مُجْرِبِ بْنِ عَبْدِ، وإِطْعَامُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ نَرَجَ مِصْرَ، وبيعُهُ يَزِيدُ الْخَلِيجَ، والاستثنَاءُ الْفَقِيءَ، واختيَارُ الْوَلَاةِ عَلَى الْهَوَى، وتعطيلُ الْخُدُودِ بِالشَّعَاعَةِ وَالْقِرَابَةِ، من حسن بجد الأحكام المصنوعة، والشرائع المشهورة، وَالسَّنَنُ الْمَنْصُوبَةُ، وسواءٌ في باب ما يستحق من الكمار بجدِّ الْكَلَامِ، وردَّ السَّنَةِ إِذَا كَانَتْ السَّنَةُ فِي شَهْرِ الْكَلَامِ وَطَهْرِهِ، إِلَّا أَنَّ أَحَدَهُمَا

(١) الرواق : موضع قريب من البصرة كانت فيه وقعة الحل أول الهار .

أعظم ، وعقاب الآخرة عليه أشد ، فهذه أول كفرة ، كانت من الأئمة ، ثم لم تكن إلا فيس يدعى إمامتها ، والخلافة عليها ، على أن كثيرا من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره ، وقد أُرِبت عليهم بابتة عصرها ، ومُتدعة دهرها ، فقالت : لا تأسوه ، فإن له محمدا ، وست معاوية بدعه ، ومن يُفِصسه فقد حالف السنة ، فزعمت أن من السنة ترك البراءة ، ممن جحد السنة ، ثم الذي كان من يزيد أبيه ، ومن عماله ، وأهل نُصرته ، ثم عزو مكة ، ورمي الكعبة ، واستباحة المدينة ، وقتل الحسين عليه السلام ، في أكثر أهل بيته ، مصابيح الطلام ، وأوتاد الإسلام ، معد الذي أعطى من نفسه ، من تمريق أُناسه ، والرجوع الى داره وحرمة ، أو القهاب في الأرض ، حتى لا يُحس به أو المُقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله ، والروى على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده ، أو أسلمها الى عدوه ، وخير فيها من لا يرُد عليه إلا بشرُ دمه ، فاحسوا قتله ليس بكفر ، وإباحة المدينة ، وهتك الحرمة ، ليس محبة ، كيف تقولون في رمي الكعبة ، وهدم البيت الحرام ، وقيلة المسلمين ؟ فإن قُتل ليس ذلك أرادوا بل إنما أرادوا المتحضر به ، والمتحصن بحيطانه ، أما كان في حق البيت وحرمة أن يحصروه فيه ، الى أن يُعطى بيده ! وأى شيء بقي من رجل ، قد أخذت عليه الأرض إلا موضع قدمه ! واحسوا ما رووا عليه من الأشعار ، التي قولها شرك ، والتمثل بها كفرة ، شيئا مصموما ، كيف تصنع تنقر القضيب بين شيتي الحسين عليه السلام ، وحمل بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم حواسر على الأقتاب العارية ، والإيل الصعاب ، والكشف عن عورة علي بن الحسين عند الشك و ملوّه ! على أنهم إن وجدوه ، وقد أثبت قتلوه وأن لم يكن أنت حملوه ، كما يصح أمير جيش المسلمين ، بدرارى المشركين ، وكيف تقول في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وحاصته ، دعوني أقتله ، فإنه بقية هذا السلس ، فأحسب به هذا القرن ، وأُبيت به هذا الداء ، وأقطع به هذه المادة !

خبرونا علام تُدل هذه القسوة ، وهذه العظلة ! بعد أن شقوا أنفسهم بقتلهم ، وبألوا ما أحبوا فيهم ، أثقل على نصب ، وسوء رأي وحقد ، وبعضاء ونفاق ، وعلى يقين مدخوب

وإيمانٍ مخروج ! أم تدلّ على الإخلاص، وعلى حبّ النبي صلى الله عليه وسلم، والحفظ له، وعلى براءة الساحة وصحة السريرة ! إن كان على ما وصفنا لا يعدو الصقّ والصلال، وذلك أدنى سآزله، فالعاسق ملعون، ومن نهي عن نهى الملعون فلعون .

وزعمت مائة عصرنا، ومستدعة دهرنا، أن ستّ ولّاهِ السوءِ حسّةً، ولعنَ الحوّةِ بدعةً، وإن كانوا يأخذون السّيّ بالسّيّ، والولّى بالولّى، والقريبَ بالقربِ، وأحافوا الأولياءَ، وأتموا الأعداءَ، وحكّوا بالشفاة والمهوى، وإطهارِ الغدرة والتهاون بالأمة، والمقمع للزّعية، وأنهم في غير مدّاراه ولا نقيّة، وإن عدنا ذلك إلى الكفر. وحاوز الصلال إلى المخدّ، فذاك أصل تمّ كف عن شتمهم، والبراءة منهم، على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كنّ استحقّه بردّ السّنة وهدم الكعبة، وليس من استحق اسم الكفر بذلك كنّ شه الله محلقه، وليس من استحقّ الكفر بالتشبيه كنّ استحقّه بالتجوّير، والباسه في هذا الوجه أكرم من يزيد وأبيه، واس ر باد وأبيه، ولو ثبت أبصا على يزيد أنه تمثّل بقول بن الزّعرى :

ليتَ أشياخي بذّر شهدوا * جرع الخزرج من وقع الأسل
لاستطاروا واستهلّوا فرحاً * ثم قالوا يا يزيد لا تسل
قد قتلنا الفرّ من ساداتهم * وعدلناه ببدر فاعتدل

كان تجوّر الباطن لربه، وتشبيهه محلقه، أعظم من ذلك وأقطع، على أنهم مجّمون على أنه ملعون من قتل مؤمناً، متعمداً أو متأولاً، فإذا كان القاتل سلطاناً حائراً، أو أميراً طامعاً، لم يستحلوا مسّه، ولا حلمه، ولا هيبة، ولا عيه، وإن أحاف الصلحاء، وقتل الفقهاء، وأحاح الفقير، وظلم الصّغير، وعطلّ الحدود والتعزير، وشرب الخمر، وأظهر الفجور، ثم ما زال الناس يتسكّون مرة، ويداهنونهم مرة، ويقارونهم مرة، ويشاركونهم مرة إلا بقيّة من عصمه الله تعالى ذكره، حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد،

وطاملهما الحجاج بن يوسف ، ومولاه يزيد بن أبي مُسلم ، فأعادوا على البيت بالهدم ، وطى حرم المدينة بالغزو ، هدموا الكعبة ، واستباحوا الحُرمة ، وحولوا قبلة واسط ، وأخروا صلاة الجمعة ، الى مُعَيَّرِ بَآنِ الشمس ، وإن قال رجل لأحدهم : اتق الله فقد آحرت الصلاة عن وقتها ، قتله على هذا القول جِهاراً غير حَتْلٍ ، وعلانية صبراً ، ولا يُسَلَمَ القتل على ذلك إلا أفيح من إنكاره ، فكيف يكفر العبد بشيء ولا يكفر بأعظم منه !

وقد كان بعض الصالحين رثماً وعط الحبايرة ، وخوفهم العواقب ، وأراهم أن في الناس قية يَنهَوْنَ عن الفساد في الأرض ، حتى قام عبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، فزجر عن ذلك ، وحاقبا عليه ، وقتلا به ، فصاروا لا يَتَنَاهَوْنَ عن سكر فعلوه ، فاحسب تحويل القبلة كان طعنا ، وهدم البيت كان تأويلا ، واحسب ما رَوَوْا من كُلِّ وجه ، أنهم كانوا يزعمون أذ حليلة المرء في أهله أروعُ عنده من رسوله اليهم ، باطلا وسموعا مولدا ، واحسب وثم أيدي المسلمين ونش أيدي المسلمات ، وردَّهم بعد الهجرة الى قُرَاهِم ، وقتل العقهاء ، وسب أئمة الهدى ، والتصب لغيره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يكون كفرا ، كيف تقول في جم ثلاث صلوات هي الجمعة ، ولا يُصَلُّونَ أُولَاهُنَّ ، حتى تصير الشمس على أعلى الجُدُرَانِ . كاللَّاءِ الْمُضْمَرِّ ، وإن نطق مسلمٌ ، خُيِّطَ بالسيف ، وأحدثه العُمدُ ، وشك بالزجاج ، وإد قال قائل : اتق الله أحدثه العِزَّةُ بالإثم ، ثم لم يَرَّصْ إلا بثر دِمَاعِهِ على صدره ، وبصلبه حيث تراه عِيَالُهُ ، ومما يَدَّلُ على أن القومَ لم يكونوا إلا في طريق التمرُّدِ على الله عزَّ وجلَّ والاستحفافِ بالدين ، والهاوِينَ بالمسلمين ، والابتدالِ لأهل الحق ، أَكُلَ أَسْرَائِهِمُ الطَّعَامَ وشَرِبُهُمُ الشَّرَابَ على مبارهم أَيَّامُ جُمُعِهِمْ وِجْموعِهِمْ ، فعَلْ ذلك حَيْثُ بِن دُلْعَةٍ ، وطاراة مولى عُثْمَانَ ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهم ، وذلك إِنْ كَانَ كفرا كَلَهُ فلم يسَلِّعْ كفرا بآية

(١) يشير بذلك الى ماورد عن الحجاج انه قال في كلام له . ويحكم أحليمة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسول الله ، يريد بذلك تعصيل مقام الخلافة على مقام الرسالة . ومثل هذا رأى الحجاج بالكفر وقد عقد ابن عذر في العقد العريد صلاحيات رغم ان الحجاج كان كافرا راسخ العقد العريد ح ٣ ص ٢٢

(٢) في الأصل «حسن» وهو خطأ والصواب ما أشقاه كما في شرح القاموس والطبرى .

عصرنا ، وروايع دهرنا ، لأن حس كمر هؤلاء غير كمر أولئك . كان اختلاف الناس في القدر على أن طائفة تقول كل شيء مقصاء وقدر ، وتقول طائفة أخرى كل شيء بقصاء وقدر إلا المعاصي ، ولم يكن أحد يقول إن الله يمتدب الأبناء ليخيط الآباء ، وإن الكفر والإيمان مخلوقان في الإنسان ، مثل العمى والبصر ، وكانت طائفة منهم تقول إن الله يرى ، لا تزيد على ذلك ، وإن حاتم أن يعللها التشبيه قالت يرى بلا كيف تفرزا من التجسيم والتصوير ، حتى نبئت هذه البائسة ، وتكلمت هذه الرافضة ، فقالت حسيا ، وحملت له صورة وحدا ، وأكفرت من قال بالرؤية على غير التجسيم والتصوير ، ثم زعم أكثرهم أن كلام الله حس وسين ووجه وبرهان ، وأن التوراه غير الروب ، والربور غير الانجيل ، والانجيل غير القرآن ، والقره غير آل عمران ، وأن الله تولى تأليهه ، وجعله برهانه على صدق رسوله ، وأنه لو شاء أن يزيد فيه زاد ، ولو شاء أن ينقص منه نقص ، ولو شاء أن يتبدله بدله ، ولو شاء أن ينسخه كله بغير نسخه ، وأنه أنزله تنريلا ، وأنه فصله تفصيلا ، وأنه بالله كان دون غيره ، ولا يقدر عليه إلا هو ، غير أن الله مع ذلك كله لم يخلق ، فأعطوا جميع صفات الخلق ، ومعو اسم الخلق .

والمحب أن الخلق عند العرب إنما هو التقدير منه ، فلذا قالوا : خلق كذا وكذا ، ولذلك قال : ﴿ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . وقال : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ وقال : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ فقالوا : صنعهم وجعلهم وقدرهم ، وأنزلهم وفصلهم وأحدثهم ، ومعو خلقهم ، وليس تأويل خلقهم أكثر من قدرهم ، ولو قالوا ببدل قولهم : قدرهم ولم يخلقهم خلقهم ولم يقدرهم ما كانت المسألة عليهم إلا من وجه واحد ، والمعجب أن الذي معه يزعمه أن يزعم أنه مخلوق ، أنه لم يسمع ذلك من سلفه ، وهو يعلم أنه لم يسمع أيضا من سلفه أنه ليس بمخلوق ، وليس ذلك بهم ، ولكن لما كان الكلام من الله تعالى عندهم على مثل خروج الصوت من الجوف ، وعلى جهة تقطيع الحروف ، وإعمال اللسان والشفتين ، وما كان على غير هذه الصورة والصفة فليس بكلام ، ولما كانا عندهم على غير هذه الصفة ،

وكنا لِكَلَامِنَا عِيْرَ حَالِقِيْنَ ، وَجِبَ أَنْ اللهُ عَزَّ وَحَلَّ لِكَلَامِهِ عِيْرَ حَالِقٍ ، اِدْكَأَ عِيْرَ حَالِقِيْنَ
لِكَلَامِنَا ، فَأَتَمَّا قَالُوا ذَلِكَ ، لَأَنَّهُمْ لَمْ يَحْدُوا مِنْ كَلَامِنَا وَكَلَامِهِ فَرَقَا ، وَإِنْ لَمْ يُقَرُّوا بِذَلِكَ
بِالْتَّهْمِ فَذَلِكَ مِمَّا هُمْ وَقَصْنُهُمْ .

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَا تَخَافُ مَعَاصِيَهَا الْإِثْمَ وَالصَّلَالَ ، إِلَّا مَا حَكِيَتْ لَكَ عَنْ بَنِي أُمِيَّةَ ،
وَبَنِي مُرْوَانَ ، وَعَمَالِهِمْ ، وَمَنْ لَمْ يَدْرِكْ مَا كَعَارِهِمْ حَتَّى تَحْتَمَّ النَّوَابِتُ ، وَتَاغَتْهَا هَذِهِ الْعَوَامُ ،
فَصَارَ الْعَالُ عَلَى هَذَا الْقَرَدِ الْكَفَرُ ، وَهُوَ التَّشْبِيهُ وَالْخُفْرُ ، فَصَارَ كَعَارُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ كَعَارِ مَنْ
مَعَى فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ الْعُسُ ، وَشُرَكَاءُ مَنْ كَعَرُ مِنْهُمْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَتَرِكَ مَا كَعَارِهِمْ ، قَالَ
اللَّهُ عَزَّ وَحَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ .

وَأَرْحُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَعَاثَ الْمُحَقِّقِينَ ، وَرَجِمَهُمْ وَقَوَّى صَعْفَهُمْ ، وَكَثَّرَ قِتْلَهُمْ ، حَتَّى
صَارَ وُلَاةُ أَمْرِنَا فِي هَذَا الدَّهْرِ الصَّعْبِ وَالزَّمَنِ الْعَاسِدِ أَشَدَّ اسْتَبْصَارًا فِي التَّشْبِيهِ مِنْ
عَلِيْقَبَا ، وَأَعْلَمَ عَمَّا يَلْزِمُ فِيهِ مَاءً ، وَأَكْشَفَ لِلْقَنَاطِعِ مِنْ رُؤُسَائِنَا ، وَصَارُوا النَّاسَ وَقَدْ انْتَضَمُوا
مَعَانَ الْعَسَادِ أَجْمَعِ ، وَنَلَمُوا عَايِبَ الْبَدْعِ ، ثُمَّ قَرَّبُوا بِذَلِكَ الْعَصِيْبَةَ الَّتِي هَلَكَ بِهَا عَالَمٌ هَذَا
عَالَمٌ ، وَالْحِمَاةُ الَّتِي لَا تُنْقِي دِيْنًا إِلَّا أَسَدَتْهُ ، وَلَا دُنْيَا إِلَّا أَهْلَكَتْهَا ، وَهُوَ مَا صَارَتْ إِلَيْهِ الْعَجَمُ
مِنْ مَذْهَبِ الشُّعُوبِيَّةِ ، وَمَا قَدْ صَارَ إِلَيْهِ الْمَوَالِي مِنَ الْعَجَرِ عَلَى الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ ، وَقَدْ نَحَمَتْ
مِنْ الْمَوَالِي مَاجِدَةً ، وَسَتَتْ مِنْهُمْ نَاسَةً ، تَزْعُمُ أَنَّ الْمَوْلَى وَوَلَايَتُهُ قَدْ صَارَ عَرَبِيًّا ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَوَالِي الْقَوْمِ مِنْهُمْ » وَلِقَوْلِهِ : « الْوَلَاءُ لِحُمَةِ كُلِّ حِمَةٍ نَسَبٍ لَا يُبَاعُ
وَلَا يُوهَبُ » .

قَالَ : فَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَجَمَ حِينَ كَانَ فِيهِمْ الْمُلْكُ وَالْبَقْوَةُ كَانُوا أَشْرَفَ مِنَ الْعَرَبِ ،
وَلَمَّا حَوَّلَ ذَلِكَ إِلَى الْعَرَبِ صَارَتِ الْعَرَبُ أَشْرَفَ مِنْهُمْ ، قَالُوا : فَحَسْبُ مَعَاشَرَ الْمَوَالِي
بِقَدِيمِنَا فِي الْعَجَمِ أَشْرَفُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَبِالْحَدِيثِ الَّذِي صَارَ لَنَا فِي الْعَرَبِ أَشْرَفُ مِنَ الْعَجَمِ ،
وَالْعَرَبُ الْقَدِيمُ دُونَ الْحَدِيثِ ؟ وَلَمَّا خَصَّصْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمَا وَافَرْتَانِ فِينَا ، وَصَاحِبِ الْخَصْلَتَيْنِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَهُ . وَصَارُوا شُرَكَاءَ الْخ . (٢) مَعَانَ مَتْنِ الْمِمْ وَالْعَيْنِ . الْمَاءُ وَالْمَرْءُ .

أفضلُ من صاحب الخصلة ، وقد جعل الله المولى مد أن كان عجميا عربيا ولأئمه ، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيا بجعله ، وجعل اسماعيل مد أن كان أعجميا عربيا ولولا قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن اسماعيل كان عربيا » ما كان عدنا إلا أعجميا لأن الأعجمي لا يصير عربيا ، كما أن العربي لا يصير أعجميا ، وإما علينا أن اسماعيل صيره الله عربيا مد أن كان أعجميا ، قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فكذلك حكم قوله « مولى القوم منهم » وقوله : « والولاء لجمعة » . قالوا : وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام أبا لمن لم يلد ، كما جعله أبا لمن ولد ، وجعل أزواج النبي أمهات المؤمنين ، ولم يلدن منهم أحدا ، وجعل الجار والد من لم يلد في قول صر هذا كثير قد أتينا عليه في موضعه ، وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أحل للشر من المباحه ، وليس على طهرها إلا نفور (إلا قليل) وأى شيء أعبط من أن يكون عندك يزعم أنه أشرف منك ، وهو ميقز أنه صار شريفا يعتك إياه .

وقد كتبت — مد الله في عمرك — كُنا في مُباحرة حطّان ، وفي تفصيل عدنان ، وفي رد الموالي إلى مكالمهم من الفصل والنقص ، وإلى قدر ما جعل الله تعالى لهم بالعرب من الشرف ، وأرجو أن يكون عدلا بينهم ، وداعية إلى صلاحهم ، ومُسَهِّة عليهم ولم ؛ وقد أردت أن أرسل بالجره الأول اليك ثم رأيت ألا يكون إلا مد استئذائك ، واستئذائك ، والانتهاه في ذلك إلى رعبتك ، فأراك فيه موفق إن شاء الله عز وجل وبه الثقة .

وكتب إلى بعض إخوانه في ذم الزمان

بسم الله الرحمن الرحيم

حفظك الله حفظ من وقته للقاعة ، واستعمله بالطاعة ، كتبت إليك وحالي حال من كُثمت عمومه ، وأشكلك عليه أموره ، وأشتبته عليه حال دهره ، وتخرج أمره ، وقَلَّ عنده من يثق بوفائه ، أو يحمّد مغبة إحاثه ، لاستحالة زماننا ، وفساد أيامنا ، ودولة أئذالنا ؛ وقدما كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه

العاقبة ؛ فنَظَرْنَا إذْ حالَ عندنا حُكْمُهُ ، ونَحَوَلْتُ دَوَلَّتُهُ ؛ هُوجِدَا الحَيَاءَ مُتَصِلًا بِالْجِرْمَانِ
والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القسعة ، وإخلاق العِرض من
طريق التوكل دليلا على صحافة الرأي ، إذ صارت الحُظُوة البالغة ، والنعمة السابغة ، في لوم
المشيئة ، وسناء الرزق من جهة محاشاة الرضاء ، ومُلاَبَسَةِ مَعَوَةِ العار ، ثم نظريا في تعقب المتعقب
لقولنا ، والكاشر مُتَحَتِّبٌ ؛ فأَقَامَ لَهُ عِلْمًا وَاحِشًا ، وشَاهِدًا قَائِمًا ، وَمَارًا يَدِيًا ؛ إذ وَحَدْنَا مَنْ فِيهِ
السُّقُوتُ الْوَاضِحَةُ ، وَالتَّالِبُ الْفَاحِشَةُ ، وَالكذب المُتَّبِعُ ، وَالحُلْفُ الْمَصْرُوحُ ، وَالجَهَالَةُ الْمُفْرَطَةُ ،
وَالرَّكَائِةُ الْمُسْتَحَقَّةُ ، وَضعف اليقين والاستنبات ، وسرعة الغضب والجرائم ، قد أَسْتَكْبَلْ
سرورُهُ ، وَاحتَدَلتْ أُمُورُهُ ، وَفَازَ بِالسَّهْمِ الْأَعْلَى ، وَالحط الأوفر ، وَالقَدَرُ الرَّوِيعُ ، وَالجَوَازُ
الطَّامِحُ ، وَالْأَمْرُ الْبَازِغُ ؛ إِنْ زَلَّ قِيلَ حُكْمٌ ، وَإِنْ أَحْطَا قِيلَ أَصَابَ ، وَإِنْ هَدَى فِي كَلَامِهِ
وَهُوَ يَقْطَانُ قِيلَ رُؤْيَا صَادِقَةٌ مِنْ نَسَمِهِ مَارَكَةٌ ؛ هَهُنَا مُجْتَبَا وَاللهِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَهْلَ
يَحْصِي ، وَأَنَّ الْوَلُوكَ يُرْدِي ، وَأَنَّ الْكُذْبَ يُضَرُّ ، وَأَنَّ الْحُلْفَ يُزْدِي ، ثُمَّ نَظَرْنَا فِي الْوَفَاءِ
وَالْأَمَانَةِ وَالْبَلِّ وَالْبَلَاعَةِ وَحَسَنِ الْمَدْهَبِ وَكَيْالِ الْمُرُوءَةِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ وَقِلَّةِ الْغَضَبِ وَكِرَمِ
الطَّبِيعَةِ ، وَالْفَاتِقِ فِي سَمْعِهِ عَلَيْهِ ، وَالْحَاكِمِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَالْعَالِي لِهَوَاهُ ، وَوَجَدْنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ؛
ثُمَّ وَحَدْنَا الزَّمَانَ لَمْ يُنْصَحْ مِنْ حَقِّهِ ، وَلَا قَامَ لَهُ بَوَظَائِفُ قَرَصِهِ ، وَوَحَدْنَا فَصَائِلَهُ الْقَائِمَةَ لَهُ
قَاعِدَةً بِهِ ، هَهُذَا دَلِيلُ أَنَّ الطَّلَاحَ أَجْدَى مِنَ الصَّلَاحِ ، وَأَنَّ الْعَصَلَ قَدْ مَضَى زَمَانُهُ ،
وَعَفَّتْ آثَارُهُ ، وَصَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِ كَمَا كَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى صَدْرِهِ ، وَوَحَدْنَا الْعَقْلَ يَشْتَقِي بِهِ
قَرِينَهُ ، كَمَا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْحَقَّ يَحْتَطِي بِهِ حَدِيثُهُ ؛ وَوَحَدْنَا الشَّعْرَ نَاطِقًا عَلَى الزَّمَانِ ، وَمُتَمَرِّعًا عَنِ
الْأَيَّامِ حَيْثُ يَقُولُ :

تَحَامَقَ مَعَ الْحَقِّ إِذَا مَا لَقِيَتْهُمْ . وَلَا يَفْقَهُمُ بِالْجَهْلِ مَلَّ أَحَى الْجَهْلُ
وَحَلَّطَ إِذَا لَاقَبَتْ يَوْمًا مَحَلَّطًا * يُحَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ وَفِي هَزَلٍ
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَشْتَقِي بِعَقْلِهِ * كَمَا كَانَ قَبْلَ الْيَوْمِ يَسْعَدُ بِالْعَقْلِ

بقيت — أباك الله — مثل من أصبح على أوفاز،^(١) ومن الثقلة على جهاز، لا يسوغ
 عمة ، ولا تطعم عبده عمة ، في أهو يل يكره مكروها ، ويرأوه عقابها ، فلو أن
 جاء أحيب ، والتصرع يُبع ، لكنت العدة المظلمى ، والرجفة الكبرى ، فليت أى أنى
 استبطته من الفضة ، ومن بقاء الصبيحة ، قصى حان ، وأذ به فكان ، والله ما عذبت
 بربحه ، ولا ريح ولا تخطئة ، عدات عبي برؤية المغايطة المندمة ، والأخبار المهلكة ،
 أن الرمان يؤكل عدابي ، أو يصب ما يامى ، ما عيش من لا يسرباح شقيق ، ولا يصطليح
 أول نهاره ، إلا برؤية من يكرهه ، ويغتمه طلعه ، فقد طالت الفضة ، وواظبت الكربة ،
 دلمت الظلمة ، ونمذ السراج ، وتبأط الأفرح .

وصف الجاحظ لقريش وبني هاشم

قد علم الساس كيف كرم قريش وصفاؤها ، وكيف عقولها ودعاؤها ، وكيف رأيا
 كاؤها ، وكيف سياستها وديريها ، وكيف إيجازها وتحسيراها ، وكيف راحة أحلامها
 احف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد . وكيف صبرها حد اللقاء ، وشاتها فى الأواء ،
 يى وفاؤها إذا استحسن القدر ، وكيف جودها إذا حث المال ، وكيف ذكرها
 حاديت قد ، وقلة صدودها عن جهة القصد ، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه ،
 يف وصفها له ودعاؤها اليه ، وكيف سماحة أخلاقها ، وصونها لأعراقها ، وكيف وصلوا
 بهم بمحدثهم ، وطريقهم بتليدهم ، وكيف أشبه حلايتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل
 لامة صدر أحدهم إلا على قدر عديده ، وهل عقلته إلا فى وزن صدق ظنه ، وهل
 إلا كيقين غيره .

وكتب في الاعتذار :

أما بعد فعم الدليل من الزلة الاعتذار، ونس العوض من التوبة الإصرار، وإن أحق
من عطفت عليه بملك من لم يستشعرك، وإلى بعري بملح حلمك وعاية عموك،
حيث لعمى العفو من رثتها عندك، وقد متى من الألم ما لم يشفه غير مواسلتك .

وله في الاستعطاء

ليس عدى أعزك الله سبب ولا أقدر على شمع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم
الرحمة والتأمل الذي لا يكون إلا من نتاج حس الفل وإثبات الفصل بحال المأمول
أرجو أن تكون من الشاكرين فتكون خير مُعْتَب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله يجعل
هذا الأمر سببا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببا للإيقاع إليكم والكون تحت أحضركم،
يكون لا أعظم بركة، ولا أتمى نية من ذنب أصححت فيه، ومثلك — حمت فداك —
داد الدب وسيلة، والسبب حسنة، ومثلك من أقلب به الشر حيرا والعزم عفا .

من عاقب فقد أحد خطه، وإنما الأحرى الأحرى، وطيب الذكر في الدنيا، على قدر
لاحتمال وتجزع المرائر وأرجو، ألا أصبح وأهلك فيما بين كرمك وعقلك، وما أكثر من يعفو
من صغر ذنبه وعظم حقه، وإنما الفصل والثناء العفو عن عظم الجرم صغير الحرمة،
إن كان العفو عطيا مستطوفا من عيركم فهو تلاف فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرا من الناس
لى مخالفه أمركم، فلا أتم عن ذلك تتكون، ولا على سالف إحسانكم سدمون، وما مثلكم
لا كمثل عيسى بن مريم عليه السلام حين كان لا يمر ببلد من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرا
أسمعهم حيرا، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاللوم كتب اسمك شرا أسمعهم حيرا
قال : كل أمرئ يفيق تما عنده وليس عندكم إلا الخير ولا في أوعيتكم إلا الرحمة
وكل إناء بالذي فيه يصح .

وله في دَمَ الحسد :

الحسد - أبناك الله - داءٌ يَهكُّ الجسد، علاجهٌ عيرٌ وصاحبهٌ حَيَّيرٌ وهو باب عامض، وما طَهر منه فلا يُلوَى وما طَهَّنَ منه قُدَّايوه في عَآءٍ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « دَتَّ اليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسَدُ والبغضاء » . الحسد عَقِيد الكفر، وحليف الباطل ، وصَدَّ الحقُّ منه تُؤَلَّدُ العداوةُ وهو سبب كلِّ قطيعة ومفرق كلِّ جماعة، وقاطع كلِّ رِجَم من الأقرناء، ومُحْدِث التفرق بين القرناء، ومُلَقِّع الشرَّيين الخلفاء .

دفاع الجاحظ عن مؤلفاته :

وقد ذكر الجاحظ حلَّ مؤلفاته في كتاب "الحيوان" ودافع عنها مد أن وصدها فقال: ^(١)
جَنَّبَكَ الله الشبهة، وعَصَمَكَ من الخِيرة وحمل يديك وبين المعرفة نَسَاءً، وبين الصدق سَبَبًا، وَحَبَّبَ اليك التَّيَبُّ، وزَيَّنَ في عيك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزَّ الحقِّ، وأودع صدرَكَ بَرْدَ اليقين، وطرد عك ذُلَّ الطمع، وعَرَّفَكَ ما في الباطل من الدَّلة، وما في الجهل من القِلَّة، وَلَعَمْرِي لقد كان عيرُ هذا الدماء أصوبَ في أمرِك، وأدَلَّ على مقدار وزنك، وعلى الحال التي وَصَّفت نفسك فيها، ووسَّمت عيرُك بها، وَرَضِيَتْها لدينك حقًّا، ولَمُرُوَّتكَ شكلاً، فقد انتهى إلى مَيْلِكَ على أُنْبِيَاءِ حَقٍّ، وَحَمَلُكَ على "وطعك على متعبد، وتَنَقَّصُكَ له في الذي كان جرى بينهما في مساوي الديك ومحاسنه، وفي ذكر ماسح الكلب ومصاذه، والذي خرجا إليه من استقصاء ذلك وجميعه، ومن نَبَّهه وظلمه، وبين الموازنة بينهما، والحكم فيهما .

ثم عَيَّنِي بِكَلَامٍ حَبِيل اللصوص، وكَلَامٍ عِش الصناعات؛ وعَيَّنِي بِكَلَامٍ الْمَلَحِّ والطُغْرِف، وما حَرَّ من الوادر وبرْد، وعاد دَارُهَا حَارًا بفِرط برْدِهِ، حتى أمتع بأكثر من أمتاع الحار؛ وعَيَّنِي بِكَلَامٍ أَحْتَاجُاجَاتِ الْبُعْلَاء، وما قَضَيْتَهُم لِلْسَمْعَاء، والقوي في الفَرْقِ بين

(١) احتدوا في تصحيح هذه المصطلحات على الأصل النوراني المصنوع بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٢٨

آداب، لأن النسخة المطبوعة من كتاب الحيوان بمطبعة السعادة بمصر في غاية التعريب وملأها بالأخطاء .

الصدق اذا كان صاراً في العاجل، والكذب اذا كان ناهياً في الآجل، ولم جعلنا الصدق أبداً محموداً، والكذب أبداً مذموماً، والفرق بين الفرية وإضاعة الحرمة، وبين الإفراط في الحمية والأنفة، وبين التقصير في حفظ حق الحرمة، وقلة الاكتراث بسوء القالة؛ وهل الفرية آكساب وعادة، وعص ما يترضى من جهة الديانة ولبعض التريث فيه والتحسين به، أو يكون ذلك شيئاً في طبع الحرية وحقيقة الجهورية، ما كانت العقول سليمة، والآفات متفية، والأحلاط متعديلة، وعنتى بكتاب الصرحاء والمُجَنَّاء، ومُماخِرة السودان والمُجران، والموازنة بين حق المؤولة والعُومة؛ وعنتى بكتاب الررع والنحل، والزيتون والأعاب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات، وكتاب فصل ما بين الرجال والنساء، وفريق ما بين الذكور والإناث، وفي أى موضع يقبلن ويفصلن، وفي أى موضع يكنّ المغلومات والمفصولات، وصحبُ أيهما في الولد أوفر، وفي أى موضع يكون حقهنّ أوجب، وأى عمل هو بهنّ أبقى، وأى صناعة هنّ فيها ألبغ؛ وعنتى بكتاب القحطانية وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية، وزعمت أنى تجاوزت فيه حد الحمية، الى حد العصية، وأنى لم أصل الى تفضيل العدنانية إلا بنقص القحطانية؛ وعنتى بكتاب العرب والموالى، وزعمت أنى بحسنت الموالى حقوقهم، كما أنى أعطيت العرب ما ليس لهم، وعنتى بكتاب العرب والعجم، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم هو القول في فرق ما بين الموالى والعرب، ونسبته الى التكرار والترداد، والى التكثير والجهل بما فى المعاد من الخطأ، وحمل الناس المؤنّ؟ وعنتى بكتاب الأصنام، وبدكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إياها، وكيف أخطأ في جهة العلة مع اتحاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عبَادَ البَدَدَةِ^(١) والمتمسكون سادة الأوثان المصحوة، والأصنام المجورة، أشدّ الناس إلغافاً لما دأوا به، وشعفا بما تمسكوا له، وأطهرهم حدّاً، وأشدّهم على من خالفهم ضغماً، وبما دانوا صباية ونحماً، وما الفرق بين البدّ واللوث، وما الفرق بين اللوث والصنم، وما الفرق

(١) البددة جمع بدّ، وهو بيت فيه الصنم أو الصنم نمرة كما قال ابن جرير .

بين الدنيا والآخرة ، ولم صوّروا في عماريتهم وبيوت عباداتهم صُور عظمائهم ورجال دعوتهم ، ولم تأقوا في التصوير ، وتجردوا في إقامة التركيب ، وابتغوا في التحسين والتفحيم ، وكيف كانت أولية تلك العبادات ، وكيف افرقت تلك السّل ، ومن أى شيء كانت حدّعت تلك السّدنة ، وكيف لم يزالوا أكثر الأوصاف عددا ، وكيف شمل ذلك المذهب الأجتناس المختلطة !

وعبّتي بكاتب المعادن ، والقول في حواهر الأرض ، وفي اختلاف أجناس الفلزّ ، والإخبار عن ذائبها وجامدها ، ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يُسرّع الاقتراب الى بعضها ويُعطى عن بعضها ، وكيف صار مصّ الألوان يَصْنَع ولا يصنع ، ومعضها ينصع ولا يصنع ، ومعضها يصنع وينصع ، وما القول في الإكسير والتلطيف ، وعبّتي بكاتب فرق ما بين هاشم وعبد شمس ، وبكاتب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في معرفة المُنْهَد واستطاعة المعريت ، وفي الذى كان عدّه علم من الكتاب ، وما ذلك العلم ، وما تأويل قولهم : كان عدّه اسم الله الأعظم ، وعبّتي بكاتب الأوقاف والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف أسباب التثمير^(١) والترقيح وكيف تجتلب التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ، وكيف التّسبُّب إلى الوصايا ، وما الذى يوجب لهم التّعديل ، ويصيرف اليهم باب حُسن الفنّ ، وكيف ذكرنا غش الصّاعات والتجارات ، وكيف التّسبُّب الى تعرّف ما قد سَتَرُوا ، وكشف ما مَوَّهُوا ، وكيف باب الاحتراس منه والسلامة من أهله ! . وعبّتي برسائلي ، وبكل ما كتبتُ به الى إخواني وخُلَطائي من مَنزَح وجِدّ ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تَفَانِي وتوقيف ، ومن هِجاء لا يزال ومُتَمِّه ناقبا ، ومديح لا يزال أثره نائبا ، ومن مُلَحّ ، تُصَبِّحُك ، ومواعظُ تبكي ، وعبّتي برسائلي الهاشميات ، واحتجاجي فيها ، وأستقصائي معانيها ، وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهارى لها في أتمّ حليّة ، وزعمت أنّي قد خرجتُ بذلك من حدّ المُعْتَرِلة الى حدّ الزّيادة ،

ومن حدّ الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الى حدّ السرف والإفراط فيه، وزعمت أن مقالة الزيدية خطبه مقالة الرافضة، ومقالة الرافضة خطبة مقالة العالية، وزعمت أن في أصل القصبة، والذي جرت عليه المادة أن كل كبير وأوله صغير، وأن كل كثير فإنما هو قليل يُجمع الى قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ * وَأَمَّا الْقَرْمُ مِنَ الْأَيْلِ^(١)

* وَنَحَقُّ النَّخْلَ مِنَ الْفَيْلِ *

وأنشدت قول الشاعر:

رُبَّ كَبِيرٍ هَامَهُ صَبِيرٌ * وَبِالْبُحُورِ تَمُرُّ الْبُحُورُ

وَقُلْتُ وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ الْحَكَمِ :

وَأَعْلَمُ بَعْضِي فَإِنَّهُ * مَا لَمْ يَنْتَفِعِ الْعَلِيمُ

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقُهَا * مِمَّا يَبِيجُ لَهُ الْعَظِيمُ

وَقُلْتُ وَقَالَ الْآخَرُ :

صَارِجًا مَامَزَحَتْ بِهِ * رُبَّ جِدٍّ سَاقَهُ اللَّعِبُ

وَأَنشَدَتْ قَوْلَ الْآخَرِ وَهُوَ عَتَرَةُ^(٢) :

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ * تُقْصِي الْأُمُورَ وَرَهْطَ وَرْدَةٍ غُيْبُ

قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْكَبِيرَ صَغِيرُهُ * حَتَّى تَنْظُلَ لَهُ الدَّمَاءُ تَصَبُّبُ

وَقَالَتْ كَبِشَةُ بِنْتُ مَعْدِيكَرَبَ :

حَدَّثَنِي بِبَيْتِ اللَّهِ أَمَفَ قَوْمِهِ * بَنِي مَازِنٍ أَنْ سُبَّ رَاغِي الْخُزْمِ

وَقَالَ الْآخَرُ :

أَيُّهُ نَارٌ قَدَحَ الْقَادِحُ * وَأَيُّ جِدٍّ بَلَغَ الْمَارِحُ

(١) الأيل : صر الإيل .

(٢) والصواب أن البيت لغيره وهما من جهة أبيات في ديوانه .

وتقول العرب : « المَعَى من المَصْبَةِ ولا تَلِدِ الحَيَّةُ إلا حَيَّةً » ؛ وعبت كتابي في خَلْقِ القرآن ، كما عبت كتابي في الردِّ على المُشَبِّهَةِ ؛ وعبت كتابي في أصول الفُتْيَا والأحكام ، كما عبت كتابي في الاحتجاج لظلم القرآن ، وغريب تاليفه ، وبديع تركيبه ؛ وعبت مُعَارَضَتِي الزَّيْدِيَّةَ ، وتفصيل الاعتِرَالِ على كُلِّ نَحْلَةٍ ، كما عبت كتابي في الوعد والوعد ، وكتابي على النصارى واليهود ، ثم عبت جُمْلَةَ كُتُبِي في المعرفة ، وأتَمَسْتُ تهجينها بكلِّ حِيلَةٍ ، وصَفَرْتُ من شأنها ، وحطَّطْتُ من قدرها ، واعترضت على ناصحيتها والمنصحين بها .

وعبت كتاب الجوابات وكتاب الرسائل ، وكتاب الردِّ على أصحاب الإلهام ، وكتاب المُجْتَمَعِ في تثبيت نُفُوءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكتاب الأخيار ، ثم عبت كتابي إنكارى بَصِيرَةٍ غَامٍ المُرْتَدِّ ، وبصيرة كُلِّ حاحِدٍ ومُلْحِدٍ ، وتفريق بين أَعْتَرَامِ الْعُمَرَوِيِّينَ ^(١) وأسْتَبْصَارِ الْحَقِّ ؛ وعبت كتاب الردِّ على الجَهْمِيَّةِ في الإدراك ، وفي قولهم في الجهالات ، وكتاب الفرق ما بين النبي والمُنْتَنَى ، والفرق بين الحبل والمخاريق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام القاهرة ؛ ثم قصدت الى آبِي هَذَا بالتصغير لقدره ، والهجين لَعَلَّمِهِ ، والاعتراض على لفظه ، والتحقير لمعانيه فزَرَيْتُ على نَحْتِهِ وسبكه ، كما زَرَيْتُ على معناه ولفظه ، ثم طعنت في الغرض الذي اليه زَعَمَا ، والغاية التي اليها أَجْرِيَا ، وهما كتاب معناه أَنَبَهُ من أسمه ، وحقيقته أَنَّيَّ من لفظه ، هو كتاب يحتاج اليه المتوسِّط العَامِي ، كما يحتاج اليه العالم الخَاصِي ، ويحتاج اليه الرِّئِيسُ ، كما يحتاج اليه الخَافِقُ .

أما الرِّبْضُ فَلتَلَمَّ وألْزَبَةُ ، وللترتيب والرياسة ، وللتمرين وتمكين العادة ، اذ كان جليله يتقدَّم دقيقه ، واذا كانت مُقَدِّمَاهُ مُرْتَبَةً ، وطبقات معانيه مُتَرَلِّةً ؛ وأما الخافِقُ فَلِكفاية المؤونة ، ولأنَّ كُلَّ مَنْ التَفَطَ كتاباً جامعاً ، وبأما من أمهات العلم مجموعاً كان له غنمه ، وعلى مؤلِّمه عُرْمُهُ ، وكان له نعمه ، وعلى صاحبه كَدُّهُ ، مع تَعَرُّضِهِ لمطاعن البُغَاهِ ، ولاعتراض

(١) المرمطة النين : من لم يحرب الأمور ، والجاهل الأبله .

(٢) أَجْرِيَا : قصدنا .

الماضين، ومع عَرْضِهِ عَقْلَهُ الْمَكْدُودَ عَلَى الْعُقُولِ الْعَارِعَةِ، وَمَعَانِيَهُ عَلَى الْجَهَانِذَةِ، وَتَحْكِيمِهِ فِيهِ الْمُنَاقِلِينَ وَالْحَسَدَةَ، وَمَنْ طَفَرَ بِمَثَلِهِ صَاحِبَ عِلْمٍ، أَوْ هَمَّ عَلَيْهِ طَالِبُ فِقْهِ، وَهُوَ وَادِعٌ رَأْيِهِ، وَنَشِيطٌ حَامٍ، وَمُؤَلِّفُهُ مُتَعَبٌ مَكْدُودٌ، فَقَدْ كَفَى مَوْبِةَ جَمْعِهِ، وَنَحْرَهُ وَتَتَبَعَهُ، وَطَلَبَهُ، وَأَغْشَاهُ ذَلِكَ عَن طُولِ التَّفَكِيرِ، وَاسْتِعْصَادِ الْعَمْرِ، وَقَلِّ الْحَدِّ، وَأَدْرَكَ أَقْصَى حَاجَتِهِ، وَهُوَ مُجْتَمِعُ الْقُوَّةِ، وَعَلَى أَنَّ لَهُ عَدَدَ ذَلِكَ أَنْ يَحْصَلَ مُجُومُهُ عَلَيْهِ صِرَافًا مِنَ التَّوْفِيقِ، وَظَفَرَهُ بِهِ بَابًا مِنَ التَّسْيِيدِ .

(وهذا كتاب) تستوى فيه رُحمة الأئم، ونشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربيا أصريا، وإسلاميا جماعيا، فقد أخذ من طُرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وحدان الحاسة وإحساس الغريزة، ويشتهي العتيان كما يشتهي السيوح، ويشتهي العاتك كما يشتهي الباسك، ويشتهي اللاعب ذو اللهب كما يشتهي الجِلْدَى ذو الحزم، ويشتهي المُغَلَّ كما يشتهي الأديب، ويشتهي الهَيَّ كما يشتهي العَبَلُ، وعصني بحكاية قول العثمانية والصَّرارية وأنت تسمعتني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والصَّرارية، وكما سمعتني أقول: وقالت الراقصة والرَّيْدِيَّة، حكمت على النَّصَبِ لحكايتي قول العثمانية، فهَلَّا حكمت على النَّشِيعِ لحكايتي قول الراقصة، وهَلَّا كُنتُ عِنْدَكَ مِنَ الْغَالِيَةِ لحكايتي مُجَمِّعِ الْغَالِيَةِ، كما كُنتُ عِنْدَكَ مِنَ الْبَاصَةِ لحكايتي قول البَاصَةِ، وقد حكينا في سخانا قول الإِصَاصِيَّةِ وَالصُّفَرِيَّةِ، كما حكينا أَقَاوِيلَ الْأَرَارِقَةِ وَالْحَدِيدَةِ، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَ الْخَارِجِيَّةُ، وكل أَمَمٍ سِوَاهَا فَإِنَّمَا هُوَ فُرُوعٌ وَنَبِيعَةٌ وَأَشْتِقَاقٌ مِنْهَا، ومحمول عليها، فهَلَّا كُنَّا عِنْدَكَ مِنَ الْمَحْكَمَةِ الْخَارِجَةِ، كما صرنا عِنْدَكَ مِنَ الصَّرَارِيَّةِ، والبَاصَةِ! وكيف رصيت أن تكون الشيعة إلى أهراس الساس أسرع من المارقة! اللهم إلا أن تكون وحدت حكايتي عن العثمانية والصَّرارية أشع وأجمع، وأتم وأحكم وأحد صَعَةً، وأعد عَايَةً، ورأيتني قد وَهَنْتُ حَقَّ أَوْلِيَايَكَ بقدر ما قَوِيْتُ بِاطِلِ أَعْدَائِكَ، ولو كان ذلك كذلك لكان شاهدُكَ مِنَ الْكَلْبِ حَاضِرًا، وبرهائُكَ على ما آذَنتَ وَاضِحًا .

وعنى نكّاب العاسية مهلاً عبتى بحكاية مقالة من ادعى وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الدين رعموا أن ترك الناس سدى لا قيم أرد عليهم ، وهملأ بلا راج أرمح لهم ، وأحذر أن يجمع لهم ذلك بين سلامه العاقل ، وعزيمة الآجل ، وأن تركهم تشراً لا نظام لهم أهد لهم من المعاسد ، وأجمع لهم حل المراشد ! بل ليس ذلك بك ، ولكمة لما بهرك ما سمعت ، وملاً صدرك الذى قرأت ، وأملك وأبطرك فلم تقبه للصحة وهى لك معرصة ، ولم تعرف المقاتل وهى لك مادية ، ولم تعرف باب المخرج إذ جهلت باب المدخل ، ولم تعرف المصادر إذ جهلت الموارد ، ورأيت أن سب الأولياء أشنى لدائك ، وألمح فى شعاء سقمك ، ورأت أن إرسال اللسان أحصر لذة ، وأعد من النصب ، ومن إطالة العزّة ، ومن الاختلاف الى أرباب هذه الساعة ، ولو كنت حين قطعت لمجرك وصلت قصصك تمام عيرك ، وأستكفيت من هو موقوف على كفاية مثلك ، وحيس على تقويم أشباهك ، كان ذلك أزين فى العاقل ، وأحق بالمتوبة فى الآجل ، وكنت إن أخطأتك العيبة لم تخطئك السلامة ، ولقد سلم عليك الخالف ، بقدر ما أثبتى به منك الموافق ، وعلى أنه لم يثبت منك إلا بقدر ما ألزمت من مؤونة تنقيمك ، والتشاغل بتقويمك ، وهل كنت فى ذلك إلا كما قال العرى : * وهل يصير السحاب نوح الكلاب * . وإلا كما قال الشاعر :

هل يصير الحر أمسى راحرا * أن رمى فيه غلام بحجر

وهل حالاً فى ذلك إلا كما قال الأول

ما صر تليل وأئيل أهوتها * أم ملّت حيث تناطح البعرا

وقال حسان :

ما أملأ أنب بالحزن تيس * أم لحانى يظهر غيب لئيم

وما أشك أنك قد جعلت طول إعراسك معك مطية لك ، ووجهت جانبك عنك الى الخوف منك ، وقد قال زفر بن الحارث لبعض من لم يرق حق الصفح بفعل العفو سبباً الى سوء القول :

وَأَنْ عُدْتُ وَاللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَرْشِهِ * مَحْتَكُ مَسُونِ الْعَرَّارِينَ أَرْقَا
فَإِنَّ دَوَاءَ الْجَهْلِ أَنْ تُصَرَّبَ الطَّلِي^(١) * وَأَنْ يُعَمَّسَ الْعَرِيصُ حَتَّى يُغَرَّقَا^(٢)

وقال الأول :

وَمَا نَقَى عَكَ قَوْمَا أَنْتَ خَائِفُهُمْ * كَكَيْلٍ وَلَيْكَ جُهَالًا بِجَهَالِ
وَأَقْعَسَ إِذَا حِدُوا وَأَحْدَبَ إِذَا قَعِسُوا * وَوَايَزِينَ الشَّرَّ مِنْتَالًا بِمِثَالِ

وقال الآخر :

وَصِفَاتِي دَوَائِيهَا بَضَائِي * حَتَّى يَمُتَّ وَالْحُقُودُ حُقُودًا
وَإِنِّي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي سِلَاحٌ مِنَ الْحَارِثِ، وَلَا مُعَارَصَةٌ هَؤُلَاءِ : الشَّرُّ وَالشَّرُّ،
وَالْجَهْلُ بِالْجَهْلِ، وَالْحَقْدُ بِالْحَقْدِ، فَإِنْ عِنْدِي مَا قَالَ الْمَسْعُودِيُّ :

فَسَا تَرَاتِ الْأَرْضُ مِنْهَا خُلْفَتَا * وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشِيرِ
وَلَا تَعَجَّبَا أَنْ تَرْجِعَا قُسْلَا * هَا حُثِي الْأَهْوَامُ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ
فَلَوْ شِئْتُ أَذْلَى فَبِكَا عِيرُ وَاحِدٍ * عَلَانِيَهُ أَوْ قَالَ عَسِيدِي فِي سِتْرِ
وَإِنْ أَنَا لَمْ أَمْرُ وَلَمْ أَنَّهُ عَمَّا * مَحْكَتْ لَهُ حَتَّى يَلْجَ وَيَسْتَشِيرِي^(٣)
وقال التَّيْرُبِيُّ نَوَلْتُ :

جَرَى اللَّهُ عَنِّي حَمْرَةَ سَةِ نَوِيلٍ * جَرَاءُ مُعَلٍّ بِالْأَمَانَةِ كَاذِبٍ
بِمَا حَرَّتْ عَنِّي الْوُشَاةُ لِيَكْذِبُوا * عَلَى وَقْدِ أُولِيئِهَا فِي السَّوَابِ

يقول : أخرجت حمري إلى من يشتهي أن أُعَابَ عندها .

ولو شئنا لمأرصاك من القول مما هو أقبح أثرًا، وأبغى ونمًا، وأصدق قبلا، وأعدل
شاهداً، وليس كل من ترك المearصة فقد صمغ، كما أنه ليس كل من عارض فقد استصر،

(١) الطلي : الأحاق .

(٢) العريس : القى يتزعم لباس الشر .

(٣) كذا في الأصل، وفي اللسان في مادة بلج : تصاحكت حتى يطلع ويستشيري .

وقد قال الشاعر قولاً إن فهمته كَفَيْتَنَا مَوْوَنَةَ المَعَارِصَةِ ، وكفيت نفسك لزوم المار ، وهو قوله :

إِنْ كُنْتَ لَا تَرْتَهَبُ دَعْيِي * تَعْرِفُ مِنْ صَفِيحِي مِنَ الْجَاهِلِ
فَاخْشَ سَكُونِي إِذَا مُنِصَّتَا * فَيْكَ لِمُسْجُوعِ خَمَا الْقَاتِلِ
فَالسَامِعُ الدَّمَّ مُقْتَرَبُهُ * كَالْمَطْعَمِ الْمَاكُولَ لِلْكَاهِلِ
مَقَالَةُ السَّوَاءِ إِلَى أَهْلِهَا * أَسْرِعْ مِنْ مُنْجِدِ سَائِلِ
وَمَنْ دَعَى السَّاسَ إِلَى دَعْوِهِ * دَعَاوُهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
فَلَا تَنْجِ إِنْ كُنْتَ ذَا إِدْرِيَةِ * تَرَبَّ أُنَى التَّجْرِيبَةِ الْعَاقِلِ
وَإِنْ ذَا الْعَقْلِ إِذَا هَتَّهْ * هَتَّتْ بِهِ ذَا خَبَلِ خَائِلِ
يُنْصَرُ فِي عَاجِلِ شَدَائِهِ * عَلَيْكَ عِثْرُ الصَّرْرِ الْآحِلِ

وقد يقال : إنَّ العَمَوَ يُسَدُّ مِنَ اللَّيْمِ بِقَدْرِ إِصْلَاحِهِ مِنَ الْكَرِيمِ ؛ وقد قال الشاعر :

وَالْعَمَوُ عَدْلِيْبُ الْقَوْمِ مَوْعِظَةٌ * وَبَعْضُهُ لَسِيْعُهُ الْقَوْمِ تَذْرِيبُ

وإنَّ كَمَا قَدْ أَسَانَا فِي هَذَا التَّقْرِيعِ وَالتَّوْقِيفِ ، فَالَّذِي لَمْ يَأْخُذْ بِنَا بِحُكْمِ الْقُرْآنِ ، وَلَا نَادَبَ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يَفْزَعْ إِلَى مَا فِي الْفِطَنِ الصَّحِيحَةِ ، أَوْ إِلَى مَا تَوَجَّهَ الْمُقَابِسُ الْمُطْرِدَةُ ، وَالْأَمْثَالُ الْمَصْرُوبَةُ ، وَالْأَشْعَارُ السَّائِرَةُ ، أَوَّلَى بِالْإِسَاءَةِ ، وَأَحَقُّ بِاللَّائِمَةِ ، قَالَ اللَّهُ حَلَّ شَاؤُهُ : ﴿ وَإِرَاهِمَ آلِدِي وَفِي الْأَتَزَّرُ وَازَرَّةٌ وَرَزْرَأُنْخَرِي ﴾ وقد قال النبي عليه الصلوة والسلام : " لَا تَقْبَلُ يَمِيْنُكَ عَلَى شَيْءٍ مَالِكٍ " وَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ ، وَآدَابُ رُسُولِهِ ، وَالَّذِي أُثِرِلَ بِهِ الْكُتَّابُ ، وَدُلَّ عَلَيْهِ فِي مُجْمَعِ الْعُقُولِ .

أَخَذَ الْبَرِيءَ بِذَنْبِ الْمَذْنَبِ

ثم قال في أخذ البريء بذنب المذنب . فأما ما قالوا في المثل المصروب ، " رَمَتْنِي بِدَائِيهَا وَأَنْسَلَتْ " . وَأَمَّا قَوْلُ الشُّعْرَاءِ وَذَمُّ الْخَطِيئَةِ لِمَنْ أَخَذَ إِنْسَانًا بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، وَمَا ضَرَبُوا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَالِ ، كَقَوْلِ الْبَاضَةِ حَيْثُ يَقُولُ فِي شِعْرِهِ :

وَكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرْكُهُ * كَلَّفَتْنِي الْعَرِيْكَوِيَّ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

وكانوا إذا أصاب إلههم العُزُكُورُ السليم لينهب العُزُ عن السقيم فأسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم، وكانوا إذا كثرت إبلُ أحدهم فلفت الألف فقتوا عينَ الحمل، وإن زادت الإبلُ على الألف فقتوا عينه الأخرى، وذلك المعقأ والمعقأ والمُعقأ اللذان سمعتَ بهما قال العرزدق :

عَلَيْتُكَ بِالْمُعْقَأِ وَالْمُعْمَى ^(١) • وَبَيْتِ الْمُجْتَبَى ^(٢) وَالْحَافِقَاتِ

وكانوا يزعمون أن المعقأ يطرد عنها العين والسُواف والغاره فقال الأول :

فَقَاتُ لَهَا عَيْنَ الْعَجِيلِ تَمِيحًا • وَمِنْ رَعْلَاءِ الْمَسَامِيعِ وَالْحَامِ

الرَّعْلَاءُ : التي تُشَقُّ أذنُها وتترك مُدْلَاءَ لَكَرْمِهَا .

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمية، كقول الرجل إذا بلغت إبلُ كذا وكذا، وكذلك عَمَى ذبحتُ عدد الأوثان كذا وكذا عَيَرَةً، والعَيَرَةُ : من تُسَكِّ الرَجِيَّةَ، والجمع عتائر، والعتائر من الشاء، وإذا بلغت إبلُ أحدهم أو عَمَهُ ذلك العدد استعمل التأويل وقال : إِنَّمَا قَلْتُ : إِنِّي أَذْبَحُ كَذَا وَكَذَا شَاءً، والطباء : شاء، كما أن العلمَ شَاءً، بفعل ذلك القُرْبان كله مما يصيد من الطباء، فلهذا يقول الحارث بن حِزَّةَ الشُّكْرِيُّ :

عَتَا مَاطِلًا شَلُوحًا كَمَا تُعَدُّ • تَرُدُّ عِجْرَةَ الرَّيْبِصِ الطَّبَاءُ

بعد أن قال :

أُمَ عَلَيْنَا حُنَاتُ كِدَّةٍ أَنْ يَفْ • نَمَ عَازِيهِمْ وَمَا الْجِسَاءُ

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب، إما لكَدْرِ الماء وإما لقلَّةِ العطش، صربوا الثور ليقتحم الماء لأن البقر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الحمل، وكما تتبع أُنثَى الوحش الجمار، فقال في ذلك صوف بن الخريج :

تَمَّتْ طَيِّءٌ جُهْلًا وَجُبَا • وَقَدْ حَالِيَهُمْ فَأَنُوا حِلَالِي

يَجُونِي أَنْ يَهْوَتْ جِبَالٌ سَلَمَى • كَصَرِبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّاهِ

(١) في اللسان مادة «عقا» المعنى • (٢) كذا في الأصل وفي اللسان «المجتبى»

بالحاء المهملة • (٣) السواف. مرض الابل • (٤) كذا في الأصل وفي اللسان مادة «ر» و«طما» •

وقال في ذلك أس بن مُدْرِكَة في قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إني وقيل سُلَيْكاً ثم أعقله * كالنور يصرب لماعيت البقر^(١)
أهت للبرء إذ تفتى حليته^(٢) * وإذا يسد^(٣) على وجعائها الثغر^(٤)

وقال الهيبان الفهمي :

كما صرب العسوب أن عاف باقر * وما ذنبه أن عافت الماء باقر

ولما كان الشور أمير البقر، وهي طعيمة كطاعة إناث الحبل لليعسوب سماه مأم أمير النحل .

وكأوا يزعمون أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تُسِك البقر عن الشرب حتى تهلك، وقال في ذلك الأعشى :

وإني وإن كلفتموني وربكم * لأعلم من أمسي أحق وأحوبا
لكالنور والجن يصرب طهره * وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه أن عافت الماء باقر * وما إن تعاف الماء إلا ليصرما

كأه قال : إذ كان يصرب أبدا لأنها عافت الماء، فكانها إنما عافت الماء ليضرب؛

وقال يحيى بن منصور النحلي في ذلك :

لكالنور والجن يصرب وجهه * وما ذنبه إن كانت الجن طاملة

وقال نهشل بن جرّ :

أنتزك عارض وبسو عدى * وتعرم دارم وهم برأ
كدأب النور يصرب بالهراوى * إذا ما عافت البقر العلاء
وكيف تكلف الشعري متيلا * وبينهما الكواكب والسماء

(١) والسان : « عصت » . (٢) في الأصل « وإن » والتصويب من السان .

(٣) الثمر : البير الذي في مؤخر العرج .

وقال أبو ثورية بن حصين حين أخذه الحكم بن أيوب بنب المطرق :

أبا يوسف لو كنت تعلم طاعتي * ونصحي إذا ما عتني بالخلق
ولا ساء سرائ العرافة صالح * نبي ولا كلفت دب المطرق

وقال حداد بن زهير حين أحد بدماء بني محارب :

أكلفت قتل معشر لست منهم * ولا دارهم داري ولا نصرهم نصري
أكلفت قتل العيص عيص شواحيط . وذلك أمر لم تُشف له قنري

وقال الآخر :

إذا عرك عجل بادب طيئ * عركنا بيم اللات دب بني عجل

ولما وجد اليهودي أبا حصين الصبائي في سبيله خصاه فاب، وأحد حصين بن عيس
بحماية اليهودي قال قيس بن زهير أناحدنا دب عيرا، وتسالنا العقل، والقائل يهودي
من أهل تميم قال . والله لو قتله هيف الريح لوديموه، فقال قيس لبي عيس : الموت
في بني دبيان خير لكم من الحياة في بني عامر، ثم أشا يقول :

أكلفت ذا الحصين إن كان طامًا * وإن كنت مطلوبًا وإن كنت شاطيًا
حصاه أمرؤ من أهل تيماء طار * ولا يقدم الإنسي والحس طاسا
فهلا بي ديبان أمك هائل * رهت يهف الريح إن كنت راهبا
إذا قلت قد أملت من شر حصين * أنا في مآحر شره متاطبا
فقد حملت أبادنا نجتويكم * كما تحتوي سوق العصاة الكرايا

ولما قتل لقمان بن عاد أبته وهي مضر بنت لقمان قال حين قتلها : ألسيت أمراه °
وذلك أنه تزوج عده ساء وكلهن حه في أهسهن، فلما قتل أهرهن ونزل من الحمل كان
أول من تلقاه مضر ابنته، فوثب عليها فقتلها، وقال وأيت أيضا أمراه، وكان قد أسل أيضا
بأن أخته كانت مُحقة، وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى ساء لقمان . هذه ليلة طهرى

وهي ليلتك، فدعني أم في مصجحك، فإن لقمان رجلٌ مُنجِبٌ، فعسى أن يقع على فأُنَجِّبُ،
فوقع على أخته فحملت بَلَقِيمَ وفي ذلك قول النثرين تَوَلَّى :

لَقِيمُ سُلَيْمَانَ مِنْ أَخْتِهِ * فَكَانَ أَبْرَأَ أَخٍ لَهُ وَأَجْمَا
لِيَالِي حَقِّكَ فَاسْتَحْصَنْتِ * عَلَيْهِ فَفَرَّ بِهَا مُظْلِمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ مَحْكُمٌ ^(١) * طَاعَتْ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

فضربت العرب في ذلك المثل بقتل لقمان بنته مُخْرًا فقال خُصَافُ بْنُ تَدْبَةَ في ذلك :
وَعَبَّاسٌ يُدْبِ لِي الْمَايَا * وَمَا أَذْنِبْتُ إِلَّا ذَنْبَ مُخْرِ

وقال في ذلك أْبْرَأُ أَدْبَةَ :

أَجْتَمَعَ تَيْيَمًا بَلِيلًا إِذَا نَأَتْ * وَفِرَانَهَا ظُلُمًا سَكَا ظَلِمَتْ مُخْرٌ

وقال الحارث بن عُبَاد :

قَرَّبًا مَرْبُوطَ الْعَامَةِ مَنَى * لِفَعَتْ حَرْبٌ وَائِلٌ عَنِ حِيَالِ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ * لَهَا وَإِنِّي بِحَرْمِهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال الشاعر وأظنه أْبْرَأُ الْمُقَمِّعَ :

فَلَا تِلْمُ الْمَرْءَ فِي شَأْنِهِ * فَرَّتْ مَلُومٌ وَلَمْ يُدْبِ

وقال آخر :

لَعَلَّ لَهُ عَدْرًا وَأَسَتْ تَلُومٌ * وَكَمْ لَانِمٌ قَدْلَامٌ وَهُوَ مُلِيمٌ

وقال بعض العرب في قتل بعض الملوك سِيَمَارَ الرُّومِيِّ : فَإِنَّهُ لَمَّا عَلَا الْخَوْرَقُ ، وَرَأَى
بُنْيَا لَمْ يَرْمَثْهُ ، وَرَأَى ذَلِكَ الْمُسْتَشْرِفَ ، وَحَافَ إِنَّهُ هُوَ أَسْتَبْقَاهُ أَنْ يَمُوتَ فَيَبْنَى مِثْلَ ذَلِكَ
الْبُنْيَانِ لِمَلِكٍ آخَرَ ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُمِيَ مِنْ هَوْقِ الْقَصْرِ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ الْكَلْبِيُّ فِي شَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
بعض الملوك :

جراني جراه الله شرَّ جرائه * جراه سيمار وما كان فادب
يسوى رصه الثيان سبعن حمة * يعلى عليه القراميد والسكب
فلما رأى الثيان تمَّ محوَّقه : وأض كمثل الطوددى البادح الصفي
فظنَّ سيمار به كلَّ حنو * وفار لديه بالموذ والقرب
فقال اقدفوا بالملج من رأس شاهي * هناك لَمَرَّاقه من أعظم الخطب

وحاء المسلمون يروى حلف عى سلف، وتأنع عن ساق، وأنزع عى أفل، أهتم
لم يحتلوا عى عيب قول المحتاج : لأحدث، السمي بالسمي والولى بالولى، والجار بالجار،
ولم يحتلوا عن لعن شاعرهم حيث نقول .

إذا أخذ البرى، غير جريم * تحب ما يحاذره السقيم

قال : وقيل لعمرو س عبيد إن فلانا لما قدم رجلاً يصير عقه قليل له : إنه
مجنون، قال : لولا أن المحبون يلد عاقلاً خلئت سبله، قال فقال عمرو . وما حلق الله البار
إلا بالحق .

ولما قالت التغلبيّة للحصاف س حكيم وقعه البشر: وص الله عمادك . وأطال شهادك،
وأقل رمادك، فوالله إن قتلت إلانساء أساطهن دعي، وأعالين ندى، فقال لمن حوله : لولا
أن تلي هذه مثلها خلئت سبلها، فبلغ ذلك الحسن فقال : إن الجحاف جندوة من نار جهنم .
قال وقدّم رجل عند الأحنف بن قيس الكأه السمر، فقال عد ذلك الأحنف : رب
مَلُوم لا ذنب له ؛ فهذه السيرة سرت فيما ؛ وما أحسن ما قال سعيد بن عبد الرحمن
ابن حسان :

وإن أمرأ يمي ويصبح سالماً * من الناس إلّا ما جنى لسعيد

وقلت : وما نال أهل العلم والنظر، وأصحاب الفكر والعبر، وأرباب النحل، والعلماء
بمخرج المثل، وورثة الأنبياء، وأعوان الخلفاء، يكتبون كتب الطرءاء والملاء، وكُتبت
الفراغ والخلفاء، وكُتبت الملاهي والمكاهات، وكُتبت أصحاب الحصومات والمراء، وكُتبت

أصحاب العصبية، وحمية الحاهلية، حتى كأنهم لا يجاسون أنفسهم، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم، ولا يحامون تصفح العلماء، ولا لائمه الأداء وتشف الأكفاء، ومساءة الخُساء؛ فهلاً أمسكت رحمك الله عن عينا، والطعن عليها، وعن المشورة والموعظة، وعن تحويف ما فيه سوء العاقبة إلى أن تبلغ حال العلماء، ومراتب الأكفاء.

أقسام البيان

وبعد أن تكلم في تقسيم العالم إلى ثلاثة أقسام، وذكر أقسام الحيوان، قال في أقسام البيان :

وحدنا الحكمة على صريين . شئ حُيِّلَ حِكْمَهُ وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشئ جُعِلَ حِكْمَةً وهو يعقل الحكمة وعاقبة الحكمة، فاستوى بَدَنُ الشئ العاقل وغير العاقل في حجة الدلالة على أنه حِكْمَهُ، واحتلها من جهة أن أحدهما دليل لا يُستدلُّ، والآخر دليل يُستدلُّ، فكلُّ مُستدلِّ دليل، وليس كلُّ دليل مُستدلٍّ، مشارك كلِّ الحيوان سوى الإنسان جميع الجهاد في الدلالة وفي عدم الاستدلال، واحتج للإنسان بأن كان دليلاً مُستدلًّا، ثم حُيِّلَ لِلْمُتَدَلِّ سَبَبٌ بَدُلَ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال، وستموا ذلك بيانا، وجعل ذلك البيان على أربعة أقسام . لفظ وخط وعقد وإشارة، وجعل بيان الدليل الذي لا يُستدلُّ تمكيكه المُتَدَلِّ من نفسه واقتياده كلَّ مَنْ فكر فيه إلى معرفة ما استُخِزَ من الدهان، وحُشِنَ من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة، فالأجسامُ الحُرُسُ الصامتة ماطقة من جهة الدلالة، ومُعْرِيةٌ من جهة صحة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحكمة تلوحان لمن استحدهما، وينطفعان لمن استنطقهما كما يحير المُرْزَالُ وكود اللون عن سوء الحال، وكما يعطى السَّمْنُ والنصرة عن حسن الحال، وقد قال الشاعر :

ساجوا فاشوا بالذي أت أهله * ولوسكتوا أثمت عليك الحقائق

وقال آخر :

مَتَى تَكُ في عدوٍّ أو صديق * تخبرك العيون عن القلوب

وقد قال العُكْلِيّ في صدق شمه الذئب ، وفي شدة حسه وأسترواحه :

يستحبر الرِيحُ اذا لم يَسْمِعِ * بمثل مِقْرَاعِ الصفا المَوْجِعِ

وقال صترة وهو يصف بَيْبَ عَرَبَات :

حَرَى الجَنَاحِ كَأَن لَّحْيَ رَأْسِهِ * حَلَمَانِ بِالْأَحْصَارِ هَشٌّ مُوَلِّعٌ

وقال الفصل بن عيسى بن أمان في قَصَصِهِ : سل الأرض فقل : مَنْ شَقَّ أَهْأَرْكَ ، وعَرَسَ أَشْهَارَكَ ، وَحَتَّى يُمَارِكَ ، فإن لم تخشك حوَارا ، أحاسنك اعتاراراً ، فهو صوع اللحم ونهضته دليلٌ على ما فيه ، وداعيةٌ اليه ومنته عليه ، فالحماد الآنكم الأخرس من هذا الوحه قد شارك في البيان الإنسان الحَيُّ الناطقُ ، فمن حمل أقسامَ البيان خمسةً فقد ذهب أيضا مدحا له جوارٌ في اللغة ، وشاهدٌ في العقل ، فهذا أحدُ قِسْمَي الحِكْمَةِ ، وأحدُ مَسَبِّحَي ما آستخزنها الله تعالى من الوديعه .

القسمه الأخرى ما أودع صدورُ صُوف سائر الحيوان من صروب المعارف ، وفطرها على عريب الهدايات ، وسحر حارها له بصرب العم المورودة ، والأصوات الملحمة ، والمهاجر الشجيه ، والأعالي المطربة ، فقد يقال . إن جميع أصواتها مهذلة ، ومورودة موقعة ، ثم الدى سبَّل لها من الرفق العجيب في الصعته مما دله الله تعالى لما قيرها وأكفها ، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هب لها من الآله ، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف ، والصعته النديعه عن غير تأديب وتثقيف ، وعن غير تقويم وتلقين ، وعن غير تدريج وتمرير ، فملت بعفوها ومقدار قُوَى فطرتها من البديه والارتجال ، ومن الابتداء والاقتصاب ، ما لا يقدر عليه خُذائُ رجال الرأي ، وفلاسفة علماء البشر ببيد ولا آله ، بل لا يبلغ ذلك من الناس أَكْثَرُهُمْ حصالا ، وأعمُّهُمْ حِلالا ، من جهة الارتجال والاقتصاب ولا من جهة التعسف والاقتدار ، ولا من جهة التقديم فيه ، والتأني له ، والترتيب لمقدماته ، وتمكين الأسباب المئينة عليه فصار جهد الإنسان الثاقب الحس ، الجامع القوي ، المتصرف في الوحوه المتقدم في الأمور يسير عن عفو كثير منها ، وينظر اد نظر

الى صروب ما يحىء منها كما أُعْطِيَت العسكوت ، وكما أُعْطِيَت السُرْقَةُ ، وكما عُلِمَ النحل ، بل عَرَفَ التَّنَوُّطُ من بديع المعرفة ، ومن عريب الصعقة في غير ذلك من أصناف الخلق ثم لم يوجد لهم العحر في أصمهم في أكثر ذلك إلا عما قوى عليه الممَّج والمخاش وِصْفَار الحشرات ، ثُمَّ حَمَلَ الإنسان ذا العقل والتمكين ، والاستطاعة والتصريف ، وذا التكاف والتجربة ، وذا التأني والمفاصة ، وصاحَبَ الادحار والمتفقد لشان العاقبة متى أحس شيئا كان كُلُّ شَيْءٍ دونه في المموص عليه أسهل ، وَحَمَلَ سائر الحيوان وإن كان يُحَسُّ أحدها ما لا يُحَسُّ أحدُ الناس متى أحس شيئا عجيا لم يمكنه أن يُحَسِّنَ ما هو أقرب منه في الطق . وأسهل منه في الرأي ، بل لا يحس ما هو أقرب منه في الحقيقة ، فلا الإنسان حَمَلَ مَسَّهُ كذلك ، ولا شَيْءٌ من الحيوان آخِثَار ذلك ، فأَحَسَّتْ هذه الأحاس بلا تعلم ما يمنع على الإنسان ، وإن تعلم فصار لا يحاوله إذ كان لا يطمع فيه ، ولا يحسدها إذ كان لا يَأْمُلُ المُتَاقِ بها ، ثم حمل تعالى وعَرَ هاتين الحِثْثِين إِزَاءَ عيون الباطرين ، ونُحَاهُ أَسْمَاعِ المتعثرين ، ثم حَثَّ على التفكير والأختار ، وعلى الأكتاط والأزدحار ، وعلى التعرف والتبين ، وعلى التوقف والتذكر ، فعملها مُدْكِرَةٌ مَبْتَهَةٌ ، وجعلَ الفطر تنشي - الخواطر ، وتجهول بأهلها في المداهب ، ذلك رَبُّ العالمين ، سبحانه الله رَبُّ العالمين .

وهذا كتاب موعظة وتعرف ، وتعمق ونبيه ، وأراك قد عِثَّته قبل أن تَقِفَ على حدوده ، وتَمَكَّرَ في فصوله ، وتَدَكَّرَ آخِرَهُ مَأْوَلُهُ ، ومصادرُهُ بموارده ، وقد عَلَّطَكَ بِهِ مَعْنُ ما رَأَيْتَ في أَشَانِهِ من مَزِيح لم تعرف معانيه ، ومن طَالَتْ لم تترك عَوْرَهَا ، ولم تَدِرْ لَمْ أَجْتَلَيْتَ وَلَئِي عِلَّةٌ تُكَلِّفُ ، وأَيُّ مَعْنَى أَرِيعَ بِهَا ، وَلَئِي جِدَّ أَحْتَمِلَ ذَلِكَ الْهَزَلُ ، وَلَئِي رِيَاصَةٌ يُجَشِّمُتْ نَكَ الْبَطَالَةُ ، ولم تَدِرْ أَنَّ الْمُرَاحَ جِدَّ إِذَا أَجْتَبَ لِأَن يَكُونَ مِلَّةً لِحَيْدٍ ، وَأَنَّ الْبَطَالَةَ وَقَارٌ وَزَمَانَةٌ إِذَا تُكَلِّفَتْ لِنَكَ الْعَاقِبَةُ ، وَلَمَّا قَالَ الْحَلِيلُ بَرَّ أَحْمَدُ : لا يصل أَحَدٌ من علم النحو الى ما يحتاج اليه حتى يتعلم ما لا يحتاج اليه ، قال أبو شمر : إذا كان لا يصل الى ما يحتاج اليه إلا بما لا يحتاج اليه فقد صار ما لا يحتاج اليه يحتاج اليه ، وذلك

مثل كتابها هذا، لأنّما إن حملنا جميع من يتكلّف قراءه هذا الكتاب على مرّ الحق، وصُعوبة الجهد، ويقلّ المؤونة وحقيقه الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلّا من قد تحرّد للعلم وفيهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر من عزّه، وبال من سروره على حسب ما يورث الطول من الكد، والكثرة من السّامة، وما أكثر من يُقاد إلى حفظه بالسواحيب، والسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة .

مدح الكتب

ثم ذكر فقرات حسناً في مدح الكتب فقال .

ثم لم أرك رصيت الطعن على كلّ كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك، إلى أن عنت وصع الكتب كيما دارت بها الحال، وكيف تصرّفت بها الوجوه . وقد كنت أعجب من عيبك المعصّ بلا علم، حتى عنت الكلّ بلا علم، ثم تجاوزت ذلك إلى التشيع، ثم تجاوزت التشيع إلى نهب الحرب، هنت الكتاب وسيم الدنر والعدّة، وسيم الجليس والعمدة، وسيم النشوة والنزهة، وسيم المشتغل والحرفه، وسيم الأيس ساعة الوحدة، وسيم المعرفة ببلاد الفرقة، وسيم القرس والدخيل، وسيم الوزبر والبريل، والكتاب وطء مليّ علبا، وظرف حثي ظرفا، وإماء شخص مرأحا وجذا، إن شئت كان أين من تحيان وائل، وإن شئت كان أعيان مائل، وإن شئت صبحت من بوادره . وإن شئت عجت من عرائب فوائده، وإن شئت ألتك بوادره، وإن شئت شئتك مواعظه، ومن لك بواعظ مله، وبزاجر معر، وبباسك فاك، وبباطني أنحرس، وببارد حار، وفي البارد الحار يقول الحسن بن هاني :

قلّ زهير إذا أنتهى وشدا * أقلل أو أكثر فانت مهتدار
نحنت من شدة البرودة حتى صرت عيدي ككائنك البار
لا يعجب السامعون من صمتي * كذلك الثلج بارد حار

وَمَنْ لَكَ طَلِيبٌ أَعْرَاقِي ، وَرَوْحِي هِنْدِي ، وَهَارِسِي يُونَانِي ، وَتَقْدِيمِي مَوْلَدِي ،
وَبِمَيْتِي نَتِيع ، وَمَنْ لَكَ شَيْءٌ يَجْمَعُ لَكَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ ، وَالنَاقِصَ وَالْوَاقِعَ ، وَالْخَفِيَّ وَالظَّاهِرَ ،
وَالشَّاهِدَ وَالْفَائِثَ ، وَالرَّيْعَ وَالْوَصِيْعَ ، وَالْعَثَّ وَالسَّمْنَ ، وَالشَّكْلَ وَحِلَافَهُ ، وَالْحُسْنَ وَصِدْهُ .
وبعد ، فإني رأيت نبتاً ينحلي في رُؤْد ، أوروصة تُنْقَلُ في حِجْرٍ ، واطفاقاً ينطلق عن
الموْتِ ، وَيُتْرَحِمُ كَلَامَ الْأَحْيَاءِ . وَمَنْ لَكَ عُمْرٌ لَا يَبْلُغُ إِلَّا سَوْمُكَ ، وَلَا يَبْطِقُ إِلَّا بَمَا
تَهْوَى ، آمِنٌ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَكْمَلُ لِلسَّرِّ مِنْ صَاحِبِ السَّرِّ ، وَأَصْطَلُ لِلوَدِيعَةِ مِنْ أَرَامِ
الْوَدِيعَةِ ، وَأَحْمَطُ لِمَا اسْتَحْفَظَ مِنَ الْأَقْبَتِ ، وَمِنَ الْأَعْرَابِ الْمَعْرَسِ ، بَلْ مِنَ الصَّهْبَانِ
قَبْلَ اعْتِرَاضِ الْأَشْعَالِ ، وَمِنَ الْعُمَيَّانِ قَبْلَ التَّمَتُّعِ بِتَيِّبِ الْأَنْثَاصِ ، حِينَ الْمَيَاةُ تَأْتِي لَمْ تَقْصُصْ ،
وَالْإِدْهَانُ فَارِغَةٌ لَمْ تُقْتَسَمْ ، وَالْإِرَادَةُ وَاقِعَةٌ لَمْ تَسْتَعِبْ ، وَالطَّيْبَةُ لَيْتَهُ هُوَ أَهْلٌ مَا تَكُونُ لِلطَّاعِ ،
وَالْقَصْبُ رَطْبٌ فَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الْعُلُوفِ ، حِينَ هَذِهِ الْحَصَالُ لَمْ يَتَلَّ حَدِيثُهَا ،
وَلَمْ يُعَلَّ عَرَبِيَّهَا ، وَلَمْ تَعْرِفْ قُرَاهَا ، وَكَأَنَّ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى : فَصَادَفَ قُلُسًا فَارَعًا فَتَمَكَّمَا
وَقَالَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّلِيبِ (٢) :

لَا تَأْمَنُوا قَوْمًا يَنْتَبِئُ صَبِيْهِمْ ، مِنَ الْقَوَائِلِ الْعَدَاوَةِ يَنْشَعُ
هَذَا مَعَ قَوْلِهِمْ : التَّعَلُّمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ ، وَقَالَ جِرَانُ الْعَوْدِ :
تُرَكِّبُ رِيْخَ لِهَ الرُّوحَاءِ حَتَّى : تَكْرُثَ الدَّمَارُ عَلَى الْبَصِيرِ
كَوْحِي فِي الْمَخَارَةِ أَوْ وَشُورِمْ . نَائِدِي الزُّوْمِ نَائِقِيهِ الزُّوْرِ
النُّوْرُ شَيْءٌ كَانَ يُسَلُّ فِي الْحَاطَةِ مِثْلَ الْحَصْرِ الْيَوْمِ .

وَقَالَ آخَرُهُ وَهُوَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ :

وَلَمَّا مَنِ أَذْبَتَهُ فِي الْعَصَا * كَالْعَوْدِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي عَرْسِهِ
حَتَّى تَرَاهُ مُوْرِقًا أَحْصَرَا * بَعْدَ الَّذِي أَهْصَرْتَ مِنْ يُسْبِهِ

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَهَا . « يَطْلُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ . « نَمِيْرَةٌ » وَهُوَ حَاطٌ صَوَاهُ مَا أَشْتَاهَى مِنَ الشَّرِّ وَالشَّرَاءِ لِأَنَّ قَبِيْعَةَ .

وقال آخر :

يَقُومُ مِنْ مَيْلِ الْعَلَامِ الْمُؤَدَّبِ * وَلَا يَفْعُ التَّادِيْبُ وَالرَّاسُ أَشِيْبُ

وقال آخر :

أَدْبَتْ عِرْسِي بَعْدَ مَا هِرِمْتُ • وَمِنْ الْعَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرِمِ

وقد قال ذو الرقة لميسى بن عمر : اَكْتُبْ شِعْرِي فَالْكَاتِبُ أَعْجَبُ إِلَى مِنَ الْحَفَظِ ،
إِنَّ الْأَمْرَاءَ يَنْسِي الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرَتْ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً ، فَيَصْغُ فِي مَوْصِفِهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا
ثُمَّ يُبَشِّدُهَا النَّاسَ ، وَالْكَاتِبُ لَا نَسِيَ ، وَلَا يُبَدِّلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ ،

وعت الكاتِبَ وَلَا أَعْلَمُ حَارًا أَبْرَ ، وَلَا حَلِيظًا أَصْفَ ، وَلَا رَفِيقًا أَطْوَعَ ، وَلَا مَعْلَمًا
أَحْصَعَ ، وَلَا صَاحِبًا أَطْهَرَ كَمَايَةً ، وَلَا أَقْلَ جَيَايَةً ، وَلَا أَقْلَ إِمْلَالًا وَإِبْرَامًا ، وَلَا أَقْلَ
حِلَافًا وَإِحْرَامًا ، وَلَا أَقْلَ عِيَّةً ، وَلَا أَمَدَ مِنْ عَصِيَّةٍ ، وَلَا أَكْثَرَ أَعْمُوَّةً وَتَصَرُّفًا ، وَلَا أَقْلَ
صَالَمًا وَتَكَلُّمًا ، وَلَا أَمَدَ مِنْ مِرَاءٍ ، وَلَا أَتْرَكَ شَفِّ ، وَلَا أَزْهَدَ فِي حَدَالٍ ، وَلَا أَكْفَ
عَمِّ قِتَالٍ ، مِنْ كِتَابٍ ، وَلَا أَعْلَمُ قَرِيبًا أَحْسَنَ مَوَاتَاةً ، وَلَا أَعْمَلَ مَكَافَاةً ، وَلَا أَحْصَرَ
مُعُونَةً ، وَلَا أَخَفَّ دُؤُوبَةً ، وَلَا شَحْرَهَ أَطْوَلَ غُمْرًا ، وَلَا أَحْمَعَ أَمْرًا ، وَلَا أَطْيَبَ ثَمَرَةً ،
وَلَا أَقْرَبَ بُحْبُحِي ، وَلَا أَسْرَعَ إِدْرَاكًا ، وَلَا أَوْحَدَ فِي كُلِّ إِيَّايَ مِنْ كِتَابٍ ؛ وَلَا أَعْلَمُ نِتَاحًا
فِي حَدَاثَةِ سَنَةٍ ، وَقُرْبَ مِيلَادِهِ ، وَرَحِيصَ ثَمَرِهِ ، وَإِمْكَانَ تَوْجُودِهِ ، يَجْعُ مِنْ التَّدَاوُرِ
الْعَجِيبَةِ ، وَالْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمِنْ آثَارِ الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ ، وَمَجُودِ الْأَذْهَانِ اللَّاطِيفَةِ ، وَمِنْ
الْحِكْمِ الرَّبِيعَةِ ، وَالْمِزَاجِ الْقَدِيمَةِ ، وَالتَّحَارِبِ الْحَكِيمَةِ ، وَمِنْ الْأَخْصَارِ الْقُرُونِ
الْمَاضِيَةِ ، وَالْبِلَادِ الْمَتَرَاخِيهِ ، وَالْأَمْثَالِ السَّائِرَةِ ، وَالْأَنْمِ الْبَائِدَةِ مَا يَجْمَعُ لَكَ الْكِتَابُ .

وقد قال الله عز وجل لبيته عليه الصلاة والسلام : نَزِيراً قَرَأَ وَرَكَعًا أَلَا تُكْرِمُ الَّذِي عِلْمٌ
يُؤَلِّمُ ؟ وَصَفَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حُدَّهُ نَانَ عِلْمٍ مَالِقُمٍ ، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ، وَآخَذَ
ذَلِكَ فِي بَيْمِهِ الْعِظَامِ ، وَفِي أَوَادِيهِ الْحَسَامِ ، وَقَدْ قَالَتْ : الْقَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِينَ ،
وَقَالُوا : كُلُّ مَنْ عَرَفَ فَصْلَ الْعَمَةِ فِي بَيَانِ الْإِنْسَانِ كَانَ بِفَصْلِ الْعَمَةِ فِي بَيَانِ الْقَلَمِ

أعرف ، ثم جعل هذا الأمر قرآنا ، ثم جعله في أول التبريل ، ومُستفتح الكتاب ، ثم أعلم - يرحمك الله تعالى - أن حاحه بعض الناس إلى بعض صفة لازمة لعلهم ، وحلقة قائمة في حواجرهم ، وناتئة لا تزالهم ، ومحيطه بمخاضهم ، مشتتة على أذانهم وأقاصيهم ، وحاحتهم إلى ما عاب عنهم ، مما يُعيبهم ويُخبئهم ، وأحد أزمافهم ، ويُصلح ما لهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التعاون على ذلك ، والتوارر عليه كحاجتهم إلى التعاون على معرفه ما يحضرهم ، والتوازر على ما يحتاجون من الارتفاق في أمورهم التي لم تصب عنهم ، فحاجة العائث موصولة بحاجه الشاهد ، لاحتياج الأدنى إلى معرفة الأقصى ، واختلال الأدنى إلى معرفة الأقصى ، معانٍ متصصة ، وأسباب متصلة ، وحالٌ مُقيدة ، وجعل حاجتنا إلى معرفة أحوار من كان قلما كحاجه من كان قلما إلى أحوار من كان قبلهم ، وحاجة من يكون بعدما إلى أحوارنا ، ولذلك تقدمت في الكتب البشارات بالمرسل ، ولم يُسعر لهم جميع حلقه إلا وهم يحتاجون إلى الارتفاق بجميع حلقه ، وجعل الحاجة حاجتين : إحداهما قوام وقوت ، والأخرى لذة وإمتاع ، وأردباد في الآلة ، وفي كل ما أحدل العوس ، وجمع لهم العناد ، وذلك المقدار من جميع الصفيين وفق لكثرة حاجتهم وشهواتهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم ، وبعد عورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشرية ، وقطره الإنسانية ، ثم لم يقطع الريادة عنهم إلا لعجز حلقهم عن احتمالها ، ولم يحز أن يعزق بينهم وبين العجز إلا بسدم الأعيان ، إذا كان العجز صفة من صفات الخلق ، وتنت من صوت العبيد ، ولم يتلقى الله تعالى أحدا يستطيع بلوع حاجته سمسه دون الاستعانة ببعض من يُعزله ، فأدبهم مُسخر لأقصاهم ، وأحلقهم مُيسر لأدقهم - وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوق في باب ، وأحوج السوق إلى الملوك في باب ، وكذلك الغنى والفقير ، والعد وسيدّه .

ثم جعل الله تعالى كل شيء لالاسان حولا وفي يده مُدالا مُيسرا ، إما بالاحتيال له ، والتلطف في إراعتة وأسمائله ، إما بالموله عليه والفنك به ، وإما أن يأتيه سهوا ورهوا ، وعلى أن الإنسان لولا حاجته إليها لسا احتال لها ، ولما صال عليها ، إلا أن الحاجة تفترق

في الجنس والجهة، وفي الحظ والتقدير، ثم تعد الإنسان بالعكر فيها، والنظر في أمورها،
والاعتبار بما يرى، ووصل بين عقولهم، وبين معرفة تلك الحكم الشريعة، وتلك الحاجات
اللازمة بالنظر والتفكير، والتنبؤ والتقدير، والتثبت، والتوقف، ووصل معارفهم بمواقع
حاجاتهم إليها، وتشاعرهم بمواضع الحكم فيها بالبيان الذي جعله الله تعالى
سبباً فيما بينهم، ومعبراً عن حقائق حاجاتهم، ومُعَرِّفاً لمواضع سد الخلة، ودفع الشبهة،
ومُدَاوِة الحيرة، ولأن أكثر الناس عن الناس أنهم منهم عن الأشباح المسائلة، والأجسام
الجامدة، والأجرام الساكنة التي لا يُعترف ما فيها من دلائل الحكم وكسور الأدب،
وبياض العلم، إلا بالعقل اللطيف الثاقب، والنظر التام الباقد، والأداة الكاملة،
والأسباب الوافرة، والصبر على مكروه العكز، والاحتراز من وحوه الخدع، والتحفظ من
دواعي الهوى، ولأن الشكل أهم من شكله وأسكن إليه وأصعب به، وذلك موحود
في أجسام الهائم وصروب السباع، والعصبي من العصي أهم وله آلف، وإليه أزعج،
وكذلك العالم والعالم، والجاهل والجاهل، وقال الله عز وجل لبيه عليه الصلاة والسلام :
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الإنسان عن الإنسان أهم، وطاعته بطاعه آثر،
وعلى قدر ذلك يكون موقع ما نسمع منه، ثم لم يرض من البيان لهم نصف واحد، بل جمع
ذلك ولم يهتز، وكثر ولم يُقلل، وأظهر ولم يُخف، جعل أوصاف البيان التي بها يتعارفون
معانيهم، والترحم الذي إليه يرجعون عند اختلافهم في أرمه أشياء وفي حصلة حاسمة،
وإب قصت عن ملوع هذه الأرمه في جهاتها، فقد تكلم بحسنه الذي وصع له،
وصرف إليه .

وهذه الحاصل الأربع : هي اللمع والخط والإشارة والمقد، والخصلة الخامسة :
ما أوحى من حجة الدلالة، وصدى الشهادة، ووصوح البرهان في الأحكام الجامدة الصامتة،
والساكنة الثابتة، التي لا تنبش ولا تفهم، ولا تحس وتتحرك إلا بداحل دخل عليها، أو صد
ممسك خلى عنها بعد تهيدته كان لها، ثم قسم الأقسام، ورتب المحسوسات، وحصل

الموجودات ، جعل اللفظ السامع ، وحمل الإشارة للباطر ، وأشرك بين الباطر واللامس ، في معرفة المقَدِّد إلا بما فصل الله به نصيب الباطر في ذلك على نصيب اللامس ، وجعل الخط دليلا على ما عاب من حوائجه عنه ، وسببا موصولا بينه وبين أعوانه ، وجعله خارا لما لا يأمن سياسته مما قد أحصاه وحفظه ، وأتمه وجمعه ، وتكلف الإحاطة به ، ولم يجعل للشام والناثق في ذلك نصيبا .

ولولا خطوط الهد لصاع من الحساب الكثير البسيط ، ولعلَّت معرفة التصاعيف ، ولعمدوا الإحاطة بالاورات ، وباورات الباورات ، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه ألا هد أن تملأ المؤونة ، وتنقص المنة ، ولصاروا الى حال ممحزة وحسور ، والى حال مصيبة وكلال حد ، مع التشاغل بأمور لولا فقد هذه الآلة لكان أرحم لهم ، وأرد عليهم أن يصيروا ذلك الشغل في أبواب سامع الذين والدنيا ، وضع الحساب معلوم ، والحلقة في موضع فقدته معروفه ، قال الله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ثم قال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ ﴾ ، والبيان عرَّف الساس القرآن ، قال الله سارك وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ صِبَاءً وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَآزِلَ لِيَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السَّيِّئِ وَالْحِسَابِ ﴾ ، فأجرى الحساب تحرى البيان وألحق البيان بالقرآن ، ويحسبان مازل القمر عرما حالات المذ والجزر ، وكيف تكون الريادة في الأهلة وأصناف الشهور ، وكيف يكون القمصان في حلال ذلك ، وكيف تلك المراتب وتلك الأقدار .

ولولا الكتب المدونة ، والاحجار المقلَّدة ، والحكم المخطوطة الى تحصر الحساب وصير الحساب ، لعلَّ أكثر العلم ، ولطلب سلطان التسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفرج الى موضع استندكار ، ولو لم ذلك لحُرِّمنا أكثر البع ، ادكنا قد علمنا ان مقدار حفظ الناس لمواحل حاجاتهم وأواجلها لا يبلغ من ذلك مبلغا مذكورا ، ولا يفتي فيه عاء محمدا ، ولو تكلف عامة من يطلب العلم ، ويصطنع الكتب ، ألا يزال حافضا لفهرس كتبه لا يحجزه ذلك ، ولو تكلف شططا ، وتشفله ذلك عن كثير مما هو أولى به ، ففهمك

لمعانى كلام الناس ينقطع قل اقطع قهم حين الصوت مُحزدا ، وأعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك ، والمعاون لك ما كان صياحا صرعا ، وصوتا مضحكا ، ونداء حالصا ، ولا يكون مع ذلك ألا وهو بيد من المعامعة ، وعطل من الدلالة ، بجعل الله حل وعز اللفظ لأقرب الحاحات ، والصوت لأفهم من ذلك قليلا ، والكتاب للنازح من الحاحات .

فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها رفع الحواحب ، وكسر الأجفان ، وثى الشفاه ، وتحريك الأعناق ، وقص حلقه الوحه ؛ وأعدا أن تلوى بنوب على مقطع جبل ثمحاء حين الناظر ، ثم يقطع عملها ، وتدرس أثرها ، ويموت ذكرها ، وتصير بعد كل شئ ، فصل عن آتيا مدة الصوت ، وتنتهى الطرف والحاجة ، الى التمام بالخطوط والكتف . فإى نفع أعظم ، وإى مريق أعون من الخط ، والحال فيه كما ذكرنا .

واليس للعقد حظ الإشارة في بعد العاية ، ولا للإشارة حظ الخط في بعد العاية ، فذلك وصع الله عز وجل القلم في المكان الرابع ، ونوه بذكره في المنصب الشريف حين قال : ﴿ زَيْتٌ وَالْقَلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم بالقلم كما أقسم بما يحيط بالقلم إدا كان اللسان لا يتعاطى شأوه ، ولا يئشق عماره ، ولا يجرى في حلقه ، ولا يتكلف بعد غايته ، ولكن لما كانت حاجات الناس بالحضرة أكثر من حاجاتهم في سائر الأماكن ، وكانت الحاجة الى بيان اللسان حاجة دائمة رابكة ، وراهية ثابتة ، وكاب الحاجة الى بيان القلم أمرا يكون في الغيبة وعند البائنه ، ألا ما حصت به الدواوس ، فإن لسان القلم هناك أبسط ، وأثره أهم ، فذلك قدموا اللسان على القلم ، فاللسان الآن أتما هو في مباح اليد والمرافق التي فيها ، والاحاب التي تبلمها ، من ذلك حظها وقسطها من مباح الإشارة ، ثم تصبها في تقويم القلم ، ثم حظها في التصوير ، ثم حظها في الصاعات ، ثم حظها في العقد ، ثم حظها في الدفع عن العس ، ثم حظها في إيصال الطعام والشراب الى الفم ، ثم التوضؤ والامتناسح ، ثم انتقاد الدماير والدرهم ، ثم لبس الثياب ، وفي الدفع عن العس أصناف الرنى ، وأصناف الصرب ، وأصناف الطعن ، ثم الصرب الثقن بالعود وتحريك الوتر ، ولولا ذلك لبطل الطرب كله أو عامته ؛ وكيف

لا تكون كذلك ولما صرب الطبل والدق وتحريك الصماقيين، وتحريك غماري نحروف المرامبر، وما في ذلك من الإطلاقي والحبس؛ ولو لم يكن في اليد آلا إمساك العنان والزام والحطام، لكان ذلك من أعظم الخطوط .

وقد أصطر بواي الحكم من العقْد والإشاره، ولولا أن مَفْزَا في هذا التخلل سوى هذا الباب لقد كان هذا مما أُحِبَّ أن يعرفه إحواسا وحطاطا، ولا ينبغي لنا أيضا أن نأخذ في هذا الباب من الكلام إلا بعد الفراغ مما هو أَوْقَى بنا منه، إذ كُتِبَ لم تارحي، ولم نعب كُتِبَ من طريق فصل ما بين العقْد والإشاره، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنما قَصَدْنَا بكلامنا إلى الإحصار عن فصل الكتب .

والكتاب هو الذي قَدَّ على الناس كُتِبَ عِلْمُ الدس، وحساب الدواوس، مع حقه نقله، وصهر نحمة، صاب ما أسكتته، وبلغ إذا أسنطقته، ومن لك تُسامر لا يتدنك في حال شعلك . ويدعوك في أوقات نشاطك . ولا يحوُك إلى التحمل له، والتدم منه، ومن لك رائران شئت جعل رارته عِماً، ووُودَه نحسا، وإن شئت لرمك لروم طَلْكَ، فكان منك مكان معصك .

والقلم مُكْتَفٍ نفسه ولا يحاج إلى ماعد غيره، ولا بد لبيان اللسان من أمور، منها: إشاره اليد، ولولا الإشارة لما فهموا عنك حاص الحاص . إذا كان أحص الحاص قد يدخل في باب العام، إلا أنه أدنى طباقه، وليس يكتفي حاص الحاص باللفظ عما أذاه، كما كتفاء عام العام، والطباق إلى منه وبين أحص الخاص .

والكتاب هو الجليس الذي لا يُطْرِكُ، والصديق الذي لا يُفْرِكُ، والرفيق الذي لا يَمْلِكُ، والمستميج الذي لا يَسْتَرِدُّكَ، والجار الذي لا يَسْتَبْطِئُكَ، والصاحب الذي لا يريد استعراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يحمدك بالثنا، ولا يمتلئ لك بالكذب .

والكتاب هو الذى إن نظرت فيه أطال إلتاعك ، وتجد طبعك ، ومسقط لسانك ،
وحود بياضك ، ونغم ألطافك ، ويبح نضك ، وعمر صدرك ، وممك تعظيم العوام ،
وصداقة الملوك ، وعرفت به فى شهر ما لا تعرفه من أمواه الرجال فى دهر ، مع السلامة
من الغم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف ساء المتكسب بالتعليم ، والجلوس من بدى من
أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم عرقا ، ومع السلامة من محالسه الغضا ، ومقارنة
الأعياء .

والكتاب هو الذى تطيع بالليل كطاعته النهار ، وطيعك فى السر كطاعته فى الحضر ،
ولا يعتل يوم ، ولا تنتره كلال السهر ، وهو الملم الذى إن افتقرت لم ينقرك ، وإن
قطعت عنه المساذ لم يقطع عك العائده ، وإن عزلت لم مدع طاعتك ، وإن همت ربح
أعاديك لم سلب عليك ، ومتى كنت منه متعلقا بسبب ، أو متعصيا بأذى حبل ، لم تصطرك
معه وحشه الوحدته الى حليس السوء ، ولو لم يكن من فصله عليك ، وإحسانه اليك ،
إلا منعه لك من الجلوس على ملك ، والنظر الى المسازة لك ، مع ما فى ذلك من التعرض
للحقوى الى تلم ، ومن فصول النظر ، ومن عادة الخوص فيما لا يعينك ، ومن ملانسه
يصغار الناس ، ومن حصور العاطفهم الساقطه ، ومعايبهم العاسده . وأحلافهم الردية ،
وحالاتهم المدمومه . لكان فى ذلك السلامة ثم الميمه ، وإحراز الأصل مع أسفاده الفرع ،
ولو لم يكن فى ذلك إلا أن تسطك عن تحف المي ، وعن اعتياد الراحة ، وعن اللعب ،
وكل ما أشبه اللعب ، لقد كان فى ذلك على صاحبه أسبغ العمة ، وأعظم المنه ، وقد علمنا
أن أمثل ما يقطع به المزاج نهارهم ، وأصحاح المكاهات ساعات ليالهم ، هو النسي . الذى
لا ترى له فيهم مع النيل أثرأى ازدياد فى تحربه ولا فى عقل ، ولا فى مروءه ولا فى صوت
عمرض ، ولا فى إصلاح دين ، ولا فى تغيير مال ، ولا فى تربية صنيعه ، ولا فى آنداء بإمام .
قال أبو عبيده قال المهلب لنيه فى وصيته : يا بني لا تقفوا فى الأسواى إلا على
زناد أو وزاق .

وحدثني صديق لي قال : قرأت على شيخ شامي كتابا فيه مائتا عظماء ، فقال لي : ذهبت المكارم إلا من الكتب ، وسمعت الحسن اللؤلؤي يقول : عبرت أربعين عاما ما قلت ولايت التكاثر إلا والكتاب موضوع على صدرى ، وقال ابن الجهم : اذا غشيتي الناس في غير وقت نوم وبس الشيء اليوم العاقل عن الحاجة ، تناولت كتابا من كتب الحكم فاجد آهتازي للفوائد ، والأزجيته التي تعترى عند الطمر بعض الحاجة ، والذى يعشني قلبى من سرور الاستدانة . وعزّ التمس ، أفسد إيقاطا من تهوى الجبر ، وهذه المهنم .

وقال ابن الجهم . اذا استجست الكتاب واستحدثته ، ورحوت منه الفائدة ، ورأيت ذلك فيه ، فلو تزنى وأما ساعة بعد ساعه أنصركم بقى من ورقه مخافة استناده ، وأقطاع الماده من قبله ، وإن كان المصحف في عظم الجهم ، وكان الورق كثير العدد ، رأيتم كيف تمّ عيشي ، وكل سرورى .

وذكر القتيبي كتابا لمص القدماء فقال . لولا طوله . وكثر ورقه . لمسخه . قال ابن الجهم : لكتبي ما رعني فيه إلا الشيء الذى رددك فيه ، وما قرأت كتابا قط كبيرا فأحلانى من فائدة ، وما أخصى كم قرأت من صغار الكتب فخرحت منها كلها دخلت .

وقال القتيبي ذات يوم لابن الجهم . ألا تتمتع من ملأى ! طر في كتاب الإفليس مع جارية سميته في يوم واحد وساعه واحده . فقد فرغت الحارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة ، على أنه حرّ محير وتلك أمة مقصورة ، وهو أحرص على قراءة الكتب من سميته على تعليم حارسه . قال ابن الجهم : قد كنت أظن أنه لا يفهم منه شكلا واحدا ، وأراك ترعّم أنه قد فرغ من مقالة ، قال القتيبي : وكف طمت به هذا الظن كله وهو رجل ذو لسان وأدب . قال لآنى سمعته يقول لأبيه : كم أفقت على كتاب كذا وكذا . قال : أفقت كذا وكذا ، قال : أما رعني في العلم آنى طمت آنى أفقت قليلا وأكتسب كثيرا ، فأما ادصرت أفقت الكثير وليس في يدي منه إلا الموايد فآنى لا أريد

العلم بنىء . والإنسان لا يعلم حتى تكثر سماعه ، ولا يُدّ من أن يصير كنه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع ولا يختلف حتى يكون الإغناى عليه من ماله ألذّ عده من الإغناى من مال عدوه ، ومن لم تكن عقته التى تخرج فى الكتب ألذّ عده من عشائ القياد ، والمستهترين بالثنيان ، لم يبلغ فى العلم مَلْعاً رصياً . وليس يتصع مايفاقه حتى يؤثر لده أنعأذ الكتب إيثار الأعربى فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل فى العلم مالا يؤمل الأعربى فى فرسه .

وقال إبراهيم بن السدى مرة . وِدْتُ أتب الرادقة لم يكونوا حُصاء على المعالاه والورى البقى الأبيض ، ولا على تحمّر الحمر الأسود البرأى ، ولا على أستعادة الخط والإرعاب لمن يحط ، فإنى لم أركورى كتبهم ورقاً ، ولا كالحطوط التى فيها خطأ . وإنى عيرت مالا عظيماً مع حتى لال وسعى للعزم ، لأق سحاء العس بالإغناى على الكتب دليل على تعظيم العلم ، وتعظيم العلم دليل على شرف العس وعلى السلامه من سُكر الآفات . وقلت لإبراهيم . إن إغناى الرادقة على الكتب كإغناى الصارى على البيع ، ولو كانت كتب الرادقة كُتبت حِكْمه ، وكُتبت فلسفة ، وكانت مقابيس تبين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعزف الساس أنواب الصاعات ، أو سُلّ التكبس والتعارات ، أو كتب إرفاق ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الساس من الفطن والأدب ، أو كان ذلك لا يُقَرَّب من عى ، ولا يباعد من مائهم ، لكأوا من قد يحوز أن يُطلق سهم تعظيم البيان والرعة فى التبيين ، ولكتهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فأنما إغناقهم فى ذلك كأغناى المحوس على بيت البار ، وكأغناى الصارى على صُلان الذهب ، أو كأغناى المسد على سَدنة البذ ، ولو كانوا العلم أرادوا لكال العلم لهم معرصاً ، وكُتبت الحكمة لهم مَدولة ، والطرق إليها سهلة معروفة ، فما ألمهم لا يصنعون ذلك إلا بكتب دياتهم كما يُخريف الصارى بيوت عبادتهم ، ولو كان هذا المعنى مُستحسناً عند المسلمين ، وكأوا يرون أن ذلك داعية إلى العبادة وباعشة على الخشوع ، لآلفوا فى ذلك معقوهم ما لا يبلغه الصارى غاية الجُهد .

وقد رأيتم مسجداً دمشق حين استعاز هذه السيل ملك من ملوكتها ، ومن رآه فقد علم أن أحدا لا يرويه ، وأن الروم لا تسحو أنفسهم به ؛ فلما قام عمر بن عبد العزيز جلته بالجلال ، وعطاء بالكرايس^(١) ، وطبع سلاسل القاديل حتى ذهب عنها ذلك التلاؤل والبريق ، وذهب الى أن ذلك الصبيح محاب لسة الاسلام ، وأن ذلك الحس الرائع والمحاسن الدقائق مدخلة للقلوب ، مشعة دون المشوع ، وأن البال لا يكون مختمعا وهناك شيء يمزقه ويمرص عليه .

والذى يدلنا على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مثل سائر ، ولا جبر طريف ، ولا صعة أدب ، ولا حكمة عمرية ولا طسعية ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استجراح آلة ، ولا تعليم فلاحه ، ولا تدبير حرب ، ولا مقارعة عن دين ، ولا مناقلة عن محلة ، وحله ذكر الور والطامة ، وساحل الشياطين ، ونسافد الصاريت ، وذكر الصنيد والتهويل بمود السنخ ، والاحار عن شقون وعن الهامة والمهامة ، وهذر وعي ودعوى وحرامة وصحف وتكذؤ ، لا نرى فيه موعظة حسنة ، ولا حديثا مؤثقا ، ولا تدبير معاش ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأي كتاب أجهل ، وأي تدبير أسد من كتاب يؤجب على الناس الطاعة والتسوع بالديانة على جهه الاستنصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبون إلا دينا أو دنيا .

فأما الدنيا فاقامة مسوقها وإحصار فعيها . وأما الدين فإقل ما يطعم في استجابة العامة واستمالة الخاصة ، أن يصور في صورة مغلطة ، ويؤوه تمويه الديار البحر والدرهم الزائف الذى يغلط فيه الكثير ويعرف حقيقة القليل . فليس اساقهم عليها من حيث ظنت . وكل دين يكون أظهر اختلافا وأكثر فسادا يحتاج من الرقيق والتقوية ومن الاحتشاد له والتخليط فيه الى أكثر من غيره .

(١) الكرايس جمع كراس . قوب من القطن الأبيض وقيل : الثوب الحسن ، فارسي مزوب .

وقد علمت أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تبعاً ، فعلى حسب ذلك يكون
تزيدهم في توكيده ، واحتياهم في إظهار تعظيمه .

وقال بعضهم : كنتُ عند بعض العلماء فكنتُ أكتبُ عنه بعضاً وأدع بعضاً ، فقال
لي : اكتبُ كلَّ ما تسمع ، فإن أحس ما تسمع حير من مكانه أبصر . وقال النخيل بن
أحمد : تكثر من العلم لعرف ، وتقل منه لتحمط . وقال أبو إسحاق : القليل والكثير
للكتب ، والقليل وحده للصدر ، وأشد قول ابن يسير .

أما لو أعي كل ما أسمع * وأحطت من ذلك ما أجمع
ولم أستعد غير ما قد جمعتُ لقل هو العالم المقيع
ولكن نفي إلى كل ما * ع من العلم سمعه تزع
أشاهد بالي في تحلي * وعلى في البيت مستودع
فلا أنا أحط ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشع
ومن يك في يديه هكنا * يكن دهره القهقري يرجع
إذا لم تكن حاطاً وإعياً * بجمعتك للعلم لا يتبع

قال أبو إسحاق : كلف ابن يسير الكتب ما ليس عليها ، إن الكتب لا تُنقى الموتى ،
ولا تُحوّل الأحمق عاقلاً ، ولا الوليد ذكياً ، وذلك أن الطبيعة إذا كان فيها أدنى قول فالتكتب
تسعد وتفتق وتزهد وتشفى ، ومن أراد أن يعلم كل شيء فبني لأهله أن يداووه ، فإن
ذلك أما بصوره لشيء اعتراه . فمن كان عاقلاً ذكياً حافظاً فليقصده إلى شئ أو ثلاثة
أشياء : فلا يتزع عن الدرس والمطارحة ، ولا يدع أن يتزعلى سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه
ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالماً بمواضع ويكون غير غفل من سائر ما يجري
فيه الناس ويحوضون فيه ، ومن كان مع الدرس لا يحط شيئا إلا نسي أكثر منه فهو
من الحفظ من أفواه الرجال أهد .

وحدثني موسى بن يحيى قال : ما كان في خراة كتب يحيى وفي بيت مدرسه كتاب
إلا وله فيه ثلاث نسخ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما دخلت على رجل قط ولا مررت باباه فرأيت به يطر
في دفتر وحليته فارغ اليد إلا اعتقدت أنه أعقل منه وأفضل .

قال أبو عمرو وقيل لنا يوماً : إن في دار فلان ما قد اشتغلوا على سوءه ، وهم جلوس
على نخعة لهم وعدمهم طُصور ، قال : قد مرنا عليهم في جماعة من رجال الحى ، فإذا فتى حالس
في وسط الدار وإذا أصحابه حوله ، وإذا هم بيصُ الخى ، وإذا هو يقرأ عليهم كتاب شعر ،
فقال الذى كان سعى هم : السوءة في ذلك البيت ، وإن دخلتموه عثرتم بها ، قال قلت :
والله لا أكشف فتى أصحابه شيوخ وفي يده دفتر علم ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكرياء .
قال وأنشد رجل يونس النحوى قوله :

أُسْتَوْدِعَ الْعِلْمُ قِرْطَاسًا قَصِيصَهُ • فَيُنْسُ مُسْتَوْدِعُ الْعِلْمِ الْقِرَاطِيصُ

قال فقال يونس : قاتله الله ، ما أشد صبايته بالعلم وأحسن صيايته له ! إن علمك من
رُوحك ، ومالك من بدك ، فصنعك منك بمكان الروح ، وصنع مالك بمكان البدن .

وقيل لأبى دأحه وأخرج كتاب أبى الشَّعْمَقِ وإذا هو في حُلود كوفية ودقنين
طائفتين ومحط غيب ، قيل له : لقد صيغ درهمه من تمحود لشعر أبى الشَّعْمَقِ ؛ قال :
لا جرم والله إن العلم ليعطيك على حساب ما تُعطونه ، ولو استطعت أن أودعه سُويداء
قلبي وأجعله مخطوطا على ناظرى لعلت .

ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في امرته ، فرأيت السباطين بين يديه والرجال مُثَوَّلًا
كأن على رموسهم الطير ، ورأيت فرشته ^(١) وزنه ، ثم دخلت عليه وهو معزول ، وإذا هو
في بيت كتبه وحواليه الأسعاط والرموف والنماطر والدفاتر والمساطر والمحابر ، فما رأيت به
قط أحم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، إلا أنه جمع مع المهابة
المحبة ، ومع الصرامة الحلاوة ، ومع السودد الحكمة .

(١) كذا في الأصل ، ولعلها رائدة . (٢) البرشة : الهبة .

وقال ابن داحه : كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يُخالس الناس ، ونزل مقبره من المقابر ، وكان لا يكاد يرى إلّا وفي يده كتاب يقرؤه ، فسئل عن ذلك وعى نزوله المقبرة ، فقال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا أمتع من كتاب ، ولا أسلم من الوحده ، ف قيل له : فقد جاء في الوحده ما قد جاء ، قال . ما أسدّها للجاهل وأصلحها للعاقل !

وصروب من الخطوط بعد ذلك تكمل على قدر منفعه الخط ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال الله عز وجل . ﴿ فِي نُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ وقال . ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ وقال . ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ وقال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴾ .

الترغيب في اصطناع الكتب

(وبعد أن تكلم عن الخط في الأرض عند التمسك وما قيل في ذلك من الأشعار ، وذكر الخط ومقدار الحاجة اليه ، وتاريخ الشعر قبل الإسلام ، وبيان أن فضيلته مقصورة على العرب ، استطرد القول بالترغيب في اصطناع الكتب) فقال .

« إن على من شكر المعرفة بماوى الناس ومراشيدهم ومصارهم ومناهيهم ، أن يجمل بعمل مؤونتهم في معرفتهم ، وأن يوحى إرشادهم وأن جهلوا فصل ما ينسدى اليهم . ولئ يضان العلم بمثل بدله ، ولئ تستبقى العمة فيه بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاق يشد التصع ، ويكثر التظالم ، وتضطرب العصبية ، وتقوى الجمية ، وبعد المواجهة والمقابلة يشتد حُت العلبه ، وشهوة الماهاة والرياسة مع الاستعجاب من الرجوع ، والأهية من الخسوع ، وعص جميع ذلك تحدث الصمائن ويظهر التباين ، فاذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة ، أمتعت من التعرف ، وعميت عن موضع الدلالة ، وليست للكتب علة تمتع من درك البعية ، واصابة الحجة ، لأن المتوحد مدرسا والمفرد

بفهم معانيها ، لا يُبَاهِي نفسه ، ولا يُعَالِ عقله ، وقد عدم من له يابى ، ومن أحله
يعال ، والكتاب قد يحصل صاحبه ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلبه على لسانه أمور :

مهما ، أن الكتاب يُقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان
على تماوت ما بين الأعصار ، وتناعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر يستحيل في واضح الكتاب ،
والمنازع بالمسألة والجواب ، ومُناقلة اللسان وهدايته لا تحوزان محلي صاحب ، وملح
صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كُنته ، ويهي العقل ويبقى أثره . ولولا ما تسمت لها
الأوائل في كتبها ، وحللت من عجيب حجتها ، ودون من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها
ما طاب عا ، وفتحنا بها كل مُستغلق كان عليا ، بجمعنا الى قليلا كثيرهم ، وأدرنا ما لم يكن
تذكره إلا بهم ، لقد حسن حفظنا من الحكمة ، وصنف سبنا الى المعرفة ، ولو أُلحنا الى
قدر قوتنا ، وملح خواطربا ، ومهلى تخريقتنا لما تذكره حواسنا وتشاهده نفوسنا ، لقد
قلت المعرفة ، وقصرت الهممة ، واستقصت المنه ، وعاد الرأي حقيقا ، والخطر فاسدا ، ولكل
الحذ ، وتلد العقل . وأكثر من كتبهم بقاء ، وأشرف منها حظرا ، وأحسن موقعا ، كُتب
الله تعالى التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة .
وما زالت كتب الله تعالى في الألواح والصحف والمهارق والمصاحف ، فقد قال الله
عز وجل : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وقال : ﴿ مَا قَرَأْتَ فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾
ويقال لأهل التوراة والإنجيل : أهل الكتاب . وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل
من كان قبلنا فيما . على أما قد وحدنا من العبرة أكثر مما وحدوا ، كما أن من بعدنا يحذر من
العبرة أكثر مما وجدنا ، مما يتطير العالم بإظهار ما حذره ، وما يمنع الباصر للحق من القيام
بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيسة ، وهبت ريح العلماء ،
وكسد العي والجهل ، وقامت سوى البيان والعلم . والإنسان ليس يحذر في كل حال إنسانا

(١) المهارق جمع مهراق ، وهو نوب حرير أبيض يسق بالصنع ويقتل ثم يكت فيه ، فارسي مغرب .

يُدرِّسه ومُقوماً بِنَقِّه، والصبر على إلهام الرِّيش شديدٌ، وصرف النفس عن مُغالاة العالم أشدُّ منه هما .

والمتعلم يجد في كلّ مكان الكتاب عتيّداً، وبما يحتاج إليه قائماً . وما أكثر من فرط في التعلّم أيامَ حُول ذكره وأيام حداثته سيّئه . ولو لا حياد الكتب وحسنها ، ومُنهئها ومُحصّرها، ثم تحرّكت همّ هؤلاء لطلب العلم، ومارعت إلى حب الأدب، وأعت من حال الجاهل وأن تكون في عمار الحشو لدخل على هؤلاء من الصبر والمُصرّة والجهل وسوء الحال ما عسى ألاّ يميّز الإخيار عن مُقداره إلّا بالكلام الكثير .

ولذلك قال عمر رضى الله تعالى عنه : تَمَقَّهوا قَلِيلَ أَنْ تُسَوِّدُوا . وقد تحبّد الرجل يطلب الآثار وتاويل القرآن ويخالس المقهّاء خمسين سنة ، ولا يعدّ فقيها ولا يحمل قاصياً، وما هو إلّا أن يتطرّف في كتب أبي حنيفة وأشياء أئى حبيبة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سه أو ستين حتى تميز به فتنظّر أنّه ناب بعض العمال ، والآخرى ألاّ يترّ عليه من الأيام إلّا اليسير حتى يصير حاكماً على مصير من الأمصار، أو تلهي من البلدان .

ويسعى لمن كتب كتاباً ألاّ يكتسه إلّا على أن الساس كلّهم له أعداء ، وكلّهم عالم بالأمور ، وكلّهم مُتفرّج له ، ثم لا رضى بذلك حتى يدع كتابه يبت ويختير، ولا يثق بالرأى المطر، وإن لا تشاء الكتاب فتنةً ونحنا ، وإذا سكّنت الطبيعة وهذه الحركة ، وتراحت الأخطاط، وطادت النفس واورّة ، أعاد الطريفه وتوقف عند فُصوله توقّف من يكون وزن طمعه في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويتمهم معنى قول الشاعر :

إِنَّ الْحَدِيثَ تَفَرُّ الْقَوْمِ حَلْوُهُ . حَتَّى يَكُونَ لِهَمِّ عِيٍّ وَإِنْ تَارَ

ويقف عند قولهم في المثل : ”كلُّ مُحرٍّ في الحلاء يُمرّ“، فيحاف أن يعزّيه ما يعترى من أجرى فرسه وحده، أو حلا قلمه عند فقد خصومه وأهل المزية من أهل صناعته . وأعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعترى المؤدّب عند صريه وعقابه، فما أكثر من يعزم على

عشرة أسواط قَصِيرُ مائة ، لأنه ابتدأ الصرب وهو ساكن الطباع فأراه السكونُ أن الصواب في الإقلال ، فلما صرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة وزاد في عصه ، فأراه الفض أن رأى في الإثثار ، وكذلك صاحب القلم ، لما أكثر من ابتدئ الكتاب وهو يُريد مقدار سَطْرَيْن فيكتب عشرة . والحفظ مع الإقلال أمكسُ ، وهو مع الإثثار أهد .

وأعلم أن الماقل إن لم يكن بالمشع فكثيراً ما يُعز من ولده ويَحْسُن في حبه منه التمسح في عين عمره ، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسا من إبه ، وحركته أَمْسُ به رَجَا من ولده ، لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبداته ، ومن عين جوهره فصلت ، ومن نفسه كانت ، وإنما الولد كالخطئة يَتَحَطَّطها ، وكالحمالة يقدفها ، ولا سواء إحراكم من نفسك شيئاً لم يكن منك ، واطهارك حركة لم تكن حتى كانت منك ، ولذلك نَحْد قِنة الرجل بشعره وقِنْتَه بكلامه وكتبه ، فوق قِنْتَه بجمع بَعْمَتَه .

وليس الكتاب إلى شيء أحوَح منه إلى إتمام معانيه حتى لا يحتاج السامع مما فيه إلى الروية فيه . ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن أَلِط السَّيْلَةِ والحشو ، ويَحْطَه عن حريب الأعراب ، وَوَحْشِي الكلام . وليس له أن يُهْدِه حِداً وَيُقْعَه ويصقيه وَيُزَوِّقَه حتى لا يطنق إلا بالث والت والسر ، واللفظ الذي قد حذف فُصُوله وتَعَرَّقَ زوائده ، حتى عاد حالها لا شوب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يُفهم عنه إلا ما ب يَحْد لم إتماما وتكراراً ، لأن الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أُنْهَامُهُم لا تزيد على عاداتهم إلا ما ن تُعْطَس عليها وتُؤَحَد بها ، ألا ترى أن كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره ، وفي كتاب إقليدس ، كلام يدور وهو عربي وقد صُنِّي ، ولو سمعته بعض الخطباء لما فهمه ، إلا أن يفهم من يريد تعليمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عَرَفَ جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام .

وقد قال معاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهما لصَحَابِ الْعَمْدَى : ما الإيجاز ؟
قال أن تحب فلا تُطغى ، وتقول فلا تُخْطى ، قال معاوية : أو كذاك تقول ، قال مُحَارُّ
أقْبَنِي يا أمير المؤمنين ، لا تُخْطى ولا تُطغى . ولو أن سائلا سألك عن الإيجاز قلت : لا تُخْطى
ولا تُطغى وبحضرتك خالد بن صموان لما عَرَفَ بالديهة وعد أول وهلة أن قولك
لا تُخْطى مُصَنَّن بالقول ، وقولك لا تُطغى مُضَمَّن بالجواب . وهذا حديث — كما ترى —
قد ارتضوه ورووه ، ولو أن قائلا قال لعصا : ما الإيجاز ؟ لقلت أنه كان سيقول
الاحتصار والإيجاز ، ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ . وقد يكون الساب من
الكلام من أتى عليه فيما يَسَعُ طي طومار قد أوجر ، وكذلك الإطالة . وإما ينبغي أن
يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه ولا بَرْدَد وهو يُكْنَى في الإيهام شطره ، وما فصل
عن المقدار فهو الخطل .

وقلت لأبى الحسن الأحفش . أنت أعلم الناس بالحو ، فلم لا تحمل كتبك مفهومًا
كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تُقدِّم مص العويس وتؤخر بعض
المفهوم ؟ قال : أما رجل لم أصع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين ، ولو وضعها
هذا الوصع الذى تدعوى إليه قلت حاشتهم إلى فيه ، وإنما عابى المألة ، فإذا أصع
بعضها هذا الوصع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وأنا
قد كتبتُ فى هذا التدبير ادكتُ إلى التكبُّش دَهِبْتُ ، ولكن ما بال أراهم الظَّام وفلان
وفلان يكتبون الكتب لله بزعهم ، ثم يأخذها مثل فى موافقته وحس بطره وشدة عيائته ،
فلا يفهم أكثرها ؟

وأقول لو أن يوسف السَّمْنَى كتب هذه الشروط أيام جلس سلمان بن ربيعة
شهرزبن للقضاء فلم يتقدم إليه رُحَلا والقلوب سليمة والحقوق على أهلها مؤقرة ، لكان
ذلك حَطَلًا ولَقُوا ، ولو كتب فى دهر ما شروط دهر سلمان لكان ذلك عَرَاةً ونقصا ،

وجَهَلًا بالسِّياسة وما يَصْلُح لكلِّ دهرٍ ، ووجدنا الناس إذا خَطُّوا في صُلح بين العِشائر
أَطالوا ، وإذا أُنْشِدوا الشَّعر بين السَّماطين في مدح الملوك أطلوا ، فلا إِطالة مَوْضِعٌ وليس
ذلك مَحْطَلٌ ، ولِلإِفْلال مَوْضِعٌ وليس ذلك مِن عَجْر .

ولو لا أَنَّى أَتَكل على أَنك لا تَمَلُّ باب العول في البعير حتَّى نَحْرُحَ الى العيل ، وفي النَّره
حتَّى نَحْرُحَ الى العُوصة ، وفي العُقرُب حتَّى نَحْرُحَ الى الحِية ، وفي الرُّحْل حتَّى نَحْرُحَ الى
المِراة ، وفي الدَّانِ والَّجَل حتَّى نَحْرُحَ الى العِرْبان والعِقدان ، وفي الكَلَف حتَّى نَحْرُحَ الى
الديك ، وفي الدَّنْث حتَّى نَحْرُحَ الى الصَّع ، وفي الظَّلْف حتَّى نَحْرُحَ الى الحافر ، وفي الحافِر
حتَّى نَحْرُحَ الى الحُف ، وفي الحُف حتَّى نَحْرُحَ الى البُرْث ، وفي البُرْث حتَّى نَحْرُحَ
الى المِطَل ، وكذلك القول في الطير وعائِدَةِ الأصاف ، رَأَيْتُ أَنَّ ذلك يُوجب المَلال ،
ويُعقِبُ القِئره الماسعة من اللوع في المهم ، وتَعْرِفُ ما يُحتاج منه الى التَّعرُّف ، فرأيت أَنَّ
جُمْلَةَ الكُتَّاب وإن كَثُرَ عدد ورقه ، أَنَّ ذلك ليس بِما تَمَلُّ من كثره قراءته أَمَّا وتَعَنَّدُ على
فيه بالإطالة ، لأنَّه وإن كان كُتَّامًا واحدًا فَانَّه كُتِبَ كثيره ، وكلُّ مصحف منها أَمٌّ على
جِدَّة . فإنَّ أَرادَ قِراءة الجميع لم يَطُلْ عليه الباب الأوَّل حتَّى يَهْجُمَ على الثاني ، ولا الثاني
حتَّى يَهْجُمَ على الثالث ، وهو أَمَّا مُسْتَفِيدٌ ومُسْتَطَرِّفٌ ، وعصه يَكُونُ حَمَامًا لبعض ،
ولا يزال شاطِئُهُ رائدًا ، ومتى حَرَحَ من آى القرآن صار الى أثر ، ومتى نَحْرَحَ من أثر
صار الى حر ، ثم نَحْرُحَ من الحر الى شعْر ، ويس الشعر الى بوادره . ومن البوادر الى حَكَم
عقلية ومقاييس سِدَادٍ ، ثم لا يترك هذا الباب فلهله أن يكون أَثْقَلُ ، والمَلالُ اليه أسرع ،
حتَّى يُفْصَى به الى مَرَحٍ ومُكاهةٍ والى مُخَفٍّ وتُخَافُه . ولست أَرَاهُ صحفًا إذ كُنت لِمَما
استعملت سِيرةَ الحِكماء وماذِبَةَ العِلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا حاطب العرب
والأعراب أَنحَرَحَ الكلام نَحْرُحَ الإِشاره والوَحى والحَدِث ، وإذا حاطب بنى إِسرائيل
أو حَكَّى عنهم جعله مَبسوطًا وراد في الكَلَم . فاصوب العمل أَتباع آثار العِلماء والاختِذاء

على مثال القدماء ، والأحد بما عليه الجماعة . وقال ابن يسير في صفة الكتب
في كلمة له :

أَقْلْتُ أَهْرُبُ لَا أَلُو مُسَاعَدَةً • في الأرض منهم فلم يُخَصِّنِي الْمَرْبُ
يَقْضُرُ أَوْسَ مَا وَالَتْ حَادِيَهُ • إلى التَّوَابِيسِ مَالِحَاوُرُ مَالِحِيرُ
فَأَيُّا مُؤْزِلٍ مِمَّا اعْتَصَمْتُ بِهِ • مِنْ وَرَائِي حَيْثَا مِثْمُ الْطَلْبُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَا نَى عَيْرُ مُعْجِرِمٍ • قَوْنَا وَلَا هَرَبًا قَزَبْتُ أَحْتَبُ
وَصِرْتُ فِي الْبَيْتِ مَسْرُورًا بِهِ حَيْلًا • حَارًّا لِيَوَهُ لَا شَكْوَى وَلَا شَفُ
مَرَدًّا تُحَدِّثُنِي الْمَوْتَى وَتَطْلُقُ لِي • عَسَ عِلْمُ مَا ظَلَّ عَنِّي مِثْمُ الْكُتُبُ
هَمُّ مُؤْنُسٍ وَأَلْفُ عَيْثُ يَوْمٍ • فَلَيْسَ لِي فِي أَيْسٍ عَيْرِهِمْ أَرْتُ
لَهُ مِنْ حُلَسَاءٍ لَا حَلِيْسُهُمْ • وَلَا عَيْرُهُمْوُ لِلشَّوْءِ مُرْتَبُ
لَا مَادِرَاتِ الْأَدَى يَحْتَنِي رِفْعُهُمْ • وَلَا يُلَاقِيهِ مِثْمُ مَنْطِقُ دَرَبُ
أَبْقُوا لَنَا حِكْمًا تَبْقَى مَافِعُهَا • أُخْرَى أَلْيَالِي عَلَى الْأَنَامِ وَأَنْتَعَبُوا
فَأَيُّا أَدَبٍ مِثْمُ مَدَدَتْ يَدِي • يَوْمًا إِلَيْهِ وَدَائِي مِنْ يَدِي كَثُ
إِنْ شِئْتُ مِنْ مُحْكَمِ الْآثَارِ رَفْعُهَا • إِلَى السَّبِيِّ ثِقَاتُ مَرَّةٍ مُحُ
أَوْشِلْتُ مِنْ عَرَبٍ عِلْمًا مَاقِلًا • فِي الْخَاهِلِيَةِ أُنْتَبَى بِهِ الْعَرَبُ
أَوْشِلْتُ مِنْ سَيْرِ الْأَمْلاَكِ مِنْ عَجَمٍ • تَنْهَى وَتُخْرِجُ كَيْفَ الرَّأْيِ وَالْأَدَبُ
حَتَّى كَأَنِّي قَدْ شَاهَدْتُ عَصْرَهُمْ • وَقَدْ مَصَّتْ دُونَهُ مِنْ دَعْوِهِمْ حَقْبُ
يَا قَانِلًا قَصُرْتُ فِي الْعِلْمِ مِثْمُهُ • أُنْتَبَى إِلَى الْجَهْلِ مِمَّا قَالَ يَنْتَبِ
إِنَّ الْأَوَائِلَ قَدْ مَاتُوا بَعْلِيَهُمْ • حِلَافُ قَوْلِكَ قَدْ مَاتُوا وَقَدْ ذَهَبُوا
مَاتَ مِمَّا امْرُؤُ ابْنِي لَسَا أَدَمًا • يَكُورُ مِنْهُ إِذَا مَاتَ يُكْتَسَبُ

وقال أبو وجرة وهو يصف صحيفة كتبت له فيها بستين وسقا :
 راحت بستين وسقا في حقيبتها * ما حلت حملها الأدنى ولا السدأ
 ولا رابت قلوبا قلها حلت * ستين وسقا ولا جابت بها لدا
 وقال الراجل :

تعلمن أن الدواة والقلم * تنق ويضي حديث الدهر العتم

يقول ثعلبك الذي تكتنه على يني تتأخذي به وتذهب عني فيا يذهب . وما يدل على
 نعم الكتاب أنه لولا الكتاب لم يحز أن يعلم أهل الرقة والموصل وسدأد واسط ما كان
 بالبصرة وحدث الكوفة في بياض يوم ، فتكون الحادثة بالكوفة عنوة يعلمها أهل البصرة
 قل المساء .

وذلك مشهور في الحام الهدي : اذا حلت ردا قال الله حل وعز ، وذكر سليمان
 وملكه الذي لم يؤت أحدا مثله ، قال : (وَتَقَعَدَ الطَّرَقَ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْمُنْهَدَ) إلى
 قوله : (أَوْ لَا دَبْحَهُ أَوْ لِبَاتِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) . فلم يلبث أن قال المنهد : (وَجِئْتُكَ مِنْ
 سَاءِ بِلَدٍ يَقِينٍ إِنِّي وَحَدَّثْتُ أَمْرَاءَ مَمْلَكَتِهِمْ وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) .
 قال سليمان : (أَهَبْ يَكَايَ هَذَا فَأَلْفَقَهُ إِبْنَهُمْ) وقد كان عده من يبلغ الرسالة على تمامها من
 عرفت ومن عص من عده علم من الكتاب فرأى أن الكتاب أهى وأنزل وأكرم وأنعم
 من الرسالة عن ظهر لسان وإن أحاط بجميع ما في الكتاب . وقالت ملكة ساء : (يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُ إِلَى أُلُقَى إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ) وهذا مما يدل على قدر اختيار الكتب وقد يريد بعض
 الحلة الكبار وبعض الأدباء والحكام أن يدعو بعض من يجرى مجراه في سلطان أو أدب إلى
 مآذبة أو ندام أو خروج إلى متنزّه أو من ما يشبه ذلك ، فلو شاء أن يبلغه الرسول إرادته
 ومعاه لأصاب من يحسن الأداء ويصدق في الإبلع فيرى أن الكتاب في ذلك أسرى
 وأنبه وأبلغ ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم ألا يكتب الكتب إلى كسرى وقيصروا والتجاشي

والمقوقس وإلى سى الجلتدى وإلى الصاهلة من حمير وإلى هوته بن على وإلى الملوك العظماء والسادة النحاء لفعل ولوحد الملتع المعصوم من الخطأ والتسديل، ولكنه عليه السلام علم أن الكتاب أشبه تلك الحال، وأبقى بتلك المراتب، وأطلع في تعظيم ما حواه الكتاب، ولو شاء الله أن يحمل البشارات على الألسنة المرسلين ولم يودعها الكتب لفعل ولكنه تعالى وعزّ علم أن ذلك أتم وأكمل، وأجمع وأنبئ، وقد يكتب بعض من له مرتبة في سلطان أو ديانة إلى بعض من بشاكلة أو يجرى مجراه فلا يرضى بالكتاب حتى يخرجه ويثمنه، وربما لم يرض بذلك حتى يسونه ويعظمه .

قال الله حل وعز : (أَمْ لَمْ يَأْتِ فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الْبَدِي وَفِي) قد كرمه صفي موسى الموحوده وصحف إبراهيم النائدة المصدومة ليعرف الناس مقدار النفع والمصلحة في الكتب . قالوا : وكانت فلاسفة اليونانية توارث البات العين وتوزت البنين الذين ، وكانت تعمل المعز الكفاية والمثوبة بالكلفة وكانت تقول : لا توزثوا الابن من المال إلا ما يكون عونا له على طلب المال، وأعدوه بحلاوه العلم وأطبعوه على تعظيم الحكمة ليصير جمع العلم أعلت عليه من جمع المال، وليرى أنه العدة والعتاد، وأنه أكرم مستفاد، وكابوا يهلون : لا توزثوا الأكر من المال إلا ما يسند النحلة، ويكون له عونا على درك الفصول إن كان لا بد من الفصول، فإنه إن كان فاسدا زادت تلك الفصول في مساده، وإن كان صالحا كان فيما أورتقوه من العلم، وقيمت له من الكفاية ما يكتسه الحال، وإن الحال أفضل من المال، ولأن المال لم يزل تابعا للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفصول يحرص فساد وعلى شفا إصاعة مع تمام الحكمة واجتماع القوة، مما طمكم بها مع عرارة الحداثة وسوء الأضرار وقلة التحريه ! وكابوا يقولون : خير ميراث ما كسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة ومحل لك حلاوة المحبة، وبقي لك الأحداثة المحسة، وأعطاك حاجل الخير وآجله، وطاهره وباطنه، وليس يجمع ذلك إلا أكرام الكتب النفيسة المشتعلة على بابيع العلم، والجامعة لكوز الأدب ومعرفة الصناعات وفوائد الإرفاق ؛

وجميع الذين الذين نصحتهم وعهد وصوب برهانه تسكن العوس وتنتج الصدور ، ويعود القلب معمورا ، والمراتبها ، والأصل مسيحا ، وهذه الكتب هي التي تريد في العقل وتشدّه ، وتداويه وتصبّحه ، وتهدّيه وتغني الحثّ عنه ، وتعيدك العلم وتصادق بينك وبين الحقّة ، وتؤكد الأحكام بالثقة وتحتلّ الحلال وتكبّ المال . ووراثه الكتب الشريفة والألوان الرقيقة منبّه للورث وكثر عند الوارث ، إلا أنه كبر لا يحب فيه الركاه ولا حقّ السلطان ، وإذا كانت الكور حامدة تنقها ما أحد منها كان ذلك الكبر مائعا يزيده ما أحد منه ، ولا يرال بها المؤرث المذكور في الحكاء ومثوها باسمه في الأسماء ، وإماما تمتنوعا ، وعلمه متصنوعا ، ولا يرال الوارث محموطا ، ومن أحله محموا ممتنوعا ، ولا ترال تلك الحقّة نامية ما كانت تلك العوائد قائمه ولي ترال فوائدها موحودة ما كانت الدار دار حاحه ، ولي يرال من عظيمها في العلوب أثر ما كان من فوائدها على الناس أثر .

وقالوا . متى ورثته سخا وأودعته علما فقد ورثته ما يفيل ولا يستعمل ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج الى إثارة ، ولا الى سقى ، ولا الى إسجال ما يبار ، ولا الى شرط ولا تحتاج الى أكار ولا الى أن يثار ، وليس عليها عشر ولا للسلطان عليها حرج ، وسواء أفدته علما أو ورثته آلة علم ، وسواء دفعت اليه الكفاية أو ما يحلّ بالكفاية ، وأما تحرى الأمور وتعتبر في الأعمال على قدر الإمكان ، فمن لم يقدر إلا على دفع السب لم يحب عليه إحصار لمُسبّ ، فكتب الآاء تحبب للأحياء ، ونحيا لذكر الموتى .

وقالوا . متى كان الأب حامعا مارعا وكانت موارثه كتنا دارة ، وآداما حامعه ، كان الولد أحدر أن ترى التعلم خطأ وأحدر أن يُسرّع التعلم إليه ويرى تركه خطأ ، وأحدر أن يجرى من الأدب على طريق قد أنهج له ، ومنهاج قد وطّئ له ، وأحدر أن يسرى اليه عرق من تحله وسقى من عرسه ، وأحدر أن يعمل بدل الطلب للكتب النظر في الكتب ، فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل مع الكتب ، والاختلاف في سماع العلم ، إلا وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة وأما تفيد الكفاية من تمت آدابه ، وتوافت اليه أسبابه ، فأما

الحدّث الغرير، والمنقوص العقير. فغير موارِيثه الكفاية الى أن يُلغ التمام، وبكل للطلب. غير ميراث وُورث كنتُ وعلم، وغير المورّثين من أوْرث ما يجمع ولا يُفَرِّق، ويُسَصِّر ولا يُعَمِّي، ويُعطى ولا يأخذ، ويمحود بالكلّ دون البعض، وبدع لك الكنز الذي ليس للسلطان فيه حق، والرّكاز الذي ليس للعقراء فيه نصيب، والنعمة التي ليس للمخاسد فيها حيلة، ولا للصّوص فيها رعة، وليس لفخّم عليك فيه تحة، ولا على الجار فيه مؤونه.

وأقناد عِقرات بأنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بد من أن يكون لكلّ كتاب علم وضعه أحد من الحكماء ثمانية أوجه، هما الهِمْه والمنفعة، والنّسبة والصّحة، والصّنف والتأليف، والإسناد والتدبير، فأولها أن تكون لصاحبه هِمْه، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له يسه ينسب إليها، وأن يكون صحيحا، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفة، وأن يكون مُؤتلفا من أجزاء خمسة، وأن يكون مُسندا الى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف. فذكر أن أيقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب وهو كتابه الذي يُسمّى «أفوريّسْمُوا» تفسيره. كتاب الفصول. وقولك وما بلغ من قدر الكلب مع لوم أصله، وحُثّ طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قِلّة حيله وكثرة شرّه، وأحتماع الأئمة كلّها على استسقاطه واستسفالها، ومع صرهم المثل في ذلك كلّهم، ومع حاله التي يعرف بها من العجز عن صولة الساع، وأقتدارها، ومن تمنعها وتشرّفها وتوحشها، وقِلّة إحتماحها، وعن مسألة البهائم ومُواعبتها، والتمكّن من إقامة مصلحتها، والاستغاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع الساع عن أنفسها، ولا الإحتيال لمعانها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخوفة. ولأن الكلب ليس سبُع تام ولا هيمه تامة حتى كأنه من الخلق المركّب، والطائغ المُلققة، والأحلاط المُختلة، كالعِلّ المتلّون وأخلاقه الكثير العيوب المتولدة عن مزاحه، وشرّ الطائغ. ما تحاذته الأعراق المُتصادة والأخلاق المتفاوتة، والناصر المتباعده، كالزاعج من الحمام الذي دهست عه هذاية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وتطلّ عه نمر الورشان، وقوّة حُاحه، وشِدّه عصه، وحسن

صوته، ونجبا حلقه، وشكل لحونه وشدة إطرابه، وأحتماله لوقع البادى، وحرصه الحالب. وفي الراعى أنه مُسرَّول مُنقل، وحدث له عظم بدن وقيل وزد لم يكن لأبيه ولا لأمه. وكذلك البغل نرح من بين حيوانين يلدان حيوانا مثلهما ويعيش نتاجهما ويبقى بقاءهما، وهو لا يعيش له ولد وليس يعقيم، ولا يبقى للعلّة ولد وليس يعاقر، ولو كان البغل عقيما والعلّة عاقرا لكان ذلك أزيد في قوتها وأتم لشئتهما، مع البغل من الشقّ والنط ما ليس مع أبيه، ومع العلّة من الشوس وطلب السّفاد ما ليس مع أمها، وذلك كلّ قدح والقوة وقص في البنية، ونخرج عُرْمُولَه أعظم من عراميل أعمامه وأحواله، فترك شبههما ونزع الى شيء ليس له في الأرض أصل، ونرح أطول عُمرًا من أويوه وأصبر على الأثقال من أويوه، أو كابى المدركه من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أحسن نتاجا من البغل وأمسد أعراقا من السّمع^(١)، وأكثر حيوانا من المسار^(٢)، ومن كلّ خلق خلق إذا ترك من ضد، ومن كلّ شجرة مُطعمّة محلاي^(٣)، وليس يتعري مثل ذلك الخلايى^(٤) من الدجاج، ولا الورداني^(٥) من الحمام، وكلّ صمغ دخل على الخلقه، وكلّ رقة عرّصت للحيوان، فعلى قدر جسده وعلى وزن مقداره وتمكّنه يطهر العنبر والعيب. وزعم الأصبمى أنه لم يسبق الحلبة فارس أحصم قط. وقال محمد بن سلام لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا تلقاء.

والهداية في الحمام والقوة على برد العاية إنما هي للصمّة من الحصر. وزعموا أن الشبّات كلّها صمغ ونقص، والثنية كلّ لون دخل على لون. وقال الله حلّ وعزّ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَامَةً لِّأَخِيَّتِهَا فِيهَا﴾. وزعم عثمان ابن الحكم أن أبى المدركه من المؤنث يأخذ أسوأ إخصال أبيه وأردأ إخصال أمه فتجتمع

(١) السمع بكسر السين وإسكان الميم والمعين المهملة. وله الذهب من الصمغ وهو سبع مركب فيه شدة الصمغ وقوتها وحرارة الذهب وحت (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ٣٢) - (٢) المسار بكسر السين والمسين الساكنة والألف عسارة. وله الصمغ من الذهب وحمه عسار (راجع حياة الحيوان للدميري ج ٢ ص ١٣٩) - (٣) الخلايى: الولد بين أوير أبى وأسود، والهديك بين دحاحتين هدية وهادسة. (٤) الورداني بالراء المهملة طائر منول من الوردان والحمام وله عراة لون وطراة فذ. (٥)

فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي، وأنه اذا نرج كذلك لم تُصح فيه أدب ولا يَطْمَع في علاقه طيب، وأنه رأى في دور تقيف قتي احتمعت فيه هذه الحصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدثون عنه شيء، يصغر في جنبه أكبر ذنب كان يسب اليه .

وزعت أن الكلب في ذلك كالتحسني الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالتحسني الذي لما قُطِع منه ما صار به الذكر حلاً نرجح من حد كمال الذكر ففقدان الذكر، ولم يكمل لأن يصير أنثى للفرزة الأصلية وقية الخوهرية، ورعت أنه يصير كالبيد الذي يفسده إفراط الحز، فيحرقه من حد الخلل، ولا يدلحله في حد البيد . وقال مرداس بن حدام :

سَقِينَا عَقَالًا مَثْوِيَةً شَرِبَةً * هَالَتْ بَلَّتِ الْكَاهِلِيَّ عِقَالِ

فَقَلْتُ أَصْطَلِحُهَا بِأَعْقَالٍ مَا تَأْمَا * هِيَ الْمَسْرُوحَاتُ لَهَا مَحَالِ

رَمَيْتُ أُمَّ الْحَلِّ حَبَّةً فَلَيْسَ * فَلَمْ يَتَمِشْ مِهَا ثَلَاثَ لَيَالِ

بجعل الحمر أُم الخلل قد يتولد عنها ، وقد يتولد عن الحل اذا كان حمرًا مرة الخمر .

وقال سعيد بن وهب

هَلَا وَأَسَتْ بِمَاءٍ وَجْهَكَ تُشْتَهَى * رُودُ الشَّابِّ قَلِيلُ شَعْرِ الْعَارِصِ

فَالْآنَ حِينَ بَدَتْ بِحَدِّكَ لِحْيَةً * دَهَمَتْ يَمْلِكُكَ مَلَأَ كَفِّ الْقَارِصِ

مِثْلَ السَّلَامَةِ عَادَ نَحْمُ عَصِيرِهَا * بَعْدَ الْإِلْذَادَةِ حَلَّ حُمْرِ حَامِصِ

ويصير أيضا كالشعر الوسط والماء الوسط ، والبادر العائرة التي لم تحرج من الحز الى البرد فتصحبك السن ولم تحرج من البرد الى الحز فتصحبك السن .

باب الرسائل

١ - الفصول المستخبة من الرسائل المختارة في كل فن^(١)

كتب رجل الى صديق له .

إن آمانك شادوا أكارهم ، الفصائل التي كانت فيهم ، وإنك قد كنت أحدث في مدرّجهم فأويت على طياتهم ، ثم أختلعت الهوى ببعض حديثك وحوادثك^(٢) ، من لباس فصلك الذي كنت تقول به على أكفائك ، وتلك به أعة كافة حديثك ، وألقيت مالك على شر عواقبه عليك لا لك إن رلت مكاره بوادره عنك .

فصل - قيل . إن مروءة الرجل في نفسه تستلزم لقوم آخرين ، فإنه إذا فعل الخير عُرف له ، وبقي في الأعقاب والأصحاب ، ولقيته يوم الحساب .

فصل - إن حق الله على المسلمين أن يبطروا في دينهم بالصبيحة لأئمتهم ، فإن الأئمة إذا صلحوا بذل الهوى بالثقوى في قلوبهم ، ومات سوره العصب فيهم لأحلامهم ، وسكت العامة الى عدلم وذلت لإصافهم . وإذا كان للحسن من الحق ما يقمعه ، وللظالم من السكير ما يقمعه ، بذل المحسن الحق عليه رعة ، وذلل المسيء بالحق عليه رعة . فأقول ما أمرك به رعاة الله وتقواه . وأما رجائه فإن تحسّن به في الصنيع إذا أطلعتّه ، ويكون لك وقاية إذا آثرته مطمئنا . وأما تقواه فإن تكون له فيما أمرك به وتهاك صه مراقبا ، فإن يقية المؤمن زيد في أنشراح صدره ، وإن شدة خوفه تزد هواء على عقله .

(١) خلا من اختيار المطوم والمشور لاس طيعور .

(٢) الحديث : الناصية والحالة والطريقة .

فصل - تنبه اذا بُهت، واذا ذكر اذا ذُكرت، وانتفع فقد وُعظت، وأسمع فقد نُوديت، نَهَكَ الوعيدُ، وحدرك الزاجر، وأمرَكَ ونهَكَ الِكتاب، ونَفَتَكَ آثارُ الموب، ودعاكَ الى الجمة مَلَى، جواد، فالجدة الحَذ، فقل المهجرة يُرِج المذلج .

فصل - ما نظرتُ في معروى عند أحد، فوجدته قُصرَص أمله وكأن يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا عدته سيئة لي عنده، لأني دَوَّقْتُه ما أَحَبُّ، ثم معَّته إياه، وكأني قصدتُ لإشخاص قلبه . ولا نظرتُ في معروى عند أحد فوجدته قد تنهى عد تنهى أمله وكان يمكنني أن يكون أكثر منه، إلا رأيَني في ذلك واتراً لمسي، لأنه كفى عيياً لها وإزرأها، أن أقع ^(١) . فصل يخذه بمثل ما أقع رجلا من فصل يخذه عليه .

فصل - ما أنتَ مني يعلم من جهل به، ولا تُحس منه نادره زلة، ولا يقابل بين أمرين إلا عَرَفَ حيرَها فآثره، وشَرَّهما فاجتنبه . وقد رأيتُ ما ساقَت اليك الطاعة من حظِّ العاحلة، فلا تتعزَّص لرِوال ما أنت فيه، فتحسر الحطَّين، وتندم في الدارين، فقد رأيت من عائد الحق كيف صرعه الله وبسط يده وولَّيه على سَمَك دمه، وإحلال النعمة به، فصار بعد أن كان في الأُمِّيَّة مثلاً، وجميع الخلق طاية وأملاً، فكَرَّة في الاعتبار، وعِطَّة للأبصار . فلا يُعبد الله إلا من طَلَم وحرَّ، وذهب عن الحق وأدبَر . وأنت اليوم مُحَكَّم في أمرِكَ، محبَّر في رأيِكَ، تُدعى الى حظِّكَ بالحط الجزيل بتدليل . فاعتزل ما قد هدَف لك وهو مُمكن ليدك، فإنك إن أهملت وتراجعت، لم يكن الحق وولَّيه وحشة اليك، ومصَّت أحكام الله في نصرها وتأبيدها على أَذْلالها ^(٢)، وصِفرت يَدُكَ بما لا يُشرف لك بمثله، وأخطرتَ بدمك وأسَلَّتْه أخبث مَسِيل وأصلَّ سبيل، حيث لا تنكي عليك السماء والأرض .

(١) يياس في الأصل . ولله . أن أقع متى فصل أخذه بمثل ما أقع رجلا الخ .

(٢) على أَذْلالها : على وحرَّها وطرفها .

فصل — الناس رحلاب : عالم لا غنى به عن الازدياد، وحاهل به أعظم الحاجة الى التعلم ، وليس في كل حال يكون العالم لما يَنْتَعُهُ من الأمور مُعِيدًا ، ولا المتعلم على ما يستعيد منه قادرا وقيا .

فصل — إن أن عطلتنا من أمورك ، وأعيت طهورنا من أنفالك ومؤونتك ، وتركنا أعمالا في ولايتك من تبهك وتحريكك ، فقد أنزلنا منزلة من لا خير عنده، وجعلت نفسك أسوأ من لا مُعين له ، وكفى بذلك ظلما .

فصل — إن إعلامي إياك .^(١) غير محدد شيئا ، ولكنه أقرب من الجليل في معرفة عذر المعتذر، وأحمل للأمة على المسيء المقصر .

فصل — الذى أعتمدا عليه من رأيك، وثيق به من حميل بطرك، قد حططنى بأهل صائنك، والخاصة من ثقاتك، وبسط أمل فيك الى عاية حير يُرْتَمَى ، أو جريل حطَّ يُؤْمَل .

فصل — ليس يسوع لأحد في الأمير أمل، ولا يتوجه اليه منه رغبة، ولا يلزمه في قضاء حقه، ودانة مؤونته إلا وفصله مستعرق لها .

فصل — من أحمد الأمور وأجل المذاهب، ما كان آخره موصولا بأوله ، ومؤديا بذؤه الى حمد طاقته ، لحافظ على الأذوار التي حسن فيها عهد أمير المؤمنين أثرك ، مستقيلا فيها لكثير ما يكون منك ، مُتَعَدًّا بها في النعم عدك، والإحسان الواصل اليك ، فيما يوفقك الله له منها ويحصك به من الفصل في اختيارها ، وأمير المؤمنين يستحفظه الله لك، ويستمتع في العمة فيك .

فصل — قد كان يجب أن تجعلنا بمناسة النعم علينا في خاصة الشاكرين لفضلك، ولا تجعلنا بتواتر الإساءات اليا في عامة الشاكرين لك .

(١) بياض الأصل . ولعل الكلمة المتروكة «حاجتي» . والظاهر أن طبة «عقد» محوطة عن كلمة «مجد» .

(٢) كذا بالأصل .

فصل - عَليّ بن أبي الله عليه أحوالُ الأمير أكرمه الله، وجعل عليه رأيه في بسط العدل على رعيته، وتَتَّ الصل على مُتَمِّسِي فصله، يبعثني على الكتاب في مثل ما كتبْتُ إليه فيه، من طَلامه مظلوم يستعِذ بها عدله، وحاجة ملهوف يرجع بها إلى فصله؛ فأجمعُ إلى ما أتمس من الثواب في ذلك مُوافقةً رأي الأمير، وإذ كاره ما يحب أن يذُكر به، فزاد الله الأمير من نعمه، وأوزعه من الشكر عليها ما يُوجب له ثناءً عده، وترادفها له.

فصل - أُنِّب والحمد لله من أحتمل الصبيحة، وقيل الأدب، وصدو الخيلة وحلص على الجنة وحسن العلى، فاستقامت طريقته وقدمه جميل مدحه وآثاره، وجرّت على قصد السبيل طاعته، وأشتدّت على السريرة والعلانية مُناصحته، فأصبح أمير المؤمنين لا يتأهى في ريك وتكرّمك، إلّا رآك مُستحقاً لها ولياً موفّقها، ولا يرمك إلى درجه إلّا رآك أهلاً لأشرف منها، صنعا من الله لك بما وفقك له من طاعته، ووهب لك من جميل ممراته، والمكان منه والأثر عده.

فصل - فصل مشاركتنا إياك في محبب الأمور ومكرهها يجلب في السرور بالعمه عندك - جتدها الله لك - وروح الشكر بما يكون لحقها قاصيا، وللاريد بها موجبا.

سعيد بن حميد - شُعلك يقطعنا عن مطالنتك بالحق في جوابات كُتبت إليك، وصدقُ مودتنا لك يمعنا من التقصى في الحجّة عليك، ومن يكلّك إلى رأيك فإنه لا يبي بك إلّا لك، صلة إخوانك والتعاهد لهم من ريك، بما يُنشئه فصلك والعمه عليهم فيك.

وفلان بنى وبينه مودة أقدمه بها على الأخوة؛ لأنك تسلم قرب ما بين المودة والقرابة، وقد تولّوه على الحالات كلّها، فلم يزدني اختارُهُ إلّا اختياراً له، ولا أعلم بالعسكر جليلاً إلّا وهو لي صديق، يشكر بشكره ويُوجب على همه المية فيما آتى إليه. فأنا من بين إخوانه فليست أعيل عن قضاء حقّه، ولا أتاخر عن معروف أسدى إليه، فإن رأيت أن

تُحِلُّهَ بِالْحِلِّ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ سَعْسَعَهُ وَسَلَمَهُ ، هَوَاهُ مَا رَأَتْ سُوقَ الْإِحْرَارِ أَتَفَقَ مِنْهَا عِنْدَكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ ، أَيْقِ أَفَقَ تَارَكَ وَتَعَالَى مَا بَيْنَكُمْ وَرَحِمَ مَا بَيْنَكُمْ .

فصل — إن أحدا ليس بمستحيٍ شَيْئاً مِنْ عَضَائِهِ عَيْشَ الْإِمَامِ بَيْنَ حِلَالِ مَكَارِهِ ، هُوَ أَنْتَظِرَ مَا حَلَّ الدَّرَكَ أَحِلَّ الْإِسْتِقْصَاءَ سَلَتَهُ الْإَيَّامُ فُرْصَتَهُ ، لِأَنَّ مِنْ صِبَاعَتِهَا السُّلْبَ ، وَمِنْ شَرْطِ الزَّمَانِ الْإِفَاتَةَ .

فصل — إن الأمير قد حَلَّ فصله عَنِ أَنْ يُحِيطَ بِهِ وَصْفٌ ، أَوْ يَأْتِيَ عَلَى تَعْدَادِهِ احْتِمَادٌ ، فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَكْثَرَ مِنَ الشُّكْرِ لَكَانَ الْأَمِيرُ يُسْتَحَقُّهُ عَلِيّاً ، وَيَسْتَوْحِقُهُ مَيْتاً .

فصل — قد أصبح المحتلمون محتلمين عَلَى تَقْرِيطِهِ وَمَذْمُوحِهِ ، حَتَّى إِنْ الْعَدُوُّ يَقُولُ أَصْطَرَاراً مَا يَقُولُهُ الْوَلِيُّ أَحْتِيَاراً ، وَالْعَبِيدُ يَتَّقُونَ إِعْجَامَهُ عَلِيّاً بِمَا يَتَّقُونَ بِهِ الْقَرِيبُ حَاصِلاً .

فصل — المائلون إِلَيْهِ بِسَبَبِ مَكْتَنَفَةٍ مِنْ تَأَلُّدٍ بِهِ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَطَارِبٍ مِنْهُ يَسْتَعِيدُونَهُ ، وَمَوَاهِبَ مُتَحَدِّدَةٍ ، وَهَوَائِدَ مُتَرَادِدَةٍ ، هِيَ مَسْوُولَةٌ بِهِ إِلَى بَرَكَاتِ آيَاتِهِ ، وَطُوقُ حِفْظِ^(١) مَنْ أَنْصَلَ بِهِ ، فَزَادَهُ اللَّهُ مِنْ فَصْلِهِ ، وَزَادَ أَوْلِيَائِهِ بِهِ وَبَرَكَاتِ دَوْلَتِهِ .

فصل — أَخْتَمْتُ أَمَّا لَا يَدُومُ إِحَاؤُهُ ، وَلَا تُشْكِرُ أَحْوَالُهُ ، عَلَى بَعْدِ الدَّارِ وَقُرْبِهَا ، وَأَتَصَالُ الْمَكَاتِبَ وَأَنْقَطَاعُهَا ، يَحْدِثُ مُتَصَرِّفاً مَعَكَ فِي الْحَطُوبِ الَّتِي يَطْرُقُ بِهَا الزَّمَانُ ، وَيَدَا لَكَ فِي الْأُمُورِ الَّتِي يُتَمَتَّحُ فِيهَا الْإِحْوَانُ .

فصل — أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ مَا تَطُولُ بِهِ فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ فِي الْقُلُوبِ وَالْعِيُونِ عِنْدَ الْوَلِيِّ وَالْعَدُوِّ مَوْصُولاً بِالْإِنْسَاءِ فِي مَدَّتِهِ ، وَالْإِدَامَةِ لِعَزْهِ وَسَلَامَتِهِ ، وَالْأَعْلَاءَ لِيَدِهِ وَكَلِمَتِهِ .

أحمد بن يوسف — حدى فلان وفلان ، فَإِنْ كُنَّا مِنْ شَأْنِكَ فَقَدْ آذَنَّاكَ .

في صفة حرب — كَانَتْ لَكُمْ الْكَرَّةُ ، وَعَلَيْهِمُ الدَّرَّةُ ، فَحَمَلُوا حِمْلَةَ كَاذِبَةٍ ، أَتْبَعَهَا نَافِرِي صَادِقَةٍ .

(١) في الأصل : « حَقَّة » والسياق يقتضى ما أثبتناه .

فصل في هدية — قد أهديتُ اليك من فنون كلامي وعبودِ مقالِي، دفترًا ظريف المعاني، شريفَ الماني، صحيحَ الألفاظ، يَدُّ أهواءِ الناطقين، ويلين على أسماع الصامتين .

فصل في شفاعَة — لفلان قَبْلَكَ حاجه، ليس يحتاج فيها إلى مَعْدَتِكَ وَصَفَتِكَ المبسوطتين لمن لا يتوسَّل بِحُطَّتِكَ ومعرفتك، ولكنه يريد ما في ذلك السدول والإنصاف من الرفق والإحسان المندخورين للخاصَّة والإخوان .

فصل لرجل تميمي — صمَّفتُ حالي مدعوني إلى كثرة الطلب، ومعرقي بمجمل رأيك تمجُّزني عن الإلحاح عليك، خوفًا أن أكون حاهلاً بمايتك، وحسن بطرك، والكرم يستحي بمصِّه لمص، ويبعثُ بمصِّه بمصًّا، ودين حلتُه الغير على المقود، فعنه كرمه للنهوض، أو دعاه هواء إلى المنع، بجاء عقله على البذل، وحالي حانحة لدى فضلك وجمعة الله عليك من سدَّ خَلَّتْها، ومدادوا عِلَّتْها بمجاهك الواسع، ورَفِدَكَ الباع .

أحمد بن يوسف — قد نَدَلتَ لنا من نفسك أعزَّ مَبْدُول وأهَّسه، والمودة التي كلما يُجَدُّ من صاحبها، فهو لها باع . ونقَّتْنا بك واستنَّامتنا إلى حاجتك، على أحسن ما أكَّد الله بيننا وبينك . وإن كان مدى اللقاء بيدي لم يَطْلُ فأنزل منه ما رعاه أهل الوفاء والمخالصة، ويقصِّر في المحافظة عليه وعلى أكثر منه، من دُحِلَتْ نيَّته، وصعُفَتْ حُلَّتُهُ .

فصل — قد أصححتُ لخاصَّه عُدَّه، وللعامة عَصْمَة، وللأمام ثقة في ماصحتك .

فصل في الصفح لأبي علي — إنَّ الذي قرَّط منك، وإن تجاوزَ مني ما أَرْصاه لك، لم يبلغ ما يُصْغِبني عليك، وحيث انتهى ما يحالفني من قولك ووصلك، فإن وراءه تغمُّدًا مني لإساءتك وصفحًا عن رَلَّتِكَ، فإن تَأَمَّنَّا لا تُحْكُك، وإن يسؤ طُوك إِيَّاي نحتاج إلى إصلاحه منك .

أحمد بن يوسف — إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها :

بعضي استقلالُك لي بالأطفئُك، والذي نحس عليه من الأفس سهل عليا قلة الحسد لك في البر، فأهلبنا هدية من لا يَحْتَنِمُ إلى مَنْ لا يَنْتَمِ .

كتب عَقَّال بن شَبَّة — الى خالد بن عبد الله في شفاعته :

إن الله انجيك من حوهره كرم وميث شرف، وقسم لك خطراً شهزته العرب وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعاد حطرك قدرة مبسوطة، ومزلة ملحوظة، بجمع أكمالك من جماهير العرب، يعرف فصلك، وسره ما حارقه لك، وليس كلهم أداله الرمان ولا ساعده الخط، وأب أحق من يعطف على أهل البيوتات، وطاد لهم ما يبق له ذكركه ويحسن به شره، مثلك . وقد وحثت اليك فلانا، وهو من ذنيه قراى، وذوى الهيعة من أسرى، وعرف معروك، وأحدث أن تلبسه بعمك وتعيره الى وقد أودعنى وإياه ما تحده ماقياً على الدشر، جيلاً في الميت .

فصل في التوديع

استودع الله الأمير أحسى وداعه، وأسأله أن يجعله في كفه ويخرزه، فقد أكرم المتوى، وأحسن الاتباء، فأطال الله له البقاء، وأدام عليه النعماء .

في الصفح

لمنى كتابك، تذكر كتابي اليك بوصى عك مؤحدي، وردى لك الى أحسن ما عيهدت من معرك عيدي . وقد حلت ما المحل الذى حطباك فيه فأنعسا، وأدحباك منه مداحل أهل يقنا، ولست تؤتى من جهالة بما أنت فيه، ولعوض ما أنت عليه من التجارب تستمد بمثلها العبر، ويتنفع بها في عطف الأمور .

جواب في فتح

كتب سالم بن هشام الى يوسف بن عمر حين قتل زيد بن علي رحمة الله عليه :
قد بلغ أمير المؤمنين كتابك بما ألى الله في مئذره السوء، وأنه لما عصهم الحرب، وألهم الحديد، عادوا بالمسعد الجامع، قد أكدب الله طونهم، وخذل فخرهم، وقتل إمام صلالهم، وحيفت لأمر المؤمنين ما صيعوا من حقه، وحاط له ما أباحوا من الفدر فيه، وقد رأى أمير المؤمنين أن يجعل من شكر الله على نعمه، الصفح عنهم، وتغمد حرمهم

وأن يعمهم من عدله، بما يردّ به الجاهل عن جهله، والعموي عن غوايته، ويعلمون مكانه من الله، واستجابته لعزّه ونصره؛ وأنه الخليفة المتّق، والإمام المتألف؛ وأنه يُقدّم المعو في الطاعة، على المجتّه في العقوبة، والحسنة في الاستصلاح، على القوة في التأييد، فأمسك منهم بيدك، فإنّ أمير المؤمنين قد وهب ذلك كلّ الله، ورحا به ما ليس صائما عنده من ثوابه .

في الصفح عن الجفاء

لو كان من نازع الى العدر، قلّدها عان المحر، لم يكن أقرب ما الى الدن، ونحن نردّ عليك من نفسك، وماخذ لنفسك منك، حتى يكون تركا إياك، وعدرنا فيه وافر .

فصل — الحمد لله على البلية التي طال أمدّها، وسد ما بين طرفيها .

آخر — أقصرت في التثبت أنّ ذوى الحي، وقدمت المقدم من الأمان على العملة، وأطعت في أمرك السيطرة، وانتهيت الى العُدرة والمعرفة، فملك ما ملكك، وحكمت على الذي حكم عليك، فأحدث مثل الذي أعطيت .

فصل — بدء أسباب الأمور دليل على عواقب الأمل فيها، والحيه بعد الله عز وجل .

فصل اعتذار

لو كان الناس يقصون الحقوق التي تميم عليهم، ويحافظون على الأمور التي تلمهم، لقلت اللامة، وحلصت المودة، وارتفعت أسباب العتاب، ولكنهم عجزه مقصون، يصنفون عن العلم، وأكثر ما تدركه عقولهم، ويعوقهم عن ذلك أشغال لا يجب بها العدر، ولا تستحق الإيثار، ولم أرل عابا على هسي فيما صيغت من مكاتنتك، مع معرفتي بفضلك، وموقع ذلك عندك، وما اعتدري اليك، سوء طرّك، ولا محامّة للأمتك، ولئن فعلت ما طامنت، غير أنّي أحببت أن أكفيك المؤونة، فيها عسيت أن نقص عنه من مقايستى ومعاتنتى، وأنا أحب أن تحمل العدر، وتعين على مستقبل البر .

فصل — أنت في زمان إن لم تعالط أهله ، وتحتلهم على ما في أيديهم ، وتصبر على مكاره الأمور بعد المطالبة ، لم تصل إلى شيء ، ولم تجد أحدا ما على فضل منك وإن عرفه فيك ، ولم يفتنه من محاسنك شيء ، إلا رأى في مساوئ عيرك عوصا منه ؛ فكان بذلك أطلع ، وإلى أسكن ، عليك بالصبر ، فإن عاينته إلى حر ، وأقل ما فيه أن صاحبه لا يلوم نفسه ، ولا يلومه أحد ، وأما يطفر أو يدل .

الى المأمون من عامل

قل من يسارع إلى بدل الحق من نفسه ، إذا كان الحق مُصْراً به ، وقل من يدع الاستعانة بالناس ، إذا كان فيه صلاح معاشه ، وسبب مكنسه ، وإذا تعرق الحق في أيدي جماعة فطولت به ، تشابهت في الكثرة لدله ، وتعاونت على دفعه ومعه ، بالحيل والنشئة قولاً وفعلًا ، واحتاج المتلى استجراح ذلك الحق من أيديها ، إلى استعمال محادثتها ومصاربتها على الحيلة في مدافعتها .

ابن الكلبي

كان جبر ما أملاك الله في فلاح بعد أمانه ما عزمت عليه من الأمان ، خيراً عظم مكانه من أمير المؤمنين ، وحسن موقعه من الدين ، ثم ردف جبرك بإدعائه بعد ما عصه من بأسك ، ومنه من مؤلم إيقاعك للاستسلام ، وطلب عهد الأمان ، وإنك بدلت له ما طلب لا لرهبة بقيت في ناحيتك ، إلا الاحتذاء على مثال أمير المؤمنين وأدبه ؛ فكان لماؤه ما عرست عليه في أول أمره دحيره حفظ فيما كشفت عنه البلوى من محمود أثرك ، واجتمع لك في ذلك حطان : الطفر أحرأ ، والدرك لما حاولته أولاً ، فلا زلت على نصيبك من الحفظ ، مؤيداً بالصر والمعونة ، والحمد لله على ما حقق من الظن^(١) . من هذه العمة على يدك وسعيك .

(١) ياصر في الأصل . ولعل الكلمة المتركة « وآز » .

ابراهيم بن اسماعيل بن داود الى ذى الرياستين

وصل الى كتابك بخط يدك المباركة، فلم أرفقلا أجمع، ولا إيجازاً أكفاً من إطباب، ولا اختصاراً أبلغ في معرفة وفهم منه؛ وما رأيت كتاباً على وحاته، أحاط بما أحاط، وصربت طقني في فلان ففطمت ذلك سرورى، وقد يستعطف الظالم، ويستعنت المجتنب؛ وفي رقك وعلمك بالأمور ما يصلح الفاسد، ويدل العصب، ويُقيل المدبر، ولا يبعث حور من حار عليك، من الاعتقاد في المحنة عليه، والأحد بالثقة في أمره، إن الله عز وجل لم يجعل عليك في ذلك سقصة ولا عصابة، بل فيه الإعذار والإنذار والاستنصار، وقضاء حاجة النفس، مع التأدية الى السلامة، والأمن من الندامة.

فصل — أنا في حال عافية، نتجاوز الى حال بئمه، والحمد لله حتى يرصى، فقد أرمى، فاقا ما أشرت به، وحررت من إمضاء رأيك فيه، والإسالك عه، فثلك جعل لم نصحه شركاء في كل أمره، ولم يجعل رأيه قرصاً لعصه أن يتعدى، وذكرت أدب فلاية، وعددا لعلامة الطمع المستقل مع الإمام المتقدم، مع أنه لا شيء لها عدما قل ولا حل، ولو كان ما استحلها حسبه صفة كفف، ولا تقيص طرف؛ وذكرت أنه لا يستعني مثلاً عن مثلاً، وأبدال الله كثيره عتيدة، وما مان عليها فقد أحد ممن كان قبلها في دارنا، حال بيما وبينه حائل، ولا احتلنا له مع نظر الله تارك وتعالى وأخلافه؛ وعد هذا فأحسن الله حراك، وحاط لي فيك ما أحت منك، وكفاك المهم وكفايه لك، وما تقوم نفس لو كانت لي أخرى مقامك في نصيحتي ورتي، والاهتمام لي، مما أنا عه ساهية لاهيه من أمرى، لا أعذميك الله ولا الصبحة منك.

فصل — قال أبو جعفر الزكمانى للحسن بن سهل ووعده شيئاً فاطماً عليه .
أنا أعيرف تكامل الثقة فيك، وراحة الفصل لك، وأعلم أن فطلك يربي على قواك، وأن إيجازك أكثر من وعدك؛ فقدم لي من كرمك، ما أثمره إلى أن يلحقه المتأخر

عه، وإلا لُدَّتْلى على ما أقول اذا سَأَنى مَنْ مَتَّته على شكرك، عما ملَّعه من الحط على نيتك .
فقال الحسن : تقول ما ينبغي، فقال : فاهل ما ينبغي أقله .

عمرو بن مسعدة

وصل الى كتابك ، على طمأنى الىه، وتطلع شديد . وبعد عهد بعيد ، ولوم منى على ما مستنى به ، من حفاك ، على كثرة ما ناعت من الكتب ، وعلمت من الجواب ، فكان أول ما سقى الى من كتابك السرور بالنظر اليه أنسا عما تحددلى من رأك ، فى المواصلات المملكية ، ثم تصاعف المسرة ، بحبر السلامة ، وعلم الحال فى الهيته ، ورأيتك بما تطاهرت من الاحتجاج ، فى ترك الكتاب ، سالكا سبيل التخلص مما أنا مُحَلَّصُك منه ، بالإعصاء من إلزامك المحمى ، فى ترك الابتداء والإحابة . ودكرت شعلك بوجوه من الأشغال كثيرة متطاهره ممكنة ، لأحسبك متاعه الكتب ، ولا أحمل عليك المناكدة للجواب ، ويُقضى منك فى كل شهر كتاب ، ولى [تَرم] من منك فى البر قليلا ، إلا ألزمت نفسى عه كثيرا ، وإن كُنت لا أستكثر شيئا منك ، أدام الله مودتك وثنت إحاطك ، واستمحا لى منك ، فرأيتك فى متاعه الكتب ومعادنى بها بحرك موقفا إن شاء الله .

عيسى بن واضح الى الفضل بن الربيع

قد أكره الله من حرمى بك ، ووصل من الشعب بلى وبيك ما جعله ذخيرته ليوم الحاجة ، وعدة عند ملئ النازلة .

جبل بن يزيد

أما بعد فإن من صحب الدنيا لم يخل من تصرف أحوالها . وكثرة معاريف بغائرها ، فى احترام الأنفس فى خواصها ، ومواقع البلايا بين ذلك مما يهتدها ، ويمر من الأشياء عليها ، وكان ذلك لا سبيل الى دمه . ولا حيلة يُستعان بها عند روله ، إلا الرضا عن الله عز وجل فيما قضى ، والتسليم لأمره فى كل ما أتى ، والسكون الى الأسوة الى نهج الله سبلها ، وخفف

(١) السياق يقتضيه . ومع هذه الكلمة ، وهى متروكة فى الأصل .

بها مواقع المصيبات على أهلها؛ ثم الرحاء بعد ذلك لحُسْن ثواب الله، [وقد] جعله الله لمن لزم أمره وأجشم نفسه مكروهها في مواطن الصبر على المصيبة، والشكر في حال العافية .

وله في المطر

قد كُتِبَتْ كُتِبَتْ إلى أمير المؤمنين أَعْلَاهُ الْمَطَرَةُ التي أصابتنا، وما أُنْزِلَ الله بها من رحمته ثم عادتْ لنا بعدها من الله عائدُهُ رَحِمِهِ، بَوَلَى مَطَرٌ أَنْزَلَهُ اللهُ أَحْسَنَ مَا رَأَيْنَا مِنَ الْمَطَرِ وَأَبْلَا جَوْدًا، لَا يَهْتَدِ عَزِيزُهُ وَلَا يَرْوِي حَوْدُهُ، إِلَّا إِلَى دِيْمَةٍ عَنِ دِيْمَةٍ، يَتَرَانِي إِلَيْهَا يَسِيرًا رِيحًا تَعُودُ، فَأَقَامَتْ عَلَيَا سَمَاوَهُ مُسْتَهْلَةً بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ إِلَى عُرُوبِ الشَّمْسِ؛ ثُمَّ أَتَقَطَّعَ مَطَرُهَا بِسُكُونٍ مِنَ الرِّيحِ، وَتُحَوَّرُ مِنَ الْقَرِّ، وَفَصَلَ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٍ، يَنْشُرُ بِهِ رَحْمَتَهُ، وَيَسْطُطُ بِهِ رِزْقَهُ، فَاسْمِعِ الْعَمَّةَ، وَأَوْسِعِ الْبُرْكَهَ، وَأَوَقِّ بِحَمْدِ اللَّهِ مَعَارِفَ الْخُصْبِ وَالْحَيِّ . وَاللَّهُ مُجُودٌ عَلَى آلَائِهِ وَمَشْكُورٌ عَلَى نَلَائِهِ، وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ سُقْيَاهُ وَرَحْمَتِهِ، هَدَى الدُّنْيَى أَقْلَبَتْ بِهِ السَّيِّئَةَ الْبَرِيَّةَ وَالْفَقْهَ وَصَدَمَ الْإِمْطَارَ، وَشَدَّتْ مَا لَمَعَ النَّاسُ مِنَ الصُّوْطِ وَسُوءِ الظُّلُومِ .

وله إلى بعض إخوانه

أَمَامُكَ، إِنَّكَ أَكْبَرُ الْأُمُورِ فِيمَا بَيْنَ النَّاسِ حَقًّا أَمْرًا . مِنْهُمَا الْإِحَاءُ فِي الدِّينِ، فَهُوَ سَبَبُ وَصِيَّةِ اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْأَلْفَةِ وَالْمِائَةِ الَّتِي أَعْطَيْتَ بِهَا قِرَائَتِ الْقُلُوبِ مِنْ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَأَتَّصَلَتْ بِحَاثِلِهِمْ مَرَائِرُ حُلُمِهَا، وَتَقَطَّعَتْ فِيمَا بَيْنَهُمْ عَاطِفَاتُ وَصْلِهَا، وَهُنَّ بِهَا بِحَامِلَةٌ جَمِيلُ الْأَعْدَاءِ، وَحَفِظْتُ مَا يَحِقُّ لِأَهْلِ حَسَنِ الْبَلَاءِ؛ ثُمَّ الصَّائِعُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَوَاقِعِهَا فُضَائِلُ بَقْدَرٍ مَا جَرَتْ بِهِ أَسْبَابُهَا وَلَطَفَتْ مَدَاحِلُهَا .

فصل — الصبابة ليست يزيدها الأخلاق الجميلة ، ويريد في أسبابها أواخر المودة ، وقد جعلك الله في صابعتك مقدما ، وفي مودتك تفضيلا ، فلا زالت عليك مع الله ، ولا رحت سكا لإخوانك ، وأتسا وموصعا لما تستميجون من معروفك ، ويستمبرون من يدبرك .

فصل - إنَّ لك من قلبى لموصعا معمورا بالموثقة والثقة ، والاسترسال
والأكسة ، فلا تُخرج فلانا من سعة جميل ربك ، الى عَفَى استحقاقه .

آخر

قد طالَّت الصابة اليك ، وللدهر عَفَى عائدة بالمع والصنع ، ولا سيما لمن كان على
مثل شاكلتك فى أدبك وفضلك وإصافك إخوانك وبرك بهم ، وما توحبه على نفسك
لهم مما يُقَصِّرون عن شأوك فيه .

الكلبي

كان أسلافنا تمارصوا ذبوا من الصفاء يستأديها كل عَفَى من صاحبه ، وقد أورثونا
موثدة لا يعجزُ عن اكتساب مثلها .

ابن أعين كاتب الخيزران

ليس يكون منك شئ ، وإن حُسْ ، إلا وحُسْ طنى بك يَلْمُهُ ، فاستمَّ أحسن ما كان
ملك ، تمَّ لك أحسن ما يُحب منى . ولا تميمك الاكتفاء بحالك اليوم من طلب الريادة
فى عد ، فأنه لقل شئ لا يريد إلا قص ، والزمان يحق الكثير ، كما روى على الريادة القليل .

ابن الكلبي

أنت من أطول ممكاه وأنى جميل رايه ، وأعتمد على ردهد ، وأرحو ذرك كل نصيله
به ، وتما أحب علمه مقترنهم الله عمر وحل لديك .

على بن عبيدة الى ابن الكلبي

وصل الله أنام غمرى ناتاع موافقتك ؛ ولولا موعد أحد على ، لأطعنت فيما أمرت به ،
متعا مع إحابتك سرور هسى برؤيتك فى السلامه .

أما بعد ، وإنى أصبحت وقد استعرج الأمير منى كل موثده وبصبيحه ، وبمبلغ جهد
وطاقه فيما عرفت له فيه موافقة .

فصل - وإن الذي شَعَبَ الله بنا من التواصل والكتائب، بدعوى إلى متاعه الكتب إليك في تمهّد حقك، وإن كان الحرص طاهر الحال قلباً يُغْنَى، وإن له من الأُنس والموقع في الكتب ما ليس مُستعرضات الأخبار.

فصل - قد كُتِبَ أعلت الأمر انقطاع ^(١)ى فلاب إلى فلاب، ناهوائهم ونصائهم وشراء ما قِيلَ به، وما كان وصل إليها في ذلك من الأور التي حلوا إصرها، وبقي لها أجرها ودكرها وافتها وسائقها، محس عدد الأمبروحاياه وذخائره، ومن يأمل يومه وعده، ولا متعطى له عه ولا مقتصر دونه.

عمارة

لغنى تَكُنَّ يصف كذا. فإن رأيت ألا تعتمد على ما اصقت [به] من عذر، وأطمت فيه الهوى من قبول عموك، وتجعلني أحد من بُسِرَ بسرورك، وتُسْرَك في مهمات أمورك، فإني أحذهم وأوسطهم عناية بما عاك وتوسطا لما عراك، فعلت.

فصل - والدنو من دارك إدارك دار جامعته والحبل متّصل. إدرنح في الاستعفاء بالخبر والعلم بذخلة الحال، بمحلة من كانه يُعاني من يشتاق إليه ويصبو به في كل يوم، حتى نأت النوى، وأت في اللقاء والإظهار في كل أمر وعلى كل حال من لا يُسْك في صماء عيه، وصدى إحائه.

فصل - مُشاركتنا لِمَاكَ في محسوب الأمور ومكروها يخلص محلك في السرور بالنعمة يمدّها الله لك، ويوجب من الشكر علينا مثل الذي يوجب عليك. فوصل الله كل نعمة بيهبها لك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا، ولزيد فيها موحباً.

سعيد بن عبد الملك

كتبته على شغل في قطع من القِرطاس، ولم يقطع بي حسن الظن بك في قبولك العذر، وتحسينك ما أنت أهلٌ لتحسينه، فإليك تعبل دون حقك، وتهب الدنب فيه، فيكون شكرُك

(١) في الأصل: «... وسراء مائه...». (٢) في الأصل «علها...» وهو لا يؤدى المرص المراد.

حاريا على سبيلين، كلاهما يُبَيِّنُ لَكَ عِزَّكَ، ويوحى لك مالا يَقْصُرُ معه إِلَّا مَنُوبُ
الحظ خَيْسُ الصَّيْبِ .

فصل — وقد طهر من أمير المؤمنين في فلان بعد وفاته، ما هو أعدلُ شاهدٍ على
حسن مُقَلِّدِهِ ، ورَدَّ اليك من رأبه وتفقدته ما أرحو أن يكون فيه أعظمُ العَوَضِ . والله
أَسْأَلُ أن يتولَّى لك أموركَ في السَّراءِ والصَّراءِ، والشَّدَّةِ والرَّخاءِ، والشُّكْرِ وحسن العِراءِ .

جبل بن يزيد الى بعض إخوانه

تمم الله علينا وعليك العم ، وأَجْرَلْ لَنَا وَلَكَ عَاسَ صَالِحِ الْقِسْمِ . إن الله تارك وتعالى
أخرى بيننا وبينك لطيف مَوَدَّةٍ ، وخاصَّ أَوْحَاةٍ ، غيرَ أن المعرِفة قد تُجْمَدُ بعد الخِبرِ ،
والثِّقَّةُ إِنَّمَا تعرف بعد التَّجَرُّبِ ، وقد أَحْبَبْتُ أن يعلمَ مَنْ قَلَّكَ ^(١) الذي أَحْدَثَ الله لك من
حال دولتك ، وأن يُعَلِّمَ هل أَجَبْتُ لَنَا مِنْكَ الدَّعْمَةُ سَعَةً ، أم تَرَكْتُ لَنَا مِنْكَ صَفْحَةً مَعْرِفٍ
بها عهدك ومأمُلُ بها وصلك . فإن أصحاب السُّلْطَانِ ، خَالِ مَلَوَى في التَّعْيِيرِ وَالِاتِّقَالِ ،
إِلَّا مِنْ مَالِهِ مَن الله تبارك وتعالى عصمه . وإن كُنْتَ على ما رَحِمْنَا مِنَ الْوَفَاءِ ، وحسبي
الحِفْظُ لِلوَدَّةِ وَالِإِحَاءِ ، فَتِلْكَ لَمْ يَرْضَ لِنَفْسِهِ إِلَّا بِأَجْلِ الْأَخْلَاقِ وَأَوْفَقِهَا لِلْسَّدَادِ . وإن
هَجَزَكَ عَن ذَلِكَ مَا تَأْتِي بِهِ الْأَقْدَارُ مَتَّصِرَفٍ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، تَعَذَّرَكَ بِمَا تَعَذَّرَ بِهِ أَهْلُ
السُّلْطَانِ ، إِذَا عَيَّرْتَهُمُ الْحَالُ ، وَتَكَرَّرَتْ شِمَائِلُهُمْ بَيْنَ الْإِحْوَانِ .

وله الى بعض إخوانه أيضا :

إِعلم أَي اليك مشوق ، وَأَنْ صَلَّةَ الْإِحْوَانِ كَرُمٌ ، وَحَيْرَ الصَّلَاتِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهَا وَجْهٌ
إِلَّا الرِّاءُ وَالْحِفْظُ وَتَجْدِيدُ الْمَوَدَّةِ وَتَصْحِيحُ الْإِحَاءِ ، فَإِنَّ الَّذِي يَكْتُبُ إِخْوَانَهُ عَلَى حَالِ
الرَّغْبَةِ يَكْفِي الْقَائِلَ كِتَابَهُ حَيْثُ شَاءَ ، إِنْ أَحَبَّ مَالٌ بِهِ إِلَى الصَّحَّةِ ، وَإِنْ شَاءَ وَصَعَهُ
لِلرَّغْبَةِ ، وَالرَّغْبَةُ أَمْلَكُهُمَا بِهِ . وَالَّذِي يَكْتُبُ إِخْوَانَهُ عَلَى حَالِ الصَّرُورَةِ ، فَقَدْ يَسْتَطِيعُ الصَّلَّةَ ^(٢)

(٢) في الأصل : « ما قَلَّكَ » .

(١) في الأصل : « ما حَلَّ ... » .

(٣) في الأصل : « ما لَكُنَّهَا ... » .

عند الحَدَثِ حَافَةَ المَلَامَةِ من الناس على القطيعة السَّعَاءِ المشهورة لإخوانه ، وإن الذى لا مَوَدَّةَ له قد يصل ذلك فى تلك القطيعة بأهل البلاء .

والكِتَابُ على مثل حالنا وحالك اليوم شاهدٌ على أن ذلك ليس إِلَّا حَقَّةَ الإِحَاءِ والشُّوقِ الى المَحَادَثَةِ بالكِتابِ ، حين لا يلومك اللائمون لمزلة البلاء تلك اللائمة على التَّقْصِيرِ ، ولا يُوصِعُ مَكَرَعةَ الرِّعَاةِ والإِطَاعِ . إِيَّاكَ أَنْ يَمْتَلِ بِالأَشْغَالِ أَنْ كُنْتَ فى حَاصَةِ هَسْكَ ، وإن أدَاءَ الحَقِّ وَصِلَةَ الإِخْوَانِ أعظمُ الخاصَّةِ لك حَاصَةٍ . وأما أَمْرًا فى كُلِّ هَذَا كَأَمْرِكَ الذى تَسْتَعِى مِنْ حَاصَتِكَ تِلْكَ التى لَنَا ، وإن لَنَا مَا لَكَ ، وهذه التى لَنَا لَكَ ، أليس مَاسَرًا سَرَّكَ وما سَلَسَاهُ حَفَا لَكَ ، فهذه كَذَلِكَ وَذَلِكَ كَهَذِهِ . والله يُوَفِّقُنَا وَإِيَّاكَ . وَأَنْتَ أَبَا يَوْسُفَ . هَكَذَا حَالُ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَا وَصَفْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ ، عِيرَ أَنَّهُ سَأَلَ أَمْرًا لَمْ يَسْأَلَاهُ قَطُّ ، فَلَهُ فَصْلُ السَّيِّئِ عَلَيَا فى المَسْأَلَةِ ، وَلَنَا فَصْلُ المَرْفَعَةِ عَلَيْكَ فى اللَّائِمَةِ . وَلِىَ أَدْعَاكَ وَالفِعْلَ ، دُونَ أَنْ تَسْمَعَهُ بِالعَمَلِ الذى هُوَ صِلَةُ القَوْلِ . وَسَلَامٌ عَلَيْكَ وَرَحِمَهُ اللهُ ، وَقَعَى اللهُ عِزَّ وَجَلَّ بِالحُسْنَى لَنَا وَلَكَ .

فصل — أَنَا نِي كِتَابُكَ ، فَأَعَمْتُ أَنْ يَسَرَّنِي بِسَلَامَتِكَ ، وَمَا حَاقَ بِهِ كَرَمُ رِزْقِكَ ، وَلَطِيفُ عِمَائِكَ ، مَا لَمْ أَفِدْ فى حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِكَ ، فَكَانَ الكِتَابُ مُصَدِّقًا لِمَا سَلَفَ ، مُبَشِّرًا بِمَا يَسْتَأْتِي ، مُدَرِّجًا مَكَرَ عَهْدًا مَوْصُو^(١) لِسَانِي وَقَلْبِي . فَلَا عِدَّتَكَ ، بَلْ أَمْتَعْنِي اللهُ بِكَ فَاطِلًا ، وَكَثُرَى بَقَائِكَ .

فصل — أَنَا نِي كِتَابُكَ فُطَامَ قَلْبِي وَطَرِي ، بَعْدَ مَا كَانَ شَاحِصًا إِلَيْهِ ، مُتَشَوِّقًا إِلَى رُؤْيَيْهِ ، ثُمَّ مَلَأْنِي سُرُورًا مَا رَأَيْتُ فِيهِ مِنْ آثَارِ رِزْقِكَ وَكَرِيمِ تَعْقِدِكَ . وَأَوْصَلَ مَا عِنْدِي مِنْكَ قَلْبَهُ ، بِنَا إِذْ ذَكَرْتُهُ ، فَلَا سَرَاخَةَ إِلَى الدِّكْرِ ، وَإِنْ أَمْسَكْتُ ، فَلِلْمَحْرُوسِ الشُّكْرَ . فَأَمَّا الضَّمِيرُ مَنِ عَلَى الإِقْرَارِ هَضْلِكَ ، وَالنِّيَّةُ خَالِصَةُ بِشْكْرِكَ . وَقَلِيلَ ذَلِكَ لَكَ ، فَأَعْطَاكَ اللهُ فَاطِلًا ، وَوَهَبَ فَاجْرُلَ .

(١) وَالْأَصْلُ : « حَافَةُ المَلَامَةِ مِنَ النَّاسِ ... » . (٢) وَالْأَصْلُ يَا ص . (٣) وَالْأَصْلُ : « فَالاستراحة ... » .

فصل — وصل الى كَتَاكُ نُحَيْلَ لى حين نظرت الى اثر يدك تجرى قلبك فى بطن صحيفتك ، أنك مائل بين عيني : أنظر الى شخصك وأسمع من لفظك ، فابتعث ذلك منى طربا شاققا ، وصابة هيجت الأحران وذكَرت الإحوان . وكنت من إخوانى الدين أحرَ بسلامتهم للوَد الذى أحرى الله بينا وبينك ، فواصلنا بحرمة ، وتعاطفنا بوصله .

فصل — إن الله جعل عاقبة كلِّ نعمة وإن عطمت ، تما لأولها ، وجعل الشكر طيبا سها لتسامها وموجبا لأحسن الريادة بها .

فصل فى شكر — إن الله جعلك للغير مَعْدَا ، وللفضل مَوْصِعا ، فبما حملته نفسك من ثقل أعباء المُرُوءه ، وحملتها عليه من عِطام المكارم ، حتى صُرْتَ بما أعم الله به عليك ، مُتَمَتِّى كُلِّ أَمَلٍ وعَايَة كُلِّ رَعِيَة . ثم أَلْبَسْتَ النعمة لباسَ التواضع ، وباسبت فى الأخلاق مَنْ سَبَقَتْ به عليك الأمور ، حتى كأنهم فى النعمة لك شركاء . وتَحَمَّسْتَ على الأقربين والمتقربين من الاخوان والأكفاء ، حتى كأنهم لك وَلَدٌ ، وأحبرت نفسك حين ساعدك الدهر ، على طبيعة التقرب الى العامة ، فكأنهم يُدِلُّ اليك بدأو رغبته ، ويحتاج منك مَنَاحَة فصل ؛ فلا عِدِمْتُ أَلَا تَزَالُ تَعْمَشُ سَقَطَه ، وتُقِيلُ عَثْرَة ، وتُسَدُّ حِلَالا ، وتُنِيلُ أَمَلَا ، ولا عِدِمَ مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ مِنْكَ ، أن يَسْتَمِمْ هذه النعمة عليك وعلى همه ؛ وإن من سعادة العامة أن يعمل سائرهم عند حيارها . ومن اللاء العظيم عليها المُوَجِّع لها ، أن يَحْصَ شَرَاهَا بموضع رغباتها .

فاسلم كَلَاكُ الله هذه النعمة ، غير مُنْقَصٍ بِهَا ، ولا مُكَدَّرٍ عَلَيْكَ صَفْوَهَا ، حتى تُسَامِكَ النعمة العاجلة الى النعمة الباقية ، فإننا وإن علمنا أن من شأن الدهر القَدَران فى العواقب فقد علمنا أنك فيما أهدى الله اليك من النعمة ، قد أَدَيْتَ حق الله عز وجل ثم حق إخوانك فيها ، فكنت أحرَمَ نال فصلك ، كرما فى الساء ، ورضا فى الآثرة ، غير مُتَطَاوِلٍ لِمَا نأمل ، ولا مُتَصَبِّعٍ لِمَا نتحذر ، فإننا تجرى شكر الماسح منك ، ورجاء الباقي ،

فنى تضييعا ما فى عقد الرأى ، وإزراء بنا فى وثائق الأمور ، ألا تمحك من أنفسنا مودة الولد ورقة الوالد . وإذا أعطاك أمرؤ ثمرة فواده ، فقد فرغ اليك من جميع حقك ، لأن ذات يد امرئ فى البذل أهون عليه من ذات نفسه فى الشكر . وكفى لامرئ من امرئ أن يستولى عليه حتى لا يدع لغيره فيه فضلا . وكفى بك لما من غيرك . وكثير منا أن نقوى على أداء أدنى صسوف حقك ، غير أن أوثق أمورا يك عسد أنفسنا ألا نسأم النظر الى ممالك بهجين بك إن ررت ، وعادرين لك إن شعلت .

فصل — إن الهدى والضلالة يقتسمان دول الأزمه ، لعبير كرامة للباطل ، ولا هوان للحق . وأهل الحق كيف تصرفت أحوالهم فى كرامة من الله عز وجل ، وصمة بين دولة تكون لهم ، يقومون لله فيها بحقه ويظهرون هداه وديه ، ودولة تكون للباطل ، يكونون فيها كهُوماً للغيرات ، ومعدبا للخصات ، يستكن الحق فى صدورهم ، ويأوى البر والصدق اليهم ؛ فهم بين يومئ صبر وشكر ، ليس أحدهما دون صاحبه فى الفصل .

وأهل الباطل كيف تصرفت أمورهم بين تخط الله وعقوبته ، لأن الله تعالى لم يجعل الباطل فرجا لأهله ، وإن كانت لهم دولة كانت إملاء واستدراحا ، وكاوا فيها على مذرعة هلكة وسبيل قمة ؛ وإن كانت الدولة لأهل الحق ، كاوا فيها بين ذل وصيم ، وحوف ورجع ، وقد سئت عليهم المطالع ، وصاقت عليهم الأرض بما رحبت . ففى أى يومئهم مستراحهم : أىوم دولتهم ، وهم لا يشكرون العمة ولا يقطعون أسباب النعمة ؟ أم يوم علق الحق عليهم ، وهم لا يصبرون على المحبة ولا يتصبرون من العمى ؟ وأهل الحق بين حالى عبطة وحسبة ، وأهل الباطل بين حالى إملاء وقمة .

فصل فى صفة الجند — إن الغالب على أهواء جماعة من فقام أولياء الأمير وجنده إعظام الأمير ومعرفة فضله ، والتعزب الى الله بحبته ومُاسمحته وطاعته ، ومُعاداه صدقه ، وتلك نعمة يتقنونها ويتقربون الى الله بها ، ويتوسلون الى الأمير بجزى قوم خالصوا .

فصل — حل بين فلال وبين التشريد بهم والاجتياح لهم ، فإن ذلك أرضى لربك ، وأجمع للألفة ، وأقوم لعمود الخلافة الذى سدد الله دعائم الإسلام وأسس الدين به . وأعلم أنك من حاط الله دينه ، ورمت عن فوقه الجماعة ، وعادى أهل القضا لها ، ابتغته الله أما من حول الحساب وصيق الخشعر ، والله بنصره أحق وأولى . وكل فقه بحيث افترض عليك ، فإنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ) .

كتب جعفر بن محمد بن الأشعث الى رجل لم يكتبه

لست بما صرفت الى من معروفك أسر منى ، بما أهديت الى من قصاء الحق حك ، وقلة ذوى الحرمة لك ، لأنك قد تصل من لا يثق ولا يأنس إلا بن يعتمد عليه .

كتب الفضل بن يحيى الى رجل يشاوره فى أمر حدث

ليس كل امرئ وإن كان ذا عزيمة فى رأيه ، وأصالة فى عقله ، بمستغنى عن مكاشفة أهل الراى ، لتوزيع الله عز وجل ، أقسام الفصل فى حلقه ، وإشراكه لإياهم ، فى عطاياه ، فرأيتك فى كذا .

ركب ابراهيم بن المهدي الى أحمد بن يوسف ، فكتب أحمد

الى إسحاق بن ابراهيم الموصلى

عسى من أبا عبده ، ومجتبا عليك ، إعلاماً إياك .

توسل

توسل رجل الى رجل بمحمد بن عبد الملك وأدعى قرابته منه ، وبلغ ذلك محمدًا فكتب الى المتوسل اليه :

بلغنى أنك رجلا ادعى قرابتي ، وأورد عليك كتاباً ذكر أنه منى ، وما أنكر أن يتضغ بى من توسل بنسى ، إلا أنه من ادعى قرابة ، ولا قرابة له ، كان استمهال الشاعة فى أمره أولى .

كتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل
أسعدك الله بحاربتك، التي بذلت فيها مجهتكَ، ومُهَجَّ سَ هو موصول بك مآ .

محمد بن الجهم

وليس في جميع الناس أعدى لك : من صديق مؤمل، أو حميم راج، إن منعتهما شتماك
وبهتاك، وإن أعنتهما لالهه اغتالاك ^(١) .

محمد بن مُسْعَر

قال : كنتُ أبا ويحيى رُ أَكْتُمُ عِدَّ سُفْيَانَ، ففكى سُفْيَانُ، فقال له يحيى : ما يُبَيِّكُ
يا أبا محمد؟ قال :

بعد مُجَالَسَتِي مَنْ حَالَسَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْتَلَيْتُ بِمُجَالَسَتِكُمْ ؛
فقال له يحيى : مُصِيبَةٌ مَنْ جَالَسَتْ مِنْهُمْ بِمُحَالَسَتِهِمْ لِمَاكَ سَدَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِنَا ؛ فقال : يا علامُ، أظنَّ السُّلْطَانَ سَيَحْتَاجُ إِلَيْكَ .

دخل ميمون بن مهران على بعض حلفاء بني أمية - وأحسبه عمر بن عبد العزيز - فقال
له وقد قعد في أنحرىات مجلسه : عِظْنِي، فقال له : إِنْكَ لَمْ خَيْرِ أَهْلِكَ إِنْ وَقِيتَ ثَلَاثًا، قال :
ماهن؟ قال : السُّلْطَانُ وَقَدْرَتُهُ، والشباب وعِزَّتُهُ، والمال وقِيتُهُ، فقال : أنت أولى بمكائى
مَنْ فَارْتَمَعَ إِلَيَّ، فأجلسه معه على سريره .

ابن وهب في الاعتذار

لو لم نَعْدِرَكَ لم نَعْذِرْ أَنْفُسًا بِقَطِيعَتِكَ، ففكى لنا في لائحة هسك، كما تكألك في عذرِكَ .

وفي مثله

ليس في الإساءة فضلٌ عن الاعتذار، وفي عائدتك فصل عن إساءتنا، فمن أين يسقط
بِبن فضلك والاعتذار !

(١) هكذا وردت في الأصل .

آخر

فلان من حملة المعروف، يكثر عندهم قليله في شكرهم، ويقل لهم كثيره في عظيم حقوقهم .

فصل — لئن عيئت عن الرأي فيك، لقد أصرته بك .

فصل — تغيب فاشتاق، ونلتقي فلا أشتى .

٢ — فصول من رسائل مختارة في كل فن

وهي مثل مما كتب به الكتاب في أبواب لا نظير لها

من ذلك ما كتبت به في التوحيد لله عز وجل في أوائل المتسوح وأواخرها وأوائل الكتب التي فيها توحيد الله عز وجل .

التوحيد الأول

الحمد لله القادر القاهر، المتوحد بالسلطان والروبية، والمتعزذ بالبقاء والقدرة، والمتعجب بالكبرياء والعظمة، ذي الجلال والإكرام، والإفصال والإعلاء، والعز والبرهان، والأسماء الحسنى، والمثل الأعلى، الأول بلا غاية، والآخرة بلا نهاية، الذي لا يحيط به وصف الواصفين، ولا تبلغ مدى عظمته أوهام المتوهمين، ولا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، لا يؤوده حفظ كبير، ولا يعزب عنه علم صغير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

التوحيد الثاني

الحمد لله الذي خلق الأشياء على غير مثال ولا رسوم، وأنشأها على غير حدود، ودبر الأمور بلا مشير، وقضى في الدهور بلا طاهر، وسلك السماء بقدرته، وبها على إرادته، وأسكنها ملائكته الذين أعطاهم تجاورته، وجلبهم على طاعته، وزعمهم عن معصيته،

وحملهم حملة عرشه، وسكّان سمواته، ورسّله الى أديانه، يُسبّحون الليل والنهار لا يفترون، ودحا الأرض وبسطها لكافة خلقه، وقسم بينهم الأرزاق، وقدر لهم الأهوات، فهم في قبضته يتقلّون وعلى أفضيته نخرون، حتّى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وصدر تمجيد مفرد

الحمد لله العلىّ مكانه، المير برهانه، الثامة كلماته، الشافية آياته، والحمد لله ولىّ أوليائه وعدوّ أعدائه.

وصدر تمجيد

الحمد لله العالى الذى لا يُغلب، والمُقْتَدِر الذى لا يُعان، والمُنْجِز وده، والمؤيّد أوليائه، والخاتم بالقلج^(١) والظهور لهم، والمُدْبِل من أعدائه، وعُجِبَ دائرة السوء بهم.

ولكاتب نُرَيْمَة بن خازم فى فتح الصَّنَائِرَةِ تمجيد مختار

أما بعد، فالحمد لله ذى الْمَلَكُوتِ والقُدْرَةِ، والجَبَرُوتِ والعِزَّةِ، والساْطِانِ والقُوَّةِ، أهلِ المحامد كلّها، ومدبّر الأمور ووليّها، وحالق الخلاق وماربّها، ومميّتها ومحييها، وواعثها ووارثها؛ الذى أَوْحَبَ على نفسه بما نَعَدَ من مشيئته، وسبق من علمه، وثبت فى اللوح المحفوظ عده إعراز ديه، وإظهار حقه، وإعلاء كلمته، وإللاج حجّته، وإرهاق باطل أعدائه؛ الصّارِفِينَ عن طاعته، والجاحدين لربوبيّته، المكذّبين بكنته ورُسُلَه، طَعَّ بذلك أمره، وطقى به كتابه؛ فإنه يقول تبارك اسمه فى المُتَرَلِّ من فرقائه. ﴿بَلْ قَدِيفٌ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ قَدِمْهُ إِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وتمجيد لأحمد بن يوسف الى الولاة عن الخليفة

أما بعد، فالحمد لله ذى الْمِنَّةِ الظّاهِرَةِ، والمُخْجِجِ الْقَاهِرَةِ؛ الذى قَطَعَ بينه وبين عاده المَعْتَدِرَةِ، ورادف عليهم اليّنة، ومُهْمَلَةِ الطَّيْرَةِ؛ وجعل ما أتاهم من حطوط الدنيا بالقسم

(١) الملح - القلب والظفر، يقال قلع ظفر على حصيه، أى طبع وطهر.

المكتوب، وما ذُكر لهم من ثواب الآخرة بالتَجَمُّع المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآخرة شتى في الرحمة، يختص بها أهلها المستغنين عما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، الماديرين بأعمالهم إلى انقضاء مَدَدِ آجالهم، قبل حلول ما يُتَوَقَّع، وفوت ما لا يُرْتَمَع.

وتحميد لإبراهيم بن العباس في فتح إسحاق بن اسماعيل

الحمد لله مُعَزِّزُ الْحَقِّ ومُذِيلُهُ، وقَامِعُ الْبَاطِلِ ومُزِيلُهُ، الْعَالِيُ فَلَاحُوتِهِ مَنْ طَلَبَ، وَالْعَالِيُ فَلَاحُوتِهِ مَنْ عَلَبَ، مُؤَيِّدُ حَلِيقَتِهِ وَعَبْدُهُ، وَنَاصِرُ أَوْلِيَائِهِ وَحَرَبِهِ، الَّذِينَ أَقَامَ بِهِمْ دَعْوَتَهُ، وَأَعْلَى سَهْمِ كَلِمَتِهِ، وَأَطْهَرَ بِهِمْ دِينِهِ، وَأَدَالَ بِهِمْ حَقَّهُ، وَجَاهَدَ بِهِمْ أَعْدَاءَهُ، وَأَارَ بِهِمْ سَبِيلَهُ؛ حَمْدًا يَتَقَلَّبُهُ وَيَرْصَاهُ، وَيُوجِبُ أَفْصَلَ عَوَاقِفِ نَصْرِهِ، وَسَوَاجِعِ نِعَمَاتِهِ.

التحميد الثاني

الحمد لله الْعَالِي دِي الْقُدْرَةِ، وَالْقَاهِرِ ذِي الْعِزَّةِ، الَّذِي لَمْ يَقَابَلْ بِالْحَقِّ بِاطِلًا فِي مَوْطِيٍّ مِنْ مَوَاطِنِ التَّحَاكُمِ بَيْنَ عِبَادِهِ، إِلَّا جَعَلَ أَوْلِيَاءَ الْحَقِّ مِمَّنْ حَرَبَهُ وَجُدَّهُ، وَجَعَلَ الْبَاطِلَ بِهِمْ فَلًّا مَكْرُومًا، وَدَحِيصًا زَهْرُومًا، إِنْ هَمَّ بِهِ أَوْلِيَائُهُ كَانَتْ مَرَاصِدُ عَوَاقِفِهِ مُعْرِقَةً مَا جُمِعَ، وَمُتَمِّرَةً مَا أُعِدَّتْ، وَقَانَدَهُ أَشْيَاعُهُ إِلَى مَضْرَعِ الطَّالِمِينَ، حَتَّى يَكُونَ الْحَقُّ الطَّالِبَ الْأَعَزَّ، وَالْبَاطِلُ الْمَطْلُوبَ الْأَذَلَّ، وَأَوْلِيَاءُ الْحَقِّ الْأَعَزَّ يَدَا وَأَيْدَا، وَأَشْيَاعُ الصَّلَالِ الْأَخْصِرِينَ أَعْمَالًا وَكَيْدًا، قَصَاءُ اللَّهِ وَسُنَّتُهُ، وَعَادَةُ اللَّهِ وَإِرَادَتُهُ، فِي الْفِتْنَةِ الْمَصُورَةِ أَنْ تَرَعَلَ ثُرَامُ، وَأَنْ يُمَكَّنَ لَهَا فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَّنَ لِلدِّينِ مِنْ قَلْبِهَا، وَفِي الْفِتْنَةِ الْبَاكِينَ عَهْدَ، أَنْ تَرَلَّ فَتَكُونَ كَلِمَتُهَا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

وتحميد له مبتدأ مقام بين يَدَيَّ خَلِيفَةٍ

أَمَّا بَعْدُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ بِلَا أَيْدٍ يُخَصَّى، وَالْآخِرِ بِلَا أَيْدٍ يَتَّى، الظَّاهِرِ خَلْقَةً بِيَرَّتِهِ، الْعَزِيزِ فِي سُلْطَانِهِ بِعَظَمَتِهِ، الْقَرْدُ فِي وَحْدَانِيَّتِهِ بِقُدْرَتِهِ، الْمُدَبِّرُ فِي مَلَكِهِ بِجَبَرُوتِهِ، الَّذِي نَأَى عَنِ الْأَشْيَاءِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا تَحْوِيًا، وَاتَّصَلَ بِهَا فَلَمْ يَكُ مِنْ عِلْمِهَا حَلِيًّا، وَهُوَ فِيهَا غَيْرُ مُسْتَكِنٍّ،

ومعها غيرُ ثَمَّاسٍ في لُجج البحار، ومماوز الغفار، وشوايح الجبال، وكُثبان الرمال، مع كلِّ حَلَقٍ، وفي كلِّ أَقْصَى، وعلى كلِّ شَرَفٍ ومكان، وفي كلِّ وقتٍ وأوان، موجود إذا طُلِبَ، وقريبٌ حيثُ نُدِبَ، عالمٌ خَفِيَّاتِ النُيُوبِ، وخطراتِ القلوبِ، وما في السموات وما في الأرض، ما يكون من نَجْوَى ثلاثةِ الالهةِ راضِعُهم، ولا نَحْسَةِ الالهةِ سادِسُهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ آلاهُو معهم؟ وما تسقط من ورقةٍ ألا يعلماها ولا حَـةٍ في طُلُماتِ الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابسَ إلا في كتابٍ مبينٍ .

ونحميد ثاب يتلو الأول

الحمد لله المتعالي عن تشبيه الجاهليين، وتحديد الواصفين، وتكليف الباحثين، يوصفُ لا بالعرض والطول، ويُنتَعَتُ غير الشرح المثلث، ويُحَدِّدُ لا بالخلق المحدود، والجسم الموجود، بل يُنَاقِشُ من وصفه، الى ما دَلَّ عليه من صُنْعِهِ، ويوقِفُ عليه من معته، على ما أَخْبَرَ به عن نفسه؛ وكيف يوصفُ من لم يَرَهُ أحد، ويُحَدِّدُ من لم يَحْدِثْ به، أو يُشَبِّه عير ذى أعضاء، أو يُكَيِّفُ عير ذى أجزاء؛ لَوُرِّيَ لَوُصِفَ، ولو وُصِفَ لَمُثِّلَ، ولو مُثِّلَ لَكَانَ له نَظِيرٌ، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، لا تُحِثُ الأقطار، ولا يحويه قرار، ولا تُدْرِكُهُ الأنصار وهو يدرك الأنصار، وهو اللطيف الخبير، لا يوصفُ أولاه، ولا يُدْرِكُ أنوارَه، ولا يُعْرِفُ مُتَناهٍ، عَظُمَ أن يَحْصِرَهُ وَهْمٌ، وجَلَّ أن يُدْرِكَهُ فَهْمٌ، وامتنع من أن يخاله عِلْمٌ، ولا يُغَيِّرُهُ لَيْلٌ ولا يَوْمٌ، ولا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا يَوْمٌ، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يَشْفَعُ عِندَهُ إلا بإِذْنِهِ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحِيطُونَ بشيءٍ من علمه إلا بما شاء، وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ولا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ .

ونحميد ثالث

الحمد لله الذي أَلْهَمَنَا من الإقرار بِرُبوبِيَّتِهِ، والإيمان بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وأَنَّهُ عَيْرُ ذِي صَاحِبَةٍ يسْكُنُ إليها من وَخْشَةٍ، ولا وَلَدٍ يَتَكَثَّرُ به من ضَعْفِ قِلَّةٍ، ولا شَرِيكَ يَسَاوُنُهُ من عَجْزِ قُدْرَةٍ، ولا ظَهِيرٍ يَكْتُمُهُ لَمَلالِ قُدْرَةٍ؛ ما جعل لنا به أَوْقَى الأسبابِ لَدَيْهِ، وأرجى الوسائلِ

اليه ، إذ كان من أنكر ما دللنا الإقرار به يصير يَمُحَد ما أخنما الاعتراف فيه ، الى أليم عقوبته بالمعصية التي استحككت السُّحطة على أهلها ، وحَلَّت القُمة بمن فارقها ، ثم جعلنا تبع إشراف كثير على أنفسنا في مشيئة منه ، بَسَطَ اليها آمالنا وأحسن عليها أطعما بكرم عموه ، وعظيم حلمه ، وسعة رحمته ، التي وعد أهل الإيمان بها ، إذ صار من فارقهم في ذلك بما استهوت عليهم ، بتريبه لم شياطينهم ، وراى على أفئدتهم ... وما ظَلَمْتُهُ قُرَماؤهم الى الساس من كل طمع يُعْجِدَى وجبريُفجى ، جَرَأَ بما أشركوا بالله ما لم يزل به سلطانا ، إن الله لا يَغْفِرُ أن يشرك به ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلك لمن يشاء ، وَمَنْ يُشْرِكْ بالله فقد حَبِطَ عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

ونحمد الله يتلو الثالث في هذا المقام

الحمد لله الذى استدع لا من شيء ما أنشأ ، وابتدأ على غير مثال ما ابتدأ ، يجعل كثيرا من لطائف تقديره ، وصنوف تديره ، وتصاريف أموره ، مُجْجَا واضحة ، وآيات بينة ، وعبرا شامية ؛ كَشَهِدَ له مرة القدرة ، ونعاذ الحول والقوة ، نخلق مدبرا بلا مشورة أحد ، مَسْما دحاهن على الماء على غير سَند ، مهسوطات في تكاثف أجزائهن ، على معين ماء مسخر من تحتهن ، فخر حلالهن أنهارا ، وقدر فيهن من المعاش أقواتا ، وحصل لمن من الجبال أوتادا ، ثم أَسْتَوَى الى السماء وهى دُحَانٌ ، فقال لها وللا رص أنتيا طوما أو كرها قالتا آتينا طائعين . ففَطَّرَ من الدحان في رِخْفَتِهِ على الهواء سبعا ، جعل ينهن من الجو مُتَسَعَا ، سَحَّ سموات طافا مُرْتَجِعَات ، بلا دعائم قبلها ولا عِلَاقَات ، يُمَسِّكُهُنَّ قدرة أن يرتفعن فوق ما حبسهن عليه ، وأن يَهْوِينَ الى قرار دون ما رهنهن اليه ؛ فأنقن صنعها ، وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح النيرة ، والشهب الثاقبة ، والنجوم الواضحة ، وسبحر الشمس والقمر علما للهتدين ، وسراجا للبصيرين ، ورجودا للشياطين ، وأوقانا لاختلاف السنين ، ومعرفة لكل حين ؛ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل

سابق النهار وكلُّ في فلك يسبحون ، فصباحٌ سبع سموات في يومين ، ولو شاء خلقها في أسرع من طرف العين ؛ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ؛ ملائمة لقول ، ولا صنف من حوّل ؛ ثم أسكنهن من خلقه ملائكة اصطفاهم لعبادته ، واجتنام لتبليغ رسالته ، معصومين من أن يُشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطانا ، وأن يقولوا على الله إفكا وبهتاناً ، يُسَبِّحُونَهُ بالليل والنهار لا يفترون ولا يسأمون من عبادته ، ولا يستحسرون عن طاعته ؛ يحافظون ربهم من فوقهم ويعملون ما يؤمرون .

ونحميد في فتح لابن العباس

أما بعد ، فالحمد لله الذي حمد نفسه ، وفرض حمده على خلقه ، وأعز دينه وأكرم طاعته وأولياءه ، وأكرم طاعته وأوليائه ، جعل جمده منهم المصورين ، وحربه منهم العالين ، نهج بهم سبيله ، وأقام بهم محبته ، وحاهد بهم أعداءه ، وأظهر بهم حقه ، وقمع بهم الباطل وأهله ، وأعلى كلمتهم ، وأبد صرهم ، وألف لهم وجهم ، ومكن لهم في الأرض ، جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين .

والحمد لله المعز لبيه ، المظهر لحقه ، الباصر لخلفائه ، المتكبر لحزبه ، المنتقم بهم ممن صدف عنه ، مؤيداً دينه بالصر ، ليظهره على الأديان ، وحققه بالعز ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ وحيدوه بالعلج فهم الأعلون إن استنصر بهم ، والأعزؤون إن كاد بهم ، والأقربون منه إخلاصاً وعملاً ؛ حمداً يؤازريه ، ويمتري بمثله فواضله ومزيده .

وله في فتح ابن البَيْعِث لما ظفر به

أما بعد ، فالحمد لله ناصر أسيائه وحلفائه ، وهادئ أوليائه ، أولياء الحق وحزب المهدي ، الذين أقام بهم سبيل الرشاد ، وصب بهم منافع الدين ، فأظهره على الدير كله ولو كره المشركون .

وله صدر كتاب الخميس في تحميد الله وتمجيدِهِ

أما بعد ، فالحمد لله الذي حلت به ، وتظاهرت منه ، وتناعت أياديه ، وحر
إحسانه ؛ إليه كل شيء وحالُه ، وبارئُه ومصورُه ؛ والكاثر قسَلُه ، والباقي بَدَه ، كما قال
في كتابه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ . العالی فی مشیتہ والقاهر
فوق عبادہ ، المتعالی عن شسَه خلقه ، ليس كمثلہ شيء وهو السميع البصير ، خلق العباد
بقدرته ، وهادم برحمتہ ، وأجمع لهم السبيل الى معرفته بما نصب لهم من دلائله ، وأراهم
من عبره ، وصرفهم فيه من صنعه ، كما قال حل حلاله : ﴿ أَلَدَىٰ أَحْسَنَ كُلِّ شَيْءٍ حَلَقُهُ
وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ حَمَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن
رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ .

وذلك كله من خلقه إياهم بتمثيله ما مثل لهم من الدلائل التي نصبها لهم ، والأعلام
التي جعلها إزاء قلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، ويسر لهم خواطرهم وفكرهم ، والهيئة
التي هيأهم لها ليقع الأمر والهي عليهم ، فلا يكلفهم فوق طاقتهم ، ولا يحشمهم ما يقصر
عه وسعهم ، نظرا منه تبارك وتعالى إليهم ورحمة بهم ، ليؤمروا به ويعبدوه ، فيستحقوا
به رحمته ورضوانه ، والخلود في النعيم المقيم ، والطلل المديد ، والعيش الدائم ، كما قال
تعالى ذكره : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ . وكان من نظره ورأفته بهم أن
بعث فيهم أنبياء ورسله ، يذعنونهم الى طاعته ، ويسبون لهم هُداة ، ويؤمنون لهم سبيله ،
ويهدونهم الى رحمته ، ويعبدونهم ثوابه ، ويؤذنونهم عقابه ، ويسلطون لهم توبته ،
ويحذرونهم تحفظه ، ويسبون لهم سنته وشرائعه ، ويكشفون لهم مواظمه ، ويعلمونهم
كتابه وحكمته ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيَا مَن حَيَّ عَن بَيْتِنَا
وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . وكان من رآفته بهم ، ونظره لهم ، أن بعثهم إليهم بالجميع الظاهرة ،
والأعلام البينة ، والشواهد الناطقة ، التي أظهر بها صدقهم ، وأقام بها برهانهم ، وأوضح

بها دليلهم ، وأنهم عمل سواهم ، ليكون ادعى لهم الى تصديقهم ، والقول عنهم ، وأؤكد
للحجة على من أبى ذلك منهم .

ومحمد أحمد بن يوسف في صدر رسالة الخميس التي كانت تقرأ بخراسان

أما بعد ، فالحمد لله القادر القاهر ، الباعث الوارث ، ذى العز والسلطان ، والنور
والرؤى ، فاطر السماء والأرض وما بينهما ، والمتقدم المربى والطول على أهلها ؛ قبل
استحقاقهم لمثوته ، بالمحاطة على شرائع طاعته ، الذى حمل ما أودع عاده من نعمته ،
دليلا هاديا لهم الى معرفته ، بما أأدهم من الألباب ، التى يهتمون بها فصل الخطاب ؛ حتى
أفتوا علم موارد الاحتمار ، وثقفوا مصادر الاختار ، وحكوا على ما طعن بما ظهر ، وحل
ما عاب بما حصر ، واستدلوا بما أراهم من بالغ حكمته ، ومُثَقَّن صمته ، وساحة مُتَرَاوِل
حلقة ومتواصله ، الى القوام بما يُلْمُ ويُصلحه ، على أن له نارا هو أنشاء وابتداء ، ويسر
بعصه لبعض ، فكان من أقرب وجودهم ، ما يباشرون به من أنفسهم ؛ فى تصرف أحوالهم ،
وهو استمالها ، وما يُطهرون عليه من العجز عن التأتى لما تكاملت به قواهم ، وتمت به
أدواتهم ، مع أثر التدبير والتقدير فيهم ، حتى صاروا الى الخلق المحككة ، والصورة المعجبة ،
ليس لهم فى شئ منها تطفُّف يَتِمُّونَه ، ولا مقصدٌ يَتَمَدُّونَه من أنفسهم ، فإنه قال تعالى
ذِكْرُهُ : (لَيَأْتِيَنَّ الْإِنْسَانَ مَا عَرَّفَكَ رَبُّكَ الْكَرِيمُ الَّذِي حَقَّقَكَ فَسْوَكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَى صُورَةٍ
مَا شَاءَ رَبُّكَ ؟) . وما يتفكرون فيه من خلق السماء ، وما يحيرى فيها من الشمس والقمر ، والجو
مُسَحَّرَاتٍ على مسير لا يثبت العالم إلا به ، من تصاريف الأزمنة ، التى بها صلاح الحُرث
والنَّسْل ، وإحياء الأرض ، وإفراح البساتين والأشجار ، وتماور الليل والنهار ، ومزج الشهور
والأيام ، والسبين التى تُخصى بها الأوقات ؛ ثم ما يوجد من دليل التركيب ، فى طبقات
السقف المرفوع ، والمهاد الموصوع ، باختلاف أجزائه وتنامها ، وتفرق الانهار ، وإرساء
الجبال ، ومن الثام الشاهد على ما أخبر الله به من إنشائه الخلق وحدوثه بعد أن لم يكن ،
مُتَرَقِّيا فى النماء ، وثباته الى أجله فى البقاء ، ثم محاره مُقَصِّيا الى آخر الفناء ؛ ولم يكن له

مُفتَحُ عدد ، ولا مُنْقَطِعُ أمد ، وما ازداد بنشوء ، ولا تَحَيَّفُهُ تَقْصِيفَاتُ ، ولا تَهَاوَتْ عَلَى
الْأَزْمَانِ ، لِأَنَّ مَا لَا حَدَ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، عَيرُ مُمْكِنِ الْإِحْتِمَالِ لِلْقَصْرِ وَالرَّيَادَةِ ، ثُمَّ أَجْرَى فِيمَا ذَكَرَ
مِنْ حَقِّ اللَّهِ وَحَقِّ الْإِنْسَانِ إِلَى ذِكْرِ مَا تَفَصَّلَ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا اخْتَصَمَ
بِهِ مِنْ مَبْعُثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَى ذِكْرِ الْخُلَفَاءِ أَوَّلًا ، ثُمَّ إِلَى ذِكْرِ الْمَأْمُونِ وَدَوْلَتِهِ .

وتحميد للعباس في مقام له بين يَدَيِ المأمون

الحمد لله على نعمه علينا ، وإحسانه إلينا ، بالأرضِ المَبْسُوطَةِ ، والسَّيَاءِ المَرْفُوعَةِ ،
وَالرَّيَّاحِ الْمُسَحَّرَةِ ، وَالْأَمْطَارِ الْبَارَةِ ، وَالْأَوْقَاتِ الْقَائِمَةِ ، وَالنَّامَاحِ الدَّاعِمَةِ ، وَالْدِّينِ الْمُبِينِ ،
وَالْأَدَبِ الْقَوِيمِ ، حَمْدًا يَكُونُ إِلَيْهِ صَاعِدًا ، وَلَدَيْهِ نَامِيًا ، وَلِمَكُونَتِهِ مَالثًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
حَمْدًا يَنْثِيَتْ رِصْوَانَهُ ، وَيُورِثُ إِحْسَانَهُ ، وَيُوجِبُ حَزَنَهُ ، فَهُوَ الْمَعْمُودُ ، وَالْمُتَطَوِّلُ
الْمَشْكُورُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا شَهِدَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ قَائِمًا بِالْغَيْبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وتحميد لعبد الحميد في أبي العلاء الخروزي

الحمد لله الباصر لبسه ، وَأَوَّلِيَّاهُ وَحُلَفَاؤُهُ ، الْمُطَهِّرَ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، وَالْمُدِلَّ لِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِهِ
الْبِدْعَةِ وَالصَّلَاةِ ، الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ حَقٍّ وَمَاطِلٍ ، وَأَهْلِ طَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ ، إِلَّا حِجْلَ النُّصْرَةِ
وَالْفَلَحِ وَالْمَقَاسَةِ لِأَهْلِ حَقِّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَحِجْلَ الْخِزْيِ وَالذُّلِّ وَالصَّفَارِ ، عَلَى أَهْلِ الْبَاطِلِ
وَالْإِخْلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، حَمْدًا يَتَقَلَّبُ وَرِصَاةً ، وَيُوجِبُ بِهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ طَاعَتِهِ
الرِّيَادَةَ الَّتِي وَعَدَ مِنْ شُكْرِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَتَسَوَّلُ مِنْ إِعْزَازِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَصْرِهِ
وِإِفْلَاحِهِ وَإِطْهَارِ حَقِّهِ ، عَلَى مَا وَقَعَ بِأَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَالْإِخْلَافِ عَلَيْهِ مِنْ سَطَوَاتِهِ
وَقَتْلَانِهِ وَأَسَاسِهِ ، فِيمَا وَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَوْلَاةٍ مِنَ الْوَالِدِ ، وَعِدَاوَةٍ مِنْ مَعَى عَلَيْهِ وَعَدَاوَةٍ ،
لَا يَكْلُهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ وَمَكِيدَتِهِ ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِهِ .

ونحميد في آخر فتح

الحمد لله المُرْتَدِّيه ، المُنْظِرَ لِحَقِّهِ ، البَاصِرَ لِأَوْلِيَائِهِ ، المُنْتَقِمَ مِنْ أَعْدَائِهِ أَهْلَ الْكُفْرِ ،
الْمُرْتَلِّهِمْ مِنْ مَاسِهِ ، وَتَقَمَّتْهُ وَجَوَانِحُهُ ؛ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ أَهْلِ حَقِّهِ ، وَبَاطِلِ عَدُوِّهِ ، فِي مَوَاطِي
مِنْ مَوَاطِي التَّحَاكُمِ ، إِلَّا جَعَلَ فِيهِ لِأَوْلِيَائِهِ الظَّفَرَ ، وَأَمْرَعَ عَلَيْهِمُ الصَّبْرَ ، وَمَسَحَهُمُ الصَّرَبَ ،
وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ وَسُوءَ الْعَاقِبَةِ عَلَى عَدُوِّهِ ، وَأَهْلَ الْكُفْرِ ، حِمْدًا كَثِيرًا يَرْضَاهُ مِنَ الشُّكْرِ ،
وَيَحْسُنُ بِهِ الْمَزِيدُ .

ونحميد في فتح الى أمير لقامة

الحمد لله الفَتَّاحَ الْعَلِيمَ ، الَّذِي خَصَّ الْأَمِيرَ بِأَفْضَلِ الْكَرَامَةِ وَأَتَمَّ الْعَمَةِ ؛ وَأَحْسَى الْوِلَايَةَ ،
وَأَعْظَمَ الْكِفَايَةَ ، وَحَفِظَ مَا اسْتَرْعَاهُ ، وَأَعَزَّ أَوْلِيَائَهُ ، وَقَعَ بِالْمَدَّةِ أَعْدَاءَهُ ، وَجَعَلَ حَسَنَ
الْعَاقِبَةِ لَهُ وَلِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَدَائِرَةَ السُّوءِ عَلَى أَهْلِ مَعَادِنَتِهِ ، حِمْدًا يَحْسُنُ بِهِ الْقَصَاءُ ،
وَتَرِيدُ بِهِ الْعِبَاءُ .

وصدر نحميد لغسان بن عبد الحميد في خطبة موجزة

الحمد لله الَّذِي لَا يُدْرِكُ حَيْرٌ إِلَّا بِرَحْمَتِهِ ، وَلَا يُسَالُ الْفَصْلُ إِلَّا بِنِعْمَتِهِ ؛ وَلِيُّ الْقَسِيدِ
لِلْغَسَانِ ، وَالْعَصْمَةِ مِنَ السَّيِّئَاتِ .

نحميد لعبد الحميد في فتح

الحمد لله الْعَلِيِّ مَكَانَهُ ، الْمُنِيرِ بِرَهَائِهِ ، الْعَزِيزِ سُلْطَانَهُ ، الثَّابِتِ كَلِمَاتِهِ ، الشَّافِيهِ آيَاتِهِ ، الْبَاقِ
قَصَائِدُهُ ، الصَّادِقِ وَعْدُهُ ، الَّذِي قَدَّرَ عَلَى حَلْقِهِ مُلْكَهُ ، وَهَزَّ فِي سَمَاوَاتِهِ بِعَظَمَتِهِ ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ
بِعِلْمِهِ ، وَقَدَّرَهَا بِحِلْمِهِ ، عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ عَزَمِهِ ، مُتَدَاعًا لَهَا بِإِنْسَانِهِ إِيَّاهَا ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهِ ،
وَاسْتَصْفَانِهِ عَظِيمَتِهَا ، مُافِئَةً إِرَادَتُهُ فِيهَا ، لَا تَجْرِي إِلَّا عَلَى تَهْدِيرِهِ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى تَاجِيلِهِ ،
وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى سَقَمٍ مِنْ خَسَمِهِ ، عَلَى كُلِّ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَتَصَرِيفِ وَحْيِهِ ، لَا مَعْدَلَ
لَهَا عَنْهُ ، وَلَا سَبِيلَ لَهَا عِوَاهُ ، وَلَا عِلْمَ أَحَدٍ بِخَفَايَاهَا وَمَعَادِيهَا إِلَّا هُوَ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ
الصَّادِقِ : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ ... ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

والمحمدان

الحمد لله الذى علا بالحبِّ الى استبرها عن جميع خلقه، وأستغنى بها عنهم لما توحَّد به دونهم من عبادة الذين فطَّروهم على المعرفة، رعوفا عليهم بمَنه وتُتَّوَلَّوا وهو فيما يُعْصَى من أقداره، معصلا لم يابتدأه خلقهم فى أحسن تقويم، وإعطائه إياهم حائل كل حير مقسوم، وتسحيه لم جميع ما فى السموات والأرض، وتَسْطِه لم فى معاشهم أوسع الرزق، وإسباغه عليهم فيها أَفْصَلَ العَمِّ الى لَطْفِ مَطْلُت، وعظُمَتْ مَطْهَرَتْ، وليَسَتْ فَعَمَّتْ، وانتشرت لَهْلَلَتْ، وكثُرَتْ فلا يحصيا عاد، وجُرَّتْ فلا يُؤَدَّى حق ما أقرض منها شاكرا، فإنه يقول : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَمُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذى لم يَقْتَصِرْ بهم فى اكرامه وتفصيله ايامهم على عاجل، فإنه مُصَمِّحٌ زائل
مما أعطاهم إياه ولم يَكْلَهُمْ فى معرفة حَالِهِمْ تبارك وتعالى، ومُتَوَلِّى العلم عليهم، والاحسان اليهم،
والالترتياش لهم، ولا يَؤْتِى سبيل طاعته، وأداء حقه، وشكر نعمته، واستيحاب عِبْطه
أَلْعَادِ اليه الى أن يَؤُوا ذلك معقولهم، والظرف فيه ألبابهم، والتصرف له على أهوائهم، فإنه
لو أَلْجَأ ذلك اليهم، وأفردهم فيه الى أنفسهم، ووكّلهم فيما أمرهم به الى معذرتهم، لحارت عنه
منهم الأبصار، ولتأنت فيه منهم العقول، ولأضلّهم عن قصده العَمَى، ولسال بهم الى غيره
المهوى، ولا استحكم عليهم شرك الردى، ولكنه بحث فيما ألباه المهادين، يدعوهم الى
الصراط المستقيم، بوجه المعنى، وديه القويم، وآياته البينة، وكُنْته العارقة التى بين فيها
مَحَابَةِ ومُكْرَمَةِ، وطاعته وممحصّته، وثواب العريقين فى ذلك من عاده ليحدروا ما حذرهم
فيه من مُخْطئه، ونزل بهم فيه من نِقْمته؛ وليسارعوا فيما جعل لأهله به الى أفضل المثوبة،
وأحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وكَشَفَ لهم الجُمُالَةَ، وهدى من الصلالة، وقصرهم
سبيل الحق، وبين لهم معالم الإسلام، ليرجع جائرٌ، ويَقْصِدَ زائغٌ، ويعرف جاهلٌ،
وليعبد الرب بما وحد به نفسه، ولاستين العلم، ويستعنى الحق، وليبتنى من الله الثواب
بإِزْمِ دِنِهِ الذى شرع، وأداء فرائضه التى فَرَضَ، وإيتاء طاعته التى أَوْجَبَ، وليكون لله

المحبة البالغة على عاده فيما تركوا من ذلك وسعّوها بعد استبانتهم لهم ، واستفاضته فيهم وإعذاره اليهم ، فانه يقول : (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِّي يَتَوَكَّلْ عَلَى يَدِي وَيَتَوَكَّلْ عَلَى يَدِي وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ) ويقول (لِيَحْزَى الَّذِينَ آسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَحْزَى الَّذِينَ أَحْسَأُوا بِالْحَقِّ) .

بِالْأَسْبَحِ بْنِ أَبِي شَيْخٍ

الحمد لله الذي بالقلوب معرفته ، وبالعقول محجته ، الذي بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أميا فوق له ، ومُلِّفًا فآذَى عنه حجج به المنكر ، وتآلف به المدبر ، وثبت به المستصر ، الى أن توفاه على منهاج طاعته ، وشرعية دينه ، ثم أورتكم عهدته وخصمكم بكلمة التقوى ، وجعلكم الأمة الوسطى .

ولعبد الحميد في فتح

يُعْظَمُ فِيهِ أَمْرُ الْإِسْلَامِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أما بعد ، فالحمد لله الذي أصطفى الإسلام دينًا ربحى شرائعه ، وبنى أحكامه وبور هُدهاه ، ثم كسبه بالعزم المؤيد ، وأيده بالظفر القاهر ، وأزره بالسعادة المتجبة ، وجعل من قام به داعيا اليه من جُنده الغالين ، وأنصاره المستطيين ، كلمًا قهر بهم مابونا أورثهم رباعتهم المأمولة ، وأموالهم المثريّة ، ودارهم العسيحة ، ودولتهم المطولة ، أمرها حتمه على نفسه ، ثم جعل من عابدهم وأبتغى غير سبيلهم مسلمًا قد استهوتته ذلّة الكفر طغاياها ، وحيرة الجهالة بجوارها ، ونية الشقاء بمقاويه ، وكلمًا ازدادوا لدعوة الحق إباءً ، ازداد الحق اليهم ازدلافا ، وعليم عكوفًا ، ومهم إقامة ، الى أن يحل بهم عز الغلبة ، ونحاة المتجاوز ، راعين فيما شوقهم اليه ، محافظين على آدابهم له ، قد بدّلوا في طاعة الله دعاءهم ، وقبّلوا المعرض عليهم في مباينة ربهم لهم بأعسهم الجثة . محمود صبرهم ، مستهل بهم عزهم ، الى حير الدنيا والآخرة .

والحمد لله الذي أكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بما حفظ له من أمور أئمتّه ، أن اختار لمواريت نبوته ما أصار الى أمير المؤمنين من تطويقه ما حمل بحسن شؤن به وثخ عليه ، ومُنافسة فيه ، أن فعل وفعل . والحمد لله الذي تم وعده لرسوله وحليفته في أمة نبيه مسددا

له بما أعزّم عليه . والحمد لله المعزّ ليديه ، المتولّي نصرّ أمته ببيّه المتخلّي من عا داهم وناوَاهم ، حمدا يزيد به من رضى شُكره ، وحمدا يملّو حمدا الحامدين من أوليائه الذين تكاملت عليهم بِمُهمّ فلا توصف ، وحلت أياديهِ فلا تُحصى ، الذى حَمَلْنَا ما لا قوة بنا على شكره إلا بعونه ، والله يستعينُ أمير المؤمنين على ذلك ، واليه يرجع ، إنه على كل شئ قدير .

ولعبد الحميد أيضا

أما بعد ، فالحمد لله الذى أصطفى الإسلام لنفسه ، وأرتصاه ديناً ملائكته ، وأهل طاعته من عبادهِ ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هدى به من خلقه ، وأكرمهم وفضلهم وجعلهم بما أصم عليهم من أوليائه المقربين ، وحرته المالبين ، وحدته المصورين ، وتوكل لهم بالظهور والعلج ، وقضى لهم بالعلو والتمكين ، وجعل من حاله وعزّ عه وابتنى سبيل غيره أعداءه الأتقيين ، وأولياء الشيطان الأحمسين ، وأهل الصلابة الأسفلين ، مع ما عليهم فى دنياهم من اللذل والصغار ، وما عَمَل لهم فيها من الخذلان والانتقام ، إلى ما أعد لهم فى آخرتهم من الخزي والهوان المقيم ، والعذاب الأليم ، إنه عزّزْهُم انتقام .

وفى ذكر الإسلام وأهله وما فضلهم الله تعالى به

أما بعد ، فالحمد لله الذى عظم الإسلام تعظيماً ، وفضله تفضيلاً ، فلم يبق ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا إمام لأهل حق مهتد إلا دانّ به ، واتصل الى ولاية الله بما هداه له منه ، وليس فى دين الله الذى ارتضى ، وحيرته من أهل الإسلام الذين اصطفى ، تنافس ولا تقالّم ، ولا تحاسد ، ولا تقاطع ولا تدابر ، ولكنهم كما وصفهم الله عز وجل بالتباز والترحام ، والتواد والتناصّف ، قلوبهم متفقة ، وأهواؤهم مؤلفة ، وأيديهم على أهل معصيته مبسوطة ، أعوانا على الحق ، وإحوايا فى الدين ، أَلَف الله بينهم ، وجعل الإسلام نسبهم ، فقال فى كتابه : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...) الى آخر الآية . فهذه صفة الله أهل دينه فيما بينهم ، وكذلك كان أسلاف الحق قبلهم ، فى تواد وتبازهم ، وتواصلهم وتعاونهم ، وبذلك دانّ أهل السماء ، فلم يختلفوا فيه ، ولم يرغبوا عنه ، ولم يحتذوا مثالا غيره ، وبه يدنّ

لله الباقون من خلقه، المتمسكون بحقه الى يوم القيامة، سنة مسنونة، وشريعة متبوعة، لا يتنحون بها بدلاً، ولا يريدون عنها حولا، فاهل طاعة الله اهل سلامة في دنياهم، وإخوان كما قال الله عز وجل في آخرتهم، لم تقطع الولاية فيما بينهم، لانقطاع الدنيا عنهم، ولكن الله وصلها بالآخرة لهم، جمعهم في داره وجواره، كما آلف في الدنيا بين قلوبهم، وعصم بالإسلام ألقمتهم.

تحميد

الحمد لله المتيب على حمده وهو ابتداءؤه، والمبعم بشكره وعليه جرائؤه، والمبني بالإيمان وهو عطاؤه.

ولقائه

الحمد لله الذي أكرم الإسلام وفصله، وشرفه وعظمه، وأعلى منزلته، وجعل أهله القائمين به، والحامدين عليه، أوليائه وحزبه الذين قصى لهم ماتمكين، والظهور على الذين كله ولو كره المشركون.

ولزيد بن علي راحة الله عليه خطبة

الحمد لله الواصل التمس بالشكر، والشكر المزيّد، حمد من يعلم أن الحمد فريضة واجبة، وأن تركه خطيئة مهلكة، وأؤمن بالله إيماناً نقى إحلاصه الشرك، وبفيه الشك، وأتوكل عليه توكل الواثق به ثقة أهل الرجاء، ومفرج أهل التوكل.

تحميد في الإسلام

الحمد لله الذي اختار الإسلام دينا لمسه، وأنبأه ورسله، وشرفه وعظمه، وأثاره، وأظهره، وزعمه وأعزّه ومنّعه، ولم يقبل غيره، ولم يحصل حسن الجزاء إلا لأهله، الذين كتب لمن أسعده بالوليعة فيه منهم الرضوان والمنفرة والرافة، وعلى من خالفه وابتنى ضير سبيله الحسرة والندامة، والدلة والصغار في الآخرة والأولى، والمات والمحبأ، إذ يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

والحمد لله الذي اجتبى محمداً صلى الله عليه وسلم بما اصطفاه من نبوته ، واختاره له من رسالته ،
وحباه بفضيلته ، وأجناه من أفضل عمائر العرب ، وأشرفها منصباً ، وأعرفها حسناً ،
وأكرمها نسباً ، وأوراها زبناً ، وأرفعها عماداً ، فعنه النور ساطعاً ، وبالحق صادقاً ، وبالهدى
آمراً ، وعن الكفر زاجراً ، وعلى الدين مهنماً ، وإلى سبيل ربّه داعياً ، وبالكتاب طاملاً ،
فلغ عن الله الرسالة ، وهدى من الصلّالة ، وانتاش من الهلكة ، وأنج معالّ الدين وأدنى
فوائده ، وبن شرائعه ، وأوضح سنده ، ونصح لأمنه ، وحاهد في سبيل الله حق جهاده
حتى أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

تحميد لأبي عبيد الله

الحمد لله الذي شرع لإطهار حقه وإهداد سابق قصائه فيس ذراً وراً من عباده ،
بإدخال من أراد أن يَدْخَلَ في رحمته ، وإخراج ما حق له من العباد على خلقه ، بابتدائه
خلقهم ، ومطاهرته الآلاء عليهم ، وإحسانه البلاء صدمهم ، وإلأع في الحجج إلى عاينهم ،
ديار رصيه لنفسه وملائكته الذين أسكن سماءاته ورُسُلِهِ ، فاقم على وحه من لم يَرْضَ
إلا به ، ولم يقبل إلا إياه ، ثم كان ما أعز به هسه ، وأظهر به بوره ، وأراد أن يسلوبه
عاده ، تحقيقاً لما سق به علمه ، وإعاداً لما بَحرَ به مقاديره ، أن بعث لِمَا شرع من
ديسه ، وأصطفى لتسبيحه وتقديسه من ملائكته المقربين ، من ارتضى واختار من أنبيائه
ورُسُلِهِ الْمُجْتَبِينَ ، لتليق رسالته وإطهار حقه ، وأسْتَشْلَاهُ^(١) من أراد سعادته من خلقه بالرحمة
التي أطلعت عليهم وعمتهم ، ليعدّ ملخصاً له ، محموداً بما استحمد به إلى خلقه ، مشهوداً له
بما أشهد به من كلمة الحق ، فكان منهم التبليغ لِمَا أُرْسِلُوا به ، والنصيحة لمن أُرْسِلُوا إليه ،
غير مختلين فيما بعثوا له ، ولا متفرقين فيما استعملوا فيه ، يدعوم آخر إلى ما دعاهم إليه
أول ، فيصدق بذلك بعضهم بعضاً ، ويهدون إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فصت
رسل الله وأنبيأوه على ذلك سالكين منهاج الحق وسيله ، والدعاء إلى الله عز وجل وإلى

طاعته، هادين مهديين غير محوسين شيئا مما كانوا أهلَه في المِرَّة عند الله، والقُرْبَة منه،
والوسيلة إليه، هم ومن آمن بهم وعززهم، وآتَع الور الذي أنزل معهم، حتى نقصت
بهم الأعمار، وتقطعت بهم الآثار، وتغرمتهم الاحال .

وكذا لأبي عبيد الله .

الحمد لله الذي جعل الإسلام رحمةً قمتها لعاده قبل خلقه إياهم، واستجابه إياها
منه، فاصطفاه لبعثه وشرَّفه لهم ديناً يليقون به، ثم جعل محبته وحبه ومتاعه رُسُلَه رحمةً
تلافيهم بها بعد تقديمها، ومِمةً طاهرها عليهم قبل استجابه لها، تطولوا على العباد بالعماء،
وإعدادا اليهم بالحجج، وتقدمة بالوعد، وإنداراً إليهم عواقب محطته في المعاد .

والحمد لله الذي ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم هداً وشرائع حقَّه على قتره من الرسل،
وطُموس من معالم الحق، ودروس من سُلِّ المُدَى، عند الوقت الذي طع في ساق علمه
ومقاديره، أن يَحْتَمِيَ لدينه الأصمياء، ويختار له الأولياء الطاهرين بحقه، القاهرين لمن
ابتغى سبيلاً غير سبيله، مَظْمُ حرمته، ووسَّع حَوْرته، وصَدَّع أمره، وحاهد عن حقه
في حَوَمَات الصَّلَاة وطُلُمَات الكفر، والحق المبين، والسراح المير، ثم حملَه مصدقاً لمن
سَبَقَه من الرُّسُل ومُجَدِّداً لِمَا بُيِّنُوا له وهَدَى ورحمته، ثم جعل لدينه وطائف وظفها على
أهله، وشرائع شرعها لهم لا يَكْجُلُ دِيْهُمُ إلا بها، وجعل أداها إليه، واعتصامهم بها إماماً
لدينه، ونظاماً لنوره، وقواماً لحقه، واستيحاجاً لما وَعَدَ عليه من ثوابه، وأَمَّا لِمَا أُوْعِدَ مَنْ
حالفه من عقابه، فليس يسع أهل الإيمان بالله الذين أكرمهم به وأحرل لهم فضله وأجره،
وجعل لهم عِزَّهُ وعلوَّهُ، واختار لهم العلة والمقامة على من فارقه فيه إلا معرفتها، وأداؤها
بما يُسْتَكْمَل به حدودها، ومآلها من كذا وكذا .

إبراهيم بن المهدي — صدر رسالة له في الخميس

الحمد لله الذي اختار الإسلام ديناً لبعثه، ورعى أن يعبدَه مَنْ في سمواته من الملائكة
المقرَّبين، وَمَنْ في أرضه من النبيين والمرسلين، وَمَنْ آمن بالنور الذي هداهم له من التَّحَلُّين،

واختار لرسائله في سابق علمه ، والدكر الحكيم عنده ، محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه كتابه وجعل طاعته وطاقه نيته صلى الله عليه وسلم موصولةً بكنا فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

تمجيد

الحمد لله المتكبر في حروبه المتحرر بسلطانه ، المتعالى في سمواته ، المحتجب ص خلقه ، فلا تُدركه في الدنيا أنصارُ الباطرين ، ولا تُحيط به أوهامُ التوهمين ، ولا تبُلغه صفاتُ الواصيين ، الذي لا يؤوده عظيم ، ولا يموتُه مطلوب ، ولا سحره شيءٌ في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

تمجيد آخر

الحمد لله الحكيم العدل ، الذي فصلَ بين الحق والباطل ، مفد قضاؤه في خلقه ، وحكم ميم بهرى حكمه على إرادته ، يقضى بالنصر والتأييد ، والعز والفلاح ، والتمكين للحق وأهله ، وبالدل والوقم والحزى والصغار للباطل وأهله ، وجعل ذلك من فضله وحكمه عادةً حاريةً باقيةً ، وسنةً ماصيةً ، لا رادٌ فيها قضى منه لقضائه .

والحمد لله الذي احتص محمداً صلى الله عليه بكراماته ، واصططعه لرسالاته ، وأنزل عليه كتابه العزير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد ، بما أحل وحرم ، ورعى ومخط ، وأمر به ونهى عنه ، وحمله حاتم النبين والمُهممين عليهم ، وكناه الذي أنزل ، آخر الكتب المصدق بها النبي صلى الله عليه وسلم .

تمجيد في الإسلام وما آمن به على أهله من مبعث النبي

صلى الله عليه وسلم ، وهو في صدر الجهاد .

أما بعد ، فإن لدين الله الذي ارتضاه لنفسه ، ولين اصطفاه من خلقه ، واجباه من عباده وجعله متمماً بين الهدى والضلالة ، وفرقنا بين الحق والباطل ، وحاجرا بين الكفر والإيمان ، وظفها على أهلها ، وشرائع شرعها لهم ، فجعل أدامها إليه ومعرقها له ، وحافظتهم عليها ،

واعتصامهم بها قواما لدينه، ونظاما لنوره وثباتا لحقه، واستيحابا لما وعد من ثوابه، وأما لما أُوعد من عقابه . فليس يَسعُ أهل الإيمان بالله والإقامة على حقه من المسلمين الدين ستمهم المسلمين بالإسلام، وأحرز لهم فضله وعمره، وأصار لهم العلبة على من حالهم ومارقهم بما ركنوا إليه من الصدود عن سبيله، والتكذيب بكتبه ورسليه، ودلتهم فيه قُرأؤهم، وقادتهم إليه أهوائهم، من الملل الضالة، والأديان المجموعة، التي لم يترل بها من الله سلطان، ولا كتاب ولا برهان، إلا معرفتها وأداؤها بما بُسُتكل من حدودها ومعالمها .

تحميد في الجهاد وما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم

أما بعد، فإن الله خلق الخلاقَ قدرته، وقدر الأمور سلمه، وأخذ على ما مضى من مشيئته، من غير أن يكون له ظهير في ملكه، أو مُعين على ما يرى من عجائب خلقه، واحتذاءه من على سابق من صفة غيره، فوحد نفسه عما تعذر به دون غيره من خلقه، ليُعد مُخلصاً مُبرأ من الأعداء، إتماماً لنوره، وتميزاً لتوحيده. وتأييداً ليديه، وإعلاءً لمن أعظم به، وإفلالاً لمن حاله وعدده وعبد غيره، وإحقاقاً لكلنته، فإنه يقول : ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ الآية، بذلك أنزل كُنته، وأرسل رُسُلَه . واحتج بهم وما أنزل إليهم من ماض من القرون السالفة، والأُمم الحالية، يدعو آخرهم إلى ما سبق إليه أولهم، من عبادته وتوحيده، لا يستوحشون من قله، ولا يؤتون من كثرة، يُعزّم الله قوّته، ويُؤيدهم بمعده، ويصّرهم وينصّرهم إلى أن نعت الله محمدًا صلى الله عليه وسلم بما خصهم به، وجعله مُصدّقاً لهم، ومُهيّماً عليهم، وحاتم الدين بعدهم، يعصى لأمر الله، ويجاهد من لم يُجبه إلى الدخول في دين الله، فأظهره الله وأثار حقه، وأرحق عدوه، وأعجزه ما وعدّه وأتم بذلك النعمة عليه وعلى من اتبعه، فإنه يقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ .

تحميد في فتح

الحمد لله الفتح العليم، الرحمن الرحيم، العزيز الحكيم، الذي أعز الإسلام بقدرته، وأيده بنصره، فلم يُلحِد فيه مُلحدٌ، ويَسعُ في تشيت الكلمة وشق العصا ساع، ويوصغ

في الكفر والمعصية مُوصِّعٌ، ويمتنع من قصائنه وإرادته مُمتنعٌ إلا أذله الله وقصمه، وأضرع خلقه، وأحسن حده، وضلل سعيه، وغفل تَوَارَه واستنصاهه؛ حمدا دائما لا انقطاع له، ولا نغاد لمذته .

تمجيد ثان

والحمد لله الذي احتار الإسلام وشرعه، وكرمه وطهره، وأطهره وأعزّه، وفطر طيبه ملائكته، ونعت به ألباده ورُسُلَه . واحتار له حيرته من خلقه قحدا صلى الله عليه، فبعثه رسالته، وأكرمته تَوْحِيده، وأصطفاه على خلقه، أبشَرَ بالجنة من أطاعه، ويُنذِر بالنار من عصاه . وحمله ديه القم الذي لا يُقبل دينا غيره ولا تُثيب أحدا إلا عليه .

تمجيد في فتح

الحمد لله المرير في ملكوته القاهر فوق رِيتِه، الذي خلق الخلق بقدرته، وأنقذ فيهم إرادته ومشيئته، وقدر كل شيء وأقمه وأحكمه، وأحاط علمًا به، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

صدر تمجيد في فتح

الحمد لله الذي ابتدع الخلق لا من شيء، وجعل الليل والنهار كهفاً ومُسْتَجَاً لكل حيٍّ، قُدْرته تتحوت البحار، وجرث لمواقيتها الأنهار، فدار وطارد الليل والنهار، لا إله إلا هو ربُّ العرش العظيم .

والحمد لله الذي فات مملته أصدار المرتين . وعلا بمجده عن خطرات الحاميين، وأحجب بأستار خبروته عن مواقع فكر المحصلين المتعممين . فلم تنهوه الكُتَيْبَة، ولم يقع عليه أدوات التحصيل والكَيْفِيَّة، ولا أدركه هاجس تبعيص ولا تُكْلِيَّة، ولم يُنسَب إلى زياده في حين، ولا إلى قصيره في شهور ولا سنين . فكل أمره — عزَّ جلاله — تمامٌ ودوام، وكل صفات صمعه اعتدال وكَمَالٌ، وكل ما دونه يحكم فيه الماء والزوال، ليس كشَيْءٍ شَيْءٍ وهو السميع البصير .

والحمد لله الذى عرفنا ربوبيته إماما ، ونهج لنا سبيل طاعته مأ وإكراما ، وتبعدنا
بفرضه تقويما وتعلينا وأمتانا ؛ فقامت علينا وعلى الخلق حُجَّتُهُ ، بالصادق أمره ، والمُبَلَّغ
لرسالته ، والمُجَاهِد فيه حق جهاده ، محمد صلى الله عليه وسلم . والحمد لله الذى أعز دينه ، وأظهر
تَمَكُّينه ، ونصر وليه ، وحل عدوه ، وأوقع بأسه ونقمته بهل العرية ، وجُرثومة الضلالة ،
ومَنّاح الشرك ، ومركز الكفر ؛ بعد طول الإملاء ، والاعتداء فى سَفَك الدماء ، والمثلة
بالأسرى ، وقلة المراقبة والاکرموا .

تحميد

الحمد لله حمدا يكون رضاه متناه ، والمزيد من فصله جراه . والحمد لله حمدا اليه ينأى
حد الحامدين ، وشكر الشاكرين . والحمد لله الذى لا تُحصى سَمَائُهُ ، ولا تُجْزَى آلاؤُهُ ، ولا
يُكَافَأ مَلَأُهُ ، ولا يُتْلَع شُكْرُهُ إِلَّا بِمَنِّهِ وتوبيقه ، حمدا يرصاه ويتقبله ، وزكوة لَدَيْهِ ، ويوجب
ما تأتق للشاكرين من يده .

تحميد على فتح

أما بعد ، فالحمد لله الواحد القهار ، العزيز الجبار ، دى المَنّ والإعلاء ، والجلال والاكرام ؛
الذى أصطفى الإسلام دينا ، وأصطفى له من عباده أحلا هداهم له ، وأكرمهم به ودين
لم ما يأتون ، ولم يتركهم فى ريب من أمرهم ، ولا شبهة من دينهم ، فله المحبة البالغة ليهلك
من هلك عن بينة ، ويحيى من حق عن بينة ، وإن الله لسميع عليم .

والحمد لله الذى ختم محمد صلى الله عليه وسلم النبوة ، وأتقنه لبيع الرسالة ، وعنه إلى
خلفه كافة ، فبلغ رسالته ، وصدع بأمره ، وقام فيما بعثه له بحقه ، ثم أنجز له وعده ، وأتم له
كلمته ، وأظهر دين الإسلام به على الذين كلّه ولو كره المشركون .

تحميد فى فتح

أما بعد ، فالحمد لله الأول الآخر ، الظاهر الباطن ، الولي الحميد ، القوى العزيز ،
الذى لا يقدر العباد قدره ، ولا يُحصون اسمه ، ولا يلفنون شكره ، المحيط بكل شيء علما ،

وَأُخْفِيَ كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا - فَلَا تُعْجِزُهُ كِبِيرٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ صَغِيرٌ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْهَا يُشْرِكُونَ .

تحميد

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَوَحَّدِ الْخَالِقِ وَالْأَمْرِ، فَادْرَا قَاهِرًا أَسَاطِ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ
عَدَدًا، وَمَلَأَهُ عَظَمَةً، وَوَسَّعَهُ عَدَلًا، وَأَتَقَهُ صُغَرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ بِالْحَقِّ مَنْ أَطَاعَهُ،
وَأَذَلَّ بِالطَّائِلِ مَنْ عَصَاهُ، وَحَمَلَ الطَّاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ حِرْزًا حَرِيرًا، وَمَوْتَلَا مُنِيفًا، فَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَ
أَهْلِ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ، وَطَاعَةٍ وَعِصْيَانٍ، إِلَّا تَوَحَّدَ الصَّبْعُ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَأَنْجَحَ سَعْيُهُمْ،
وَأَعْلَى كَلِمَتُهُمْ، وَأَطْلَجَ مَحْتَمُهُمْ، وَأَنْزَلَ أَهْلَ الْكُفْرِ الْمُعَانِدِينَ عَنْهُ، الرَّاغِبِينَ لِأَمْرِهِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ فِي عَاجِلِهِمْ وَأَحْلَاهُمْ، حَمْدًا يَكُونُ لِمُزِيدِهِ مَوْجِبًا، وَلِحَقِّهِ مُؤَدِّيًا .

تحميد في فتح لسعيد بن حميد عن وصيف

أَقَامَ عَدَدًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَمِيدِ الْحَمِيدِ، الْعَمَلِ لِمَا يَرِيدُ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ،
وَأَمْضَاهُ عَلَى مَشِيئَتِهِ، وَدَبَّرَهُ بِعِلْمِهِ، وَأَظْهَرَ فِيهِ آثَارَ حِكْمَتِهِ الَّتِي تَدْعُو الْعُقُولَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ،
وَتَشْهَدُ لِدَوَى الْأَلْبَابِ رُبُوبِيَّتَهُ، وَتَدُلُّ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ فَيَا زَعَةً،
وَلَا مَعِينٌ عَلَى مَا خَلَقَ فَتَلَوَّمَهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ، فَلَيْسَ بِتَصَرُّفِ عَادَةٍ فِي حَالٍ إِلَّا كَانَتْ دَلِيلًا
عَلَيْهِ، وَلَا تَقَعُ الْأَنْصَارُ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَتْ شَاهِدًا لَهُ، بِمَا رَسَمَ فِيهِ مِنْ آثَارِ صُغَرِهِ، وَأَبَانَ فِيهِ
مِنْ دَلَائِلِ تَعْبِيرِهِ، إِعْدَادًا بِحِجَّتِهِ، وَتَطَوُّلًا بِمَعْمَتِهِ، وَهَدَايَةً إِلَى حَقِّهِ، وَإِرْشَادًا إِلَى سَبِيلِ
طَاعَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي بَتَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ الْقَهَّارِ، الْمَلِكِ الْجَبَّارِ، الَّذِي أَصْطَفَى الْإِسْلَامَ وَأَخْتَارَهُ، وَآرْتَضَاهُ
وَطَهَّرَهُ، وَأَعْلَاهُ وَأَطْهَرَهُ، بِجَعْلِهِ حُجَّةَ أَهْلِهِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ، وَوَسَّيْتَهُمْ إِلَى النَّصْرِ عَلَى [مَنْ]
عَدَّ فِي حَقِّهِمْ، وَأَتَنَّى عِزَّ سَبِيلِهِمْ - وَبَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ يَدْعُونَ إِلَى حَقِّهِ، وَيَهْدُونَ إِلَى سَبِيلِهِ،

بِالآيَاتِ الَّتِي يَبْدُونَ بِهَا عَنِ الْمَخْلُوقِينَ ، وَيُوجِبُونَ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَى الْمُحَالِفِينَ ، حَتَّى آتَتْهُ كَرَامَةُ اللَّهِ إِلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، وَحَامِلِ كِتَابِهِ ، وَبِعِفَاتِ رَحْمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ عَلَى حِينِ قُدْرَةِ مِنَ الرِّسْلِ ، وَاخْتِلَافِ مِنَ الْمِلَلِ ، وَدُثُورِ مِنَ أَعْلَامِ الْحَقِّ ، وَاسْتِعْلَاءِ مِنَ الْبَاطِلِ ، وَالنَّاسِ عَانِدُونَ عَنْ سَبِيلِ رَبِّهِمْ ، يَتَسَافَكُونَ دِمَائِهِمْ ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَصَرِّحُ بِهِ لَا يَمْنَعُهُمْ ، وَأَيُّهُ الْبَرَهَانُ الْوَاضِحُ ، وَالْجُحْجُجُ الْقَوَاطِعُ ، وَالْآيَاتُ الشَّوَاهِدُ ؛ وَأُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابُهُ الْعَزِيزَ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ، وَحُجِّلَ فِيهِ أَوْصَحُ الدَّلِيلِ عَلَى رِسَالَتِهِ ، وَأَعْدِلَ الشَّوَاهِدُ عَلَى نُفُوتِهِ ، إِذْ عَمَرَ الْمَخْلُوقُونَ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ، وَكَثُرَ الْأَعْدَاءُ وَالْمُنَازِعِينَ ، تَعَدَّاهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ ، وَيَقْصِدُهُمْ بِحُجَّتِهِ فِي الْمَحَافِلِ ، وَلَا يَزِيدَادُونَ صَهً إِلَّا حُسُورًا وَعِزًّا . وَلَا تَرْدَادُ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ إِلَّا تَظَاهِرًا وَعُلُوًّا ؛ ثُمَّ آيَدَهُ بِالصَّرِّ بِأَصْبَارِ آتَفٍ يَبْهَمُ بِطَاعَتِهِ ، وَحَمَمَهُمْ عَلَى حَقِّهِ ، وَلَمْ تَشْعَثْهُمْ بِصُرَّةٍ دِينِيَّةٍ ، بَعْدَ الشَّقَاقِ الْمُتَّصِلِ بَيْنَهُمْ ، وَالْحَرْبِ الْمُعَرَّقَةِ لِمَجَاعَتِهِمْ ؛ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَتَاكَ نَبِيُّرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَعْدَهُ بِالْصَّرَّةِ وَالْتِمَاسِ ، بِجَلَلِهِ بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَدَلِيلًا عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ ، فَهَزَمَ بِالْقَلِيلِ مِنْ عَدَدِهِمُ الْكَثِيرَ مِنْ عَدَدِ أَعْدَائِهِمْ ، وَظَلَبَ بِنُصْرَتِهِمْ أَهْلَ الْقُوَّةِ مِمَّنْ مَآوَاهُمْ ، فَقَتَلَ بِهِ حُدُودَهُمْ ، وَفَقَسَ جَمُوعَهُمْ ، وَأَفْتَحَ حَصُونَهُمْ ، وَحَرَّزَ مَعَالِفَهُمْ ، وَأَطْهَرَ بِحُجَّتِهِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ . وَأَنْحَزَ سَاقِ وَعْدِهِ لَهُمْ وَفِيهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ .

تحميد لابن المقفع

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْعَظَمَةِ الْقَاهِرَةِ ، وَالْآلَاءِ الطَّاهِرَةِ ، الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ ، وَلَا يُدْفَعُ قَصَاؤُهُ وَلَا أَمْرُهُ ، ﴿ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ ، وَدَبَّرَ الْأُمُورَ بِحُكْمِهِ ، وَأَغْذَى فِيمَا أَحْتَارَ وَأَصْطَفَى مِنْهَا عِزَّهُ ، بِقُدْرَةٍ مِنْهُ عَلَيْهَا ، وَمَلَكَهَا مِنْهُ لَهَا ، لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ . مَا كَانَ لِلنَّاسِ الْخِيَرَةُ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِهِمْ ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الذى جعل صَفْوَةَ ما آخِثَار من الأمور دِينَهُ الذى آرْتَهَى لِنَفْسِهِ وَلَمَنْ أَرَادَ كَرَامَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، فَمَقَامُ بِهِ مَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبُونَ ، يُعَظِّمُونَ حِلَالَهُ ، وَيُقَدِّسُونَ أَسْمَاءَهُ ، وَيَذْكُرُونَ آلَاءَهُ ، لَا يَسْتَحْشِرُونَ عَى عَادَتِهِ وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَبْغُرُونَ ، وَقَامُ بِهِ مَنْ آخِثَار مِنْ أُنْيَانِهِ وَخُلَفَائِهِ وَأَوْلِيَانِهِ فِي أَرْضِهِ ، يُطِيعُونَ أَمْرَهُ ، وَيَذُبُّونَ عَنِ نَحَارِهِ ، وَيُصَدِّقُونَ بَوْعَهُ ، وَيُؤْمِنُونَ بِهَدْيِهِ ، وَيَأْخُذُونَ بِحَقِّهِ ، وَيُجَاهِدُونَ عَدُوَّهُ ، وَكَانَ لَهُمْ عَدُوٌّ مَا وَعَدَهُمْ مِنْ تَصْدِيقِهِ قَوْلَهُمْ وَإِفْلَاحِهِ حَقَّتْهُمْ ، وَإِطْهَارِهِ حَقَّتْهُمْ ، وَتَمَكُّنُهُ لَهُمْ ، وَكَانَ لَعْدُوه وَعَدُوُّهُمْ عَسَدٌ مَا أَوْعَدَهُمْ مِنْ نَجْرِهِ . وَإِحْلَالِهِ نَاسَهُمْ ، وَأَنْتَقَامَهُ مِنْهُمْ ، وَحَصْبَهُ عَلَيْهِمْ ، مَصَى عَلَى ذَلِكَ أَمْرُهُ ، وَبَعْدَ فِيهِ قَصَاؤُهُ فِيمَا مَصَى ، وَهُوَ مَحْصِيهِ وَمَقْدُهُ عَلَى ذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ . لَيْتِمَ وَرَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، وَلِيَحِقِّ الْحَقَّ وَيُسْطَلَّ الْبَاطِلُ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ .

والحمد لله الذى لَا يَقْصِي فِي الْأُمُورِ وَلَا يُدْرِكُهَا عَرُهُ ، اسْتَدَّهَا سِعْنُهُ ، وَأَمْصَاهَا قُدْرَتُهُ ، وَهُوَ وَلِيُّهَا وَمُنْتَهَاهَا ، وَوَلَّى الْخَيْرَ فِيهَا ، وَالْإِمْصَاءَ لِمَا أَحَبَّ أَنْ تُحْصِيَ مِنْهَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَ سِوَا اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .

والحمد لله الفتاح العليم . الْمُرِيرُ الْحَكِيمُ ، ذِي الْمَنْ وَالطُّوْلُ ، وَالْقُدْرَةُ وَالْحَقُولُ ، الذى لَا تُمَسَّكُ لِمَا فَتَحَ لِأَوْلِيَانِهِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَلَا دَافِعُ لِمَا أَنْزَلَ لِأَعْدَائِهِ مِنْ قَضَائِهِ ، وَلَا رَادُّ لِأَمْرِهِ فِي ذَلِكَ وَقَضَائِهِ يَعْمَلُ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ .

والحمد لله الْكَثِيرُ مُحَمَّدٌ وَمِنْهُ اسْتَدَّاهُ ، وَالْمُنْعِمُ شَكَرُهُ وَعَلَيْهِ جَزَاؤُهُ ، وَالْمُنْتَهَى بِالْإِيمَانِ وَهُوَ عَطَاؤُهُ .

لَا خَيْرَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الذى يَتَطَوَّلُ بِالْهَيْمِ مُبْتَدَأًا ، وَيُعْطَى الْخَيْرَ مَنْ يَشَاءُ وَيُثْبِتُ عَلَيْهِ .

تمجيد لغسان بن عبد الحميد

كاتب جعفر بن سليمان في المطر .

الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده ، وبسط سِعته على عبادِهِ ، الذي لا يزال العائدُ منه في رزقٍ يُقسَمونه ، وفضلٍ يُنظرونه ، لا يَنقُصُهُ ما قَلَّه ، ولا يَنقُصِي ما عَدَّه .

لأحمد بن يوسف في فتح السند

الحمد لله وليّ الحمد ، وأهلِ النناء والمجد ، خالقِ الخلق ، ومُدبِّرِ الأمر ، المسجع على عبادِهِ والمُوجِبِ عليهم حُتّه ، فليسوا يرحون إِلَّا سِعَةً فَضله ، ولا يَحْدرون إِلَّا ما أَحترحوا من مَعصيته ، لما سق من حَريلِ إحسانه ، وتظاهر من أَمثانه ، وتَقَدَّم به الإِعْدَارُ والإِندَارُ ، اللذان لا يَسْتَحِفُّ بما عَطِمَ منهما إِلَّا مَنْ أَسْتَحُوذَ عليه الشيطان ، وأَسْتَوَلَى عليه الخلدلان ، وقاده الجَئِن إلى مواردِ المَلَكَةِ .

التحميد الثاني

الحمد لله الذي أَصْطَفَى الإسلامَ دِيناً فَطَّوَرَهُ وَأَسَاءَهُ ، وَأَطْهَرَهُ وَأَعْلَاهُ ، وَزَيَّنَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ ، وَنَفَى عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ ، وَجَعَلَهُ إِلَى مَذْخُورِ كَرَامَتِهِ سَبِيلاً وَاصِلاً ، وَسَبِيلاً نَهْجاً ، وَبَعَثَ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَهْدِيَ مَنْ كَانَ حَيًّا ، وَيُحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ .

تقريضه في الخليفة

الحمد لله الذي أَصْطَفَى أميرَ المؤمنينَ لخِلافتِهِ ، وَتَلَقَّى الأُمَّةَ بِسُلْطَانِهِ ، جَعَلَهُ الْقَائِمَ فِيهِمْ بِقِسْطِهِ ، وَالْمُسْتَبْرَعَ فِي أَلْفِ مَصْلَحَتِهِمْ هَمَّهُ .

لأحمد بن يوسف

عن دى الراستين إلى إبراهيم بن إسماعيل بن داود صدر فتح :

أما بعد ، فالحمد لله الذي حَفِظَ مِنْ دِينِهِ مَا ضَيَّعَ الْمُحْدُونَ ، وَرَأَبَ مِنْهُ مَا [مُفْرَقُهُ] ^(١) الصَّدْعَةُ ، وَأَعَادَ مِنْ حَبْلِهِ مَا حَاوَلُوا تَقْصَهُ ، حَتَّى أَعَادَ لِعِبَادِهِ أَحْسَنَ أَلْفَتِهِمْ ، وَرَدَّ إِلَيْهِمْ أَجَلَ

(١) يامر في الأصل . وما أثبتاه بإسباق المقام .

قودهم، من الاستشلاء عند التردى و تحم المعاطب، والاستنقاد عند التوريط في المهالك؛
وبلغ حليفته التثام بحقه، المؤتم بكتابيه، الذائد عن حريم الدين، وميراث النبيين، أجزل
ما بلغ لطفاه الراشدين المهديين، من إعلاء الكلمة، وظلة الأعداء، والفوز بالعاقبة التي
وعدها المتقين؛ وورغه لما أشعر قلبه، وشرح له صدره، من إمضاء حكم العرائض الموجبة،
واقتراف السبب الهادية، حيث سلك به من المناهج، حمداً نوازى بعينه، ويلج أداء شكره،
ويوجب مزيدته .

والحمد لله على ما حصصا به من إعلاء الدرجة، وإسداء الرتبة، في مشايعة أمير المؤمنين
— أيده الله — والمجاهدة على حقه، والوفاء لله بما عقده له، لا يريد بما كان متألاً وحيته،
ولا نسى فيه إلّا لرصاه، حمداً لا ينحصى صده، ولا يتقطع أمده .

تمجيد لأبي عبيد الله

أما بعد، فالحمد لله ذي الآلاء والفنرة، والعلول والعروة، الذي أصطفى الإسلام دينا
لعبسه، ووللائته وأنبيائه ومن كرم عليه من حقه، فبعث به محمداً صلى الله عليه وسلم احتصاصاً
له في ذلك نكراماته، وأصطفاه له به على عباده، فأعززه ومعه، وكماه وحاطه، وتوكل لأهله
بالعلم والتمكين، والظهور والتأييد، فلم يُلحد فيه ملحد، ولم يزع عن قبول حقه رافع، بعد
إعذار الله إليه، وإعاده المحبة لله عليه، إلّا أنزل به من الدّل والصّمار والاجتياح والاستنصال
ما يجعل له فيه قمعا، حمداً كثيراً دائماً مرضياً له، مؤمناً من غيره، وحيماً لأفضل مزيد نوابه .

تمجيد لسعيد بن حميد في فتح

أما بعد، فالحمد لله المُنعم فلا يبلغ أحد شكر نعمته، والقادر فلا يُعَارَص في قدرته،
والعزيز فلا يُغَالَب في أمره، والحكم العدل فلا يُرَدُّ حكمه، والصابر فلا يكون نصره إلا للفق
وأهله، والمالك لكل شيء فلا يخرج أحد عن سلطانه، والهادي إلى سبيل رحمته فلا
يَصَلُّ من أنقاد لطاعته، والمُقدِّم إعداره يُظَاهِر به مُجتبه، الذي جعل دينه لعباده رحمة،
وحلافته عصمة، وطاعة خلفائه فرضاً واجبا على كافة الأمم، فهم المستحفظون في أرضه

على ما صحت به رُسُلُه ، وأُمتاؤُه على حلقه فيما دعاهم إليه من دينه ، والحاملون لهم على مناهج حقه ، لئلا تُشمت بهم الطرق المخالفة لسبيله ، والهادون لهم إلى صراطه ليجمعهم على الحاقة التي نَدب إليها عباده ، بهم تُحى الدين من البُغاة الطاعين ، وَحُصِطت معالم الحق من الفَواة المخالفين ، مُحْتَمِينَ على الأُمم بِكَلْبِ الله عز وجل الذي أَسْتَعْمَلَهُمْ بِهِ ، وَرُعَاةٌ لِلْأُمَرِ بِحَقِّ الله الذي أَخْتَارَهُمْ لَهُ . إِنْ جَادَلُوا كَانَتْ مُجِبَّةُ الله مَعَهُمْ . وَإِنْ حَارَبُوا فَالْصَّرْهُم ، وَإِنْ حَاحِدُوا كَانَ فِي طَاعَةِ الله نَصْرُهُمْ ، وَإِنْ ضَامَ عُدُو كَاتِ يَكَايَةُ الله حَائِلَةٌ دُونَهُمْ ، وَمَعْقِلًا لَهُمْ ، وَإِنْ كَادَهُمْ كَانَتْ فَائِزَةٌ فِي عَوْسِهِمْ . نَصَبَهُمُ الله لِإِعْزَازِ دِينِهِ ، فَمَنْ عَادَاهُمْ فَإِنَّمَا عَادَى الَّذِينَ عَزَّهُمْ وَحُرَّسَ بِهِمْ حَقَّهُ ، وَمَنْ نَاوَاهُمْ فَإِنَّمَا طَسَّ عَلَى الْحَقِّ الذي تَكَلَّوْهُ حِرَاسَتُهُمْ ، جِيوشُهُمْ بِالرَّغْبِ مَصُورُهُ ، وَكَأَبُهُمْ بِسُلْطَانِ الله مِنْ عُدُوِّهِمْ مَحْوَطُهُ ، وَأَيْدِيهِمْ بِذُنُوبِهِمْ عَنِ دِينِ الله عَالِيَةٍ ، وَأَشْيَاغُهُمْ بِتَنَاصُرِهِمْ غَالِبَةٌ ، وَأَحْرَابُ أَعْدَانِهِمْ بِفِيهِمْ مَقْمُوعَةٌ ، وَتُجْتَنَبُ عِدَّةُ الله وَحَلْفُهُ دَاحِضَةٌ ، وَوَسَائِلُهُمْ إِلَى الْعَصْرِ مَرْدُودَةٌ ، وَأَحْكَامُ الله مُحْذَلَانِهِمْ وَاقِعَةٌ ، وَأَقْدَارُهُ بِإِسْلَامِهِمْ إِلَى أَوَّلِيَّائِهِ حَارِيَةٌ ، وَوَعَادَتُهُ فِيهِمْ وَفِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ مَاضِيَةٌ ، لِيَكُونَ أَهْلُ الْحَقِّ عَلَى يَقِيَّةٍ مِنْ إِنْخَاذِ سَابِقِ الْوَعْدِ ، وَأَعْدَاؤُهُ مَحْجُوجِينَ بِمَا قَدَّمَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْتِزَارِ ، مُسْجَلَةً لَهُمْ رِقْمَةُ الله بِأَيْدِي أَوَّلِيَّائِهِ ، مُعَدَّةً لَهُمُ الْعَذَابَ عَسَدَ رَدِّهِمْ إِلَيْهِ نِزْرًا مَوْصُولًا بِوَأَسِيهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ ، وَعَدَاةُ الْآخِرَةِ مِنْ وَرَائِهِمْ وَمَا اللهُ بِظَلَامٍ لِلْعَمِيدِ . وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ أَمِينِهِ الْمُصْطَفَى ، وَرُسُولِهِ الْمُرْتَضَى . وَالْمُنْتَقَدِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْعَمَى ، صَلَاةً نَامِيَةً بِرُكَّاتِهَا ، دَائِمًا أَتَصَالُمَا ، وَسَلَامٌ تَسْلِيًا .

والحمد لله تواضعا لعظمته ، والحمد لله إقرارا بربوبيته ، والحمد لله اعتقادا بقصور أقصى منازل الشكر عن أدنى منزلة من منازل كرامته .

فِي مَا يُقَرَّرُ بِهِ الْخَلِيفَةُ

والحمد لله الذي حاز لأمير المؤمنين وراثته ، وساق إليه خِلافتَه ، بِالْحَاجَةِ مِنْهَا إِلَيْهِ ، وَالرَّضَا مِنْهُ عَنْهَا ، وَأَسْتَخْلَصَ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ حَمَلَهُ ظُلْمُهُمَا لِلْوَاقِعِ ، وَصَدَّقَهُ لِلنَّوَازِلِ ؛ فَلَمَّا

أفصحت الخلافة إليه جبر أمامه أحاجته ، وكشف قباعه لمُحاربتِه ؛ فالحمد لله الذى اختص أمير المؤمنين بخلائته ، وأرضاه لولاية أمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والقيام بحقه ، والدب عن حرُماته ، وحاط له ما أستره من ذلك ، وقلده بحسن الولاية والكفاية ، وتوكل له بالحفظ والتأييد ، والنصر والغلة والطهور على من عند طاعته ، وصَدَفَ عن حقه ، وأبَتَقَى غير سبيله ، كرامة من الله تطول بها عليه ، ومِمةً منه توحّد بها له .

والحمد لله الذى جعل نية أمير المؤمنين عزيمته ، وفكره ورويته ، مسد أقصى الله بالخلافة إليه ، وحمله القائم بإرث نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأستحفظه من عباده وولاده فيما فيه عز الدين ، ويطام أمر المسلمين وترهيبُ الشكر ، وإذلالُ الأعداء ، وإشقاؤهم ووقمهم ، وتحصين البيضة ، وإشغالُ الثغور ، ولمُ المُتَشَرِّ ، وصمُ الأطراف ؛ لا يفتأ عن ذلك فاني ، ولا يذْهَلُه عن تمكّد كبير أمره وصغيره ومقاتلته ذاهلٌ ، يستقل كثير ما يُنْفِقُ من الأموال في سدّ الثغور ، وتحصينها وحراستها ، لما يرحو فيه من حسيم الحفظ ، وبحريل الدحر ، وكثير الأجر ؛ تقربا الى الله وأحتسابا له في جنب نوابه ، وكريم مآبه ، حتى رآب به الصدع ، ورتق به الفتق ، وأتم به السبل ، وأقام به العوج ، وأفجج به الحجج ، وأعل به الدرّج ، وأرهق به الماطل ، وأحيا به الحق ، وأشام به سيوف أهل الصلاة والفِئْتَة ، لا تأخذ في القيام بحق الله والانتصار لديسه ، والانتصاح لأمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، والدب عن حوزتهم ، والرمي من ورائهم ، ودفع مائقة أهل الشقاق والنفاق والخلاف والمُغْصِيَة عنهم فترةً ولا سامةً ، توفيقا من الله ، وتُسْديدًا لحُرْمَتِه ، وتأييدا لعزمه ، إذ كان لله شاكرا ، وليسه ناصرا ، وبحقه قائما ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلّا بالله وحده ، عليه يتوكل وعليه يتوكل المتوكلون .

والحمد لله الذى لم يزل منذ أفصى الى أمير المؤمنين بخلائته ، وحياء مكرامته ، يَخْصِمُه بالخيرة في كل ما أمضَى من أمره ، ويتولاه بالتوفيق في كل ما أبرم من تديره ، ويجعل عنه

أعداء ما حمّله ، ويُعينه بتأييده على ما قلّده ، ويحوطه بحبل الصبح فيما ولاء واستحفظه ،
ويُلهمه جهاد عدوه ، ويحموه بنصره ، حمدا قاصيا لحق نعمته ، مُوجبا أفضل مريده .

والحمد لله الذي أورث أمير المؤمنين مواريت نبوته ، وصير اليه مقاليد خلافته ،
وأوجب ذلك له بالقرابة برسوله صلى الله عليه وسلم ، والوراثة لوراثته من عُصْبته وأولى الناس
به ؛ ثم أعزّ نصره ، وأعلى كَلِمته ، وألجج مُجْتَهه ، وأظهر على المشركين والمناقضين ، ومن حاذه
وعانده من الناكثين والمارقين ، والباصين والمُلاحِدين ، فأتس حدودهم وفعل وفعل .

والحمد لله الذي عرّف أمير المؤمنين مدد استجلبه في أرضه ، وأثمه على خلقه ، من
عظيم نعمه . ولطيف صنعه ، وجميل ناله ، وأعزّار نصره . وأعلاء مذه وكلمته ، وإفلاج
مُجْتَهه على من صاده وحاذه ، إن الله عظيم طوله ومنه أرتهى أمير المؤمنين لدينه ، وأصططحه
لخلاصته ، فقلّاه سرّالها ، ورداه بهائمها وجمالها ، فاستعمله بالكتاب والسنة والحق والعدل
فيها ، فأيدّه قوّته ، وأعزّه بنصره ، وساطه تكمايته ، وتولى الصّبح له في جميع أموره . فلم
يَكْده كائد ، ويُعانده مُعانِد ، ويَمُرُّق من طاعته الواجبة مارق ، ويُليد في إمامته مُلحد ،
تمن يُمالن بمصبيه ويشقاق ، أو ينطوي على عِلّ ويغاض ، إلا أوهى الله كيده ، وأتمس جَدّه ،
وعاجل المُبادئ عداوته . الشاهر على الدّين والمسلمين سيفه ، ماصطلام ونوار ، وأمكن
مه بدلة وصغار ، وقتل المسرّعير ، المُطوي على عِلّه فيظله وقته ، وأماته بدائه وحسرنه ،
إنجازا منه حلّ ثاؤه لوصده ، وإتماما لكَلِمته فيما وعد الدين آمنوا وعملوا الصالحات من
استسلامهم في أرضه ، والفتكين في دينه ؛ وله الحمد دائما ، والشكر خالصا ، كما هو أهله وكما
ينبغي أن يُحمد ويُشكر ، لا إله إلا هو الواحد القهار .

والحمد لله الذي لم يُبق لأمر المؤمنين عدوا من الناكثين والحادّين ، والمشركين
والمناقضين ، حاول نقضا لإمامته التي صيرها الله اليه ، وقلّده إياها ، أو صاول حينما من
جيوشه التي أعدّها للعامة عن دين الله وحرّامه ، وإقامة سننه ومعامله ، إلا أحلّ به التّمة ،
وأصّاره إلى الصّغار والنّلة ، والبوار والهلكة ، وعجّله إلى ناره وعدابه .

والحمد لله الذي لم يزل يتولى أمير المؤمنين بحياضه ، ويتوحد له من إعزاز نصره وإعلاء كرامته ، وإصلاح مجته ، وتأييد أوليائه وأنصار حقه ، وأنزل الناس والقمة والمثلثات والسطوة بمن عاده ، والذئ عن حريم المسلمين وأهله ؛ بما يتبين به عن مكانه منه ، ومزنته عنده ؛ حميدا ربنا بذلك كما هو أهلُه ومستحقه ، مشكورا لعظيم مته فيه وطوله ، مسؤولا لتسام أحسن عائده وباصي سنته ، فإن الله المحمود على نعمه ، المشكور بالآلته ، لم يزل ما يتوحد به لأمر المؤمنين لسلطانه من التعزيز ، وفي أوليائه من التأيد بصره ، عادة يتبين بها برهانه ، ويُفْلَج بها مجته ، ويدل بها على كرامته عليه ، ويُخبر بها عن منزلته عنده ؛ ويحصل ما نزل بأعدائه المتولين عنه ، الراغبين إلى عيره ، المُلحدين في حقه ، عطفه لمن قسا قلبه ، وران عليه سوء عمله ، ليكون ما يُعطيه من البسط في ملكه ، والتمهيد فيما خوّله له ، ويُوقفه من السطوة بمدوّه ، والتكيل بمن حاله ، مجتنب متطاهرين ، ومبرزين عنده ؛ فيعتصم معتصم ، ويحجج ناجح ، ولشجج^(٢) [شاجب] ويهلك هالك ، وقد مضت من الله المشيئة ، ووضح منه الإحذار ، وكان الله عباده عليا ، وأعمالهم خيرا .

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بحلّاته : وحمله وارث وحيه ، وقيمه بكتابه في عاده ، وأكرم هذه الأمة التي جعلها خير أمة أخرجت للناس به ؛ فهو اليمون في تديره المنجج حويله ، اليمون النية ، الموفق الرأي والسياسة ؛ فإن الله عز وجل خلق الخلاق قدرته ، وأختارهم بعلمه ، فاختر أمير المؤمنين لخلاصه ، وأصططه للقيام في العباد والبلاد بأمره وقسطه ، وأهمه إقامة أحكامه وفرائضه ، والعمل بحقه وعدله ، وأبلى أهل الشرك به ، وأخروا إلى أيام دولته ، وحفرها عن كان قبله ؛ حتى حاز له أجرها ، وأبى له سماعها وذكراها ، ونشر عنه أهدوتها وسماعها ؛ وفتح عليه البلدان القاصية ، والمدائن الثنائية ، التي لم تكن تُرام من أهلها ، ولا يطمع في زوالها ؛ وذلت له الملوك القديم عتوها وعتادها ، والأئم المستصحب مراسها وجهادها ، الحامية في آباد البهور حماها ؛ فأنفذ فيهم مكيدته ، وأنجح

(١) كذا في الأصل ، ولعلها بالفتح . (٢) كذا في الأصل ، ولعلها بالفتح .

سَمِيَّةَ ، ورمَاهم بالتحويف ، وملا قلوبهم رُجْباً مَهْ ؛ فَأَذْعَسَ مُنْعَوْهُمْ طَاعَتَهُ ، وَأَتَقَادُوا لِأَمْرِهِ ، وَصَارُوا يَدَا وَأَعْوَانَا لِأَوْلِيَانِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ .

أما بعد ، فَإِنَّ أَعْظَمَ الْعَمِّ قَدْرًا ، وَأَحْلَاهَا أَمْرًا ، وَأَسْرَاهَا مَوْقِعًا ، وَأَوْجَبَهَا شُكْرًا ، مَا عَمَّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ نَفْعُهَا ، وَعَادَتْ عَلَيْهِمْ عَائِدَتُهَا ، وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ عِزَّ الدِّينِ ، وَدَلَّ الْمُشْرِكِينَ ؛ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي حِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَطَالِ اللَّهُ تَقَاهُ بِمِثْلِهِ وَبِرَكَاتِهِ ، وَمَا أَحْلَصَ اللَّهُ مِنْ نَيْتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَتَأْدِيَةِ حَقِّهِ فِيهَا اسْتِحْقَاقَهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَفَرَعَ لَهُ مَعَسَهُ ، وَأَنْصَبَ فِيهِ بَدَنَهُ ، وَأَسْهَرَ فِيهِ لَيْلَهُ ، مِنْ حِيَاطَةِ حَرِيمِ الْإِسْلَامِ ، وَالزِّيَادَةِ فِي حُدُودِهَا مُتَّصِلًا مُتَمَتِّعًا ، وَالْعَمِّ مَتَظَاهِرَهُ وَمُتَوَافِرَهُ ، فَسَهَّلَ الصَّعْبَ ، وَدَلَّلَ لَهُ الْعَزِيزَ ، وَقَهَمَ عُتَاةَ الْأَعْدَاءِ وَتَكْبِيرِهِمْ ، وَالْمُسْتَعْصِمِينَ وَالْمُسْتَصْعِمِينَ مِنْهُمْ ، فِي أَبَادِ الدَّهْوَرِ عَلَى مَنْ رَامَهُمْ ، وَفَتَحَ عَلَيْهِمْ حُصُونَ مَدَائِنِهِمْ ؛ وَفَتَحَ قُلُوعَهُمْ ، وَأَعَدَّ مَكِيدَتَهُ فِيهِمْ ، فَتَبَيَّنَ مَقْتُولٌ وَمَأْسُورٌ ، وَشَرِيدٌ طَرِيدٌ عَنِ مَحَلَّتِهِ ، وَمَوْصِيعٌ عِزِّهِ وَمَنْعَتُهُ ، مُسْتَسْلِمٌ مُعْطِ قِيَادَتِهِ بِأَجْحَاقِ طَاعَتِهِ ، وَكَذَا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَنْهُ وَطْؤُهُ قَدْ أَوْصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ صُنْعِهِ لَهُ فِيهَا قَلْبَهُ مِنْ حِلَافَتِهِ ، وَحِيَاطَتِهِ إِيَّاهَا فِيهَا يَحْوَطُهُ مِنْ دِينِهِ ، وَعَرَفَهُ مِنْ كَيْفَايَتِهِ فِيهَا قَامَ بِهِ مِنْ حَقِّهِ ، وَأَيَّدَهُ مِنْ تَصَرُّفِهِ فِيهَا جَاهِدَ عَنْهُ فِي سَبِيلِهِ ، مَا قَدْ جَعَلَ النِّعْمَةَ بِهِ عَامَةً ، وَالشُّكْرَ بِهِ لَازِمًا ، وَارْتِيَةً بِهِ وَاجِبَةً ، وَالصُّعْبَ عَظِيمًا ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى بَعْمِهِ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ أَجْتِهَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُقَامَ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، فِي آثَاءِ اللَّيْلِ وَنَهَارِهِ ، فِيمَا فِيهِ صَلَاحُ عِبَادَتِهِ ، وَإِعْزَازُ دِينِهِ وَإِقَامَةُ حَقِّهِ .

تَحْمِيدُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمَّا آتَرَضَ مِنَ الطَّاعَةِ لِرُؤُوسَةِ الْأَمْرِ مِنْ حُفَّائِهِ جَعَلَ أَوْلَاهَا نَاطِقَةً عَنْ فَضْلِ أَوَائِرِهَا ، وَوَادَتْهَا نُجْمَةٌ عَنْ حَيْدِ حَوَاقِبِهَا ، وَمَوَارِدَهَا مُبَشِّرَةٌ بِالْمَلُوقِ مَصَادِرِهَا ، بِمَا يَتَّبَعُ أَهْلُهَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي الْمَاضِي مِنْ أَوْلِيَائِهَا الْقَائِمِينَ بِحَقِّهَا ؛ وَعَادَ مِنَ الشَّقَوَةِ عَلَى مُقَارِبِي الْمَعْصِيَةِ الْمُتَعَدِّينَ إِلَيْهَا ؛ حِينَ أَقْبَلَتْ بِهِمْ هَوَادِي الْعَيْنِ ، وَكَشَفَتْ لَهُمْ تَوَالِيَهَا عَنْ الْبَوَارِ

والملك ، مُتَعَدِّين حين لا عدو ولا مُجْتَمَع ، طالبي للهِارِبِ مد أن كانت مازِلُ السَّلامَةِ بهم مُطْمَئِنِّةً ، وحائِصين وقد كانت سُبُلُ الأَمْسِ لهم وَاِصْحَةً ؛ قد جعلتهم القُصَّةَ الواقِعَةُ بهم أمثالا سائِرَةً ، وَتَوَقَّتْ بِهِمْ وَبِينَ النِّعَمِ الشَّامِلَةِ ، وَحَصَلَتِ السَّعَادَةُ لِمَنْ أَتَقَطَّ بِهِمْ بَاقِيَةُ سَنَةِ مِنْ أَفْقِهِمْ مَاصِيَةً ، وَعَادَةُ حَارِيَّةً ، وَلَنْ تَحْدُ لِسَةُ اللَّهِ تَدْيِيلًا وَلَنْ تَحْدُ لِسَةُ اللَّهِ تَحْوِيلًا .

والحمد لله الذي أختار أمير المؤمنين لخلافته حُرس به دِينَهُ مِنَ البُعَاةِ الْبَاكِلِينَ عَهُ ، وَأَحْتَصَمَهُ بِأَعْلَاهُ رُتَبَ كِرَامَتِهِ ، وَأَفَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عَادِهِ ، وَجَعَلَهَا بِمَوَاقِعِهَا فِي دِينِهِ نِظَامًا لِسَائِرِ فَرَائِصِهِ ، فَتَارَكَهَا مُفَارِقَ لِعِصْمَةِ حَقِّهِ ، حَارِجٌ مِنْ جَمَلَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي سَبَقَتْ لَهَا رَحْمَتُهُ ، يَسْتَنْصِرُ أَشْيَاعَ الْبَاطِلِ وَاللَّهُ حَازِلُهُ ، وَيُعَالِبُ الْحَقَّ وَاللَّهُ عَالِمُهُ ، وَيَطْلُبُ مَالًا سَبِيلَ لَهُ إِلَيْهِ وَاللَّهُ طَالِبُهُ ، حَتَّى يَجْلِيهِ أَجَلُهُ عَنْ أَمَلِهِ ، وَأَقْدَارُ اللَّهِ فِيهِ عَنْ تَقْدِيرِهِ ، وَهُوَ قُصَاةُ اللَّهِ فِيهِ عَنْ نُهُودِ حِيلِهِ ، مُصَلِّيًا بَيْنَ اللَّهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَقُصَاةُ مِمَّنْ عَدَلًا فِي أَعْدَائِهِ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَصْلِ الْعَظِيمِ .

والحمد لله الذي أختار أمير المؤمنين لِرِيَايَةِ عِبَادِهِ ، وَحِفْظِ بِلَادِهِ ، وَتَعْيِذِ أَحْكَامِهِ ، وَإِقَامِهِ حَدُودِهِ ، جَمْعَ بِهِ الْأُلُفَّةَ ، وَكَفَّ بِهِ تَوَاقِي الْعِصَّةَ ، وَأَصْلَحَ بِهِ أُمُورَ الْأُمَّةِ ، وَسَكَّنَ بِهِ الدِّهْمَاءَ ، وَدَفَعَ بِهِ عَظِيمَ الْبَلَاءِ ، وَأَتَقَدَّ بِهِ مِنَ الْجُحْدِ وَالْأَلْوَاءِ ، وَجَدَّدَ لِرِعِيَّتِهِ الْعِبَرَ الشَّافِيَةَ ، وَالْعِظَةَ الْبَاهِيَةَ ، وَجَعَلَ هِمَّةَ السَّعَى لِرَبِّهِ ، وَطَلَبَ الْحَقِّ الَّذِي أَوْحَى لَهُ مِنْ خِلَافَتِهِ ، لِيُؤَدِّيَ فُرْصَهُ فِي الْأَمَانَةِ الَّتِي حَمَلَهَا ، فَيُوحِثَ لَهُ بِذَلِكَ مَالًا يَزُولُ وَلَا يَنْقُطُ مِنْ ثَوَابِهِ ، فَأَعْمَلَ رَأْيَهُ فِي الرَّأْيَةِ بَيْنَ وَلَاءِهِ أَمْرِهِ ، وَالْحَيَاطَةِ لَهُ ، وَالْعِيَايَةِ بِصِلَاحِهِمْ ، فَأَعْطَاهُ لِبَيْنِ الْمَوْعِظَةِ فِي وَقْتِ الثَّانِي ، وَالْفَوْزَ لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْيَقِينَةِ ، وَشِدَّةَ السُّطُورَةِ عَلَى مَنْ عَمَّطَ النِّعْمَةَ وَعَدَّ بِهِ الْإِصْرَارَ عَنِ الرُّوعِ وَالْيَقِينَةِ ؛ مَا مِنْ اللَّهِ وَتَفَضُّلًا ، وَإِحْسَانًا وَتَطَوُّلًا ، وَاللَّهُ ذُو الْفَصْلِ الْعَظِيمِ .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُتَدَبِّثًا وَمُعَقِّبًا ، وَأَوَّلًا وَآخِرًا ، وَقَسَلَ كُلَّ مَسْئَلَةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ رِصْعَةٍ ، وَمُقَدِّمَةً كُلِّ طَلِبَةٍ ، أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَفْوَتِهِ مِنْ عِبَادِهِ ، وَحَيْرَتِهِ وَخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ ، مُحَمَّدٍ عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، أَصْلَ صَلَوَاتِهِ ، وَيُبَارِكْ أَكْثَرَ بَرَكَاتِهِ ، وَأَنْ يَدِيمَ لَهُ كِرَامَتَهُ ، وَيُجَرِّمَ عَنْهُ أَجْمَلَ عَادَاتِهِ ، وَيُثِمِّمَ لَهُ مَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ ؛ حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا ،

والإسلام تائبدا وعِزًّا، والشرك ذُلًّا وقَعًا، إنه ولي كلِّ بَعة، ومُستَهى كلِّ رَعه، وعَايَةُ كلِّ حَاجة .

ولم يزل أمير المؤمنين مد الوقت الذي أفضى الله إليه بحلافته ، وأكرمه برّد حقه من إرث نُبوّته ، يتلقى عظيم المعمة في ذلك بالإخلاص للبيته والطّوية في الصّمع عن كلِّ زَلّة ، والإفالة لكلِّ عَثَره ، والتعمد للهفوه وقبول الفِئنة ، والإجابة من عظم جرمه ، وجَلّ دُبه ، وطن أن لا توبة له ، وكلما حدّد الله له مِعه ، حدّد له في ذلك نيّة حسّسه ، شكر الله عزّ وجلّ على ما ابتدأه به ، وارنّها ليعمه عبده ، واسرّاده من جميل مواهبه ، وتقديم الاهتمام بما فيه صلاح رعيّته ، واستقامة أوره ، وحياطتها والدبّ عنها ، وكفّ الأذى والمكروه عن الداني والقاصي منها ، ويخلص إلى ذلك بكل ما يُمهد إليه السبيل ويجهّد فيه ، ويعملُ الكثرة أوقات دهره في كلّ ما نلّمه تحته بطرا لها ، وحدّبا على كافتها ، وإشعافا من سوء حالها ، إذ كان لها والدًا برًّا ، وراعيا كالئًا ، وطارا لطيفًا ، ويستعمل كلّ ما يرجو ائلافها ، والإبقاء على أحوالها ، والسلامة لها في دينها ودُنياها ، ويصحب لذلك ليله ونهاره ، ويُدبُّ فيه نفسه ، ويعمله شعله دون غيره .

والحمد لله الذي أصطفى أمير المؤمنين بحلافته ، وأكرمه بإرث نُبوّته ، وجعل حِلافته حلافة يُمْن وبركة ، ولطف وسعادة ، انتاش بها أوليائه من . وورد المأذنة فرفع منزلتهم ، وشرف درجتهم ، وأعلى كِبتهم ، وأذلّ بها أعداءهم ، وحدّ دوارهم ، وردّ دائره السوء عليهم ، وجباه مزية تُصره وتمكيه ، وإعزازه وتأييده ، وإطهاره على من ماواه وعَنّد عن حقه ، وصدّف عن طاعته ، فإن الله لما اختار أمير المؤمنين لحلافته فأَيّده بها ، جعل الحقّ نيّته ، وإعزاز الدّين مُنيّته ، ومحاهدة أعداء الله شرقا وغربا ورا وبحرا نهيمته وإرادته ، ثم يسره في ذلك لما أحسن به عونهُ ، على من استحفظه وقلده ، فصلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

والحمد لله الذي كان لساق عليه ومالف قضائه، الذي لا يستطيع الناس رده، ولا تمتعه ولا صرفة، ما ولى أمير المؤمنين من خلافته، وما آتبعته له من الصرلديه، والطلب لحقه، والجهاد لأعدائه، وأحسن في ذلك عونه فيه ولاءه، وأيده في هسه، لم يتقصه حدلان حافل، ولا مخالفه من حالف، ولم يزد أمره في شيء من ذلك إلا تاما وإحكاما، حتى أظهر حقه، وألبح محبته، وبحق باطل أعدائه، وأدحص محبهم، وجعل أهل طاعته حربه العاليين، وحده المصورين، وجعل عدوه وعدوكم حرب الشيطان الخاسرين، وأوليائه الأدلّين، بخير حول من أمير المؤمنين في شيء مما ولّاه وأملاه، ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

لأبي عبيد الله

والحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بما أصاب اليه من الخلالة وإرث النبوة، وجعله القائم بأمر عباده وبلاديه، وأنجيّ لسنه، والذاب عن دينه وحقه، والمناصب لأهل الشرك والجهود به، ثم نصره وأظهر فضل أيامه ودوثته، ومبكي له في يلاذ عدوه، وجعل كلبته العليا وأنصاره الغاليين، ومن ناواه من أهل الحلاف الأدلّين المقهورين، وعرفه من نعمته في ذلك ومنه وحبل صنعه وعادته، أحسن ما عود أحدا من أوليائه الفانيين عن الإسلام وأهله، حمدا متتابعا لا أقطاع له ولا أنصرام، دون بلوغ حقه، وقد كان كذا وكذا .

ما يكتب به في المخالفين في وقت الهزيمة

كصبوا على أديبارهم مَكْرِبِينَ مَهْزُومِينَ، قد ضرب الله وجوههم، وفَتَّ في أعضادهم، ومنع الأولياء أكتاههم، فقتلهم في كلِّ مَعٍّ، وعلى رأس كلِّ تَلْعَةٍ ومَهْرَبٍ ومسلك، أباد الله خَضْرَاءَهُمْ وغَضْرَاءَهُمْ، وحَصَّدَ شوكتهم، وقَلَّ حَتْمُهُمْ، وَأَنَاحَ نيران صلاتهم وكفرهم، وشقَّى منهم الصدور، وأدرك منهم الإحْنُ، وقَتَلَ المسلمين أموالهم وذريابهم، وجعلهم لهم خَوْلا وعبيدا، وأورثهم أرضهم وديارهم، وأحلَّ الله بهم من البأس والنقمة والجائحة

والظهور والفلة جراً من الله لمن أحل إلى المصيبة وأبغى عير سبيله السلوك . وكذلك يفعل الله بالقوم الظالمين ، ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إن الله لا يخلف الميعاد . ثم أنزل الله عز وجل من صار إلى الأمصار منهم هرباً ، وأعتصم بالحصون ، وتمؤد بالجلال ، ولاد بالقلع ، وبلغا إلى الأهدية ، من صياصيهم ، وأمكن من نواصيهم ، واسترحهم من أوزارهم ومعاقلهم ومتعوذهم ، وأحد أسيراً ذليلاً مكموا حائماً قد نحب الوحل قلسه وملاً الرعب صدره ، متوقفاً أن يرل الله به من القهات والمثلثات مالا مرد له من مثله من القوم الظالمين ، وفشت في الكفرة الحراحات ، وعصتهم السيوف ، وشرعت فيهم القنا ، وهتهم نار الحرب ، وعالمهم الأتزال ، ومارسهم الأبطال ، واستحز فيهم القتل ، فصبر لهم الأولياء أحسن صبر ، فلم يطيقوا بالموت مراماً ولا على الحرب مقاماً .

في صفة الخالعين

الناصبين لدين الله ، المكدين آيابه ، الحاحدين رسله ، الجاحلين معه إلهاً ، لا إله إلا هو ، لطول مدتهم ، وشدة شوكتهم ، وصعوبة مرامهم ، وقطمهم السبل وأنها لهم المحارم وسعكهم الدماء التي أوجب الله على من سفكها سير جلها وأقترف وأحتمل وزرها ، أليم العذاب وشديد العقاب ، فأثوا إلا نمادياً في صلاتهم ، وعُتُوا في طغيانهم ، وشبوتاً على عصيانهم ، ومقاماً على كفرهم ، لأحداثه السالفة ، وعوائله المتقدمة ، ووائقه المشجية ، موقوف بملايين ثكل التقدم وحقيقة الاضطلام في التآخر ، دعاهم إلى القينة والمراحمه والإثابة وقبول الأمان والدخول في الطاعة ، استنظها را بالحمه عليهم ، ورجاء لصع الله فيهم . فلما بلغهم نزول فيمن معي ، جمع أمحاه ، وصم جدّه ، وتحرز في معسكره ، وخندق على منزله ، وأحترس بجهده ، فافت معسكرى ، وأنا مع ذلك في كل يوم أوجه رُسلى وأدعوه إلى حظه ، من طاعة أمير المؤمنين والدخول في أمانه ، وأعلمه أن له نظراً من عظم الطاعة ، وسيفه الجماعة ، وقد ركضوا في القسة عمرهم وسعوا فيه دهرهم ، فأنشروا حبرهم ، وكنز تبعهم ، وكبر وزرهم ، وثقل وقهرهم ، ثم أدعوا لطاعتهم ، وأستقلوا

بأهصين من عَثَرَتِهِمْ ، وَمتَعَشِينَ مِنْ رَثَمِهِمْ ، فَهَرَعَتْ ذُوبُهُمْ ، وَقُلْتُ تَوْنَتِهِمْ ، وَوُسِّحَ لَهُمْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَشَرُفَتْ مَنْزِلَتُهُمْ ، وَأَسْتَدْلُوا بِالْخُوفِ أَمَّا وَاللَّذْلُ مَرًّا ، فَأَيُّ بِهِ مِيلَ الْهَوَى ، وَعَلَيْهِ الشَّقْوَةُ ، وَمُسْتَعْلَى الْعَوَايَا ، وَالْقَدَرُ الْمَحَارِبُ ، وَالْقَضَاءُ الْمَحْتَمُومُ . وَتَقَدَّمْتُ فِي مَوَاقِفِهِمْ وَتَرَعِيهِمْ ، وَالْأَخْذُ بِالْمَحْقِقِ مِنْهُمْ ، مِنْ عَيْرِ قِتَالٍ ، وَلَا تَأْوِيلٍ سِلَاحٍ ، وَلَا تَأْوِشَ صِيَالٍ^(١) ، وَعَرَصْتُ عَلَيْهِمُ الْوَبْءَ ، وَدَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِمَانَةِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْأَمَانَ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ قَبِلُوا حِمْدَتَهُمْ وَأَحْدَثُوا نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ، وَإِنْ أَوَّلُوا إِلَّا تَأْدِيَا فِي عَيْتِهِمْ وَبِكُوصَا عَلَى شِقَائِهِمْ ، وَلَيْتُ مَا جَرَحَهُمْ وَعَرَفْتُ مِنْ اللَّهِ الْخَيْرَ فِي مَحَارِبِهِمْ ، وَأَسْمَعْتُهُ عَلَيْهِمْ وَأَسْتَكْفَيْتُهُ أَمْرَهُمْ ، وَرَحُوتُ حَسَنَ عِلْدَتِهِ عَدُوَّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْتَالِهِمْ . ثُمَّ وَحَّهْتُ الْأَوْلِيَاءَ فَمَدُّوا نَحْوَ عَسْكَرِهِمْ لَيْلًا وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ فِي رِحَالِهِمْ ، مُقْتَرُونَ فِي أَوْطَانِهِمْ ، قَدْ أَمِيُوا حَدَعَ الْحَرْبِ وَمَكْرَهَا وَمَكِيدَتَهَا ، وَوَقَعَةَ السَّاتِّ وَهَوْلَهَا ، إِلَّا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَهْلُ عِدَدٍ وَعُدَّةٌ ، وَأَسَ فِي أَهْلِهِمْ وَقُوَّةٌ ، اخْتَدَوْا اللَّيْلَ حِمْلًا ، وَسَرَّوْا نَحْوًا يَرْحُونَ عِرَّتَنَا وَيَأْمُلُونَ عِفْلَنَا ، فَوَقَفَ حَدْبًا بِمَكَانِهِمْ أَحَدِينَ أَهْلَتُهُمْ ، مُتَمَسِّكِينَ بِالطَّاعَةِ فَمَا بِهِ إِسْرَهُمْ ، فَأُزِعْتُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ طَائِفَةٌ مَدْعُومَةٌ عَنْ أَهْلِهِمْ ، وَالْوَهْمُ بِمَجْرَاحَاتٍ مَعَ قَتْلِ مَنْهُمْ عَدُوَّ تَأْوِشِهِمْ ، ثُمَّ نَكَبُوا عَلَى أَدَارِهِمْ ، وَرَجَعُوا التَّهْقِيرَى عَلَى أَعْقَابِهِمْ إِلَى الْبَاقِينَ مِنْ سَرِيَتِهِمْ ، فَاسْتَعَاشَوْهُمْ فَاجَاهُمْ بِالْمَكَائِفَةِ وَالْمُؤَاوِزَةِ ، وَأَقْسَلُوا بِحِمِّيَتِهِمْ وَحَقَّقَهُمْ حَتَّى حَمَلُوا حِمْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَضَاقَ الْمَصَاءُ وَطَارَتْ أَفْنَدُهُ حَدْبًا رُغَا مِنْ حَمَلَتِهِمْ ، وَطَعَتِ الْقُلُوبُ الْحَاخِرَ مِنْهُمْ ، إِلَّا طَائِفَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْ لَوَاخِ الْحَرْبِ وَمَوَاصِي رَوَاحِمِهَا وَأَشَالِ لِبْدَتِهَا ، تَزَسَّوْا بِالطَّاعَةِ فَأَتَوْا حَسَنَ الْعَاقِبَةِ ، وَبَصَرُوا الدِّينَ ، فَهَرَقُوا بِالْتَّمَكُّسِ ، أَسْتَدْبَوْا إِلَيْهِمْ ، وَوَقَفُوا لَهُمْ ، وَازْدَادُوا بَصِيرَةً فِي أَمْرِهِمْ ، وَهَذَا وَجَدْنَا فِي أَحْتِمَادِهِمْ وَمُجَاهَدَتِهِمْ ، فَهَبْتُوا قَائِمِينَ بِالْقِسْطِ فِي أَحْوَالِهِمْ ، قَائِلِينَ بِالْعَدْلِ فِي أَمَلَاتِهِمْ ، يَسْأَلُوهُمْ الْكَرَّ بَعْدَ الْكَرَّةِ ، وَيَعِدُّونَهُمُ الْعَلْبَةَ ، وَيُثْنُونَهِمُ السَّلَامَةَ ، وَيَصْهَمُونَ لَهُمُ الْعِيْمَةَ ، فَمَا-وَإِلَيْهِمْ ، وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَشَافَعُوا سَاعَةَ بِالْقَنَى

بعد تزاميمهم لإرشافا . بالمهام فلما رأى أعداء الله حاتم ، وعرفوا صدقهم ، وحافوا حاتم ،
نكسوا على أعقابهم ، يريدون التحاق بمعسكرهم ، وتحرك أصحابا في طلبهم ، ورحوا سوء
الصباح لهم ، فامعوا في أثرهم ؛ فلما أحسوا الفساق أعطوهم الصمة وولوا إلى ديارهم
لا يلوى قريب على قريب ، ولا ذورحم على حبيب ؛ ونالتهم القنّ فدمرتهم ، وعقبت
هائمهم السيوف فكلمتهم ، وحيل بينهم وبين الدحول من باب عسكرهم ، فأخذوا في غير طريقه
مهمزين ، قدهل الله حاتم ، وقّل كثرتهم ، وقتل عاقبتهم ، ورجع أصحابا إلى معسكر أعدائهم
بعد التشريد والتعريق بجماعتهم ، فأحاطوا بهم في آحرليتهم ، فلما رأوا غلظتهم ، وأموا
عزّتهم ، وأتجزوا مكان الفرصة منهم أحاطوا بهم وهم نامون ، فازون غافلون متفرقون ،
فوضعوا السلاح فيهم ، ضربا بالأسعدة ، وضربا بالرماح ، وطعما بالرمح ، وضربا بالأسعدة ،
لا يشون من جرحوا ، ولا سقون من كلبوا ، عرمدوعين ولا ممومين ، حتى آثنت
السيوف ، ونحطمت القنّ وآدقت الأنعدة ، وكّلت الشمار ، وبقيت منهم عدّة يسيرة
وشريدة قليلة من لم يله القتل ، فأخذوا أسرى ، وأوثقوا حديدا ، وُكّلوا قيودا ، وكان
أول رأس أثنى بحجرة بشيرهم وأسرع به إلى دو المعرفة منهم رأس عدوّ الله الماروف^(٢)
الاعى ، الشاق لعصا المسلمين ، ملأى رئيس صلاتهم ، وقائد جهالتهم ، ومستغوى
جماعتهم ، صرخته محليته ونعته وصعته في عدد كبير من رموس قواده وأهل الفتنة وأئمة
البدعة ، فلم يلبثوا إلا ريثما تصدّعوا في كل جبل وحرّ ، منهمذين هاربين ، لا يستطيعون لما
أنهم من عذاب الله دفعا ولا ممّا أيد ولا قوّه ، ولا يلحّثون إلى ركن وعصمه ، قد تشلت
بهم نظامهم ، وفارقهم وجوههم وأعلامهم ، فأحدهم أسرا قسرا قدمهم الصب ، وملأ
قلوبهم الرعب وتحزمتهم الوقائع ، ونحبتهم الهزائم ، ونحيبهم القتل ، وطلب الله عزّ وجلّ
لأمير المؤمنين على حصه الذى كان مُأفّ عزّه ، وموضع منتهى في نفسه ، وجمتمع عدته ،
ومادة قوته ، فقوضوا عساكرهم ، وأقشعوا عن حصنهم يتّبع أحرهم أولهم ، متعيرين متلذذين ،

(١) في الأصل : « بنجرم » . (٢) في الأصل « برأس عدوّ الله » .

أذلة حاسرين، فتمزقوا لا نظام لهم ولا جامع لشتاتهم . فلما استحضر القتل فيهم، وفشت الجراحات في عاتقهم، وطحتهم الحرب بكلكها، وألما وقع حديد أنيابها ومساعرها، قذف الله الرعب في قلوبهم وزلزل بهم أقدامهم، فولوا منهزمين معلولين، وركب الماسمون أكتافهم، يقتلونهم في رموس جالهم، وحلال عياصهم، ويطون أوديتهم، ومقاصي تلاعهم، وفي كل ناحية من وافيهم، حتى غر الليل دونهم، وأعجزهم هربا في معاقلم.

وفي العصاة

حتى إذا ظن أن قد عرّ بصلاله، وتحصن بمعاقله، وأستكمل قواه، وكثف تدبيره، وبلأ إلى مانع منه ودافع عنه، عطمت عليه عواطف الحق وأولياء الحق وأنصاره، ناقضين ما أرم، ومتداولين ما سد، ومتوعلين إلى غيه ببصائرهم، وإلى باطله بحققهم، فاستنزل عن موضع عزه قسرا، وأمكن الله أوليائه أسرا؛ سة الله فيمن عسد عن سبيله، وألحد في دينه، وشرق عن الطاعة وثائقها، وأستبدل بالحق ومنهاجه، ولن تعد لسة الله تبديلا، ولن تعد لسة الله تحولا، ولن تعد من دونه ملتحدا ولا بصيرا؛ حتى إذا تراءى الجمعان نرا الشيطان من حربه، وأرحق الله باطلهم بحقه، وجعل الفلج والظفر لأولى الحزبين به، بذلك حرت سة الله في الماضين من حلقه، وذلك ما وعد من تمسك بأمره وطاعته .

وفي مدح قواد الجيوش وصفة الأولياء في أحوالهم

لما نلا من طاعته، وأختبر من بصيخته، ويمن بقيته، وشدة شكيته، وصحة عريته، وصدق نيته، ويقل وطائه على أعداء الله وأعداء الدين والمسلمين، وعلمه بمراوطة الحرب وممارستها، ومكايده الأعداء ومواقفتهم فيها، فشمّر تسمير أهل الحيسة وحسن الظن بالله من غير وثية ولا فترة ولا بقاء حد ولا اجتهد، راجيا أن يُججج الله سعيه، ويقلج حجتة، ويظهره على عدوه من الاستقلال الذي حملة، والاضطلاع بما أسد إليه، والامتثال لسيرته، والاتهاء إلى أمره، والقبول لأدبه، والخفوف بما يستنصه له من حروبه وأموره مثل الذي حمل عند فلان : يفضلم بطوله، ويطولم بحاسه، ويتقدّمهم بحسن بلانه وغنائه،

ومواقفه ومساعيه، لم يختبره أمير المؤمنين في جميع حصاله إلا وحده عند الاختار والتحصيل سالكا لما به، قابلا لأمره، متعا لآثره، ساميا بهيمته إلى أقصى الغايات وأعلى الدرجات، حتى صار عد أمير المؤمنين مقدما في القدر والرتبة، مخصوصا بالمنزلة والرفعة، يرى ذلك قليلا في كثير ما وجب طاعته وصيحته، فبارك الله عليه وليا طهيرا . فأقدموا متوكئين على الله مسلمين لأمره صابرين على ما نالهم من اللاأواء والجهد والتعب وكل الشناء وحمارة القبط، وصعوبة المرام من أعداء الله الكفرة، يرحون نصر الله وتجزؤ ما وعد الصابرين والمجاهدين في سبيله من الظفر والصبر والعلة على عدوهم، توحد به من نصرهم وإعزازهم أن كان الله عز وجل تكفل لأوليائه بالصبر والعز والخطة، وحمل حس العاقبة لهم، وكنت من حادثهم وأحلد إلى المعصية والكفر والأسر، ليكونوا بذلك عظة ونكالا لمن أمهله الله منهم، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزير حكيم، أعظمهم عناء، وأحسنهم بلاء، وأشدهم صولة، وأقساهم بكاية، وأنهم سريرة، وأمضاهم غزيمة، وأربطهم حاشا، وأصدقهم بأسا، وأملأهم للأقران، وأرعاهم لوثائق الإيمان، وأشدتهم تحذبا على السلطان، فأرره بهم، وحص أطراف حلاته بأيديهم، فكفوه المهم وقاموا بدوره بالملم، غير مستطيلين عناء، ولا متعززين لطلب جراء، قد تعبدتهم الوفاء، وعوا قربة الولاء، فإن الله حمل أماءه أعلاما في الطاعة يندون إليها وأوليته قادة إلى سبيل الصبحة يتمسك الماسحون بآثارهم فيها، باقيا على كز الأيام ذكر مساعيتهم، وزائده على تصرف الأيام حقوقهم، وبأديا للعبون حميد أصالهم، لا تنصرم الأحار عن سالف لم إلا وصلوه بمحادث، ولا يتقدم لهم من لثامهم أقل إلا أتبعه آخر. ففلان يجرى في أمره على منهاج قد أوضه له، ويسلك في الطاعة طريقا قد سهلوا له مذهبها، ويتمسك بمرأ وثيقة قد رأى آثارها على من تفتمه، والله محمود . ولم يزل الله يعترف أمير المؤمنين في كل ما أسده إلى فلان من أعماله وقلة من أموره، المالفة في قضاء الحق عليه ويمن القبية فيما يتولاه، والاجتهاد في كل ما قرب به من الله وحليفته . وأمير المؤمنين يحمده الله على ما ينحصره

به من نعمته، وإياه يستعين على قضاء حقّه، إنه سميع قريب . فإنّ كمالك ورد على أمير المؤمنين بما لم يزل يتطلّع اليه منك ويؤمله عندك، ويرجو أن يوفقك الله فيه لرشدك، ويؤثرك منه بحظّك، للذي كان يلفه وينتهى اليه من حرك، في أحوالك وتصرفك في خصال الخير، وتقلّك في درجتها، مساميا لاهل الفصل في مراتبهم، متربيا بصالح أفعال الملوك في قصد سيرتهم، وحسن طريقتهم، وإين أكاظمهم . لحقّق الله طه لك، وأحباب دعاءك، ولع بك أمنيته، وأعطاه بك رعته . وكنت فيما هُديت له بأفياذك إليه راعا، ودحوالك فيه محنسا، مستوليا على أسنى الأمور مؤونة، وأفصلها دحيه، وأعلاها درحه، وحبرها عاقبة، وأعمها سلامة، وأسعها كهما، وأقاها شرفا، وأعدلها حكما، وأطولها سلما، مستحقا بذلك على الله عز وجل رادة الملّك فيها، وسهاء الثروة، وآسباط القدرة، وآساع المملكة، وظهور العلّة وعزّ المحكمين، والنصرة والدار التي حبيب فيها قليل ما ترحو أن نصير اليه من ثواب الله عز وجل وحسن محاربه بالعيم المقيم في دار الأمد، ومحلّ الأبد، بما لا يمه إحصاء، ولا يكون له أسباه، وبلاءه فرحا وآبتها، وسرورا وحذلا، ورحاء لك من الله عز وجل حس عونه وتوفيقه أن يفل لك على حظك، وأن يأخذ إلى تقواه بقلبك ويجعل فيما عده رعتك، وإلى ذلك سبوك وهتك . وليس يملك أمير المؤمنين مقتصرا فيك أثرا يجمّده، ومتصفا بحبر يبيحه، ومستعدنا بمة من الله عز وجل يرحو اتصالها وآساقها لديه لك، حتى ينفاه إلى الدرجة العليا، والعاية القصوى، فيما [ينبغيه] من آحتثات أرومه الصفة وقطع دابرهم . والله الثقة والحول والقوة، متمزعا من الله فيا فارقه من جهاد عدوه أتمّ مصادق وعد القائمين بحقه، الصابرين في جسّه، وأحسن ما أملى، دائئا عن حريم، ومحصا لبيضه، ومداهما عن ملة، مشمر شاريا لله بفسه، طارحا عه لباس الغفلة، متحافيا عن مهاد الوطاة، وليس تدخله الحلة والوحشة على من كنت قريبا منه، ولا يمتنع لأمر المؤمنين طُرف أت فيه، ولا أمر يُعين عليه ويتسك بسبب من أسباه .

وصف الأولياء في الكتب

وصار أهل السُّوء إلى الدرجة العليا، والاعتصام بالعروة الوثقى، من أولياء أئمة المؤمنين وشيعته، مُنْشَرَحَةً صدورهم بمكائده، مُبْسِطَةً أيديهم بمعاونه، وقسم لأئمة المؤمنين من أولياء دمه وأصباره، قَوْمٌ آزَوْهم بالنصر، وَكَفَّهم باليقين، وألف بصائرهم على الحق، وأيدهم بمؤيدات القوى، فلما أَمَرهم أطاعوا أَمْرَهُ، ولما فَرَّصوا في ذات الله طاعته، فرض الله نصرهم وتمكينهم، بجاهد مُحَاهِدُهُمْ مُسْتَصِرّاً مُحْتَسِباً، وقام قائمهم بالحق عليه بِمُحْلَصَا مُحْتَبِدَا، وقادتهم طلائع الدين ودواعيه أرسالا قُدَمَا، فاتبعوا سبيله لا مأكلين من إقدام، ولا مُتَوَقِّعين عن آرتياب، ولا مُتَيْبِّين، مع دحائلهم وبصائرهم، عدوا ولا عبادا، طالين بنار الدين مُغَاتِهِ، وطلوائل الإسلام عِدَاتِهِ . من صسوف أئم الكفر ومردة النفاق وأئمة المُلْحَدِس، متعَلِّس للحق ونُصْرِهِ، ولئن تَمَّ الحق بهم ومضى، ولئن مع الحق من نَكَث عنه بالسندهم وأندهم، حتى فتح الله عَمْرَ وَحَلَّ لأئمة المؤمنين معاقِلَ الشُّرْكِ وَأُئِمَّة، وأتاح الباطل وأركانه، وأعلام البدع وأتاعها، فَضَلَّأ من الله ونِعْمَهُ، والله عليمٌ حكيم، إن هزرتهم قطعوا قطع الحسام، وإن أحرقتهم في عطيمه وقعوا وقع الجياد، وإن استغيت ودام الغناء لك عن جميع العالمين، كانوا رصداً لك فوق أعناق الحاسدين .

ما يُقَرِّظ به أمير المؤمنين في أواخر الكتب

ليعرفوا موقع نعم الله عند أمير المؤمنين . يحوطه به في أولياته، من النصر والتمكين، وعلى أعدائه من الوثوم^(١) والتوهم، ويشكر الله على العمة في ذلك، إن الشكر مُحَصَّن للنعم، وأمان من الغير، لِيَحْتَوُوا مواقع العمة عليهم، فيا جمع الله لأئمة المؤمنين من كلمتهم، ويحوط من حريمهم، ويحل من أسسه وقمته بمن صمدف عن سبيله وحاول تشيت جماعتهم وتوهين حقهم، ويقالون ذلك بما ترتبط به نعمه، ويُستدز مزيده .

سعيد بن حميد

ليشكروا الله على ما منح حليفته من هؤلاء المقاتلين الخارجين من جماعة المسلمين، فإن الشكر أمان من الغير ومادة للزبد .

٣ - التعاميد في أواخر الكتب

تمحمد لسعيد بن نصر في آخر كتاب فتح له

الحمد لله العزيز الحكيم، المظهر لحقه، المؤيد لأوليائه، الصالح للإسلام وأهله، الناصر لخليفته، الحافظ لما أستحفظه، المتوحد بالعمه عليه فيما حمله .

تمحمد لإبراهيم بن العباس في آخر كتاب فتح

الحمد لله العزيز الحكيم، المظهر للمطلوب، ويمكر به الماكرون، ويكيد به الملاحدون، تمكينا لعبده وحليفته، ودأ عن ديه وحقه، وإظهارا لأوليائه وحربه، وإمضاء لعزائمه وقدرته، منما قادرا، ومثليا ممهلا، عدلا إذا استدريج، متفصلا إذا أنعم، حمدا يستنزل به نصره، ويبلغ به رصوابه، ويمتري بمثله فواصل مزیده .

تمحمد في فتح لإبراهيم بن العباس

والحمد لله بجميع نعمه التي تحمد بها، على جميع آلائه وجبيل نلائه، فيما ولي به حليفته، ونصر به ديسه، وأقام به حقه، وأعز به وليه، وقمع به من ألحد عن سبيله، حمدا يؤدي حق نعمته، ويوجب به أفضل مزیده بمه وطوله .

تمحمد لأبي عبيد الله في آخر كتاب

فالحمد لله على ما يحدث لأمر المؤمنين في دولته وسلطانه، وإمامه المسلمين من صنمه وكراماته، في حسيم الأمور ولطيفها، وحاصها ونعامها، بما يحمله للنعمة تماما، وعلى ما يحل بقدوره من ناسه وقوارعه، ويوقع بهم من جوانحه وأسننصاله، ما يكون لموعوده إنجازا، حمدا يبلغ رضاه ويستوجب مزیده .

تمجيد آخر

الحمد لله الذي تمّ لأمر المؤمنين نعمته، وأكمل دعوته، وجعل العاقبة فيه لمن أختاره لخلافته، وردّ إليه من شدّ عه من رعيته، وأتى أمير المؤمنين بصعته على حدّ نيته وقدر أمنيته، ولم يُصل رأيه ولم يُخلف ظنه، حمدا كثيرا دائما بما يزكو عسده ويتقبله، ويرفع إليه فيبلغ رصاه، حمدا يكون لأوسع همه جراه، ولأفصل إحسانه كفاه، ولزيد من فضله وإحسانه موجبا، وإلى أهل الدرجات عنده مؤذيا، وللخلود في جنته وسيلة وسببا .

آخر :

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين ما حباّه بمرية نصره وتمكيه وإعزازه وتأبيده، وإظهاره على من ناواه وصدّ عن حقه، وصدف عن طاعته، ووقفه لأختصاص فلان بما وكلّه إليه وعصبه به من أعاء أموره وحلائل أعماله، وأحرى بهلان وعلى يديه وبركته وسعادة حقه ويمن طائره، من نتاج الفتوح، وتواتر النصر، وإقبال الصبح، وإعلاء الحق وإمارته، وإزالة الباطل وإبادته، حمدا يؤدي حقه، ويرى عزه، ويمر من أحسن^(١) مزنده، بكرمه وجوده .

آخر :

الحمد لله الذي أكرم أمير المؤمنين بالخلافة، وخصّه بالإمامة، وقلّده من أمور عباده ولولاه ما تولاه تكفائته وكلايته وتأبيده وحياطته، حمدا يوجب المزيد من فضله .

ولإبراهيم بن العباس

الحمد لله الذي أمجز وعده، ونصر عبده، وأيدّ جده، وجعل فتوح أمير المؤمنين شرقا وغربا مشفوعة بين إقامة حق وإدالة باطل وإزالة طائد وإبادة عائد وإقالة مستقيل .

ويسأل الله أمير المؤمنين، مسألة العبد سيده ومولاه رغبة إليه متدلّلا له أن يصلّي أفضل صلواته عنده على أكرم أنبيائه .

(١) سقطت في الأصل كلمات فائتسا ما يقوم مقامها .

دعاء أمير المؤمنين في الكتب والدعاء له

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يكفه فيما حناه وأستحفظه عليه بأفضل تأييده وأعز نصره ، وأن يهب له مع كل عمة يحثدها له حارسا من شركها ، يتابع به أفضل مزيده ، فإن العمة منه ، والشكر توفيقه ، والمزيد لمن شكره .

وأمير المؤمنين يسأل الله ربه وربكم ووليّ العلم عليه وعليكم ، أن يلهمه وإياكم أداء حقه وشكر نعمته وحمده عليها ، ويطوقه وإياكم أفضل الأعمال وأرصاها عنده وأشدّها استيعابا لما وعد الشاكرين من مزيده . إنه سميع قريب .

وأمير المؤمنين يسأل الله الذي ولّاه خلافته وأعلاه بها ، أن يطوقه ما حمّله ، ويلهمه العدل بين رعيته ، ويلهمهم بصيخته وطاعته ، ويصلح أمرهم به في ولايته وخلافته . ويرغب إلى الله الذي أبدى بصره ومكّن له عبر حول منه ولا فقه ، أن يلهمه وإياكم شكره وذكره وحشيتة ، ويشمله وإياكم طاعته ومرصاه ومحنته ، وأن يعزفه وإياكم الريادة في نعمه والنصر على عدوه والتمكّن في بلاده ، إنه ذو فضل عظيم .

والى الله يرغب أمير المؤمنين في إعانته على بيته وتسليعه منتهى سؤاله وعانة همته وإعزاز ديه وإدلال من صدّق سبيله ، إنه سميع قريب . وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دلّ على الدماء تظولا وتكفل بالإجابة حتما ، فقال (*أُدْعُوايَ أَستَجِبْ لَكُمْ*) أن يجمع على رصاه ألفتكم وأن يصل على الطاعة حلّمكم ، وأن يمتكم بأحسن ما عودكم من مثته . ويؤزكم عليها من شكره ما يواصل لكم به مزيده ، وأن يكفكم كيد الكائدين ، وحسد الباعين ، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم ، أفضل ما حفظ به إمام هدى في أوليائه وشيعته . ويحمل عنه ثقل ما حمّله من أمركم ، والله يستعين أمير المؤمنين على ما يسوى من جرائكم بالحسنى ، وتحملكم على الطريقة المثلى ، وبه يرضى لكم بأصرا ووليا ، وكفى بالله نصيرا .

ويسأل الله أمير المؤمنين ، أن يُحسّن على صلاح بيته وعونه ، وأن يتولّاه فيما أسترعاه ، ولايته جامعة ، لصلاح ما قلّده ، إنه سميع قريب .

ويسأل الله أمير المؤمنين الذي بيده مفاتيح مقاديره وفواصله ، أن يُصَلِّيَ أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ عَلَى أَفْضَلِ أَنْبِيَائِهِ ، وَأَنْ يُجْعَلَ مَا أَتَخَرَّ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى دَوْلَتِهِ وَحِلَافَتِهِ ، وَحِوَاهِ مِنْ وَسَائِلِ الْخَيْرِ عِنْدَهُ ، أَنْ يَجْعَلَ إِلَى أَحْسَنِ تَوْفِيقِهِ لِمَا يَرْضَى مِنْ شُكْرِهِ وَحَسَنِ مَعُونَتِهِ عَلَى مَا أَصْلَحَ لَهُ رُبَّهُ ، إِنَّهُ شَاكِرٌ بِحَسَبِ مَنْ شُكِرَ ، وَيُوجِبُ لِمَنْ وَفَّقَ لَشُكْرِهِ مَزِيدًا مِنْهُ وَطَوِيلَهُ وَفَصْلَهُ وَإِسَامَهُ ، إِنَّهُ حَوَادِثُ كَرِيمٌ .

ويسأل الله أمير المؤمنين مُسَدِّدًا وَمُعَقِّدًا وَأَوَّلًا وَآخِرًا ، وَقَلَّ كُلِّ مَسْأَلَةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ رَعِيٍّ وَمُقَدِّمَةً كُلِّ طَلَّةٍ ، أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى صَعُوهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَبْرِ حَلْقِهِ وَحَاتِمِ أَيْدِيائِهِ وَرَسُولِهِ ، عِنْدَ عِيْدِهِ وَرَسُولِهِ ، أَفْضَلَ صَلَوَاتِهِ ، وَيَبَارِكْ عَلَيْهِ أَكْثَرَ رُكَاكِهِ ، وَأَنْ يَدِيمَ لَهُ كِرَامَتَهُ ، وَتَحَرَّى عَمْدَهُ عَلَى أَجْمَلِ عَادَاتِهِ ، وَأَنْ يَتِمَّ لَهُ مَا أَحْتَقَبُ بِهِ مِنْ إِحْسَانِهِ ، حَتَّى يَمْلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَقِسْطًا ، وَالْإِسْلَامَ تَأْيِيدًا وَعِزًّا ، وَالشُّرَكَ ذُلًّا وَهَمًّا ، إِنَّهُ وَلِيٌّ بِرِعْمَتِهِ وَمُنْتَهَى كُلِّ رَعِيٍّ ، وَعَايَةُ كُلِّ حَاجَةٍ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

وأمير المؤمنين يقول : الْحَمْدُ لِلَّهِ طَاعَةً لِأَمْرِهِ ، وَأَعْتَصَامًا مِنَ الْعِتَةِ شُكْرَهُ ، وَأَسْتِئْذَانًا لِعِمَّةِ الْمُرَايَدَةِ عِنْدَهُ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

وأمير المؤمنين ، سأل الله السامعَ كَلَامَ مَنْ جَهَرَ ، وَالْعَالِمَ بَهِيمَ مَنْ أَسْرَ ، الْمُطَّلِعَ عَلَى صَمَائِرِ الْعَادِ وَوَسُوسَتِهِمْ ، وَالْمُسْتَفِيزَ مِنْ إِشَاءِ رَحْمَتِهِ ، وَالْمُتَمَنِّ عَلَى مَنْ إِشَاءَ قُدْرَتُهُ ، أَنْ يَجْعَلَ عَلَى الْحَقِّ أَهْوَاءَكُمْ وَيَنْصَرِّكُمْ عَلَى أَعْدَائِكُمْ وَيُصْلِحَ دَاتَ بَيْنِكُمْ وَلَا تَكَلِّمْكُمْ فِي مَوَاطِنَ مِنْ مَوَاطِنِ اللَّقَاءِ ، وَالتَّحَاكُمِ وَالتَّحَازُرِ ، إِلَى أَهْسَكُمْ ، وَيَكْمِكُمْ وَيَكْفِيَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ .

الدعاء لأمير المؤمنين في أواخر الكتب

ويسأل الله أن يَهَيِّئَ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا صَبَحَ لَهُ ، وَيُعِيْبَهُ عَلَى شُكْرِهِ مَا أَوَّلَهُ ، إِنَّهُ وَلِيٌّ ذَلِكَ وَإِنَّا إِلَيْهِ فِيهِ رَاغِبُونَ وَالسَّلَامُ .

وله :

ونسأل الله أن يثبِّت أمير المؤمنين الكرامات التي يُتابعها ، والعم التي يظاهرها عليه ،
والفتوح التي جعلها في حياته ، وولايته ودولته ، ويثبت له من المعرفة بمجته في ذلك والشكر
له بمحسن بلائه فيه ، ما يبلغ أعظم رعة وأقصى أمية ، من ذخائر الخير وفصيلة الأجر
وحسن الثواب في الدنيا والآخرة .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عابر أموره ، أحسن ما عوّده في سالفها ، من السلامة التي
حرسه بها من المكار ، والعز الذي قهر له به الأعداء ، والصبر الذي مكّن له في السداد ،
والهدى الذي وهب له به المحسنة ، والرفق الذي أدّر له به الخلق ، والاستصلاح الذي
أنسقت له به الرعة ، حتى يكون بما أعطاه من ذلك ، وما هو مُستقبل به ، أمد حلقاته
ذكرا ، وأنقام في العدل أثرا ، وأطولهم في العمر مُتمة ، وأحسنهم في المعاد مُنقلا .

أسأل الله لأمر المؤمنين بِنعمة لا تزول ، وكرامة لا تنفد ، وعز لا يبصم ، وصر
لا يلبس ، وكفاية ينظم بها جميع الصلاح ، حتى لا يكون ما قول من ذلك أسعد منه بآخر ،
ولا بماض أسرمه بمستقبل .

أسأل الله لأمر المؤمنين في عاقبة كل بِنعمة أفصل ما وهب له في عاجلها ، حتى يحمل
كل بِنعمة أهم بها عليه ، وكرامة حارها له ، موصولةً باتِّمام ، محوطةً بالحفظ ، مكلّوةً من الغير ،
بمدودةً إلى طول عايات البقاء ، لا يشوب صغورها كدر ، ولا سلامتها غير ، ولا سرورها
تغيص ، وهذا الله أمير المؤمنين الظفر ، وأدام له عادة الصبر والتمكين الموضح ، ومُجته
المدحصة لمحبة أعدائه ، والغلبة المطهرة لحقه ، المُتناحة لمن حاله ، ثم لا يرحت نعمة الله
راحة بمثله في الأولياء نصرا ، وفي الأعداء إباحة ، وفي الراكثين تكيلا .

سراة أمير المؤمنين بما أهدى له من كفايته ، وحاطه به من مسعته ، وأيده به من
نصره ، وجعله وما استرعه من ديه وسلطان ، في كنفه الذي لا يُستباح وتحت يده المساعة
وجأحه المحفوظ .

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه في تمكينه وتوهمهم، ونَصْرِهِ وحِيلَاتِهِمْ، وإِعْزَازِهِ والمُجَاهَدَةِ لَهُمْ، ولا زالت نِعْمَةُ الله تَزِيدُهُ في قُوَّةِ الظَّفَرِ، وعِزَّةِ الصَّعْرِ، وتَعَدُّ مِنْ آفَاقِ الْأَرْضِ بالبَشَارَاتِ والْفَتْوحِ، حَتَّى تَمَلَأَ لَهُ مَا يَنْ طَرَفَ مُلْكِهِ أَمَّا وَعِزُّهُ، وَيَمَلَأُ بِهِ قُلُوبَ أَعْدَائِهِ حُزْناً وَرُجْماً، وَيَعْتَمِدُ عَلَى خِلَافِهِ سَطْوَةٌ وَتَكِيلًا .

أحمد بن يوسف

وهَذَا اللهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسْمِهِ، وَمَلَأَهُ كَرَامَتُهُ، وَأَوَّلَى لَهُ تَوْحِيدهُ، وَأَدَامَ إِعْزَازَهُ، وَتَوَلَّى حِيَاطَتَهُ وَكَيْفَايَتَهُ، فِيمَا دَنَا مِنْهُ وَمَا عَابَ عَهْدَهُ، وَأَطَالَ بَقَاءَهُ وَالْإِمْتِنَاعَ بِهِ .

مختار ما كتب من باب التهاني في كل فن

تهنئة حليفة نظفر

الحمد لله الذي جمع لأمر المؤمنين مع اللَّبَّةِ الْمُحْتَمَّةِ، ومع الطَّعْرِ الْمُعْذَرَةِ، وجمع لعدوه مع الدِّلِ السَّطْوَةِ، ومع دُحُوضِ الْمُحْتَمَّةِ الْكُلِّ، فلم يجمعه والباكثين مَوْطِنٌ مِنْ مَوَاطِنِ الصَّعْرِ، إِلَّا حَمَلَ الْمُحْتَمَّةَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَلَسَانَ الْعِذْرِ فِيهِ مَعَهُ، وَيَدَ الطُّهُورِ فِيهِ لَهُ، ثُمَّ وَهَبَ لَهُ عِدَ الظَّفَرِ مِنَ الشُّكْرِ، وَعِدَ الْفَلَجِ مِنَ التَّوَاصِعِ، وَعِدَ الْقُدْرَةَ مِنَ الْغَفْوِ، مَا جَعَلَهُ مُسْتَوْجِبًا لِمَا أَصْفَاهُ بِهِ، مُتَوَفًّا بِأَنَّ الْعِدْرَ مُنْقَطِعٌ مِمَّنْ نَكَهَ، وَأَنَّ مُسْتَرَادَ الْمُحْتَمَّةِ وَيَطْلُبُ السَّلَامَةَ، فِي التَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ وَمُسَاحَمَتِهِ، وَالْمُجَاهَدَةِ دُونَهُ .

وفي مثله :

أدام الله لأمر المؤمنين السرور بما يُقْدَى به عيون أعدائه .

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى المعتصم يهنئه بخروجه عن أرض الروم

بعد فتح عمورية

الحمد لله الذي تم لأمر المؤمنين غَزْوَتَهُ، فَأَدْلَى بِهَا رِقَابَ الْمُشْرِكِينَ وَشَفَى بِهَا صَدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، ثُمَّ سَهَّلَ اللهُ لَهُ الْأَوْبَةَ سَالِمًا عَاطِمًا، وَكَلَفًا وَكَلَفًا، وَلَبَّيْتهُ مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، مِمَّا

أحصاه فلا يساء، لَيَقِفْهُ بِهِ مَوْقِعًا يَرْصَاهُ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، فَطَوَى اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ نَازِحَ الْبُعْدِ بَرًّا وَبُحْرًا، وَوَقَاهُ وَصَبَّ السَّيْرَ سَهْلًا وَوَعْرًا، وَحَاطَهُ بِمَحَاسِنِهِ كَالثَّاءِ، وَدَافَعَ عَنْهُ بِحِمِيَّتِهِ رَاعِيًا، حَتَّى يُؤَدِّيه إِلَى الْمَحَلِّ مِنْ دَارِهِ، وَالْوَلَدَيْنِ مِنْ قَرَارِهِ، وَحَرَاهُ عَنِ الْإِسْلَامِ حَاصَّةً، وَبِعَنْ رِعِيَّتِهِ كَافَّةً، بِتَخَيُّرِهِ مُسْتَحْلَفًا عَلَيْهِمْ، وَقَانَمَا مُقَامُهُ فِيهِمْ هَرُورٌ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ اسْتَحْلَفَهُ رَفِيقًا شَعِيقًا، حَلِيًّا وَقُورًا، يَقِطَّانَ سَاكِنًا، لَمْ يُشَدَّ عَلَيْهِ أَمْرٌ، وَلَمْ يَنْتَشِرْ عَلَيْهِ طَرْفٌ، وَلَمْ يَضَعْ مَعَهُ سَبِيلٌ، وَلَمْ يَنْسَحِطْ وَلِيًّا مُكَاهَا، وَلَا عَدُوًّا مُخَالِفًا، وَلَا سَيْفَ أَشْرَعِهِ، وَلَا سَوْرَ أَفْرَعِهِ، فَفُتِلَ جَرَاهُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَخَيُّرِهِ إِيَّاهُ، بِفَزَاهُ اللَّهُ عَلَى مَا حَفِظَ مِنْ وَصَايَاهُ، عَلَى مَجْدِ مُقَامِهِ، إِنَّهُ مَجِيبُ الدَّاعِي .

وكتب أحمد بن يوسف إلى عبد الله بن طاهر

بِسْمِهِ ظَفَرٌ

بَلَنِي - فَخَّ اللَّهُ عَلَيْكَ - خُرُوجُ أَنْ السَّرِيَّةَ إِلَيْكَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْبَاصِرِ لِنَبِيِّهِ الْمُعِزِّ لَوْلِيَّهِ وَحَلِيفَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ، الْمُنْذِلِّ لِمَنْ صَدَّ عَنْ حَقِّهِ وَرَعِبَ عَنْ طَاعَتِهِ، وَنَسَأَ اللَّهُ أَنْ يُطَاهِرَ النَّيِّمَ وَيَبْتَحِثَ لُبْدَانَ الشُّرْكِ بِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا وَالَاكَ مِنْهُ طَمَعَتْ لَوُجُوهُكَ، فَإِنَّا نَتَذَكَّرُ سِيرَتَكَ فِي حَرْبِكَ وَسَلَامِكَ، وَنُكْثِرُ التَّحُجُّبَ لِمَا وَقَفْتَ لَهُ، مِنْ وَضْعِ الشَّدَةِ وَالْيَبَانِ مَوْصِمَهُمَا، وَلَا نَعْلَمُ سَائِرَ حُنْدٍ وَلَا رَعِيَّةٍ عُدِلَ بَيْنَهُمْ عَدْلُكَ، وَلَا عَمَّا مَدَّ الْقُدْرَةَ عَنْ أَسْفِهِ وَأَصْغَرِهِ عَفْوُكَ .

تهنئة خليفة بحج

أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرَاهُ مِنَ الزَّيَادَةِ فِي بَعِيهِ، مَا يَكُونُ تَمَامًا لِمَا ابْتَدَأَهُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا خَصَّ بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَرَامَتِهِ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْفَضْلِ فِي نَبِيَّتِهِ، وَحَمَلَهُ يَسْتَعِينُ عَلَى دِينِهِ، عَمَّا بَسَطَ لَهُ فِي دُنْيَاهُ، وَيَتِمَّلُ عَلَى بَدَنِهِ النَّصَبَ فِيمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ، فَيَجُفُّو عَنْ دَعْوَتِهِ عَلَى لَيْنِهَا، وَيَشْحَصُ عَنْ طُمَأْنِينَتِهِ عَلَى فَضْلِهَا، إِيثَارًا لِأَحْرَتِهِ، وَأَدَاءَ لِحَقِّ رَبِّهِ، بِأَدْرِ لَهُ بِذَلِكَ لِيُكْرِمَهُ بِهِ، ثُمَّ يَسْتَعْمِلُ فِيهِ نَفْسَهُ، تَقَرُّبًا إِلَيْهِ، فَيَسْعُدُهُ بِالْإِذْنِ

في ذلك حين كان من الله له ، والعمل فيه حين كان الله معه ؛ فيكون قبوله الخير حين يعرضه له ، دليلا على قبوله الخير حين يعمل لربه ، وكان من ذلك ما أئد الله لأمر المؤمنين في ريادة نبيه صلى الله عليه وسلم العام ، وموافاة مشاعره العظام ، في وقتها من الأيام ، التي لا تنافى إلا معها . ولا تكون ماسكة إلا فيها ، فكتب الله له في ذلك الآثار الصالحة والأعمال المبرورة ، فدخل في الإحرام له بتعظيم حقه ، ونحر منه مقصدا . نسكه ، أجرا عقده الله عليه في آتدائه ، ثم أئمه له ماستيفائه .

ولمحمد بن مكرم تهنةٌ لحاج

لأنك الله الرضا في أملك من منح كل حاجة وإللاع كل أئمة ، وتقبل كل دعوه خصصت بها نفسك أو عومت بها أحدا من أهلك ، في مجامع وعوده ، ومعتل قراره ، فكننت شافع من شاهدك ، ووافد من بابك ، يستفتح بدعائك ، ويرجى بركة محضرك ، والقرنة الى الله عز وجل وحل فصل جاهك .

تهنة بولاية

نرى ما أحدث الله لك من الولاية ، لنا حاصا وإلما واصلا .

آحر :

ولم تخطني العمه إذ أصابتك ، ولم تتعدني إذ دخلت بك ، ولم أحل من لازم شكرها ، وما يبطئك الله منها ، إذ قلدتها ، اعتدادا بكل ما طوقت من المان ، وإني بأعلى هسي ما حملت من الشكر .

ولسعيد بن حميد الى بعض إخوانه

سرك الله بتنازع بعمه ، وتراؤف إحسامه ، وزادك من فواصل أقسامه . بلني — أكره الله — ما وهب الله لك من ماطلاك ، فقواك الله على ما استرعاك . ورزقك الشكر على ما أولاك .

و في مثل ذلك :

أكل الله لك السعادة ، وزادك في الكرامة ، وخصّك بدوام النعمة . ملغى ما وهب
الله لك من سلطانه ، فسررت به ، وسألت الله إتمام نعمه عليك فيه بتأييدك ، وتوفيقك
للعمل في سيرتك ، وعزّس المحبة لك في قلوب رعيتك ، وأن يُعيبك عليه ، ويرزقك السلامة
في الدين والدنيا .

وله في مثله :

أما أُنقِىَ لك العمل الذي وُلّيتَه ، ولا أُمسِكُ به ، لأن الله أصاره الى من يُورده موارد
الصواب ، ويصدره مصادر الحق ، ويصوّنه من كل حَلٍّ ومقتصر ، ويُصيه بالرائى
الأصيل ، والمعرفة الكاملة ، قرن الله لك كل نعمة بشكرها ، وأوجب لك بطوله المزيّد
مها ، وأوزعك من المعرفة بما يصوّنها من الفتن ، ويحطّونها من القصر .

آخر :

قد وُلّيت من العمل ما أسأل الله عزّ وجل أن يرزقك بركة بدنه وعاقبته ، ويُعطيك
الرضا بمن وُلّيت له وعليه .

آخر :

هناك الله هذه النعمة المقلّة ، الدالّ أولها على تمامها ، واوزعك شكرها .

آخر :

أسعدك الله بهذه الولاية وجعلها مباركة ، تنقل ظلّ السلامة منها ، وتنبّل الكفاية
فيها الى أملك بنهايته ورجائك مايته ، ورزقك السلامة بمن وُلّيت له وعليه .

آخر :

سرّك الله بما جدّد لك من هذه المنزلة ، وتقمّك بهذه الولاية ، وأرضى عنك من وُلّيت
له ومن وُلّيت عليه .

وكتب محمد بن مكرم الى أحمد بن دينار :

نحن من السرور أيها الأمير بما قد استفاض من جميل أثرك فيما نل من أعمالك ،
ورمك لإياها بجرمك وعزمك ، وأتياشك أهلها من جور من ولهم قلك ، وسرورهم بتناول
أيامك والكون في طلل يدك وحناك ، في إعانة من تحضه ونعمه معتك ، وتحول به
الجول حيث حالت لك ، فالحمد لله الذي جعل العاقبة لك ، ولم يردد علينا آمالنا فيك
مكومة ، كما ردعا على عيرنا في عيرك . ولوددت أن ألك كان عاب أنارك هذه ومباكبك ،
وإن كان الأثر لم يقع بيكما حتى علم أنك حلفه ، وألني اليك بأمره ومعاقد نقته ،
وجعلك موضع احتصاصه وأثره ، وصرف ذلك عن كان لا يستحقه ، ودم سالف رأيه
فيك وفيه وحيد آخره ، ثم عمة اتصلت لك بما قلها ، انتظمت بها أمورك فاعتدلت ،
وتلاحت عليها وآتسقت ، ما محت في كاتبك ، ومستقر همتك ، وحامل أعبالك ، من
الكفاية والصيحة ، ووصفه عن قلك مؤونة التهمة والقص لأثره ، وإدخاله راحة الطائفة
اليه وروح الثقة به ، له كما ابتلى أخوك ، فإنه صحبه خلط عليه أمره ، وأفتى أسرارها الى
صاحب يريده ، فأهل ذلك بينهم ، وقطع حياهم ، حتى تجت آثاره مع حسنها ووصوحها ،
وصعرت يده من حفظ عمله ، ولزمه الدم من أهله ، فهذه كُتبه الى ، في أطراح بصيحة له
كاست فيه ، ويسألني أن أخص اليه كاتباً يحمل ثقله ، ويعتج له ما أرعنه من أمره . وهذا
من -مادة حدك ، ويمن طائرک ، وإقبال الأمور اليك ، وسعيها على طريق موافقتك ،
وهيئنا هناك الله نعمة حاصها وعاقها ، وأوزعتك شكرها ، وأوجب لك بالشكر أحسن المزيدي فيها .

تهنئة بعزل

كتب رجل الى مالك بن طوق لما عزل عن عمله :

أصبحت والله فاعها متيما : أما فاعها فللكل والقبلك بحسن سيرتك ، وأما متيما
فللكل والي بعدك أن يلحقك .

(١) أتياشك أهلها : استفادهم .

فصل

سواء عليا أوليت أم صرفت ، إنا لنشهد بك الولاية ، بما بسط الله من يدك ببذل العرف ، ونهتلك بالعرف بما ملحقك من ناء ما أسلفت من الجليل ؛ ولا نخاف عليك أن تمارق عملا وأنت محل له ، ولا أن تصحبه وليس به فاقه اليك . فهناك الله العمة ، وأعانك على الشكر ، وأندك بالمزيد .

تهنئة بعزل عامل عن عمله

لأعني صرفك ، حار الله لك ، وهماك لطيف نظره وحليّل إحسانه ، فإني أرى الرجل عد حروحه من العمل سالما قيا من مآثمه ودنسه ، أولى بالتهنئة منه عد دخوله فيه ، وأرى الدعاء له عد بدء تلبسه به بالخلاص منه بمعصوما ريثا من تبعاته ورواح آثامه ، أولى من غني به وأحب صلاحه ، ولذلك قدّمتُ تهنيتك .

ولسعيد بن حميد في مثله الى بعض إخوانه :

حفظك الله بحفظه ، وأسع عليك كرامته ، وأدام اليك إحسانه . إن سروري بصرفك ، أكثر من سرور أهلي عمك بما خُصّوا به من ولايتك . وقد كنت — أعزك الله — فيما يُرأى بك عنه ، بما أنت عليه في قدرك وأستنهاك ، ولكنا رجونا أن يكون سببا لك الى ما تستحق ، فطينا نفسا بالذي رحوبا . فالحمد لله الذي سلمك منه ، وسأله تمام بعه عليك وعلينا فيك ، بديعك أملاك وآمالنا فيك ، وشماغ ما كان من ولايتك بأعظم الدرجات وأشرف المراتب ، ثم حصصك الله بحمّل الصع ، وبقك عاية المؤمنين . إن من سعادة الوالي — حفظك الله — وأعظم ما يُخص به في عمله وولايته السلامة من موائق الإثم ، ونوائب الدنيا وشرها ، والمقامة مما يُخاف منها ، وقد خصصك الله منها بتمنه وطوله ما زحوا أن يكون سببا لك الى نيل ما تستحق من المراتب . والله نال إزاعك شُكرا من به عليك ، وتبلغك غاية أملاك في جميع أمورك ، برحمته وفضله .

آخر :

ما أحسنَ ما كَشَفْتَ عَنكَ الْوَلَايَةَ ، وَأَجَمَلَ ما أَبْرَرْتَكَ الْعَمَلَ ، قَدْ كَسَكَ اللَّهُ حَمْدَ
وَلَايَتِكَ وَعَزَلَ عَنكَ لَأَثْمَتَهَا ، بِمَا أَنْشَرْتَكَ مِنْ عَذْلِكَ ، وَظَهَّرَ مِنْ مَعْرِفَتِكَ ، فَاذْ سَامَكَ
هَذَا فَلْيَسُرُّكَ .

وكتب محمد بن مكرم الى ابراهيم بن المدبر :

الحمد لله رب العالمين حَمْدًا يَمْجُوزُ حَمْدَ الْحَامِدِينَ ، الَّذِي جَعَلَ قَضَاءَهُ خَيْرَةً لَكَ ، فَإِنْ
زَادَكَ نِعْمَةً وَفَكَ لَشُكْرَهَا ، وَإِنْ أَمْتَحَكَ بِلَوْى مِنْ نَفْتٍ حَاسِدٍ أَوْ كَيْدٍ كَاكِدٍ ، أَنْتَ
بِرَهَانِكَ وَأَفْلَحَ مُجْتَنِكَ وَجَمَعَ بَيْنَ وَلِيِّكَ وَعَدْوِكَ فِي الشَّهَادَةِ لَكَ ؛ وَإِنْ قَلَّ أَمْرًا عَنْ
يَدِكَ ، فَرَبِّمَا يَرْجِعُهُ إِلَيْكَ غَتَلًا لَفَقْدِكَ . هَذَا إِلَى مَا جَعَلَ عِنْدَكَ مِنْ خَوَاصِّ الْعَمِّ الَّتِي إِنْ
ذَكَرْتَهَا فَاطْنَبَ أَوْ تَحَوَّزَا مَقْصَرًا ، كَانَ عَايِنَا إِلَى الْحُسُورِ دُونَ مَدَى عَايِنِكَ . وَقَدْ زَادَكَ
اللَّهُ بِهَذَا الْحَادِثِ فَصْلًا عَظِيمًا : لَمَّا طَهَّرَ مِنْ وَلِيٍّ الْعَامَّةِ إِلَيْكَ وَتَطَلَّمَهَا إِلَى مَا كَانَتْ فِيهِ :
مِنْ لَيْنٍ لِنِصَافِكَ وَكَرِيمٍ أَحْلَافِكَ ، وَوَحْشَةٍ الْخَاصَّةِ لَمَّا فَقَدْتَ مِنْ حُسْنِ مُعَامَلَتِكَ وَكَثِيرِ
تَعَضُّلِكَ . وَأَيُّنَ أَهْلَ الرَّأْيِ وَالنَّأَمْلِ لَصَفَحَاتِ الْأُمُورِ ، أَتَى كُلَّ مَا حَرَجَ عَنكَ فَعَائِدَ
إِلَيْكَ وَتَصَلَّ بِهَ عِيْرُهُ ، حَتَّى تَسْتَقِرَّ فِي يَدِكَ عُرَا الْأُمُورِ وَمَعَاقِدُهَا ، وَتُفْتَحَ بِرَأْيِكَ وَتُدِيرَكَ
أَبْوَابُهَا وَمَعَالِقُهَا ، فَلْيَبْكْ أَتَى كُلَّ مَا زَادَ عِيْرَكَ قَصَا زَادَكَ فَصْلًا ، وَكُلَّ مَا نَقَصَ مِنَ الرِّحَالِ
وَحَطَّهَا أَلْحَقَ بِكَ شَرْفًا . فزادك الله ورادما منك ، وجعلنا ممن يَقْلَهُ رَأْيُكَ ، وَيَقْدَمُهُ
أَخْتِيَارُكَ ، وَيَقْبُحُ مِنَ الْأُمُورِ بِمُوافَقَتِكَ ، وَيَحْرَى مِنْهَا عَلَى سَبِيلِ طَاعَتِكَ .

وكتب سعيد بن حميد الى بعض إخوانه :

جعلني الله من السوء والمكروه فِدَامَكَ ، وَأَطَالَ فِي الْخَيْرِ وَالسُّرُورِ بَقَاكَ ، وَأَتَمَّ بِعَمِّ
طَلِكَ ، وَأَحْسَنَ مِنْهَا مَزِيدَكَ ، وَبَلَّغَكَ أَقْصَى أُمْنِيَّتِكَ ، وَقَدَّمَنِي أَمَامَكَ ، وَقَدْ بَلَغَنِي مَا أَخْتَارَ اللَّهُ لَكَ ،
فَسُرُّرْتُ مِنْ حَيْثُ يَنْقُصُ لَكَ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ النِّعَةِ طَلِكَ ، وَلَا يَرَاكَ بَيْنَ اسْتِحْقَاقِكَ .

ولئن ساء ما ساء إخوانك من عزك، لقد سرتني ما يسر الله لك . والحمد لله الذي جعل
انصرافك محمودا، وقصى لك في عاقبتك الحسنى، وأقول :

لَيْسَ لَكَ أَنْ أَصْحَتَ مُجْتَمَعَ الْحَمْدِ وَرَأَى الْمَعَالَى وَالْمَحَامِي عَنِ الْمَجْدِ
وَأَنَّ صُنْتَ الْأَمْرِ فِيهَا وَلَيْسَ فَفَزَقْتَ مَا بَيْنَ الْقَوَايِ وَالرُّشْدِ
فَلَا يَحْسِبُ الْبَاعُونَ عَزْلَكَ مَعْنَا فَإِنَّ إِلَى الْإِصْدَارِ عَاقِبَةَ الْوَرْدِ
وَمَا كُنْتُ إِلَّا السِّيفَ جُرْدًا لِلْوَعَى فَأَحْدَ فِيهَا ثُمَّ رُدَّ إِلَى الْعِمْدِ

وقد قال الأول :

فَمِنْ يَكُنْ يورود العزل مُكْتَنَا .. فَإِنِّي يورود العزل مسرور
بعدَ الولاية عَزْلُ يَسْتَتِينُ بِهِ . طَوَّلُ الْوَلَاةِ وَسَدَّ الْعَزْلُ تَأْمِيرُ

أما ما عندي مع تصوّر العاقبة لك في نفسي ، فَيَمَسُّني في أمرك في حال الهنة
ما يحضُّني منه في وقت تحدّد النعمة . وحسب صميرك الشاهد على ما عدى ما أحذه لك
في نفسي . فلا رلت في نعيم متاعه متحددة، ولا علبت الثروة والزيادة، وملكك الله أقصى
أملك ، وأمل أخيك لك ، وكنت أعداك ، وجعلني وقامك المقدم عك . أحب أن
تشرح لي صورة الأمر إلّا ما تأدّت ، وكيف كان الابتداء، فإنّي لا أشك أنها حيلة
ونية من عزّ الصاحب الجليل القدر، ولها عاقبة منه إن شاء الله محمودة، وتُغضّي من ذلك
إلى ما تسكن إليه نفسي، إن شاء الله .

تهنئة بتزويج وبناء بأهل

طائرُ الْيَمِينِ فليكن هذا الباء، ومأساب السعادة فليقتل عقدها الاجتماع، وبكلّ ذكاء
الولد، وثروة العدد، فتتجرك الأقدار، وفي أطول عايات البقاء ملئم هذه البنية والسرور .

تهنئة بتزويج

بلقي تزوحك من فلانة، وبالراء والسين، تهنئة السلف الصالحين، ومبلغ سنة المجتهدين
المتبحرين، ونقول على يمين الطائر، وسعادة الجدّ، ونماء العدّد، وآفاق الهوى، وطيب

الماسمة، واجتماع الشغل، وثبات الربيع، وتَمَلَّيَّ النعم . أما الله الذي قصصها أن يجعلها لك سَكَنًا ويعلمك لها نَحْمًا ، وأن يُؤَثِّرَ حِمَامَهَا الى آتِهَا هَسَك عنها ، وجعلك حائِزًا ثَرَمَهَا ، وَوَلَّيْتَ المال وهواة العيش وملاهة الفوائى بعدها .

تهنئة لغسان بن عبد الحميد بتزويج

قد بلغنى بَحْمُ الأمير أَمَلَهُ على الحال التى جمعهم عليها من نعمة الله عليه . فالحمد لله على كل ما يرى الأمير فيما له فيه نعمة . فاسأل الله أن يجعل الطائر فى ذلك مَتَمِيمًا ، والشَّمْلَ محتمًا ، والبركة عظيمة ، والأُمُور سليمة ، وكذلك فقد عَظَّمَ الله القَسَمَ مِثْلَ لُزُوحِهِ ، حَلَّ الأمير سَكَنًا لها ، وأجرى المودة والرحمة بينهما ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةَ وَرَحْمَةٍ ﴾ . فلما كان الأمير هو المطور اليه ، وهى المطور اليها ، اختارها الأمير لنفسه واختار نفسه لها ، وأراد الله عز وجل أن يزيد ما مع فضلها فى نفسها فضلًا باختيار الأمير إياها ، وباختصاص الله لها بالأمير دون غيرها ، فكان ذلك فضلًا من ماله زِيَّةً فضل ، وكرامة من الله وَصَلٌ مَعْضًا مَعْص . فربح الى الله عز وجل فى أن يزيد الأمير فى كُلِّ سَعَةٍ مبسوطة ، ونعمه مقسومة ، ويعطيه فى ذلك شكرًا يكون لِرِصَادِهِ مَوْحًا ، كما أعطاه فضلًا كان الشكر له به واجبًا ، ثم يَمْلَى الأمير ذلك بأحسن ما مَلَّى أحدًا من خلقه كرامة اصطلمها عنده .

تهنئة بمولود

كتب العباس بن الحسن الطالبي الى المأمون يهنئه بمولود له :
قد كان أحذنى ما أحدث الله لأمر المؤمنين من المَوْهَةِ التى ليس ، وإن كان أولى بها من غيره ، بأعظم فيها حَقًّا من رَحْمَتِهِ . فمَرَّ الله لك يا أمير المؤمنين قلوبهم بسور الحكمة وأبصارهم حتى يَشُدَّ بهم عَصْدُكَ ، وَيُسَدَّ بهم ثَمَنُكَ ، وَيُلْقِيَهُم الغاية المأمول لهم بلوغها بعدك ، غير مُقْعَد بك مَهَل ، ولا مَحَل بك أَجَل ، ولا مُكَذَّبك أَمَل ، ولا مُنْقَطَعه إِيامك ، حتى تُحْتَرَمَ أَنْفُسًا قبلك .

وكتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهثه بمولود له :

بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهبأك نعمته معطيه ، وملأك كرامته بهائده ،
وأدام سرورك زيادته ، وجعله نارا تقيا ، ميموا مباركا زكيا ، ممدودا له في البقاء ، مُلغافا عاية
الأمَل ، مشدودا به عَصْدُك ، مُكْتَرَا به وَلَدُك ، مُدَامَا به سرورك ، مدفوعا به الآفات عك ،
مشغوعا بأكثر العدد ، من طيب الولد .

وله في مثل ذلك :

هَبَاك الله هذه العائدة التي أمادكتها ، وبارك الله في الهبة التي رزقكها ، وشغفها بإخوه
متواترين ، يَسْرُوك في حياتك ويَتَأَمُّوك في عَقك .

تهنئة بمولود

كتب رجل الى رجل يهثه بمولود :

حُيِّلَتْ دَمَاك . للبقاء . ولودك ، في الساء بياته ، وفي أئمن شياه ، وعلى الركة ميلاده .

تهنئة بمولود

كتب الحسن بن سهل الى ذى الرياستين :

إله ليس من سم الله ، وفوائد قِسَمه — وإنْ خَصَّ موقعها ووحب شكرها — نعمة تُعَدِّل
العمة في الولد ، لئمانها في العدد ، وزياتها في قُوَّة العصد ، وما يُتَعَمَّل به من عظيم بهجتها ،
وُيُرْحى من باقي ذكرها في الخُلُوف والأعقاب ، ولاحق بركتها في الدماء والاستغفار . وإن
الله قد أفادك وأتاك علاما سريّا ، سَمَّيته فلا ، فكان ميلاده صد فتح الله على أمير المؤمنين .
فرجوت أن تكون موافاته بالنصر الذي أظهرها الله به على عدو الدين والمسلمين من دلائل
بركته ويُمْنه ، وشواهد سعادته والسعادة به . فبارك الله لأمر المؤمنين في طارف نعمه
وتالدها ، وشَفَّع له قديم مسه بمحادثها ، ورزقه دكورا طيبين مهتدين ، يأنس بهم ربه ،
ويتصل بهم نجاحه ، ويعلمهم فزرة زاكية ، وبقية صالحة .

آخر :

بلغني الذي وهب الله لك ، جعله الله دُحرا سنياً ، وعقاً كريماً .

عمرو بن مسعدة الى الحسن بن سهل

أما بعد ، فإن هبة الله لك هبةٌ لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك في عدده لمهلك عنده ومكانك في دولتك من دولته . وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سرياً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بازاً تقياً ، ساركا سعيداً زكياً .

تهنئة بمولود

الحمد لله الذي رضى ما يسير القول عند عظيم العمة ، حمداً نستوجب به ثناء هذه الملوكة للثناء والعائدة ، فإن نعمه الله وإن كانت لم تزل متناعة ، فقد كان ما يقض الأمل ما ذكر أفراد الأبر سفسه وقلة تسله ، وما لا يؤمن من أقطاع الذكر سوات الأهل ، وهن دُثور الأنام ، مواقع الجِلمام ، وقد أصحبا من الله من يدين في فُسحة المهمل ، ومده مواقع الأهل ، لمن أراد فيه موضع أملنا في حسن الخلافة من الأمير وإحياء ذكره .

تهنئة بمولود

سرورك سرورٌ يخصني منه ما يحضك ، وتلبسني فيه العمة ما تلبسك ، والحمد لله على النعمة بك وعدك .

كتب أحمد بن يوسف الى بعض إخوانه يهنئه بمولود :

أما بعد ، فقد بلغني من متجدد نعم الله عز وجل عليك ، وإحسانه إليك فيما رزقك من الهبة ما أشتد حدى به ، وسألت الله أن يشفعه بأمثاله ؛ ولذلك أقول :

قد شُيع الواحد بالوافد * وأُرغِمَ الألف من الحاسد
أبا حُسين قرّ عيناً بما * أُعطيته من هبة المساجد

قد قلتُ لما بشروني به . بورك في المولود للوالدِ
بأنا لترحو واددا مثله * والطارُّ الميسمون للوادي

وله الى بعض إخوانه يهته بمولود :

أما بعد، فإنه ليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورا وفرحا، إلا كنتُ به سَحا، أعتد
فيه بالعمة من الله الذي أوجب عليّ من حقك وعرفني من جميل رأيك . فزادك الله
حيرا، وأدام إحسانه اليك . وقد طعن أن الله وهب لك علما سريّا، أكل لك صورته،
وأتم حلقه، وأحسن البلاء فيه عندك، فاشتد سروري بذلك، وأكثرت حمد الله عليه .
فبارك الله فيه، وحمله مارا نعيّا، يُشَدَّ عُصْدُكَ، وَيُكْثِرَ عَدَدَكَ، وَيُقَرِّعِكَ .

وكتب إسحاق بن يحيى الى بعض إخوانه يهته بآبنة له :

رُبُّ مَكْرُوهِ أَغْفَ مَسْرَهُ، وَمَحْبُوبٌ أَغْفَ مَعْرَتَهُ . وحائقُ المعنة والمصرة، أعلمُ
بمواضع انطيرة .

كتب ابن المقفع الى صديق له ولدت له جارية :

بارك الله لك في الأبهة المستعادة، وحملها لكم زيبا، وأجرى لكم بها حيرا، فلا
تكرمها، وإنهنّ الأتھات والأحوات، والمآت والخلاات، ومنهنّ الباقيات الصالحات،
وربّ علام ساء أهلّه بعد مسرتهم، وربّ حارية فرحت أهلها بعد مسامتهم .

وكتب عبد الحميد بن يحيى الى أخ له في مولود ولد له وهو أول

مولود كان :

أما بعد، فإن مما أتعرف من مواهب الله، نعمة خُصِصْتُ بِمَرْبِيٍّ ساء، وأصطِيتُ
بمحبّيتها، كانت أسرلى من هبة الله ولدا سميتُه فلانا، وأملتُ بقائه بعدى حياة وذكري،
وحُسّ حلاقي في حرمتي، وإشراكه إياي في دعائه، شافعا الى ربه عند حوائه في صلاته
وتحبه، وكلّ موطن من مواطن طاعته، فإذا طرأت الى شخصه تمزك به وجدى وظهر به

سرورى، وتعطفت عليه منه أنه الولد، وتولت عني به وحشة الوحده، فأنا به جَدِل
 فى مَعيى ومشهدى، أحاول مس جسده بيدى فى الظلم، وتارة أعاقه وأرشفه، ليس يعيله
 عدى عظيما العوائد، ولا منفسات الرغائب. سرتنى به واهسه لى على حين حاجتى،
 فشذ به أررى، وحملى من شكره فيه ما قد آذنى بنقل حمل العم السائفه الى به، المقرنة
 سَراؤها فى العجب بقدر ما يدركى به من رقة الشفقة عليه، محافة محاذية المايا إياه،
 ووجلا من عواطف الأيام عليه. فأسأل الله الذى أمتى عليا بنص صُمنه فى الأرحام،
 وتأديته بالزكاء، وحرسه بالعافية، أن يرزقا شكر ما حملنا فيه وفى غيره، وأن يجعل ما يهب لنا
 من سلامته والمُده فى عمره موصولا بالريادة، معروفا بالعافية، محوطا من المكروه، فإنه
 المثل الملوأه والواهب الملقى، لا شريك له. حملى على الكتاب اليك لعلم ما سررت به
 على محالك فيه وشرتك إياى فى كل عمه أسداها الى ولّى العم. وأهل الشكر أولى
 بالمزيد من الله حل ذكره. والسلام عليك.

. تهنئة بنقلة الى دار جديدة .

تامى الى قُلتك الى الدار التى أرجو أن يجعلها الله نُقلة المكروه عك، ونُقلة السرور
 اليك، ودوام عمه الله عليك. جعلها الله لك أين دار وأعظمها بركة، ووصل نعمه فينا
 عندك ونعمه عندما فيك .

تهنئة لمحمد بن مكرم الى نصرانى أسلم

أما أقول الحمد لله الذى وفقك لشكره، وعرفك هدايته، فظهر من الاكليات قلبك،
 ومن الاقتراء عليه لسانك. وما زالت محايك مُتملة لنا بجميل ما وهب الله لك، حتى كأنك لم
 تزل بالإسلام مؤسوما، وإن كنت على صيرة مقيا، وكنا مؤملين لى صِرت اليه، مشفقين
 لك مما كنت عليه، وادكاد إشفاقا يستل رحاءنا، أتت السعادة بما لم تزل الأنفس
 تعد منك. فأسأل الله الذى قورلك فى رأيك وأصاء لك سبيل رشدك، أن يوفقك
 لصالح العمل، وأن يؤتيك فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار .

باب المنظوم

١ - أبو نواس^(١)

كان أبو نواس ينادم ولده المهدي ويلازمهم فلم يَلَفْ مع أحد من الناس غيرهم ،
ثم نادى القاسم بن الرشيد ولقي منه أشياء كرهها وكُفِّت له ، ففارقته .

(١) هو أبو علي الحسن بن هاني ، الشاعر المصنف الحاذق المأخوذ ، صاحب البيت الطائر ، والشعر السائر ،
ورأس المحدثين عند نشار . وهو فارس الأصل . ولد بقرية من كورة حورستان سنة ١٤٤ هـ ونشأ فيها فقدمت به
أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فعمل العربية ورغب في الأدب ، فلم تلبث أمه بحاله وأسلبته إلى عطار بالبصرة ،
فكثرت عنده لا يترعى مائة الشعر والاختلاف إلى الأداء والحنان ، إلى أن صادف عبد العطار والدة من الحجاب
الشاعر المأخوذ الكوفي في إحدى فداياته إلى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأجرحه والدة معه إلى الكوفة ،
فبقى منه ومع فداياته من حلقاء الكوفة وتفرغ عليهم في الشعر وفاتهم حريما . وقدم بغداد وقد أوتت سسه على
الثلاثين ، فاقبل مصفى الأمراء ومدحهم ، وبلغ حبه الرشيد فأذن له في مدحه ، فحسه قصائد طاعة وحده مرة
على محبوه مصر .

وكان يقصد مصفى عمال الولايات ويمدحهم ومنهم الحبيب عامل مصر ، ثم أقبل على مدح محمد الأمين ،
وثبت عنده مصفى ما يوجب تفريره منحه ، ولم يلبث بعد تفريره من السجى أن مات بعدد .

وكان أبو نواس جميل الصورة ، فكذلك المصنف ، حاصر الدنيا ، متبيا في اللغة والشعر والأدب ،
متصفا بالباية على المصرية . وأجمع أكثر علماء الشعر وفنونه وبحول الشعراء على أن أبا نواس أتم المحدثين عند نشار
وأكثرهم تنمنا وأرضهم قولا وأبدعهم حيالا مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنه شاعر مطبوع رزق في كل من
صود الشعر .

وانتاز من كل الشعراء قصائده المخرجات ومقطعاته المهوريات ، وكان شعره فلاح الفصاد والقنود البنية ، لقله
العزل من أوصاف الخمر إلى المدح والمزج بذلك من مألوف العرب وآدابهم إذ لم يكن ذلك معروفا قبله وقبل
شيطانه وانه . وراد على ذلك امرأته بالإبداع في وصف الخمر ، فكان يمدح سوا من تأخر ، فاقص شعره الشان
في زمانه وصده وحاكوه وطلب منهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يسد طريقا إلا إذا مرع شعره بشئ من
ذلك وإن لم يقع في محمولاته .

ورصفه عبد الله الحارثي قال . كان أطرب الناس سطقا ، وأحمرهم أديا . وأندمهم على الكلام ، وأسرهم
جوانا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون ، جميل الوجه ، طبع العفة والاشارة ، ملتبس الأحكام بين الطويل
والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن البين والمصمك ، حلو الصورة ، لطيف الفك والأطراف ، وكان
صحيح البدن ، جيد البيان ، عذب الأنماط ، حلو الشاغل ، كثير التواذر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، =

ثم جلس أبو بواس الى الباشي الراوية فقرأ عليه شعر ذى الرمة، فأقبل الباشي على أبيه هاني وقال له : إن عاش أسك هذا وقال الشعر ليُقولهُ بلسانٍ شوم .

ثم اتصل نوالية بن الحباب الأسدي ، لقيه بدار الحاشي الأسدي والى الأهواز للصور، فقال له والدة : إني أرى فيك محاييل فلاح ، وأرى أنك لا تصيغها ، وستقول الشعر وتلوفيه ، فاصحني حتى أُنشرك ، فقال : ومن أنت ؟ قال : أبو أسامة ، قال : والدة ؟ قال : هم ، قال : أما والله حُملتِ فدأك في طلبك ، وقد أردتُ انخروج الى الكوفة والى بمداد من أحلك ، قال : ولماذا ؟ قال : شهوة لقائك ولأبيات سمعتها لك ، قال : وما هي ؟ فأنشده :

ولما ولا دنْبُ لها * حَبُّ كأطراف الزماج
جرحتُ فؤادي بالهوى فالقلبُ مجروح الواسي
سَلُّ الخليفة صارماً * هو للفساد وللصلاح
أحداه كُفُّ أُنَى الوليد يدا مُسارية الرياح
ألقى بحباب خِصره * أمسى من الأذل المتاج
وكأنما ذَرَّ الهبا * عليه أنفاسُ الرياح

فصلى معه ، ثم سأله أن يجرح الى البادية مع وفد بني أسد ليتعلم العربية والعريب ، فأخرجه مع قوم منهم ، فأقام بالبادية سنة ، ثم قدم ففارق والبة ورجع الى مداد .

وكان أبوواس متكلماً حديلاً راوية خلا ، رقيق الطبع ثابت الهمم في الكلام اللطيف .
ويدل على معرفته بالكلام أشياء من شعره ، منها قوله :

وذاتِ خد مُورِد * فصيلة المنجرد
تأقل العير منها * محاسناً ليس تنقد

== راوية للأشعار ، علامة بالأحجار ، كان كلامه شعر موزون . توفي سنة ١٩٩ هـ . ونجد ترجمته وأخباره وأشعاره في كتاب حاشي باسم « أحاديث فواس » لأن مطبوع مصر سنة ١٩٢٤ والأطاني (ح ١٨ ص ٢) و (ح ٦ ص ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٨٦) و (ح ١٦ ص ١٤٨) و ابن حلكات (ح ١ ص ١٣٥) و طغقات الادباء (ص ٩٦) والشعر والشعراء (ص ٥٠١) والمهرست (ص ١٦٠) والمقد الفريد (ح ٣ ص ٣٣٧) .

فمعضه قد تهاى * وبعضه يتولد
والحسن في كل شيء . منها مُعاد مرّدد
ومنها قوله :

يا عاقد القلب عني * هلا تدكرت حلاً
تركت عني قليلاً * من القليل أقلّ
يهكاد لا يقبّزى * أقلّ في اللفظ من لا
ومنها قوله في امرأة أسماها حُسن :

إن اسم حُسن لوجهها صفة * ولا أرى ذا في غيرها جُمعا
فهو إذا سُميت فقد وُصفت * يجمعُ الاسم معينَ معاً

ومن قوله فيما يتعلق بالحكمة :

قل لهُير إذا حداً رشداً * أقلّ أو أكثر فانت مهذارُ
صَحَّتْ من شدة البرودة حتى صرّت عدى كَأَنَّكَ البَارُ
لا يجِبُ السامعون من صفى * كذلك الثلج باردٌ حارُ

هذا شيء أحده أبو نواس من مذهب حكماء الهند، فاهم يقولون: إن الشيء إذا أفرط
في البرودة اقلب حاراً، وقالوا: إن الصُّنْدَل يحكّ منه اليسر فيبرد، فإذا أكثر منه سخى .

قالوا . كان أبو نواس دعياً يخلط في دعوته . من ذلك قوله يهجو عربَ البصرة :

ألا كل بصري يرى أمّا العُلا * مُكَيِّمَةٌ مُحَقِّقٌ لِمَنْ جَرِيُ^(١)
فان تفرّسوا نَحْلًا فان عِرَاسًا * صِرَابٌ وطمس في الحور تَحِينُ
فان أك بصرياً فإن مُهاجري * دِمَشْقُ وَلَكِنْ الْحَدِيثُ فَنُو
عاور قوم ليس يبنى وبينهم * أواصر إلا دعوةً وطنونُ
إذا مادما باسمي العريف أجبتُه * إلى دعوة مما على تَهُونُ

(١) المكينة : البراس الكثيرة . والحق . الطويلة . يرد الحل . والجري ها : موضع نصب التمر .

ثم هجا اليمن في هذه القصيدة قوله :

لأزدد عَمَّانَ مالمَهْلَ زَوْهٌ * إذا أَقْفَرَ الْأَقْصَامُ فَمَ تَلِينُ
وبكر ترى أن السَّوَهَ أَزَلْتُ * على مِسْمَعٍ فِي الرَّحْمِ وَهُوَ حِينُ
وقالت نَمِيمٌ لَا نَرَى أَنْ وَاحِدًا * كَأَحْمَا حَتَّى الْمَلِكِ يَكُونُ
وَأَكْتُ قَبِيصًا سَعْدَهَا فِي قُبَيْبَةٍ * وَحَرِيرُهُ إِنْ الْعَارِ فَتَوُتُ
وإنما شأنا أوفواس النصره وليس له بدمشق قل ولا معد .

ومما هجا به اليمن أيضا قوله لهاشم بن حُذَيْج :

وردنا على هاشم مصره * فارت تحارتنا عِدَه
يقول فيها .

رَأَيْتُكَ عَدَّ حَصُورَ الْخُلُوعِ * ن شديدا على العد والعبده
وَتَحَنَّنْتُ حَتَّى يَحَافَ الْجَلْدُ * س شداك عليه من الحته
وَتَحَنَّنْتُ ذَلِكَ فَحَرَّ عَلَيْهِ * يَكْنَدَةُ فَاسْلُغْ عَلَى كَنَدِهِ
وَأَنْ حُدَيْجًا لَهُ عَهْرُهُ * وَلَكِنَّا زَمَنَ الرَّدَى
وَمَا كَانَ إِيمَانُكَ بِالرَّسُولِ * مَسْوَى قَتْلِكَ صَهْرَهُ مَعَهُ
تُعَذِّدُونَهَا فِي مَسَاعِيكُمْ * كَعَذِّ الْأَهْلَةِ مَعَنَهُ
وَمَا كَانَ قَاتِلُهُ فِي الرِّجَالِ * بِجَلِّ لَطْهَرٍ وَلَا يَرْشِدِهِ
فَلَوْ شَهِدْتُهُ قَرِيضُ الْبَطَا * ح لَمَّا تَحَنَّنْتَ مَأْرَكَمَ جِلْدِهِ^(١)

وقوله أيضا :

مَا مَلَكَ سَامِي وَلَا أَطْلَلَهَا التَّرْسُ * وَلَا وَاطَقُ مِنْ طَبِيرٍ وَلَا تُرْسُ
يَا هَاشِمُ بَنَ حُدَيْجٍ لَوْ عَدَدْتَ أَبَا * مَثَلَ الْقَلَمْسِ لَمْ يَلَأَقِ بِكَ الدَّنَسُ
إِذَا صَبَحَ الْمَلِكُ الْعَاهُ وَافِدَهُ * وَمِنْ قُضَاعَةِ أَمْرِي عَدَهُ حُسُ

فابتاعهم بإخاء الدهر ما عَمَرُوا * فلم يَلْ مثَلها من مثَلهم أنس
 أو رحت مثل حوى في مكارمه * هيات منك حوى حين يَتَمَس
 أو كالسَمول اذ طاف المأم به * في جَحَل لَحِب الأصوات يَرْتَجِس
 فاختر نُكَلًّا ولم يَفِدِر بذمته * اذ قيل أَشِرْف تر الأوداج تَبْجِس
 ما زاد ذاك على تيه خُصِصَتْ به * وكيف يَمِيل غير السوء الفَرَس
 وقوله :

يا هاشمُ بَنِ حُدَيج ليس نَغْرُكُم * بقتل صهر رسول الله بالسَّيْدِ
 أدوجتم في إهاب العير جتته * فبئس ما قَدِمْتَ أَيْدِيكُم لَفِيدِ
 إن قَتَلُوا ابنَ أبى بكرٍ قَدْ قَتَلَتْ * مُحْجَرًا بِدَارَةِ مَلْعُورٍ بَنُو أَسَدِ
 وطردوكم الى الأَجال من أَجَا * طردَ النعام إذا ما تاه في البَلَدِ
 وقد أصاب شراحِلا أبو حَنيش * يومَ الكَلابِ فإِ دافعتمُ بِيَدِ
 ويوم قَلَمَ لَزِيدٍ وهو يَقتلُكم * قتل الكلاب لقد أُرِحتَ من وَلَدِ
 وكلَّ كَنْدِيَّةٍ قالت لِمَارِثِها * والدمعُ يَنهَلُ من مَتْنِ ومَفْرِيدِ
 أَلَمَى امرأُ الفيس تشبهُ بغانية * عن ثاره وصفاتُ النوءِ والوَدِ

وقد رثى أبو نواس خَلَفًا الأحرَ بعد موته بقصائر من شعره، منها قصيدته التي أولها
 قوله :

لو كان حىً وَاللَّهِ مِنَ التَّلَفِ * لو أَلَتْ شَقَوَاءُ في أَعْلَى شَعَفِ
 أُمُّ قُرَيْشٍ أَحْرَزَتْهُ في بَلَفِ^(٢) * مَرْغَبَ الأَلْفَادِ لَمْ يَأْكُلْ بِكَفِ
 كانه مستَعْفِدٌ مِنَ انْخِرَافِ * هاتيك أو عَفْفاءُ في أَعْلَى شَرَفِ
 تَرَوُغُ في الطَّباقِ وَالْتَرَجِ الأَلَفِ^(٣) * أَوْدَى جَماعُ العلمِ مُدَّ أَوْدَى خَلَفِ

(١) والاعلا : داحيا . وبألت : بلات . والشواء : العقاب . والشعف : دوس الإجلال .

(٢) الجف : العار في الجبل . ومزغب : صار ذا زغب، والزع صغار الریش . والألفاد جمع لند بالضم

وهو لغة في الحلق . (٣) الطباق والبرج : نوعان من الشجر .

من لا يعد العلم إلا ما عرف * قلبي من العاليم الخسف
كأني نساء مهنترف * رواية لا تحنى من الصنف
ومنها قوله بره :

لَا تَيْلُ الْعُغْمُ فِي الْمُهَيَّابِ وَلَا * شَقَوَاءُ تَقْدُورُ فَرْحَيْنِ فِي بَلْعِيفٍ
 يُكْنِهَا الْجَوْفُ فِي النَّهَارِ وَيُوْ * وَهِيَ مَسَاوِدُ الدُّجَى إِلَى شَرْفٍ
 تَحْصُو يُجُوْثُوشِهَا عَلَى صِرِمٍ * كَقِفْلَةِ الْمُحَنِيِّ مِنَ الْخَرْفِ
 وَلَا شَبُوبٌ بَاتَتْ تَوَزَّعَ الشُّرْثَةُ مِنْهَا بِوَالٍ قِصْفِ
 دَانٍ عَلَى الْأَرْضِ وَالْوَصِيدِ وَفِي * بَهْوِ أَمِينِ الْإِبَادِ ذِي هَدَفِ
 دِيدْنُهُ ذَاكَ طَوَّلَ لَيْلَتِهِ * حَتَّى إِذَا أَنْجَابَ حَاجِبُ السَّدَفِ
 غَدَا كَوَقْفِ الْمَلُوكِ يَنْهَفُ السَّقِطُ قَطْ * مِنْ مَتْنِيهِ وَالْعَكْفِ
 كَأَنَّ شَدْرًا وَهَتْ مَعَاقِدُهُ * بَيْنَ صَلَاةٍ وَلَمَبِ الشَّغَفِ
 وَأَخْدَرَى حُلْبِهِ النَّوَاهِقُ صَلَ * أَمِينِ الْفُصُوصِ وَالْوُظْفِ
 مَضْرَدٌ فِي الْقَلَاةِ تُوسِمُهُ * رِيًّا وَمَا يَخْتَلِيهِ مِنْ طَلَفِ
 مَا تَرَكَ الْمَوْتَ مِنْ أَوَّلَى شَبَعًا * مَادَتْ بِتِلْكَ الْفِلَالِ وَالشَّغَفِ
 لَمَّا رَأَيْتُ الْمَنُوتَ آخِذَةً * كُلَّ شَدِيدٍ وَكُلَّ ذِي ضَمَفِ
 بَتْ أَعْرَضَى الْمَسَاوِدَ عَنْ خَلِيفِ * وَبَاتَ دَمْعِي إِلَّا يَفِضُ يَكِيفِ
 أُنْسِي الرِّزَايَا مَيِّتٌ لَحُفْتُ بِهِ * أَمْسَى رَهْنُ التُّرَابِ فِي جَدَفِ

(١) التقليد : البئر العريضة . والعياليم : حصح عيلم وهو البئر الكثيرة الماء . والحصف جمع حصف يفة وهي التراتل حفرت في حجارة فصح منها ماء عزيز لا يقطع . (٢) الخوشوش : الصدر . والصرم : فرج اللطاف . (٣) الثيوب : الشام من الثيران والنعم . والثرة : مولة من مازل القمر . (٤) الوصيد : بيت كالحطبة يتخذ من الحجارة لئلا أى النعم وغيرها في الجبال . والإباد : التراب يحصل حول المحوص أو الحلباء بقوى ه أو يمنع ماء المطر . والمهدف : كل مرصع من ماء أو كتيب رمل أو حبل . (٥) يهت : يتساقط ويخفض . والمطقط : المطر الصغير أو المتناقع العظيم القطر ويذكر هو دون الزداد وقيل البرد أو صغاره .

كَانَ يُسَيِّ بِرَفَقَةٍ عُلُقًا * فِي غَيْرِ عِيٍّ مَعَهُ وَلَا عُنْفٍ
يُحِبُّ مَعَكَ الَّتِي غَشِيَتْهَا * مِنْ قَلْبٍ حَتَّى يَشْفِكَ فِي لَهْفٍ
لَا يَهْمُ الْحَاةَ فِي الْقِرَاءَةِ نَالًا * وَلَا لَامَهَا مَعَ الْأَلْفِ
وَلَا يَهْمُ مَعَى الْكَلَامِ وَلَا * يَكُونُ إِنْشَادُهُ عَنِ الصُّحُفِ
وَكَانَ مِنْ مَعَى لَا حَلْفًا * فَلَيْسَ مِنْهُ إِذْ بَانَ مِنْ حَلْفٍ

واختلف أبو نواس الى أبن زييد فكتب العريب من الألفاظ، ثم نظّر في نحو سيوييه،
ثم طلب الحديث فكتب عن عبد الواحد بن زياد ويحيى القطان وأزهر السمان وغيرهم،
لم يختلف عن أحد منهم، وأدرك الناس معلّم، ثم قديم فنادى بعد ذلك .

وكان أيضا يتبرّر ويدعى للفرزدق . ثم وقع بينه وبين الحكم بن قنبر المازني، فهجاه
الحكم وذكر ربه العود ونفى عليه ونكّه . ولما قال أبو نواس قصيدته التي يهجو بها
خفيف، وهي :

أَلَمْ تَرَعْ عَلَى الطَّلَلِ الطَّاسَ * عَصَاهُ كُلُّ أَحْمَدٍ دَى ارْتِمَاسِ^(٢)
وَذَايِرِ التُّرْبِ مُرْتِكِمٌ حَصَاهُ * نَسِجَ الْمِثْبِ مِصْقَةِ الدَّهَاسِ^(٣)
سَوَى سُنْعِ أَطَارِثِ اللَّيَالِ * سَوَادَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ أَفْهَاسِ^(٤)
وَأَوْرَقَ حَالِفِ الْمُنَوَاةِ هَابِ * كَصَاوِيِ الْعِرَاحِ مِنَ الْفَلَّاسِ^(٥)
مَنَارُلُ مِنْ عُفْيَةِ أَوْسُلَيْمِ * أَوِ الدَّهْمَاءِ أَخْتِ بَنِي الْجِمَاسِ
كَأَنَّ مَعَاقِدَ الْأَوْصَاحِ مِنْهَا * يَجِيدُ أَغْنَى قَوْمِ فِي الْكِتَاسِ
وَتَبَيَّنَ مِنْ أَغْمَرَةٍ كَأَنَّ فِيهِ * مُجَاحَ سُلَافَةٍ مِنْ بَيْتِ رَاسِ^(٦)
فَنَ ذَا مَبْلَغٍ عَمْرًا رَسُولًا * فَهَذَا ذِكْرَتَ وَدُكَّ غَيْرَ مَاسِ

(١) ساء تسمية : سهل وحنه . (٢) طاس بالكسر : دارس . والأهم : السحاب . والارتماس .

الرد . (٣) الخفة : حل في الزيل .

(٤) الابهاس : يماض فيه كدرة . والمع : يربدها الأذى . (٥) الفلاس : الصمور وهاب :

لونه لون الهباء . (٦) بقية بالناسم تحسب اليها الخمر .

فلم أَهْزَكْ هَجْرِيَّ وَلَكِنْ • وَائِبٌ لَا نَزْلَ لَهَا مُقَاسِي
 وَائِبٌ تَجِيزُ الْأَدَاءِ عَنْهَا • وَيَتَا دُونَهَا اللَّيْنُ النَّطَاسِي
 وَقَدْ نَالَتْ مِنْ أَحْسَابِ قَوْمٍ • هُمْ وَرَعُوا مَكَارِمَ ذِي نُؤَاسٍ
 فَإِنَّكَ أَوْقَدْتَ لِلْحَرْبِ نَارَ • مَا غَطَّيْتُ خَوْفَ الْحَرْبِ رَامِي
 سَائِلِي حَبِيرَ مَا أَيْلَى عُمَامٍ • إِذَا مَا التَّسْلُ الْجَلَمَ بِالْقِيَاسِ^(١)
 وَتَمَتُّ الْوِائِلِينَ بِغَايِرَاتٍ • بَيْنَ وَتَمَتُّ رَهْطَ أَبِي قِرَاسٍ
 وَقَالَتْ كَاهِلٌ وَبَنُو قُمَيْرٍ • حَنَانُكَ إِنَّمَا لَنَا بِسَاسٍ
 مَا بَالُ النَّعَاحِ تَفَّتْ بِشَتَائِي • وَفِي زَمَعَاتِهِنَّ دُمُ الْفِرَاسِ
 وَمَا حَامَتْ مِنْ الْأَحْسَابِ إِلَّا • لَسْتُ رَفَعُ دَكْرَهَا بِأَيِّ نَوَاسٍ

عارضه الحكم وهما ، فاقبل على التزارية وأدعى أنه من حاه وحكم ، فزجره يزيد بن
 منصور الحميري حال المهدي وقال له : أنت حوزي ، فمالك ولحا وحكم ! فقال له : أنا مولى
 لهم ، فتركوه ، وقال مصعب لبعض : إبه لظريف اللسان عزيز العلوم فدعوه ، وهذا الولاء
 يتعصب لنا ويكابد عنا ويهجو التزارية ، فكان كما قالوا وكما طلوا ، فاقبل الى اليمن وصل
 عن كعبته بأبي فراس واكتفى بأبي نواس ، تشبها بكنية ذي نواس كما كانت اليمن تكتفى ،
 وندم على هجاء اليمن ، وودعهم له أصر ولدعوته أقل ، فاعتذر الى هاشم بن حديج الكندي
 من ههاته ، ومدح اليمن فقال :

أهاشمُ خَدَمَنِي رِصَاكَ وَإِنْ أَتَى • رِصَاكَ عَلَى هَمِيٍّ صَبِيرٍ مُلُومٍ
 فَأَقْسَمُ مَا جَاوَزْتُ بِالشَّمِّ وَالِدِي • وَعِرْصِي وَمَا مَزَقْتُ غَيْرَ أَدِيمِي
 فَسَدْتُ بِمَقْوِي هَاشِمٍ مَا عَازَنِي • كَرِيمٌ أَرَاهُ فَوْقَ كُلِّ كَرَمٍ
 وَإِنْ أَمْرًا أَغْصَى عَلَى مِثْلِ زَلَّتِي • وَإِنْ جَرَحْتُ بِهِ لِحْدُ حَلِيمٍ
 تَطَاوَلَ فَوْقَ النَّاسِ حَتَّى كَانَمَا • يَرَوْنِ بِهِ نَحْمًا إِمَامَ مُحُومٍ

إذا تمازت الأحساب يوما أهلها ، أناخ إلى عادية وسميم
 إلى كل معصوب به التآخ مقول * إليه أيادى عامر وسميم
 وكان قبل أن يتخلى لليمن ويدعى لئلا يتعاجم في شعره، فمن ذلك قوله :
 فاسقنيها وغر صو * تاء لك الخير، أعمها
 ليس في مت يسية * لا ولا زجر أشاما

وكان الجاحظ يقول : ما أعرف لأبي نواس شعرا يفضل هذه القصيدة وهي :
 ودار ندأ عطلوها وأدبلوا * بها أثر منهم جديد ودارس
 مساحب من جر الزقاق على الترى * وأصغاث ريمان جنى ويا بس
 حبست بها صحبي فحدثت عهدهم * وإلى على أمثال تلك الحابس
 ولم أدر منهم غير ما شهدت به * بشرق سابط الديار السابس
 ألقا بها يوما ويوما وثالثا * ويوماله يوم الترحل خامس
 تدار علينا الراح في عسجدية * حبثا بأنواع التصاوير فارس
 قرأتهما كسرى وفي جبابها * مها تريا بالقصى الفوارس
 فالحمر ما زرت عليه جوبها * ولواء ما دارت عليه القلائس

وقوله يصف كرمه وعمرها بالمعجمة وهو يريد الذئبان :

لنا جمعة لا يدرك الذئب تغلها * ولا راعها تزو الفعالة والخطر
 إذا امتنحت ألوانها مأل صعوها * إلى الكنت إلا أن أوبارها خضر
 وإن قام فيها الخالوب آتتهم * بجلاء تقب الجوف دزتها الخمر
 مسارحها الغربى من نهر صرصر * فطربل فالصالحية فالعقر

(١) معنى أن الحمر مصوب فيما إلى حلق الصور صرما . وقوله : ولواء، هي انهم صرما الماء في مزجها حتى

تُرَاثُ أَبِي سَاسَانَ كَسَرِيٍّ وَلَمْ تَكُنْ * مَوَارِيثَ مَا أَبَقْتَ تَمِيمٌ وَلَا بَكْرٌ
قَصَّرَتْ بِهَا لَيْسِي وَلَيْلَ ابْنِ حُرَّة * لَهُ حَسْبُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ وَفَرُ

وَفِي تَعَايُجِ أَبِي وَاسٍ فِي شِعْرِه يَقُولُ الرِّقَاشِيُّ يَهْجُوهُ :

نَبَطِيَّ فَإِذَا قَهْلٌ لَهُ * أَنْتَ مَوْلَى حَكِيمٍ قَالَ أَجَلُ
هُوَ مَوْلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ بِهِ * لَاحِقًا فَاللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ
وَاضِعًا نَسَبَهُ حَيْثُ اشْتَهَى * فَإِذَا مَا رَأَاهُ رَيْبٌ رَحَلُ

فَقَالَ أَبُو نَوَاسٍ يَهْجُوهُ :

هَجَوْتُ الْفَضْلَ دَهْرِيٍّ وَهُوَ عَدِي * رَقَاشِيَّ كَمَا زَعَمَ الْمَسْوُولُ
فَلَمَّا سُئِلْتُ عَنْهُ رَقَاشٌ * لَتَعْلَمَ مَا هَاجُولُ وَمَا يَقُولُ
وَلَمَّا أَنْ نَصَبْنَا إِلَيْهَا * لَتَعْلَمَ مَا يُقَالُ وَمَا يَقُولُ
وَجَدْنَا الْفَضْلَ أَحَدَ مَنْ رَقَاش * مِنَ الْأَثْنِ أَذْعَتْ فِيهَا الْقُبُولُ
وَحَدَّثَنَا الْفَضْلُ أَحْكَمَ مَنْ رَقَاش * لِأَنَّ الْفَضْلَ مَوْلَاةَ الرَّسُولِ
يُرِيدُ بِذَلِكَ قَوْلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَنَا مَوْلَى مَنْ لَا مَوْلَى لَهُ» .

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

قُلْ لِلزَّقَانِي إِذَا جَتَّه * لَوْ مِتُّ يَا أَحْمَقُ لَمْ أَهْجَا
لَأَتْنِي أَكْرَمُ عَرْضِي وَلَا * أَقْرَبُهُ يَوْمًا إِلَى عِرْضِكَ
إِنْ تَهَجَّنِي تَهْجُ قَتِي مَا جَدَا * لَا يَرْفَعُ الطُّرْفُ إِلَى مِثْلِكَ
دُونَكَ عِرْضِي فَاجْهَرْ رَاشِدًا * لَا تَدْنُسُ الْأَعْرَاضُ مِنْ هَجْوِكَ
وَاللَّهُ لَوْ كُنْتُ جَرِيرًا لَمَّا * كُنْتُ بِأَهْيَ لَكَ مِنْ أَصْلِكَ

وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُوهُ :

يَا عَرَبِيَّاءَ مِنْ صِنْعَةِ السُّوقِ * وَصِنْعَةِ السُّوقِ ذَاتُ تَشْيِيقِ
مَا رَأَيْتُكُمْ يَنْزَارُ فِي رَجُلٍ * يَدْخُلُ فِيكُمْ مِنْ خَلْقِ خَلْقِ

ويحمل الوُطَى والعِلَاتَ ولا . يصلح إلّا لحمل إبريق
لقد صربا بالطلل أنك في التسقوم صبحٌ وصبحٌ في السوق
قد أحد الله من رَقَاشٍ على . رصهمُ المجد بالمواثيق
فالناس يسقون للعلا قُدُماً * وهم وراء مكسرو السُّوق
هذا كذاكم وفي الميلاج اذا . جيج هاشنت من وآشيق^(١)

وقال أيضا يهجو

أصبح الفصل طاهرَ آتية . وذلك مد صرث أهاجيه
له شعري، أي مفاواه . لكل من دون قوافيه
كم بين فصل مد حاجته * وبك قبل أهاجيه
فالحمد لله وإن كنت لم . أحمل بقوم تصحوا به
رَضِيتُ أن يشتني ساقطُ * شسعي خير من مواليه

وكان أبو نواس في دعاويه يتماحى ويعت ويحى نسه واسم أمه لثلاثين، وذلك مشهور عنه . ولو عصب هو نسه على أبيه طعاه ولم يتختم . والمذكور من أمره أنه كان مولى الحكيمين ، يتخرأين ويمدحهم لذلك ، ومدح العجم ويدكرهم لأنه منهم ، فلذلك قال في العجم ما قال .

قال أبو الفرج الأصبهاني : كان أبو عبيدة يقول : ذهبت الهم بجدة الشعر وهزله : امرؤ القيس بجده ، وأبو نواس هزله . وكان يقول : ذهبت الهم بجسد الشعر في قديمه وحديثه : امرؤ القيس في الأوائل ، وأبو نواس في المحدثين . وكان يقول . شعراء الهم ثلاثة : امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس . وقال أيضا : أبو نواس في المحدثين مثل امرئ القيس في المتقدمين ، فتح لهم هذه العطن ودلهم على المعاني وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف في موته . وكان يقول : يسحني من شعراى نواس قوله :

(١) جمع ماشق وهو اسم طائر، أعشى مزرب .

بَنِيَا عَل كَسْرَى مِمَّا مُدَامَةٌ * مَكَلَّةٌ حَافَتْهَا بَنَجُومٌ
فَلَوْرُدَى كَسْرَى نَ سَاسَانَ رَوْحَهُ * إِذَا لِأَصْطَفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء، فقال: إذا أردت من الجاهليين فلا مرئ القيس والأعشى، ومن الإسلاميين طعير والهرردق، ومن المحدثين فلا أبي نواس لحسب. وقيل: للعنبي من أشعر الناس. قال: عند الناس أم عدى. قيل: عد الناس. قال: امرؤ القيس. قيل: فعدك. قال: أبو نواس.

وقال عبد الله بن محمد بن عائشة: من طلب الأدب فلم ير شوعر أبي نواس فليس بتمام الأدب. وسئل: من أشعر المحدثين. فقال: الذي يقول.

كَأَنَّ ثِيَابَهُ أَطْلَعَتْ * مِنْ أَرْزَارِهِ قَمَرًا
يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حَسًّا : إِذَا مَا رَدَّتْهُ بَطْرًا
مِنْ حَالِطِ التَّمَتُّبِ * رُءُوسُ أَحْقَانِهَا الْحَوَارِ
وَوَجْهُهُ سَابِرٌ لَوْ : تَصَوَّبَ مَآؤُهُ قَطْرًا
وَقَدْ خَطَّتْ حَوَاضَتُهُ * لَهُ مِنْ عَيْرٍ طُرَرًا

وقال إبراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبي نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه.

وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سَفَلْتُ مِنْ طَبَقَةِ مَنْ تَقْدِمُ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَطَلُوتُ عَنْ طَبَقَةِ مَنْ مَعِيَ وَمَنْ يَحْيَى عَدَى، فَا نَسِيحُ وَحَدَى.

وحديث جماعة من الرواة عن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما في أبي نواس قول الشعر، وكان غلا راوية عالم.

وقال أبو عبيدة: بلغني أن أبا نواس يتعاطى قَرَصَ الشعر فلقاني وهو سكران ماطر شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عبك. فقال: جميل الظل، جامد السيم، فقلت: زد. فقال: مظلم الهواء، من القماء، فقلت: زد، فقال: غليظ الطبع، بارد الشكل،

قلت : زد ، فقال : وَخَمِ الطَّلْعَةُ بِحَسْرِ الطَّلْعَةِ ؛ قلت : زد ؛ قال : نَأَى الْجَنَابَاتِ ، بارد الحركات ؛ قال : نَفَقْتُ عَهْدَ ؛ فقال : زدنى سؤالاً ؛ أزدك جواباً ؛ قلت : « كفى من الفلادة ما أحاط بالعق » .

وقال سليمان بن أبي سَهْلٍ لأبي نواس : ما الذى استُجِيدُ من أجناس شعرك ؟ فقال : أشعارى وى انحر لم يُقَلْ مثلاً ، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس ، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم عزلى ما قلته فى الطرد .

وكان يقول : ما قلت الشعر حتى رَوَيْتُ لستين امرأة من العرب منهن الخنساء ولىلى ، فما طلك بالرجال ؟ وانى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تُعرف .

وكان قد استأذن خَلْفًا فى نظم الشعر ، فقال : لا آذَنُ لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة ؛ فغاب عنه مدة وحصر اليه فقال له : قد حفظتها ، فقال : أنشدنا ، فأنشده أكثرها فى عدة أيام ، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر ، فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنمى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له : هذا أمر يصعب على منى قد أنتمت حفظها ، فقال له : لا آذَنُ لك إلا أن تنساها ، فذهب الى بعض الديرة وحلأ بعسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الان فاعظم الشعر .

وكان أبو نواس يقول : لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان موق ، وعلى حال أرتضيها من صلاة أو وصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذا الحال أشعاراً لا أرضاها . وكان يعمل القصيدة ثم يتركها أياماً ، ثم يمرضها على نفسه فيسقط كثيراً منها ويترك صافيتها ، ولا يسره كل ما يقذف به خاطره . وكان يهجم الشعر فى انحر فلا يعمل إلا فى وقت نشاطه . ولم يكن فى الشعر البلى ولا بالسرير بل كان فى منزلة وسطي .

وكان الأحمى يقول : يعجبني من شعر الشاعر بيتٌ واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفَةٌ كَرَّ الطرفَ تحسَّب أنها • قريضةٌ عهد بالإفاقة من سُقَمِ

وإني لآتي الأمرَ من حيث يُتَّقَى • ويعلمَ سَهْمِي حينَ أنزعَ من أَرْمِي

قال العتّابي لرجلين تناظرا في شعر أبي نواس : والله لو أدرك الخبيثُ الجاهليةَ ما نُفِضَ عليه أحد .

وقال أبو عمرو الثّيباني : أشعرُ الناس في وصفِ الجمر ثلاثة : الأعشى والأخطل وأبو نُوَاس .

قال محمد بن عمر : لم يكن شاعرٌ في عصر أبي نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ، ويُبْذِرُ صَوْتَهُ وَظَرْفَ لِسَانِهِ .

وقال أبو حاتم : سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردتُ أن أجدَّ ، قلتُ مثل قصيدى « أيها المتأطبُّ عن عُمره » ، وإذا أردتُ العبثَ قلتُ مثل قصيدى : « طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكلُّه جيدٌ فإذا وصفت الجمر .

وقال أبو ذؤناب : كنا عند التوزي فذكرتُ عنده أبا نواس ، فوضع منه بعضُ الحاضرين ، فقال له التوزي : أقول هذا لرجل يقول :

يخافُه الناسُ ويرجونه • كأنه الجنة والنارُ

ويقول :

فما جازه جودٌ ولا حلٌّ دونه • ولكن يصير الجودُ حيث يصيرُ

ويقول :

فتمشَّت في مقاصلهم • كتمشَّى البرء في السقمِ

قال ابن الأهرابى يوما جلسائه : ما أشعرُ ما قال أبو نواس في الجمر؟ فقال بعضهم :

إذا عَبَّ فيها شاربُ القومِ خلته • يُقبَلُ في داجٍ من الليل كوكبا

وقال آخر :

كَأَنَّ كُفْرِي وَصُغْرِي مِنْ مَقَامِهَا * حَصْبَاءُ دُوَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ النَّهْبِ

وقال آخر :

تَرَى حَيْثُ مَا كَانَتْ مِنَ الْبَيْتِ مَشْرِقًا * وَمَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ مِنَ الْبَيْتِ مَعْرَا

وقال آخر :

فَكَانَ الْكَوْثُوسُ فَيَا نَجُومُ * دَائِرَاتُ بَرُوجِهَا أَيْدِيَا

وقال آخر :

صَعْرَاءُ لَا تَنْزُلُ الْإِحْرَاءُ سَاحَتَهَا . لَوْ مَسَّهَا سَحَرُ مَسْتَهْ سَرَاءُ

فقال ابن الأعرابي إن هذا كله لشاعر أفرد بالإحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخره ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لَا يَنْزِلُ اللَّيْلُ حَيْثُ حَلَّتْ * فَدَهْرُ شُرَاهَا نَهَارُ

قال مسلم بن بهرام لَقِيتُ أُمَّ الْمَتَاهِيَةِ قُلْتُ لَهُ : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ * قال : نريد حاهلياً أو إسلامياً أو مولداً * قال : كُلُّهُ أريد ، قال : الذي يقول في المديح .

أَدَا نَحْنُ أَشَيْنَا عَلَيْكَ صَالِحُ * فَأَنْتَ كَمَا نُنْفِي وَفَوْقَ الَّذِي نُنْفِي

وَأِنْ جَرَّبْتَ الْأَلْفَاظَ يَوْمًا بِمَدْحِهِ * لَمَعِيرِكَ إِنْ سَأَلْنَا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْبِي

والذي يقول في الرهد

أَلَا رَتَّ وَحْدِهِ فِي التُّرَابِ عَيْبِي * وَبَارَتْ خُسْفَى فِي التُّرَابِ رَقِيبِي

وَبَارَتْ حَرِيمَ فِي التُّرَابِ وَتَجَمَّدِي . وَبَارَتْ رَأْيِي فِي التُّرَابِ وَثِيْبِي

فَقُلْ لِمَرْيَبِ الدَّارِ إِنَّكَ رَاحِلٌ . إِلَى مَنْزِلِ مَا فِي الْمَحَلِّ تَحْبِيْبِي

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَأَبْنُ هَالِكٍ * وَدُونُ نَسَبٍ فِي الْمَالِكِينَ عَرِيبِي

أَذَا امْتَحَنَ الدُّنْيَا لَيْبٌ تَكْشِفُ * لَهُ عَى عَدُوٌّ فِي ثِيَابِ صَدِيقِي

وكان يقول : سبقتني أو نواس الى ثلاثة آيات وِدِدْتُ أنى سبقته اليها بكل ما قلته
لأنه أشعر الناس فيها، منها قوله :

يا كبير الذنب عمو الآ * من ذنك أكر

وقوله :

من لم يكر لله متبها * لم يُنيس محنا الى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبث تكشفت * له عن علو في ثياب صديقي

ثم قال . قلت في الرهد ستة عشر ألف بيت وِدِدْتُ أن أما نواس له ثلثها بهذه الأبيات .

وقال الجاحظ : سمعت النطّام يقول ، وقد أنشد شعراً لأبي نواس . كأن هذا الفقي
جميع له الكلام فاحترار أحسنه . وقال معصم : كأن المعاني حُسِبَتْ عليه ، فأحد حاجته
وخرق الباقي على الساس . وقال أبو حاتم : كانت المعاني مدفونة حتى أثارها أبو نواس .

حدث الحسين بن الحبيب الكاتب ، قال : قال أحمد بن يوسف الكاتب : كتبت
أما وعد الله بن طاهر عند المأمون ، وهو مستلق على قفاه ، فقال لعبد الله بن طاهر .
يا أما العباس ، من أشعر من قال الشعر في خلافة بني هاشم ؟ فقال . أمير المؤمنين أعرف
بهذا وأعل عيناً ، فقال له المأمون : على ذلك قفّل ، تكلم أنت يا أحمد بن يوسف ،
فقال عبد الله بن طاهر . أشعرهم الذي يقول :

ويا قبري معي كنت أول حفرة * من الأرض خُطت للسماعة منزلاً

قال أحمد بن يوسف الكاتب : قلت : بل أشعرهم الذي يقول :

أشبهت أعدائي فصرّت أحبهم * إذ كان حظي منك حظي منهم

فقال المأمون : يا أحمد أبيت إلا غزلاً ! أين أتم عن الذي يقول :

يا شقيق النفس من حكمي * نمت عن ليلى ولم أتم

قلنا : صدقت يا أمير المؤمنين .

وكان المأمون يقول : لو سُئِلَت الدنيا عن نفسها فنطقت ، لما وصفت نفسها
كما وصفها أبو نواس في قوله :

إذا امتحن الدنيا لَيْبٌ تَكْشَفُ * له عن عدوِّ في ثياب صديق
وَرَدَ على المتأبى بِحَلَبِ عِدَّةٌ من الِيجار من أهل قَنْسرين ؛ فدخلوا وسأموا ؛ وكان في يده
رُقْعَةٌ ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سَلَكَ صاحبُ هذه الرُقْعَةِ وادياً ما سَلَكَ أحدٌ قبله ؛
فظفروا فإذا هو شعر أبي نواس في جِمان جارية آل عبد الوهَّاب الثقفي ، وهو قوله :
رَجَّعَ الكَرَى بين الجفون عَيْلُ * عَنَى عليه بُكْيٌ عليك طویلُ
يا ناطراً ما أَقْلَعْتَ لحظائهُ * حتى تَشْهَطَ بينهن قَبِيلُ
أَحْلَلْتُ قَلْبِي من هَوَاكَ حِلَّةً * ما حَلَّها المشروبُ والمأكولُ
بِكالِ صورتك التي من دونِها * يَخْفِرُ التشبیهُ والتمثیلُ
فوقَ القصيرةِ والقصيرةِ فوقها * دون السِّمينِ ودونِها المهزولُ
وبما أَنشدَه المتأبى لأبي نواس فقال أحسن وأجاد :

متأبیهُ بِجِمالِهِ صَافٍ * لا یَسْتَطاعُ كَلامُهُ تَبَیْها
لِلْحَسَنِ في وَجْائِهِ بَدْعُ * ما إنْ یَمْلُ الدرسَ قارِیها
لو كانتِ الْأَشْیاءُ تُعْقِلُهُ * أَجَلَّلْنَاهُ إِجْلالاً باریها
لو تَسْتَطیعُ الْأَرْضُ لا تُقْبِضَتْ * حتى یَصیرَ جَمیعُهُ فیها
وقوله :

إن السحابَ لتَسْجِي إذا ظَهِرَتْ * الى نَدَاكَ فَناسَتْهُ بما فیها
حتى تَهْمَ بِإِفْلاجِ فِیمَنْعُها * خوْفٌ من السُّخْطِ من إِجْلالِ مَنْشِیها

قال محمد بن صالح بن تيمس الكلّابي : لما دخلتُ العراقُ صرْتُ الى مدينة السلام
فسألتُ عَمَنَ بها من الشعراءِ الحَسِنينَ ، وذلك في أيامِ خلافةِ الأمينِ أو عند موته قبل
دخول المأمون بيسير ، فقيل لي : قد ظَلَبَ عليهم قَتْلُ من أهل البصرة يقال له الحسن

ابن هاني ويصرف بأبي نواس ، وقد كنت سمعتُ شيئا من شعره ، فأتاني متى كان من أهل
الأدب ، فقلت له : هل تروى لأبي نواسكم هذا شيئا ؟ قال : أروى له أبياتا في الزهد
وليس هو من طريقته ، فقلت أنشدنيها ، فأنشدني :

أني ما بآل قلبك ليس يَتَقَى * كأنك لا تظُنُّ الموتَ حَقًّا
ألا يا بنَ الذين قُتِلُوا ومادوا * أما واقع ما ذهبوا لتَتَقَى
وما للنفس عندك من مُقام * إذا ما استمكلتَ أَجَلًا ورزقا
وما أحدٌ بذاك منك أَحَقُّ * ولا أحدٌ بنبك منك أَشَقُّ
ولا لك غيرَ قسوى الله زاد * إذا جعلتَ إلى اللّهوات تَرَقُّ

فقلت له : أحسن والله ! قال : أفلا أنشدك أحسن من هذا ؟ قلت بلى ، فأنشدني
في رثاء محمد الأمين :

طوى الموتُ ما بيني وبين محمد * وليس لما تطوى الميةَ ماشرُ
فلا وصلَ إلا عِبرَةٌ تستندِيها * أحاديثُ فيس ما لها الدهرُ ذا كُرُ
لئن عَمَرْتُ دورَ بمن لا أودّه * لقد عَمَرْتُ من أحبِّ المقابرُ
وكتُّ عليه أحزُّ الموتِ وحده * ولم يَتَقَ لى شئٌ عليه أحاذِرُ

فقال : بحق ما ظب هذا على أهل الأدب وقدموه على غيره .

قال محمد بن جعفر الأصم : كنا عند أبي مُعَم ، فتذاكرنا قول عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها حين ذكرتُ شعرا ليدي يري أخاه أربد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ * وَبَقِيَ فِي حَلِيفٍ بِحُلْدِ الْأَجْرَبِ

ولقد أنشدني أبو نعيم أبياتا ، قلنا : أنشدناها ، فقال :

ذَهَبَ النَّاسُ فَاسْتَقَلُّوا وَصَبَرْنَا * حَلَفْنَا فِي أَرَاذِلِ النَّسَائِسِ
فِي أَنْاسٍ نَعُدُّهُمْ مِنْ عَدِيدٍ * فَأَذَا قُشُّوا فَلَيْسُوا بِنَاسِ

كلما جئتُ أتنى الفصل منهم * بَدْرُونِي قَبْلَ السَّوَايَ بِيَّاس
وَبَعَكُوا لِي حَنِي تَمَيَّنْتُ أَتَى * مُعَلَّتْ عَدَاكَ رَأْسًا بِرَاسِ

ثم قال : أتدرون لمن الشعر ؟ قلنا : لا ، قال : للحسن بن هاني .

قال أبو عبد الرحمن الصِّيرِي : رأيتُ مسلم بن الوليد يُجرحان وهو يتولاها ، فسألني عن حَلَفَتِ مِنَ الشَّعْرَاءِ . فقلتُ له : أما من الكوفيين فأبو بواس ، وهو مُقَدَّمُ عِنْدَهُمْ ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رُوَيْدَكَ يَا إِنْسَانُ لَا أَتَ تَقَعُرُ أَرَأَيْتَ قَوْلُهُ : « تَقَعُرُ » نَرَحْتُ مِنْ بَيْنِ فَكُنِّي شَاعِرٍ قَطُّ ! ثم قال ويحك ! وكيف يكون كذلك وهو يُجِيلُ وَيُخْطِئُ مِنْ صَعَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَى صَفَةِ الْخَالِقِ ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال فكقولهُ : وَأَخَذَتْ أَهْلَ الشَّرِكِ حَتَّى إِنَّهُ * لَتَحَاكُّكَ الطُّفَّ الْتِي لَمْ تُخْلَقِ
وهذا من الإعراق المستحيل في العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما في تَخْطِئِهِ صَفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَى صَعَةِ الْخَالِقِ فكقولهُ .

يَحِلُّ أَنْ تَلْحَقَ الصِّفَاتُ بِهِ * فَكَلَّ خُلُقِي خُلُقَهُ مِثْلُ
وكقولهُ :

* بَرِيءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ لَهُ مِثْلُ

ومما قيل عن أبي بواس إن الشعر إنما هو بين المدح والمجاء وأبو بواس لا يُجَسِّمُهُمَا ، وَأَجُودُ شَعْرُهُ فِي الْحَمْرِ وَالطَّرْدِ ، وَأَحْسَنُ مَا فِيهِمَا مَا خُوِدَ لَيْسَ لَهُ وَإِنَّمَا سَرَقَهُ ، وَحُسْنُكَ مِنْ رَجُلٍ يَرِدُ الْمَعْنَى لِأَحَدِهِ فَلَا يُحْسِنُ أَنْ يَتَنَبَّأَ عَلَيْهِ حَتَّى يَحْيَى بِهِ قَبِيحًا ، مِثْلُ قَوْلِهِ : « وَدَاوِي بِالنِّبَاتِ كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ الْأَعْمَشِيِّ : « وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا » وَالَّذِي أَخَذَهُ مِنْهُ أَحْسَنُ . وَمِنْهَا أَيْضًا قَوْلُهُ : « إِنَّ الشَّبَابَ مَطِيَّةُ الْجَهْلِ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ اللَّامَةِ الْجَعْدِيِّ : « فَإِنَّ مَطِيَّةَ الْجَهْلِ الشَّبَابُ » . وَقَوْلُهُ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ لَهَابِهِ » أَحَدُهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي النَّجْمِ : « كَطَلْعَةِ الْأَشْمَطِ مِنْ كِسَانِهِ » . وَلَكِنْ رَزَقَ أَبُو وَاسٍ فِي شَعْرِهِ أَنْ سَارَ وَحَلَّهَ النَّاسُ وَقَدَّمَهُ أَهْلُ عَصْرِهِ ، وَإِنْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ لِأَشْيَاءَ حَسَنًا لَا يَدْعُوهَا وَلَا يَطْرَحُهَا إِلَّا حَاحِلٌ بِالْكَلَامِ أَوْ حَامِدٌ .

ومن أحسن مدائح أبي نواس قوله من أرجوزته التي يمدح بها الفضل بن الربيع وهي :

وبلدة فيها زود * صفراء تحطى في صفر
مرت إذا الذئب اقصر * بها من القوم الأثر
كان له من المزود * كل جبين ما اشتكر^(١)
ولا تعللاه شعر * ميت النساخ الثمر
عسفتها على خطر^(٢) * وغرد من الغرود
بيازب حين قطر * يهزه حن الأثر
لا تشك من سدر^(٣) * ولا قريب من خود
كأنه مد الصفر * ومد ما جال الصفر^(٤)
وأتمح في حشر : * جاب رماغ المنصر^(٥)
يمجدو بحف كالآثر * ترى ما تباج القصر^(٦)
منهت هو شيم الجدر * رعين أبكار الخضر
شهرى ربيع وصفر * حتى إذا الفحل جفر^(٧)
وأشبه السنن الإثر * ونش أذخار القر^(٨)
قلن له : ما تأتمر * وهن إذ قلن : أشر
غير عواص ما أمر * كأنها لمن نظر
ركب يسيمون مطر * حتى إذا الظل قصر

- (١) المرت : الأرض : لأنات فيها ، وانصر الأثر : انقضاء وقته . (٢) الحرور (متحني) :
ما يدح من الشاء ذكرًا كان أو أنثى . واحدة : جرة . وما اشكر : لم يثبت له الشكر وهو الضعيف من الشعر
الذي لا يكاد يظهر . (٣) عسفا : سلكها متعبطًا ، والغرور : الخطر . (٤) السدر : النخيل .
(٥) الصبر (بالضم وصمتين) : الهزال . والصفر : جمع صغار (بالفتح) وهو ما يشبه به العبر من شعر مصفود .
(٦) الجباب : الجمار الطليط من حمر الوحش . (٧) الأنماح جمع شح وهو وسط الشيء ، والقصر
جمع قصرة وهي أصل المق . (٨) جعر : الجمع من الصراب .
(٩) السى : كل شجر له شوك ، ونش : صب ، والقر : جمع قرة وهي الوهدة المستديرة من الأوس .

يَمْنَنَ مِنْ حَقِّي هَجَرَ * أَخَصَرَ ظَلَمَ الْمَكْرَ
 وَبَيْنَ أَخْقَافِ الْقَتْرِ * سَارَ وَلَيْسَ لِلْسَمْرِ
 وَلَا تِلَاوَاتِ السُّورِ * يَمْسَحُ مِنْ تَأَنَّا يَسْرِ
 رُمْتُ بِمَشْزُورِ الْمِرْزِ * لَا أُمَ حُلُقُومِ الشَّغْرِ
 حَتَّى إِذَا اضْطَلَفَ السَّطْرُ * أَهْدَى لَهَا لَوْ لَمْ تُحْزَرْ
 دَهْيَاءَ يَحْدُوها الْقَدَرُ * فَبَيْتِكَ عَنَسُ لَمْ تُدَرْ
 شَهْنَا إِذَا الْآلُ طَهَرَ * إِلَيْكَ كَلَّمَا السُّقْرِ
 خُوصًا يُحَادِثُنِ السَّطْرُ * قَدْ اطْلُوتَ مِنْهَا السَّرَرْ
 طَى الْقَرَارَى الْحَبَرُ * لَمْ تَتَقَعْذَهَا الطَّيَرُ
 وَلَا السَّيْحُ الْمَرْجَرُ * يَافْضَلُ لِلْقَوْمِ الْبَطَرُ
 إِنْ لَيْسَ فِي النَّاسِ عَصَرُ * وَلَا مِنْ الْخَوْفِ وَرَرْ
 وَنَزَلْتُ إِحْدَى الْكُتْرِ * وَقِيلَ صَمَاءُ الْعِيَرِ
 وَالنَّاسُ أَبَاءُ الْحَذَرِ : فَرَجَتْ هَاتِيكَ الْفُعَرُ
 عَا « وَقَدْ صَابَتْ بِقَرْ » * كَالشَّمْسِ فِي تَحْيِصِ بَشَرِ
 أَعْيَا مُجَارِيكَ الْخَطَرُ * أَوْ كَ حَلَى عَنْ مُضَرِ
 يَوْمَ الرُّوَاقِ الْمُخْتَصِرِ * وَالْخَوْفُ يَقْصِرِي وَيَدَّرُ
 لَهَا رَأَى الْأَمَرَ الْقَطَرُ * قَامَ كَرِيمًا فَانْتَصِرُ
 كَهْرَةُ الْعَصَبِ الدَّخَرُ * مَا مَسَّ مِنْ شَيْءٍ هَبَرُ

- (١) المردان القوس . (٢) دمت شقت ، ومشروور معقول ، والمرد . جمع مرة وهي قوة القتلى ،
 واللائم : الشديد ، والعر . كسر الدليل . والرب قسه الحقيقي بالأوتار وحلايم العراق . (٣) القراوى . الحياط
 (٤) القتر : القزار ، يقال إذا وقع الأمر موقعه صارت قرو ووقعت قرو . قال طرفة بن العبد الكرى .
 كنت منهم كالملطى رأته * فاعمل اليوم عطاءى وجر
 سادرا أحسب عي رشدا * ضاهيت وقد صارت ضر
 (٥) اشتد . (٦) مر . قطع .

وَأَنْتَ تَحْتَأَفُ الْأَنْسَرُ * مِنْ ذِي مُجْبُولٍ وَعُمْرَرُ
 مَعْبِدٍ وَرَيْدٍ وَصَدْرُ - وَإِنْ عَلَا الْأَمْرُ أَقْبَدُ
 فَإِنْ أَصْحَابُ الْقَمَرِ * أَذْشِرُوا كَأْسَ الْمِقْرِ^(١)
 وَقُصِّرُوا بِمِجِبِ قُصَرِ * هِيَامَاتٍ لَا يَمِى الْقَمَرُ
 أَحْمَرَتْ أَذْذُوا الْخَمْرَ - شَكْرًا، وَحَرْمًا شَكَرُ^(٢)
 فَاللهُ يُعْطِيكَ الشُّبْرَ * وَفِي أَعَادِيكَ الظُّفْرُ^(٣)
 وَاللهُ مَنْ شَاءَ نَصَرَ * وَأَنْتَ إِنْ حَفَا الْحَصْرُ^(٤)
 وَهَرَمَ دَهْرٌ وَكَثُرَ * عَنْ بَاحِدِيهِ وَسِرُ^(٥)
 أُعِبْتَ مَا أَعْنَى الْمَطَرُ * وَفِيكَ أَحْلَاقُ الْبَسْرِ
 فَإِنْ أَوَّأَ إِلَّا الْعَسْرُ * أَمْرَتْ حَبْلًا فَاسْتَمَرَّ^(٦)
 حَتَّى تَرَى تِلْكَ الزُّمَرِ * تَهْوِي لِأَذْقَانِ التَّنْفِيسِ^(٧)
 مِنْ جَذْبِ الْوَلَى لَوْ تَرَى * إِلَيْهِ طَوْدًا لَا مَطَرُ^(٨)
 صَعِبَ إِذَا لَاقَى أَبْرَ - وَإِنْ هَفَا الْقَوْمُ وَقَرَّ
 أَوْ رَهَبُوا الْأَمْرَ جَسَرَ * ثُمَّ تَسَامَى فَفَقِرَ
 عَنْ شَفِيقٍ ثُمَّ هَدَرَ * ثُمَّ تَنَاجَى فَنَظَرَ^(٩)
 بَدَى سَيْبٌ وَهُدِرَ - يَمْضِعُ أَطْرَافَ الْوَبَرِ
 هَلْ لَكَ وَالْمَلْ خَيْرٌ * فِيمَنْ إِذَا ضَتَّ حَصْرُ^(١٠)
 أَوْ نَالَكَ الْقَوْمُ تَأَرَّ * وَإِنْ رَأَى حَبْرًا شَكَرُ
 * أَوْ كَانَ قَصِيرٌ عُدَّرُ *

- (١) القمر : المرء . (٢) أَحْمَرَتْ : روت إلى الصبراء . ودوا البحر : مشوا بحصى . والبحر :
 ما سترك من شعر أو ماء أو نحوه . (٣) الحبر والقوة . (٤) الصيق . (٥) كثر أبدى
 عن تاحديه ، وسر : عسى . (٦) أى أحكمت تله . (٧) جمع ثمره وهى فرة البحر .
 (٨) الأولى : الشديدة المضمومة . (٩) أرح : واخى . (١٠) السبب : شعر اللسان والعرف
 والناصية ، والعدرجع عذار . (١١) قصد لفظ هل الاستهانة فأدخل عليها الألف واللام .

ولما عمل أبو نواس القصيدة التي أولها : « ومستعيد إخوانه ثرائه . بلغت
الأميين ، فبعث إليه ، وعنده سليمان بن جعفر . فلما دخل عليه قال له : يا عاش نَظِيرُ أَمَةِ
العاهرة ، ويا مدعى ولائِ حاءٍ وحكم ! أتدري يابنَ الخناء من توليت وإلى من أددت ؟
إلى الأُمِ قبيلتين وإلى العَيْنِ ، علُوْجٍ ماغين . أنت تكتسب بشرك أوساخ أيدى الناس اللثام ،
وتقول : . ولا صاحب التاح المحبب في القصر » أما والله ما نلت مني شيئاً بعد ذلك
أبداً ! فقال له سليمان بن أبي جعفر : إي والله ! هم هو مع هذا من كَارِ الثَّوِيَةِ (وكان يرى
بذلك) ، فقال له محمد الأمين : وهل يشهد عليه شاهد بشيء من ذلك ؟ فأناه سليمان بعده
مهرً ، فشهدوا عليه أنه شرب في يوم مطير فوصع قدحه تحت السماء في المطر فوقع فيه
المطر ، فقالوا له : ما تصنع بذلك ويحك ؟ قال : أتم ترْمَحُونُ أنه يتزل مع كل قطرة
ملك ، فكم ترائي أشرب من الملائكة ! ثم شرب ما في القدر ، فغضب محمد ، وأمر به
إلى السجن . فذلك قول أبي نواس :

يَارَبَّ إِبِ الْقَوْمِ قَدْ ظَلَمُونِي * وَلَا اقْتِرَافِ مَطْلٍ حَسْبُونِي
وإلى الجحود بما عرفت حلافه * رَبِّي إِلَيْكَ يَكْتَنِبُهُمْ نَسْبُونِي
ما كان إلَّا الحرَّى في مَبْدَانِهِمْ * فِي كُلِّ نَحْوٍ وَالْمَجَانَةُ دِينِي
لَا الْعَدْرُ يُقْبَلُ لِي وَيَهْرَقُ شَاهِدِي * مِنْهُمْ ، وَلَا يَرْضَوْنَ حَلْفَ يَمِينِي
ما كان — لو يدرون — أولُ حُبِّهَا * فِي دَارِ مَنْقَصِهِ وَمَنْزِلِ هَوْنِ
أما الأميين طسْتُ أَرْحُو دَقْعَهُ * عَنِّي ، مِنْ لِي الْيَوْمَ مَالِ مُمُونِ

فبلغت أبياتهُ المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأُعَيِّنَهُ غَنًى لَا يُؤْمَلُهُ . فمات قبل دخول
المأمون بغداد .

لما وصلت الخلافة إلى محمد الأمين وولي الفضل بن الربيع الوزارة ، تفرغ محمد
للهم والصيد والزهرة ، وكان لا يخرج إلَّا لصيد أو لزهرة . تفرغ ذات يوم وقد أمر الجند

(١) الثوية أصحاب الاتيين الأولين وهم الذين يرمعون أن الور والطلحة أربابا قديما ، بحلاف المجرس
فانهم قالوا يحدث الحلام .

والقوَادَ فركوا، ولبس ثيابه وتقلد مسيفه، وأَعْلَتِ الحَرَاقَاتُ والزَّلَاحَاتُ في دِخْلَةٍ، فقال له اسماعيلُ بنُ صُبَيْحٍ - وكان كَاتِبَ سِرِّهِ - : يا أمير المؤمنين ان قوادك وحندك وعامة رعيته قد حَبِلَتْ نفوسهم، وسامت ظنونهم، وكَبُرَ عسدهم ما يرون من احتجائك عنهم، فلو حُلِسَتْ لهم ساعة من نهار فدخلوا عليك ! فإن في ذلك تسكيا لهم ومراحضة لآمالهم ! فجلس في مجلسه وأذن للناس عامة فدخلوا على مراتبهم ومازلهم، وقام الخطباء فخطبوا، والشعراء فأسدوا، فلم يكن أحد منهم يتعدى إلى الاطباء والتطويل، إلا أَمَرَ بالسكوت ومُسِعَ من القول .

وقام فبين قام أبو نواس، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاء الشعراء أهل حَجَرٍ وَمَدَرٍ، وإبل ووصيف للبقر وبيوت الشعر، قد جَفَّتْ ألقاظهم، وغَلَطَتْ معايبهم، ليس لهم نصير بمدح الخلفاء ونشير مكارمهم، فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده فليعمل، فأذن له فأنشده :

أيا دارها بالماء حتى تُلْبِيهَا * هل تُكْرِمُ الصُّبْهَاءَ حتى تُنْهِيَهَا
أطال بها حتى إذا ما ملكتها * أهتُ لإكرام الخليل مصُونَهَا
وصعراء قبل المَرْجِ بعباء عده * كأن شعاع الشمس يفاك دونها
ترى العين تستعفيك من لمعانها * وتحسُرُ حتى ما تُقِلَّ جفونها
زُوعُ بنفس المرء عما يسوءه * ويَحْدِلُهُ ألا يزال قريبا
كأن يواقينا رواكده حولها * ورزق سائير تدبر عيوبها
ونمطاء حل الدهر منها ببحره * دلت إليها فامتلك جينها
كأن حُلُولُ بين أكاف روضة * إذا ما سلبناها مع الليل طينها

إلى أن أكل القصيدة . فقال له محمد : ألم أَتَكَ عَنْ شَرِبِ الخمر ! قال : بلى يا أمير المؤمنين، والله ما شررتها منذ نهيتني عنها ومسحتني من شرها، وأما الذي أقول :

أيها الزمان مالوم لوما . لا أفوق المدام إلا شيمًا
 بالنى بالسلام فيها إمام * لا أرى لى حلافة مستقيمًا
 فاصبرها الى يسواى فاقى * لست إلا على الحديث نديمًا
 كمرحطى منها إذا هى دارت * أن أراها وأن أشم النسيما
 فكأنى وما أزيّن بها * قعدى بحس التحكيما^(١)
 كل عن حيله السلاح الى الحر * ب فأوصى الميطيق ألا يقيا

فتبسم محمد، وقال له : أحسنت ! وقام معش الشعراء فأشد :

ترقى فى فضائله الامين * وزايله المشاكل والقشرين
 وأورق زهرة التقوى وعزّت . حلافته وصدقت الظنون
 تمس مسار الخلفاء منه * يد بخلاف طاعتها الموثن
 يحاف الخوف صوته ويرجو * نداء الجود فهو له حدين

فقال علة من حصر : قد أوجروا أحاد، أكرم الله أمير المؤمنين ! فقال أبو نواس : أشعر
 منه يا أمير المؤمنين الذى يقول :

ألا يا حير من رأيت العيون * تظيرك لا يحس ولا يكون
 وفصلك لا يحد ولا يحارى * ولا تحوى حيازته الظنون
 فأت نسيج وحيدك لا شبيه * تحاشيه عليك ولا حدين
 حلفت ملا مشاكلة لشيء * فأت الفوق والصلان دون
 كأن الملك لم يك قبل شيئًا * الى أن قام بالملك الامين

قال : ففضله محمد وأحسن جائزته . ويقال : إنه قالها بليها .

(١) القعدى من الخواص : الذى يرى رأى القعدة الذين يرون الحكيم حقاً ، غير أنهم قعدوا عن الخروج

ثم نهض محمد من مجلسه ذلك، فركب الحرّاقة الى الثّياميّة، واصططقت له الخيل
وعليها الرجال على شاطئ دجلة، وحملت معه المطايح والخزائن . وكان ركوبه حرّاقة^(١)
على مثال الأسد . فما رأى الناس منظراً كان أبهى ولا مسيراً كان أحسن من ذلك المنظر
والمسير . وركب أبو نواس معه يومئذ وهو يادمه، فقال :

تَحْصُرُ اللهَ لِلْأَمِينِ مَطَايَا * لَمْ تَسْجُرْ لِمُصَاحِبِ الْمَحَارِبِ^(٢)
فَإِذَا مَا رُكَّابُهُ يَمْرُوفٌ بِحَمْرًا * سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِبًا لَيْتَ غَايَ
أَسَدًا بِاسْطَا فِزْرَاهِيهِ يَمْدُو * أَهْرَتَ الشَّدَقِ كَلِجَ الْأَيْيَابِ^(٣)
لَا يَمَانِيهِ بِالْقَامِ وَلَا السُّو * طَ وَلَا عَمَزَ رَجُلِهِ فِي الرُّكَايِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَى صَو * رَهَ لَيْتَ تَمَرُّ مَرَّ السَّحَابِ
سَمَحُوا إِذْ رَأَوْكَ سَرَتَ عَلَيْهِ * كَيْفَ لَوْ أَصْرُوكَ فَوْقَ الْعُقَابِ
ذَاتَ زَوْرٍ وَمَنْشِيرٍ وَجَاهِد * بَيْنَ تَشُقُّ الْعُبَابِ مَدَّ الْعُبَابِ
تَسْبِقُ الطَّيْرَ فِي السَّمَاءِ إِذَا مَا سَ * تَمَعْلُوهَا بِحَيْثِيَّةٍ وَذَهَابِ
مَارَكَ اللهُ لِلْأَمِينِ وَأَبْجَا * وَأَبْقَى لَهُ رِئَاءَ الشَّجَابِ
مَلِكٌ تَقْصُرُ الْمَدَائِحُ عَنْهُ * هَا بَعِيٌّ مَوْقِيٌّ لِلصَّوَابِ

ويقال : ان هذا الشعر قاله أبو نواس في محمد ، وقد ركب حرّاقته الدّلفين ، فقال له
شيخه الى حابه : اتق الله يا هذا ! فقال له أبو نواس : يا شيخ ، إن الله لم يسحر لصاحب
المحارب الدّلفين ، وقد سحر له ما هو خير من الدلفين ، فأى شئ تكرر من هذا *

قل أن حبيب : كنت مع مؤنس بن عُمُرَان ، ونحس يزيد الفضل بن الربيع ببعداد ،
فقال مؤنس : لو دخلنا على أبي نواس في السجن مسلماً عليه ! فعلمنا ، فقال أبو نواس

(١) وذلك أنه كان لا يمي ثلاث من السمن المحسرة بالحراقات ركوبه خاصة ، وهي الليث والعقاب
والدلفين . (٢) صاحب المحارب هو سليمان بن داود عليه السلام لأنه من بيت المقدس .
(٣) أهرت الشّدق : واسمه . وكان الخ الأنياب : كانها .

للمؤنس : أين تريد ؟ فقال : أريد أبا العباس الفضل بن الربيع ، قال فلبّنه رقعة أعطيكها ؛ قال : نعم ، فأعطاه رقعة فيها :

ما من يد في الناس واحدة * كيد أبو العباس مولاها
 مام البعأة على مضاجعهم * وسرى الى نفسى فأجباها
 قد كنت حفتك ثم أمتى * من أن أحاطك خوفك الله
 فعموت عني عمو مقتدر ، وجبت له يقسم فالغاها

فكانت هذه الأبيات سبب خروجها من السجن .

إصرف أبو نواس من بعض المواخير سكران ، فربم مسجد قد حضرت فيه الصلاة ،
 فدخل فقام في الصف الأول ، فقرأ الأمام : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فقال أبو نواس
 من حلته . لييك ، فلما قصبت الصلاة لئوه وقالوا له : يا كافر نشهد عليك بالكرم
 ودمعه . فبلغ خبره الرشيد ، فدعا له حمدويه صاحب الرندقة ، وأحضر أبا نواس فقال له
 حمدويه : يا أمير المؤمنين ، إن هذا ماحن ، وليس هو بحيث يُظن ، فقال له الرشيد :
 ويحك ! إنه وقع في هوى مه شيء ، فامتنحه . قال : نخط له صورة ماني ، وقال له :
 أنصق عليها ، فأهوى أبو نواس به ليق عليها ، فقال له حمدويه : قد قلت لك يا أمير المؤمنين
 إنه ماحن . قال : ودعا رجل من الرادقة مشهور ، وقال له : انصق عليها ، فقال :
 وما معنى النصاق ! إنه من أخلاق الشرك ولا أصله ، وأنى أن يفعل . فقال الرشيد
 لبعض حدم القصر : امض بهذا (يعني أبا نواس) الى السدي ، فقل له : أذبه وأطلقه ،

(١) لئوه أحدوا لئوه ، وهو موصح الفلاة في الصدر . (٢) هومان بن فائق الحكيم ، الذي
 طهر في زمن سافوردي الاكاف بن أردشير ، وقتله بهرام بن هرم بن ساور ، وذلك بعد مضي عليه السلام .
 اتخذ له دبابة من الهوسية والصراية . وكان يقول دعوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول دعوة موسى عليه السلام .
 حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق ، وكان في الأصل محسبا طرعا بمذاهب القوم ، أن الحكيم
 ماني روم أنت العالم مصوع مرك من أصليين قديمين : أحدهما يور والآخر طلة ، وأنها أريان لم يرالا ولن
 يرالا ، وأبكر وجود شيء . الا من أصل قديم ، وأنها لا يرالا قوتين حساسين سميتين صيرتين ، وهما مع
 ذلك في المس والصورة والعمل والتدبير متصادمان ، وفي الخلق متمايزتان تمايزا في الشخص والخلق .

(أنظر القل والعل للشميرستاني)

وبهذا (يعنى الزنديق) فقل له : احبسه قبلك الى أن تستيته، فان تاب وإلا قتلناه .
 قال : فعسى بهما الخادم ، فلما صار في آخر الصحن ، قال أبو نواس للخادم : الى أين
 تذهب بنا ؟ قال : الى السندی، قال : فما تقول له ؟ قال : أقول له : يحبسك قتلته
 حتى تستتاب أو تقتل، ويؤدب هذا ويطلقه . قال : فرفع أبو نواس يده ولطمه، وقال
 له : يا بن الزانية، من الساعة نسيت ! . ونصر بهم الرشيد، فقال : ردوهم ، فقال
 لأبي نواس : ما هذا الذي رأيت منك ؟ قال : أراد والله أن يئلكني ويطحرنى بحيث
 أنسى أبدا أو أبقى محمدا ، سألته يا أبا المومنين عن الرسالة ، فادا هو قد غيرها ، فصحك
 من أبي نواس وأطلقه .

قال رُريس الكاتب : اجتمعنا يوما أنا وأبو نواس وعل بن الخليل في سوق الكرخ،
 وكما مجتمع وتنشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها . فقال أبو نواس : أدبر من
 كان في نعمي وكان أسرع الخلق في طاعتي، فما أدري ما أحتال له ؟ فقال عل بن الخليل
 يمازحه : يا أبا عل، سل شيخك وأستاذك يعطفه عليك، فقال له أبو نواس : من تعني ؟
 قال : من أنت في طاعته ليالك ونهارك (يعنى ابليس) فلو لم يقض لك هذه الحاجة ،
 لما ينبغي لك أن تسأله مسألة ولا أن تهز عيه بمصيبة، فقال : هو أسد لأيه من أن يئلك
 بي أو يئلكني، واقصص علينا ذلك . فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع، وأخذنا
 في أحاديثنا، فصحك أبو نواس، فقلنا له : ما أصحكك ؟ فقال : ذكرت قول عل بن
 الخليل يومئذ : سل شيخك يعطفه عليك . حينئذ قد سأله يا أبا الحسن فعصى الحاجة ،
 وما مضت واقعه ثالثة حتى أتاني من غير أن أسئ اليه ومن غير أن أستريه ، فعاتبنى
 واسترضاني، وكان الغضب منه والتجني، وأحسب الشيخ (يعنى ابليس) كان ينسمع علينا
 في وقت كلامنا، وقد قلت أبياتا في ذلك، قلنا : هاتها، فأنشد :

لما جفاني الحبيب وامتنعت * عني الرسالات منه والخبر
 واشتد شوق فكاك يقطني * ذكر حبيي والهـمـ والمـعـكر

دعوتُ إبليسَ ثم قلتُ له .. في خلوةٍ والدموعُ تمسحُ :
 أما ترى كيف قد بُيئتُ وقد * أفرحَ جَفْنِي البكاءُ والسهْرُ ؟
 إن أنتَ لم تُلقِ لي المودَّةَ في .. صدرِ حبي وأنتَ مقتدر
 لا قلتُ شعرا ولا سمعتُ عِثْرًا * ولا جرى في مفاصلي السَّكْرُ
 ولا آرائُ القرآنِ أدْرُسُهُ .. أروحُ في دُرَيْسِهِ وأبتَكُرُ
 وألزمَ الصومَ والصلاةَ ولا .. أزالَ دهرِي بالخيرِ آتَمُرُ
 فما مصتُ بعدَ داكِ نالتهُ .. حتى أتاني الحَيْثُ يعتذرُ
 ويطلبُ الودَّ والإصَالَ على .. أفصلِ ما كانَ قَلْبِي ينجُرُ
 فيألفُ مئةً لقد عَطِيتُ .. عدى لإبليسَ ما لها خَطَرُ

لما قَدِمَ أبو نواس على الحَصْبِ بمصرَ أدن له وعده جماعة من الشعراء فاستشده ، فقال له : ما حامة من الشعراء هم أقدم مني وأسن ، فأذن لهم في الإنداد ، فان كان شعري نظير أشعارهم أنشدتُ وإلا أسكتُ ، فاستنشدهم الحَصْبُ ، فاشتدوا مديحا في الحَصْبِ ، فلم تكن أشعارهم مقاربةً لشعرا أبي نواس ، فتبسم أبو نواس ثم قال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمرلة عصا موسى تتلقف ما يافكون* قال هات ، فأنشده قصيدته التي أولها :
 أجارة يبتئنا أولك عيُور * وميسور ما يُرجى لديك عيُور
 حتى أتى على آخرها ، فانقص الشعراء من حوله .

ويقال : إن أبا نواس كان حرج إلى مصر في زِي الشُّطَار وتقطيعهم بطرزة قد صَفَّها وكُبِّين واسعين وديل محرور وسعل مطق ، وكان خروجه مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الحَصْبِ بهذه الصورة ازدراه واستحق به ، وكان تُورد عليه كتبُ الحِلَّةِ ممن

(١) هو الحَصْبُ من عبد الحميد الحمصي أمير مصر على الخراج . وإليه تنسب مئة الحَصْبِ بالوجه القليل وليس من صاحب نهر أبي الحَصْبِ ، ذلك بعد التصور يقال له مردوق . وكان هذا رئيسا في أراضيه . فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهورية الزاري ، ثم انتقل إلى إلامارة .
 (٢) الشُّطَار : جمع شاطر وهو من أعيا أهل حِثٍّ .

ساب السلطان، ووردت كتب أبي بواس فيها قراها ولم يستشده، فاصرف مهموما .

وحاه أهل الأدب فاستمعوا شعره وكتبوه وأتشدوه الحصب . فاستحصره فأتشده :

أحاره يَتَنَبَّأُ أُولُوكَ عِيورُ * وميسورُ ما يُرَبِّحُ لَدَبُكَ عَيْسِرُ
فان كَيْتَ لَا حِلَّهَا وَلَا أَنْتَ زَوْجَةٌ ^(١) * فَلَا يَرَحُّ دُونِي عَلَيْكَ سُتُورُ
وجاورتُ قوما لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ * وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ سُتُورُ
لَهَا أَمَا بِالْمَشْعُوفِ صِرَّةٌ لَا زِيْبُ * وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَى قَدِيرُ
وَأَنَّى لَطَرْفُ الْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَايِرُ * هَدَّ كَدْتُ لَا يَتَحَيَّ عَلَى مَحْمِرُ
كَمَا نَفَرْتُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ لَهَا * عَقَابُ مَآرِسَاعِ الْبَدِينِ سُدُورُ ^(٢)
طَوْتُ بِلَتَيْنِ الْقَوَاتِ عَدَى صُرُورِهِ * أَزْيَبَ لَمْ يَنْتِ عَلَيْهِ شَكِيرُ ^(٣)
فَاوْفَتْ عَلَى عَلِيَاءَ حِينَ بَدَا لَهَا * مِنَ الشَّمْسِ قَرْنٌ وَالضَّرِيبُ يَمُورُ ^(٤)
تَهَلَّتْ طَرَفًا فِي حِمَايَ مِنْفَارِهِ * مِنَ الرِّاسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ دُرُورُ ^(٥)
ولما قال أبو بواس .

تقول التي من بيتها خُفَّ مَرَكِي . ■ عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَادُونَ مَعِيرٌ لِمَنْ مَطْلُكُ * بَلَى لِمَنْ أَسَابَ الْغَنَى لَكثيرُ
فَقَلْتُ لَهَا وَاسْتَعَجَلْتُهَا بِوَادِرُ * جَرَتْ بِحَرَى فِي جَرَمِينَ عَيْرُ
دَرِييَ أَكْثَرَ حَامِدِيكَ رِحْلَةً * إِلَى سَلْدٍ فِيهِ الْحَصْبُ أَمِيرُ

قال له الحصب : أَدَا نَكْثُ حَسَادِهَا وَتَبْلَعُ أَمْلَهَا، وَأَمْرٌ لَهُ أَلْفُ دِينَارٍ .

- (١) الحِلْمُ الصديق . (٢) اللود . حروج العلم من موصه أو زواله في البيت من سوء التركيب
ما فيه ، والتقدير فيه كما طرقت عقاب لها مَآرِسَاعِ الْبَدِينِ سُدُورُ وَالرَّيْحُ سَاكِنَةٌ . (٣) أَزْيَبُ تصغير أرب
وهو المرح ذو الرمح أي الريش الدقيق اللين . والشكير : الريش أول ما يبت . (٤) الضريب :
الطلع أو الحليد . ويمور : يطوك أو يحس . ويذهب أو يسيل على وجه الأرض . (٥) الخاجان منى جاج
وهو العلم الذي ينبت عليه شجر الخاجب . والهدود : ما يدور في العين من الهواء .

وتأملها :

اذا لم تَزُرْ اَرْضَ الخصبِ ركبًا • فأيّ فتي بعدَ الخصبِ زور !
 وما جازه جودٌ ولا حلّ دونه • ولكن يصير الجودُ حيث يصير
 فتي يشتري حسنَ الثناء بماله • ويعلم أن الدائرات تدور
 ولم ترعني سودًا مثلَ سودٍ • يحلّ أو يصير به ويسير
 وأطرق حبات البلاد الحبية • حصيبة التصميم حين تسور^(١)
 سموت لأهل الجور في حال أمنهم • فاصحوا وكلّ في الوثاق أسير
 اذا قام عنه على الساق حيلة • لها خطوه عند القيام قصير
 فمن يك أمسى جاهلاً عقالتي • فاب أمير المؤمنين حبير
 لها زلت تُوليه الصبغة ياقما • الى أن بدا في العارفين قير^(٢)
 اذا ماله أمرٌ ياقما كفتته • وإما عليه بالكفاه نسير
 إليك رمت بالقوم هُوحٌ كأنما • جاحهما تحت الرّحال قسور
 رحلنّ سا من عقرقوف^(٣) وقد بدا • من الصبح مفتوق الأديم شهير
 لها تحدّث الماء حتى رأيتها • مع الشمس في عيني أمانع تُفور^(٤)
 وعُمرن من ماء القيب بشربة • وقد حان من ديك الصباح زمير
 وواهي إشرافا كائن تدصير • وهن الى رعن المدخن صور^(٥)
 يؤمن أهل القوطين كأنما • لها عد أهل القوطين زور
 وأصبحن بالجلولان يرصن^(٦) حفرها • ولم يبق من أراحهن شطور
 وقاسين ليلا دون يساد لم يكد • ساء صبيحه للناظرين يُير^(٧)
 وأصبحن قد فوزن من نهر هطرس • وهن عن البيت المقدس زور^(٨)

(١) تسور . تب . (٢) القير : الثيب . (٣) عقرقوف : اسم موضع .

(٤) يتحدث : عرفت .

(٥) صور . مائلات . (٦) يرصن : يكرن . (٧) زور : مع زوراء بمعنى مائلة .

طوالب الرُّبُكُانِ غرة هاشم * وفي القَرَمَا من حاجي شُفُور^(١)
ولما أنت فسطاط مصر أحارها * على ركبها أن لا تزال مجيرُ
من القوم نَسَامُ كأن جبينه * سَا العَجَرِ يَبْرِي صَوْنَهُ وَيِيرُ
زها ما لخصيب السيف والرعي والوعى * وفي السَلَم يزهو مبر وسريرُ
جواد إذا الأبدى كعفر عن الندى * ومن دون عورات النساء عيورُ
له سَلَفٌ في الأعجمين كأنهم * إذا استؤذنوا يوم السلام بدورُ
وإني حدير اد طعنك بالمى * وأنت بما أملتُ منك جديرُ
هان تُؤلي منك الحبل مَاهِلُهُ * وإلا إني عاذرُ وشكُورُ

وقال يمدح العباس بن العصل بن الربيع وأجاد :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم * إن حُصِّلُوا إِلَّا أَعْرَ قَرِيعُ
ساد الربيعُ وساد فضلُ مده * وعَلَّتْ مَنَاسِ الكَرِيمِ فُرُوعُ
عباسُ عاصُ إذا احتدم الوعى * والفضلُ فضلُ الربيعُ ربيعُ

وقال يماث عمر الوراق :

يا من جفائي وملا * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا
ومات مرحبُ لما * رَأَيْتَ مَالِي قَلًّا
إني أظنك تحيي * مِمَّا فَعَلْتَ الْقِسْرِي^(٢)
تلقاه في الشرينائي * وفي الرخا يتدلى

وله في عزة العس :

ومستعبد إخوانه يثرأه * لَبِثْتُ لَهُ كَبْرًا أَرَى عَلَى الْيَكْبَرِ
إذا ضَمَّنِي يَوْمًا وَإِيَاهُ حَفِلُ * يرى جانبي وعُسرًا يزيد على الوعرِ

(١) جمع شقر وهو الأمر الملتصق بالقلب المهم له .

(٢) القزى : كالحرير وكان لا يسمع لأحد شيئا إلا جاءه إليه وداحه ولا يخلط من طعام لأحد ، وإذا سمع

محصونة لم يقرب ذلك ، مصر به التل حتى قيل لطير من طيور الماء يوى عليه . القزى .

أحاله في شكله وأجره * على المسطق المدور والسظفر الشزير
وقد زادني تيمها على الناس أني * أراي أعاهم وإن كنت ذا فقير
فواقه لا يسدي لساني بلأحاة * الى أحد حتى أعيب في قبري
فلا يعلمن في ذاك متى طامع * ولا صاحب التاج المعجب في القصر
لو لم أرت غمرا لكات صباي * عن الناس حسبي من سؤالي من القعر
دخل أو نواس بعد ما نسك على قوم من إخوانه عدهم شراب وهن، فعصوا عليه
الجلوس فأبي، وأخذ الدواة والقرطاس وكتب :

إذا لم تنه نفسك عن هواها * وتُحس صونها فإليك عني
فإني قد شيعت من المعاصي * ومن إدماها وشيعت مني
ومن أسوا وأقع من لبيب * يرى متظفرا في مثلي سقى

ومن شعر أبي نواس :

عنى المصلى وأقويت الكُتُب * مِنِّي المِرْدَانِ فاللهُ
منازل قد عَمَرْتُهَا يَمَعًا * حتى بدا في مُدَارِي الشَّهْرِ
في جبة كالسيوف هزهم * شرح شباب وزانهم أدب
ثم أراب الرمان فاقسموا * أيدى سبأ في البلاد فاشموا
لي يُخلف الدهر مثلهم أدا * على هيبات شأهم عح
لما تيقنت أن رَوْحَهُمْ * ليس لها ما حيثُ مقلتُ
أبليت صبرا لم يُتَلِه أحد * واقسمني مارتُ شُفْتُ
لذاك أني أدا رُزئتُ أحَا * طيس يبي وبينه نَسْتُ
فَطَرِبْتُ مَرَبِي ولى بَقَرَى الـ * كرج مَصِيفٍ وأُمِّي الْعَبْتُ
تُرَضُّنِي دَرَّهَا وتُحِمُّنِي * طَلَّهَا والمَجِيرُ يَنْهْتُ
إذا تَنَهَ الْفُصُونُ حَلَّتِي * فَبَانَ مَا فِي أَدِيمِهِ جَرُّ

تَبَيَّتْ فِي مَاتَمٍ حَمَامِهِ * كَمَا تَرَأَى الْقَوَاقِدُ السُّلُبُ
يُهْبُ شَوْقِي وَشَوْقُهُنْ مَعًا * كَأَنَّمَا يَسْتَحِضُّ الطَّرِبُ
فَقَمْتُ أَحْوَالِي الرِّصَاعِ كَمَا * تَحَامِلُ الطُّغْلُ مَسَّهُ السَّغْبُ
حَتَّى تَحْمِرْتُ بَتَّ دَسَكَةِ * قَدْ عَمَمَتِهَا السُّوْنُ وَالْحَقَبُ
هَتَكَتْ عَنْهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكُرٌ * مَهْلَهُلُ النَّسِجِ مَا لَهُ هُدُبُ
مِنْ نَسِجٍ نَرَقَاءَ لَا تُشَدُّ لَهَا * أُحْيَا فِي الثَّرَى وَلَا طُبُ
ثُمَّ تَوَحَّاتُ حَصْرَهَا بِشِمَاكِ * لِمَشَى بِجَاءَتْ كَأَنَّمَا لَمْتُ
فَاسْتَوْسَقَ الثَّرَى لِلدَّمَامِ وَاجِدٌ * رَاهَا عَلَيْهَا الْخَيْرُ وَالْقَرَبُ
أَقُولُ لِمَا نَحَايَكَا شَبَا * أَيُّهَا لِلتَّشَابُهِ الدَّهَبُ
هِيَ سَوَاءٌ وَقَرْنُ بَيْنَهُمَا * أَهْمَا حَامِدٌ وَمَسِيكُ
مُلْسٌ وَأَمْتَالُهَا مَحْمَرَةٌ * صُورَ فِيهَا الْقُسُوسُ وَالْأَصْلُ
يَتَلَوْنَ لِمَجْلِهِمْ وَفَوْقَهُمْ * سَمَاءٌ حَمِيرٌ نَحْوُهَا حَبُّ
كَأَنَّمَا لَوْلَا تَبَدُّدُهُ * أَيَّدَى عَدَارَى أَفْصَى بِهَا اللَّبُّ

ومن جيد شعره قوله لما سمعه الأمين من شرب الحمر، وذلك أن المأمون أمر الخطباء
بخراسان أن يميموا الأمين شعر أرى نواس ويقولوا هو حليسه ويديمه ويشدوا على المابر
شعره، فسمعه الأمين فقال .

غُثَا بِالطَّلُولِ كَيْفَ يَلِيَا * وَأَنْسِقَا بِطُغْلِكَ الشَّاءَ الثَّمِيَا
مِنْ سُلَافٍ كَأَنَّهُ كُلُّ طَيِّبٍ * يَنْقَى غَضَبٌ أَنْ يَكُونَا
أَكَلَ الدَّهْرُ مَا تَجَسَّمُ مِنْهَا * وَنَسَى لُبَّهَا الْمَكُونَا
ثُمَّ تَجَبَّتْ فَاسْتَصْحَكَتْ عَنْ لَأَلٍ * لَوْ تَجَمَّعَ فِي يَدٍ لَأَقْبَيْنَا
وَإِذَا مَا لَمَسْتَهَا فَهَاءٌ * تَمَعَ الْكَفُّ مَا يُبَيِّحُ الْعُيُونَا

في سكرويس كأنهن نجوم * جاريات برؤجها أيدينا
 طالعات من السقاء علينا * فإذا ما عرين يفرين فينا
 لو نرى الشرب حولها من بعيد * قلت قسوم من قرة يصطلوا
 وحزاي يديرها بنات * باعيات يزيدنها المسرلينات
 ذاك عيش لو دام لي عيرائي * عفته مكرها وخفت الأميأ
 أدير الكأس حان أن تسقيننا * وأنقري العود إنه يليننا
 ودع الذكر للطلول إذا ما * دارت الكأس بثمره ويمينا

ومن قول أبي نواس يمدح العباس بن عبد الله بن جعفر بن أبي جعفر :

عرد الديك الصدوح * فاسقي طاب الصبوح
 اسقي حتى ترأى * حساً عندى القبيح
 قهوة تذكر نوحاً * حين شاد العلك نوح
 نحن نحميها وبأبي * طيب عريف يفوح
 فكان القوم نهي * ينهم مسك ذبيح
 أما في دنيا من العس * اس أعدو وأروح
 هاشمي جدي * عده يغلو المديح
 علم الجود كتاب * بين عينيه يلوح
 كل جور يا أميري * ما حلا جودك ريح
 إنما أنت عطايا * أبدا ما تستريح
 ببح صوت المايما * مسك يشكو ويصيح
 ما لهذا أحد مو * ق يديه أو تصيح
 جذت بالأموال حتى * قبل ما هذا صحيح
 فهو بالمال جواد * وهو بالعرض شيخ
 صور الجود مثلاً * وله العباس روح

قال محمد بن عبيّته : انقبت أما نُوَاسٍ بِسَكْرِ مُكْرَمٍ فقلت له : أحت أن تشدني من شعرك شيئاً تَصَنُّ به على فبرى ، فأنشدني :

يَكْفِي الكَرَمَ من الكَلَا * م لمن يحادثه أَقْلُهُ
والشئُ شئٌ لم يَرْلِ * بأدقّه يأتى أَجْلُهُ
إن لم يُصَبِّك من الكَرِي * م الحُرِّ وابْلُهُ فطْلُهُ
يُبدى مكارمَهُ كما * يُبدى فريدَ السيفِ سَلَّهُ
والدُلُّ يُوقِعُ سَهَّ * متعمِّداً فيما يُبدِلُهُ
والحرُّ يَكْرِمُ نَفْسَهُ * بالصنعِ عَمَّنْ لا يُحِلُّهُ

وقال أبو وواس يمدح الأمين :

صَبَّحْتُ على الأمين ثيابَ مَدْحٍ * فكلُّ السَّاسِ حَسٌّ وَأَسْجَادًا
ولولا فصلُهُ ما جادَ شَمْرِي * ولا أَعْطَيْتَنِي العِطْرُ التَّيْبَادَا
وقالوا قد أهدتَ فقلتُ إني * وجدتُ القولَ يَمْكِي بِجَادَا

ومن نغماته :

ذكر الصُّبُوحِ بُسْخَرَةً فَأَرَاها * وأَمَلُهُ ديكُ الصُّبَاحِ صَبَاحًا
أَوْقَى على شَرْفِ الجِدَارِ بُسْخَرَةً * عَيْرِنًا يَصْبِقُ بالجِصِّ حَاحًا
فأدِرْ صَاحَكَ بالصُّبُوحِ ولا تَكُنْ * كَسُوفٍ غَدَا طِيكَ يَشْحَا
إن الصُّبُوحَ جَلَاءُ كلِّ مَخْمَرٍ * بدرتْ يَدَا بكَاسِهِ الإِصْبَاحَا
وحَدِيثُ لَدَاتِ مَظَلِّ صَاحِبٍ * تَقْتَاتُ مِنْهُ فَكَاهَةٌ وَمَزَاحَا
بَهْنُهُ وَاللَّيْلُ مَلْتَمِسٌ بِهِ * وَأَزْحَمْتُ عَنْهُ نَفَاسَهُ فَأَتَرَا
قال أنبى المصباح ، قلت له أَيْتَبُّ * حَسَى وَحَسْبُكَ ضَوْؤُهَا مَصْبَاحَا
فَسَكَبْتُ مِنْهَا فِي الزَّجَاجَةِ شَرْبَةً * كَانَتْ لَهُ حَتَّى الصُّبَاحِ مَصْبَاحَا

من قهوة حاءك قمل مزاحها * عطلاً فاليسها المزاج وشاحاً
 شك الرائل فؤادها مكانها * أهدت اليك بريحتها ثقافاً
 صمراء تفتش العوس فلا ترى * منها بين سحوى السات جراحاً
 ومنها :

لا تبك ليل ولا تطوب الى هد * وأشرت على الورد من حمراء كالورد
 كأساً اذا احدثت في حلق شارها * أحدثه حرته في العين والحد
 فانلمر ياقوته والكأس لؤلؤة * من كف لؤلؤة مشوقة القد
 تسقيك من طرفها حمراء ومن يدها * حمراء لك من سكرين من مد
 لي نسوان وللذمان واحدة * شيء خصصت به من دونهم وحدي

كان الأصمى يفصل أما واس على شعراء زمانه بهذه القصيدة :

أما ترى الشمس حلت الخلاء * وطاب وقت الزمان واعتدلاً
 وعنت الطير بعد غميتها * واستوفت النمر حواف كلاً
 واكتست الأرض من حاريفها * وثنى ثياب نعاله حلاً
 فاشرب على جنة الزمان فقد * أصبح وجه الزمان مقبلاً
 من قهوة تذهب الموم فلا * أزهب فيها الملام والعدلاً
 كرحية ترك الطويل من العيد * ش قصيراً وتبسط الأملاً
 تلمع لمع السراب في قبح الـ * قوم اذا ما حباها انفلا
 يقول صرف اذا مزجت له * من لم يحس الكثير محتملاً
 فسق هذا بقدر طاقته * وأحمل على ذا قدر ما احتملاً
 عجباً بشيئين من طبائهما * حسني وطيب ترى به المثلاً

كان أبو نواس لا يُستَشَدُّ شيئاً من شعره إلا أشد هذه القصيدة :

وَحَيْمَةَ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُيَمَّةٍ * تَهْمُ يَدًا مِنْ رَامِهَا بَزِيلٍ^(١)
 إِذَا عَارَصَتْهَا الشَّمْسُ فَأَهَّ طَلَامًا * وَإِنْ وَاحِشَتْهَا آذَنْتْ مَذْحُونٍ
 حَطَطْنَا بِهَا الْأَنْفَالَ قُلَّ هَجِيرَةٍ^(٢) * عُورِيَهُ تُدَكِّي مِيرَقِيلٍ
 تَأْتَتْ قَلِيلًا ثُمَّ فَاتَتْ بِمَدَقَةٍ * مِنَ الطَّلِّ فِي رَثِّ الْأَنْاءِ صَبِيلٍ^(٣)
 كَأَنَّا لَدَيْهَا مِنْ عِطْفَى مَعَامَةٍ * حَقًّا زَوْرُهَا عَنِ مَرَكِّ وَمَقِيلٍ
 حَلَّتْ لَأَمْعَابِي بِهَا دِرَّةَ الصَّنَاءِ * بَهْمَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ تَمُؤِلُ
 إِذَا مَا أَنْتَ دُونَ اللَّهِاءِ مِنَ الْغَيِّ * دَمَا هُمُ مِنْ صَدْرِهِ بَرَجِيلٍ
 فَلَمَّا تَوَقَّى الشَّمْسُ حَجَّحَ مِنَ الدُّخَى * تَصَابِيثُ وَأَسْتَحْمَلْتُ عَيْرَ حَمِيلٍ
 وَعَاطَيْتُ مِنْ أَهْوَى الْحَدِيثِ كَمَا بَدَا * وَدَلَّتْ صَعْمًا كَأَنْ عَيْرَ دَلِيلٍ
 فَنَفَى وَقَدْ وَصَّدْتُ يُسْرَايَ حُدَّةً * أَلَا رَمَا طَالَتْ عَيْرَ مُيَسِيلٍ
 وَأَنْزَلْتُ حَاقِقَ بَحَقْوَى مُسَاعِدٍ * وَإِنْ كَانَ أَدَى صَاحِبِ وَحِيلٍ
 وَأَصْبَحْتُ الْحَيَّ السَّكْرَ وَالسَّكْرُ حَمِيسٌ * أَلَا رُبَّ إِحْسَانٍ عَلَيْكَ تَقْبِيلٍ
 كَفَى حَرًّا أَنْ الْجَوَادَ مَقْتَرٌ * عَلَيْهِ وَلَا مَعْرُوفَ عَدِّ بَحِيلٍ
 سَأَنِي الْغَنَى إِمَّا حَلِيسَ حَلِيسِهِ * يَقُومُ سِوَاءَ أَوْ حَيْفَ مَسِيلٍ
 بِكُلِّ فَنَى لَا يُسْتَطَارُ جَنَاءُهُ * إِذَا نَوَّهَ الرُّحَقَابَ بِاسْمِ قَيْسِيلٍ
 لَحْمِيسَ مَالِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ فَاجِرٍ * أَخَى بَطْنِيَةَ لِلطَّيْبَاتِ أَكْوَلِ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَالَ عَوْنٌ عَلَى الْبَدَى * وَلَيْسَ حَوَادُّ مَقْتَرٌ كَبَحِيلٍ

(١) الطاور . حائط الحبل والكرم والروع وفي البارع : الطاور والطور والطاء المهملة حائط الروع ، من كلام أهل السواد وليس مرقى محض . (٢) الزليل مصدر كالزال . (٣) أى مبرى هائرة ، وعورية مسما إلى الشعرى المورد وأيام طلوعها أيام الحر الشديد . (٤) عيسى الشمس ، أى توقعت فى الوعد رواها . ورايت مدقة ، أى دخلت عليهم من تلك الحزمة الخلقفة التى شذب على الأناء الصغير من الذهب الرث لم تقو الشمس وعلمهم لم تمهم الحزمة مسترقوى بصير طلا ولكنه شمس وطل ، فشبهت بالمدقوق من اللز ، أى المروج .

فإن استريد أنشد هذه القصيدة الأخرى :

كان الشابُ مطيةَ الجهل - ومحسَّ الضحكاتِ والمزَلِ
 كان الجمالُ إذا أرعدتْ به - ومثيتُ أخطرَ صَبَّتِ الميلِ
 كان البليغُ إذا نطقتْ به - وأصاحتِ الأذانُ للُملي
 كان المشقُّعُ في مآربه - عندَ الفناءِ ومدركِ التَّهليلِ
 والآخرى حتى إذا عزمتْ - تفيي أغانِ يديّ بالعَمَلِ
 فالآنُ صرْتُ إلى مقاربة - وحطعتُ عن طهورِ الصَّارِخِ
 والراحُ أهواها وإن رزأتْ - بُلغِ المعاشِ وقلَّتْ فصلِ
 صمراءُ مجلدا مَرَارِيها - جَلَّتْ عن الطَّراهِ والمثيلِ
 دُخِرْتُ لآدمَ قَلَّ حَقِيتهُ - ففقدتهُ بخطوةِ القَبيلِ
 فأتاك شيءٌ لا تلاميُسه - إلا بحسِّ عِرْيزةِ العقلِ
 وتُرودِ مها العَيْنِ في بَشِيرِ - حُرِّ الصَّبِيحةِ فامحَّ سَهيلِ
 فاذا علاها الماءُ أَلَسَها - حَيًّا شبيهَ حلالِ الخِجلِ
 حتى إذا سكنتْ جَواعُها - خَطَّتْ بمثلِ أكارعِ القَمَلِ
 حطَّيبٌ من شقٍّ ومجتمع - عُفِلَ من الإغمامِ والشَّكْلِ
 فاعذِرْ أحلكَ إليه رجلٌ - مَرَّنتْ مَسامُحه على العَذْلِ

ومن طيب شعره، والشرط الأول من القصيدة لفظ ابن الدُّمَيْة .

أعادلُ ما على وجهي قُتُومُ - ولا عِرْصِي لأولِ مَنْ يَسُومُ
 يفضني على الفتيانِ أُنَى - أَيْتُ فلا أَلَامُ ولا أَلُومُ
 أعادلُ إن يكسُ بُرداتي رَنًا * فلا يَعتَمُكَ بينهما كَرِيمُ
 شَفِقتُ من الصبا واشتقَّتْ مني * كما اشتقتُ من الكرمِ الكُرُومُ
 فليست أَسُومُ للذاتِ نَفِيسِ * مياومةً كما دفعَ الفَرِيمُ

ومتصلي بأسباب المعالي * له في حكل مكرمة قديم
 رميت له النداء ثم أخذنا * وقد أخذت مطالعها الجوم
 تنقية زلال العس فيها * وتتمن الحؤوله والمموم
 مقام ولقت من أخوئها * على طرب وليلهما سيم
 أحر الرق وهو يحور رحلا * يحور به النعاس ويستقيم
 سيل الندمان ما أولته منها * وسلها ما احتوى منها الكريم
 كلا الشخصين متصف ولكن * قصت وطرا وذا مها سقيم

وقال :

إني صرفت الهوى الى قير لم تتدله البيوت بالظير
 اذا تأملت تعاطك آل إقرار أنه من البشير

ومن قوله :

يا شقيق الفيس من حكي * نمت عن ليل ولم أتم
 فاسقني الكراني آخمرت * يحمار الشيب في الرحم
 نمت أصوات الشاها * عد ما جارت مدى المرم
 فهم لليوم السق برلت * وهي زرت الدهير في التديم
 عقت حتى لو اتصلت * بساب ناطقي وقم
 لا حبت في القوم مانلة * ثم قصت قصة الأنم
 فرعتها بالمزاح يد * حلققت للسيف والقلم
 في ندائي سادة زهير * أخذوا اللذات من أتم
 فتمشت في مفاصلهم * كعمشي البره في السقم
 فملت في البيت اذ مريجت * مثل فعل المصيح في الظلم
 فاهتدى ساري الظلام بها * كاهتداء السفر بالمعلم

ومن طَرْدَيَاتِ أَبِي نَوَاسٍ فِي صَعَةِ الْكَلْبِ :

أَمِيتُ كُلَّ أَهْلِهِ مِنْ كَدَّةٍ قَدْ سَعِلَتْ حُدُودُهُمْ بِحَدَّةٍ
فَكَلَّ حَيْرَ عَدَمِهِمْ مِنْ عَيْنِهِ وَكَلَّ رِفْدَهُ بِالْمِنْ مِنْ رِفْدِهِ
يَطْلُ مَوْلَاهُ لَهُ كَمَدُهُ بَيْتُ أَذْنَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْنِهِ
وَأَبْ عَمْرَى حَلَّاهُ سَبْرُهُ ذَا عُرَّةٍ عَجَّلَا زَيْدُهُ
تَلَدُّ مَسَّهُ الْعَنْ حَسَّ قَدُهُ يَاحْسَنَ شِدْقِيهِ وَطُولَ قَدُهُ
تَلَقَّى الطَّبَاءُ عَنَّا مِنْ طَرْدِهِ بَسْرُ كَأْسَا شُدْهَا مِنْ شَدَّةٍ
* يَا لَكَ مِنْ كَلْبٍ نَسِيجَ وَحِيدَةٍ *

أَبُو نَوَاسٍ وَجَنَانُ

قال أبو العرح كانت حَنَانُ هذه حَارَةً آلِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ عَبْدِ الْمَجِيدِ التَّقْفِيّ، وَكَانَتْ حُلُوهَ حِمْلَةٍ الْمَطَرِ أَدِيمَةً، وَيُقَالُ : إِنْ أَمَا نَوَاسٌ لَمْ يَصْدُقْ فِي حُبِّ امْرَأَةٍ غَيْرِهَا، وَقِيلَ لَهُ يَوْمًا إِنْ حَنَانٌ قَدْ عَزَمْتَ عَلَى الْحُجِّ، فَكَانَ هَذَا سَبَبَ حُجِّهِ وَقَالَ : أَمَا وَاقِعُهُ لَا يَهْوَى الْمَسِيرُ مَعَهَا وَالْحُجُّ عَائِي هَذَا إِنْ أَقَامْتَ عَلَى عَزِيمَتِهَا، وَقَالَ وَقَدْ حَجَّ وَوَادَّ :

أَلَمْ تَرَ أَيْ أَمِيتُ عَمْرَى بِمَطْلِبِهَا وَمَطْلِبِهَا عَسِيرُ
فَلَمَّا لَمْ أَجِدْ سَمًا إِلَيْهَا بِقُرْبِي وَأَعْيَتِي الْأُمُورُ
فَحَمَحْتُ وَقُلْتُ قَدْ حَمَحْتُ حَانُ فَيَجْمَعُنِي وَإِيَّاهَا الْمَسِيرُ

قال مَنْ شَهِدَهُ حِينَ حَجَّ مَعَ حَنَانٍ وَقَدْ أَحْرَمَ : لَمَّا حَمَّ اللَّيْلُ حَمَلَ إِلَيَّ بِشَمْرٍ وَيَحْدُو بِهِ وَيَطْرُبُ، فَفَنِّي بِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

إِلَيْهَا مَا أَعْدَلَكَ مَلِكُ كُلِّ مَنْ مَلَكَ
لَيْتَكَ قَدْ لَيْتُ لَكَ * لَيْسَ لَكَ إِلَّا الْحَمْدُ لَكَ
وَالْمَلِكُ لَا شَرِيكَ لَكَ * وَاللَّيْلُ لَمَّا أَنْ حَلَكَ

والساجحات في الفلك * على مجاري المسلك
 ما حاب عدأملك . انت له حيث مَلَكَ
 لولاك يارب هلك * كل نبي ومَلَكَ
 وكل من أهلك * مَجَّ أو لبي فَلَكَ
 يا مخطئا ما أضلَكَ * عَجَّل وبادر أجَلَكَ
 واختم بحير عملكَ . ليك ان الملك لَكَ
 والخذ والعمة لَكَ . والمزلا شريك لَكَ

وفيها يقول :

حق عيني قد كاديس . قطع من طول ما اختالج
 وفؤادي من حرج . لك والمجير قد نصج
 خبرني مدتيك نه . حتى وأهل مني المرح
 كان ميعادنا نعو . ج زياد فقد خرج
 أنت من قبل عايد . بك في أصيق المرح

قال الأصمعي : قال محمد بن ابراهيم بن كثير الصوى . دخلنا على أبي نواس فعُودِه
 في علته التي مات فيها ، فقال له علي بن صالح الهاشمي : يا أبا علي ، أنت في أول يوم من أيام
 الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا ، وبينك وبين الله عز وجل هنأت ، فأت إلى الله عز وجل ،
 فكى ساعة ثم قال : سائِدوني سائِدوني ، ثم قال : أأخوف الله عز وجل وقد حدثني حماد
 ابن مسلم عن ريد الرقاشي عن أنيس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لكل نبي شفاعَةٌ وإنى اختبأتُ شفاعتي لأهل الجائر من أمي يوم القيامة » أقراني
 لا أكون منهم ؟

ومن قوله في مرض موته :

دَبَّ فِي السَّقَامُ عَلَوًا وَسُفْلًا . وَأَرَانِي أَمُوتُ عُصُوبًا فُصُوبًا
 لَيْسَ تَمِيعِي مِنْ لِحْظَةٍ بِي إِلَّا . نَقَصْتَنِي بِمَرِّهَا فِي جُرُوبًا
 دَهَتْ حِدَّتِي بِحَاجَةِ نَفْسِي . وَتَطَلَّبْتُ طَاعَةَ اللَّهِ يَصُوبًا
 لَهَفَ نَفْسِي عَلَى لِيَالٍ وَأَيَّامٍ . مَحَاوِزُهُمْ لِقَبَاً وَلَمَسُوا
 قَدْ أَسَاكَ كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالِد . هُمْ صَفْحًا عَنَّا وَغَفْرًا وَعَفْوًا

ثم قال :

يَشْعُرُ حَىَّ أَنَّكَ مِنْ لَفْظٍ مَيِّتٍ . صَارَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقْفًا
 قَدْ بَرَتْ حَسَمَةُ الْحَوَادِثُ حَتَّى . كَادَ عَنِ عَيْنِ الْخِلَاقِ يَنْحَنَى
 لَوْ تَأَمَّلْتَنِي تُثْبِرَ وَجْهِي . لَمْ تَبْنِ مِنْ كِتَابٍ وَجْهِي حَرْفًا
 وَلَكَّرْتَ طَرَفَ عَيْنِكَ فِيمَنْ . قَدْ بَرَاهَ السَّقَامُ حَتَّى تَمَسَّى

وكان عمر أبي نواس تسعا وخمسين سنة ، وكانت وفاته قبل دخول المأمون مدينة

السلام بست سنين (سنة ١٩٨) .

٢ - العتّابي^(١)

قال أحمد بن سهل: تذاكرنا شعر العتّابي فقال بعضنا: فيه تكلف، وبصره بعضنا،

فقال: شيخ حاصر، ويحكم! يُقال إن في شعره تكلفا وهو القائل:

رُسِّلَ الضمير اليك تَرَى * بالشوق ظالمة وحسرى

مَرَجَّياتُ ما يَبْدُ * نَعلِي الوَحَامَنَ مَعْدَمَسَرَى^(٢)

ما جَفَّ للعَيْبِ مَعْدُ * لَدُنْكَ يَاقَرِيرَ العَيْنِ مَجْرَى

فَأَسْلَمَ سَلِمَتَ مُبَرَّأ * مِنْ صَبَوْتِي أَلَدَا مُعْرَى

(١) هو كثوم بن عمرو بن أيوب الثاني النبطي من ولد غناب بن أسيد ثم من بني نبط بن وائل، شاعر مرسلي طبع مطوع منصرف في مود الشعر مقدم، من شعراء الدولة العباسية، وكان مقطعا إلى البرامكة بوصفه الرشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ وعلقت فوائده به.

وكان حسن الاعتدال في شعره ورسائله وله مصنفات في المطلق والأدب والمثابة وكان يقم في رأس عين ميسدا من دور الخلفاء والأمراء. وبلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها طلبت إجماعه إليه فغاء. وله يقص عظيم وعروة وحج، وعمل كتبه ملحمة حامية صير مرويل، فلما رجع الخبر قدومه إلى الرشيد أمر أن تهرس له هجرة وقام له وطبعة فعملوا، فكانت المائدة إذا قدمت إليه أحدها رقاقة وملحها وحلقت الملح بالتراب فأكلها، فإذا كان وقت اليوم نام على الأرض، والخدم يتعقدونه ويتممون من مله. وسأل الرشيد عنه فأخبروه فأمر بطرده فخرج حتى أتى يحيى بن سعيد الغبيل وهو في منزله فسلم عليه وانسحب له مرحب به وقال له: «ارتمع» فقال: «لم آتكنك لملوس» قال: «فما حاجتك» قال: «دابة أطلع عليها إلى رأس عين» فقال: «يا غلام، أعطه العرس الغلابي» فقال: «لا حاسن لي ذلك ولكن تأمر أن تشتري لي دابة أطلع عليها» فقال للغلام: «امض معك فأتبع له ما يريد» فعصى منه فبذل به العتّابي إلى سوق الخير فقال للغلام: «إنما أمرني أن أتابعك دابة» فقال له: «أيه أرسلك معي ولم يرسلني معك فان علمت ما أريد والوا اصبر» فعصى منه فاشترى جارا بمائة وحسين درهمين وقال: ادع إليه فمعه. فذهبه إليه فركب الحمار عريا بمرجعة عليه وبردة وساقاه مكشوفتان، فقال له يحيى بن سعيد: «صحنى! أهل يحمل مثلك على هذا!» فصحك وقال: «ما رأيت قدرك يتوحد أكثر من ذلك» وعصى إلى رأس عين.

توفي سنة ٢٢٠ هـ ونجد أحسابه في الأغاني (ح ١٢ ص ٢) وروايات الوفيات (ح ٢ ص ١٣٧).

(٢) أي منبجيات بالقليل حتى يصلن اليك.

إِنَّ الصَّبَابَةَ لَمْ تَدْعُ * مَنَى سَوَى عَظِيمٍ مُبَرَّى
وَمِنْدَامٍ عَبَّرَى عَلَى * كَبِدِ عَلَيْكَ الدَّهْرَ حَرَّى
أَوْ يُقَالُ إِنَّهُ مُتَكَفِّفٌ وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

فَلَوْ كَانَ لِلشَّرِّ شَخْصٌ يَبِينُ * إِذَا مَا نَأَى لَهَ الْبَاطِلُ
لَمَثَلْتُهُ لَكَ حَتَّى تَرَاهُ * لَتَعْلَمَ أَنِّي أَمْرٌ شَاكِرٌ

وَحَدَّ الرِّشِيدُ عَلَى الْعَتَايَ فَدَحَلَ سِرًّا مَعَ الْمُتَطَلِّبِينَ ضَبْرًا نَدَى الرِّشِيدُ وَقَالَ
لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ آذَنِي الْمَاسُ لَكَ وَلَعَسَى فَيْكَ ، وَرَدَّنِي آتِلَاؤُهُمْ إِلَى شُكْرِكَ ، وَمَا مَعَ
تَدَحُّرِكَ قَاعَةَ ضَبْرِكَ ، وَلَيْتَ الصَّائِتُ لَتَعْسَى كَسَتْ لَوْ أَعَانِي عَلَيْكَ الصَّبْرُ ، وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ :

أَحْضِي الْمَقَامَ الْعَمْرَانِ كَالْعَرَى * سَأَ حُلِبَ أَوْ رَلَّتِ الْقَدَمَانِ
أَتَرَكْنِي حَذَبَ الْمَعِيشَةِ مُقْتَرَا * وَكَمَاكَ مِنْ مَاءِ الْبَدَى تِكْفَانِ
وَتَحْعَلْنِي سَهْمَ الْمَطَامِعِ بَعْدَ مَا * تَلَّيْتُ يَمِينِي بِالْبَدَى وَلِسَانِي

فَأَعْبَ الرِّشِيدَ قَوْلُهُ ، وَخَرَجَ وَطَلِبَهُ الْحَلَجَ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِمَجَازِهِ .

كَلَّمَ الْعَتَايَ يَحْيَى بْنُ حَالِدٍ فِي حَاجَةِ تَكَلُّمَاتٍ قَلِيلَةٍ ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى : لَقَدْ زُرُّكَ لَامُكَ الْيَوْمَ
وَقُلْ ، فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ لَا يَقُلْ وَقَدْ تَكَلَّفْنِي ذَلِكَ الْمَسْأَلَةَ وَحَبَّرَهُ الطَّلَبُ وَحَوَّضَ الرَّدَّ ؟ فَقَالَ :
وَاللَّهِ إِنِّي قُلْتُ كَلَامَكَ لَقَدْ كَثُرَتْ فَوَائِدُهُ ، وَقَصَصْتُ حَاجَتَهُ .

قَالَ يَحْيَى بْنُ حَالِدٍ الرِّمَكِيُّ لَوْلَهُ إِنْ قَدَّرْتُمْ أَنْ تَكْتُبُوا أَعْيَاسَ كَلْتُمُومٍ بَيْنَ عَمْرٍو الْعَتَايَ
فَصَلَا عَلَى رَسَائِلِهِ وَشَعْرِهِ ، فَلَمْ تَرَوْا أَمْدًا مِثْلَهُ .

وَقَفَّ الْعَتَايَ سَابِغَ الْمَأْمُونِ بِلَتَمَسِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، فَصَادَفَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ جَالِسًا يَنْتَظِرُ
الْإِدْنَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ رَأَيْتَ أَعْرَكَ اللَّهُ أَنْ تَذْكُرَ أَمْرِي لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَخَلْتَ فَاعْمَلْ ، قَالَ
لَهُ : لَسْتُ أَعْرَكَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ حَاجَا فَقَدْ يَفْعَلُ مِثْلُكَ مَا سَأَلْتُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةً ، وَحَمَلَ زَكَاةَ الْمَالِ رِفْدَةُ الْمُسْتَعِينِ ، وَزَكَاةَ الْجَاهِ إِظْهَارُ
الْمُلُوهَوِّ ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَقْبِلٌ عَلَيْكَ بِالزِّيَادَةِ إِنْ شُكِرَتْ ، أَوْ التَّغْيِيرِ إِنْ كُفِّرَتْ .

وإلى لك اليوم أصلح منك لعسك، لأنى أدعوك الى ازدياد نعمتك وأنت تأبى، فقال له
يحيى: أفعل وكرامه، ونخرج الإذن ليحيى، فلما دخل لم يبدأ بشئ، بعد السلام إلا أن أستاذنا
المأمون للعتابى، فأدين له .

وقيل له . لو تزوجت، فقال: إني وجدت مكابدة العفة أيسر على من الاحتبال
لمصلحة العيال .

قال دغيل: ما حدثت أحدا قط على شعركما حدثت العتابى على قوله:

هَيْئَةُ الإِحْوَانِ قَاطِعَةٌ . لأننى الحاجات عن طلبه

وإذا ما هَيْئَتِ ذَا أَمَلٍ . مات ما أملت من سببه

كان العتابى حالسا ذات يوم ينظر فى كتاب، فتر به بعض حيرانه، فقال: أيش ينفع
العلم والأدب من لا مال له* فأنشد العتابى قوله .

يَا قَاتِلَ اللَّهِ أَقْوَامًا إِذَا تَقَفُّوا * ذَا اللَّبِّ يَنْظُرُ فِي الْأَدَابِ وَالْحِكْمِ

قالوا وليس هم إلا قَاسَتْهُ^(١) * أَمَاقُ ذَا مِنَ الْإِقْتَارِ وَالْعُلْمِ

وليس يدرون ما الحُظُّ الَّذِى حُرِّمُوا — لِحَالِهِمُ اللَّهُ — مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ فَهْمٍ

ومن قوله أيضا .

لَسْتُ كَأَنَّ الدُّيَا أَمَانَتُكَ ثَرَوَةً . فأصبحت ذا بُسْرٍ وَقَدْ كُنْتَ ذَا صُيْرٍ

لَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ حَازِيًا . من اللُّؤْمِ كَانَتْ تَحْتَ سِتْرِ مِنَ الْفَقْرِ

وقال أيضا:

رَحَلَ الرَّحَاءُ إِلَيْكَ مَعْتَرِيَا . حُسِدَتْ عَلَيْهِ نَوَائِبُ الدَّهْرِ

رَدَّتْ إِلَيْكَ مَدَامَتِي أَمَلِي . وَثَا إِلَيْكَ عَيْنَانِي شُكْرِي

وَحَمَلْتُ عَيْنَكَ عَتَبَ مَوْعِطَةٍ . وَرَحَاءَ عَمُوكَ مِنْهُي أَمَلِي

لما سعى منصور الأموى العتابى الى الرشيد أغاظ عليه فطلبه، فسأره جعفر بن يحيى

عنه مائة وجعل يستعطفه عليه حتى استلب ما فى نفسه وأمنه، فقال يمدح جعفر بن يحيى:

ما زلتُ في عَمَرَاتِ الموتِ مُطَرِّحًا * قد صاق عني فسيحُ الأرض من حِيلٍ
ولم تزل دأبًا تسمى لطفك لي * حتى أَخْلَسْتَ حياتي من يَدَيَّ أُحْلَى
عاد صد الله بن طاهر وإسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَبِ كَلْبُومِ بن عمرو العتّابي في علة
أَحْلَئَهَا، فقال الناس : هذه خَطَرُهُ خَطَرَتْ ، فلغ ذلك العتّابي ، فكتب الى عبد الله بن
طاهر :

قالوا الزبارة خَطَرُهُ خَطَرَتْ * ويحارُّ يرك ليس بالخطر
أَظِلُّ مَقَاتِلَهُمِ بَنَانِيَّة * سَتَعِدُ المعروف مِن شكري
فلما لمعت آياتُهُ عَدَّ الله بن طاهر محك من قوله ورك هو وإسحاق فآداه مره
ثانية .

كانت له أمراءه من ماهلة ، فلما مضى الى رأس عين قالت له : هذا مصور القري :
قد أخذ الأموال على نساءه وهى داره وأشترى صبيانا وأنت ههنا كما ترى ، فأشأ يقول :
تلوم على تركِ العيني ماهليَّة * دوى الفقر عنها كلَّ طرف وتالد
رأت حولها السواد رمق في الترى * مقنَّدة أعاقفها بالقلائد
أسرك أنى لنتُ ما مال جمعصر * من العيش أو ما مال يحيى حاله
وأن أمير المؤمنين أعصى * ففصهما بالمرهفات السوارد
رأيت رفيعات الأمور مشوئة * بمستودعات في طلون الأساود
دعيتي تيمحي ميتي مطمئة * ولم اتحشم هوَل تلك الموارد

لما قديم العتّابي مدينة السلام على المأمون أدن له ، فدخل عليه وعده إسحاق بن إبراهيم
الموصلى ، وكان العتّابي شيخا حليلا نبلا ، فلم فردّ عليه وأدناه وقربه حتى قرّب منه ، فقبل
يده ، ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وهو يحببه لسان دلق طلق ،
فاستطرف المأمون ذلك وأقبل عليه بالمداغة والمزاح ، فظن الشيخ أنه استخف به ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، الإنّاس قبل الإنّاس^(١) ، فاشبه على المأمون قوله ، فنظر الى إسحاق مستههما ،

فأومأ اليه وعمره على معناه حتى فهم، فقال: يا علام، ألف دينار، فأبى بذلك، فوضع بين يدي العتابي وأحدوا في الحديث، وعمر المأمون لإسحاق بن إبراهيم عليه، بجعل العتابي لا يأخذ في شيء إلا عارضه إسحاق، فبقي العتابي متعجبا، ثم قال: يا أمير المؤمنين، أنا فذل في سؤال هذا الشيخ عن اسمه؟ قال: نعم سأل، فقال لإسحاق يا شيخ، من أنت وما اسمك؟ قال: أنا من الناس وأسمى كل بصل، فتهبم العتابي وقال: أما أنت فعروف وأما الاسم فسكر، فقال إسحاق: ما أقل إصافك! أنكر أن يكون اسمي كل بصل، واسمك كلثوم، وكلثوم من الأسماء، أو ليس البصل أطيب من الثوم؟ فقال له العتابي: فله ذلك! فما أحجك، أنا فذل لي يا أمير المؤمنين و أن أصله بما وصلتني به؟ فقال المأمون: بل ذلك موثر عليك وأمر له بمثله. فقال له إسحاق: أما إذ أقررت بهذه فتوهمي تجذني، فقال: ما أطلك إلا إسحاق الموصلي الذي ينتهي اليها حبه، قال: أما حيث طننت، وأقبل عليه بالتحية والسلام، فقال المأمون: وقد طال الحديث بينهما — : أما إذ قد أتممتا على المودة فاصيرفا متبادعين، فاصبر العتابي إلى منزل إسحاق فأقام عنده.

قال عثمان الوراق: رأيت العتابي يأكل حبرا على الطريق بيباب الشام، فقلت له: ويحك! أما تسبحي؟ فقال لي: رأيت لو كا في دار بها بقر كست تستحي وتخشع أن تأكل وهي تراك؟ فقال: لا، قال: فاصبر حتى أعلمك أنهم بقر، فقام موعظ وقص ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم: روي لنا غير واحد أنه من بلغ لسانه أربعة أفه لم يدخل النار، فابني أحد إلا أرحح لسانه يومئذ به نحو أربعة أفه ويقدره حتى يبلغها أم لا، فلما تمزقوا قال لي العتابي: ألم أحبرك أنهم بقر؟

قال الفصل: رأيت العتابي بين يدي المأمون وقد أسس، فلما أراد القيام قام المأمون فأخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون، فزال المأمون ينهضه رويدا رويدا حتى أقبله فنهض.

وكتب كلثوم بن عمرو العتّابي إلى صديق له يستحديه :

أما بعد — أطل الله بقاءك وحمله يمتدّك إلى رِضوانه والحنّ — فإنك كنت
عدنا روضة من رياض الكرم، تنهّج النفوس بها، وتستريحُ القلوب إليها، وكنا نعيها
من النجّة^(١) استئتما لرهبتها، وشعقة على خصرنها، وأذحارا لثمرتها، حتى أصابنا سنة
كانت صدى قطعة من سبي يوسف أشنت عليها^(٢) كلها، وغاب قطعها، وكذبنا عبومها،
وأخفنا بروقها، وقدما صالح الإحوان فيها، فانهضتْ . وأنا ما بجاعى إليك شديد الشفقة
عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد^(٣)، وأنت تقطى عن الحاسد . والله يعلم أنى ما أمدك
إلا فى حومة الأهل^(٤) . وأعلم أن الكريم إذا استجيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير،
لم يعرف جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول فى ذلك :

إذا تكومت عن بذل القليل ولم . تقدير على سمّ لم يطهر الجود

بث النوال ولا تمك قنّته . فكل ما سدّ فقرا فهو محمود

قبل فشاطره جميع ماله .

(١) النجّة . طلب الكلا فى موضعه . (٢) الكلب . انقضى وبلاء الشاء ومن يصيب

الكلاب . (٣) الرائد : الطالب . (٤) الحومة ها . الحاجة والطائمه .

٣ - دَعِيل^(١)

شاعر متقدم مطبوع ههـ حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا من وزراءهم ولا أولادهم ولا دوابهـ أحس إليه أم لم يحس، ولا أظن منه كبيراً أو صغيراً .

وكان دَعِيل من الشيعة المشهورين بالليل إلى على صلوات الله عليه، وقصيدته: «مدارس آيات خلّت من تلاوه» من أحسن الشعر وفاحر المدائح الموقّلة في أهل البيت عليهم السلام، وقصد بها أبا علي بن موسى الرضا عراسان، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المصرية باسمه وحل عليه حلّه من ثيابه، فأعطاه بها أهل قم ثلاثين ألف درهم . فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأحدوها، فقال لهم . إنها إنما تُراد لله عز وجل وهي محزّمة عليكم، فدعوا إليه ثلاثين ألف درهم، خلّف ألا يبيعها أو يعطوه بمصّها ليكون في كفته، فأعطوه فردّها، فكان من أكمّانه .

قال إبراهيم بن المهدي لأماون فولاً في دَعِيل يحوصه عليه، فصحك المأمون وقال : إنما تحزّني عليه لقوله فيك :

يا معشر الأجساد لا تقطعوا * وأرصدوا بما كان ولا تسحطوا
سوف تعطون حبيبة^(٢) * تتدّها الأُمُردُ والأُتمط
والمقديّات^(٣) لقوادكم * لا تدخل الكبس ولا تُرط
وهكذا يرزق قوادّه حليقة^(٤) مُصحّفه البربط

(١) هو دَعِيل بن علي بن رزير من حراة، أصله من الكوفة وجاء مداد طلب من الرشيد . وهو شاعر مطبوع ههـ، حيث اللسان، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا دوابهـ أحس إليه أم لم يحس، ولا أظن منه كبيراً أو صغيراً، فكان الناس يحافونه ويتقونه حتى المأمون ياله محام شديد واحتدل ذلك منه . توفي سنة ٢٤٦ هـ . وتعد أحاده في الأثنى ح ١٨ ص ٢٩ وأن حلكا ح ١ ص ١٧٨ والشعر والشعراء . ص ٣٩٩ والفهرست (ص ١٦١) . (٢) يريد أصواتاً مسوطة إلى حيف الحيرى المعنى . (٣) يريد أصواتاً مسوطة إلى مد المعنى .

قد حَمَّ القُصَّكُ بأرزا قكم • وصَحَّحَ العزَمَ فلا نَسَخَطُوا
بَيْعَةَ ابراهيم مشعومة • يُقَتَّلُ فِيهَا الخَلْقُ أَوْ يَقْطَعُوا

فقال له ابراهيم : فقد والله هجأك أنت يا أمير المؤمنين ، فقال : دع هذا عك فقد عفوت
عه في هجائه إياي لقوله هذا ، وصحكت . ثم دخل أبو عباد ، فلما رآه المأمون من بُعد قال
لإبراهيم : دعبل يحسر على أبي عباد في الهجاء ويُحجم عن أحد ! فقال له : وكان أبا عباد
أبسط يدا سك يا أمير المؤمنين ، قال : لا ! ولكنه حديد جاهل لا يؤمن ، وأنا أحلم
وأصفح ، والله ما رأيتُ أبا عباد مبعلا إلا أصحكى قولُ دعبل فيه :

أولى الأمور بَصِيغُهُ وفساد • أمرٌ يذُبرُهُ أبو عَباد
حَرِّقْ عَلَى جِلْسَانِهِ فَكأنهم • حَصَرُوا المِلْحَمَةَ ويومِ جِلاذ
يَسْطُو عَلَى كِتَابِهِ بِدَوَاتِهِ • قَصَصَ بَدَمٍ وَنَضَحَ بِدَادٍ
وَكأنه مِن دَيْرٍ هَرَقْلٍ مُفْلِتٌ • حَرَدِيحُ سِلَاسِلِ الأَقْيَادِ
وَأشدُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَثَاقُهُ • فَاصْحُ مَسَةِ قِيَةِ الحَدَادِ

وكان «بقية» هذا محونا في البهارستان .

قال أبو خالد الخزازي لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد وتوتت
اللاس جميعا ، فأنت دهرَكَ كُلَّهُ شريدٌ طريد هارب خائف ، فلو كعمت عن هذا وصرفت
هذا الشر عن نفسك ! فقال : ويحك ! انى تأملت ما تقول فوجدت أكثر اللاس لا يُنتفع
بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى الشاعر وإن كان يُجيدا اذا لم يُخَفَ شره ، ولئن يتقبك على
عرسه أكثر ممن يرعب اليك في تشريعه ، وعيوبُ اللاس أكثر من محاسنهم ، وليس كل
من شَرَفْتَهُ شُرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه أنتفع
بقولك ، فاذا رأكَ أوجعت عِرْصَ غيره وفصحته آتقاك وخاف من مثل ما جرى على
الآخر ، ويحك يا أبا حالد ! إن الهجاء المقذع أحدُ صنيعِ الشاعر من المديح المصرع ، فضحك
أبو حالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حَتْفَ أنفه .

كان سببُ خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر ويصحب الشطار، فخرج هو ورجل من أخصب فيما بين المشاء والعتمة، بغلسا على طريق رجل من الصيافة، وكان يروج كل ليلة بكبسه الى منزله، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه بحرّاه وأخذ ما في ثمّته، فاذا هي ثلاث رُمّانات في خِرقة، ولم يكن كبسه ليلتذّ معه، ومات الرجل مكانه، وآسّتر دعبل وصاحبه وحّد أولياء الرجل في طلبهما وجّد السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار فاضطر الى أن هرب من الكوفة، فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد.

قال أحمد بن خالد : كذا يوما بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد ومعا جماعة من أصحابها، فسقط على سطح البيت ديك طار من دار دعبل، فلما رأياه قلنا : هذا صبيدنا، فاخذناه، فقال صالح : ما يصعب به قلنا : ندبجه، فذبحناه وشويناه. وخرج دعبل فسأل عن الديك فعرف أنه سقط في دار صالح، فطلبه متابعهذاته وشربا يوما، فلما كان من الغد خرج دعبل ففصل الغداة ثم جلس على باب المسجد — وكان ذلك المسجد يجتمع الناس يجمع فيه جماعة من العلماء ويتناهبهم الناس — بغلس دعبل على باب المسجد وقال :

أَسْرَ الْمُؤَدَّنَ صَالِحٌ وَضِيْفُهُ * أَسْرَ الْكَيِّ هَفَا حِلَالِ الْمَاقِطِ

عَسَوْا عَلَيْهِ يَنْهَسُمْ وَبَاتَهُمْ * مِنْ بَيْنِ نَائِفِيَّةٍ وَأَنْثَرِ سَامِطِ

يَتَازَعُونَ كَانَهُمْ قَدْ أَوْثَقُوا * حَاقَانِ أَوْ هَزَمُوا قِبَائِلَ نَاعِطِ^(١)

نَهَشُوهُ فَانْتَرَعَتْ لَهُ أَسْنَانُهُمْ * وَتَهَشَّمَتْ أَفْعَاؤُهُمْ الْحَالِطِ

فكتبها الناس عنه ومَضَوْا، فقال لي أبي، وقد رجع الى البيت : ويحك ! صاقت عليك المأكّل فلم تجدوا شيئا تأكلونه سوى ديك دعبل ! ثم أنشدنا الشعر، وقال : لا تدع ديكا ولا دجاجة تقدر عليه إلا اشتريته وسمّته به الى دعبل وإلا وقصا في لسانه، ففعلت ذلك. قال أحمد بن أبي كامل : كان دعبل ينشد كثيرا هجاء له، فأقول له فيمن هذا؟ فيقول ما أستحقّه أحدٌ بعينه بعد، وليس له صاحب، فاذا وجد على رجل جعل ذلك الشعر فيه وذكر اسمه في الشعر.

(١) قيلة من همدان، وأصله حل نزلوا هفسوا اليه.

كان دجبل يختلف الى الفضل بن العباس بن حفص بن محمد بن الأشعث، وهو خرجته وفهمه وأدبه، فظهر له منه جفاء وبلغه أنه يعيبه ويذكره وينال منه، فقال يهجوهُ :
يا مُؤسَّ للفصل لو لم يأت ما عَابَهُ * يستفرغ المَمَّ من سَمَاءِ قِرْطَابَةٍ
ما إن يزال وفيه العيبُ يجمعه * جهلا لأعراض أهل المجد عيَابَهُ
إن طابى لم يَبْتَ إلا مؤدَّبَهُ . ومَسَّهُ عَابُ لما عَابَ أَدَابَهُ
فكان كالكلب صَرَاهُ مَكَلَّهُ . لم يره فعدا فاصطاد كَلَابَهُ
كان دجبل يقول : ما كانت لأحد قط عندى مَنَّةٌ إلا تَمَيَّتْ موته .

كتب دجبل الى أبي تَهْشَل بن حُميد الطوسي قوله :

إما العيشُ في مُدامه الإخوا * ن لا في الجلوس عند الكُفَا
ويصرف كأنها أُنْسُ البر * قِ إذا استعرصت رقيقَ السحاب
إن تكونوا تركتمُ لدَّةَ العيد * ش حذارَ العقاب يومَ العقاب
فدعوني وما أَلَدَّ وأهوى * وأدفعوا في صدر يرم الحساب

قال محمد بن زكريا الفرغاني: سمعت دجبل يقول في كلام جرى «لَيْسَكَ» فأنكرته عليه؛ فقال : دخل زيد الخليل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : «يا زيد ما وُصِفَ لى رجل إلا رأيتُهُ دون وصفه لَيْسَكَ» يريد ضحك .

قال عمرو بن مَسْعَدَة : حضرتُ أبا دُلْف عند المأمون وقد قال له المأمون : أى شيء تروى لأخى خُرَاعَة يا قاسم ؟ فقال: وأى أخى خُرَاعَة يا أمير المؤمنين ؟ قال: ومنَ تعرف فيهم شاعرا ؟ فقال: أنا من أَقْسَمهم فابو الشَّيْص ودجبل وابن أبي الشَّيْص وداود بن أبي رِزِين، وأما من مواليمهم فظاهر وأبنة عبد الله ، فقال : ومن عسى من هؤلاء أن يُسأل عن شعره سوى دجبل ! هات أى شيء عندك فيه ؟ فقال: وأى شيء أقول في رجل لم يسلم عليه أهل بيته حتى يهاجم، ففرَّ من إحسانهم بالإساءة وبلمع وجودهم بالبخل، حتى جعل كل حسنة منهم بإزاء سيئة منه ؟ قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول في المطَّلب بن عبد الله

أبن مالك، وهو أصدق الناس له وأقربهم منه، وقد وفد إليه الى مصر فأعطاه الجوزيل وولاه، ولم يمنعه ذلك أن مال فيه :

إِضْرِبْ نَدَى طَلْعَةِ الطُّلُوعِ مَتَيْدَا * لِمَؤْمٍ مَطْلِبٍ فَيَا وَكُنْ حَكَمًا
تُخْرِجُ نُرَاعَةً مِنْ لَوْمٍ وَمِنْ كَرَمٍ * فَلَا تَحْسَ لَهَا لَوْمًا وَلَا كَرَمًا

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وأطفه وأدعاه، وجعل يضحك. ثم دخل صد الله
أبن طاهر فقال : أى شئ تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ آياتا له فى أهل بيت
أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ويحك ! فأنشده :

سَقِيًّا وَرَعِيًّا لِأَيَّامِ الصَّامَاتِ * أَيَّامِ أَرْقُلٍ فِي أَثْوَابِ لَدَاتِي
أَيَّامِ غَضَنِ رَطِيبٍ مِنْ لَيَّانَتِهِ * أَصْوَالِي عِيرَ جَارِيَةٍ وَتُكَّاتِ
دَعِ عَيْكَ ذِكْرَ زَمَانٍ قَاتَ مَطْلُهُ * وَأَقْدَبَ بِرَحْلِكَ عَنْ مَتْنِ الْحَمَّالَاتِ
وَأَقْصِدْ بِكُلِّ مَدْيَحٍ أَنْتَ قَاتِلُهُ * نَحْوِ الْمُدَاةِ بَنَى بَيْتَ الْكَرَامَاتِ

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال، ونال بعيد ذكركم ما لا يناله فى وصف غيرهم.
ومن قول دعبل وفيه غاء :

أَيَّنَ الشَّبَابِ وَأَيَّةَ سَلَكَا : لَا أَيْنَ يُطْلَبُ صَلٍّ مِنْ هَلَكَا
لَا تَعْجَبِي يَا سَلَمٌ مِنْ رَحَلٍ * صَحَّكَ الْمَشَبُّ بِرَأْسِهِ بَكَى
يَا لَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ يَوْمُكَ * يَا صَاحِبِي إِذَا دَمِي سَفِكَ
لَا تَأْخُذُوا بِظُلَامَتِي أَحَدًا * قَلْبِي وَطَرْفِي فِي دَمِي أَشْرَكَ

قال إبراهيم بن المدبر : لَقِيتُ دَعْبِلَ بْنَ عَلِيٍّ قَتَلَتْ لَهُ : أَنْتَ أَجَسَرُ النَّاسِ عَدِي
وأقدمهم حيث تقول :

إِنِّي مِنَ الْقِسُومِ الَّذِينَ سَيُؤْمِهِمْ * قَتَلْتُ أَخَاكَ وَشَرَفْتُكَ بِمَقْعَدِ
رَفَعُوا مَحَلَّكَ مَدَّ طُولَ نَحْوِهِ * وَأَسْتَعْذُوكَ مِنَ الْخَضِيضِ الْأَوْهَدِ

وأولها :

أخذ المشيبُ من الشباب الأغيذ * والناثباتُ من الأثام بمَرصِد
فقال : يا أبا إصحاق، أنا أحمل خَشْبِي منذ أربعين سنة، فلا أجد من يصليني عليها .

كان دجيل يخرج فيعيب سِنَّ بَنُور الدنيا كلها ويرجع وقد أفاد وأثرى، وكانت
الثِّراة والصِّعاليك يَقُونَه فلا يُؤذونه ويؤاكلونه ويشارونه ويترنونه، وكان إذا لقيهم وضع
طعامه وشرابه ودعاهم إليه ودعا غلاميه : صف وشعف، وكأما مغنيين، فأقعدهما يغنيان
وسقامهم وشرب مهمهم وأنشداهم، فكانوا قد عرفوه وألغوه لكثرة أسفاره، وكأوا يواصلونه
ويصلونه . وأنشد دجيل لنفسه في بعد أسفاره :

حَلَلْتُ مَحَلًّا يَقْصُرُ الْبَرُّ دُونَهُ وَيَحْزَنُ عَنِ الْغُلْفِ أَنْ يَجْشِمَا

قال البحرى : دجيل بن علي أشعر عدى من مسلم بن الوليد، لأن كلام دجيل
أدخل في كلام العرب من كلام مسلم، ومذهبه أشع بمذاهبهم، وكان يتعصب له .

كان المعتصم يُنْصِتُ دَجِلا لطول لسانه . وبلغ دجبل أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب
إلى الجبل، وقال يهجوهُ :

بَكَى لِسَانَاتُ الدِّينِ مَكْتِيبُ صَبٍّ * وَفَاضَ فَرْطُ الدَّمْعِ مِنْ عَيْهِ غَرَبْتُ
وَقَامَ إِمَامٌ لَمْ يَكُنْ ذَا هِدَايَةِ * فَلَيْسَ لَهُ دِينٌ وَلَيْسَ لَهُ لُبٌّ
وَمَا كَانَتْ الْأَنْبَاءُ تَأْتِي بِمِثْلِهِ * يُمَلِّكَ يَوْمًا أَوْ تَدِينُ لَهُ الثُّرُبُ
وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الَّذِينَ تَنَامُوا * مِنَ السَّلَفِ الْمَاضِينَ إِذْ عَظُمَ انْخِلَابُ
مُلُوكِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْكُتُبِ سَبْعَةٌ * وَلَمْ تَأْتِ عَنْ ثَامِنٍ لَمْ تُكُنْتُ
كَذَلِكَ أَهْلُ الْكَهْفِ فِي الْكَهْفِ سَبْعَةٌ * حَيَّارٌ إِذَا حُدُّوا وَثَامِنُهُمْ كَلْبُ
وَإِنِّي لِأَعْلَى كَلْبِهِمْ عَكَ رَفْعَةً * لِأَنَّكَ ذُو ذَنْبٍ وَلَيْسَ لَهُ ذَنْبُ
لَقَدْ ضَاعَ مُلْكُ النَّاسِ إِذْ سَاسَ مُلْكُهُمْ * وَصَيِّفٌ وَأَشَاسٌ وَقَدْ عَظُمَ الْكَرْبُ
وَفَضَّلُ بْنُ مَرْوَانَ يَسْلَمُ ثَلَاثَةً * يَظَلُّ لَهَا الْإِسْلَامُ لَيْسَ لَهُ شَعْبُ

لما مات المعتصم قال محمد بن عبد الملك الزيات يرثيه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في خير قبرٍ لخيرِ مدفون

لن يجبر الله أمةً فقدتُ * مثلك إلا بمثل هارون

قال دعل يعارصه :

قد قلتُ إذ غَيَّبوه وأنصرفوا * في شرِّ قبرٍ لشرِ مدفون

إذهب إلى السار والعداب ما * حَقُّك إلا من الشياطين

مازلت حتى عقدت بيعةً ن * أضرت بالمسلمين والدين

وقال في ذلك وفي قيام الوائلي :

الحمد لله لا صبرٌ ولا جَلَدٌ * ولا عزاءٌ إذا أهلُّ البلاء رقدوا

حليمةٌ مات لم يحزن له أحد * وأحرقام لم يصرح به أحد

ولقد أحسن في وصف سفر سافره ، فقال ذلك السفر عليه ، فقال فيه :

ألم يأنٍ للسفر الدين تمحلوا * إلى وطنٍ قبل الممات رجوع

فقلت ولم أملك سواي عبء * تطلق بما ضمت عليه صلوع

تئين فكم دارٌ نشرق شملها * وتثمل شيت عاد وهو جمع

كذاك الليالي صرُفهن كما ترى * لكل أمانس جذبُهُ وربيع

ثم قال : ما سافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عيني في سفرى وهجرى ومسلى

حتى أعود .

ومن قول دعل وفيه غناء :

سرى طيفٌ ليل حين أن هبوبٌ * وقضيت شوقا حين كاد يدوب

فلم أرَ مطروقا يحل برحلة * ولا طارقا يقري المنى ويثيب

ومن قوله :

لقد عجبت سألنى وذاك عجبٌ * رأت بي شيئا عجته خلوط

وما شيتنى كبرةً غير أنى * بدهر به رأسُ العظيم يشيب

وقال في صالح بن عطية الأحمم وكان من أقبح الناس وجهاً، وحاطب فيها المعتصم :

قل للإمام إمام آل محمد * قول امرئ حبيب عليك عُحام
أنكرت أن تفتّر عك صبيعه * في صالح بن عطية الجّام
ليس الصانع عده مصانع * لكنهن طوائل الإسلام
إصرث به حبش العدو فإنه * حبش من الطاعون والبرسام

قال أبو تمام : ما زال دحل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقزاً بأستاديتّه، حتى ورد عليه
ببحرآن بجفاه مسلم، وكان فيه بخل، فهجّره دحبل وكتب إليه :

أبا غلّيد كما عبيد مودة * هوأنا وقلبانا جميعاً معاً
أحوطك بالنيب الذي أنت حاطلي * وأجرع إشفافاً من أن تتوجعاً
فصيرتني مداتك كائنات منها * لعسى عليها أرهب انطلق أجمعاً
عشت الهوى حتى تداعت أصوله * بنا وأبتذلت الوصل حتى تفعلاً
وأزلت من بين الجوانح والحنى * دخيرة ود طاملاً قد تمعاً
ولا تلحنني ليس لي فيك مطعم * تحزقت حتى لم أجد لك مرقماً
فهبك يميني استأكلت ففطعتها * وجشمت قلبي صبره فتشجعت
ثم تهاجرا ما ألتقيا بعد ذلك .

اجرى الرشيد على دحبل رزقا سنياً، فكان أول من حرّضه على قول الشعر . فوافقه ما بلغه
أن الرشيد مات حتى كافاه على فعله من العطاء السنّي والغنى بعد الفقر والرفعة بعد الخمول
بأقبح مكافاة، وقال فيه يهجوّه من قصيدة مدح بها أهل البيت عليهم السلام :

وليس تحي من الأحياء نعلمه * من ذى يمان ومن بكر ومن مضير
إلا وهم شركاء في دمانهم * كما تشارك أيسار على جزر
قتل وأسرو وتمسريق ومنبهة * فعل الفزاة بأرض الروم والخزير
أرى أمة معذورين إن قتلتوا * ولا أرى لبني العباس من عذر

أَرْتَعِ طُلُوسَ عَلَى الْقَبْرِ الزَّيِّ إِذَا * مَا كُنْتَ تَرْتَعِ مِنْ دِينَ عَلَى وَطَرِ
 قَبْرَانِ فِي طُلُوسٍ خَيْرُ النَّاسِ كُلِّهِمْ * وَقَبْرُ شَرِّهِمْ هَذَا مِنَ الْعَبَرِ .
 مَا يَنْفَعُ الزَّجْسَ مِنْ قَرَبِ الرِّكِيِّ وَلَا * عَلَى الزَّيِّ قَرَبُ الزَّجْسِ مِنْ صَرَرِ
 هِيَّاتٍ ، كُلِّ أَمْرٍ يَذْهَبُ مَا كَسَبَتْ * لَهُ يَدَاهُ نَحْضُ مَا شَلَّتْ أَوْ فَدَّرَ

* استدعى بعض بني هاشم دعلا وهو يتولى للعنعم ماحية من نواحي الشام ، مقصده
 إليها فلم يقع منه بحسن ظن وحماه ، فكتب إليه دعبل :

دَلَيْتَنِي بِغُرُورٍ وَعَدَكُنِي * مُتَلَاظِمٍ مِنْ حَوْمَةِ الْفَرْقِ
 حَتَّى إِذَا شِمْتَ الْعَدُوَّ وَقَدْ * شُهِرَ انْتِقَاصُكَ شُهْرَةُ الْبَلَقِ
 أَنْشَأْتَ تَخْلَفُ أَوْ وَدَّكَ لِي * صَافٍ وَحَبْلُكَ خَيْرُ مَسْحِقِ
 وَحَسْبَنِي قَعْمًا نَقَرَقَرَةً * فَوِطْنَتَنِي وَطْنًا عَلَى حَقِّ
 وَصَبَّتَنِي عَلَمًا عَلَى عَرَضِ * تَرْمِينِي الْأَعْدَاءُ بِالْحَلَقِ
 وَطَلَنْتُ أَرْضَ اللَّهِ صَبَقَةً * عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَصِقْ
 مِنْ غَيْرِ مَا جَرِّمَ سِوَى ثِقَةٍ * مَنَى بَوْعَدِكَ حِينَ قَلَّتْ ثِقِي
 وَمُسَوْدَةٍ تَحْصُو عَلَيْكَ بِهَا * عَمَى بِلَا مَنٍّ وَلَا مَلَقِ
 فَتَنِي سَأَلْتُكَ حَاحَةً أَمْدًا * فَاشْدُدْ بِهَا قُفْلًا عَلَى عَلَقِ
 وَقَفَّ الْإِحَاءُ عَلَى شَفَا جُرُوفٍ * هَارٍ مَعَهُ بَعْمَةٌ انْخَلَقِ
 وَأَعِزَّنِي قُفْلًا وَجَامِعَةً * فَاشْدُدْ يَدَيَّ بِهَا إِلَى عَنِي
 أَغْفِيكَ بِمَا لَا تَحْتَبِ بِهَا * وَأَسْدُدْ عَلَى مَدَاهِبِ الْأُقَى
 مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَصَهَا * وَأَدْلَنِي بِمَسَالِكِ الطُّرُقِ

دخل دعبل على عبد الله بن طاهر فأنشده وهو يبغداد :

جَثُّ بِلَا حُرْمَةٍ وَلَا بَهَبٍ * إِلَيْكَ إِلَّا بِجُرْمَةِ الْأَدَبِ
 فَاقِضْ ذِمَامِي فَإِنِّي رَجُلٌ * غَيْرُ مُلْعٍ عَلَيْكَ فِي الطَّلَبِ

فانتقل عبد الله ودخل الحرم ووجهه اليه بصره فيها ألف درهم ، وكتب اليه :

أعجلتنا فأناك عاجلٌ رُبنا - ولو أنتظرت كثيره لم يقلل

نغد القليل وكن كأنك لم تقل * ونكون نحن كأننا لم نفعل

مات دعبل بقرية من قرى السوس ، بعث اليه مالك بن طوق من ضرب ظهره

مكازلها زُجٌ مسموم مات من غد .

٤ - حسين بن الضحَّاك^(١)

« شاعرٌ ظريفٌ شديدُ الظُروفِ ، ربما أقطعَ نظيرهُ في شعراءِ العصرِ العباسيِّ كله ، وهو مع ظُروفه وإسرافه في المَجَوفِ ، قليلُ الفحشِ في اللفظ . غيرَ مُبالِكٍ على القولِ الأثيمِ والألفاظِ المنكُرةِ ، لا يَخْصِيها ولا يَقْصِدُ اليها ، وإنما يَعرِضُ لها إذا أصطُرَ اليها اضطُواراً وهو على ظُروفه ورقةٌ حاشيتهُ وحِرْصه على قِقاءِ اللفظِ وطُهره شاعرٌ بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، مجوّدٌ إذا فُكِّرَ ، مظفّرٌ إذا بحثَ ، موفّقٌ إلى اللفظِ المتينِ ، والأسلوبِ الرّصينِ في غيرِ جفوةٍ ولا غِلظةٍ ، لا يعرفُ التكلّفَ في لفظٍ ولا معنى ، وإنما ينطلقُ لسانه مع مجيئه ، ومجيئه سهلةٌ مرسّلةٌ غيبةٌ غزيرةُ المادةِ ، لا تكادُ تُضْبُ ، ولا يبالِها إعْياءٌ أو كَلالٌ ، وحيلتهُ كلها عبرٌ وعظاياتٌ ولكها عبرٌ وعظاياتٌ مبتسمةٌ ليست بالمظلمةِ ولا العابسةِ ولا بالتي تتركُ وتُترَكُ ، وتجعلُ للحزنِ والأسى إلى قلبك سبيلاً ، ولعلك لا تجدُ من شعراءِ هذا العصرِ رجلاً مثله ، تقرأُ أخباره فتُظَلُّ مبتسماً منذ تنتدئُ إلى أنه تنتهى دونَ أنْ تعيسَ أو تنقلبَ . وربما تماجوزتْ الأبتسامُ إلى الإغراقِ في الضحكِ من حينٍ إلى حينٍ ، ولككُ لن تتركِ الأبتسامَ إلى الحزنِ الشديدِ . وربما أعترضتكِ في طريقك بحبابةٍ محرّنةٍ ولكن هذه السحابةُ رقيقةٌ هادئةٌ هيبةٌ ، فهي أضعفُ من أنْ تزيلَ أبتسامتَكَ . وكان هذا الشاعرُ من المعصّرينِ ، بلغَ المائةَ أو كادَ ، وطاصرَ طبقاتٍ من الشعراءِ ، وألواناً من حاشيةِ الخلفاءِ ، ولكنه ظلَّ محتفظاً بشخصيتهِ الوادعةِ المبتسمةِ ، تغتيرُ النَّاسُ وأختلفتِ الظُروفُ ، وظلَّ هو واحداً

(١) هو مولدٌ بأهله ، وله في البصرةِ وشأ فيها وما دام الخلفاءُ من بني العباسِ ، وكان حليفاً فاسداً وكان مع ذلك حسنَ التصرفِ في الظنمِ ولشعره قبولٌ وروعةٌ ، هو من المتصيّين وله مكانٌ جديدةٌ في الحركةِ أو عواسٍ يأخذها عنه ، ومع أن أبا نواس مات سنة ١٦٨ هـ ، والضحّاك مات سنة ٢٥٠ هـ فقد تقاصرا لأن مولدهما متقاربٌ لأن ابنَ الضحّاك عمرٌ كثيراً . وهو أوّل من تادم الأبيّين وله فيه مدائحٌ كثيرةٌ ، وعمرهما طويلاً حتى قاربَ مائةَ السنةِ ومات في حِلّةِ الحسينِ أو المنصورِ . ويجد أخباره في الأمان (ج ٦ ص ١٧٠) وابنِ حنّكان (ج ١ ص ١٥٤) .

(٢) من بحوثِ صديقِ الدكتورِ وحسينِ أستاذِ الآدابِ العربيّةِ بالجامعةِ المصريّةِ .

لم يتعبه. كان حليما، بل كان يُعرف بالخلع، وكان كثير المحبون مُسْرِفا فيه، وما أحسب أن أبا نواس سقه الى لذة أو برز عليه في مأثم، ولكنه على حلاوته وإسرافه في المحبون وتهاكمه على اللذات، احتفظ طول حياته بنشء من كرم الخلق وطهارة العنصر وجودة الأصل، كما كانت هذه اللذات والآثام تنزلق على نفسه وأحلافه انزلاقا دون أن تترك فيها أثرا باقيا، وإنما كانت الآثار التي تركها لياليه الساهرة، وأيامه المملوءة بالعبث، هذه الأشعار الجميلة الحلوة التي سأطهرك على طرف منها .

فلم يكن هذا الرجل كبيره من الشعراء الذين إنما كانوا يصلون الى الخلفاء بعد الجهد والكد، وبعد التلطف وحس الحيلة، وإنما كان متصلا بالخلفاء اتصالا شديدا، يعاشرهم ويرافقهم ويتدخل في حياتهم الخاصة، وربما تدخل الى أكثر مما ينبغي . وكان الخلفاء يحنون عه، ويحرصون على عشرته ويدلون في ذلك غير قليل من الإلحاح والمطاء، وكان شعره كله أو أكثره مرآة لحياة القصر في أيام طائفة غير قليلة من الخلفاء .

تري من هذا الوصف أنه شاعر أديب طريف مطبوع، حسن التصرف في الشعر حلو المذهب، لشعره قبول ورويق صاف، وكان أبو نواس يأخذ معانيه في الغمر فيغير عليها، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسه الناس الى أبي نواس، وله معان في صفتها أروع فيها، وهاتى مسلم بن الوليد فانتصف منه، وله غزل كثير جيد، وهو من المطبوعين الذين تغلوا أشعارهم ومداهبهم جملة من التكلف .

قال : أنشدت أبا نواس قصيدتي التي قتلها في الحروهي :

بُدِّلَتْ مِنْ نَهْجَاتِ الْوَرْدِ بِالْآءِ * ^(١) وَمِنْ صَبُوحِ دُرِّ الْإِنْبِلِ وَالشَّاءِ

فلما انتهت منها الى قولي

حتى اذا أنشيت في البيت وأختصرت . عند الصبوح ببسامين أشكفاء
فُضَّتْ خواتمها في نمت واصفها * عن مثل رقرقة في جفن مرهاه ^(٢)

فصُحِقَ صَعْقَةً أَفْزَعْنِي وَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاقِهْ يَا أَشْقَرَ، فَقُلْتُ : وَيْلَكَ يَا حَسَنَ ، إِنَّكَ أَفْزَعْنِي وَاقِهْ، فَقَالَ : بَلْ وَاقِهْ أَنْتَ أَفْزَعْتَنِي وَرُغْنِي ، هَذَا مَعِيَ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي كَانَ فَكَّرِي . لَا بَدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهَا أَوْ أَغْوَصَ عَلَيْهَا وَأَقُولُهَا ، مَسْبِقَتِي إِلَيْهِ وَاحْتِلَسَتْ مِنِّي ، وَسَتَعَلِمَنَّ لِمَنْ يُرَوِّى أَيْ أَمَ لَكَ ؟ فَكَانَ وَاقِهٌ كَمَا قَالَ ، سَمِعْتُ مَنْ لَا يَعْلَمُ بِرُويَا لَهُ :

لَمَّا قَدِمَ الْمَأْمُونُ مِنْ نَحْرَاسَانَ أَمَرَ بِأَنْ يُسَمَّى لَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ لِيَجَالِسُوهُ وَيَسَاصِرُوهُ ، فَذَكَرَ لَهُ جَمَاعَةٌ فِيهِمُ الْحُسَيْنُ بْنُ الضَّحَّاكِ ، وَكَانَ مِنْ جُلَسَاءِ مُحَمَّدٍ الْمُخْلُوعِ ، فَلَمَّا رَأَى أَسْمَهُ قَالَ : أَلَيْسَ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ :

هَلَا بَقِيَتْ لَسَدٌ فَأَقْبَا * أَبَدَا وَكَأَنَّ لِفَيْرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَقْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا * وَلَسَوْفَ يُعَوِّزُ بِعَدْلِكَ الْحَلَفُ

لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَاقِهْ وَلَا يَرَانِي أَبَدًا إِلَّا فِي الطَّرِيقِ ، وَلَمْ يَعَاقِبِ الْحُسَيْنُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَهْجَاتِهِ لَهُ وَتَعْرِيزِهِ بِهِ ، وَأَتَمَحَدَّرُ حَسِينَ إِلَى الْبَصْرَةِ فَأَقَامَ بِهَا طَوِيلَ أَيَّامِ الْمَأْمُونِ .

قَالَ أَبُو صَالِحٍ سَ الرَّشِيدُ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْمَأْمُونِ وَمَعِيَ يَتَانِ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الضَّحَّاكِ ، فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ مِنِّي بَيْتَيْنِ ، فَقَالَ : أَنْشِدْهُمَا ، فَأَنْشَدْتُهُمَا :

حَمَدْنَا اللَّهَ شُكْرًا إِذْ حَبَّانَا * بِنَصْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
فَأَنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحْمَنِ حَقًّا * جَمَعْتَ سَمَاحَةً وَجَمَعْتَ دِينَنَا

فَقَالَ : لِمَنِ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ؟ فَقُلْتُ : لِعَبْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَسِينَ بْنُ الضَّحَّاكِ ، قَالَ : قَدْ أَحْسَنَ ، فَقُلْتُ : وَلَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجُودُ مِنْ هَذَا ، فَقَالَ : وَمَا هُوَ ؟ فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلَهُ :

أَجْرُنِي فَإِنِّي قَدْ ظَمِئْتُ إِلَى الْوَعْدِ * مَتَى تُجِيزُ الْوَعْدَ الْمُؤَكَّدَ بِالْمَهْدِ
أَعْيُنُكَ مِنْ خُلْفِ الْمُلُوكِ وَقَدْ بَدَا * تَقَطَّعَ أَنْفَاسُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَجْدِ
أَيُخْلِلُ قَرْدُ الْحَسَنِ عَنِّي بَائِلٌ * قَلِيلٌ وَقَدْ أَفْرَدْتُهُ بِهَوَى قَرْدٍ
رَأَى اللَّهُ جِدَّ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّا كَرِهَ وَاقِهَ أَعْلَمَ بِالْعَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عَصَمَةٌ * مُمَيِّزَةٌ بَيْنَ الْفَضْلَةِ وَالرُّشْدِ
فَأُطْرُقُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : مَا تَطْلُبُ تَقْصِي لَهْ بِخَيْرٍ بَعْدَ مَا قَالَ فِي أَخِي مُحَمَّدٍ مَا قَالَ .

ومن قوله يرى محمدا الأمين :

أُطِّلَ حَرًّا وَأَيْكَ الإمام محمدا * بحزن وإن خِفْتَ الحسام المهددا
فلا تَمِتْ الأَشْيَاءَ بعد محمد * ولا زال يُثَمِّلُ الملكُ منها مُبْتَدَا
ولا فِرَحَ المأمونُ بالملك بعده * ولا زال في الدنيا طريدا مُشْرِدا

ولحسن في محمد الأمين مَرَاتٍ كثيرة جَيَّادٌ، وكان كثير التحقق به والمؤالة له لكثرة
إفضاله عليه، وميله إليه، وتقديمه إياه، وطلع من جرعه عليه أنه خُلِيطَ فكان يُنكر قتله
لما لفته ويدفعه ويقول: إنه مستر وأنه قد وقف على دُعَاة في الأمصار يدعوون إلى مراجعة
أمره والوفاء ببيعة صَبَّأَ به وشعقه عليه .

ومن جيد مرثيته إياه قوله :

سألوا أَن يَفْ بَحْنٌ * فقلنا * من هَوَى عَجْبه فكيف يكون *
نحن قوم أصابنا حَتُّ الدَّهر * سر فظنَّا لِرَبِّه نستعِين
نَقْصَى من الأَمِينِ إِيَابَا * هَلَفَ نَفْسِي وَأَيُّ مَنَى الأَمِينِ

ومن جيد قوله في مرثيته إياه :

أَعَزَّى يا مُحَمَّدُ عك نَفْسِي * معاذ الله والأيدى الحسام
فهلَّ مات قومٌ لم يَمُوتُوا * ودُفِعَ عك لي يومَ الحِمام
كَانَ الموتُ صادفَ مك غُيًّا * أو أَسْتَشْفِي بقربك من سَقَامِ

وقال أيضا برثيه :

يا حيرَ امرئته وإن زعموا * إني عليك لَمُتُّ أَسْفُ
الله يعلم أَن لي كُندا * حَرَى عليك ومقلَّةٌ تَكْفُ
ولئى نَجِيتُ بما رُزْتُ به * إني لأشمر فوق ما أَمِصفُ
هَلَا يَقيتَ لَسَدَ فاقتنا * أبدا وكان لغيرك التَلَفُ
فلقد خَلَعْتَ خلافا سَلَفُوا * ولسوف يُمَوِّزُ بمدك الخلفُ

لَامَات رَهَطُكَ مَدَهْفُوتَهُمْ * إِنِّي لَرَهَطُكَ مَدَهَا شَيْفٌ ^(١)
 هَتَكُوا بِجَرْمَتِكَ الَّتِي هَتَيْتَ * حُرِّمَ الرُّسُولُ وَدَوَّهَا الشُّجْفُ
 وَتَنَّتْ أَقَارِبُكَ الَّتِي حَدَّاتُ * وَجِيسُهَا مَالِئٌ مَعْرِيفُ
 لَمْ يَفْعَلُوا بِالشَّطِّ إِذْ حَصَرُوا * مَا تَفْعَلُ الْفَيَّانَةُ الْأَنْفُ
 تَزَكُوا حَرِيمَ أَيُّهُمْ قَلَا * وَالْمُحَصَّاتُ صَوَارِحُ هُفُ
 أَدَّتْ مُخْلَعَهَا عَلَى دَعَشٍ * أُنْكَارُهُنَّ وَرَنْتُ الصَّفُ
 سَلَيْتَ مَعَارِجَهُنَّ وَاجْتَلَيْتَ ^(٢) * دَاتُ اللَّقَابِ وَبُوزَعُ الشَّفِ
 فَكَانَهُنَّ حِلَالٌ مُنْتَهَبٌ * دُرٌّ تَكْشِفُ دَوْنَهُ الصَّفِ
 مَلِكٌ تَحْوِزُ مُلْكُهُ قَدْرٌ * فَوَهَى وَصَرَفُ الدَّهْرِ مُخْتَلِفُ
 هِيَاتٌ مَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَهَا * عِزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَهَا شَرَفُ
 لَا هَيُّوا مُحْصَا مَشْرِفَةٍ * لِلْمَادِرِينَ تَحْتَهَا الْجَدَفُ
 أَقْبَعُ عَهْدِ اللَّهِ تَقْتَبِلُهُ * وَالْقَتْلُ هَدَامَةٌ سَرَفُ
 فَسَتَعْرِفُونَ عِدَا عَاقِبَةٍ * عِزُّ الْإِلَهِ فَأُورِدُوا وَقِفُوا
 يَأْمَنُ يُحَوِّنُ يَوْمَهُ أَرْقُ * هَدَّتِ الشَّجُونُ وَقَلْبُهُ لَهْفُ
 قَدْ كَسَتْ لِي أَمَلًا عَيْتُ بِهِ * هَمِي وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْأَسْفُ
 مَرِيحُ النِّظَامِ وَعَادَ مُتَكْرِنًا * عُرْفَا وَأُنْكَرَ مَعْدَكَ الْعُرْفُ
 فَالْمُشْمَلُ مَنَشَرُ لَفْعِكَ وَالْ * لَدُنْيَا سُدَى وَالْبَالُ مَكْسَفُ

وقال أيضا يرثيه :

إِذَا دُرِّكَرَ الْأَمِينُ سَمَى الْأَمِيْبَا * وَإِنْ رَقَدَ الْخَلِيْلُ حَتَّى الْجُفُوعَا
 وَمَا بَرَحْتُ مَنَازِلُ بَيْنَ بُصْرَى * وَكَكَلَوَادَى تُهَيِّجُ لِي نَجْوَا
 عِرَاصُ الْمَلِكِ خَاوِيَةٌ تَهَادَى * بِهَا الْأَرْوَاحُ تَنْسُجُهَا فَوْنَا

(١) ممض مشكور . (٢) جمع مصرع بالسر وهو ثوب تنشره المرأة أى تشده على رأسها .

تَحْشُونَ عِزَّ سَاكِنِهَا زَمَانٌ * تَلْعَبُ بِالْقُرُونِ الْأَوَّلِينَ
 فَتَنْتَ شِتْلَهُمْ بَعْدَ احْتِمَاعٍ * وَكُنْتُ بِحَسَنِ الْفَتَمِ ضَمِينَا
 فَلَمْ أَرِ مَعْدَمَ حُسْنِ مِوَاهِمٍ * وَلَمْ تَرَقِّمْ عِيُونَ الْبَاطِرِينَ
 هُوَ أَسْفَا وَإِنْ شَمَّتِ الْأَعَادَى * وَأَيَّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 أَصَلَ الْعُرْفَ مَعْدَكَ مُتَعَوِّهٍ * وَرُقِّعَ عَنْ مَطَايَا الرَّاغِبِينَ
 وَكُنْ إِلَى جَمَانِكَ كُلِّ يَوْمٍ * يَرْحُحَ عَلَى السَّعُودِ وَيَمْتَدِّينَا
 هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي هُوَتِ الْمَعَالَى * لِمَلَكْتِهِ وَرَبِيعِ الصَّالِحِينَ
 سَتَدْبُ مَعْدَكَ الدُّنْيَا جَوَارَا * وَتَسْدُبُ مَعْدَكَ الدِّينَ الْمُصُونَا
 فَقَدْ نَعَبْتُ بِشَاشَةِ كُلِّ شَيْءٍ * وَعَادَ الدِّينَ مَطْرُوحَا مَهِينَا
 تَعْقِدُ عِزَّ مُتَهَيِّلٍ مَكْسَرَى * وَمِلَّتَهُ وَذَلَّ الْمَسْلُومَا

وقال أيضا يرثيه :

أَسْفَا عَلَيْكَ سَلَاكُ أَقْرَبُ قُرْبَةٍ * مَنَى وَأَحْرَانِي عَلَيْكَ تَزِيدُ

قال أبو العباس محمد بن يزيد الأزدى : حين بن الضحاك أشعر المحدثين حيث يقول :

أَيُّ دِيَاغِيَةِ حُسْنٍ * هَبِجْتُ لَوْعَةً حَزَى
 إِذْ رَمَانِي الْقَمَرُ الرَّا * هَمَّ مِنْ فَتْرَةِ جَفْنِ
 بِأَبَى شَمْسٍ نَهَارٍ * بَرَزْتُ فِي يَوْمِ دَجْنِ
 قَرَّبْتَنِي بِالْمَسَى حَتَّى * يَا إِذَا مَا أَحْلَفْتَنِي
 تَرَكْتَنِي بَيْنَ مِيعَا * دَوْحِطٍ وَتَجْمُرِ
 مَا أَرَى فِي مَنْ الصَّبِّ * حَوَّةَ إِلَّا حَسَنَ طَفَى
 إِنَّمَا دَامَتْ عَلَى الْغَدِّ * رَلْمَا تَعْرِيفَ مِئَنِي
 أَسْتَعِذُّ اللَّهَ مِنْ إِعْرَا * ضَمْنٍ مِنْ أَعْرَضَ غَنَى

لما ولى المعتمد أمر بمكاتبته بالقدوم عليه ، فلما دخل وسلم أستاذنه في الإنشاد ،
فأذن له ، فأنشده قوله :

هَلَا سَأَلْتُ تَلَذُّذَ الْمَشَاوِ * وَمَتَّعَتْ قَلْبَ فِرَاقِهِ يَتَلَذُّ
إِنْ الرَّقِيبَ لِيَسْتَرِيبَ سُهُبًا * صُعُودًا إِلَيْكَ وَظَاهِرَ الْإِفْلاهِ
وَلَيْثُنَ أُرْبَتْ لَقَدْ ظَهَرَتْ بِمَقْلَةٍ * عَبْرَى عَلَيْكَ مَحِينَةَ الْآمَاقِ
نَفْسِي الْمَدَاءُ لَخَائِفٌ مَرْتَقِبٌ * حَمَلَ الْوَدَاعَ إِشَارَةً يَبْنِاقِ
إِذَا لَا حَوَاتٍ لِمُقْعَمٍ مُتَحَدِّ * إِلَّا الدَّمُوعَ تُصَانُ بِالْإِطْرَاقِ

حتى انتهى الى قوله :

خَيْرُ الْوَفُودِ مَبَشِّرٌ بِخِلَافَةٍ . خَصَّصَتْ بِهِجَتِهَا أَمَا إِسْحَاقِ
وَأَقَاتِهِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ سَلِيمَةً . مِنْ كُلِّ مُشْكَلَةٍ وَكُلِّ شِقَاقِ
أَعْطَتْهُ صَفْقَتَهَا الصَّبَا طَاعَةً . قَبْلَ الْأَكْثَفِ مَا وَكَّدَ الْمِثَاقِ
سَكَنَ الْأَمَامُ إِلَى إِمَامٍ سَلَامِيَةٍ . عَفَّ الضَّمِيرَ مَهْدَبَ الْأَحْلَاقِ
غَمَى رَعِيَّتَهُ وَدَافِعَ دُونَهَا : وَأَحَارَ تَمَلُّقَهَا مِنَ الْإِمْلَاقِ

حتى أتمها ، فقال له المعتمد : أدن مني ، فدنا منه ، فلما قه جوهرًا من جوهر كان بين
يديه ، ثم أمره بأن يخرج من قه ، فأخرجته وأمره بأن يُنْطَمَ ويدفع اليه ويخرج الى الساس
وهو في يده ، ليعلموا موقعه من رأيه ، ويعرفوا فصله ، فكان أحسن ما مُدِحَ به يومئذ .

ومن شعره قوله :

أَمِينَ اللَّهِ تَقَى بِاللَّهِ * لَهُ تُعْطَى الصَّبْرُ وَالنُّصْرَةُ
يَكِيلُ الْأَمْرَ إِلَى اللَّهِ * كَلَّاكَ اللَّهُ ذُو الْقُدْرَةِ
لَنَا النَّصْرُ بِمَوْنِ اللَّهِ * وَالْعُكَّةُ لَا الْفَزْهَ
وَلِلزَّاقِ أَعْدَاءُ * نَكَّ يَوْمُ السُّوءِ وَالذُّبْرَةِ
وَكَأْسُ تَلْفِظِ الْمَوْتِ * كَرِيهُ طَعْمُهَا مَرَّةً

سَقُونَا وَسَقِينَا * وَلَكِنْ بِهِمِ الْحِرَّةُ

كَذَاكَ الْحَرْبُ أَحْيَا * طِينَا وَلَنَا مَرَّةُ

ومن قوله في غضب حِطَّةٍ للوائق من زيارته أخرى في نوتها :

خَفِضْتُ أَنْ زُرْتُ أُخْرَى جِلْسَةً * فَلَهَا التُّسَى لَتَيْنَا وَالرَّمَا

يَا مَدَنِيكَ الْفَسْ كَاتَ مَقْصُورَةٌ * فَاغْمَرِيهَا وَأَصْفَحِي عَمَّا مَصَى

وَأَتَرَكِي الْعَدْلَ عَلَى مَنْ قَالَ * وَأَنْسِي جَوْرِي إِلَى حَكَمِ الْقَضَا

فَلَقَدْ بَهِنِي مِنْ رَقْدَتِي * وَعَلَى قَلْبِي كَيِّرَانِ الْفَصَا

كان اللوائق يتحطى حارية له ماتت، بخزع عليها وترك الشراب أياما، ثم سلاها وعاد

إلى حاله، فعدا الحسين ليلة وقال له : رأيت فلاة في اليوم فليت نومي كان طال قليلا

لا تمتنع لملقاتها، قل في هذا شيئا، فقال :

لَيْتَ عَيْنَ الدَّهْرِ مَا مَعَلَّتْ * وَرَقِيبَ اللَّيْلِ عَا رَقْدَا

وَأَقَامَ الْيَوْمَ فِي مَدَنِهِ * كَالَّذِي كَانَ وَكَأَبَدَا

بَابِي زَوْرٌ تَلَفْتُ لَهُ * تَتَفَسَّتْ إِلَيْهِ الشُّعَدَا

بَيْنَمَا أَمْحُكُ مَسْرُورًا بِهِ * إِذْ تَهَطَّطَ عَلَيْهِ كَيْدَا

لما أعيته الحيلة في رما المأمون عنه رمى بأمره إلى عمرو بن سَعْدَةَ وكتب إليه :

أَنْتَ طَوْدِي مِنْ بَيْنِ هَدَى الْهَيْصَابِ * وَيَسْهَابِي مِنْ دُونِ كُلِّ شِهَابِ

أَنْتَ يَا عَمْرُو قُوَّتِي وَحَيَاتِي * وَلِسَانِي وَأَنْتَ خُلْفَرِي وَنَابِي

أَتُرَانِي أَنْسَى أَبَادِيكَ الْيَوْمَ * خُذْ إِذَا أَسْوَدَ نَائِلُ الْأَمْحَابِ

أَيْنَ أَخْلَاقُكَ الرَّمِيَّةَ حَالَتْ * فِي أَمِّ أَيْنَ رِقَّةُ الْكَلْبِ؟

أَنَا فِي ذِمَّةِ السَّحَابِ وَأَطْلَمَاءُ * إِنَّ هَذَا لَوْصَمَةٌ فِي السَّحَابِ

فَمَنْ إِلَى سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ عَنِي * قَوْمَةٌ تَسْتَجِرُّ حُسْنَ الْخَطَابِ

فَلَعَلَّ الْإِلَهِ يُطْفِئُ عَنِّي * بِكَ نَارًا عَلَى ذَاتِ الْآتِهَابِ

فلم يزل عمرو يطيف للمأمون حتى أوصله إليه وأدّر أذناقه .

ولما عفا المأمون عنه أمر بإحصاره، فلما حصر سلم، فرد عليه السلام ردًا جافيا،
ثم أقبل عليه فقال : أحيرى عك، هل عرفت يوم قُتل أنى محمد هاشمية قُتلت أو
هتكت ؟ قال : لا، قال : ها معنى قولك :

وَسُرِبَ ظَبَاءٌ مِنْ ذُرَابَةِ هَاشِمٍ . هَتَكَ بِدَعْوَى جَبْرِ حَى وَمَيَّتْ
أَرَدْتُ بِدَا مَنِ إِذَا مَا دَكَرْتُهُ * عَلَى كَيْدِ حَرَى وَظَلِي مُعْتَتِ
فَلَا بَاتَ لَيْلُ النَّامِتِينَ بِسَطَةِ * وَلَا تَلَقَتْ أَمَامَهُمْ مَا تَمَّتْ

فقال : يا أمير المؤمنين ، لوعة طنتي ، وروحه فاجأتني ، وبعه فقدتها بعد أن عمرتني ،
وإحسان شكرته فأطقتني ، وسيد فقدته فأقلقتني ، وإن عاقبت محقق ، وإن عطمت
بفصلك ، فدمعت عينا المأمون وقال : قد عموت عك ، وأمرت بإدراك رزقك ،
وإعطائك ما فات مه ، وجعلت حقوقك امتاعى من استعدامك .

ومن قوله :

وَكَا لَوْرِدَةِ الْحَمَاءِ حَيَا بِأَحْمَرٍ * مِنَ الْوَرْدِ يَمْشِي فِي قَرَارِقٍ كَالْوَرْدِ
لَهُ حَتَاتٌ عَدُ كُلِّ نَحْيَةٍ * مَبِيدَةٌ قَسَدُ الْحَلِيمِ إِلَى الْوَجْدِ
تَمَيَّتَ أَنْ أَسْقَى بِكَفِّهِ شَرِبَةً * كَرَّ كَرْنِي مَا قَدْ نَسِيتُ مِنَ الْعَهْدِ
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ آيْتْ فِيهِ لَيْلَةٌ * حَلِيًّا وَلَكِنْ مِنْ جَبِيٍّ عَلَى وَعْدِ

ومن قوله :

وَأَيُّ ابْنِ مُفَحَّمٍ لَعَزَتْهُ * قُلْتُ لَهُ إِذَا خَلَوْتُ مَكْتَمًا
يُحِبُّ بِاللَّهِ مَنْ يَحْصُكُ بِالِ * وَهُوَ قَالَ لَا وَلَا تَمَّا
ثُمَّ تَوَلَّى بِمُقَلَّتِي خَجَلٍ * أَرَادَ رَجْعَ الْجَوَابِ فَاحْتَسَمَا
فَكَتَ كَأَلْبَتْنِي بِحَيْلِهِ * بَرًّا مِنَ السُّنْمِ فَابْتَدَا سَقَمَا

وقال في هوى له :

عَالِمٌ بِحَيِّهِ * مَطَرِيْقٌ مِنَ الْبَيْهِ
يُوسِفُ الْجَلَالَ وَفَرَّ * حَوْنٌ فِي تَعَدِيهِ

لا وحق ما اتا فيه * له من عطف أرجيه
 ما الحياة نافعة * لى على تأييه
 العيم يشغل * والجمال يطفيه
 فهو غير مكثرت * للدى ألاقيه
 تائه ترهده * فى رصتي فيه

ومن قوله فى هوى له :

إن من لا أرى وليس يرانى * نصب عيني مُثَلَّ بالأمانى
 أبى مَنْ صميره وصميرى * أندا بالمغيب يتجيان
 نحن شحصان إن نظرت ورو * حان اذا ما أحبرت بمترحان
 فادا ما هممت بالأمر أو هم * شئء بدأتم وبدانى
 كان وفقا ما كان مه ومتى * فكأنى حكته وحكأنى
 خَطَرَاتِ الحفون مآسواء * وسواء تحرك الأدا

ومن قوله :

فَدَبْتُ من قال لى على خصره * وعص من جمعه على حوره
 سمع بأشعارك المليح ها * يتفك شاد بها على وتره
 حبك بعض الذى أذعت ولا * حسب لصب لم يقص من وطره
 وقلت يا مستعير سألته ال * حشيف وحسي المتور من نظره
 لا تترك الحبيب من طرب * عاود فيك الصبا على كبره

ومن قوله :

سائل طبعك عن ليلي وص سهرى * وعن تناع أنفاسي وعن فكري
 لم يتخل قلبى من ذكراك إذ نظرت * عيني اليك على صفوى ولا سكرى
 سقيا لبوم سرورى إذ تُسَايَعْنِي * صفو المدامة بين الأس والخمر

وفضل كاسك يأتيني فأشربه * جهرا وتشرب كأسى غير مُستَر
 وكيف أشيله لثى وأزله * نحرى وترفعه كفى الى بصرى
 فليت مُتة يومى إذ مضى سلفا * كانت ومدة أياى على قَدَر
 حتى اذا ما أطوت عا بشاشته * صرنا جميعا كذا حارير في الحُفَر
 وس قوله لموى كان له :

تَعَزَّيْنا عَن هَوَايَ فإني * اذا أنصرفت فمضى ههيات عن رَدَى
 إذا خُنتُم فالغيب وذى هالكُم * تَدُلُّونَ إِدلالَ المقيم على المهد
 ولى مك بد فاجتسئ مَدَمَّا * وان حِلَّتْ أُنَى ليس لى مك مِن بَد
 لما ولى الواثق الخلفاه أنشدته حسب :

أَكَلْتُم وَجَدَى هَا يَبَكُم * بمن لو شكوتُ اليه رَحِمَ
 وإنى على حس ظننى به * لأَحْذَرُ إِنْ بُحْتُ أَنْ يَحْنُمَ
 ولى عهد لحظته رَوْعَه * تحقِّقْ مَا طَلَّه المتهِم
 وقد علم الساس أنى له * عِبَّ وَأَحْسِبْه قد علم
 وإنى لُنُفِص على لوعة * من الشوق فى كدى تَضْطَرُّمُ
 حَشِيَّةٌ وَذَعَتْ عن مقلة * سَفُوحٌ وَزَفْرَةٌ قَلْبِ سَلِمَ
 ها كان عد النوى مُسْعِد * سوى العين تمنج دنمًا بدم
 سيدكر من بان أوطانه * ويكى المقيمين من لم يُقِم

كتب الى الحسن بن رعاء فى يوم شك، وقد أمر الواثق بالإمطار، فقال
 هَزَّزْتُكَ للصَّبوح وقد نهانى * أمير المؤمنين عن الصَّيَامِ
 وعدى من قِيَانِ المِصرَ عَشْرُ * تَطْلُبُهُ بَهَنٌ عَائِقَةُ المِدامِ
 ومن أمثالهم اذا أَتَشَبَّهَا * تَرَانَا بِمَجْنَى تَمَرِ المِرامِ
 فكن أنت الجواب ليس شئ * أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ حَذْفِ الكلامِ

فوردت رقعته ، وقد سبقه إليه محمد بن الحارث بن بُسْطَر ووجهه إليه سلام نظيف الوجه
ومعه ثلاثة غلّة أقران حسان الوجه ، ومعهم رُقعة كتبها كما تكتب المناشير ، وختمها
في أسفلها وكتب فيها يقول :

سِرْ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ يَا أَشْ * كَلَّ مِنْ عَصِي الْجَيْنِ
فِي ثَلَاثٍ مِنْ بَنَى الرُّو * مَ إِلَى دَارِ حَسِينِ
أُتِّمِّصُ الْكَهْلَ إِلَى مَو * لَاكَ يَا قُتْرَةَ عَيْنِي
أَرِهَ الْعُفَّ إِذَا أَسَمَ * عَصَى وَطَالِبَهُ بَدِينِ
وَدَجَّ اللَّفْظَ وَخَاطَبَ * هُ نَفْزَ الْحَاجِبِينَ
وَاحْذَرِ الرُّجْعَةَ مِنْ وَجْ * يَهَكَ فِي خُفَى حُنَيْنِ

فمضى معهم .

ومن قوله لمن اعرض عنه :

تَلَيْتُهُ عَلِيًّا أَنْ رُزِقْتُ مَلَاةً * مَهْلًا عَلِيًّا مَعَى نَيْكٍ يَا بَرُّ
لَقَدْ طَالَ مَا كُنَّا مِلَاحًا وَرِمَا * صَلَدْنَا وَتَهَا ثَمَ فَرِيَا الدَّهْرُ

وله في هوى مُحِبِّبِ عَنْهُ :

فَلَنْ مِنْ لَا كَانَ ظُ * لَا بِحَبِيْبِي فَمَاءَ
أَرْصَدَ الْبَابَ رَقِيْدِ * نَ لَهُ فَاكْتَنَمَاءَ
فَإِذَا مَا أَشْتَقُ قَرْبِي * وَلَقَائِي مَنَعَاءَ
جَمَلُ اللَّهِ رَقِيْدِ * هُ مِنْ أَسْوَأَ فِدَاءَ
وَالَّذِي أَفْرَحَ فِي النَّسَا * دَنَ قَلْبِي وَلَوَاءَ
كُلُّ مُشْتَقٍ إِلَيْهِ * فَرَبِّ السُّوْءِ فِدَاءَ
يَسِيْرًا مِنْ حَالَتِ الْأَحْ * رَأْسَ مِنْ دُونَ مُنَاءَ

أمره المتوكل بأن ينادمه ويلزمه ، فلم يطلق ذلك لكبر سنه ، فقال للمتوكل بعض من حضر عنده : هو يطيق الذهاب الى القرى والمواخير والسكر فيها ويسجز عن خدمتك ؛ فبلغه ذلك ، فدفع الى أحمد بن حمدون أبياتا قالها وسأله إيصالها ، فأوصلها الى المتوكل ، وهي :

أما في ثمانين وقيمتها * عدير وإن أألم اغتذِرْ
فكيف وقد جرت بها صاعدا * مع الصاعدين يتسع أنتر
وقد رفع الله أعلامه * عن ابن ثمانين دون البشر
سوى من أصر على قصة * والحد في دينه أو كفر
وإني لمن أسراء الإل * له في الأرض نصب صُروف القدر
فإن يقص لي عملا صالحا * أثاب وإن يقص شرا غفر
فلا تلح في كبر هذني * فلا ذنب لي أن بلغت الكبر
هو الشيب حل بعقب الشباب * من ذا يلوم إذا ما عذر
وإني لقي كنف بئديق * ومز بنصير أبي المتصر
يأري الرياح بفضل السما * ج حتى تبلى أو تحمر
له أككد الوحي ميراثه * ومن ذا يخالف وحى السور
وما للسود وأشباهه * ومن كذب الحق إلا الحجر

فلما أوصلها شيعها بكلام صدره وقال : لو أطلق خدمة أمير المؤمنين لكان أسعد بها ، فقال المتوكل : صدقت ، وأمر له بعشرين ألف درهم .

٥ - محمد بن عبد الملك الزيات^(١)

كان محمد شاعرا مجيدا لا يُقاس به أحد من الكتّاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ، فإن إبراهيم مُقِلٌّ وصاحب قصار ومقطعات . وكان محمد شاعرا يطيل فيجيد ، ويأني بالقصار ويجيد ، وكان لينا حس اللفظ اذا تكلم واذا كتب .

ولما تولى محمد الوزارة اشترط ألا يلبس القباء وأن يلبس الدراعة ويتقلد عليها سيفاً بجمال ، فأجيب الى ذلك .

وكان يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، وصغف في المنة ، ما رحمت شيئا قط ، فكانوا يطعمون عليه في دبه بهذا القول ، فلما وصع في الثقل والحديد قال : أرجوني ، فقالوا له : وهل رحمت شيئا قط فترحم ؟ هذه شهادتك على نفسك وحُكْمك عليها .

لما ماتت أم أبيه عمرو وثاها بقصيدة منها :
يقول لي الحِلان لو زُرْت قبرا • فقلت وهل عبر العواد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قبرها • ولم أطلع السن التي معها الصبر

ومن شعره قوله :

ما أعجب الشيءَ ترحسوه فتحرّمه • قد كنتُ أحسب أني قد ملأت يدي
مالا اذا عبتُ لم أذكّر مصالحه • وإن مَرِصْتُ فطال السقمُ لم أعد

(١) هو أبو حمزة محمد بن عبد الملك بن أمان بن حمزة واشتهر باسم الزيات لأن حده (أمان) كان يحلب الريت من مواضع الى بغداد ، وكان أديبا شاعرا عالما بالحو والملة ، وله ديوان شعر ومجموعة رسائل جيدة ، وكان في أوّل أمره من حلة الكتّاب ثم صار وريثا للنعم ولأه الوائت . ولما تولى التوكل قصر عليه وأمر بإدخاله في تور من حديد كان اس الزيات أعده لتعذيب المصادر بن وأرأاب الفراء بن الخالين بالاموال وقبده بحصة عشر رطلا من حديد ، ثم أمر بإتراحه بعد أن مكث فيه أربعين يوما ، فوجدوه ميتا وذلك سنة ٢٣٣ هـ . ومحمد ترجمه في الأمان (ح ٢٠ ص ٤٦) واس خلكان (ح ٢ ص ٧٨) .

ومن شعره قوله :

ألم سَجَبَ لمكتبٍ حزين * خدين صابئة وحليف صبر
يقول اذا سألت به بخير * وكيف يكون مهجورٌ بخير

وكان لمحمد رثون أشهر لم رثله قراة وحسا، فسمى به محمد بن خالد الى المعتصم
ووصف له فرائته، فعث اليه المعتصم فأحده منه، فقال محمد بن عبد الملك يرثيه :

كيف العراء وقد معنى لسيله * عما هو دعما الأحسم الأشهب
دبَّ الوشاة فاعلوك ورعا * سُدَّ القى وهو الأحب الأقرب
فله يوم مات عني طامعا * وسليت قرك أى علق أسل
نفس ممرقة أقام فريقتها * ومعنى لطيفته فريقتي مجت
هالآ اذ كُلمات أداتك كلها * ودعا العيون اليك لو نُحِب
وأختر من سِرِّ الحداثد خيرها * لك خالصا ومن الخلى الأعرب
وعدوت طمان اللحم ككانما * فى كل عضو مك صنج يضرب
وكان سرحك اذ علاك عمامة * وكأننا تحت الهامة كوك
ورأى على بك الصديق حلالة * وعدا العنق وصدرة يتلته
أنسك لا زالت اذا ميتة * معنى ولا زالت يمينى تنك
أصمرت مك اليأس حين رأيتنى * وقوى حالى من قواك تُقص
ورحمت حين رحب منك محسره * لله ما فعل الأحسم الأشهب

ولما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة أقعز من مياسير التجار مالا، فأخذ من
عبد الملك ألى محمد عشرة آلاف درهم وقال له : أنا أردتها اذا جاءنى مال، ولم يتم أمره
فأستحي ثم طهر ورمى عه المأمون، فطاله الناس بأموالهم، فقال : إنما أخذتها للسامين
وأردت قصاءها من قبهم، والأمر الآن الى غيرى، فعزل محمد بن عبد الملك قصيدة
خاطب فيها المأمون ومعنى الى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطينى

المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه العصيدة الى المأمون، تخاف أن يقرأها المأمون
 فيستدبر ما قاله ، فيوقع به ، فقال له : حد من مصص المال ونظم على مصصه ، ففعل ؛
 والعصيدة قوله :

ألم تَرَأَيْتِ الشَّيْءَ لِلشَّيْءِ عِلَّةً * تَكُونُ لَهُ كَالدَّارِ تُفَدَحُ بِالرَّيْدِ
 كَذَلِكَ جَرَّتِ الْأُمُورُ وَإِنَّمَا * يَذُكُّ مَا قَدْ كَانَ قَبْلُ عَلَى الْبَعْدِ
 وَطَقَى مَارَاهِمَ أَبِ مَكَاهِ * سَبَعَتْ يَوْمًا مِثْلَ أَيَّامِهِ الشُّكْدِ
 رَأَتْ حُسْبِيًّا حِينَ صَارَ مُحَمَّدٌ * خَيْرَ أَمَانٍ فِي يَدَيْهِ وَلَا عَقْدِ
 فَلَوْ كَانَ أَمْعَى السِّيفِ فِيهِ مِصْرِيَّةٌ * فَصِيرُهُ نَالِقَاعٌ مُعْغِرُ الْخَلْدِ
 إِذَا لَمْ تَكُنِ الْخُنْدُ فِيهِ بَقِيَّةً * فَقَدْ كَانَ مَا بُلُغْتُ مِنْ خَيْرِ الْحَيْدِ
 هُمْ قَتَلُوهُ بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا لَهُ * ثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ كُفُوهٍ وَمِنْ مُرِيدِ
 وَمَا نَصَرُوهُ عَنْ يَدِ سَلَفَتْ لَهُ * وَلَا قَتَلُوهُ يَوْمَ ذَلِكَ عَنْ حَقْدِ
 وَلَكِنَّهُ الْقَدَرُ الصُّرَاحُ وَفَقَّةُ الْ * حُلُومِ وَوَعْدُ الرَّأْيِ عَنْ سُنَنِ الْقَصْدِ
 فَذَلِكَ يَوْمٌ كَانَ لِلنَّاسِ عِبْرَةٌ * سَيَبْقَى بَقَاءَ الْوَحْيِ فِي الْمُهْرِ الْعَصْدِ
 وَمَا يَوْمَ إِبْرَاهِيمَ إِنْ طَالَ عَمْرُهُ * نَأْتَعِدُ فِي الْمَكْرُوهِ مِنْ يَوْمِهِ عَدِي
 بِدَعْوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَقَامَهُ * وَأَيَّامُهُ فِي الْهَزْلِ مِثْلُ مِثْلِهِ
 أَمَا وَالَّذِي أَسْبَغَتْ عَدَا حَلِيعَةً * لَهُ شَرُّ إِيْمَانِ الْخَلِيفَةِ وَالْعَبْدِ
 إِذَا هُنَّ أَعْوَادُ الْمَابِرِ مَا سَبَّحَتْ * تَقْنَى بِلَيْلٍ أَوْ بِمَيَّةٍ أَوْ هَيْدِ
 فَوَاهِهِ مَا مِنْ تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ * إِلَيْكَ وَلَا مِثْلَ إِلَيْكَ وَلَا وَدِّ
 وَلَكِنْ إِحْلَاصَ الضَّمِيرِ مَقَرَّتْ * إِلَى اللَّهِ زُلْفَى لَا تَيْهَدُ وَلَا تُكْدِي
 أَتَاكَ بِهَا كَرَمًا إِلَيْكَ بِأَنفِهِ * عَلَى رَغْمِهِ وَأَسَاءَ اللَّهُ بِالْحَمْدِ
 فَلَا تَتَرَكَّنِ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ * فَإِنَّكَ بِجَزَىٍّ يَحْسَبُ الَّذِي تُسْدِي
 فَقَدْ ظَلَمُوا لِلنَّاسِ فِي نَصَبِ مِثْلِهِ * وَمَنْ لَيْسَ لِلنَّصُورِ بَابٌ وَلَا الْمَهْدِي

فكيف بمن قد باع الناس وألقت - بيعته الرُّكُلَ عَوْرًا الى تَحْدِ
ومن سَكَتَ تسلُّمُ الخلافة سمعَه - يَأْدَى به بين السَّاطِينِ من تُعْسِدِ
وإيَّ امرئٍ سَمَّى بها قطَّ مَسَه * هَارِقَهَا حتى يُغَيِّبَ في المَحْدِ
وتزعمُ هَدَى اللَّهَيْتَةِ أَنه * إمام لها فما تُبْرِزَ وما تُسْدِ
يقولون سُنَى وأبْنُ سُنَه * تَنِمُ تَصْعَلُ الرَّاسَ حَوْنُ القَفَا حَعْدِ
وقد جعلوا رُحْصَ الطعام مَعْدَه ٢ رَعِمَا له باليُنِ والكوك السَّعْدِ
إذا ما رأوا يوما عَلَاءَ رَأَتْهُمْ * يَحْمُونَ تَحْمَا الى ذلك المَعْدِ
وإِقْبَالُهُ في العِيدِ يُوحِفُ حَوْلَه * وَحِيفَ الحِيَادِ واصطَلَكَا القَبَا الحُرْدِ
ورَحَالُهُ يَمْشُونَ بالْبَيْصِ قَوْلَه - وقد تَبَعُوهُ بالقَصِيبِ والْبُرْدِ
إِنْ قَلَّتْ قد رامَ الخلافةَ قَوْلَه * فلم يُؤْتَ فيما كَانَ حَاوِلَ مِنْ جَدِّ
فلم أَجْرِه إِذْ خَيَّتَ اللهَ سَعِيَه * على خَطَا إِذْ كَانَ مَهْ على عَمْدِ
ولم أَرْضَ مَعْدَ العَمُو حتى رَمَتْهُ * وَلَلْعَمِ أُولَى مَا تَقَمَّدُ والرَّصْدِ
فليس سَوَاءَ حَارِجِي رَمَى به * إِلَيْكَ سَفَاهَ الرَّاى والرَّاى قد يُرْدَى
تَعَادَتْ له من كلِّ أَوْبِ عَصَابَه * متى يُورِدُوا لَا يُصْدِرُوهُ عَنِ الْوَرْدِ
ومن هو في بَيْتِ الخِلَافَةِ تَتَقَي ٢ به وَلِكِ الْآمَاءِ في ذِرْوَةِ المَحْدِ
فمَوْلَاكَ مَوْلَاهُ وَحُدُوكَ حُنْدَه * وهل يَجْمَعُ القَيْنُ الحُسَامَيْنِ في عَمْدِ
وقد رَأَى مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ أَى * رَأَيْتُ لَمْ وَخَدَا به أَيُّمَا وَجْدِ
مَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ مِنْ أَبِي مُلَيْسَه * صَوِّرْ عَلَى الْأَوَّاءِ دَى مِرَه حَلْدِ
فَدَانَا وَهَاتَ مَعْسَه دُونَ مُلْكَا * عَلَيْهِ لَدَى الْحَالِ التِّي قَلَّ مَنْ يَقْدَى
عَلَى حِينٍ أَعْطَى النَّاسَ صَفَقَى أَكْفَهْم * عَلَى سِ مَوْسَى مَالِ الْوَلَايَه وَالْعَهْدِ
مَا كَانَ فَيَا مِنْ أَى الصِّمِّ عِيَه * كَرِيمٌ كَمَى مَا فِي الْقَوْلِ وَبَى الرَّدِّ
وَجَرَدَ إِبْرَاهِيمَ لَوْتَ مَعْسَه * وَأَدَى سِلَاحًا فَوْقَ ذَى مَيْعَه نَهْدِ

وأبلى ومن يبلغ من الأمر جهده طيس بدموم وإن كان لم يُخَيِّد
 فهدي أمور قد يحاف ذوو الشيء * مَغْتَبَهَا والله يَهْدِيكَ لِلرَّشَدِ
 وكانت الخلافة في أيام الواثق تدور على إيتاح وكتبه سليمان بن وهب ، وعلى أشياص
 وكتبه أحمد بن الخصب ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة وأوصلها الى الواثق على أنها
 لبعض أهل العسكر ، وهي :

يا بن الخلائف والأملك إن تُسُوا * حُرَّتِ الخلافة عى آباءك الأول
 أَجُرَتْ أم رقدت عيناك عى عَجَب * فيه البرية من خوف ومن وهل
 وَلَيْتَ أُرْسِةَ أَمْرَ العادِ معا * وكلُّهم حَاطِطٌ فى جبلٍ مَحْتَمِل
 هذا سليمانُ قد مَلَكْتَ راحته * مشارقَ الأرض من سهلٍ ومن جبل
 مَلَكْتَ السَّدَّ فَالشَّحْرَيْنِ من عَدَد * الى الجزيرة فالأطراف من مَلَل
 حَلَامَةٌ قد حواها وحده قَصَصَتْ * أحكامُهُ فى دماء القوم والمُفَل
 وابن الخصب الذى مَلَكْتَ راحته * حَلَامَةُ الشَّامِ والعازير والقفل
 مِيلٌ مِصْرَ مِجْرُ الشَّامِ قد بُرِّيَا * بما أَرَادَ من الأموال والحُلل
 كَانَهُمْ فى الدى قَسَمَتْ بَيْنَهُم * بَوُ الرِّشِيدِ زَمَانُ القَسَمِ لِلدُّوَل
 حَوَى سليمانُ ما كانَ الأُمَيُّ حَوَى * من الخلافة والتبليغ للأُمَل
 وأحمدُ بن خصب فى إمارته * كالقاسم بن الرشيد الجَامِعِ السُّبُل
 أَصَحَّتْ لا ناصحٌ يَأْتِيكَ مَسْتَتِرَا * ولا عَلَانِيَةً حَوْفاً من الحِيل
 سل بيتَ مالك أين المالُ تمره * وسل خَواصِكَ عن أموالك الجُمَل
 كَمْ فى جُبُوسِكَ من لا دنوبَ لهم * أَسْرَى التَّكْذِبِ فى الأُمَيَّادِ والجُكَل
 سَمِيَتْ بِاسْمِ الرشيدِ المُتَرَفِّعِ فِيهِ * تُسَمَّى الأُمُورُ الَّتِى تُنْفِى من الرُّكَل
 عِثْ مِثْلَ ما عاثت يَدَاهُ معا * على البرامك بالتهديم للْقُلُل

فلما قرأ الواثق هذا الشعر غافله ، ونكب سليمان بن وهب وأحمد بن الخصب ،
 وأخذ منهما ومن أسبابهما أثنى ألف دينار فجعلها فى بيت المال .

٦ - ابنُ البَوَّاب^(١)

لما أتى المأمونُ بشعر ابنِ البَوَّاب الذي يقول فيه :

أَيْغَلْ مَرْدُ الْحَسِيِّ مَرْدُ صِفَاتِهِ * عَلَى وَقْدِ أَفْرَدْتُهُ بَهْوَى قَرْدِ
رَأَى اللَّهُ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ * فَلَمَّكَه وَأَقْبَلَهُ بِالْمَبْدِ
أَلَا إِنَّمَا الْمَأْمُونُ لِلنَّاسِ عِصْمَةٌ * مِمَّةٌ بَيْنَ الضَّلَالَةِ وَالرَّشْدِ

فقال المأمون : أليس هو القائل :

أَعْنَى جُودًا وَأَيْكًا لِي مُحَمَّدًا * وَلَا تَذَخَّرَا دِمْعًا عَلَيْهِ وَأَسْعِدَا
فَلَا فَرِحَ الْمَأْمُونُ بِالْمُلْكِ مَعْدَهُ * وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا شَرًّا مُعْطَرِدَا

وأجدة بواحدة، ولم يَصْلُهُ شَيْءٌ . ولما سَجَّطَ عَلَيْهِ قَالَ قَصِيدَةً يمدحه بها، ودسَّ مَنْ
عَاقَهُ فِي مَعْصَمِهَا لَهَا وَحْدَ مَهْ نَشَاطًا، فَسَالَ : مَنْ قَاتَلَهَا، فَأُخْبِرَ بِهِ، فَرُصِيَ عَنْهُ وَرُدَّ إِلَى رِسْمِهِ
مِنَ الْخَلْمَةِ، وَهِيَ :

هَلْ لِلْحَبِّ مُعِينٌ * إِذْ شَطَّ عَنْهُ الْقَرِينُ
فَلَيْسَ يَبْكِي لَشَجْوِ الْإِلَاحِزِينِ * حَزِينٍ إِلَّا الْحَزِينُ
يَا طَاعِمًا عَابَ عَا * عَدَاهُ مَارَ الْقَطِيبُ
أَبْكَى الْعَيُونَ وَكَانَتْ * نَهْ تَقَرَّ الْعَيُونَ
يَا يَمَا الْمَأْمُونُ الْ * حَمَارُكُ الْمَيَمُونُ
لَقَدْ صَفَّتْ بِكَ دُنْيَا * لِلْسَّالِمِينَ وَدِينُ
عَلَيْكَ نَوْرٌ جَلَالُ * وَنُورُ مُلْكٍ مُبِينُ

(١) هو عبد الله بن خطاب من أهل بخارى، وحسن عهده وحماته معه رغبة إلى الخلفاء بن يوسف، هزلوا
عده واسط، فأفطهم سكة بها، فاحتلوا ورلوا طول أيام حى أمية، ثم احتلوا من الدولة العباسية إلى الربيع
لخدمته، وكان عبد الله بن محمد هذا يحلف المصلين بن الربيع على هبة الخلفاء، وكان صالح الشمر قليله وراوية لاحبار
الخلفاء، طامأ أئمه .

القولُ منك قَمال * والظنُّ منك يقين
 ما من يديكَ شمال * كَلتا يديكَ يمين
 كأنما أنت في الجو * د والقي هارون
 مَنْ نال من كل فضل * ما نالَه المأمون
 تألف الناس منه * فصلٌ وجود وِلين
 كالسدر يبدو عليه * سكيهٌ وسكون
 فالرزق من راحته * مقسَّم مضمون
 وكل خصلة فضل * كانت منه تكون

ومما ينبغي فيه قوله :

أَفنى أيها القلب الممتد كم تصو * فلا النأي عن سَلْماك يُسَل ولا القربُ
 أقول عَدَاة استخبرت مِم طَلَى ؟ * من الحب كربٌ ليس يُشبهه كرب
 إذا أهرتك العين من بُعد غاية * فادخات شكائك أفتك القلب
 ولو أن رَكْنا يَمُوك لَقادهم * نسيْمك حتى يَسندل بك الركب

أملق ابن الواب حين حَفاه الخليفة وطَلت مِنه عن الخدمة، فرحل الى أبي دُلَف
 القاسم بن عيسى ومدحه بقصيدة، فوهب له ثلاثين ألف درهم وعاد بها الى بغداد، فإ
 نعمت حتى مات، وهي قوله :

طَرَقَتْ صائِمةُ القلوب رَافُ * ونأت فليس لها إليك ماب
 وتصرمت منها العهود وُقِلَتْ * من دون نيل طلائها الأبواب
 فلا صِدقَ عن الهوى وِطْلابه * فالحب فيه بَلِيَّة وعذاب
 وأخس بالمُدح المهذب سَيدا * قَفائمه للجدب رِغاب
 وإلى أبي دُلَف رحلتُ مطبى * قد شَفها الإرقال والإمباب

تملو بنا قُلُلَ الجبال ودونها * مما هَوَتْ أهويةً وشعاب
 فإذا حلتُ لدى الأمير بأرضه * ثلُتُ المني وتَهَضَّتِ الآراءُ
 مَلِكُ تَأْتِلُ عن أبيه وجده * بَحْدًا يَقْصِرُ دونه الطُّلَابُ
 وإذا وَزَّنتُ قَدِيمَ ذِي حَسَبٍ به * خَفَضْتُ لِفَضْلِ قَدِيمِ الْأَحْسَابِ
 قومَ طَلَوْا أَمْلَاكَ كُلِّ قَبِيلَةٍ * فالنَّاسُ كُلُّهُمْ لَهُ أَذْنَابُ
 صَرِيتُ عليه المَكْرَمَاتُ قَبَايِهَا * فَمَلَا الْعُمُودُ وَطَالَتِ الْأَطْبَابُ
 عَظِيمُ النِّسَاءُ بِمِثْلِهِ وَتَعَطَّلَتْ * مِنْ أَنْ تُضْمِنَ مِثْلَهُ الْأَصْلَابُ

٧ - انْخِرَيْمِي^(١)

كان متصلاً بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جَيَّاد، ثم رثاه بعد موته، فقيل له : يا أبا يعقوب، مدائحك لآل منصور بن زياد أحسن من مرثيتك وأجود؛ فقال : تكأ يومئذ نعمل على الرءاء، ونحس اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد .

وهو القائل في عياله :

أُصِيبَ إِلَى قَائِدِي لِيُخَبِّرَنِي * إِذَا أَلْتَقَيْتَا عَمْرُ بُحَيْنِي
أَرِيدُ أَنْ أَغْدِلَ السَّلَامَ وَأَنْ * أَفْضِلَ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالْذُّونِ
أَسْمَعُ مَا لَا أَرَى فَأَكْرَهُ أَنْ * أَحْطِيَ وَالسَّمْعُ عِيرَ مَامُونِ
فَهْ عِيبِي الَّتِي يُفْعَتُ بِهَا * لَوْ أَنَّ دَعَمَهَا يُونَانِي
لَوْ كُنْتُ حَبْرَتٌ مَا أَحْدَلْتُ بِهَا * تَعْمِيرَ رُوحِ فِي مُلْكِ قَارُونِ
حَقٌّ أَخْلَانِي أَنْ يَسُودُونِي * وَأَنْ يُعْزَوَا عَنِّي وَيَكُونِي

وهو القائل :

إِذَا مَا مَاتَ مَعْصُكَ فَأَيْكَ مَعْصَا * فَإِنَّ الْمَعْصَ عَنْ مَعْصٍ قَرِيبُ
يُمْنُهُ الطَّيِّبُ شِفَاءٌ عَيْنِي * وَهَلْ عِيرَ الْإِلَهِ لَهَا طَلِيبُ

(١) هو إسماعيل بن حسان ويكنى أبا يعقوب، من السهم، وهو القائل :

أنا أمرؤ من سِراة الصمد ألسي * عرق الأمام حذا طيب الحر

وكان مولد أبي حريم الذي يقال لأبيه - حريم النام - وهو حريم بن عمرو بن حمزة بن عوف بن سعد بن ديان .
وعنى أبو يعقوب الحرابي مد ما أسن، وكان يقول في ذلك شعرا، فله قوله :

فإن نك عيني حبا وردا * فكيف قلها ورد عينا حبا
لم يسم قللى ولعسكنا * أرى ورد عيني إليه سرى
فأسرج فيه إلى ورد * سراجا من الظلم يشي المسمى

وقال يذكر بغداد والفتنة التي كانت بها :

قالوا ولم يَلْمِ الزمانُ بيفد * لئلا وتَعُدُّ بها عوائِرها
إد هي مثلُ العروسِ بِأدثها * مُهَوِّلُ اللَّفَى وحاصِرها
جَنَّةُ دُنيا ودارُ مُنْبَطة * قَلَّ مِنَ النَّبَاتِ وأثرها^(١)
ذَرَبَ حُلُوفُ الدُّنْيَا لساكنها * وقَلَّ مَعسُورُها وعاسِرها
وأمرِجَتْ النِّعَمُ وأتَّجعت * مِها بِلَدَاتِها حواصِرها
فالقُومُ منها في رُوصة أُتِف * أَشْرَقَ عِيبُ القِطَارِ زاهِرها
مِنْ عَرَّةِ العِيشِ في مُلْهية * لو أَن دُنيا يَومَ عاصِرها
دارُ مَلُوك رَسَتْ فَواعِدها * مِها وقَرَّتْ بِها سارِها
أهلُ العِلا والثرى وأندية الـ * فخر إذا عُذَّتْ مَعانِرها
أفراحُ نَعَمٍ في إرث مملكة * شَدَّ عُرَاهَا لها أَكابرُها
فلم يزل والرياءُ دَوِيعَ * بَدَحَ في مُلْكِها أَصاعِرها
حَتَّى نَسِيتُ كَأَمَّا مُثْمَلِ * مِنْ قِنَةِ لا يُقال عائِرها
وأفترقتْ عِدَّةُ أَلْفَةٍ شَيْعًا * مَقْطُوعَةٌ بَيْنَها وَأواصِرها
يا هَلْ رَأَيْتِ الأَمْلَاقَ ما صَنَعَتْ * إِذْ لَمْ يَزَعْها نالِصَح زاجِرها
أورد أَمْلَاقُها عَوَسَهُم * هُوَّةٌ عَن أَجَبَتْ مَعادِرها
ما صَرَّها لو وَقَّتْ بِمَوَجهِها * وَأَسْتَحَكْتُ في الثُّقَى بَصارِها
ولم تُسَافِكْ دِماءَ شَيْعَتِها * وَتَتِمَّلُ فِيهِ تَكْكارِها
وأَقَمَتْها الدُّنْيَا التي يُجْمَع * لها وَرَعْبُ العَوسِ صائِرها
ما زالَ حَوْضُ الأَمْلَاقِ [...] * مَسْجُورُها مالمَوى وسَلِجُها
تُبْقِ فُصولُ الدُّنْيَا مُكَاتَرَةً * حَتَّى أُجِعتْ صَكْرُها دَمارِها

تبيع ما جمع الأثوة له * أبناء لا أربيت متاجرها
 يا هل رأيت الجباب راهرة * يروق عين الصير زاهرها
 وهل رأيت القصور شارعه * تُصكّن مثل الدمي مقاصرها
 وهل رأيت القرى التي عرس الـ * أملاكك مُحضرة دساکرها
 محسوفة بالكروم والتحلّ والـ * تزيحان قد دبت محاجرها
 فلنّها أصبحت حلایا من الـ * بإسباب قد دبت محاجرها
 قعرا حلاء تموی الكلاب بها * يُعكر منها الرسوم دائرها
 وأصبح السؤس ما يفارقها * إلقا لها والسرور هاجرها
 بزند وزد والياسرة والـ * شطبى حيث آنتت معابرها
 والرحى والخيرانية الـ * حليا التي أشرفت فاطرها
 وقصر عبدويه عبرة وهدى * لكل نفس زكّت سرائرها
 أين حراسها وحارسها * وأين مجبورها وساربها
 وأين خصيانها وحشوتها * وأين سكاها وطامرها
 أين الحراية الصقالت والـ * أحبش تعدو هذلا مشافرها
 ينصدع الجحد عن مواكبها * تعدو بها سربا ضوايرها
 بالسد والمسد والصقالب والـ * حوبة شيت بها برابرها
 طيرا أبابيل أرسلت عشا * يقدم سودانها أحامرها
 أين الظباء الأنكار وروصة الـ * حلك تهادى بها عرائرها
 أين عصارانها ولدتها * وأين مجبورها وحاربها
 بالمسك والعبر اليماني والـ * يلجوج مشبوبة بمجائرها
 يرقلن في الخنز والمجاسد والـ * حوشى مخطومة مزمارها

فَايُن رَقاصها وزَامرها * يُجِين حيث آتَتْ حَاجِرها
 تَكَادُ اِسْمَاعُهُمْ تُسَلُّ اذا * عَارِض عِيْدَانَهَا مَزَامِرها
 اَمَسَتْ بِكَوْفِ الحَارِ حَالِيَةً * يَسْعَرُهَا بِالْجَحِيمِ سَاعِرها
 كَانَمَا اَصْبَحْتُ بِسَاحَتِهِمْ * عَادُ وَمَسْتَهْم صَرَاصِرها
 لَا تَعْلَمُ النَفْسُ مَا يَأْتِيهَا * مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ اَوْ يَأْكُرُهَا
 تُضْحِي وَتَمْسِي دَرِيَّةً غَرَا * حَيْثُ اسْتَفْزَتْ بِهَا شَرَاثِرها
 لَأَسْمَهُمُ الدَّهْرُ وَهُوَ يَرْشُقُهَا * مُخِطُهَا مَرَّةً وَبَاقِرها
 يَأْوِسُ بِشِدَادِ دَارِ مَمْلَكَةٍ * دَارَتْ عَلَى اَهْلِهَا دَوَائِرها
 اَمَلَهَا اَللَّهُ ثُمَّ طَاقَبَهَا * لَمَّا احَاطَتْ بِهَا كَبَائِرها
 بِالْخُفِّ وَالْقَذْفِ وَالْحَرِيقِ وَنَالِ * حَرْبِ التِّيْ اَصْبَحَتْ تُسَاوِرُهَا
 كَمْ قَدْ رَأَيْتُ مِنَ الْمَعَاصِي بِهَا * كَالْمَاهِرِ السَّوِّءِ
 حَلَّتْ بِفِدَاكِ وَهِيَ اَمِنَةٌ * دَاهِيَةٌ لَمْ تَكُنْ تُحَافِرُهَا
 طَالَمَهَا السَّوُّ مِنْ مَطَالَعِهِ * وَادْرَكَتْ اَهْلَهَا جَرَائِرها
 رَقَّ بِهَا الدِّينُ وَاسْتَخَفَّ بِذِيهِ * عَصَلَ وَعَزَّ النَّسَاكُ فَاجِرُهَا
 وَخَطَمَ الْعَبْدُ اَنْفَ سَيِّدِهِ * بِالْزَغَمِ وَاسْتَمْبَدَتْ غَضَارُهَا
 وَصَارَ رَبُّ الْجَمْرِ اَنْفَاسُهُمْ * وَابْتَرَأَ اَمْرُ الدَّرُوبِ دَاخِرُهَا
 مِنْ يَرْمَدَادٍ وَالْجَنُودُ بِهَا * قَدْ رَبَّقَتْ حَوْلَهَا عَاكِرُهَا
 كُلُّ طَلْحُونٍ شَبِيهٍ بِاسْلَةِ * تُسْقِطُ اَحْبَالُهَا زَمَائِرُهَا
 تُكَلِّقُ بَنَى الرَّدَى اَوَانِسَهَا * يُرْمِقُهَا لِقَاءُ طَاهِرُهَا
 وَالشَّيْخُ يَعْدُو حَزْمًا تَكَاثُبُهُ * يُقْلِمُ اَعْجَازَهَا يَسَاوِرُهَا
 وَلِزُهَيْرٍ بِالْقَوْلِ مَا سَدَتْ * مَرْقُومَةُ صُلَّةٍ مَحْكَاسِرُهَا
 كَتَابُ الْمَوْتِ تَحْتَ اَلْوِيَّةِ * اَبْرَجَ مَنصُورُهَا وَنَاصِرُهَا

يُسلم أن الأقدار واقعة * وقعا على ما أحبّ قادرها
فلك بصداد ما بين من الـ * بذله في دورها عصافرها
عمومة بالردى مطلقه * بالصفر عمورة جبارها
ويرب شطّ الأفرات منه الى * دحلة حيث آتته مهابها
كهادى الثمراء نافرّه * تركض من حولها أشاقرها
يُحرقها ذا ذاك يهيمها * ويشقى بالهباب شاطرها
والكخرج أسواقها مغلّة * يستنّ عيارها وعائرها
أخرجت الحرب من سواقيها * آساد عيل غلبا أساورها
من البوارى ترأسها ومن الـ * حوص اذا استلأمت مقامها
تعدو الى الحرب في جواشنها الـ * صوف اذا ما عدت أساورها
كتائب الهيرش تحب رايته * ساعد طزارها مقاسرها
لا الرزق تنفى ولا الملاء ولا * يحشربها للقاء حاشرها
في كل ذرب وكل حاجبة * خطارة يستلّ خاطرها
بمثل هام الرجال من يلق الـ * صحر يزود المقلاع باثرها
كأما موى هامها عدى * من القطا الكدر حاج نافرها
والقوم من تحتها لم زحل * وهى تراقى بها خواطرها
بل هل رأيت السيوف مضلّة * أشهرها في الأسواق شاهرها
والجبل تستنّ في أزيقتها * بالترك مسونة خناجرها
والنخط والنار في طرائقها * وهابيا للدخان عاشرها
والتهب تعدو به الرجال وقد * أبليت خلايلها حراثرها
مُعضّو صبايا وسط الأزقة قد * أبرزها للعيون سائرها
كل رعود الضحى غبابة * لم تبد في أهلها محاجرها

بَيْضَةٌ حَذَرُ مَكُونَةٍ بَرَزَتْ * للناس منشورة غداؤها
 تَعَثَّرَ فِي ثَوْبِهَا وَتَمَجَّلَهَا * صَكَبَتْ خَيْلَ زَيْتٍ حَوَافِرَهَا
 تَسَالُ أَيْنَ الطَّرِيقِ وَالْهَلَّةَ * وَالسَّارِدِينَ حَلْفَهَا تَبَادَرَهَا
 لَمْ تَجْتَمِلِ الشَّمْسُ حَسَنَ بَهْجَتِهَا * حَتَّى اجْتَلَبَهَا حَرْبُ ثَائِرَهَا
 يَاهِلُ رَأَيْتَ النِّسْكَ مُؤَلَّوْلَةً * فِي الطَّرْقِ تَسَى وَالْجَهْدِ بَاهِرَهَا
 فِي أَثَرِ عَشٍ طَبِخَ وَاحِدَهَا * فِي صَدْرِهِ طَعْنَةُ يُسْلِوِرَهَا
 فَرَاءَ تُلْقَى الشَّارَ مِنْ يَدِهَا * يَهْرَهَا نَالَسَانُ شَاجِرَهَا ^(١)
 تَغَطَّرَ فِي وَجْهِهِ وَتَهَيَّفَ مَالَهُ * شَكَلَ وَغَمَزَ الدَّمُوعَ حَامِرَهَا
 عَرَّعَ رِجْلَيْهِ مِثْلَ النَّفْسِ ثُمَّ أَسْلَمَهَا * مَطْلُوعَةً لَا يُخَافُ ثَائِرَهَا
 وَقَدْ رَأَيْتُ الْفَيْتَانَ فِي عَرَصَةِ الْ * حَمْرُوكِ مَعْمُورَةِ مَاجِرَهَا
 كُلُّ مَتَى مَتَاعُ حَقِيقَتِهِ * تَشَقَّى بِهِ فِي الْوَعَى مَسَاعِرَهَا
 بَاتَتْ عَلَيْهِ الْكَلَابُ تَنْهَشُهُ * مَغْضُوبَةً مِنْ دِيمِ أَطَافِرَهَا
 أَمَا رَأَيْتَ الْخَيْوَلُ جَائِلَةً * بِالْقَوْمِ مَعْكُوبَةً دَوَائِرَهَا
 تَعَثَّرَ بِالْأَوْجِ الْحَسَانِ مِنْ أَلِ * بِقَتْلَى وَعَلَتْ دَمًا أَشَاعِرَهَا
 يَطَّأَتْ أَكْبَادَ تَبِيَّةٍ تُجْبِدُ * يَمْلِكُ هَامَاتِهِمْ حَوَافِرَهَا
 أَمَا رَأَيْتَ النَّسَاءَ تَحْتَ الْمَجَا * نِيْقِ تَعَادَى شُعْنًا ضَفَائِرَهَا
 عَقَائِلُ الْقَوْمِ وَالْمَعَائِرُ وَالِ * حُسْنٌ لَمْ تُخْشَرْ مَعَاصِرَهَا
 يَحْمِلُنَ قَوَاتٍ مِنَ الطَّامِعِينَ عَلَى أَلِ * أَكْتَافٍ مَعْمُورَةٍ مَعَاجِرَهَا
 وَذَاتَ مَيْشٍ صَنْكٍ وَمُقْبِصَةٍ * تَشْدُخُهَا صَخْرَةٌ تُعَاوِرَهَا
 تَسَالُ عَنْ أَهْلِهَا وَقَدْ سُيِلَتْ * وَأَبْتَرَتْ عَنْ رَأْسِهَا غَفَائِرَهَا
 بَالَيْتَ مَا وَالِدُهَا ذُو دُوبٍ * تُرْجَى وَأُنْجَرَى تُخْشَى بَوَادِرَهَا

(١) هَذَا فِي هَامِشِ النُّسخَةِ الْأُورُوبِيَّةِ مِنَ الطَّرِيقِ . وَفِي مَسْجِدِ فُلُوقِ رَاوِدَا (فِي صِلَاهَا) :

* فَرَاءَ بَيْنَ الشَّارِ مِنْ يَدِهَا * وَهِيَ رَوَايَةُ طَاهِرِ طَلَبِ الصَّحْرَاءِ وَصَادِقِ الْمَلِكِ .

هل ترجعن أرضاً كما غيّت * وقد تساهت بنا مصايرها
 من مبلغ ذا الراسيتين رِسا * لايت ثاقى للصبح شاعرها
 بأب خير الولاة قد علم الد * سأس اذا عُدْتُ ماثرها
 حليلة الله من بريته ال * مامون سأنسها وجايرها
 سمّت اليه آمال أمته * مفقادة برّها وفاجرها
 شاموا حيا المدل من غيابه * وانحصرت ناتقى مصايرها
 وأخذوا منك سيرة جلّت ال * شك وأخرى صحت معاذرها
 وأستحمت طامعه برفقك لد * مامون تحليتها وعازرها
 وأنت سمع في العالمين له * ومقلّة ما يكفل ناطرها
 فاشكر لذي العرش فضل نعمته * أوجب فصل المزيّد شاكرها
 وأحذر فداء لك الرعية وال * أجاد مأمورها وآمرها
 لا تردن عمرة بمسك لا * يصدر عنها بالأي صايرها
 عليك محضاحها فلا تلج ال * خمر متّحة زوايرها
 والقصد إن الطريق دوشعب * أشامها وعثها وجايرها
 أصبحت في أمة أوائلها * قد فارقت هذيتها أوائلها
 وأنت سرسورها وسأنسها * فهل على الحق أنت قاسرها
 أدب رجالا رأيت سيرتهم * حالف حكم الكتاب سائرها
 وأمدد الى الناس كف مرحلة * نسد منهم بها مفاقرها
 أمكك المدل إذ هممت به * وواقفت مدّه مقاديرها
 وأصر الناس قصد وجههم * وملكت أمة أخايرها
 تُشرع أعناقها اليك اذا ال * بادات يوما جمّت عشايرها
 كم عدنا من نصيحة لك في الد * وقسري عزّت زوايرها

وحرمة قُرْبَتِ أَوَامِرُهَا * منك وأخرى هل أنتَ ذاكرها
 سَمَى رَجَالٍ فِي الْعِلْمِ مَطْلَبُهَا * رَأَتْهَا بِأَكْرَ وَكَرْهَا
 دُونَكَ غِرَاءَ كَالْوَذِيلَةِ لَا * تَفْقَدُ فِي مِلَّةِ سَوَائِرِهَا
 لَا طَمَعًا قَتَبَهَا وَلَا تَطَرَا * لِكُلِّ نَفْسٍ تُؤَامِرُهَا
 سَيَرَهَا اللَّهُ بِالْمَصِيحَةِ وَالْ * حَشِيَّةٍ فَاسْتَدَجَّتْ مَرَاتِهَا
 حَاءُكَ تَحْكِي لَكَ الْأُمُورَ كَمَا * يَشْرُزُّ التَّعَارُ مَا شَرِهَا
 حَمَلَتْهَا صَاحِبًا أَمَا يَقِي * يَطْلُ غُتْبًا بِهَا يُجَاوِرُهَا

ومن حيد شعره قوله :

النَّاسُ أَحْلَاهُمْ شَيْءٌ وَإِنْ جُلُوا * عَلِ نَسَابُهُ أُرُوجٌ وَأَحْسَادُ
 لَهْيِرٍ وَالشَّرُّ أَهْلٌ وَكُلُّوْا بِهَا * كُلُّ لَهُ مِنْ دَوَاعِي مَسْهَادُ
 مِنْهُمْ خَلِيلٌ صَفَاءٌ ذُو مَحَافِظِهِ * أَرَسَى الْوَفَاءُ أَوَاخِيهِ أَوْتَادُ
 وَمُشْعَرُ الْفَيْدِرِ مَعْنَى أَضَالَعِهِ * عَلِ سِرِّهِ عَمَرٌ غِلْهَا نَادُ
 مُشَاكِسٌ حِدَعٌ جَمَّ غَوَائِلُهُ * يُدْنِي الصَّفَاءَ وَيُحْيِي صَرَبَةَ أَلْمَادِي
 يَأْتِيكَ الْغَىٰ وَ أَهْلُ الصَّفَاءِ وَلَا * يَنْفَكُ يَسْمَى بِإِصْلَاحٍ لِإِنْسَادُ

ومن حيد شعر الخريمي قوله :

أَضْحَاكَ صَيْفِي قَلَّ إِزْالَ رَحْلِهِ * وَيُحْصِبُ عَدِي وَالْمَحَلَّ حَدِيدِ
 وَمَا لِحَصْبٍ لِلْأَضْيَافِ أَنْ يَكْثُرَ الْقَرَىٰ * وَلَكِنَّمَا وَحَهُ الْعَكْرِمُ خَصِيبِ

ومن جيد شعره قوله :

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمًا * أَنَّهُ عَدَكَ تَحْقُورٌ صَغِيرِ
 وَتَنَاسِيهِ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ * وَهُوَ عَدُ الْبَاسِ مَشْهُورِ كَبِيرِ

وهو القائل :

وَإِنْ أَشَدَّ الْبَاسِ فِي الْحَشْرِ حَبْرَةً * لَمْ يُورِثْ مَا لِي غَيْرَهُ وَهُوَ كَاسِبِهِ
 كَفَى سَمْعًا بِالْكَهْلِ أَنْ يَتَّبِعَ الْعَبَا * وَأَنْ يَأْتِيَ الْأَمْرَ الَّذِي هُوَ عَاطِبِهِ

ويستجاده له قوله :

ودون السدى في كل قلب نية • لها مصعد وعمر ومعدر سهل
 وودّ الحق في كل بيل يئيله • اذا ما أقصى لو أن ماله جزل
 وأعلم علم ليس بالظن أنه • لكل أمان من ضرائهم شكل
 وأت أخلاء الزمان غاؤهم • قليل اذا الإنسان زلت به النعل
 تزود من الدنيا متاعاً لغيرها • فقد شمرت حذاء وأنصرم الجبل
 وهل أنت إلا هامة اليوم أو غد • لكل أمان من طوارقها التكل

وفي هذا الشعر يقول :

أما لضقد أس إذ تعيرني جمل • سفاهاً ومن أحلاق حارقي الجمل
 وإن تصحى يا جمل أو تجمل • فلا نخر إلا فوقه الدين والعقل
 أرى الناس شرطاً في الحياة ولا يرى • تقبر على قبر علاء ولا فضل
 وما صرتي أب لم تلدني بخار • ولم تشتمل حرم على ولا صكل

وهو القائل :

ما أحسن الغيرة في حينها • وأفسح الغيرة في كل حين
 من لم يزل متها عرسه • ماصبا فيها لرب الطون
 أوشك أن يعريها بالذي • يخاف أن يرزها للعيون
 حسبك من تحصينها وضعها • منك إلى عرس صحيح ودين
 لا تطلع منك على ريسه • فيتبع المقرون جبل القرين

٨ - عبد الله بن طاهر^(١)

كان يَجَلُّ من علو المترلة وعِظَم القَدْر ولُطْف مكان من الخلفاء، يُستَفْتَى به عن التقريض له والدلالة عليه، وأمره في ذلك مشهورٌ عند الخاصّة والعامة، وله في الأدب مع ذلك المحلّ الذي لا يُدْفَع، وفي السماحة والشجاعة ما لا يقاربه فيه أحدٌ.

وكان أديبا طريها جيّد العناء، نسب إليه صاحب الأغاني أصواتا كثرة أحس فيها وقّلتها أهل الصنعة عنه، وله شعر رائع ورسائل ظريفة، فمن شعره قوله :

نحن قومٌ تُلِينَا الحَسَنُ الثُّعْر * لُ على آتِنَا ثُلَيْنَ الحَدِيدَا
طَوَّعُ أَيْدِي الظُّلَاءِ تَقْتَادُنَا الْعِي * بن وقتاد الطَّعْمَانِ الْأَسْوَدَا
تَمْلِكُ الصَّبِيدُ عَم تَمْلِكَا إِلَي * خُسُ المصُونَاتُ أَهْيَا وَخُدُودَا
تُنْقِي سَحَابَا الْأَسْوَدِ وَتُغْنِي * تَحَطُّ الخُشْفُ حِينَ يُدِي الصَّدُودَا
فَتَرَا يَوْمَ الْعِجْكِيرَةِ أَجْرَا * رَا فِي السَّلِيمِ لَأَغْوَانِي عَيْدَا

أعطاه المأمون مَالٌ مِصْرَ لِسَةٍ، نَحْرَاحَهَا وَصِيَاعَهَا، فَوَهَبَهُ كَلَّةً وَفَرَّقَهُ فِي النَّاسِ وَرَجَعَ صِغْرًا مِنْ ذَلِكَ، فَنَظَرَ المَأمُونُ صَلُّهُ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ يَوْمَ مَقْتَمِهِ، فَأَنشَدَهُ أَيْبَاتَا قَالَهَا فِي هَذَا الْمَعْنَى، وَهِيَ :

(١) هو أبو العباس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن ربيعة كان سيدا نبلا عال المهنة شهبا، وكان المأمون كثير العهد عليه، حس الاتصاف إليه لفته ورعاية لحق والده وما أسلفه من الطاعة في حديثه، وكان واليا على الديور طارح ملك الحزمى على خراسان وأوقع الخوارج أهل ثرية الخراج من أعمال نيسابور وأكثرها فيها الفساد واتصل الخبر بالمأمون صحت إلى عبد الله وهو بالديور بأمره بالخروج إلى خراسان، فخرج إليها وحارب الخوارج وقدم نيسابور في رجب سنة ٢١٥ هـ. وكان المظفر قد أقطع عنها تلك السنة، فلما دخلها مطرت مطرا كثيرا، فقام إليه رجل رازم من حافوته وأشده :

قد نخط الساس في زمامهم * حتى اطلاحت تحت والدهر

عيان في ساحة لنا قدما * فرحنا بالأمير والمطر

قوله الشام والعراق ومصر . وتوفى سنة ٢٤٠ هـ . ونجد ترجمته في ابن حنبلان (ج ١ ص ٣٦٩) والأغانى (ج ١١ ص ١١) .

هَمِي فِدَاؤُكَ وَالْأَعْتَاقُ حَاضِعَةٌ * لِلنَّائِبَاتِ أَيْبًا غَيْرَ مُهْتَضَمٍ
 إِلَيْكَ أَقْلْتُ مِنْ أَرْضِ أَلْتُ بِهَا * حَوَلَيْنِ سَدِّكَ فِي شَوْقِي وَفِي أَلَمِ
 أَقْفُو سَامِيكَ الْإِلَهِ خُصِمْتَ بِهَا * حَلَوَ الشَّرَاكُ عَلَى مِثْلِ مِنَ الْأَدَمِ
 فَكَانَ قَضِي فِيهَا أَيْ تَسَعُ * لِمَا سَنَنْتَ مِنَ الْإِنْعَامِ وَالنِّعَمِ
 وَلَوْ وَكَلْتُ إِلَى سَمَى حَيْثُ بِهَا * لَكِنْ بَدَأْتُ فَلَمْ أَعْمَزْ وَلَمْ أَلَمْ

فضحك المأمون وقال : والله ما نَفِسْتُ عليك مكْرَمَةً قطها ، ولا أَخْدُوهُ حَسَنَ عَدَدِكَ
 دَكْرَهَا ، ولكن هذا شيء إذا عَوَدْتَهُ فَسَكَ انْقَضَتْ ، ولم تقدر على لَمْ شَعْنِكَ وإصلاح
 حالك . وزال ما كان في نفسه .

لَمَّا فَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ مَصْرَ سَوْفَهُ الْمَأْمُونُ خَرَّاجَهَا ، فَصَعِدَ الْمِرْفَ فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَجَازَ بِهَا
 كُلَّهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ أَلْفٍ دِيَارًا أَوْ مَحْوًا ، فَأَتَاهُ مُعَلَّى الطَّائِي وَقَدْ أَعْلَمُوهُ مَا صَنَعَ بِالنَّاسِ
 فِي الْجَوَازِ وَكَانَ عَلَيْهِ وَاحِدًا ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَحْتَ الْمَبْرِ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَمَا مُعَلَّى
 الطَّائِي وَقَدْ بَلَغَ مِنِّي مَا كَانَ مِنْكَ مَعَ جِوَاءِ وَعِلَاطِ ، فَلَا يَغْلُظُنَّ عَلَى قَلْبِكَ ، وَلَا يَسْتَحْفِكُ
 الَّذِي يَلْعَكَ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ :

يَا أَعْظَمَ النَّاسِ عَمَوًا عَدَّ مَقْدِيرَةٍ * وَأَعْظَمَ النَّاسِ عَدَّ الْجُودِ لِلَّهِ
 لَوْ أَصْبَحَ السَّيْلُ يَجْرِي مَاءَهُ دَهْبًا * لَمَّا أَشْرَفْتَ إِلَى خَرِيفٍ يَمْتَحِلُ
 تُقَالِي بِمَا فِيهِ رِقَى الْحَمْدِ تَمْلِكُهُ * وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعَاضَ الْحَمْدَ بِالْعَالِي
 تَفَكُّ بِالْبُسْرَكَفِ السُّمْرِ مِنْ زَمَنِي * إِذَا اسْتَطَالَ عَلَى قَسْوَمٍ بِالْقِلَالِ
 لَمْ تَحْمِلْ كِفْلَكَ مِنْ حُودٍ مُتَحَيِّطٍ * وَمُرْجَفٍ قَاتِلٍ فِي رَأْسِ قَتَالِ
 وَمَا بَنَيْتُ رَجِيْلَ الْخَيْلِ بِلَدِي * إِلَّا عَصَفَنَ مَارْزَاقِي وَأَجَالَ
 إِنْ كُنْتُ مِنْكَ عَلَى مَا مَنَنْتَ بِهِ * فَإِنَّ شَكَرَكَ مِنْ قَلْبِي عَلَى بَالِ
 مَا زِلْتُ مُقْتَضِبًا لَوْلَا جَاهِرَةٌ * مِنْ أَلْسِنِ خُضْنٍ فِي صَدْرِي بِأَقْوَالِ

فضحك صد الله وسر بما كان منه وقال : يا أما السَّمرَاء ، أقرضني عشرة آلاف دينارها
أُسيئتُ أملكها ، فأقرضه فدفعها إليه .

كان موسى بن حاقان مع عبد الله بن طاهر بمصر ، وكان نديمة وجليسه ، وكان له مؤثرا
مقدما ، فأصاب منه معروفا كثيرا وأحازه بمواثر سنية هناك وقبل ذلك ، ثم إنه وجد عليه
في بعض الأمر بجماء وظهور له منه بعض ما لم يحبه ، فرجع حينئذ الى بغداد وقال :
إِنْ كَانَ عَدَاةُ اللَّهِ خَلَانَا * لَا تُبْدَا عُرْفَا وَإِحْسَانَا
حَسْبُنَا اللَّهُ رِضِينَا بِهِ * ثُمَّ عَبَّدَ اللَّهُ مَوْلَانَا

يعنى به المأمون ، وغنت فيه حاريتة وسممه المأمون ، فاستحسسه ووصله وإياها ، فبلغ
ذلك صد الله بن طاهر ، معاذله ذلك وقال : أَحْل ! صنما المعروف الى غير أهله فضاع .
• ولعبد الله ألحان صاعها ، فمنها ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه و شعر أخت
عاصية فإنه صوت نادر جيد صحيح العمل مُزدوج العم ، بين لين وشدة على رسم الحدائق
من القدماء ، وهو :

هَلَا سَقِيمٌ بَنَى سَهْمٌ أَسِيرُكُمْ * نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ذِي غُلَّةٍ صَادِي
الطاعسُ الطعمةُ الجلاءُ يتبعها * مُصْرَجٌ بَعْدَ مَا جَادَتْ بِإِزْبَادٍ
ومن غنائه أيضا :

رَاحَ صَحْبِي وَطَاوَدَ الْقَلْبَ دَاءُ * مِنْ حَبِيبِ طَلَابُهُ لِي عَاءُ
حَسَنُ الرَّأْيِ وَالْمَوَاعِيدِ لَا يُلْسِنِي لَثَى * مِمَّا يَقُولُ وَفَاءُ
مَنْ تَعَزَّى عَنِ يَحِبِّ فَإِنِّي * لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ عَنْهُ عَزَاءُ

ما قيل في هجاء الأمين وورثانه

قيل في هجائه :

لم نَجِّكَ لِمَاذَا لَطَمْتَ • يَا أبا موسى وَتَرَوِجُ اللَّعْنَ
 وَلِئِنَّكَ انْخَسَ وَأَوْقَاتُهَا • حَرَصًا مِنْهَا عَلَى مَاءِ الْعَنْبِ
 وَتَشْيِيفِ أَمَا لَا أَحْكِي لَهُ • وَعَلَى كَوْنِ لَا أَخْشَى الْعَطَشِ
 لَمْ تَكُنْ تَصْرِفُ مَا حَذَّ الرِّصَا • لَا وَلَا تَعْرِفُ مَا حَذَّ الْغَضَبِ
 لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ لِلْكَ وَلَمْ • تُعْطِكَ الطَّاعَةَ بِالْمَلِكِ الْعَرَبِ
 أَيُّهَا الْبَاكِ عَلَيْهِ لَا بَكَتْ • عَيْنٌ مِنْ أَمْنِكَ إِلَّا لِلْعَجَبِ
 لَمْ نَجِّكَ إِلَّا عَرَصْنَا • لِلْعَانِيَةِ وَطُورًا لِلْسَّلْبِ
 وَلَقُومٍ صَيَّرُوا أَعْدَاءَ • لَمْ يَدُ عَلَى الرَّأْسِ الذُّبِ
 فِي عَذَابٍ وَحِمَارٍ مُنْهَدٍ • سَدَّدَ الطُّرُقَ فَلَا وَحَةَ طَلَبِ
 زَعَمُوا أَمَكُ مِنْ حَاشِرٍ • كَلَّ مِنْ قَدْ قَالَ هَذَا قَدْ كَذَّبَ
 لَيْتَ مِنْ قَدْ قَالَهُ فِي وَحْدَةٍ • مِنْ حَمِيعِ دَاهِيٍّ حَيْثُ ذَهَبَ
 أَوْحَى اللَّهُ عَلَيَا قَتْلَهُ • فَاذَا مَا أَوْجَبَ الْأَمْرَ وَجَبَ
 كَانَتْ وَاتَّقِ عَلَيْنَا قِتَّةً • غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَكَتَبَ

وقال صد الرحمن بن أبي الهذاهد يرثيه :

يَا غَرِبُ جُودِي قَدْ بَتَّ مِنْ وَدِيهِ • فَقَدْ قَدَمَا الْغَزِيرَ مِنْ دِيَمِهِ
 أَلَوْتَ بَدَنِيَاكَ كَفُّ نَائِبَةٍ • وَصِرْتَ مُقْعَى لِسَا عَلَى يَقْمِهِ
 أَصْبَحَ لِلْوَتِّ عِنْدَنَا قَلَمٌ • يَصْحَكُ بَيْنَ الْمَوْنِ مِنْ عِلْمِهِ
 مَا أَسْتَنْزَلْتَ دَرَّةَ الْمَوْنِ عَلَى • أَكْرَمَ مِنْ حَلٍّ فِي ثَمَرِهِ رِيحِهِ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ • تَقْصُرُ أَيْدِي الْمُلُوكِ عَنْ شِمَمِهِ

يَشَقُّ عَنْ نوره دُبْحَى ظَلَمَهُ * يَشَقُّ عَنْ وَجْهِهِ سَنَا قَسْر *
زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ مِنْ جَوَابِهَا * اذْ أُولِعَ السَّيْفُ مِنْ نَيْجِ دَمِهِ *
مَنْ سَكَتَ نَفْسُهُ لِمَصْرَمَةٍ * مِنْ عُمِّ النَّاسِ أَوْ ذَوَى رَجَمِهِ *
رَأَيْتُهُ مِثْلَ مَا رَأَاهُ بِهِ * حَتَّى تَذُقَ الْأَمْرَ مِنْ سَقَمِهِ *
كَمْ قَدْ رَأَيْنَا عَزِيزًا مَمْلُوكَةً * يُقَالُ عَنْ أَهْلِهِ وَعَنْ خَدَمِهِ *
يَا مَلِكًا لَيْسَ عِنْدَهُ مَلِكٌ * نَحْنُ الْأَنْبِيَاءُ فِي أَمَمِهِ *
حَادَّ وَحَى الَّذِي أَقْبَتَ بِهِ * نَحْنُ غَزِيرُ الْوَكَيْفِ مِنْ دَيْمِهِ *
لَوْ أَهْجَمَ الْمَوْتُ عَنْ أَحَى يَقِيَةٍ * أَسْوَى فِي الْعِزِّ مُسْتَوَى قَلْبِهِ *
أَوْ مَلِكٍ لَا تَرَامُ مَطْوَتُهُ * إِلَّا مَرَامَ الشَّنِيمِ فِي أَجَمِهِ *
حَلَدَكَ الْعِزُّ مَا سَرَى سَدَفٌ * أَوْ قَامَ طِفْلُ الْعَشَى فِي قَدَمِهِ *
أَصْبَحَ مُلْكُكَ إِذَا أَتَرْتَهُ بِهِ * يَفْرَعُ سَنَ الشَّقَاةِ مِنْ نَدَمِهِ *
أَتَرْدُو السَّرِيشَ فِي عِدَاكَ كَمَا * أَتَرَى فِي عِلْدِهِ وَفِي إِمَامِهِ *
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ صَبْرَةَ تَلَيْتَ * لَخَيْرٌ دَائِعُ دَعَاةٍ فِي حَرَمِهِ *
مَا كُنْتُ إِلَّا لِحُكْمِ ذِي حُلْمٍ * أَوْ لِحُكْمِ بَابِ السَّرُورِ فِي حُلْمِهِ *
حَتَّى إِذَا أَطْلَقْتَهُ رَقْدَتُهُ * عَادَ إِلَى مَا أَعْتَرَاهُ مِنْ مَدَمِهِ *

وقال أيضا يرثيه :

أَقُولُ وَقَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْفِرَارِ * مُسْقِيتِ الْغَيْثِ يَا قَهْصَرَ الْقَرَارِ *
وَمَتَكَ يَدُ الزَّمَانِ بِسَهْمِ حَيٍّ * فَصِرْتَ مُتَوَحًّا بِدُخَانِ نَارِ *
أَيْنَ لِي عَنْ جَمِيعِكَ أَيْنَ حَلَوَا * وَأَيْنَ مِزَارِهِمْ بَعْدَ الْمَزَارِ *
وَأَيْنَ مُحَمَّدٌ وَأَيْنَ آلِهِ مَالِي * أَرَى أَطْلَالَهِمْ سُودَ الدِّيَارِ *
كَأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْتَسُوا بِأَنْبِيَسِ مُلْكٍ * يَطْوِلُ عَلَى الْمُلُوكِ بِخَيْرِ جَارِ *
إِمَامٌ كَانَ فِي الْحَدَثَانِ عَوْنًا * لَنَا وَالْغَيْثُ يَمْسَحُ بِالْقَطَارِ *

لقد ترك الزمانُ بى أبيه * وقد عمرتهم سُود البحار
أضاعوا شمسهم جهرت بحس * فصاروا فى الظلام بلا نهار
وأحلوا عنهم قرا سيرا * وداسَتْهمُ خيولُ بنى الشَّار
ولو كانوا لهم كموا ومثلا * اذا ما تُوجوا تيجانَ عار
ألا بآب الأمامُ وآرثاه * لقد صيرم الحشى منابهار
وقالوا الخلدُ بيع فقلتُ دُلا * يصربنا يمينه الى صفار
كذلك الملك يُتبع أوليه * إذا قُطِعَ القرار من القرار

وقال مُقدِّس بن صَبِيح يرثيه :

خليل ما أُنْتُكَ به الخطوبُ * فقد أعطاك طاعته النجيب
تدلَّت من شماريح المسايا * مَنّايا ما تقوم لها القلوبُ
خلالَ مقابرِ البستانِ قر * يُحاوِ قمره أعمدُ غريب
لقد عظمت مصيبتُه على من * له فى كل مَكْرُمة نصيب
على أمثاله العبراتُ تُدرى * وتُنتك فى مآئمه الجيوبُ
وما أدخرتُ زُبيدة عه دما * تُحص به النسيبة والنسيب
دعوا موسى أبنه لكاه دهر * على موسى أبنه دخلَ الحزيبُ
رايتُ مَشاهدَ الخلفاءِ مه * خلاء ما بساحتها يُجيبُ
لَينِكَ أنى كهلٌ عليه * أذوبُ وى الحشى كَيدُ تدوبُ
أصِيبَ به البعيدُ نَحَرَ حزنًا * وطابَ يومه فيه المرِيبُ
أبأدى من بطون الأرضِ شخصًا * يحسركه النداءُ وما يُجيبُ
لئن نَمَتِ الحروبُ اليه نفسًا * لقد لَحمتُ بمصرعه الحروبُ

وقال خزيمة بن الحزن يرثيه على لسان أم جعفر :

لخير أمامٍ قام من خير عَصَر * وأفضل سارمٍ فوق أعوادٍ منبر
لوارثٍ علم الأولين ومهمهم * وللك المأمون من أم جعفر
كُتِبَتْ وعِي مُسْنَهْلٌ دموعها * اليك ابن عمي من جفوني ومهجري
وقد مَتْنِي ضُرٌّ وذلٌّ كآبِيَة * وأرق عيني يا ابن عمي تفكرى
وهِمْتُ لِمَا لاقَيْتُ بعد مصابه * فأمرى عظيم مُنْكَرٌ جدُّ مُنْكَر
سأشكو الذى لاقَيْتُهُ بعد فقدته * اليك شكَاة المستهام المُقَهَّر
وأرجو لما قد مَرَّ بى مذ قدَدْتُهُ * فانت لبنتى خير رت مُغَيَّر
أتى طاهر لاطهر الله طاهرا * فما طاهر فيما أتى بِطَهِر
فأخرجنى مكشوفة الوحه حاسرا * وأنتَ أموالى وأحرق أدري
يَعِزُّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيْتُهُ * وما مَرَّ بى من ناقص الخلقِ أهور
فان كان ما أسدى أمر أمهته * صَبَرْتُ لأمرٍ من قدير مُقَدَّر
تذكر أمير المؤمنين قرايى * فديتُك من ذى حرمة مُتَدَكَّر

وقال أيضا يرثيه :

سبحان ربك رب العزة الصمد * ماذا أصبأ به فى صُبْحَةِ الأَحَد
وما أصيب به الإسلامُ قاطلة * من التَّصْمُصِ فى رُكْنَيْهِ والأَوْد
مَنْ لَمْ يُصَبْ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ * يُصْبِحْ بِمَهْلَكَةِ وَالْمُ فى صُعد
فقد أصبأ به حتى تَبَيَّنَ فى * عقلٍ ودِينٍ ودُنْيَاى وفى جَسَدِى
يا لَيْلَةً يَسْتَكِي الإسلامُ مُنْتَهَا * والعالمون جميعا آخر الأَبَد
عَدَرْتُ بِالْمَلِكِ الميمونِ طائرُهُ * وبالإمام وبالضَرْفَةِ الأسد
سَارَتْ إِلَيْهِ المُنَايَا وهى تُرْهِبُهُ * فَوَاحَتْهُ بأَوْغَادِ ذَوَى عَدَد
بُسُوحِينَ واغْتَامَ يَقُودُهُمْ * قُرَيْشٌ بِالْبَيْضِ فى قُلُوصِ مِنَ الزُّرْد

فصادفوه وجيدا لا يُمين له • عليهم غائب الأنصار بالمد
 بغزوه المنايا غير مُتَّنع • قردا يالك من مُنْسِلِم فرد
 يلقي الوجوه بوجه غير مُبْتَدَل • أبهى وأتقى من القومية الجسد
 واحمررتا وقريش قد أحاط به • والسيف مُرتعد في كف مُرتعد
 ما تحرك بل ما زال متعصبا • منكس الرأس لم يديء ولم يعد
 حتى اذا السيف وافى وسط مفرقه • أذنته عنه يدها فل مُتَّعد
 وقام فاحتقت كعاه لئنه • كصيف شرس مستسل ليد
 فاجتزته ثم أهوى فاستقل به • للأرض من كف ليت مُحرج حرد
 مكاد يقتله لو لم يُكَاثره • وقام مقلتا مه ولم يكاد
 هذا حديث أمير المؤمنين وما • تقصت من أمره حروا ولم أزد
 لا زلت أندبه حتى المات وإن • أخى عليه الذى أخنى على لبد

وذكر عمر بن شبة أن محمدا بن أحمد الهاشمي حدثه أن لبابة أبة على بن المهدي قالت

اليتين الآتين وقيل أهما لابنة عيسى بن جعفر وكانت مُملكة بمحمد :

أبيك لا للنعم والأنس • بل للعالي والرحم والثرس
 أكنى على هالك بجمعته • أرملنى قل ليلة العرس

هجاء يحيى بن أكرم

ومذاك في المجلد الأول أن نذكر مثلاً من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى أكرم، وما هو ذا :

أَرْزَقَهُ تَرْجُ الْمَوَى وَسِدْمُهُ * وَمَلَّهَ الْحُفَّ فَاتِ يَأْمُهُ
 طَوْرًا يُعَانِيهِ وَطَوْرًا يَنْتُمُهُ * مِثْلَ الْحَرِيقِ فِي الْحَشَا يُصْرَمُهُ
 فَنَاصِتِ الْعَيْبِ بَدَمْعِ تَسْجُمُهُ * نَمَتْ عَلَيْهِ كُلُّ شَوْقٍ يَكْتُمُهُ
 وَبَاحَ الْحَبِّ الَّذِي يُجَيِّجُهُ * وَبَاتَ وَالْقَلْبُ يُسَايِ هِمَمُهُ
 مِنْ لَحَبٍ قَدْ تَرَاهُ يَرْجُمُهُ * أَصْبَحَ هَالِئًا غَارَ أَعْمُهُ
 طَالَ تَصَانِيهِ وَطَالَ سَقَمُهُ * وَبَلَى الْجِسْمَ وَرَقَّتْ أَعْظَمُهُ
 يَنْهَدُنِي أَقَّةٌ عَلَى مَنْ يَظْلُمُهُ * بِمَنْعِهِ طَعْمَ الْكُورِ وَيَحْرِمُهُ
 وَأَهْلًا لَهُ يَصْرِمُ مَنْ لَا يَصْرِمُهُ * أَصْبَحَ هَذَا الدِّينَ رَتًّا رِثْمُهُ
 عَطَّلَهُ الْجَوْرُ وَطَالَ قِدْمُهُ * تَحْتَ مِنَ الْجَوْرِ عَلَيْهِ دِيمُهُ
 قَادَ مَعْنَى رَنْعِهِ وَأَرْثَمُهُ * إِلَّا بَقَايَا قَوْمِهِ وَجُمُهُ
 أَوْطَنَهُ الْجَوْرُ فَاحْضَى مَعْلَمُهُ * بَرُودٌ بِهِ شَاؤُهُ وَصَمُّهُ
 مَنْ يَنْهَدُ الْجَوْرَ مَنَحْنُ مَعْلَمُهُ * أَنْوَكُ قَاصٍ فِي السَّلَادِ نَعْلَمُهُ
 يَقُولُ حَقًّا لَا تُمَيِّتْ تَرْجَمُهُ * مَدَّ وَلَى الْحَكَمِ أُبَيْعَ حَرَمُهُ
 وَأُتْهِمْتُ مِنَ الْقَضَاءِ حُرْمُهُ * وَأَضْطَرَبَتْ أَرْكَانُهُ وَدِعْمُهُ
 وَاقَّةٌ بَيْنِيهِ وَنَحْنُ نَهْدِمُهُ * يَا لَيْتَ يَحْيَى لَمْ يَلِدْهُ أَكْثَمُهُ
 وَلَمْ تَطَأْ أَرْضَ الْعِرَاقِ قَدْمُهُ * مَلْعُونَةٌ أَخْلَاقُهُ وَشَيْمُهُ^(٢)

(١) أطرا ما كتبه من يحيى بن أكرم في المجلد الأول (ص ٤٤٠) . (٢) حذفاً من هذا البيت

أربعة أبيات رأينا أنها تاتي الآداب العامة .

واقع الله لقد حلّ دمه * لو أن للدين عمادا يدعّمه
 يسيل عنه الميل أو يقوّمه * لكان قد رنّ عليه مائمه
 أرجو ويقصّي الله لا يسألّه * من وجهه هذا ولكن يقصمه
 * بالسيف إذ حلت عليه قممه *

وصف ثورة بغداد وحريقها

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتحرير وفتنة شعواء وقتل ودماء،
فانا ترك الكلمة في ذلك لشعراء ذلك العصر .

قال الأعمى يصف دمار الحرب :

تَهْطَلَتِ الْأَرْحَامُ بَيْنَ الْعَشَائِرِ * وَأَسْلَمَهُمْ أَهْلُ التَّقَى وَالْبَصَائِرِ
فَإِنَّكَ أَنْتَقَامُ اللَّهِ مِنْ حَلْفِهِ بِهِمْ * لَمَّا أَحْتَرَمُوهُ مِنْ رُكُوبِ الْبُكَائِرِ
فَلَا نَحْنُ أَظْهَرْنَا مِنَ الذَّنْبِ تَوْبَةً * وَلَا نَحْنُ أَصْلَحْنَا فَسَادَ السَّرَائِرِ
وَلَمْ نَسْمَعْ مِنْ وَاعِظٍ وَمَذَكَّرٍ * فَبَتَحَّحَ يَا وَغْظُ بَايَ وَأَمِيرِ
فَأَيْدِيكَ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا تَهْطَلَتْ * عَرَاهُ وَرَبِّي ضَرْبُهُ كُلَّ كَافِرِ
فَأَصْبَحَ بَعْضُ النَّاسِ يَقْتُلُ مَعْظَمَهُمْ * مِنْ يَرِبٍ مَقْهُورٍ عَزِيزٍ وَقَاهِرِ
وَصَارَ رِئِيسُ الْقَوْمِ يَحْمِلُ هَمَّهُ * وَصَارَ رِئِيسُ فَيْهَمٍ كُلِّ شَاطِرِ
فَلَا فَاجِرَ لِلْبَرِّ يَحْفَظُ حَرَمَهُ * وَلَا يَسْتَطِيعُ الْبَرُّ دَفْعًا لِمَاجِرِ
تَرَاهُمْ كَأَمْثَالِ الدَّهَابِ رَأَتْ دَمًا * فَأَمَّتْهُ لَا تَلَوَّى عَلَى زُبُرِ زَاجِرِ
وَأَصْبَحَ فُسَّاقُ الْقَبَائِلِ بَيْنَهُمْ * تَسْلَى عَلَى أَقْرَانِهَا بِالْخَنَاجِرِ
فَأَبَكَ لِقَتْلَى مِنْ صَدِيقِي وَمِنْ أَح * كَرِيمٍ وَمِنْ جَارِ شَعِيقِي مُجَاوِرِ
وَوَالِدَةٍ تَبْكِي بِمُزْنٍ عَلَى أَنَّهَا * فَيَكِي لَهَا مِنْ رَحْمَةٍ كُلِّ غَاوِرِ
وَذَاتٍ حَلِيلٍ أَصْبَحَتْ وَهِيَ أَيْمٌ * وَتَبْكِي عَلَيْهِ بِالْدمُوعِ الْبُؤَادِرِ
تَقُولُ لَهُ قَدْ كُنْتَ عِزًّا وَنَاصِرًا * فَفَتَّيْبٌ عَنِ الْيَوْمِ عَزَى وَنَاصِرِ
وَأَبَكَ لِإِحْرَاقِ وَهْدَمِ مَنَارِلِ * وَقَتْلِ وَانْهَابِ اللَّهِى وَالْفَخَائِرِ

وإبراز ربات الخلدور حواسرا * نخرجن بلا ثمن ولا بمأز
 تراها حيارى ليس تعرف مذهباً * نوافر أمثال الظباء النواصر
 كأن لم تكن بعدد أحسن منظراً * وملهى رآته عين لآله وناظر
 على هكنا كانت فأدفع حسنها * وبدد منها التملح حكم المقادر
 وحل بهم ماحل بالناس قبلهم * فاضفوا أحاديثاً لبائ وحاضر
 أبعداً يا دار الملوك ومختمى * صروف المايا مستقر المنابر
 وياجنة الدنيا ومطلت الغنى * ومستند الأموال عند الصرائر
 أبني لا ابن الدين عهدتهم * يحلون في روض من العيش زاهر
 وابن ملوك في المواكب تقتدى * نُسبته حنا بالجور الزواهر
 وابن القصة الحاكون برأهم * لورد أمور مشكلات الأوامر
 أو القائلون الساطقون بحكمة * ورصف كلام من خطيب وشاعر
 وابن صراح للوك عهدتها * من حرفة فيها صوف الجواهر
 ترض بماء المسك والورد أرضها * يفوح بها من بعد ريح الجواهر
 وروح الندامى فيه كل عشيّة * الى كل قباض كريم العناصر
 وابن قيات تستجيب لغنمها * اذا هو لبها حين المراسر
 وابن الملوك الفر من آل هاشم * وأشياهم فيها اكتفوا بالمعاذر
 يروحون في سلطانهم وكانهم * يروحون في سلطان بعض العشائر
 يحادل عما نالهم كبرائهم * فنالتهم بالكره أيدى الأصاغر
 فأقسم لو أن الملوك تأصروا * لزلت لها خوقاً يقاب الجواهر

وقال عمرو بن عبد الملك الوراق يبكى بغداد ويهجو طاهرا ويمرض به :

من ذا أصابك يا بغدادُ بالعينِ * ألم تكوني زمنا قُترة العينِ
 ألم يكن فيك أقوامٌ لم شرف * بالصالحات والمعروف يلقونِ
 ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم * وكان قريهمُ زينا من الرينِ
 صاح الزمانُ بهم بالين فاقترضوا * ما ذا الذي جعلتني لوعة البينِ
 استوعق الله قوما ما ذكرتهمو * ألا تحسرماء العين من عيني
 كانوا ففرقهم دهرٌ وصدهم * والذهب يصدع ما بين الفريقينِ
 كم كان لي مُسعد منهم على زمني * كم كان منهم على المعروف من عونِ
 لله در زمان كان يبعسا * أين الزمان الذي ولّى ومن أينِ
 يا من يُحترَب بغدادا ليعمرها * أهلكَت هسك ما بين الطريقينِ
 كانت قلوبُ جميع البائس واحدة * حيا وليس يكون العين كالذينِ
 لما استنبهتهم فرقتهم فرقا * والناس طرأ جميعا بين قليلينِ

ولبعض هتيان بغداد :

بكت دما على بغداد لما * فقدت حضارة العيش الأنينِ
 تبذلنا هموما من سرور * ومن سعة تدلنا بضيقِ
 أصابتها من الحساد عينُ * فافت أهلها بالمتجيقِ
 قومٌ أحرقوا بالنار قسرا * وباعة تسوح على عريقِ
 وصاحبةٌ تُسادي وأصباحا * وما كية لفقدان الشفيقِ
 وحوراء المدام ذات دَل * مضمعة المجاسد بالخلوقِ
 تميز من الحريق الى اتهاپ * والدعا يفر الى الحريقِ

وسَالِبَةُ الْغُرَالَةِ مُقْلَتِيهَا * مَصَاحِكُهَا كَلَالَةُ الْبُرُوقِ
 حَيَارَى كَالْمَدَايَا مُبْعِكَرَاتِ * عَلِيمِنَ الْفَلَاكِدِ فِي الْحُلُوقِ
 يُنَادِينَ الشَّغِيقَ وَلَا شَغِيقُ * وَقَدْ فُقدَ الشَّعِيقُ مِنَ الشَّغِيقِ
 وَقَوْمٌ أَنْعَرَجُوا مِنْ طَلِّ دُنْيَا * مَتَاعُهُمْ يُبَاعُ بِكُلِّ سُوقِ
 وَمُفْتَرِثٌ قَرِيبُ الدَّارِ لَمَلَى * لَا رَأْسَ بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ
 تَوَسَّطَ مِنْ قِتَالِهِمْ جَمِيعَا * مَا يَدْرُونَ مِنْ أَى الْفَرِيقِ
 فَلَا وَلَدٌ يُقِيمُ عَلَى أَبِيهِ * وَقَدْ هَرَبَ الصَّدِيقُ مِنَ صَدِيقِ
 وَمَهْمَا أَتَى مِنْ شَيْءٍ تَوَلَّى * فَإِنِ ذَاكَرَ دَارَ الرَّبِيقِ

بيان المصادر العربية والافرنجية الهامة . التي عولنا عليها في المراجعة لكتاب عصر المأمون

ثبت لك هنا الهائم من مراجع الكتاب هذا دواوين الشعراء ومسجات اللغة
التي أشرنا اليها في مواضعها من الكتاب وهوامشه . وهي :

المصادر باللغة العربية .

تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط .
تاريخ المشاركة لصليبا بن يوحنا ،
مخطوط .
تاريخ بغداد لمطيط العبادي ،
مخطوط .
تاريخ بغداد لاس طيفور (الجزء السادس
طبعة أوروبا) .
تاريخ التشرح الاسلامي للرحوم
الخصري بك ، طبعة مصر .
تاريخ الآداب السلطانية والدول
الاسلامية لابن طاطا ، طبعة
أوروبا .
تاريخ العجوم الزاهرة لابن تغريبردي ،
طبعة أوروبا .
السنن والتاريخ لأبي زيد اللحى ، طبعة
باريس سنة ١٨٩٩ «أرنست لرو» .
الآثار الباقية للبيروني ، طبعة ليبسك .

تاريخ الطبري ، طبعة مصر وليد .
تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبعة مصر .
تاريخ مروج الذهب للسعودي ، طبعة
مصر وباريس .
تاريخ اليعقوبي ، طبعة ليدن وباريس .
المسيو هتسا .
تاريخ أبي الفدا لللك المؤيد . طبعة
الأستانة .
تاريخ علماء الأندلس لأبي الوليد عداقة
محمد بن يوسف ، طبعة أوروبا .
تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبعة مصر .
تاريخ العبر والمبتدا والخبر لابن خلدون ،
طبعة مصر .
الأخبار الطوال لأبي حنيفة البينوري ،
طبعة ليدن .
نظم الجوهر لابن البطريق ، طبعة
أكسفورد سنة ١٦٥٩ للشتيرق
ادوار بوكوك .

- مختصر تاريخ الدول لأبي العرج الملقب،
طبعة بيروت .
- تاريخ الصحاق، طبعة أوروبا .
- فتوح الشام للواقدي، طبعة مصر .
- نشوار المحاصرة وأحار المداكرة، طبعة
مصر .
- ولاه مصر وقصائنها للكندي، طبعة
بيروت .
- مختصر أحار الخلفاء لاس الساعى،
طبعة مصر .
- كشف الطون لحامى خليفة، طبعة
الأستانة وليسك ومصر .
- المستطرف للإبشيى، طبعة بولاق .
- معجم البلدان لياقوت الحموى، طبعة
ليسك ومصر .
- المرمر للسيوطى، طبعة بولاق .
- الأحكام السلطانية لساوردى، طبعة
أوروبا .
- أعلام الناس للاتيديدى، طبعة مصر .
- كتاب المعارف لاس قتيبة، طبعة أوروبا .
- معجم الأدياء لياقوت الرومى، طبعة
مصر وأشراف مرحليوث .
- الفهرست لابن الديم، طبعة ليسك .
- طبقات الأئم لابن صاعد، طبعة بيروت .
- طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة،
طبعة مصر .
- تراجم الحكماء للقفطى، طبعة مصر .
- طبقات الأدياء لعبد الرحمن الأنبارى،
طبعة مصر .
- وفيات الأعيان لابن حلكان، طبعة
مصر .
- وفات الوفيات لابن شاكر الكتبي،
طبعة مصر .
- الملل والجل للشهرستانى، طبعة مصر .
- ألف ماء لوصف البلوى، طبعة مصر .
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري،
طبعة دار الكتب .
- فتوح البلدان للبلاذرى، طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لابن العقيبة الحمدانى،
طبعة ليدن .
- كتاب البلدان لليعقوبى، طبعة ليدن .
- مسالك الممالك للاصطخرى، طبعة
ليدن .
- المسالك والممالك لابن حوقل، طبعة
ليدن .
- أحسن التقاسيم للقدسى، طبعة ليدن .
- المسالك والممالك لابن حرداذبه، طبعة
ليدن .
- الأعلاق الفيسه لابن رسته، طبعة ليدن .
- حسن المحاضرة للسيوطى، طبعة مصر .
- بلوغ الأرب فى أحوال العرب للأتوسى
طبعة بغداد .
- مقبلة الياقة هوميروس تعريب البستاني
طبعة مصر .

- كتاب الكشكول للعامل، طبعة مصر.
- سراج الملوكة للطوطوشى، طبعة مصر.
- كتاب الحراج لقدامه بن جعفر، طبعة لندن.
- كتاب الخراج لأبى يوسف، طبعة بولاق.
- تاريخ الوزراء المنسوب للصولي، طبعة بيروت.
- أشهر مشاهير الاسلام، للرحوم رفيع المعلم بك، طبعه مصر.
- كتاب نفع الطيب، طبعة مصر وأوربا.
- مفاتيح العلوم للحوارى، طبعة مصر.
- معيد العلوم للحوارى، طبعة مصر.
- كتاب المواهب الفتحية للرحوم الشيخ حمزة فتح الله، طبعة مصر.
- كتاب السيرة لابن هشام، طبعة مصر.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة مصر.
- خطط الشام للاستاذ محمد كرد علي، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة المشرق، طبعة بيروت.
- مجموعة مجلة المجمع العالمى، طبعة دمشق.
- مجموعة مجلة الهلال، طبعة مصر.
- مجموعة مجلة المقتطف، طبعة مصر.
- معين فصول وساحات من المجلة الأسبوعية.
- حديث الأربعاء للدكتور طه حسين، طبعة مصر.
- حضارة الاسلام فى دار السلام لمجمل مدكور، طبعة مصر.
- كتاب الأغانى للاصبهانى، طبعة بولاق والساسى.
- الجزء الأول من كتاب الأغانى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- هامة الأرب، طبع مطبعة دار الكتب المصرية والنسخة الفتوحى رايه بالدار.
- صحح الأعشى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب التاج المنسوب للماحط، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الأملى لأبى على القالى، طبع مطبعة دار الكتب المصرية.
- كتاب الكامل للبرد، طبعه مصر.
- كتاب البيان والتهيين للماحط، طبعه مصر.
- العمدة لاس رشيق، طبعة مصر.
- كتاب المحاسن والمساوى للبيهقي، طبعه فردك شوالى.
- كتاب المحاسن والاضداد للماحط، طبعه لندن.
- كتاب البخله للماحط، طبعة مصر.
- كتاب الحيوان للماحط، (نسخة فتوحى رايه محفوظه بدار الكتب المصرية).

حلبة الكيت، طبعة بولاق .
 خزائن الأدب لابن حجة الحموي، طبعة
 بولاق .
 خزائن الأدب للنفدادي، طبعة بولاق .
 محاضرات الفلسفة لستلانه بالجامعة
 المصرية .
 محاضرات علم العلك بالجامعة المصرية
 للسيور كولو نليو، طبعة روما .
 مفتاح السعادة ومصباح السيادة
 لطاشكيري زاده، طبعة
 حيدر آباد .
 محاضرات الشيخ عبد الوهاب البحار
 بالجامعة المصرية .
 محاضرات المرحوم الشيخ محمد المهدي
 بالجامعة المصرية .
 محاضرات الأستاذ الخصري بك في تاريخ
 الأمم الإسلامية، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الخصري بك في تاريخ
 الدولة الأموية، طبعة مصر .
 التمدن الاسلامي للرحوم جورجى بك
 زيدان، طبعة مصر .
 تاريخ آداب اللغة العربية للرحوم
 جورجى بك زيدان، طبعة مصر .
 طبقات ابن سعد، طبعة أوروبا .
 طبقات الشافعية للسبكي، طبعة مصر .
 المشور والمظلوم لابن طيفور .
 رسالة بنى أمية للمحافظ، خطية .

منهل الرقاد في علم الانتقاد لقسطاكي
 الحمصي بك، طبعة مصر .
 محاضرات الأستاذ الاسكندري
 المدرس بدار العلوم، طبعة مصر .
 الوسيط للأستاذ الاسكندري المدرس
 بدار العلوم، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للاسناد مصطفى
 صادق الرافعي، طبعة مصر .
 أدبيات اللغة العرسة للرحوم عاطف
 ركيات بك ورهلائه، طبعة مصر .
 مهذب الأعاني للرحوم الخصري بك،
 طبعة مصر .
 ملاحة العرب للدكتور أحمد صيف .
 طبعة مصر .
 الشعر والشعراء لاس قتيبة، طبعة ليدن .
 طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الحمصي،
 طبعة ليدن ومصر .
 كتاب الأدب كجاء لاس الجوري، طبعة
 مصر .
 العقد الفريد لللك السعيد، طبعة مصر .
 العقد الفريد لابن عبد ربه، طبعة
 مصر .
 لطائف المعارف للشمالي، طبعة ليدن .
 عيوب الأحبار لابن قتيبة، طبعة
 دار الكتب وأوروبا .

رسائل البلقاء للأستاذ محمد كرد علي ،
 طبع مصر .
 جمهرة أشعار العرب لأبي زيد ، طبعة
 مصر .
 المفضليات للضبي ، طبعة مصر .
 حاسة البعثة ، طبعة بيروت .
 الصاعتين لأبي هلال العسكري ، طبعة
 مصر .
 الموشى لأبي العلي ، طبعة أوروبا .
 ديوان الحاسة لأبي تمام ، طبعة مصر .
 معاني الأدب وشرحه ، طبعة بيروت .
 مختارات البارودي ، طبعة مصر .
 حياة الحيوان للدميري ، طبعة مصر .
 عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي
 (أجراء منه محفوظة بدار الكتب
 المصرية) .
 العرج بعد الشدة للتونسي ، طبعة مصر .

كتاب الوزراء والكتاب لأبي عبد الله
 محمد بن عبدوس الجهشيارى طبعة
 مينا سنة ١٩٢٦
 كتاب الاشتقاق لابن دريد الأزدي
 طبعة جوتعين سنة ١٨٥٤
 الأوراق للصولي ، خطية .
 مطبوعات تذكاري جيب الإنجليزية
 وخاصة مؤلفات الأستاذين
 مرحليوث و برون .
 زهر الآداب المصرية ، طبعة مصر .
 المشتبه في أسماء الرجال للذهبي ، طبعة
 أوروبا .
 الوافي بالوفيات للصفدي (المخطوط
 .. بدار الكتبة المصرية تحت
 رقم ١٢١٩) .
 أخبار أبي نواس لابن منظور ، طبعة
 مصر .

المصادر الأفرنجية :

- Histoire des Arabes par Cl. Huart: Paris
 Life of Mohamet by Sir W Muir (London)
 The Life and Teachings of Mohammed and the Spirit of Islam by Ameer Ali. (London).
 D. S. Margoliouth: Mohammed and the Rise of Islam. (London) in "Heroes of the Nations' Series"
 H. Lammens "Etudes sur les règnes des Califs Omayyades Moawia 1^{er} et Yasid 1^{er}". (Beyrouth)
 Library of Universal History (N. Y)
 History of Arabic Literature. Cl Huart (London)
 A Literary History of Persia. Ed G Browne. (London)
 A Literary History of the Arabs by R. A Nicholson. (London).
 Short History of the Saracens by Ameer Ali, (London)
 The Caliphate. its rise decline and fall by Sir W. Muir (London).
 Annals of the Early Caliphate by Sir W Muir (London).
 Baghdad during the Abbasid Caliphate by G. le Strange. (Oxford).
 Encyclopaedia of Islam (Luzac)
 Encyclopaedia Britannica. (London)
 La Grande Encyclopédie. Paris.
 The Historians' History of the World by H. S Williams.
 (New York).
 Ency. of Religion & Ethics by I. Hastings (London)
 The History of the Decline and Fall of the Roman Empire by Gibbon. (London)
 The History of Philosophy in Islam by J de Boer translated by Jones. (London).
 Muhammedanische Studien by Ignaz Goldziher, (Halle)
 Histoire des Musulmans d'Espagne Jusqu' à la Conquête de l'Andalusie par les Almoravides by R Dozy. (London).
 Development of Muslim Theology, Jurisprudence and Constitutional Theory by D. B. Macdonald. (London).
 Margoliouth's Works Etc.
 R. Dozy: Supplément aux Dictionnaires Arabes 1927.
 Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen: Hans V. Mzik. (Leipzig).

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٤٩/١٩٢٧/٣١٥٠)

